إنجيل القديس يوحنا

الإصحاح الأول

فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهَ. هَذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللَّهِ. كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ. فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ. وَالنُّورُ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ. كَانَ إِنْسَانٌ مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ اسْمُهُ يُوحَنَّا، هَذَا جَاءَ لِلشَّهَادَةِ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ لِكَيْ يُؤْمِنَ الْكُلُّ بِوَاسِطَتِهِ. لَمْ يَكُنْ هُوَ النُّورَ بَلْ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ. كَانَ النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِياً إِلَى الْعَالَمِ. كَانَ فِي الْعَالَمِ وَكُوِّنَ الْعَالَمُ بِهِ وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ. إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ، وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللَّهِ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ، الَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ بَلْ مِنَ اللَّهِ. وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ مَجْداً كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً. يُوحَنَّا شَهِدَ لَهُ وَنَادَى: «هَذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ عَنْهُ: إِنَّ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي صَارَ قُدَّامِي لأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي». وَمِنْ مِلْئِهِ نَحْنُ جَمِيعاً أَخَذْنَا وَنِعْمَةً فَوْقَ نِعْمَةٍ. لأَنَّ النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ أَمَّا النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيَسُوعَ الْمَسِيحِ صَارَا. اَللَّهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ. اَلاِبْنُ الْوَحِيدُ الَّذِي هُوَ فِي حِضْنِ الآبِ هُوَ خَبَّرَ. وَهَذِهِ هِيَ شَهَادَةُ يُوحَنَّا حِينَ أَرْسَلَ الْيَهُودُ مِنْ أُورُشَلِيمَ كَهَنَةً وَلاَوِيِّينَ لِيَسْأَلُوهُ: «مَنْ أَنْتَ؟». فَاعْتَرَفَ وَلَمْ يُنْكِرْ وَأَقَرَّ أَنِّي لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ. فَسَأَلُوهُ: «إِذاً مَاذَا؟ إِيلِيَّا أَنْتَ؟» فَقَالَ: «لَسْتُ أَنَا». «أَلنَّبِيُّ أَنْتَ؟» فَأَجَابَ: «لاَ». فَقَالُوا لَهُ: «مَنْ أَنْتَ لِنُعْطِيَ جَوَاباً لِلَّذِينَ أَرْسَلُونَا؟ مَاذَا تَقُولُ عَنْ نَفْسِكَ؟». قَالَ: «أَنَا صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: قَوِّمُوا طَرِيقَ الرَّبِّ كَمَا قَالَ إِشَعْيَاءُ النَّبِيُّ». وَكَانَ الْمُرْسَلُونَ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ. فَسَأَلُوهُ: «فَمَا بَالُكَ تُعَمِّدُ إِنْ كُنْتَ لَسْتَ الْمَسِيحَ وَلاَ إِيلِيَّا وَلاَ النَّبِيَّ؟». أَجَابَهُمْ يُوحَنَّا: «أَنَا أُعَمِّدُ بِمَاءٍ وَلَكِنْ فِي وَسَطِكُمْ قَائِمٌ الَّذِي لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. هُوَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي الَّذِي صَارَ قُدَّامِي الَّذِي لَسْتُ بِمُسْتَحِقٍّ أَنْ أَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ». هَذَا كَانَ فِي بَيْتِ عَبْرَةَ فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ حَيْثُ كَانَ يُوحَنَّا يُعَمِّدُ. وَفِي الْغَدِ نَظَرَ يُوحَنَّا يَسُوعَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ فَقَالَ: «هُوَذَا حَمَلُ اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ. هَذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ عَنْهُ يَأْتِي بَعْدِي رَجُلٌ صَارَ قُدَّامِي لأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي. وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ. لَكِنْ لِيُظْهَرَ لإِسْرَائِيلَ لِذَلِكَ جِئْتُ أُعَمِّدُ بِالْمَاءِ». وَشَهِدَ يُوحَنَّا: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الرُّوحَ نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ مِنَ السَّمَاءِ فَاسْتَقَرَّ عَلَيْهِ. وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ لَكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي لأُعَمِّدَ بِالْمَاءِ ذَاكَ قَالَ لِي: الَّذِي تَرَى الرُّوحَ نَازِلاً وَمُسْتَقِرّاً عَلَيْهِ فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ. وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ وَشَهِدْتُ أَنَّ هَذَا هُوَ ابْنُ اللَّهِ». وَفِي الْغَدِ أَيْضاً كَانَ يُوحَنَّا وَاقِفاً هُوَ وَاثْنَانِ مِنْ تَلاَمِيذِهِ. فَنَظَرَ إِلَى يَسُوعَ مَاشِياً فَقَالَ: «هُوَذَا حَمَلُ اللَّهِ». فَسَمِعَهُ التِّلْمِيذَانِ يَتَكَلَّمُ فَتَبِعَا يَسُوعَ. فَالْتَفَتَ يَسُوعُ وَنَظَرَهُمَا يَتْبَعَانِ فَقَالَ لَهُمَا: «مَاذَا تَطْلُبَانِ؟» فَقَالاَ: «رَبِّي أَيْنَ تَمْكُثُ؟». فَقَالَ لَهُمَا: «تَعَالَيَا وَانْظُرَا». فَأَتَيَا وَنَظَرَا أَيْنَ كَانَ يَمْكُثُ وَمَكَثَا عِنْدَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ. وَكَانَ نَحْوَ السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ. كَانَ أَنْدَرَاوُسُ أَخُو سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَاحِداً مِنَ الاِثْنَيْنِ اللَّذَيْنِ سَمِعَا يُوحَنَّا وَتَبِعَاهُ. هَذَا وَجَدَ أَوَّلاً أَخَاهُ سِمْعَانَ فَقَالَ لَهُ: «قَدْ وَجَدْنَا مَسِيَّا» (الَّذِي تَفْسِيرُهُ: الْمَسِيحُ). فَجَاءَ بِهِ إِلَى يَسُوعَ. فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَسُوعُ وَقَالَ: «أَنْتَ سِمْعَانُ بْنُ يُونَا. أَنْتَ تُدْعَى صَفَا» (الَّذِي تَفْسِيرُهُ: بُطْرُسُ). فِي الْغَدِ أَرَادَ يَسُوعُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجَلِيلِ فَوَجَدَ فِيلُبُّسَ فَقَالَ لَهُ: «اتْبَعْنِي». وَكَانَ فِيلُبُّسُ مِنْ بَيْتِ صَيْدَا مِنْ مَدِينَةِ أَنْدَرَاوُسَ وَبُطْرُسَ. فِيلُبُّسُ وَجَدَ نَثَنَائِيلَ وَقَالَ لَهُ: «وَجَدْنَا الَّذِي كَتَبَ عَنْهُ مُوسَى فِي النَّامُوسِ وَالأَنْبِيَاءُ: يَسُوعَ ابْنَ يُوسُفَ الَّذِي مِنَ النَّاصِرَةِ». فَقَالَ لَهُ نَثَنَائِيلُ: «أَمِنَ النَّاصِرَةِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ صَالِحٌ؟» قَالَ لَهُ فِيلُبُّسُ: «تَعَالَ وَانْظُرْ». وَرَأَى يَسُوعُ نَثَنَائِيلَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ فَقَالَ عَنْهُ: «هُوَذَا إِسْرَائِيلِيٌّ حَقّاً لاَ غِشَّ فِيهِ». قَالَ لَهُ نَثَنَائِيلُ: «مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُنِي؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «قَبْلَ أَنْ دَعَاكَ فِيلُبُّسُ وَأَنْتَ تَحْتَ التِّينَةِ رَأَيْتُكَ». فَقَالَ نَثَنَائِيلُ: «يَا مُعَلِّمُ أَنْتَ ابْنُ اللَّهِ! أَنْتَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ!». أَجَابَ يَسُوعُ: «هَلْ آمَنْتَ لأَنِّي قُلْتُ لَكَ إِنِّي

رَأَيْتُكَ تَحْتَ التِّينَةِ؟ سَوْفَ تَرَى أَعْظَمَ مِنْ هَذَا!». وَقَالَ لَهُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً وَملاَئِكَةَ اللَّهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ»

١ – فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَكَانَ الْكَلِمَةُ الله

يفتتح القديس يوحنا إنجيله بهذه الآية ذات الثلاث وصلات المتناسقة والموزونة على موسيقى الشعر العبري. وهي تعطينا صورة عن طابع إنجيل القديس يوحنا بل وعن القديس يوحنا نفسه. ويلاحظ أن في الثلاث الجمل يتكرر الفاعل (الكلمة) كما يتكرر الفعل (كان) الدال على الكينونة وليس على الزمن، وتترابط الجمل بحرف عطف لتنضغط إلى أقل حيز ممكن. ومن هذا التركيب القوي المقصود قصدا، يظهر مقدار الجهد الفكري الذي يبغ أقصى حدود الإجهاد لإبراز أفخم المعاني التي يمكن أن يبلغها الإتساع الفكري البشري، وذلك للتعرف على أسس طبيعة (الكلمة) في علاقته بالزمن، وفي كيانه الذاتي بالله وفي جوهره الإلهي.

كان في البدء، كان مع الله، كان هو الله.

وعندما نستمر في قراءة الأصحاح الأول نجد أن هذه الجمل الثلاث التي تزدحم بها هذه الآية الاولى، جاءت لترد في النهاية وتتوازن مع ثلاث جمل جاءت في الآية ١٤ لحظة التجسد: «وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا»

فالكلمة الذي «كان» (في كينونة دائمة أزلية خارج الزمن) «صار» أي دخل الزمن، والكلمة الذي كان الله (أي في طبيعة الله) «صار جسداً» أي في طبيعة الإنسان، والكلمة الذي كان «عند الله» (حال فى الله) حل بيننا.

وبهذه الآية الاولى وما احتوته من استعلان كامل عن «الكلمة» يكون القديس يوحنا قد وضع أساس إنجيله، وبالتالى دستور الإيمان المسيحي فيما يخص شخص السيد المسيح باعتباره الكلمة المتجسد.

فالسيد المسيح «الكلمة» لم يتخذ شخصيته بالميلاد الجسدي ولا حتى لحظة الخلق. أي أنه ليس مخلوقا ولا محدثاً، بل كان في البدء قائماً منذ الأزل.

والسيد المسيح «الكلمة» لا ينفرد بوجوده من دون الله؛ بل هو كائن في الله.

والسيد المسيح «الكلمة» بظهوره في الجسد لم يكن مجرد إنسان أو نبي. بل هو بطبيعة الله وجوهره، قد تجسد.

وبهذه المؤهلات صار للكلمة المتجسد، أي السيد المسيح، القدرة والسلطان أن يستعلن كل حقائق الله.

فِي الْبَدْءِ:

يتجه القديس يوحنا بهذه اللفظة ἐν ἀρχῇ التى تُنطق بالعبرية (براشيت) إلى الأسم التقليدى عند اليهود لسفر التكوين الذي يبدأ بهذه الكلمة (فى البدء خلق الله) وهذا هو الأسلوب السرى (المستيكى) للقديس يوحنا، أما القصد فواضح، فهو سيتكلم بإنجيله عن الخليقة الجديدة. وبدء الخليقة الجديدة عند القديس يوحنا هو السيد المسيح: «انا هو .. البداية والنهاية»، «انا هو الأول والآخر»، «انا هو الألف والياء» (رؤ ١:٨ و ٢:٨). وبحسب القديس كيرلس الكبير فهو البدء الذى بلا بدء.

و«البدء» فى إنجيل يوحنا ليس هو البدء فى سفر التكوين، لأن بدء سفر التكوين هو الخلق، أى بدء الزمن، أما البدء فى إنجيل يوحنا فهو ما قبل الخلق والزمن والتاريخ والأدراك، وليس قبل الخلق إلا الله.

ولكن القديس يوحنا لم يكتب فى البدء كان الله، لأنه لم يكن بصدد الحديث أو الإعلان عن الله، بل قال «فى البدء كان الكلمة» لأنه سيتكلم حالا عن الخلق الذى تم «بكلمة» الله، ولكن لن يتوقف عن الخلق، كسفر التكوين، بل سيتجاوزه حالا الى الخلاص الذى تم بتجسد «الكلمة». من هنا كان هم القديس يوحنا أن يعرفنا بالكلمة قبل أن

يتجسد، ليستعلن لنا قيمة قيمة وجلال التجسد وعظمة وقوة الخلاص الذى تم. ولكن من أين أتى القديس يوحنا بمفهوم هذا البدء اللازمنى قبل الخليقة.

قطعا ذلك لم يكن من العهد القديم؛ فالعهد القديم وإن كان سجل بدء الخلق، لكنه لم يتعرض لما قبل الخلق. والعهد القديم أضطلع بعمل الكلمة ولم يضطلع بطبيعة الكلمة، ولما تعرض لكلمة الله لم يتعرض لها بوصفها الاقنومي الذاتى المطلق بل كفعل قوة في حدوث الحدث الزمنى، إذ كان «الكلمة» الذاتي المطلق غائبأ غيابا كاملا عن الوعي اليهودى. أشعياء النبي أحس بهذا الغياب إحساسا مؤلماً فقال (حَقّاً أَنْتَ هُوَ إِلَهٌ يَحْتَجِبُ نَفْسَهُ، إِلَهُ إِسْرَائِيلَ الْمُخَلِّصُ- إش ٤٥:١٥).

لذلك نحن نرى، وبالتأكيد، أن تأثير السيد المسيح بجلال مقولاته كان هو المصدر الأساسى فى تكوين فكر القديس يوحنا اللاهوتى، سواء من جهة أقنومية الكلمة الأزلى، أو من جهة مفهوم وجوده قبل الزمن «فى البدء». وإنه من واقع إستعلان السيد المسيح لنفسه أستعلن القديس يوحنا الكلمة، فمرر آيتين ظاهرتين وبارزتين فى أقوال السيد المسيح يتضح أصل ومفهوم «البدء» اللازمنى ليكمله فى إنجيل يوحنا:

الآية الأولى: وَالآنَ مَجِّدْنِي أَنْتَ أَيُّهَا الآبُ عِنْدَ ذَاتِكَ بِالْمَجْدِ الَّذِي كَانَ لِي عِنْدَكَ قَبْلَ كَوْنِ الْعَالَمِ. (يو ١٧:٥)

الآية الثانية: أَيُّهَا الآبُ أُرِيدُ أَنَّ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ أَعْطَيْتَنِي يَكُونُونَ مَعِي حَيْثُ أَكُونُ أَنَا لِيَنْظُرُوا مَجْدِي الَّذِي أَعْطَيْتَنِي لأَنَّكَ أَحْبَبْتَنِي قَبْلَ إِنْشَاءِ الْعَالَمِ. (يو ١٧:٢٤).

«كان الكلمة»:

كان هنا لا تدل على فعل زمني بل على الكينونة الدائمة وهي تخص الوجود اللازمني، وتستخدم للدلالة على الأمور المطلقة أى غير المخلوقة.

فعندما نقول «في البدء كان الكلمة» يعني أن للكلمة كينونة أو كياناً قائماً فى البدء أى فى الأزل. وهنا يتجه الفكر مباشرة إلى التعريف الذى عرّف الله به نفسه لموسى لما سأله هذا عن أسمه، فكان الرد « أهيه الذى أهيه»، وتفسيره حسب ما جاء في طبعة الكتاب المقدس (أكون الذى أكون) والقصد من هذا التعبير واضح غاية الوضوح وهو «أنا الكائن بذاتى، أو كما فى الترجمة الإنجليزية (I am the being) أى أنا الكينونة

فـ «فى البدء كان الكلمة» تعني أن الكلمة كائن منذ الأزل، وهذا يسلمنا مباشرة إلى التعريف الى القول إنه لم يكن بمفرده، بل «كان عند الله». ويلاحظ هنا أنها جاءت «كان» وليس «كانت» لتناسب مونث الكلمة العربية لأن «الكلمة» أصلا فى اللغة العبرية مذكرة = «قول» "Kol" وتُرجمت باليونانية λόγος وهي مذكر ايضاً .

«الكلمة»: اللوغس

«فى البدء كان الكلمة» هذا الإصطلاح العميق المختصر من اين اتى به القديس يوحنا؟

لقد لجأ الشُرّاح في ذلك إلى عدة مصادر، ولكن من المصادر الواضحة امامنا التى مهدت لهذا القديس الرائي نسميته للمسيح «بالكلمة»» مصدرين:

أولاً: سفر الرؤية، اذ سمع باذنيه ما يقوله الروح واصفاً المسيخ وهو متجند للحرب، راكبا على فرس أبيض، دلالة على المقاصد السلامية، وعلى رأسه تيجان كثيرة. رمزاً للنصرة المتعددة المكاسب لحساب الانسان، وعيناه كلهيب نار تذيب القلوب الصخرية، «وله أسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو، وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويُدعى اسمه «كلمة الله» (رؤ ١٩:١٢-١٣)

وهنا يظهر أن أسم «الكلمة» متعاظم الشأن لدى السمائيين، فهو صفة السيد المسيح المحاربة والديانة المتسلطة والقائدة، لأنه يقول فى بقية الآية: «وَكَانَ الأَجْنَادُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ يَتْبَعُونَهُ رَاكِبِينَ خُيُولاً بَيْضَاءَ، وَلاَبِسِينَ كَتَّاناً نَقِيّاً نَاصِعَ الْبَيَاضِ، وَكَانَ يَخْرُجُ مِنْ فَمِهِ سَيْفٌ حَادٌّ لِيَضْرِبَ بِهِ الأُمَمَ وَيَحْكُمَهُمْ بِعَصاً مِنْ حَدِيدٍ، وَيَدُوسَهُمْ فِي مَعْصَرَةِ شِدَّةِ غَضَبِ اللهِ الْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. وَقَدْ كُتِبَ عَلَى ثَوْبِهِ وَعَلَى فَخْذِهِ: مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الأَرْبَابِ» (رؤ ١٩: ١٤-١٦). وهذه الصورة تمثل واقع «الكلمة» لدى السمائيين، والثوب المغموس بالدم علامة أبدية لأنهزام وقهر العدو لأنها تذكار الصليب. فهى شهادة لغلبته على العالم «ثِقُوا: أَنَا قَدْ غَلَبْتُ الْعَالَمَ» (يو ١٦: ٣٣) و «وَهُمْ غَلَبُوهُ بِدَمِ الْحَمَلِ وَبِكَلِمَةِ شَهَادَتِهِمْ.» (رؤ ١٢: ١١)

ولكن يُلاحظ هنا أن أسمه «كلمة الله» يُعبر عن حالة خروج من الله وإرسال للإعلان عن مشيئة الله وتتميمها بقوة واقتدار، فهو اسم «الكلمة» بعد أن أضطلع بالعمل والرسالة، لذلك جاء أسمه «كلمة الله».

أما أسم «الكلمة» فقط الذى كتبه القديس يوحنا فى إنجيله بوحى الروح فهو يعبر عن ما قبل الخروج والأرسال والإعلان عن الله، فهو أسم له كفاءة واستحقاق ذاتى لكل ملئ اللاهوت خلول من عمل أو رسالة.

ثانيا: والمصدر الثانى فى الأكثر أثرا فى تكوين الفكر اللاهوتى للقديس يوحنا بخصوص «الكلمة اللوغس» فهو تشديد السيد المسيح بصور متكررة أنه كلمة الله بصورة ذاتية وشخصية، وأن كلامه الذى يقوله هو «روح وحياة». وبالرجوع للآيات فى نصها اليونانى يظهر بوضوح أن السيد المسيح يعتبر كل ما يقوله هو «اللوغس»، وأنه هو اللوغس أى «الكلمة».

وسنعيد كتابة الآيات فى نصها اليونانى لنرى مدى وضوح حقيقية اللوغس عند السيد المسيح، لأن الترجمة العربية اخطأت وتجاوزت لفظ «اللوغس» المفرد = «كلمة» وجعلته بالجمع «كلام»، فاختفى المعنى.

علاقة اللوغس بالسيد المسيح من واقع كلامه:

«اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ (كلاَمِي) كلمتى وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَلاَ يَأْتِي إِلَى دَيْنُونَةٍ بَلْ قَدِ انْتَقَلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ. (يو ٥: ٢٤)

المعنى ينصب هنا على أن الذى يقبل اللوغس السيد المسيح ويؤمن بالله الذى ارسله يكون له الحياة الأبدية. ومعروف أن الذى يقبل «كلمة» أو لوغس السيد المسيح فهذا يعنى أنه يقبل السيد المسيح. هنا السيد المسيح واللوغس على التساوى.

أَنْتُمُ الآنَ أَنْقِيَاءُ لِسَبَبِ (الْكَلاَمِ) الكلمة = اللوغس الَّذِي كَلَّمْتُكُمْ بِهِ. (يو ١٥: ٣)

مجرد سماع الكلمة اللوغس هنا وإدراكه فهذا ينقى القلب، حيث أن المعنى يتمحور حول قبول السيد المسيح والإيمان به.

اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ (كلاَمِي) كلمتى فَلَنْ يَرَى الْمَوْتَ إِلَى الأَبَدِ». (يو ٨: ٥١).

ومعروف أن الذى يؤمن بالسيد المسيح فهو الذى لن يرى الموت. فاللوغس والسيد المسيح هنا متساويان.

فَقَالَ يَسُوعُ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ: «إِنَّكُمْ إِنْ ثَبَتُّمْ فِي (كلاَمِي) كلمتى فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ تلاَمِيذِي، وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ». (يو ٧: ٣١-٣٢).

هنا البات فى كلمة السيد المسيح أى اللوغس يكشف عن التلمذة الحقيقية للمسيح، أى أن التلمذة لكلمة المسيح هى التلمذة بعينها.

ومعروف من آيات أخرى كثيرة أن الثبوت فى كلمة المسيح هو الثبوت فى السيد المسيح نفسه (إِنْ ثَبَتُّمْ فِيَّ وَثَبَتَ كلاَمِي فِيكُمْ تَطْلُبُونَ مَا تُرِيدُونَ فَيَكُونُ لَكُمْ. - يو ١٥:٧)

الَّذِي لاَ يُحِبُّنِي لاَ يَحْفَظُ كلاَمِي. (وَالْكلاَمُ) الكلمة الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي.

يوضح السيد المسيح هنا أن كلمته أى اللوغس ليس منفردا من دون الله فهو اللوغس الذى أرسله الله سواء شخصه أو كلمته فهما واحد.

أَنَا قَدْ أَعْطَيْتُهُمْ كلاَمَكَ (كلمتك) وَالْعَالَمُ أَبْغَضَهُمْ لأَنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ كَمَا أَنِّي أَنَا لَسْتُ مِنَ الْعَالَمِ. (يو ١٤:١٧)

ومعروف أن العالم أبغض السيد المسيح وبالتالى أبغض الذين قبلوا كلمة الله اى اللوغس. هنا السيد المسيح ولوغس الله متساويان.

قَدِّسْهُمْ فِي حَقِّكَ. (كلاَمُكَ) كلمتك هُوَ حَقٌّ. (يو١٧:١٧)

ومعروف أن السيد المسيح أعلن بكل قوة ووضوح «أنا هو ....الحق» (قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي – يو ١٤: ٦). واللوغس والسيد المسيح متساويان هنا تساوى مطلق، بل يظهر أن السيد المسيح هو اللوغس مباشرة.

ومعروف أيضا أن السيد المسيح أعطى الحق أى اللوغس فى كلامه عموماً، أى أن حديثه كان يحوى سر «الكلمة»، سر «اللوغس»، سر «المسيح» وهذا يتضح من الآية الآتية:

لِمَاذَا لاَ تَفْهَمُونَ كلاَمِي؟ لأَنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا (قَوْلِي) كلمتى[1]. (يو ٨: ٤٣)

واضح هنا أن كلمة السيد المسيح شيء و(الكلمة) أى اللوغش الكائن فى كلام السيد المسيح شيء آخر. فالكلمة اللوغس هو سر الله وهو السيد المسيح وهو الحق المخفى فى الكلام. فالذى يسمع لصوت الله وسره، أى الحق، من وسط الكلام يفهم كل الكلام فى الحال.

ومن هنا نستخلص أن (الكلمة) اللوغس هو محور كل تعاليم السيد المسيح وهو القلب النابض فى إنجيل القديس يوحنا وعليه يقوم الإنجيل كله، ولذلك وإن كان يتهيأ لجميع الشراح أن القديس يوحنا لم يستخدم أصطلاح (الكلمة) إلا فى موضعين فى مقدمة إنجيله فى الإصحاح الأول، إلا أن الواقع والحقيقة أن اللوغس هو محور إنجيل القديس يوحنا وملخص فكره اللاهوتى.

فكما أن كلمة الله اللوغس، وبالعبرية «قوْل إلوهيم»، جاء في الأسفار المقدسة قديما منطوقاً بفم الأنبياء وكان يحمل الحياة للذين يثبتون فيه، فقد جاء الكلمة اللوغس بنفسه في شخص يسوع المسيح معلناً الحق ومعطياً الحياة. ولكن يظل هناك فارق بين الكلام المقول واللوغس المحتوى داخله: (وَالآبُ نَفْسُهُ الَّذِي أَرْسَلَنِي يَشْهَدُ لِي. لَمْ تَسْمَعُوا صَوْتَهُ قَطُّ وَلاَ أَبْصَرْتُمْ هَيْئَتَهُ، وَلَيْسَتْ لَكُمْ كَلِمَتُهُ ثَابِتَةً فِيكُمْ لأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ هُوَ لَسْتُمْ أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِهِ، فَتِّشُوا الْكُتُبَ لأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً. وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي – يو ٥: ٣٧-٣٩)

المسيح هنا يتسعلن نفسه بمنتهى الحذق الإلهي أنه هو اللوغس، فهو يوضح أن كلمة الله اللوغس التي يفتشون عليها في الكتب (الأسفار) لكي تعطيهم حياة أبدية أخطاوا إليها فأخطاوها، ولم ينتبهوا إليها حينما استعلنها المسيح في نفسه لما جاء بنفسه إليهم: «إلى خاصته جاء»، فلم يأتوا هم إليه، مع أنه بصفته اللوغس الذي يبحثون عنه

[1] هنا تجيء كلمة (قولى) والتى وضعناها بين قوسين لأنها لا تفيد معنى اللوغس (الكلمة) باللغة العربية، لو أخذناها بالنطق العبرى تكون صحيحة تماما وتفيد معنى اللوغس، لأن (اللوغس) تُنطق بالعبرانية (قول)

قادر ان يعطيهم الحياة الآبدية.

لذلك، فجوهر الإستعلان في إنجيل يوحنا محكوم بمستوى السماع الروحي للكلمة «اللوغس» وهو الحق المثبت في كلام المسيح، على أن هذا «اللوغس» هو سر الإنجيل وسر الله وسر المسيح، وهو لا يوجد جامداً أو ساكناً، بل على الدوام ينطق من بين السطور والكلمات، كومضات من نور أو دفقات حياة تنطلق بلا توقف.

وبهذا نرى أذ اللوغس في إنجيل يوحنا لا يحتاج إلى شرح أو تعريف أو فهم، فهو هو المسيح، والروح واقف عل استعداد أن يأخذ ما للمسيح «اللوغس» ويخبركم. والمسيح لا يعطي لا يعطى كلام الحق ليُفهم، بل هو يَعطى الحق ليُعاش؛ ولا يعطى كلاماً يصلح للحياة بل يعطى الحياة. فهذا هو سر كلامه: « روح وحياة»، وهذا يوصلنا إلى مقدمة الإنجيل بكل هدوء، فالميسح هو «الكلمة اللوغس».

فإذ كان القديس يوحنا قد أعطى للمسيح اسم «الكلمة» اللوغس فهو فعل ذلك من واقح استعلان المسيح لنفسه من خلال تعليمه. على أن قدرة القديس يوحنا عل استشفاف هذا الاسم وطرحه في مستهل إنجيله، ليس على أنه «كلمة الله»، بل على أنه «الكلمة» اللوغس يعتبر إلهاماً إلهياً وعلى مستوى المساهمة العظمى للاهوت المسيحي، وهي جرأة يستحيل أن يأتيها عقل بشر؛ فهي جرأة من رأى وعاين أن «يسوع المسيح هو الكلمة»: «هَذَا هُوَ التِّلْمِيذُ الَّذِي يَشْهَدُ بِهَذَا وَكَتَبَ هَذَا. وَنَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ حَقٌّ.» (يو ٢١:٢٤)

وهذه المعلومة البسيطة في مظهرها صارت هي الحقيقة الإلهية العظمى في تاريخ معرفة الإنسان لله!

فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ:

قلنا أن «في البدء» تفيد ما قبل الخلق، وبالتالي ما قبل الزمن، فتكون بالتحديد هي الآزلية، وقلنا أن (كان) لا تفيد فعل الزمن الماضي الناقص ولكن تفيد الكينونة الدائمة للمطلق. أي أن الكلمة اللوغس هو«كائن أزلي». فمن أين أتى القديس يوحنا بهذا التوصيف الخطير للمسيح.

أمامنا مصدران واضحان استثف منهما القديس يوحنا وصف المسيح بالكينونة الآزلية:

الاول: قول المسيح صراحة لليهود: «أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ»، فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ؟». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ» (يو ٨:٥٦-٥٨)

قول المسيح «أنا كائن»» كشف عن كينونته اللازمنية الآزلية. لأنه لوكان قد قال: «أنا كنت» لدخل المعنى في إطار الزمن وأصبح مجرد أسبقية زمنية، ولكن بقولو: «أنا كائن» أصبحت المقارنة بين إبراهيم والمسيح شاسعة جداً وبلا قياس، فهي مقارنة بين مخلوق وغير مخلوق، بين زمني وأزلى، إذن، فهو كائن قبل كل الآباء والأنبياء وكل الخليقة.

هذا القول الذي قاله المسيح «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» انطبع في قلب القديس يوحنا وأخذ الآولوية على كل ما عداه من الأوصاف التي استعلنها المسيح في ذاته.

الثاني: أما الموضع الثاني الذي عزز صورة المسيح في ذهن يوحنا وإيمانه بصفته الكائن الآزلي، فهو قوله المملوء سراً وجلالاً ورهبة: «إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَنِّي أَنَا هُوَ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ» (يو ٨:٢٤)

هنا نرجو القارىء الرجوع لشرح سر التسمية في كتاب «المدخل لشرح إنجيل يوحنا» ص ٢١٨-٢٤٦ ويكفي هنا أن نقول أن هذا هو نفسه اسم الله الشخصي الذي قاله لموسى في مستهل سفر الخروج ٣:١٣-١٤

(فَقَالَ مُوسَى لِلَّهِ: «هَا أَنَا آتِي إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَقُولُ لَهُمْ: إِلَهُ آبَائِكُمْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ. فَإِذَا قَالُوا لِي: مَا اسْمُهُ؟ فَمَاذَا أَقُولُ لَهُمْ؟». فَقَالَ اللهُ لِمُوسَى: «أَهْيَهِ الَّذِي أَهْيَهْ». وَقَالَ: «هَكَذَا تَقُولُ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: أَهْيَهْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ».

وهذا الاسم صار توضيحه في هامش الكتاب المقدس هكذا: «أكون الذى أكون» وترجتها بالإنجليزية I am the being وتفهم بالعربية «أنا الكائن بذاتي» = هذا هو اسم الله.

ويلاحظ في هذا الشرط الخطير الذي قدمه المسيح لليهود لكي تغفر خطاياهم أنه يتحتم أن يؤمنوا بأنه يقدم لهم في منظوره الشخصي الله غير المنظور ذا الجلال والعظمة، وأن وجوده المنظور أمامهم يجمع كل الكيان اللامحدود والمحدود، المنظور وغير المنظور، وإلا فإنهم يموتون في خطاياهم. لماذا؟ لأنه هو الذي سيحمل كفارة خطاياهم، ولأنه هو هو «الله ظهر فى الجسد»(١تى ٣:١٦)

وفي رد المسيح التالي على اليهود يتضح أكثر تأكيد المسيح على استعلان شخصيته الأزلية: فَقَالُوا لَهُ: «مَنْ أَنْتَ؟ فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: أَنَا مِنَ الْبَدْءِ مَا أُكَلِّمُكُمْ أَيْضاً بِهِ». (يو ٨:٢٥). ويشرحها القديس أغسطينوس باختصار هكذا:(صدقونى أنني أنا البداية لأني قلت لكم هذا).

كما يلاحظ أنه قبل أن يستعلن المسيح وجوده الأزلي بقوله «أنا هو» = «أنا الكائن بذاتي» فى الآية ٨:٢٤ قدم لهذا القول بالأية: قَالَ لَهُمْ: « أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ. أَنْتُمْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ. (يو ٨:٢٣). هذا كله يعزز استعلانه لذاته أنه كائن بذاته منذ البدء.

لقد انطبع هذا الاستعلان أيضاً في ذهن القديس يوحنا وأدرك بيقين أن شخصية المسيح تحمل الكيان الإلهي الأزلي، وأنه يحمل اسم ذات الله بكل جلاله وأنه منذ البدء وبلا بداية. لذلك استهل القديس يوحنا إنجيله بقوله: «في البدء كان الكلمة» . وكان هذا حصيلة معرفه اليقينية بالمسيح عن قرب، إذ لم يكن عن إملاء من الروح نفسه.

«كان الكلمة»:

لماذا لم يكتب القديس يوحنا «كلمة الله» كما هي معروفة في جميع الأسفار القديمة؟

يلاحظ القارئ أن القديس يوحنا يقدم المسيح قبل التجسد، وقبل إبراهيم: «أنا كائن»، ويقدمه قبل «كل شيء به كان» أي قبل الخليقة جميعها في الأرض وفي السموات، أي قبل الزمن: «في البدء»، الأزلى. قبل التاريخ، قبل الفهم والإدراك عموماً، وذلك لأنه لم يكن بعد للكلمة إرسالية خارج الله، فهو يصفه في كيانه أو كينونته في الذات الإلهية وحسب. ولأنه، أي «الكلمة» لم يبدأ في استعلان الله أو يخبر عن الله أو عما عند الله، إذ لم تكن توجد خليقة ما تسمع أو تفهم. لذلك فلا يجوز أن يوصف بأنه الكلمة المرسلة أو كلمة الله الخارجة لتعمل لحساب الله. بل كان «الكلمة» مكتفياً بالوجود المطلق في الله.

وبمجرد أن بدأ الخلق، بدأ عمل الكلمة في العالم المخلوق يشهد لإرادة الله بالقوة التي فيه، وهذا يصفه القديس يوحنا بـ «النور». بدأ الكلمة عمله في العالم المخلوق كنور وحياة، وهذا هو الاستعلان الثاني «للكلمة».

وجاءت خلقة الإنسان على صورة الله، فهيماً وناطقاً وسامعاً، وهنا بدأ عمل «الكلمة» في الإنسان (العهد القديم بكل أسفار) باعتباره «كلمة الله» المرسلة المسموعة والمفهومة، وهذا هو الاستعلان الثالث «للكلمة».

وقد جاء كلمة الله إلى خاصته، أي شعب إسرائيل، متكلماً في الأنبياء، فلما لم يقبلوه «تجسد الكلمة»، وهذا هو الاستعلان الرابع للكلمة» وذلك ليعلن ويخبر عن الله جهاراً وعلانية دون وسيط، لا كلمة الله المجردة المرسلة

المسموعة والمفهومة فقط أي قوة غير مشخصة، ولكن الله الكلمة الشخص المسموع والمنظور والملموس أيضاً.
«الَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ»الذي راني فقد رأى الآب» (يو ١٤ :٩)
لذلك حينما قال ق. يوحنا «في البدء كان الكلمة»، فهو يقول عن شخص ««الكلمة»» اللوغس في ذاته وفي البدء، وليس في عمله بعد!، معُرفال با «ال» ولكن ليس معرفاً بعمل.

«والكلمة كان عند الله»:

كلمة «عند» كما يرى العلماء في اللغة وشراح الكتاب المقدس، لا تفيد مجرد الوجود معاً كإثنين يعيشان في شركة، ولا حتى تعني اتحادا بالمفهوم العام، أو وجوداً مكانياً بأية علاقة كانت. ولكن هي تفيد علاقة متصلة، يشرحها المسيح نفسه في موضح آخر بعد التجسد بقوله: «الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظرا الآب يعمل. لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك.» (يو ٥ :١٩)
وهذا يفيد في نظر العالم أن الوجود الشخصي لكلمة كان يتحقق في اتصال فعال دائم وشركة كاملة`مع الله، وهذه هي حقيقة «الكلمة» عند الله قبل أن يبدأ يستعلن الله.
وقد ورد هذا الاصطلاح: «عند» في موضع مماثل يعتبر بحد ذاته أقدم وأوضح شرح لمعنى «والكلمة كان عند الله»، وذلك في الأية التي كتبها القديس يوحنا في رسالته الاولى عن الحياة الأبدية التي «كانت عند الآب» و«أُظهرت». وها يتضح أن الحياة الآبدية التي كانت عند الآب كانت تحقق ذاتها في علائق الاتصال الداخلي بالله.
وهذا هو بعينه الذي يعنيه الروح بقول الإنجيل: «والكلمة كان عند الله».
ويقول العالم شناكنبرج: «إن »عند» لا تفيد هنا الحركة تجاه هدف ما بل إنها تأتي مُعادلة وبالتبادل أحياناً مع ( ) كما قالها المسيح في صلاته: «والأن مجدني أنت أيها الأب عند ذاتك ( ) بالمجد الذي كان لى عندك ( ) قبل كون العالم» (يو ١٧ :٥)
ويقول شناكنبرج: (إن هذا المجد الذي كان له عند الآب هو هو اتصاله الوثيق بالله وهو قائم باتصال الحياة الأبدية المعطاة بالحب (يو ١٧ :٢٤). لذلك فإن في هذه المقدمة يتأكد أن كينونة اللوغس، بالأصل، هو وجود فعال بالحب، له مل حياة الله والمجد معه.
ويشرحها القديس يوحنا ذهبي الفم قائلاً: (إن الكلمة هو وجود شخصي جوهري صادر بدون تألم من الأب نفسه، فهذا كما سبق وأن أشرت هو اصطلاح «الكلمة«. وأيضاً قوله «في البدء كان الكلمة« هذا يوضح أزليته. كذلك أيضاً »والكلمة كان عند الله» يكون بذلك قد أعلن لنا أنه معه في الأزلية حتى إذا سمعتم أنه ««في البدء كان الكلمة» لا تخطئون في تصوركم أن حياة الأب عنه (عن الكلمة) بأي مسافة زمنية أو أي امتداد، فيتحدد بذلك خطأ بدء خاص للابن الوحيد، ولذلك أردف يقول: «والكلمة كان عند الله». ولهذا فهو أزلي كالأب نفسه لأن «الأب» لم يكن أبدأ بدون «الكلمة»»» بل كان الله مع الله، كل في أقنومه الخاص.
ومن هذا اشرح لذهبي الفم نفهم أن «عند» تساوي مفهوم «المعية الآزلية»، أي أن الكلمة كان مع الأب في الآزل دون افتراق.
ومن هذه الشروحات على قول القديس يوحنا «والكلمة كان عند الله (الآب)» فيما قبل الخلق وقبل حركة الكلمة في الإعلان عن الله سواء في الخليقة عامة أو في الإنسان؛ نرى أن لا الله ولا الكلمة كان في حاجة إلى خلقة العالم، وانما الخلقة جائت كإرادة حب «هكذا أحب الله العالم» (يو ٣ :١٦) لأن كل منهما كان في اكتفا كلي بالآخر، شركة

المجد المتصل، وشركة الفهم والإدراك المتبادل، وشركة الحياة المتصلة، وشركة الآزلية الدائمة، جعلت «الله والكلمة» كُلاً واحداً كي المجد، مُدرك كامل كلي الحياة، وهو نفس مستوى الآب والابن كما سنرى، فيما بعد، كون طبيعة الحب المتفجرة والمتبادلة بين الابوة والبنوة جعلت ذات الله المتكاملة كلية الاكتفاء وكلية الحب والكرامة والمجد.

«والكلمة كان عند الله» تعطينا تصوراً أن الكلمة، اللوغس، قبل الخليقة يمثل القوة المدركة لكل مشيئة الله والقائمة الدائمة على أتم استعداد لتنفيذ هذه المشيئة.

أو يمكن أن نرى اللوغس قبل الخليقة أيضاً، القائم الدائم المؤتمن على كل خطط الله الأزلية، وهو على أتم استعداد لإخراجها للوجود عندما يحين ميعادها.

كذلك يمكن، من قول بولس الرسول، أن نرى اللوغس قبل تأسيس العالم وهو قائم عند الله، يحمل صوراً وقوائم بأسماء كل الذين اختارهم الله ليمارس دوره معهم وفيهم بكل وسائل التقديس، ليقفوا أمام الله يوماً ما بلا لوم حسب سخاء محبته: «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح **كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة**.» (أف ١:٣-٤)

بهذا يتضح أمامنا أنه حتى وقبل خلقة السموات والآرض وقبل كل الدهور، وقبل أذ يُرسل ليعلن مشيئة الله، كان «للكلمة» اللوغس عمل خاص من جهة الخلاص، واهتمام بالمفديين، وتدبير الخطط مع الله لتكميل مسرة حب الله: «حسب قصد الذي يعمل كل شيء حسب رأي مشيئته لنكون لمدح مجده، **نحن الذين قد سبق رجاؤنا في المسيح**» (أف ١:١١-١٢)

وعلى أساس هذه الصلات الجوهرية والوثيقة بين (الكلمة _ اللوغس) والله، والتي هي على مستوى الوحدة الخصبة ذات الفعالية، أصبح «للكلمة» اللوغس، حينها أُرسل بعد ذلك ليعلن الله ومشيئته، أن يقول: «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبر» (يو ١:١٨). هذه الآية تشرح، على المستوى الشخصي والعاطفي، مركز اللوغس عند الله، فهو وجود ملتحم ودائم ولكن متميز وشخصي.

وكان الكلمة الله:

هنا كلمة «الله» جاءت في الأصل اليوناني (   ) غير معرفة بـ ألـ بعكس الجملة الجملة السابقة «والكلمة كان عند الله»، حيث كلمة الله معرفة بـ الـ. ففي الجملة الاولى «والكلمة كان عند الله» نجد أن «الكلمة» مُعرفه بـ الـ و«الله» معرف بـ الـ توضيحاً أن لكل منهما وجوده الشخصي، وحيث «الله» المعرف بـ الـ يحمل معنى الذات الكلية. أما في الجملة الثانية فالقصد من قوله «وكان الكلمة الله» هو تعيين الجوهر اي طبيعة «الكلمة» أنها إلهية، ولا يقصد تعريف الكلمة أنه هو الله من جهة الذات. (؟؟؟؟)

وهنا يحذر أن نقرأ «الله» معرفا بـ الـ في «وكان الكلمة الله» وإلا يكون لا فرق بين الكلمة والله، وبالتال لا فرق بين الآب والابن، وهذه هي بدعة سابليوس الذي قال أنها مجرد أسماء، في حين أن الإيمان المسيحي يقول أن الآقانيم في الله مميزة: فالآب ليس هو الابن ولا الابن هو الآب، وكل أقنوم له اختصاصة الإلهي. كذلك فالله ليس هو الكلمة، ليس هو الله (الكلي). (؟؟؟؟؟)

وها يقابلنا قصور مكشوف في اللغة العربية، فلا توجد كلمة «الله» بدون التعريف بـ الـ .

وقد يتراءى للبعض أنه يمكن أذ يقال «وكان الكلمة إلهاً»، وهذا أيضاً أنحراف لأن الكلمة اللوغس (أو الابن) ليس إلهاً «آخر» أو««ثان» غير الله الواحد، كما أن الله ليس فيه آلهة، بالثنى أوالجمع، فالله إله واحد آب وابن وروح قدس.

والمعنى يكون أن الكلمة اللوغس ليس بمفرده الذات الكلية لله، ولكن الله والكلمة هو «الله». وكما نقول ان الابن والله الأب الله. يمكن أن نقول «الله الكلمة» أو «الكلمة الله» لتعريف ماهية الكلمة، وذلك بقصد التفريق بين طبيعة الخليقة سواء في السماء أو الأرض أو الإنسان وبين طبيعة «الكلمة» اللوغسى. فالكلمة كان الله ولم يكن العالم أو الخليقة أو الإنسان. لأنه يجدر بنا هنا أن نوجه نظر القارىء أنه في أيام القديس يوحنا كانت هذه الثلاث البدع موجودة. فكان هناك من ينادي بأن (الكلمة اللوغس هو العالم)، ومن يقول أنه (كان رئيس ملائكة)، ومن يقول أنه (كان إنساناً). وبهذا يتضح جداً المعنى والقصد من قول القديس يوحنا: «وكان الكلمة الله».

ولينتبه القارىء، لأن طبيعة الله ليست كطبيعة أعلى المخلوقات مهما غلت وسمت هذه المخلوقات، فطبيعة الملائكة والإنسان فيها الفرد والجمع، فيها الملاك وربوات الملائكة، وفيها الإنسان وملايين الناس. أما طبيعة الله فهي طبيعة مطلقة لا تقبل المفرد ولا المثنى ولا الجمع العددي، فهي منزهة عن العددية، طبيعة بسيطة غير مركبة، وهي واحدة لأنها وحيدة لواحد مطلق. والكلمة فيها متحد بالله اتحاداً مطلقاً، فالله والكلمة هو الله الواحد الأحد.

مقارنة بين كلمة الله وكلمة الإنسان.

* «الكلمة» في الإنسان تصور شخصية الإنسان تصويراً جزئياً، وقد تخطئ فتبقى كلمة الإنسان شيئاُ ويبقى الإنسان شيئتً آخر.

أما «كلمة الله» فهي صورة كاملة لله كمالاً مطلقاً، حيث التطابق بين الله وكلمته يفوق حد التساوي في المفهوم البشري، لأن التطابق في المطلق، أي الله، غير المحدود هو أعلى مفهوم للتساوي الذي هو الوحدة عينها، لأنه لا توجد ثنائية قط في المطلقات وبالضرورة في الله.

لذلك فالتطابق بين إرادة الله وفعل كلمته يبغ من التساوي حد التطابق المطلق. فالكلمة يقول ويعمل بحسب مشيئة الله بالتمام والكمال، وهذا نسمعه في وصف المسيح لنفسه باستمرار: «لأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي لَكِنَّ الآبَ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ أَعْطَانِي وَصِيَّةً: مَاذَا أَقُولُ وَبِمَاذَا أَتَكَلَّمُ. وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ وَصِيَّتَهُ هِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. فَمَا أَتَكَلَّمُ أَنَا بِهِ فَكَمَا قَالَ لِي الآبُ هَكَذَا أَتَكَلَّمُ» (يو ١٢:٤٩-٥٠). هذا من جهة الكلام» كذلك من جهة العمل: «فَقَالَ يَسُوعُ لَهُمْ: «لاَ يَقْدِرُ الاِبْنُ أَنْ يَعْمَلَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً إِلاَّ مَا يَنْظُرُ الآبَ يَعْمَلُ. لأَنْ مَهْمَا عَمِلَ ذَاكَ فَهَذَا يَعْمَلُهُ الاِبْنُ كَذَلِكَ». هنا تطابق كلي في القول والعمل، ومن هنا الوحدة الطلقة الكلية: «أَلَسْتَ تُؤْمِنُ أَنِّي أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ؟ الْكلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ لَسْتُ أَتَكَلَّمُ بِهِ مِنْ نَفْسِي لَكِنَّ الآبَ الْحَالَّ فِيَّ هُوَ يَعْمَلُ الأَعْمَالَ.» (يو ١٤:١٠)

* وكلمة الإنسان مهما بلغت في تعبيرها عن حالة الإنسان ومداخله، فهي في طبيعتها مجرد ظاهرة أو مظهر مسموع أو مكتوب أومعمول لا يمل طبيعة الإنسان تمثيلاً كلياً؛ ولكن كلمة الله، اللوغس، يحمل طبيعة الله يعبر عن ذاته تعبيراً كلياً مطلقاً، فإذا خرج اللوغس من لدن الله فهو خروج غير زمي وغير محدود، وهو يظل قائماً في الله ويعمل خارج الله، فهويل الحضرة الإلهية بكل طبيعتها وقوتها وجلالها، يعمل اسم الله وسلطانه كذات الله.

وهكذا فكون «كلمة الله» هو أقنوم (شخص) _عند الله وفي الله_ بحد ذاته، فهذا امتياز لطبيعة الله الفائقة عن طبيعتنا. لذلك فالفارق يفوق تصورنا جداً، لأنه ليس له مثيل في طبيعتنا. وهذا أيضاً أحد كمالات الله وخصائصه واتساع قدراته التي تزيد كثيراغً من تصورنا.

* كذلك، إذا كانت كلمة الإنسان كريمة عند نفسه وعزيزة لديه، وهو يطالب بكرامتها وحتمية تنفيذها لأنها تعتبر عن ذاته؛ فكم بالحرى تكون كلمة الله؟

وهذا نسمعه تماماً في تعاليم المسيح عن نفسه، باعتباره «الكلمة» والابن المرسل: «لأَنَّ الآبَ يُحِبُّ الابْنَ وَيُرِيهِ جَمِيعَ مَا هُوَ يَعْمَلُهُ وَسَيُرِيهِ أَعْمَالاً أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ لِتَتَعَجَّبُوا أَنْتُمْ. لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآبَ يُقِيمُ الأَمْوَاتَ وَيُحْيِي كَذَلِكَ الابْنُ أَيْضاً يُحْيِي مَنْ يَشَاءُ. لأَنَّ الآبَ لاَ يَدِينُ أَحَداً بَلْ قَدْ أَعْطَى كُلَّ الدَّيْنُونَةِ لِلابْنِ. لِكَيْ يُكْرِمَ الْجَمِيعُ الابْنَ كَمَا يُكْرِمُونَ الآبَ. مَنْ لاَ يُكْرِمُ الابْنَ لاَ يُكْرِمُ الآبَ الَّذِي أَرْسَلَهُ.» (يو ٥: ٢٠-٢٣) & «الَّذِي يُؤْمِنُ بِي لَيْسَ يُؤْمِنُ بِي بَلْ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي. والَّذِي يَرَانِي يَرَى الَّذِي أَرْسَلَنِي.» (يو ١٢: ٤٤-٤٥) & «أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ» (يو ١٠: ٣٠) & «الَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ» (يو ١٤: ٩).

والآن، أنظر أيها القارىء، وأعد النظ على ضوء ما قلناه في قول القديس يوحنا: «وكان الكلمة الله»

أما إذا تبادر إلى ذهنك: ولماذا بدأ الإنجيل بـ «الكلمة» ولم يبدأ بوصف «الابن»؟ فالجواب هو أن القديس يوحنا يتتبع المسيح قبل التجسد وقبل الأنبياء وقبل الخليقة ليجعلك تراه في حقيقة شخصه قبل الخلق وهو قائم في الأزلية عند الله، تمهيداً لاستعلان بنوته.

٢- هَذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ الله.

«هذا» هنا تكرار مقصود به «اللوغس» في القول السابق: «فِي الْبَدْءِ كَانَ الْكَلِمَةُ وَالْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَكَانَ الْكَلِمَةُ اللَّهَ»، ليؤكد أمرين غاية في الأهمية بالنسبة لما هو مزمع أن يقوله عن الكلمة بالنسبة للخلق: الأمر الاول أن الكلمة أزلى، والثاني أن الكلمة هو من جوهر الله وطبيعته، ومؤكداً مرة أخرى أن «هَذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللَّهِ» أي قبل أن يكون العالم وكافة المخلوقات.

وتأكيد القديس يوحنا على «عِنْدَ اللَّهِ» لثاني مرة لا يخلو من إشارة ذكية، أن هذه العلاقة القائمة الدائمة بين الكلمة والله هي بحد ذاتها سر من أسرار الخلق.

كما أن التأكيد عل أزلية الكلمة مع الله تقطع بالهوة السحيقة التي تفصل بين «الكلمة» وبين «الخلق المحدث الزمنى»، المخلوق بالكلمة.

وفي التعليق عل قول الإنجيل: «هَذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللَّهِ» يشرح القديس يوحنا ذهبي الفم: (لقد أعاد ثاية القول «هَذَا كَانَ فِي الْبَدْءِ عِنْدَ اللَّهِ» أي أزلى تماماً كالآب، لأن الأب لم يكن قط بدون الكلمة، بل كان الكلمة الله مع الله كل بشخصه.).

ونحن نرى أن العودة إلى «الْبَدْءِ عِنْدَ اللَّهِ» مرة أخرى هي حارس يحرس التعبير من الإنحراف نحو الثنائية بين الكلمة والله.

٣- كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ.

وَقَدْ جَعَلْتُ أَقْوَالِي فِي فَمِكَ (اللوغس) وَبِظِلِّ يَدِي

سَتَرْتُكَ لِغَرْسِ السَّمَاوَاتِ وَتَأْسِيسِ الأَرْضِ وَلِتَقُولَ
لِصِهْيَوْنَ: «أَنْتِ شَعْبِي» (أش ٥١: ١٦).

وهكذا ينحدر القديس يوحنا سريعاً من تحليقه فيما وراء الزمن في الآزلية، ومن الشخوص الفائق في كيان اللوغس عند الله الذي أوقفنا أمامه وفي مواجهته لحظة، لينزل بنا إلى واقعنا المادي إل الخليقة بكافة أشكالها وأنواعها فيما يُرى وما لا يُرى .

ولا يخفى على الدارس للفكر اليهودي القديم أن يلمح في هذه الأية تقابل الوزن العبري بالإيجاب ثم السلب باتصال، ليغوص بنا في أعماق وأطراف العنى، وليجمع بينهما فكر واحد متكامل محبوك لا يأتيه الشك من أي جانب: «كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان»، حيث لا يزال التركيز هنا على الكلمة اللوغس باعتباره العامل الوحيد في الخلق. فكل الخليقة أخذت وجودها وكيانها المرئي وغير المرئي منه»، لا توجد خليقة قط يمكن أن تتخذ لها وجوداً بدونه.

وبينما يظل الكلمة أزليا كما هو، أخذت منه الخليقة مبدأها الزمني، وارتبطت به ارتباط الوجود والكيان والحركة والدوام على ستوى الزمن، وظل هو حراً منها لا يحده زمان أو كيان.

* هنا «كل شيء» يفيد كل شيء بمفرداته واحداً واحداً، وليس كل شىء كجمع كلي، وإلا كانت تُكتب ( )، كما جاءت في رسالة بولس الرسول «فإنه فيه خُلق الكل...» (كو ١: ١٦). وبالتأكيد فإن «كل شيء» هنا يعود عل تنوع الخلائق من روحية وبشرية ومادية ، ليقطع خط الرجعة على بدع القائلين أن اللوغس هو العالم أو أنه كان ملاكاً أو كان مجرد إنسان.

* «به كان» والآصح بحسب الاصول والمعنى اليوناني «به صار».

والمعنى المقصود هو «به خُلق»، لأن «كان» هنا كما جاءت في اللغة العربية توقعنا في خطأ وارتباك لأنها لم تجيء في اليوناية ( ) التي تفيد الكينونة، بل ( ) وتعني »«صار» أو «ظهر في الوجود» أو «خَلق».

وبحسب العالم وستكوت فإن فعل «خلق» يأتي عل ثلاث صور من الأفعال:

الاول: يخلق ( ) والثاني: يصنع ( ) وذلك بالسبة للخالق. والثالث: يصير ( ).

١- والفعل الآول «يخلق» كما جاء في (كو ١: ١٦-١٧): فَإِنَّهُ فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ: مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا عَلَى الأَرْضِ، مَا يُرَى وَمَا لاَ يُرَى، سَوَاءٌ كَانَ عُرُوشاً امْ سِيَادَاتٍ امْ رِيَاسَاتٍ امْ سَلاَطِينَ. الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ، الَّذِي هُوَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، وَفِيهِ يَقُومُ الْكُلُّ. وهنا يأخذ فعل «خلق» معنى وحقيقة التصميم والتخطط والقصد من الشىء قبل صنعه في ذهن الخالق.

٢- أما الفعل الثاني هـ«صنع»« كما جاء في إنجيل مرقس: وَلَكِنْ مِنْ بَدْءِ الْخَلِيقَةِ ذَكَراً وَأُنْثَى خَلَقَهُمَا اللَّهُ (مر ١٠: ٦))، فهي تفيد النتيجة الفعلية أو الشىء الناتج من الخلق كصنعه. كما هو واضح جداً من قول بولس الرسول: «لأننا عمله» (وترجتها بالإنجليزية واضحة للغاية: (for we are his workmanship) مخلوقين في المسيح يسوع لأعمال صالحة قد سبق الله فأعدها...» (أف ٢: ١٠)

٣- أما الفعل الثالث «يصير» الذي نحن بصدده هنا «كل شىء به (كان) صار» فهو يفيد القانون الخاص الذي بمقتضاه يتم ظهور الشيء حسب تدبير العناية الإلهية.

وأوضح مثل لذلك ما جاء في الفعلين المستخدمين في الآية ١: ١٤ «والكلمة صار جسدا» وفي الآية ١: ١٧ «لأن

الناموس بموسى أعطى أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا».
وهنا تنكشف قوة هذا الفعل كمعبر عن كيفية الاستعلان عن النظام والتدبير الإلهيين واظهارهما للوجود. بمعنى أنه قبل أن يخق الله العالم بالكلمة كان هناك تدبير وخطة ونظام وقانون انتهت جميعاً إلى استعلان خطة العالم بوجوده، وانتهت إلى استعلان تجسد الكلمة، ثم انتهت إلى استعلان النعمة والحق في المسيح يسوع. وهذا هو المعنى النوعي والتحديدي لفعل «صار»
* به = ( ): الحرف اليوناني ( ) لا يفيد المعنى باللغة العربية «به» ولكن معنى أخر أعمق يمكن أن يُترجم «بواسطة» التي تأتي بالإنجليزية throw him وليس by him التى هى ( ).
لها فحرف ( ) يعطي معنى أكثر علاقة بين الكلمة اللوغس وبين الخليقة. أي أن كل شي هو به وفيه بآن واحد، وليس به فقط، فالكلمة بعد أن خلق، ظل حافظاً ومقيماً وماسكاً ومدبراً للخلق. المسيح عبر عن ذلك بقوله: «بِدُونِي لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَفْعَلُوا شَيْئاً» (يو ١٥:٥).
والعلاقة الممتدة بين الخليقة والكلمة تتضح من كلام القديس بولس الرسول:
«فِيهِ خُلِقَ الْكُلُّ .... الْكُلُّ بِهِ وَلَهُ قَدْ خُلِقَ ..... وَفِيهِ يَقُومُ الْكُلُّ» (كو ١:١٦-١٧)
أي أن الخليقة بواسطته خُلقت، وفيه هي مخلوقة وقائمة ومتماسكة معاً.
«وبغيره لم يكن شيء مما كان» والترجمة الأصحح: « وبغيره لم يصر شيء مما صار». وكلمة «بغيره» تفيد « بعيداً عنه»: أى «بدونه» لا يصير لها وجود وكيان.
وبهذا تكون الخليقة قائمة تحت عاملين:
العامل الاول: الاعتماد الكلي على الترسط الإلهي بواسطة الكلمة.
العامل الثاني: الحضرة الإلهية الدائمة التي تقيم وتحفظ كيانها.
فالخليقة أولاً صارت إلى الوجود بواسطة الكلمة، ثم أخذت وتأخذ قيامها وتماسكها ودوامها معاً بالكلمة أيضاً.
هذا الأمر توضحه الرسالة إل العبرانيين عندما يقول:« الَّذِي بِهِ أَيْضاً عَمِلَ الْعَالَمِينَ. الَّذِي، وَهُوَ بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ، وَحَامِلٌ كُلَّ الأَشْيَاءِ بِكَلِمَةِ قُدْرَتِهِ»(عب ١:٢-٣)؛ حيث «بـة»» توضح سر بقاء ودوام الخليقة كونها محمولة بقوة الكلمة . فهنا سر الخلق، وسرقيام الخلق، وسر دوام الخلق.
ويزيد القديس بولس الرسول هذا الوضع الأخير وضوحاً بقوله: «لأننا به نحيا، ونتحرك، ونوجد» (أع ٢٨:١٧)
نفهم من هذا صحة قول بولس الرسول أن الله موجود وظاهر في الخليقة بصورة تجعل تجاهله دينونة على الإنسان _ أي إنسان في العالم _ «إِذْ مَعْرِفَةُ اللهِ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ لأَنَّ اللهَ أَظْهَرَهَا لَهُمْ. لأَنَّ مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ تُرَى أُمُورُهُ غَيْرُ الْمَنْظُورَةِ وَقُدْرَتُهُ السَّرْمَدِيَّةُ وَلاَهُوتُهُ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ حَتَّى إِنَّهُمْ بِلاَ عُذْرٍ».(رو ١:١٩-٢٠)
ثم وجود الخليقة في مجال العمل الإلهي بل والوجود الإلهي أيضاً، الذي منه تأخذ كيانها ووجودها وحياتها وحركتها وكل تدبيرها الذي تحكمه مئات بل ألوف بل ملايين الملايين من القوانين والقياسات والضوابط والصفات الموروثة والمكتسبة والموهوبة، التي بلغ الإنسان إلى معرفتها والتي لم يبلغ إليها بعد والتي لن يبلغ إليها في هذا الدهر قط، والتي تتحكم في سير الكون بل الأكوان بسمائه ومجراته والأرض وما عليها من جوامد وأحياء نباتية وحيوانية

والإنسان، ناهيك عن السماء الروحانية بكل أجنادها، هذه كلها لولا الضبط الإلهي الذي بالكلمة ما صارت وما سارت.

أما السؤال التقليدي الذي أثاره الإنسان في كل عصوره وعلى كل مستوياته الخلقية والدينية: هل العالم مُحدث أم أزلي؟

فيرد القديس أوغسطينوس على هذا بقوله أنه محدث بالنسبة لواقعه الظاهري، ولكنه كان موجوداً عند الله كخطة ونظام قبل أن يكون ويظهرفي الوجود.

والقديس يوحنا باختياره فعل «صار» لتوضيح خلقة الله لكل أشياء العالم واحدة واحدة بواسطة الكلمة، يقطع خط الرجعة على نظرية أفلاطون بأزلية العالم، كما يقطع خط الرجعة على نظرية كل من الغنوسيين وفيلو اليهودي بثنائية خلقة العالم بين شر وخير، وأيضا ينتفي أن يكون لغير الكلمة اللوغس أي وساطة أخرى في الخلق، خاصة بتشديده على استحالة الخلقة بدون «الكلمة» باستخدامه النفي للتأكيد «وبغيره لم يكن شيء مما كان».

كما ولينتبه القارىء كيف بدأ القديس يوحنا بوضع الأساس في حقيقة الخلق والخليقة بقوله: «والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله». حتى إذا جاء إلى الخلق وقال أن ««به»» _أي بواسطة الكلمة_ خلق الله العالم، لا يكون أمام القارىء أي فرصة ليظن أن الكلمة أقل من الله الخالق حينما يكون عمل «الكلمة» هو توسطي فقط أي «بواسطة» الكلمة. لأن المعنى في كُليته يكون بالنهاية: بواسطة الله خلق الله العالم.

والقديس ذهبي الفم يرى أن ذكر القديس يوحنا لخلقة العالم هنا، لا يركز بالدرجة الاولى على عمل الكلمة كما يركز على وحدة العمل الخلقي مع الله إمعاناً في إظهار لاهوته وتفوقه فوق كل الخلائق.

كما تنبري جملة النفي: «وبغيره لم يكن شيء مما كان»، لتؤكد أن ««توسط» الكلمة في الخلق أساسي بالدرجة الاولى، إذ بدونه يستحيل الخلق أو دوام الخليقة.

والقديس بولس الرسول يرى بالروح وبالرؤية السماوية الفائقة علاقة المسيح بالخليقة الاولى، ما رآه القديس يوحنا بصورة محققة وكاملة، فلا يكتفي بأن يجعل عمل المسيح « الكلمة» توسطياً بمفهوم مستوى المساعدة الآلية لله، بل يرفع رؤيتنا لنرى الخليقة كلها حتى الروحانية كلها قائمة فيه تتخذ منه وجودها وحركتها وبقاءها ودوامها:

«فإنه فيه خُيق الكل ما في السموات وما على الأ رض، ما يُرى وما لا يُرى سواء كان عروشاً أم سيادات أم رياسات أم سلاطين، الكل «به» وقد خلق» الذي هو قبل كل شيء «وفيه» يقوم الكل.» (كو ١:١٦-١٧)

وليلاحظ القارىء هذه الحروف الثلاثة: «فيه وبه وله» التي تحكم العلاقة بين الخليقة والخالق.

وسفر الرؤيا يعطينا صورة إضافية حية مبدعة تنطق بمستوى خضوع كافة الخليقة الروحانية بالنسبة للمسيح الخالق لها، فكافة الأجناد السماوية تتبعه: «والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزا أبيض ونقياً.» (رؤ ١٩:١٤).

وهنا يجدر بنا أن نتأمل في هذه الخليقة كلها المتعددة الممالك: سمائية بجندها الروحاني وبنجومها وأقمارها وأفلاكها ومجراتها التي يتوه فيها عقل الإنسان، والأ رض بجمادها ونباتها وحيوانها وإنسانها، كيف يتبناها الله جيعاً كأب ويدبرها الكلمة كراع أعظم ما فيها، والأعظم في الخليقة فوق حدود تصور الإنسان، كأقل ما فيها، حتى

العصفور له موضع في قلب الله ومكانة وعناية: «هكذا أحب الله العالم ....» (يو ٣:١٦)

ثم اسمع ما يقوله المسيح كخبيرفي شئون خلقته: «أليس عصفوران يباعان بفلس وواحد منهما لا يسقط على الأرض بدولاً أبيكم؟ وأما أنتم فحتى شعور رؤوسكم جيعها محصاة. فلا تخافوا، أنتم أفضل من عصافير كثيرة» (مت ١٠:٢٩-٣١). ويزيد على هذا القول نفسه القديس لوقا في إنجيله من جهة هذه العصافير أيضاً ويقول: «واحد منها ليس منسيا أمام الله» (لو ١٢:٦).

أما من جهة الإنسان الذي خلقه على صورته كشبهه، فتقول الحكمة (الكلمة _ اللوغس): «لمَّا وَضَعَ لِلْبَحْرِ حَدَّهُ فَلاَ تَتَعَدَّى الْمِيَاهُ تُخْمَهُ لَمَّا رَسَمَ أُسُسَ الأَرْضِ. كُنْتُ عِنْدَهُ صَانِعاً وَكُنْتُ كُلَّ يَوْمٍ لَذَّتَهُ فَرِحَةً دَائِماً قُدَّامَهُ. فَرِحَةً فِي مَسْكُونَةِ أَرْضِهِ وَلَذَّاتِي مَعَ بَنِي آدَمَ.» (أم ٨:٢٩-٣١)

٤- فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ.

فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ. (تث ٣٠:٢٠)

لأَنَّ عِنْدَكَ يَنْبُوعَ الْحَيَاةِ. بِنُورِكَ نَرَى نُوراً. (مز ٣٦:٩)

هنا يكشف القديس يوحنا عمقاً إلهياً فى أعماق «الكلمة». فالكلمة في الحياة أصلاً وأساماً كإحدى خصائص الجوهر الإلهي الآزلى.

وقد كشف المسيح سرها هكذا: « لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآبَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ (حياة ذاتية)، كَذَلِكَ أَعْطَى الابْنَ أَيْضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ (أي حياة ذاتية غير مكتسبة)» (يو ٥:٢٦).

وجوهر الحياة في الكلمة ليس كالحياة التي نعيشها ونعرفها، بل هي الحياة الأبدية التي من أخص خصائصها أنها تُحيي» أي لها القدرة على خلق الحياة التي نعرفها ونعيش لوناً من ألوانها في عمرنا الزمني على الأرض، والتي عرفها المسيح بقوله: «لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآبَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ كَذَلِكَ أَعْطَى الاِبْنَ أَيْضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ.» (يو ٥:٢١)

وحينما يقول القديس يوحنا أن «فيه كانت الحياة» فإنه يشرح بدقة وبصورة مباشرة ما جاء في الأية التى قبلها: «كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ» (يو ١:٣). إذن، سر قوة الخلق لدى اللوغس الكلمة متمركز بصورة أساسية في امتلاك الكلمة لجوهر الحياة امتلاكاً ذاتياً.

وعلى القارىء أذ يلاحظ أنه لم يقل: «فيه» حياة أي «حي» وحسب، بل «فيه الحياة» كينبوع: «أَنَا هُوَ الأَلِفُ وَالْيَاءُ، الْبِدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ. أَنَا أُعْطِي الْعَطْشَانَ مِنْ يَنْبُوعِ مَاءِ الْحَيَاةِ مَجَّاناً. » (رؤ ٢١:٦)

وحينما يقول القديس يوحنا أن «فيه كانت الحياة» بعد قوله : «كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ» ، فهو يشير ضمناً إلى علة الارتباط الجوهري بين الخليقة والكلمة، بصورة دائمة، وأيضاً ارتباط الكلمة بالخليقة كمصدر الحياة فيها ولها وبصورة دائمة أيضاً، فهو قوام حياتها: «لأَنَّنَا بِهِ نَحْيَا وَنَتَحَرَّكُ وَنُوجَدُ. كَمَا قَالَ بَعْضُ شُعَرَائِكُمْ أَيْضاً: لأَنَّنَا أَيْضاً ذُرِّيَّتُهُ.» (أع ١٧:٢٨).

وللأسف الشديد فنحن لا ندرك الآن من هذه الحياة إلآ صورها الظاهرة المربوطة بالزمن، أما جوهرها غير المنظور

وغير الزمني الذي هو لها الامتداد الأسمى، والأكثر بهاء وجمالاً، الذي لا يشوبه حزن ولا كآبة ولا تنهد، والروحاني الصرف؛ فهو، وان كنا نعيشه بالايمان، إلآ أنه محجوز عن فكرنا كما هو محجوز عن أعيننا، بانتظار استعلانه في الآبدية.

ولكن ما يقصده القديس يوحنا من قوله: «فيه كانت االحياة»، ليس هو الحياة التي هي قوام المخلوقات، لأن «حياة» المخلوقات هي الحياة المخلوقة، أما الحياة في الكلمة فهي «الحياة الخالقة» أي جوهر الحياة الفعال والتي نعرفها بـ «الحياة الآبدية»: «فَإِنَّ الْحَيَاةَ أُظْهِرَتْ، وَقَدْ رَأَيْنَا وَنَشْهَدُ وَنُخْبِرُكُمْ بِالْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَ الآبِ وَأُظْهِرَتْ لَنَا.» (١يو ١:٢)

وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ:

«الرب نورى وخلاصى» (مز ٢٧:١)

«قد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصى إلى أقصى الأرض» (إش ٤٩:٦)

بنفس تدرج مراحل الخلق في سفر التكوين يضع القديس يوحنا الإنسان كختام لكل الخليقة. وفي الحال يربط خلقة الإنسان بالحياة الأبدية، الأساس الذي خلق عليه الإنسان إذ خلقه الله على صورته، وبالتالي ليبقى معه ويحيا أمامه إلى الأبد[2]، وذلك بقوله: «وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ». فالحياة الطبيعية الزمنية التي كانت لكل الخليقة والتي أخذ منها الإنسان نصيبه، أضاف الله عليها نصيباً مختاراً عن فائق الخلائق، بأن وهبه نور الحياة الأبدية الذي به يدرك الله ويستمع إليه ويتكلم معه.

ولكن هنا في الأية: «والحياة كانت نور الناس»، يختزل القديس يوحنا مرحلة الحياة الأرضية كلها ولا يستبقي من عطية الله في الخلق بالنسبة للانسان إلا نور معرفته: الأمر الذي هو رسالة الكلمة اللوغس بالدرجة الاولى، بل ورسالة إنجيل يوحنا برمته: «وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحْدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتَهُ» (يو ١٧:٣)

وإنجيل يوحنا هنا تزدحم فيه الأسرار. فالإنسان المدلل الذي خُلق في جنة عدن تحت ظلال شجرة الحياة التي كان مزمعاُ أن يأكل منها ويحيا إلى الآبد، لكنه حرم نفسه منها بإرادته، مع أنها غُرست له وهو خُلق لها؛ وهو الذي كانت تفطيه سحابة الحياة النيرة، تُضيء فكره وروحه فيرى الله ويتحدث إليه، ولكنه أخطأ وغطى نفسه حتى لا يراه الله ولا يرى هو الل؛؟ ولكن الله عاد فتذكر وعده وتذكر حبه، فأرسل «الكلمة» في ملء الزمان، لا كشجرة حياة بل «خبز الحياة»، فأكل الانسان منه وارتدت روح الله فيه وعاش إلى الأبد؟ وانفتحت عيناه وعاين «انورالحياة» وعرف الحياة الأبدية.

وهكذا يشير القديس يوحنا في هذه الأية: «فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ» إشارة قديرة بليغة إلى الأصول الاولى من جهة السر الذي كان مخفياً في كلمة الله عند الخلق من جهة نصيب الانسان حسب مسرة قصد الله أن يحيا بحياة الله ويستير بنوره: «فِيهِ كَانَتِ الْحَيَاةُ وَالْحَيَاةُ كَانَتْ نُورَ النَّاسِ»، الأمر الذي تحقق في المسيح، وحققه المسيح جهاراً: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ وَالْحَيَاةُ» (يو ١٤:٦)، «أَنَا نُورُ الْعَالَمِ» (يو ٩:٥)

---

[2] وذلك بحسب مطلع قداس القديس باسيليوس حسب النص اليوناني: »يا الله العظيم الأبدي الذي خلق الإنسان على الخلود» وهي أصلا مقبسة من سفر الحكمة (٢:٢٣): »فإن الله قد خلق الإنسان خالداً، وصنعه على صورة ذاته»

فالقديس يوحنا يكشف لنا في مقدمة إنجيله عن عطيتي الحياة والنور اللتين كانتا مختفتين في اللوغس منذ الآزل، واللتين كشفهما لنا المسيح وحققهما وسكبهما علينا سكبياً على مستوى المنظور والزمن، أو ربما على الوجه الأصح أن ما سكبه المسيح من ملئه علينا في أواخر الآيام من الحياة والنور، هما في الحقيقة من مذخرات الآزل، من مل ء لاهوت «الكلمة»، حتى ندرك عظم النصيب الإلهي الذي صار لنا، وجلال وهيبة المسيح الذي جاءنا من عند الآب.

علاقة الحياة بالنور في هذه الآية: تتكرر كلمة «الحياة» في إنجيل يوحنا أكثرمن ثلاثين مرة، وجميعها يتجه معناه نحو الحياة الآبدية على أساس مفهوم الخلاص. ولكن القديس يوحنا حتى ورود هذه الآية ٤:١ لم يكن قد بلغ نقطة التجسد بعد، فالحياة التي كانت في «الكلمة»: «فيه كانت الحياة»، لا ينصب معناها في هذه الآية نحو الخلاص كما يتسرع بعض الشراح في شرحهم. ولكنها هي الحياة التي تكلم عنها القديس يوحنا في رسالته الاولى: الحياة الأبدية التي كانت عند الآب و(ثم) «أظهرت لنا». أما قوله: «والحياة كانت نور الناس» فهنا أول فعل الامتداد للحياة الآبدية التي كانت عند الآب وفي اللوغس الكلمة لتواجه الإنسان وليتواجه بها الإنسان فيما قبل التجسد.

ثم إن الحياة الأبدية في حقيقتها هي «حياة الله» ولا يقترب منها الإنسان، ولا هي تقترب إليه، إلا بالاستعلان، بمعنى أن الكشف يكون عن طريق الاستنارة بالروح وليس برؤيا العين. ومن خصائص طبيعة الحياة الآبدية «النور»الإلهي، فالله طبيعته «النور»، «الله نور» (١يو ٥:١)، «ساكناً في نور لا يدنى منه، الذي لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه» (اتى ١٦:٦)

وها كشف لنوعين من النور: الأول جوهري وهو طبيعة الله، والثاني مخلوق: «ساكناً في نور لا يُدنى منه»، وهو الطاقة الاولى والعظمى التي انحدرت منها كل الطاقات والمجالات والمادة المخلوقة.

فرؤية النور الإلهي أو الدخول في مجاله لا يكون قط من خلال الطبيعة الجسدية للانسان بل من خلال الروح، حينما تنشط من الداخل، أو حينما تقتحمها القوة الإلهية المنيرة من الخارج. وفي كلا الحالين يكون الجسد بكل ملكاته في حالة توقف مؤقت لاستقبال المعرفة. وفي هذا الوقت يرى الإنسان النور الإلهي رؤيا الروح، ويدركه بإدراك العقل الروحي، وحينئذ يختفي نور النهار ويضمحل نور الشمس، لأن نور الطبيعة الإلهية أعلى مجالاً وأسمى نوعاً بدرجة لا تقاس.

«وَحَدَثَ لِي بَعْدَ مَا رَجَعْتُ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَكُنْتُ أُصَلِّي فِي الْهَيْكَلِ أَنِّي حَصَلْتُ فِي غَيْبَةٍ. فَرَأَيْتُهُ (أع ١٧:٢٢)

فَحَدَثَ لِي وَأَنَا ذَاهِبٌ وَمُتَقَرِّبٌ إِلَى دِمَشْقَ أَنَّهُ نَحْوَ نِصْفِ النَّهَارِ بَغْتَةً أَبْرَقَ حَوْلِي مِنَ السَّمَاءِ نُورٌ عَظِيمٌ. فَسَقَطْتُ عَلَى الأَرْضِ ...... » (أع ٢٢:٦-٧)

«رَأَيْتُ فِي نِصْفِ النَّهَارِ فِي الطَّرِيقِ أَيُّهَا الْمَلِكُ نُوراً مِنَ السَّمَاءِ أَفْضَلَ مِنْ لَمَعَانِ الشَّمْسِ قَدْ أَبْرَقَ حَوْلِي وَحَوْلَ الذَّاهِبِينَ مَعِي.» (أع ١٣:٢٦)

ويلاحظ القارىء أن ظهورالنور الإلهي الطاغي لشاول لم يكن عن استحقاق أويدخل بأي حال من الأحوال في مضمون استعداد طبيعة شاول، لا بالصلاة ولا بالإيمان بالمسيح ولا بالحب ولا بالتصوف ولا على أي أساس بشري، بل هو اقتحام للطبيعة الجسدية من جهة واحدة بمقتضى تدبير الله.

وليكن معلوماً أن رؤية بولس لهذا النور الإلهي، ومعه الصوت الإلهي يعرف نفسه له أنه هو يسوع، هذه الرؤية

بحد ذاتها أدخلت بولس الرسول في مجال معرفة المسيح والاتصال به والتعلم منه كل سني حياته. فمن خلال هذا النور الكاشف والمضيء للذهن الروحي تعلم بولس وعلم إنجيل الحياة الآبدية والخلاص:

وَأُعَرِّفُكُمْ أَيُّهَا الإِخْوَةُ الإِنْجِيلَ الَّذِي بَشَّرْتُ بِهِ، أَنَّهُ لَيْسَ بِحَسَبِ إِنْسَانٍ. لأَنِّي لَمْ أَقْبَلْهُ مِنْ عِنْدِ إِنْسَانٍ وَلاَ عُلِّمْتُهُ. بَلْ بِإِعْلاَنِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. فَإِنَّكُمْ سَمِعْتُمْ بِسِيرَتِي قَبْلاً فِي الدِّيَانَةِ الْيَهُودِيَّةِ، أَنِّي كُنْتُ أَضْطَهِدُ كَنِيسَةَ اللهِ بِإِفْرَاطٍ وَأُتْلِفُهَا. (غل ١:١١-١٣)

ثم لاحظ أيها القارىء العزيز أن الحياة الأبدية التي دخل إليها بولس الرسول ظهرت له «كنور» بالنسبة للوعي الروحي، وأنشأت فيه وفي الحال استنارة فائقة لإدراك سر المسيح وسر الخلاص وسر لاهوت المسيح بكل أعماقه.

ثم لاحظ أن بولس الرسول اكتشف أن هذا النور، وهذه الحياة التي اندفقت فيع، هي بفعل وحضور يسوع المسيح المتكلم بنفسه من السماء: «من أنت يا سيد؟»، «أنا يسوع الذي أنت تضطهده» (أع ٩:٥)

ومثل آخر يوضح معنى النور وعمله، وذلك في شهادة بطرس الرسول المفاجئة للمسيح: «فأجابه سمعان بطرس يا رب إلى من نذهب، كلام الحياة الأبدية عندك، ونحن قد آمنا وعرفنا أنك أنت المسيح ابن الله الحي» (يو ٩:٦٨-٦٩). وكان تعليق المسيح على قول القديس بطرس هذا كما جاء في إنجيل القديس متى: «فأجابه يسوع وقال له: طوبى لك يا سمعان بن يونا، إن لحماً ودما لم يعلن لك، لكن أبي الذي في السموات» (مت ١٦:١٧). معنى هذا أن بطرس نال استنارة ذهنية ونور الله أضاء فكره وروحه ليتقبل استعلاناً مباشراً عن المسيح من الله، هذا هو النور الذي يتقبله الإنسان عندما يدخل من عتبة الحياة الأ بدية.

والإنجيل بعد ذلك يشرح بقوة وبإفصاح مدهش عن هذه الحقيقة: «أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة» (يو ٨:١٢)

فإذا سرنا في النور فنحن نكون في عمق الحياة مع الله ومعرفته.

وقد ارتبط النور بالمحبة في إنجيل يوحنا، وهذا ليس عجيباً. فالله محبة، والله نور أيضاً، وهكذا ارتبط النور بالصلاح وارتبطت الظلمة بالأعمال الشريرة وبالدينونة، فى آن واحد: «وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلمة أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو ٣:١٩)

وهذا يعني أن غياب النور عن الإنسان يكون باختياره، لأنه يرفض الحياة في النور أي في الحق والمحبة والقداسة. وغياب النور عن الإنسان معناه غياب الله، حيث يختفي الهدف الحقيقي للحياة، بل وتفقد الحياة قيمتها العليا ومعناها، فلا يعود الإنسان يرى نفسه ولا يعود يعرف لماذا يعيش.

٥- وَالنُّورُ يُضِيءُ فِي الظُّلْمَةِ وَالظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ

هنا يضع القديس يوحنا، ولأول مرة «النور» في مقابل «الظلمة»، الوجود في مقابل العدم.

أما النور فقد عرفه بعد ذلك أنه «النور الحقيقي» وهكذا يتضح أنه طبيعة الله. لأن هناك فرقاً هائلاً بين النور المخلوق الذي هو قوة وطاقة وبين النور الخالق الذي هو حياة.

فإن كنا في الأية السابقة قد وجدنا الحياة الآبدية، التي في الكلمة، وقد دخلت في علاقة مباشرة مع الإنسان بعد الخليقة «كل شيء به كان»، وهذه الحياة كانت هي مصدر النور للناس: «والحياة كانت نور الناس»؛ فهنا في هذه الأية: «النور يُضيء في الظلمة» يزيد المعنى السابق إيضاحاً من جهة مبادرة النور من تلقاء ذاته للقيام بعمله

الجوهري أي «الإضاءة»، بمعنى أن الكلمة لم يُلق على الإنسان كل مهمة التعرف على النور أو الوصول إليه. فالنور الإلهي يضيء من ذاته ومن سخاء طبيعته الالهية، كما يصفه إشعياء النبي: «وَيَكُونُ نُورُ الْقَمَرِ كَنُورِ الشَّمْسِ وَنُورُ الشَّمْسِ يَكُونُ سَبْعَةَ أَضْعَافٍ كَنُورِ سَبْعَةِ أَيَّامٍ فِي يَوْمِ يَجْبُرُ الرَّبُّ كَسْرَ شَعْبِهِ وَيَشْفِي رَضَّ ضَرْبِهِ» (إش ٣٠:٢٦)، وهو ما يصفه بولس الرسول في اختباره العجيب: رَأَيْتُ فِي نِصْفِ النَّهَارِ فِي الطَّرِيقِ أَيُّهَا الْمَلِكُ نُوراً مِنَ السَّمَاءِ أَفْضَلَ مِنْ لَمَعَانِ الشَّمْسِ قَدْ أَبْرَقَ حَوْلِي وَحَوْلَ الذَّاهِبِينَ مَعِي. (أع ٢٦:١٣).

وهنا نلتقط الفكرة المبدئية في علاقة النور بالخليقة، فحقيقة «النور يضيء في الظلمة» في معناها الخصب تفيد نصرة الخلق على العدم، كما تفيد نصرة الحق على الباطل، أو معرفة الله على الجهالة، وبالنهاية وعلى الواقع الملموس تجسد الكلمة ذاته فيما بعد. لأن هذا هو بالفعل دخول النور إلى العالم المظلم: «وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم...» (يو ٣:١٩). وبدخول النور إلى ظلمة العالم انقسم عالم الإنسان إلى إنسان النور وإنسان الظلمة، وان كان إنسان الظلمة يعيث فساداً وتخريباً، ولكن لن يتغلب غير الموجود على الموجود. فإنسان النور اكتسب وجوداً أزلياً، أما الظلمة فتنتهي إلى العدم ولن يبقى إلا النور.

كذلك ففي هذه الأية يكون القديس يوحنا لا يزال منحصراً في الكلمة وعلاقته بالناس،لأن «الإضاءة» هى نور الاستعلان بالنسبة للخليقة ذات الإدراك الروحي عامة، وذلك قبل أن يحصر عمله مع خاصته أى مع شعب أسرائيل. فقوله: «النور يضيء في الظمة» يتجه إلى مطق عمل «الكلمة» في الظلمة بالنسبة للانسان عامة، دون تخصيص حقبة زمنية أو شعبب مميز أو أية ظروف خاصة. فالإشارة هنا إل طبيعة عمل جوهر النور الإلهي في الكلمة تجاه طبيعة الإنسان الروحية كإنسان. وهذه الحقيقة أشار إليها القديس بولس الرسول هكذا: «لأن الأمم الذين ليس عندهم ناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو في الناموس، فهؤلاءه إذ ليس لهم الناموس، هم ناموس لأنفسهم، الذين يظهرون عمل الناموس مكتوباً فى قلوبهم شاهدأ أيضاً ضميرهم وأفكارهم فيما بينها مشتكية أو محتجة.» (رو ٢:١٤-١٥)

واضح من كلام القديس بولس أن النور الإلهي لم يحرم الأمم من الحصول على صورة منيرة لقوانين الله الأخلاقية التي تصلح أن تدينهم وتبكت ضمائرهم.

كذلك سبق أن استشهدنا بقول للقديس بولس الرسول عل نفس المستوى باعتبار أن الله أظهر معرفته للناس عامة منذ الدهر: «إِذْ مَعْرِفَةُ اللهِ ظَاهِرَةٌ فِيهِمْ لأَنَّ اللهَ أَظْهَرَهَا لَهُمْ. لأَنَّ مُنْذُ خَلْقِ الْعَالَمِ تُرَى أُمُورُهُ غَيْرُ الْمَنْظُورَةِ وَقُدْرَتُهُ السَّرْمَدِيَّةُ وَلاَهُوتُهُ مُدْرَكَةً بِالْمَصْنُوعَاتِ حَتَّى إِنَّهُمْ بِلاَ عُذْرٍ. (رو ١:١٩-٢٠)

واضح، إذن، أن النور يضيء في الظلمة بصورة عامة منذ بدء الخلق، لأن هذا عمل يختص بصميم طبيعة الكلمة بالنسبة للناس، باعتبار أن الإنسان مخلوق مُدرك على صورة الله، والله مدرك كامل. فالعلاقة بينه وبين الكلمة علاقة كيانية، حيث يستمد منه الإنسان كيانه وإحساسه بنفسه عامة، وادراكه الروحي خاصة. لذلك تقول الأية: «حتى إنهم بلا عذر»

ما هي الظمة.

عرفنا أن النور الحقيقي هو طبيعة الله و «الكلمة»، ومعلوم أن «الظلمة» بحسب معرفة الإنسان المادية والقياسية هي غياب النور ليس إلا، أي لا توجد ظلمة، ككيان بحد ذاته، ولكن الظمة تصير أحيانا بغياب النور. وهذا المقياس ينطق على المعنى الروحي «للظلمة» بمفهومها الروحي إلى حد كبير. فإذا أخذنا «النور» مأخذاً شخصياً

يكون «النور» هو الله من جهة طبيعته. وبالتال تكون «الظلمة» هي الشخص الذي يخلو من طبيعة الله المضيئة والمنيرة (روحياً) خلواً تاماً سواء كان هذا شيطاناً أو إنساناً. وقد عرفنا الإنجيل بكل يقين أن شخص الظمة هو الشيطان. حيث يقدم لنا الإنجيل معرفة الله وكلمته أنه «المحيي» للانسان جسدياً وروحياً، والشيطان أنه «قتال للناس منذ البدء» جسدياً وروحياً، وإن الله وكلمته أمين وصادق في كل ما يقول ويعمل، وأن الشيطان «كذاب وأبو الكذاب» (يو ٨:٤٤). ومن ذلك نرى أن الله نور حقاً وأن الشيطان ظلمة بالحقيقة، ويدعوه المسيح «سلطان الظلمة»: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة» (لو ٢٢:٥٣)، وهي ساعة تزور حكم الموت للمسيح.

فإذا عرفنا الظلمة بحد ذاتها خلواً من شخص، أي من جهة طبيعتها وعملها، تكون هي السالبية بكل معانيها وأعمالها:

فإن كان النور الحقيقي أي الله هو «المحبة» وهو «الرحمة» والسلام» و«الحق» و«الأمانة»؛ يكون الظلام أو الظلمة هي اللامحبة وكل ما يتفرع منها، البغض والكراهية والحقد والحسد والنميمة والذم والقتل..... إلخ.

وهي اللارحمة وكل ما يتفرع منها، القسوة والنقمة والتعذيب......إلخ.

وهي اللاسلام وكل ما يتفرع منه، القلق والضيق والاضطراب والتشويش والخوف .....إلخ

وهي اللآحق وكل ما يتفرع منه، الغش والتزوير والتحريف والكذب....إلخ .

وهي اللا أمانة وكل ما يتفرع منها: الخيانة والإختلاس والسرقة...... إلخ .

فهذه كلها أعمال«الظلمة» التي تتخذ وجودها ونشاطها من غياب «النور»

لذلك عندما يقول القديس يوحنا إن: «الله نور وليس فيه ظلمة البتة» (١يو١:٥)، فهذا يعني خلو طبيعته المنيرة الخيرة من كل السالبية خلواً باتاً.

وعندما يقول إن الحياة الأبدية التي في «الكلمة» «فيه كانت الحياة»، وهذه الحياة هي «نور الناس»، فهو يقصد بكل تأكيد أن حياة «الكلمة» في الناس هي مصدر كل الإيجابيات، فهي حضرة نور الله وصفاته داخل النفس البشرية حيث ينمو الحب وتزدهر الرحمة وينشر السلام ويتجذر الحق وتثبت الأمانة. وذلك كله يتم على جهتين:

فمن جهة الخالق وكلمته، فإنه يتعهد صورته التي خلق لتبقى على صورة خالقها، ومن جهة الإنسان تنزع الصورة فيه بحسب طبيعتها لتحاكي أصلها وتتعدل عليه.

هذا كله بدأ منذ الخلق وسار في طريق الزمن، مرة يعلو ومرة ينخفض، من شعب لشعب ومن إنسان لإنسان، والله يعدل طريقته بحسب اعوجاج الانسان أو استقامته، من إعلان لإعلان، ومن تزكية لتزكية، ليبلح قصده من الخلق يوم خلق. إلى أن «أظهرت الحياة الآبدية»، التي في الكلمة، التي كانت عند الأب في صميم جوهرها، وتجسد النور بملء فعله كأخر مرحلة من خطة الله الأزلية، ليأخذ الإنسان صورة خالقه ويدخل معه الحياة في حال التبني.

وقول القديس يوحنا أن «االنور يضيء في الظلمة والظلمة لم تدركه» هو تصوير بديع لحال الإنسان الذي أخفق كثيراً ومراراً في الإمساك بالنور أو التعرف عليه. فأول إخفاق شنيع ومريع كان في انحياز آدم وحواء إلى الظمة وخروجهما من دائرة النور الفعال، ثم على مدى كل الأزمنة القديمة وعلى ستوى الفهماء والحكماء والشعراء والفلاسفة الكبار، أخفق الإنسان أن يمسك بالنور أو يتحول إليه: « لأَنَّهُمْ لَمَّا عَرَفُوا اللهَ لَمْ يُمَجِّدُوهُ أَوْ يَشْكُرُوهُ كَإِلَهٍ بَلْ حَمِقُوا فِي أَفْكَارِهِمْ وَأَظْلَمَ قَلْبُهُمُ الْغَبِيُّ. وَبَيْنَمَا هُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ حُكَمَاءُ صَارُوا جُهَلاَءَ. وَأَبْدَلُوا مَجْدَ اللهِ الَّذِي لاَ يَفْنَى بِشِبْهِ صُورَةِ الإِنْسَانِ الَّذِي يَفْنَى وَ الطُّيُورِ وَ الدَّوَابِّ وَ الزَّحَّافَاتِ.» رو ١:٢١-٢٣)

بل ويمعن بولس الرسول في إظهار مدى تسرب النور الإلهي والحكمة الإلهية إلى حكماء العالم قديماً، وخاصة حكماء أثينا، وبالرغم من امتلاكهم «حكمة الله» فإنهم لم يخضعوا لنورها، وبالتال لم يدركوا الله بالحكمة لأنه إذ كان العالم في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة، استحسن الله أن يخص المؤمنين بجهالة الكرازة (الصليب). (١كو ٢١:١)

وهذا ما يقصده القديس يوحنا في تصويره لمرحلة عمل «الكلمة» في العالم والناس فيما قبل ظهوره في العهد القديم على ألسنة الأنبياء، كـ «كلمة الله» وكنور، عندما اختار له أخصاء من شعب اختاره لنفسه للاعلان عن الله وعن قرب

الظمة تتعقب النور: يقول القديس يوحنا أن «النور يضىء» وهذا بحكم طبيعته الإلهية الخيرة، وهو يضىء على الجميع بلا استثناء كما يقول الإنجيل: «يشرق شمسه على الأشرار والصالحين» (مت٥:٤٥). ولكن لكي يبين الله عظم صلاحه فإنه يركز عمل نوره عل الظمة والجالسين في الظمة.

ولقد تحدد منذ الدهر بفم أنبياء كثيرين أن المسيح سيكون «نوراً للأمم» بقدر ما سيكون «مجداً لشعبك إسرائيل» (لو٢:٣٢). لذلك أصبح من طبيعة النور الخلاصية أنه يعقب الظمة منذ الآزل: «للرب حرب مع عماليق من دور إلى دور» (خر ١٧:١٦). وهو يفتش عن الذين له في مسالك الأرض كلها: «الشعب السالك في الظمة أبصر نوراً عظمياً. الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور.» (إش ٩:٢)

وتعقب النور للظلمة أنشأ بالتالي ترصداً وتعقباً مضاداً من جهة الظلمة تجاه النور، وذلك بحسب قانون الأفعال والحركات، مادية كانت أو روحية، القائل بأن لكل فعل رد فعل، بمقتض تدبير الله تجاه إبليس المدعو أيضاً «سلطان الظمة»، حينها قال الله للحية التي كانت تنطق بفم إبليس: «وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها، هو يسحق (يرصد) رأسك وأنت تسحقين (ترصدين) عقبه.» (تك ٣:١٥)

وقول القديس يوحنا أن «الظلمة لم تدركه» هو وصف دقيق للعجز الذي ظهر به الشيطان في صراعه ضد مصدر النور بطول الزمن وعل مدى الحياة.

فقد لخص سفر الرؤيا معركة المسيح مع إبليس والعالم هكذا: « فَنَظَرْتُ، وَإِذَا فَرَسٌ أَبْيَضُ، وَالْجَالِسُ عَلَيْهِ مَعَهُ قَوْسٌ، وَقَدْ أُعْطِيَ إِكْلِيلاً، وَخَرَجَ غَالِباً وَلِكَيْ يَغْلِبَ» (رؤ ٦:٢)

وهنا غلبة النور على الظلمة تأتي على مرحلتين: الاولى في الفعل الماضي «خَرَجَ غَالِباً» والثانية لأفعال قادمة « وَلِكَيْ يَغْلِبَ» .

وحرب الظلمة، من اسمها تعرف أنها حرب خداع وتزييف، لها صورة الحرب وهي ليست حرباً، ولها صورة الحق وهي الكذب بعينه.

بدأها الشيطان بحديث الحية مع الإنسان وهو في صورة الأضعف «حواء»: «أحقاً قال الله لا تأكلا من «كل» شجر الجنة» (تك ٣:١). هذا أول تزييف للحق، فالله لم يقل هذا ولكن هذا مدخل التشكيك.

ثم يبني الشيطان على التشكيك فكرة لها صورة الصدق، وهي الكذب المسموم، والتجربة التي صدقها الإنسان فمات بالفعل: «فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة لن تموتا...» (تك ٣:٢-٤). فأكل الإنسان ومات. هذه الحرب، حرب الغواية والغش والخدع قائمة بحسب بولس الرسول كما هي حتى اليوم: «ولكنني أخاف أنه كما خدعت الحية حواء

بمكرها هكذا تُفسد أذهانكم عن البساطة التي في المسيح.» (٢كو ١١: ٣).
ولكن أقوى مواجهة تمت بين النور والظلمة على مدى تاريخ الإنسان وعمره كانت مع المسيح: «لأن رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء» (يو ١٤: ٣٠)، «من منكم يبكتني على خطية.» (يو٨: ٤٦)
ولكن الشيطان في استخدام سلطان الظلمة أكثر من حدوده ووثق في أدوات القتل التى يملكها من شهود زور، ورؤساء يبخرون للكذب وحرفية الناموس القاتلة وحناجر الشعب ألجاهل وقاض جبان. وهكذا، فإنه وعلى الصليب رأى بولس الرسول كيف تم القبض على رؤساء الظلمة وكيف فُضحوا وشُهّر بهم: « إِذْ مَحَا الصَّكَّ الَّذِي عَلَيْنَا فِي الْفَرَائِضِ، الَّذِي كَانَ ضِداً لَنَا، وَقَدْ رَفَعَهُ مِنَ الْوَسَطِ مُسَمِّرًا ايَّاهُ بِالصَّلِيبِ، إِذْ جَرَّدَ الرِّيَاسَاتِ وَالسَّلاَطِينَ اشْهَرَهُمْ (فضحهم) جِهَاراً، ظَافِراً بِهِمْ فِيهِ (أى فى الصليب).» (كو ٢: ١٤-١٥)
ومن هذا، ولهذا صار الصليب رعباً للشيطان وسلاحاً ضد كل أعمال الظلمة.
فإذا أردنا أن نبلور حرب الظلمة الأولى مع أدم وحواء، فهذه يلخصها لنا القداس الإلهي في مطلعه قائلاً: «والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس... ». أما إذا أردنا أن نبلور حرب الظلمة الكبرى على الصليب، فهذه يلخصها الإنجيل بقوله: « فَأَجَابَهُمْ بِيلاَطُسُ: «أَتُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ مَلِكَ الْيَهُودِ؟». لأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّ رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ كَانُوا قَدْ أَسْلَمُوهُ حَسَداً.» (مر ١٥: ٩-١٠)
فالحسد، وهو الصفة الاولى لمن فقد النعمة، كان عمل الظلمة تجاه الإنسان لحجز النور عنه ولاطفاء النور ذاته، ولكن قرار الإنجيل الأخير أن الظلمة لم تدرك قصدها!! ولن تدرك!!

كَانَ إِنْسَانٌ مُرْسَلٌ مِنَ اللَّهِ اسْمُهُ يُوحَنَّا. هَذَا جَاءَ لِلشَّهَادَةِ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ لِكَيْ يُؤْمِنَ الْكُلُّ بِوَاسِطَتِهِ.
لَمْ يَكُنْ هُوَ النُّورَ بَلْ لِيَشْهَدَ لِلنُّورِ

لا يزال التسلسل الإعلاني عن الكلمة يسير في مجراه، من الأزلية عند الله ثم إلى الخلق، ثم إلى الحياة في الناس، وإلى النور. وهنا يبدأ القديس يوحنا ليدخل «بالكلمة»» إل مجال التاريخ الانجيلي.
والملاحظ أن الأناجيل بعد أن استوفت قصة ميلاد المسيح، بدأت على الفور تاريخ الإنجيل بذكر يوحنا المعمدان كبدء للخدمة العملية والكرازة. هذا ما سار عليه القديس يوحنا، إذ بعد أن استوفى استعلان وجود المسيح السابق على ميلاده أي تجسده، بدأ يؤرخ. ولكن أسلوب القديس يوحنا يرتفع دائماً بالتاريخ إلى ما هو فوق التاريخ. فإن كل كلمة ذكرها عن المعمدان وضعها في القابل لما ذكره عن المسيح، ليجعل المقارنة تنطق بألوهية المسيح.
فـ كان «إنسان» يقابلها «وكان الكلمة الله»
ثم «مرسل من الله» يأتي الفعل مبنياً للمجهول بصوم ة تجعل التركيز يقع على الإرسالية في حد ذاتها وعلى هدفها، فهي إرسالية إلهية ولكن المرسل «إنسان اسمه يوحنا». والقديس يوحنا يركز على الإرسالية أنها من الله باعتبار أن هذه الارسالية، وليس شخصه، هي التي تعطي المعمدان أهميته.
«اسمه يوحنا» هنا لو رجعا إلى إنجيل لوقا (١: ٥٩-٦٦) وقرأنا قصة تسمية يوحنا، نفهم لماذا ركز القديس يوحنا الإنجيلى على هذا الاسم من حيث القصد من التسمية، ثم معنى الاسم. فالقصد في قصة إنجيل لوقا مربوط بعلاقته بمجيء المسيح، والمعنى «الله يتحنن» يشير إلى تحنن الله بإرسال المخلص. فالتسمية والاسم بالنسبة للمعمدان يخدمان الإعلان عن المسيح الكلمة المتجسد. كذلك لا ننسى أن اسم كاتب الإنجيل هو يوحنا. فبالرغم من أن الأناجيل الثلاثة ذكرت المعمد بأسمه «يوحنا» مضافاً إليه لقبه الشهير جداً «المعمدان»، حتى يميزوه عن يوحنا

الإنجيلي، إلا أذ يوحنا نفسه لم يذكر لقب المعمدان مكتفياً بيوحنا، لأنه ليس ما يدعو للتمييز فهو كاتب الإنجيل. وهذا ما أخذه كثير من الشراح لإثبات أن كاتب الإنجيل الرابع هو يوحنا.

هذا جاء للشهادة ليشهد للنور:

«هذا» كحرف إشارة يفيد في أسلوب القديس يوحنا العودة إلى الشخص بكل صفاته المذكورة، حيث يجعل مجيئه لقصد محدد وهو«الشهادة للنور». وهذا هو محور كل ما سيجيء عن المعمدان في إنجيل يوحنا. ويلاحظ كيف يحصر القديس يوحنا عمل المعمدان في «الشهادة»، ثم كيف يعود ويؤكد حدود هذه الشهادة أيضاً، فهو جاء للشهادة فقط، وشهادته هى للنور فقط. فهو يركز على الشهادة وليس الشاهد نفسه.

وهنا يتبادر إل ذهن القارىء سؤال: ولماذا هذا التحديد والحصر والقصر؟؟

للرد نقول: إن عاملين أحدها إيجابي والأخر سلبي كانا يتحكمان في الحديث عن المعمدان بالنسبة لإنجيل يوحنا وخاصة في زمن كتابته:

العامل الاول الإيجابي: هو أهية شهادة المعمدان القصوى بالنسبة للانجيل كونه ممثلاً للعهد القديم بأنبيائه والمعاصر للمسيح، علماً بأن الشهادة تحتل في إنجيل يوحنا مركزاً هاماً.

(وترد فيه ١٤ مرة، في حين ترد في إنجيل مرقس ٣ مرات، وفي إنجيل لوقا مرة واحدة، وتغيب من إنجيل متى تاماً. كما يرد الفعل «يشهد» ٣٣ مرة في إنجيل يوحنا، ولا يرد نهائياً في إنجيل مرقس ويرد مرة واحدة في كل من إنجيلي متى ولوقا). وهكذا يستخدم إنجيل يوحنا الشهادة أكثر من أي سفر آخر في العهد الجديد.

وتوجد في إنجيل يوحنا سبعة أنواع من الشهادات للميسح، منها ثلاثة مختصة بالآقانيم الثلاثة:

شهادة الآب: ٣١:٥ و ٣٤ و٣٧ و ١٨:٨.

شهادة المسيح لنفسه: ١٤:٨ و ١٨ و ١١:٣ و ٣٢ و ٣٧:١٨.

شهادة الروح القدس: ٣٩:٥ و ٤٦.

ثم شهادة الآعمال التي يعملها المسيح: ٣٦:٥ و ٢٥:١٠ و١١:١٤ ٢٤:١٥.

ثم شهادة الأسفار المقدسة: ٣٩:٥ و ٤٦ .

والشاهد السادس هو يوحنا المعمدان.

أما الشهادة السابعة فهي لمجموعة عديدة من الآشخاص منهم التلاميذ ٢٧:١٥ و ٣٥:١٩ و ٢٤:٢١، ثم السامرية في بكور الرسالة، وكذلك نثنائيل، وبطرس في الختام. كما لا ننسى شهادة توما الفائقة القدر، وشهادة الآعمى الذي صار بصيراً.

على أن الشهادة كما يقدمها القديس يوحنا فى شخص المعمدان هي بمثابة وضع الرقبة تحت سيف القاتل. فالذي يشهد للمسيح أنه ابن الله كان عليه أولاً أن يفرط في نفسه وفي الحياة، ولذلك تأتي شهادته توكيداً «للحق» الذي كان عنده أعلى قيمة من الحياة. ويسلمنا القديس يوحنا إنجيله محمولاً على رقاب كثيرة أولهم المعمدان.

العامل الثاني وهو السلبي: لأنه قامت شيعة يهودية نصف مسيحية تتعصب للمعمدان كونه هو المسيح، نسمع عن بدايتها في إنجيل لوقا: «وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح...»» (لو ١٥:٣). ثم في سفر الأعمال: «ثم أقبل إلى أفسس يهودي اسمه أبلوس إسكندري الجنس رجل فصيح مقتدر في الكتب. كان هذا خبيراً في طريق الرب (التنبوئات عن المسيا)، وكان وهو حار بالروح يتكلم ويعلم بتدقيق ما يختص

بالرب عاوفاً معمودية يوحنا فقط» (أع ١٨:٢٤-٢٥)، كذلك: «بولس بعد ما اجتاز في النواحي العالية جاء إلى أفسس، فإذ وجد تلاميذ قال لهم هل قبلتم الروح القدس لما آمنتم. قالوا له ولا سمعنا أنه يوجد الروح القدس. فقال لهم فبماذا اعتمدتم، فقالوا بمعمودية يوحنا. فقال بولس إن يوحنا عمد بمعمودية التوبة قائلاً للشعب أن يؤمنوا بالذي يأتي بعده أي بالمسيح يسوع. فلما سمعوا اعتمدوا باسم الرب يسوع. ولما وضع بولس يديه عليهم حل الروح القدس عليهم فطفقوا يتكلمون بلغات ويتنبأرن. وكان جميع الرجال نحو اثني عشر» (أع ١٩:١-٧)

وفي ختام القرن الأول بلغت هذه الشيعة شأواً كبيراً بلبل الكرازة، هذا مما جعل القديس يوحنا يركز على كون المعمدان جاء للشهادة فقط ليشهد للنور ولم يكن هو النور، واستطرد في توضيح ذلك كلما جاء ذكر المعمدان.

«جاء للشهادة ليشهد للنور»:

على ضو ما قيل عن المعمدان نفهم لماذا يقصر القديس يوحنا مجيء المعمدان للشهادة فقط ، حتى إنه لا يذكر معمودية المسيح تحت يد المعمدان، وذلك عن قصد، لأنه يبدو أن هذه أخذت خطأ لتضيف من قدر عظمة المعمدان لا لتضيف من قدر تواضع الرب. كما أن القديس يوحنا يوضح في النهاية ومن فم المعمدان أنه حتى وان كان قد أرسله الله ليعمد، فهذا لكي يظهر المسيح لإسرائيل.

ولا يتبادر إلى الذهن أن القديس يوحنا كان ينتقص من شخصية المعمدان في شيء، بل أعطاه صفات مكرمة «مُرسل من الله» و «صديق العريس»، وسجل له أعظم شهادة للمسيح جاءت عل لسان إنسان: «وأنا قد رأيت وشهدت أذ هذا هو ابن الله» (يو ١:٣٤)؛ « هوذا حمل الله» (يو ١:٣٦)

«ليشهد للنور»:

شهادة المعمدان للنور في عُرف القديس يوحنا لا تزال محصورة في مفهوم «نور الكلمة»، إذ لم يذكر التجسد بعد. فالمعمدان يحمل رسالتين:

الرسالة الاولى: تختص بالأنبياء، إذ لا ينبغي أن ننسى أنه حامل لروح إيليا عظيم الأنبياء الذي أغلق السموات وفتحها بكلمة، والوحيد من بين كافة الأنبياء الذي ارتفع حياً إلى السماء عياناً في مركبة نارية وخيول نارية. والمسيح يشهد للمعمدان أنه فعلاً كان إيليا، مرة تلميحاً ومرة تصريحاً: «بل ماذا خرجتم لتنظروا، أنبياً؟ نعم أقول لكم وأفضل من نبي. هذا هو الذي كُتب عنه «ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيىء طريقك قدامك. لأني أقول لكم إنه بين المولودين من النساء نبي أعظم من يوحنا المعمدان ولكن الأصغر في ملكوت الله أعظم منه» (لو٧:٢٦-٢٨)

وهذا الملاك الذى يقول عنه المسيح هنا هو وارد فى سفر ملاخى النبى آخر أسفار العهد القديم، ووارد على صورتين، إحداهما فى هذه الصورة في (ملاخي ٣:١)، والصورة الأخرى «هأنذا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب، اليوم العظيم والمخوف.» (ملاخى ٤:٥)

أما المرة الاخرى التي صرح فيها المسيح أن المعمدان هو هو إيليا فجاءت هكذا: «ومن أيام يوحنا المعمدان إلى الآن ملكوت السموات يُغصب والغاصبون يختطفونه. لأن جيع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبأوا، وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي، من له أذنان للسمع فليسمع» (مت ١١:١٢-١٥).

ومرة أخرى أكثر وضوحاً: «وسأله تلاميذه قائلين فلماذا يقول الكتبة أن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً. فأجاب يسوع وقال لهم إن إيليا يأتي أولاً ويرد كل شيء. ولكني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا. كذلك

ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم. حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان» (مت ١٧: ١٠-١٣).
إذن، فالمعمدان يتكلم ويشهد للنور بروح إيليا كمن يمثل العهد القديم بكل أنواره وأمجاده وشجاعته. فلما انتقل القديس يوحنا الإنجيلي من إضاءة النور العامة للانسان عامة «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس»، و«النور أضاء في الظلمة والظلمة لم تدركه» في مفهومها العام أيضاً، أراد أن يخطو أول خطوة في وصف إضاءة النور الخاصة والأكثر إستعلاناً لشعب خاص، وذلك بواسطة الأنبياء، فقدم القديس يوحنا شخص المعمدان كمن يمثل النبوة في مجملها وفي أشد لمعانها «نبي وأعظم من نبي» ، «وليس من بين المولودين من النساء من هو أعظم منه».
الرسالة الثانية للمعمدان تختص بأنه هو السابق الصابغ الذي جاء ليعد طريق الرب، أي يمهد للنور، وليس الشاهد فقط بل والمشاهد أيضاً. وهذا أعطاه أن يكون «أعظم من نبي»، فهو صديق العريس أو «اشبينه»، له الكرامة الاولى في حفلة ظهور العريس. ولكن الخطأ المريع أن يُظن أنه العريس، وهو مجرد مصباح أضاء في آخر الليل في مطلع الفجر حتى خرجت الشمس من حجابها، وحينئذ جيد أن يُطفأ المصباح: «فرحي هذا قد كمل. ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص.»(يو ٣: ٢٩-٣٠)

«لكي يؤمن الكل بواسطته»

هذه الجملة مرتبطة بسابقتها ومتوقفة عليها، فهو جاء «ليشهد للنور»، «ليؤمن الكل» وهنا تكون الشهادة هى السبب المفروض لإيمان «الكل»، حيث الشهادة ستتضح بعد ذلك أنها شهادة من رأى وسمع: «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يو ١: ٣٤).
و«الكل» هنا تمتد لتشمل الشعب المرسل إليه وكل من تبلغه الشهادة هذه على مدى الدهور، لأن هذه كانت دائماً هي روح الأنبياء في رؤيتهم وشهادتهم للمسيا النور القادم: «نوراً للامم ومجدا لشعب إسرائيل». ولذلك يكون في كلمة «الكل» انفتاح الدعوة الجديدة على العالم أجمع بكل وضوح. ولكن للقديس يوحنا تلميح لا يُخطىء في قوله «الكل» فهو يستثني «البعض» الذين آمنوا بالمعمدان كونه المسيا الآتى وكانوا قلة ضالة.

«لم يكن هو النور، بل ليشهد للنور»:

لو لم يكن قد أخطأ الناس في تقييم المعمدان ما اضطر القديس يوحنا الإنجيلي أذ يبرز» في هذه المقارنة الأليمة. ولكن أليس القديس يوحنا نفسه هو التلميذ السابق للمعمدان؟ ومن شهادة المعمدان للنور الحقيقي نقل يوحنا تلمذته من المعمدان للمسيح؟ (يو ١: ٣٥-٣٩). فالأن هو أقدر من يقيم نور المعمدان عل نور المسيح.
وفي الحقيقة فإن النور لا يحتاج إلى شهادة بل رؤيا، ولكن لأن الناس أصبحت لا ترى، لزمت الشهادة. فشهادة المعمدان شهادة راء بالدرجة الاولى. المعمدان رأى النور فانعكس النور عليه فاستضاءه فأخطأ الناس الرؤيا وحسبوه هو النور، ولكنه انعكاس النور ليس إلا: كمصباح استمد نوره من يد النور. والمصباح لا يضيء إلا في «موضع» مظلم في غياب النور، شأنه شأن كل نبوة: «وعندنا الكلمة النبوية، وهي أثبت، التي تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مظلم إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصبح في قلوبكم» (٢بط ١: ١٩)، «أنا يسوع أرسلت ملاكي لأشهد لكم بهذه الأمور عن الكنائس. أنا أصل وذرية داود كوكب الصبح المنير» (رؤ٢٢: ١٦)
ولما فتح القديس زكريا الكاهن فمه ليتنبأ ساعة ميلاد المعمدان وصف هذا المنظر عينه: «وامتلأ زكريا أبوه من

الروح القدس وتنبأ قائلاً: ... وأنت أيها الصبي نبي العلي تدعى لأنك تتقدم أمام وجه الرب لتعد طرقه. لتعطي شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم. بأحشاء رحمة إلهنا التي بها افتقدنا المُشرق من العلاء ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت لكي يهدي أقدامنا في طريق السلام.» (لو ١:٦٧-٧٩)

٩- كَانَ النُّورُ الْحَقِيقِيُّ الَّذِي يُنِيرُ كُلَّ إِنْسَانٍ آتِياً إِلَى الْعَالَمِ.

عودة مرة أخرى إلى حركة النور الدائمة والمستمرة نحو التجسد: أولاً البدء والآزلية حيث «الكلمة»، ثم إلى الخلق، ثم إلى الحياة واستعلانه «نور الناس»، ثم إلى العمل الدائب ضد الظمة في كل مجالاتها، ثم توقف للشهادة للنور والتعرف به باعتباره النور الوحيد الكامل والدائم والمستمر. ثم استعلان صفته هنا لأول مرة بأنه هو «النور الحقيقي».

والحقيقي هنا لا تفيد أكثر من أنه هو وحده الذي يكشف الحق الكلي، وأنه هو الحقيقي وغيره غير كامل وغير دائم وغير مستمر. وهذا الاصطلاح يُستخدم في إنجيل يوحنا كثيراً، مثل الخبز «**الحقيقي**» النازل من السماء، والكرمة «**الحقيقية**» حيث الآب هو الكرام!! والساجدون «**الحقيقيون**» الذين يسجدون بالروح والحق. و«أنت الإله **الحقيقي** وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو ١٧:٣). والحقيقي هو ما يمت إلى «الحق».

فإن كان المعمدان «نوراً» فهو ليس «النور الحقيقي»، ولكنه نور عل مستوى المصباح المنار غير الكامل وغير الدائم وغير المستمر.

وقوله «ينير كل إنسان» لها إفادة كبيرة مترامية الأطراف تعني أنه وهو النور الحقيقي الذي يكشف الله ويعلنه، وليس نوراً أخر ولا واسطة أخرى مهما كانت توصل إلى الل، فهو الواسطة والطريق الوحيد إلى الله. كل من يأتي إلى هذا النور أو كل من أتى إلى هذا النور الحقيقي تنفتح بصيرته ويستعلن الله فيه، أي يرى نفسه أمام الله، أي أمام خالقه ونافخ روحه في أنفه، أي يتعرف على مصدر وجوده وحياته. وليس ذلك فقط بل كل من يدخل في هذا النور الحقيقي، أو يدخل هذا النور الحقيقي إليه، فإنه يرى العالم نفسه رؤية أخرى غير مظهر العالم، يراه في الله ويرى الله فيه ويدرك لاهوته بالمصنوعات التي فيه كما يقول بولس الرسول، أي يرى أصل العالم كما يرى أصل وجوده كإنسان.

وهكذا بالمقابل، يكون الإنسان الذي لا يأتي إل النور لأن أعماله شريرة، فإنه لا يرى نفسه أمام الله ولا يرى الله في العالم، أي لا يرى الله جملة وتفصيلاً، فيحيا فاقداً رؤية حقيقة نفسه، أي يرى نفسه في الظلام.

ومن هنا نفهم، تجاوزاً، أن للنور عملاً سلبياً. فهو إذا رفضه إنسان انعمت عيناه. وهذا معنى القول: «أعمى عيونهم وأغلظ قلوبهم» (يو ١٢:٤٠). وهنا يظهر بوضوح قول المسيح للفريسيين: «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون» (يو ٩:٣٩)

«الذى ينير كل إنسان»:

لقد سبق القديس يوحنا وأوضح أن «الحياة كانت نور الناس». فالحياة الآبدية التي النور جوهرها، هذا النور الذي يعتبر عمله الآول والآعظم هو الإنفتاح على وعي الإنسان لقبول الحقائق الإلهية، هذه الحياة الأبدية التي كانت في «الكلمة عند الله» والتي صارت عاملة في الخليقة، كان عملها في الإنسان هو سكب النور لتدريب وعي الإنسان. ولكن عاد القديس يوحنا وقال إن الظلمة قد طغت على الإنسان فمنعته من إدراك كنه هذا النور وحقيقته؛

الآمر الذي دعا الله أن يجعل «الكلمة» و«النور» وسيطاً مساعداً هم الأنبياء. ولكنه ينبه أيضاً أن الأنبياء، الذين جاء المعمدان ليمثلهم بروح إيليا وقوته، لم يكونوا هم النور بل مجرد شهود له، مجرد مصابيح مضاءة. ونحن نعلم أيضاً أن شهادتهم لم تُقبل! مما دعا الله أن يجعل « النور» يأخذ طريقه الأخير نحو الإنسان على مستوى التجسد. فالنور الذي ينير كل إنسان بلغ قوته العظمى في المسيح «أنا هو نور العالم» (يو ٨:١٢).

وقول القديس يوحنا أن «النور الحقيقي الذي ينير كل إنسان» هنا يصف النور الحقيقي من واقع عمله الأساسي وليس من واقع النتائج، فالنتيجة دائماً جاءت لا تساوي عمل النور وقوته. فالإنسان دائماً وعلى جميع الآحوال لا يعوزه هذا النور في الإحساس به في القلب والضمير وفي الخليقة من حوله وفي الحياة التي تعج بآيات الله الناطقة بنوره ووجوده؛ ولكن أيضاً فالإنسان دائماً وعلى جميع الأحوال لم يرتفع لمستوى حب الله وعنايته وفاعلية النور الإلهي العامل فيه ومن حوله. وهذا بالذات كان السبب الذي جعل الله يزيد من استعلان ذاته ويقترب أكثر فأكثر من الإنسان على مدى التاريخ.

ونلاحظ أن حالة الإستمرار التي أتت بها صيغة الفعل «الذي ينير» تكروت كثيراً في مواضع أخرى مما يكشف عن ديمومة في مقاصد الله منذ البدء، للا ستمرار في الإ تصال بالإنسان بكافة الطرق، فنحن نسمع المسيح يقول: «هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل مه الإنسان ولا يموت» (يو ٦:٥٠). وهذا نفسه وان كان يشير الى التجسد، وكأنه نزول دائم ليمد الإنسان بالحياة الدائمة حتى لا يموت الإنسان، فكم بالحري النور النازل باستمرار: «أنا هو نور العالم» (يو ٨:١٢)، والحياة النازلة: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤:٦). والحب النازل: «هكذا أحب الله العالم» (يو ٣:١٦). هكذا يكشف عن تنازل الله المستمر نحو الإنسان حتى «صار جسداً»

ثم عودة مرة أخرى هنا لتركيز القديس يوحنا على «كل انسان»، فإن كان يبدو أمراً صعباً فهم كيفية استنارة «كل إنسان» بـ «الكلمة» عملياً؛ ولكن لينتبه القارىء كيف سيتم هذا رغماً عن كل إنسان، عندما يتجسد الكلمة أخذاً طبيعة كل إنسان أو كل البشرية لنفسه، لا ليضيئها وحسب، بل لتتحد بالنور إتحاداً أزلياُ!! جاعلاً النور بذلك حقاً مشروعاً لكل إنسان بلا تمييز، كل من يؤمن! لأن الإنسان هو من خلقة النور ولأن النور هو أصل خلقة الإنسان!! لذلك حق للمسيح أن يقول: «أنا هو نور العالم» لأنه هو خالقه. كما يحق أن يقال بكل تأكيد أن ««العالم به وله قد خُليق» (كو ١:١٦). فالكلمة خلق العالم ليتجلى فيه، ولينتهي العالم إليه!!

«كان أتياً الى العالم»:

تقرأها بعض المصادر على أساس أنها صفة «لكل إنسان»، أي «كل إنسان أت إلى العالم»؛ ولكن الأصح عند معظم الثقاة أنها خبر للنور الحقيقي: «كان النور الحقيقي أتياً إلى العالم». ومما يرجح هذه القراءة أنه بعد ذلك أتى فعلاً إلى العالم بالتجسد!!

١٠ – كَانَ فِي الْعَالَمِ وَكُوِّنَ الْعَالَمُ بِهِ وَلَمْ يَعْرِفْهُ الْعَالَمُ.

يلزم أن ننتبه إل الرؤيه المتسعه لمفهوم القديس يوحنا عن الكلمة وعلاقته بالعالم، وذلك بالتفريق بين «كل شيء به كان» ويعني العالم بكل ما فيه، وبين «النور أضاء في الظلمة والظلمة لم تدركه» وهنا الظلمة هي ظلمة العالم والإضاءة هي استعلان الله لكل من له إدراك في العالم أي الإنسان، فالعالم هنا هو عالم الإنسان. أما قوله: «كان النور الحقيقي آتياً إل العالم»، فهنا انتقال أساسي من عمل الكلمة على مستوى الخلق والإضاءة إل عمل الكلمة بالحضور الشخصى للاعلان عن الله.

ومن ها نفهم قوله «كان في العالم» بمعى أنه كان عاملاً بالإضاءة أي بالاستعلان الإدراكي لكل من له إدراك، كما نفهم «وكون العالم به» بمعنى الخلقة ودوام الخلقة متصلة بخالقها، أما النتيجة الدائمة أو رد فعل العالم، وباستمرار فهو «لم يعرفه العالم». وهنا «لم يعرفه العالم» لا يعني عدم المعرفة بالإستضاءة العامة، ولكن عدم التعرف الشخصي عليه وعدم الاستجابة له أخلاقياً، وبالتالي الوقوف في الظلمة ومع الظلمة ضد الله، لأن عدم الإذعان للنور هو التحرر من سلطانه، وكأن لا خالق له،بل وكأنه هو خالق ذاته أو موجواً من تلقاء ذاته، وهذه هي نظرة الملحدين تماماً ونظرة اللاأدريين ومؤلهي العالم.

وهنا يتضح أيضاً عمق التغير الروحي لثنائية وجود النور والظلمة في لاهوت القديس يوحنا. فالظلمة في العالم أو في الإنسان ليس الله صانعها، بل الإنسان وحده مسئول عن صنعها بنفسه بالسير في الخطية والشر. فالظمة ليست كالنور، فهي ليس لها أصل وجودي كالنور، بل هي من إفرازات التاريخ والسلوك الإنساني. وبكل اختصار تكون الظلمة هي غياب النور، ويكون عمل النور في الإنسان هو العودة إلى الله ، أي الخلاص، وعمل الظمة بالمقابل هو الدينونة، أي الحرمان من الله. وهكذا أيضاً ينقسم العالم في لاهوت القديس يوحنا إلى عالم قابل للنور والخلاص، وهو العالم الذي أحبه الله، وعالم رافض للنور وواقع تحت الرفض والدينونة. وهذا هو الذي حدا بالكلمة أو جعله يتخذ الخطوة الأكثر استعلاناً وهي: المجيء الشخصي .

١١- إِلَى خَاصَّتِهِ جَاءَ وَخَاصَّتُهُ لَمْ تَقْبَلْهُ.

التدرج السابق في الاستعلان كان يبشر بهذه النتيجة الحتمية، فالعالم من أدم حتى إبراهيم ثم موسى لم يُعدم النور الإلهي، ولم يمتنع عنه صوت الله، ولم يمتنع على الإنسان أن يدعو باسم الرب. فنحن نسمع مبكراً جداً في أيام شيث بن أدم أن في أيامه ابتدأ الإنسان أن يدعو باسم الرب: «ولشيث أيضاً وُلد ابن فدعا اسمه أنوش، حينئذ ابتدىء أن يدعى باسم الرب» (تك٤:٢٦). معنى هذا أن الإنسان كان في هذا الزمان السحيق يعرف الله معرفة شخصية وبالاسم!!

ثم بعد ذلك الزمان بعدة مئات من السنين نسمع بشخصية قديسة على المستوى العملي ارتفع بمعرفة الله والمناداة باسمه إلى مستوى السيرة السماوية والمسيرة العاشقة مع الله، بنوع يفوق تصورنا وكأنها زمالة أو أخوية: «وسار أخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه» (٥:٢٤)

كذلك وبعد ذلك بأزمنة جاء نوح الذي أظلمت الدنيا في أيامه وانحصر النور الالهي عن وعي الإنسان وضميره، وبحسب تعبير الوحي المقدس: «وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلماً... إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه عل الأرض» (تك٦:١١-١٢). ولكن من بين هؤلاء وُجد نوح البار: «وكان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله وسار نوح مع الله» (تك٦:٩). وهكذا وفي وسط الظلام الدامس لم يعدم «الكلمة» إنساناً يشهد للنور ويعيشه فيصبح شفيعاً لمزيد من استمرار ولمزيد من استعلانه وأخيراً «جاء إلى خاصته».

«إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله».

من نشيد موسى النبي الذي قاله للوداع قبل موته نفهم أن الله قسم شعوب الأرض، وجعلها تحت حراسات ربما بعض الملائكة[3]، أما شعب إسرائيل فكان من نصيب الرب يرعاه بنفسه، أو بحسب تعبيره للأنبياء: «إقتناه لنفسه

---

[3] يُفهم من كلام دانيال النبي بعد السبي، أذ الرئيس الموكل على شعب إسرائيل صار هو الملاك ميخائيل (دا١٠:١٣ ، ٢١ ، ١٢:١)

خاصة»: «حينما قسم العلّي للأمم، حين فرق بني أدم، نصب تخوماً لشعوب حسب عدد بني إسرائيل (أي كثيرة). إن قسم الرب هو شعبه، يعقوب حبل نصيبه. وجده في أرض قفر وفي خلاء مستوحش خرب. أحاط به ولاحظه وصانه كحدقة عينه. كما يحترك النسر عشه وعلى فراخه يرف ويبسط جناحيه ويأخذها ويحملها على مناكبه، هكذا الرب وحده اقتاده وليس معه إله أجنبي.» (تث ٣٢:٨-١٢)

ويلزم التفريق بين كلمة «خاصته» الاولى لأنها جاءت بصيغة المحايد (neuer)، أي ليس مذكر ولا مؤنث، أي لا تفيد معنى الإنسان، وهنا ينصب المعنى على الأرض والوطن وعلى البيت، أي بيته وبلده. والمعنى ينحصر في نهاية الأيام وليس منذ إبراهيم أو موسى، بل في ملء الزمان، أي مجيء المسيح. أما كلمة «خاصته» الثانية فجاءت بالمذكر الجمع للعاقل، وهنا ينصب المعنى على الشعب ككل، أي شعبه. وكذلك فإن المعنى ينصب هنا على مجيء المسيا.

وهكذا تفيد هذه الأية أن مجيء الكلمة انحصر انحصاراً هذه المرة في رقعة أرض خاصة وفي شعب مختار خاص دون بقية الأراضي والشعوب، وكأنهما «بيت الله وأهله».

وإليك أيها القارىء من الأيات البينات ما يوضح ذلك:

تَرَنَّمِي وَافْرَحِي يَا بِنْتَ صِهْيَوْنَ لأَنِّي هَنَنَذَا آتِي وَأَسْكُنُ فِي وَسَطِكِ يَقُولُ الرَّبُّ. فَيَتَّصِلُ أُمَمٌ كَثِيرَةٌ بِالرَّبِّ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَيَكُونُونَ لِي شَعْباً فَأَسْكُنُ فِي وَسَطِكِ فَتَعْلَمِينَ أَنَّ رَبَّ الْجُنُودِ قَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكِ. وَالرَّبُّ يَرِثُ يَهُوذَا نَصِيبَهُ فِي الأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ وَيَخْتَارُ أُورُشَلِيمَ بَعْدُ. (زك٢:١٠-١٢)

ولكن ليس معنى ذلك أن الشعب المرفوض سابقاً سيمتلك الأرض التي اختارها الرب ليسكن فيها _ في نهاية الأيام_ بل تنص النبوة على أنه بالرغم من أن الرب سيأتي إلى الآرض، خاصته، ويسكن فيها، إلا أن الشعب سيطوح به بعيدا في الامم بسبب رفضه:

لاَ تَفْرَحْ يَا إِسْرَائِيلُ طَرَباً كَالشُّعُوبِ لأَنَّكَ قَدْ زَنَيْتَ عَنْ إِلَهِكَ. أَحْبَبْتَ الأُجْرَةَ عَلَى جَمِيعِ بَيَادِرِ الْحِنْطَةِ. لاَ يُطْعِمُهُمُ الْبَيْدَرُ وَالْمِعْصَرَةُ وَيَكْذِبُ عَلَيْهِمِ الْمِسْطَارُ. لاَ يَسْكُنُونَ فِي أَرْضِ الرَّبِّ بَلْ يَرْجِعُ أَفْرَايِمُ إِلَى مِصْرَ وَيَأْكُلُونَ النَّجِسَ فِي أَشُّورَ (هو٩:١-٣)

والسبب يذكره بوضوح إرميا النبي: «وأتيت بكم إلى أرض بساتين لتأكلوا ثمرها وخيرها، فأتيتم ونجستم أرضي وجعلتم ميراثي رجساً» (إر ٢:٧). والأساس الذي بمقتضاه سكن شعب إسرائيل فلسطين هو أن هذه الأرض ملك للرب وهم غرباء ونزلاء فيها، ليس فيها حق بيع أو شراء!!

«وَالأَرْضُ لاَ تُبَاعُ بَتَّةً لأَنَّ لِيَ الأَرْضَ وَأَنْتُمْ غُرَبَاءُ وَنُزَلاَءُ عِنْدِي.(لا ٢٥:٢٣)

أما شعب إسرائيل فاعتبرهم الرب خاصته، أي أهله وشعبه وعبيده الخصوصيين، وكأنه اشتراهم لنفسه، فهم ليسوا أحراراً في أنفسهم:

لأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِي عَبِيدٌ. هُمْ عَبِيدِي الَّذِينَ أَخْرَجْتُهُمْ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ. أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ (لا٢٥:٥٥)

فَالآنَ إِنْ سَمِعْتُمْ لِصَوْتِي وَحَفِظْتُمْ عَهْدِي تَكُونُونَ لِي خَاصَّةً مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الشُّعُوبِ. فَإِنَّ لِي كُلَّ الأَرْضِ. ٦- وَأَنْتُمْ تَكُونُونَ لِي مَمْلَكَةَ كَهَنَةٍ وَأُمَّةً مُقَدَّسَةً. هَذِهِ هِيَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تُكَلِّمُ بِهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ». (خر١٩:٥-٦)

لأَنَّكَ أَنْتَ شَعْبٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ. إِيَّاكَ قَدِ اخْتَارَ الرَّبُّ إِلهُكَ لِتَكُونَ لهُ شَعْباً أَخَصَّ مِنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الذِينَ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ. ليْسَ مِنْ كَوْنِكُمْ أَكْثَرَ مِنْ سَائِرِ الشُّعُوبِ التَصَقَ الرَّبُّ بِكُمْ وَاخْتَارَكُمْ لأَنَّكُمْ أَقَلُّ مِنْ سَائِرِ الشُّعُوبِ (تث ٧:٦-٧)

«أَنْتُمْ أَوْلادٌ لِلرَّبِّ إِلهِكُمْ. لا تَخْمِشُوا أَجْسَامَكُمْ وَلا تَجْعَلُوا قَرْعَةً بَيْنَ أَعْيُنِكُمْ لأَجْلِ مَيِّتٍ. لأَنَّكَ شَعْبٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ وَقَدِ اخْتَارَكَ الرَّبُّ لِتَكُونَ لهُ شَعْباً خَاصّاً فَوْقَ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الذِينَ عَلى وَجْهِ الأَرْضِ. (تث ١٤:١-٢)

وَوَاعَدَكَ الرَّبُّ اليَوْمَ أَنْ تَكُونَ لهُ شَعْباً خَاصّاً كَمَا قَال لكَ وَتَحْفَظَ جَمِيعَ وَصَايَاهُ. وَأَنْ يَجْعَلكَ مُسْتَعْلِياً عَلى جَمِيعِ القَبَائِلِ التِي عَمِلهَا فِي الثَّنَاءِ وَالاِسْمِ وَالبَهَاءِ وَأَنْ تَكُونَ شَعْباً مُقَدَّساً لِلرَّبِّ إِلهِكَ كَمَا قَال» (تث٢٦:١٨-١٩)

ولكن للأسف لم يحتفظ إسرائيل بلقبه ولا باسمه ولا بحب الله له، ولا كرم اختياره له ولا حافظ على عهده، بل ارتد عن إلهه: « وأعطوا القفا لا الوجه» (إر ٧:٢٤). والقول في ذلك كثير جداً يملأ كل أسفار العهد القديم. ولكن أبشع أوصاف الأرتداد جاءت من فم موس نفسه، أي من بكور مسيرة الشعب خلف الل ، ويا للفضيحة:

«أُنْصِتِي أَيَّتُهَا السَّمَاوَاتُ فَأَتَكَلمَ وَلتَسْمَعِ الأَرْضُ أَقْوَال فَمِي. يَهْطِلُ كَالمَطَرِ تَعْلِيمِي وَيَقْطُرُ كَالنَّدَى كَلامِي. كَالطَّلِّ عَلى الكَلإِ وَكَالوَابِلِ عَلى العُشْبِ. إِنِّي بِاسْمِ الرَّبِّ أُنَادِي. أَعْطُوا عَظَمَةً لإِلهِنَا. هُوَ الصَّخْرُ الكَامِلُ صَنِيعُهُ. إِنَّ جَمِيعَ سُبُلِهِ عَدْلٌ. إِلهُ أَمَانَةٍ لا جَوْرَ فِيهِ. صِدِّيقٌ وَعَادِلٌ هُوَ. «فَسَدُوا تِجَاهَهُ الذِينَ هُمْ عَارٌ وَليْسُوا أَوْلادَهُ جِيلٌ أَعْوَجُ مُلتَوٍ. هَل تُكَافِئُونَ الرَّبَّ بِهَذَا يَا شَعْباً غَبِيّاً غَيْرَ حَكِيمٍ؟ أَليْسَ هُوَ أَبَاكَ وَمُقْتَنِيَكَ هُوَ عَمِلكَ وَأَنْشَأَكَ؟ اُذْكُرْ أَيَّامَ القِدَمِ وَتَأَمَّلُوا سِنِي دَوْرٍ فَدَوْرٍ. اسْأَل أَبَاكَ فَيُخْبِرَكَ وَشُيُوخَكَ فَيَقُولُوا لكَ. «حِينَ قَسَمَ العَلِيُّ لِلأُمَمِ حِينَ فَرَّقَ بَنِي آدَمَ نَصَبَ تُخُوماً لِشُعُوبٍ حَسَبَ عَدَدِ بَنِي إِسْرَائِيل. إِنَّ قِسْمَ الرَّبِّ هُوَ شَعْبُهُ. يَعْقُوبُ حَبْلُ نَصِيبِهِ. وَجَدَهُ فِي أَرْضِ قَفْرٍ وَفِي خَلاءٍ مُسْتَوْحِشٍ خَرِبٍ. أَحَاطَ بِهِ وَلاحَظَهُ وَصَانَهُ كَحَدَقَةِ عَيْنِهِ. كَمَا يُحَرِّكُ النَّسْرُ عُشَّهُ وَعَلى فِرَاخِهِ يَرِفُّ وَيَبْسُطُ جَنَاحَيْهِ وَيَأْخُذُهَا وَيَحْمِلُهَا عَلى مَنَاكِبِهِ. هَكَذَا الرَّبُّ وَحْدَهُ اقْتَادَهُ وَليْسَ مَعَهُ إِلهٌ أَجْنَبِيٌّ. أَرْكَبَهُ عَلى مُرْتَفَعَاتِ الأَرْضِ فَأَكَل ثِمَارَ الصَّحْرَاءِ وَأَرْضَعَهُ عَسَلاً مِنْ حَجَرٍ وَزَيْتاً مِنْ صَوَّانِ الصَّخْرِ. وَزُبْدَةَ بَقَرٍ وَلبَنَ غَنَمٍ مَعَ شَحْمِ خِرَافٍ وَكِبَاشٍ أَوْلادِ بَاشَانَ وَتُيُوسٍ مَعَ دَسَمِ لُبِّ الحِنْطَةِ وَدَمَ العِنَبِ شَرِبْتَهُ خَمْراً. «فَسَمِنَ يَشُورُونَ وَرَفَسَ. سَمِنْتَ وَغَلُظْتَ وَاكْتَسَيْتَ شَحْماً! فَرَفَضَ الإِلهَ الذِي عَمِلهُ وَغَبِيَ عَنْ صَخْرَةِ خَلاصِهِ. أَغَارُوهُ بِالأَجَانِبِ وَأَغَاظُوهُ بِالأَرْجَاسِ. ذَبَحُوا لأَوْثَانٍ ليْسَتَ اللهَ. لآلِهَةٍ لمْ يَعْرِفُوهَا أَحْدَاثٍ قَدْ جَاءَتْ مِنْ قَرِيبٍ لمْ يَرْهَبْهَا آبَاؤُكُمْ. الصَّخْرُ الذِي وَلدَكَ تَرَكْتَهُ وَنَسِيتَ اللهَ الذِي أَبْدَأَكَ. «فَرَأَى الرَّبُّ وَرَذَل مِنَ الغَيْظِ بَنِيهِ وَبَنَاتِهِ. وَقَال أَحْجُبُ وَجْهِي عَنْهُمْ وَأَنْظُرُ مَاذَا تَكُونُ آخِرَتُهُمْ. إِنَّهُمْ جِيلٌ مُتَقَلِّبٌ أَوْلادٌ لا أَمَانَةَ فِيهِمْ. هُمْ أَغَارُونِي بِمَا ليْسَ إِلهاً أَغَاظُونِي بِأَبَاطِيلِهِمْ. فَأَنَا أُغِيرُهُمْ بِمَا ليْسَ شَعْباً بِأُمَّةٍ غَبِيَّةٍ أُغِيظُهُمْ. إِنَّهُ قَدِ اشْتَعَلتْ نَارٌ بِغَضَبِي فَتَتَّقِدُ إِلى الهَاوِيَةِ السُّفْلى وَتَأْكُلُ الأَرْضَ وَغَلتَهَا وَتُحْرِقُ أُسُسَ الجِبَالِ. أَجْمَعُ عَليْهِمْ شُرُوراً وَأُنْفِدُ سِهَامِي فِيهِمْ. إِذْ هُمْ خَاوُونَ مِنْ جُوعٍ وَمَنْهُوكُونَ مِنْ حُمَّى وَدَاءٍ سَامٍّ. أُرْسِلُ فِيهِمْ أَنْيَابَ الوُحُوشِ مَعَ حُمَةِ زَوَاحِفِ الأَرْضِ. مِنْ خَارِجٍ السَّيْفُ يُثْكِلُ وَمِنْ دَاخِلِ الخُدُورِ الرُّعْبَةُ. الفَتَى مَعَ الفَتَاةِ وَالرَّضِيعُ مَعَ الأَشْيَبِ. قُلتُ أُبَدِّدُهُمْ إِلى الزَّوَايَا وَأُبَطِّلُ مِنَ النَّاسِ ذِكْرَهُمْ. لوْ لمْ أَخَفْ مِنْ إِغَاظَةِ العَدُوِّ مِنْ أَنْ يُنْكِرَ أَضْدَادُهُمْ مِنْ أَنْ يَقُولُوا: يَدُنَا ارْتَفَعَتْ وَليْسَ الرَّبُّ فَعَل كُل هَذِهِ. «إِنَّهُمْ أُمَّةٌ عَدِيمَةُ الرَّأْيِ وَلا بَصِيرَةَ فِيهِمْ **(غياب نور الكلمة)**. لوْ عَقَلُوا لفَطِنُوا بِهَذِهِ وَتَأَمَّلُوا آخِرَتَهُمْ. كَيْفَ يَطْرُدُ وَاحِدٌ أَلفاً وَيَهْزِمُ اثْنَانِ رَبْوَةً لوْلا أَنَّ صَخْرَهُمْ بَاعَهُمْ وَالرَّبَّ سَلمَهُمْ؟ لأَنَّهُ ليْسَ كَصَخْرِنَا صَخْرُهُمْ وَلوْ كَانَ أَعْدَاؤُنَا حَاكِمِينَ. لأَنَّ مِنْ جَفْنَةِ سَدُومَ جَفْنَتَهُمْ وَمِنْ كُرُومِ عَمُورَةَ. عِنَبُهُمْ عِنَبُ سُمٍّ وَلهُمْ عَنَاقِيدُ مَرَارَةٍ. خَمْرُهُمْ حُمَةُ الثَّعَابِينِ وَسِمُّ الأَصْلالِ القَاتِلُ. «أَليْسَ ذَلِكَ مَكْنُوزاً عِنْدِي مَخْتُوماً عَليْهِ فِي خَزَائِنِي؟ لِيَ

النَّقْمَةُ وَالجَزَاءُ. فِي وَقْتٍ تَزِلُّ أَقْدَامُهُمْ. إِنَّ يَوْمَ هَلاكِهِمْ قَرِيبٌ وَالمُهَيَّئَاتُ لهُمْ مُسْرِعَةٌ. لأَنَّ الرَّبَّ يَدِينُ شَعْبَهُ وَعَلى عَبِيدِهِ يُشْفِقُ. حِينَ يَرَى أَنَّ اليَدَ قَدْ مَضَتْ وَلمْ يَبْقَ مَحْجُوزٌ وَلا مُطْلقٌ. يَقُولُ: أَيْنَ آلِهَتُهُمُ الصَّخْرَةُ التِي التَجَأُوا إِليْهَا. التِي كَانَتْ تَأْكُلُ شَحْمَ ذَبَائِحِهِمْ وَتَشْرَبُ خَمْرَ سَكَائِبِهِمْ؟ لِتَقُمْ وَتُسَاعِدْكُمْ وَتَكُنْ عَليْكُمْ حِمَايَةً. اُنْظُرُوا الآنَ! أَنَا أَنَا هُوَ وَليْسَ إِلهٌ مَعِي. أَنَا أُمِيتُ وَأُحْيِي. سَحَقْتُ وَإِنِّي أَشْفِي وَليْسَ مِنْ يَدِي مُخَلِّصٌ. إِنِّي أَرْفَعُ إِلى السَّمَاءِ يَدِي وَأَقُولُ: حَيٌّ أَنَا إِلى الأَبَدِ. إِذَا سَنَنْتُ سَيْفِي البَارِقَ وَأَمْسَكَتْ بِالقَضَاءِ يَدِي أَرُدُّ نَقْمَةً عَلى أَضْدَادِي وَأُجَازِي مُبْغِضِيَّ. أُسْكِرُ سِهَامِي بِدَمٍ وَيَأْكُلُ سَيْفِي لحْماً. بِدَمِ القَتْلى وَالسَّبَايَا وَمِنْ رُؤُوسِ قُوَّادِ العَدُوِّ. «تَهَللُوا أَيُّهَا الأُمَمُ شَعْبُهُ لأَنَّهُ يَنْتَقِمُ بِدَمِ عَبِيدِهِ وَيَرُدُّ نَقْمَةً عَلى أَضْدَادِهِ وَيَصْفَحُ عَنْ أَرْضِهِ عَنْ شَعْبِهِ». فَأَتَى مُوسَى وَنَطَقَ بِجَمِيعِ كَلِمَاتِ هَذَا النَّشِيدِ فِي مَسَامِعِ الشَّعْبِ هُوَ وَيَشُوعُ بْنُ نُونَ. وَلمَّا فَرَغَ مُوسَى مِنْ مُخَاطَبَةِ جَمِيعِ إِسْرَائِيل بِكُلِّ هَذِهِ الكَلِمَاتِ. قَال لهُمْ: «وَجِّهُوا قُلُوبَكُمْ إِلى جَمِيعِ الكَلِمَاتِ التِي أَنَا أَشْهَدُ عَليْكُمْ بِهَا اليَوْمَ لِكَيْ تُوصُوا بِهَا أَوْلادَكُمْ لِيَحْرِصُوا أَنْ يَعْمَلُوا بِجَمِيعِ كَلِمَاتِ هَذِهِ التَّوْرَاةِ. لأَنَّهَا ليْسَتْ أَمْراً بَاطِلاً عَليْكُمْ بَل هِيَ حَيَاتُكُمْ. وَبِهَذَا الأَمْرِ تُطِيلُونَ الأَيَّامَ عَلى الأَرْضِ التِي أَنْتُمْ عَابِرُونَ الأُرْدُنَّ إِليْهَا لِتَمْتَلِكُوهَا». وَقَال الرَّبُّ لِمُوسَى فِي نَفْسِ ذَلِكَ اليَوْمِ: «اِصْعَدْ إِلى جَبَلِ عَبَارِيمَ هَذَا جَبَلِ نَبُو الذِي فِي أَرْضِ مُوآبَ الذِي قُبَالةَ أَرِيحَا وَانْظُرْ أَرْضَ كَنْعَانَ التِي أَنَا أُعْطِيهَا لِبَنِي إِسْرَائِيل مُلكاً. وَمُتْ فِي الجَبَلِ الذِي تَصْعَدُ إِليْهِ وَانْضَمَّ إِلى قَوْمِكَ كَمَا مَاتَ هَارُونُ أَخُوكَ فِي جَبَلِ هُورٍ وَضُمَّ إِلى قَوْمِهِ. لأَنَّكُمَا خُنْتُمَانِي فِي وَسَطِ بَنِي إِسْرَائِيل عِنْدَ مَاءِ مَرِيبَةِ قَادِشَ فِي بَرِّيَّةِ صِينٍ إِذْ لمْ تُقَدِّسَانِي فِي وَسَطِ بَنِي إِسْرَائِيل. فَإِنَّكَ تَنْظُرُ الأَرْضَ مِنْ قُبَالتِهَا وَلكِنَّكَ لا تَدْخُلُ إِلى هُنَاكَ إِلى الأَرْضِ التِي أَنَا أُعْطِيهَا لِبَنِي إِسْرَائِيل» (تث٣٢:١-٥٢)

واضح أن أعمال الشعب الشريرة وأخصها الزنا وعبادة الأصنام التي أغرم بها الشعب، وأحياناً كثيرة كان ذلك بقيادة ملوكهم، هذه الأعمال الشريرة حجبت وجه الله. وهذا معناه المباشر توقف عمل «نور الكلمة» وحجز المعرفة والرأي الصواب والفهم والمشورة الحسنة عنهم، وذلك حتى لا يلوثوا اسم الله وكرامته ويخلطوا بين عمل الشر وعمل الله. وهذا بدوره مما حدا بالله، أو جعله يتقدم خطوة أكثر في الاستعلان عن نفسه بمجيء «الكلمة» مجيئاً منظوراً، حتى يتسنى لله أن يتكلم مع خاصته مباشرة دون وسيط أو نبي: «الله بعد ما كلم الآباء بالأنبياء قديما بأنواع وطرق كثيرة ، كلمنا في هذه الايام الأخيرة في ابنه... » (عب١:١-٢)

ولكن كان لا يزال غضب الله على الشعب، الذي فسد بقيادة رؤسائه، قائماً. بمعنى أنه كان قد حجب وجهه عنهم وانقطع عنهم عمل «نور الكلمة» كما سبق، فكان من الصعب على الشعب المنغمس في الشر مع رؤسائه ومعلميه أن يتعرف على المسيا الذي أتى، أي «الكلمة» الذي جاء بنفسه. وهذا يصفه القديس يوحنا في إنجيله في الأصحاح الثانى عشر ولكن بصورة جمع فيها انقطاع النور الالهي منذ القدم عن الشعب المرتد عن الله مع عدم إيمانهم بالمسيا، أي «الكلمة» عندما ظهر، أي المسيح الذي جاء إليهم، هكذا: وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ صَنَعَ أَمَامَهُمْ آيَاتٍ هَذَا عَدَدُهَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ. لِيَتِمَّ قَوْلُ إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ: «يَا رَبُّ مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا وَلِمَنِ اسْتُعْلِنَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ؟» لِهَذَا لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا. لأَنَّ إِشَعْيَاءَ قَالَ أَيْضاً: «قَدْ أَعْمَى عُيُونَهُمْ وَأَغْلَظَ قُلُوبَهُمْ لِئَلَّا يُبْصِرُوا بِعُيُونِهِمْ وَيَشْعُرُوا بِقُلُوبِهِمْ وَيَرْجِعُوا فَأَشْفِيَهُمْ». قَالَ إِشَعْيَاءُ هَذَا حِينَ رَأَى مَجْدَهُ وَتَكَلَّمَ عَنْهُ. (يو١٢:٣٧-٤١).

والأن إلى إشعياء لندرس هذا الوضع الخطير:

فِي سَنَةِ وَفَاةِ عُزِّيَّا الْمَلِكِ رَأَيْتُ السَّيِّدَ جَالِساً عَلَى كُرْسِيٍّ عَالٍ وَمُرْتَفِعٍ وَأَذْيَالُهُ تَمْلأُ الْهَيْكَلَ. السَّرَافِيمُ وَاقِفُونَ فَوْقَهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ سِتَّةُ أَجْنِحَةٍ. بِاثْنَيْنِ يُغَطِّي وَجْهَهُ وَبِاثْنَيْنِ يُغَطِّي رِجْلَيْهِ وَبِاثْنَيْنِ يَطِيرُ. وَهَذَا نَادَى ذَاكَ: «قُدُّوسٌ قُدُّوسٌ

رَبُّ الْجُنُودِ. مَجْدُهُ مِلْءُ كُلِّ الأَرْضِ». فَاهْتَزَّتْ أَسَاسَاتُ الْعَتَبِ مِنْ صَوْتِ الصَّارِخِ وَامْتَلأَ الْبَيْتُ دُخَاناً. فَقُلْتُ: «وَيْلٌ لِي! إِنِّي هَلَكْتُ لأَنِّي إِنْسَانٌ نَجِسُ الشَّفَتَيْنِ وَأَنَا سَاكِنٌ بَيْنَ شَعْبٍ نَجِسِ الشَّفَتَيْنِ لأَنَّ عَيْنَيَّ قَدْ رَأَتَا الْمَلِكَ رَبَّ الْجُنُودِ». فَطَارَ إِلَيَّ وَاحِدٌ مِنَ السَّرَافِيمِ وَبِيَدِهِ جَمْرَةٌ قَدْ أَخَذَهَا بِمِلْقَطٍ مِنْ عَلَى الْمَذْبَحِ. وَمَسَّ بِهَا فَمِي وَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ قَدْ مَسَّتْ شَفَتَيْكَ فَانْتُزِعَ إِثْمُكَ وَكُفِّرَ عَنْ خَطِيَّتِكَ». ثُمَّ سَمِعْتُ صَوْتَ السَّيِّدِ: «مَنْ أُرْسِلُ وَمَنْ يَذْهَبُ مِنْ أَجْلِنَا؟» فَأَجَبْتُ: «هَئَنَذَا أَرْسِلْنِي». فَقَالَ: «اذْهَبْ وَقُلْ لِهَذَا الشَّعْبِ: اسْمَعُوا سَمْعاً وَلاَ تَفْهَمُوا وَأَبْصِرُوا إِبْصَاراً وَلاَ تَعْرِفُوا. غَلِّظْ قَلْبَ هَذَا الشَّعْبِ وَثَقِّلْ أُذُنَيْهِ وَاطْمُسْ عَيْنَيْهِ لِئَلاَّ يُبْصِرَ بِعَيْنَيْهِ وَيَسْمَعَ بِأُذُنَيْهِ وَيَفْهَمْ بِقَلْبِهِ وَيَرْجِعَ فَيُشْفَى» (إش ٦:١-١٠)

يلاحظ القارىء أن رسالة إشعياء النبي بدأت برؤية «يهوة»، كما يُعبر عنه بالملك رب الجنود، وهو هو «الكلمة» أي المسيا بحسب المظهر، ولكن في ملء مجده الذي اعتبره إشعياء أنه هو يهوه «الله». لذلك قال ويل لى لأني رأيت الله، فسوف أموت، ولكن حدثت عملية تطهير لتجعل لإشعياء النبي قوة أو قدرة على رؤية «مجد الله» دون أن يموت. واستلم إشعياء الرسالة من «يهو» الذي هو «الكلمة المترائي في مجده». وهذه الرسالة هى بعيها نص النبوة عما سيحدث عند ظهور المسيا، أي الكلمة، بشخصه، أي المسيح. فإنهم لن يصدقوه ولن يتعرفوا عليه. ثم شرح «يهوه»، أي «الكلمة» الجالس عل عرش مجده، شرح لإشعياء سر عدم إيمان هذا الشعب، ومضمون هذا السر وهو أنه بسبب سيرة هذا الشعب الفاسدة بقيادة رؤسائه الفاسدين، وبسبب عدم إيمانهم بالله، وارتدادهم كل الأجيال السالفة عن عبادة الله، وإمعانهم في عمل الشر وأقبحها الزنا وعبادة الأصنام، فإن الله قد حجب وجهه عنهم، بمعنى أنه قطع عنهم «نور الكلمة»، فامتنعت عنهم المعرفة وانطمست البصيرة وانحجبت رؤية الحق، وهذا قد صنعه الله منذ القدم واستمرفي عقوبته عن قصد؛ حتى إذا ظهر المسيا «الكلمة» لا يتعرفون عليه فلا يرجعوا إليه، فلا يُشفوا، وذلك حتى لا يستمرون في الجمع بين الإفتخار بالله والإمعان في الشر فيلوثون رسالة المسيح.

ويلاحظ أن الذي رآه إشعياء أنه ديهوه»» الملك رب الجنود قال عنه القديس يوحنا أنه هو هو المسيح: «قال هذا إشعياء عدما رأى مجده (مجد المسيح) وتكلم عنه.» (يو١٢:٤١)

الأن فهمنا معنى «جاء إلى خاصته»، أي جاء إلى وطنه وبيته، وإلى «خاصته» أي إلى شعبه الأخصاء جداً دون جميع شعوب العالم، فلم يقبلوه. والأمر المذهل والمفزع أن الرفض كان عنيفاً إجماعياً، رؤساء كهنة وكتبة وفريسيين ورؤساء شعب وكل الشعب المضلل وحتى بعض التلاميذ، بلا أي تعقل بل بلا أي سبب: « لَوْ لَمْ أَكُنْ قَدْ عَمِلْتُ بَيْنَهُمْ أَعْمَالاً لَمْ يَعْمَلْهَا أَحَدٌ غَيْرِي لَمْ تَكُنْ لَهُمْ خَطِيَّةٌ وَأَمَّا الآنَ فَقَدْ رَأَوْا وَأَبْغَضُونِي أَنَا وَأَبِي. لَكِنْ لِكَيْ تَتِمَّ الْكَلِمَةُ الْمَكْتُوبَةُ فِي نَامُوسِهِمْ: إِنَّهُمْ أَبْغَضُونِي بِلاَ سَبَبٍ. (يو ١٥:٢٤-٢٥)

أما المكتوب في الناموس الذي يشير إليه المسيح فهو مز ١٩:٣٥ ومز٦٩:٤

لاَ يَشْمَتْ بِي الَّذِينَ هُمْ أَعْدَائِي بَاطِلاً وَلاَ يَتَغَامَزْ بِالْعَيْنِ الَّذِينَ يُبْغِضُونَنِي بِلاَ سَبَبٍ. (مز ٣٥:١٩)

أَكْثَرُ مِنْ شَعْرِ رَأْسِي الَّذِينَ يُبْغِضُونَنِي بِلاَ سَبَبٍ. اعْتَزَّ مُسْتَهْلِكِيَّ أَعْدَائِي ظُلْماً. حِينَئِذٍ رَدَدْتُ الَّذِي لَمْ أَخْطَفْهُ. (مز ٦٩:٤)

لقد احتار بيلاطس فيهم حينما أخذ يتلفت يمينا ويساراً يستجدي من يساعده في إطلاق سراحه، سواء من الرؤساء أو حتى من الشعب الذي التجأ إليه متوسلاً أن يختاره عوض باراباس، ولكن بح صوته بلا نتيجة فحكم على أساس كلمتهم: «دمه علينا وعلى أولادنا»!! (مت٢٧:٢٥) وكأنما قد حوصر النور إذ «لم يعرفه العالم». وهوذا الآن حتى

خاصته أبغضوه ولم يقبلوه، الذين أعدهم خصيصاً بنفسه لنفسه منذ الدهر إعداداً متعدد النواحي، وأغدق عليهم إغداقاً ليس له من مزيد، في الأرض والمطر والزرع والضرع والبركات، مع العلم والمعرفة والمشورة، وكلمهم بالأنبياء مبكراً ومؤخراً، وجهزهم أحسن تجهيز إذ قدسهم وقدس أرضهم وأقام مقدسه في وسطهم، وبعد كل ذلك ليس فقط لم يقبلوه بل وأبغضوه، وبلا سبب، أو ربما بسبب أنهم أحبوا الظلمة أكثر من النور.

«جاء»: هنا نجد أن «الكلمة» يتخطى كل حدود العمل من على بعد، ويأتي بنفسه مجيئاً محدداً واضح المعالم مرئيا ومسموعاً مشاهداً وملموساً، مجيئاً توج به كل طرق استعلاناالله الاولى جميعا سواء في العالم ككل أو حتى إسرائيل بكل تاريخها القديم. ولكنه مجيء كان في مرحلته الاولى إلى خاصته: «لم أرسل إلا إل خراف بيت إسرائيل الضالة» (مت ١٥: ٢٤)

ولكن هذا المجيء لما بلغ أقصاه في الاستعلان لخاصته، كما بلغ أقصاه في الرفض، وانتهى الاستعلان وانتهى الرفض على أيدي خاصته بالصلب، استعلن هو هو بذاالله، أي هذا المجيء المقدس والمبارك، على مستوى العالم كله والبشرية جمعاء وذلك لما «الكلمة صار جسداً».

وبذلك يتضح تماماً من تدرج القديس يوحنا في الكشف عن تدرج الاستعلان الذي مارسه «الكلمة» في ذاالله بالتجسد أنه تم بالفعل على مرحلتين أو على وجهين:

المرحلة الاولى أو الوجه الاول: باعتباره «المسيا» قمة الاستعلان أو الاستعلانات التي أتمها مع شعبه المقدس إسرائيل لكشف خطة الفداء لشعبه والخلاص حسب وعده.

والمرحلة الثانية أو الوجه الثاني: باعتباره «الكلمة صار جسداً» ، «كنور للأمم» وفداء وخلاصاً إلى أقصى الأرض.

في المرحلة الاول واجه من خاصته نكوصاً شعبياً منقطع النظير كسيد مرفوض، مع الصليب، وسقوط الأمة!

وفي المرحلة الثانية قوبل قبولاً فرديا كرب لمجد الآب، امتد، ولا يزال يمتد، إلى أقص الآرض وأقصى الزمن.

لأنه لو يلاحظ القارىء، يكتشف أن الكنيسة المسيحية لم ترث الكنيس اليهودي بناموسه وبقوانينه وتراثه، ولا قامت الكنيسة المسيحية على أنقاض الهيكل المهدوم، لأن الكنيسة المسيحية هي «الهيكل الجديد»، «المسيح نفسه»، مشتهى كل الدهور: «فنحن من لحمه ومن عظامه» (أف٥: ٣٠)، «وبيته نحن» (عب٣: ٦)

١٢ – وَأَمَّا كُلُّ الَّذِينَ قَبِلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ سُلْطَاناً أَنْ يَصِيرُوا أَوْلاَدَ اللَّهِ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ بِاسْمِهِ.

لقد جاء إل خاصته كوطن فلم يجد له مكاناً، وجاء إل خاصته كأمة فلم تقبله، ولكن كان لا بد من شهود، فالله لا يترك نفسه بلا شاهد. فإزاء رفض الأمة تقدم أفراد، وبصفتهم الشخصية آمنوا به وقبلوه، لا كيهود بل كمسيحيين!! طُردوا من المجمع والهيكل كوثنيين، ليفتحوا الطريق أمام كل الأمم! فقدوا البنوية لموسى وإبراهيم، فصاروا محسوبين على مستوى شعوب الدنيا، فأعطاهم الله وأعطى معهم كل شعوب الدنيا حق البنوية منه وله رأساً، ليكونوا رؤوسا لشعب جديد: «انت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي» (مت١٦: ١٨)، «شعب اقتناء» (انتساب لله) (١بط٢: ٩)، «شركاء الطبيعة الإلهية» (٢بط١: ٤)، بامتياز حق التبني لله مباشر يولدون له، من رحم نعمته، مقدسين، ومختومين بختم روح الله كأعضاء أحياء في جسد ابنه كما «من لحمه ومن عظامه» (أف٥: ٣٠)، عوض ختان اللحم وتسجيل الاسم في سجلات المولودين من دم إبراهيم.

إن الإمتياز الكبير المجاني الذي أعطاه الله في البدء لإسرائيل في حدود الخصوصية المنحصرة في جنس وشعب محدد: «فتقول لفرعون هكذا يقول الرب إسرائيل ابني البكر» (خر ٤: ٢٢)، «لما كان إسرائيل غلاماً أحببته ومن

مصر دعوت ابني» (هو ١١:١)، هذا الإمتياز الكبير الفريد والمجاني الذي افتتح الله به عهد علاقة حبه مع الإنسان ممثلاً في إسرائيل، أطلقه الآن بلا قيود جنسية أو شعوبية للمؤمنين أفراداً، لأن عهد الله ووعوده كلها بلا ندامة (رو ١١:٢٩). وهكذا صار الرسل الآولون النموذج الجديد والكامل للابن الجديد البكر، عوض إسرائيل الأمة التي لم تصن عهد البنوة ولا عهد البكورية. اسمع القديس يعقوب يقول: «شاء فولدنا بـ «كلمة الحق» لكي نكون باكورة من خلائقه» (يع ١:١٨)

«أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله»

كان شعب إسرائيل يفتخرعلى السلطان الذي له كشعب مختار من الله على أساس محبة الله لآبائهم الآوائل إبراهيم واسحق ويعقوب. وكان هذا السلطان يكتسبه الفرد بالولادة من أب يهودي وأم يهودية، فيرث نصيبه في محبة الله لآبائه. ولكن السلطان الذي أعطاه الله لكل من يقبل المسيح هو سلطان شخصي لا يورث ولا يورّث بحسب الجسد، بل هو إعطاء حق إقامة علاقة بنوية مباشرة مع الله على مستوى علاقة الله مع إسرائيل نفسه وأكثر. لأن إسرائيل أخذ صفة «الابن» كلقب، أما من يقبل يسوع المسيح باعتباره المسيا الموعود فإنه يأخذ حق البنوية من الله رأساً لأنه آمن بالوعد وحكم بصدق الله وأمانته: «الذي يأتي من السماء (المسيح) هو فوق الجميع، وما رآه وسمعه به يشهد وشهادته ليس أحد يقبلها، ومن قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق.» (يو ٣:٣١-٣٣)

وليلاحظ القارىء أن الآية لا تقول: «أما الذين قبلوه يصيرون أولاد الله» مباشرة، بل يقول «أعطاهم سلطاناً أن يصيروا... »، بمعشى أن قبولهم للنور أي للمسيا حسب الإيمان بالوعد، يضعهم أولاً موضع البنين، أبناء النور، ليصيروا بعد ذلك أولاداً بالحق بمزيد من إيمانهم بالمسيا، وعندنا آية أخرى مطابقة جاءت بالروح على لسان بطرس الرسول توضح أن معرفة المسيح الكاملة تعطي سلطاناً، حسب قدرة الله، ليصير بها من يقبلها شريكاً في الطبيعة الإلهية. « كَمَا أَنَّ قُدْرَتَهُ الإِلَهِيَّةَ قَدْ وَهَبَتْ لَنَا كُلَّ مَا هُوَ لِلْحَيَاةِ وَالتَّقْوَى، بِمَعْرِفَةِ (يسوع المسيح) الَّذِي دَعَانَا بِالْمَجْدِ وَالْفَضِيلَةِ، اللَّذَيْنِ بِهِمَا قَدْ وَهَبَ لَنَا الْمَوَاعِيدَ الْعُظْمَى وَالثَّمِينَةَ لِكَيْ تَصِيرُوا بِهَا شُرَكَاءَ الطَّبِيعَةِ الإِلَهِيَّةِ، هَارِبِينَ مِنَ الْفَسَادِ الَّذِي فِي الْعَالَمِ بِالشَّهْوَةِ.» (٢بط ١:٣-٤)

نفهم من هذا أن عدم قبول خاصته له (للنور) حرمهم في الحال من (النور)، أي من سلطان البنوية الممنوح لهم كهبة ولقب «إسرائيل البكر»، مما أنشأ حتماً وبالضرورة للذين عرفوه وقبلوه حقاً فى المواعيد العظمى والثمينة أن يصيروا «أولاد الله».

ولكن لا يزال أمام الذين قبلوا، النور، المسيح كأفراد من خاصته أن يتعرفوا أكثر على المسيا الذي قبلوه، فأمامهم مرتفع من الإيمان يتحتم أن يتلقوه: إيمان الصليب وما بعد الصليب، لذلك نحن هنا لا نزال في درجة استعلان ما قبل «الكلمة صار جسداً» مباشرة.

«أولاد الله» = «آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور» (يو ١٢:٣٦):

القديس يوحنا لا يستخدم كلمة «ابن» إلا للمسيح فقط، كما يلاحظ أيضاً في أسلوب القديس يوحنا أنه لم يستخدم المفرد من «الأولاد» قط، وكأن في تفكير القديس يوحنا أن التبني هو «شركة طبيعة» تتضح أكثر في قوله: «الذين ؤلدوا» بالجمع، وكأنما يمعن في التفريق بين بنوية شعب إسرائيل وبنوية شعب المسيح، فالاول بالميراث الجسدي والثانية بالميلاد الروحي.

«المؤمنون باسمه».

القديس يوحنا يتقدم في فعل التقدم في الاستعلان من النور إلى المسيا إلى ابن الله ثم إلى رد الفعل الإيجابي من «القبول» إلى «الإيمان«.

وكلمة «المؤمنون» هنا جاءت بحالة قائمة دائمة كرد فعل دائم لاستعلان المسيا أنه ابن الله برسوخ وتأكيد على أساس فريد من المعرفة والوعي للاستعلان الجديد، يقابلها تماماً قول القديس يوحنا في رسالته: «كتبت هذا إليكم أنتم المؤمنين باسم ابن الله لكي تعلموا أن لكم حياة أبدية ولكي تؤمنوا باسم ابن الله(١يو٥:١٣)، وكأنما يود أن يقول لنا: آه لو عرفتم قيمة الإيماذ بابن الله فإنكم سوف تمسكون بالإيمان باسم ابن الله حتى الموت لأنكم ستحيون.

هذه الحالة نسمعها في بكور ظهور المسيا بوضوح من فم نثنائيل، أول الخاصة الذين قبلوه ثم آمنوا به: «يا معلم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل.» (يو ١:٤٩)

«باسمه»: « الاسم» في لاهوت القديس يوحنا، وبالتالي في لاهوت الكنيسة الاولى وكبار لاهوتييها، هو المُعبر عن الشخص في حالة وجود وتجلي. فالذي يؤمن «باسم» ابن الله لا يعني ذلك أن نبحث عن ما هو اسمه، بل يعني أن هذا الإيمان؛ إيمان ثابت مع تعلق شخصي فيه ثقة وأمانة واتكال، بل فيه بهجة وفرح، لأنه يعبر عن حالة تجلي وحضرر إلهي. فاسم الله من الوجهة الفعلية التصوفية هو الحضرة الذاتية الإلهية عندما ينادي فيها المؤمن الله، كحاضر، ويتكلم معه وهو أمامه. وهذا نجده واضحاً وثابتاً في قول الرب للتلاميذ قبل الصعود: «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس.» (مت٢٨:١٩)

فالاسم هنا يعني الدعاء للحضور والتجلي والمشاركة، بمعنى أن التعميد باسم الثالوث هو مباشرة الثالوث بالتعميد بناء على الدعاء بالاسم. وكذلك في الإفخارستيا وفي كل سر من أسرار الكنيسة، فإنه يجرى بالدعاء بالاسم لحضور الله وتتميم السر.

ومعروف أن النطق باسم الله أو باسم ابن الله له قوة وسلطان الحضور الإلهي تماماً. وهذا نسمعه من التلاميذ: «فرجع السبعون بفرح قائلين يا رب حتى الشياطين تخضع لنا باسمك.» (لو ١٠:١٧)

كذلك فالدعاء بالاسم انتقل إلى مناداة القديسين بأسمائهم، لا لكي يسمعوا بل لكي يحضروا، فالدعاء باسم القديس هو تكليف حُبي متواضع للحضور للمعونة. «ادع الأن. فهل لك من مجيب. وإلى أي القديسين تلتفت» (أي٥:١). فالدعاء بالاسم هو استدعاء.

وفي قول القديس يوحنا «المؤمنون باسمه» معنى التعرف على يسوع أنه هو المسيح، وهذه هي الدرجة الحرجة في إيمان الإنسان اليهودي. فالذي قبل يسوع على أنه هو المسيح يكون قد انتقل من العهد القديم إلى العهد الجديد، وهذا بحد ذاته هو الذي يعبر عنه بالميلاد الجديد أو الخليقة الجديدة في المسيح، لأن التعرف على المسيح أنه ابن الله هو تحصيل حاصل. لأن المعروف في الفكرا ليهودي المتقدم والذي ينتظر الخلاص بالروح أن المسيا هو ابن الله. وهذا الأمر واضح من أول نطق إيماني لنثائيل، كما سبق وذكرنا. وهذا يعبر عنه القديس يوحنا بغاية الوضوح في رسالته الاولى بقوله: »كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح فقد وُلد من الله» (ايو ٥:١)

١٣ - الَّذِينَ وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ دَمٍ وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ جَسَدٍ وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ رَجُلٍ بَلْ مِنَ اللَّهِ.

القديس يوحنا بدأ يرافق الاستعلان بالرد العملي من جهة الإنسان اليهودي، وليس الامة اليهودية، ليوضح القيمة العظمى لاستعلان كلمة الله عندما جاء إلى خاصته، على مستوى المسيا، فقبله بعض الشخصيات اليهودية.

فالاستعلان واكبه إيمان، والإيمان رافقه ميلاد جديد للانسان، جديد على عقل الإنسان غاية الجدة . وكان إيمان هؤلاء الأشخاص الأفراد اليهود هو باكورة الخليقة الجديدة الذين خمروا عجين الأمم كله. هذا ما صرح به القديس يعقوب الرسول معبراً عن نفسه وزملائه الرسل: «شاء فولدنا بـ «كلمة الحق» لكي نكون باكورة من خلائقه» (يع ١:١٨)

ولينتبه القارىء، لأن مفهوم الميلاد من الله، أو قول يعقوب الرسول: «ولدنا بكلمة الحق»، أو قوله: «باكورة من خلائقه الجديدة»، هذه كلها تعبير عن «الحياة الآبدية» مع الله، وهذا هو ملخص اللاهوت بل خلاصة إنجيل يوحنا الذي بلوره في ختام الأصحاح العشرين بهذه الكلمات عينها: «وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم حياة إذا آمنتم باسمه.» (يو ٢٠:٣١)

وُلِدُوا لَيْسَ مِنْ «دَمٍ» وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ «جَسَد» وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ «رَجُلٍ» .....

لآول مرة بالنسبة للانسان العادي يسمع عن ميلاد لا تتدخل فيه أي من العناصر الطبيعية (الدماء). نعم، لأن النتيجة ليست لحساب حياة طبيعية، والمولود ليس لحساب هذا العالم الطبيعي.

كما نجد في هذا الميلاد غياباً كاملآ للغرائز الطبيعية (مشيئة جسد)، لذلك فالمولود هنا ليس خاضعاً جبرياً لسطوتها. كما يغيب عن هذا الميلاد (مشيئة الإنسان)، وبالتالي فتوجيه الحياة الجديدة بأفعالها لا تنبع من مشيئة بشرية.

هذا هو مجمل الثلاث معايير السلبية: «ليس. ولا. ولا». ولو نلاحظ، نجد أن القديس يوحنا لم يضع هذه المعايير المنفية جزافاً، بل هو يتدرج بها من الأسفل إلى الأعلى. فالمعيار المنفي الأول هو المسار الطبيعي للحياة الطبيعية «الدم»، والثاني هو المحرك الطبيعي للحياة المخلوقة «مشيئة الجسد»، والثالث هو جماع الشخصية الإنسانية التي تُصرف أمور الحياة الطبيعية «مشيئة رجل».

ومن السهل فهم العناصر الثلا ثة الأخلاقية التي تتلخص منها الحياة الجديدة بهذا الميلاد الجديد:
العنصر الاول: عدم اعتماد الحياة الجديدة على توريث الحياة من السلف، والثاني: تحررها من الغرائز والشهوة، والثالث: استقلالها عن قدرة الإنسان. فما أعجبها من حياة !!

«ليس من دم»

الترجمة الحرفية الصحيحة: « ليس من دماء»، لأن « دم» جاءت بالجمع في اللغتين اليونانية واللاتينية. فهنا خرجت الترجة العربية عن النص فأساءت إل المعنى كما يقصده القديس يوحنا.

و«الدم» بالجمع يقصد بها دم الآب ودم الأم، كما يرى القديس أغسطينوس. وجمعها يفيد معنى كافة العناصر الطبيعية التي يتكون منها الجسد من ذكر وأنثى.

كما أننا نعرف لغة القديس يوحنا السرية لماذا يتحاشى قول «الدم» بالمفرد، فهذا هو افتخار اليهود، إنه كبرياء الجنس، فاليهوي مولود من «دم» يهودي، تعبيرا عن الجنس المختار، موروث من إبراهيم واسحق ويعقوب، كما يتحاشى القديس يوحنا المفرد في قوله: «مولودين ليس من دم (كما جاء في الترجة العربية)» لأننا مولودون بالحقيقة من «دم» هو دم يسوع المسيح. الميلاد الذي لم يستعلن بعد، لأن هذا مخصص لدرجة الاستعلان القادمة للكلمة حينما صار جسداً، وتخضب جسده على الصليب بهذا الدم غفراناً لكل العالم، أما الأن فنحن محصورون في «الكلمة» المستعلن بالمسيا، وفي المسيا، أي يسووع المسيح، لليهود فيما قبل الصليب، أي ليس بعد مكان للدم.

«وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ «جَسَدٍ» وَلاَ مِنْ مَشِيئَةِ «رَجُلٍ»

هنا يحصر القديس يوحنا معنى الميلاد الروحي للانسان، أو الخليقة الجديدة، أومعنى أولاد الله أو الميلاد من الله، في أنه ينأى كلية عن ما يتعلق بالخليقة الحيوانية عامة والخليقة البشرية خاصة. فهو ميلاد خليقة أخرى للانسان من فوق، فيها يصير الله أباً جديداً عظيماً للانسان الذي به تُلغى عملياً القيمة المتبقية للانسان اليهودي من «الابوة» «لنا إبراهيم أباً» (مت٣:٩) التي يسعى الإنسان أن ينضوي تحتها: «لا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذي في السموات». (مت٢٣:٩)

«بل من الله»

«الولادة من الله» عقيدة متكاملة راسخة عند القديس يوحنا، يلذ لنا أن نستعرضها أمام القارىء:

١-وَأَمَّا هَذِهِ فَقَدْ كُتِبَتْ (إنجيل يوحنا بأكمله) لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةٌ بِاسْمِهِ (يو ٢٠:٣١)

٢-كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الْمَسِيحُ فَقَدْ وُلِدَ مِنَ اللهِ. وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ الْوَالِدَ يُحِبُّ الْمَوْلُودَ مِنْهُ أَيْضاً. (١يو ١:٥)

٣-أُنْظُرُوا أَيَّةَ مَحَبَّةٍ أَعْطَانَا الآبُ حَتَّى نُدْعَى أَوْلاَدَ اللهِ ... أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، الآنَ نَحْنُ أَوْلاَدُ اللهِ ....(١يو٣:١-٢)

٤- أَيُّهَا الأَحِبَّاءُ، لِنُحِبَّ بَعْضُنَا بَعْضاً، لأَنَّ الْمَحَبَّةَ هِيَ مِنَ اللهِ، وَكُلُّ مَنْ يُحِبُّ فَقَدْ وُلِدَ مِنَ اللهِ وَيَعْرِفُ اللهَ. (١يو ٤:٧)

٥- إِنْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ بَارٌّ (المسيح) هُوَ، فَاعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنْ يَصْنَعُ الْبِرَّ مَوْلُودٌ مِنْهُ (١يو٢:٢٩)

٦- نَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَنْ وُلِدَ مِنَ اللهِ لاَ يُخْطِئُ، بَلِ الْمَوْلُودُ مِنَ اللهِ يَحْفَظُ نَفْسَهُ، وَالشِّرِّيرُ لاَ يَمَسُّهُ. (١يو٥:١٨)

كُلُّ مَنْ هُوَ مَوْلُودٌ مِنَ اللهِ لاَ يَفْعَلُ خَطِيَّةً، لأَنَّ زَرْعَهُ يَثْبُتُ فِيهِ، وَلاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُخْطِئَ لأَنَّهُ مَوْلُودٌ مِنَ اللهِ. (١يو ٣:٩)

من بين هذه الآيات السبع نجد الآية رقم (٢) هي الآية المتحكمة فيها جيعاً، وهي رأس مبدأ الميلاد من الله. لأن يسووع المسيح، كما في الآية رقم (١) هو ابن الله، والرسالة التي جاء ليكملها هي أن يرفعنا معه وفيه إلى حالة التبني لله.

فالذي يؤمن بأن يسوع هو المسيح فهو يكون قد قبل بالتالي الرسالة أي أن يكون أحد أولاد الله.

كذلك فإن العلة الأساسة التي على أساسها نصير أولاداً له، لا تعتمد على شيء حسن فينا، ولكن إلحاح محبته لنا، وهومضمون الآية رقم (٣) . وكذلك الآية يو ٣:١٦ «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية».

كذلك فإن الوصية الاولى والعظمى هي المحبة لله والقريب لأنها الرد الوحيد اللائق لمحبته لنا.

فإذا نجح الإنسان في تكميل هذه الوصية، فإنه حتماً يكون قد وُلد من الله، لأن الله «محبة»، ويستحيل لأحد أن يستمد المحبة الإلهية إلا من مصدرها، وهذا هو مضمون الآية رقم (٤).

كذلك فإن ناموس المسيح الذي جاء ليؤسسه هو ناموس البر الإلهي، أي السلوك بمقتضى الرحمة والحق معاً، والعدل والسلام معاً، وهذا مستحيل أن يأتيه إنسان ما إلا إذا أخذ قوة هذا البر من المسيح لأنه «بار» و«يبرر كثيرين»، وهذا مضمون الآية رقم (٥).

كذلك إن كان المسيح قد حل بالإيمان في القلب، وثبت الإنسان في الروح القدس، فقد تسلح ضد الشيطان والخطية من جهة الغواية والفعل معاً، وأصبح متحصناً ضده، وهذا مضمون الأية رقم (٦)

وهذه الآية يقابلها من جهة العقيدة عند القديس بولس مطابقة، إنما على الوجه الإيجابي البديع: «لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله، إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف بل أخذتم روح التبني، الذي به نصرخ (عند الضيقة) يا أبا الأب، الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله» (رو٨:١٤-١٦)

كذلك نعلم أن ليس إنسان لا يخطىء، وأن المسيح وحده بلا خطية، وجاء ليكسر شوكة الخطية المميتة، وقد رفعها بالفعل، وخلص الإنسان من ناموسها القاتل. لذلك إن كان إنسان ما قد قبل المسيح وامن به وحل المسيح بالإيمان في قلبه وقبل الروح القدس، فلا يمكن أن هذا الإنسان يخطىء خطية للموت وهذا مضمون الآية رقم (٧).

وقول القديس يوحنا هنا: «لأن زع الله ثابت فيه» قول خطير في الواقع، نفهم منه أن الذين يستقبلون روح الابوة داخلهم فإنها تخصبهم وتصيرهم أولاداً لله، وأن الله يصير أباهم، ليس بالاسم ولا بالمجاز، بل بالقوة الوالدة للروح، الأمر الذي هو أقوى ألف مرة من الولادة التي أخذوها بالجسد وانحدروا منها بواسطة زرع البشر الفاني. لأن الإنسان حينها تسكنه بذرة الروح لابوة الله، تصير فيه قوة خالقة تخلقه جديداً، وتنميه لينمو حسب صورة خالقه في البر والقداسة والحق. وبحق وقوة أبوة الله التي تسكن الإنسان، لا يُعد الله بالنسبة للانسان حاملاً عصا التأديب بعد، بل فاتحاً أذرع الحب ليضم خليقته التي تاهت عنه ثم عادت تحمل جمال صورته.

ولا يعد الانسان بالنسبة لله خليقة عاصية متمردة بل أبناء حضنه، يضمهم إليه ويقبلهم قبلة الأب الذي عثر على ابنه الضال فوقع على عنقه وقبله تقبيلاً. لأن الإنسان لم يعد متغرباً عن الله، بل بواسطة ابنه الوحيد المحبوب الذي أخذ جسدنا لنفسه صار الإنسان على مستوى معزة الابن الوحيد ووريثا معه لكل حب الأب.

وفي ختام الآية التي نحن بصددها من الإنجيل، أي الآية ١٣:١ يلزمنا أن ننبه أنه إزاء الرفض الشعبي للأمة اليهودية لاستعلان الكلمة في شخص يسوع باعتباره المسيا الآتي، واجهنا هذه المرة أفراداً من خاصته، تلاميذ ورسلاً وكهنة ورؤساء من الشعب، قبلوه وامنوا باسمه أنه هو ابن الله الآتي إلى العالم، والتصقوا به فصاروا أولاد الله عوض بني إسرائيل، وأهل بيت الله عوض أعضاء في السنهدريم، واستناروا بنوره وصاروا رسلاً له للعالم، فكانوا منفذاً للنور للجالسين في الظلمة وظلال الموت، المقيدين بالذل والحديد. أما العالم، أي الأمم، فلم يكونوا على موعد مع الله بانتظار المسيا كاليهود، فلهؤلاء استعلن «المسيح الكلمة» نفسه استعلانه الأخير والأعظم للعالم كله، لا كابن داود بل «ابن الإنسان» «الله ظهرفي الجسد.» (١تى ٣:٦)

١٤- وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً وَحَلَّ بَيْنَنَا وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ مَجْداً كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً.

تقسيم هذه الأية:

ا- وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً

ب- وَحَلَّ بَيْنَنَا

ج- وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ مَجْداً كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ الآبِ

د- مَمْلُوءاً نِعْمَةً وَحَقّاً.

نتذكر الاستعلان السالف الذي أكمله «الكلمة» أنه كان على مستوى تكميل وعد سابق بفم كل الأنبياء، أكمله

بالمجيء الفعلي في ملء الزمن: «إلى خاصته جاء». وكان مجيئه استعلاناً محصوراً في شعب هو خاصته وفي أرض هي من خاصته. ولكن الأن يستعلن «الكلمة» ذاته على غير موعد وعلى مستوى البشرية كلها والعالم أجمع. وهكذا نكاد نصفق بأيدينا لهذا الانجيلي البديع زي البصيرة الحادة والرؤيا المترامية الأطراف، الذي واكب الكلمة في درجات استعلانه من الآزلية قبل الزمن، عبوراً بالخليقة والحياة والنور الذي لم ينحصر عن الإنسان قط منذ أن خُلق، إلى الآباء والأنبياء والشعب المختار والحياة الآبدية المكنوزة في الكتب لمن يفتش عنها، إلى المعمدان يشهد للنور، إلى الرفض والمصادرة حتى منتهاها، إلى الاستعلان الأخير الذي نعيشه في ملء نوره وبهائه، كل ذلك أيها القارىء العزيز في أربع عشرة أية لم تأخذ من إنجيله أكثرمن نصف صفحة!!

أ- وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً

«الواو» هنا تتبع المسلسل الذي جاء في أول الآصحاح، فهو عودة على ذي بدء. ومن ذلك نلمح وبسهولة في قوله: « وَالْكَلِمَةُ صَارَ جَسَداً» تكملة مفاجئة للآية الاولى بكل إحكام، ونقراها معاً هكذا: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله والكلمة صار جسداً».

وهنا اخر مرة نسمع فيها القديس يوحنا يذكر«االكلمة» إذ يدخل بها إنجيل الخلاص لنرى الكلمة في شخص المسيا.

هنا يتفضل الله وينزل بنفسه إل عالمه الذي خلق، لا كزائر روحي بشبه ملاك أو رئيس ملائكة، ولا كضيف غريب يباغت الإنسان في عقر داره، بل نزل كإنسان ليعيش مع الإنسان كإنسان، وليتكلم مع الإنسان بعد أن أخفقت كل الوسائل في توصيل كلمته إليه. جاء في «الجسد» ليتحدث مع كل ذي جسد: «إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته.» (ي ١٧:٢).

نعم قد جاء الله بنفسه في الكلمة المتجسد ومعه الحياة الآبدية والنور الحقيقي في الجسد مخفيين في الجسد ولكن منظوران بالرؤيا الإيمانية النفاذة التي تنفذ خلال الظواهر والحجب والظلال والأقنعة لتقع على الحقيقة مباشرة، رؤية منفتحة على الإيمان. لذلك كل من كان له عين ترى وأذن تسمع، رأى مجده وسمع صوت الله فيه فعاش: «أما رأيت يسوع المسيح ربنا.» (١كو٩:١)

لذلك بقدر ما كان الله الكلمة المتجسد نوراً وحياة أبدية لمن وقعت عينه على اللاهوت الذي فيه، بقدر ما كان الكلمة المتجسد عثرة للعين التي توقفت عند حجاب الجسد، فاختفى عنها الله والحياة والنور معاً: «طوبى لمن لا يعثر فيَّ.» (مت ١١:٦).

وكأنما سر التجسد هو الظل المرافق «للكلمة« منذ البدء! فـ «سر» التجسد الإلهي فوق أنه يحتضن كل ما عداه من أسرار الاستعلانات السابقة، للكلمة، ويكملها، فهو، أي «سر» التجسد» يحمله معه في وجوده المطلق منذ البدء وفي كيانه الإلهي «وكان الكلمة الله»، منطوياً تحت حب الله للعالم!!

وهكذا وبسهولة أيضأ نلمح في «الكلمة» احتضان الأزلية للزمن وانعطاف الله عل الإنسان! فسر المصالحة العظمى التي جاء ليصنعها الكلمة بين العالم والله: «أي إن الله كان في المسيح مصالحا العالم لنفسه» (اكو ٥:١٩)، هذه المصالحة كانت دوافعها وأدواتها كائنة فيه منذ الآزل!

انظر معي أيها القارىء العزيز وتمعن كيف أن «الكلمة» يحتضن الآزلية والزمان معاً «في البدء كان الكلمة»، «والكلمة صار...»

وكيف ينعطف اللاهوت على الإنسان: «والكلمة كان عند الله»، و«حل بيننا»:

فالزمن خرج من رحم الآزلية، وحب الله للانسان كان كامنا في حضه الآزلى.

ثم انظر كيف يجمع «الكلمة» في نفسه الله والإنسان: «وكان الكلمة الله» و «الكلمة صار جسداً».

ثم انظر كيف نجح الكلمة أخيرا نجاحا منقطع النظير في استعلان ذاته واستعلان الله فيه: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الأب مملوءاً نعمة وحقاً».

«والكلمة صار جسداً»»: هنا، وهنا أخيراً، استقر القديس يوحنا بعد تحليقه طائراً وراء الكلمة في الآزلية محلقا في الله ليراه عنده قائماً، وفي الخليقة هناك خالقاً، وفي الحياة نورا مرفوضاً ومقبولاً، وكنا نحن نلهث وراء يوحنا ما عسى أن يكون «الكلمة» هذا، وما هيئته أو صورته، حتى انقطعت أنفاسنا؛ وأخيراً حط هذا النسر الجسور المتمرس في التحديق في نور الله، حط بـ «الكلمة» على «جسد» إنسان فعرفنا في الحال أنه «يسوع المسيح».

«مناجاة»

أيها الكلمة والفعل الآزلي، الكائن الذاتي، الله منطوقاً لنا بالكلمة والله مستعلناً لنا بالفعل، الفاعل بكل قدرات الله ومشيئته في الخلق والتدبير، القائم الدائم في الذات الإلهية العظمى، الملتحم جوهريا وذاتيا بـ «أنا» الله بالحب المطلق، وصاحب الاسم الإلهي معه «أنا هو»، المنطلق من كيان الله لاستعلان الله بلا انقطاع، الحامل للكلية الإلهية بغير تجزؤ، والعامل بسلطان الله بلا نقصان مع الله كإرادة وفعل معاً كلي القدرة وكلي المعرفة وكلي الوجود، غير المنحصر في ذاته وغير المحدود وغير المبتدىء.

فأنت البداية التي بلا بداية، والنهاية التي بلا نهاية، التي ينتهي عندها كل زي نهاية، غير المتغير، والمتغيرات كلها فعل من أفعالك.

الزمان منك أخذ حركته ودورانه ليحكي عن عظمة سكونك الفعال وتعاليك عن كل ظل دوران، وإليك ينتهي وعندك يهدأ من كل حركاته، فأنت السكون الضابط لكل حركة.

أما المكان الذي تمثله روائع الأكوان كخيمة أقمت أعمدتها في وسط الوجود المطلق، فهي تحكي بوجودها المحدود عن جبرؤوت الله ووجودك غير المحدود ولا منظور. فكل الأكوان بما تحوي من بدائع المخلوقات المعروفة وغير المعروفة، هي صفعة منبسطة تعكس طرفاً من بهاء مجد الله فيك غير المدرك. فأنت الكلمة الله الذي هو وحده بالفعل والكلمة استعلن عظمة الله غير المدرك ولا معروف والذي لن يُدرك ولن يُعرف إلا فيك.

فهذا البدء الزماني والمكاني السحيق في القدم، هو بكلياته وجزئياته فعل حدث من أفعال أزليتك، خرج إلى الوجود كما صورته قدرة الله ومشيئته فيك.

أيها الكلمة الله الذاتي الذي كنت محتجباً في الله، مح أنك أنت الحامل لاستعلان الله، لقد استعلنت نور الله الذي كان سيظل محتجباً لولا هذا العالم الذي خلقت، الذي حمل إلينا رسالة ناطقة من خلف آياته الجبارة، تحكي عن الإرادة العظمى التي أرادته، وحكمة الفعل الإلهي الذي به خُلق.

فالمصنوعات فيه تحكي عن لاهوت الصانع، فكل الأفلاك والمجرات والعوالم التي يضج بها الفضاء بقوانين تحركها وتقلبها، وانضباطها الخاضع لسلطان الدقة الهندسية الفائقة، تحكي لنا عن ما هي الإرادة الإلهية التي أرادت والفعل الإلهي الذي خلق، تحكي عنك أيها الكلمة ذو الحكمة والقوة والسلطان والمجد والجلال العامل لحساب استعلان الله، تحكي عن حب الله القائم في العالم لحساب العالم، فانبث فيه قانون المحبة والتآلف الذي يحكم حركتها جيعاً من جماد ونبات وحيوان وإنسان. فكل ذرة، بحركتها الباطنية المنسجمة والمنضبطة في تآلف فائق القدر والوصف،

تحكي عن التألف بين الإرادة والفعل في ذات الله الذي خلق. أما القوة الذرية المرعبة التي ظهرت عند انشطارها فهي تحكي عن القوة الإلهية التي جُمعت وضُبطت.
وهذا الإنسان الذي خلقت، حسب قصد محبة الله التي تعمل كل شيء حسب رأي مشيئته في المحبة، خلقته بامتياز الإدراك والنطق والحب، ليدركك ويدرك فيك الله المُدرك الكامل الذي يُدرك ولا يُدرك كماله، ويحبك ويقيس حب الله فيك؛ وصورته ليكون في النهاية على صورة خالقه ليستمتع بالحياة الأبدية ويحيا الخلود وينأى عن العجز والفساد.
هناك قبل كون العالم وأنت قائم في مجدك مع الله، عندما نويت أنت في أزليتك أن تحمل صورته البائسة التي انحط إليها، لترفعه أنت إلى صورتك في ملء الزمان وعند انتهاء أزمنة شقاء الإنسان، خلعث ثوب مجدك الظاهري لتقوى على حمل اتضاعنا وخساسة طبيعتنا، وأتيت إلينا على الأرض وصرت جسداً، وأنت الكلمة الذي لا تسعك السموات.
وهكذا لما أخذت هيئة بنوتنا، تعرفنا عليك حالاً أنك أنت أنت ابن الله الذي منك انبثقت كل بنوة، فأنت الحامل للبنوة الإلهية جوهراً وذاتاً، التي كل بنوة في العالم المخلوق هي صورة منك.
وهكذا وأنت أصل كل بنوة، لما حملت صورة بنوتا اكتشفنا فيك الآصل: وتعرفنا عليك أنت الابن الوحيد لأبيه. وأدركنا بالروح مقصدك الحميد، أنك لبست صورة بنوتنا لترفعها إلى مستوى جوهر بنوتك. وتجعل الصورة التي ماتت تحيا من جديد» وتنطق باسم الله «يا أبا الآب».
أيها الرب يسوع المسيح الكلمة ابن الله الذاتي، كلي الكرامة والمجد مع الله أبيك، الأن عرفناك أنك أنت أنت الكلمة الذي كان، والكائن في البدء ومنذ الآزل عند الله.
فبعد ما كملت استعلان الله بالخلق الناطق بلاهوت الله في كل المصنوعات التي خلقت، التي تحكي عن جبرؤوت خالقها، تجسدت بشبه خليقتك التي خلقت، مع أنك أنت لا تزال قوام الخلائق طرا، فكلها تتخذ وجودها ودوامها بتدبير حكمتك، فأنت حياة ونور كل أحد.
أنت «الكلمة» الذي كان، والمستعلن لنا «ابن الله» الآن.
هكذا نؤمن وهكذا نعترف، انك بعد أن أكملت استعلان الله بالكلمة، جئت إلينا لتكمل استعلان الله بالجسد. ولكننا من خلال اتضاع بشريتك أدركنا وتيقنا من مجد ألوهيتك ومجد الآب الذي أعلنته ببنوتك. فإن كانت الخليقة هي لغتك، فقد أعطانا الروح فك شفرتها، فأدركنا أن نور بصائرنا الذي به نراك هو رجع لشعاع نورك، وحياتنا وميض من حياتك، وحتى الحب الذي يقوم حياتنا وأجناسنا وأسرنا وأفرادنا كقانون يتغلغل كل ذي جسد، هو هو حب الآب فيك الذي منه سكبت هذا الحب في خليقتك لما خلقت. فإن كان قانون الحب عندنا هو علة حياتنا الذي يجمع كل جنس ويضم كل أمرة ويوحد الذكر بالأنثى والابن مع أبيه وأمه، فما ذلك إلا أنك أنت أحببتنا قبل أن تخلقنا وأحببتنا قبل أن تفدينا، فصار الحب هو علة وجودنا وخلاصنا، الذي يحكي بقوة عن الحب الذي فيك من نحونا ونحو أبيك، الذي هو من طبيعتك.
ولم تكتف أن يبقى حبك حبيس الخليقة التي خلقت، بل أفضت من روحك القدوس، سر الحب الأقدس، على أرواحنا فتخطينا حدود الخلائق، وارتقينا بالحب فوق طبيعتنا، والتصقنا بالله فيك، لنبقى معه فيك روحاً في روح، لأن «من التصق بالرب فهو روح واحد»(١كو٦:١٧)، فبلغنا غاية الحب وبلغنا الرؤية العظمى، لأن «الذى يجبني يحبه أبي وأنا أحبه واظهر له ذاتي» (يو١٧:٢١)، وصرنا من «أهل بيت الله» (أف٢:١٩).
وهكذا بعد أن كنا عاراً في خليقتك، صرنا بالحب شركاء مجدك، نأخذ منه ونعطيك. وهكذا أكملت اسعقلان الله فينا

لما سكب فينا أبوة الله المنسكبة فيك، فاستعلنا الله أباً لنا وورثتنا ما هو ليس لنا...

لما أراد الله أن يكمل حديثه معنا ليعرفنا بمحبته ويكشف لنا عن أحشاء رحمته بعد أن كلم الآباء بالأنبياء، كلمنا فيك، فتكلمت معنا بفم أبيك، أنت الكلمة والابن والله الناطق بسر الوجود. فتجسدت لتكون أقرب إلينا من أنفسنا، فنسمعك سمع الاذن ونراك رؤيا العين، وكابن الإنسان وأنت ابن الله تكلمت مع الإنسان، فكان الصوت صوت إنسان والمتكلم هو الله!!

ولما لبست صورة الترابي بعد أن أخليت ذاتك، لم تستطع أن تخفي ذاتك لأن حضرتك الإلهية كشفت سر اتضاعك، وكان صوت أبيك سباقاً لتعريفنا بك: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت له اسمعوا.» (مت١٧:٥)

والروح القدس لم يطق قعوداً في السماء بل أخذ جناحي حمامة وطار وحط عليك، فرآه المعمدان لما استقر عليك، فعرفك ونادى وشهد هذا هو ابن الله. بل وإن روح البنوة التي فيك استعلنت مجد بنوتك للعيون المفتوحة، فرأوا فيك مجد الابن الوحيد وشهدوا له، ومن ملء لاهوتك أخذ تلاميذك وامتلأوا نعمة وحقاً.

سجلت بأعمالك شهادة لاهوتك، وأعلنت بالكلمة سر بنوتك الفريدة لآبيك، ففيك استعلن الآب حالما استعلنت البنوة، وكلاهما كان الصفة الجوهرية التي كانت محتجبة، والقائمة في ذات الله: البنوة مع الابوة، وهكذا استكملت استعلان الابوة التي لك خاصة، في الله أبيك والتي نقلت عطفها إلينا وحبها فينا كما هو فيك.

الله لم يره أحد قط، هكذا قلت، ولهذا جئت لتخبرنا أنت وحدك بالخبر اليقين وبما رأيت وعاينت وسمعت، فعليك أنت الكلمة وُضع كل حمل استقلان الله منذ البدء.

أنت الابن المحبوب الذي استودعك الله أبوك ملء سر حبه الأبوي، لهذا لم يستأمن أن يرسل سواك إلينا في ختام عهد تأديبنا، لتبلغنا حبك كعريس، وتنقل لنا حب أبيك كما هو فيك، وتنقلنا إلى حال العروس في بيت أبيك، وتمنحنا رتبة البنين لله كامتياز، في قوة ونعمة بنوتك الذاتية لآبيك، بعد أن فديتنا بحياتك ودم صليبك، لنرث معك وفيك ميراث البنين، بعد أن كنا عبيدً وكان مقامنا خارج السياجات.

أيها الكلمة الآزلي ذا القوة والجلال، يا مسيح الصليب والقبر والقيامة، يا ابن الله المحبوب لآبيه، الجالس عن يمين العظمة في الآعالي، والمكلل بالمجد والكرامة، ما الخليقة كلها في السماء وعلى الآرض بكل أفرادها ومكوناتها، والإنسان على رأسها، إلا انعكاس فعال لحب الآب لك ولحبك لآبيك القائم الدائم في الذات الإلهية العظمى، هذا الحب الماسك بأطراق العالم الذي لولاه لانفرط عقده، بل إن العالم كله والإنسان على رأسه إن هو إلاستعلان في صميم الزمان لسر الحب الذي كان عند الله في الآزل من نحو العالم والانسان، الذي كان يكمن فيه سر خلاص الإنسان، وباستعلان حب الله في الإنسان واستعلان الابوة والبنوة للانسان صار الإنسان هو الصورة المجسدة الضئيلة التي تحكي عن سر اكتفاء الله في ذاته.

أنت «من لي في السماء، ومعك لا أريد شيئاً على الآرض.» (مز٧٣:٢٥)

لك نقدم الشكر مع التسبيح والسجود والمجد الدائم لك مع أبيك الصالح والروح القدس الإله الواحد أبينا وسيد كل أحد.

«والكلمة صار جسداً»

«صار» هنا لا تفيد التغيير كما لا تفيد أن الكلمة توقف عن أن يكون الكلمة. لأن «الكلمة» بدء كل ذي بدء، له جوهر الله وطبيعته، لذلك فهو غير قابل للغيير وغير قابل للتحول، ولكن القول «صار» يفيد اتخاذه درجة في

الاستعلان تتناسب مع ضعف إدراكنا، لأن عجز الأنبياء في توصيل « الكلمة» للناس وفشل الناس في إدراك «الكلمة» جعلا الكلمة يأخذ حالة أكثر اقترابًا لإدراكنا، حتى يتمم فيها استعلانًا أكثر لله.

كذلك نجد أذ قوله: «صار» هنا تتصل بمفهوم عميق مع «صار» التي جاءت في الأية ١:٢ «كل شيء به صار»، إذ نلمح أن القديس يوحنا يكاد يقول أن الكلمة هو أصل ومركز الخليقة القديمة والخليقة الجديدة، فالاولى «به صارت» والثانية «فيه صارت»، و«صار هو رأساً لها»، وكأن القديس يوحنا يود أن يقول «أنه صار إلى الذي به صار. ومن هنا جاء القول «بكر كل خليقة» (كو ١:١٥)، لأنه هو أيضاً أول قيامة الأموات!!

كذلك فإن «الجسد» الذي صار إليه وفيه؛ لا يعبر عن جزء من الإنسان، ولكنه تعبير لاهوتي عن طبيعة الإنسان ككل، جسداً ونفساً وروحاً.

وكلمة «الجسد» هي تعبير سائد في العهد القديم يعبر عن البشرية ككل، ونسمع ذلك في قول يوئيل النبي (في الترجمة السبعينية): « ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل جسد... «، التي جاءت في الترجمة العربية «على كل بشر.» (يوئيل ٢:٢٨)

والمعنى أن «الكلمة» الذي «كان في البدء، وكان عند الله، وكان هو الله»، صار إنساناً كاملاً له كل ما للطبيعة البشرية من صفات، ما عدا الخطية وحدها، وهو هو الكلمة، كما كان قبل التجسد هكذا بقي كما هو بعد التجسد.

والقديس يوحنا، عن حكمة روحية وبصيرة لاهوتية، اختار كلمة «صار«، ولم يقل «أخذ جسداً»، كما يخطىء بعض اللاهوتيين، فهو لم «يأخذ» وإلا كان من المحتمل أن «يترك»؛ كذلك لم يقل «حل في الجسد» مجرد حلول وإلا احتمل الإخلاء والترك؛ بل قال «صار»» بحيث يستحيل أذ يتراجع فيما صار اليه لأن الصيرورة هنا شملت كيانه كله!

وحيما قال صار«جسداً، فهو بحكمة اختار كلمة «جسد»، فهو لا يقصد أنه صار إنساناً ما مجرد واحد من الناس. ولكه يقصد أنه صار«بشراً» له «ملء الطبيعة البشرية كلها«. لذلك نسمع المسيح يعطي نفسه اسم »ابن الإنسان» ليعبر عن البشرية كلها القائمة فيه. وفعلاً قد عبر بحياته على الآرض تعبيراً كاملاً عن الطيعة البشرية بكل ضعفها وأعوازها دون خطأ أو خطية، دون أن يتنازل لحظة واحدة ولا طرفة عين عن كونه «الكلمة» الله أو «الله الكلمة». وبهذا استطاع أن يرفع الطبيعة البشرية التي صار فيها إلى منتهى الكمال: «لأجلهم أقدس أنا ذاتي» (يو ١٧:١٩). لأن القصد من التجسد هو استعلان أن «يسوع» هو المسيا «الكلمة» الأزلي: «كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجسد فهو من الله(ايو ٤:٢)، حيث كلمة «جاء في الجسد» تضيف إلى مفهوم «صار جسداً» الاولى مفهوم الديمومة في التجسد الكامل دون أي تغيير. لأن «صار جسداً» وحدها تفيد الحقيقة أنه صار بطبيعة الإنسان كاملة، أما قوله: «جاء في الجسد» فتفيد التواجد في هذه الحقيقة، والإستمرار فيها.

أما تأكيد التجسد أو أن الجسد الذي صار به هو جسد بشري داخل في مسلسل البشرية، فهذا يقرره بولس الرسول في رسالته إلى رومية: «بولس عبد ليسوع المسيح... الذي سبق فوعد به بأنبيائه في الكتب المقدسة عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد.» (رو ١:١-٣)

واختصار هذه الأية هو كالأتي: «يسوع، المسيا، ابن الله، تجسد !!»

ثم إذ التأكيد على أن البشرية التي صار بها هي بشرية حقيقية متألمة وقابلة للموت، فهذا يصفه أيضاً بولس الرسول: «فالله، إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية، دان الخطية في الجسد»(رو٨:٣)

أما قوله: «شبه جسد الخطية» فهو ليفرقه من «جسد الخطية»، فجسد المسيح يحمل كل مكونات جسد الخطية ما عدا الخطية، لأن بشرية المسيح وُجدت، لحظة ما وُجدت، متحدة بلاهوته!! فلم يكن ممكناً أن تداهم، الجسد، عناصر الخطية، بل ولأن جسد المسيح كان خالياً خلواً تاماً من عنصر الخطية، استطاع بلاهوته أن يدين، أي يحكم ويعاقب ويفرز الخطية بالجسد عندما حل عقوبتها عليه وهو بريء منها. فالصليب والموت كانا أقصى فضيحة للخطية وأعظ تتويج لجسد الإنسان بالنصرة عليها: «فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت أي إبليس»(عب٢:١٤)

ولكن السؤال الكبير المحير: كيف أمكن «للكلمة الله» أو «الله الكلمة» وهو في ملء لاهوته ومجده أن «يصير جسداً»، ويوجد في الهيئة كإنسان؟ بمعنى أن مجد اللاهوت حينما يحل حلولاً ذاتياً ودائماً في جسد إنسان، علماً بأنه كان أكثر من حلول إذ هو اتحاد وصيرورة، فإنه يمنع الجسد من أن يظهر بصورته الطبيعية، فبهاء مجد الله يصعق العين الترابية، وهوذا المثل أمامنا عملياً وواضحاً، فالمسيح نفسه لما استعلن لبولس الرسول بعد القيامة وهو في مجده لم يحتمله لا بولس ولا الذين معه: «رأيت في نصف النهار في الطريق أيها الملك نورا من السماء أفضل من لمعان الشمس قد أبرق حولى وحول الذاهبين معي، فلما سقطنا جميعا على الارض سمعت صوتاً يكلمني ويقول باللغة العبرانية شاول شاول لماذا تضطهدني... فقلت أنا «من أنت يا سيد» فقال «أنا يسوع الذي أنت تضطهده» (أع٢٦:١٣-١٥)

ولكن الذي نعرفه تماما أن يسوع المسيح حينها كان يعيش على الآرض، لم يكن له هذا النور الذي هو أشد لمعاناً من نور الشمس وقت الظهيرة!

هنا يقول بولس الرسول أنه لكي يحل ملء اللاهوت في الجسد ويتحد به، يلزمه أولاً أن يتخلى عن مجده الإلهي المنظور: «الذي كان في صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلاً لله، لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة (هيئة) عبد صائراً في شبه الناس» (فى٢:٦-٧). وهذا هو الذي عبر عنه اللاهوتيون باسم «الإخلاء» باعتباره عملاً يتبع قدرة الله على كل شيء التي بها يقدر أن يخلي ذاته، في الظاهر، من مجده.

ولكن هذا الإخلاء ل يُنقص من كل خصائص اللاهوت التي حل بها الكلمة فى «الجسد» واتحد به، إذ يقول بولس الرسول: «فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسديا، وأنتم مملوؤن فيه!!»(كو٢:٩)

من هذا نستطيع أذ ندرك مدى عمق وفخامة المعنى في قول القديس يوحنا، وبمنتهى الإختصار «والكلمة صار جسدا»، فهنا قد بلغ استعلان الكلمة أوج قوته وعمقه وفعله لأن «جسد الكلمة» هذا، الذي هو جسد يسوع المسيح، أصبح أعلى قوة إلهية حصل عليها الإنسان ليدرك الله بها وفيها ويقترب إليه.

فجسد الكلمة، أي جسد يسوع المسيح، صار هو الطريق المفتوح أمام الإنسان إلى الأقداس العليا في السماء: «فإن لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إل الأقداس بدم يسوع، طريقاً كرسه لنا حديثاً حيا بالحجاب أي جسده...» (عب١٩:١٩-٢٠). لأننا سبق أن قلنا أن يسوع المسيح «دان الخطية بالجسد»، فبالصليب أي بموت الجسد عن الخطية صار«الجسد» معبراً سرياً إلى الأمجاد العليا.

ثم إن هذا «الجسد»، جسد الكلمة يسوع المسيح ابن الله، الذي قدمه الله نفسه ذبيحة خطية على مذبح خطية العالم كـ «حمل الله الذي يرفع خطية العالم» [فاشتمه أبوه الصالح وقت المساء على الجلجثة][4] فأصبح لحمه يؤكل

[4] لحن يقال في أسبوع الآلام، وعلى مدار السنة في ثيئوتوكية الأحد وفي صلاة يقولها الكاهن سراً أثناء دورة البخور.

بالسر، أي بالروح للتقديس، وهذا نسمعه من فم الرب قديماً متتماً بالفعل كنبوة ونموذج لذبيحة المسيح على الصليب يوم الفصح:

«تكون لكم شاة (حملاً) صحيحة ذكرا ابن سنة... ويكون عندكم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر(نيسان)، ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل في العشية، ويأخذون من الدم ويجعلونه على القائمتين والعتبة العليا في البيوت التي يأكلونه فيها. ويأكلون اللحم تلك الليلة مشوياً بالنار مع فطير، على أعشاب مرة يأكلونه... هو فصح للرب.» (خ ١٢:٥-١١)

هذا هو المسيح فصحنا، فقد قبضوا عليه وتحفظوا عليه حتى اليوم الرابع عشر، بحسب إنجيل يوحنا، واشترك كل جهور جماعة شعب إسرائيل في ذبحه على الصليب «حسب الطقس»، وأهرقوا دمه على الصليب وعلى الأرض، على خلفية من نار الآلام ومرارة التعذيب، فكان هو «الفصح الحقيقي» الذي تم على اسمه أول فصح في مصر: «وتكون جثتاهما على شارع المدينة العظمى التي تدعى روحيا سدوم ومصر حيث صُلب ربنا أيضاً» (رؤ١١:٨).

هذا هو فصحنا الحقيتي المذبوح لنا: «لأن فصحنا أيضاً المسيح قد ذُبح لأجلنا» (اكو ٥:٧)

وكما أن الذين أكلوا الفصح الآول عبر عليهم الملاك ولم يقتحمهم حسب وعد الله لكل من أطاع وأكل لحم الفصح واختبأ خلف الدم، والذين لم يأكلوا ولم يتحصنوا بالدم أهلكهم المهلك؛ هكذا صار الأكل والشرب من فصحنا الجديد حمل الله الذي يرفع خطية العالم.

الفصح القديم كان بالرمز لنموذج جسدي، أما فصحنا الجديد فبالحق على مستوى الروح: «جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق... فمن يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦:٥٥-٥٧)

والإنذار الآول بالهلاك لمن لم يشترك في القصح بقي هو كما هو:

«من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (يو٦:٥٤)

«إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم.» (يو٦:٥٣)

ثم هذا هو بعينه «الجسد» الذي «صار للكلمة».

وهو الجسد الذي بذله من حياة العالم على الصليب.

وهو الجسد الذي هو بالحقيقة »خبزالسماء»، «حبة الحنطة» التي سقطت من السماء على أرض الشقاء فماتت، ثم قامت واستقامت، وأتت بغلة وفيرة ملأت أهراء الحياة.

وهكذا يكون بـ «الكلمة صار جسداً»، قد صار تأسيس طريق الخلاص للدخول إلى الأقداس العليا، وتأسيس سر الاتحاد الجديد بالإفخارستيا. فجسد الكلمة، أي «يسوع« المسيح ابن الله، صار خبز الحياة الذي يأكل منه الإنسان ولا يموت. فهنا اتحاد ذو شقين:

الأول: اتحاد عل مستوى الطبيعة الإلهية: «كما أن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى... اللذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية» (٢بط١:٣-٤)؛ «لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله.» (أف٣:١٩)

والثاني على مستوى الذات، أي شخصي: «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف٣:١٧)؛ «مع المسيح صُلبت فأحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا في. فما أحياه الأن في الجسد، فإنما أحياه في الإيمان، إيمان ابن الله الذي أحبني وأسلم نفسه لأجلي» (غل٢:٢٠)؛ «إن أحبني أحد يحفظ كلامي ويحبه أبي وإليه نأتي وعنده نصنع منزلاً.

(يو ١٤:١ ٢٣)

فكل هذه النعم والمواعيد العظمى والثمينة، وهذا الخلاص العجيب، وهذا الحب الإلهي الذي جعل هياكل أجسادنا وأرواحنا منزلاً مريحاً لسكنى الآب والمسيح والروح القدس لتغيير طبيعتنا وتقديسها، وهذه الشركة والزمالة والمؤازرة في الحياة الحاضرة مع شخص الكلمة يسوع المسيح ابن الل؛ كل هذا تم لما انتهى «الكلمة» إلى قراره الآخير: «أن يصير جسداً».

والآن يلزمنا أن نعود لندقق في المعاني اللاهوتية التي يتضمنها «التجسد» حتى نتجنب الإنزلاقات التي وقع فيها أئمة الهراطقة الذين خرجوا عن حدود الإيمان الصحيح بالتجسد:

١- البشرية التي «صار» إليها وبها الكلمة، أي التجسد، هي بشرية كاملة وصحيحة للانسان الكامل. وهذا ما وقع فيه أبوليناريوس الذي قال بأن البشرية التي أخذها المسيح لنفسه لم تكن كاملة. فهو أخذ جسداً ولكن هذا الجسد لم يكن جسداً كاملاً كما لإنسان عادي.

٢- البشرية التي صار بها المسيح كانت بشرية حقيقية ودائمة. وهذا ما وقع فيه جماعة الغنوسيين (العارفين) الذين قالوا أن الكلمة أخذ جسداً حسب الظاهر فقط ولمدة قصيرة وبقي غريباً عن نفسه. فالكلمة عندهم صار جسداً ولكنه لم يلبس هذا الجسد. كما ضل الدوسيتيون الذين قالوا إن الجسد كان خيالاً أو شبهاً فقط. ولم يكن حقيقيا.

إن الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية اتحدتا بالتجسد اتحادا كليا وكاملاً وصارتا واحداً. ولكن هذا الاتحاد لم يغير شيئاً من كلتا الطبيعتين، كل في مجاله، فهو «إله متأنس» وليس إلهاً وإنساناً وكأنه ازدواج للشخصية. فلم يأت عملاً إلهياً دون أن يكون الجسد شريكاً فيه، ولم يعمل عملاً جسدياً دون أن يكون اللاهوت شريكاً فيه. فلما أقام لعازر من الموت، أقامه بقوة لاهوته وبصوت فمه معاً. ولما مات، مات بالجسد، واللاهوت فيه لم يفارقه حياً وميتاً، لذلك لم يفسد الجسد ولذلك قام!! ولذلك أيضاً كان موته نصرة للجسد والروح معاً وكان فداء وخلاصاً! فإذا لم يكن اللاهوت ملازماً وشريكا في الآلام والموت لاستحالت الآلام أن تكون آلاما خلاصية والموت موتاً فدائياً. فالله فدانا بالجسد، والدم كان دماً إلهياً. «فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلى قدم نفسه لله (عب٩: ١٤)، ولما قال: «أنا هو القيامة والحياة» (يو ١١: ٢٥)، قاما عل أساس لاهوت القيامة الكائن في الجسد المتحد به؛ فلما قام، قام بقوة لاهوته وبالجسد. ولما بكى، كان ذلك أعظم تعبير عن شركة اللاهوت (الله) في أحزان الإنسان موضحاً بالجسد: «في كل ضيقهم تضايق...(إش٦٣: ٩). وهكذا لم يأت المسيح عملاً إلا واللاهوت له فيه كما للناسوت. لأن بعد الاتحاد لا يمكن أن تعمل أي طبيعة منهما بانفراد عن الأخرى[5]، لأن شخص المسيح، أي أقنومه، واحد هو الذي جمع الطبيعتين ووحدهما في واحدية ذاتية، فيستحيل عليه أن يكون له مشيئتان ولا إرادتان ولا قولان ولا نظرتان[6] قبالة موضوع واحد. فجاءت أعماله كلها تنطق بوحدة بشرية كاملة ناضجة نفسا وجسدا وروحاً مع لاهوت كامل فعال على مستوى الله قوة وسلطانا ومجدا. وهذا كله واضح لا محتاج إل مجادلة في قول القديس يوحنا «والكلمة صار جسداً»». و«صار» هنا تنص وتؤكد عل عملية توحيد سري فائق للغاية أتاها الكلمة مع الجسد في

[5] هل عندما كان يأكل السيد المسيح كان اللاهوت يأكل ايضاً ؟؟؟؟؟؟ (ميشيل)

[6] هذه الأمور ليست من أعمال الجسد ..... لذا فالبرهان على وحدانية طبيعة السيد المسيح ليست فى محلها (ميشيل)

ذاته ليعيش فيه إلى الأ بد ويعمل به كل أعمال الخلاص، بل ويمجد به الله والآب[7]، بل ويعيش به في مجده الذي كان له قبل إنشاء العالم، فكلمة «صار» أصبحت هي مركز الوحي اللاهوتي الصحيح. لأنه وإن كانت كلمة «صار» في قوله »والكلمة صار جسداً» تحمل في طياتها عمليات إلهية سرية خطيرة في معزل عن قدرة فكر الإنسان، وهيهات للانسان أن يبلغ مداها؛ إلا أن شيئاً واحداً يتحتم علينا أن لا نفوته، وهو أنه إن لم يكن قد صالح الله «الكلمة بالجسد» لما «صار الكلمة جسداً»، لما أمكن أن يصالح الكلمة المتجسد الله بالإنسان! أو كيف يصالح الآب الكلي القداسة بالإنسان الذي بلغ الحضيض في الخطية والنجاسة؟

وإن كان المسيح الكلمة المتجسد قد وقف يتشفع ويحامي ويطلب لدى الله الأب عن الإنسان الخاطىء، مطالباً الله أن يجعله واحداً في الآب والابن: «ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الأب في وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا، ليؤمن العالم أنك أرسلتني» (يو١٧: ٢١)، لأن رسالة المسيح »الكلمة المتجد» تتركز وتتلخص في هذا المطلب الواحد الآخير أن الإنسان يصير واحداً مع الآب والابن؛ فكيف يتصور أن يكون الكلمة قد أخفق في أن يوحد اللاهوت بالناسوت إلى واحد في نفسه؟[8]

وعندما قال المسيح: «أنا فيهم وأنت في ليكونوا مكملين إلى واحد» (يو١٧: ٢٣)، فهل لم يكن يحب حساب الناسوت الذى له؟ وكيف يعقل أن نصير نحن واحد في المسيح، وواحداً في الآب مع المسيح، ونبلغ إلى «الشركة في الطيعة الإلهية»ء إذا تصورنا أن المسيح نفسه قد أخفق أن يُصير اللاهوت والناسوت واحداً ؟![9]

إذن فإيمان الكنيسة القبطية الأ رثوذكسية هو إيمان إنجيلي بالدرجة الأ ول ولاهوتها هو من عمق أعماق لاهوت إنجيل يوحنا؛ عندما تقول أن الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية صارتا واحداً بالاتحاد في أقنوم الكلمة المتجسد وليس اثنين بعد الاتحاده وأن المسيح كانت له بالتالي حتماً وبالضرورة مشيئة واحدة وإرادة واحدة.[10]

هذا الأمر اختلط على أوطاخي إذ اعتبر أن اتحاد الطبيعتين أنشأ طبيعة ثالثة، واحدة، كانت فيها الطبيعة البشرية منسحبة وكأن لا وجود لها. فسماه اللاهوتيون(Monophysite) وألصقوا هذا الإصطلاح بالكنيسة القبطية، وهي من الأوطاحية ومن هذا الإفتراء براء !!

فعندنا «الكلمة صار جسداً» تعني أن كل من الكلمة والجسد صارا واحداً، يعملان معاً بانسجام فائق، نتيجة اتحاد كامل، إذ وحد بينهما المسيح في ذاته ليعملا عملاً واحداً بمشيئة واحدة وإرادة واحدة ورأي واحد هي مشيئته وارادته الذاتية الواحدة التي يستمدها من الأب. وفي وحدة الطبيعة والذات التي عاش بها المسيح ويعيش بها حتى الأن وإلى الأ بد مع الله، سيظهر بها كما كان يعيش فيها على الأرض: «ولكن نعلم أنه إذا أظهر نكون مثله، لأننا سنراه كما هو» (١يو٣: ٢)

٤- إن بشرية المسيح كانت عامة وليست بشرية فردية. فهو كان، ونادى بأنه «ابن الإنسان» أكثر مما عُرف أنه من الناصرة أو الجليل أو ابن داود. كما كانت بشريته كاملة تسمو فوق اعتبارات الجنس ذكراً أو أنثى. وهذا واضح ومُضمن في قول القديس يوحنا «صار جسداً» ولم يقل صار إنساناً، وهذه لفتة بديعة، حتى يشمل كل ما للإنسان دون أن يستثني شيئاً منه.

---

[7] **هل الله والآب شخصان أم شخص واحد ...؟؟؟**

[8] إن كان الأمر كذلك تكون كافة الام ناسوت السيد المسيح كلا شيء لكون اللاهوت قد حملها عنه. ميشيل

[9] سيكون أُنسان واحد فى الآب والأبن عندما تنتهى فترة غربته فى الأرض، كذلك صار ناسوت السيد المسيح واحد مع الاب بالجسد الممجد بعد القيامة وليس قبلها - ميشيل

[10] كافة الكنائس تؤمن بهذا وليس الكنيسة الارثوكسية فقط، لكن كان للسيد المسيح طبيعتان وليس طبيعة واحدة

٥- قولنا أن الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية اجتمعتا واتحدتا إلى واحد في شخص «الكلمة»، أي يسوع المسيح، ثم قولنا أن المسيح وحدهما إلى واحد في ذاته، وبناء على ذلك كانت له مشيئة واحدة وارادة واحدة، هذا يقطع خط الرجعة على كل أشكال «النسطورية» التي قالت أنه كان له شخصية إلهية بجوار شخصية بشرية كل منهما تعمل عملها الخاص بها. وذلك نشأ بضرورة الحال لما اعتبروا أن الطبيعتين اللاهوتية والبشرية لم تأتيا فيه إلى إتحاد ووحدة!! فعندهم كل طبيعة برزت بشخصية تحمل خواصها. وهذا تقسيم شنيع في شخص المسيح الواحد. علماً بأن «الكلمة الذي كان في البدء، وكان عند الله وكان الله، والكلمة صار جسداً»؛ نقول أن شخص الكلمة أو أقنومه لما صار جسداً لم يأخذ شخصية جديدة عما كان له، ولم يغير شخصيته الإلهية، بل نسمع المسيح، أي الكلمة المتجسد، يقول بقوة وجلال «أنا هو»: « أنا هو الحق والحياة والنور» !!! »وقبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»، و«إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم» (يو٨:٢٤)، «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو٣:١٣)

٦- إن الطبيعة البشرية التي صا رفيها الكلمة تأثرت تأثرا مباشراً باللاهوت، فبعد أن كانت تحت لعنة الموت رفع عنها الكلمة هذه اللعنة بلاهوته لحظة أن صار فيها، وفي هذا يقول القديس كيرلس الكبير: [لأنه كان من الضروري عندما صار الجسد جداً له أن يشترك في عدم الموت الذي له، أي الذي للكلمة].

٧- كذلك فالطبيعة البشرية التي صارت للكلمة وصار الكلمة لها لما أخذت قوة عدم الموت أخذت فيها قوة القيامة من الأموات. لذلك قام الجسد من الموت دون أن يمسك فيه.

وهكذا فإن قول القديس يوحنا «والكلمة صار جسداً» فتح أمام اللاهوتيين كل كنوز اللاهوت التي كانت مخبأة لحساب «الجسد» الكلي أي البشرية عامة. لأن التجسد كان في حقيقته تنازلاً إلهياً سخياً إلينا، حاملاً على ذراعيه كل ما يمكن أن يعطيه الله للانسان مما كان هو محتاجاً إليه أو مما كانت محسوبة له أصلاً في الخليقة الاولى وفقدها بالخطية وبالبعد عنه.

هذه العطايا الإلهية السخية، حمل الله أصولها ونموذجها الكامل لجسده أي بشريته، التي صيرها له وصير نفسه لها كعينة لما هو مزمع أن يصنعه في جسد البشرية. ولو أدركنا هذه الحقيقة لآدركنا سر لاهحوت بولس الرسول كله، بل وسر إنجيل يوحنا وبقية الأناجيل وكل أقوال المسيح:

أ- فبولس الرسول فهم «الكلمة صار جسداً» بأن ملء اللاهوت حلق في جسد الكلمة «فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً» (كو٢:٩). فيتمسك بذلك بولس الرسول بالحرف الواحد، كما أصبح حقاً لنا أن نمتلىء منه أو فيه: «لكي تمتلئوا الى كل ملء الله» (أف٣:١٩)، «وأنتم مملوؤون فيه» (كو٢:١٠). أو حسب تعبير القديس يوحنا «ومن ملئه نحن جيعا أخذنا نعمة فوق نعمة» (يو١:١٦)

ب- ولأن لعنة الموت رُفعت عن «جسد الكلمة» وحل محلها قوة القيامة وملء الحياة الأبدية نتيجة الاتحاد الإلهي، كذلك أصبح لنا هذا الحق عينه: «من آمن بي ولو فسيحيا، وكل من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى إلى الابد.» (يو١١:٢٥-٢٦)

»من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إل دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو٥:٢٤)

«من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا اقيمه في اليوم الأخير.» (يو٥:٢٤)

وهنها قوة ومركز الإفخارستيا المنقطع النظير، المترتب أصلاً عن أن «الكلمة صار جسداً»، إذ أن «الجسد» بفهوم «اللحم» و »الدم »» في الكلمة أي فى «جسد الكلمة» صار فيه وصار له كل ما للكلمة من قوة إلهية مدخرة فيه وعاملة به للشفاء من الموت، لذلك ستاه الآباء «ترياق عدم الموت»؛ بل ولإعطاء الحياة الآبدية، بل ولأخذ قوة القيامة ونور الخلود، لأنه «جسد الكلمة» أو إذ جاز القول «جسد الله» أو «جسد الحياة الابدية» أو «جسد النور»!! فانظر أيها القارىء وتمعن كيف يأكل ويشرب الإنسان بالسر «جسداً» مُدخراً فيه كل كنوز الله هذه مجاناً.

ب- «وحل بيننا».

كلمة «حل» تأتي في اليونانية (   ). وأصل الكلمة مأخوذ من كلمة الخيمة. وهكذا فهي تشير إلى السكنى أو الحلول كما يضرب الإنسان خيمة على الآرض.

ثم تأتي كلمة «بيننا» لتزيد معنى الإقامة في خيمة وسط شعبه، إشارة إلى الحياة التي سيحياها على الأرض. فهي لا تعني السكنى فقط بل الإقامة والمعيشة. والحياة في الجسد كما في خيمة هو تراث فكري يهودي نسمع عنه من بطرس الرسول «عَالِماً أَنَّ خَلْعَ مَسْكَنِي قَرِيبٌ كَمَا أَعْلَنَ لِي رَبُّنَا يَسُوعُ الْمَسِيحُ أَيْضاً (٢بط ١ : ١٤)»، وكذلك عند بولس الرسول «لأننا نعلم أنه إذا نقض بيت خيمتنا الأرضي (الجسد) فلنا في السموات بيت من الله غير مصنوع بيد أبدي» (٢كو ٥:١)

ولكن قصد القديس يوحنا الأساسي من ذكر هذا التعبير، أي الحلول في الخيمة، هو رفع أبصارنا إل ما صنع «يهوه» الرب قديماً عندما حل في خيمة الإجتماع وسط شعب إسرائيل.

«ثم غطت السحابة خيمة الإجتماع وملأ بهاء الرب المسكن، فلم يقدر موسى أن يدخل خيمة الإجتماع.» (خر٤٠:٣٤-٣٥)

«لأني لم أسكن في بيت منذ يوم أصعدت بني إسرائيل من مصر إلى هذا اليوم بل كت أسير في خيمة وفي مسكن» (٢صم٧:٦)

وبهذا يكون القديس يوحنا قد ربط بين حلول يهوه قديماً في خيمة الإجتماع وسط الشعب حيث ملأ بهاؤه المسكن، وبين حلول الكلمة في خيمة جسده الذي لم يستطع أذ يخفي بهاه عن أصحاب العيون المفتوحة «ورأينا مجده» بالرغم من الإخلاء الظاهري الذي أجراه في ذاته ومن اتضاع هيئة جسده.

والعجيب أن الروح لا يتركنا بلا توضيح، فالنبوات لم تترك حتى هذا الحلول والسكنى في أخر الأيام دون إشارة، فنسمع عنه من زكريا النبي «ترنمى وافرحي يا بنت صهيون لأني هأنذا أتي وأسكن في وسطك يقول الرب.» (زك٢:١٠)

هذا من جهة الحلول « في وسطنا».

كما يعطيا حزقيال النبي صورة أخرى للحلول «من فوق»: «ويكون مسكني فوقهم وأكون لهم إلهاً ويكونون لى شعباً« (حز٣٧:٢٧)

ولا نستغرب قوله: «مسكني فوقهم»، فهذا في الواقع كان موضع سكنى يهوه الرب العظيم داخل خيمة الإجتماع فوق «الغطاء» على التابوت. وغطاء التابوت هذا له شأن عظيم جداً سواء في اللاهوت العبري القديم، وكان اسمه عندهم «الشاكيناه» وهو «السكن» أي «موضع السكنى»، وطبعا دون ذكر اسم الله احتراماً وتوقيراً، أو في اللاهوت

الطقسي في الكنيسة القبطية(الايلاستيريون)[11].

«وصنع غطاء من ذهب نقي طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف، وصنع كروبين (الشاروبيم) من ذهب... وكان الكروبان باسطين أجنحتهما إلى فوق مظلين بأجنحتهما فوق الغطاء ووجهاهما كل واحد إلى الأخر» (خر٣٧:٦-٩). وقد حدد الله مكان تواجده عل هذا الغطاء هكذا:

٢- «كَلِّمْ هَارُونَ أَخَاكَ أَنْ لاَ يَدْخُلَ كُلَّ وَقْتٍ إِلَى الْقُدْسِ دَاخِلَ الْحِجَابِ أَمَامَ الْغِطَاءِ الَّذِي عَلَى التَّابُوتِ لِئَلَّا يَمُوتَ لأَنِّي فِي السَّحَابِ أَتَرَاءَى عَلَى الْغِطَاءِ. (لا١٦:٢)

٢٢- وَأَنَا أَجْتَمِعُ بِكَ هُنَاكَ وَأَتَكَلَّمُ مَعَكَ مِنْ عَلَى الْغِطَاءِ مِنْ بَيْنِ الْكَرُوبَيْنِ اللَّذَيْنِ عَلَى تَابُوتِ الشَّهَادَةِ بِكُلِّ مَا أُوصِيكَ بِهِ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ (خر٢٥:٢٢)

وفي العبري تترجم «الايلاستيريون» بـ »الكابوراة»، ويترجمها بعض العلماء بكرسي الرحمة، إشارة إلى مركز المسيح الشفاعي؛ ولكن معظم العلماء المدققين يربطون معناها بالكفارة وليس بالشفاعة، لأن المعنى الجذري في العبرية يقوم على الذبيحة، فهو معنى ذبائحي ينسجم مع الكفارة وليس الشفاعة. لأن رئيس الكهنة يدخل مرة واحدة في السنة في يوم الكفارة إلى قدس الآقداس لينضح من ذبيحة الخطية على الكبوراة أي غطاء التابوت أي الإيلاستيريون. وبولس الرسول يقطع بأن المسيح قد صار هو الايلاستيريون وقد تخضب بدم نفسه فصار الكبوراة الإلهية والكفارة الدائمة (رو٣:٢٥).

من هذا يتضح أن عبادة يهوه قديماً ارتبطت بخيمة الإجتماع وحلوله فيها وكان مركز خيمة الإجتماع الأقدس هو التابوت، وأقدس ما في التابوت هوغطاؤه حيث يسكن يهوه بصفة دائمة، كما يُفهم من الآيات السابقة.

وفي اللاهوت العبري، يعتبر الغطاء هذا أو الشاكيناه هو موضع «سكن» يهوه المقدس الدائم سواء في ترحاله قديماً أو إقامته الدائمة في الهيكل. وقد قدس العبرانيون اسم الشاكيناه »السكن» وجعلوه عوض اسم الله أو «الحضرة الإلهية»، فجاءت الترجمة العبرية للآية: «ويجعلون لى مُقدساً (هيكلاً) لآسكن في وسطهم» (خر٢٥:٨) في الترجوم هكذا: «وسأجعل الشاكيناه تسكن في وسطهم». لذلك فإن قول القديس يوحنا: «وسكن بيننا» كان يهدف بقوة إلى لفت أنظارنا إلى الحضرة الإلهية أو موضع سكناه في القديم.

وقد التقط آباء الكنيسة القبطة الآوائل هذا الوضع الفائق والممتاز لغطاء التابوت، الشاكيناه، (السكن)، وجعلوه تعبيراً عن الجسد، وجعلوا العذراء القديسة مريم هي الغطاه الذهب الذي حل عليه الله، أو سكنت فيه الحضرة الإلهية.

غير أن بولس الرسول استخدم لفظة «الغطاء» بمعنى الكفارة في الآية: «الذي قدمه الله كفارة بالإيمان بدمه» (رو٣:٢٥)، وهي الكلمة العبرية الأصل «كبوراة» المسماة أيضاً «كرسي الرحمة».

من ها جاءت النبوة «ويكون مسكي فوقهم وأكون لهم إلهاً ويكونون لى شعباً» (حز٣٧:٢٧). فإنجيل لوقا يسجل لنا كيفية مدخل الكلمة إلى الجسد الذي حل فيه هكذا: «الروح القدس **يحل عليك وقوة العلي تظلك**، فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يُدعى ابن الله« (لو١:٣٥). فهنا واضح أنه بدأ سكناه هكذا «**يحل عليك**» وبدأ مجد الله

---

[11] على القارىء الرجوع إلى تسابيح شهر كيهك حيث يتكرر ذكر الايلاستيريون مئات المرات باهتمام كبير للغاية، وهو نفس الاهتمام والمركز الذي كان يحتله الشاكيناه لدى العبرانيين.

وقوته تخيم «فوق» جسد البشرية الممثل في العذراء القديسة الثيئوتوكس.

ويحلو لنا أن نكمل بأن ترحال يهوه قديماً «ساكناً» وسط شعبه، من خيمة إلى خيمة ومن موضع إلى موضع مع الشعب التائه أربعين سنة، وفي العبور الإعجازي للأردن، حيث التابوت كان يتقدم المسيرة، ثم الإقامة الساخطة في وسط شعب متمرد غليظ الرقبة الذي أعطوه القفا دون الوجه جزاء ترحاله المضني معهم هذه السنين كلها، أخيراً وأخيراً جداً استقر في «جسد الإنسان: الشاكيناه الحقيقي والحضرة الحقيقية لله» التي وثق أعمدتها في السماء وعلى الأرض: «وليس أحد صعد إل السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء» (يو٣:١٣) ليعيش فينا ومعنا دائماً وإلى الأ بد «وها أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر.» (مت ٢٨:٢٠).

ج- «ورأينا مجده»

واضح أن «حل بيننا» بمفهومها المنطبق على سكنى الحضرة الإلهية في الجسد عل مستوى خيمة الإجتماع لا بد أن يرافقها استعلان المجد. وها يقدم القديس يوحنا شهادته كواحد من الذين رأوا هذا المجد.

وكلمة »«رأينا» باللغة اليونانية تتبع مجموعة الرؤية غير العضوية التي ليست بالعين بل بالإيمان للاستعلان. فكلمة «يرى» باليونانية عند القديس يوحنا وردتعل ستة تركيبات تختلف في اللفظ بعضها عن بعض، بينما هي تأتي في الترجمة العربية بتركيب واحد: «يرى»، أما في اليونانية فهي تنقسم إلى ثلاث مجموعات كل منها له موضع خاص للتعبير عن نوع من الرؤيا الخاصة، ولفظة (   ) هنا تتبع الرؤيا الخاصة بالاستعلان، سواء بخصوص حادثة أو لشخص المسيح نفسه الذي يستعلن ذاته من خلال كلماته وأعماله. وهذا النوع من الرؤيا لا يتبع الرؤيا الروحية التي للروحيين، التي يروا بها ما لا يُرى، ولكنها هنا رؤية الايمان البسيط الذي يستعلن الحق بمقدار ما يعلن الحق ذاته. وهذا كان سلوك المسيح العجيب، الذي كان يعمل ويتكلم مُعلناً الحق الذي فيه، الذي كل من كان عنده حاسة الإيمان كان يقبله ويؤمن، لأنه كان يرى الحق الذي فيه. وهذا النوع من الإيمان أو رؤية الإيمان لا يحتاج في الحقيقة للرؤية العينية وهو الذي نص عليه المسيح بقوله لتوما: »لأنك رأيتني يا توما أمنت، طوبى للذين أمنوا ولم يروا» يو٢٠:٢٩). هذه الطوبى المدخرة في رؤيه الإيمان بلا عيان وهي التي بقيت لنا حتى اليوم كما يقول بطرس الرسول: «الذي وأن لم تروه تحبونه، ذلك وإن كنتم لا ترونه الآن لكن تؤمنون به فتبتهجون بفرح لا يُنطق به ومجيد.»(١بط١:٨)

هنا يتحتم علينا أيها القارىء العزيز أن نوضح قيمة رؤية الايمان غير العيني، إذ أنه أصلاً قائم على رؤية علنية منظورة ومحسوسة إذ كانت تخص الكلمة المتجسد، هذه الرؤية العلنية التي ارتفعت عندهم إلى رؤية غير معتمدة على النظر والسمع، هذه هي الرؤية الإيمانية الصرف، التي سلمها الرسل للكنيسة، فصارت هي أساس الإيمان القويم غير المعتمد على المشاهدة ورؤيا العين، ولكن بقي الرسل هم أساس هذا الإيمان الوحيد. لذلك نحن نؤمن بالرسولية الكنسية عن حق وأصالة وضرورة حتمتها رؤيتهم القائمة على الرؤية العينية والمشاهدة واللمس التي اختصوا بها وحدهم دون جميع من رأوا الرب، لهذا صار الإيمان الرسولي المؤسس على (   ) هو ذخيرة الكنيسة، التي عليها نعيش، وبها نمسك كمن يمسك بالحياة الأبدية.

وهذا الأساس الرسولى الإيماني القائم على الرؤية الإيمانية غير العينية يضعه القديس يوحنا الرسول موضع الشهادة الرسولية، لكي يعتمد بختم رسول: «ونحن قد نظرنا ونشهد أن الآب قد أرسل الابن مُخلصا للعالم» (١يو٤:١٤)، «الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة

الحياة... » (١يو١:١). لذلك نستطيع بكل يقين أن نقول أن الإيمان غير العيني القائم على الرؤيا الصادقة هو إيمان تاريخي بالدرجة الاولى، له جذر تاريخي عاينه الرسل وعاشوه، لأن الله ظهر في الجسد وفي التاريخ. لهذا فكل من بلغ بالحقيقة إل رؤية الرسل هذه لابن الله يكون قد بلغ الرؤية الأمثل بكل تأكيد، أي يكون قد واجه معجزة التجسد ووضع يده على الجسد ورأى وشاهد ولمس، وذلك من خلال إيمان الرسل وشهادتهم، لذلك لم تصبح معجزة التجسد حبيسة تاريخ جيل الرسل، لقد استطاع الرسل بالرؤيا الغير عينية أن يجعلوا معجزة التجسد معجزة كل جيل، لتد أخرجوها من حيزها التاريخي إلى ما هو فوق التاريخ وبعده.

ولعل أقوى المواضع التي ذكر فيها كيف شوهد المجد علناً وعياناً هو حادثة التجلي، ولو أن القديس يوحنا لم يذكرها مع أنه كان أحد ثلا ثة شهود لها، وقد سجل هذه الحادثة كل من الآناجيل الثلاثة: «أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب وصعد إلى جبل ليصلي، وفيما هو يصلي صارت هيئة وجهه متغيرة ولباسه مبيضاً لامعاً، وإذا رجلان يتكلمان معه وها موسى وايليا، اللذان ظهرا بمجد، وتكلما عن خروجه الذي كان عتيدا أن يكمله في أورشليم، وأما بطرس واللذان معه فكانوا قد تثقلوا بالنوم، فلما استيقظوا رأوا مجده والرجلين الواقفين معه. وفيما هما يفارقانه قال بطرس ليسوع: يا معلم جيد أن نكون ههنا، فلنصنع ثلاث مظال لك واحدة ولموس واحدة ولإيليا واحدة. وهو لا يعلم ما يقول، وفيما هو يقول ذلك كانت سحابة فظللتهم فخافوا عندما دخلوا في السحابة، وصار صوت من السحابة قائلآ: هذا هو ابني الحبيب، له اسمعوا» (لو٩:٢٨-٣٥)

وفي هذا الحادث نلتقط عدة أمور تهمنا في شرح الأية التي نحن بصددها:

١- «أخذ بطرس ويوحنا ويعقوب».

٢- «صارت هيئة وجهه متغيرة» يقول عنها القديس متى في إنجيله: «تغيرت هيئته (تجلى)، واضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور.» (مت١٧:٢)

٣- «موسى وايليا اللذان ظهرا بمجد»

٤- «فلما استيقظوا رأوا مجده».

٥- «فلنصع ثلاث مظال لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة».

٦- «كانت سحابة فظلتهم». يقول عنها القديس متى الإنجيلي أنها «سحابة نيرة»

٧- «وصار صوت من السحابة قائلأ: هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا».

ونحن إذا عدنا إلى الحادثة المماثلة في العهد القديم مع موسى، نجد الآتي: «فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل وحل مجد الرب عل جبل سيناء وغطاه السحاب... وكان منظر مجد الرب كنار آكلة» (خر٢٤:١٥-١٧). ففي هذا المنظر وكل مناظر استعلان مجد يهوه الله في العهد القديم نجد أنه بمجرد اقتراب الله من الشعب، أو بالأكثر من موس وهارون، أو اقتراب موسى وهارون أمام الله، كان يصاحب ذلك ظهور واستعلان مجد الله! فإن كان الأمر هكذا في القديم فكم وكم بالحري بعدما اقترب الله ثم اقترب ثم تواجه مع الإنسان داخل الانسان كيف لا يستعلن مجده فيه!

وإن حادثة التجلي تجمع الظهورين معاً والمجدين معاً: مجد الآب في السحابة النيرة التي ظللتهم مع صوته الأتي من المجد الأسنى، مع مجد الابن ونور الكلمة يغشى »الجسد« فيجمل الوجه يضيء كالشمس.

ثم علينا أن نعود إلى ذاكرة القديس بطرس لنسمع منه ما يتذكره عن حادثة التجلي هذه بعينها: «لأَنَّنَا لَمْ نَتْبَعْ خُرَافَاتٍ مُصَنَّعَةً إِذْ عَرَّفْنَاكُمْ بِقُوَّةِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَمَجِيئِهِ، بَلْ قَدْ كُنَّا مُعَايِنِينَ عَظَمَتَهُ. لأَنَّهُ أَخَذَ مِنَ اللَّهِ الآبِ كَرَامَةً وَمَجْداً، إِذْ أَقْبَلَ عَلَيْهِ صَوْتٌ كَهَذَا مِنَ الْمَجْدِ الأَسْنَى: «هَذَا هُوَ ابْنِي الْحَبِيبُ الَّذِي أَنَا سُرِرْتُ بِهِ». وَنَحْنُ سَمِعْنَا هَذَا الصَّوْتَ مُقْبِلاً مِنَ السَّمَاءِ إِذْ كُنَّا مَعَهُ فِي الْجَبَلِ الْمُقَدَّسِ. (٢بط١:١٦-١٨)

واضح من هذه الشواهد أن القديس يوحنا حينما قال: «ونحن» فهو يقصد الخاصة جداً من تلاميذه وهم الثلاثة الذين كان قد انتخبهم مم الاثنى عشر ليطلعهم على سر مجده هذا، كما أطلع موسى سابقاً عل الجبل في سيناء، حيث تقول النبوة أنه «سيراه كل بشر» (إش ٤٠:٥)

وقد يظهر تعارض في قول النبوة قديماً على فم إشعياء النبي بخصوص هذه الرؤية وهذا المجد «عزوا عزوا شعبي يقول إلهكم. طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل، أن إثمها قد عُفي عنه أنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل خطاياها. صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب، قوموا في القفر سبيلً لإلهنا. كل وطأة يرتفع، وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوج مستقيماً والعراقيب سهلاً. فيعلن مجد الرب ويراه كل بشر معاً لأن فم الرب تكلم» (إش ٤٠:١-٥)

ولكن كان دأب الأنبياء أن يختصروا الزمن اختصاراً، فآلاف السنين تصير غداً أو سريعاً، لأن الرؤيا تكون في وهج شدتها متجمعة معاً وليست موزعة على السنين والأجيال. وقد تم بالفعل الجزء الاول من الاعلان عن مجد الرب، ورأه الأخصاء والمقربون والمختارون والمفديون، فمجدوا صاحب المجد. أما الجزء الثاني من الإعلان عن مجد الرب فهو مؤجل للجزء الباقي من البشرية حينما يرونه في مجيئه الثاني، في ملء مجده ومجد أبيه مع ملائكته (مت ٢٤:٣٠ ، رؤ١:٧).

وقوله: «رأيناه» فهو يتكلم عن رؤيا غير عادية كانت تحت سحابة نيرة، أي في الحضرة الالهية، التي تطابق حضور «يهوه» قديماً على جبل سيناء في السحابة التي ظللته. وهنا إشارة سرية إلى التعرف على شخصية المسيح. وحضور موسى وإيليا في التجلي بمجد هو إشارة ضمنية إلى قوله: «مشهوداً له من الناموس (موسى) والأنبياء (إيليا)» (رو ٣:٢١). وكلمة «بمجد» بالنسبة لموسى وإيليا تفيد ارتفاع كرامة الناموس والأنبياء في أشخاص مُمثليهما موسى وإيليا.

وقوله: «ورأينا مجده» فهو يقصد مجد «الكلمة بعد أن صار جسداً» أي يسوع المسيح. وقد اتضح من تسجيلات حادثة التجلي أنه فعلاً تغيرت هيئته الجسدية ولمع وجهه كالشمس وابيضت حتى ثيابه كالنور. ويصف القديس بطرس هذا المجد الذي رأه على الجبل أنه عاين عظمته، أي جلاله وقدرته، وأنه أخذ من الآب كرامة ومجداً: «مجد كما لوحيد من الآب مملوء نعمة وحقاً».

هنا فإن تكرار كلمة «المجد» هو بقصد التركيز ولفت الإنتباه لكي لا نتوه في تواضع «الجسد» أو في مضمون الإخلاء. فالمجد مَعلن ومنظور للعيون التي لا يلزمها الإخلاء والتي أدركت حقيقة «الكلمة» اللوغس، مهما تنازل وأخذ منظراً: «هكذا مُفسداً أكثر من الرجل» حسب قول إشعياء النبي (٥٢:١٤). لأن خطيئتنا هي التي حتمت على العين الضعيفة أن تراه «لا منظر(له) فنشتهيه» (٥٣:٢)

أو ليس «الكلمة» اللوغس هو صوت الله ونداؤه، وهو قوله وأمره، فكيف نسمع صوت الله من فم اللوغس ولا نحس بالمجد المحاط به، هذا إذا أحسنا الرؤيا؛ لأنه حتى اليهود العاديون لمحوا في كلامه مجد الله وسلطانه «لأنه كان

يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة» (مت٧:٢٩)!! أو بمعنى متقدم قليلاً عن الآية، إن المجد الذي رأوا ما هو إلا حب الآب منطبعاً عليه فلم يستطع أن يخفيه، واستطاعوا هم أن يستشفوه من فيض النعمة التي كانت عليه والحق الخارج منه الذي يهز كيان الإنسان الروحي.

وهذا المجد الذي رأوه فيه الذي هو حب الآب المنطبع عليه هو هو الذي جعل من الذين قبلوه أولاداً لله، أي أن هذا الحب نفسه أو المجد نفسه لما آمنوا به أدخلهم في مجاله فصاروا أولاد الله أي الحائزين على الحب الآبوي.

ونلاحظ أنه بظهور الكلمة في الجسد صار استعلان المجد الذي فيه. وقول القديس يوحنا أن هذا المجد لمحوه وتيقنوا من أنه مجد ابن وحيد لآبيه أو بالحري هو مجد الآب للابن الوحيد، هذا يوضح لنا سرا من أخطر الأسرار، أن استعلان المجد في الكلمة المتجسد كشف في الحال سر الأب والابن فيه، فبالرغم من أنه ظهر كابن، ولكن المجد كان مجد الآب في الابن. وهذا أيضاً صار كل من يرى الابن برؤية الإيمان فإنه يرى الآب بالضرورة، لأن مجد اللاهوت في الابن يشمل معه مجد الآب بآن واحد بدون شرح ولا توضيح: «الذي راني فقد رأى الآب.» (يو١٤:٩)

القديس يوحنا يجمع هنا جملة ما رآه وسعه واختبره مع الخاصة من التلاميذ ويؤكد ذلك بقوله: «ونحن»، فهو سمع بنفسه الرب يسوع المسيح يخاطب الأب عن مجده الخاص له عند الأب (يو١٧:٥ و ٢٤)، بل وسمع الأب يوافق بأنه «مُجد وسيمجد أيضاً (يو١٢:٢٨)، بل وسمع ورأى هذا المجد في حادثة التجلي المذكورة سابقاً، بل شاهد وعاين وشهد لأعمال الرب يسوع المسيح التي تنطق جيعها بمجده وأوضحها عرس قانا الجليل ومعجزة تحويل الماء خمراً التي بها أظهر المسيح مجده لتلاميذه فآمنوا به. هذا ولا ننسى المجد الذي عايشه القديس يوحنا مع كوكب الصبح المنير يسوع المسيح نفسه في سفر الرؤيا: «ووجهه كالشمس وهي تضيء في قوتها.» (رؤ ١:١٦)

«مجداً كما لوحيد من الآب»:

ها يقصد بحرف «كما» أن المجد الذي ظهر به الكلمة المتجسد هو المناسب والمطابق فقط لابن الله، الذي له وحده يليق كل مجد الله «الآب كالابن».

«وحيد من الآب» (مونوجانيس) والكلمة كم مقطعين «نوع» و «واحد» وهذا الوصف بالنسبة للكلمة المتجسد هو استعلان الحب الأبوي وهو من أعمق وأعز الاستعلانات التي عرفها الإنسان عن الله .

و«المونوجانيس« كأعظم وأعز استعلان للحب الإلهي فاز به العالم لما بلغ ملء أحزانه وأعوزه مجد الله، إذ انشقت السماء بالفعل وأرسل الله محبوبه ليدبر العالم ويرعى الإنسان: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد (المونوجانيس) لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣:١٦). لاحظ الارتباط بين «أحب« و«الابن الوحيد» .

وإذا أردت أن تعرف أيها القارىء العزيز قيمة هذا المحبوب الوحيد عند الله، اسمع ما يقوله: «الذي يؤمن به لا يدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن بابن الله الوحيد (المونوجانيس) (يو٣:١٨)، وقوله: «الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني.» (يو١٦:٢٦)

والقديس يوحنا يصادق على هذا ويزيد: «بهذا أظيرت محبة الله فينا أن أرسل ابنه الوحيد (المونوجانيس) إلى العالم لكي نحيا به» (ايو٤:٩). أي أن المونوجانيس عند القديس يوحنا هو أعظم حدث من أحداث الحب الإلهي الذي استعلن لنا في يسوع المسيح.

وحينما يقول القديس يوحنا أن المونوجانيس كائن في الحضن الأبوي فهو يضع المحبة في موضعها، ويشير إلينا من أين انفتح لنا ينبوع هذا الحب. وإن كان هذا هو الموضع الذي خصصه الآب للمونوجانيس، إذن فأي موضع يليق به عند الإنسان ليضعه فيه إلا القلب!!؟

هذا الوصف ليس من عند القديس يوحنا بل هو نفس الصفة التي أعطاها الله الآتي من السماء، أو كما يقول القديس بطرس: من المجد الأسنى، والذي سمعه القديس بطرس بنفسه هكذا: «هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررت به» (٢بط١:١٧). فالمونوجانيس تفيد أنه ابن حبيب وموضع مسرة أبيه الفريدة الذي لا يشاركه فيها اخر قط. وهذا الإصطلاح في الاستخدام يأتي للمذكر والمؤنث على السواء وقد جاء في مواضع كثيرة.

وكلمة المونوجانيس بحسب تحقيق العلماء لا تحمل معنى الولادة أو المولود وأدلتهم في ذلك ورود هذا الوصف في حالات يتعذر بل يمتنع فيها معنى الولادة أو المولود مثل:

١- في وصف إسحق ابن إبراهيم من فم الله نفسه: «وحدث بعد هذه الامور أن الله امتحن إبراهيم. فقال له يا إبراهيم، فقال هاءنذا. فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق، واذهب إل أرض المريا وأصعده هناك محرقة...» (تك٢٢:١-٢).

والمعروف أن إبراهيم وُلد له ابنان وليس ابناً واحداً، فهو ليس وحيداً. ولكن كان إسحق هو «الابن الوحيد المحبوب عند أبيه» وهذا هو المونوجانيس ضبطاً وربطاً.

٢- كما ورد هذا الوصف العادي على ابن أرملة نايين: «إذا ميت محمول ابن وحيد لأمه وهي أرملة» (لو٧:١٢). ومن هنا تأتي كلمة «مونوجانيس« باعتبارها «قيمة» عالية وغالية جداً عند هذه الأرملة.

٣- وإذا رجل اسمه يايرس... لأنه كان له بنت وحيدة » (لو٨:٤١-٤٢)

٤- « ثم أتى يفتاح إل المصفاة إلى بيته. وإذا بابنته خارجة للقائه بدفوف ورقص وهي وحيدة. لم يكن له ابن ولا ابنة غيرها» (قض١١:٣٤). وهنا أيضاً المونوجانيس تأتي كصفة تحمل قيمة عالية للغاية.

٥- وقد جاءت في معان كثيرة لا علاقة لها بالبنوة ولا بالميلاد، ولكن أتت في معنى الوحيد المحبوب للغاية بالنسبة للانسان وهي نفسه: «نفس وحيدتي»: «...يا قوتي أسرع إل نصرتي. أنقذ من السيف نفسي من يد الكلب وحيدتي (مز ٢٢:١٩-٢٠ و ٣٥:١٧)

٦- وجاءت بمعنى أنا وحدي. «التفت إلي وارحمني لأني وحيد ومسكين أنا»(مز٢٥:١٦)

وقد جاءت هذه الكلمة (   ) في اللغة العبرية في مواضع كثيرة بمعنى المحبوب فقط (   ) وهي قريبة من كلمة المغبوط.

ولكن كانت نظرة آباء ما قبل نيقية منحصرة نوعاً ما في معنى « الولودة» وهذا لا تحتمله الكلمة .

«كما لوحيد من الآب»:

هنا يبدأ القديس يوحنا يضع أساس استعلان الكلمة بعد التجسد والتأنس، فهو يكشف عن درجة بنوة الكلمة لله حيث «الكلمة هو الابن» في الذات الإلهية والله هو الأب. والقديس يوحنا يعلن عن اكتشافه للابن عن طريق المجد الذي استعلن في الكلمة لما تجسد، تماماً كما أعلنت الأناجيل بفم الملاك عن الحبل الإلهي للابن بالميلاد الإعجازي الفائق من العذراء مريم وبشارة الملاك العلنية بذلك: «الروح القدس يحل عليك، وقوة العلي تظلك، فلذلك أيضاً القدير المولود منك يدعى ابن الله.» (لو١:٣٥)

وقد أعاد المسيح نفسه صياغة نطق الملاك هذا بتأكيد قائلاً: »فالذي قدسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأني قلت إني ابن الله.»» (يو ١٠:٣٦)

وكما استعلن للقديس بولس بالقيامة من الأموات بمجد الآب: «وتعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات.» (رو ١:٣ ، ٦:٤)

وكما تيقن القديس لوقا الإنجيلي بإعلان من المسيح نفسه أنه سيأتي كابن الله في مجده ومجد أبيه: »متى جاء بمجده ومجد الآب والملائكة القديسين» (لو ٩:٢٦)

وهكذا نرى هذه الاستعلانات كلها متدرجة من جهة يقينية استقلان درجة البنوة لله هكذا:

أولأ: بالميلاد: دُعي ابن الل بفم الملاك.

ثانياً: بالقيامة: تعين ابن بالقوة من جهة روح القداسة.

ثالثاً: بالمعايشة والمعاينة: رأيناه ابن لله _ مع القديس يوحنا.

رابعاً: بوعد المسيح نفسه أنه يأتي ثانياً كابن الله في مجده ومجد أبيه.

خامساً: بتصريح المسيح نفسه.

«من الآب»:

وقول القديس يوحنا «من الأب« يشير ويركز على «نسبة المجد والبنوة بين الآب والابن»، كما تفيد أيضاً «الإرسالية» = ابن وحيد مُرسل من الآب: »أنا أعرفه لأني منه وهو أرسلني» (يو ٧:٢٩)

وقول القديس يوحنا: «كما لوحيد من الآب» تفيد بحسب لاهوت القديس يوحنا، وهو اللاهوت الذي استرعى انتباه آباء الكنيسة الأوائل، أنها تفيد علاقة يبدو فيها الابن مرتبطاً في وجوده بالأب ارتباطاً ذاتياً وجوهرياً، فهو ليس فقط ابن للأب بل ومرسل منه رسالة يؤديها بحتمية (الطاعة). وحتى المجد الذي للابن فهو ليس مجرد الابن بل مجد ابن وحيد من الإب.

والقديى بطرس يوضح هذه النسبة بغاية الدقة هكذا: «لأنه أخذ من الله كرامة ومجداً (٢بط١:١٧). إذن فهو «مجد من الآب» للابن، وبهذا ينكشف لا المعنى المختفي وراء قول القديس يوحنا: «مجداً كما لوحيد من الآب«. ولا ينبغي أن يفوتنا أن كلمة «وحيد لأبيه» تفيد معى الفرادة في الحب حيث يستحوذ الابن على كل حب الأب. هذا نسمعه من الله بغاية الوضوح والتركيز «ابني الحبيب»، أي أن «مجد ابن وحيد لأبيه» تعني بكل العمق استعلان «مجد الحب الأبوي» في المسيح للتلاميذ، وبالتال للكنيسة، لأن كل مجد الابن ورثته الكنيسة لأنها جسده المملوء نعمة وحقاً.

وهكذا فإنه بحب الأب للابن تم الخلق، وتم الفداء، وتأسست الكنيسة! لأن بحب الأب للابن «كان كل شيء» في الخليقة الجديدة مثل القديمة، وبدون حب الابن للآب لم يكن شيء مما كان، وهكذا أحب الله العالم ففداه بحياة ابنه: «بذل ابنه الوحيد.» (يو٣:١٦)

فالعلاقة بين الأب والابن علاقة تشمل وتتغلغل كل ما للابن حتى أنه لا يوجد الابن منفرداً بصفة لاهوتية خاصة به على الإطلاق إلا كونه ابناً.

ومن الملفت للنظر أن الله الأب بالنسبة للمسيح الابن في إنجيل يوحنا مذكور ١٣٧ مرة، في حين أن إنجيل متى مذكور فيه ٦٤ مرة فقط، وانجيل لوقا ٥٦ مرة، وإنجيل مرقس ١٨ مرة.

هذا يلزم أن ينبه ذهننا أن إنجيل يوحنا يتخصص في توضيح علاقة الآب بالابن والابن بالأب، أو بتعبير أصح يركز على استعلان سر الابوة والبنوة في عملية الخلاص والفداء والتبني.

لذلك فبعد الآصحاح الآول الذي كرسه لاستعلان «الكلمة» باعتباره الشخصية المحتجبة في الله: «حقاً أنت إله محتجب يا إلة إسرائيل المخلص» (إش٤٥:١٥)؛ نجد القديس يوحنا بعد تجسد الكلمة يركز على المسيح كابن الله حتى نهاية الإنجيل، كاشفاً دور الآب كأساس لعمل الابن الخلاصي.

د- «مملوءاً نعمة وحقاً»:

بعد أن حلق القديس يوحنا في ذكرياته السالفة عن الأمجاد التي رأها واستعلنها في الابن الوحيد ووقعت عينه ويده عليها في المسيح، الذي اكتشف فيه سر الحياة الآبدية ومجد البنوة الوحيدة للآب؛ يعود بنا إلى ذكرياته عن «الكلمة» في شخص يسوع المسيح كما اختبره في حياته الخاصة والعامة وسلوكه مع الأحباء والأعداء. وأعطى هذه الشهادة أنه كان مملوءاً نعمة وحقاً... فالنعمة والحق هي الصفات الإلهية المتجسدة « للكلمة» المتجسد.

هي أصلاً صفات الله الكائنة فيه، ولكن بتجسد الكلمة استعلنت هذه الصفات لأنها صارت في موضع العطاء، اوتجهزت لتصير هبة تمنح للناس: «وتعرفون الحق والحق يحرركم... فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً.» (يو٨:٣٢ و ٣٦)

«النعمة»:

لم تُستخدم في إنجيل يوحنا إلا هنا وفي الآية ١٧ من هذا الأصحاح فقط. وأما الحق فهو الصفة الإلهية التي تجيء في القمة بالنسبة للكلمة المتجسد، والتي أعلن عنها المسيح جهارا: «أنا هو الطريق والحق والحياة.» (يو١٤:٦)

وهاتان الصفتان في ها المقابل في العهد الجديد اللتان تعامل بهما الله معنا في شخص يسوع المسيح، كما كان يتعامل بهما يهوه قديماً: «فنزل الرب في السحاب. فوقف عنده (موسى) هناك ونادى باسم الرب. فاجتاز الرب قدامه ونادى: الرب الرب إله رحيم ورءوف، بطيء الغضب وكثير الإحسان والوفاء، حافظ الإحسان إلى ألوف، غافر الإثم والمعصية والخطية، ولكن لن يبرىء إبراءً» (خر٣٤:٥-٧). فهو «رحيم» ولكنه «لن يبرىء».

لذلك فالنعمة والحق في العهد الجديد هما المقابل الحقيقي للناموس والدينونة كما وضعهما القديس يوحنا نفسه في الآية ١٧ القادمة.

والنعمة في مفهوم القديس يوحنا إذا كانت في مقابل الناموس فهي عملية الفداء والخلاص بكل مشتملاتها ونتائجها، وبالأخص جداً في أنه جعلنا أولاداً وأحباء، بل وأحراراً بعد أن كنا عبيدا تحت سطوة الناموس بمقتضى سلطان الخطية المُذل. بل وتشمل النعمة حتماً كل نعم الله من مواهب؛ بل وبالاكثر جداً اتصالنا بالآب واتحادنا بالابن. أي أن النعمة عند القديس يوحنا هي التجسد الذي أجراه الكلمة في نفسه، فهي بالتالي شخص يسوع المسيح نفسه بالدرجة الاولى. لأن فيه وبه نلنا كل النعمة بل كل النعم. لذلك هكذا ظهر الكلمة لما تجسد أنه مملوء نعمة وحقاً، أي كله نعمة وكله حق، على مستوى العطاء.

فنعمة الأب لنا هي أنه بذل ابنه الوحيد من أجلنا ليكون لنا حياة أبدية باسمه، ثم ولدنا لنفسه لما قبلنا ابنه بالإيمان في قلوبنا وحياتنا. الأب ولدنا لنفسه باتصال وليس بالمجاز أو التصور. لأن نعمة الأب لنا هي انعطاف ذاتي والتحام سري. فكلمة «مولودين من الله» هي من الجدية والحقيقة العملية الروحية على مستوى أعلى من

«الميلاد من الدم ومشيئة الجسد ومشيئة الرجل»، أي أنها بقوة فعل سري فائق يسري في كياننا الروحي فيغيره ليكون على صورة خالقه كما ينمو الولد ويتشكل على صورة والده. «كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية لأنه زرع (زرع الله) يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطىء لأنه مولود من الله.» (يو٣:٩)

ونعمة الآب هي مكملة لنعمة الابن لنا الذي تنازل وأخذ جسدنا لذاته ليهيئنا بالتقديس الذي أجراه لنا، لنكون مؤهلين لتبتي الآب لنا.

«الحق»:

الحق بالسبة للقديس يوحنا ليس هو الصدق الذي هو عكس الكذب بل الحقيقة Reality في مقابل الشبه أو الظل.

فكل أعمال ومعاملات الله قديماً كانت شبه السماويات وظلها، «إذ يوجد الكهنة النين يقدمون قرابين حسب الناموس، الذين يخدمون شبه السمويات وظلقا كما أوحي إل موسى وهو مزمع أن يصنع المسكن» (عب٤:٦-٥).

وكل رؤية الله مهما سمت كانت ليس أكثر من «شبه الله يعاين» كما جاء ملى لسان الله: «فقال (الرب) اسمعا كلامي: إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم. أما عبدي موسى فليس هكذا، بل هو أمين في كل شي، فماً إلى فم وعياناً أتكلم معه لا بالألغاز، وشبة الرب يعاين« (عد١٢:٦-٨)

ولكن الآن، وباستعلان الله في الكلمة المتجسد أي شخص يسوع المسيح، ليس بعد كلام الله في حلم ولا بالآلغاز بل «كلمنا ... في ابنه»، «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة« (عب١:٢؛ يو ٦:٦٣)، ولا بالشبه نعاين الله بل بالحق، «الأليثيا»: « الذي رآني فقد رأى الآب (الله)»، «أنا هو... الحق» (يو١٤:٦و٩)

فـ «الحق» هنا عند القديس يوحنا هو استعلاذ الله في ذاته استعلاناً حقيقياً كاملاّ كأب تبنانا، وعرفناه أباً ووالداً لنا، ليس بولادة مجازية أو كمنحة ولكن باتصال وفعل سري: «كل من يحب فقد وُلد من الله» (١يو٤:٧)، وكابن أخذ جسدنا ومات عنا وفدانا.

فعندما يقول القديس يوحنا أنه مملوء نعمة وحقاً فهو يعني أنه بالقياس وبقدر ما يستطع الإنسان أن يقيس ويستوعب فهو الاستعلان الكلي لكل ملء الله سواء من جهة نعمته أومن جهة ذاته. والكلام كله منصب على «الكلمة صار جسداً».

ولكي ندرك صلة «الحق الأليثيا» باستعلان الابن عند القديس يوحنا نسمع من المسيح بوضوح قوله بأنه «الحق» و«الابن» واحد هكذا: «إن ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي، وتعرفون الحق والحق يحرركم» (يو٨:٣١)، «فإن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (يو٨:٣٦)

ويلاحظ هنا أن »معرفة الابن» معرفة ثابتة توصل إلى »»معرفة الحق» ومعرفة الحق أو الابن كلتاها تحرر. والمعرفة هنا ليست بنت الفهم والدراسة بل حصيلة رؤيا واستعلان. فالذي يستعلن«الابن» ويدركه في ذاته يستعلن »الحق». أو بمعنى أكثر وضوحاً الذي يستعلن الله «كأب وابن»» يبلغ إلى منتهى الحق، لأنه يلده ابناً حرا لله! هذا كل ما نترجاه من النعمة وكل ما نطلبه من الحق، وهذا قد صار لنا لما صار الكلمة جسداً.

١٥- يُوحَنَّا شَهِدَ لَهُ وَنَادَى: «هذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ عَنْهُ: إِنَّ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي صَارَ قُدَّامِي لأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي».

هنا القديس يوحنا الإنجيلي يقدم هذه الجملة الإعتراضية بعد وصفه لأمجاد الكلمة المتجسد، مشيراً ومعلناً عن دخول الكلمة المتجسد إل بدء عمله، الذي لما باشره كشف في الحال عن شخصية المسيا، »الكلمة المتجسد»، أنه

وإن كان قد جاء متأخراً عن المعمدان إلا أن وظيفته أعلنت جهارا أنه كائن قبله، ليس من جهة الوقت أو الزمن بل الوجود والكيان: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن.» (يو٨:٥٨)

والقديس يوحنا يقدم هذه الشهادة من فم المعمدان نفسه ليثبت بها للكلمة المتجسد التقدم المطلق: »لأنه كان قبلي» ليس في العمل وحسب، بل وفي الوجود والكيان السابق على المعمدان؛ الذي وإن كان المعمدان قد سبق المسيح فهذا لكي يعلن عنه ويعد الطريق له، وليس ليتقدم عليه في الكرامة.

وتأتي شهادة المعمدان في الفعل المضارع يشهد (باستمرار)، لتوضح دوام الحقيقة التي يشهد عنها، بخصوص الشخص المرتقب والمترجى ظهوره وطبعاً هو »المسيا».

وحينما يقول: »ونادى»، فهذه في الأصل تعبير عن الصراخ الملفت للنظر والذي يكون بالصوت العالي تعبيرا عن خطورة واهمية من يشير إليه، كما تفيد بصورة خفية أنها الصرخة التي أطلقها ومات عندما ماتت الصرخة، ولم تعد تتبع التاريخ بل صارت معلومة حية قائمة أبد الدهر. كذلك فإن صراخ الشهادة هو التصوير الإنجيلي لعمل الإلهام الروحي الذي يتدفق مرة واحدة في الإنسان فيطلقه بانفعال: «وامتلأت أليصابات من الروح القدس وصرخت بصوت عظيم وقالت مباركة أنت في النساء ومباركة هي ثمرة بطنك» (لو٢:٤١-٤٢). وهذا ما يقصده القديس يوحنا في تسجيله لشهادة المعمدان أنها كانت بنطق إلهي.

وغرض إنجيل القديس يوحنا من وضع هذه الشهادة هنا هكذا هو لحساب المؤمن الذي سيأتي عبر الزمان، الذي هو أنا وأنت أيها القارىء العزيزه ليأخذ من هذه الشهادة الهامة جداً، باعتبارها ختم آخر أنبياء العهد القديم على صدق مجيء المسيا بالجسد في ملء الزمن حسب توقعات كل الأنبياء والآباء والتاريخ اليهودي كله، وأنه وان جاء في مل ء التاريخ إلا أنه كان قائما قبل التاريخ.

وقد اكتفى الإنجيليون الثلاثة في ذلك بقولهم وبصفة عامة: «ياتي بعدي من هو أقوى مني»؛ ثم في تقييمهم لارتفاع كرامة المسيح بالنسبة للمعمدان سجلوا ما قاله بنفسه:

* لست أهلاً أن أحل حذاءه. (مت٣:١١)
* لست أهلاً أن أنحني وأحل سيور حذائه. (مر ١:٧)
* لست أهلاً أن أحل سيور حذائه. (لو٣:١٦)

أما القديس يوحنا فقد حدد شخصية المعمدان بالنسبة للمسيح، فالمسيح كائن قبل المعمدان. كذلك فعل المسيح سابق على عمل المعمدان. هذا هو معنى «كان قبلي» كائنا وعاملاً.

وشهادة المعمدان التي يقدمها القديس يوحنا هنا تخدم قضية طبيعة وشخصية الكلمة المتجسد تأكيدا أن التجسد أبقى على لاهوت وأزلية الكلمة كما كان. فكأذ مجمل قول القديس يوحنا هو أن الكلمة لما صار جسداً بقي كما هو إذ رأينا مجده واستعلنا فيه أنه مجد وحيد لأبيه مملوء نعمة وحقاً، والمعمدان شهد لسمو طبيعته الفائقة ولأسبقيته عليه بلا حدود.

١٦- وَمِنْ مِلْئِهِ نَحْنُ جَمِيعاً أَخَذْنَا وَنِعْمَةً فَوْقَ نِعْمَةٍ.

القراء الصحيحة باللغة اليونانية حسب آباء الإسكندرية تقول: «وبسبب هذا نحن جيعا أخذنا من ملئه، ونعمة فوق نعمة».

وهذه الآية ولو أنها معتمدة على الآية ١٤ قبل السابقة لدبقة«(ونحن) رأينا مجده .. مملوءاً نعمة وحقاً«، إلا أن

هذه الأية هنا تؤكد حقيقة الأية ١٤ عملياً بسبب أخذنا من عطاياه. وهكذا يأتي فعل «أخذنا» تأكيدا وتصديقا لفعل «رأينا». هذا يزيد التركيب اللغوي اليوناني قوة وإيضاحاً بسبب أن فعل «أخذنا» الذي يعني أكثر من «أخذنا» خاصة حينما يأتي بعد شهادة أو معتمداً عليها، إذ يفيد معنى الأخذ على مستوى المسك أو القبض أو الاستحواذ سواء فعلاً أو فهماً، وحينئذ ترسخ معنى الإيمان اليقيني أو مل ء الإيمان؛ حيث »الأخذ أو القبض على» تفيد الفهم والإيمان والقبول والاستحقاق معاً.

وينكشق هذا المعنى حيما نسمع العكس في قول المسيح: «روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله (يأخذه) لأنه لا يراه ولا يعرفه« (يو ١٤:١٧). أي أن الأخذ على مستوى القبول يعتمد مل رؤيا وتأمل وملاحظة واستحقاق، وإلا يمتنع. وهذا السبب بالذات، أي لأنهم رأوا مجده رؤية التحقق، لذلك أو«لهذا السبب» أخذوا نعمة فوق نعمة.

ولقد ظن بعض آباء العصر الآول مثل أوريجانس وهيراكليدس وغيرها، الذين اضطلعوا بشرح إنجيل يوحنا أن هذه الآية هي تكملة لحديث المعمدان وشهادته، ولكن تسلسل الكلام والمعنى يمنع ذلك، بالإضافة إل أن قول القديس يوحنا «نحن جميعا» ليس أسلوب المعمدان، ولا هو من حقه أن يقول ذلك، لأنه جاء كصوت واحد صارخ يعد الطريق وليس ليمتلئ. فالمكلم هنا هو القديس يوحنا الإنجيلي، كما يقول كل من القديس ذهبي الفم وأغسطينوس وكيرلس الكبير. فبعد أن قدم شهادته مع التلاميذ في قوله «ونحن» رأينا مجده يقدم لنا شهادة الكنيسة معه: «ونحن جيعاً أخذنا».

وبهذا تكون هذه الآية هي أول إشارة إل علاقة الكلمة المتجسد الملوء نعمة وحقاً بالكنيسة التي أخذت من ملئه. وتسلسل الكلام يكون هكذا: «ونحن التلاميذ رأينا مجده مجد وحيد لآبيه، وعرفنا وتيقنا أنه مملوء نعمة وحقاً، وبسبب هذا نحن جميعاً، أي الكنيسة كلها، أخذت من ملئه».

الإشارة هنا بليغة وتشير إلى فيض الحب الذي يتفجر من الكلمة المتجسد على هيئة نعم وعطايا متلاحقة الواحدة تمسك بالأخرى. فكل نعمة تؤدي إلى نعمة أكثر. ثم انظر كيف يركز القديس يوحنا على »جميعاً»، وكأنه لم يترك أحداً في الكنيسة دون أن يغدق عليه نعمة ولو لم يدر.

«ملئه»:

متصلة بسابقتها »مملوء» وهي تشير إل الكثرة والفيض، كما تجيء في اللاتينية Plenitudo. (كما وردت في نسخة Vulgate).

فإذا علمنا أن (   ) هي صيغة الحال المأخوذ من الفعل (   ) الذى معناه يكمل (To make complete)، إذن، فالكلمة تعني كمال الملء أو منتهى الملء. وهذا ما يقصده القديس بولس الرسول بقوله: «لأنه فيه سر(الآب) أن يحل «**كل**» الملء» (كو ١:١٩). والملء ها تعبير لاهوتي يختص بطبيعة الله، فهو الوحيد الملء الكلي والمالىء الكل. ومن روح إنجيل يوحنا يأتي عمل الملء على أساس الحياة الأبدية. فمن ملء الحياة الآبدية يملأ «الله الكلمة» الفرد أو الكنيسة، بالحياة الآبدية.

وفي الحقيقة، وبنظرة واحدة ثاقبة، نرى أن ملء اللوغس المتجسد الأتي إلينا من جهته هو، هو ملء الحياة والمجد وحب الآب، ولكن من الجهة الأخرى بالنسبة لنا فهو الخلاص الكلي بكل مشتملاته من موت وقيامة وفداء وتبرير وصعود وحياة أبدية ومجد وشركة في الطبيعة الإلهية، بكل ما يتبع ذلك من مواهب ضرورية وعطايا امتياز وتبني وحب إلهي فائق:

«لأن الذي ارسله الله يتكلم بكلام الله، لانه ليس بكيل يعطي الله الروح» (يو٣:٣٥)

«كما ارسلني الآب الحي وانا حي بالآب فمن يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦:٥٧)

وكلمة «الملء» محبوبة جداً عند القديس بولس، فهي تملأ قلبه بالأحساس الغامر بفيض النعمه فى المسيح يسوع بصورة طاغية. فقد وردت خمس مرات فى رسالتى افسس وكولوسي. وهذه الكلمة بالذات تعتبر هنا وصلة ذات اعتبار كبير بين لاهوت القديس بولس ولاهوت القديس يوحنا، وبالاخص التي جاءت في الرسالة إلى كولوسي:

* «لأنه فيه سر أن يحل كل الملء، وأن يصالح به الكل لنفسه، عاملاً الصلح بدم صليبه، بواسطته، سواء كان ما على الأرض أم فى السموات» (كو١:١٩-٢٠)

* «فإنه فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً ل، وأنتم مملوؤون فيه» (كو٢:٩-١٠)

* «واخضح كل شيء تحت قدميه وإياه جعل رأساً فوق كل شيء للكنيسة التي هي جسده ملء الذى يملأ الكل فى الكل» (اف١:٢٢-٢٢).

* «ونعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفه، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله» (أف ٣:١٩)

* «إلى أن ننتهي جيعنا إلى وحدانية الايمان ومعرفة ابن الله، إلى إنسان كامل، إلى قياس قامة ملء المسيح» (اف٤:١٣)

بولس الرسول يرى ملء المسيح هو ملء الله، وأن الإيمان بالمسيح والدخول في محبته الفائقة المعرفة هو الطريق للأخذ من هذا الملء الكامل الذى للمسيح، وذلك عندما يتحد المؤمنون في وحدة الإيمان ومعرفة ابن الله. وكل واحد يأخذ من هذا الملء قدر ما تؤهله رؤية إيمانه لمجد المسيح وحبه، وايضا قدر ما توهله صلته في الكنيسة كعضو في جسدها. لانه للكنيسة المتحدة فقط أعطي ملء المسيح كل الملء، على اساس شدة الحب الذي يجمع اعضاءها ليصير لها ما للرأس بالضرورة الحتمية؛ لان مجد الرأس هو للجسد، وفخر الجسد هو الرأس.

القديس يوحنا في هذه الأية يتول قول القديس بولس تماماً، إنما باختصار شعري بليغ، كما يجعل هذا المبدأ اللاهوتي في صلاة المسيح قائلآ للآب القول المستجاب: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطتني ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد» (يو١٧:٢٢)، هذا هو المجد الذي أخذ من ملئه القديس يوحنا وأخذت الكنيسة معه.

وهنا لا يفوتنا لمحة لاهوتية نخرج بها من هذا المضمار في القول عن الملء من جهة نصيب التجسد من هذا الملء الذي يؤكده ويرسخه بولس الرسول بقوله: «لأنه فيه سر أن يحل كل الملء»، و «فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً»، والذي يرد عليه القديس يوحنا بقوله: «والكلمة صار جسداً... مملوءا نعمة وحقاً». هنا ظفر الجسد بالملء الإلهي، ملء اللاهوت، فدخلته البشرية من أوسع أبوابه لأنه جسد »الكلمة»، الذي انفرش عليه اللاهوت، فمدد أطرافه ووسع تخمه وأبعاده حتى وسع ما للاهوت من ملء. هنا دخلت الكنيسة التي هي جسده إلى اللانهائية، لا باستحياء، بل بجراءة الذي خلقها وفداها ورفعها من التراب إلى السماء.

»...أخذنا، ونعمة فوق نعمة»:

«أخذنا» تأتي هنا بدون مفعول به، »من ملئه نحن جيعاً أخذنا». لأن الملء ليس مجزءا، هو فعلاً عطايا ونعم كثيرة وبلا حصر أوعلى الأصح «بلا كيل». ولكن الملء يوزع ليعود فيتجمع، فهو ملء واحد، ولا بد حتماً بعد أن يتوزع لكل واحد حسب حاجته ويمسرة الله، أن يصير وينتهي إلى واحد، »إلى أن ننتهي جميعنا إلى وحدانية الإيمان ومعرفة ابن الله إلى إنسان كامل إلى قياس قامة ملء المسيح.» (أف٤:١٣)

«ونعمة فوق نعمة»:

في هذه الآية ذهب الشُراح كل مذهب، فمنهم من قال، وهم بعض آباء الكنيسة ومنهم ذهبي الفم وكيرلس الكبير، أن نعمة مقابل نعمة تعني نعمة العهد الجديد مقابل نعمة العهد القديم، أي الناموس، ولكن قولهم مردود عليه في الآية ١٧ التي جعلت الناموس هو المقابل للنعمة ومتدني عنها: «لأن الناموس بموسى أعطي، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا».

وبولس الرسول يضح الناموس مضاداً للنعمة، وليس مساوياً لها أو حتى بديلا عنها: «لأَنَّهُ إِنْ كَانَ الَّذِينَ مِنَ النَّامُوسِ هُمْ وَرَثَةً فَقَدْ تَعَطَّلَ الإِيمَانُ وَبَطَلَ الْوَعْدُ. لأَنَّ النَّامُوسَ يُنْشِئُ غَضَباً إِذْ حَيْثُ لَيْسَ نَامُوسٌ لَيْسَ أَيْضاً تَعَدٍّ. لِهَذَا هُوَ مِنَ الإِيمَانِ كَيْ يَكُونَ عَلَى سَبِيلِ النِّعْمَةِ لِيَكُونَ الْوَعْدُ وَطِيداً لِجَمِيعِ النَّسْلِ. لَيْسَ لِمَنْ هُوَ مِنَ النَّامُوسِ فَقَطْ بَلْ أَيْضاً لِمَنْ هُوَ مِنْ إِيمَانِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي هُوَ أَبٌ لِجَمِيعِنَا.» (رو٤:١٤-١٦)

ولكن علماء الشرح المدققين اتفقوا حديثاً على أنها تفيد اللاحقة والمتابعة التي لا تنتهي لعطايا النعم المتجددة دائماً وإلى الأبد من لدن الرب يسوع المسيح: أي أن كل نعمة تأتي تنادي نعمة أخرى فترد عليها تلك وتأتي.

فكل نعمة يقابلها نعمة أعمق وأعلى، ونعمة الرب لا تقف ولا تحد: «لأنه ليس بكيل يعطي الله الروح.» (يو٣:٣٤)

القديس أغسطينوس في عظته الثالثة على الأصحاح الأول لإنجيل القديس يوحنا يشرحها شرحا مطولا بما يفيد أن من ملئه نحن أخذنا، هذا مجمل الأخذ، ثم أضاف الإنجيل: «ونعمة فوق نعمة»، فمثلاً الإيمان نعمة ويقابل الإيمان نعمة أخرى وهي الحياة الأبدية، وهكذا.

فإذا عاد القارىء بذاكرته إل ما قلناه بخصوص طابع إنجيل القديس يوحنا الاستعلاني والمتدرج في استعلانه للمسيح والآب، نجد في هذا القول: «ومن ملئه نحن جيعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» بما يفيد أيضاً الامتداد الاستعلاني للمسيح حتى وإلى الأبد. لأن تلاحق النعم وتلاحق الامتلاء من ملئه، أي من ملء النعمة والحق، هو أساساً وبالدرجة الاولى يخدم قضية استعلان حقيقة المسيح الذي لا نهاية لملئه. وفي المنهج الروحي العملي معروف أن كل نعمة يحصل عليها الإنسان إنما ترفعه إلى نعمة أخرى أعلى، لأن النعمة هي بحد ذاتها قوة رافعة، لذلك نسمع القول أن «من يضع نفسه يرتفع» (مت٢٣:١٢، لو١٤:١١، ١٨:١٤)، وما ذلك إلا لأن الإتضاع نعمة، فنعمة الإتضاع ترفع إلى نعمة المجد. وقد يتهيأ أحياناً للانسان الروحي الذي يمارس الحب الإلهي أنه بلغ المنتهى من النعم والسعادة، ويكاد يقول: كفى، هنا قد بلغت النهاية. ولكن إذ بالنعمة ترفعه إلى مستوى أعلى فينظر وراءه وكأنه لم يكن سابقاً قد بلغ شيئاً!!، وهكذا فلينتبه القارىء أننا أمام قديس إنجيلي متمرس يتكلم من أعماق يعيشها وبكلمات قليلة يسلمها لمن يسير على دربه.

وكما سر الآب «أن يحل في المسيح كل ملء اللاهوت جسدياً»، كذلك سر المسيح بنفس القدر والسخاء والحب أن يصب كل ملء نعم اللاهوت الذي له في الكنيسة التي هي جسده، لتمتلىء إلى كل ملء نعم الله، لأنها تأسست على دم الحب وشربت منه الروح الأزلي الذي لن يكف عن أن يأخذ مما للمسيح ويصب فيها صباً حتى تمتلىء إلى كل ملء الله. فلا تستغربن أيها القارىء قول القديس يوحنا: «ونعمة فوق نعمة»، لأن المنعم صمم على أن «المجد الذي لي أنا أعطيتهم»، بل ونفذ بالفعل السري حالة حلول وإتحاد وعطاء نعم بلا حد ولا عد للذين أمنوا وتبعوا وشهدوا له في كل عصر: «أنا فيهم وأنت فيى» (يو١٧:٢٣). لذلك فسريان النعمة لن بكف، طالما كان الاتحاد مفتوحاً.

وشهادة القديس يوحنا هنا خاصة بإضافة «جميعاً»، و«نحن جيعاً»، هي ليست شهادة فقط، بل واعتراف، بل وصلاة شكر بلسان الكنيسة كلها ولسان القارىء.

فهي تسبحة اعتراف بفضل المسيح يسوع الدائم والآبدي، فلا يوجد مكان أو زمان في الكنيسة يخلو من نعمته، ولا دخل إليه أحد وخرج فارغاً؛ فمراحمه لا تزال تتجدد كل صباح، وفي الفجر تتساقط نعمته كالطل على الكلأ، من يبكر إليه يجده، ومن يسهر إليه يتمشى معه. هو هو وحده وليس أخر يعطي ولا حدود لعطائه، ونحن جيعاً جميعاً نأخذ بلا عد ولا مكيال.

١٧- لأَنَّ النَّامُوسَ بِمُوسَى أُعْطِيَ أَمَّا النِّعْمَةُ وَالْحَقُّ فَبِيَسُوعَ الْمَسِيحِ صَارَا.

هنا يدفع القديس يوحنا الاستعلان إلى أقصاه فيبرز الاسم الذي ملأ خياله منذ أن بدأ يكتب إنجيله. هنا برز ختم الرسالة حيث يقرأ بغاية الوضوح اسم صاحبها: «يسوع المسيح».

وهذا هو آخر درجات استعلان مؤهلات «الكلمة»، وقد وضعه في مقابل الناموس أي التوراة جملة، بل والعهد القديم برمته، موضحاً أن الناموس أي التوراة لم تأت لا بنعمة ولا بحق، لا بسبب قصور فيها فهي «كلمة الله» بالدرجة الاولى، ولكن كان القصور في الشعب برؤسائه وكهنته الذين لم يلتصقوا بالله ليدركوا النور الذي فيها، مما حدا بالله أن يأتي بنفسه ويلتصق بالإنسان ويسكب فيه من روحه النعمة والحق.

فإذا عدنا بالذاكرة إلى مخطط استعلاناته لشخص يسوع المسيح السابقة نجدها هكذا:

١- «الكلمة في البدء» أي الآزلية.

٢- «الكلمة عند الله».

٣- «اكلمة الله».

٤- «الكلمة» كخالق. «كل شيء به كان».

٥- «الكلمة» كحياة. «فيه كانت الحياة».

٦- «دالكلمة» نور. «و لحياة كانت نور الناس».

٧- «الكلمة» ضد الظمة. «والنور أضاء في الظمة».

٨- «الكلمة» أتياً إلى العالم. «كان في العالم» كنور.

٩- «الكلمة» أتى إلى خاصته. كلمة الله في الأنبياء_ «المسيا».

١٠- «الكلمة» «صار جسداً».

١١- «الكلمة» في هيكله الجديد «حل (سكن) بيننا».

١٢- استعلان الكلمة المتجسد أنه «ابن الله» مملوء نعمة وحقاً.

١٣- أستعلان الكلمة كملء الكنيسة: «نحن جيعاً مملوؤون فيه.

١٤- استعلاذ الكلمة في شخص «يسوع المسيح» والعهد الجديد والإعلان عن انتهاء عهد الناموس: «لأن الناموس بموسى اعطي، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا».

تأتي هذه الآية موازية للأية السابقة ومترتبة عليها. فظهور النعمة والحق بالملء الالهي الكلي هو إيذان بانتهاء عصر الناموس، عصر العقوبة والظل. وظهور شخص يسوع المسيح الذي تفسيره اللاهوتي من الآيات السابقة هو «يسوع»، الكلمة المتجسد، المسيح، المسيا الآتي، هو إيذان حتمي بانتهاء عصر موسى.

فيكون الله قد بدأ «يكلمنا في المسيا ابنه»، فهذا معناه أن عهد «الكلمة في موسى والانبياء» انتهى، والآن قد صار يكلمما الله بلا وسيط! ليس على أساس القانون والعصا بل بالنعمة والحق.

فعهد المسيح أو المسيحية مبني على النعمة، النعمة تغطى حياة المسيحي منذ أن يعتمد وحتى يلتحق بوطنه السمائي. ولكن ليست النعمة عطية واحدة على وتيرة واحدة، بل هي نعمة بانية وممتدة لملء حياة المسيحي: «نعمة فوة نعمة». والنعمة ليست وحدها تبني وليست وحدها توصل، بل النعمة في المسيحية مؤسسة على الحق، ليس على الشكل ولا الخارج أو الشبه ت أو الزائل، بل هي نعمة الله الموصلة إلى الله.

ولكي يتأكد القارىء أن «اسم يسوع المسيح» كان يملأ فكر القديس يوحنا ويملي عليه كل استعلاناته بتدرجها المدهش هذا، نقدم هاتين الآيتين:

* «وهذه هي الحياة الأبدية أذ يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو ١٧:٣)

* «وآيات أخرى كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم حياة إذا أمنتم باسمه.» (يو ٢٠:٣٠-٣١)

هذا وإن اسم يسوع يحتل أكبر ساحة إنجيلية عل الإطلاق عند القديس يوحنا، فقد ورد ٢٣٧ مرة في حين أنه ورد في إنجيل القديس متى ١٥٠ مرة وإنجيل القديس مرقص ٨١ وانجيل القديس لوق ٨٩ مرة.

ولقد انتحى كثير من الشراح نحو كشف المفارقة بين الناموس والنعمة، أي العهه القديم والجديد، أو موسى والمسيح . ولكن في الحقيقة نحن نسترشد بقول المسيح نفسه ما جئت لأنقض بل لأكمل: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل» (مت٥:١٧)

ولكي نوضح مدى التكميل أو مدى الكمال في ناموس المسيح بالنسبة لناموس موسى، نقدم للقارىء هذه الوصية الجديدة لعهد ناموس النعمة: «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن، وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضاً.» (مت ٥:٣٨-٣٩)

إذن، إذا أردنا أن نعمل مقارنة بين عهد الناموس وعهد النعمة، فهذه المقارنة لن تخرج عن قول المسيح أنها مقارنة بين الناقص والكامل الذي أكمله المسيح على الصليب بموته الفدائي: «قد أُكمل» (يو١٩:٣٠) فكان هو سر النعمة كلها.

فكل ما كان ناقصاً في ناموس موسى، أكمله المسيح في نفسه ثم أعطاه لنا مجاناً. وهذه هي النعمة، كل النعمة. أو بأكثر دقة ووضوح فإن المقارنة بين الناموس والنعمة هي في حقيقتها مقارنة بين الجسد والروح!

ولكن نقص الناموس لم يكن بسبب موسى ولا من الله الذي أعطاه، فالمسيح يقول بهذا الصدد: «ما جئت لأنقض بل لاكمل، فإني الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (مت٥:١٧-١٨). ولكن الناقص كان ناقصاً بسبب الذين أُعطي لهم. والمسيح يقول بهذا الصدد: «فتقدم الفريسيون وسألوه: هل يحل للرجل أن يطلق امرأته ليجربوه. فأجاب وقال لهم: بماذا أوصاكم موس؟ فقالوا: موسى أذن أن يكتب كتاب طلاق فتطلق. فأجاب يسوع وقال لهم: من أجل قساوة قلوبكم كتب لكم هذه الوصية. ولكن من بدء الخليقة ذكراً وأنثى خلقهما الله، من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته، ويكون الاثنان جسداً واحداً. إذا ليسا بعد اثنين بل جسد واحد. فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان.» (مر١٠:٢-٩)

وبولس الرسول يؤكد ذلك تأكيداً موضحاً أن الخطية كانت قد ملكت الإنسان واستعبدته حتى صيرت له الصالح موتاً:

«لأن الخطية وهي متخذة فرصة بالوصية خدعتني بها وقتلتني، إذاً الناموس مقدس والوصية مقدسة وعادلة وصالحة. فهل صار لي الصالح موتاً؟ حاشا، بل الخطية، لكي تظهر خطية منشئة لي بالصالح موتاً، لكي تصير الخطية خاطئة جداً بالوصية» (رو٧:١١-١٣). وهذا هو سر الإثم الكائن في العالم الذي دوخ الإنسان. أي أن علة ضعف الناموس وعجزه عن أن ينشىء شيئاً صالحاً للانسان هي الخطيئة التي كانت قد ملكت وسادت وقتلت!! وهذه العلة، أى الخطية، التي ألغت قوة الناموس ومسخت روحانيته وجعلته غير صالح، مع أنه صالح، هي التي ألغاها المسيح»، وقتلها في جسده. وهذا ما يوضحه بولس الرسول أيما توضيح:

* « إِذاً لاَ شَيْءَ مِنَ الدَّيْنُونَةِ الآنَ عَلَى الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ (الناموس) بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ (النعمة). لأَنَّ نَامُوسَ رُوحِ الْحَيَاةِ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ قَدْ أَعْتَقَنِي مِنْ نَامُوسِ الْخَطِيَّةِ وَ الْمَوْتِ. لأَنَّهُ مَا كَانَ النَّامُوسُ عَاجِزاً عَنْهُ فِي مَا كَانَ (الإنسان) ضَعِيفاً بِالْجَسَدِ فَاللَّهُ إِذْ أَرْسَلَ ابْنَهُ فِي شِبْهِ جَسَدِ الْخَطِيَّةِ (اى بدون خطية) وَلأَجْلِ الْخَطِيَّةِ (التى عطلت عمل موسى) دَانَ الْخَطِيَّةَ فِي الْجَسَدِ (الصليب). لِكَيْ يَتِمَّ حُكْمُ النَّامُوسِ فِينَا (ونأخذ صك براءة ممض باسم المسيح ومختوم بالدم) نَحْنُ السَّالِكِينَ لَيْسَ حَسَبَ الْجَسَدِ (الناموس) بَلْ حَسَبَ الرُّوحِ (الإنجيل). (رو٨:١-٤)

فعوض الخطية أعطى المسيح النعمة!! وعوض حكم الناموس بموت الخاطىء، أعطى المسيح بره الشخصى لتبرير الخاطىء ليحيا إلى الأبد ولا يموت أبداً.

وبينما كان الناموس وكل وصايا وفرائض وعبادة الناموس بالجسد هي شبه السمويات وظلها، إذ بالمسيح يجعل الوصية والعبادة بالروح والحق هي السمويات عينها التي جاء منها، وهي طبيعة الله وحياته التي جاء ليخبر بها.

١٨- اَللَّهُ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ قَطُّ. اَلاِبْنُ الْوَحِيدُ الَّذِي هُوَ فِي حِضْنِ الآبِ هُوَ خَبَّرَ.

هذه هي آخر آية في منظومة مقدمة إنجيل يوحنا. وهي بمثابة الرتاج أو صمام الأمن الذي يغلق في وجه كل محاولة كانت أو ستكون، إن هي وقفت لتناطح صاحب هذا الاسم الآخير المستعلن، يسوع المسيح، في كونه الوحيد بصفته الابن المحبوب لله، الذي استطاع ويستطيع إلى الآبد أن يخبر عن الله أبيه الخبر اليقين والبشارة المفرحة. فليست هذه الآية تقع كسابقتها في مواجهة موسى أو غيره من الآنبياء، بل وكل ادعاء يجىء ليتحدث ويخبر عن الله: «الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي، لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته» (يو٥:٣٧). ولكن كان هم القديس يوحنا ليس إسكات أصوات إدعاء المتكلمين بفم الله في زمانه أو غير زمانه، بل كان همه بالأساس إرساء قاعدة حق إنجيل يسوع المسيح ابن الله، على أساس أن يسوع المسيح ابن الله هو الاستعلان الكامل والوحيد لله، الذي به نرى الله، وفيه نرى الآب، ومنه نعرف كل ما عند الآب:

* وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ فَهَذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ». (يو٨:٢٦)
* وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ (يو٨:٤٠)
* «أَعْمَالاً كَثِيرَةً حَسَنَةً أَرَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَبِي (يو١٠:٣٢)
* ٧- لَوْ كُنْتُمْ قَدْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً. وَمِنَ الآنَ تَعْرِفُونَهُ وَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ». (يو١٤:٧)
* لأَنِّي أَعْلَمْتُكُمْ بِكُلِّ مَا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي. (يو١٥:١٥)
* لاَ أُكَلِّمُكُمْ أَيْضاً بِأَمْثَالٍ بَلْ أُخْبِرُكُمْ عَنِ الآبِ علاَنِيَةً. (يو١٦:٢٥)

فجميع طرق الاستعلان السالفة لم تكن كافية لتبلغ الإنسان حقيقة الله؛ وبواسطتها جميعاً أخفق الإنساذ أن يرى

الله أو يسمع صوته. أما في الابن الوحيد الكائن في حضن الآب فقد استعلن الله، مرئياً ومسموعاً:

الَّذِي رَآنِي فَقَدْ رَأَى الآبَ فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ أَرِنَا الآبَ. (يو ١٤:٩)

وَالْكَلاَمُ الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي. (يو ١٤:٢٤)

والآية بحد ذاتها تضع الله في السمو المطق وتقنع الإنسان الذي انطلق يفحص الله أن يعود إلى بيته ودائرة محدوديته. كما تقنع الإنساذ الطموح الذي يتحرق اشتياقاً وحباً لله أن يلتجىء إلى الابن المتجسد ليشبع منه وفيه كل اشتياقاته وحبه، فالأبن المتجسد هو الابن المحبوب الحامل ليس فقط لمعرفة الآب بل لكل حبه. فـ «دالمونوجانيس» كصفة الابن يجمع صفتين جوهريتين لله: البنوة الفريدة، والحب الفريد.

فلو انتبهنا إل الأية السالفة (١٧) باعتبارها الأية الفاعلة بين العهد القديم والعهد الجديد سواء من جهة طبيعته أو صاحبه: «الناموس بموسى أعطي أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا»، نجد أنها ينقصها المزيد من التوضيح. وهذا هو الذي تكمله الأية التي نحن بصددها. فموسى وكل الشخصيات العظيمة والمقربة إلى الله على مدى العهد القديم كله لم يحظ أحد منهم برؤية الله رؤية حقيقية، وإنما كان كله بالشبه، وبالتالي تكون كذلك كل توصيات ووصايا العهد القديم هي حتماً «شبه السماويات وظلها»، وحتى الإنسان نفسه، كل إنسان، فهو مخلوق أصلاً على شبه الله وصورته. ولكن الآن وفي المسيح ليس الأمر كذلك، فهو الصورة الحقيقية لله، بل هو«الحق» في ذاته وفي كل أقواله:

* فقال (موسى) أرني مجدك، فقال أجيز كل جودتي قدامك وأنادي باسم الرب قدامك. وأتراءف على من أتراءف وأرحم من أرحم. وقال لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش.» (خر٣٣:١٨-٢٠)

هذا في مقابل صاحب العهد الجديد ومؤسسه يسوع المسيح الابن الوحيد، فهو ليس كذلك بل هو وكما أشارت الأية السابقة ملء النعمة والحق:

«(ابن) وحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً». و«الابن الوحيد (الإله) الذي هو في حضن الآب هو خبر».

فهو الابن الحقيقي والفريد لله، الذي ليس فقط رأى الله ويعرفه بل هو قائم فيه في موضع الحضن أو على الأصح في حالة الحضن أي العمق الخفي والخاص والسري جداً، المستريح والفعال في الله الذي لا يحتلة إلا «الابن الحبيب الذي سررت به».

«في حضن الآب»:

يلاحظ أنها لم تجيء ( ) ولكن ( ) وهذا في التعبير اليوناني الدقيق يفيد ليس ««في حضن الآب» بل «داخل حضن الآب». وحتى هذا الوجود في الداخل ليى جامداً غير متحرك، بل هو وجود «متداخل»، أي دائم الإتجاه نحو الحضن الأبوي. وبهذا يصبح هذا التعبير مشابهاً للتعبير الأول في الآية الأولى ( ) «عند الله»، فهو وجود قائم متداخل ممتد في الله، وبذلك يكون التشديد في المعنى متركزاً نحو كيفية الصلة الذاتية «الابن بالآب»، فهي صلة تداخل وتضام كلي ومطلق، لأن الابن والآب هما الواحد المطلق.

وبهذا التعبير اللاهوتي الدقيق يمتنع تصور الثنائية بين الأب والابن، لأنه حتى بعدما أرسل الابن في مهمة الخلاص العظمى حسب مسرة الآب وحبه للعالم والإنساذ، ظل الابن هو كما هر قائماً في الآب ومتجهاً نحوه بتداخل كلي ومطلق، فهو كائن على الأرض وفي السماء، في جسد إنسان، وهو هو في الآب دون أدنى مفارقة ذاتية «وليس أحد صعد إلى السماء إلآ الذي نزل من السماء، ابن الانسان الذي هو في السماء.» (يو٣:١٣)

وفي هذا يقول القديس أغسطينوس في عظاته عن إنجيل يوحنا: [لقد أُضيف الانسان إليه، أما الله فلم يُفقد منه، لقد أخلى نفسه ليس بأنه فقد شيئا مما له، ولكن بأخذه لنفسه ما لم يكن له.]

من موضع هذا الحضن، أو على الأصح من واقع هذه الحالة، يخبرنا الابن عن الله كأبيه، أو بالحري يكشف لنا عن حقيقة طبيعة ذات الله.

ويجيء التعبير عن ذلك هنا في الآية باللغة اليونانية بترجمتها الصحيحة عن أقدم المخطوطات، وهو الوضع الذي أخذ به معظم الآباء، هكذا: (   )، أى «الابن الوحيد الاله الكائن بذاته في حضن الآب». وهي الصفات الكاملة التي كانت تنقص ألقاب المسيح في الآية السالفة: «أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا»: وهو تعبير يتجه مباشرة نعو العلاقة الحميمة بين الآب والابن، وتفيد أن الابن كائن بالحب في الآب، والمسيح عبر عن هذه العلاقة أصدق تعبير بقوله:

* لأَنِّي لَسْتُ وَحْدِي بَلْ أَنَا وَالآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي. (يو٨:١٦)

* وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ». (يو٨:٢٩)

* وَتَتْرُكُونَنِي وَحْدِي. وَأَنَا لَسْتُ وَحْدِي لأَنَّ الآبَ مَعِي. (يو١٦:٣٢)

* أَنِّي أَنَا فِي الآبِ وَالآبَ فِيَّ (يو١٤:١٠)

وهذا هو التعبير الشخصي المعبر عن علاقة الكينونة التي تربط الآب بالابن، مقابل التعبير الفكري الذي صور علاقة الكلمة بالله على مستور العمل والخلق، «والكلمة كان عند الله». فإذا أردنا أن نقارن بين التعبيرين فإنه يكون هكذا : فكما أن الكلمة تكون دائماً في حضن العقل، أو كما يكون الفعل مختفياً في الإرادة، هكذا الابن في حضن الآب.

وهذا الا ستعلان يخدم قضية الانجيل كله. لأنه بالتالي يكون «كل ما يقول ويعمل ويشرح» عن الله «ابيه» هو الحق الواحد والوحيد لأنه يخبرنا بما يرى ويعرف.

ويجيء الفعل «يخبر» (   ) يحمل هذه المعاني مجتمعة، فهو يخبر بالخبر الإنجيلي الذي يشرح ويفسر ما خفي عن الله ويعلم ويوضح.

ومعروف أن اللغات الحديثة أخذت هذه الكلمة (   ) دون أي تحريف لتجعل منها نفس المعنى أي الشرح والتفسير والتوضيح للأمور المخفية (علم التفسير). وفي الحقيقة إذ المعنى لهذه الكلمة ينسحب على المسيح نفسه بكل ارتياح، فهو بذاته وبحياته وتجسده هو هو الآب. فالمسيح هو «الله المُعلن»، «والله هو من أعلنه المسيح» في ذاته وأقواله وأعماله. بل إن المسيح في عرف الآباء القديسين هو «الإنجيل» لأنه هو «الخبر المفرح»، أليس هو «الكلمة»؟

وبهذه الكلمة يسلم القديس يوحنا فكرالقارىء إلى بداية رواية الإنجيل مباشرة في الآية القادمة بثقة وبكل هدوء. فانظر أيها القارىء وتعجب لهذه الدقة المتناهية وهذا الحبك اللفظي والمعنوي، هذا ليس حرفاً بل هو روح!!

كما يلاحظ أنه عن قصد ودراية يقدم لنا القديس يوحنا هذه الآية الأخيرة واصفاً صاحب العهد الجديد بل وصاحب الإنجيل بهذه الصفات، فهو يقصد التأكيد على أن كل ما سيجىء، في هذا الإنجيل، على لسان المسيح هو «الحقد»، فهو أولاً «كلمة الله» وهو «المملوء نعمة وحقاً»، وهو «الابن الإله القائم فى حضن الآب» هذه هي مؤهلات الذي أتى بالخبر الإنجلي. وهو يخبرنا، نحن البشر، خبر القُربى، والسكنى في البيت الواحد. فهو يكلمنا

ليس بالرؤيا ولا بالحلم، «فالكلمة صار جسداً وحل بيننا»، فهو وهو كزنه «كلمة الله» يكلمنا «بالجسد» كإنسان وهو الله.

وفي ختام هذه المقدمة يمكن أن نضع أمام القارىء أهم وأخطر الكلمات التي جمعها وكدسها القديس يوحنا في المقدمة، والتي ستقوم عليها كل رواية الانجيل باعتبارها أساس لاهوت إنجيل يوحنا:

الحياة، النور، الظمة، الشهادة، العالم، المجد، ابن الله الوحيد، الحق، يقبل، يؤمن، اسمه، يولد من الله.

أما الكلمات الهامة جداً التي جاءت في المقدمة فقط واختفت من باقي الإنجيل فهي: «الكلمة»، «النعمة»، «الملء»، لأنها بعد التجسد أخذت صورة الفعل والعمل. فالكلمة صار متكلماً، والنعمة صارت عطية، والملء صار توزيعاً.

القسم الثاني من المقدمة

الشهادة

وهي تختص بالشهادة أن يسوع هو المسيح ابن الله. وهي تشمل:

شهادة القديس يوحنا المعمدان، وهي تمثل شهادة الوحي النبوي بالإلهام. وقد جاءت على عدة مراحل:

أ- الجواب بالنفي: ١٩ك١-٢٢.

ب- الجواب بالإيجاب: ١:٢٣-٢٨

ج- الشهادة للمسيح:١:٢٩-٣٤ .

د- المعمدان يبدأ يسلم الوديعة:١:٣٥-٣٧.

٢- شهادة التلاميذ: وهي شهادة الرؤية الإيمانية «وقد رأينا مجده» وهي تشمل:

أ- شهادة أندراوس: ١:٤٠-٤٢

ب- شهادة فيلبس:١:٤٣-٤٦.

ج- شهادة نثنائيل: ١:٤٧-٥١ .

١ - شهاده القديس يوحنا المعمدان:

لقد سبق للقديس يوحنا أن أورد المعمدان كشاهد مرتين:

الاولى: ١:٧ كشاهد للنور: «هذا جاء للشهادة ليشهد للنور لكي يؤمن الكل بواسطته». وهذه الشهادة لا تدخل في سياق التاريخ، بل وُضعت كمعيار شخصي للمعمدان تحدد حجم شخصه وعمله.

والثانية: ١:١٥ «يوحنا (المعمدان) شهد له ونادى قائلاً: هذا هو الذي قلت عنه إن الذي يأتي بعدي صار قدامي (١:٢٧) لأنه كان قبلي».

وهي منسوبة لشهادة قادمة ١:٢٧، التقطها القديس يوحنا وقدمها عن موضعها لتخدم واقعية «الكلمة صار جسداً»، أي أن الكلمة دخل التاريخ في حيز محدد جاء ترتيبه بعد المعمدان: «يأتي بعدي»؛ ولكن، وبسرعة، يستدرك المعمدان هذه المعلومة الزمنية بإعطاء معلومة غير زمنية عن الكلمة الذي صار جسداً بأنه كان قبله، ليس زمنياً، بل كيانياً، بما يفيد تجاوز البشرية ككل. وهذه الشهادة سجلها القديس يوحنا الرسول ليؤكد بها ضمنياً تدنى رتبة المعمدان عن رتبة المسيح: «صار قدامي لأنه كان قبلي».

وهنا في ١:١٩ يبدأ القديس يوحنا انجيله تاريخيً على مستوى الوقائع اليومية، مبتدئاً بالمعمدان حسب التقليد الرسولي الذي استلمته الكنيسة وتسجل لها في مفر الأعمال: «فينبغي أن الرجال الذين اجتمعوا معنا كل الزمان الذي فيه دخل إلينا الرب يسوع وخرج «منذ معمودية يوحنا» إلى اليوم الذي ارتفح فيه عنا.» (أع١:٢١-٢٢)

وهكذا يحصر التقليد الرسولى في سفر الأعمال، بفم بطرس الرسول، زمان ظهرم المسيح وعمله، أي إنجيل البشارة ابتداء من المعمدان.

والقديس بطرس يؤكد ذلك مرة أخرى وفي سفر الأعمال أيضاً: «أنتم تعلمون الأمر الذي صار في كل اليهودية

مبتدئاً من الجليل بعد المعمودية التي كرز بها يوحنا يسوع الذي من الناصرة كيف مسحه الله بالروح القدس والقوة. (أع١٠: ٣٧-٣٨)

وواضح أيضاً من شهادة بولس الرسول أنه استلم هذا التقليد الرسولى وعلم به كما هو: « فقام بولس وأشار بيده وقال : ... أقام الله لإسرائيل مخلصاً يسوع إذ سبق يوحنا فكرز قبل مجيئه بمعمودية التوبة لجميع شعب إسرائيل. (أع١٣: ١٦و٢٣و٢٤)

وهذا هو النص الذي ابتدأ القديس مرقس به إنجيله: «بدء إنجيل يسوع المسيح ابن اللة كما هو مكتوب في الأنبياء ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكي الذي يهيىء طريقك قدامك. صوت صارخ في البرية، أعدوا طريق الرب، اصنعوا سبله مستقيمة. كان يوحنا يعمد في البرية ويكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا.» (مر١: ١- ٤)

أما القديس يوحنا فلم يلتفت إلى شخصية المعمدان في حد ذاته، مثلما صارت عليه الأناجيل، من حيث ميلاده وحياته في البرية ولبسه وأكله وشربه والظروف التي أحاطت به جيعاً، كذلك موقفه مع هيرودس رئيس ربع الجليل وهيروديا والسجن والسيف، والامور التي انتهت بموت المعمدان. كما لم يذكر القديس يوحنا خدمة المعمدان الفريدة من نوعها في أخذ اعترافات الشعب وقبول توبتهم قبل التعميد، الذي كان في اعتبار الإنجيليين، وخامة القديس متى، ئفطة انطلاق لخدمة المسيح، إذ اعتبر أن عماد المسيح بمعمودية التوبة على يد المعمدان هو عملية استقطاب عظمى ينوب فيها المسيح عن كل الشعب تائباً: «هذا هو ابني الحبيب الذي سررت به»، وذلك عوض إسرائيل الابن الذي أخطأ وزغ وأعوزه الخلاص. ولكن حتى هذا الزخم الروحي في التقليد الإنجيلي تحاشاه القديس يوحنا، لأنه كان مهتماً في مستهل إنجيله بكشف العلاقة بين المعمدان كمجرد إنسان مرسل من الله، وصوت صارخ يشهد للمسيح، وبين المسيح كنور حقيقي يضيء لكل إنسان .

أما معمودية التوبة التي هى وظيفة المعمدان، فيراها القديس يوحنا أن هدفها الوحيد هر استعلاذ المسيح: «فى وسطكم قائم الذي لستم تعرفوئه»، وذلك على مستويين:

المستوى الاول. أن بدء عمل المعمدا بإعلان معمودية التوبة للشعب هو، بحساب الساعة السماوية، إيذانا بافتتاح عهد المسيا، أي المسيح، وذلك بعلامة سماوية لقنها الروح للمعمدان، حتى إذا رأها يشهد في الحال لصاحب العهد الذي من أجله جاء ليفتح الطريق أمامه.

المستوى الثائي: أن بخدمة التوبة والتعميد بالماء و «مغفرة خطايا» تفتح بصيرة الشعب فيتهيأ لقبول المسيا: «ليؤمن الكل بواسطته». وهذا هو ما قصده إشعياء ورردده المعمدان من «إعداد الطريق قدامه»(راجع لو١: ٧٦- ٧٧)

هدف إنجيل يوحنا كان منصباً على تجميع الشهادات الموثوق بها للمسيح. لذلك نجده يهتم جداً في بدء ذكر المعمدان (١: ٦) أنه كان مرسلاً من الله ليشهه. «كان إنسان مرسل من الله اسمه يوحنا هذا جاء للشهادة». كما يعتني القديس يوحنا أن يجعل شهادة المعمدان القائمة عل رؤيته للروح القدس، وهو يستقر على المسيح وسماعه الصوت الآتي من السماء، أن تشهد لبتوته لله، ليست شهادة ذاتية ترتكز عل موهبة طبيعية أو إلهام خاص با لمعمدان، ولكن ترتكز على توجيه إلهي وإعطاء علامة سماوية خطيرة يلتزم بها المعمدان للاستعلان، وذلك ضماناً لصدق الشهادة ودقتها: «وأنا لم أكن أعرفه، لكن لكى يظهر لإسرائيل، لذلك جئت لأعمد بالماء... وأنا لم أكن أعرفه، لكن الذي أرسلني لأعمد بالماء ذاك قال لى: الذي ترى الروح نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي يعمد بالروح

القدس، وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله.» (يو ١:٣١-٣٤)

١٩- وَهَذِهِ هِيَ شَهَادَةُ يُوحَنَّا حِينَ أَرْسَلَ الْيَهُودُ مِنْ أُورُشَلِيمَ كَهَنَةً وَلاَوِيِّينَ لِيَسْأَلُوهُ: «مَنْ أَنْتَ؟».

لأول مرة يذكر القديس يوحنا اللاويين! فالمسألة مسألة تطهير، وهي الامور الخاصة بهم وحدهم. أما الكهنة، فالأمر بالنسبة لهم جد خطير، لأن هناك إجراء طقسي عام على مستوى الشعب: اعتراف وتوبة وتعميد، أمر لم يحدث من قبل في تاريخ شعب إسرائيل وهو من صميم اختصاص الكهنة.

أما كلمة «اليهود» فهي تعبير عن الهيئة العامة الرئاسية للشعب أي السنهدريم. فقد شكل لجنة لتقصي الحقائق. إنه تكليف من الناموس، هو قانون يرتكز على وصية: «وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصيه أن يتكلم به أو الذي يتكلم باسم ألهة أخرى فيموت ذلك النبي. وإن قلت في قلبك كيف نعرف الكلام الذي لم يتكلم به الرب؟ فما تكلم به النبي باسم الرب ولم يحدث ولم يصر، فهو الكلام الذي لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخف منه.» (تث١٨:٢٠-٢٢)

وهذه الوصية أعطاها الله، أي جاءت في التوراة، بعد ذكر الوعد بمجيء «النبي» من وسط شعب إسرائيل مثل موسى، ويقصد «المسيا»: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك، مثلي، له تسمعون.» (تث١٨:١٥)

ماذا حدث؟

القديس يوحنا يعتمد هنا اعتماداً كلياً على رواية الأناجيل فيما يخص الأمور التي واكبت قيام المعمدان بوظيفته «كمرسل من الله» لأخذ أعترافات الشعب والتعميد وقبول التوبة.

لم يكن من السهل أن يتحرك السنهدريم ويرسل هذه اللجنة للفحص، إلا بعد أن بلغت حركة المعمدان أقصاها بعماد المسيح وإعطاء الشهادة العلنية أن: «هذا هو ابن الله» و«حمل الله الذي يرفع خطية العالم». أمر أصاب الرؤساء على كل مستوياتهم بالذهول والإضطراب والقلق. هل جاء المسيا؟ وكيف لم يمر أولاً على الهيكل والسنهدريم؟ ويتعرف عليه الرؤساء أولاً ويخضع لموجبات الناموس؟

«فأجابهم الفريسيون: ألعلكم أنتم أيضاً ضللتم، ألعل أحداً من الرؤساء أو من الفرسيين آمن به. ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون.» (يو٧:٤٧-٤٩)

الأخبار ترد للرؤساء كل يوم: جموع الشعب الحاشدة تتسابق لعبور الاردن لرؤيته والإستماع إليه، شخص مديد القامة نحيف، متمنطق بالجلد، وجهه كالنار، نبي الهيئة، جهوري الصوت، يوبخ الفريسيين، وهم أمراء التعليم؛ يعنفهم أعنف توبيخ، يدعوهم أولاد الثعابين، ومعهم ومثلهم الصدوقيون، يهددهم ويهدد رؤساءهم بالقطع، كشجرة لا تصنع ثمراً جيداً مأواها النار!

أورشليم واليهودية وجيع الكور وما حول الاردن، جماعات جماعات، تزحف بلا توقف تبكي وتنوح معترفة بخطاياها، تتسابق لتعتمد تحت يده. هو لا يكف عن فضح خطاياها، كل فئة بعارها، وكل وظيفة بعثراتها، وهي ترتعد تحت تهديد قضاء الله الخارج من فمه كالسيف. لقد هطلت السماء، بعد أن توقف غيث الله أربعمائة سنة لم يُسمع فيها أحد صوت نبي.

أما تقليد الأناجيل الأخرى فيعطي صورة لعماد المسيح تحت يد يوحنا المعمدان: المسيح قادم، المعمدان يلمحه فيخفض صوته وترتخي يداه، يحزج من الماء ويقف أمامه خاشعاً، المسيح يدعوه لمتابعة عمله، المعمدان يتنحى ويطلب أن ينعكس الوضع، المسيح يدرك أنه مولود تحت الناموس، يطلب: «ينبغي أن نكمل كل بر»» ليكفي احتياج

كل العالم، المعمدان يُجري الطقس والعهد ينتقل من يد ليد ومن الماء إلى الروح، السماء تنفتح، الروح القدس ينحدر «ليستقر» عليه واستقر ليغطيه، صوت الأب من السماء: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت». المعمدان يؤمن ويشهد على مرأى ومسمع من تلاميذه، وينقص لينطفئ، لأن النور الحقيقي جاء. ولكن إنجيل يوحنا لا يذكر عماد المسيم.

«وهذه هي شهادة يوحنا»:

الشهادة للمسيح عند القديس يوحنا تعتبر ذات قيمة إيمانية عظمى، نظراً لأن الكلمة المتجسد ابن الله لم يكشف لاهوته بصورة علنية ولا طرح طبيعته ومجده للمارة، بل اختزنها للعين المؤمنة لترى وتشهد وتبلغ القصد. لذلك اعتنى القديس يوحنا ليقدم في بداية إنجيله شهادات قوية وقويمة من أشخاص موثوق بهم تحت عهدته كتلميذ محبوب مختار ومؤتمن، يسجل لهم كمن سمع وعاين بنفسه. أليس هو تلميذ المعمدان أصلاً؟

«حين أرسل إليه اليهود من أورشليم كهنة ولاويين»:

يلاحظ القارىء مقدار الحبك القانوني بل القضائي الذي خرجت من تحت يده هذه الشهادة، فليس عبساً أن يدقق القديس يوحنا في نوع اللجنة القضاية وتشكيلها القانوني مز الطبقتين الموكل إليهما من الله فحص وبحث وخدمة قضايا العشب: «كهنة ولاويين». وهي موفده من قبل محكمة اليهود، الرئيسية في أورشليم، السنهدريم (٧١ عضواً). وليس ذلك فقط بل عاد القديس يوحنا في معرض الإنجيل ليكرر أن شهادة المعمدان معتمدة لدى المسيح نفسه أنها حق!

«الذي يشهد لى هو آخر(المعمدان) وأنا أعلم أن شهادته التي يشهدها لى هي حق. أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق» (يو٥:٣٢-٣٣). وكل هذا التوثيق الذي يوثق به القديس يوحنا شهادة المعمدان، إنما هو ليقبل القارىء هذه الشهادة لتكولا عنصراً لإيمان لا يتزعزع. ومرة أخرى ننبه ذهن القارىء إل مدى أهمية القول إننا نؤمن بكنيسة واحدة «رسولية». فبالرسل ومن خلال الرسل استعلن المسيح نفسه لهم، وثاهدوه وشهدوا له، واعتمدنا نحن عل مشاهدتهم وشهادتهم.

«ليسألوه من أنت»:

ها يلذ لنا أن نكرر ما قاله القديس يوحنا سابقاً عن المعمدان: «كان إنساناً مرسل من الله اسمه يوحنا». ولكن من الأمور البديعة الملفتة للنظر التطابق المحبوك بين ما قاله القديس يوحنا وما جاء أصلاً في ملاخي النبي عنه: «هأنذا أرسل ملاكي فيهيىء الطريق أمامى (ملا٣:١). فالذي قاله الله عن نفسه «هأنذا ارسل»، حوله القديس يوحنا كما هو إلى صاحب الإرسالية «مُرسل من الله». ثم حدث التصويب المباشر نحو المسيح أنه هو هو الله «يهوه» العهد القديم المتكلم في فم الأنبياء. وهذا يتضح من قول الله: «أنا (الله) أرسل ملاكي أمامى»، حيث «أمامي» صارت «أمام المسيح».

أ- الجواب بالنفي:

كانت التعليمات المعطاة لآعضاء لجنة تقصي الحقائق المرسلة من السنهدريم هي التحقق الشخصي من المعمدان بأسئلة محددة يتحتم أن يجاوب عليها واحدة فواحدة، حتى يتحققوا من شخصيته «هل هو المسيا»؟ وهذا أهم سؤال، لأن الذي شاع أنئذ أنه هو المسيا وقد جاء. لذلك وُضع السؤال قاطعاً مانعاً. «من أنت؟»، هذا في البداية.

والذي ضخم في أسماع السنهدريم خطورة قيام هذا النبي هو تجرؤه على توبيخ الفريسيين أنفسهم بعنف بالغ وهم أئمة الأمة علماً وتعليماً، والصدوقيين وهم طبقة الكهنوت، مطالباً إياهم بالتوبة وأن لا يتكلوا على بر أنفسهم أو نسبهم: «يا أولاد الآفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي؟ فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة، ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً.» (مت٣:٧-٩).

ولم يفت على المسيح هذا الشموخ النبوي الذي لم يبلغه نبي، فقال عنه أنه أعظم من نبي: كونه شاهد النور وشهد له، وكونه لم يجفل أمام علماء الأمة ومعلميها، بل ولم يحفل بكاهن أو لاوى!!

٢٠- فَاعْتَرَفَ وَلَمْ يُنْكِرْ وَأَقَرَّ أَنِّي لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ.

رفض المعمدان رفضاً قاطعاً أن يعرف نفسه على قياس أية شخصية سابقة مرصودة في عالم رؤى اليهود: لا المسيا ولا إيليا ولا النبي ولا أي أخر. لأنه يعلم تماماً أنه جاء ليحمل شهادة لمن هو أقوى منه، الذي يأتي بعده وهو لا يعرفه الأن، فإن أردتم أن تعرفوا من أنا، فأنا صوت صارخ! يعد الطريق لقادم.

«فَاعْتَرَفَ وَلَمْ يُنْكِرْ.»

يبدو النفي هنا أنه للتأكيد. فالمعمدان عُرف لدى الكثيرين أنه المسيا، والأخطر أن بعضاً من تلاميذه تمسكوا بهذا الإدعاء وكونوا شيعة تمجده باعتباره المسيا.

فسؤال لجنة الفحص وتقصي الحقائق لم يُسأل من فرغ، فهي تواجهه بسؤال حرج للغاية، لأن التلاميذ الذين يتبعونه والشعب الواقف والسامع كان قد أخذ بهيبته وظنوه أنه فعلاً المسيا:

- «وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح...» (لو٣:١٥)
- «ولما صار يوحنا (المعمدان) يكمل سعيه، جعل يقول: من تظنون أني أنا؟ لست أنا إياه لكن هوذا يأتي بعدي الذي لست مستحقاً أن آحل حذاء قدميه.» (أع٣:٢٥)

لهذا أسرع المعمدان ولم يتنكر لحقيقته مؤكداً، والتأكيد هنا بسبب الإشاعات التي ملأت اليهودية وأورشليم، أني لست أنا المسيح. والجملة المنفية هنا ذات تركيب يوناني خاص تزيد معنى التصحيح في ذهن السامع وليس كمجرد رد على سؤال؟ بمعنى: أنا لست أنا المسيح، فالمسيح في وسطكم ولستم تعرفونه! وكأنه يرد على أفكارهم وليس على مجرد سؤالهم.

وليلاحظ القارىء أن المعمدان استخدم النفي ملى كل الأسئلة، «لست أنا»، فهنا «أنا» منفية، تاركاً للمسيح فقط «أنا هو»، أو «أنا القادر على كل شيء».

٢١- فَسَأَلُوهُ: «إِذاً مَاذَا؟ إِيلِيَّا أَنْتَ؟» فَقَالَ: «لَسْتُ أَنَا». «أَلنَّبِيُّ أَنْتَ؟» فَأَجَابَ: «لاَ».

«إِذاً مَاذَا»؟

هنا يتضح للغاية حيرة اللجنة التي تفحص وتتحقق، لأنهم جاءوا وهم متأكدون أنه سيعلن أنه المسيا حسب كل ما سمعوه وحسب سلطان التعليم والتوبيخ الذي في فمه، بل وحسب جرأته في إجراء التعميد وأخذ اعترافات الشعب وقبول توبتهم، حتى الفريسيين وا لصدوقيين ورجال الجيش!

ويلاحظ القارىء أن اللجنة كانت تتوق أن تسمع منه أنه المسيا، لأن الجو الذي ملأ ربوع فلسطين كان جوا ماسيانياً على أعلى درجة، لأنه بدأ بالحقيقة والفعل حسب وعد كل الآنبياء وبالأكثر ملاخي النبي (٤:٥)، وحسب

لغة الملاك لزكريا الكاهن (لو ١:١٧) أبو المعمدان، بل وحسب نبوة زكريا الكاهن نفسه. فهذه الحوادث سرعان ما طار خبرها ليملأ ربوع أورشليم والبلاد. ولكن لم يكن للمعمدان أي حق في هذا الإدعاء قط، فهو من سبط كهنوتى أما المسيا فهو معروف أنه سيأتي من نسل داود سبط يهوذا.

إذاً ماذا بالأكثر جداً وبحسب الواقع فهوذا المعمدان قد جاء بقوة إيليا وروحه.

»إيليا أنت؟ فقال لست أنا«:

إذا لم يكن المعمدان هو المسيا، فيلزم أن يكون هو الآتي قبل يوم الرب العظيم حسب نبوة ملاخي. وهنا تعارض واضح أن يقول: «لست أنا». لأن كل الأناجيل الثلا ثة تقول إنه إيليا، ومن فم المسيح:

*«وإن أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا المزمع أن يأتي ، من له أذنان للسمع فليسمع.» (مت١١:١٤)

* »ولكني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا. كذلك ابن الإنسان أيضاً سوف يتألم منهم» (مت١٧:١٢)

وهذا التصريح كرره القديس مرقس في إنجيله (٩:١٣). وهذه الإعتمادات كلها قائمة على نبوات واضحة:

ملاخي ٣:١ (٤٥٠ قبل الميلاد): «ها أنا أرسل ملاكي فيهيىء الطريق أمامى. ويأتي بغتة إل هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تُسرون به، هوذا يأتي، قال رب الجنود».

ملاخى ٤:٥ «ها أنا أرسل إليكم إيليا النبي قبل مجيء يوم الرب العظيم المخوف، فيرد قلب الآباء على الأبناء وقلب الأبناء على ابائهم، لئلا آتي وأضرب الأرض بلعن»!

إشعياء ٤٠:١-٥ (أدُعى للنبوة حوالى ٦٠٠ قبل الميلاد): «عزوا عزوا شعبي، يقول إلهكم، طيبوا قلب أورشليم ونادوها بأن جهادها قد كمل، أن إثمها قد عفي عنه... صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب قوموا في القفر سبيلاً لإلهنا. كل وطاء يرتفع، وكل جبل وأكمة ينخفض، ويصير المعوج مستقيماً والعراقيب سهلاً، فيُعلن مجد الرب ويراه كل بشر معاً، لأن فم الرب تكلم».

لقد احتار جميع الشراع لانجيل يوحنا في هذا التعارض، لأن شخصية إيليا مهيأة من كل الوجوه بحسب تقارير الأنبياء في العهد القديم أن تكون هي الشخصية المسيانية الأولى قبل المسيح، فهو رُفع إلى السماء حيا (٢مل٢:١١) باستعداد المجيء، وهو الذي ربط السماء فلم تمطر ثلاث سنوات، ثم هو الذي صلى فهطلت الأمطار؛ إمعاناً في تعريفنا بشخصيته أنه أعطي أن يتعامل مع الله مباشرة. وملاخي النبي يكشف الستار عن شخصية إيليا أنها معدة ليوم الرب العظيم، لرد القلوب على القلوب أي إعداد طريق الحب الإلهي الذي سينسكب من السماء على كل بشر.

ولكن نحن لا نرى أي تعارض إذا تمسكنا بأسلوب القديس يوحنا السري، فالسؤال المباشر للمعمدان: «هل هو المسيا»، كان يعني في ذهن اللجنة الفاحصة أن المعمدان هو شخص المسيا، وعلى السؤال كان الرد القاطع: «أنا لست المسيا»، ثم يجيء السؤال الثاني على نفس النمط، «هل أنت هو إيلياء»؟ هنا في الحقيقة المعمدان يعلم تماماً أنه يوحنا المعمدان فقط، هكذا وُلد وهكذا تسمي وهكذا عاش وهكذا دُعي بالروح ليؤدي رسالة الشهادة. أما النبوات التي قالت إن إيليا يأتي فقد أساء فهمها اليهود بأن إيليا سيظهر بالجسد كإيليا «إيليا أنت»؟ طبعاً لا، أنا يوحنا بن زكريا.

ولكن المعمدان كان يعلم بالروح الذي فيه أنه أخذ من الله قوة إيليا وبأس روحه، وقد مارس القوة فى توبيخ معلمي

إسرائيل ورؤسائه، ومارس بأس الروح في معاملته لهيرودس. لهذا كان المعمدان يحمل مؤهلات إيليا، ولكن ليس شخصه ولا جسده؛ لذلك لما أعطي الفرصة أن يتكلم إيجابياً قال: «أنا صوت صارخ في البرية...». وهي نبوة إشعياء النبي عن مجيء عهد المسيا، عهد «عزاء أورشليم». فهو هنا يصرح ويعلن ويشهد أنه القادم لإعداد طريق الرب وأنه وان كان ليس المسيا فهو المتقدم عليه وظيفياً: «يأتي بعدي الذي لست مستحقاً أن أحل سيور حذائه»، وكأنما يقول صراحة للذي يريد أن يفهم ويؤمن: «نعم أنا الذي قيل عنه إيليا يأتي، ولكني أنا يوحنا».

لأنه في كل شرح للعهدين القديم والجديد معروف أن نبوة ملاخي هي التوضيح الدقتيق لنبوة إشيعاء، أي أن الصوت الصارخ في البرية هو صوت بروح إيليا وقوته!!

إذن، فإجابة يوحنا وإن كانت بالسلب، فهي حسب أسلوب القديس يوحنا فرصة ليؤمنوا من خلالها، إذا أرادوا، أن هوذا عهد المسيا قد أتى، وهوذا إيليا أمامكم بروحه وقوته، ولكنه لم يسلمهم نفسه ليهزأوا بها، لأنه كمعلمه كان يعرف ما في صدورهم!! لقد أخفى الحقيقة الروحية عن الذين لن يصدقوها وأبقى لهم الجسد!

ثم أليس هذا هو نفس رد المسيح على الثلاثة التلاميذ الآخصاء بطرس ويعقوب ويوحنا، بعد أن امضوا معه ساعة من ساعات أمجاد المجد الآسنى على الجبل المقدس، ورأوا إيليا وموسى في حالة تجلي أيضاً وقد حضرا وتكلما معه، تعبيراً عن التحام العهد القديم بناموسه وأنبيائه بالجديد، وأن بالتجلي والإستقلان يُدرك المسيح على ضوء الناموس والآنبيا، أما التلاميذ فظنوا أن إيليا لا بد وأن يبقى كما راوه ليعد للرب حسب وعد النبوة، وأن موسى سيبقى حتماً ليشهد للرب؛ لذلك أسرع بطرس وهولا يدري ما يقوله، لأنه يقول بالروح، أن تُصنع ثلاث مظال واحدة للرب وأخرى لموسى والثالثة لإيليا، هكذا كان منظر العهد الجديد منظوراً في مخيلة بطرس. لذلك لما ذهبت السحابة (الحضرة الإلهية) ونظروا المسيح وحده تحسروا. وفيما هم نازلون من الجبل سأله تلاميذه، إن كان إيليا هكذا تركهم واختفى، »فلماذا يقول الكتبة (اللاويون) أن إيليا ينبغي أن يأتي أولاً؟» (مت١٧: ١٠)، فكانت إجابة الرب أن إيليا جاء بالروح والقوة في شخص المعمدان ولم ينتبهوا إليه أو يدركوه لأنهم كانوا يعتقدون أنه سيأتي بشخصه وجسده القديم، لذلك أهانوه وقتلوه، نفس الأمر الذي سيقترفونه بجنونهم معي: «فأجاب يسوع وقال لهم إن إيليا يأتي أولاً ويرد كل شيء. ولكني أقول لكم إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا؛ كذلك ابن الانسان أيضاً سوف يتألم منهم، حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن يوحنا المعمدان.» (مت١٧: ١١-١٣)

««ألنبي أنت؟ فأجاب لا»

ليلاحظ القارىء الإقتضاب التنازل في النفي، الأسلوب الذي استخدمه المعمدان وكأنه نوع من التحدي. وهذا يظهر في اليونانية بوضرح أيضاَ:

١- لست أنا، وباليونانية «أنا لست هو»

٢- لست أنا.

٣- لا.

شخصية «النبي» هذا لم تكن معروفة لا في أذهانهم ولا في أذهان الشعب. وهي ربما تكون الشخصية التي قال عنها الله فى (تث١٨: ١٨): «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به»، وهي إحدى النبوات التي تصوررشخصية المسيا.

وكان رد المعمدان بالنفي، مع ملاحظة أن كلمة «النبي» جاءت معرفة بـ «أل». فالسؤال لم يرد: «هل أنت نبي»؟

وإلا كان الرد معروفاً مسبقاً، فهو كان محسوباً أنه نبي لدى كل الشعب، والمسيح نفسه أمن على هذا وزاد عليه «وأعظم من نبي».

٢٢ - فَقَالُوا لَهُ: «مَنْ أَنْتَ لِنُعْطِيَ جَوَاباً لِلَّذِينَ أَرْسَلُونَا؟ مَاذَا تَقُولُ عَنْ نَفْسِكَ؟».

ب- الجواب بالإيجاب

٢٣ - قَالَ: «أَنَا صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: قَوِّمُوا طَرِيقَ الرَّبِّ كَمَا قَالَ إِشَعْيَاءُ النَّبِيُّ».

عجيب هو تعبير إشعياء النبي عن الصابغ السابق يوحنا المعمدان هذا، لقد وضعه قبل أن يجيء بستمائة سنة. فهذا التعبير «صوت صارخ» يخلو من تحقيق الذات بل يفقدها في مسار عملها كالصراخ الذي ما يفتأ إلا ويتلاشى ولا يوجد له وجود. اسمع ما يقوله المعمدان عن نفسه تحقيقاً لهذا الوصف الذي أعطاه إياه إشعياء النبي: «ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص»!! وكأنما صراخ الشهادة أضيف إلى المسيح لتتلاش قوته من الصارخ الشاهد!

لقد تبارى جميع الإنجيليين ليسجلوا له نبوة إشعياء بأكملها خاصة القديس لوقا، حباً وكرامة، أما هو، المعمدان، فاكتفى لنفسه بجملتين منها. وهل يحتاج أعضاء لجنة الفحص وتقصي الحقائق الموقرون إلى التعريف بما آلت إليه حال البلاد في عهدهم وما يحتاجه هذا الحال من إصلاح ليناسب الملك الآتي؟

٢٤ - وَكَانَ الْمُرْسَلُونَ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ.

٢٥ - فَسَأَلُوهُ: «فَمَا بَالُكَ تُعَمِّدُ إِنْ كُنْتَ لَسْتَ الْمَسِيحَ وَلاَ إِيلِيَّا وَلاَ النَّبِيَّ؟».

المعنى هنا عميق وخبيث جدا، فهو نوع من الإصطياد للادانة. فالتعميد بالنسبة للفكرا ليهودي لا يجوز إلا للأجانب الذين يريدون الإنضمام للشعب المختار، لأن الأمم أنجاسى مناكيد، فكيف يجرؤ هذا الإنسان، الذي هو ليس المسيح وليس إيليا وليس النبي، أن يعمد الأمة المقدمة، والشعب المبارك المختار وكأنه نجس يحتاج إلى التطهير أو غريب عن الله يحتاج إلى التبني؟ إنها إساءة لقداسة الأمة ولكرامة اليهود والرؤساء والسلطات!!

كذلك كان أخوف ما يخافه الرؤساء أن تكون هذه المعمودية مسيانية الهدف، أي خلاصية من قبل الله، ويجريها إنسان لا يمت للهيئات الكهنوتية والفريسية، فيكون معناه أنهم قد عُزلوا. لذلك تركز سؤالهم أخيرا في معنى عماده: «لماذا تُعمد»؟

٢٦ - أَجَابَهُمْ يُوحَنَّا: «أَنَا أُعَمِّدُ بِمَاءٍ وَلَكِنْ فِي وَسَطِكُمْ قَائِمٌ الَّذِي لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ.

٢٧ - هُوَ الَّذِي يَأْتِي بَعْدِي الَّذِي صَارَ قُدَّامِي الَّذِي لَسْتُ بِمُسْتَحِقٍّ أَنْ أَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ».

وكأني بالمعمدان يقول: أنا أعمد بماء ومعموديتي ليست كمعمودية المسيا، فمهما كان مظهرها الجماعي، فهي أيضاً تمهيد أو إظهار لعمل أعظم هو وشيك أن يقوم به صاحبه القائم في وسطكم. فإن كنتم لستم تعرفونه (وهي خطية اليهود المتكررة على مدى الإنجيل كله)، لكني أنا أعرفه وأنا بالنسبة له لست أكثر من عبد يحمل له حذاءه، يخلعه من قدميه: يفك سيوره، وحتى هذا يكون فوق استحقاقي ومقامي. فعملي كوني أعمد ليس أكثر من عمل خادم يمهد لعمل سيده ليظهره. إذن، فمعموديتي وخدمتي ينبغي أن لا تقلقكم. ألم يقل إشعياء تمهيداً لعصر المسيا: «اغتسلوا، تنقوا، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني، كفوا عن فعل الشر» (إش١:١٦)

ولينتبه القارىء أن المتكلم بهذه الكلمات الإنسحاقية أمام لجنة تقصي الحقائق هو في حقيقته، التي يعرفها المسيح، نبي وأعظم من نبي، ولم يقم من بين مولودي النساء من هو أعظم منه.

فهل ننسى قامة إيليا الذي أرعب قلب ملك، والذي فلق الأردن بردائه، وأغلق السماء بكلمة وفتحها بصلاة؟ ومن جهة قوته حتى من جهة الجسد، دخل سباقاً مع أقوى فرسان إسرائيل في مركبة ملكية فسبق!!
هذا هو روح المعمدان الأن، مضافاً إليه النور الذي انطبع على وجهه لما تطلع في وجه عريس البشرية، والسماء مفتوحة، والروح القدس حال عليه والأب ينادي: «ابني الحبيب الذي به سررت»!!
نحن نمسك القلم عن الإسهاب في دور يوحنا المعمدان في الكرازة وكيف آلهب قلب الشعب من جهة النسك والتقوى ومخافة الله والتوبة عن المعاصي، لأن هذا الدور لم يشأ القديس يوحنا أن يخوض فيه لئلا تختلط الكرازة في الظل مع الكرازة في النور، فالمعمدان عند القديس يوحنا لم يجيء ليكرز بل ليشهد.
لذلك وقف أعضاء اللجنة في حيرة من أمرهم، فقد ذاب قلبهم من هيبة الواقف أمامهم وانسحاق المتكلم في آن واحد، ولعلهم انسحبوا من الكبير إلى الصغير كما فعل المشتكون على تلك الرأة البائسة (يو٨:٩)!
ولا يذكر القديس يوحنا ماذا تم من جهة لجنة الفحص، ولكن الواضح أنها انسحبت دون أي لفت نظر، فلم تجد في المعمدان ما يقلقها، هذا بالإضافة إلى أن المعمدان، وهوكان معروفاً عند الشعب أنه «نبي»، دخل هذا في الإعتبار لدى اللجنة لأن الرؤساء غير الواثقين من كفاءتهم يخافون الشعب دائماً. كما أن الآنبياء وهم دائمأ مرسلون من الله رأسأ لم يكونوا في حاجة أبدأ أن يتملقوا الرؤساء أو الشعب، بل على العكس، كانت رسالتهم توبيخ الرؤساء وايقاظ الشعب.

٢٨- هَذَا كَانَ فِي بَيْتِ عَبْرَةَ فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ حَيْثُ كَانَ يُوحَنَّا يُعَمِّدُ.

أسلوب القديس يوحنا يتميز بهذا الهدوء المفاجيء، فبعد صخب العرض المثير لأسئلة اللجنة المحرجة للمعمدان والتي أثارت القارىء بلا شك، يقطع الحديث فجأة ويذكر جملة عرضية تنهي المنظر وتُنسي القارىء حرارة المصادمة:

«بَيْتِ عَبْرَةَ.»

واضح من الإسم فعلاً أنها عبر الأردن وكان اسمها «بيت عنيا» في معظم المخطوطات وأهمها. وهذا الإسم بيت عبرة أو عباراه أو بارة مذكور في قض ٢٤:٧، ونحن نستفيد من ذكر هذا المكان لأننا نعلم أن المعمدان بدأ كرازته في اليهودية أي على الشاطىء الغربي للأردن: «وفي تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية» (مت٣:١). ولكن يبدو أنه بدأ العماد عبر الأردن في هذا المكان: «ومضى (يسوع) أيضاً إلى عبر الأردن إلى المكان الذي كان يوحنا يعمد فيه أولآ ومكث هناك.» (يو ١٠:٤٠)
وهذا يعطينا توضيحاً أن عملية استجواب المعمدان تمت بعد مدة طويلة من بدء كرازته وحتى بعد بدء ممارسته للتعميد. وفي قوله: «في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه» يشير هنا إلى المسيح، وليس بالضرورة أنه كان واقفاً فعلاً في هذا الوقت ولكن يقصد أنه قائم بينكم. وفي قوله: « لستم تعرفونه»، بالرغم من الصورة المهيبة جداً التي أعطاها له في قوله أنه ليس مستحقاً أن يحل سيور حذائه، يشير المعمدان إلى جهلهم الفاضح بوجود المسيا، سواء عن عمى قلب أو تجاهل، وفي كلتا الحالتين يصرف أنظارهم من شخصه هو ليهتموا بمن يستحق الإهتمام!
مكان البشارة:
أولاً: اليهودية (١:٢٩-٥١)
ج- الشهادة للمسيح ابن الله: ١:٢٩-٣٤

كان رد فعل حضور اللجنة واستجواب المعمدان وسط الجمع الحاشد، وعودة اللجنة دون اتحاذ أي إجراء، أن زاد حماس الشعب وارتفعت معنويات تلاميذ يوحنا بالنسبة لمعلمهم. ولكن ظهر من الحديث أمر أزهل تلاميذ المعمدان: من هذا الذي لا يستحق معلمهم أن يحل سيور حذائه؟ واضح أن اللهفة والتطلع لمعرفة «الأقوى» قد بلغت ذروتها، ولم يمد خافياً أن المعمدان عمد المسيح ربما دون أن يلاحظ ذلك أحد.

ولكن بعه إحراج أعضاء اللجنة للمعمدان واضطراره للاعلان عن هذا الرجل الذي أتى بعده وهو «قبله»، الذي وإن كان يعمد فهو يعمد لحسابه ليستعلن له وللشعب؛ كان يتحتم أن يعلن عنه بسرعة ليغطي موقفه. لأن من ردود المعمدان يتضح أنه لم يجيء إلا ليعد طريقه، إن كرازة أو تعميداً، فلم يكن الثمعب وحده في لهفة أن يعرف المسيا أو تلاميذ المعمدان أيضاً، بل والمعمدان نفسه كان وهو يمارس تعميده للناس قلقا يشرئب برأسه ويتلفت يميناً ويساراً لعله يراه فيخلي ورديته ويعود من حيث أتى. ولكن هذه المرة ليس على مركبته العتيقة وفرسانه النارية الطائرة!!

٢٩- وَفِي الْغَدِ نَظَرَ يُوحَنَّا يَسُوعَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ فَقَالَ: «هُوَذَا حَمَلُ اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ.

كل الظروف توحي إلينا أن المسيح كان خارجاً للتو من التجربة مع إبليس. لأننا نعلم من الأناجيل الأخرى أنه بعد التجربة دخل الخدمة وبدأ الكرازة، وهنا في هذه الأية واضح أن المسيح جاء عن قصد، إذ أن خدمته حري بها أن تبدأ بشهادة وإعلان، كان هو في غير حاجة إليها، ولكن كان الشعب يحتاجها بكل تأكيد، وكانت لحظة تسليم وتسلم: «ينبغي أن ذاك يزيد وأني أنا أنقص». هذا ليس بلسان المعمدان وحده، بل بلسان جميع الأنبياء والعهد القديم بكل مشتملاته.

ويضيف ذهبي الفم أن مجيء المسيح ثانياً للمعمدان بعد عماده كان خصيماً ليعلنه ويظهره لإسرائيل: [لأنه لهذا جاء ليعطي يوحنا المعمدان فرصة لكي يعلن رؤيته (رأيه) ثانية أيضاً لأنه بقوله هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم فإنه يمنع كل شك.]

«هُوَذَا حَمَلُ اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ.».

كانت ومضة إلهامية نطق فيها المعمدان نطقه الخالد «هُوَذَا حَمَلُ اللَّهِ الَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ الْعَالَمِ.» شهادة من فوق الواقع والزمن لا تعتمد قط على معرفة لا سابقة ولا لاحقة، ولا تستمدها من خلفية ذبائح أو طقوس، كما تاه معظم الشراح، فالمعمدان ليس مشرعاً ولا هو دارس للتشريع، ولا هو جاء ليعيد للشريعة سطوتها المتهالكة ولا مجدها الذاوي. ولكن المعمدان كانت وظيفته تدور حول الخطية، هو يعرفها، ويعرف استحالة غسلها بالماء. كان يعلم أنه يغسل بالماء ولا فائدة ولا قيمة إلا مع الذي سيغسل بالروح القدس، فلما راه كانت الخطية شغله الشاغل الذي ملأ ذهنه، رأه كحمل بلا عيب، بلا خطية! ورآه والروح القدس مستقر على رأسه، ليشير الإشارة الإلهية: أن بهذا يكون العماد، وبهذا يكون الخلاص!!

ولكن أواه، لقد لمح في عينيه الحزينتين صورة الصليب، وبالمنظر المعقول رآه خروفاً قائماً كأنه مذبوح، فلما هتف المعمدان: «هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» كان ينطق بما يرى! المعمدان رأى ذلك بيقين، ولكنها كانت رؤيا، أما نحن فأخذنا منه أخذاً وذقنا كيف يرفع الخطية!!

وهوذا العالم وقد صار له موضع في السماء وأمام عرش الله يهتف: «.. أمام الخروف ولهم كل واحد قيثارات وجامات من ذهب مملوءة بخوراً هي صلوات القديسين وهم يترنمون ترنيمة جديدة. قائلين: مستحق أنت أن تأخذ

السفر وتفتح ختومه لأنك ذُبحت واشتريتنا ته بدمك من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة.» (رؤ٥:٨-٩)
والسؤال الذي نلقيه على القارئ: لو لم يجيء الحمل هذا فماذا كان حال العالم اليوم؟ ولكن لا ننسى أن كل ما كان، وكل ما هو كائن من نعم وبركات ومثل عليا أخلاقية وروحية في العالم لن تساوي تماماً ثمن الدم المدفوع. لذلك، فحتماً حتمتً لا يزال أمام العالم بقية من نعم ومجد وسلام أكثر مما كان!!!لأن الدم لا يزال يتدفق من الخروف القائم كأنه مذبوح!!

المعمدان نبي يستمد أقواله بالإلهام من مصادرها العليا دون سبق إعداد أو معرفة، كالرائي في سفر الرؤيا لما رأى المسيح برؤيا الخلاص كخروف قائم كأنه مذبوح، فلا العين رأت خروفاً ولا المسيح تحول إلى ذبيحة منظورة، ولكن هذه كلها يسميها الصوفيون (The Mystics) رؤيا «التورية» اي بالنظر المعقول الذي لا يمت للواقع المادي بشيء.

فلما قال المعمدان: هوذا «حمل الله»، لم يكن قد رأى المسيح خملا ولكنه رأى مجمل الفداء كله في لمحة ذهنية خاطفة، ورأى الخلاص شاملاً كافياً للعالم، بل ورأى العالم فيه مفدياً، ورأى الخطية بثقلها الدهري ترتفع من فوق كاهل العالم المحني تحتها هذه الدهور كلها، لتوضع فوق المسيح الحمل، فلا توجد. هذا هو الحمل الذي سأل عنه إسحق عندما لمح السكين والحطب في يد إبراهيم أبيه، وهذا هو الحمل الذي تخيله إبراهيم «الله يرى له الحمل للمحرقة يا ابني» (تك٢٢:٨). نعم لقد رآه الله لنفسه قبل الدهور، وأعده بترتيب تسجل في سجلات الملائكة وكل الروحانيين، فباتوا يعدون الأيام لمجيئه ويعدون أنفسهم لظهوره. وإن كان في هذاا اليوم قد مر على الأرض ولم يلمحه إلا الحامل لروح إيليا، فالسماء عيدت له بطقس «السجود»، اشتركت فيه كل خوارس الملائكة: « ومتى أدخل البكر إلى العالم يقول: ولتسجد له كل ملائكة الله.» (عب١:٦)

وإن كان المعمدان الناطق بالروح القدس والناظر بروح إيليا قد لمح «الحمل» وهو رافع خطية العالم، فما ذلك إلا أن الحمل ذاته كان حاملاً على جسده منظر خطايا كل العالم متزاحمة فوقه: «لذلك عند دخوله إلى العالم يقول: ذبيحة وقرباناً لم ترد ولكن هيأت لى جسداً» (عب١٠:٥)، فكان هو الذبيحة الحقيقية لذبائح الرموز كلها، والحمل الحقيقي الذي لا ينبغي قط أن نبحث عن اسم له بين حملان الرموز، لأنه توجد حملان كثيرة ذات مناظر حسنة للغاية: حمل إسحق المذبوح تحت يد أبيه (تك٢٢:١٠)، وحملان موسى المتعددة المناظر والمنافع، وحمل إشعياء المسوق صامتاً إلى الذبح (إش٥٣:٦-٧)، وحمل إرميا الذي تُعد من ورائه أفكار للهلاك (إر١١:١٩)[1]، وحمل بطرس الرسول الذي بلا عيب (ابط١:١٩)، وحمل بولس المكني عنه بالفصح الذي ذُبح (اكو٥:٧)، وحمل سفر الرؤيا القائم كأنه مذبوح وهو الغالب (رؤ٥:٦)، حملان حسنة كثيرة ولكن ليست كحمل المعمدان ذي الأسم المهيب العجيب: «حمل الله». اسم يجب الأسماء جميعاً ويجمع في نفسه قوة الذبائح جميعاً ويفوقها تفوقاً، يكملها على الآرض ويبقى هو هو حمل الله الرافع خطية العالم حتى مل ء كل الدهور.

ولا تنس، أيها الباحث المدقق، أن تعريف المسيح بـ «الحمل الرافع خطية العالم» جاء قبل البدء بخدمة الصليب، فهذا التعبير يعتبر أقوى وأكبر نبوة عن الفداء الذي سيتم قبل أن يبدأ بلحظات أو قبل الصليب بثلاث سنوات.

ولكن لو نتذكر الحديث الذي تم بين موسى وإيليا، وإيليا بالذات مع المسيح على مسمع من التلاميذ على جبل

---

[1] الآية المترجمة باللغة العربية لا تحمل المعنى الصحيح فهي مترجمة »خروف داجن»، ولكنها في الترجمة اليونانية الأصلية عن العبرية هي خروف بلا شر أى خروف بلا عيب أو خروف طيب

التجلي، وهو حديث مأساوي: «واذا رجلان يتكلمان معه هما موسى وايليا اللذان ظهرا بمجد وتكلما عن خروجه الذي كان عتيداً أن يكمله في أورشليم» (لو٩: ٣٠-٣١)؛ فهذا هو إيليا يظهرفي مل ء المجد، ولكن كان حديثه وهمه في الخروج العتيد أن يكمله المسيح في أورشليم أي حمله للصليب وخروجه خارج أورشليم ليصلب. ثم علينا أن نتذكر دائماً أن القديس يوحنا المعمدان كان يحيا ويتحرك بروح إيليا، وبمعنى أكثر شمولية كان المعمدان شخصاً رأوياً يرى ما لا يُرى.

حتماً احتوت رؤية المعمدان الحمل وهو رافع خطية العالم كل مضمون المأساة ولكن دون مفردات، فهل تُرفع الخطية بلا ثمن؟ وهل توضع الخطية على الحمل دون مساعدة السكين؟ وهل يتحمل حمل واحد خطية العالم كله، إن لم يكن هذا العالم بجملته محمولاً أصلاً على كتفيه، والخطية في العالم هي جروه الأثقل حملاً؟؟

وبقدر ما تتعدد أسماء خطية العالم بقدر ما يمكن أن تتعدد «وظيفة الحمل»، فهو حمل «المحرقة» و«االخطية» و«الإثم»، ولأن العالم وقع تحت أسر الخطية أرضاً صار الحمل للعالم «فيصحاً» أيضاً. فمن العبث أن نسأل المعمدان ماذا كان يرى في ذبيحة الحمل؟ هل محرقة؟ أم فصحاً؟ كل ما يعرفه المعمدان عن يقين أنه فك سيور حذائه، وغسله بالماء، وأفرزه من بين الشعب ليكون جاهزاً قبل الرابح عشر(من نيسان) بثلاثة أيام سنين، حسب طقس تقويم الأنبياء، لأن يوم النبي هو بسنة، حسب دانيال.

وليس من الخارج فقط جهزه الصابغ السابق لهذا اليوم، بل وحمله من الداخل كل ذنوب التائبين الذين اعترفوا وتابوا واعتمدوا على يديه: «هذا جاء للشهادة ليشهد للنور ليؤمن الكل بواسطته.» (يو١: ٧)

ولكن أليس أيضاً في اسم «الحملا» الإلهي ما يفصح عن وداعة الله ولطفه وحنانه؟ فهو فوق أنه اسم ذبيح؛ فهو اسم الوداعة القادر على الصفح والغفران حسب غنى لطفه كإله وإمهاله وطول أناته، علماً بأن لطف حمل الله يقتاد إلى التوبة ولا يُحسب للانسان خطية!

كذلك يلزمنا أن ننتبه إلى الإيجاز الهائل والتركيز الممعن في الإختزال في أسلوب المعمدان في هذه الآية. فهو لم يذكر أنواع الخطايا، بل أوجزها في كلمة «الخطية» كي تحمل المعنى الكلي للخطايا أو «ناموس الخطية الكامل الكائن في أعضائي» حسبه تعبير بولس الرسول (رو٧: ٢٣). ولكن أيضاً «خطية العالم» لا تزال تحمل أوزاراً أخرى للعالم الثائر على الله، الجاحد لمحبته، الرافض ليده الممدودة طول الدهور.

ولم يذكر المعمدان نوع الذبيحة، بالتال، التي سيؤديها الحمل، ولكنه ركز تركيزاً في قوتها في كلمة: « يرفع» التي تشمل كل معنى الكفارة والغفران بل والصفح، بما ينصت على معنى رفع الأثر أيضاً .

يرفع: الذي يرفع: جاءت في المضارع بمعنى الذي يرفع ويظل يرفع خطية العالم. وهي الكلمة التي استخدمها القديس يوحنا نفسه في رسالته الأولى ٣: ٥ «وتعلمون أن ذاك أظهر لكي يرفع خطايانا وليس فيه خطية». وهذا التعبير «يرفع خطية العالم» هو تعبير عميق وجليل للغاية أخذته الكنيسة كما هو وأدخلته في ليتورجياتها (تسبحة الملائكة في صلاة باكر بالأجبية[1]، والقسمة السرياني) فصار تعبيراً ليتورجياً جليل القدر خاصة عند الغرب، حيث يقولون قبل التناول مباشرة: :((يا حمل الله الرافع خطية العالم، ارحمنا).

[1] جدير بالذكر أن تسبحة الملائكة في الآجبية التي يقال فيها: (يا حمل الله يا حامل خطية العالم، ارحما) هي أقدم تسابيح الكنيسة المسيحية. وهي لا تزال تقال بكاملها حتى الآن في كل من الطقس القبطي والبيزنطي واللاتيني.

ولم يذكر المعمدان أي إنسان أو الشعب الذي يشمله عمل الحمل، بل جمع شمل كل الناس والشعوب معاً في كلمة «العالم» دون أن يحدد ماضياً له أو مستقبلاً، لكي ينضوي تحت لواء عمل الحمل كل إنسان، كان من كان، في كل العالم.

٣٠- هَذَا هُوَ الَّذِي قُلْتُ عَنْهُ يَأْتِي بَعْدِي رَجُلٌ صَارَ قُدَّامِي لأَنَّهُ كَانَ قَبْلِي.

المعمدان يكرر هذا الوصف وكأنه يوثِّق بين الواقع الذي مثله والنبوة التي تحدد موقعه «هأنذا أرسل ملاكي فيهيىء الطريق أمامي...» (ملا٣:١). ثم يرجع على «الآتي بعده» ليصحح الوضع من جهة الأسبقية في الوجود والكرامة «كان قبلي».

والحقيقة التي كانت تشغل بال المعمدان هي الدور الذي وقع عليه أن يؤديه، فقد كان صعباً على نفسه للغاية أن يأتي إليه من هو أعظم منه ليعتمد منه، وليس ليعتمد منه فقط، بل ويأتي تائباً نائباً عن الشعب معترفاً بخطايا أمته وهو ليس فيه خطية ولا شبه شر!! «حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليعتمد منه ولكن يوحنا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إليّ، فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر، حينئذ سمح له.» (مت٣:١٣-٥)

هذا من واقع إنجيل القديس متى، حيث يتضح أن المعمدان كان يعرف المسيح وكان يعرف حتماً كل ما لابس ميلاده الاعجازي، فكان يعرف أنه أفضل منه بالروح. هذا بحسب ما يفهم من مضمون رواية إنجيل القديس متى. لهذا حاول أن يمنعه لكي لا يُخجل تواضعه ويضع يده على من هو أفضل منه. ولكن من رواية إنجيل القديس يوحنا نكمل الصررة أنه بالرغم من أنه كان يعرفه بالجسد، إلا أنه لم يكن يعرف قط أن هذا هو المسيا وأنه هو هو ابن الله.

هذا الاجراء وما لابسه، أي تعميد الرب، لم يأيته على ذكره القديس يوحنا، لأن الوصف بهذا التحديد يجعل معمودية المسيح تُفهم وكأنها دوراً أساسي في عملية الخلاص، والحقيقة التي أبرزها إنجيل يوحنا هي أن عماد المسيح لم يكن الا وسيلة لاستعلان المسيح والتعرف عليه كما سيجيء على لسان المعمدان في الأيات القادمة.

والتقليد الرسولى والكنسي عامة، بل ومفردات اللاهوت الخلاصي، لا تشير قط أن المسيح اعتمد على يد المعمدان عن الخطاة، أو اعترف بالخطايا عن الخطاة، أوتاب عن الخطاة، بمعنى أن معمودية يوحنا لا تدخل قط في مفردات الخلاص الذي أكمله المسيح عن الخطاة. بل إن من الأمور الثابتة إنجيلياً ولاهوتياً أن عمل المعمدان برمته لا يدخل دائرة التجديد في تأسيس ملكوت الله.

وفى هذا يقول ذهبى الفم: [في الحقيقة، إن المسيح غير محتاج للمعمودية لا التي كانت له (على يد المعمدان) ولا معمودية الآخرين الذين (عمدهم المعمدان). بل بالأحرى فإن «المعمودية» ذاتها كانت في حاجة إلى قوة المسيح لأن الشيء الذي كان ينقص الكل هو التقديس النهائي الذي كان يحتاجه كل من يعتمد، ألا وهو الروح القدس الذي أعطاه المسيح لما جاء].

فالمعمدان لم يُحسب مع التلاميذ لا الاثني عشر ولا السبعين «فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد، متى جلس ابن الانسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الإثني عشر.» (مت١٩:٢٨)

«الحق أقول لكم: لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان، ولكن الآصغر في ملكوت السموات

أعظم منه.» (مت١١:١١)

٣١- وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ. لَكِنْ لِيُظْهَرَ لإِسْرَائِيلَ لِذَلِكَ جِئْتُ أُعَمِّدُ بِالْمَاءِ»

«وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ»:

قد تعني هذه الجملة أنه لم يكن يعرفه «كمسيا»، وربما كان يعرف يسوع كأحد أقربائه. ولو أن الآية في إنجيل القديس لوقا توضح أنه تغرب كل أيام حياته في البرية حتى يوم بدء خدمته: «أما الصبي فكان ينمو ويتقوى بالروح وكان في البراري إلى يوم ظهوره لإسرائيل.» (لو١:٨٠)

«لكن ليظهر (المسيح) لإسرائيل لذلك جئت أعمد بالماء».

والقديس ذهبي الفم يقول إنه صرح بذلك لينفي أن علاقة القرابة به أو الصداقة ذات علاقة بتعميد المسيح.

واضح جداً أن المعمدان تلقى ليس فقط حدود رسالته، أي التعميد بالماء كواسطة للتوبة وختم لها بعد الإعتراف والندم وذلك إعداداً لقلوب الآباء والأبناء قبل مجيء «الرب»؛ بل وأيضاً فإن إجراء التعميد هو بحد ذاته وبصورة أساسية سيكون واسطة لإعلان شخصية المسيا لكل إسرائيل، أي للأمة، حسب الوعد النبوي. وقد أمدنا القديس يوستين الشهيد برواية من فم تريفو اليهودي تعتبر ميراثاً يهودياً مسلماً فيما يخص ظهور المسيا:

[أما المسيا عندما يولد، فهو يوجد في مكان ما يبقى مجهولاً، وحتى هو نفسه لا يعرف نفسه (خطأ «ينبغي أن أكون فيما لأ بي»)، ولا تكون له قوة حتى يأتي إيليا ويمسحه (خطأ، يعمده) وبهذا يظهره للجميع...]

ومن هذا التنبؤ في التراث اليهودي، يتضح أن كل ما يخص مجيء المسيا كانت معرفته قد سرت بين الشعب كإحدى الوسائل الهامة لتسهيل التعرف عليه.

وفي هذه الأية يكون المعمدان قد رد الرد المقنع لكل من تسوله نفسه أن يرى في عماد المسيح تحت يد المعمدان نوعاً من التكريس أو المسحة كما يخطىء الفكر اليهودي، أو يرى في المعمدان نوعاً من التفوق عل المسيح بأي نوع. ذلك أن علة عماد المسيح، بل علة كل وظيفة المعمدان كمعمد، هي لكي يُظهر «المسيا» لإسرائيل، وليعرف الجميع أن يسوع الذي من ناصرة الجليل هو المسيا الأتي .

٣٢- وَشَهِدَ يُوحَنَّا: «إِنِّي قَدْ رَأَيْتُ الرُّوحَ نَازِلاً مِثْلَ حَمَامَةٍ مِنَ السَّمَاءِ فَاسْتَقَرَّ عَلَيْهِ.

٣٣- وَأَنَا لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُهُ لَكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي لِأُعَمِّدَ بِالْمَاءِ ذَاكَ قَالَ لِي: الَّذِي تَرَى الرُّوحَ نَازِلاً وَمُسْتَقِرّاً عَلَيْهِ فَهَذَا هُوَ الَّذِي يُعَمِّدُ بِالرُّوحِ الْقُدُسِ.

الأية الاولى على لسان الرسول القديس يوحنا وقد سمعها بأذنيه منه رأساً، لذلك أوردها هنا في البداية تأكيداً لما سيرويه عن لسان المعمدان نفسه. وفي شهادة الرسول يتذكر أنه وصف الروح القدس الذي نزل من السماء واستقر عليه بأنه كان «مثل حمامة»، وهذا هو التقليد الرسولي كما وصفه الإنجيليون الثلاثة.

والذي يلفت أنظارنا هو قول المعمدان: «إني قد رأيت الروح». هنا كلمة «الرؤيا» تأتي بمعنى المشاهدة فوة العادة أي الرؤيا الإيمانية. هنا وهنا فقط تكمن القدرة السرية الموهوبة للمعمدان مسبقاً منذ أن كان في بطن أمه لكشف سر المسيح! وحضور الروح القدس هنا هو الحضرة الإلهية التي من خلاها وهب للمعمدان الرؤية الإيمانية التي بها اكتشف سر المسيح ابن الله. فكانت نعمة «رؤية» الروح هي التي أوصلته لنعمة رؤية المسيح والإيمان أنه هو المسيا ابن الله.

ويخطىء من يعتبر حلول الروح القدس هو حلول أقنومي أو أن المسيح امتلأ بالروح وقتئذ. فالمسيح هو الكلمة المتجسد ابن الله قبل أن يعتمد كما هو بعد أن اعتمد، واحد مع الأب والروح القدس بالإتحاد، جوهر واحد للآب والابن والروح القدس.

علماً بأن كلمة: «ومستقراًعليه» هي جزء من العلامة أو جزء آخر من الدليل، لكي يتأكد به المعمدان أن من تستقر عليه الحمامة تماماً هو هو يكون.

كذلك لا يقول اللاهوت إن المسيح صار مسيحاً بعد العماد، بل هو المسيح يوم أن حبل به في البطن، فهو ممسوح من الله ملكاً للدهور كلها ورئيس كهنة الخيرات العتيدة لحظة أن قبل الإرسالية، لحظة آن أخلى ذاته ليأخذ شكل العبد ويصير في الهيئة كإنسان وهو الله.

أي أن المسحة التي أخذها على الاردن هي مسحة بدء الخدمة كإشارة من الروح فقط وليست للملء أو الإرسالية، فالإرسالية تمت قبل التجسد، والملء فيه لحظة حبل به في البطن حين قدسه الله وأرسله إل العالم. وللتأكيد نعود فنقول إن الحلول والملء والتقديس والمسح هذه كلها تمت بالتجسد وليس بالعماد. والعماد اظهرها وأعلنها وأطلقها للعمل.

فالذي تم على الاردن هو عملية التكريس العلني التي هي بمثابة استقلال بدء حياة المسيح المخصصة للصليب؛ انتقل بعدها المسيح من الحياة العادية التي كان يظهر فيها كأنه إنسان عادي، نجار الناصرة، إلى حياة الصليب العلنية حيث يظهر فيها لاهوته بانفتاح السماء وإعلان الآب عن حقيقته المخفية أنه ابنه الحبيب. والروح القدس النازل عليه للتعيين والإشارة كشفت في الحال للمعمدان، بالعين الإيمانية، أنه ابن الله المملوء من الروح القدس والمزمع أن يعمد بالروح القدس.

فهذه المسحة التي تمت بصوت الأب من السماء وحضور الروح القدس والمعمدان كشاهد، كانت هي بدء الإرسالية العملية بصورتها العلنية وبشهادة الشهود في السماء والأرض، لم يأخذ المسيح فيها مؤهلات جديدة للخدمة فهو الكامل وملء الذي يملأ الكل. ولكن هذه المسحة استعلنت علنا بنوته للآب واحتيازه ملء حب الآب وملء الروح القدس، فهي كانت لحظة تنصيب للخدمة وليست إعداداً أو تكميلاً. وهذه اللحظة عينها قال عنها المسيح بعدئذ «من أجلهم أنا أقدس ذاتي». و يلاحظ أنه لم يقل «أقدس جسد»، فالجسد مقدس باتحاد اللاهوت، منذ كان في البطن، تقديساً كلياً وكاملاً لا يحتاج قط إلى تكميل أو تقديس أخر في المعمودية، وإلا أصبنا حقيقة إتحاد اللاهوت بالناسوت إصابة خطرة وبليغة، ولكن قوله هو: «اقدس ذاتي» وتفيد «أقدس ذاتي بإرادتي»، بمعنى أكرس حياتي منذ لحظة المسحة للارسالية تكريساً كلياً لحساب الفداء وذبيحة الصليب التي فيها وبها وحدها نتقدس نحن.

من هذا يتضح قوله: «من أجلهم أنا أقدس ذاتي»، أي من أجلهم أخصص حياتي للموت عنهم، ولا تفيد أبداً أنه لم يكن مقدساً قبل أن يحصر حياته العملية في خدمة الصليب وحده، بل كان مقساً بل قدوساً من البطن: «فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظللك فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله» (لو ١:٣٥). هذه شهادة الملاك من السماء. لذلك فحياته كلها كانت مقدسة وهو وُلد لحساب الصليب.

ولكننا نعلم من الإنجيل أنه مارس حياته العملية ثلاثين سنة وكان نجاراً في الناصرة، ولكن بعد لحظة المسحة أي التكريس للخدمة في الأردن انحصرت حياته في الصليب. هذا هو بدء «من اجلهم أقدس ذاتي»، وفيها استعلن لاهوته وبنوته للآب، وبالتالي وبالضرورة استعلن ملؤه من الروح القدس لما حل عليه الروح القدس، مشيراً إليه،

فكانت مسحة استعلان، فظهر للناس، وخاصة للتلاميذ في هذا الملء، فهو لم يمتلىء من الروح القدس في الاردن بل بالحري استعلن ملؤه من الروح القاص كما استعلنت بنوته للأب تماماً وبالتساوي. فالابن له الروح القدس خاصة كالآب؛ وهو لا يأخذه بل يعطيه.

نفهم من هذا أن قول القديس لوقا في إنجيله: «أما يسوع فرجع من الاردن ممتلئاً من الروح القدس» أنه رجع من الاردن وقد استعلن ملؤه من الروح القدس[1]. لأننا بالمثل لا نستطيع أن نقول أنه رجع من الاردن وهو ابن الله كأنه أخذ البنوة الإلهية في العماد؛ فكما أن المسيح كان ابن الله قبل العماد وبعد العماد، هكذا يتحتم أنه كان ممتلئاً من الروح القدس قبل العماد وبعد العماد. ولا يجوز لاهوتياً أن يقال أن المسيح امتلأ من الروح القدس مرتين كبطرس أو بولس.

والمعمدان دائماً يكرر «وأنا لم أكن أعرفه» ولكن ليس المعمدان وحسب، بل إن المسيح فعلاً كان مخفياً عن أقرب المقربين إليه: «لأن إخوته أيضاً لم يكونوا يؤمنون به» (يو٧:٥). فالمسيح باعتباره المسيا الأتي، ابن الله، عُرف لحظة حلول الروح القدس عليه من السماء كإشارة عليا ونداء الصوت من المجد الآسنى: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت» (مت٣:١٧). فهذه لحظة دخوله إلى العالم مخلصاً وفادياً، لحظة الخدمة التي بدأت بالعد التنازلي حتى نقطة الصفرحينما قال: «قد أكمل» (يو١٩:٣٠)، وأسلم الروح على الصليب!

ومرة أخرى يتضح لنا دور المعمدان الرئيسي في استقلان شخص المسيا يسوع المسيح ابن الله، وهذا هو محور الأصحاح الأول في إنجيل القديس يوحنا بل وفي الإنجيل كله. فمن الخطأ الظن أنه بحسب إنجيل القديس يوحنا كان للمعمدان دور ما في الخلاص أو في ملكوت الله، لأن هذا كله هو عمل المسيح وحده. كذلك نفهم أن المعمدان أخذ وعداً إلهياً مباشراً مُسبقاً من مصدر لم يصح به، ولكنه هو هو الله وليس آخر وهو الآب الذي يشهد دائماً للابن، أن في أثناء التعميد فإن الذي يرى الروح نازلاً ومستقراً عليه يكون هو المسيا الآتي: «الذي سيعمد بالروح القدس».

ولم يشير المعمدان إلى أن المسيح أخذ الروح القدس، ولا المسيح نفسه أشار إلى مثل هذا.

ومرة أخرى نصحح ما جاء في شرح كثير من كتب الشرح ، فإن عماد المسيح واستقرار الروح القدس عليه بهيئة حمامة لم يكن أبداً لتأهيل المسيح للتعميد بالروح القدس أو لنوال الروح القدس أصلاً، وإنما كان لاستعلان المسيح وإظهاره لإسرائيل.

بل ويقول ذهبي الفم إن المعمدان نفسه لم يكن في حاجة شخصية للتعميد أكثر من أنه بواسطة الإغتسال يُعد الآخرين للايمان بالمسيح: [هو(المعمدان) لم يكن، إذن، بحاجة إلى المعمودية (بالماء)، ولا هذا الإغتسال كان له هدف أكثر من أن يعد الآخرين جميعاً لطريق للايمان بالمسيح، لأن المعمدان لم يقل، بالنسبة للعماد، «حتى لكي أُظهر الذين يعتمدون» أو «حتى لكي أخلصهم من خطاياهم»، ولكن قال «لكي أظهره لإسرائيل».]

٣٤- وَأَنَا قَدْ رَأَيْتُ وَشَهِدْتُ أَنَّ هَذَا هُوَ ابْنُ اللهِ».

الرواية ها تبلغ قمة استقلانها، فيسوع الذي جاء يكرز ويعمد بالروح القدس بعد المعمدان هو المسيا ابن الله. وهذه الشهادة العملية من فم المعمدان تأتي بعد رؤية عينية إيمانية عالية بسبق إعلاذ روحي، وبإلهام مُسبق، وبعلامة

[1] »ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً«.

معينة من السماء لا يأتيها الباطل من أي جانب. فهي علامة من صُنع الروح القدس وعمله، وهو روح الحق. ويكون القديس يوحنا قد وضع هنا شهادته التي جاءت في ختام المقدمة في أية (١٧ و ١٨) كآخر استعلان «للكلمة» في مقابل شهادة المعمدان العملية كأول استعلان من داخل الإنجيل، أو في الحقيقة في أول الإنجيل على مستوى الكرازة.

«ابن الله»:

ورد هذا القول المهيب في سفر دانيال: «فأجاب (نبوخذ نصر) وقال ها أنا أنظر أربعة رجال محلولين يمشون في وسط النار وما بهم ضرر، ومنظر الرابه شبيه (بابن الآلهة)» وهذا خطأ في الترجمة والأصل السبعيني عن العبري الأصلي يُقرأ: «ابن الله» (دا٣١:٢٥). لتد مهد المعمدان لإعلان هذا اللقب أو الوصف «ابن الله» للمسيا أعظم تمهيد بثلاثة أقوال هامة:

القول الأول: « أنا لست أهلاً أن آحل سيور حذائه». فهذا التعبير لا يصح ولا يحق أن يقال عن إنسان أي إنسان مهما كان! «فهذا هو ابن الله» ليس من فم المعمدان بل من أعماق إيمانه وقلبه.

أما القول الثاني: إنه «سيعمد بالروح القدس» فهذه كانت الإشارة البليغة أنه «ابن الله». فلم يحدث قط ولن يحدث قط أن عمد إنسان ما بالروح القدس، فمنذ أن ظهر ابن الله حتى هذه الساعة فالذي يعمد بالروح القدس هو ابن الله، وهو بنفسه الذي يعمد عل يد كل من كانت له صلاحية التعميد كاهناً كان أو أسقفاً أو رئيس أساقفة؛ فخادم السر يخدم ، ولكن الذي يعمد بالروح القدس هو المسيح ابن الله بنفسه. فالروح القدس هو الأقنوم المساوي للآب والابن، فلا يعطيه إلا الابن بمشورة الأب.

أما القول الثالث: نوع العلامة التي أعطاها الله للمعمدان لكي يعرف بها هذا الشخص المهيب الإلهي، فهي علامة ليست من بين كل ما في الأرض وما في السمورات من خليقة كانت. فلم تكن العلامة ملاكاً ولا رئيس ملائكة بل العلامة هي «روح الله» نفسه. ولكي تستطيع عينا المعمدان رؤية روح الله الذي لا يُرى جاءه الروح بهيئة حمامة نازلة من السماء من موضع الروح لتربط في وعي المعمدان بين المُشار إليه وبين موطنه الأصلي» ثم وسيلة الإشارة.

المعمدان يعلم تماماً بروحه وفكره وكل كيانه أنه جاء يمهد الطريق لظهور «الله«، لهذا كان في ردوده أمام اللجنة واثقاً في نفسه، أنه في نفسه ليس شيئاً بالمرة أمام ذاك الذي جاء ليعلن عنه. وحينما يقول إنجيل القديس يوحنا إن المعمدان رأى وشهد وقال بالروح إن هذا هو «ابن الله» فهو يقصد الابن الحقيقي للآب الحقيقي، الله الواحد بذاته وجوهره.

وكما قال القديس يوحنا «ونحن رأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب» عن رؤية إيمانية كاشفة أدرك فيها المجد الحال على الكلمة المتجسد الرب يسوع أنه ليس مجداً خلواً من أبوة، إذ رأى المجد مجد آب لابن، ومجد ابن في آب، فكان المجد الحال عليه وفيه، كان ينطق في وعي القديس يوحنا أن هذا هو الحب الأبوي المنسكب على الابن يتلألأ كنور في نور.

هكذا المعمدان رأى هو أيضاً برؤية الإيمان في حضور الروح القدس، والسماء مفتوحة، والروح يشير بإيشارات بليغة، بعضها منظور والآخر ناطق في قلب المعمدان: أن هذا هو الابن الحبيب لآبيه له اسمعوا؛ فكيف لا يسمع ولا ينطق بما رأى وسمع.

إن هذه الومضات الإلهامية كثيرة في الإنجيل، انظروا بطرس الرسول كيف انفتح وعيه فجأة في حضرة المسيح واستقبل إعلاناً نطقه الله الآب نفسه في قلبه، فهتف به لسانه: «أنت هو المسيح ابن الله الحي»، ففرح به المسيح وأراد أن يشجعه أكثر، فكشف له كيف ومن أين جاءته هذه الشهادة العليا: « فأجاب يسوع وقال له طوبى لك يا سمعان بن يونا، إن لحماً ودماً لم يعلن لك ولكن أبي الذي في السموات.» (مت١٦:١٧)

نثنائيل التلميذ الجديد الطيب اكتشف في المسيح صفته الجوهرية الإلهية بإلهام، كالبرق، وبمنتهى السرعة والجرأة والثقة، حينها أعطاه المسيح إشارة صغيرة أصابت كبده وفي الصميم: «أجاب نثنائيل وقال له يا معلم أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل.» (يو ١:٤٩)

مرثا التي اهتمت بأموو كثيرة حباً في المعلم، وهي في سحق حزنها ومرارة نفسها، لما نظرت إلى الرب نظرة عتاب كيف ترك أخاها ليبتلعه الموت وتركها فريسة الآلم بلا رجاء، أعاد إليها الرب النظرة بومضة من إشعاع مجده الذاتي، فرأته كما هو، واستنطقها الإيمان فنطقت. «أتؤمنين بهذا؟ قالت له: نعم يا سيد أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم.» (يو١١:٢٧-٢٧)

وذلك الأعمى الفصيح أول مُدافع عن المسيح في تاريخ المسيحية والإنجيل، لما وجده المسيح أحبه وأراد أن يسعده بالنور السماوي فعرفه بابن الله؛ فقال له الآعمى البصير من هو ياسيد؟ فقال: الذي يكلمك، ونظر إليه، فنفذت النظرة إلى أعماق وعيه المسيحي. فهتف أؤمن وسجد!!

وفي ذلك يقول القديس كيرلس الكبير عمود الدين: [وكأنما المطوب (يوحنا) الإنجيلي يبدو أنه يقول بكثير من الثقة، مع المعمدان، هذا هو ابن الله الواحد الوحيد بطبعه (جوهر الله) وريث كل ما يخص الآب. ونحن أيضاً الذين قد تشكلنا أبناء له بالتبي وبواسطته دُعينا بالنعمة إلى كرامة البنوة، لأنه كما أن من الله الآب تُسميت كل أبوة مما في السموات والأرض بكونه أباً بالحقيقة أصلاً ومنذ البدء، هكذا كل بنوة هي أيضاً من «الابن» كونه هو وحده حقاً وأصلاً هو الابن من جوهر ذات الله].

د- المعمدان يبدأ يسلم الوديعة.

٣٥- وَفِي الْغَدِ أَيْضاً كَانَ يُوحَنَّا وَاقِفاً هُوَ وَاثْنَانِ مِنْ تلاَمِيذِهِ.

٣٦- فَنَظَرَ إِلَى يَسُوعَ مَاشِياً فَقَالَ: «هُوَذَا حَمَلُ اللَّهِ».

٣٧- فَسَمِعَهُ التِّلْمِيذَانِ يَتَكَلَّمُ فَتَبِعَا يَسُوعَ.

بحسب تقديرات العلماء المدققين يقع هذا الغد الذي يتكلم عنه القديس يوحنا في مستهل الإعتدال الربيعي قبل الفصح الأول للمسيح أي قبل ١٤ نيسان (أبريل) بقليل. وهذا الميعاد يشير إليه القديس اكلمندس في عظته الأولى ١:١٦. كما يلاحظ القارىء أننا هنا في نهاية خدمة المعمدان وفي بداية خدمة الرب، وهذا واقع في «اليهودية» أي في الجنوب، ولم يكن الرب قد انطلق بعد إلى الجليل في «إسرائيل» في الشمال.

وغني عن البيان أن فلسطين تنقسم إلى مملكتين: مملكة اليهودية في الجنوب ومملكة إسرائيل في الشمال، وأن عاصمة اليهودية هي أورشليم وهي عاصمة كل البلاد. لذلك فإن إنجيل يوحنا هو الوحيد الذي يذكر بداية خدمة الرب في اليهودية قبل خدمة الجليل سواء في أول الخدمة أو في نهايتها. لذلك فهو الوحيد الذي يذكر بداية اختيار تلاميذه الأوائل من اليهودية، وهو أيضاً الوحيد الذي يذكر معجزة لعازر التي تمت في اليهودية، كما أنه هو الوحيد

الذي يذكر خدمة المسيح في أورشليم (اليهودية) على مدى ثلاثة أعياد للفصح وأعياد أخرى إضافية. وذلك معروف لأن لقديس يوحنا بن زبدي هو أول تلميذ التصق به منذ أول لحظة لخدمة المسيح إذ كان أولاً تلميذاً للمعمدان ثم انتقل إلى تلمذة المسيح.

«وفي الغد أيضاًا كان يوحنا (المعمدان) واقفاً هو واثنان من تلاميذه». لاحظ أن القديس يوحنا لا يلقي الكلام جزافاً، فهو يذكر بالذات اثنين من تلاميذه دون أن يذكر اسميهما. فأولاً يذكر اثنين لأنه يقدم للقارىء شهادة، وكل شهادة لا تصح إذا لم تكن على يد اثنين «وأيضاً في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجلين حق» (يو١٧:٨). أما ثانياً، فلا يذكر اسميهما لأنه هو واحد منهما ولا يريد أبداً أن يذكر اسمه. أما اسم الثاني فيذكره فيما بعد في الأية ٤٠ «كان أندراوس أخو سمعان بطرس واحداً من الإثنين اللذين سمعا يوحنا وتبعاه (المسيح)».

أما كيف عرفنا أن الأول هو القديس يوحنا بن زبدي فلأنه يقص لنا حادثة انتقلا من تلمذة المعمدان إلى المسيح بدقة لا يمكن أن تكون منقولة من آخر بل هي رواية شاهد عيان.

ولا ينبغي للقارىء أن يرتبك إذا قرأ في الأناجيل الأخرى طريقة أخرى لدعوة التلاميذ؛ أنهما في الحقيقة أنهما دعوتان: الأولى وهي التي اهتم بها القديس يوحنا جداً هي «دعوة للتلمذة» والرفقة مع المسيح، أما الدعوة الثانية فواضح أنها قاطعة ويرافقها أن كل واحد ترك كل شيء حتى بيته وأولاده وتبع المسيح فهي دعوة الرسولية، ومعروف أنه كان للمسيح تلاميذ كثيرون، وكثير منهم من اليهودية ولكن كان له اثنا عشر رسرلاً فقط ، اختارهم من بين تلاميذه، ولكن واحداً منهم سقط .

«فنظر إلى يسوع ماشياً فقال هوذا محل الله فسمعه التلميذان يتكلم فتبعا يسوع»

التكرار هنا ذو معنى آخر، فذكر«هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» في السابقة (٢٩) كان نطقاً استعلانياً يخص المسيح نفسه والعالم؛ أما هنا «هوذا حمل الله» (٣٦) تفيد التعليم والشهادة لتلميذيه الخصوصيين اللذين كانا معه، فهو كان يكلمهم عن المسيح، وفجأة نظر المسيح ماشياً فأشار نحوه وكان حديثه «فسمعه التلميذان يتكلم» هو نفس الحديث الذي يكرره دائماً: أنا أعمد بالماء ولكن هذا يعمد بالروح القدس، هذا هو العريس وأنا لست إلا صديقاً للعريس، هذا يبغي أن يزيد وأني أنا أنقص. أي كان حديثاً يتعلق بصميم خدمته وهي إعداد الطريق للرب وارشاد تلاميذه لمن هو أقوى منه، أما هنا فهو يكشف ضمناً عن خلاصهما وفدائهما المُدخر لهما في هذا الحمل الإلهي!!

ولا يفوتنا هنا أن نلقي ضوءاً على عظمة هذا الإنسان المدعو من الله الذي اسمه يوحنا (المعمدان)، إذ ليس من الهين أبداً أن يقول معلم لتلاميذه أن معلماً آخر هو أعظم مني، أو إن هم تركوه ليلتحقوا بمن هو أعظم منه فإنه يبقى فرحاً: «فرحي الآن قد كمل»!!! ولكن كان المعمدان حقاً أعظم من نبي، وكان المسيح حقاً أعظم من المعمدان!!!

وهذا واضح من الآية المقتضبة جداً التي قالها القديس يوحنا: «فسمعه التلميذان يتكلم فتبعا يسوع»، وكأنه يقول: فأطاع التلميذان نصيحة معلمهم وارشاده وللحال تبعا يسوع. وفي هذا القول البسيط تتصور أكبر حركة في التاريخ اليهودي والمسيحي معاً وهى حركة انبثاق الكنيسة الجديدة من جسم الكنيسة العتيقة، كنيسة البرية المتغربة في قفار الأرض.

هذه الحركة الإلهية التدبير والتنفيذ نجح المعمدان في تمريرها من بين يديه كعملاق يحتضن الخيمة العتيقة، خيمة

داود، بعمدها الساقطة وسقفها الذي أكله الزمن، ويسلمها لمن يطويها ويغلقها جديدة من جسده، وعُمدها تمس الأرض وسجوفها[1] السماء بعينها.

٢- شهادة التلاميذ: المسيح يبدأ عمله باختيار تلاميذه وهم يشهدون له.

٣٨- فَالْتَفَتَ يَسُوعُ وَنَظَرَهُمَا يَتْبَعَانِ فَقَالَ لَهُمَا: «مَاذَا تَطْلُبَانِ؟» فَقَالاَ: «رَبِّي أَيْنَ تَمْكُثُ؟».

الأية باليونانية تبدأ بـ «لكن»، وبهذا يصير تصوير هذه الحركة بادق وأجل مما هي في صورتها العربية. فهي تعني أن المسيح كان ماراً في طريقه وأن التلميذين قررا السير وراءه، فسارا يسرقان الخطى تهيباً ووقاراً، «ولكن» الرب أدرك مقصدهما فأراد أن يفتح أمامهما الباب، إما للحوار أو الدخول، فالتفت إلى الخلف، وهنا توقفت أرجلهما أو أبطأتا اضطراراً، لما نظر إليهما وهما هكذا يسترقان الخطى بحذر وهيبة خلفه، فابتسم ولا شك، قائلاً بترحاب: «عاوزين أيه» ماذا تريدان؟ لم يقل من تريدان، لأنه يعلم مقصدها، ولكنه قصد بسؤاله هذا أن يسهل عليهما الإفصاح عن عزمهما.

وبهذا النطق: «ماذا تطلبان؟» ثم «تعاليا وانظرا» سجل القديس يوحنا أول كلمات نطقها الرب في إنجيله

٣٩- فَقَالَ لَهُمَا: «تَعَالَيَا وَانْظُرَا». فَأَتَيَا وَنَظَرَا أَيْنَ كَانَ يَمْكُثُ وَمَكَثَا عِنْدَهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ. وَكَانَ نَحْوَ السَّاعَةِ الْعَاشِرَةِ.

«تعالوا وانظروا أعمال الله، إنه رهيب في أعماله نحو بني الإنسان(مز ٦٦:٦ الترجمة السبعينية)

ولو أننا وضعنا السؤال مع الجواب: « أين تمكث، تعاليا وانظرا»، لنشأ لدينا معيار عملي للإيمان. فالسؤال موجه من التلميذ الباحث عن الله (أين أنت؟)، والجواب هو دعوة من الله للدخول في الرؤيا (تعال وانظر!)

ولا يخفى عن القارىء أنه بالرغم من أن هذا المعيار للإيمان يبدو غريباً على الأسماع نوعاً ما في هذه الأ يام، ولكنه هو هو المعيار الأبدي منذ البدء والوحيد الذي يعيش عليه أولاد الله في كل العصور حتى اليوم.

الكنيسة لا تزال، بفم يوحنا الرسول وفم جيع التلاميذ الأتقياء الذين طلبوه فوجدوه، ورأوه فعرفوه، تنادي: تعالوا وانظروا. بل المسيح بنفسه لا يقول تعالوا وانظروا فحسب، بل وأيضاً: «جسوني وانظروا»، من يأكلني يحيا بي. واسألوا توما بل اسألوا أصبعه ماذا رأيت وماذا عاينت؟ توما وفع أصبعه على أعمال الله الرهيبة فصرخ: ربي والهي.

الكنيسة زاخرة بأعمال الله الرهيبة. المسيح استودعها كل أعماله المجيدة: «كل مجد ابنة الملك من الداخل، مزينة بأنوام كثرة»، «أعمال مجيدة قد قيلت عنك يا مدينة الله».

وأن تكون «مع المسيح» مثلما اشتهى تلميذا المعمدان أندراوس ويوحنا بل «ومكثا عنده»، فهذه هي شهوة أتقياء الله ، ونقول، وهذا عجب أيضاً، أنها بالمقابل رغبة المسيح الملحة جداً!!

* «أيها الأب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتي (ومكثوا معه هنا) يكونوذ معي حيث أكون أنا أيضاً لينظرا مجدي الذي أعطيتني لأنك أحببتي قبل إنشاء العالم.» (يو ١٧:٢٤)

وجواب المسيح: «تعاليا وانظرا»!! هو أن مقصدهما الحقيقي وشهوة قلبهما الصادقة لا يمكن أن تتم لهما إلا «معه» حيث يمكن أن «يرياه» فيعرفاه، فيصير لهما «كل ما يريدان»، كل شهوة قلبيهما وأكثر.

وكلمة «تعاليا» تأتي بالفعل المضارع الأمر الذي يفيد المجيء إلى المسيح ليس بصفة عرضية ولكن بصفة

---

[1] السجف وجمعها سجوف، أى الحجاب وجمعها حُجب.

مستمرة. ونتيجة ذلك هي «ستنظران» التي تفيد فعلاً رؤيوياً حقيقياً بمعنى: حينما تأتون إلي فإنكم ترونني على حقيقتي ويتم لكم كل شيء.

أما لماذا كان المسيح سخياً معهما بهذا المعنى؟ فلأنهما قدما مُسبقاً «فعل إيمان» بأن «تبعاه».

ولا بد يا عزيزي القارىء أن فعل الإيمان إذا كان هكذا صادقاً ومتحركاً، أن يتبعه فعل رؤيا.

«فأتيا ونظرا أين يمكث ومكثا عنده ذلك اليوم وكان نحو الساعة العاشرة».

كان هذا يوماً من أيام ابن الإنسان لم ينسه القديس يوحنا طول حياته، ولن تنساه الكنيسة ما عاشت، فهذا هو أول يوم لها في بيت يسوع الذي عرفته الكنيسة في سرها «باليوطا»[1] ورقمه لها يوحنا الحبيب حتى تفهم السر لتحتفظ به لأولادها الذين يحفظون السر!

وقصة الإنجيل يا إخوة عجيبة وهي مملوءة أسراراً، سراً في مقابل سر، أو سراً فوق سر! فيوم الكنيسة الأول في حياة الرب قضاه التلاميذ في بيت يسوع كما قيل الأن، وقد كان أن رد المسيح للكنيسة الزيارة في آخر يوم له بأن زار التلاميذ في بيتهم وهم مجتمعون: «ولما كانت عشية ذلك اليوم وهو أول الاسبوع وكانت الأبواب مغلقة حيث كان التلاميذ مجتمعين لسبب الخوف من اليهود، جاء يسوع ووقف في الوسط وقال لهم سلام لكم» (يو ٢٠:١٩).

في يومها الأول كانت الكنيسة في القماط خارجة من اغتسال الماء، وفي يومها الأخير مع الرب قبلت الروح القدس لما نفخه فى التلاميذ فأخذت ملء قامتها.

أ- شهادة أندراوس:

٤٠- كَانَ أَنْدَرَاوُسُ أَخُو سِمْعَانَ بُطْرُسَ وَاحِداً مِنَ الاِثْنَيْنِ اللَّذَيْنِ سَمِعَا يُوحَنَّا وَتَبِعَاهُ.

٤١- هَذَا وَجَدَ أَوَّلاً أَخَاهُ سِمْعَانَ فَقَالَ لَهُ: «قَدْ وَجَدْنَا مَسِيَّا» (الَّذِي تَفْسِيرُهُ: الْمَسِيحُ).

٤٢- فَجَاءَ بِهِ إِلَى يَسُوعَ. فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَسُوعُ وَقَالَ: «أَنْتَ سِمْعَانُ بْنُ يُونَا. أَنْتَ تُدْعَى صَفَا» الَّذِي تَفْسِيرُهُ: بُطْرُسُ.

لقد أثمرت زيارة أندراوس للمسي، فلقد تيقن أنه المسيا. وللحال (أول شيء عمله بعد الزيارة) بحث عن أخيه سمعان وأخبره بالخبر المفرح: «قد وجدنا المسيا». ولا ننسى أن أندراوس تتلمذ أولاً على المعمدان النبي الناسك المُرسل من الله لإظهار المسيا والشهادة له، فهو قادر أن يقنع أخاه أنه حقا قد وجد المسيا.

ويلاحظ أنه يجمع بين نفسه وواحد أخر «قد وجدنا»، هنا يذكرالقديس يوحنا نفسه دون أن يذكر اسمه!! ويعطينا العالم هنجستنبرج شرحاً آخر لكلمة: «هذا وجد أولاً أخاه سمعان»، إذ يرى أن كلمة «أولاً» جاءت لتفيد أن التلميذين أندراوس والآخر (يوحنا) ذهبا ليبحثا كل واحد عن أخيه ليحضره: أندراوس يبحث عن سمعان أخيه، ويوحنا يبحث عن يعقوب أخيه، ولكن أندراوس وجد أولاً أخاه، وهذا الشرح مقبول وقد أخذ به بعض علماء التفسير ويقوم هذا التقسير على أساس أن القديس يوحنا يرفض دائماً أن يذكر اسمه أو اسم أخيه يعقوب.

«انت تدعى صفا _ بطرس»:

ليس كل التلاميذ أخذوا أسماء جديدة، والله منذ إبراهيم يعطي من يحملهم مسؤليات جسام أسماء جديدة. ويلاحظ أن أن هذه المسئوليات ذات طابع أخروي وتتعلق بالتجديد المزمع أن يكون: فإبراهيم أخذ لأن فيه تتبارك كل الأمم.

---

[1] شرح عدد ١٠ في الطقس الكنسي، وهو المقابل العددي لأول حرف من اسم المسيح »إيسوس«

يعقوب دعي إسرائيل أي الناظر الله وقد وصفه الله «ابني ابكر» كرمز للآتي الذي هو وحده الناظر الله والابن الوحيد. موسى لم يأخذ ولم يُسمح له أن يدخل أرض الميعاد لأنه ارتبط بالناموس، والناموس زمني وعتق وشاخ وأعطى مكانه للنعمة والحق.

سمعان بطرس أخذ، لأن «على هذه الصخرة أبني كنيستي». يوحنا مع أخيه يعقوب أخذا «بوانرجس»[1] لأن يوحنا دوى صوته بعد البرق (الميسح) دوياً يتساوى عح حجم النور بصورة ليس لها نظير ولا يزال يدوي.

والملاحظ أن في انجيل القديس يوحنا أُعطى الاسم الجديد «سمعان» بعد أن فحصه الرب بنظرة عميقة، حيث لا يذكر في الأناجيل الأخرى إلا باسمه الكامل سمعان المدعو بطرس أو سمعان بطرس دون ذكر كيف ولماذا أُعطي هذا الاسم. ومرة أخرى نقول ان هذا بسبب عدم تعرض الأناجيل الأخرى لخدمة المسيح الاولى في اليهودية.

كذلك من الأمور المفرحة لفكر الباحث أن يجد أن هذه الأسماء التي ظهرت معاً في الآصحاح الأول لإنجيل القديس يوحنا كبداية لحركة التلمذه: القديس أندراوس وبطرس ويوحنا ويعقوب، نجد هذه الأسماء أيضاً معاً وهي نفسها كانت بداية حركة الدعوة للرسولية، بحيث اذا لم ينتبه القارىء إلى ما تم في انجيل القديس يوحنا بالنسبة لدعوة هذه الأسماء للتلمذة، ويقرأ ملابسات دعوة المسيح لهذه الأسماء لتتبعه لخدمة الرسولية، يرتبك ويحس بأنها تخرج عن الواقق المألوف، اذ لما دعاهم المسيح كما هو مدون في إنجيل القديس متى استجابوا فوراً وتركوا الشباك والصيد والعائلة بجملتها وانضموا الى المسيح فجأة وبلا تحفظ.

ولكن الأمر له تمهيد وتعليم وتدريب سابق: «واذ كان يسوع ماشياً عند بحر الجليل أبصر أخوين سمعان الذي »يُقال له بطرس وأندراوس أخاه يلقيان شبكة في البحر فإنهما كانا صيادين. فقال لهما هلما ورائي فأجعلكما صيادي الناس. فللوقت تركا الشباك وتبعاه!! ثم اجتاز من هناك فرأى أخوين آخرين يعقوب بن زبدي ويوحنا أخاه في السفينة مع زبدي أبيهما يصلحان شباكهما فدعاهما، فللوقت تركا السفينة وأباهما وتبعاه» (مت٤:١٨-٢٢)

هذه التلقائية السريعة من جهة هؤلاء الأربعة وتركهم كل شيء واتباعهم الرب نهائياً، يصعب جداً بل يتعذر فهمها أو قبولها كما هي، ولكن بعد أن قدم لنا القديس يوحنا حركة التلمذة الاولى على مستوى التعارف أولاً ثم الصداقة والالفة الشديدة وتغيير بعض الأسماء والتلمذة، أصبحت دعوة هؤلاء للرسولية بوضعها الحاسم كما جاءت في إنجيل القديس متى مفهومة بل وجديرة بالإعجاب؛ فالقرار كانوا في الحقيقة قد اتحذوه مع أنفسهم لإتباع الرب تماماً ولم يكن ينقصهم إلا لحظة الدعوة التي استقبلوها بحماس حاسم.

ب- شهاده فيلبس:

٤٣- فِي الْغَدِ أَرَادَ يَسُوعُ أَنْ يَخْرُجَ إِلَى الْجَلِيلِ فَوَجَدَ فِيلُبُّسَ فَقَالَ لَهُ: «اتْبَعْنِي».

٤٤- وَكَانَ فِيلُبُّسُ مِنْ بَيْتِ صَيْدَا مِنْ مَدِينَةِ أَنْدَرَاوُسَ وَبُطْرُسَ.

من هذه الأية وفي زمانها، انتقل المسيح من خدمة اليهودية التي انحصرت في اختيار بعض تلاميذ له، وربما في بعض أعمال أخرى، إلى خدمة الجليل التي بدأ بها الإنجيليون الثلاثة أناجيلهم .

يبدو أن ملاقاة فيلبس تمت أيضاً على الضفة الشرقية من الأردن، قبل أن يرتحل المسيح منها متجهاً نحو

[1] في النطق التقليدي مفردها بونرجس أي صاحب أو ابن الرعد، فأتى المثنى »بوا» أي صاحبا أو ابنا النرجس أي الرعد- أنظر المدخل

الشمال. ويلاحظ أن القديس يوحنا يذكر، بعد ذكر الملاقاة مباشرة، أن فيلبس من بيت صيدا من مدينة أندراوس وبطرس، وكأنه يربط بين الملاقاة والدعوة السريعة المقتضبة وبين أندراوس وبطرس. بمعنى أن فيلبس كان رفيقاً للآخترين، وكان يعلم كل شيء عن المسيح، وربما كان قد تم التعارف معه، بل ويرجح العالم وستكوت أن فيلبس كان تلميذاً للمعمدان أيضاً.

ويلاحظ أنه في اللغة اليونانية تجيء كلمة «من» بيت صيدا بحرف ( )، والتي تفيد بلد الإقامة والمعيشة، ثم «من» بحرف ( ) وتفيد مدينة أندراوس وبطرس أي «من كفرناحوم» (مر ١:٢١ و٢٩) وهي مدينة الميلاد.

ويقول التقليد أن فيلبس هو الشخص الذي لما دعاه المسيح اعتذر طالباً أن يدفن أباه أولاً، فكانت إجابة المسيح: «اتبعني، ودع الموتى يدفنو موتاهم» (مت٨:٢٢)[1]

٤٥ – فِيلُبُّسُ وَجَدَ نَثَنَائِيلَ وَقَالَ لَهُ: «وَجَدْنَا الَّذِي كَتَبَ عَنْهُ مُوسَى فِي النَّامُوسِ وَالأَنْبِيَاءُ: يَسُوعَ ابْنَ يُوسُفَ الَّذِي مِنَ النَّاصِرَةِ».

يبدو أن كل من أتته الدعوة واستقبلها بفرح الروح، تحولت فيه إلى بشارة وكرازة.

«ونثناثيل» امم عبري يعني الله أعطى أو «عطية الله» = عطالله. والمقابل اليوناني لها هو الاسم «ثيئوذور» بنفس المعنى = تادرس. وقد عرفه القديس يوحنا في (٢١:٢) أنه من «قانا الجليل» . ومن تسلسل الأيات والإصحاحات حيث وردت «قانا الجليل» مباشرة بعد هذا الكلام في أصحاح ٢:١، يُظهر أن فيلبس وجد نثنائيل في قانا نفسها.

أما من هو نثائيل فلم نسمع عنه في الآناجيل الثلاثة مع أنه أصبح رسولاً. بعض العلماء مثل «زاهن» ووستكوت[2] رأوا أن التصاق اسم فيلبس مع نثنائيل في البداية تحول إلى التصاق فيلبس مع برثلماوس في تعداد الرسل، بالإضافة إلى أن الستة التلاميذ الذين التصقوا بالرب في البداية وأخرهم نثنئيل، ذكروا بعد ذلك معاً واخرهم برثلماوس بدل نثنائيل: «وجعل لسمعان امم بطرس، ويعقوب بن زبدي ويوحنا أخا يعقوب وجعل لهما اسم بوانرجس أي ابني الرعد، وأندراوس، وفيلبس، وبرثلماوس...» (مر٣:١٦-١٩)

ومن قول فيلبس «وجدنا» بالجمع، يتضح أنه كان ضمن التلاميذ الأوائل الذين تعرفوا على الرب من كلام المعمدان عنه.

«الذي كتب عنه موسى» (تث١٨:١٥).

كانت الأسفار المقدسة بين أيديهم يفحصونها ليل نهار مع المترقبين خلاص إسرائيل؛ وطالما توقفوا معاً عند إشارات ومضت أمام قلوبهم بالروح عن المسيا الذي يترقبون ظهوره، إذ كان يلهب قلوبهم: «أنا أحب الذين يحبونني والذين يبكرون إلىّ يجدونني» (أم٨:١٧)؛ «لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني.» يو٥:٤٦)

«يسوع ابن يوسف الذي من الناصرة».

لقد أبقى القديس يوحنا معرفة فيلبس في حيزها البشري بالنسبة للمسيح كما كانت على لسان فيلبس. ولكن واضح غاية الوضوح أنه تعريف أفضى إلى تعريف آخر في قلب فيلبس لم يسعفه الفكر أن يظهره آنئذ فاستبدل الكلام

---

[1] بخصوص إيمان فيلبس انظر المدخل ٣٠٧-٣٠٩)

[2] لقد شرح المؤلف حديث الرب مع نثنائيل شرحاً روحياً فيما سبق فى كتاب: »الإيمان بالمسيح» ١٠٨:١١٠ من الطبعة الاولى.

بالرؤيا «تعال وانظر».

٤٦- فَقَالَ لَهُ نَثَنَائِيلُ: «أَمِنَ النَّاصِرَةِ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ شَيْءٌ صَالِحٌ؟» قَالَ لَهُ فِيلُبُّسُ: «تَعَالَ وَانْظُرْ»

كان الذين يترقبون ظهور المسيا، يربطون بين عظمة المسيا وعظمة المدينة التي سيظهر فيها وقدسيتها وأشهر الآنبياء الذين ظهروا فيها، ولكن نثنائيل صُدم لما سمع اسم الناصرة، خاصة وأن اسم الناصرة بالعبرية مأخوذ من اسم فرع الشجرة الغير طبيعي الذي يخرج من أسفل الجزع (أصل) الشجرة ويسمى بالعربي «نسر»، وهو قريب النطق من العبري «نتسير» المأخوذ منه كلمة الناصرة.

«ويخرج قضيب من جذع (خطأ والصح جذر) يسى، و ينبت غصن (نتسير/ نسر) من أصوله ، ويحل عليه روح الرب...» (إش١١:١)

فاسم الناصرة خامل في الطبيعة كما هو خامل في الآسفار تماماً. فنثنائيل يتكلم عن وعي ودراية. ولكن ألم يأخذ المسيا شكل العبد «محتقر ومخذول» (إش٥٣:٣)؟ وهو على كل دُعى «ناصرياً»، ولكنه وُلد في بيت لحم اليهودية. أما الذين يقولون إن «الجليل» أيضاً هو خامل الذكر ولم يخرج منه نبي «أجابوا وقالوا له: ألعلك أنت أيضاً من الجليل فتش وانظر إنه لم يقم نبي من الجليل» (يو٧:٥٢)؛ فهذا غير صحيح وعن غير دراية يتكلمون. فكل من يونان النبي وعزيا النبي وناحوم النبي وربما إيليا النبي أيضاً وأليشع النبي وعاموس النبي كانوا جليليين وكانوا أجلاء. والجليل كانت أرضها مقدسة وسماؤها مفتوحة! أما رد فيلبس العملي فهو: «تعال وانظر»، حسب خبرته الشخصية وما سمعه من كل الذين راوه أنه ليس من رأى كمن سمع، فرؤية المسيح إن كانت عن جد وإخلاص فهي تكفي لكي يترك الإنسان كل شيء ويتبعه.

ج- شهادة نثنائيل:

٤٧- وَرَأَى يَسُوعُ نَثَنَائِيلَ مُقْبِلاً إِلَيْهِ فَقَالَ عَنْهُ: «هُوَذَا إِسْرَائِيلِيٌّ حَقّاً لاَ غِشَّ فِيهِ».

ومن هو اسرائيل غير الحق؟ والذي كان فيه الغش؟ لأن يعقوب الذي تغير اسمه فيما بعد إلى إسرائيل أخذ بركة البكورية بالغش إذ غش أخاه وغش أباه. فقد لبس جلد معزى ليبدو ملمسه خشناً لإسحق أبيه الذي كان قد فقد بصره، ليظهر كأنه عيسو الابن البكر الذي كان أشعر، وذلك لكي يصلي عليه أبوه ويعطيه البركة الأخيرة، وكأنه ابنه البكر، وهو ليس كذلك. وفعلاً سرق البركة وعاش بها وجازت عليه بالفعل لأن هكذا دعاء الوالدين الأخير يكون نافذاً.

«فدخل إلى أبيه وقال يا أبي، فقال هأنذا من أنت يا ابني؟ فقال يعقوب لأبيه: أنا عيسو بكرك... فتقدم يعقوب إلى اسحق أبيه فجسه، وقال: الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو (جلد المعزى)... فباركه، وقال: هل أنت هو ابني عيسو؟ فقال: أنا هو.» (تك٢٧:١٨-٢٤) ولكن هذه الحركة لم ترض الرب، وغير اسمه فيما بعد الى إسرائيل، ولكن ظلت هذه الوصمة لاصقة به كل أيام حياته وأولاده من بعده!

والآن نحن بصدد إسرائيل العهد الجديد أشخاصاً وشعباً، أي إسرائيل الحقيقي. فكان لما ظهر نثنائيل أمام المسيح أن رأى فيه شخصية ملتهبة صادقة تطلب البركة عن حق وليس عن غش. فبعين المسيح الفاحصة رأه «إسرائيلي حقا» بمعنى أنه يطلب وجه الله عن حق في بحثه عن شخص المسيا، ورأه أن لا غش فيه بمعنى أنه رأى استقامة نفسه وقلبه كأفضل ما كان عليه إسرائيل لما رأى حلمه والسلم المنصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء وملائكة الله صاعدة ونازلة عليها (تك٢٨:١٠-١٥).

٤٨- قَالَ لَهُ نَثَنَائِيلُ: «مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُنِي؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «قَبْلَ أَنْ دَعَاكَ فِيلُبُّسُ وَأَنْتَ تَحْتَ التِّينَةِ رَأَيْتُكَ».

لقد أُخذ نثنائيل بترحاب المسيح واهتزت أعماقه لما أعطاه علامة كشفت له سراً من أسرار، لا يعرفه أحد غيره، فأدرك سلطان المسيح على «معرفة ما في الإنسان». وهكذا ليس فقط أثبت المسيح أنه يعرفه بل وأنه رآه فأحس نثنائيل أن ليس شيء ما خفياً عن عينيه، لهذا فإن كان فيلبس يقول له عن يسوع الناصرة أنه المسيا بحسب الناموس والأنبياء فهوقد تيقن بنفسه أنه ابن الله كما قال عنه المعمدان.

٤٩- فَقَالَ نَثَنَائِيلُ: «يَا مُعَلِّمُ أَنْتَ ابْنُ اللَّهِ! أَنْتَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ!».

كان إعلان المعمدان الذي هتف به ونادى أن هذا هو ابن الله قد ملأ أسماع الناس وأخذ صداه تردده قلوب الأتقياء الذين يترقبون الخلاص بفارغ الصبر. فلما بدرت من المسيح بادرة صغيرة ألمح فيها لنثنائيل عن شخصه حتى انهمر عليه إحساس الخلاص كالسيل.

فهوذا ابن الله حسب وعد الدهور على لسان المعمدان، وهوذا المُلك يُرد لإسرائيل في ابن الله هذا القادر المقتدر. إنها ومضة إلهامية كشفت له الأطراف المترامية لمُلك المسيا الموعود ولكن بغير وضوح.

٥٠- أَجَابَ يَسُوعُ: «هَلْ آمَنْتَ لأَنِّي قُلْتُ لَكَ إِنِّي رَأَيْتُكَ تَحْتَ التِّينَةِ؟ سَوْفَ تَرَى أَعْظَمَ مِنْ هَذَا!».

الرؤية التي يقصدها المسيح هنا هي رؤية أمور تختص بالمسيح يدرك منها حقيقة المسيح أكثر أو أعظم مما رأى الآن. لأن دائماً أبداً الأمور الأعظم في الإنجيل هي أمور الله، والمقارنة هنا دقيقة وسرية، فهي مقارنة بين مستوى ما رأى المسيح من نثنائيل وهو مختفي تحت التينة، لأن الكلمة اليونانية «تحت»» تشير إلى نوع من الخفية، وما سيراه نثنائيل من المسيح وهو مختفي تحت الجسد!! فالثانية أعظم بلا قياس وهذا ستبرهنه الآية القادمة، ووعد المسيح هذا لنثنائيل هو مرتب على ملاحظة المسيح الاولى لنثنائيل أنه إسرائيلي حقاً لا غش فيه من جهة سعيه للتعرف على الله سعياً يسنده الحق والصدق معاً، كما هو مرتب على سرعة إيمان نثنائيل الملفتة للنظر، وهذا قد أصبح قانوناً في أمور البحث عن الله والسعي المخلص الخالص في معرفته.

٥١- وَقَالَ لَهُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مِنَ الآنَ تَرَوْنَ السَّمَاءَ مَفْتُوحَةً وَملاَئِكَةَ اللَّهِ يَصْعَدُونَ وَيَنْزِلُونَ عَلَى ابْنِ الإِنْسَانِ»

«الحق الحق أقول لكم»

هذا الإصطلاح بصورته المزدوجة لا يرد إلا في العهد الجديد ولا يرد إلا في إنجيل يوحنا الذي لا ترد فيه مفردة كما هي في باقي الأناجيل.

«من الآن»:

شبه الجملة الزمانية هذه لا نجدها في الأصل اليوناني ولا في التراجم الأخرى. ويقول عنها العالم الكتابي واللغوي «وستكوت» أن أفضل المراجع ذات القيمة العالية لا تأخذ بها؛ لأن وجودها يخل بالمعنى ويغير مفهومه اللاهوتي.

فإذا أخذنا بها يكون المعنى: أن منذ بدء الخدمة فقط يبدأ ابن الإنسان ليكون الصلة بين الساء والأرض. ولكن الاصح لاهوتيا أن لا نأخذ بها بحسب أكثرية المخطوطات الأصلية التي لا ترد فيها.

ويكون المعنى أن بتجسد الابن، أي لما الكلمة صار جسداً، صارت العلاقة بين السماء والأرض واردة دائماً في

شخص ابن الإنسان. لأن من المقطوع به لاهوتياً أن الابن المتجسد، بسبب كون «الجسد» متحداً اتحاداً كلياً وكاملاً باللاهوت، صار هو الواسطة لدخول الإنسان إلى اللع أى قدس الأقداس. «فإذ لنا أيها الإخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم يسوع طريقاً (سلماً) كرسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أي جسده...» (عب١٠:١٩). لذلك أيضاً قال: «أنا هو الطريق.» (يو١٤:٦)

وواضح أن القديس يوحنا يسجل هنا مبدأ لاهوتياً عاماً. كذلك لا يقدمه بصيغة المفرد حسب مجرى الحديث مع نثنائيل بل يطلقه عاماً للجميع «الحق الحق أقول لكم» بهذه الصيغة التوكيدية التي تأتي دائماً قبل كل مبدأ استعلاني.

«السماء مفتوحة»:

السماء المفتوحة راها يعقوب إسرائيل هكذا: «ما هذا إلا بيت الله (على الآرض) وهذا باب السماء (فوق).» (تك٢٨:١٧)

لم ير السماء مفتوحة إلا إسطفانوس الشماس الشهيد، ورأى فعلاً ابن الإنسان جالساً عن يمين الله، ومن بعده راها بولس الرسول ورأى وجه يسوع يطل منها بأكثر من الشمس لمعاناً. أما القديس يوحنا فدخل في الرؤيا وعاش فيها يجوس ويسجل مناظرها.

ولكن القصد من قول المسيح هنا أننا نرى السماء مفتوحة، هو افتتاح مغاليق رحمة الله على الإنسان واستعلان رضى الأب السماوي بسبب تجسد الابن. فالسماء انفتحت بواسطة التجسد لحساب الإنسان.

وقد عبر المسيح عن ذلك بأجلى وضوح أنه هو «الباب»، وما الباب إلا باب السماء .

أما منظر الملائكة يصعدون وينزلون على ابن الانسان، فهو أنه وان كان قد حدث هذا بصورة ضئيلة جداً سواء عند ميلاده أو عماده أو أثناء الصوم، إلا أنه لم يرها أحد: «وصارت الملائكة تخدمه» (مر١:١٣)؛ كما نجد ذكر الملائكة في القيامة وهي تخدم وتحرس القبر(لو٢٠:١٢)؛ كما نسمع عنها في القداس الإلهي، في أثنائه وبعد انتهائه: «يا ملاك هذه الصعيدة...» (القداس الإلهي)؛ كما ذكر المسيح نفسه إمكانية إحضاره جيشاً من الملائكة لو أراد: «أتظن أني لا أستطيع الأن أن أطلب إلى أبي ليقدم لى أكثر من اثني عشر جيشاً من الملائكة.» (مت٢٦:٥٣)

ولكن المقصود من منظر الملائكة هو الأمجاد والنعم التي رافقت التجسد والتي من أهمها انفتاح بصيرة كل الذين شاهدوا المسيح وشهدوا له ممجداً، والذين خدموا تجسده بانفتاح بصائرهم وأرواحهم، ووعظوا وشرحوا أمجاد تجسده، كما يقول القديس أغسطينوس. ولكن تظل الملائكة عندنا هي هي كما رآها المسيح تماماً تنزل وتطلع مستندة على كلمته، محتلة بعطايا ومشورات الآب والمسيح لخدمة العتيدين أن يرثوا الخلاص (عب٢:١٤).

أما القصد النهائي من هذا القول بخصوص انفتاح السماء والملائكة تصعد وتنزل على ابن الانسان حيث لم يُذكر السلم، فإن قول المسيح هذا هو عودة بقلوب وأذهان التلاميذ ومن يأتي بعدهم إلى رؤية يعقوب إسرائيل كرأس لشعب الله قديماً، باعتبار أنه وهو رأس الكنيسة شعب الله الجديد جاء ليحقق وعد الله فيها، وقد حققها: «ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض.» (تك٢٨:١٢-١٥)

ولم يذكر المسيح السلم الذي رأه يعقوب، وذلك عن قصد لأنه هو السلم، هذا المنصوب على الأرض ورأسه يمس السماء!!«ابن الإنسان» وبالعبرية «بار أنوش» «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن

الإنسان الذي هو في السماء» (يو٣:١٣)، الذي أوصل الأرض بالسماء، وربط السمائيين بالأرضيين، وافتتح بجسده طريقاً صاعداً إلى الآقداس العليا دشنه بدمه يوم الجلجثة، به نصعد وكأننا صرنا بأجنحة، وعليه تنحدر إلينا الملائكة وأرواح الأبرار المكملة في المجد، وعلى أكتافها نعم وبركات مختومة بدم الحمل ورضى الله.

وهكذا تحقق حلم يعقوب، وكل ما كان رؤى عند الأنبياء، صار حقائق نحياها كل يوم.

تم فى ٢٠١٧/٣/١

الأصحاح الثاني

معجزة تحويل الماء إلى خمر فى عرس قانا الجليل

وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَانَ عُرْسٌ فِي قَانَا الْجَلِيلِ وَكَانَتْ أُمُّ يَسُوعَ هُنَاكَ. وَدُعِيَ أَيْضاً يَسُوعُ وَتلاَمِيذُهُ إِلَى الْعُرْسِ. وَلَمَّا فَرَغَتِ الْخَمْرُ قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ: «لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «مَا لِي وَلَكِ يَا امْرَأَةُ! لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ». قَالَتْ أُمُّهُ لِلْخُدَّامِ: «مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ». وَكَانَتْ سِتَّةُ أَجْرَانٍ مِنْ حِجَارَةٍ مَوْضُوعَةً هُنَاكَ حَسَبَ تَطْهِيرِ الْيَهُودِ يَسَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِطْرَيْنِ أَوْ ثلاَثَةً. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «امْلَأُوا الأَجْرَانَ مَاءً». فَمَلَأُوهَا إِلَى فَوْقُ. ثُمَّ قَالَ لَهُمُ: «اسْتَقُوا الآنَ وَقَدِّمُوا إِلَى رَئِيسِ الْمُتَّكَإِ». فَقَدَّمُوا. فَلَمَّا ذَاقَ رَئِيسُ الْمُتَّكَإِ الْمَاءَ الْمُتَحَوِّلَ خَمْراً وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هِيَ - لَكِنَّ الْخُدَّامَ الَّذِينَ كَانُوا قَدِ اسْتَقَوُا الْمَاءَ عَلِمُوا - دَعَا رَئِيسُ الْمُتَّكَإِ الْعَرِيسَ. وَقَالَ لَهُ: «كُلُّ إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَضَعُ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ أَوَّلاً وَمَتَى سَكِرُوا فَحِينَئِذٍ الدُّونَ. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَبْقَيْتَ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ إِلَى الآنَ». هَذِهِ بِدَايَةُ الآيَاتِ فَعَلَهَا يَسُوعُ فِي قَانَا الْجَلِيلِ وَأَظْهَرَ مَجْدَهُ فَآمَنَ بِهِ تلاَمِيذُهُ. وَبَعْدَ هَذَا انْحَدَرَ إِلَى كَفْرِنَاحُومَ هُوَ وَأُمُّهُ وَإِخْوَتُهُ وَتلاَمِيذُهُ وَأَقَامُوا هُنَاكَ أَيَّاماً لَيْسَتْ كَثِيرَةً. وَكَانَ فِصْحُ الْيَهُودِ قَرِيباً فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَوَجَدَ فِي الْهَيْكَلِ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ بَقَراً وَغَنَماً وَحَمَاماً وَالصَّيَارِفَ جُلُوساً. فَصَنَعَ سَوْطاً مِنْ حِبَالٍ وَطَرَدَ الْجَمِيعَ مِنَ الْهَيْكَلِ اَلْغَنَمَ وَالْبَقَرَ وَكَبَّ دَرَاهِمَ الصَّيَارِفِ وَقَلَّبَ مَوَائِدَهُمْ. وَقَالَ لِبَاعَةِ الْحَمَامِ: «ارْفَعُوا هَذِهِ مِنْ هَهُنَا. لاَ تَجْعَلُوا بَيْتَ أَبِي بَيْتَ تِجَارَةٍ». فَتَذَكَّرَ تلاَمِيذُهُ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «غَيْرَةُ بَيْتِكَ أَكَلَتْنِي». فَسَأَلَهُ الْيَهُودُ: «أَيَّةَ آيَةٍ تُرِينَا حَتَّى تَفْعَلَ هَذَا؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «انْقُضُوا هَذَا الْهَيْكَلَ وَفِي ثلاَثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ». فَقَالَ الْيَهُودُ: «فِي سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً بُنِيَ هَذَا الْهَيْكَلُ أَفَأَنْتَ فِي ثلاَثَةِ أَيَّامٍ تُقِيمُهُ؟». وَأَمَّا هُوَ فَكَانَ يَقُولُ عَنْ هَيْكَلِ جَسَدِهِ. فَلَمَّا قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ تَذَكَّرَ تلاَمِيذُهُ أَنَّهُ قَالَ هَذَا فَآمَنُوا بِالْكِتَابِ وَالْكَلاَمِ الَّذِي قَالَهُ يَسُوعُ. وَلَمَّا كَانَ فِي أُورُشَلِيمَ فِي عِيدِ الْفِصْحِ آمَنَ كَثِيرُونَ بِاسْمِهِ إِذْ رَأَوُا الآيَاتِ الَّتِي صَنَعَ. لَكِنَّ يَسُوعَ لَمْ يَأْتَمِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ لأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الْجَمِيعَ.

ثانيا: مكان البشارة فى الجليل

١- معجزة تحويل الماء إلى خمر فى عرس قانا الجليل

من له العروس فهو العريس (يو٣:٢٩)

القديم: ماء التطهير الناموس.

الجديد: الخمر = الدم والحياة الجديدة

الاستعلان: العريس الحقيقي يقدم دمه المسفوك لإسعاد البشرية.

لم يكن جزافاً أن يبدأ المسيح ظهوره العلني في «حفلة عرس» ويصنع أول آياته في تحويل «الماء إلى خمر»، فهنا يبدأ الخدمة العلنية وانجيل آياته هكذا:

١- وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَانَ عُرْسٌ فِي قَانَا الْجَلِيلِ وَكَانَتْ أُمُّ يَسُوعَ هُنَاكَ.

فإذا علمنا أن بدء خدمة المسيح في إنجيل مرقس هكذا: «جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله» (مر١:١٤)، وانجيل القديس متى أيضاً مثله: «من ذلك الزمان ابتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت الله» (مت٤:١٧). كذلك إذا رجعنا إلى مفهوم ملكوت الله نجده حسب التقليد الإنجيلي الرسولي هكذا: «يشبه ملكوت السموات إنساناً ملكاً صنع عرساً لابنه... » (مت٢٢:٢-٤)؛ وأيضاً: «يشبه ملكوت السموات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن لاستقبال العريس...» (مت٢٥:١-١٣)؛ ثم لو دققنا؛ نكتشف أن المسيح نفسه يصور

كل فترة وجوده على الأرض في وأولاده وتلاميذه ومحبيه بحفلة عرس ممتدة: «فجاءوا وقالوا لماذا يصوم تلاميذ يوحنا والفريسيين وأما تلاميذك فلا يصومون، فقال لهم يسوع هل يستطع بنو العرس أن يصوموا والعريس معهم. مادام العريس معهم لا يستطيعون أن يصوموا. ولكن ستأتي أيام حين يُرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون في تلك الأيام.» (مر٢:١٨-٢٠). وهكذا نستطيع أن نأخذ صورة مؤكدة عن ما يبدو عليه المسيح في نظر نفسه. المسيح يرى نفسه عريساً، أينما سار وأينما حل، حتى وهو في حفلة عرس لآخر، عريساً يبدأ يدشن ملكوته!

القديس يوحنا استحال عليه تحقيق الرمز بحرفيته على الواقع بأن يصور المسيح كعريس في عرس قانا الجليل، فاكتفى أن يدعى السيح إلى عرس «الجليل» كعريس حقيقي ولكن غير ظاهر إلآ لأخصائه، ولم يظهر إلا عندما قيل: «ليس لديهم خمر». قد فرغ الفرح من إسرائيل...!!، «ليس لديهم خمر» وماذا يبقى من العرس إذا لم يكن لهم خمر[1]؟ إنه الرمز الحقيقي لسر الشركة مع الله أو الانفتاح على الملكوت!! والخمر هو التعبير اللاهوتي عن بهجة الخلاص في الأزمنة الماسيانية!! وفي الوعي المسيحي اللاهوتي هو كأس الخلاص بعينه: «اشربوا منها كلكم لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يسُفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا.» (مت٢:٢٧-٢٨)

ون كان قد حدث فجأة أن فرغ الخمر في عرس قانا الجليل، ولكن عند القديس يوحنا كان هذا أمراً تحتمه النبوات، لأن بهجة الخلاص قد انقطعت بالفعل من العهد القديم. ولم يكتشف أحد أن خمر العرس في عرس الناموس قد انقطع إلا أم يسوع التي أصبحت تحس بوجود الله أينما ذهبت من عدم وجوده. وفي هذا يقول النبي تعبيراً عن أواخر أيام العهد القديم: «اصحوا أيها السكارى، وابكوا وولولوا يا جميع شاربي الخمر على العصير، لأنه أنقطع عن افواهك» (يؤ١:٥)

والقديس يوحنا يقدم «الأم» باعتبارها أول من اكتشف أن «ليس لهم خمراً»، والخمر تعبير عن سر الشركة مع الله، كما قلنا، ولدلالتها لدى العريسين، ولدى العهدين، أي لدى عريس الناموس لأنه يبدو أنه كان أحد أقربائها، ولدى عريس الملكوت الحقيقي لأنه ابن لها بالحق، تقدمت بملتمسها: «ليس لهم خمر»، ومع الطلب نظرة استعطاف من «أم إسرائيل القديم بالتمثيل»[2] و «أم إسرائيل الجديد باللحم والدم»، وكأنها تقول له: اعلن عن وجودك!! فكان أن حول عريس الملكوت ماءهم الذي للتطهير إلى «خمر على طقس عشاء الرب». هكذا شربها تلاميذه وأحباؤه «الذين تبعوه في التجديد». وهكذا وبها أظهر مجده لهم، فانفتحت أعينهم لما شربوا ورأوا هالة مجده، فآمنوا. لقد عرفوه كما عرفه تلميذا عمواس وقت كسر الخبز؛ لأنه في اثنين يستعلن السر، وقت رفع الكأس ووقت كسر الخبز، أينما كان المسيح على عشاء!!، فما بالك والمسيح يضيف إليها لمحة فصحية: «إن ساعتي لم تأت بعد»، ولكن أمه استقدمتها له!!

لقد ملأت الخمر أجرانهم وفاضت، وفي هذا يقول يوئيل النبي نفسه لما نظر بالروح عودة العريس إلى عروسه: «فتملأ البيادر حنطة وتفيض حياض المعاصر خمراً وزيتاً» (يؤ٢:٢٤). أما إشعياء النبي فشعر بالفرح الذي ملأ

---

[1] يقول الربيون اليهود: [لا مسرة إلا مع الخمر]، عن العالم لين موريس: »شرح إنجيل يوحنا«، ص ١٧٩.

[2] يقول أحد الشراح الذي أخذ عنه كثيرون إن المسيح لما قال للقديس يوحنا وهوعلى الصليب: »هذه أمك«، فإنه كان يرمز الى العذراء على أنها هي «إسرائيل»، أي العهد القديم، وبنوع من التوصية والوصاية أن تتعهد الكنيسة الشعب اليهودي بتراثه كأم لها، كما كالن شعب إسرائيل أماً للمسيح. ثم قال لوالدته: »يا امرأة هذا ابنك«، لكي ينبه إسرائيل وكل الشعب اليهودي بتراثه أن الكنيسة هي بنت العهد القديم. وقد سبق الاشارة إلى ذلك في المدخل ص ٣٠١.

قلوب الداعين والمدعوين، وعبر عنه من وراء الآزمنة: «وكفرح العريس بالعروس يفرح بك إلهك» (إش٦٢:٥). أما بنو العرس القديم ففرحوا «بالشراب» البائد لأنهم شربوا منه فوجدوه جيداً؛ وأما بنو الملكوت فأدركوا سر حضور الله فيه، وبالتالي سر الخمر وسر الأية، وآمنوا بالمسيح؛ ولكن ظل سر العريس مكتوماً حتى يوم الصليب، ويوم استعلن كيف فدى العريس عروسته واشتراها بدمه الذي استودع سره في خمر الكرمة الذي يملأ كل أجران العالم.

١ - وَفِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَانَ عُرْسٌ فِي قَانَا الْجَلِيلِ وَكَانَتْ أُمُّ يَسُوعَ هُنَاكَ.

نحن في نهاية الرحلة التي بدأها الرب من بيت «عبارا»» عبر الأ ردن على الشاطىء الشرقي، وكان معه في بداية الرحلة التلميذان الجديدان أندراوس ويوحنا اللذان انضم إليهما سمعان بطرس ويعقوب، ثم في بداية المسيرة انضم فيلبس ثم نثنائيل، أربعة باسم يهودي واثنان باسم يوناني، وهذا ليى جزافاً في إنجيل يوحنا. والمسافة طويلة يقدرها العالم وستكوت باختباره الشخصي بحوالي ٦٠ ميلاً، ليبلغ الناصرة أولاً ثم قانا الجليل، وكله من على الضفة الشرقية لنهر الاردن.

اليوم الثالث:

العدد هنا يبدأ من الأية ١:٤٣ «وفي الغد أراد يسرع أن يخرج إلى الجليل فوجد فيلبس...»، ولكن كثيرين من الشراح الذين تستهويهم الأعداد وتأويلها يقولون إن اليوم الثالث هو القيامة التي بها استعلن المسيح ذاته. ولأنه هنا في هذه الأية يقص قصة استعلان، فقد صدرها بهذا الرقم للفت الإنتباه.

عرس في قانا الجليل:

العرس عند اليهود يستمر أسبوعاً عل الأقل ويبدأ في المساء. ومعروف في التقاليد اليهودية أنه إذا كانت العروس عذراء يكون زواجها يوم الأربعاء، وإلا يكون زواجها يوم الخميس. «فجمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة. وكان في المساء (في الظلام) أنه أخذ ليئة (بدل راحيل) ابنته وأتى بها إليه فدخل عليها... وفي الصباح إذا هي ليئة فقال للابان ما هذا الذي صنعت بي أليس براحيل خدمت عندك؟ فلماذا خدعتني. فقال لابان... أكمل أسبوع هذه، فنعطيك تلك أيضاً بالخدمة...» (تك٢٩:٢٢-٢٧)

كذلك في قصة زواج شمشون من المرأة الفلسطينية نقرأ: «ونزل أبواه إلى المرأة فعمل هناك شمشون وليمة لأنه هكذا كان يفعل الفتيان... فقال لهم شمشون لأحاجينكم أحجية فإذا حللتموها لى في سبعة أيام الوليمة...» (قض١٤:١١-١٢)

قانا الجليل:

«قانا» دائماً تُذكر باسم «الجليل» للتفريق بينها وبين قانا أخرى كانت في منطقة سوريا. وهى المكان المعروف الآن بـ «خربة» قانا، وهي عل بعد ٩ أميال شمال الناصرة.

«أم يسوع»:

لم يذكر اسمها القديس يوحنا قط في كل إنجيله وحتى عندما ذكر اسم يوسف (١:٤٥) لم يذكر اسمها، فهذا هو المنهج الفكري والروحي العجيب الذي اختصه هذا الإنجيلي: لا اسمه ولا اسم أسم أمه ولا أسم العذراء مريم. ولكن ليس من الهين على القديس يوحنا أن يذكر «أم يسوع» إلا إذا كان الدور الذي ستقوم به في غاية الأهمية ويحوطه السر من كل جانب.

وفي نظرنا أن العذراء القديسة مريم في هذه القصة تقف كنبية تتوسط بين عهدين وتتوسط بين عريسين، وتتطلب المستحيل من ابنها فيعطيها!

وواضح من ملابسات القصة أنها لم تكن مدعوة بقدر ما كانت داعية وصاحبة أمر في البيت. فيبدو أن هذا الزواج كان يمت إليها بصلة أكثر من أنها كبيرة، إذ ما أن وصل المسيح إلى البيت بعد الرحلة المضنية إلا ووجد منها الرسالة أنها سبقته إلى العرس، وهي في انتظاره. فاستجاب في الحال، بالرغم من أن الرحلة كانت مضنية للغاية.

٢ – وَدُعِيَ أَيْضاً يَسُوعُ وَتلاَمِيذُهُ إِلَى الْعُرْسِ.

عجيب حقاً أن يُدعى عريس، وهو في أوج عرسه، إلى حفلة عرس. إنها مضادة يمتنع أن تكون جزءاً من إنجيل. وإذا قبلها الإنجيل هكذا بمستواها الظاهري هذا، لخرج الإنجيل عن حقيقة مستواه، إذ كيف يتسع درب الصليب لحفلة عرس؟؟ ولولا أن المسيح يعلم ما سينصع هناك لامتنع، بل لأنه كان قد سبق ودبر كيف يُظهر مجده في هذا العرس على أساس الصليب وفي مستواه، لذلك قبل الدعوة، وأصر أن يأخذ تلاميذه أيضاً لأنهم الوجه الآخر من حفلة عرسه الخاصة. أليس هو القائل: «من أجلهم أقدس أنا ذاتي» (يو١٧: ١٩) بمعنى أكرس نفسي للصليب من أجلهم؟

٣– وَلَمَّا فَرَغَتِ الْخَمْرُ قَالَتْ أُمُّ يَسُوعَ لَهُ: «لَيْسَ لَهُمْ خَمْرٌ».

هذا هو المحور الذي تدور حوله القصة. وهذا هو السبب الذي اجتذب المسيح إلى العرس، وهذا هو الدور الذي كشفت فيه الأم عن دورها الشفاعي الكبير.

ماذا حدث؟ يقول القائلون وهم على صواب، إن هم أخذوا بمظاهر القصة، أن حضور المسيح وتلاميذه وأحبائه، وهم كثرة، أخل بترتيبات رئس امتكأ؛ فاستنفذ الموجود من الخمر حتى فرغت فجأة. ولكن إن أخذنا بجوهر الإنجيل وأسلوب القديس يوحنا ومقاصده البعيدة الهدف والرؤيا، فحضور المسيح أيضاً هو الذي كشف رداءة الخمر وأفرغها من مضمونها. فهل يمكن أن يكون على مائدة عشاء الرب خمر غير جيدة؟ أو كأس غير كأس الرب؟ الخمر في حضرة الرب وفي يده هي الرمز الكامل والحقيقي للشركة مع الله.

أليس من أجل ذلك دعته أمه ليصحح «ليس نقص الخمر» ، بل «نقص وجود الله وحضوره»؟

«ليس لهم خمر».

هذا التعبير مستيكي، اي سرى، بالدرجة الاولى، يعني ليس لهم فرح ولا سرور حقيقي بالله، إن الام العذراء القديسة مريم نذيرة الرب والتي تقدست بالروح القدس نفساً وجسداً وروحاً يستحيل أن تعني إلا هذا، العذراء القديسة التي عرفت أن تقول: «تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي» (لو١: ٤٦)، تعرف إن كان من خمر الناس تبتهج الروح أم من خمر الله، فحينما قالت «ليس لهم خمر» كان ذلك بمثابة ملتمس عاجل وسري أن يمارس عمله كإله.

والظروف كلها حسب الظاهر كانت مواتية، فخمرهم فعلاً نفدت، والنفوس الحاضرة قلقة وملتهبة شوقاً تريد أن ترى من يسوع عملاً، بعد كل الأخبار المذهلة والمتزاحمة التي ملأت البلاد كلها عما قاله المعمدان وعما شاهده وشهد به، وخاصة حينما أعلن أن المسيح هو العريس وأما هو فصديق العريس! كانت عين العذراء وقلبها على عمل إعجازي مثل ما عمل المسيح تماماً. وكما اشتهت العذراء، عمل المسيح، وزاده، لأن حب العريس أقوى من حب العروس. ولكن عتاب المسيح الوحيد للعذراء الأم أنها عجلت بالصليب!! ونحن لا زلنا في صفها «لم تأت ساعتي بعد»!!

٤- قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «مَا لِي وَلَكِ يَا امْرَأَةُ! لَمْ تَأْتِ سَاعَتِي بَعْدُ».

الإشارة هنا خفية ترمي إلى أن الرب لا يعمل إلا بحسب مشيئة الآب، وأن العمل الذي تطلبه «الام» يدخل في تحديد ساعة الصليب!! والمعنى الأن سهل فهو يقصد أن بدء العمل بأول آية يستعلن شخصه حتماً؛ وبهذا يكون قد حدد بالضرورة بدء العدد التنازلى للصليب، لأن عمل الرب وهو منصب كله ومحصور في عمل الفداء والخلاص، كان محسوباً عليه من أعدائه، أي ضده. فكأنما الأم بطلبها صنع الآية، وهي الاولى، نبهت وأعطت الأعداء الإشارة للبدء، فحددت دون أن تقصد ساعة الصليب. ولم يكن المسيح يشاء أبداً أن تكون أمه هي التي تقف هكذا على بداية درب الصليب!

أما قوله لأمه: «يا امرأة» فهذا اللقب لا يُفهم على مستوى لغة القديس يوحنا إلا إذا قارناه بما خاطبها به الرب عنما أتت الساعة وهوعلى نهاية درب الصليب! :«يا امرأة هوذا ابنك». وهكذا يشير الرب بلغته السرية التي يجيد القديس يوحنا فهمها وتسجيلها كيف كانت أمه القديسة العذراء مريم تمثل «المرأة» وهي تفتتح وتختم معه، كآدم الثاني، سكة الصليب» وكشريكة أحزان وكمن يجوز في نفسها ميف!! حسب نبوة سمعان الشيخ الجليل.

٥- قَالَتْ أُمُّهُ لِلْخُدَّامِ (= الذياكونيين[3]): «مَهْمَا قَالَ لَكُمْ فَافْعَلُوهُ».

هي وحدها التي فهمت كل شيء من رد ابنها، الذي احتار فيه كل شارحي الكتاب، فبالرغم من صورته الجافة حسب الظاهر إلا أنها اعتبرته يحمل علامات الرضى والتنفيذ. فأوصت الخدام بطاعة كل ما يقول، وكلمة «الخدام» هنا تأخذ معنى خدمة الطقوس والأسرار، وهي عجيبة حقاً في موضعها؛ فهي تزيد من معنى الوجود السري للمسيح كعريس ومن مستوى الخمر السرائري.

فالكلمة العادية والطبيعية للخدام حسب تحقيق العلماء هي إما (   ) ولكن القديس يوحنا يصر في هذا الموقف، أمام حضرة المسيح ووجود أمه العذراء القديسة مريم وشركة التلاميذ القديسي، أن يختار لخدمة توزيع الخمر الذي يُعتبر وكأنه من يد المسيح، لفظة «الذياكونيين» ليزيد من ترجيح فعل سرائري حادث.

٦- وَكَانَتْ سِتَّةُ أَجْرَانٍ مِنْ حِجَارَةٍ مَوْضُوعَةً هُنَاكَ حَسَبَ تَطْهِيرِ الْيَهُودِ يَسَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِطْرَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً.

الستة الأجران للتطهير لستة أيام الأسبوع، لأن السابع وهو السبت ليس فيه خروج ولا دخول ولا عمل ما فليس له تطهيرات. وكان كل جرن يخصص ليومه، أما سعتها الكبيرة فلأن التطهيرات كانت قد فاقت عن الحد، فليس اليدان فقط بل والقدمان والأوعية هي التي تتطهر، وقبل وبعد الأكل، حتى الكراسي وشلت الجلوس والأسرة: «لأن الفريسيين وكل اليهود إن لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون متمسكين بتقليد الشيوخ، ومن السوق إن لم يغتسلوا لا يأكلون، وأشياء أخرى كثيرة تسلموها للتمسك بها من غسل كؤوس (أكواب الماء والخمر) وأباريق وآنية نحاس (الحلل) وأسرة.»»(مر ٧ :٣- ٤)

وهذه الآواني الفخارية الكبيرة الحجم لا تزال تستخدم في نفس المناطق المذكورة، ويوجد منها أحجام أكبر في الأديرة إلى الآن.

مطرين أو ثلاثة:

---

[3] الذياكونيين هم الشمامسة خدام هيكل الرب .

هذا المقياس يساوي في جملة الأجران الستة حوالي ١٣٤ جالونا. علماً بأن الجالون يساوي ٤.٥٤ لتراً .

٧- قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «امْلأُوا الأَجْرَانَ مَاءً». فَمَلأُوهَا إِلَى فَوْقُ.

هنا المسيح يأخذ موقف الذي يُجري السر أو الآية سيان، وكونه يأمر الذياكونيين بملء الأجران ماء فهو يحضر بنفسه كيفية العمل ومادة السر من أخصاء الخدمة. واستجابة الخدام الفورية لملء ١٣٤ جالوناً من الماء، أي ما يزيد عن٧٠ صفيحة ماء، أخذ وقتاً وجهداً ليس بقليل، لأن الأجران كلها كانت قد فرغت من الماء بسبب عدد المدعوين الكبير. كل هذا جعل المنظر مثيراً وملفتاً جداً للأنظار، وهذا بحد ذاته تحضير ليس بقليل بالنسبة لأداء المعجزة.

والملاحظ أن الخدم ملأوا الأجران حتى حافتها العليا. هكذا يصنع المسيح دائماً: فهو«الملء الذي يملأ الكل في الكل» (أف١:٢٣). «ومن ملئه نحن جيمعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة» (يو١:١٦). وهذا الملء حتى الحافة يمثل في الحقيقة مع الكثرة الهائلة في الكمية المتحولة إلى خمر، مستوى عطية المسيح الروحية: «لأنه ليس بكيل يعطي الله الروح» (يو٣:٣٤)؛ و«القادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التي تعمل فينا» (أف٣:٢٠)، يعطي دائماً «بحسب غنى مجده» (أف٣:١٦)، وبحسب «غنى المسيح الذي لا يُستقصى...» (أف٣:٨)

هذه الصورة الفائضة لعمل النعمة في عطية المسيح هي المعيار المنصوص عنه للعهد الماسياني، أي العهد الجديد، عهد الخلاص، عهد الفيض والملء.

لذلك لزم هنا، بالدرجة الاولى، مع هذه الكثرة أن ينتزع المسيح من رئيس المتكأ الشهادة بنوع جودة الخمر الذي ينفي عنه صورته المادية المؤدية للخلاعة والسكر، فالكثرة والفيض والملء هنا إنما تعمل لحساب فرح الروح وبهجة حضور الله. الأ مر الذي طلبته العذراء وتمنته أن يكون فكان. والكثرة مع الملء والفيض في هذه الأية توازي تماماً ما حدث في آية الخمس خبزات والسمكتين، والكثرة في صيد السمك الأخير حتى كادت الشباك تتخرق.

أما التمادي في وصف الملء والسعة والأعداد فهي الصفة الملازمة لآيات إنجيل يوحنا، فهدم الهيكل الذي تم بناؤه في ٤٦ سنة يتم في ثلاثة أيام، والأعمى مولود من بطن أمه أعمى، والمشلول ٣٨ سنة في مرضه، والخمس خبزات والسمكتان أشبعت خمسة آلاف رجل ما عدا النساء والأطفال، ولعازر قام بعد أربعة أيام في القبر، فاختيار التمادي هو جزء من اختيار الأية.

٨- ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: «اسْتَقُوا الآنَ وَقَدِّمُوا إِلَى رَئِيسِ الْمُتَّكَإِ». فَقَدَّمُوا.

«الأشياء العتيقة قد مضت هوذا الكل قد صار جديداً» (٢كو٥:١٧)

«استقوا الآن»: هذه الكلمة أحدثت ضجة في عقول الشراح، وأكثرهم العلامة وستكوت، فهي تعني في الأصل اللغوي «اسحبوا». فما كان من هذا العالم والذين تشيعوا له أن ظن أنهم يسحبون من النهر أو البئر أو من مصدر أخر، لأن كلمة «اسحبوا» لا تصلح إلا للرفع بالجردل أو بآنية بحبل من البئر أو خلافه. وقد فات على هؤلاء العلماء المتمدينين أن الأجران الحجرية الكبيرة ذات فوهة واسعة وليس لها أي وسيلة لرفع الماء منها إلا بسحبها بالكوز ذي اليد المعروفة، سواء كان من النحاس وهذا هو غالب الأمر جداً، أو من الفخار، والكلمة (   ) باليونانية هي نفس الكلمة بالعربية الدارجة «ينظل» و «نظل» الماء أي أخذه من مصدر عميق بالكوز أيضاً وليس فيها أي لبس أو إبهام .

رئيس المتكأ: وأيضاً هذه الكلمة لم تُفهم عند علماء الغرب، لأنها عادة شرقية أن يخدم ويضبط الحفلة بأكملها رجل يتبرع بذلك ويكون غالباً من أهل العرس، ويكون مرموق الكرامة، وهو يصنع ذلك تكريماً منه وتنازلاً لأهل العرس. ولذلك تكون له الكرامة الاولى في الحفل، وكلمته تكون نافذة على الجميع. لأن في حفلات العرس عند الشرقيين غالباً ما يخرج الشباب عن حدودهم إما بالتهليل أو بالشرب الكثير أو بالتنمر، وهذا يحتاج إلى قدرة عالية جداً من الضبط. فبحسب الاصول الشرقية، أوعز المسيح للخدم أن يقدموا من الخمر لهذه الشخصية، أي لرئيس المتكأ، فقدموا.

وقد يحدث أن يكون رئيس المتكأ أحد رؤساء الدين الذي يجري طقوس الزواج، وقد يبقى في العرس كمدعو فوق العادة وهنا تكون له كرامة مضاعفة.

وكان يهم المسيح جداً أن يشرب رئيس المتكأ من الخمر الجديدة، وذلك أولاً: حسب طقس العشاء، فالمسيح هنا اعتبر نفسه رب الأسرة أو العريس الإلهي، وأن كل المدعوين وأهل البيت بمثابة أولاده أو مدعويه. وكان الطقس يحتم أن المسيح يذوق ويعطي لأكبر الموجودين وبعد ذلك يدور الدور حتى الأصغر، وهذا هو طقس العشاء العادي عند اليهود. أما السبب الثاني فلكي ينتزع منه المسيح الشهادة لنوع الخمر الإلهي الذي صنعه المسيح بنفسه أو على الأصح من نفسه. لأن كل أية كان يصنعها المسيح كانت تحتاج إل قوة إلهية تخرج منه. «لما سمعت بيسوع جاءت في الجمع من وراء ومست ثوبه. لأنها قالت إن مسست ولو ثيابه شُفيت. فللوقت جف ينبوع دمها وعلمت في جسمها أنها قد برئت من الداء. فللوقت التفت يسوع بين الجمع شاعراً في نفسه بالقوة التي خرجت منه وقال من لمس ثيابي...»« (مر٥:٢٧-٣٠)

كان الخمر الجديد الذي صنعه يسوع يحمل قوة إلهية، فالكرمة الحقيقية تعطي من عصيرها خمراً حقيقياً، هذه القوة ظهرت عند رئيس المتكأ تحت إحساس الجودة ليس إلا، وعند كثيرين ظهرت مُبهجة للغاية كبهجة حضور الله في القلب، وعند التلاميذ فتحت أعينهم وعاينوا حضور الله ومجد المسيح فأمنوا. وهذا شأن كل سر الله حتى اليوم.

٩- فَلَمَّا ذَاقَ رَئِيسُ الْمُتَّكَإِ الْمَاءَ الْمُتَحَوِّلَ خَمْراً وَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هِيَ - لَكِنَّ الْخُدَّامَ الَّذِينَ كَانُوا قَدِ اسْتَقَوُا الْمَاءَ عَلِمُوا - دَعَا رَئِيسُ الْمُتَّكَإِ الْعَرِيسَ.

١٠- وَقَالَ لَهُ: «كُلُّ إِنْسَانٍ إِنَّمَا يَضَعُ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ أَوَّلاً وَمَتَى سَكِرُوا فَحِينَئِذٍ الدُّونَ. أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَبْقَيْتَ الْخَمْرَ الْجَيِّدَةَ إِلَى الآنَ».

يلزم أن نستدرك القول إن أجران الماء التي للتطهير إنما موضعها يكون في الفسحة في مدخل البيت وليس داخله. والأجران لم تتحرك من مكانها أثناء صُنع الآية، فهي ثقيلة جداً بالإضافة إلى أن حجمها يمنع أن تكون داخل البيت، لذلك حينما صنع المسيح آية تحويل الماء إلى خمر، صنعها بعيداً عن أهل العرس والمدعوين الذين في الداخل، لذلك قُدمت لهم الخمر وهم لا يدرون من أين أتت، وهذا أيضاً يضاف إلى أن سر التحول لا يعرف أحد كيف أتى.

والإشارة الروحية أو السرية واضحة أن آية تحويل القديم إلى جديد، أي ماء التطهير إلى خمر عشاء، صُنعت خارج حدود الناموس. وبالرغم من واقعها المنظور والمحسوس إلا أن لا الرئيس المكلف بضبط حدود الناموس ولا العريس، عريس الناموس، كانا على دراية بها أو بصانعها الذي هو «العريس الحقيقي»، ولكن «الخدام» وهم في

الناموس الطبقة المترسبة من المجتمع التي تكتسب لقمتها بعرق جبينها، كانوا يعلمون: «فجاء الخدام إلى رؤساء الكهنة والفريسيين، فقال هؤلاء لهم لماذا لم تأتوا به؟ أجاب الخدام لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان» (يو٧: ٤٥-٤٦)، والإنجيل اهتم بوضعهم كشهود.

«ومتى سكروا فحينئذ الدون»: الكلام هنا لا يقع على الحاضرين، فلم يسكر أحد بعد، ولكن في حدود المثل الشائع يتكلم هنا رئيس المتكأ. وفي الحقيقة الكلام هنا يرمي إلى أبعاد تغوص في الواقع اليهودي الذي صار حاله كحال «متى سكروا فحينئذ الدون»، وفي هذا يقول إشعياء النبي: «ولكن هؤلاء أيضاً ضلوا بالخمر وتاهوا بالمسكر، الكاهن والنبي ترنحا بالمسكر، ابتلعتهما الخمر، تاها من المسكر، ضلّا في الرؤيا، قلقا في القضاء. فإن جميع الموائد امتلأت قيئاً وقذراً ليس مكان. لمن يعلم معرفة ولمن يفهم تعليماً...» (إش٢٨: ٧-٩). نعم فليس، من واقع الحال، أردأ من هذا خمر ولا من هذا حال.

«أما أنت فقد بقيت الخمر الجيدة إلى الآن»: «الخمر الجيدة»: كلمة «جيدة» هنا التي تُترجم أيضاً في إنجيل يوحنا «حسن» و «صالح». فإذا قرأناها إنجيلياً وبإحساس العهد الجديد وخاصة أعمال المسيح، فهي قريبة ونسيبة لكلمة «الحق». فهي نفس الكلمة المستخدمة في «أنا هو الراعي **الصالح**»، وهي أيضاً المسخدمة في قوله: «أعمالاً كثيرة **حسنة** أريتكم من عد أبي» (يو١٠: ٣٢). والسؤال هنا: هل يمكن أن نقبل صفة «جيدة» بهذا الوضع والإحساس الإنجيلي على أنها خمر جيدة للمذاق والشرب الجسدي؟ أم أنها خمر لها علاقة جيدة بالكرمة الحقيقية؟ نحن في الواقع نرى أن «الخمر الجيدة» هي المحور الذي تدور حوله الأية، فهي آية تحويل الماء الساذج لغسل الجسد إلى خمر العهد الجديد « الجيدة»، أي الروحية، لتفريقها عن الخمر العادية. ولكن بنو العرس صنفان: صنف شرب الخمر الجيدة فانحصرت جودتها عندهم في مذاقها وحسب فأعجبتهم، كما أعجب الذين أكلوا من الخمس خبزات وسعوا وراء المسيح يطلبون المزيد من الخبز البائد؛ أما بنو الملكوت وهم الصنف الذي يرافق العريس الحقيقي، فلما شربوها انفتحت أعينهم[4] وتجلى العريس في أعينهم وقلوبهم وإيمانهم فعرفوه أنه هو المسيح الحمل ابن الله كما رأه المعمدان.

عرس قانا والكنيسة: الكنيسة منذ ما قبل القرن الرابع وهي تعيد للميلاد والغطاس وعرس قانا الجليل عيداً واحداً متصلاً، وأسمته «عيد الظهور الإلهي»، باعتبار أن ما تم في الميلاد بظهور الله في الجسد أي « الكلمة صار جسداً»، بشهادة الملائكة هو الذي نظره المعمدان والتلاميذ في الاردن حيث استعلن بشهادة الروح القدس والآب من السماء أنه ابن الله، وأنه هو العريس، والمعمدان صديق العريس رأى وفرح، وهو الذي تم في عرس قانا الجليل حينما أظهر المسيح ذاته أنه ابن الله بتحويل ماء التطهير الذي للناموس إلى خمر العهد الجديد الذي يحمل سر الفداء والخلاص، وسر العريس الحقيقي، بشهادة أم المسيح والتلاميذ.

١١- هَذِهِ بِدَايَةُ الآيَاتِ فَعَلَهَا يَسُوعُ فِي قَانَا الْجَلِيلِ وَأَظْهَرَ مَجْدَهُ فَآمَنَ بِهِ تلاَمِيذُهُ.

واضح السبب أن هذه هى بداية الآيات التي صنعها يسوع، لأنها آية «استعلان» بالأساس؛ فهي أحد الأعمدة

---

[4] و«الخمر الجيدة» تشير خفياً إلى أنها خمر غير عادية أو خمر «جديدة» وهي أيضاً تشير إشارة خفية، ولكن يلمحها الملهمون، إلى خمر الروح، خمر الشركة مع الله التي سيشربها المسيح ممنا في ملكوته: «وأقول لكم إني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا إلى ذلك اليوم حينها أشربه ممكم جديداً في ملكوت أبي.» (مت٢٦: ٢٩)

الثلاثة التي تقيم عليها الكنيسة عيد الظهور الإلهي «الإبيفانيا». وهي لا يوجد لها مثيل أو مشابه في معجزات الثلاثة الأناجيل الأخرى.

وقوله هنا: «أظهر مجده فآمن به تلاميذه» هي في التحقيق الأول والعملي لقول القديس يوحنا في المقمة: «ونحن رأينا مجده»، ولهذا فلا ينبغي أن نأخذ هذه القصة بوجهها البسيط مجرد معجزة في عرس ريفي.

فالقصة في عمقها عكس صورة لـ «وليمة المسيا»» وتأخذ ضوءها الإنجيلي من عشاء عرس الخروف في الرؤيا (١٩:٧-٩). لم تنحدر القصة في مفرداتها لتعطي لوناً إفخارستياً تتعلق به الكنيسة تتعلق به لتكمل خمس خبزات وليمة المسيا في الجبل: هناك الخبز وهنا الخمر. هكذا استوقفت هذه القصة أفكار قراء الإنجيل من أبائنا الأوائل. وكأنما المسيح ظهر في القصتين كمليصادق يعضد الكنيسة بخبز وخمر إلى أن يأتي الوقت ليكشف عن سرهما فيه.

وقفة قصيرة

١٢ – وَبَعْدَ هَذَا انْحَدَرَ إِلَى كَفْرِنَاحُومَ هُوَ وَأُمُّهُ وَإِخْوَتُهُ وَتلاَمِيذُهُ وَأَقَامُوا هُنَاكَ أَيَّاماً لَيْسَتْ كَثِيرَةً.[5]

لا يذكر هنا القديس يوحنا أين كان يعيش المسيح مع أمه وإخوته قبل ذلك، كذلك لم يذكر يوسف خطيب مريم والمحسوب خطأ أنه كان أباه، كذلك لم يذكر أخواته. وهنا لزم التوضيح ليكون القارىء متتبعاً خطوات تنقتل المسيح مع أمه المذكورة هنا.

أولاً: معروف أنه بعد عودة يوسف ومريم والصبي يسوع من مصر، أن يوسف خاف أن يعود إلى اليهودية (مملكة الجنوب وعاصمتها أورشليم، فذهب إلى الجليل: «وإذ أوحي إليه في حلم، انصرف إلى نواحي الجليل وأتى وسكن في مدية يقال لها ناصرة.» (مت٢:٢٢-٢٣)

ثانياً: عاش المسيح في طاعة أبيه وأمه. وفي سن الثانية عشرة وضحت عليه الدعوة والرسالة حينما قال لأمه عندها عاتبته على تركه للرفقة وبقائه في الهيكل في أورشليم عند عودتهم من الفصح: «لماذا فعلت بنا هكذا. هوذا أبوك وأنا كنا نطلبك معذبين. فقال لهما لماذا كنتما تطلبانني، ألم تعلما أنه ينبغي أن أكون في ما لأبي، فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما. ثم نزل معهما وجاء إلى الناصرة وكان خاضعاً لهما.» (لو٢:٤٩-٥١)

ثالثاً: لما بلغ سن الثلاثين سنة، وكان قد تربى مع يوسف الذي كانت صنعته النجارة (مت٣:٥٥)، وكان المسيح أيضاً قد تعلم مهنة النجارة، واستلم العمل موضع يوسف فكان هو نجار الناصرة. وهذا واضح في قول أهل الناصرة: «أليس هذا هو النجار ابن مريم» (مر١:٩)

سمع المسيح بظهور المعمدان في اليهودية فانحدر من الجليل، وبالذات من الناصرة، إلى يوحنا: «وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل واعتمد من يوحنا في الاردن.» (مر١:٩)

رابعاً: بعد العماد وشهادة يوحنا انطلق المسيح في رحلته من بيت عبارة حيث كان المعمدان يُعمد إلى الجليل، فبلغها في ثلاثة أيام مع تلاميذه الستة كما شرحنا في الأية يو٢:١١. ولما بلغ الناصرة وجد الدعوة من أمه لحضور عرس قانا الجليل حيث سبقته إل هناك.

---

[5] توضح المخطوطة الإسكندرانية المشهورة مع مخطوطات أخرى هامة أن المسيح وحده هو الذي لم يبق في كفرناحوم إلا مدة قليلة إذ تقول »وأقام« بدل »وأقاموا«. ويعول عليها علماء كثيرون أن الأسرة انتقلت في هذا الوقت انتقالاً نهائيا إلى كفرناحوم.

وتقول الآية أنه بعد العرس، انحدر المسيح مع أمه وإخوته وتلاميذه إلى كفرناحوم، ولم يذكر يوسف. وبذلك يُحسب أنه كان قد انتقل. كذلك لم تُذكر أخوات المسيح، وهن من أولاد يوسف بالطبع من زواج سابق حسب التقليد، لأنهن كن على ما يظن قد تزوجن.

وتقول الآية أنهم بقوا في كفرناحوم أياماً ليست كثيرة، مما يتضح أنهم رجعوا إلى الناصرة بعد مدة.

خامساً: ويمدنا القديس مرقس بمعلومة واضحة أن المسيح بعد ذلك انتقل والأسرة ما عدا الأخوات انتقالاً نهائياً إلى كفرناحوم: «وترك الناصرة وأتى وسكن في كفرناحوم التي عند البحر» (مت ٤:١٣)، ويُعتقد أن السبب واضح وقد أوضحه القديس مرقس أيضاً: «وخرج من هناك وجاء إلى وطنه (الناصرة) وتبعه تلاميذه. ولما كان السبت، ابتدأ يعلم في المجمع، وكثيرون إذ سمعوا بهتوا قائلين: من أين لهذا هذه، وما هذه الحكمة التي أُعطيت له حتى تجري على يديه قوات مثل هذه (خارج الناصرة)، أليس هذا هو النجار ابن مريم وأخو يعقوب ويوسي ويهوذا وسمعان (من يوسف من زواج سابق)[6]. أوليست أخواته ههنا عندنا (من يوسف من زواج سابق)[7]. فكانوا يعثرون به. فقال لهم يسوع : ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وبين أقربائه وفي بيته. ولم يقدر أن يصنع هناك ولا قوة واحدة، غير أنه وضع يديه على مرضى قليلين فشفاهم. وتعجب من عدم إيمانهم.» (مر ٦:١-٦)

سادساً: ولو أنه غير معروف كل الأسباب التي جعلته يترك الناصرة ويعيش في كفرناحوم إلا أن أخر جزء من الأية السابقة توحي بأن أهل الناصرة لم يقبلوا الكلمة.

ولكن لم تكن كفرناحوم أفضل من الناصرة، فبالرغم من أنه خدم هناك كثيراً ولكنه كان غير راضى عن سلوك هذه المدينة جداً: «حِينَئِذٍ ابْتَدَأَ يُوَبِّخُ الْمُدُنَ الَّتِي صُنِعَتْ فِيهَا أَكْثَرُ قُوَّاتِهِ لأَنَّهَا لَمْ تَتُبْ: «وَيْلٌ لَكِ يَا كُورَزِينُ! وَيْلٌ لَكِ يَا بَيْتَ صَيْدَا! لأَنَّهُ لَوْ صُنِعَتْ فِي صُورَ وَصَيْدَاءَ الْقُوَّاتُ الْمَصْنُوعَةُ فِيكُمَا لَتَابَتَا قَدِيماً فِي الْمُسُوحِ وَالرَّمَادِ. وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ صُورَ وَصَيْدَاءَ تَكُونُ لَهُمَا حَالَةٌ أَكْثَرُ احْتِمَالاً يَوْمَ الدِّينِ مِمَّا لَكُمَا. وَأَنْتِ يَا كَفْرَنَاحُومَ الْمُرْتَفِعَةَ إِلَى السَّمَاءِ سَتُهْبَطِينَ إِلَى الْهَاوِيَةِ. لأَنَّهُ لَوْ صُنِعَتْ فِي سَدُومَ الْقُوَّاتُ الْمَصْنُوعَةُ فِيكِ لَبَقِيَتْ إِلَى الْيَوْمِ. وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ أَرْضَ سَدُومَ تَكُونُ لَهَا حَالَةٌ أَكْثَرُ احْتِمَالاً يَوْمَ الدِّينِ مِمَّا لَكِ». (مت:١١:٢٠-٢٤)

ويبدو أن ذلك كان في أواخر خدمته هناك. ومن الأمور الجديرة بالإنتباه أن العذراء مريم بعد هذه الأية لا تُذكر في إنجيل يوحنا إلا بعد الصليب.

كذلك من الأمور الجديرة أيضاً بالإنتباه، أن الثلاثة أناجيل الاولى اقتصرت تقريباً على خدمة المسيح في الجليل وجعلت كفرناحوم مركز خدمته، ولكن القديس يوحنا يعرض في إنجيله تقليداً رسولياً غاية في الأهية يسبق تقليد الثلاثة أناجيل وهو خدمة المسيح المركزة في أورشليم وما حواليها قبل خدمة الجليل وبعدها أيضاً. ولو أنه قدم آية عرس قانا الجليل في بدء خدمة المسيح ليوضح أنه ليس خافياً عليه خدمته في الجليل: «وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل لأنه لم يرد أن يتردد في اليهودية لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه» (يو ٧:١)، إلا أنه ركز معظم تعاليمه العميقة واللاهوتية الخطيرة في أورشليم وداخل الهيكل، وفي محاجاته ليس مح فلاحي الجليل وصياديه ولكن مع الفريسيين والناموسيين، المالكين لناصية المعرفة والتوراة بكل دقة، ومع رؤساء الكهنة داخل رواق سليمان في عقر دارهم. لقد واجه السامريين بالحقيقة التي يعتز بها كل الإعتزاز أن «الخلاص هو من اليهود»

---

[6] بل أبناء شقيق القديس يوسف النجار، أى أبناء عمه فى نظر اليهود لكون يوسف هو ابيه فى نظرهم – ميشيل

[7] بل بنات مريم شقيقة العذراء مريم – ميشيل

(يو٤:٢٢)، فإلى اليهود وجه أقوى تعاليمه وأقوى آياته وأقوى حججه، لأنه جاء ليسلم العالم، من فوق رؤوسهم، سر الخلاص، وقد استلمه العالم وهو وديعة الكنيسة الأن. صحيح أن تلاميذه جعلهم من الجليل، ولكن استودعهم سر الملكوت السماوي، سر الله، ملء اللاهوت. لأن عجرفة المتمسكين بالناموس حجزت عنهم الإختيار والتبني.

ولا ننس أن الجليل اسمه «جليل الأمم»، صحيح أنه كان عزيزاً عليه، ولكن كان الجليل يرزح تحت الجهل والأمية؛ والمسيح جاء وخلفيته الأسفار المقدسة بكل ثقلها في المعرفة والحكمة العالية؛ جاء وخلفيته الناموس بأحكامه الجافة والمبتورة ويحتاج إلى قلوب متفتحة لتقبل التعديل: «قيل (لكم في القديم) وأما أنا فأقول لكم»!! (مت٥:٢١ و٢٧ و٣١ و٣٨ و٤٣) جاء؛ وخلفيته الأعياد اليهودية التي تحتاج إلى تفسير واستعلان للغامض فيها: في عيد المظال لما ملأوا جرة الماء ليكسروها على المذبح تذكاراً للصخرة في البرية، نادى وقال: «إن عطشى أحد فليقبل إلي» (يو٧:٣٧)! فلولا هذا العيد ما استلمنا تعليم الماء الحي؛ وفي عيد التجديد لما أوقدوا المنارات الذهبية لتضيء الهيكل وكل أورشليم، وقف ونادى: «أنا هو نور العالم». فلولا هذا العيد ما استلمنا النور الحقيقي. هذا كله كان يحتاج إلى أورشليم والهيكل ومحاجاة العلماء وليس الجليل والناصرة وكفرناحوم؛ وفي عيد الفصح دخل وطرد الذبائح كلها، ليلتفتوا له أنه هو الذبيحة الحقيقية الوحيدة، فلم يلتفتوا. وفي الفصح الأخير ذبحوه فعلاً دون أن يدروا ليستعلن لنا وليصير هو فصحنا.

والعجيب أن الأناجيل الأخرى رأت أن الناصرة وطنه» كجليلي (مت٣:٥٤ ومر٦:١و٤). أما إنجيل يوحنا فقال عن أورشليم أنها «وطنه» (يو٤:٤٤) كيهودي بالدرجة الاولى. وهذا عندما كان عائداً من أورشليم عبر الناصرة متجهاً إل الجليل! وهكذا تركزت نظرة الأناجيل الثلاثة على أعمال المسيح بحسب البيئة التي عاشوا فيها حيث عاشروه في بيوتهم وشوارعهم. في الوقت الذي تركزت نظرة إنجيل القديس يوحنا على أعمال المسيح على مستوى يهوديته وإرساليته من الآب، واستعلانه، والنبوات التي تحف به من يمين ومن شمال، ورؤية العالم له، وانتظار الأجيال المتعطشة للاهوت!! ولكن إذا جمعنا الثلاثة أناجيل مع الإنجيل الرابع ظهر لنا أكثر «مسيح العالم كله».

مكان البشارة: ثالثاً في اليهودية: (٢:١٣ – ٣:٣٦)

أعمال المسيح الاولى في اليهودية: كان لابد أن يبدأ المسيح خدمته وأعماله في اليهودية، وخاصة أورشليم. فجميع النبوات أرسلت أضواءها في كل العمور وعلى فم جيع الأنبياء وسلطتها عل اليهودية وعلى أورشليم المدينة المقدسة. فإشعياء النبي يؤكد من أين ينثبق العهد وإلى من تُرسل كلمة الله أولاً: «لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب.» (إش٢:٣)

ويكرر بلا هوادة أن يهوذا وأورشليم هما المحطة الاولى لعمل الخلاص المُعد:

* «الامور التي راها إشعياء بن أموس من جهة يهوذا وأورشليم.» (إش٢:١)
* «هوذا السيد رب النجود ينزع من أورشليم ومن يهوذا السند والركن» (إش٣:١)
* «الرب يدخل في المحاكمة مع شيوخ شعبه ورؤسائهم.» (إش٣:١٤)

*«ويكون الذى يبقى في صهيون[8] والذي يُترك في أورشليم يُسمى قدوساً، كل من كُتب للحياة في أورشليم.»

---

[8] صهيون: اسم يطلق على الجزء الجنوبي الغربي من أورشليم حيث جبل صهيون الذي عاش فيه داود، ودُفن وقبره هناك. وهذا الجبل صار جزءاً من مدينة أورشليم بعد ذلك. وفي أيام المسيح كان به بيت يوحنا مرقس حيث العلية التي تم فيها العشاء الأخير وحل فيها

(إش ٤: ٣)

* «إذا غسل السيد قذر بنات صهيون ونقى دم أورشليم من وسطها بروح القضاء وروح الإحراق» (إش ٤: ٤)

* «والأن يا سكان أورشليم ورجال يهوذا احكموا بيني وبين كرمي.»(إش٥: ٣)

* «ويأتي الفادي إلى صهيون وإلى التائبين عن المعصية في يعقوب.» (إش٥٩: ٢٠)

وهكذا يستمر إشعياء في سفره على مدى ٦٦ أصحاحاً يوضح بالروح أين ينبغي أن يكون العمل وماذا سيكون. وكذلك من بعده جميع الأنبياء:

عاموس ١: ٢ «الرب يزمجر من صهيون ويعطي صوته من أورشليم».

يوئيل ١٦:٢ «الرب من صهيون يزمجر ومن أورشليم يعطي صوته فترتجف السماء والأرض».

إرميا ٣٠:٢٥ «الرب من العلا يزمجر ومن مسكن قدسه (الهيكل) يطلق صوته».

ولكن أيضاً لا تغيب «الجليل» عن روح النبوة فقد سلطها إشعياء أيضاً على كل المناطق التي خدم فيها الرب:

* «ولكن لا يكون ظلام للتي عليها ضيق. كما أهان الزمان الأول أرض زبولون وأرض نفتالي يُكرم الأخير طريق البحر عبر الاردن جليل الأمم الشعب السالك في الظلمة أبصر نوراً عظيماً، الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور.» (إش٩: ١-٢)

لذلك كان من الأمور المتيقنة لدى المنتظرين الفداء لإسرائيل أن يظهر المسيا في أورشليم وفي اليهودية أول ما يظهر. وهو بالفعل ظهر أولاً في اليهودية على نهر الاردن مع السابق الصابغ، واستعلن أنه ابن الله وحمل الله الذي جاء ليرفع خطية العالم، هناك في بيت عبارة عبر الاردن. هذا فوق أنه وُلد في بيت لحم اليهودية حسب النبوات أيضاً.

٢- تطهير الهيكل

ويأتى بغتة إلى هيكله (ملاخى ٣: ١)

ثالثاً: مكان البشارة في اليهودية:

هذه الحادثة هي الجزء الثاني من «إنجيل التجديد»، وسنجد فيها المقابلة مستمرة بين القديم والجديد.

القديم: هيكل أورشليم المبني بالحجارة في ست وأربعين سنة.

الجديد: «هيكل جسده» المقام من الموت «وفي ثلاثة أيام أقيمه».

القديم: ذبائح هى حيونات من بقر وغنم وحمام.

الجديد: ذبيحة جسده: «انقضوا هذا الهيكل... أما هو فكان يقول عن هيكل جسده».

القديم: التجارة بالدين _ الصيارف والدراهم.

الجديد: «لا تجعلوا بيت أبي (الكنيسة) بيت تجارة.

الاستعلان: المسيح ابن الله: «بيت أبى».

شرح ملاخي النبي هذه الحادثة في سفره بالروح رابطاً ربطاً محكماً بين مجيء المعمدان (وعماد المسيح)، ثم ظهور الرب في الهيكل بصورة تنطق بها الأناجيل نطقاً على مستوى الواقح الذي تم.

- «هأنذا أرسل ملاكي فيهيء الطريق أمامي، ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي

الروح القدس. والآن فيها كنيسة كبرى.

تسرون به. هوذا يأتي، قال رب الجنود، ومن يحتمل يوم مجيئه ومن يثبت عند ظهوره، لأنه مثل نار الممُحص ومثل أشنان القصار، فيجلس ممحصاً ومنقياً للفضة، فينقي بني لاوي (الكهنة)، ويصفيهم كالذهب والفضة، ليكونوا مقربين للرب تقدمة بالبر، فتكون تقدمة يهوذا وأورشليم مرضية للرب كما في أيام القدم وكما في السنين القديمة.» (ملاخي ٣:١-٤)

* «هوذا الرجل »الغصن اسمه» (يدعى ناصرياً) ومن مكانه ينبت ويبني هيكل الرب، فهو يبني هيكل الرب وهو يحمل الجلال ويجلس ويتسلط على كرسيه ويكون كاهناً على كرسيه...» (زك٦:١٢-١٣)

١٣- وَكَانَ فِصْحُ الْيَهُودِ قَرِيباً فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى أُورُشَلِيمَ.

١٤- وَوَجَدَ فِي الْهَيْكَلِ الَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ بَقَراً وَغَنَماً وَحَمَاماً وَالصَّيَارِفَ جُلُوساً.

فصح اليهود: ليس تبرؤاً من اليهود وليس امتهاناً لفصحهم كتب القديس يوحنا «فصح اليهود» ولكن أولاً لتميزه عن الفصح المسيحي، لأنه يكتب في وقت قد استتب فيه التعييد للفصح في الكنيسة. وقد ظل القديس يوحنا هو الوحيد من أساقفة كراسي المسكونة آنئذ الذي يعيده في زمانه المحدد، أي الرابع عشر من شهر نيسان، لأن صوت المعمدان الصارخ أن هذا هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم لم يفارق أذني القديس يوحنا، وكأن الرابع عشر من نيسان خُلق من أجل حمل الله وليس من أجل ذبيحة إسرائيل، وقد انعقد لواء تعيين زمان الفصح في العالم بعدئذ على كرسي الإسكندرية كل سنة بمنشور يوزعه على كراسي العالم.

«فصعد يسوع إلى أورشليم»: لم تكن بطبيعة الحال هذه أول زيارة له لأورشليم، فقد اعتاد دخولها والحياة فيها منذ أن كان صبياً، وكان يظن أن له أقرباء في أورشليم ومنزلاً ينزلون فيه. ولكن هنا هي الزيارة الاولى التي يدخلها كمن يفتقد مدينته وشعبه الخاص، دخلها وهو يحمل على كتفيه الرئاسة ومسئوليتها، لا بقصد القصاص والمحاكمة كما يتهيأ من النصوص، ولكن كمن يريد أن يجمع أولاده في حضه: «يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا.» (مت٢٣:٣٧)

وواضح من النص بعد ذلك أنه أخذ يجول في المدينة ويصنع آيات، إذ في الآية (٢٣) بعد ذلك يقول الكتاب: «ولما كان في أورشليم فى عيد الفصح أمن كثيرون باسمه، إذ رأوا الآيات التي صنع». فهي كانت زيارة تاريخية نبوية ظهر فيها المسيح باعتباره المسيا، رآها الأباء والأنبياء من خلف حُجب الزمان وحيوها، وبفارغ الصبر ترقبها البنون: «لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب» (إش٢:٣). أما بقية الأية فهي من صميم اختصامنا نحن الأمم: «فيقضي بين الأمم ويُنصف لشعوب كثيرين» (إش٢:٤). أما البقية الأخيرة من الآية فتخص أولادنا والأتين من بعدنا: «فيطبعون سيوفهم محاريث ورماحهم مناجل. لا ترفع أمة على أمة سيفاً، ولا يتعلمون الحرب فيما بعد»!!

ويلزمنا هنا أن نقف وقفة قصيرة لكي نوضح أن حادثة تطهير الهيكل ذكرها الإنجيليون الثلاثة في نهاية خدمة المسيح. أما هنا في إنجيل يوحنا فتذكر في بداية خدمته. وهذا الإختلاف ظاهري، بالرغم من أنه دوخ العلماء وقسمهم على بعض بين من يتشيع للتطهير في نهاية الخدمة ومن يتشيع له في بداية الخدمة، وكأنما هناك خلل في الأناجيل. ولكن لو تمعنا الأسباب، لبطل الخلاف. فالأناجيل الثلاثة اكتفت بخدمة المسيح في الجليل، ولم تذكر

للمسيح زيارة أورشليم ودخوله الهيكل إلا مرة واحدة التي ذهب إليها وصُلب فظهر لأول وهلة في الأذهان أن زيارة أورشليم مربوطة بزيارة تطهير الهيكل، مربوطة بصلب الرب، ثم ترسخ في الأذهان صورته في الهيكل كمسيا الدينونة. ولكن يأتي إنجيل القديس يوحنا ويضيف على التقليد الرسولي تقليدا رسولياً آخر يكشف عن خدمة الرب في أورشليم واليهودية قبل خدمة الجليل وبعد خدمة الجليل، ويحدد زيارات الرب لاورشليم والهيكل في زيارته المبكرة الاولى، فظهر للأذهان أن زيارته لاورشليم وتطهيره للهيكل في بداية الخدمة مربوطة باستعلان ذاته وبداية عمل رسالته للتطهير والإصلاح. فظهر بصورة مسيا التطهير، السيد الذي جاء إلى هيكله فجأة.

ولقد أراحت الكنائس التقليدية نفسها وقبلت بالزيارتين، إلا أن الكنيسة الكاثوليكية اقتنعت أخيراً أنها زيارة واحدة ولكن لم تحددها.

«ووجد في الهيكل الذين كانوا يبيعون بقراً وغنماً وحماماً والصيارف جلوساً»:

الهيكل: يلزم للقارىء أن يفرق بين الهيكل، ككل، الذي يأتي في اليوناني باسم (   ) وهو يحتوي على الأروقة، وأولها ناحية الخارج هو رواق الأمم، وله حاجز يمنح الدخول إلى الداخل ومكتوب عليه بكل اللغات تحذير بالموت للمخالف! أما الجزء الداخلي المخصص للعبادة والصلاة فيسمى ناووس (   ). ولكن للأسف يأتي الاسمان في اللغة العربية باسم «الهيكل»، وهذا يهين التعبير اللاهوتي أن جسد المسيح هو الهيكل الحقيقي المخصص للعبادة كما يجيء في الآية (٢٣) بعد ذلك. لأن الهيكل المقدس (   ) الداخلي هو الذي قيل عنه أنه هو الذي يمثل جسد الرب، وبالتال كياننا نحن في المسيح .

وهكذا يلاحظ القارىء أن المسيح في الأية (١٣) يدخل الهيكل (   ) ويطرد الباعة، وفي الأية (٢٣) يقول انقضوا هذا الهيكل (   ). ولأن الفارق بينهما كبير للذي يتحسس المعاني ويتعمقها، نقدم للقارىء أيضاً المواضع التي أتت فيها كلمة «هيكل» بمعنى «الأروقة» والمواضح التي جاءت فيها كلمة «الهكل» بمعنى «القدس المقدس» ليتذوق الفارق بينهما في مواضعه:

«الهيكل» بمعنى «الاروقه» (   )

«ثم أخذه إبليس وأوقفه على جناح الهيكل». (مت ٤ : ١)

«ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل». (مت ١٢ : ٦)

«ثم خرج يسوع ومضى من الهيكل». (مت ٢٤ : ١)

«وهي أرملة لا تفارق الهيكل»[9] (لو ٢ : ٣٧).

«وجداه (يسوع) في الهيكل وسط المعلمين»[10]. (لو ٢ : ٤٦)

«وكان يسوع يتمش في الهيكل في رواق سليمان فاحتاط به اليهود». (يو ١٠ : ٢٣»

«الهبكل» بمعنى »القدّس المقدّس» (   )

«من حلف بالهيكل فليس بشيء ...... الهيكل الذي يقدس الذهب». (مت٢٣ : ١٦-١٧)

«دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح». (مت٢٣ : ٣٥)

---

[9] واضح أنها فى رواق النساء

[10] واضح أنه رواق سليمان

«فطرح الفضة في الهيكل وانصرف وخنق نفسه». (مت٢٧:٥)[11]

«وإذا حجاب الهيكل قد انشق» . (ت ٢٧:٥١)

وبهذا نكون قد وصلنا إلى معنى الهيكل الذي دخله يسوع حيث وجد الذين يبيعون ويشترون الذبائح وذلك في رواق الأمم.

ولأول وهلة يتبادر إلى الذهن: ماذا أزعج المسيح من هذا المنظر؟ واضح أن الرواق رواق الأمم الذين يأتون من مشارق الأرض ومغاربها: «بيتي بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب» (إش٥٦:٧)، لينظروا هيكل يهوه إله اليهود، وربما ليتعلموا شيئاً عن هذه العبادة المقدسة التي ذاع صيتها في العالم كله. ولكن هذا السوق التجاري المكتظ بالحيوانات وروثها وروائحها لم يجعل للهيكل هيبته ولا مكاناً للداخلين من الأمم؛ علماً بأن رسالة المسيح هي للأمم بالدرجة الاولى ولكن عبر اليهود. وهذه السوق التجارية الضخمة هي التي سمح بها قيافا رئيس الكهنة الرسمي، ولكن كانت تدار لحساب بيت حنان رئيس الكهنة المخلوع.[12]

«ووجد الذين يبيعون بقراً وغنماً وحماماً والصيارف جلوساً».

هذه هي الذبائح الكبرى والصغرى في الناموس، كل مجموعة على حدة، مع بائعيها المحترفين وهي مخصصة للبيع بالنسبة للغرباء الذين يأتون من خارج البلاد وليست لهم دراية بالأسواق الخارجية. فهذه السوق تضمن لهم ذبائح بلا لوم على أن يدفعوا مزيداً من الثمن. ولكن هذه كلها في عرف الناموس نجاسات لا تقبلها الشريعة ومحرم وجودها في بيت الله.

أما الصيارف فقد أتت في هذه الأية بهذا الاسم لتفيد الصيارف الذين يستبدلون المبالغ الكبيرة بالمبالغ الصغيرة، ولكن في الآية القادمة (١٥) أتت كلمة «الصيارف» بمدلول يوناني أخر (   ) وهي تفيد الصيارف الذين يستبدلون العملة الأجنبية بعملة الهيكل. لأنه كان ممنوعاً التداول بأي عملة عليها صورة قيصر أو أية إشارة تفيد الألهة الأجنبية وهي عملة جميع البلاد. بالإضافة إلى أن تغيير العملة يكون نظير فرق، كذلك فإنهم يقتطعون من المبالغ «النصف شيكل» وهي ضريبة كل يهودي من خارج البلاد نظير دخوله الهيكل.

١٥- فَصَنَعَ سَوْطاً مِنْ حِبَالٍ وَطَرَدَ الْجَمِيعَ مِنَ الْهَيْكَلِ اَلْغَنَمَ وَالْبَقَرَ وَكَبَّ دَرَاهِمَ الصَّيَارِفِ وَقَلَّبَ مَوَائِدَهُمْ.

١٦- وَقَالَ لِبَاعَةِ الْحَمَامِ: «ارْفَعُوا هَذِهِ مِنْ هَهُنَا. لاَ تَجْعَلُوا بَيْتَ أَبِي بَيْتَ تِجَارَةٍ».

«اسمعوا كلام الرب يا قضاة سدوم. أصغوا إلى شريعة إلهنا يا شعب عمورة. لماذا لى كثرة ذبائحكم يقول الرب. اتخمت من محرقات كباش وشحم مسمنات وبدم عجول وخرفان وتيوس ما أسر. حينما تأتون لتظهروا أمامي، من طلب هذا من أيديكم أن تدوسوا دوري؟ ..... البخور هو مكرهة لي، رأس الشهر والسبت ونداء المحفل، لست أطيق

---

[11] لاحظ أن يهوذا دخل إلى الكهنة في موضع خدمتهم داخل القدّس وهذه بحد ذاتها تكشف نوع العلاقة المشبوهة بينه وبين رئيس الكهنة.

[12] «حنان» هو رئيس الكهنة اليهود من سنة ٦ بعد الميلاد إلى ١٥ بعد الميلاد. وفي آخر سنة له عزله الوالى الروماني فاليروس جراتس وخلفه نسيبه المدعو قيافا (زوج ابنته). ولكن حنان ظل يمارس سلطته بجبروت طاغ، وهو الذي حاكم المسيح أولاً وحاكم الرسل بعد ذلك (أع ٤:٦).

الإثم والاعتكاف، رؤوس شهوركم وأعيادكم بغضتها نفسي، صارت علي ثقلاً، مللت حملها، فحين تبسطون أيديكم أستر عيني عنكم، وإن كثرتم الصلاة لا أسمع، أيديكم ملآنة دماً، اغتسلوا، تنقوا، اعزلوا شر أفعالكم من أمام عيني، كفوا عن فعل الشر، تعلموا فعل الخير، اطلبوا الحق، انصفوا المظلوم، اقضوا لليتيم، حاموا عن الأرملة.» (إش ١:١٠-١٧)

يُعتبر عمل المسيح هنا أول حركة تطهير يقوم بها. وصدق هنا قول بطرس الرسول الذي نقله عن الأنبياء: «لأنه الوقت لابتداء القضاء من بيت الله.» (١بط٤:١٧)

وهنا لفتة طقسية وروحية عالية القدر لا نريد أن نفوتها، لأن هذا الوقت الذي فيه دخل المسيح الهيكل للتطهير هو عشية الفصح، بداية رفع الخمير من البيوت، رمز بداية حياة طاهرة جديدة لسنة جديدة، وللتعييد سبعة أيام عيد الفطير. فالمسيح أراد، إنما من روح المناسبة وضرورتها، أن يعيد للأمة طهارتها ونقاوتها، أو بالحري أراد أن يدق ساعة التجديد عالياً لبداية أزمنة تجديد العالم كله.

لم يكن سوطاً بالمعنى الصحيح، وإنما مجموعة من حبال ملفوفة أخذها من أيدي تجار البهائم. لها شكل وليس لها فعل، فهي رمز السلطان وليس لتأديب الأشرار. ويلاحظ أنه كان للمسيح هيئة مخيفة ومرعبة، أليس هو المسيا كما جاء عند صلبه: «فقال لهم إني أنا هو» فرجعوا إلى الوراء وسقطوا على الأرض» (يو١٨:٦)؟! مع أنهم كانوا جنوداً رومانيين قلبهم كقلب أسد، مع خدام رؤساء الكهنة.

ولك، أيها القارىء، أن تتصور مدى الرعب والإنزعاج اللذين حلا بكل أصحاب هذا السوق ومدى إذعانهم لصورة العنف الزائد هنا، وهذا يتضمن أيضاً إحساس الجميع بالخطأ المريع والخطية التي كانوا يقترفونها في حق بيت الله. وكان المنظر والعمل ليس مجرد تطهير وحسب بل إعلان ظهور المسيا لذوي العيون المفتوحة!

والذي يلفت نظر قارىء إنجيل يوحنا هو أنه طرد الغنم والبقر جيعاً، فالمعنى الصارخ أنه قد انقض عهد الذبائح، والهيكل بدون الذبائح لا وجود له بحسب الطقس لأنه فرائض إجبارية على الكهنة وعلى الشعب أيضاً، إذ منصوص في الناموس أن لا تتراءى أمام الله ويدك فارغة! «لا يظهروا أمامي فارغين» (خر٢٣:١٥)؛ «ثلاث مرات في السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب إلهك في المكان الذي يختاره في عيد الفطير وعيد الأسابيع وعيد المظال ولا يحضروا أمام الرب فارغين» (تث١٦:١٦). وبهذا يكون المسيح قد أفرغ الهيكل من مضمونه كهيكل ذبائح وعطايا: «يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل (جبل جرزيم) ولا في أورشليم يسجدون للأب.» (يو٤:٢١).

وواضح من كلام الرب بعد ذلك أنه استعاض عن كل الذبائح وما إليها «بالصلاة»: «بيتي بيت الصلاة يُدعى».

والذي يلفت النظر الترتيب العكسي للذبائح الذي أورده القديس يوحنا هنا، حيث ذكر الغنم قبل البقر «الغنم والبقر ثم الحمام»، وكلمة «جميعاً». هذا الترتيب يسترجع إلى الذهن في الحال المزمور ٨:٧ «الغنم والبقر جميعاً وطيور السماء». هذا المزمور ماسياني بالدرجة الاولى، فهو مختص بـ «ابن الإنسان» الذي أنقصه قليلاً عن الملائكة (طبعاً بسبب الموت) «وبمجد وبهاء كللته» بسبب القيامة. وهو نفس المزمور الذي تكلم عنه إنجيل متى على لسان المسيح قائلاً: «أما قرأتم قط من أفواه الأطفال والرضع هيأت تسبيحاً» (مت٢١:١٦، م ٨:٢)، الأمر الذي حدث في نفس الهيكل: «والأولاد يصرخون في الهيكل ويقولون أوصنا لابن داود.» (مت٢١:١٥)

كما ينبغي أن نلفت النظر إلى أن هذه السوق التجارية المليئة بالأوزار كان مقرها في رواق الأمم حيث يمكن الدخول لبائعي الحيوانات والمتعهدين بأكلها وشربها، وهم غالباً من طبقة الفلسطينيين الوطنيين أي الكنعانيين أصلاً

الذين أعطى لهم أن يمارسوا الأعمال التي تُحسب أنها نجسة عند اليهود. وهنا تظر نبوة زكريا النبي واضحة: «وفي ذلك اليوم لا يكون بعد كنعاني في بيت رب الجنود.» (زك١٤:١٢)

ومعروف أن الكعانيين كانوا تجار غش: «الكنعاني في يده موازين الغش.» (هو١٢:٧)

وهكذا تكون قد كملت الصورة التي رأها إرميا النبي من وراء الدهور ووصفها وصف رؤية العين: « هل صار هذا البيت الذي دُعي باسمي عليه مغارة لصوص في أعينكم؟ هأنذا أيضاً قد رأيت يقول الرب.» (إر٧:١١) وهي النبوة التي أخذت بها الأناجيل: مت ٢١:١٣ ، مر ١١:١٧ ، لو١٩:٤٦، ونقلت النبوة على لسان المسيح. أما في إنجيل يوحنا فقد اقتصر كلام الرب على قوله: «لا تجعلوا بيت أبي بيت تجارة».

بيت تجارة: يقابلها في اللاتيني negotiations وتعني مكان حركة مقايضات وهكذا صار الهيكل ليس هيكل الله بل احتله أصحاب المهن والمصالح الخاصة وفقد هدوء الصلاة.

وقد قالها المسيح في بكور حياته: «ينبغي أن أكون فيما لأبي» (لو٢:٤٩)، حينما مكث في الهيكل مع المعلمين.

أما الإشارة إلى أن «بيت أبي بيت الصلاة يدعى»، فهي مأخوذة من إشعياء النبي كواقع الحال على أحسن حال: «أتي بهم إلى جبل قدسي وأفرحهم في بيت صلاتي وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة عل مذبحي لأن بيتي بيت الصلاة يدعى لكل الشعوب.» (إش٥٦:٧) وهي طرف النبوة التي جاءت على لسان المسيح في لو١٨:٤٦.

ولكن لغة المسيح انقلبت عل هؤلاء المخالفين المتشبثين بخُلفهم، فبدل «بيتي» و«بيت أبي» و«بيت الصلاة» قال لهم أخيراً وعلى هذا الهيكل والبيت عينه: «هوذا بيتكم يترك لكم خراباً»!! (مت٢٣:٣٨)

هنا يكون المسيح قد أجرى عملاً نبوياً وماسيانياً بالدرجة الاولى تشهد له كل هذه النبوات التي قيلت، والقصد الأساسي أن يعلن المسيح نفسه لهم أنه هو «السيد الذي تطلبونه» وأنه هو هو «ملاك العهد الجديد الذي يُسرون به». وهنا تجيء كلمة «ملاك» في النبوة بالنسبة للعهد الجديد في توازى مع العهد الأول الذي استلموه بيد ملاك حسب تقليدهم: «أنتم الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه» (أع٧:٥٣)، وأيضاً «لأنه إن كانت الكلمة (التوراة) التي تكلم بها ملائكة قد صارت ثابتة وكل تعد ومعصية نال مجازاة عادلة فكيف ننجو نحن إن أهملنا خلاصاً هذا مقداره قد ابتدأ الرب بالتكلم به.» (عب٢:٢-٣)

ولكن كان نصيب عمله في الهيكل مثل كل آية عملها وكل تعليم، حيث كان يقابله البعض من الخاصة بالفرح والإيمان، ويبنون عليه ما قيل من الأنبياء فيتثبت أكثر، والبعض الآخر يقابله بالصد والمصادرة وطلب المزيد من البرهان. وسوف نرى أنه بسبب هذا العمل الذي عمله المسيح في الهيكل بدأت عمليات التربص بالمسيح لقتله، لأن رؤساء الكهنة رأوا في ذلك خطرا داهما على مجال رزقهم.

١٧- فَتَذَكَّرَ تلاَمِيذُهُ أَنَّهُ مَكْتُوبٌ: «غَيْرَةُ بَيْتِكَ أَكَلَتْنِي».

هذا هو الايمان، إيمان التلاميذ المقابل لعدم إيمان اليهود. طبعاً تذكر التلاميذ هنا يعود إلى ما بعد القيامة، والذي يؤكد هذا المعنى الأية التي ستجيء بعدها (٢٢). وماذا تذكر التلاميذ؟ تذكروا كلام الأنبياء لما تحققوا أن المسيح هو حقاً الذي تكلم عنه الأنبياء. والاشارة هنا إلى المزمور ٦٩:٩، وهو مزمور مليء بالتنبوات عن آلام المسيح خطوة خطوة، وهو الذي تستخدمه الكنيسة في أسبوع الألام. ومن قراءة المزمور الذي لمع في ذهن التلاميذ بالروح نعلم أنهم رأوا في المسيح ليس من هو صاحب البيت فقط والذي من أجله يحتمل الهوان بل ومن أجل أمانته للبيت، أي للذين يعبدون بالحق، «من أجلك احتملت العار... تعييرات معيريك وقعت على» (مز٦٩:٧، ٩)، فإنه يعرض

نفسه للألام. ولا يخلو هذا المزمور من غمز ولمز إلى عدم نفع الذبائح، فيأتي حبكاً على ما صنعه الرب في هذا اليوم: «أسبح اسم الله بتسبيح وأعظمه بحمد، فيستطاب عند الرب أكثر من ثور بقر ذي قرون وأظلاف.» (مز٦٩:٣٠-٣١)، وهذا المزمور مليء حقاً بالإشارات النبوية التي تمت بحروفها، فمنه أخذ المسيح قوله: «لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم أنهم أبغضوني بلا سبب» (يو١٥:٢٥). وجاءت في نفس المزمور: «أكثر من شعر رأسي الذين أبغضوني بلا سبب.» (مز٦٩:٤)

كذلك قوله: «أنا عطشان»، «وكان إناء موضوعاً مملوءاً خلاً» (يو١٩:٢٨-٢٩). وجاءت في المزمور: «وفي عطشي يسقونني خلاً» (مز٦٩:٢١)، «يبس حلقي» (مز٦٩:٣). ولكن كما أن داود صاحب المزمور الذي يئن أنينه النبوي، أنهى المزمور بتسبيح اسم الله وتمجيده «يرى ذلك الودعاء فيفرحون وتحيا قلوبكم يا طالبي الله... تُسبحه السموات والأرض والبحار وكل ما يدب فيها... » (مز٦٩:٣٢ ، ٣٤)، كذلك انتهت آلام المسيح التي احتملها، بسبب غيرته هذه، بتسبيح القيامة.

١٨- فَسَأَلَهُ الْيَهُودُ: «أَيَّةَ آيَةٍ تُرِينَا حَتَّى تَفْعَلَ هذَا؟».

هي أولاً محاولة لإظهار أنفسهم أنهم هم أصحاب السلطة ولكن بنوع من الحياء! وثانياً هي نوع من الدفاع عن عدم إيمانهم، لذلك لم يحتج اليهود ولا أصحاب السوق ولا المنتفعون لأن العمل يشهد أنه عمل الله. والخطأ الذي ارتكبوه لا يحتمل الدفاع أو المماحكة. وخزي حنان في ذلك اليوم كان فوق ما يتصور أحد وكل ما يمكن أن يقوله اللص، العظيم في عين نفسه، للعسكري الذي قبض عليه وهو متلبس بالجريمة هو أن يطلب من العسكري أن يثبت شخصيته أن له الحق في القبض عليه. ولكن المسيح ليس في موقع الدفاع ولا استجاب لهم بما كانوا يطلبون. بل أنبأهم، ولكن بأسلوب الأحجية، بالعقاب الحتمي الذي سيقع عليهم نظير عدم قبولهم لدعوته للتطهير، بالإضافة إلى التنكر له وهو صاحب البيت. وبلغة الأنبياء في العهد القديم يقول قائل... فماذا يصنع بهم؟ يأخذ بيته منهم ويهدمه حتى التراب ويقيم لنفسه ما هو أفضل منه ثم يبددهم في أقصى الأرض. ولا يكون هو الذى هدمه عليهم، بل هم الذين هدموه على أنفسهم.

١٩- أَجَابَ يَسُوعُ: «انْقُضُوا هذَا الْهَيْكَلَ وَفِي ثلاَثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ».

«هوذا الرجل الغصن أسمه (يُدعى ناصرياً) ومن مكانه ينبت ويبنى هيكل الرب وهو يحمل الجلال (زك٦:١٢-١٣)

«انقضوا هذا الهيكل»: كلمة «ينقض» تجيء في اليونانية (   ) بمعنى «يفك» أو «يحل» وتصلح للهدم أو القتل. المسيح يتكلم عن هيكل جسده، وقد ثبت أن هيكل جسده هو الكنيسة وهي نحن أعضاؤه، والكنيسة، الشعب الجديد، هي التي أخذت موضع الهيكل، الشعب اليهودي الرافض للمسيح، وورثت كل معانيه الروحية وأهمها وأعظمها وأخطرها وجود الله وحلوله فيها.

المسيح هنا يقول لهم مسبقاً ما هم مزمعون أن يعملوه بالفعل، فهو تحصيل حاصل، اقتلوا أو إذا قتلتم جسدي سيان، ففي ثلاثة أيام سأقيمه من الموت ليصير هو هيكل الله الذي يجمع أبناء الله من العالم كله، هذه هي معجزتي. المسيح لم يتكلم قط عن هيكلهم بل عن هيكله، الذي سيحل محل هيكلهم الذي سيزول (سينقض) عندما يقتلونه (ينقضونه).

ولسان حال المسيح يقول: لحظة أن تقتلوني ستقتلون أنفسكم وتهدمون هيكلكم، أما أنا فسأقوم وأقيم بجسدي هيكلي جديداً، وأما أنتم وهيكلكم فستزالون.

المسيح هنا يعطيهم آية بالفعل وهي «في ثلاثة أيام أقيمه» التي وضحها بصيغة أخرى في إنجيل آخر هكذا: «جيل شرير فاسق يلتمس آية فلا يعطى له آية إلا آية يونان النبي.» (مت١٦:٤)، فكما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا سيكون المسيح في باطن الأرض ويقوم بعدها. فما ستهدمونه صأصنع فيه آيتي وأقيمه في ثلاثة أيام، ولكنكم بذلك ستهدمون أنفسكم وهيكلكم ولن تقوموا.

ولم تمر على رؤساء الكهنة والفريسيين هذه الكلمات دون أن يعوا حقيقتها، فهم في النهاية تذكروا كلامه ووضعوا النقط على الحروف، فأدركوا فعلاً أنه قد يقوم في اليوم الثالث: «وفي الغد الذي بعد الاستعداد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس قائلين يا سيد قد تذكرنا أن ذلك المضل قال وهو حي إني بعد ثلا ثة أيام أقوم. فأمر بضبط القبر... »» (مت٢٧:٦٢-٦٤)

أمر مستحيل أن يقول المسيح إنه يهدم هيكل أورشليم ليبني غيره في ثلاثة أيام كما قدم اليهود اتهامهم في محاكمة يسوع أمام بيلاطس كعلة من علل طلب صلبه. فهو القائل للسامرية: «أنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب.» (يو٤:٢٠-٢١)

فالمسيح ها لا يتحدى اليهود المفتخرين بهيكلهم بل ينذرهم بالخراب الذي سيحيق بهيكلهم بسبب أنهم: أولاً لم يقبلوا عمله كمن يطالب بتطهير الهيكل «بيت أبي» فيتعرفوا عليه، وثانياً بالنتيجة الحتمية في استمرارهم لرفضه وإنكارهم وعدم إيمانهم به الذي سينتهي بخراب هيكلهم: «كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا، هوذا بيتكم يترك لكم خراباً.» (مت٢٣:٣٧-٣٨ وانظر مت٢٤:٢).

ويلزمنا توضيح الأمر لاهوتياً، فالهيكل القديم كانت قوته وقداسته وأهميته في حضور الله فيه. والآن وقد تجسد الكلمة وظهر الله في الجسد وحل فيه ملء اللاهوت صار جسد المسيح هو الهيكل بالدرجة الأولى أي الهيكل الحقيقي، ولم يعد للهيكل القديم وجود إلا بصفته الظل الوشيك الإختفاء.

فبتجسد الكلمة، أي بميلاد المسيح، بدأ العد التنازلي لانتهاء عصر الهياكل المبنية باليد، أي هياكل الظل، لأن الهيكل القديم كما أراه الله لموسى كان شبه السمويات وظلها، والآن قد جاء رب السموات ونورها. وبدخول المسيح داخل الهيكل، لتطهيره، كانت الفرصة الوحيدة لليهود، لو كانوا قد قبلوه لأعطى للهيكل القديم معناه الجديد وتقديسه الحقيقي الكامل، أن الله حل في هيكله، فلا بأس أن يبقى، طالما الله فيه ولكن لما رفضوه أصبح تطهيره فاقد القيمة، وخروج المسيح منه إيذاناً بعدم نفعه، والحكم بقتل المسيح كان بمثابة الحكم بهدم الهيكل، لأن الهيكل القديم بميلاد المسيح أصبح يستمد معناه ووجوده من الهيكل الجديد أي جسد المسيح لأن الله حال فيه. لهذا قال المسيح في موضع أخر عن نفسه. «ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل.» (مت١٢:٦)

وإذا حللنا نفسية رؤساء اليهود هنا على العموم في طلبهم أية من المسيح حتى يؤمنوا برسالته وسلطانه أنه من الله، لوجدنا أن هذه هي في الحقيقة حال كل نفس لا تريد أن تجازف بمركزها وسلطانها وراحتها؛ فهي تطلب أية ومزيداً من الأية لتتخطى خوفها وعجزها وقصورها عن المجازفة؛ ولكن الإيمان مجازفة بالدرجة الاولى. لذلك فالإيمان صعب جداً على الرؤساء والعظماء وذوي العيش الرغد الهانىء.

أما لنا نحن فهذا أيضاً حادث، فالمسيح لا يعطي آية ولا علامة ولا كلمة واحدة لكي تبدأ عملاً إيمانياً، لأن هذا سيحرمك من مجازفة الإيمان التي هي عضده وقوت. أو كيف ولماذا يعطي الله الاكاليل لأصحاب الإيمان.

٢٠- فَقَالَ الْيَهُودُ: «فِي سِتٍّ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً بُنِيَ هَذَا الْهَيْكَلُ أَفَأَنْتَ فِي ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ تُقِيمُهُ؟».

لقد بُدىء في بناء الهيكل في خريف سنة ٢٠ ق. م. على يد هيرودس الكبير، في السنة الثامنة عشرة من ولايته واكتمل بناؤه سنة ٦٤ ميلادية على يد هيرودس أغريباس الثاني بحسب يوسيفوس المؤرخ اليهودي. أما رقم الستة والأربعون سنة فهي في زمان زيارة المسيح للهيكل. وذلك في ربيع سنة ٢٧ م احتمالاً! واليهود هنا وهم محصورون في أفكارهم التي تدور بين الحرف والرقم لم يستطيعوا أن يدركوا مضمون الآية التي قدمها لهم أن في ثلاثة أيام يقيمه، وليس يبنيه. والعجيب أنهم يكررون نفس لفظة «يقيمه» التي قالها المسيح دون أن يتمنعوا مقصدها. لأن المسيح لم يقصد أن الهيكل من حيث العبادة وسكنى الله يمكن أن يُنقض، وإنما سينفك وينحل ليخرج منه هيكل العبادة الجديدة: الكنيسة، بنوع من التجلي والقيامة. حيث الحرف يصير روحاً والحجارة المنحوتة بالأزميل تصير حجارة حية منحوتة بالروح القدس. وغسل التطهير يصير غسل الميلاد والخلقة الجديدة. ودم الذبائح يصير دم المسيح بروح أزلي.

٢١- وَأَمَّا هُوَ فَكَانَ يَقُولُ عَنْ هَيْكَلِ جَسَدِهِ.

لم تكن هذه الشهادة وليدة ساعتها ولكن القديس يوحنا في الأية القادمة (٢٢) يوضح أن هذه هي حصيلة القيامة والإستضاءة الروحية التي نالوها بالروح القدس التي انعكست قليلاً قليلاً على جيع حياته وأقواله السابقة له، فتحتقوها على الواقع وعلى النبوات، لأن في هذه الآية وحدها يكمن كل تعاليم المسيح، فهي قلب اللاهوت المسيحي النابض. فجسد المسيح في اللاهوت المسيحي يمتد ليشمل شخصه ككل كما جاء في الأصحاح الأول، والكلمة صار جسداً.

+ والجسد هو ملء الروح القدس وملء اللاهوت وكل كنوز الحكمة والمعرفة.

+ الآب الحال فيّ يعمل الأعمال والأقوال والمشيئة.

+ والجسد هو فصح العالم والذبيحة التي رفعت خطية العالم، فهو حمل الله.

+ وهو خبز الحياة النازل من السماء ليأكل منه الإنسان ولا يموت، ويقوم في اليوم الأخير، فهو المأكل الحق والمشرب الحق.

+ وهو المؤمنون مجتمعين، وهو رأس الكنيسة، والكرمة الحقيقية، والمؤمنون كأغصان مثمرة.

+ وهو أورشليم الجديدة المزينة، وهيكل الله الجديد!!

والبديع في قول القديس يوحنا هنا أنه ينقل لنا صورة حية لذكرياته وما سجلته أذناه وقلبه الذي كان يختزن الكلام والمعرفة التي كانت تنمو على مستوى نفس الدرجات التي سجلها لنا في إنجيله آية وراء آية وأصحاحاً وراء أصحاح، إلى أن أشرق عليها روح القيامة فأخذت الأيات والأصحاحات وضوحها الإلهي وعمقها الروحي ونورها النفاذ وبرهانها الساطع وقوتها للبشارة.

ولكن بقيت بعض أقوال السيح مدة طويلة وهي لا تزال تحت التحقيق أثناء حياة التلاميذ أنفسهم مثل سقوط أورشليم بالحرب التي دارت حولها حسب قول الرب وخراب الهيكل، فهذه تمت سنة ٧٠ م. أي بعد قيامته بحوالي أربعين سنة. بل ولا تزال حتى يومنا هذا بعض أقوال المسيح تمر تحت التنفيذ وتنتظر استعلانها.

٢٢- فَلَمَّا قَامَ مِنَ الأَمْوَاتِ تَذَكَّرَ تَلاَمِيذُهُ أَنَّهُ قَالَ هذَا فَآمَنُوا بِالْكِتَابِ وَالْكَلاَمِ الَّذِي قَالَهُ يَسُوعُ.

سيان أن يُقال «قام من الأموات» حيث يكون هو الذي قام، أو أُقيم من الأموات بواسطة الله.

١- المواضع التي ذُكر فيها أنه قام من الأموات تعبيراً عن استعلان قوته للقيامة والإقامة من الموت هي:

مرقس ٨:٣١ « إن ابن الإنسان ينبغي أن يتألم كثيراً ويُرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويُقتل وبعد ثلاثة أيام يقوم»، مر ٩:٩، لو ٢٤:٧.

٢- أما المواضع التى ذُكر فيها أن الله أقامه من الأموات تعبيراً عن الموت وكأنه رقاد والله أيقظه:

أع ٣:١٥ «ورئيس الحياة قتلتموه، الذى أقامه الله من الأموات»؛ (٤:١٠، ٥:٣٠، ١٠:٤٠، ١٠:٣٠و٣٧، رو٤:٢٤، ٨:١١، ١٠:٩، ١كو١٥:١٥ ..... إلخ)

«تذكر تلاميذه... فآمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله»: هذا يوضح مدى قوة الاستعلان الذي حدث للتلاميذ بعد القيامة حيث تكشفت أمامهم جميع أقوال الرب حتى الكلمات ومعانيها بصورة جزئية مضيئة قبل أن يدونوها، ولكن الاستعلان امتد وشمل ما جاء في الأسفار جميعاً والنبوات خاصة بالنسبة لكل كلمة وكل موقف، مما جعلهم يزدادون في الإيمان بالاثنين، أي بالأسفار وبالكلمات التي قالها المسيح. لأنك لا تتصور يا قارئي العزيز مدى الانبهار الذهني والروحي الذي يتغلغل أعماق الإنسان عندما يطابق قولاً من أقوال المسيح أو عملاً من أعماله على نبوة سبق وأن صاغت نفس الكلام أو العمل بنفس وصفه وظروفه، لأن النبوة إلهام ونطق بالروح، وكلام المسيح روح وحياة، فعندما ينطبق الإلهام على الروح تنشأ قوة مؤثرة للتصديق بوعي إيماني لا يفارق الإنسان. فتبدو النبوة باهرة منيرة ويبدو كلام المسيح نوراً ورسالة وحقاً.

نحن لا ننسى قول الكتاب عن المسيح بعد القيامة كيف اجتمع مع تلاميذه وفتح ذهنهم ليفهموا الكتب: «هذا هو الكلام الذي كلمتكم به وأنا بعد معكم، أنه لا بد أن يتم جميع ما هو مكتوب عنى في ناموس موسى والأنبياء والمزامير. حينئذ فتح ذهنهم ليفهموا الكتب.» (لو ٢٤:٤٤-٤٥)

هذه هي قوة الاستعلان أساس تدوين الأناجيل، وهذه هي القوة التي انطلق بها التلاميذ إلى كل أنحاء العالم ليكرزوا ببشارة الملكوت مدعمين أقوالهم بالأسفار وبمنطق لا يُعاند. ولم تعدم الكنيسة في كل جيل من يهبهم الله هذه القوة التي ظهرت على أشدها في عصر النهضات والإرساليات التي بلغت أقصى المسكونة. وكم نحن الآن في أشد العوز لهذه القوة.

وقفة قصيرة في نهاية تطهير الهيكل

ليس جزافاً أن يقدم لنا القديس يوحنا حادثة تطهير الهيكل في بداية خدمة المسيح العلنية وفي أورشليم وفي الهيكل بالذات. فهي الأساس الذي جاء المسيح ليبني عليه العهد الجديد، عهد الخلاص والتجديد للانسان القائم على سر الموت والحياة: «انقضوا هذا الهيكل، وفي ثلاثة أيام أقيمه». هذا الموت وهذه القيامة تممها المسيح، ولكن باشتراك اليهود الفعلي في عملية الموت أي القتل «انقضوا». هذه الجريمة التي اقترفوها لم تكن وليدة الساعة أبداء بل هي حصيلة ونتيجة حتمية لحياة طويلة ممتدة لهؤلاء الرؤساء وهذا الشعب في عصيان الله والتعدي على كل وصاياه وتعاليمه. ولو جمعنا الآيات التي تصف هذا العصيان والتمرد على الله لخرج كتاب بحجم الأسفار والنبوات إلا قليلاً! وليست هي مجرد جهالة عابرة بل ممتدة، إذ ترك المعلمون والربيون وكل طبقات ذوي المعرفة والدراسة والكتابة للتوراة، تركوا التمسك بكلمات الله المنيرة وأهملوا الأعمال التي هي من صميم عمل الروح الي رمز لها «بختان القلب»؛ كما قالها موسى النبي وهو تعبير عن ختم الروح القدس «روحك القدوس لا تنزعه مني»، «وقلباً جديداً اخلقه فيّ»، «وغسيل الروح»، «أغسلني كثيراً»، «ومن خطيتي تطهوني»، «نق قلبي وكليتي»؛ وغيرها مئات وألوف من أعمال الروح القادرة فعلاً أن تجدد الشعب وتجعل معلميه على أعلى درجة من الإستنارة فلا يتعثرون في معرفة

ما؛ أقول تركوا منهج الروح والحق والتجديد والإلتصاق بالله، وتمسكوا بالذبائح يبيعونها للشعب بالحرام ويقدمونها لله كعملية استرضاء تماماً على مستوى الأصنام.

فالمسيح هنا وفي هيكل قدسه يعرض عليهم في هذا اليوم إما تطهيراً واما هدماً. والعجيب أنه في الاثنين، أي في التطهير وفي الهدم، يلقى جسده الثمن، ففي التطهير يحمل في جسده كل خطاياهم، وفي الهدم، يسلمه للموت. ولكهم رفضوا التطهير وقبلوا بالقتل!

٢٣- وَلَمَّا كَانَ فِي أُورُشَلِيمَ فِي عِيدِ الْفِصْحِ آمَنَ كَثِيرُونَ بِاسْمِهِ إِذْ رَأَوُا الآيَاتِ الَّتِي صَنَعَ.

كان هذا هو أول عيد للفصح يحضره المسيح في أورشليم. والعمل الكبير الذي عمله عشية العيد بتطهير الهيكل لفت إليه الأنظار، وصار اسم المسيا على كل لسان. ووقوف رؤساء الكهنة حيارى إزاء العمل الذي عمله في الهيكل دون قبول أو رفض جعل المعيدين من كافة الطبقات تتهافت على رؤياه وسماعه. وكانت الفرصة مواتية لعمل معجزات كثيرة أبهرت الرائين وجعلتهم دون تعمق أو تحقق يؤمنون باسم المسيا الأتي دون أن يتعرفوا على شخص المسيح الذي هو أكثر من مسيا، لذلك كان إيمانهم بالاسم دون الشخص. كان هذا الإيمان في عرف المسيح «إيمان الآيات»، وهو تقريباً مرفوض لأنه كما سبق وقاله في مثل أخر: «والمزروع على الأماكن المحجرة (قلوب ناشفة) هو الذي يسمع الكلمة وحالاً يقبلها بفرح، ولكن ليس له أصل في ذاته بل هو إلى حين، فإذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالاً يعثر.» (مت١٣: ٢٠-٢١)

ويلاحظ القارىء أن القديس يوحنا هنا مهتم بتقديم عينات من الأعمال التجديدية، وليس بصدد ذكر آيات ومعجزات إلا بقدر ما هي عمل تجديدي من القديم إلى الجديد، كما رأيناه في عرس قانا الجليل وفي الهيكل. وهو يمهد هنا للدخول في حوار خطير مع معلم كبير من معلمي إسرائيل بهذا الصدد. هو الأخر رأى الآيات في العيد وتحقق منها وكان يبدو عليه أنه مال ناحية الايمان بالمسيح ولكن معرفته حجزته عن الحق!!

٢٤- لَكِنَّ يَسُوعَ لَمْ يَأْتَمِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ لأَنَّهُ كَانَ يَعْرِفُ الْجَمِيعَ.

٢٥- وَلأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مُحْتَاجاً أَنْ يَشْهَدَ أَحَدٌ عَنِ الإِنْسَانِ لأَنَّهُ عَلِمَ مَا كَانَ فِي الإِنْسَانِ

كثيرون بالطبع تحمسوا حماساً منقطع النظير، وأرادوا أن يرفعوه إلى المستوى الذي وقف عنده تفكيرهم كنبي أو زعيم! وحتى كمسيا. ولكن المسيح كان يرى أنهم يريدون أن يعملوا شيئاً لأنفسهم هم، أو بالحري أن يعملوا لأنفسهم شيئاً على حسابه، فلم تفت على المسيح نياتهم فلم يأتمنهم على نفسه، وغاب عنهم بالطريقة التي اعتادها.

كثيرون تباروا لكي يقنعوه بصدق نياتهم، وكثيرون شهدوا لكثيرين أنهم صادقون في حماسهم ولكنه لم يكن محتاجاً أن يشهد له أحد عن الإنسان، وما كان في الإنسان، «... فاحص القلوب والكلى الله البار...» (مز٧: ٩). «فستعرف جميع الكنائس أني أنا هو الفاحص الكلى والقلوب وسأعطي كل واحد منكم بحسب أعماله.» (رؤ٢: ٢٣)

تم فى ٢٠١٧/٣/٥

الإصحاح الثالث

كَانَ إِنْسَانٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ اسْمُهُ نِيقُودِيمُوسُ رَئِيسٌ لِلْيَهُودِ. هَذَا جَاءَ إِلَى يَسُوعَ لَيْلاً وَقَالَ لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ نَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ اللَّهِ مُعَلِّماً لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ إِنْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ مَعَهُ». فَقَالَ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ». قَالَ لَهُ نِيقُودِيمُوسُ: «كَيْفَ يُمْكِنُ الإِنْسَانَ أَنْ يُولَدَ وَهُوَ شَيْخٌ؟ أَلَعَلَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنَ أُمِّهِ ثَانِيَةً وَيُولَدَ؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ. اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ. لاَ تَتَعَجَّبْ أَنِّي قُلْتُ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ. اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا لَكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هَكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ». فَسَأَلَهُ نِيقُودِيمُوسُ: «كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنْتَ مُعَلِّمُ إِسْرَائِيلَ وَلَسْتَ تَعْلَمُ هَذَا!. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّنَا إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ بِمَا نَعْلَمُ وَنَشْهَدُ بِمَا رَأَيْنَا وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَ شَهَادَتَنَا. إِنْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُمُ الأَرْضِيَّاتِ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ فَكَيْفَ تُؤْمِنُونَ إِنْ قُلْتُ لَكُمُ السَّمَاوِيَّاتِ؟ وَلَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلاَّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ابْنُ الإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ. «وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ ابْنُ الإِنْسَانِ. لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ. لأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ. لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللَّهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ. اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللَّهِ الْوَحِيدِ. وَهَذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ: إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً. لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ السَّيِّآتِ يُبْغِضُ النُّورَ وَلاَ يَأْتِي إِلَى النُّورِ لِئَلَّا تُوَبَّخَ أَعْمَالُهُ. وَأَمَّا مَنْ يَفْعَلُ الْحَقَّ فَيُقْبِلُ إِلَى النُّورِ لِكَيْ تَظْهَرَ أَعْمَالُهُ أَنَّهَا بِاللَّهِ مَعْمُولَةٌ». وَبَعْدَ هَذَا جَاءَ يَسُوعُ وَتَلاَمِيذُهُ إِلَى أَرْضِ الْيَهُودِيَّةِ وَمَكَثَ مَعَهُمْ هُنَاكَ وَكَانَ يُعَمِّدُ. وَكَانَ يُوحَنَّا أَيْضاً يُعَمِّدُ فِي عَيْنِ نُونٍ بِقُرْبِ سَالِيمَ لأَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ مِيَاهٌ كَثِيرَةٌ وَكَانُوا يَأْتُونَ وَيَعْتَمِدُونَ. لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُوحَنَّا قَدْ أُلْقِيَ بَعْدُ فِي السِّجْنِ. وَحَدَثَتْ مُبَاحَثَةٌ مِنْ تَلاَمِيذِ يُوحَنَّا مَعَ يَهُودٍ مِنْ جِهَةِ التَّطْهِيرِ. فَجَاءُوا إِلَى يُوحَنَّا وَقَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ هُوَذَا الَّذِي كَانَ مَعَكَ فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ الَّذِي أَنْتَ قَدْ شَهِدْتَ لَهُ هُوَ يُعَمِّدُ وَالْجَمِيعُ يَأْتُونَ إِلَيْهِ». فَقَالَ يُوحَنَّا: «لاَ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئاً إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ السَّمَاءِ. أَنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ تَشْهَدُونَ لِي أَنِّي قُلْتُ: لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ بَلْ إِنِّي مُرْسَلٌ أَمَامَهُ. مَنْ لَهُ الْعَرُوسُ فَهُوَ الْعَرِيسُ وَأَمَّا صَدِيقُ الْعَرِيسِ الَّذِي يَقِفُ وَيَسْمَعُهُ فَيَفْرَحُ فَرَحاً مِنْ أَجْلِ صَوْتِ الْعَرِيسِ. إِذاً فَرَحِي هَذَا قَدْ كَمَلَ. يَنْبَغِي أَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ وَأَنِّي أَنَا أَنْقُصُ. اَلَّذِي يَأْتِي مِنْ فَوْقُ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ وَالَّذِي مِنَ الأَرض هُوَ أَرْضِيٌّ وَمِنَ الأَرض يَتَكَلَّمُ. اَلَّذِي يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ. وَمَا رَآهُ وَسَمِعَهُ بِهِ يَشْهَدُ وَشَهَادَتُهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْبَلُهَا. وَمَنْ قَبِلَ شَهَادَتَهُ فَقَدْ خَتَمَ أَنَّ اللَّهَ صَادِقٌ. لأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ يَتَكَلَّمُ بِكَلاَمِ اللَّهِ. لأَنَّهُ لَيْسَ بِكَيْلٍ يُعْطِي اللَّهُ الرُّوحَ. اَلآبُ يُحِبُّ الاِبْنَ وَقَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي يَدِهِ. اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِالاِبْنِ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَالَّذِي لاَ يُؤْمِنُ بِالاِبْنِ لَنْ يَرَى حَيَاةً بَلْ يَمْكُثُ عَلَيْهِ غَضَبُ اللَّهِ»

مع نيقوديموس ليلاً

هذا هو الحديث الأول للمسيح من أحد عشر حديثاً سجلها القديس يوحنا في إنجيله، جاءت معظمها موجهة إلى الرؤساء.

من الأصحاح الثاني خرجنا بحصيلة كبيرة، فمن تطهير الهيكل انتهينا إلى أن المسيح عرض عليهم مضمون رسالته: التطهير أو الهدم (سر الموت والقيامة)، فرفضوا التطهير وقبلوا بالقتل.

وهنا ندخل إلى الأصحاح الثالث لنتواجه مع واحد من أكبر معلمي إسرائيل، والمسيح يشرح له على مستوى الفعل والعمل نفس السر، سر التجديد بالهدم والبناء، الذي أعلن عنه في الهيكل، بالنسبة للأمة كلها. ولكن، هنا، في مضمون تجديد الفرد هدم العتيق وميلاد الجديد للدخول في هيكل الله، ملكوت الله

وعلى وجه الملاحظه، نرى أن من هنا يبدأ إنجيل يوحنا مسيرته بالتوازي مع الأناجيل الأخرى التي تبدأ بالمناداة بملكوت السموات، ولكن عل مستوى التوبة: «من ذلك الزمن أبتدأ يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقرب ملكوت السموات» (مت٤:١٧). ولكن هناك «ملكوت السموات» وهنا «ملكوت الله» وسيان.

والتوبة كما جاءت في الأناجيل الثلاثة الاولى التي تُدعى باليونانية «ميطانيا»، التي تفسيرها «تغيير» أو «تجديد الذهن» بمعنى «توبوا»، هي في إنجيل يوحنا موت وقيامة في مضمون سر «الميلاد الثاني»، وهى «المعمودية بالماء والروح القدس»، حيث في الماء يكون الدفن أو سر الموت، وبالروح تكون القيامة لحياة جديدة. والمعمودية هى درجة متقدمة على التوبة: «توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس» (أع٢:٣٨). التوبة رنينها في النفس سهل، مجرد تغيير فكر وأسلوب وحياة، صحيح هي تحتاج إلى حزم وحسم وتصميم ومثابرة، ولكن المعمودية خطرة، تتطلب الموت عن حياة قديمة كشرط أساسي لقبول حياة جديدة مُعانة بالروح القدس. هي حقاً وبالحقيقة هدم وبناء، والهدم صعب للغاية!!!

هنا يصطدم نيقوديموس بحقيقة المسيحية، فيجفل ويصمت، ويظل يتحايل على نفسه ثلاث سنوات حتى غلبها وقبل بالهدم ، فكان الموت وكانت القيامة له وعلى يديه!

نيقوديموس يمثل في إنجيل يوحنا شخصية فريدة وممتارة، فهو قمة النخبة المختارة من إسرائيل التوراة والناموس والتلمود والمشناة، وكل علوم الفريسيين بفروعها، الذي جاء إلى المسيح يحمل معه رجاء الأمة اليهودية، وقلق ذوي الحاسية منها الذين يترجون إصلاحاً على مستوى الإمتداد دون أي مساس بالقديم. كان يرى في المسيح «رابي» أي معلم يهودي محترف الناموس والتوراة. صحيح أنه كان من ضمن الكثيرين الذين آمنوا باسم المسيح الذين ذكرهم القديس يوحنا: «ولما كان في أورشليم في عيد الفصح أمن كثيرون باسمه إذ رأوا الآيات التي صنع» (يو٢:٢٤). وهذا واضح من قول نيقوديموس في افتتاح حديثه مع المسيح «يا معلم (رابي)، نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه.» (يو٣:٢)

ولكنه جاء بعقلية ومؤهلات فريسى لا يؤمن بالتجديد، ولكن يؤمن بالقداسة التي يحصل عليها الإنسان بالممارسة قليلاً قليلاً، يكون الإنسان فيها صاحب الجهد والمبادرة، وأما الله فيرى ويجازي بالمكافأة.

ويقول المؤرخ اليهودي يوسيفوس: [إن المنهج الفريسي يعلم أن الإنسان في مقدوره أن يعمل البر أو لا يعمله، وإن إرادة الإنسان مسئولة عن صنع الحق أو الباطل، وهم يغلفون أنفسهم بقداسة كلها من صنع أنفسهم.]

من هذا نحن نستطيع أن نستشف ماذا كان يرجو نيقوديموس أن يسمعه من «رابي» يسوع المسيح!! فبحسب منهجه الفريسي كان ينتظر أن يتعلم من المسيح ممارسات فائقة على ما تعلمه، يستطيع أن ينمي بها مواهبه ويزداد في بره الشخصى وقداسته، وبذلك يكون مستحقاً أن يكون مواطناً لملكوت السموات التي سمع عنها من فم الرب. وقولنا هذا ليس جزافاً، فالمعروف لدى الفريسيين المدققين أن المسيا حينما يأتي سيكون معلماً للبر: «هوذا قد جعلته شارعاً للشعوب، رئيساً وموصياً للشعوب» (إش٥٥:٤)، بل سؤال الذي ركض وراء يسوع جاثياً يوضح أيضاً ذلك: «أيها المعلم الصالح ماذا أعمل لأرث الحياة الأبدية.» (مر١٠:١٧)

كل هذه الأنظار والمشاعر كانت تجري في مخيلة نيقوديموس وهو يسترق الخطى ليلاً نحو البيت الذي كان يخلو إليه المسيح بعد عناء النهار الطويل، وهو غالباً البيت الذي تملكه عائلة القديس يوحنا. وقد استقبله المسيح بالترحاب وفتح له قلبه، ولكن المسيح عرف فكر نيقوديموس، كما يقول القديس يوحنا عن قصد وقبل أن يدخل في قصة نيقوديموس مباشرة: «لأنه علم ما كان في الإنسان.» (يو ٢:٢٥)

أ- الحديث المباشر مع نيقوديموس. (٣:١-١٢)

وتستمر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: ملكوت الله بالعلم والممارسات، والمفاتيح مع الفريسيين: «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا».

الجديد: ملكوت الله بالميلاد الثاني من فوق من الماء والروح.

الاستعلان: «ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء».

١- كَانَ إِنْسَانٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ اسْمُهُ نِيقُودِيمُوسُ رَئِيسٌ لِلْيَهُودِ.

هذا الاسم لم يذكره أحد من الإنجيليين

كان رئيساً لليهود: هذا يعني أنه عضو في المجلس الأعلى للأمة، أي السنهدريم. وكذلك جاء في الآية ١٠ «أنه معلم إسرائيل»، وهي تقابل «دكتور في القانون» أي في الناموس اليهودي. وباللغة الكنسية عندنا هي «أرخن»، ولكن الأرخن عندنا هو للشعب وليس لرجال الدين، وهي مأخوذة أصلاً من النظام الشعبي اليهودي «رؤساء الشعب» (أع ٤:٨).

٢- هَذَا جَاءَ إِلَى يَسُوعَ لَيْلاً وَقَالَ لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ نَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ اللَّهِ مُعَلِّماً لأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هَذِهِ الآيَاتِ الَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ إِنْ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ مَعَهُ».

«جاء ليلاً»: لقد تركت في ذهن القديس يوحنا هذه الزيارة «في ظلام الليل» أثراً لا يُمحى، فقد ذكرها له ثلاث مرات في كل مرة يذكر اسمه، وكأنها أصبحت صفة أو لقباً؛ هذا في الحقيقة يكشف عن شعور القديس يوحنا بمدى الحذر أو الخوف الذي اتصف به نيقوديموس. ففي وسط مجمع السنهدريم تقدم نيقوديموس مدافعاً، ولكن بحذر شديد: «قال لهم نيقوديموس، الذي جاء إليه ليلاً، وهو واحد منهم» (يو٧:٥٠)، وأيضاً بعد إنزال جسد الرب من على الصليب جاء نيقوديموس بحذر أيضاً، ولكن بالتقابل كان التلاميذ قد تركوا المسيح وهربوا!! «وجاء أيضاً نيقوديموس الذي أتى أولاً إلى يسوع ليلاً وهو حامل مزيج مُر وعود نحو مائة منا» (يو١٩:٣٩). مع أنه جاء إليه ليلاً أول مرة، جاء وهو مؤمن باسم المسيح أي «المسيا»، ولكن دون علاقة شخصية أو إيمان شخصي فهو إيمان بالاسم، وفي المرة الثانية التي دافع فيها عن المسيح داخل السنهدريم دافع بحذر دون إظهار أي تعاطف مع المسيح، وعند أول مواجهة من الزملاء التزم الصمت؛ أما في المرة الأخيرة، وقد صار تلميذاً بالفعل للرب، إلا أنه أيضاً جاء مع يوسف الذي من الرامة: «ولكن خفية لسبب الخوف من اليهود.» (يو١٩:٣٨)

هذا الحذر والخوف يوضح بكل جلاء أن الإيمان بالمسيح لم يبلغ بعد إلى الايمان «الحي» بابن الله كمخلص حقيقي، حيث يجد الإنسان في المسيح دواء لجبانة الضمير، الدواء الذي يحوله من جبان رعديد كبطرس إلى شجاع صندي كبطرس أيضا: «أنا لست أعرف هذا الرجل». هذا الكلام قاله بطرس عن المسيح!!! أمام جارية!!!، «حينئذ امتلأ بطرس من الروح القدس وقال لهم: يا رؤساء الشعب وشيوخ إسرائيل إن كنا نفحص اليوم عن إحسان إلى

إنسان سقيم بماذا شُفي هذا، ليكن معلوماً عند جميعكم وجميع شعب إسرائيل أنه باسم يسوع المسيح الناصري الذي صلبتموه أنتم الذي أقامه الله من الأصوات...» (أع٤:٨-١٠). وهذا الكلام قاله أيضاً بطرس بعد أن قبل الإيمان الحي بابن الله!!!

ولكن أسلوب القديس يوحنا يتعجب له، فهو يقول ويردد القول أنه جاء ليلاً ولا يمكن أن يفرط ويقول كلمة واحدة على جبن الرجل أو إيمانه، ولكن الذي يعرف أسلوب القديس يوحنا يعرف أنه قال هذا عن الرجل وقال أكثر!! فقوله أنه جاء ليلاً وتكراره لذكر الليل كفيل بحسب أسلوبه أن نفهم منه أنه إيمان الظلام، بمعنى أنه لم يعثر بعد على «أقنوم النور»، وأنه لا يزال بعيداً عن الحب وما يحويه الحب من الإخلاص والثقة والأمانة وعدم الخوف، هذا هو تفسير «الليل» عند القديس يوحنا: «فذاك (يهوذا) لما أخذ اللقمة خرج للوقت وكان ليلاً.» (يو١٣:٣٠)

«يا معلم نعلم أنك أتيت من الله معلما»: هذا الاعتراف بالمسيح، كونه معلماً، من شخص مثل نيقوديموس هو تقييم كبير لإنسان لم يؤمن بالمسيح بعد كابن الله. وكلمة «رابي» تعني أكثر من معلم باللغة العربية لأنها من جذر كلمة يهودية تعني كبير أو عظيم، وهي عل ثلاث درجات: «راب»، و«رابي» و«رابو»، و«رابون» هي أعلاها، هذا اللقب مستحدث مذ أيام مدرسة شماي وهاليل. ونيقوديموس يعطيه هذا اللقب بالرغم من أنه ليس من خريجي مدارسهم: «فتعجب اليهود قائلين كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم» (يو٧:١٥)، إلا أنه رأى بحسب قياسات علمه أنه كان مستنيراً بالمعرفة الإلهية، وأنه جاء من الله. وهذا تعبير عبري قديم يقيم به الأشخاص الموهوبون. وهو بأسلوب مؤدب خفي يُشرك زملاءه علماء الناموس الذين استمعوا إلى المسيح في رأيه هذا بقوله: «نعلم» بالجمع. وبتعبير من هو مأخوذ بتعاليم المسيح، يصرح بحرارة أن تعليمه من الله مباشرة: «أتيت من الله معلماً»، وهو نفر التعبير الذي يكرره المسيح عن تعليمه: «تعليمي ليس لى بل للذي أرسلنى» (يو٧:١٦). وهذا يتضمن بالفعل أنه مُرسل. ولكن خطأ نيقوديموس أنه يقصر ملامح التفوق الإلهي عند المسيح في حدود «معلم» فقط ( ) التي تأتي في اللاتينية **magister** حتى ولو كان موهوباً.

«لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التي أنت تعمل إن لم يكن الله معه»: وهنا يكمن الخطأ الثاني لنيقوديموس، أنه اعتبر عمل الآيات أنه هو الدليل أن المسيح هو رجل الله. ومعروف أن الرابيين الأتقياء كانوا يجترحون المعجزات ليثبتوا تقواهم وليبرهنوا على صحة تعاليمهم. وهكذا ربط نيقوديموس آيات المسيح بحالة التقوى التي حصل عليها المسيح، على مستوى الرابيين الأتقياء.

«إن لم يكن الله معه»: هذا اصطلاح عبري كتابي مذكور بكثرة في العهد القديم: «فظهر له الرب في تلك الليلة وقال له: أنا إله إبراهيم أبيك، لا تخف لأني معك» (تك٢٦:٢٤). وهذا الكلام لإسحق ابن إبراهيم. وكذلك: «فظهر له ملاك الرب وقال له: الرب معك يا جبار البأس» (قض٦:١٢)، وهذا الكلام لجدعون. وواضح من الإصطلاح أن الذي يكون الله معه، لا يزيد عن كونه مُعانا من الله لإتيان أمر يطلبه الله. إلى هنا توقف إيمان نيقوديموس بالنسبة للمسيح والأيات التي رأها والتعليم الذي سمعه منه. ومنه نرى أنه كان يعيش في جو عالم الفريسيين والربيين، وأنه لم يخرج بإيمانه خارج الدراسات التى تلقاها.

٣- فَقَالَ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ اللَّهِ»

يلاحظ القارىء اللبيب أن المسيح هنا لا يجاوب على كلام نيقوديموس بل أجاب على أفكاره، وهنا أيضاً يلزم أن

نلفت نظر القارىء أن يتمعن لماذا قبل أن يدخل القديس يوحنا في سرد قصة نيقوديموس، قال عن المسيح وهو يقصد ما يقول «لأنه علم ما كان في الإنسان».

وهكذا وباختصار بالغ يقول القديس يوحنا «أجاب يسوع» فهو يجيب على استسفار نيقوديموس كاشفاً أمام القارىء كيف أن المسيح علم ما كان يجول في فكر هذا الفريسي، وكيفر بحذق المعلم الإلهي يقود السائل المتخفي وراء الألفاظ المنمقة إلى الحقيقة التي يسعى إليها. فنيقوديموس لم يرتقي بتفكيره ولا إلى لحظة لكي يدرك من هو المسيح الذي يتكلم معه على حقيقته، ولكن كان يدور ويلف عسى أن ينال منه معرفة تنفعه وليس إيماناً يعيشه. وكان كل همه أن يزداد معرفة على المعرفة التي عنده والتي يعتز بها أيما اعتزاز! واذ بالرب يرد على أفكاره موضحاً أنه ليس عنده، ولا هو على استعداد، أن يقول أو يعمل شيئاً على ذي قديم، ولكن عمله أن يخلق جديداً، يخلق بدءاً جديداً!! فملكوت الله التي يتمناها نيقوديموس لا يمكن أن يراها، بمعنى أن يعرفها معرفة الرؤيا، إلا إذا وُلد جديداً.

«الحق الحق»: هذه البادئة في الكلام عند المسيح تفيد التوكيد أول ما تفيد، ثم تهيىء ذهن السامح والقارىء ليستعد لقبول معرفة جديدة وصعبة نوعاً ما أو أمراً قد أُشكل على الدنيا معرفته سابقاً، وهو بصدد حل هذا الإشكال حلاً نهائياً وجذرياً. فهي بادئة تفيد في الغالب فكراُ جديداً يحمل تعليماً إلهياً يمتد بفكر الإنسان خطوة إلى الأمام والى أعلى، وسيكررها المسيح مرتين في هذا الأصحاح.

«يولد من فوق»: «من فوق» تُترجم أيضاً «من جديد، ثانية» وقد اختلفت المخطوطات القديمة في ترجمتها. فالترجمة اللاتينية (   ) أي يولد ثانية، والترجة القبطية والترجمة السريانية، أخذت بالولادة «الثانية – من جديد» وقد تمشى مع هذه الترجمة كل من الشهيد يوستين، واكلمدنس السكندري، وترتوليان، وكذلك أغسطين وجيروم ومعظ الكتاب المحدثين.

وبعض الشراح ارتأوا أن يتركوا ذلك لحرية المترجم طالما هي تحتمل أكثر من ترجمة أصيلة مثل العالم «باريت». ولكن إذا عدنا لإنجيل القديس يوحنا نفسه وفحصنا اتجاهه الذي يرجحه في المواضع التي ذُكرت فيها هذه الكلمة (٣١:٣، ١١:١٩و٢٣) وتعاليمه عن الولادة من الله (١٣:١، ١يو٢٩:٢، ٩:٣، ٧:٤، ١:٥)، نتحقق أن المعنى المرجع هو «الميلاد من فوق» معتبراً أنها حادث يبدأ وينشأ من السماء ويتم للانسان بقوى إلهية تفوق فهم وفحص وضبط الإنسان. ولكن لا ننسى أن فهمها عل أساس الميلاد الثاني هو من صميم الكتاب المقدس أيضاً في هذه المواضع (ابط١:٣و٢٣، تنطس ٥:٣).

ولكن الملاحظ أن نيقوديموس فهمها أنها ولادة ثانية، من جديد، هذا تبادر إلى ذهنه فورا كيف يدخل بطن أمه من جديد!!

«لا يقدر أن يرى ملكوت الله»: ما يقصده المسيح أنه بهذه الولادة من فوق، أي الفائقة عل قدرات الإنسان، يدخل الإنسان في اتصال بالوجود الجديد الفوقاني، أي ملكوت الله، وذلك بكل يقين عن طريق قدرات جديدة ومواهب جديدة. وبدون هذا الدخول في محيط الوجود الجديد، الولادة من فوق، لا يستطيع أن يرى، أي يتعرف عل هذا الملكوت!

وواضح الكلام أننا في آدم خرجنا من حضرة الله مطرودين وحُرمنا من رؤيته، فبإمكانياتنا الجسدية التي ورثناها من أدم وقع علينا الحكم الذي وقع على آدم وهو الخروج من دائرة الله وعدم رؤيته. لذلك فلكي نعود ونرى الله، مجرد

رؤية، يلزم أن نولد ولادة أخرى ليست من آدم وهي حتماً وبالضروره من فوق، من الله، حتى بهذه الإمكانيات الجديدة نعود ونرى الله.

«لا يقدر»: أي لا يضب قوة عل الاتصال بملكوت الله سواء كان بالرؤية أو حتى التمتع بالتأمل، والسبب هو العجز الروحي الناتج عن الفساد الأخلاقي الذي جعل الجسد لا يقوى على اللحاق بمطالب الروح ومستواها؛ لأن رؤية الإنسان الطبيعي، الجسدي، محصورة في حدود الطبيعة، الجسديات، فإذا أراد الإنساذ أذ يرى ما فوق الطبيعة، الروحيات، فلابد له من المثيل، الميلاد الروحي، أي ما فوق الطبيعة، «ملكوت الله داخلكم»، لتواجه المثيل مع المثيل. هذا هو عمل الله الفائق في روح الإنسان ليمنحه ما هو منه خاصة ليراه أو يحيا معه.

والذي يلزم أن ننتبه إليه هنا هو القول القاطع المانع الذي وضعه الرب بالنسبة لمحاولة التطلع إلى ملكوته «لا يقدر»، بمعنى أنه محال على الإنسان أن يرى الله هنا أو هناك دون أن ينال من الله هنا المؤهلات الإلهية التي تجعله يراه كما هو: «ايها الأحباء الآن نحن أولاد الله (الميلاد من فوق) ولم يظهر بعد ماذا سنكون، ولكن نعلم أنه إذا أُظهر نكون مثله لأننا سنراه كما هو» (١يو٣:٢)

«ملكوت الله»: يذكرها القديس يوحنا في إنجيله مرتين فقط وهما اللتان جاءتا متتابعتين في هذه الأية والآية (٥)، وقد استعاض عن هذا الإصطلاح بإصطلاح آخر وهو الحياة الآبدية عل مدى إنجيله ورسائله. وقد جاء كثيراً اسم «ملكوت الله» في الأناجيل الأخرى، وأيضا باسم «ملكوت السموات».

والاسم أصلاً عبراني مستخدم في العهد القديم. وهو يعبر في الأدب العبري عن «امتلاك الله»، أو «تدبير وادارة الله»، والله هو الملك الآزلى والأبدي: «الرب قد ملك فلتبتهج الأرض... العدل والحق قاعدة كرسيه» (مز٩٧:١-٢)، «الرب قد ملك، ترتعد الشعوب» (مز٩٩:١) وكان من المفروض أن تكون مملكة الله على الأرض منظورة وواضحة، ولكن لأن «الشعوب، الأمم» لا تعبده، لذلك اقتصر على إسرائيل. فإسرائيل، كانت، هي مملكة الله المنظورة على الأرض «الرب عظيم في صهيرن». ولكن لا يزال الله ينتظر خضوع الشعوب وذلك «في يوم الرب».

ولكن نشأ في الفكر العبري إحاس طاغ بأن «ملكوت الله» له معنى روحي أعمق من مظاهر العبادة والمعاملات الطبيعية، وأنه «ملكوت غير منظور» في عمق هذه الحياة التي نحياها؛ ثم ظهر في أيام المسيح إحساسى أخر بأن «ملكوت الله» له معنى «أخروي» أي ينكشق إلا في غيبة النظام الحاضر للعالم.

أما في العهد الجديد وبالمعنى المسيحي، فقد انبرى ملكوت الله ليأخذ الصدارة في كل تعاليم المسيح ووصاياه وأمثاله كغاية عظمى للانسان في كل حياته وجهاده ومسعاه. لقد كان أول من نادى به بهذا المعنى هو المعمدان (مت٣:٢)، وكرز به المسيح أول ما كرز(مت٤:١٧).

وقد صفى المسيح ونقى معنى الملكوت على المستويين الديني والأخلاقي، وحدد الصفات التي يتطلبها الله لداخلي ملكوته ومنها الأتي:

+ التخلي عن كل ضروريات الحياة إذا تعارضت مع الملكوت حتى الأسرة (لو١٨:٢٩)

+ الإستغناء عن أعز ما للجسد إذا تعارض مع الملكوت، حتى العين واليد والرجل (مر٩:٤٧)

+ السهر والمثابرة وربط القلب والفكر بهذه الغاية العظمى (مت٢٥:١-١٣).

+ الحرمان المؤكد لذوي البر الذاتي الذين يزكون أنفسهم (مت٨:١١).

+ استحالة دخول الأغنياء المتكلين على أموالهم (مر١٠:٢٣).

+ الملكوت من نصيب المتواضعين والذين لهم روح الطفولة (مت٥:٣، مر١٠:١٥، يو٣:٣-٥)

وفي كل مثل من الأمثلة التي قدمها المسيح عن ملكوت الله كان يتصحح ويتحدد ويتجلى ويتضح معناه أكثر فأكثر.

وقفة قصيرة

وفي التعليم المسيحي، وبمقتض الفهم اللاهوتي لملكوت الله، يمكن وضعه تحت ثلاثة بنود متكاملة.

الملكوت في المستقبل، الملكوت في الحاضر، الكنيسة باعتبارها الملكوت.

الملكوت في المستقبل: لقد أفصح المسيح في تعاليمه عن هذا البعد للملكوت، وهو البعد المستقبلي، بمعنى انتظار استعلان ملكوت الله بصورة لم نرها من قبل، ولم يتعرض لها هو سابقاً في حديه عن الملكوت. وهو الذي أمر تلاميذه، وبالتالى نحن أيضاً، أذ نطلبه كل يوم «ليأت ملكوتك» (مت٦:١٠). وقد ألمح لهذا البعد الملكوتي في المستقبل بمثل العشر العذارى والعريس الذي يأتي فجأة! أو الزرع الذي ينمو، أو الزران في وسط الزرع الصالح الذي ينتظر الحصاد ليفصل الزوان من الحنطة.

وقد ترسخ هذا البعد الملكوتي في ذهن الكنيسة منذ البدء وهي تنتظر استعلانه بفارغ الصبر، وربطته ربطاً لاهوتياً محكماً لمجيئه الثاني وجعلت هذا الترقب جزءاً من قانون إيمانها مع الدينونة والحياة الأبدية، وميعادها حددته بقيامة الأجساد.

ولا يزال الفكر الارثوذكسي على إصراره وإلحاحه بانتظار مجيء ملكوت الله واستعلانه مهما تأخر.

الملكوت في الحاضر: في تعليم المسيح، يشير الرب إلى «حقيقة» أي جوهر هذا الملكوت كحالة فائقة ذات اتصال بالله، أنها قائمة في الحاضر الزمني ولكنها حقيقة مخفية ككنز في حقل وجده إنسان فباع كل شيء واشتراه. فالرب حينما بدأ يكرز، جعل الملكوت في متاول اليد: «قد اقترب» (مت٣:٢، ٤:١٧). وحينما كان يشفي، كان بحسب تعبيره أن هذا الشفاء تم بأصبع الله، وهذا معناه أنه قد «أقبل عليكم ملكوت الله» (مت١٢:٢٨). وحينما حاول البعض أن يأخذوا صورة عن مجيء ملكوت الله قال لهم: «ملكوت الله داخلكم» (لو١٧:١٢). والذي أضعف تأكيدات المسيح التي تملأ الأناجيل بأن ملكوت الله هو قوة الله في الحاضر الزمني، انشغال الكنيسة الاولى بانتظار مجيء الملكوت قريباً جداً وبأنه على وشك الظهور يوماً بعد يوم.

ولكن بقيت توكيدات المسيح بملكوت الحاضر الزمني كأساس راسخ لإعادة فكر الكنيسة وربطه بالحاضر، يقول الوحي أنه «جعلنا ملوكاً وكهنة لله أبيه» (رؤ١:٦و٩، ٥:١٠)، وقول الوحي: «نقلنا إلى ملكوت ابن محبته» (كو١:١٣)، والتي منها يظهر أن ملكوت الله هو حقيقة واقعة امتلكتها الكيسة: «ليس أكلاً وشرباً بل هو بر وسلام وفرح في الروح القدس.» (رو١٤:١٧)

ولكن هذه النظرة في التعليم الارثوذكسي لا تلغي ولا تُغنى عن انتظار الملكوت الآتي بقوة ومجد، حيث يتلاشى الشر الذي يقاوم ظهوره.

فالملكوت في الحاضر هو ملكوت الخلاص الذي ظهر وأعلن وقد تم وأكمل، وعلينا أن نستنفذ قوته وبركاته. والملكوت الآتي هو ملكوت الحياة والميراث في المجد العتيد.

ألكنيسة بأعتبارها ملكوت ألله: كان القديس أغسطينوس أول من اعتبر المختارين في الكنيسة الآن المعينين للحياة الآبدية أنهم يمثلون ملكوت الله أو ملكوت المسيح، في مقابل الأشرار الذين تحويهم الكنيسة أيضاً باعتبارهم

«مملكة الشيطان». ومرة أخرى وضع المختارين كأنهم «مدينة الله» في مواجهة الأشرار «مدينة الأرض». ولكي نحصل على صورة صحيحة للكنيسة كملكوت الله، يلزم أن نعود إلى العهد القديم حينما كان الله يملك على شعب إسرائيل، فكانت إسرائيل بهيكلها الذي كان يحل فيه الله بصورة منظورة هي ملكوت الله المنظور على الأرض، ولكن كان لاسرائيل ولهيكلها صورة أخرى غير منظورة، صورة روحية حيث كان الله يحيا بالفعل بالروح في قلوب ابائها وأنبيائها وقديسيها، بل كان يملك حقاً على قلوب أتقيائها الذين تركوا لنا سيرتهم المرتفعة في القداسة وطاعة الله المذهلة والحب الالهي المتدفق في قلوبهم. وهذه الأسفار الشعرية، كسفر الأمثال والجامعة والمزامير وغيرها تحكي عن ملكوت الله الخفي غير المنظور الذي كانت تحياه إسرائيل تحت حكم الله وتدبيره.

كل هذا انتهى شكلاً وموضوعاً برفض إسرائيل أن يملك عليها الله: «ليس لنا ملك إلا قيصر». بل وامتدت أيديهم إلى فاديهم وملكهم فقتلوه «خذه خذه أصلبه... أأصلب ملككم» (يو ١٩:١٥). أما الذين قبلوه منهم وترجوا أن يملك عليهم ويفديهم فصنع منهم شعبه الجديد، الكنيسة التي خُلقت بتجسد الكلمة وتدشنت بدم صليبه وامتلأت بملء الله يوم الخمسين. وسرعان ما انضم إليها كل الذين كُتبت أسمائهم في سفر الحياة المعينين للحياة الآبدية منذ البدء، فصار فيها من الأباء والأنبياء والشهداء والقديسين ما يفوق الأولين، وعوض لوحي العهد ذوي الأربعة الأوجه، صارت الأربعة الأناجيل المكتوبة حقاً وفعلاً بأصبع الله، وبقية الأسفار الحية التي تشهد كيف قام الملكوت وامتد وكيف جلس الله على عرش القلوب وحكم.

وإن كانت الكنيسة لا يعطي شكلها الأرضي المنظور صورة جيدة لملكوت الله بسبب معاثر الإنسان، إلا أن الله العامل فيها بالأسرار غير المنظورة أقام من الكنيسة سماء جديدة. فهو يلد فيها لنفسه كل يوم ألوفاً من خلائقه الروحانية بشكل خالقها وعلى صورته، بالحق، في القداسة والبر، يُلبسهم بيديه ثياب الروحانيين ويطعمهم من جسده ويسقيهم من دمه ويتعهدهم برحمته حتى يصلح كل واحد منهم أن يكون عضوا في جسده، شريكاً في آلامه هنا، وهناك شريك مجده في ملكه الآبدي. وهكذا فإن ملكوت الله يستعلن الآن في الكنيسة بالآلام، وهناك بالمجد.

٤ – قَالَ لَهُ نِيقُودِيمُوسُ: «كَيْفَ يُمْكِنُ الإِنْسَانَ أَنْ يُولَدَ وَهُوَ شَيْخٌ؟ أَلَعَلَّهُ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ بَطْنَ أُمِّهِ ثَانِيَةً وَيُولَدَ؟».

الحقيقة هنا أن نيقوديموس لا يدعي الجهالة ولا يتوقع بالسخرية على عقيدة الميلاد الثاني، بل هو بكل صدق وأمانة يصور مدى الصعوبة البالغة، التي تبلغ مدى الإستحالة، كون الإنسان ينجح في أن يحصل على بداية حياة جديدة بميلاد جديد. وهذا التصوير، غير المبالغ فيه، أن الميلاد الثاني يساوي دخول شيخ في بطن أمه ثانية ويولد، هو محاولة منه ليدفع المسيح «كمعلم بالحق» أن يشرح له كيف يكون هكذا أو ما هي الوسيلة التي بها يمكن للانسان أن يولد ثانية؟ وهذا رة عليه المسيح ردا مباشراً عل فكره هكذا.

وليلاحظ القارىء أنه كما أن المسيح ابتدره بقوله: «إن لم يولد الإنساذ ثانية (أو من فوق)»، هكذا كان رد نيقوديموس صحيحاً ومناسباً: «كيف يولد»؟ وأضاف من عنده تصوره عن استحالة الأمر.

وليتمهل القارىء على هذا الفريسي العاتي، ليدرك أعماق إجابته. وعليك أن تتصور معه إنساناً ذا ماض طويل وعريض في التكيف بالعالم والناس والتعود على عادات وأفكار وسلوك مدى ستين سنة مثلاً، كيف يتخطاها، كيف ينساها، كيف يجعلها كأنها لم تكن ليبدأ من جديد وكأنه ما عاش هذه السنين، كيف؟

ثم صبراً جميلاً، وفرضاً أنه أمكن أن يمحو هذا محواً وكأنه لم يكن؛ ولكن كيف تبقى له «نفسه» هي هي التي

سيبدأ بها، لأن النفس معجونة بصور الحياة منذ أن يعرف الإنسان نفسه، بل انطباع الأيام وحوادث الدهر تختزنها النفس أكثر مما يختزنها الجسد ألف مرة!!! لاحظ أن نيقوديموس يتكلم من عمق أعماق نفسه ومن طول حياته وخبراته التي ما جاء إلى المسيح إلا لكي يعدل فيها ويصحح، ولكن أن يلغيها كلها فهذا أمر جد خطير وغير وارد.
ثم لا تسخر من رد نيقوديموس كونه يصور ونفسه وهو يدخل بطن أمه، فهذا هو الجزء الأقل في المشكلة، لأن الجزء الأكبر هو «النفس»، نفسها، كيف يعطيها بدءاً جديداً. فإذا استحال على الشيخ دخول بطن أمه ليولد من جديد، فالإستحالة الأكبر أن يدخل داخل نفسه ليلغي ما صنعته السنين وما خطه الدهر فيها. وبهذا يكون نيقوديموس قد صور، دون أن يدري، القيمة الفائقة للميلاد من فوق مع ما يحويه من غفران ومصالحة.

٥- أَجَابَ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ:

إِنْ كَانَ أَحَدٌ لاَ يُولَدُ مِنَ الْمَاءِ وَالرُّوحِ لاَ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ اللَّهِ.

سؤال نيقوديموس هو كيف يولد؟ هل من بطن أمه؟ هنا إجابة المسيح جاءت مباشرة على السؤال، فالميلاد ليس جسدياً بل هو ميلاد روحاني للنفس، ووسائله ليست لحمية لا من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله: من الماء والروح. هو ميلاد غير منظور، سماوي.
والمسيح يستخدم حرف «من» الذي ترجمه القديس يوحنا في إنجيله باليونانية (   ) أو (   )، ويفيد «من داخل»، أي يدخل الإنسان الماء ويغشاه الروح ويقوم أو يخرج مولوداً جديداً. هنا الروح هو العنصر السماوي الأساسي المختص بـ «فوق»، المعتبر كينبوع أو مصدر الحياة العليا، وهنا تتركز النقلة الكبرى الجديدة للانسان.
والأن لماذا الماء؟ فالروح معروف أنه عامل الخلق والتجديد، فما هو دور الماء؟ وحتماً الماء هنا ليس هو ماء المعمدان، بل ماء المسيح الذي مضمونه السري والسرائري هو روح هو سماوي؛ لأننا نعلم تماماً في مفهوم الماء حتى في أوائل معرفة الإنسان والخلق أنه يوجد نوعان من المياه: مياه فوق الجلّد (السماء) ومياه تحت الجلد وهو البحار والأنهار: «وقال الله ليكن جلد (أي سماء) في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء.» (تك١:٦-٨)
فالمياه التي حولها المسيح في عرس قانا، حولها من مياه تخدم الأغراض الوقتية إلى خمر يخدم الأغراض الروحانية، أي نقل مفهوم مياه تطهر الجسد إلى مياه تختص بالروح. كذلك في مياه بئر يعقوب نرى المياه التي تخدم الأغراض الجسدية التي أعطاها الانجيل صورة الأغراض الحيوانية الخالصة إذ أضاف على الذين شربوا منها بعد يعقوب وبنيه الماشية أيضاً، إمعاناً في أنها مياه أرضية محضة ليس فيها ما يختص بالبركة ولا بالروح. ولكن هنا يرفع المسيح من مستوى المياه إلى ما فوق الجلد أي ليست مياه أرضية، وهذا يتم بحلول الروح القدس عليها وتقديسها. فتصير مصدراً لانبعاث حياة جديدة ليست أرضية بل روحانية.
معروف أن المعمودية ثلاث خطوات أو مراحل: الاول اعتراف بالخطايا، الخطوة الثانية قبول الغفران، الثالثة تغطيس في الماء. هنا تكمل المعمودية كختم توبة. فالتغطيس في الماء هو بمثابة قبول أو الدخول في الموت عن الحياة السالفة، حيث الماء هنا هو بعنصره الأصلي الأرضي أولاً للموت ثم بعنصره الروحي التقديسي السماوي للتقديس، ثم الخروج من الماء استعدادا لحياة جديدة. هنا تكون قد انتهت معمودية الماء ليبدأ عمل الروح القدس وهو إعطاء حياة جديدة للنفس كنسمة حياة من فم الله، تؤهلها للدخول في الحياة الآبدية، أي ملكوت الله، والترائي أمامه. هذا بالإضافة إلى أن بصلاة التقديس على الماء يتقدس الماء ويقدس الجسد حسب قول القديس كيرلس الكبير: [لأنه

بما أن الإنسان مكون من جسد ونفس عاقلة، فإنه يحتاج إلى عمليتي شفاء ليصير له ميلاد جديد، لأنه بالروح يتقدس روح الإنسان وبالماء الذي تقدس يتقدس الجسد. لأن الماء بعمل الروح يتحول معدنه إلى مؤثر إلهي غير منطوق به ويقدس كل من يحل فوقهم.]

إذن، الميلاد من الماء والروح هو عملية موت عن حياة جسدية سالفة، وتقديس، ثم قبول حياة جديدة مخلوقة بالروح القدس، لتؤهل النفس للحياة مع الله في ملكوته. وليس أبداً أن معمودية الماء هي عملية تختص بالخارج أو أنها عملية خارجية ظاهرية، بل هي الأساس العميق الذي عليه يعمل الروح القدس في الخلق، لأنه يستحيل أن الفاسد يلبس عدم فساد. فلابد أن تجري أولاً عملية الموت الارادي وبمؤازرة النعمة أيضاً، وذلك في المعمودية[1]، عن حياة جسدية سالفة، بالنية الكاملة والضمير الطاهر؛ وهكذا يمكن التقديس حتى يتمكن الروح القدس بعدها أن يخلق في النفس حياة جديدة بالروح.

وبالنسبة لنيقوديموس، فالميلاد من الماء والروح، أمر ليس غريباً ولا جديدا على مسامح نيقوديموس، فكل الذين اعتمدوا على يد يوحنا المعمدان سمعوا من المعمدان أن المسيح سيعمدهم بالروح القدس، وأن معموديته إنما هي التمهيد الالهي، حسب إرسالية الله له، لكي يهيى، العمل لمعمودية المسيح بالروح القدس. فقول المسيح أن تولدوا من الماء والروح هو رنين مسموع في كل أنحاء اليهودية.

ولكن للأسف فإن الفريسيين رفضوا معمودية يوحنا: «وأما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه» (لو٧: ٣٠). وهكذا قطعوا على أنفسهم فرصة عمل الروح القدس بالتالي.

ومعروف أنه بعد قيامة المسيح صارت معمودية الماء والروح تتمان معاً في جرن المعمودية: «لا بأعمال في بر عملناها نحن، بل بمقتضى رحمته خلصنا بغسل الميلاد الثاني، وتجديد الروح القدس.»» (تيطس ٣: ٥)

وهكذا أصبح الميلاد الثاني من الماء والروح بالسر هو نفسه الميلاد من الله بالوعد.

وأخيراً يلزمنا أن نعي تماماً أن المسيح حينما قال هنا بالولادة من الماء والروح إنما يقولها بصورة نبوية إلى حد ما، فمعمودية الروح القدس لم تكن قد بدأت بعد. حتى أن المسيح لم يذكر كلمة «المعمودية» لأن تركيزه كان على الخلقة الجديدة بالروح كنتيجة.

«يدخل ملكوت الله»: هنا انتقل المسيح من حالة الرؤية الفكرية أو التعرف على ماهية هذا الملكوت، إلى الدخول فيه، وهو اصطلاح قريب جداً لذهن نيقوديموس، لأن الدخول إلى أرض الموعد: كنعان الأرضية، كصورة مصغرة توضيحية، كانت ماثلة أمام نيقوديموس؛ فكما هو مواطن في أرض الميعاد؛ مطلوب منه أن يكون مواطناً في ملكوت الله. وكما كان للدخول إلى أرض الموعد شروط جسدية (الختانة)؛ هكذا للدخول إلى ملكوت الله شروط روحية (المعمودية).

٦- اَلْمَوْلُودُ مِنَ الْجَسَدِ جَسَدٌ هُوَ وَالْمَوْلُودُ مِنَ الرُّوحِ هُوَ رُوحٌ.

في البداية نود لو يلاحظ القارىء أننا لا زلنا مح فكر إنجيل القديس يوحنا الهادف إلى توضيح استعلان رسالة

---

[1] هنا الموت ليس موتاً ظاهرياً بل موت يأخذ حقيقته من موت المسيح، لأن المسيح مات موتاً حقيقياً عن كل من يؤمن به، فأصبح موت المسيح الحقيقي هو العامل في العمودية لحصولنا على موت حقيقي عن حياة سالفة لقبول حياة جديدة من عمل الروح القدس، هي من حياة المسيح.

المسيح، وبالتالي استعلان المسيح من وراء استعلان رسالته. فالقارىء يذكر الأية الاولى: تحويل الماء إلى خمر، وهذا التحويل يشمل تحويل العبادة من الغسلات والتطهيرات بالماء إلى شرب الروح وكأس الخلاص، وفي تطهير الهيكل وضح لنا عملية تحويل الهيكل، مركز العبادة، من صناعة يد إنسان في ٤٦ سنة إلى هيكل جسد المسيح بالقياهة من الأموات، حيث صار جسد المسيح هو الكنيسة مركزا لعبادة بالروح والحق؛ والآن في حديث نيقوديموس دخلنا في مفهوم تحويل الإنسان نفسه من حياة قديمة حسب الجد إلى حياة جديدة حب الروح، بالميلاد الثاني من فوق.

والمسيح هنا في هذه الأية يقطع خط الرجعة على نيقوديموس حتى لا يفكر إطلاقاً في الخلط بين خلقة الجسد الأدمية القديمة وخلقة الروح الجديدة. فلا يوجد تطور من الجد إلى الروح، ولا امتداد، ولا تطعيم، ولا تخطي الحدود بالمعرفة، أو بالتقوى، أو بأي عمل يستطيع الإنسان أن يأتيه بقوته أو إرادته أو حتى بمواهبه! فالمولود من الجسد يبقى جسدياً، حسب أصله، والمولود من الروح لم يعد إنساناً جسدياً بعد، بل روحاً أو روحياً، حسب أصله أيضاً.

فالجسد هنا هو العنصر البشري، والروح هو العنصر الإلهي الفائق. ولا يقصد المسيح هنا بالجسدي والروحي: «جسد هو، هو روح» الإتجاه المعتاد بالتعبير عن الجسد «بالمادي»، ولكن الإتجاه في الحقيقة أعمق وأجل، فهو يقصد الإنتهاء إلى «لا شيء» بالنسبة لنهاية الميلاد من الجسد، وبلوغ «الوجود الحقيقي» بالميلاد من الروح، الوجود مع الله للبقاء والخلود، فالمولود من الجسد غريب ونزيل عل الأرض، وزائل، سواء أدرك ذلك في نفسه، أو تلاهى وتعامى عن حقيقة غربته وزواله.

أما المولود من الروح فقد دخل المعجزة الإلهية ليدرك وجوده الحقيقي، ويتيقن أنه صار غير مهدد بالزوال، ويحس أنه استوطن السماء بالفعل، ويمارس كل يوم وجوده برجاء حي يتجدد باستمرار.

وكل من تأمل في وجوده وحياته وأعماله يدرك حقيقة نفسه إن كان يعيش على لا شيء أو يعيش على رجاء الوجود مع الله، وحينئذ يقيم الميلاد من الروح ويسعى نحوه بكل عزمه وتصميمه.

وكما أن الولادة من الجسد تعطي الإنسان صفات جسدية خاصة منها الميل لإشباع رغبات الجسد، هكذا الميلاد من الروح يعطي النفس صفات روحية أهمها الإلتصاق بالله خالقها وإمكانية النزوع إليه من كل الفكر والنفس والقدرة!

وبالتالي كما أن الولادة من الجسد تهيء الإنسان للحياة بالجسد في هذا العالم، هكذا الميلاد من الروح، من فوق، يهيىء الإنسان للحياة، فوق، في ملكوت الله: «إن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوة» (كو٣:١). ولأن الإنسان أصلاً هو مخلوق من جسد، ونفس عاقلة روحية، أصبحت حاجة الإنسان المولود من الجسد يقابلها بالضرورة حاجة الميلاد من الروح، كما أن تعلق الإنسان بالحياة على الأرض يقابله تعلق الإنسان بالحياة فوق بالروح.

إنه نزوع طبيعي في الانسان، بحسب حركة الروح الذي فيه، التي نفخها الله في أنفه، أن يتطلع إلى الخلود والامتداد في الحياة إلى ما هو أعظم وأعلى وأرقى دائماً، وحنين الإنسان إلى الله والسماء والقداسة لم ينطفىء منه قط مهما تكدست الخطية فوق رأسه. الإنسان مخلوق أصلاً على صورة الله والصورة تنزع إلى التقرب من أصلها، كما أن الله يحن دائماً إلى صورته ويودها بقربه. ولو دققنا الرؤية أو تعمقنا الإنسان، ولو أنصفنا في تقييمه، لوجدناه روحاً لا جسداً، الإنسان الذي يحيا بجسده يحيا غريباً عن نفسه النزاعة نحو الروح والله! الإنسان يشقى بجسده بسبب وجود روحه الرقيبة عليه التي تستصغر دائماً من أعماله وأفكاره وميوله حينما تتطلع إلى خالقها.

الإنسان لا يستمتع وجوده الحقيقي الذي يشتاق إليه ويتمناه، أو حتى الذي يجهله، ولكن الروح لا تجهل ما لها. فالإنسان يتأوة ولا يعلم ماذا يريد، فقط هو غير راض عما هو فيه، الأفضل دائماً دائماً غائب عنه، مهما أجهد ذاته للحاق به، وكل ما يحصل عليه يبقى ليس هو الذي له. فالميلاد الروحاني الجديد للانسان هو معجزته التي يعيش على رجائها، مهما كانت مخفية عنه وغائبة عن وعيه، إنه حالما يحصل عليها، يصير هو الإنسان الذي يريده، هو نفسه تماماً، وليس أقل ولا أنملة، ميلاد الإنسان روحياً من فوق هو بداية الوجود الحقيقي له الذي هو له حقاً، حيث تستقر نفسه على مركزها الثابت الأصيل الذي ليس على أرض الزعازع والأوهام بل فوق. الإنسان المولود من فوق يتشبث بالأبدية فلا يعود الزمن يقلقه ولا توافه الأعمال.

ثم ألا ترى، عزيزي القارىء، أن الإنسان ليس حراً أن يختار بين أن يعيش بالجسد أو بالروح؟ لأنه إن لم يعش بالروح، فهو لا يعيش أصلاً وأبداً. أنظر إلى نيقوديموس الذي جاء يطلب الأفضل وهو معلم إسرائيل الأعلى، فاكتشق أنه حقاً وفعلاً لا يعيش!!

يقولون إن الإنسان حر، يختار مصيره بنفسه، هذا غش وخداع، فمصير الإنسان هو الذي يقنع الإنسان أن يتخلى عن حريته!! ومصير الإنسان تحدده ماهيته، يحدده كيانه، يحدده أصله الذي انحدر منه والذي فقده على الطريق، فصار بدونه كلا شيء، فإذ هو أصر على حريته صار إلى لا شيء. إن نداء الأم التي تاه ابنها عنها يسمعه الولد وهو على بعد فراسخ وأميال، والإنسان يسمع في أعماقه نداء الله مهما بعد عن الله وطال بعاده.

المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح، الجسد لن يوصلنا إلى الله! إن الجسد لا يطيق الله: «محبة الجسد عداوة لله»!! فلكي يقبل الإنسان معجزة الميلاد الثاني من فوق يلزمه حتماً أن يُخضع الجسد لمعجزة الموت: أن يكف الجسد عن أن يحيا لنفسه، ويكف عن أن يقود مسيرة الحياة: «وكان يقتاد بالروح.» (٤:١).

٧- لاَ تَتَعَجَّبْ أَنِّي قُلْتُ لَكَ: يَنْبَغِي أَنْ تُولَدُوا مِنْ فَوْقُ.

هذه الآية مرتبة على سابقتها، أي إذا كان المولود من الجسد يبقى جسداً والمولود من الروح يصير روحاً، إذن، لا تتعجب إذا قلت لك ينبغي أن تولدود من فوق! هذا إذا كنت تريد أن تصير رجلاً روحياً وتتأهل للحياة في ملكوت الله. أو بمعنى أكثر وضوحاً إذا كنت قد جئت إلي لتتعلم كيف تحيا كما ينبغي لإنسان يريد أن يدخل ملكوت الله، فلن تنفعك الأعمال الجسدية كلها، مهما كانت، فهي من الجسد وتؤول إلى الجسد، ولكن يلزم أن تصير إنساناً روحياً تحيا بالروح وليس بالجسد: «فلا تتعجب إذا قلت لك ينبغي أن تولدود من فوق».

٨- اَلرِّيحُ تَهُبُّ حَيْثُ تَشَاءُ وَتَسْمَعُ صَوْتَهَا لَكِنَّكَ لاَ تَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ تَأْتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ تَذْهَبُ. هَكَذَا كُلُّ مَنْ وُلِدَ مِنَ الرُّوحِ».

في اللغة العربية يصير كلام المسيح هنا، الذي يبرهن به على عدم قدرة الإنسان على ملاحقة عمل الروح القدس ومعرفة كيفية عمله، يصير فهمه صعباً نوعاً ما، لأنه في اللغة اليونانية التي كُتب بها الإنجيل واللغة العبرية وهي اللغة الأصلية التي تكلم بها المسيح، يأتي اسم «الروح» مطابقاً لاسم «الريح» حرفياً، بل حتى كلمة «يهب» الريح تأتي من أصل كلمة الريح.

ولكن القصد العام من كلام المسيح يمكن تشبيهه بشجرة هادئة وفجأة تجد أغصانها تتحرك وأوراقها تصفق وتسمع صوت الريح يتخللها بوضوح فتعرف أن الشجرة استهدفت لعمل الريح، ولكن لا تعرف من أين أتى الريح ولا إلى أين سيذهب، هكذا كل من وُلد من الروح، تظهرعليه علامات عمل الروح القدس بغاية الوضوح والقوة، في كلامه، في

تصرفه، في فهمه، في حبه، في صبره، في اتضاعه، في شجاعته، في حكمته، في رؤيته للأمور الروحية وأمور العالم الحاضر. وباختصار تجده إنساناً آخر غير الذي كنت تعرفه، فتعرف بكل يقين أنه أُستهدف لعمل الروح القدس بالميلاد من فوق.

ولكن ليس قصد المسيح أن يوضح أن الميلاد الثاني من فوق يمكن شرحه تماماً، فهذا يبقى سراً لا يمكن أن يعرفه إلا الذي أخذه، ولكن شرح المسيح هو توضيحي يعتمد على المقارنة التي تبقى في حدود الجسديات. فالرياح لا تخرج عن كونها قوة طبيعية مادية: «كما أنك لا تعلم طريق الريح... كذلك لا تعلم أعمال الله الذي يصنع الجميع.» (جا ١١:٥)

٩- فَسَأَلَهُ نِيقُودِيمُوسُ: «كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هذَا؟»

فَقَالَ: «اذْهَبْ وَقُلْ لِهَذَا الشَّعْبِ: اسْمَعُوا سَمْعاً وَلاَ تَفْهَمُوا وَأَبْصِرُوا إِبْصَاراً وَلاَ تَعْرِفُوا. غَلِّظْ قَلْبَ هَذَا الشَّعْبِ وَثَقِّلْ أُذُنَيْهِ وَاطْمُسْ عَيْنَيْهِ لِئَلاَّ يُبْصِرَ بِعَيْنَيْهِ وَيَسْمَعَ بِأُذُنَيْهِ وَيَفْهَمْ بِقَلْبِهِ وَيَرْجِعَ فَيُشْفَى». (إش٦:٩-١٠)

أَنَّ الْقَسَاوَةَ قَدْ حَصَلَتْ جُزْئِيّاًلإِسْرَائِيلَ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ مِلْؤُ الأُمَمِ. وَهَكَذَا سَيَخْلُصُ جَمِيعُ إِسْرَائِيلَ. (رو ١١:٢٥-٢٦)

السؤال يطلب توضيحاً، لأن الكلمة «كيف يكون هذا» هي باليونانية: «كيفر هذا يصير أو يتم»، فالسؤال هو عن عملية الولادة الثانية كيف تكون. وفي الحقيقة إنه أمر غير محتمل من هذا المعلم أن يسأل هذا السؤال، لأن المسيح أوضح له أن هذا العمل فائق وهو من اختصاص حركة الروح القدس أي حسب قوانين عمل الله تجاه الإنسان؛ أي بمنتهى الوضوح والصراحة أدخل المسيح عملية الميلاد الثاني من فوق ومن الماء والروح في دائرة اختصاصه هو، أي في محيط معرفته وعلمه فيما يخص عمل الله.

١٠- أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنْتَ مُعَلِّمُ إِسْرَائِيلَ وَلَسْتَ تَعْلَمُ هَذَا!.

مراجعة بل مساءلة أليمة، يوجهها المسيح بل الله لمعلم التوراة والقيّم على إنارة شعب الله، لا يوجهها لنيقوديموس بل لكل معلمي إسرائيل وفريسييه وكتبته في شخص نيقوديموس. ألم يتكلم الله على فم كل أنبيائه ومختاريه عن عمل الروح في الإنسان وتغييره كلية حتى إنه يصير شخصاً آخر؟

«فأخذ صموئيل قنينة الدهن وصب على راسه وقبله وقال... يحل عليك روح الله فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر... وكان عندما أدار كتفه لكي يذهب من عند صموئيل أن الله أعطاه قلباً آ!! وأتت جميع هذه الآيات في ذلك اليوم، ولما جاءوا إلى هناك إلى جبعة، إذا بزمرة من الأنبياء لقيته. فحل عليه روح الله فتنبأ في وسطهم.» (اصم١٠:١-١٠)

وهل يكون عمل الروح للتجديد وتغيير الإنسان أكثر من هذا؟

«فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه وسط إخوته وحل روح الرب عل داود من ذلك اليوم فصاعداً» (اصم١٦:١٣)

وهل هذا ليس على مستوى ميلاد ثان للانسان ليحيا بالروح كل أيامه؟

+ ومن جهة الخلق الجديد في الإنسان ألم نسمع من داود النبي نفسه، عندما أخطأ إل الله، كيف صرخ: «قلباً نقياً اخلق فيّ يا الله وروحاً مستقيماً جدد في داخلي» (مز٥١:١٠)، أليس هذا خلقاً جديداً وبعد التجديد أيضاً! لأنه رأى أن صومه وصلاته وعبادته وتسابيحه لن تغنيه من التجديد والخلق الجديد؟

+ ثم ألم يتكلم حزقيال النبي معلماً وشارحاً عن ما سيتم بالحرف الواحد في أيام المسيا الذي وقف نيقوديموس أمامه ولم يتذكر كلمة واحدة مما قال: «وأعطيهم قلباً واحداً، وأجعل في داخلكم روحاً جديداً، وأنزع قلب الحجر من

لحمهم وأعطيهم قلب لحم» (حز١١:١١)
أليس هذا ميلادا جماعياً كولادة شعب بمواهب روحية واحدة؟
+ ثم ألم يحزر حزقيال النبي أيضاً الذين يتوانون من مثل هذا التجديد الذي سيمنحه الله في وقته: «اطرحوا عنكم كل معاصيكم التي عصيتم بها (التوبة) واعملوا لأنفسكم قلبا جديدا وروحاً جديدة فلماذا تموتون يا بيت إسرائل» (حز١٨:٣١). فبدل أن يركض معلم التوراة والناموس وفي مقدمتهم نيقوديموس لينالوا القلب الجديد والروح الجديد، جاء يسأل بلسانهم «كيف يكون هذا؟»
+ ثم ها هوذا أيضاً حزقيال يجمح عمل الماء مع عمل الروح باعتبار ذلك سر قوة التجديد الذي سيرسله الله لهم على يدي المسيا: «وأرش عليكم ماءً طاهراً فتطهرون من كل نجاساتكم ومن كل أصنامكم أطهركم، وأعطيكم قلبا جديداً، وأجعل روحاً في داخلكم» (حز٣٦:٢٥-٢٦)
+ ثم هوذا حزقيال أيضاً ينال من الله أمراً صريحاً بأن «يتنبأ للروح أن يهب»، وهو بالحرف الواحد نفس الإصطلاح الذي استعمله الرب يسوع: «الريح تهب حيث تشاء...»، حتى صار معلم إسرائيل بلا عذر ان يجهل كيف يكون هذا: «فقال لي تنبأ للروح يا ابن آدم وقل للروح هكذا قال السيد الرب: هلم يا روح من الرياح الأربع، وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا. فتنبأت كما أمرني، فدخل فيهم الروح، فحيوا وقاموا على أقدامهم، جيش عظيم جداً جداً. ثم قال لي: يا ابن أدم هذه العظام هي كل بيت إسرائيل. ها هم يقولون يبست عظامنا وهلك رجاؤنا. قد انقطعنا. لذلك تنبأ وقل لهم: هكذا قال السيد الرب: هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي... وأجعل روحي فيكم فتحيون.» (حز٣٧:٩-١٤).
+ ثم من جهة العهد الجديد الذي وعد به الله، وكيف سيتولى الله بنفسه تعليم الشعب بأن يلقن قلوبهم علم معرفته فلا يحتاجون إلى معلم بعد بل يكون الله هو«المعلم» : «ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا، ليس كالعهد (الأول)... أجعل شريعتي في داخلهم واكتبها عل قلوبهم وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لى شعباً. ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب، لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم، يقول الرب، لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد» (إر٣١:٣١-٣٤). أليس هذا هو عهد التجديد وميلاد الإنسان الجديد وعلم الله الجديد؟
+ ثم كيف أن الله يلد أولاداً ويلد مدينة ويلد شعباً ويمخض بهم بالروح ويلدهم؟ كان إشعياء في ذلك واضحاً غاية الوضوح: «بل افرحوا وابتهجوا إلى الأبد فيما أنا خالق، لأني هأنذا خالق أورشليم بهجة وشعبها فرحاً. فأبتهج بأورشليم وأفحر بشعبي... من سع مثل هذا. من رأى مثل هذه: هل تمخض بلاد في يوم واحد، أو تولد أمة دفعة واحدة؟ فقد مخضت صهيون، بل ولدت بنيها. هل أنا أمخض ولا أولد يقول الرب.» (إش٦٥:١٨-١٩، ٦٦:٨-٩)
+ وعن عمل الروح القدس جهاراً وانسكابه بلا كيل، يقول يوئيل النبي: «ويكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل بشر، فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويحلم شيوخكم أحلاماً ويرى شبابكم رؤى؛ وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء أسكب روحي في تلك الآيام.» (يوئيل ٢:٢٨-٢٩)
فماذا إذاً؟ أليس هذا دليلاً على أن معلمي الشعب تركوا تعاليم الله الحية المبهجة وتعزياته التي بلا عدد، نسوها وأهملوها، ففقدوا حاسة الرؤية العقلية والروحية لما انشغلوا بالقوانين الحرفية والوصايا الجسدية. فلما جاء العصر الموعود وتحققت كل وعود الله وظهر المسيا الذي يطلبونه وانسكب الروح، لم يعرفوه. وأمام تحقيق أجمل مواعيد

الله وهي خلق الإنسان خلقاً روحيا جديداً بقلب جديد وروح جديد، وقف نيقوديموس يسأل كيف يكون هذا؟؟ بدل أن يقول ها أنذا!!

١١- اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّنَا إِنَّمَا نَتَكَلَّمُ بِمَا نَعْلَمُ وَنَشْهَدُ بِمَا رَأَيْنَا وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَ شَهَادَتَنَا.

هنا الآية امتداد للسؤال الإستنكاري الذي طرحه الرب على نيقوديموس موبخاً: «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا؟» هنا يقول الرب: أما أنا فأعلم، ويعلم معي ويشهد عليك كل الذين تنبأوا عن هذه الآيام، وعن عمل الله الذي وعد به والذي هو غريب في عينيك. والمسيح لما يتكلم يتكلم عن مصدر المعرفة والرؤية، ولما يشهد يشهد ومعه الآب الذي أرسله. وان جاءت الكلمات في هذه الأية بالجمع فهي بسبب تعذر القول بالشهادة بالمفرد، فالشهادة الشرعية لا بد أن تكون لأكثر من واحد، لذلك جمع الشهادة والعلم معاً:«نعلم ونشهد».

وقد جاءت هذه الآية نفسها مرة أخرى، وفي هذا الآصحاح أيضاً، عن المسيح ولكن بمنطوق الشخص الثالث الغائب: «ما رآه وسمع به يشهد، وشهادته ليس أحد يقبلها.» (يو٣:٣٢). أما قولنا أن الآب يشهد معه، فهذا يؤكده أيضاً بعد ذلك قول الأية: «ومن قبل شهادته، فقد ختم أن الله صادق.» (يو٣:٣٣)

ولكن تمشياً مع فكر نيقوديموس الأرضى والمحدود، فمن الممكن أن يكون الرب قد تماشى معه على مستوى رؤيته. فالرب يتكلم ويجواره تلاميذه الذين كانوا سابقاً أيضاً تلاميذ المعمدان، هؤلاء رأوا وعلموا يقيناً ما هو الميلاد من الماء وما هو عمل الروح القدس في الماء ومح الماء. فالمسيح يتكلم ومعه من يعلم ومن رأى ويشهد. وإن كان هذا الفكر لا يلزمنا نحن الذين نعلم من هو الذي يعرف بالحق، ومن هو الذي رأى بالحق!!

١٢- إِنْ كُنْتُ قُلْتُ لَكُمُ الأَرضِيَّاتِ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ فَكَيْفَ تُؤْمِنُونَ إِنْ قُلْتُ لَكُمُ السَّمَاوِيَّاتِ؟.

«أنا الرب إلهك الذي أسس السموات وخلق الأرض، الذي يداي صورت كل جند السموات ولكني لم أظهرها لك حتى لا تذهب وراءها.» (هو١٣:٤- حسب الترجمة السبعينية)

الأرضيات هنا، بحسب لغة القديس يوحنا وحسبما تكون الكلمات صادرة من فم المسيح وتشبيهاته، فهي تعني الأمور الروحية كالميلاد الثاني إنما مشروحة على المستوى الجسدي بأمثال أرضية «كالريح التي تهب»، أو الجسد «كالخبز المكسور»، أو الدم «كالخمر الممزوج في الكأس»؛ فإذا لم يستطع اليهود أن يؤمنوا بالروحيات بالرغم من تجسيدها على مستوى فهم الأرضيات فكيف يؤمنون بها لو استعلنها لهم على مستوى جوهرها السمائي والإلهي؟

واضح جداً أن عجز معلم إسرائيل هذا المرموق الذي جاء ليمثل أعلى طبقة متعلمة في إسرائيل، أقول إن عجزه في ملاحقة شرح الرب للميلاد الثاني للانسان من الماء والروح بالرغم من أن الرب أعطاه مثلاً موازياً من الأمور الأرضية، هذا العجز جعل الرب يقتصد جداً في التعمق في شرح الأمور الروحية التي تتبع حتماً الميلاد الجديد والتي تختص بصورة الإنسان ومؤهلاته وكفاءته في رؤية الله والدخول إلى الملكوت، بل وجعله يكف عن الإسترسال في أمور السماء نفسها، وهذا أمر يحز في نفوسنا. هذا التعجيز عينه واجهه بولس الرسول عند الإسترسال في أسرار الروح للكورنثيين: «وأنا أيها الإخوة لم أستطع أن أكلمكم كروحيين بل كجسديين ، كأطفال في المسيح سقيتكم لبناً لا طعاماً لأنكم لم تكونوا بعد تستطيعون بل الآن أيضاً لا تستطيعون» (اكو٣:١-٢). ويرد على هذا الكلام سفر العبرانيين: «لأن كل من يتناول اللبن هو عديم الخبرة في كلام البر لأنه طفل وأما الطعام القوي فللبالغين، الذين بسبب التمرن قد صارت لهم الحواس (الروحية) مدربة على التمييز بين الخير والشر» (عب٥:١٣-١٤). وطبعاً فإن ما يقصده الرب من قوله «الأرضيات» هو النصيب الذي يتلقاه أولاد الله من الروح هنا على الأرض، مشروحاً

بأمثلة أرضية مثل الميلاد من الماء والروح، وهو يختص بالسلوك والحياة هنا. السماويات هي النصيب المعد لأولاد الله في السماء، وهو الجزء الأعظم والأكمل للخلاص الذي بُديء به هنا. لأن الميلاد الثاني وإن كان يحدث الأن في هذا الزمان وعلى الأرض، ولكنه أصلاً وبالنهاية فهو لحساب الملكوت والحياة مع الله.

وكلام الرب لا يفيد أنه لن يتكلم أو يعلم عن السماويات عامة، بل الكلام موجه للفريسيين الذين عجزوا عن اللحاق ببداية المسيرة الروحانية بالميلاد (من الماء والروح). فكيف سيقبلون مثلاً الأكل من الجسد والدم الإلهيين، أو «أنا والآب واحد»، أو الفداء بدم ابن الله، أو القيامة من الأموات، أو الصعود والجلوس عن يمين الآب؟

ب- الحديث الغير مباشر مع نيقوديموس (٣:١٣-٢١)

وتستمر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: الحية النحاسية المرفوعة على خشبة، والمريض الناظر إليها يشفى من عضة الحية.

الجديد: «هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الآبدية».

الاستعلان: موت ابن الله على الصليب.

القديم: ظلمة الأعمال الشريرة، بغضة النور، الدينونة.

الجديد: الإقبال إلى النور بأفعال الحق المعمولة بالله .

الاستعلان: «النور جاء إلى العالم».

١٣- وَلَيْسَ أَحَدٌ صَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ إِلاَّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ابْنُ الإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ فِي السَّمَاءِ.

يقول بعض من الشراح إن الكلام مع نيقوديموس قد انتهى عند الآية السابقة (١٢)، ولكن معظم الشراح قالوا بانتهاء الحديث مع نيقويموس عند الأية (١٥). وربما يكون بعض الآباء قد أخذوا بهذا الفكر، ولكن لا يوجد قط ما يبرر هذا وذاك. فكلام المسيح واضح ومسترسل، بل ومتحمس لكي يعطي نيقوديموس أقصى ما يمكن من عناصر التجديد والحياة الآبدية التي جاء من أجلها.

ويلزم هنا أن ننبه ذهن القارىء لبداية حديث نيقوديموس بقوله: «يا معلم نعلم أنك أتيت من الله مُعلماً..». هنا في الواح يقسم نيقوديموس نظرته للمسيح إلى جزئين: الاول: شخص المسيح، والجزء الثاني: رسالته .

وعلى هذا القياس، كان رد المسيح المسترسل الطويل. فبدء كل زي بدء هو أن المسيح لم يجىء معلما يعلم بعلم أفضل، بل جاء ليعطي حياة أفضل، من فوق حيث أتى، فهو لا يعلم علم الملكوت بل يلد من روحه، من السماء، أبناء جدد للملكوت. أما من جهة شخصه أنه أتى من الله معلما فقد رد المسيح أنه نزل من السماء، بعمل سيشرحه حالاً، (الإرتقاع على الصليب والبذل والحياة الآبدية)، وسيصعد إلى السماء، ليبقى هناك. لأنه هو من هناك! وهكذا يستمر المسيح.

كذلك ينبغي أيضاً أن ننتبه، لأن الميلاد الذي جاء المسيح ليعطيه «من فوق»، هذا الذي صعب على نيقوديموس فهمه وتفسيره، سيبدأ المسيح ليوضح له سهولة الميلاد من فوق كونه هو«من فوق» وكون ارتفاعه (على الصليب) سيعطي الحياة الأبدية التي هي عنصر الحياة في الميلاد من فوق. لهذا ينبغي الإلتفات إلى الترابط بين عناصر الحديث، لأنها غاية في العمق.

تبتدىء الآية هنا بحرف «و» وهي تصل الكلام بالسابق مع إعطاء فكر جديد يفوق في قوته. ما ذُكر سابقاً. فالمعنى في جملته يكون هكذا: ولو أنه يوجد من لا يصدق أمور السماء، ولكن الذي يتكلم هنا عن أموو السماء

هو من نزل من السماء، ابن الإنسان (بالتجسد) وهو اصلاً في السماء! إلا أنه لن يمكث على الأرض كثيراً فهو سيصعد إلى السماء كما كان. والكلام يحوي معاني أخرى داخل مضمون هذا النزول والصعود وهي أسرار السماء، ويلزم أن ننفتح لقبولها كما أنه يلزم أن نفتح أعين قلوبنا لإدراك من هو هذا: «ابن الإنسان» الذي نزل من السماء لنتعرف عليه شخصياً لأنه سيوضح نفسه بأعماله.

«ليس أحد صعد إلى السماء»: «دصعد» هنا الفعل في المضارع التام الذي يفيد الحدوث المكتمل والمستمر إلى الآن. ولذلك أضاف «ابن الإنسان الذى في السماء (الآن)»، ويلزم هنا أن نذكر ما سبق أن قاله القديس يوحنا: «الله لم يره أحد قط. الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبر».

والمعنى أنه ليس إنسان قط استطاع أن يرتفع إلى مناطق الحق العليا ليتحقق منها، ولا أحد أيضاً أُعطيت له أسرار السموات إلا «ابن الإنسان» الذي يحمل في كيانه البشرية كلها ويمثلها تمثيلاً. فهو وحده عنده معرفة الحق المطلق بجملتها، ليس كمن يستقبلها أويتعلمها، بل هي تنبع فيه كمن يمتلكها. وهو لما صعد إلى السماء، لا يكون كمن يرتفع، أو يُرفع، فهو يحمل مجد الصعود في ذاته، لأنه هو على الأرض ليس كمن يقيم أو يستوطن بل كزائر نزل من السماء لمهمة ورسالة، بالتجسد، فالسماء هي وطنه. لذلك فأمور السماء كلها هي معرفته الخاصة، وليس كأنه يتعرف عليها كشيء ليس له، فهي صورة من حياته جاء ليورثها لنا. وهنا فعل «الصعود» تم مرة واحدة مكتملة الفعل.

«نزل من السماء»: «نزل» وهو فعل في زمن الماضي البسيط. ويلزم أن ننتبه أن قوله «نزل من السماء» هو التعبير الذي يتجسم لنا في قوله: «والكلمة صار جسداً» حيث جاء الفعل «صار» وهو أيضاً في زمن الماضى البسيط، كتعبير عن صحة حدوث التجسد في صميم الزمن. غير أن زمن الماضى البسيط لا ينفي استمرارية النزول، ولذلك جاء نفس الفعل في أية أخرى في زمن المضارع المستمر الذي يفيد دوام النزول، لأن التجسد أو النزول فعل حدث ولا يزال حادثاً وقائماً إلى الأبد.

«لأن خبز الله هو النازل من السماء، الواهب حياة للعالم» (يو٦:٣٣)، يلاحظ ها أن النزول في حالة الدوام، وموطن صاحب هذا الجسد هو السماء أصلاً: «ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء».

وكأنما الرسالة الأصلية للمسيح التي نزل إليها من السماء هي ليعطينا جسده، على الدوام، خبزاً حقيقياً لنحيا به، على الدوام. أما الذين يعرضون عن هذا الخبز الحقيقي المحيي ويرفضونه، فحجتهم هي هذه: «أليس هذا هو يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه فكيق يقول هذا إني نزلت من السماء» (يو٦:٤٢)، «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكله؟» (يو٦:٥٢). هذه هي عثرة «إتضاع المسيح»!! «وطوبى لمن لا يعثر فيّ.» (يو٦:٤٢)

وليلاحظ القارىء أن «النزول من السماء» هو اصطلاح خاص بالله في العهد القديم: «... ويكونوا مستعدين لليوم الثالث، لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون جميع الشعب على جبل سيناء» (خر١٩:١١)، «فأنزل أنا وأتكلم معك هناك وآخذ من الروح الذي عليك وأضع عليهم فيحملون معك ثقل الشعب.» (عد١١:١٧)

وتعتبر الآية التي نحن بصددها: «... إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان، الذي هو في السماء» شرحاً مبسطاً غاية التبسيط للتجسد على أساس آيات العهد القديم التي ذكر فيها «نزول الله» ولكن استبدل فيها «ابن الإنسان» بدل كلمة «الله» بسبب «ظهور الله في الجسد» (اتي٣:١٦). فإذا علمنا أن الذي «نزل من السماء» هو ابن الله

حنئذ تتضح الآية: «لأني نزلت مز الساء، ليس لأعمل مشيئتي، بل مشيئة الذي أرسلني.» (يو٦:٣٨)
والأن إذا انتبهنا إلى مفهوم «النزول من السماء» بصورته العامة، نرى أن نزول ابن الإنسان في هذه الآية التي نحن بصددها (١٣) لا يختص فقط باستعلان أسرار السماء بل توصيل رسالة الخلاص والحياة الأبدية، أو باللغة التي تناسب نيقوديموس إعطاء الدخول إلى ملكوت الله.

كما يلاحظ أن هذه الأية (١٣) لو دققنا في مشتملاتها من حيث رسالة النزول ورسالة الصعود، نجد أنها تجمع كل أعمال المسيح: التجسد، أعمال الفداء والخلاص حتى الصعود. لذلك لا نستغرب أن الآية التي تأتي بعدها مباشرة (١٤) تتكلم عن أول فعل من أفعال الخلاص وهو الصليب، ولكن في صورة «ارتفاع». تعبيرا عن المجد الذي سيليه حتماً وذلك باستخدام رمز الحية.

١٤- «وَكَمَا رَفَعَ مُوسَى الْحَيَّةَ فِي الْبَرِّيَّةِ هَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُرْفَعَ[1] ابْنُ الإِنْسَانِ.

١٥- لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ.

هنا بداية عمل ابن الانسان، شرحها المسيح على مستوى فكر نيقوديموس معلم إسرائيل:

ويمكن شرح الموضوع هكذا: قصة سقوط الإنسان بدأت بالحية التي استطاعت أن تسرب الخطية القاتلة للانسان. وقد أفلح الناموس (التوراة) على يد موسى (عد٢١:٧) أن يصور بالرمز الخلاص المزمع أن يتم للانسان المسموم بشوكة الموت، أي الخطية التي هي من صنع الحية. فانتهز موسى فرصة انتشار الحيات المحرقة أي التي تتلمظ بلونها الضارب إلى الحمرة كالنار المحرقة، التي ترمز إلى جهنم، التي بدأت تفتك بالشعب غليظ الرقبة جزاء تمرده على الله مرة ثانية كأبيهم أدم. فأقام مومى بمشورة الله الذي يصور أشباه السمويات وظلها، تمثال حية نحاسية حمراء وأقامها على عود من الخشب عالياً في وسط الشعب؛ وأمر أن كل من تلدغه حية، عليه فقط أن ينظر الى الحية بإيمان فيشفى.

فالحية، كرمز، هي حاملة الموت؛ ولكن تمثال الحية النحاسية، هو حية ميتة، سمها مقتول. هكذا اختار الله أن تكون الحية النحاسية هي رمز المسيح الذي أخذ خطية الانسان ككل في جسده ومات بها، فقتل الخطية بالجسد. لهذا يقال أن المسيح أمات الموت!! ودان الخطية بالجسد، أي حكم عليها حكماً مؤبداً بالعدم حينما مات بها ثم

---

[1] لقد راجعنا الآباء في ما قالوه عن الحية النحاسية غير اننا لم نعثر على كبد الحقيقة. فالقديس يوستين في حواره مع تريفو عندما سأله تريفو اليهودي عن هذا الرمز كان جوابه: [أنا لا أستطيع أن أعطي جواباً في هذا لأني طالما سألت معلميني فلم يعطوني جواباً شافياً].
ويقول القديس أمبروسيوس: [إن حيتي هي حية صالحة لأنه لا يخرج سم من فمها بل الدواء الشافي] في شرحه للمزمور١٤٣
يقول أوريجانوس: [إن الحية النحاسية هي الشبه للمخلص، وكنه لم يكن هو الحية لكنه كان يمثلها].
القديس غريغوريوس النيسي يشرح ذلك مطولاً فيقول: [إن الناموس يوضح لنا أن المنظور على الصليب كان على شبه الحية، ولكن لم يكن حية كما يقول بولس الرسول: «في شبه جسد الخطية» (رو٨:٣) لأن الحية الحقيقية هي الخطية، والذي يلجأ للخطية يأخذ طبيعة الحية. فالإنسان أُخلي من الخطية بواسطة الذي أخذ شكل الخطية وصار على شكلها وهو الذي تغير بشبه الحية]. وقد حذا حذوه ذهبي الفم وثيئوفيلس الأنطاكي
ويقول القديس إبيفانيوس أسقف قبرص نفس الفكرة تقريباً وأضاف: [إن الحية كانت تمثل المسيح. فاليهود حينما عاملوا المسيح كأنه حية، فقد أصابهم سم الحية أي الشيطان. وحنئذ جاء الشفاء للذين عضتهم الحية حينما رُفعت الحية)
القديس أغسطينوس يقول: [إن رفع الحية هو موت المسيح].

قام. وبقيامته أعطانا الصليب الذي صُلب عليه كصك ينص حكم إعدام الخطية، وموت الموت حتى نُشهره أمام الضمير، وفي يوم الدينونة العتيد. فالآن، الذي ينظر إلى الصليب والجسد عليه ميتا، مؤمناً بما صنع المسيح بالخطية، فهو يحيا «الذي حمل هو نفسه خطايانا في جسده على الخشبة لكي نموت عن الخطايا فنحيا للبر» (١بط٢:٢٤)

فلكي نفهم كل سر رفع الحية النحاسية في البرية، يلزم أولاً فهم الحقيقة التي قام عليها هذا الرمز قديماً. أي أن موت المسيح على الصليب وما تم بسببه من الخلاص والحياة من موت محقق، هو الذي يشرح معنى رفع الحية النحاسية في البرية. أي أنه يلزم قراءة الأية من الآخر كالآتي: «ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان، كما رفع موسى الحية في البرية»، لأنه بدون سر الحياة التي تمت بموت المسيح على الصليب، يبقى مثل الحية النحاسية المرفوعة في البرية لغزاً يستحيل حلة.

«هكذا »ينبغى» «أن يرفع» ابن الإنسان».

كلمة «ينبغي» ضعيفة في تعبيرها عن المقصود في الأصل اليوناني، فكان الواجب أن تكون الترجمة «يتحتم». ولماذا يتحتم؟

في الحقيقة إن استخدام كلمة «ابن الإنسان» هنا هي تعبير مكشوف من التجسد، فيلزم للقارىء أذ ينتبه دائماً حينما يقابل كلمة «ابن الإنساذن» أن يترجمها في ذهنه إلى ما تم في التجسد، وخاصة اتحاد اللاهوت بالناسوت في شخص المسيح. فلأن ابن الله «تجسد»، أي صار «ابناً للانسان»، فهنا سر الضرورة الحتمية أن يتألم أي يرتفع على الصليب؛ لأنه لم يتجسد إلا لكي يتألم بالجسد ويموت ليتم الخلاص للانسان: «لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة»! (يو١٢:٢٧) ولكن لأن الجسد متحد باللاهوت، فبمقتضى لاهرت ابن الإنسان أصبح من المحتم وبالضرورة أن يقوم ابن الإنسان ويرتفع، أي يصعد إلى السماء حيث كان!

ولكن لأن أسلوب القديس يوحنا في التسجيل عميق غاية العمق ومتسع غاية الإتساع، وكل ذلك في اختصار بالغ الشح، استخدم هنا بلسان المسيح «الإرتفاع» لكي يشمل الإرتفاع على الصليب في ألم، ثم بالتال الإرتفاع أي الصعود إلى السماء في مجد.

والآن إذا عدنا لقراءة الآية مرة أخرى من الأول: «وكما رفع موسى الحية في البرية...» يظهر المعنى القوي المقصود وهو أنه كما حدث الشفاء للذين عضتتهم الحية في البرية عندما رفع موسى الحية النحاسية، «هكذا يتحتم أن يُرفع ابن الإنسان» ليحدث الشفاء من الخطية والموت الذي من صنع الحية القديمة.

لاحظ أن في «الرفع» سواء كان للحية النحاسية أو المسيح يكمن سر الخلاص.

«لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الابدية»:

لا زلنا ننظر، بالتوازي، شعب إسرائيل في البرية وهو منطرح على الأرض جثثاً هالكة من سم الحية، ولكن كل من أطاع وامن ونظر إلى تمثال الحية النحاسية عاش.

المنظر هنا يعود ويصور المسيح مرفوعاً، في لغز، لأن ميعاد الصليب لم يحن بعد، والكلام لنيقوديموس. فكل من يرفع قلبه بالإيمان إليه ينجو من الهلاك الأكثر من هلاك سم الحية المحرقة، الذي يورد الجسد إلى العطب، لأن هلاك عدم الإيمان بالمسيح يغلق على الإنسان في حضن الحية القديمة (إبليس) التي تمتص منه رحيق الحياة أولاً بأول، ولا ينتظر بعد الموت إلا الموت، حيث نشيد الهاوية: «إذا رجوت الهاوية بيتاً لي وفي الظلام مهدت فراشي،

وقلت للقبر أنت أبي وللدود أنت أمي وأختي، فأين إذاً آمالي، آمالي من يعاينها؟ تهبط إلى مغاليق الهاوية إذ ترتاح معاً في التراب.» (أي١٧: ١٣-١٦)

«تكون له الحياة الأبدية»:

الذي كان ينظر إلى الحية النحاسية كان يقوم ويحيا، تماماً وهكذا من بالإيمان ينظر إل المسيح تدب فيه عناصر الخلود، وتنسحب منه قوى الموت والفساد فلا يسود عليه الموت بعد، لأنه بعد الموت تكون له الحياة الأبدية!!

ويلذ لنا أن نتأمل في أسلوب الأية البديع في قوله «تكون "له" الحياة الأبدية»، وليس مجرد «يحيا إلى الأبد» وكأن الحياة الأبدية لم تعد منة أو حسنة من حسنات الله، بل تصبح الحياة الأبدية له وكأنه يمتلكها، فتحل كل بركاتها عليه. وبأسلوب القديس بولس الرسول لا يمتلكها فقط بل «يرثها»!!

١٦- لأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ابْنَهُ الْوَحِيدَ لِكَيْ لاَ يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ بَلْ تَكُونُ لَهُ الْحَيَاةُ الأَبَدِيَّةُ.

نلاحظ أن في الآيتين المتلاحقتين تتكرر نفس الكلمات «لا يهلك كل من يؤمن به»، هذا هو التشديد الذي أتت من أجله الآية الثانية، فالتركيز فيهما هو على الإيمان. الكلام موجه لنيقوديموس، ليس العمل بالناموس هو الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية ولا التعليم ولا الآيات بل «الأيمان». والمسيح إذ أعطى مثل ورمز الحية النحاسية، يعطي أبسط صورة للايمان بكلمة وعد الله على يد موسى أن من ينظر إلى الحية النحاسية المرفوعة يُشفى؛ ثم يطبق على ابن الإنسان، ليرتفع بالإيمان من مجرد كلمة وعد إلى استعلان أول وأبسط صورة للفداء: «ابن الإنسان» مرفوعاً عن الأرض بمعنى الموت، ثم يكمل الاستعلان إلى أقصاه أن ابن الإنسان المرفوع عن الأرض هو في حقيقته ابن الله المبذول للموت.

كان منظر الحية النحاسية معلقة على عود مرتفع في وسط إسرائيل منظراً عجيباً وغريباً، ليس على الشعب الموجوع من الحية فقط بل وعلى جميع علماء اليهود والربيين. فهذه الحادثة أو المعجزة لم يستطع الفكر اليهودي أن يلاحقها.

فكم بالحري مثيلتها أن «يرتفع ابن الإنسان» ليكون منظراً للناس (ميتا على خشبة)، حتى كل من ينظر ويؤمن، ينجو من الهلاك الأبدي ويأخذ نصيباً في الحياة الأبدية. صحيح أنه منظر معروض للايمان، والإيمان لا يعتمد على المنظور. ولكن ما هو جوهر هذا المظهر؟

ها يتحتم «الإرتفاع» فوق هذا الرمز القديم، ونتجه إلى السماء لكي نكتشف السر والجوهر عند الله:

«لأنه هكذا أحب الله العالم» _ سر محبة الله للعالم:

«لأنه»، «لأن»» يأتي بعدها جملة مسببة تفيد رداً على كل ما سبق وأُشكل فهمه. المسيح هنا يعطي العلة والسبب في قوله «ينبغي أن يرتفع ابن الانسان»، «كما رُفعت الحية على العصاة في البرية»، بل ويعطي العلة والسبب في ورود نفس هذه الحادثة قديماً باعتبارها عملاً نبوياً بالتمثيل، فك المسيح رموزه في مفهوم الصليب. ويمتد الجواب أيضاً ليعطي العلة والسبب بل والعنى في قول المعمدان: «هذا هو حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١: ٢٩) أما العلة والسبب فهي أن «الله أحب العالم»!!!

موسى رفع الحية النحاسية في البرية، لا لكي يُشفى، بالنظر إليها، الشعب الموجوع من عضة الحية فقط، بل

لتكون تصويراً نبويا بالغ الدقة والتمثيل للعالم كيف يُشفى بالنظر إلى المسيح المصلوب الذي امتص سم الحية، فأفرغ الحية من سمها وأبطل مفعول السم بجسده القائم من الموت حياً.

المسيح هنا يربط ربطاً غاية في الإختزال والقوة بين حب الله للشعب الذي اقتناه لنفسه وحبه للعالم أجمع بكل أممه بقوله: «كما رفع موسى الحية» هكذا «ينبغي أو يتحتم أن يُرفع ابن الإنسان». والمقارنة بين الحبين، حب الله لإسرائيل وحب الله للعالم، تبدو شاسعة البون جدا. فأي نسبة هذه بين التفريط في قطعة نحاس مطروقة على شبه حية ميتة، وبين التفريط والبذل للموت لابن الإنسان الذي هو في الحقيقة الابن الوحيد لله على الصليب!! أو بين شفاء من عضة حية لمتابعة حياة على الأرض، وبين شفاء من موت الخطية لقبول حياة أبدية!!

فلو عرفنا أن ««حب الله» يخص طبيعته الأزلية، لأدركنا أن الأمور التي جرى عملها في القديم من جهة رفع الحية النحاسية ثم فك رموزها برفع ابن الإنسان على الصليب التي بدأ المسيح هنا يطرحها في وعي الإنسان، قد سبق وتم تجهيزها في المشورة العليا الأزلية!

مركز العالم عند الله: لقد كانت التوراة كلها بكل أسفارها شحيحة غاية الشح من جهة ذكر أو حتى تلميح عن محبة الله للعالم. فالأمم في الأسفار منبوذون، بل ولم يفرق أي قول نبوي بين الأمم والأصنام؛ فوضعهم كان موضعا واحداً دائماً، وامتد هذا التقييم عند اليهود حتى رأوا الأمم «كلاباً» أو في مصافهم. في حين نسمع أن الله سبق «فوعد» إبراهيم أبا الجنس اليهودي عامة أن في نسله (بذرته) تتبارك كل الأمم! من هذا نفهم أن الأمم كانوا ذوي ذكر وحب مكتوم عند الله، وإنما من وراء اليهود الشعب المختار.

ثم إذ نخطو خطوة أخرى، نرى من ثنايا هذا الوعد أن الشعب اليهودي إنما اختير ليكون خميرة جيدة يلقي فيها الله ببذرة الإيمان والتقوى والعبادة والإخلاص لله ، مع محبة خاصة حتى تتخمر الخميرة بفضائل معرفة يهوه وحبه، ثم يعود ويوزعها على كل الأرض لتخمر العجين كله. أو بصورة أوضح أن الله اختار وأحب شعب إسرائيل في إبراهيم من أجل بركة العالم كله!

فلما بدأت تفسد الخميرة، إلا الجزء اليسير منها، فتح الله الباب للأمم لترث ميراث الله في قطعة الخميرة النموذجية التي نجحت وصلحت. وحنئذ صار من العدل وقف كل الصلات الممتازة والعطايا السخية والعناية الفائقة المحصورة في شعب إسرائيل؛ ليتسر نقلها إل الأمم بصورة أعم وأشمل، وعلى مستوى العلن والروح لا الجسد. هذا أوضحه الإنجيل من فم الرب عند قوله «وتكون أورشليم مدوسة من الأمم حتى تكتمل أزمنة الأمم» (لو٢١:٢٤). ثم أوضحها بولس الرسول بالروح: «فإني لست أريد أيها الإخوة أن تجهلوا هذا السر لئلا تكونوا عند أنفسكم حكماء، أن القساوة قد حصلت جزئياً لإسرائيل إلى أن يدخل ملؤ الأمم، وهكذا سيخلص جميع إسرائيل... من جهة الإنجيل هم أعداء من أجلكم وأما من جهة الإختيار فهم أحباء من أجل الآباء، لأن هبات الله ودعوته هي بلا ندامة.» (رو١١:٢٥-٢٩)

كل هذا يوضح أن الله كان يحب العالم، ولكنه لم يستطيع أن يمارس حبه في عالم كان يعبد المخلوق دون الخالق. ولكن لما نضجت الشعب وبدأت تقرع باب الله انفتحت أحشاء رحمة الله وانكشف سره المخفي الذي كان محجوزاً عن أعين الشعب المدلل.

إبراهيم وابنه الوحيد المحبوب المقدم ذبيحة؛ وسر بركة الأمم: وإذا عدنا إلى قصة إبراهيم وكيف قدم أبنه «الوحيد اسحق الذي يحبه» بنية تقدمته ذبيحة طاعة لصوت الله، نرى الصورة الأصلية لحب الله نحو العالم المدخر

في قلب الله منذ الدهور الذي «كان كائناً قبل أن يكون إبراهيم».

فقبل أن يطلب الله من إبراهيم أن يقدم ابنه ذبيحة، وعده على أساس تقواه أن يكون أباً لأمم كثيرة: «أما أنا فهوذا عهدي معك وتكون أباً لجمهور من الأمم، وأثمرك كثيراً جداً وأجعلك أمماً، وملوك منك يخرجون» (تك١٧: ٤-٦).

وبعد أن أطاع إبراهيم ودخل التجربة ونجح وقدم ابنه فعلاً وفي يده السكين، أن ناداه الله: «وقال بذاتي أقسمت يقول الرب أني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك، أباركك مباركة واكثر نسلك تكثيراً كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطىء البحر ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض، من أجل أنك سمعت لقولى.» (تك٢٢: ١٦-١٨)

واضح إذن أن الله أحب العالم في إبراهيم قبل أن يكون شعب إسرائيل. ولكن لماذا طلب الله من إبراهيم أن يقدم ابنه وحيده الذي يحبه إسحق ذبيحة؟؟

لقد كان في هذه القصة أول وأعظم نموذج أو آية نبوية أو رمز[1] فيه إفصاح عن نية الله في خلاص العالم بتقديم ابنه وحيده الذي يحبه على الصليب. ففي هذه القصة تذكرة دائمة، لليهود خاصة، لكي يدركوا نيته من نحو العالم، قبل أن يوجد اليهود، حتى إذا جاء دور التنفيذ يكونون عل بينة، وقدمها أيضاً للعالم عامة ولكل الأمم مسجلة في الأسفار بغاية الوضوح، لكي يطلعوا على نية الله منذ القديم من جهة نصيبهم المعد المذخر لهم في مخازن مراحم الله، حتى إذا جاء الميعاد لا يقولون لماذا كنت قد نسيتنا هذا الدهر كله!

ولكن لمن قدم إبراهيم ذبيحته، ومن أجل من كان هذا كله؟

واضح أن الله وضع هذا النموذج العالى السرية لينفذه إبراهيم في ابنه وحيده إسحق أبي الشعب الإسرائيلي كله من أجل الأمم!!! لأن أجر إبراهيم عن هذه الطاعة العظمى لم يأخذه إبراهيم لنفعه، فهو لم ير الأمم ولا درى ببركاتها، بل أخنذه العالم بسببه أو عوضا عنه!! وقد نفذه إبراهيم بالنية أعظم وأكمل تنفيذ، فأكمل التاريخ صورة هذا التدبير الإلهي بأن صار شعب إسرائيل ضحية لتدخل الأمم مجال حب الله عوضاً عنهم. ولكن بقى الفعل أو التنفيذ الفعلي، هذه الدهور السالفة كلها، ليلقى أخيراً على ابن الله الوحيد لكشف سمو هذا الحب:

«حتى بذل ابنه الوحيد»: يلاحظ في الأية السابقة أن الذي «رُفع» هو ابن الإنسان، وهنا في هذه الآية الذي «بذل» في مضمون الإرسال هو «الابن» وهكذا يتدرج المسيح من «رفع الحية» إلى «رفع ابن الإنسان» إلى إرسالية «الابن الوحيد»، تدرجاً من أسفل إلى أعلى.

هنا أول استعلان عن «أبوة الله» في إنجيل القديس يوحنا بعد المقدمة. ويلاحظ القارىء أن التركيز هنا على «الله كأب» بالرغم من أن البذل واضح على الابن كما حدث في إبراهيم وابنه إسحق!! فعملية الخلاص تبدأ من الله وليس المسيح، والجهد الشعوري وأثار «البذل» بل والتضحية الإلهية واقعة على الآب أكثر مما هي واقعة على الابن: «الذي لم يشفق عل ابنه، بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضاً معه كل شيء!» (رو٨: ٣٢). وإن كان الآب لم يشفق على ابنه، فهو في الحقيقة وعين الأمر لم يشفق على نفسه؟ فالابن قائم في الآب قياماً كلياً لا يمكن أن يحدث له شي ء بدون شركة الآب. إن طاعة إسحق لأبيه لما حمل «الحطب على ظهره» (الصليب) وتمدده على المذبح الذي بناه إبراهيم أعطيا لإبراهيم أبيه الكرامة المضاعفة في عين الله، مع أن الضحية كانت في إسحق، إلا

---

[1] إعلم أن الرموز هي أفعال تتم بالشكل لحساب التكميل بالجوهر والفعل، فهي جزء لا يتجزأ من الواقع العملي

أن قوة الذبيحة وطاعتها تركزت بصفة أساسية لحساب إبراهيم الأب!! بل إن قوة الذبيحة التي قدمها «إبراهيم» بالنية كأب هي التي عادت بالبركة على كل شعوب الأرض! هكذا فكل الذي صنعه المسيح وصُنع في المسيح هو لحساب الآب.

من هنا نفهم لماذا ألح المسيح في إنجيل القديس يوحنا أن يعطي كل الكرامة وكل المجد مع كل المشيئة وكحل العمل، وكل القول، للآب بل وحتى الكأس: «الكأس التي أعطانيها الآب ألا أشربها» (يو١٨:١١)، وكأنها كأس الأب!

لذلك من اللائق جداً أن ننتبه إلى أن الخلاص كله الذي أكمله المسيح في هذا البذل الذي تحمله الابن هو بالأساس «عملية حب قائمة في قلب الله ومنتهية إليه»، ولكي نقيم هذا الحب الابوي لله من نحو العالم يكفي أن نقيس مقدار البذل ونوعه، فهو ليس مسألة فكر أو مجرد مشيئة أو تنازل من جهة الله في تحمل أي تضحية من جهة الكرامة، بل إن البذل عملية مست طبيعة الله وجرحت مشاعر الابوة الإلهية في عمق ذات الله كأب يبذل ابنه للعبودية والمذلة والموت!! إذ تغرب ابن الله الوحيد، القائم في حضن الآب، على الأرض في الجسد الذي قبل فيه المهانة والاحتقار والظلم والأضطهاد والبغضة الملاحقة للقتل حتى الذبح على الصليب، والآب تحمل عمق الفعل ونتائجه. وهذا واضح من قول المسيح: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته» (يو١٧:٤). هذا هو قياس درجة حب الله من نحو العالم. وليس بين درجة حب الله من نحو العالم ودرجة البذل التي عاناها الله في ابنه أي مبالغة بل هي موازية في الحجم والقدر، فالبذل مساو لدرجة الحب تماماً.

فالحب تساوى مع البذل، والبذل جاء متساوياً مع الحب. وهذا الارتفاع الصارخ والباهظ في الثمن المدفوع جاء مساوياً للنتيجة المطلوبة وهي خلاص العالم وفداء وتبني الإنسان!!

وهنا يتبلور السر الخطير وينطق نطقاً أن الفداء بالابن الوحيد، أنشأ، ولابد أن يُنشىء، بنوة فريدة للانسان!

فالله كان لا يمكن أن يفرط في ابنه ولا يشفق عليه، إلا إذا كان الثمن والهدف مساويين تماماً للبذل! فبنوة الإنسان لله التي آلت للانسان بموت الابن الوحيد كريمة وكريمة جداً في عين الله الآب.

وبالنهاية نجد أن محبة الله للعالم تعادلت مع بذل الابن الوحيد على الصليب تمام التعادل، وبذل الابن الوحيد على الصليب تعادل تماماً مع منح الانسان درجة البنوة لله حباً وصلحاً وسلاماً ومسرة.

إذن، كم بالحري ينبغي أن تكون هذه الهبة، هبة التبني، كريمة وعزيزة وفائقة القدر عندنا؟

«لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية»: هنا يضع المسيح قوة «حب» الله الآب الذي أنشأ قوة «بذل» عالية القدر والقيمة أشترك فيها الآب والابن معاً، لتساوي في فعلها «رفع الهلاك» عن الإنسان.

أما بالنسبة لقياس حالة الهلاك التي يرزح تحتها كل إنسان في العالم فذلك يمكن قياسه؛ فمن جهة الإنسان نجد الخطية قد ملكت على الإنسان غرائزه وسلوكه، فأفقدته الحركة نحو الحق والبر والتعفف، وورثته العجز في الرؤية، فغاب الله القدوس وارتضى الإنسان بالموت كنهاية لشقائه على الأرض.

أما من طرف الله فقد وقفت الخطية من الإنسان موقفاً معادياً من الله، فصارت كحجاب عازل ليس فقط يحرم الإنسان من الاتصال المباشر بالله، بل ومنعت الله من أن يسكب حبه على الإنسان الذي خلقه على صورته ليعيش معه ويتمتع بالحياة الأبدية خلوا من حزن أو كآبة أو تنهد في نوره العجيب.

فكان لابد أن تُرفع الخطية من الوسط بكل أثارها المخربة والمهلكة من جهة الإنسان وفي نظر الله معا، لكي يسكب

الله حبه من جديد.

أما من جهة الانسان. فتحتم أن يولد من جديد، يولد ثانية من الله كما جبله الله يوم جبله في المرة الاولى، إنما هذه المرة ليس بمجرد نفخة بل باتحاده بروح الله، خلقة جديدة بكل مواهبها السماوية.

أما من جهة الله. فبأن تنفتح أحضان مراحم الله الأبدية بلا مانع ليصنع بابنه خلاصاً أبدياً وليسكب محبته، كل محبته الأبوية في قلب الإنسان ومعها الحياة الأبدية بعمل روح الله القدوس.

وبالنهاية نرى في هذا الفصل عوامل الأساس الراسخ الذي أرساه الله لتكميل خلاص العالم:

العامل الأول فيها، وهو الأمر الذي قضى به الله قضاءً، وانتهى ولن يتراجع عنه، ولا يمكن التراجع عنه، هو أنه أعلن عن حبه عملياً: «هكذا أحب الله العالم» بتقديم حياة ابنه على الصليب من أجل كل إنسان.

العامل الثاني: إرسال روحه القدوس «الريح تهب حيث تشاء» كوعد ثابت من جهة الله لا يفارق الإنسان، بل يسقيه الروح والمحبة والحياة، والامتداد بوعي الإنسان لفحص أعماق الله والإغتذاء من نعمته. وقد أكمل الله وعده هذا بعد أن أكمل الابن الوحيد أساسيات الخلاص والفداء.

والعامل الثالث لتكميل هذا الخلاص ولإطلاق هذه المحبة لتعمل عملها بلا مانع في طبيعة الإنسان لتخلقها من جديد، لزم إيمان الإنسان «كل من يؤمن به...» . ولكن الإيمان المطلوب ليس بالفكر ولا بالجهد والقياس، ولكن «الإيمان بحب الله وتصديق وعده» الذي هو مستعد هلى مستوى القسم الذي أقسم به لإبراهيم، بأن يستقبل الخاطىء يوم يعود إليه ربما هكذا: «بذاتي أقسمت يقول الرب، «بذل ابنه»، لأنك أمنت بابني الذي بذلته عل الصليب من أجلك فإني أباركك بركة... وأجعلك فيه ابناً لى لأجل أنك صدقت حبي» في هذا يقول حزقيال النبي: «حي أنا يقول السيد الرب، إني لا اسر بموت الشرير، بل بأن يرجع الشرير عن طريقه ويحيا» (حز٣٣:١١). وهكذا ليس على الله عمل أكثر من المحبة التي تحققت بموت ابنه عن كل خطاة الأرض، كما ليس على الإنسان عمل أقل من الإيمان بهذا الحب وهذا البذل ليقبل الحياة ويحيا.

المفردات اللغوية للآية:

«**أحب**»: أقوى صياغة باللغة اليونانية للتعبير عن المحبة، وقد جاءت المحبة هنا مُشددة بأكثر من معناها حيث أضاف إليها «هكذا» أو «بهذا القدر أحب الله» . وللعلم، فإن القديس يوحنا استخدم «أحب» «أغابي» في إنجيله ٣٦ مرة، وهذا يكشف عن ضررتها الملحة في التعبير عن لاهوت القديس يوحنا أو بالحري علاقة الله بالناس. وهذا واضح غاية الوضوح في أنه جعل «المحبة» توازي في فعلها التجسد والموت معاً. «هكذا أحب... حتى بذل...» ولكن هذا الحب بهذا القدر والتكثيف والفعل الممتد، سواء في التجسد بكل أصالته وجماله، أو في الموت بكل هيبته وجلاله، لا يدرك قوته حقاُ أو يستعلن عمقه وطوله وعرضه وارتفاعه إلا في الذي يؤمن بالابن، فينال هذا العطاء بكل سخائه و يعيش هذه الحقيقة الالهية، وحينئذ يتحقق فعلاً أن الله محبة.

«**بذل**»: في الحقيقة الترجمة العربية هنا غنية، فقد جاءت بالمعنى ووفت حق امتداده ليشمل «الارسال» إلى العالم بالتجسد، كما يشمل تقدمته مبذولآ على الصليب.

ومما يحقق لنا هذا المعنى المتسع للكلمة، كيف استخدمها بولس الرسول لتوفي نفس المعنى هكذا: «الذي لم يشفق على ابنه بل بذله لأجلنا أجمعين، كيف لا يهبنا أيضأ معه كل شيء» (رو٨:٣٢)

«ابنه الوحيد»: «ابنه الوحيد» جاءت هنا لتزيد من معنى فداحة البذل وقوة الحب معاً. ولا تخلو هذه الكلمة «أبنه الوحيد» من تلميح غاية في الرقة والحساسية إلى المساوي الأقل والضعيف، ومع الفارق، عند إبراهيم بالنسبة لإسحق!

«كي لا يهلك»: هذه الكلمة تعتبر من خصائص اللغة عند القديس يوحنا، وهي إما تأتي غير متعدية (بمعنى يهلك) أو متعدية على مفعول به (بمعنى يُهلك)، وقد تكون في هذه الحالة المفعول به هو نفس الفاعل بمعنى أن الإنسان (يهلك ذاته)، وحيما تأتي غير متمدية قد يكون المعنى الضياع أو الفقدان «اجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع شيء» (يو٦:١٢)، أو قد يكون المعنى «الهلاك» كما جاءت هنا: «لكي لا يهلك» (يو٣:١٦)، أو قد يكون المعنى «الزوال والإبادة»: «اعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقي للحياة الأبدية» (يو٦:٢٧)

وواضح أن الهلاك أو الفناء أو الإبادة هي نصيب الشيء أو الشخص الذي ينفصل عن الله ويبقى متمركزا في نفسه.

«الحياة الأبدية»: في غير إنجيل القديس يوحنا تعني حياة الدهر الآتي بحسب مفهومها اليهودي الرباني التقليدي، ولكن عند القديس يوحنا تميل أكثر إلى معنى الحياة التي بلا نهاية أو الحياة مع الله «كعطية حاضرة» الآن من الله، وهي تقابل ملكوت الله في الأناجيل الأخرى. وملكوت الله أيضاً عند القديس يوحنا، ولو أنها عطية الدهر الآتي، ولكن المسيح بدأها الأن وصارت حقيقة مُعاشة في المسيح.

١٧- لأَنَّهُ لَمْ يُرْسِلِ اللَّهُ ابْنَهُ إِلَى الْعَالَمِ لِيَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لِيَخْلُصَ بِهِ الْعَالَمُ.

قَدْ شَمَّرَ الرَّبُّ عَنْ ذِرَاعِ قُدْسِهِ أَمَامَ عُيُونِ كُلِّ الأُمَمِ فَتَرَى كُلُّ أَطْرَافِ الأَرْضِ خَلاَصَ إِلَهِنَا. (أش١٠:٥٢)

يلاحظ القارىء ازدواج الفكر السلبي ثم الإيجابي. ففي السالفة «... جاء لكي لا يُهلك، بل يكون له الحياة». وهنا «لا ليدين بل ليخلص». هذا أسلوب القديس يوحنا وهو نوع من التحديد القاطع للمعنى، كما سيجيء في الآيات القادمة أيضاً الإيجابي ثم السلبي: «الذي يؤمن لا يدان والذي لا يؤمن فقد دين».

كما سيجيء أيضاً في الآية بعد القادمة: «أحب الظمة أكثر من النور، كل من يعمل السيئات يبغض النور وكل من يفعل الحق يقبل إلى النور».

كانت كل تحقيقات الربيين عن نبوات مجيء المسيا تفيد أنه سيعلي من شأن الأمة ويدين الشعوب ويسحق الأمم ويبيدها، وكان روح هذا التعليم بالذات أحد العثرات والمعوقات التي وقفت حائلاً دون قبول المسيح، وكان نيقوديموس أحد الأئمة الذين تشبعوا بهذه الروح العدائية نحو أمم العالم ويقابلها روح التعالى والافتخارر بالعنصرية اليهودية والإعتداد الشنيع بالفريسية وإتقان التعليم بالحرف. هنا يصحح المسيح ويوضح أن هدف المسيا الأساسي هو الخلاص لكل أمم العالم وليس الدينونة. وإن تحتمت الدينونة، فلا تكون هدفاً لمجيء المسيا قط، وانما جزاء للذين انعمت بصائرهم وانسدت آذانهم وصاروا من سواقط الخلاص، وهذا وذاك لليهودي قبل الأممي!!

ولا ينبغي أن يغيب عن البال أن الحكم بالدينونة والموت والهلاك هو القانون الذي يرزح أصلاً تحته كل بني آدم، لأن الكل وُلد بالخطية والكل أخطأ وزاغ. والمسيا جاء ليرفع الخطية، وبالتال قانون الموت واللعنة، فالذي يرفضه يحكم على نفسه بالبقاء تحت الخطية واللعنة!!! بل ويُكمل، برفض المسيح، مكيال خطاياه.

والذي يفحص فكر إنجيل يوحنا يشعر كأنه يدافع عن شيء و يرفع الملامة عن الل ! نعم، فقد حدثت الكارثة

وسقطت أورشليم واندكت حتى التراب وتخرب الهيكل وحُرق عن أخره. هذه هي الخلفية التي يكتب القديس يوحنا على ضوئها إنجيله. فهو يستميت ليبرىء الله من كل ما حدث، الذي بدا وكأنه نقمة مروعة حلت بالمعاندين، فالعلامات بحسب النبوات كانت واضحة في سلوك كل الطبقات المتعلمة مع كل أعماء المجمع مع غالبية الشعب، إن لم نقل كله في رفض صوت الكلمة، إلا أفراداً يعدون بالعشرات وحسب.

القديس يوحنا يكتب إنجيله الآن ونحن في نهاية القرن الأول، وأورشليم سقطت بهيكلها سنة ٧٠م، أي مضى الآن ثلاثون سنة تقريباً، وقد تشتت الشعب وخربت البلاد وانتهى اليهود إلى الصفر، لذلك يقول إن الله لم يرسل ابنه إلى العالم ليدين العالم، أي لم يكن خراب أورشليم وتهدم الهيكل وحرقه على مستوى الدينونة. لأن رسالة الابن الوحيد هي تنفيذ وصية الحب الأبوى من نحو العالم للخلاص حتى لا يهلك أحد، كل من يؤمن. أما ما حدث لأورشليم والهيكل وللأمة اليهودية، فهو النصيب الذي حدده المسئولون مع الشعب لأنفسهم؛ لقد حكموا بأنفسهم على أنفسهم بانتهاء زمان الحب لما رفضوا الابن الحبيب، وحكموا على الهيكل بالهدم لما هدموا هيكل ابن الإنسان بالرغم من تحذيره لهم. لقد سعوا في الظمة ضد النور، فأدركتهم الظلمة وانتهى لهم زمن النور. أما الذين كانت أعمالهم صالحة، فهؤلاء أحبوا النور وتقبلوا رسالة الحب: «بهذا أُظهرت محبة الله فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به.» (١يو ٤:٩)

وواضح أن إنجيل القديس يوحنا يضح الحب في رأس قائمة هذه الآيات، حتى يرفع من الدينونة رائحة البغضة الإلهية؛ فالذين خلصوا بنداء المحبة ظهر فيهم فعل المحبة، والذين رفضوا نداء المحبة دخلوا تحت الحرمان منها بإرادتهم. فالدينونة أصبحت حرماناً من محبة الله وليست غضباً منسكباً عليهم.

والقصد كله الذي يريد أن يخلص إليه الإنجيل هو أن المحبة أصل الدينونة والمتسببة فيها، لأنه لولا المحبة ما كان خلاص ولولا الخلاص ما كانت دينونة. وهذا هو سلاح المحبة الرهيب ذو الحدين.

١٨ - الَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ لاَ يُدَانُ والَّذِي لاَ يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ لأَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ بِاسْمِ ابْنِ اللَّهِ الْوَحِيدِ.

يلاحظ اختلاف الفعلين «لا يُدان» و «قد دين». فالذى يؤمن يكون قد خرج من دائرة الدينونة أصلاً وبالكلية لأنه صار «فى المسيح». أما الذي لم يؤمن فقد خرج من دائرة المسيح والخلاص وصار في الوجه المعادي. لأن عدم الإيمان باسم ابن الله هو عدم الإيمان بالله وبالخلاص الذي تم باسمه. ويلاحظ أن كلمة «الوحيد» جاءت هنا للتذكير بالمحبة، فهو الابن الوحيد لأنه المحبوب، فهنا يكون عدم الإيمان قد بلغ إلى مجافاة محبة الله، بل وتعدى عدم الإيمان بالمحبة إلى عدم التصديق، وكأنه يجعل الله كاذباً. فمجيء ابن الله برسالة حب الآب الذي أنهى على حالة الركود التي كان يعيشها العالم، قد قسمه في الحال إلى مؤمن مستقبل لرسالة المحبة، وغير مؤمن رافض لرسالة المحبة؛ وبالتالي إلى مخلّص وغير قابل للخلاص، وغريب عن روح الله أي قائم في الموت بعيداً عن الله!

والدينونة على هذا هي من عمل رفض الإيمان وليست من عمل الله. ولكن الأصل والأساس هو الإيمان الذي جاء به المسيح للحياة: « الحق الحق أقول لكم كل من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو ٥:٢٤)

ولكن إنجيل القديس يوحنا لا يقطع خط الرجعة على من يرفض الإيمان، بل طالما هو رافض للايمان فهو واقع تحت الدينونة لأنه هو نفسه الذي يصنع لنفسه الدينونة برفضه؟ ولكن إذا رجع وقبل الإيمان، يكون قد خرج من الطوق الحديدي الذي وضعه بنفسه في رقبته: «لأنكم إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم» (يو٨:٢٤)، «ما دام

لكم النور آمنوا بالنور لتصيروا أبناء النور.» (يو١٢:٣٦)
فالمسيح باق كما هو، وصوته قائم يدعو للخلاص، وكلمة الإيمان في فمك إن نطقتها ربحت نفسك والحياة. فالمناداة بالدينونة في إنجيل القديس يوحنا نشأت بسبب الكرازة بالخلاص وليست لتهديد أو وعيد للذين لا يؤمنون، والإنجيل أصلاً موضوع لغير المؤمنين ليكونوا مؤمنين. ولكن نبراته التحذير هي التي تطغى على الكارز خوفاً على حياة الإنسان. لذلك فالمطالبة بسرعة القطع إما مح النور أو الظلمة، هو اختيار بين الحياة أو الموت، ليس للتخويف بل للترغيب، لأن صوت الله منذ القديم يقول: «قد جعلت قدامك الحياة والموت، البركة واللعنة، فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك.» (تث٣٠:١٩)

١٩- وَهَذِهِ هِيَ الدَّيْنُونَةُ: إِنَّ النُّورَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْعَالَمِ وَأَحَبَّ النَّاسُ الظُّلْمَةَ أَكْثَرَ مِنَ النُّورِ لأَنَّ أَعْمَالَهُمْ كَانَتْ شِرِّيرَةً.

هنا يربط القديس يوحنا «الدينونة بالنور». ولكي تظهر الدينونة بمعناها الأسهل نقول إنها القضاء. فالقضاء لا يمكن أن ينعقد لواؤه إلا بوجود أداة التمييز بين الخطأ والصواب للحكم بالعقاب أو البراءة. ونحن هنا بصدد الروحيات، فالقضاء أداته الوحيدة هي النور الإلهي الذي يفرق بين أعمال الظمة وأعمال النور.
فيقول القديس يوحنا أنه بمجيء النور إل العالم وجب القضاء وتحتم، لأن العالم به الشر أصلاً وبه الخير أيضا؛ فكل من ينحاز إلى النور فهذا يوضح أنه أحب النور. والذي يرفض النور معناه أنه أحب الظلمة أكثر من النور. والنور هنا في هذه الحالة هو أداة التفريق والتمييز، وفي نفس الوقت هو القاضي. من هنا جاء الإلتباس أن الذي يبغض النور ويقع عليه العقاب يبدو كأن هناك عداوة أو نقمة بين القاضي وهو المسيح وبين الرافض للنور. ولكن لشرح هذا الإلتباس نقول إن القاضي يحكم بمقتض قانون ولا يحكم حكماً كأنه من عنده، ولكن الحكم أو الدينونة منشأها النور كأداة أو قانون، وليس القاضي نفسه، فالقاضي يحكم بما يحكم به النور أو قانون النور، وقانون النور مطلق أزلي وليس وضعياً أو مجرد اجتهاد أو تفكير شخصي.
بدخول النور، وهو المسيح، ومعه الحق الإلهي إلى العالم انقسم العالم إل محبي النور ومحبي الظلمة وبدأ في الحال روح القضاء يأخذ عمله.
والذي يجعل القضاء يطالب بحقه من الآن هو التقرير النهائي الذي اتحذه الذين رفضوا النور، لآنهم «أحبوا»، وهذا فعل في اللغة اليونانية يفيد القرار القاطع المنتهى منه في محبة الظلمة، والخطورة الكبيرة هنا هي أن هذا الحب الذي ينتمي إلى نوع من العشق أو الارتباط هو ليس فقط حباً لأعمال الظلمة من سرقة وزنى وفجور وكذب وعداوة، بل إن هذه الأعمال تمتد لتتعاقد مع أقنوم الظلمة، رئيس هذا العالم، وهو القوة المشخصة المحرضة على أعمال الشرور. من هنا جاء القضاء كعمل لا مناص منه لكبح جماح القوة الشريرة والحد من تجبرها. فالنور وراءه شخص ابن الله والظلمة وراءها إبليس، لذلك فمبغضي النور ليسوا محايدين بل منحازين للظلمة ضد النور، فنشاطهم سلبي بالنسبة للنور، لهذا يتدخل القضاء للفرز والعزل والمحاصرة.
ومعروف بالقطع أن الشيطان كرئيس لهذا العالم المحرض على كل الشرور قد دين: «لأن رئيس هذا العالم قد دين» (يو١٦:١١). أي إن دينونة الشيطان وخروج حكم القضاء عليه تم يوم صلبوت المسيح، لذلك فإن الذين يرفضون النور هم بنوع ما ينحازون إلى رئيس هذا العالم، وبالتالى يقعون تحت الدينونة والرفض: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يو١٢:٣١)

«لأن أعمالهم كانت شريرة»: دور الأعمال هنا محدود، فالأعمال الشريرة لا تمنع الإنسان أن يطلب الخلاص منها ويرتمي تحت أرجل المخلص لينجو. فالأشرار الذين تمرغوا في كل أصناف الشرور خرج منهم قديسون، نتشفع بهم. ولكن المفهوم من الأعمال الشريرة هنا أنها عطلت كثيرين عن الخلاص. لأن تمادي الإنسان في أعمال الشر وانغماسه فيها يولد عادات وارتباطات ومجاملات تنازع الإنسان في إرادته وتنكر عليه حريته في التخلص منها أو حتى الاقتراب من مصادر النور، ثم تؤثر تأثرا مستمراً على الأخرين.

٢٠- لأَنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ السَّيِّآتِ يُبْغِضُ النُّورَ وَلاَ يَأْتِي إِلَى النُّورِ لِئَلَّا تُوَبَّخَ أَعْمَالُهُ.

«يَعْمَلُ السَّيِّآتِ»: هنا كلمة «سيئآت» تختلف عن الكلمة مثيلتها التي جاءت في الأية السابقة «أعمال شريرة»، التي تفيد الضلوع في الخطية. أما السيلآت فهي التي تعني «أعمال بطالة» (Bad) أي أعمال خسيسة وحقيرة. وهي بدء الدخول في أعمال الظلمة الغير مثمرة، التي قد يستهين بها الإنسان لأنها ليست خطايا ثقيلة ولكن خطورتها هي في أنها تجعله يهرب من النور ويبغض الدعوة إليه، خشية أن توبخ أعماله من أحبائه وأصدقائه الذين يخلصون إليه: «إني كل من أحبه أوبخه وأؤدبه. فكن غيوراً وتب» (رؤ٣:١٩). «لأن الأمور الحادثة منهم سراً ذكرها أيضاً قبيح، ولكن الكل إذا توبخ يظهر بالنور، لأن كل ما أُظهر(أُعترف به) فهو نور، لذلك يقول: «استيقظ أيها النائم وقم من الأموات فيضيء لك المسيح» (أف٥:١٢-١٤). هنا الكلام كله موجه نحو أصحاب العادات السيئة التي تتصل بالحياة الداخلية للانسان والتي يحاول أن يخفيها.

لاحظ أن المتكلم هنا هو المسيح كاشف أستار القلوب، وهو يحدث اليهود والرؤساء والمعلمين ومدعي الفضيلة الذين انغمسوا في السيئات، وكانت النتيجة أنهم احتجوا جزيعين من كلام المسيح، متأففين من تسليط النور عليهم، وبالنهاية صاروا هاربين ورافضين.

فمن يرفض المسيح، تقف وراءه إما السير السيئة والإنغماس في الخطية أوكبرياء الأخلاق والذات.

إذن، فرفض المسيح والهروب من النور ليس مسألة اختيار فقط، بل أن العوامل النفسية المبنية على السلوك الإرادي السيىء، هي صاحبة الكلمة فيه وعليه.

٢١- وَأَمَّا مَنْ يَفْعَلُ الْحَقَّ فَيُقْبِلُ إِلَى النُّورِ لِكَيْ تَظْهَرَ أَعْمَالُهُ أَنَّهَا بِاللَّهِ مَعْمُولَةٌ».

«فعل الحق.»: هو في المقابل لـ «يعمل السيئات». هناك فعل السيئات بالجمع؛ وهنا عمل «الحق» بالمفرد الذي يحوي في صدقه ونبله كل ما صيته حسن ونافع.

ولكن الذي يسترعي انتباهنا هو الإصطلاح الجديد «عمل الحق» فهل الحق يُعمل؟ هنا الحق أصلاً هو فكر ورؤية روحية وانكشاف بصيرة، ولكن هذا يحتاج إلى تحقيق وعمل، فإذا نُفذت الفكرة السامية أو الإلهام الروحي المادة الموحى به، فهو يصير عمل الحق.

والأن تقف هذه الأية في مقابل الأية السالفة لتوضح أن في وسط ظلام ليل الشرور والسيئات، يعيش أيضاً الحق والنور، وإزاء الهاربين من النور بسبب ما ثقلوا به أجسادهم وأرواحهم من أعمال الظلمة، يوجد أيضاً المهللون للنور والهاتفون للحق الذين تثقلت أرواحهم بمحبة المسيح والحق، يسرعون ليقدموا برهان حبهم بأعمالهم، وليكشفوا أفكارهم ونياتاتهم في النور لتزداد نوراً، ويمجدون الله الذي أنقذهم من سلطان الظلمة.

والمنظر لا يزال هو بعينه، فالمسيح يخاطب الذين عثروا فيه وهربوا والذين سعوا إليه فرحين مستبشرين سواء

بسواء، موضحاً أن أعمالهم في الخفاء كانت هي المسئولة عن جزعهم منه أو قبولهم له.

«بالله معمولة»: إن مجرد عرض أعمال البر خطر، وكشف خفايا السلوك بالتقوى أخطر؟ لأن ذلك يؤول بالضرورة إلى الوقوع في خطية البر الذاتي والاعتداد بالنفس والتفاخر. ولكن يوجد عرض للأعمال الخيرة وسرد للسيرة التقية مضمون النفع ومؤمن عليه ضد الانزلاق في البر الذاتي وهو تمجيد الله كونه هو هو صاحب العمل وصاحب السيرة، حيث يقتنع السامع أن «الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا من أجل المسرة.» (في٢:١٣)

«اذهب إل بيتك وإلى أهلك وأخبرهم كم صنع الرب بك ورحمك.» (مر٥:١٩)

هنا لا يفوتنا قول المسيح أنه «لا يقدر أحد أن يقبل إلي (الحق)، إن لم يجتذبه الآب (أولاً)» (يو٦:٤٤). فالمجيء إلى النور يتحمل النور شيئاً من المسئولية فيه، فالنور محبوب جداً عند أصحاب العيون الصحيحة ومكروه للغاية عند ذوي العيون المريضة، فلا ينجذب إلى النور إلا من كان أهلاً له. هنا «عمل الحق» من جهة «وبالله معمول» من جهة أخرى تفيد الانجذاب المتبادل. فسر النعمة يسري في أولاد النعمة. والحكمة تنادي أولادها وتتبرر من بنيها، والحق يطلب محبيه، والله هو دائماً صاحب المبادرة ولكنه دائماً يتنازل عن دوره الأول: «قد ذكرت لك غيرة صباك، محبة خطبتك، ذهابك ورائي في البرية.» (إر٢:٢)

[انتهى الحديث مع نيقوديموس والتعقيب على كلامه]

مكان البشارة: اليهودية

٤- المعمدان يكمل شهادته كآخر صوت يُسمع للعهد القديم: هذا هو الجزء الرابع من «إنجيل التجديده» وتستمر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالى:

القديم: «الذي من الأرض هو أرضي ومن الأرض يتكلم».

الجديد: «الذي يأتي من فوة هو فوق الجميع... ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص».

الاستعلان: المسيح العريس الحقيقي: «من له العروس فهو العريس».

٢٢- وَبَعْدَ هذَا جَاءَ يَسُوعُ وَتلاَمِيذُهُ إِلَى أَرْضِ الْيَهُودِيَّةِ وَمَكَثَ مَعَهُمْ هُنَاكَ وَكَانَ يُعَمِّدُ.

«وبعد هذا»: وصلة يضعها القديس يوحنا دائماً في سرد روايته لينقل القارىء من حديث لحديث، ومع نقلة الحديث نقلة في المكان والزمان، لا يفصح عنها من قصد، لأنها لا تدخل، في اعتباره، في صلب الرواية.

نعلم أن المسيح كان في أورشليم حيث تم الحديث الأخير مع نيقوديموس الذي انقطع وغاب فجأة، حسب عادة القديس يوحنا حينها يرى أن أهم جزء في الحديث قد استوعب، وحيث يسترسل بعد ذلك في التعقيب، إن بواسطة المسيح مباشرة أو عن لسانه. وهنا نأتي إلى أرض اليهودية شرق جبال أورشليم على ضفاف نهر الاردن، حيث مكث المسيح مدة، لا يُفصح عنها، مع تلاميذه.

«وكان يُعمد»: هذه الجملة القصيرة غريبة علينا نوعاً ما، فالمسيح معروف عنه انه لم يُعمد. «مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه» (يو٤:٢). ولكن يبدو أن المسيح كان يكرز بالتوبة حسب ما جاء في إنجيل القديس مرقس (١:١٥).

وقد علق على ذلك كل من القديس ذهبي الفم والقديس أغسطينوس بأنها لا تُحسب معمودية سرائرية بحسب الفكر المسيحي. ولكن الواضح من هذه الآية وما بعدها هو أن القديس يوحنا يمهد بها لحديث المعمدان الأخير لتكميل

شهادته للمسيح.

٢٣- وَكَانَ يُوحَنَّا أَيْضاً يُعَمِّدُ فِي عَيْنِ نُونٍ بِقُرْبِ سَالِيمَ لأَنَّهُ كَانَ هُنَاكَ مِيَاهٌ كَثِيرَةٌ وَكَانُوا يَأْتُونَ وَيَعْتَمِدُونَ.

لا يزال المعمدان يمارس وظيفته في الإعداد بالتوبة لملكوت الله كسابق يعد الطريق للآتي بعده. ولكن يبدو أن هذه المرة لم يتلاق مع المسيح بل ظل في مكانه. ولكن لماذا ترك مكانه المختار الأول «عبر الاردن»؟ يرد على هذا السؤال العالم «أولمستد» بأن المعمدان ترك أرض عبر الاردن التي تتبع هيرودس أنتيباس وجاء إلى منطقة أخرى فيها المياه كثيرة، بسبب العداوة التي نشأت بين المعمدان وهيرودس بمد أن وبخه (علنا) على سيرته بالنسبة لزوجة أخيه.

«عين نون»: تبارى الشراح في التعليق على هذا الاسم، فمنهم من أنكر وجوده بالمرة لأنه لم يعثر عليه جغرافياً، ومنهم من شدد عليه جداً باعتباره المركز الأساسي لخدمة المعمدان وأقامته مع تلاميذه، والذي صار فيما بعد موطن جماعة المنتمين للقديس يوحنا المعمدان. ويشرح ذلك العالم «بولتمان» مضيفاً إلى ذلك أن عين نون تفيد معنى رمزياً وهو «النبع القريب من الخلاص»: لأنه بقرب «ساليم» وساليم تُفسر بـ «الخلاص».

وعلى كل حال فإن هذه المنطقة تقع غرب نهر الاردن في البراري الواقعة على ضفافه. وهذه المنطقة على الحدود بين اليهودية والسامرة بقرب مدينة «بيت شان» شرة نابلس الحالية[1].

وكان لا يزال الشعب يتدفق على المعمدان للتوبة وسماع كلماته، ولكن يبدو أن في هذا التعبير نوعاً من المقارنة بين العدد الكبير الذين كانوا يأتون إل المسيح، وبين الذين كانوا يأتون للمعمدان؛ وقد ظهر تناقص عدد الذين كانوا يأتون إل المعمدان في تعبيرين هامين جاءوا بعد ذلك:

الأول: تقرير لتلاميذ المعمدان في الآية (٢٦) القادمة: «فجاءوا إلى المعمدان وقالوا له: يا معلم هوذا الذي كان معك في عبر الأردن الذي أنت قد شهدت له هو يعمد، والجميع يأتون إليه».

والتعبير الثاني جاء على فم المعمدان نفسه كتحصيل حاصل ويحكم الواقع: «ينبغي أن ذلك يزيد وأني أنا أنقص.» (يو ٣: ٣٠)

ولكن على أي حال كان هم القديس يوحنا هو تسجيل الشهادة الأخيرة والأعظم من فم المعمدان فيما يخص المسيح، هذه الشهادة التي رفعت المعمدان في تاريخ المسيحية إلى المستوى اللائق كنبي وأعظم من نبي!!!

٢٤- لأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُوحَنَّا قَدْ أُلْقِيَ بَعْدُ فِي السِّجْنِ.

تعتبر هذه الآية ذات وزن تاريخي عال للغاية، لآن القديس يوحنا يضعها وهو يعرف ما وراءها من التقليد المستقل في الآناجيل الأخرى. إذ أن هذه الحقيقة، أي «وضع يوحنا في السجن وموته بعد ذلك»، تعتبر نقطة البدء لخدمة المسيح في الجليل كما سجلها القديس مرقس وأخذ عنه بقية الإنجيليين: «وبعدما أُسلم يوحنا جاء يسوع إلى الجليل يكرز ببشارة ملكوت الله ويقول قد كمل الزمان.» (مر ١: ١٤-١٥)

ولكن هنا القديس يوحنا يكشف عن تقليد رسولى أقدم حيث يوضح أنه حتى وقبل أن يوضع المعمدان في السجن كان المسيح يخدم؛ وليس في الجليل بل في أورشليم بالدرجة الاول وفي اليهودية، وهي الفترة التي أغفلها التقليد

---

[1] نابلس واسمها نيابوليس، أي المدينة الجديدة عوض «شكيم» القديمة .

عند الإنجيليين الثلاثة. من هنا تظهر أهمية إنجيل يوحنا من جهة سرد وقائع حياة المسيح على مستوى التاريخ الدقيق والحوادث، وما يتبعها من تعاليم.

وذكر القديس يوحنا لهذه الواقعة بالذات: «لم يكن يوحنا قد ألقي بعد في السجن»، دون أن يكون لها سبب واضح، يكشف بوضوح أن القديس يوحنا يعرف التقليد الذي كتب منه القديى مرقس، ويلمح إلى أنه يورد هنا إضافة هامة عليه أغفلتها الآناجيل الأخرى. كذلك يلزمنا أن ننتبه جداً إلى هدف القديس يوحنا الأساسى من سرده خدمة المسيح في أورشليم واليهودية قبل الجليل؛ لأن الآناجيل الأخرى اهتمت بأعمال المسيح ومعجزاته بالدرجة الاولى والتى تركزت بصورة ما في الجليل، أما القديس يوحنا فقد اهتم إلى أقصى حد باستعلان شخصية المسيح المسيانية من تعليمه أكثر من معجزاته. وقد رأينا إحدى صور هذا التعاليم الباهرة في حديثه مع نيقوديموس في أورشليم التي تختص بأساس الخلاص والتجديد والملكوت.

٢٥- وَحَدَثَتْ مُبَاحَثَةٌ مِنْ تلاَمِيذِ يُوحَنَّا مَعَ يَهُودٍ مِنْ جِهَةِ التَّطْهِيرِ.

٢٦- فَجَاءُوا إِلَى يُوحَنَّا وَقَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ هُوَذَا الَّذِي كَانَ مَعَكَ فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ الَّذِي أَنْتَ قَدْ شَهِدْتَ لَهُ هُوَ يُعَمِّدُ وَالْجَمِيعُ يَأْتُونَ إِلَيْهِ».

«وحينئذ»: جاءت في أول الأية فى الأصل اليوناني. وقد فات على المترجم العربي هذا الظرف الزماني «حينئذ» وأسقطه من الترجمة مع أنه يحمل ثقل كل المعنى في الأيات القادمة كلها بلا مبالغة. فالقديس يوحنا، وهو مختزل لغوي بالدرجة الاولى، أراد أن ينبه القارىء بأقل كلام ممكن أن تواجد المسيح في مقابل المعمدان وها يمارسان نفس العمل وهو «العماد»، أنشأ منافسة اضطرارية بين تلاميذ المعمدان والمعمدين من اليهود؛ لأنه حتماً حدث اختلاف في وجهة نظر التعميد، فمعمودية يوحنا ذات لون إعدادي فقط لمعمودية المسيح بالروح القدس، وحتى ولو أن المسيح لم يُعمد بالروح القدس ولكن يُفهم تماماً من حديثه السابق مع نيقوديموس أن المعمودية في نظر المسيح هي حلقة جديدة وميلاد ثان من فوق وليست غسيلاً وتطهيراً. هذا المعنى كله أضمره القديس يوحنا في الظرف الزماني «حينئذ» المستخدم ليس على المستوى الزماني ولكن بمعنى: «وعلى هذا نشأ الآتي»، وهومدخل يرتب الكلام على ما قبله.

«حدثت مباحثة من تلاميذ يوحنا مع يهود من جهة التطهير»: نحن لا ننسى كيف ركز القديس يوحنا على مسألة التطهير أولاً في عرس قانا الجليل، كيف حول المسيح ماء التطهير إلى خمر جيد (حقيقي)، مشيراً إلى التحول المزمع والذي يتحتم أن يكون لكل طقوس ووصايا التطهيرات بكافة أنواعها؛ علماً بأن الستة الأجران تغطي تطهيرات الأسبوع بكامله! وبعدها مباشرة: «اهدموا هذا الهيكل»، بعد أن أخرج منه كل ذبائحه الكبيرة والصغيرة، مشيراً إلى انتهاء عصر الذبائح وكل نظام العبادة القائم عليها. ثم انتقل إلى نيقوديموس معلم الناموس والممثل لكل دقائق الإيمان اليهودي الذي انتهى الحديث معه على أساس حتمية الميلاد الثاني من فوق كأساس للايمان والعبادة وكشرط أول لدخول ملكوت الله؛ كاشفاً له سر معمودية العهد الجديد. وبهذا يكون المسيح قد أكمل الصورة لعملية إحلال الجديد عوض القديم.

ولكن يبقى آخر مرحلة من الإنتفاضة اليهودية لإعادة الحياة إلى القديم التي أخذت طريقها خلسة من خلال الإنسان المرسل من الله، يوحنا، لإعداد الطريق للآتي، إذ تضخم عمل المعمدان من خلال حماس تلاميذه على أنه

هو الطريق الموعود، فأخذوا يصورون للآتين لمعمودية يوحنا أن هذا هو التطهير الذي سيُحيي إسرائيل.
وترامت إلى أسماع المسيح ما يقال وما يُشاع، فجاء بقرب المعمدان يباشر تعليمه من جهة المعمودية من فوق، وكأنه تكميل لدرس المسيح لنيقوديموس، وفي الحال هرع الناس «الجميع» إلى المسيح يسمعون ويعتمدون؛ مع أنه لم يكن يعمد بل تلاميذه، وتأثر الناس واستنارت أذهانهم من جهة حتمية الميلاد الجديد من فوق، وبالتالي عدم نفع التطهير بالماء، فضج تلاميذ المعمدان وذهبوا في حماس وتحد يستثيرون معلمهم.

٢٦ - فَجَاءُوا إِلَى يُوحَنَّا وَقَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ هُوَذَا الَّذِي كَانَ مَعَكَ فِي عَبْرِ الأُرْدُنِّ الَّذِي أَنْتَ قَدْ شَهِدْتَ لَهُ هُوَ يُعَمِّدُ وَالْجَمِيعُ يَأْتُونَ إِلَيْهِ».

واضح للغاية أن تلاميذ المعمدان لم يتأثروا قط بنداء المعمدان من جهة الأقوى الآتي بعده الذي لا يستحق أن يحمل حذاءه، ولا تأثروا من شهادة المعمدان بحسب رؤية وسماع الروح القدس وهو يشهد للمسيح الذي اعتمد من يدي معلمهم، كما لم يتأثروا قط من شخص المسيح ذاته. وكتلاميذ لمعلم مرموق، أخذوا يحاصرون معلمهم حتى يدافع عن نفسه.
فابتداوا يشيرون إلى المسيح «هوذا الذي كان معك»، معبرين بذلك عن اعتقادهم بالتساوي بين المعلمين. ثم بدأوا يذكرونه بالإحسان الذي صنعه في المسيح، إذ شهد له كما يشهد القاضي العادل بالحق، وهذا أيضاً يعبر عن اعتقادهم بأفضلية المعمدان وكأنه يشهد لأحد تلاميذه. ولكنهم أبقوا على نقطة الإنزعاج التي ملأت نفوسهم إلى آخر الحديث أو الشكوى، إذ قالوا أخيراً: «هو يعمد والجميع يأتون إليه»، معبرين بذلك عن أمرين: الأول أن المسيح بدأ يظهر في أعينهم كمنافس أو متعد على وظيفة معلمهم «هويعمد»؛ والأمر الثاني وهو الأخطر: أن «الجميع يأتون إليه»، بمعنى أن وظيفة معلمهم صارت مهددة. وواضح في ذلك التهويل الحاقد والغاضب والمثير.
وإذا قارنا هذا التقرير بما قيل عنه في نفس المرضوع بعد ذلك، يظهر التهويل وتلفيق ما يُنسب للمسيح: «وما رآه وسمعه به يشهد وشهادته ليس أحد يقبلها» (يو٣:٣٢)؛ وكانوا يعتقدون أن هذا وحده كفيل أن يحرك ساكن معلمهم. وفي الحقيقة وبحسب أسلوب إنجيل يوحنا، فقد أخذ هؤلاء التلاميذ، المتعصبون لمعلمهم، موقف الفريسيين الحاقدين لما واجهوا نفس الموقف: «فقال الفريسيون بعضهم لبعض أنظروا إنكم لا تنفعون شيئاً هوذا العالم قد ذهب وراءه» (يو١٢:١٩). كان هذا التقرير المسموم كفيلاً بأن يزعج المعمدان ويهيج غضبه لو لم يكن مرسلاً من الله وروح الله هو الذي يقود نفسه ويوجهها مع لمسات رقيقة من روح الإتضاع .
وكان يمكن أن نفسر هذا التقرير بصورة عكسية تماماً لما يحتمله بأن يكون بشارة سارة ومفرحة للمعمدان من تلاميذه، عن الذي شهد له، أنه هوذا قد صار ناجحا والجميع يأتون إليه! وهذا أيضاً ما يتمش مع كرازة المعمدان بالنسبة للمسيا الآتي، لولا أننا نعرف تماما أن هؤلاء التلاميذ كونوا شيعة تشيعت لمعلمهم وقاومت المسيحية بعنف وبقيت إلى عدة قرون، وكانت في أوج نشاطها أيام كتابة القديس يوحنا لإنجيله[1].

٢٧ - فَقَالَ يُوحَنَّا: «لاَ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئاً إِنْ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ السَّمَاءِ.

في إجابة المعمدان نلمح ثلاثة مبادىء هامة يرد بها على غيرة التلاميذ الغاضبة:
أولاً: يضح المعمدان المبدأ الأساسي الذي يقوم عليه الاستعلان النبوي بصفة عامة (الآية٢٧).

---
[1] عُرفت هذه الشيعة باسم شيعة الماندبين أو الناصريين.

ثانياً: يطبق المبدأ الإلهامي على عمله الذي كُلف به، سواء فيما شهد به سابقاً (الآية٢٨) أو ما يشهد به لاحقاً (الآية٢٩).

ثالثاً: استنباط النتيجة الحتمية للتطبيق الأمين (الآية٣٠).

وهو يبدأ الحديث لا رداً على تلاميذه، ولكن كتوعية عامة ترفع من مستوى تفكيرهم كمعلومة عامة وأساسية، مفادها أن أي معلم صادق لا يأخذ إلا ما منحته السماء له. وهذا يقدح بهدوء وبساطة أساس العلاقة التي تربطه بالمسيح كسابق يعد له الطريق. فسواء هو أو المسيح، فلا يأتي بشيء إلا كما استلمه من مخازن النعم (السماء). هذا الرد يضع حدا لتفكير التلاميذ وينهي على روح المنافسة التي عصفت بهم. كما أن هذا الرد بعينه يوضح أن ما اشتكى منه تلاميذه قد وقع منه موقع الإستحسان بل وصار له كإكليل فرح.

ويلاحظ أن المعمدان وضع المسيح موضع نفسه على المستوى من جهة الأخذ والعطاء، فيقول:

«أنا لا أدعي لنفسي سلطة لم آخذها، أما هو الذي تتكلمون عنه فلا يمارس سلطة ويكون لها اعتبارها إذا لم يكن قد تلقاها من الله.

هنا المعمدان ينفي أن يكون لإرادة الإنساذ عمل يُحاسب عليه إذ كان هو قد أعطى في حدود ما أخذ.

٢٨- أَنْتُمْ أَنْفُسُكُمْ تَشْهَدُونَ لِي أَنِّي قُلْتُ: لَسْتُ أَنَا الْمَسِيحَ بَلْ إِنِّي مُرْسَلٌ أَمَامَهُ.

هنا المعمدان يطبق المبدأ الذي قاله على شهادته الاولى التي شهد بها عل نفسه بالنسبة للعمل الذي يقوم به وبالنسبة للشخص المنوط به هذا العمل الكبير: «فلو تذكرتم ما قلته سابقاً تدركون كم أنتم مخطئون فيما تظنون وفيما تقولون، ألم أقل لست أنا المسيح؟ فحينما أعلنت عن رسالتي قلت إنها وقتية ومحدودة، ولم أدعى لنفسي المكانة الأعلى ولا بكلمة واحدة حتى تأخذوها حجة لما تفكرون، أنتم شهود لى وعلى أنفسكم.

«لست أنا المسيح»: هنا يعلن المعمدان عن هوية من تكلم عنه التلاميذ بلفظة «هوذا» و«هو» و«شهدت له»، و«يأتون إليه». وتكلم عنه المعمدا «كإنسان» و«رجل صار قدامي».

الأن يعلن المعمدان عن اسمه وهويته: «المسيح» بكل يقين وتعيين. نعم، ولكن يعلن لاسرائيل، أُرسلت أمامه، لا كأني سابق بل كمن يعد ويفسح الطريق لمن هو أعلى.

٢٩- مَنْ لَهُ الْعَرُوسُ فَهُوَ الْعَرِيسُ وَأَمَّا صَدِيقُ الْعَرِيسِ الَّذِي يَقِفُ وَيَسْمَعُهُ فَيَفْرَحُ فَرَحاً مِنْ أَجْلِ صَوْتِ الْعَرِيسِ. إِذاً فَرَحِي هَذَا قَدْ كَمَلَ.

بينما تكلم المعمدان عن نفسه بوضوح وعلانية، إلا أنه لما جاء للمسيح سواء من جهة شخصه أو عمله نجده بدأ يستخدم الأسلوب السري. ولكن كلماته جاءت محكمة ترد رداً صحيحاً محبوكا، على مستوى فكر التوراة والأنبياء. فأسفار العهد القديم، وخاصة الأنبياء، لا تكف من البداية وحتى النهاية عن وصف يهوه بالنسبة لإسرائيل كعريس وعروس:

+ هوشع ٢:١٩-٢١: «وأخطبك لنفسي بالعدل وأخطبك لنفسي بالعدل والحق والإحسان والمراحم، أخطبك لنفسي بالأمانة فتعرفين الرب. ويكون في ذلك اليوم أني أستجيب، يقول الرب، أستجيبت السموات وهي تستجيب الأرض».

+ حزقيال ١٦:٨ «فمررت بك ورأيتك وإذا زمنك زمن الحب، فبسطت ذيلي عليك، وسترت عورتك، وحلفت لك، ودخلت معك في عهد، يقول السيد الرب، فصرت لى».

فالأن لا يصف المعمدان المسيح «العريس» مباشرة، بل جعلها للسامع بديهية وعلى السامع أن يقرر. فمن ذا الذي له العروس؟ ثم من هي العروس بالتحديد؟

القديس يوحنا الإنجيلي قدير في تقديم الصور الرمزية في حبك قصصى نادر المثال، كل صورة تخدم موقعها بأصالة وواقعية، ولكن الصررة تهدف إلى عمل أعلى بكثير من واقعها القصصي. المعمدان هنا صورة للنبي المخلص المجتهد العظيم حقاً، بشهادة المسيح، ولكن لا يخرج عن كونه مولود النساء، خدم موقعه كصوت صارخ في برية العالم فأسمع العالمين، ومهد للآتي بعده بتقواه ونسكه وصدقه وشجاعته؛ ثم بكرازته بحرارة التوبة وغسل الجسد. ولكن القديس يوحنا الإنجيلي يلتقط له صورة أعلى كممثل لأنبياء العهد القديم جيعاً، جاء بروح إيليا ليتكلم ويشهد باسم الأنبياء جميعاً عن حق وجدارة.

ثم يروي القديس يوحنا أن المعمدان، بصفته العليا هذه، أُنيط به غير إعداد الطريق، أو من ضمن ضروريات إعداد الطريق، إعداد العروس التي اتسخت جداً، ليس كإعداد إيليا في القديم بالتوبيخ والعنف والإنذار وقفل السماء وحجز المطر عن إنسان إسرائيل وحيوانه، بل بغسل الجسد والضمير بالماء والنصيحة والإعتراف والتوبة واعداد الآباء والأبناء حتى ترد قلوبهم بعضهم لبعض، لكي تتلقى الأرض بركة الأتي باسم الرب. وها هو الآن قد أكمل المهمة على أقصى صورة سمحت له بها العروس المتبلدة من كثرة السنين وكثرة الإثم، وقد جاء بها ممسكاً بيدها ومن وراء الحدود الفاصلة بين القديم والجديد يسلمها للعريس الذي تطوع ليغسلها بدمه.

تقول الآية، أو يقول المعمدان، إنه كصديق العريس لا يرى العريس بل يسمعه فقط، وكفاه هذا، فدور «النبوة» لا يزيد عن كونه صديق العريس، كما وأن الحدود والسدود التي تفصل ليل النبوة عن صبح المسيا، العريس، جد قاسية وعاتية وليست لها عيون تنظر بها بل أذان تتحسس بها الأصوات الأتية من بعيد وفي الظلام: «هذا جاء لا يأكل ولا يشرب»، وهذا «جاء يأكل ويشرب»، هذا «يصوم تلاميذه»، وهذا «تلاميذه لا يصومون»، لأنهم يعيدون لعرسه القادم، «هذا من الأرض يتكلم وهذا من السماء». فالفواصل جد كبيرة، فكرية وزمنية وشخصية وروحية، فيكفي للنبي الحاذق أن يتعرف على صوت المسيا، وكفى النبوة كرامة أن تصادق العريس. أما وبعد أن يسمع النبي صوت من تنبأ عنه، الأمر الذي لم يحدث قط في تاريخ النبوة والأنبياء، فهذا حدث جلل أعطي للمعمدان دون جميع الأنبياء؛ لأن بأذن المعمدان تسمع جميع أنبياء الله في كل الدهور السالفة صوت العريس الذي طالما وصفوه بغير رؤيا وتسمعوه في ظلام الأحلام بغير صوت. فقد عمدة المعمدان حين قال: «فرحي الآن قد كمل»، فهو فرح جميع الأنبياء والآباء الذين نظروا المواعيد من بعيد وحيوها وماتوا على رجاء هذا اليوم. فالعمدان إنما يتكلم بروح إيليا وفم كل الأنبياء. وهل للنبي فرح يرجوه أكثر من أن يحقق الله له نبوته وفي حياته؟ كان المعمدان صوتاً صارخاً، ردد صوت المسيح صداه فسمعتها الأجال والأجيال.

٣٠- يَنْبَغِي أَنَّ ذَلِكَ يَزِيدُ وَأَنِّي أَنَا أَنْقُصُ.

تأتي «ينبغي» بصورة ضعيقة، فهي في أصلها اليوناني يتحتم، لأن هذا يتعلق بالقانون الإلهي. نعم فقد انتهى دور الأنبياء والنبوة بظهور الذي تركزت فيه كل النبوات. فإذا خرجت الشمس لزم إطفاء المصابيح. أو هو غروب نجم على أحسن الأحوال لشروق شمس على أقلها!! وهذا القول هو النبوة الأخيرة ليوحنا المعمدان عن بزوغ فجر العصر الماسياني الذي طالما حلم به الأباه والأنبياء. فالمعمدان وإن كان يتكلم عن نفسه كصورة أدت مهمتها بأمانة، إلا أن القديس يوحنا الإنجيلي يرتفع بهذه الصورة ليرى فيها آخر صوت يسمعه الإنجيل، ليس للأنبياء

وحسب بل وللعهد القديم قاطبة.

فقد انقضى عهد الظلمة وأشرق نور الحياة. وإن ظهر المعمدان بهذه الكلمات على مستوى الإتضاع حقاً، فإنما هو إتضاع من حكم الواقع، أوكما يقولمون، تحصيل الحاصل.

وبشهادة المعمدان هذه أمام تلاميذه، يكون قد صادق المسيح في تعليمه ضمناً عن المعمودية الأفضل التي من فوق، التي شرحها لنيقوديموس بإسهاب وعكرت مزاج التلاميذ النساك، والناسك يصبح دائماً متضايقاً في نفسه إذا غاب عنه عمل الروح. بل ويكون المعمدان قد صادق نفسه عندما قال سابقاً: «أنا أعمدكم بماء ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه هو الذي يأتي بعدي... فهذا هو الذي يعمد بالروح القدس» (يو ١: ٢٦و٢٧و٣٣). وإن ذهاب « الجميع»، كما يقول تلاميذه، للمسيح ليعتمدوا، هو الصحيح، وهو بعينه ما يقوله أن «من له العروس فهو العريس». فليس «الجميع» فقط ينبغي أن يعتمدوا له بل والعالم كله، «لأنه هكذا أحب اللة العالم» عوض إسرائيل!

٣١- الَّذِي يَأْتِي مِنْ فَوْقُ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ والَّذِي مِنَ الأَرْضِ هُوَ أَرْضِيٌّ وَمِنَ الأَرْضِ يَتَكَلَّمُ. الَّذِي يَأْتِي مِنَ السَّمَاءِ هُوَ فَوْقَ الْجَمِيعِ.

يشترك كافة الشراح في الرأي ما عدا العالم «هوسكنز» والعالم «هنجستنبرج» بأن حديث المعمدان وشهادته تنتهيان عند الآية (٣٠)، بعد ذلك ينقسم العلماء إلى من يقول أن الباقي على لسان المسيح، والى من يقول أنه بقلم يوحنا الرسول، ولكن الأباه الآوائل ذهبي الفم واغسطينوس وغيرهما لا يرون هذا الرأي الأخير بل يعتبرون أن شهادة المعمدان مستمرة حتى نهاية الأصحاح، وسنأخذ برأيهم؟ لأن الكلام لا يخلو من لمسات حية هي من روح المعمدان، باعتبار أن المعمدان انكشفت له السماء وعرف صوت الروح القدس وسمع شهادة الأب من نحو الابن.

غير أن شرح الكلام لو كان على لسان المسيح شيء، وشرحه من قلم يوحنا الرسول شيء» وشرحه بفكر المعمدان شيء آخر تماماً، وسيكون أضعفهم بلا نزاع، لأن المسألة مسألة استعلان، ولم يعط للمعمدان أن يستعلن المسيح إلا كونه الآتي، لأن المعمدان محكوم بفكر العهد القديم.

«الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع»: يلاحظ أن الفعل في المضارع المستمر فهو مجيء أو إرسال دائم ومستمر. و«من فوق» هي نفس الوصف الذي أعطاه المسيح للميلاد من فوق، وقد فسرها المعمدان ثانياً بقوله: «الذي يأتي من السماء». الإشارة هنا إلى المسيح الذي يتكلم عنه المعمدان؛ وهو يتكلم عن خبرة، لأنه أخذ تعليمات واضحة وصريحة من الله الذي يرى الروح القدس نازلاً ومستقراً عليه يكون هو الذي يعمد بالروح القدس. وبالفعل رأى وشهد أنه ابن الله، فليس أكبر من ذلك دليلاً ليقول المعمدان أن المسيح من فوق من السماء، هذا يوضح أن المعمدان يعلم تماماً من أين أتى المسيح.

فإذا كان المسيح هو من فوق، من السماء، فهو بحكم علو مكانته وطبيعته يكون الأعلى، أي فوق الجميع بلا نزاع، كرامة ومجداً وعلماً وتأثيراً. وفي الحال يلتفت المعمدان إلى نفسه، وبالتالي إلى كل معلم من هذه الأرض، حاصراً كل معرفته، كإنسان من الأرض وعلى مستوى الأرض، في أن فعلها وأثرها محدودان، وهذا يوضح بالتالي أن المعمدان مقتنع أن رسالته محدودة بمحدوديته. وهذا صدق، خاصة فيما تعنيه معمودية الماء فقط، وذلك على مستوى «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح».

٣٢- وَمَا رَآهُ وَسَمِعَهُ بِهِ يَشْهَدُ وَشَهَادَتُهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْبَلُهَا.

كانت شهادة المعمدان عن نفسه أنه ليس هو المسيح، وعن المسيح أنه الذي سيعمد بالروح القدس، بمفهوم التغيير الجذري لحياة الناس لتكون لحساب الله والحياة الآبدية، وأنه هو الحمل الذي يرفع خطية العالم، باعتبار رسالته الفدائية للخلاص لمغفرة الخطايا. وأنه هو العريس الحقيقي للشعب أو للأمة الذي انتظرته كل الأجيال السالفة. ولكن هنا تمتد شهادة المعمدان إلى آفاق أخرى لأول مرة يطرقها، وهي إجتهادية، إذ أنه يتكلم عن شهادة المسيح لنفسه ولرسالته، وهي بالنسبة للمعمدان حقيقة بديهية، فلأن المسيح من فوق من السماء فهو جاء ليشهد بما يعرفه سمعاً ورؤية، وهو قطعاً أعلى مما يعرفه كل من على الأرض، لذلك إذ أن هذه الشهادة تفوق المعرفة الطبيعية للناس، إذ هي تختص بالمعارف السماوية، لذلك «ليس أحد يقبلها»؛ ولو أن ذلك ليس بالأمر المقطوع به لأن بعض الناس قبلها. والمعمدان اعتبر نفسه أحد الذين قبلوها، وهو الآن يشهد بذلك.

المعمدان هنا لا يتكلم عن الجموع التي التفت حول المسيح، فهذه الظاهرة تخفي حقيقة هو يعلمها وقد فهمها قبل غيره: أن جوهر رسالة المسيح قائم على أساس أنه «ابن الله»، وأنه مقدم على تجديد كل شيء بالروح القدس، وخاصة بتقديم نفسه عوض الذبائح بصفته حمل الله الذي وحده يرفع خطية العالم؛ فعلى أساس هذه الحقائق سيُقاوم ولا أحد يريد أن يستجيب لرسالته التي أخذها من فوق. وأوضح دليل على ذلك، الهزة التي اهتزها هو من الأعماق وكادت تعصف به، والتي أعلن عنها الإنجيل أنه في يوم محنته أرسل اثنين من تلاميذه يسأل المسيح نفسه: «أنت هو الآتي أم ننتظر آخر؟» والتي كان ردها باختصار: «طوبى لمن لا يعثر في» (مت١١:١-٦). والمعمدان يعود إلى أعماق نفسه المضيئة بروح الحق والنبوة، فيرى أن المسيح بحد ذاته هو الحامل لشهادة الله وبما رأى وسمع عند الله كما قال هو عن نفسه: «أنا أتكلم بما رأيت عند أبي... وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله (يو٨:٣٨-٤٠)، هو أنه أقصى ما يستطيع أن يعبر به الإنسان عن قبوله للحق وضمان تعهده بالشهادة بذلك.

وإن كان المعمدان لم يكمل فيما يخص نصيب الذين لا يقبلون شهادة الله هذه، فالقديس يوحنا نفسه يقدمها في رسالته: «لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد به الله عن ابنه. من يؤمن بابن الله، فعنده الشهادة في نفسه. من لا يصدق الله، فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهادة التي قد شهد بها الله عن ابنه.» (ايو٥:٩-١٠)

٣٣- وَمَنْ قَبِلَ شَهَادَتَهُ فَقَدْ خَتَمَ أَنَّ اللَّهَ صَادِقٌ.

المرة الأخرى التي نسمع فيها عن «الختم» فيما يخص الله هىر الآية: «اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي للحياة الأبدية (جسد المسيح) الذي يعطكم ابن الإنسان لأن هذا الله الآب قد ختمه» (يو٦:٢٧). فإذا كان الله قد ختم المسيح أو جسد المسيح، فهذا يعني أنه حامل للخلود وعدم الموت إزاء الطعام البائد الذي ختمه العالم والإنسان. فهنا في آية المعمدان يكون الذي قبل المسيح كمن قبل صدق ختم الله وختم هو أيضاً على صدق الله. ومعروف أن المعمدين بالروح القدس والماء يأخذوذ مثل هذا الختم السري الإلهي من الروح القدس: «الذي فيه أيضاً أنتم، إذ سمعتم كلمة الحق إنجيل خلاصكم، الذي في أيضاً إذ آمنتم، خُتمتم بروح الموعد القدوس الذي هو عربون ميراثنا» (أف١:١٣-١٤). ويقول العالم الكبير لايتفوت إن هناك قولاً نبيلاً عند الربين اليهود يقول: (إن ختم الله هو الحق)، بمعنى إن كل ما هو من الله مختوم بختم الحق

وبذلك، فإن كل من يقبل المسيح يكون كمن قبل كل الحق من الله. ففيه تكمل كل مواعيد الله الصادقة الحقيقية غير الكاذبة: «الذي أرسلني هو حق وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم.» (يو٨:٢٦)

٣٤- لأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ اللَّهُ يَتَكَلَّمُ بِكلاَمِ اللَّهِ. لأَنَّهُ لَيْسَ بِكَيْلٍ يُعْطِي اللَّهُ الرُّوحَ.

إن برهان صدق الله مختوم به على كل ما يقول المسيح ويعمل، والله أرسله محملاً برسالة روحية تفيض بآيات وكلام الحياة: «ياربِ إلى من نذهب. كلام الحياة الآبدية عندك» (يو٦:٦٨). ويكفي لأي إنسان أن يعرف أن كل ما قاله المسيح ونطق به هو هو «كلام الله» نصاً وروحاً. ولكن ليس كأجزاء، إنما كرسالة كلية كاملة هي رسالة الله. لكل الأنبياء كان الله يعطي الروح بمقياس ومكيال مجزءاً ومقسطاً تقسيطاً على قدر ما يتحمل روح النبي وعلى قدر ما يتحتل السامع واحتمالات الظرف. أما للمسيح فبلا كيل ولا قسط يعطي الله الروح، بل إلى كل ملء الروح والله. لأن قياس ملء المسيح هو قياس الله. ومقباس ملء الآب والابن هو الحب.

٣٥- اَلآبُ يُحِبُّ الاِبْنَ وَقَدْ دَفَعَ كُلَّ شَيْءٍ فِي يَدِهِ.[1]

المعمدان ليس غريباً عن حقيقة الآب والابن. لقد كان أول من أعلن عن هذا السر في العهد الجديد قاطبة، وأول من شهد له: «وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يو١:٣٤)؛ بل وأول من وثق وثيقة منظورة من الآب للابن وقت العماد حينما حل الروح القدس على هيئة حمامة استقرت فوق المسيح. فعلم للحال وللتو أن هذا هو الذي سيعمد بالروح القدس، وأنه قد استؤمن عل كل ما للآب.

«كل شيء»: دُفع له الحياة الأبدية بكل أسرارها والدينونة في المقابل، دُفع له سلطانه الخاص مع اسمه الخاص، دُفع له كل النعمة وكل الحق، أعطاه كل ما له وبلا حدود.

٣٦- الَّذِي يُؤْمِنُ بِالاِبْنِ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ والَّذِي لاَ يُؤْمِنُ بِالاِبْنِ لَنْ يَرَى حَيَاةً بَلْ يَمْكُثُ عَلَيْهِ غَضَبُ اللَّهِ»

المعمدان أُعطي له بصورة فريدة أن يطلع على الصورة النبوية للمسيح كما كانت في ذهن موسى في التوراة، وفي نفس الوقت يرى ويسمع شهادة الله عن ابنه؛ ثم يتقابل مع المسيح وجهاً لوجه فيتحقق من كل ما سمع ورأى. ففي توراة موسى كانت صورة المسيح، باعتباره النبي الآتي تحمل معها تهديداً واضحاً بالقطع من الحياة لكل من لا يسمع لصوت هذا النبي الآتي: «فإن موسى قال للآباء إن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم له تسمعون في كل ما يكلمكم به، ويكون أن النفس التي لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب» (أع٣:٢٢-٢٣). وقد تحقق المعمدان أول من تحقق من شخصية ذلك النبي المُقام أنه «ابن الله»، وأنه موضوع مسرة الله، فتيقن أن الإيمان به هو حياة وأن رفضه هو عودة الانسان تحت قانون غضب الله على الذين لا يطيعون. لأن بحسب منطق المعمدان يكون أن الذين يؤمنون به يجعلون الله صادقاً، والذين لا يؤمنون يجعلون الله كاذباً. لأنهم لا يؤمنون بشهادة الله عن ابنه. فهنا تنشأ الخصومة بين الإنسان والله، فعدم الإيمان بالابن هو بنوع ما تعدى على صدق الله بما يحتمل العداوة ضد الحق. ها يدخل الإنسان نفسه كمقاو لتدبير الله ومعطل لعمله: «شاول شاول لماذا تضطهدني... صعب عليك أن ترفس مناخس.» (أع٩:٤-٥)

تعقيب على شهادة المعمدان

نحن مدينون إلى علاقة القديس يوحنا الرسول الصميمة بالمعمدان، فهو كان من تلاميذه المتقدمين قبل أن ينضم إلى تلمذة المسيح، فبسبب هذه العلاقة التي تربطه بالمعمدان وتلاميذه، وهم زملاء القديس يوحنا القدامى، استطاع

[1] فى إنجيل متى سمع المعمدان صوت الله: هذا هو ابنى الوحيد الذى سررت به (مت٣:١٧)

أن يتعرف على أدق وأكثر الحركات سراً التي جرت بين تلاميذ المعمدان واليهود من ناحية، وبين هؤلاء التلاميذ والمعمدان من جهة أخرى؛ لأن كل أقوال المعمدان التي تسجلت في إنجيل يوحنا في هذا الأصحاح هي من التعاليم هى من التعاليم السرية الخاصة التي باح بها المعمدان لتلاميذه ليضعهم في الموضع الصحيح بالنسبة لرسالة المسيح وشخصه. ولكن للأسف لم يكن هؤلاء التلاميذ المعمدانيون على مستوى نور معلمهم ورسالته؛ إذ قد استهوتهم رسالة النسك الدقيقة والصارمة التي اختطها لهم معلمهم: «لماذا يصوم تلاميذ يوحنا والفريسيين وأما تلاميذك فلا يصومون» (مر٣:١٨). وتمادوا فيها بعد موته وكونوا لأنفسهم شيعة رفعت من المعمدان ونسكه وتعاليمه ونصبت نفسها عدواً لرسالة المسيح.

تم فى ٢٠١٧/٣/٩

الإصحاح الرابع

فَلَمَّا عَلِمَ الرَّبُّ أَنَّ الْفَرِّيسِيِّينَ سَمِعُوا أَنَّ يَسُوعَ يُصَيِّرُ وَيُعَمِّدُ تَلاَمِيذَ أَكْثَرَ مِنْ يُوحَنَّا، مَعَ أَنَّ يَسُوعَ نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ يُعَمِّدُ بَلْ تَلاَمِيذُهُ. تَرَكَ الْيَهُودِيَّةَ وَمَضَى أَيْضاً إِلَى الْجَلِيلِ. وَكَانَ لاَ بُدَّ لَهُ أَنْ يَجْتَازَ السَّامِرَةَ. فَأَتَى إِلَى مَدِينَةٍ مِنَ السَّامِرَةِ يُقَالُ لَهَا سُوخَارُ بِقُرْبِ الضَّيْعَةِ الَّتِي وَهَبَهَا يَعْقُوبُ لِيُوسُفَ ابْنِهِ. وَكَانَتْ هُنَاكَ بِئْرُ يَعْقُوبَ. فَإِذْ كَانَ يَسُوعُ قَدْ تَعِبَ مِنَ السَّفَرِ جَلَسَ هَكَذَا عَلَى الْبِئْرِ وَكَانَ نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ. فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ السَّامِرَةِ لِتَسْتَقِيَ مَاءً فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَعْطِينِي لأَشْرَبَ». لأَنَّ تَلاَمِيذَهُ كَانُوا قَدْ مَضَوْا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَبْتَاعُوا طَعَاماً. فَقَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ السَّامِرِيَّةُ: «كَيْفَ تَطْلُبُ مِنِّي لِتَشْرَبَ وَأَنْتَ يَهُودِيٌّ وَأَنَا امْرَأَةٌ سَامِرِيَّةٌ؟» لأَنَّ الْيَهُودَ لاَ يُعَامِلُونَ السَّامِرِيِّينَ. أَجَابَ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتِ تَعْلَمِينَ عَطِيَّةَ اللَّهِ وَمَنْ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَكِ أَعْطِينِي لأَشْرَبَ لَطَلَبْتِ أَنْتِ مِنْهُ فَأَعْطَاكِ مَاءً حَيّاً». قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ لاَ دَلْوَ لَكَ وَالْبِئْرُ عَمِيقَةٌ. فَمِنْ أَيْنَ لَكَ الْمَاءُ الْحَيُّ؟ أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِينَا يَعْقُوبَ الَّذِي أَعْطَانَا الْبِئْرَ وَشَرِبَ مِنْهَا هُوَ وَبَنُوهُ وَمَوَاشِيهِ؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هَذَا الْمَاءِ يَعْطَشُ أَيْضاً. وَلَكِنْ مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ». قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ أَعْطِنِي هَذَا الْمَاءَ لِكَيْ لاَ أَعْطَشَ وَلاَ آتِيَ إِلَى هُنَا لأَسْتَقِيَ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «اذْهَبِي وَادْعِي زَوْجَكِ وَتَعَالَيْ إِلَى هَهُنَا». أَجَابَتِ الْمَرْأَةُ: «لَيْسَ لِي زَوْجٌ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «حَسَناً قُلْتِ لَيْسَ لِي زَوْجٌ. لأَنَّهُ كَانَ لَكِ خَمْسَةُ أَزْوَاجٍ وَالَّذِي لَكِ الآنَ لَيْسَ هُوَ زَوْجَكِ. هَذَا قُلْتِ بِالصِّدْقِ». قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ أَرَى أَنَّكَ نَبِيٌّ!. آبَاؤُنَا سَجَدُوا فِي هَذَا الْجَبَلِ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ فِي أُورُشَلِيمَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ فِيهِ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ صَدِّقِينِي أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ لاَ فِي هَذَا الْجَبَلِ وَلاَ فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ. أَنْتُمْ تَسْجُدُونَ لِمَا لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَمَّا نَحْنُ فَنَسْجُدُ لِمَا نَعْلَمُ – لأَنَّ الْخَلاَصَ هُوَ مِنَ الْيَهُودِ. وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الآنَ حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ لأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هَؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ لَهُ. اَللَّهُ رُوحٌ. وَالَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا». قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مَسِيَّا الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمَسِيحُ يَأْتِي. فَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُخْبِرُنَا بِكُلِّ شَيْءٍ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا الَّذِي أُكَلِّمُكِ هُوَ». وَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ تَلاَمِيذُهُ وَكَانُوا يَتَعَجَّبُونَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ مَعَ امْرَأَةٍ. وَلَكِنْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: مَاذَا تَطْلُبُ أَوْ لِمَاذَا تَتَكَلَّمُ مَعَهَا. فَتَرَكَتِ الْمَرْأَةُ جَرَّتَهَا وَمَضَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَالَتْ لِلنَّاسِ: «هَلُمُّوا انْظُرُوا إِنْسَاناً قَالَ لِي كُلَّ مَا فَعَلْتُ. أَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ؟». فَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَتَوْا إِلَيْهِ. وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ سَأَلَهُ تَلاَمِيذُهُ: «يَا مُعَلِّمُ كُلْ». فَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا لِي طَعَامٌ لآكُلَ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ أَنْتُمْ». فَقَالَ التَّلاَمِيذُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «أَلَعَلَّ أَحَداً أَتَاهُ بِشَيْءٍ لِيَأْكُلَ؟» قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «طَعَامِي أَنْ أَعْمَلَ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي وَأُتَمِّمَ عَمَلَهُ. أَمَا تَقُولُونَ إِنَّهُ يَكُونُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ثُمَّ يَأْتِي الْحَصَادُ؟ هَا أَنَا أَقُولُ لَكُمْ: ارْفَعُوا أَعْيُنَكُمْ وَانْظُرُوا الْحُقُولَ إِنَّهَا قَدِ ابْيَضَّتْ لِلْحَصَادِ. وَالْحَاصِدُ يَأْخُذُ أُجْرَةً وَيَجْمَعُ ثَمَراً لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ لِكَيْ يَفْرَحَ الزَّارِعُ وَالْحَاصِدُ مَعاً. لأَنَّهُ فِي هَذَا يَصْدُقُ الْقَوْلُ: إِنَّ وَاحِداً يَزْرَعُ وَآخَرَ يَحْصُدُ. أَنَا أَرْسَلْتُكُمْ لِتَحْصُدُوا مَا لَمْ تَتْعَبُوا فِيهِ. آخَرُونَ تَعِبُوا وَأَنْتُمْ قَدْ دَخَلْتُمْ عَلَى تَعَبِهِمْ». فَآمَنَ بِهِ مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ كَثِيرُونَ مِنَ السَّامِرِيِّينَ بِسَبَبِ كَلاَمِ الْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ تَشْهَدُ أَنَّهُ: «قَالَ لِي كُلَّ مَا فَعَلْتُ». فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهِ السَّامِرِيُّونَ سَأَلُوهُ أَنْ يَمْكُثَ عِنْدَهُمْ فَمَكَثَ هُنَاكَ يَوْمَيْنِ. فَآمَنَ بِهِ أَكْثَرُ جِدّاً بِسَبَبِ كَلاَمِهِ. وَقَالُوا لِلْمَرْأَةِ: «إِنَّنَا لَسْنَا بَعْدُ بِسَبَبِ كَلاَمِكِ نُؤْمِنُ لأَنَّنَا نَحْنُ قَدْ سَمِعْنَا وَنَعْلَمُ أَنَّ هَذَا هُوَ بِالْحَقِيقَةِ الْمَسِيحُ مُخَلِّصُ الْعَالَمِ». وَبَعْدَ الْيَوْمَيْنِ خَرَجَ مِنْ هُنَاكَ وَمَضَى إِلَى الْجَلِيلِ. لأَنَّ يَسُوعَ نَفْسَهُ شَهِدَ أَنْ: «لَيْسَ لِنَبِيٍّ كَرَامَةٌ فِي وَطَنِهِ». فَلَمَّا جَاءَ إِلَى الْجَلِيلِ قَبِلَهُ الْجَلِيلِيُّونَ إِذْ كَانُوا قَدْ عَايَنُوا كُلَّ مَا فَعَلَ فِي أُورُشَلِيمَ فِي الْعِيدِ لأَنَّهُمْ هُمْ أَيْضاً جَاءُوا إِلَى الْعِيدِ. فَجَاءَ يَسُوعُ أَيْضاً إِلَى قَانَا الْجَلِيلِ حَيْثُ صَنَعَ الْمَاءَ خَمْراً. وَكَانَ خَادِمٌ لِلْمَلِكِ

ابْنُهُ مَرِيضٌ فِي كَفْرِنَاحُومَ. هَذَا إِذْ سَمِعَ أَنَّ يَسُوعَ قَدْ جَاءَ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجَلِيلِ انْطَلَقَ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ أَنْ يَنْزِلَ وَيَشْفِيَ ابْنَهُ لأَنَّهُ كَانَ مُشْرِفاً عَلَى الْمَوْتِ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لاَ تُؤْمِنُونَ إِنْ لَمْ تَرَوْا آيَاتٍ وَعَجَائِبَ!». قَالَ لَهُ خَادِمُ الْمَلِكِ: «يَا سَيِّدُ انْزِلْ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ ابْنِي». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذْهَبْ. اِبْنُكَ حَيٌّ». فَآمَنَ الرَّجُلُ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا لَهُ يَسُوعُ وَذَهَبَ. وَفِيمَا هُوَ نَازِلٌ اسْتَقْبَلَهُ عَبِيدُهُ وَأَخْبَرُوهُ قَائِلِينَ: «إِنَّ ابْنَكَ حَيٌّ». فَاسْتَخْبَرَهُمْ عَنِ السَّاعَةِ الَّتِي فِيهَا أَخَذَ يَتَعَافَى فَقَالُوا لَهُ: «أَمْسِ فِي السَّاعَةِ السَّابِعَةِ تَرَكَتْهُ الْحُمَّى». فَفَهِمَ الأَبُ أَنَّهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي قَالَ لَهُ فِيهَا يَسُوعُ إِنَّ ابْنَكَ حَيٌّ. فَآمَنَ هُوَ وَبَيْتُهُ كُلُّهُ. هَذِهِ أَيْضاً آيَةٌ ثَانِيَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ لَمَّا جَاءَ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجَلِيلِ

مكان البشارة: السامرة

الحديث الذي ينقله لنا القديس يوحنا في هذا الأصحاح يعتبر من الأحاديث الهامة والنادرة، لأنه حديث مثخمي جداً ومطق ل مع فرد » امرأة ، وقليلاً ما تحت ث المسيح عن خصوصيات إنان وانتهى به إل الإيمان بمثل هذه السرعة والرتابة والتدرج المبهر في الاستعلان عن ذاته . وعلى القارىء أن يربط بين مثل هذه الأحاديث النادرة وبين الغاية النهائية التي وضعها هذا الإنجيلي الملهم بالنسبة للقارىء مباشرة : «لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكي تكون لكم إذا أمنتم حياة باسمه.» (يو ٢٠:٣١)

كانت العلاقات بين اليهود وأهل السامرة على مستوى من التعالي من جهة اليهود، والبغضة والعداوة من جهة السامريين، ربما كانت هي الواقع الذي جعل المسيح يركب هذا الصعب ويذلله لحساب محبة الأب نحو العالم، ونحو الملكوت المعد للبعيدين، لأننا نسمع في سفر الأعمال عن تشتت بعض التلاميذ وذهابهم إلى السامرة بعد حادثة قتل إسطفانوس على يدي شاول (بولس الرسول فيما بعد) وحدوث «اضطهاد عظيم على الكنيسة التي في أورشليم فتشتت الجميع في كور اليهودية والسامرة ما عدا الرسل.» (أع٨:١)

وهكذا صارت السامرة مكروهة الأمة اليهودية، ملجأ أميناً لأول المسيحيين بفضل زيارة المسيح لهذا البلد وزرع بذرة الملكوت هناك. كذلك نسمع عن بعثة رسمية بقيادة فيلبس، أحد الشمامسة، قام بها في السامرة: «فانحدر فيلبس إلى مدينة من السامرة وكان يكرز لهم بالمسيح. وكانت الجموع يصغون بنفس واحدة إلى ما يقوله فيلبس عند استماعهم ونظرهم الأيات التي صنعها. لأن كثيرين من الذين بهم أرواح نجسة كانت تخرج صارخة بصوت عظيم، وكثيرون من المفلوجين والعرج شفوا. فكان فرح عظيم في تلك المدينة» (أع٨:٥-٨). بل ودخلت السامرة رسمياً في إيبارشية أورشليم تحت تدبير الرسل وعنايتهم الخاصة: «ولما سمع الرسل الذين في أورشليم أن السامرة قد قبلت كلمة الله أرسلوا إليهم بطرس ويوحنا اللذين لما نزلا صليا لأجلهم لكي يقبلوا الروح القدس. لأنه لم يكن قد حل بعد على أحد منهم غير أنهم كانوا معتمدين باسم الرب يسوع. حينئذ وضعا الآيادي عليهم فقبلوا الروح القدس.» (أع٨:١٤-١٧)

وهكذا كانت السامرة ذات موضع أثير عند القديس يوحنا. وكم شكر الله الذي أهل هذا الرسول القديس أن يكتب لنا سر قصة السامرة من البدء. فهو الوحيد الذي ألقى ضوء الإنجيل على هذا الشعب كاشفاً سر بدء نمو بذرة «حبة الخردل» التي ألقاها المسيح في قلب امرأة نصف أممية، فنبت حالاً الملكوت وتمهدت لأرجل بشارة الرسل، ليغرس الروح القدس في قلوب شعب اختاره الرب بعد أن نبذه اليهود والتاريخ.

وموضع قصة السامرة في تسلسل إنجيل القديس يوحنا محكم شديد الإحكام، يتبع مخططاً روحياً غاية في الإلهام. فالقارىء يذكر كيف افتقد الرب أول ما افتقد الشعب اليهودي الذي يعيد في حفلة عرس، وهناك أظهر العريس

الحقيقي نفسه لشعب إسرائيل الذي كان قد فرغ منه خمر الحب والفرح والملكوت. فعالجه المسيح بأن حول تطهير الماء الذي لا ينفع ولا يشفع بخمر الحياة الجديدة الجيدة. ثم يذكر كيف افتقد الرب هيكله، وقام في وجه النظام الكهنوتي الذي ترك الحق والرحمة وانشغل بذبيحة البقر والغنم والحمام وتحويل الصلاة إلى مصدر رزق ولو بغير حلال؛ فأطلق سراح البقر والغنم ورفع الحمام من هناك ناقضاً التطهير بالذبائح، ومشيراً إلى ذبيحته الوحيدة، التى أضمرها لإقامة هيكل جديد عوض القديم.

وبعدها يذكر القارىء أنه تقابل مع الناموس ممثلاً في شخص معلم إسرائيل نيقوديموس، الذي يمثل السنهدريم وكل طبقة المعلمين، وكيف قلب له نظام التعليم من أساسه، جاعلاً ملكوت الله رهن ولادة الإنسان من فوق من الماء والروح، حتى ولو كان قد شاخ في العلم والتعليم. وبعدها اصطنع مقابلة سريعة، دون تقابل، لخدمة المعمدان، قبل أن يختمها المعمدان بالسجن، ليوضح لتلاميذه المتعصبين للنسك والتطهير كأنه الباب الجديد للخلاص، مع أن زمن التطهيرات كان قد انتهى عندما انفتح الباب الوحيد للخلاص، ولا أحد قط يستطيع أن يغلقه أو يقلده.

وهكذا بعد أن تمت مقابلة الشعب في عرس، ومقابلة الكهنوت في هيكله، ومقابلة الناموس في معلمه، ومقابلة المعمودية «بالماء فقط» في عجزها النسكي؛ كان عليه أن يعطي لفتة لشعب غريب كان قد تجاوز في كل الأزمنة السالفة، مع إسرائيل شعب النور والمعرفة، فما عتم إلا أن ازداد عتامة، وتخبط بين أسفار موسى وأصول العبادة وبين هيكل أورشليم وهيكل جرزيم.

ما هي السامرة ومن هم السامريون؟: أما السامرة نفسها فكانت جزءاً لا يتجزأ من أرض فلسطين التي كانت مقسمة خاصة بعد العودة من السبي، وإلى الأن، إلى اليهودية والسامرة وإسرائيل (الجليل). وكانت مساحتها بحسب إذرزها العالم اليهودي المتنصر تبلغ ٤٧ ميل من الشمال إلى الجنوب وأربعين ميلا من الشرق للغرب، تحدها أرض اليهودية في الجنوب ونهر الاردن من الشرق، ومن الغرب سهل شارون (الذي كان يتبع اليهودية أيضاً)، ومن الشمال الجليل عند سهل يزرعيل. أي أنها ورثت أرض منسى وأفرايم سبطي إسرائيل ليوسف.

وأرض السامرة أجمل وأخصب من أرض اليهودية. ولكن في أيام المسيح تقلصت وصارت لا تحتوي إلا على بعض مدن قليلة بجوار عاصمتها السامرة. والسامرة كعاصمة لاسرائيل مملكة الشمال بناها الملك عمري حوالي سنة ٩٢٥ ق. م. وكان اسمها شمرون نسبة لصاحبها شامر(وانقلبت الشين سين حسب النطق العربي فصارت سامرة) الذي كان يملك الجبل كله وهو باسمه جبل شمرون: «في السنة الواحدة والثلاثين لآسا ملك يهوذا، ملك عمري على إسرائيل اثنتي عشرة سنة واشترى جبل السامرة (شمرون) من شامر صاحب جبل السامرة.» (امل١٦:٢٣-٢٥).

والسامرة دخلت في حرب طاحنة وخربت ثم عُمرت مرات ومرات، وكان يتبادل غزوها واحتلالها كل من مصر وسوريا مبتدئاً من زمن الملك شيشق سنة ٩١٨ ق.م، وهذه أول غزوة قامت بها مصر، وهي التي فيها أخلى فلسطين والهيكل من كل الذهب والتحف التي خلفها سليمان الملك. وفي إحدى غزوات أشور سبي شعبها على يد الملك شلمناصر الثالث (أو سرجون) وذلك سنة ٧٢١ ق. م أيام عزيا الملك، الذي خان العهد مع آشور والتجأ إلى مصر للمعونة . وكانت النتيجة أن خربت البلاد عن آخرها، وسبي كل شعب مملكة إسرائيل في الشمال (سماريا)، وانمحى تاريخ إسرائيل منذ ذلك الوقت كمملكة في العالم.

ومدينة السامرة في أيام المسيح كانت بقرب المدينة شكيم التي عاش فيها الآباء إبراهيم واسحق ويعقوب. والتي تخربت سنة ١٢٨ ق. م على يد يوحنا هركانوس، والتي بني عوضا عنها على بعد ميل ونصف مدينة أخرى، وصار

اسها نابلس (وأصلها نيابوليس، أي المدينة الجديدة). وشكيم عاصمة السامرة سابقاً كانت إحدى مدن الملجأ الست في كل أرض الأسباط.

أما السامريون، وأصلاً كانوا يدعون «كتييم»، فهم بقايا العشرة الأسباط الذين رحلوا إلى بلاد السبي على يد الملك الغازي شلمناصر(أو بحسب أبحاث كتابات الأثار: سرجون) سنة ٧٢١ ق. م والذين تزاوجوا من الوثنيين الذين أُرسلوا من أشور ليحلوا محل أهل البلاد، كذلك مع أهل الأرض القدامى، ولكن الدم اليهودي كان هو الغالب.

وأصل العداوة المرة التي نشأت بين اليهود واليهودية وأهل السامرة وأرضها، كان هو عملية الإصلاح التي قام بها نحميا وعزرا الكاهن في تصفية الدم اليهودي، وطرد كل من تزاوج من السامرة، وعدم السماح لأهل السامرة بالرغم من الإلحاح الشديد أن يسمح لهم بالمساعدة في بناء الهيكل أو أن ينضموا إلى اليهودية وعبادة أورشليم أو أن يلتحقوا بالسنهدريم، مما نتج عنه شعور بالبغضة لم ينطفىء أوزاره حتى اليوم. وذهبت العداوة إلى درجة القنص وقتل كل يهودي يعبر السامرة. ولكن هذه العداوة كانت تزداد وتخف من جيل إلى أخر.

ولكن عبادة السامريين كانت مبتورة بسبب قلة التعليم، مع أنهم كانوا يعيدون للفصح بذبح الخروف ويقيمون الشعائر والعبادة بدقة تفوق اليهود، وكذلك بحسب أسفار موسى الخمسة فقط التي احتفظوا منها بنسخة غاية في القدم يرجع تاريخها إلى حوالي سنة ٤٠٠ ق. م أيام نحميا وعزرا الكاهن، والتي تعتبر أحد مصادر البحث الهامة في المقارنات بين إلآيات. وكانوا يؤمنون بالقيامة، غير أن اليهود أنكروا عليهم هذا الإيمان وكانوا يعتبرونهم هراطقة. ولكن في أيام الحاخام شمعون بن غمالائيل معلم إسرائيل العظيم قرر أنهم يُحسبون إسرائيليين، وأن أرضهم ليست نجسة ولا طعامهم، بعكس رابي « يهوذا» المحسوب أنه قديس عند شيعته فكان يتشدد وينعتهم بالوثنيين. وطبعاً الأساس في ذلك هو روح العداوة التي لا تعرف للحق حدودا.

كانت عبادة السامريين تقام في هيكلهم على جبل جرزيم الذي أقيم سنة ٤٠٩ ق. م وقد حدث في هذه الأيام أن رئيس كهنة اليهود الكبير المدعو ياددوا امتنع من أن يسمح لأخيه المدعو منسى أن يتزوج بنت سنبلط السامري وأرغمه على الفرار من اليهودية. فذهب هذا الأخير وأقام نفسه رئيس كهنة لهيكل جرزيم عند السامريين. وهكذا صار جبل جرزيم مركز عبادة رسمياً، وصارت كل مراسيم العبادة تحمل صورة طبق الأصل من العبادة اليهودية. ولكن لما انضم السامريون إلى السوريين الذين غزوا المكابيين وذلك سنة ١٣٠ ق. م قام يوحنا هركانوس بهدم هيكلهم ولم يُبنى بعد ذلك. كذلك مدينة السامرة التي بعد أن خربت بكاملها بُنيت من جديد على يد هيرودس وصارت من أجمل المدن، وأسماها سبسطية عل شرف أغسطس قيصر، كما أعيد بناء شكيم وسُميت على شرف العائلة المالكة في روما «فلادفيا نيابوليس» وهي نابلس الحالية.

وقد ظهر عطف المسيح على السامرة والسامريين في عدة مواضع غير الذي نحن بصدده الآن:

١- في الموضع الذي طُهر فيه العشرة البرص: «فواحد منهم لما رأى أنه شُفي رجع يمجد الله بصوت عظيم وخر على وجهه عند رجليه شاكرا له، وكان سامريا. فأجاب يسوع وقال: أليس العشرة قد طهروا فأين التسعة؟ ألم يوجد من يرجع ليعطي مجداً لله غير هذا الغريب الجنس؟» (لو١٧:١٥-١٨)، هنا يدعوه المسيح غريب الجنس بحسب تسمية اليهود للسامريين، ولكنه ضمناً امتدحه وامتدح جنسه أكثرمن اليهود. وفي هذا المثل مقارنة مكتومة بين أخلاق اليهود وروحهم المبتعدة عن الله حتى وفي عدم ردهم على صنع الخير لهم، وبين السامريين المعترفين بفضل الله وبصوت عظيم.

٢- الموضع الآخر وهو أعظم وأجل تكريم قدمه المسيح للسامرة والسامريين، إذ أعطى مثلآ صار فيه السامري الصالح لقباً جليلاً ذا شأن عظيم في الحياة المسيحية. هذا المثل قاله المسيح رداً لى سؤال متبجح ليهودي يسأل: «من هو قريبي؟»، في الوصية التي تقول: «تحب قريبك مثل نفسك» (لا١٩:١٨). فأعطى المسيح مثلاً لاذعاً قدم فيه أن كاهناً لم يتحرك لينقذ إنساناً يهوديا نازلاً من أورشليم متجهاً نحو أريحا مُعرى ومجروحا ومضروبا ملقى بين حي وميت على الطريق. ولا أيضاً تحرك لهذا المنظر يهودي لاوي أي من خدام الهيكل. «ولكن سامريا مسافراً جاء إليه ولما رأه تحنن، فتقدم وضمد جراحاته، وصب عليها زيتاً وخمراً وأركبه على دابته، وأتى به إلى فندق واعتنى به، وفي الغد لما مضى أخرج دينارين وأعطاها لصاحب الفندق وقال له اعتي به، ومهما أنفقت أكثر فعند رجوعي أوفيك. فأي هؤلاء الثلاثة تُرى صار قريباً للذي وقع بين اللصوص؟» (لو١٠:٣٣-٣٣).

٣- أما الموضع الأخير فقد وضع فيه المسيح في عنق الكنيسة لتكمل ما صنعه هو: «لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لى شهودا في أورشيم وفي كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض.» (أع١:٨)

والأن إلى ما يتضمنه حديث المسيح في السامرة واستجابة أهلها:

١- يقدم لنا القديس يوحنا عرضاً لإيمان أهل السامرة النصف أمميين، فإذا هو الإيمان الحاضر المستجيب المُعلن عن نفسه ببراءة ويقين وصحة: «أنت مخلّص العالم»، ومن كل قلوبهم، إزاء:

أولاً: أهل أورشليم مركز العبادة والمتعبدين بإيمانهم السطحي الهزيل المتهافت على الآية والمعجزة.

وثانياً: إيمان معلم إسرائيل التائه الحائر ممثل صفوة العلماء والمتعلمين، مع رد فعل الفريسيين على تعاليم المسيح المملوء شكاً وخبثاً ومصادرة.

وهكذا يقدم لنا القديس يوحنا هذه الإستراحة الإيمانية بين هؤلاء من غير اليهود عن طريق الكرازة لليهود المملوء تعسفاً وضيقاً وجحوداً.

٢- يعلو بنا القديس يوحنا في هذه الوقفات القليلة مع السامريين إلى أقصى استعلان بلغة المسيح عن نفسه. فمع السامرية استدرج إيمانها حتى بلغت به المسيا، فوافقها معلناً «أنا هو».

أما درجات الاستعلان البارزة فما أوضحها في هذه الكلمات المتلاحقة:

+ «أنت يهودي وأنا امرأة سامرية».

+ «يا سيد».

+ «لا دلو لك والبئر عميقة، ألعلك أعظم من أبينا يعقوب؟».

+ «أعطني هذا الماء لكي لا أعطش».

+ «يا سيد أرى أنك نبي».

+ «أنا أعلم أن مسيا يأتي = (أنا هو)».

ومع السامريين الذين عاشرهم عدة أيام أكلاً وشارياً من خبزهم وماءهم ملاطفاً متحنناً، حتى بغ بهم الإيمان أن رأوه بيقين الرؤيا والشهادة: «أنت مخلص العالم».

٣- قرب نهاية قصة السامرة يفتتح المسيح سجل الإرساليات المزمع أن يكون، وذلك لأول مرة في إنجيله هكذا، وفي بكور أعماله متكلماً عن المرسلين، وزرع الدموع، وحصاد الفرح، وكأنه يدرب أولاده كما يدرب النسر فراخه على التحليق والصيد. وقد كان بالفعل أن تمت أول إرسالية نقرأ عنها في أصحاح ٨ أعمال الرسل على يد فيلبس

أحد الشماسة السبعة، تلاها إرسالية تزعمها القديس بطرس، ولكن كان القديس يوحنا روحها الذي شغف بأهلها أيما شغف، بعد أن امتص من المعلم روح المسامحة واللطف والحب والتحنن على الرافضين والمرفوضين سواء، وهكذا خلع القديس يوحنا ثوبه اليهودي الأول المطرز بالعلياء والكبرياء ولبس مسوح المسيح:

«وأرسل أمام وجهه رسلاً فذهبوا قرية للسامريين حتى يعدوا له، فلم يقبلوه لأن وجهه كان متجهاً نحو أوشليم، فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا: يا رب أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل إيليا أيضاً. فالتفت وانتهرها وقال: لستما تعلمان من أي روح أنتما، لأن ابن الإنسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص.» (لو ٩:٥٢-٥٦)

وهكذا يشاء الله أن يكون القديس يوحنا أول من يضع يده على رؤوسهم ويستنزل لهم الروح القدس فيحل عليهم ويصيرون من التابعين.

٤- في هذه الرحلة المشوقة في أرض السامرة أعلن المسيح ولأول مرة عن الماء الحي الذي يعطيه، وأن كل من يشرب منه لا يعطش أبداً، وعن العبادة بالروح والحق وأن الله روح وهو يطلب الساجدين له بالروح والحق، وعن هيكل العبادة الذي حير الناس بألوانه وأشكاله، بأن وضع أول أساس لاورشليم السماوية على الأرض حيث لا هيكل أورشليم ولا هيكل جرزيم: «وأراني المدينة العظيمة أورشليم المقدسة نازلة من السماء من عند الله... ولم أر فيها هيكلاً لأن الرب الله القادر على كل شيء هو والخروف هيكلها.» (رؤ ٢١:١٠و٢٢)

١- فَلَمَّا عَلِمَ الرَّبُّ أَنَّ الْفَرِّيسِيِّينَ سَمِعُوا أَنَّ يَسُوعَ يُصَيِّرُ وَيُعَمِّدُ تلاَمِيذَ أَكْثَرَ مِنْ يُوحَنَّا.

٢- مَعَ أَنَّ يَسُوعَ نَفْسَهُ لَمْ يَكُنْ يُعَمِّدُ بَلْ تلاَمِيذُهُ.

٣- تَرَكَ الْيَهُودِيَّةَ وَمَضَى أَيْضاً إِلَى الْجَلِيلِ

«فلما»: إذا جاءت في بداية الكلام، فهي دائماً تحمل نوع الإرتباط وتحتل الأية على ما قبلها. فهنا «فلما» تعني: «وحينئذ عندما» علم الرب. وهنا التحميل يجيء مرتكزاً على ما حدث من تلاميذ المعمدان والإثارة التي أحدثوها، خاصة عندا اشاعوا أن «االجميع» يأتون إلى المسيح وأن المسيح يعمد تلاميذ أكثر من يوحنا؛ هذا الخبر ترامى لأسماع الفريسيين وغالباً فإنهم أعدوا العدة للمصادرة. هذا علمه المسيح قبل وقته، فأخذ الاحتياط تجنباً للمصادمة، قبل ميعاد الساعة، مع الفريسيين المحسوبين أنهم أعداء الإيمان.

ويوضح القديس يوحنا أن الإشاعة حملت مضموناً كاذباً أن المسيح يعمد، فصححها القديس يوحنا قائلاً: «مع أن يسوع نفسه لم يكن يعمد بل تلاميذه». وهذا توضيح لا بد منه، لأن المعمودية لم تكن قد أخذت وضعها المسيحي كسر يختص بملكوت السموات، بمعنى أنها لم تكن مدعمة بالروح القدس بعد، فقد كانت مجرد إعداد لمعمودية قادمة. هذا بالإضافة إلى أن سر المعمودية في المسيحية يشمل أساساً مضمون موت المسيح وقيامته، وهذا لم يكن قد تم بعد.

«ترك اليهودية»: وقرر المسيح أن ينسحب، وجاءت في العربية «ترك» ينسحب من عمله في اليهودية ويمضي أيضاً إلى الجليل. و«ينسحب» هي الترجمة الدقيقة لما يعنيه الفعل اليوناني (   ) في هذا الموضع. ولكنها لم ترد في الترجمات العربية للعهد الجديد وهي تفيد: «ترك الأمر على ما هو عليه ليبلغ نهايته من نفسه».

«ومضى أيضاً إلى الجليل»: «أيضاً» هنا منسوبة إل القول السابق في ١:٤٣ «وفي الغد أراد يسوع أن يخرج

إلى الجليل». وكانت هذه هي المرة الاولى، أما هنا فهي المرة الثاية. والسر في أن القديس يوحنا يضع هنا «أيضاً» هو سر خطير للغاية، لأنه يود أن يؤكد التفريق بين زياتين تمتا للجليل: الاولى بعد خدمته في اليهودية أول مرة؛ والثانية وهي هذه، بعد خدمته في اليهودية لثاني مرة، الأمر الذي أغفله الإنجيليون الثلا ثة وجعلوا خدمته في الجليل قائمة بذاتها دون الإشارة إل خدمته في اليهودية.

٤- وكان لابد له أن يجتاز فى السامره

«وكان لابد له» تفيد نوعاً من الام ستعجال أو، وهو الأصح، نوعاً من الإلتزام، لذلك نرى المسيح يتخذ طريقه من داخل السامرة مع أنه طريق شاق وحار (صيفاً)، بالإضافة إلى أنه محظور نوعاً ما بسبب كراهية اليهود من الإختلاط والسير في أرض السامرة واحتمال تعدي أهل السامرة على المارين أحياناً. أما الطريق الأخر الأسهل فكان من غرب الاردن ينطلق شمالاً حتى إلى الناصرة. وان كان يبدو للباحث العادي أن هذا الاختيار هو وليد الحاجة إلى الإسرع في مغادرة اليهودية، ولكن الحقيقة التي كان يعلمها المسيح هي أنه كان ملتزماً بمهمة، فقد كان عطشاناً إلى ماء السامرة كعطشه على الصليب من أجل الخطاة. وكان طريق اليهودية إلى الجليل عبر السامرة يستغرق ثلا ثة أيام، بحسب يوسيفوس المؤرخ اليهودي.

٥- فأتى إلى مدينة من السامرة يقال لها سوخار، بقرب الضيعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه

«سوخار»: الآن تُسمى «عسكر». وقد بحثت عن هذا الاسم فُوجد في أخبار أيام السامرة في المخطوطات، ومكتوب اسها «إسكار» في مدونات القرن الثاني عشر، وهي تقع تحت سفح جبل عيبال، وهو جبل اللعنات، وفي مقابله تماماً جبل جرزيم، جبل البركات، وبين السفحين تقح مدينة شكيم التي كانت عاصمة مملكة إسرائيل بالقرب من مدينة الناصرة التي تحول اسمها أيام هيرودس الملك إلى سبسطية نسبة إلى اغسطس قيصر (حيث اغسطس باللاتيني يقابلها سبستوس باليونانية)، ولكنها في أيام المسيح لم تكن قد أخذت صورتها واسمها بالكامل.

+ «وإذا جاء بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لكي تمتلكها فاجعل البركة على جبل جرزيم واللعنة على جبل عيبال.» (تث١١:٢٩)

+ «وأوصى موسى الشعب في ذلك اليوم قائلاً: هؤلاء يقفون على جبل جرزيم لكي يباركوا الشعب حين تعبرون الاردن: شمعون ولاوي ويهوذا ويساكر ويوسف وبيامين . وهؤلاء يقفون ملى جبل عيبال للعنة. رأوبين وجاد وأشير وزبولون ودان ونفتالى.» (تث٢٧:١١-١٣)

«الضيعة التي وهبها يعقوب ليوسف ابنه»: في بركة يعقوب إسرائيل الأخيرة وهوعلى سريره في مصر (تك٤٨:٢٠-٢٢)، وهو رافع يديه على أفرايم ومنسى، وهب يوسف هذا المكان أي هذه الضيعة المذكورة في تك٣٣:١٧-٢٠. وكانت كلمات يعقوب هكذا: «وباركهما في ذلك اليرم قائلاً: بك يُبارك إسرائيل قائلاً يجعلك الله كأفرايم ومنسى، مقدما أفرايم على منسى. وقال إسرائيل ليوسف: ها أنا أموت ولكن الله سيكون معكم ويردكم إلى أرض آبائكم. وأنا قد وهبت لك سهماً واحداً فوق إخوتك أخذته من يد الأموريين بسيفي وقرسي.»(تك٤٨:٢٠-٢٢)

وهناك في سفر يشوع يتضح صحة هذه الدعوى: «وعظاو يوسف التي أصعدها بنو إسرئيل من مصر دفنوها في شكيم في منطقة الحقل التي اشتراها يعقوب من بني حور أبي شكيم بمائة قسيطة فصارت لبني يوسف ملكا» (يش٢٤:٣٢). ولا يزال قبر يوسف هناك بجوار هذا البئر حتي اليوم.

فإذا علمنا أن سبطي أفرايم ومنسى كان نصيبهما من أرض كنعان منطقة السامرة الأن بعينها، تكون دعوى السامريين بانتسابهم ليعقوب صحيحة، وأنهم وارثون بركة يعقوب في أفرايم ومنسى صحيحة أيضاً. ولكن واقعهم الروحي والإلهي كان متدهوراً للغاية. كذلك يتضح من كلام السامرية للمسيح بعد ذلك: «ألعلك أعظم من أبينا يعقوب الذي أعطانا البئر وشرب منها هو و بنوه ومواشيه»، تأكيداً لميراث الأرض والبركة.

٦- وَكَانَتْ هُنَاكَ بِئْرُ يَعْقُوبَ. فَإِذْ كَانَ يَسُوعُ قَدْ تَعِبَ مِنَ السَّفَرِ جَلَسَ هَكَذَا عَلَى الْبِئْرِ وَكَانَ نَحْوَ السَّاعَةِ السَّادِسَةِ.

«لَيْسَ مِثْلَ اللهِ يَا يَشُورُونُ. يَرْكَبُ السَّمَاءَ فِي مَعُونَتِكَ وَالغَمَامَ فِي عَظَمَتِهِ. الإِلهُ القَدِيمُ مَلجَأٌ وَالأَذْرُعُ الأَبَدِيَّةُ مِنْ تَحْتُ. فَطَرَدَ مِنْ قُدَّامِكَ العَدُوَّ وَقَال: أَهْلِكْ. فَيَسْكُنَ إِسْرَائِيلُ آمِناً وَحْدَهُ. تَكُونُ عَيْنُ يَعْقُوبَ إِلى أَرْضِ حِنْطَةٍ وَخَمْرٍ وَسَمَاؤُهُ تَقْطُرُ نَدىً (تث٣٣:٢٦-٢٨)

«بئر يعقوب»: هذه البئر موجودة حتى الأن تحت عناية الجهات الرسمية المختصة بالآثار. وكان عمقها في الأصل نحو ١٠٦ قدم، ومياهها ترشح إليها من الأرض حولها فهي شحيحة نوعاً ما. وقد نزل في هذا البئر الرحالة اللفتنانت أندرسون في مايو سنة ١٨٦٦ فوجد عمقها ٧٥ قدم، ونصف قطرها ٧ قدم، ولكنها كانت مطموسة وليس بها ماء، وكانت مغشاة بحجارة غشيمة ولكن متماسكة.

والذي حير العلماء هو لماذا هذه البئر شحيحة المياه مع أن حواليها ينابيع غزيرة في شكيم وكل الدائرة؟ وكان الرد هو أن يعقوب وهو متغرب هناك وقد اشترى قطعة الأرض هذه، أراد أولاً أن يكون له مصادر مياه خاصة به هو وبنوه ومواشيه. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كان حفر بئر في الأرض يعتبر أنئذ وضع يد ملكية يثبت ملكيته للأرض الواقع فيها البئر: «ثم أتى يعقوب سالماً إلى مدينة شكيم التي في أرض كنعان حين جاء من فدان أرام (بين النهرين)، ونزل أمام المدينة. وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته من يد بني حور أبي شكيم بمئة قسيطة. وأقام هناك مذبحاً ودعاه إيل (إيل مفرد إلوهيم) إله إسرائيل.» (تك٣٣:١٨-٢٠)

«تعب يسوع من السفر»: تعب يسوع من عناء السفر، أليس هو ابن الإنسان؟ أليس من أجل هذا تجثم رحلة النزول من حضن الآب ليشارك الإنسان شقاءه وأتعابه وأسفاره؟ ولكنه جيد أن يتعب يسوع مُجربا مثلنا في كل شيء ما خلا الخطية وحدها، لكي يستطيع أن يعين المجربين والتعابى. ولكن لعله تعب من رحلة السفر الطويلة مع الشعب الذي أعطاه القفا دون الوجه: «مددت يدي طول النهار إلى شعب معاند ومقاوم.» (رو١٠:٢١)

«جلس هكذا على ألبئر وكان نحو السأعة السأدسة»: «هكذا» تفيد أنه جلس بدون ترتيب المكان الذي يجلس عليه من شدة التعب، أو بمعنى متعباً هكذا، وطبعاً كان جلوسه على الحجارة المرصوصة حول البئر. والبئر كان يبعد عن سوخار حوالي كيلومتر ونصف. وكان الوقت منتصف الظهيرة فأضاف الجو بحرارته على تعب الطريق جفاف الريق!!

وهل هي من مصادفات الحديث والرواية؟ أم أن هناك علاقة بين هذه القصة ومأساة الصليب، ففي الاثنين نقرأ عن التعب والعطش ونحو الساعة السادسة من النهار. بل والأدهش أن نقرأ في الروايتين أن التلاميذ تركوه وحده!!

«ألبئر»: يورد القديس يوحنا في هذه الرواية لفظين متباعدين يعبران عن البئر:

الأول ( ) وهو يعني ينبوع ماء، وفي أصوله اللغوية سواء باليوناني أو العبري أو العربي، يكون بمعنى «عين»

بالعربي. وبالعبري (   ) وهو الينوع الطبيعي الذي لم تنقره يد إنسان وماؤه جار أي حي. وهذا اللفظ العبيري يذكره القديس يوحنا إذا كان ملازماً للرب سواء جلس عليه أو أعطى هو منه ماءً حياً. «يصير فيه ينبوع (   ) ماء ينبع إلى حياة أبدية» (يو ٤:١٤)

الثانى: وهو البئر المحفور باليد أو كخزان، ويكون غالباً عميقاً ومياهه شحيحة وراكدة. واللفظة بالعربية مثل العبرية «بئر» (   ). والعجيب أن هذا اللفظ التعبيري يذكره القديس يوحنا عندما يكون ملازماً للسامرية: «يا سيد لا دلو والبئر (   ) عميقة» (٤:١١)، وأيضاً عندما قالت: «ألعلك أعظم من أبيا يعقوب الذي أعطانا البئر (   ) وشرب منها هو وبنوه ومواشيه»(٤:١٢).

وهكذا يكشف لنا القديس يوحنا عن منهجه الروحي، ويبثه بالحديث بثاً كمن يطوع الألفاظ لفكره اللاهوتي، وكأنه يريد أن يردد الآية: «شعبي عمل شرين. تركوني أنا ينبوع (   ) الماء الحي لينقروا لأنفسهم أباراً (خزانات) مشققة لا تضبط ماءً.» (إر ٢:١٣)

أليس في هذا التصوير البديع باللعب بالألفاظ ما يكشف عن رؤية كاتب الإنجيل أن بئر يعقوب هو هو المسيح ينبوع الحياة: «أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، أنا أعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً... من يسمع فليقل تعال، ومن يعطش فليأت، ومن يُرد فليأخذ ماء حياة مجاناً» (رؤ ٢١:٦؛ ٢٢:١٧)

أما «الساعة السادسة»: فليست الساعات عند القديس يوحنا بلا حساب. أليست هي عينها ساعة الخلاص التي قال فيها «أنا عطشان»؟ إنه دائماً على ميعاد مع الخطاة في منتصف النهار قبل أن يأتي ليدين في نصف الليل.

أ- حديث الرب مع السامرية. (يو ٤:٧-٢٦)

وتظهر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: بئر بركات وذكريات الآباء الجسدية، ذات الماء المُعطش.

الجديد: المسيح ينبوع الحياة الآبدية، والذي يشرب منه لا يعطش أبداً.

القديم: السجود في جبل أورشليم لليهود، وجبل جرزيم للسامريين الذين يسجدون لما لا يعلمون.

الجديد: «تأتي ساعة وهي الأن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون بالروح والحق "للآب"».

القديم: « أنا أعلم أن مسيا يأتي... ذاك يخبرنا بكل شيء».

الجديد والاستعلان: «أنا هو»!

٧- فَجَاءَتِ امْرَأَةٌ مِنَ السَّامِرَةِ لِتَسْتَقِيَ مَاءً فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَعْطِينِي لأَشْرَبَ».

٨- لأَنَّ تلاَمِيذَهُ كَانُوا قَدْ مَضَوْا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيَبْتَاعُوا طَعَاماً.

واضح أنه لو كان المسيح مع تلاميذه لما طلب ماء من امرأة. ولكن يتساءل الشراح لماذا تأتي امرأة لتستقي من بئر عميقة وحواليها عيون ماء كثيرة في المنطقة؟ كما يتساءلون لماذا تأتي وقت الظهيرة وهو ليس ميعاد استقاء؟ فالرد على ذلك بسيط ولكنه مُحرج. فالمرأة ذات سمعة سيئة، فهي اختارت وقتاً لا يكون فيه أحد من نسوة المدينة يستقي، كما أنها اختارت البئر الأقرب إلى قريتها. فالبئر تبعد عن سوخار حوالى نصف ميل. ولكن القديس يوحنا لم يلتفت إلى هذه التفرعات التي تلهي القارىء عن لُب الحوار ونتائجه، وهذا هو أسلوب القديس يوحنا أن لا يتدخل في معرض القصة إلا إذا التزم اللفظ بالتوضيح .

ولكن ماذا يوحي إلينا هذا المنظر؟ امرأة تستقي من بئر في منتصف النهار، والامرأة كجنس ينظر إليه بخفة عند الحكماء في أعين أنفسهم: «وكانوا يتعجبون من أنه يتكلم مع امرأة» (يو٤:٢٧)، ثم عند اليهود بازدراء وامتهان. فليست صنعة المرأة السقي من الآبار إن كانت امرأة ذات بيت وخدم. ولكن هنا نرى الرب يكسر حاجز الجنس القائم بين الرجل والمرأة، وحاجز العداوة القائم بين الإنسان والإنسان، لأننا سنسمع حالاً أن اليهود لا يعاملون السامريين. ولكن أيضاً يكسر حاجز الطبقات ما بين ذي حيثية وغير زي حيثية. فالمنظر أمامنا خصب يوحي بأن الجالس على البئر يمثل السمو غير الموجود في البشر. فإن قال: «أعطيني لأشرب»، فهو سؤال للأخذ، يخفي النية في العطاء. وهذا شأن الله دائماً: «يا ابني أعطني قلبك ولتلاحظ عيناك طرقي.» (أم٢٣:٢٦)

السامرية فرغ ماؤها في منتصف النهار، مثل عرس قانا الذي فرغ خمره. فإن كان اليهود قد أعوزهم سر الفرح، فالسامريون أعوزهم سر الحياة.

ليس مصادفة أن تأتي امرأة سامرية لتستقي والمسيح جالس على بئر يعقوب. ليس هذا من صنع القدر بل من صنع من يصنع «أمراً مقضياً به على الأرض» (رو٩:٢٨). فقد ساق الروح هذه المرأة التي هي خير من يمثل البشرية المُهانة التي خارج السياجات، لتصنع هذه المقابلة التي تم تدبيرها منذ الأزل. امرأة مُهانة من شعب ذليل، ليس غريباً عليها أن تتقابل مع من لبس الغربة وأخذ شكل العبد المهان: «قليل أن تكون لي عبداً لإقامة أسباط يعقوب ورد محفوظي إسرائيل. فقد جعلتك نوراً للأمم لتكون خلاصى إلى أقص الأرض. هكذا قال الرب فادي إسرائيل قدوسه **للمهان النفس، لمكروه الأمة، لعبد المتسلطين**» (إش٤٩:٦-٧). لقد سُجلت هذه المقابلة ليس في سفر إشعياء أول ما سُجلت، بل في سجل الآزل، لحساب من لبس ابن الله من أجلهم شكل العبد المهان!!

«أعطيني لأشرب»: القول ينضح بالمفارقة الصارخة. ينبوع ماء الحياة يطلب أن يشرب من ماء بئر مُعطش ومن يد امرأة جف منها ماء الحياء؟ ولكن دائماً أبداً تقف مفارقات الله مع الإنسان لحساب الإنسان. وهو دائماً يحتاج إلينا ليعطينا. ولكن قول الرب محسوب حسابه، وليحسب معي القارىء كلمات الرب للمرأة السامرية وهذه هي أولها: فسوف نجدها سبع كلمات بكل ميزان العد والتصنيف وليس زيادة ولا نقصان. فكلمات الرب دائماً محسوبة ومُققنة: انظر العشر وصايا، وانظر السبع تطويبات، والسبع توسلات في الصلاة الربانية، والسبع أمثال في إنجيل متى، والسبع كلمات الأخيرة له على الصليب؛ نجد أن أقوال الرب تأتي مُحكمة الوزن والعد.

«لأن تلاميذه كانوا قد مضوا إلى المدينة ليبتاعوا طعاماً»: من ملابسات القصة يبدو بترجيح شديد أن الرب أرسل تلاميذه ليبقى وحده. ولكن من المحتمل جداً أن القديس يوحنا بقي وحده معه. وكانت هذه مشيئة الرب وألح عليها، لأنه ليس من المعقول بأي حال من الأحوال أن التلاميذ جميعهم يذهبون ليبتاعوا طعاماً ويتركون الرب وحده على طريق السامرة. هذا أمر غير محتمل ولا مقبول من مسلسل القصة. فهم في أرض غريبة وأيضاً معادية. إذن، فكان هذا بناء على إلحاح المعلم حتى يخلو بخروفه الضال الذي طالما فتش عنه. أما القديس يوحنا فربما هو الذي ألح على البقاء معه واستجاب له الرب لأنه لا يغير شيئاً من الإحساس بوحدة المعلم. فكان هذا لحساب تسجيل هذه القصة المملوءة تعليماً وتجديداً. أما سكوت القديس يوحنا عن هذا التوضيح فهو أسلوبه المفضل في روايته.

٩- فَقَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ السَّامِرِيَّةُ: «كَيْفَ تَطْلُبُ مِنِّي لِتَشْرَبَ وَأَنْتَ يَهُودِيٌّ وَأَنَا امْرَأَةٌ سَامِرِيَّةٌ؟»

لأَنَّ الْيَهُودَ لاَ يُعَامِلُونَ السَّامِرِيِّينَ.

أمر غير مرتقب، وغريب عليها كل الغرابة، أن يتكلم رجل مع امرأة ويهودي مع سامرية، ويطلب يشرب ماء من إناء سامري منجس! وفوة هذا ما بال العداوة المحتدمة التي بيننا؟

ولكن ليس هذا كله الذي كان في حُسبان هذه المرأة، ولكن الأخطر من الكل الذي قفز إلى مقدمة تفكيرها أنها أحست بقداسة الجالس على البئر ورأت الخطر محدقاً بها، فاستنفرت فيها الخطيئة قواها لتصد الهجوم قبل أن يقع، وتسد على النور مساره الذي كان قد اخترق قلبها عنوة... قابلت رقة الرب بجفاء مصطنع وصويت الكلمات في وقاحة متعمدة وكأنها تراجع تعدي رجل على حياء امرأة، أو ترد عنها خدشاً لعفتها المزعومة: «كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية!»[1] ولكن هيهات! فالعين الإلهية لا ترتخ، والقداسة لا تهادن، وسهم النور يستحيل أن تصده جحافل الظلمة. فالنور يضيء باقتدار، والظلمة مهما تحصنت وشاكست فهي لا تقوى على صده. فالخاطئ يبادر النور بلطمة، ولكنه يكون كمن يلاطم الهواء يسقط بعدها صريعاً له. وعاد الرب يلح في دعواه والرب لا يُغلب أبداً ، وكأنه المحتاج يلوح بالعطاء، ويتمادى في شرح صدق دعواه، يتودد لها لكي يبدد الإحراج عنها وهو يخفي شباكه وراء كلماته... هو يطرح اللطف وهى تبرز الحراب : «اليهود لا يعاملون السامريين». ثم بدأت الحواجز تنهار...

١٠- أَجَابَ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتِ تَعْلَمِينَ عَطِيَّةَ اللَّهِ وَمَنْ هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَكِ أَعْطِينِي لأَشْرَبَ لَطَلَبْتِ أَنْتِ مِنْهُ فَأَعْطَاكِ مَاءً حَيّاً».

عطية الله:

إش ٩:٦ «أُوعطيناً أبنناً»

يو ١٦:٣ «هكذا أحب الله العالم حتى "أعطى" أبنه الوحيد»

ماءً حياً:

يو ١:٤ «فيه كانت الحياة»

رؤ ١٧:٧ «لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية».

رؤ ١:٢٢ «وأراني نهراً صافياً من ماء حياة لامعاً كبلور خارجاً من عرش الله والخروف».

إش ٣:١٢ «فتُسقوْن مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص».

إش ٣:٤٤ «أسكب (أعطي) ماء على العطشان. أسكب روحي على نسلك».

يؤ ٢٨:٢ «أسكب روحي على كل بشر»

المسيح يبدأ قوله بكلمة: «لو كنت تعلمين»؛ هو لا يتمنى لها أن تنكشف بصيرتها وتُستعلن الشخص الجالس أمامها، بل بالفعل يفتح أمامها الباب وينبه ذهنها أن تُحسن الرؤيا، ويوحي إليها أن تطلب منه عطية، وهذا هو مفتاح الصلة الحقيقية التي بها تنشأ العلاقة القوية بين الله والإنسان.

وفعلاً نجح المسيح في هذا الإيحاء العجيب، وفعلاً طلبت، وان جاء الطلب غير صحيح فقد عدله لها حتى بلغت

---

[1] لاحظ أن التلاميذ أنفسهم اندهشوا لما رأوا معلمهم يتكلم مع امرأة: "وكانوا يتعجبون أنه يتكلم مع امرأة» (٢٧:٤). وهذا بحد ذاته يظهر الفارق الهائل بين فكر المعلم وفكر تلاميذه.

المستوى! كذلك فإن المسيح ينبهها أنها محتاجة أن تعلم «من هو» ولا تعثر في منظره هكذا، المتعب والمجهد والعطشان! وكأنه يقول لها: «التفتي جيداً لأني افتقرت وأنا غني كما أنا، ولكني افتقرت لأغنيكم، فلا تتعثري في منظر بشريتي هكذا، بل ارفعي بصرك لتري حقيقتي.» وهذا قد تم بالحرف الواحد وفي أقل ما يمكن من الزمن!

في الحقيقة المسيح هنا بقوله «لو كنت تعلمين «عطية الله» إنما يقدم نفسه للبشرية الخاطئة كما قصد أبوه الصالح تماماً: «هكذا أحب الله العالم حتى «أعطى» ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة». ثم يعود ويربط هذه العطية، وهي نفسه، بالماء ثم بالحياة، ولكن في صورة الماء الحي أي الجاري، ومن هنا التبس على السامرية الأمر. وهذا أسلوب القديس يوحنا في استخدام اللفظ الذي يرمي إلى معنيين: الأول عادي ومادي، والثاني روحي وإلهي!!

والماء الحي الذي في عرف العهد القديم هو مجرد ماء جار كن نهر أو خلافه، هو في العهد الجديد «الماء المُحيي» كعطية الله للانسان على مستوى ماء الشرب الذي يُحيي الجسد بالأساس وبدونه يموت الإنسان. فالماء الحي عند المسيح هو «الحياة الأبدية نفسها». ولكن منظوره ومفهومه على أساس الحياة الجسدية التي يستمدها الجسد من الماء. أما الماء الطبيعي، إذا نال قوة روحية بالصلاة، فإنه يعتبر ماء للتقديس، وهو قادر أن يعطي الحياة الأبدية بالمعمودية بسبب قوة الحياة التي حلت فيه بالصلاة.

كذلك وحينما نسمع في المزمور قول داود النبي: «عطشت إليك نفسي» (مز٦٣:١) فهو صراخ في طلب الحياة كصراخ العطشان إلى الماء طلباً للحياة. وهنا يكون الله هو بمثابة الماء الحي أو ماء الحياة أو الماء المُحيي!! ولكنه هنا يُسمى بالماء الحقيقي لنفرقه عن الماء الزائل.

ولو رجعنا بنظرة خاطفة إلى الوراء ، لرأينا الماء عنصراً أساسياً في التغيير للتحول من القديم إلى الجديد في تعاليم المسيح الماضية . ففي عرس قانا وجدنا الماء يتحول خمراً، ومع نيقوديموس الإنسان يتحول إل خليقة جديدة «بالماء والروح»، ومع معمودية المعمدان يلزم الماء الروح القدس وإلا بطل مفعوله. وهنا يقدم المسيح نفسه «كينبوع ماء حي» يفيض على من يعطش إليه ويطلب. وكان الماء في كل هذه المواقف هو الماء الحي الذي يعني بالنهاية «الأ ليثيا» أو الله نفسه.

ويلزمنا جداً أن نرتفع بالحوار في شكله الفردي، لا كأن المسيح سيعطي السامرية وحدها، ولكن علينا أن ننظره من أفق أوسع يشمل كل من كان على مستوى السامرية: «إنسان صنع عشماء عظيماً ودعا كثيرين وأرسل عبده في ساعة العشاء ليقول للمدعوين تعالوا لأن كل شيء قد أُعد، فابتدأ الجميع برأي واحد يستعفون ... حينئذ غضب رب البيت وقال لعبده اخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة وازقتتها وأدخل إلى هنا المساكين والجدّع والعرج والعمي... اخرج إلى الطرق والسياجات وألزمهم بالدخول حتى يمتلىء بيتي.» (لو١٤:١٦-٢٣)

لو أدركنا أن حقيقة ينبوع الماء الحي تخص الله القدير في العهد القديم كما هو واضح من الآية عن يسووع الماء الحي بكل وضوح: « أيها الرب رجاء إسرائيل كل الذين يتركونك يبخزون. الحائدوذ عني في التراب يُكتبون لأنهم تركوا الرب ينبوع المياه الحية، اشفني يا رب فأُشفى ... لأنك أنت تسبيحتي» (إر ١٧:١٣-١٤)، لأدركنا في الحال أن المسيح هنا في هذه الآية إنما يستعلن نفسه من خلال الماء الحي بكل يقين.

وإن أردت أيها القارىء أن تعرف صحة هذه العقيدة اللاهوتية أن المسيح هو الرب القدير ينبوع المياه الحية الذي يشفي كل جراح البشرية ويخلص الذين في الحضيض، فانتظر إلى نهاية هذه القصة لترى كيف نضح الرب عليها

بالماء الحي فشُفيت وكيف سكب عليها من روحه فخلصت وقامت واستقامت، وتأهلت البشرية العاهرة أن تأخذ رتبة البنين وتصير تلميذاً ومعلماً!!

١١ – قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ لاَ دَلْوَ لَكَ وَالْبِئْرُ عَمِيقَةٌ. فَمِنْ أَيْنَ لَكَ الْمَاءُ الْحَيُّ؟.

أخيراً رضيت العاصية أن تدخل الحوار!... فالعرض سخي غاية السخاء ولكه غير معقول البتة؛ وهكذا دائماً عطية الله. وأنى للخاطىء أن يدرك حقيقة العطاء الإلهي وهو مرتبك بعطايا العالم، والفرق بين العطائين لا يقاس ولا يُحد؟ هكذا أصرت النفس المنطوية على عجزها التي لم تذق بعد عطاء الله، ولسان حالها يقول: وهل تمطر الماء ذهباً؟ «أتحيا هذه العظام؟» (حز٣٧:٣)، «هكذا قال السيد الرب لهذه العظام ها أنذا أُدخل فيكم روحاً فتحيون» (حز٣٧:٥)

«يا سيد لا دلو لك والبئر عميقة»: هكذا تغيرت صورة المسيح عند السامرية من: «أنت يهودي» إلى «يا سيد». وهكذا ينجح المسيح دائماً في أن يغير، لا صورته بل صورة من يسمع إليه فيراه أكثر على حقيقته. ولكن الخاطىء يضع العراقيل دائماً في وجه من يحاول خلاصه!!

«يا سيد لا دلو لك والبئر عميقة؟» لقد استقرت الخطيئة في القاع وهيهات أن تصل إليها، ولكن خيطاً رفيعاً من الأمل يستقر خلف «يا ميد». أليس في هذه الكلمة ما يعني أنه صار صاحب السيادة على نفسها؟ صحيح أنها تتمسك بنظرة المستحيل، ولكن لعل «السيد» عنده شيء؟

«فمن أين لك الماء الحي»: لقد عجزت أن ترى في الأفق حلاً، فإذا كان ليس له دلو ليستقي من بئر فكيف يعطي هذا ماء جارياً وكأنه من ينبوع؟ هكذا تضع النفس لها قيوداً وتقفل على نفسها بالقدر لترضى بعجزها وتقطع الطريق على المحاولة، ولكن عند الرب حلول تفوق القدر والمقدرات، وتتعدى كل الإمكانيات والتصورات: «والقادر أن يفعل فوق كل شيء أكثر جداً مما نطلب أو نفتكر بحسب القوة التي تعمل فينا.» (أف٣:٢٠)

١٢ – أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِينَا يَعْقُوبَ الَّذِي أَعْطَانَا الْبِئْرَ وَشَرِبَ مِنْهَا هُوَ وَبَنُوهُ وَمَوَاشِيهِ؟

عودة سريعة إلى الخلف ليتحصن الخاطىء في ماضيه ليراه حسناً وأفضل على كل حال من القفز نحو المجهول، هكذا تشبث نيقوديموس بشيخوخته ورأى فيها استحالة الدخول في ضيق البطن ليولد من جديد؛ بل هكذا رأى رؤساء الكهنة والفريسيون أن الهيكل بوضعه أفضل من تعديل يودي بحياة الأمة؛ بل وهكذا رأى تلاميذ المعمدان أن معمودية الماء أفضل من التغيير نحو معمودية الروح.

إن أصعب ما يلاقيه الخاطىء هو كيف يقفز نحو المجهول، ولكن هذا هو مطلب الإيمان الأول.

هكذا تعود السامرية تتشبث ببركات الآباء وبطوطم البئر الذي ورثوه عن يعقوب، وكأنه يغني عن كل جديد! فمياهه الشحيحة الراكدة هي أفضل من الماء الحي.

يلاحظ هنا أن الإنجيل يورد كلمة «وشرب منها هو وبنوه ومواشيه»، وهذا للامعان في تحديد وظيفة الماء، باعتباره ماءً جسدياً أو حيوانياً محضاً في مقابل ما سيكشف عنه بخصوص «الماء الحي» الذي هو الماء المختص بالحياة الجديدة السماوية، التي طالما تغنى بها الربيون اليهود أنها هي هي التوراة. فالتوراة (الناموس) في تأملاتهم هي الماء الحقيقي التي تجلي العين وتنير البصيرة، والتي صحح معناها المسيح بأنها هي الحياة الآبدية التي تنبع في روح الانسان بالروح القدس: «لأن الناموس (التوراة) بموسى أُعطي. أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا»

(يو١٧:١). فمياه الربيين لم تحرج عن كونها مياه الحرف لتطهير الجسد، أما مياه الرب يسوع فهي مياه الروح للحياة الابدية.

«إن كنت لا أرى معه دلواً ولا حبلاً، أو «إن لم أضع إصبعي في أثر المسامير»! (يو٢٠:٢٥). ولكنها تبحث في المستحيلات على كل حال، لأن في تقليد اليهود في التلمود وعند السامريين، أن يعقوب وهو عاطش مع بنيه ومواشيه وقف وصلى على البئر ونادى باسم الرب، ففاض منه ماءَ حياً أي جار، وظل هكذا نابعاً والمياه تجري منه عشرين سنة، ولكن منذ ذلك الزمان لم نسمع أن هذا البئر فاض ماؤه، فالسامريون يدعون أنهم من نسل أولاد يوسف ابن يعقوب، أفرايم ومنسى الذين امتلكوا السامرة.

«فهل أنت أعظم من أبينا يعقوب؟»: وهنا يلذ للقديس يوحنا أذ يبرز هذا التساؤل كتساؤل اليهود: «ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم... من تجعل نفسك؟« (يو٨:٥٣). وذلك لينبه ذهن القارىء أن: نعم »«قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو٨:٥٨). أما هنا فيرد المسيح بطريقة أخرى و لوأنه لا يمانع أن يدخل هذا السياق فهو: «ههنا أعظم من الهيكل» (مت١٢:٦)، و «ابن الإنسان هو رب السبت»» (مت١٢:٧)، و«قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (يو٨:٥٨)، و «هوذا أعظم من سليمان ههنا» (مت١٢:٤٢)، و «هوذا أعظم من يونا ههنا» (مت١٢:٤١). ولكنه هنا بهدوء سيأخذ يدها وعينها حتى ترى فيه من هو أمظم من أبيها يعقوب!!

١٣- أَجَابَ يَسُوعُ: «كُلُّ مَنْ يَشْرَبُ مِنْ هَذَا الْمَاءِ يَعْطَشُ أَيْضاً.

١٤- وَلَكِنْ مَنْ يَشْرَبُ مِنَ الْمَاءِ الَّذِي أُعْطِيهِ أَنَا فَلَنْ يَعْطَشَ إِلَى الأَبَدِ بَلِ الْمَاءُ الَّذِي أُعْطِيهِ يَصِيرُ فِيهِ يَنْبُوعَ مَاءٍ يَنْبَعُ إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ».

إش ٤٩:١٠ «لن يجوعون ولن يعطشون، ولا يضربهم حر ولا شمس، لأن الذى يرحمهم يُهديهم، وإلى ينابيع المياه يوردهم»

رؤ ٧:١٦ «لن يجوعوا بعد ولن يعطشوا بعد، ولا تقع عليهم الشمس ولا شيء من الحر. لأن الخروف في وسط العرش يرعاهم ويقتادهم إلى ينابيع ماء حية».

رؤ ٢١:٦ «أنا أعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً».

إش ٥٥:١ «أيها العطاش جيعاً هلموا إلى المياه».

يو٦:٣٥ «فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة من يقبل إلي فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً».

يلزمنا هنا في البداية أن نوضح الفرق بين «هذا الماء» ماء يعقوب؛ و «الماء الذي اعطيه أنا»؛ والفرق بين «يعطش أيضاُ»؛ و «لن يعطش إلى الابد». فالمسيح هنا يستخدم الماء موضوع الحوار استخداماً من واقع حال الإنسان فيما يخص جسده، وفيما يخص روحه؛ فيما يخص حياته على الأرض، وفيما يخص حياته الأبدية. فالجسد يعطش ويعطش ويعود إلى الماء كل مرة، فهو لا يرتوي أبداً أبداً؛ ولكن الروح تعطش، فإذا ارتوت فلن تعطش أبداً لأنها ترتوي من ماء الحياة الآبدية، أو الماء الحي أو الماء الحقيقي، الذي هو الحياة الأبدية نفهسا: «وهذه هي الحياة الأبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧:٣)

المسيح يضع إصبعه على نفسه ويشير إلى ذاته، «والماء الذي أعطيه» هو عطية الاستعلان التي إذا سكبها على قلب الإنسان ووعيه فإنه يتعرف على حقيقة المسيح، فيدخل مجال الحق الإلهي وينتمي بروحه إل السماويات؛

ومن كل ما هو سام يشبع ويرتع ويمتلىء ويرتوي، فلا تعود الأشياء التي في الدنيا موضع عطش أو تلفف أو متعة روح.

المسيح يضرب على الوتر الحساس ليرن صوته في أعماق النفس المتعبة التي نهبتها الشهوات والملذات والجري وراء سراب الغرور والمتعة، التي كلما شربت منها النفس ازدادت عطشاً إليها دون أن يدري الإنسان أنها تمتص رحيق حياته ونضارته وإرادته وكرامته، وأخيراً تتركه صريعاً للندم واليأس وخيبة الأمل. هذه هي «يعطش أيضاً».

«لن يعطش إلى الأبد»: إنها قولة صدق ذات رنين حي تردده ألوف ألوف وربوات ربوات الأرواح القديسة في السماء بآمين.

إنها مقولة تتجلى في حياة من يقبل ويشرب كل يوم، ولكها سوف تبلغ أوج تجليها في المجد الأعلى، ومنتهى تحقيتها في ملكوت ابن الله: «لا يجوعون ولا يعطشون ولا يضربهم حر ولا شمس، لأن الذي يرحمهم يهديهم، والى ينابع الميا، يوردهم» (إش٤٩ :١٠). هذا يراء إشعيا، من وراء الدهور، ينطقه بروح الله، فترد عليه أرواح الأبرار التي تكملت في المجد: «لأن الخروف الذي في وسط العرش يرعاهم.» (رؤ٧ :١٦)

هو هو المسيح المتكلم: «ينبوع الحياة الأبدية»، هنا «بالاستعلان» وهناك بالرؤيا والمشاهدة والعيان.

كل من أدمن على شرب المياه المعطشة هنا، يتمنى في يوم من الأيام لولم يولد حينما يبلغ به العمر أرذله؛ أما الذي ذاق الحياة في المسيح يسوع فهو كل يوم يولد جديداً.

كل من ضيع العمر في ملذات هذا الدهر وضيقت عليه الدنيا بعد ذلك، يتمنى لو يموت؛ أما الذي استعلن المسيح واستنشق الحياة الأبدية فيه، فهو يحيا كل يوم حياة جديدة ولن يموت أبداً.

«بل الماء الذي أُعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع الى حياة أبدية».

إش١٢ :٢-٣ «هوذا الله خلاصى فأطمئن ولا أرتعب، لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لي خلاصاً. فتستقون مياهاً بفرح من ينابيع الخلاص».

نش ٤ :١٢ «اختي العروس جنة مغلقة، عين مقفلة، ينبوع مختوم»

«الماء الذي أعطيه» هو نعمة الاستعلان بالروح القدس، وبالاستعلان يتجلى المسيح في قلب الإنسان، فيشعر بالخلامى كقوة تجرف حياته كلها كنهر جارف لا يستطيع أن يحجزه، فينطق لسانه بالفرح والتهليل ويظل ينبع بفيضان. و يعيش باطمئنان في بهجة الخلاص، يشرب منها و يعب عباً كل يوم، ويفيض على كل من يتعرف عليه، ويظل يفيض إلى أن يلتحم بالحياة الأبدية، وحينئذ ينجلي الخلاص في أكمل مفاعيله ومباهجه إلى أبد الدهور.

وهذا يعني أن الماء الذي يعطيه المسيح الأن يتحول فيه إلى خلاص في الحاضر يمتد إلى أبد الأبدين.

وبقدر ما يحتاج الخلاص هنا إلى مزيد من الشرب، أي الاستعلان، بقدر ما في النهاية يصير في الإنسان قوة تزداد من تلقاء ذاتها حيث يصبح المسيح في القلب هو نفسه ينبوع الخلاص الذي لا يجف.

فـ «المياه الحية»، وقد أسماها المسيح «عطية الله»، حينما تستقر في نفس الإنسان تصبح قوة حية فاعلة بذاتها تسكن هيكل الإنسان الروحي وتعمل فيه، تحييه وتهذبه وتجدده. مثلها مثل عطية «الحياة» التي ينالها الإنسان من «أكل الجسد» الذي هو العطية الكبرى: «من يأكل جسدي وشرب دمي فله حياة أبدية.» (يو٦ :٥٤)

ومثلها مثل «كلمة الله». ««كتبت إليكم أيها الأحداث لأنكم أقوياء وكلمة الله ثابتة فيكم.» (ايو ٢ :١٤)

ومثلها مثل «الحق». «من أجل الحق الذي يثبت فينا وسيكون معنا إلى الأبد.» (٢يو٢)

ومثلها مثل «روح الحق»: «روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم.» (يو١٤:١٧)

ومثلها مثل «مسحة النعمة»: «وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم أن يعلمكم أحد، بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء، وهي حق وليست كذباً كما علمكم تثبتون فيه.» (١يو ٢:٢٧)

ومثلها مثل «بذرة الله»: »كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية (طوعاً)، لأن زرعه (زرع الله) يثبت فيه، ولا يستطيع أن يخطىء لأنه مولود من الله»» (١يو٣:٩).

هكذا «المياه الحية»، روح الاستعلان ومعرفة الله، فإنها تسكن وتنبع فيه بلا توقف كالمياه الجارية وبلا نهاية، وتفيض قوة وراء قوة بلا نقصان بل بزيادة، حتى كما يقول بولس الرسول: «ملء الله».

وهكذا فإن نفس الإنسان التي تم فيها تجلي المسيح بالاستعلان، أي شربت من ينبوع الخلاص، تصير هي بذاتها ينبوع خلاص، كما يخاطبها سليمان النبي في نشيد الأنشاد: «أختي العروس جنة مغلقة، عين مقفلة، ينبوع مختوم» (نش ٤:١٢)، بمعنى أن مواردها في الداخل وليس لها حاجة من الخارج: «ينبوع جنات، بئر مياه حية، وسيول من لبنان» (نش٤:١٥). وسفر الرؤيا يكشف لنا عن مصدر الإندفاق ومنبع الفيضان الحر الدائم في داخل النفس هكذا: «وأراني نهراً صافياً من ماء حياة لامعاً كبلور خارجاً من عرش الله والخروف.» (رؤ ٢٢:١)

وقانون الارتواء من روح الله هو الامتلاء للزمان الحاضر والفيض الدائم، ثم الحياة الأبدية التي ننالها هنا نصعد بها إلى فوق حيث مصدرها: «وإن مضيت وأعددت كم مكاناً، آتي أيضاً واخذكم إلى، حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً.» (يو١٤:٣)

١٥- قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ أَعْطِنِي هَذَا الْمَاءَ لِكَيْ لاَ أَعْطَشَ وَلاَ آتِيَ إِلَى هُنَا لأَسْتَقِيَ».

لقد نجح هذا السيد البديع، فهوذا استجابت السامرية إلى قول الرب: «... لطلبت أنت منه فأعطاك ماءً حياً». هذه أول علامات العودة، عودة النفس إلى خالقها تلغلغ بطلبات كطفل يطلب على قدر تفكيره!!

كانت المرأة صادقة صدق الطفولة وهي تطبق كلام الرب: «من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش»، فقالت هى: «أعطني هذا الماء لكي لا أعطش». وأكملت من عندها: «حتى لا أتي إلى هنا وأستقي».

لقد استهوتها فكرة الماء الذي كل من يشرب منه لا يعطش، وأضافت بالضرورة ولا يتعب ويجيء ليستقي، لقد هدها مشوار كل يوم حاملة جرتها فارغة وملآنة؛ وكل ذراعاها من فرد الحبل وثنيه ورفع الجرة بثقلها، الحبل بذراع والجرة بذراع، حتى ضاقت ذرعاً! ولكن لو كان هذا هو كل هم الإنسان، وحتى مثله مائة أف مرة لما غُلب الله من تحننه وبذل ابنه على الصليب من أجل الإنسان.

ولكن في قولها: «حتى لا آتي إلى هنا وأستقي»، فيه معنى الاغتاء ليس لما هو لذاتها فحسب، بل للذين تخدمهم أيضاً، وإلا على من سيعيش من تخدمهم؟ وهنا يلتقط الرب الخيط من فمها ويطلب أن يرى من تخدمهم.

١٦- قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «اذْهَبِي وَادْعِي زَوْجَكِ وَتَعَالَيْ إِلَى هَهُنَا».

نعم يجب أن يأتي من تخدمه، وهو بالتقدير المبدئي زوجها، لأن العطية بحسب نظرها هي، تعني زوجها أيضاً. ولكن الرب الذي قرأ فكرها وضع هذا الطلب محكاً لصدق قبولها العرض بأخذ العطية، وبالأكثر اختباراً لمدى صحة إيمانها بالكلام ومستوى يقظة ضميرها. الرب هنا يركز على السامرية نفسها وليس على زوجها أو أهلها، لأنه

بتوبتها وإيمانها هي، سيُقبل الجميع ، فهو هنا مستمر في إعدادها هي للعطية، ولأنه يستطيع أن يغفر الخطية فهو يستطيع أن يراها ويحاصرها بالضرورة. والآن وقد صارت خطيتها هي العقبة الوحيدة في وجه نوال العطية، لذا كان يتحتم كشفها والإعتراف بها تمهيداً لرفعها لتصبح على مستوى العطية. وحينئذ كما قال المسيح نفسه حينما تشرب هي من الماء الحي فإنه سينبع منها ويفيض على الزوج وعلى المدينة كلها. المسيح هنا يعرف الجواب مسبقاً: «ليس لى زوج»، عار المرأة الأعظم، لذلك يضع المسيح إصبعه على الجرح، ومشرطه على الورم، ولكن برقة فائقة كمن يستخدم المخدر حتى لا يشعر المريض بالألم. لقد تدرج معها وهو يسندها حتى تقوى على نطق ما لا يُنطق. وهكذا بلغ بها إلى نقطة اليقظة العظمى للضمير.

١٧- أَجَابَتِ الْمَرْأَةُ: «لَيْسَ لِي زَوْجٌ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «حَسَناً قُلْتِ لَيْسَ لِي زَوْجٌ.

١٨- لأَنَّهُ كَانَ لَكِ خَمْسَةُ أَزْوَاجٍ وَالَّذِي لَكِ الآنَ لَيْسَ هُوَ زَوْجَكِ. هَذَا قُلْتِ بِالصِّدْقِ».

إجابة مقتضبة يلفها الحزن في مسحة من الألم كما من سهم يخترق القلب. هي رجفة الضمير الذي يجاهد كي يغلب انهياره، ويتلمس القوة من العين المسلطة عليه!

كان رد المسيح الفوري هو قبول الإعتراف أحسن قبول: «حسناً قلت». ومكذا جاء السند الذي كانت تحتاجه لتغلب انهيارها. وهكذا يسند المسيح «المعين بكلمة» (إش٥٠:٤)، «أسندني فأخلص» (مز١١٩:١١٧). ليس العمل الذي وراء اعترافها هو الحسن، بل الحسن جداً أن تعترف به، فقول الحق عندما يشهد به الإنسان عل خطاياه يُحسب حقاً.

وعندئذ رفع المسيح النقاب عن شخصيته قليلاً وأخذ يسرد لها قصة حياتها كما في مرآة.

لأنه كان لها خمسة أزواج والذي لها الأن ليس زوجاً، ونحن لا نريد أن نخوض في ما لم يخض فيه المسيح، ولكن شيئاً واحداً كان واضحاً من كلام المسيح أن وراء حياتها مأساة من الخيانات واستباحة الحرام اعترفت به السامرية ليس للمسيح فقط، فهو يعرف كل شيء ولا يحتاج إلى تفصيلات، ولكنها اعترفت هي بنفسها لأهل مدينتها أيضاً؛ وإن أعظم الإعتراف ما جاء علنا: «وقالت للناس... إنساناً قال لى كل ما فعلت!!» (يو٤:٢٩)

حينما يستيقظ الضمير لا يعود يبالي بما يُقال عنه، بل يكون كل همه أن يقول هو عن نفسه، لا يعود ماضيه مخفياً وراءه، بل يصير مكشوفاً أماكه: «وخطيتي أمامي دائماً» (مز٥١:٣). والجرح الذي كان يخفيه يرفع عنه العصابة و يستعرضه لمن هو قادر أن يشفيه.

والمسيح في كشفه هنا لبقية سر مأساة السامرية إنما يكشف لها عن قدرته على محوها، وكأنه يكمل عنها اعتراف ما لم تقدر على الاعتراف به، ليستعيد لها صحة نفسها لتستضى عيناها وتراه على حقيقته.

١٩- قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «يَا سَيِّدُ أَرَى أَنَّكَ نَبِيٌّ.

لقد أحسنت الرؤيا. فكلمة «أرى»« هنا لا تفيد الانطباع السريع بل قمة استعلان متدرج يبلغه المتصوفون حينما يحدقون بعقلهم في الله طويلاً، وتسمى هذه الدرجة عند المتصوفين بالتورية، أي الرؤيا العقلية.

من الصعب علينا جداً أن نحس بما أحسته هذه المرأة عندما واجهها المسيح بكشف حياتها الخفية. إنه مزيج من الرهبة والرعبة مع قناعة بهيبة الجالس أمامها، وكأن حياتها كلها صارت مكشوفة أمام عينيه. ولكن عقلها ارتفع سريعاً لترى فيه إنساناً ذا اتصال بالله يستمد منه قوته وسلطانه.

حينما أفرغت المرأة خطيئتها استضاءت عيناها، وتأهلت لترى المسيح الرؤية الاولى على صحة، وانما في غير

اكتمالها: «فتطلع وقال أبصر الناس كأشجار يمشون. ثم وضع يديه أيضاً على عينيه وجعله يتطلع، فعاد صحيحاً، وأبصر كل إنسان جلياً» (مر٥:٢٤-٢٥). هذه أول مفاعيل عطية الماء الحي التي استقرت في أعماقها؛ وهذه أول حركة للايمان يتحرك به قلبها.

لقد تدرجت في رؤيتها للمسيح من «أنت يهودي» إلى «يا سيد» إلى «أرى أنلك نبي»، وهكذا تنجلي العين حينها يغتسل الجسد والنفس، والإعترأف بالخطية يرفع ثقلها عن القلب والضمير كما يرفع عقابها عن النفس. وهذه هي «عطية الله» التي وعدها المسيح بهاء وهكذا علمت المرأة بالحق من الذي يقول لها أعطيني لأشرب. وهكذا أيضاً اكتشفت المرأة غنى المسيح من خلف فقره المصطنع، وعطش من له ينبوع الماء الحي.

ولم تكن رؤيتها أنه نبي لتقرير حق الواقع وحسب، بل لأنها ربطت بين امتيازه الإلهي كصاحب صلة بالله وبين حالها الفاضح فرأت فيه المنقذ. ولكن إلى من من الألهة سيذهب بها هذا النبي؟ إله إسرائيل وأورشليم وجبل صهيون، آم إله السامريين وجبل جرزيم؟ إنها تود أن تعرف إلى من تقدم توبتها وذبيحة خطيتها.

٢٠- آبَاؤُنَا سَجَدُوا فِي هَذَا الْجَبَلِ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ إِنَّ فِي أُورُشَلِيمَ الْمَوْضِعَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُسْجَدَ فِيهِ».

من يصدق أن هذه النفس العفنة تنقلب بهذه السرعة إلى تائبة تبحث عن مكان للصلاة وتدقق في صحة المكان لتضمن توبة مقبولة؟ أمر لا يشغل بال إلا كبار اللاهوتيين.

لأن صحة أورشليم لتكون المكان الوحيد والفريد للعبادة والصلاة هي أعوص المشاكل أمام دارس الناموس، وقد استطاع اليهود أن يزحزحوا هذا النير عن على أعناق الشعب بأن قالوا بصحة المجامع المحلية لكل بلد.

أما هذا الإشكال اللاهوتي بالنبة للسامريين فقد ظل كما هو، أعوص مما هو لليهودي ألف مرة، لأن أورشليم وهيكلها محظوران على السامري؛ فكيف الفكاك من القيود التي وضعها الإنسان في عنق نفسه؟؟

عل كل حال هذا هو نبي مؤتمن، وهو من اليهود ولكن في غير غضب، وقد أصبح قريباً منا عاطفاً علينا، فهو وحده القادر أن يحل معضلتنا، هل نتبع آباءنا القديسين البطاركة الأوائل الذين سجدوا في هذا الجبل أم أن أورشليم وحدها مكان العبادة؟ عل كل حال كان هذا السؤال يحمل في طياته شكاً في صلاحية جرزيم!!

فالمعروف أن يعقوب أبا الأسباط قد عبد الله في هذا المكان: «ثم أتى يعقوب سالماً إلى مدينة شكيم التي في أرض كنعان حين جاء من فدان أرام، ونزل أمام المدينة وابتاع قطعة الحقل التي نصب فيها خيمته من يد بني حور أبي شكيم بمائة قسيطة، وإقام هناك مذبحاً، ودعاه إيل إله إسرائيل.» (تك٣٣:١٨-٢٠)

فى هذا الجبل: جرزيم.

المقصود هو جبل جرزيم الذي تقع البئر تحت سفحه مباشرة، وتقول التقاليد أن إبراهيم أبا الآباء أصلح مذبحاً هناك بنية تقديم إسحق ابنه حسب أمر الرب. وعلى هذا الجبل أيضاً تقابل أيضاً مع ملكي صادق الذي باركه هناك. كما أن جرزيم هو الجبل الذي أمر موسى أن يقف عليه ستة من أهم الأسباط لتقول البركات على من يعمل بالناموس (تث٢٧:١٢). وفي توراة السامريين مكتوب أن المذبح الذي أقيم للعبادة الاولى كان على جرزيم وليس على عيبال (تث٢٧:٤-٨). والسامرية الأن تضع التقليد السامري المؤكد في مواجهة التعليم اليهودي غير المستند على وثائق! ويعتقد أن الذي بنى المذبح على جبل جرزيم هو أخو رئيس كهنة أورشليم» حينما طرده أخوه من أورشليم بسبب زواجه من بنت سنبلط حاكم السامرة، وهو فارسي الأصل. فحينما طرده أخوه ذهب وبنى هذا الهيكل على جبل جرزيم وقام هو كرئيس كهنة بإقامة العبادة حسب الأصول اليهودية بمنتهى الدقة (نح٢٨؛١٣). كذلك فإن

يوسيفوس المؤرخ اليهودي يقول في تاريخه إن السامريين طلبوا من الإسكندر الأكبر الإذن ببناء الهيكل، فسمح لهم. ويضيف يوسيفوس على تاريخ نحميا بأن أعطى اسم «منسى» على أنه كان رئيس كهنة هيكل جرزيم وكان نسيباً لسنبلط حاكم السامرة الفارسى. و يبدو من هذا التقرير ان تصريح الإسكندر الأكبر لم يكن للبناء بل ربما لإعادة بنائه» لأن الفرق بين زمن نحميا وزمن الإسكندر مائة سنة.

وقد هدم يوحنا هركانوس أحد المكابيين هذا الهيكل سنة ١٢٨ ق. م ولكن ظل السامريوذ يعبدون في نفس المكان ويقيمون الفصح والصلاة في مواعيدها. ويتجهون نحوه بالصلاة كقبلة إذا كانوا بعيدين عنه!

٢١- قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «يَا امْرَأَةُ صَدِّقِينِي أَنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ لاَ فِي هَذَا الْجَبَلِ وَلاَ فِي أُورُشَلِيمَ تَسْجُدُونَ لِلآبِ.

«تأتي ساعة»: هذه هي البشارة بالعهد الجديد، وهذه الساعة قريبة «تأتي«، وهى ساعة المسيح بلا شك، لأن بصلب المسيح أُلغيت الذبائح وأُلغيت المذابح وأُلغيت الهياكل، إذ قد صار هو الذبيحة الأوحد للخلاص على المذبح الناطق السماوي في هيكل الله الغير مصنوع بالآيادي حينما تكون العبادة والسجود لأب الجميع.

«تسجدون للآب»: نقلة حاذقة وخطيرة من «أبآونا» بالصورة المحصورة التعصبية إل «الآب» الواحد الكلي للجميع. فعوض الانتماء التعصبي للبشر هوذا الانتماء لله الآب الحر المنفتح عل كل بني البشر.

وعوض العبادتين المتنافرتين المتعاديتين، هذه عبادة الواحد الأحد، وعوض الهيكلين المتصارعين فيما بينهما هوذا الهيكل الواحد، بيت الآب السماوي الذي يجمع الأولاد جيعاً دون نزيل أو غريب. وكأنما بجلوس المسيح على بئر يعقوب وفي أرض السامرة يعلن نفسه أنه يعقوب الجديد، إسرائيل البشرية كلها، الينبوع الحقيقي لماء الحياة الذي يجمع القريبين والبعيدين في ذاته ويضمهم إلى هيكل جسده، الأن بالحب والاستعلان، وبعد قليل بالدم على الصليب. «وتأتي ساعة» هي بعينها ساعة الفجر الآن التي تشير إلى ساعة الصليب السادسة، حين تُحل مشكلة السامرة والسامريين، وحين ترتفع العبادة فوة مستوى الأماكن والبلاد والجبال لتصير بالروح، والروح ليس له وطن على الأرض بل موطنه السماء.

ولا ننسى أن في أول كلمة «صدقيني يا امرأة» ما يكفيها من اليقين والعزاء، عوض امتهان اليهود لهم والتعالى عليهم، يكفيها أن يكون «الأب» هو قبلة السجود، وهو قابل الساجدين له.

٢٢- أَنْتُمْ تَسْجُدُونَ لِمَا لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَمَّا نَحْنُ فَنَسْجُدُ لِمَا نَعْلَمُ، لأَنَّ الْخَلاَصَ هُوَ مِنَ الْيَهُودِ.

«تسجدون لما لستم تعلمون»: المسيح هنا يستدرك ما قد يُفهم من تساوي أورشليم بجرزيم بانتهاء عصرهما معاً بحلول الساعة. فإن كانت العبادة في هيكل أورشليم ستُبطل، وكذلك بالتالي وبالأوْلى في جبل جرزيم، فليس هذا معناه أن عبادة اليهود خاطئة، ولكنها في سبيلها إلى الارتفاع فوق ذاتها لتبلغ الكمال في الله، أما عبادة جرزيم فهي وإن كانت عبادة مُقدمة في صورتها إلى الله ولكن الله نفسه غير معروف لدى السامريين. ومعلوم أن السامريين لا يؤمنون بالأنبياء جيعاً؛ في حين أن الأنبياء عند اليهود هم الذين تكلم الله بواسطتهم معلناً عن ذاته، وبالتالي كان اليهود ذوي معرفة صحيحة بالله، وبالتالي أيضاً أصبح السامريون محرومين من معرفة الله الصحيحة. فالناموس وحده بدون إلهام وتعليم سماوي ونبوة لا يخلص لأنه حرف والحرف وحده، أي القانون، يقتل إذا كان بدون من يرحم ويشفق.

هنا المسيح لا يدافع عن اليهود ولا اليهودية، ولكنه يدافع عن الحق المُعلن لليهود فقط دون أقطار العالم أجمع، ويدافع عن مصدر الخلاص الأتي، بل الحاضر، أمام السامرية، المتكلم باسم الحق والخلاص، وهو نفسه المخلص الأتي الذي أتى! كما أن المسيح هنا لا يهاجم السامريين ولا عبادتهم ولا معبودهم، بل يشفق على عبادتهم التي تذهب سدى بسبب غياب الحقيقة منها وفقدان «استعلان الله» على حقيقته بفقدان وسطاء الاستعلان والإلهام وهم الأنبياء. لأن تسلسل الأنبياء انتهى بمجيء من تنبأوا عنه وهو المخلص؛ فصح تنبؤهم وصحت نبواتهم . لذلك قال المسيح بكل يقين: «إن الخلاص هو من اليهوده»؛ لأن الخلاص ابتدأ بالاستعلان عنه ووصفه الأنبياء وكأنه حاضر، ورآه الآباء القديسون ونظروه من بعيد وحيوه وماتوا على رجاء . وهوذا ساعة الخلاص قد دقت دقاتها على صوت المعمدان وأصبحت حاضرة بحضور صاحبها.

٢٣- وَلَكِنْ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الآنَ حِينَ السَّاجِدُونَ الْحَقِيقِيُّونَ يَسْجُدُونَ لِلآبِ بِالرُّوحِ وَالْحَقِّ لأَنَّ الآبَ طَالِبٌ مِثْلَ هَؤُلاَءِ السَّاجِدِينَ لَهُ.

«ولكن»: هنا يبدأ الكلام بـ «لكن»، وهي تعود على ما فات، أي على اختلاف العبادة باختلاف الحق فيها، وكأن المسيح يريد أن يقول: لنترك «الآن» الخلافات، لأن «الأن» أتت الساعة التى أصبح مفهوم السجود الحقيقي فيها يقوم على أساسين جديدين:

الأساس الأول: الساجدون أنفسهم إذ يتحتم أن يكونوا حقيقيين. و«الحقيقي» في إنجيل يوحنا وعند المسيح هو «الأليثيا»، و«الأليثيا» هي الله أو الانتماء الصادق لله، ويعني أن الساجدين يتحتم أذ يكونوا لله عائشين، ليكونوا لله ساجدين، بمعنى أن يكونوا قد أفرزوا أنفسهم من العالم وتقدسوا لله، أي تخصصوا بالمعمودية وما تفرضه المعمودية في حياتهم وأفكارهم وأعمالهم فيما يخص الحق: «المولود من الروح هو روح».

الأساس الثاني. أن يكون سجودهم لله الآب. آب الجميع، وليس آباً لشعب دون شعب، أو أمة دون أمة، أو جنس دون جنس، ويكون سجودهم للآب «بالروح والحق».

وهنا المسيح يرمي عصفورين بحجر واحدو، فالعبادة بالروح يهاجم بها عبادة إسرائيل التي هي عبادة بالحرف، وهذه العبادة لم تعد مقبولة عند الله لأنها لم عند بذي أثر ولا فائدة. والعبادة بالحق يهاجم بها عبادة السامريين فهي عبادة مزيفة أخذت الشكل دون الجوهر والاسم دون الحقيقة. وهي منذ البدء بلا فائدة: «أنتم تسجدون لما لستم تعلمون».

ولكن كيف تكون عبادة الإنسان «الآن» بالروح والحق؟: «الآن» يقصد بها المسيح حضوره الشخصي الذي جعل الساعة حاضرة دائمة بحضوره، فالآبدية فيه معلنة في عمق الحاضر الزمني. فـ «الآن»» بوجود المسيح، الابن النازل من حضن الآب، هي الآبدية المستعلنة والحاضرة في الزمن، وهي كل المستقبل الروحي للانسان.

+ والمسيح جعل، بالتجسد، الإتصال بين البشرية والله أمراً حادثا حدوثا حقيقيا والى الأزل ومفتوحاً على الجميع. وبهذا انفتح أمام الإنسان مجال الإتصال الروحي بالله سواء بالصلاة أو السجود، بمعنى أن السجود بالروح صار متوفراً للانسان في المسيح.

+ كذلك فالمسيح، الابن الوحيد، هو الاستعلان الكامل لله بالنسبة للانسان كل من يؤمن. إذن، أصبح الإنسان يعبد من يعرفه معرفة حقيقية، وهذا هو السجود بالحق بكل معنى: «وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك و يسوع المسيح الذي أرسلته.» (يو١٧:٣)

ولكن يُلاحظ أن المسيح لم يتمجد بعد، ولم يحل الروح القدس بعد. لذلك، فالعبادة بالروح والحق التي قال عنها المسيح آنئذ هي عبادة المسقبل، بينما العبادة في الهيكل لا تزال قائمة، ولكن لأنه قد تم التجسد والمسيح حاضر «الأن»، إذن فالساعة موجودة ولكن لم يتم استعلانها الكلي بعد.

«السجود» لله هو عملية اتصال. يستحيل الإتصال بالله بواسطة العنصر الجسدي في الإنسان المنتمى للحياة الأرضية.

«الله روح»، وقد وضع في الإنسان عنصراً روحياً يقيم كيانه، وهو متفوق على الجسد، ووُضع هذا العنصر، أي «الروح» ليكون أداة اتصال بالله: «وإله السلام نفسه يقدسكم بالتمام ولتحفظ روحكم ونفسكم وجسدكم كاملاً بلا لوم عند مجيء ربنا يسوع المسيح»(١تس٥:٢٣). وروح الإنسان في وضعه الصحيح خاضع لروح الله: «الروح هو الذي يحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً»(يو٦:٦٣). إذن، فمجال العبادة قد أصبح في المسيح هو المجال الأسمى الذي يتلاقى فيه الله والإنسان، أي أن زمان العبادة تحت توصيات وتعليمات جسدية قد انتهى: «أشكر إلهي يسوع المسيح... فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لى كيف بلا انقطاع أذكركم.» (رو١:٨-٩)

«لآن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له» (بالروح والحق).

«لأن» بادئة تجعل الأتي من الكلام يؤكد ويضمن ويسهل ما فات من الكلام. فالعبادة بالروح والحق، وإن بدت بالنسبة للانسان مطلباً أعلى من إمكانياته، إلا أن هذا أمر متيسر. لأن الله يسعى من جهته طالباً وجاذباً مثل هؤلاء الذين يسعون للسجود له بهذه الشروط، فلأن الله روح فهو يطلب الساجدين بالروح، ولأنه هو الحق فهو يطلب الساجدين بالحق. فالله من جهته عامل مشجع وجاذب ومسهل لكل الساعين للعبادة والسجود بالروح والحق؛ لأن هذه هي مسرة طبيعته.

٢٤- اَللَّهُ رُوحٌ. والَّذِينَ يَسْجُدُونَ لَهُ فَبِالرُّوحِ وَالْحَقِّ يَنْبَغِي أَنْ يَسْجُدُوا».

المسيح يرتفع بمفهوم الله ليرتفع بمفهوم الإتصال به. فـ «الله روح» بمعنى أنه لا يدخل في كيانه أي شيء من قياسات العالم المنظور لا الزمان ولا المكان ولا المحدودية، وأهم تركيز هنا هو على المكان، لا أورشليم ولا جرزيم. وقد سبق وقلنا إن الله وضع في الإنسان عنصراً روحياً وهو الروح ليقيم كيانه كمخلوق روحي، ليتسنى له الاتصال بالله والوجود في حضرته دون النظر إلى الزمان أو المكان أو الشكل أو اللغة. لذلك فالعبادة والسجود لله لكي تكون منظورة من الله ولكي يراها ويسمعها ويستجيب لها، يلزم أن تكون من طبيعته بالروح والحق غير ملتزمة لا بزمان ولا بمكان لا بيهود ولا بسامريين. وهنا كلمة «ينبغي» تعني «يلزم إلزاماً» و«يتحتم تحتيماً»، أي لا يمكن أن تقبل عبادة وسجود إلا إذا ارتفعت لمستوى الروح والحق، بمعنى أن لا ترتبط قط لا بأمكنة ولا بأزمنة ولا بأجناس ما.

وبنظرة سريعة إلى الخلف، نستطيع أن نحصل على محور التجديد في إنجيل يوحنا في الأمثلة السابقة. فالخمر الجيدة، في قانا، والهيكل الجديد، في أورشليم، والماء والروح والميلاد من فوق عند نيقوديموس، والتعميد بالروح القدس على ضوء المعمدان، والماء الحي والعبادة بالروح والحق للسامرية؛ هذه كلها عناصر الانتقال من الحياة حسب الجسد الى الحياة بحسب الروح، أي عناصر التجديد والخلقة الجديدة التي يرسخ المسيح مفاهيمها بالتدريج. كما أن هذه العناصر جيعها، الخمر والهيكل والميلاد الفوقاني والتعميد بالروح والسجود بالروح والحق، هي المقابل الروحي الحق والمطلق الذي لا تحده حدود بشرية أيا كانت تجاه اليهودية وكل العبادات الأخرى للانسان. هذه هي صورة العهد الجديد للانسان عادة، التي صارت في محيط «تأتي ساعة وهي الآن» .

والعجيب حقاً أن هنا هذه العناصر أو الرموز الحية: الخمر الجديد، الهيكل الجديد، الإنسان الجديد، العبادة بالروح والحق، تتركز في شخص المسيح نفسه: «أنا هو الذي يكلمك»!

علينا الآن أن نجسد هذه المعاني المطلقة «بالروح» و«الحق» حتى نفهم كيف يكون السجود بالروح والحق على مستوى حياتنا اليومية وعبادتنا. فالسجود بحد ذاته هو«بالجسد شكلاً» فإذا بقي السجود بشكله الجسدي والعددي فقط فهو لا يُحسب أنه سجود بالروح. ولكن إذا انطلق الإنسان من داخل السجود الجسدي بروحه بإحساس الوجود في حضرة الله، يُحسب سجوداً بالروح. والسجود بالروح له مواصفات روحية تثبت حقيقته. فإن روح الإنسان في حضرة الله تكون خاشعة غاية الخشوع، منضبطة، غيرمشتتة، مطروحة أمام الله، مكشوفة بكل عيوبها وأخطائها، كما تكون الروح في حالة استقبال أكثر من كونها متكلمة وذات مطالب، شديدة التركيز والحساسية للاستماع لتعليمات الله وتوبيخ الروح، أو تقبل التشجيعات الخفية أو الرد على أمثلة روحية للبنيان.

كذلك السجود بالروح لا يمنع أن يلتزم بالمواعيد والعدد وأصول السجود. ولكن إذا اكتفى الانسان بالإتقان الشكلي فلن ينتفع شيئاً، وذلك يظهر بوضوح حينما ينهي الإنسان سجوده وعبادته ويخرج كما دخل وذهنه مشغول بأموره الخاصة أو العامة. فعلامة السجود بالروح هي أن يخرج الانسان من حضرة الله مفعماً بمشاعر الرضى والراحة والفرح مهما كانت أموره محزنة. فالحزن والضيقة والألم والشكوى كل هذه يتحتم أن ننفضها عنا قبل الدخول في حضرة الله للسجود. حالة خروجنا من السجود يكشف هل كنا حقاً في حضرة الله، وهل حصل إتصال فعلي أم لا. السجود بالروح في حضرة الله ليس هو واجباً، بل ضرورة روحية كالأكل والشرب والدواء والعلاج تماما بالنسبة للجسد. إذا لم نمارس السجود بالروح ، فالروح تجف ويتعطل عملها، فتنقفل رؤية الإنسان ولا يحس بوجود الله، وقليلاً قليلاً ينكمش الإيمان ويفقد الإنسان حرارة الروح وتبدأ المثل العليا تهتز أمامه، ويزحف الشك على إيمانه، ويفقد الإحساس بصدق الإنجيل والله، ويشك في الحياة الآبدية، لأن أداة الإتصال بالله قد أصبحت عاطلة، أي الروح المرفوعة في الإنسان لهذا الأمر.

يلزم أن يفهم الإنسان أن الله وضع فيه الروح كأداة إتصال بالله، فإذا لم تُستخدم تُنزع مواهبها من الإنسان، وروح الإنسان الأمينة والنشطة والملتصقة بالله على الدوام تصير مكان سكنى الروح القدس ومرافقته، فإذا أهمل الإنسان السجود بالروح، لا يعود يحظى بزيارة الروح القدس والنعمة. والخطية تترصده، فتتعتم الرؤيا: «روحك القدوس (يا رب) لا تنزعه مني» (مز ٥١:١١). فإن كان الله قد وضع الروح في الإنسان رغبة منه أن يتصل بواسطتها مع الإنسان، إذن أصبح السجود بالروح جزءاً لا يتجزأ من كيان الإنسان بالنسبة لحياته مع الله. لأنه كما أعطي الإنسان الشهية للأكل، كذلك أعطي الروح للعبادة والسجود والصلاة. فإذا كان الإنسان يعرض نفسه للموت إذا لم يأكل، هكذا فهو معرض للموت إذا لم يسجد بالروح. غير أن الموت الروحي لا يشعر به الجسد، والنفس المستهترة لا تعيره اهتماماً. ولكن في نهاية عمر الإنسان يستيقظ ضميره فيرى عظم الخسارة بل المصيبة التي اكتسبها لنفسه بإهمال الإتصال بالله الذي سيذهب ليتراءى أمامه. لذلك فالمرجو أن يختبر الإنسان نفسه بعد كل سجود هل كان بالروح أم لا، وهل اتصل بالله فعلاً أم لا.

٢٥- قَالَتْ لَهُ الْمَرْأَةُ: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّ مَسِيَّا الَّذِي يُقَالُ لَهُ الْمَسِيحُ يَأْتِي. فَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُخْبِرُنَا بِكُلِّ شَيْءٍ».

هنا عنصران في صميم الواقع في هذا الحوار، يسيران جنباً إلى جنب. الأول أن السامرية بدأت تحس بقرب المسيح

منها ويبدأ الإشاع الروحي الشخصي يطغى على الحديث، وهذا أمر في غاية الأهمية، لأن الإنسان إذا ابتدأ ينفتح على الله قليلاً، فإن الله ينفتح عليه كثيراً. وهكذا تدخل السامرية، دون أن تدري، في المجال الروحي للمسيح، وهذا هو الذي جعلها تلقائياً تمتد بفكرها نحو النبي الموعود الذي سجلته توراتهم في سفر التثنية الذي وعد به موسى.

أما العنصر الثاني فهو تسلسل الحديث، فقد انتهت السامرية إلى القول بأن اليهودي الواقف أمامها، وهو السيد، هو نبي. ولكن في تصريحه الأخير عن العبادة بالروح والحق التي ستكون لا في أورشليم ولا في جرزيم جعلها تنطلق في تفكيرها من نحوه، إنه يتكلم بأبعد من إمكانيات نبي، فالنبي الواقف أمامها لوكان يهودياً فهو حتماً سيزكي أورشليم فوق جرزيم، ولكنه لا يفعل ما يتحتم على النبي اليهودي أن يعمله، فمن يكون؟ وقفت السامرية أمام المسيح حائرة. أيمكن أن يكون هذا هو المسيا الذي طالما سمعوا عنه وانتظروه؟ لم تستطع أن تقطع بالأمر، لأن الرؤيا غير كافية أمامها. وهذا أمر في غاية الأهمية أيضاً، لأن أي شك من نحو الله يجعل صورته تهتز فوراً. لهذا اتحذت على الفور مبادرة من شأنها أن تكشف الحقيقة وتقطع بالأمر، فألقت بسؤالها أمامه، وهو ليس سؤالاً بل تساؤل، والرد عليه كفيل إما بأن يقطع الشك باليقين إن قال نعم، وإلآ فعليها أن تنطوي مرة أخرى على نفسها بانتظار المسيا، هذا الذي يستطيع وحد، أن يعرفها بالحقيقة وبكل شيء. والله دائماً يرحب جداً أن يدخل أي اختبار. وقصة جدعون أحد قضاة بني إسرائيل يتضح فيها هذا المبدأ . ففي أول مقابلة مع ملاك الله الذي أمره أن يخرج ويحارب الأعداء، قدم جدعون أول اختبار لصحة شخصيته وصحة كلامه وهو أن يبقى في مكانه في بيدر الحقل حتى يعود إليه بجدي يذبحه له ذبيحة تكريم، فوافق. وثاني اختبار قدمه لصحة وعد الرب أن يكون الرب معهم في الحرب أن قدم اختباره الثاني بصورة جزة صوف وضعها في الظل بالليل، وفي أول يوم اشترط على الرب أن يملأ الطل، أي الندى، الجزة ولا يمس الأرض حولها، فوافق الرب وصنع ما طلبه جدعون. وفي ثاني يوم غير الإختبار أن ينزل الطل حول الجزة ولا يمس الجزة نفسها، وكان أن فعل الرب ما طلب. فتأكد جدعون وحارب وغلب. وكان الرب عند حسن ظن جدعون!

«أنا أعلم أن مسيا، الذي يقال له المسيح، يأتي . فمتى جاء ذاك يخبرنا بكل شيء»: يقول «شناكنبرج» في بحثه عن عقيدة السامريين فيما يختص بالمسيا هكذا:

[انتظار العهد الماسياني عند السامريين، كما تقول به هذه المرأة، يأتي مطابقاً لما نقرأه من المصادر المحفوظة عن السامريين. فالمسيا كان اسمه عندهم «تا . إب»، ومعناها قريب من اللغة العربية أي «الأيب» بمعنى الأتي أو الراجع وذلك بحسب التوراة (تث١٨:١٨). فهو محسوب عندهم أنه النبي الذي سيظهر في آخر الأيام خليفة لموسى النبي. ولأهمية هذا النص من التوراة عند السامريين فقد جعلهم على رجاء مستمر. ومما جعله أمراً هاماً جداً عندهم أن في توراتهم تسجل هذا الوعد بعد العشر وصايا. وهذا المعنى «تا . إب» في مفهومهم هو قائد سياسي، فهو سيعيد مملكة إسرائيل (السامرة) مثل مسيا اليهود على مستوى مملكة داو . غير أنه بسبب اتصاله بموسى ، فقد تحتم أن يكون من سبط لاوي. إذن، فكونه هو كاهناً فهو سيعيد لهم العبادة الحقة، أما دوره كنبي مستعلن للحقائق وكمعلم فهو أمر منتظر ومترقب بحسب مفهوم النبوة (تث١٨:١٨).

وفي كتابهم المسمى (ممار مركا)، وهو من القرن الثالث الميلادي، في الفصل الرابع والمقطع ١٢ يقول: إنه سيعلن الحق! ويوسيفوس المؤرخ اليهودي المعاصر للقديس يوحنا يسجل ويؤكد في تاريخه أن السامريين لهم رجاء بمجيء المسيا. ويحقق العلماء في صحة مجيء كلمة «مسيا» بدون «أل» التعريف في قول السامرية... ليكون مطابقاً

لأسم المسيا عندهم وهو بدون «ال» التعريف. وعندما قالت السامرية: «الذي يقال له المسيح» فهي تترجم اسمه عندهم باسمه عند اليهود.]

٢٦- قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا الَّذِي أُكَلِّمُكِ هُوَ».

توقع المرأة لهذه الحقيقة، هو الذي دفع المسيح لإعلانها. لم يكن المسيح قادراً، بعد، أن يحجز عنها هذه الحقيقة حينما بلغتها وتوقفت عند حدودها عاجزة تطلب وتمد يدها لكي يدخلها إلى النور أو يدخل النور إليها. لقد أدركت تماماً أن وراء هذا الإنسان شيئاً أعظم من نبي ولكنها تعثرت في أمرين: الأول أنه يهودي، والثاني هذا الجسد المُتعب العطشان. إن عثرة التجسد تقفز الحاجز الأخير للايمان الذي إذا تخطاه الإنسان بلغ إلى رؤية الله. والله وضع هذا الحجاب الحاجز بينه وبين الإنسان لاختبار هذا الإيمان، فهو الحاجز، وهو نفسه الطريق الموصل إلى السماء إلى قدس الأقداس: «طريقاً كرسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أي جسده.» (عب١٠:٢٠)

يلاحظ في الترجمة العربية[1] أنها أخفت «أنا هو» دون معرفة. فهنا يقع هذا الإصطلاح كاسم شخص «يهوه» كما تنطقه جميع أسفار العهد القديم. فالمسيح يبرز شخصيته ليس كالمسيا الذي تنتظره هي أو اليهود عموماً، كمن يرد الملك أو يعلم التوراة عن صحة أو يبني هياكل ويصحح عبادات، بل هو «يهوه» الذي يصنع كل شيء جديداً. نطقه المسيح وهو مغطى بالسرية التي لا يفكها إلا من يبحث عنه!!

هذه هي المرة الاولى والوحيدة التي يعلن فيها المسيح عن شخصيته المسيانية قبل المحاكمة، يقابلها في إنجيل مرقس فقط موقفث مماثل: «لأن من سقاكم كأس ماء باسي لأنكم للمسيح فالحق أقول لكم إنه لا يضيع أجره.» (مر٩:٤١)

وعلى القارىء أن يلاحظ أسلوب المسيح في إنجيل يوحنا في الإعلان عن نفسه، فمع نيقوديموس ابتدأ من «الريح التي تهب حيث تشاء» مع صورة سرية للماء لقيام أولاد الله مولودين جدداً من فوق؛ ومع السامرية ابتدأ من الماء الذي «من يشربه لا يعطش أبداً» الصورة السرية للمياه التي ولد منها النفوس الجدد أيضاً.

أما نيقوديموس فتعثر، شأنه شأن معلم الحرف في العهد القديم: «لأن الأجنة دنت إلى المولد ولا قوة على الولادة» (إش٣٧:٣)؛ وأما السامرية فطلبت بشغف وشربت بنهم، ورأت المسيا، وتتلمذت وصارت طليعة الأمم.

لقد سقط عن السامرية ثوبها المنجس بقذر الخطية، حينها انفتحت عينها ملياً ورأت المسيح أمامها مستعلناً. فقد ولت منها في الحال شياطين الظلمة، ولفها نور المسيح. إذ لما يسقط عن النفس ثوبها المنجس، تتولى الملائكة إلباسها ثياب النور، وهي الثياب المزخرفة عند زكريا النبي: «وكان يهوشع لابساً ثياباً قذرة وواقفاً قدام الملاك فأجاب وكلم الواقفين قدامه قائلاً: انزعوا عنه الثياب القذرة. وقال انظر قد أذهبت عنك إثمك والبستك ثياباً مزخرفة ... وملاك الرب واقف» (زك٣:٣-٥). نعم لقد لبست الأمم فرحتها يوم لبست السامرية ثيابها المزخرفة.

ب- حديث الرب مع التلاميذ. (٤:٢٧-٣٨)

وتستمر فيه المقابلة بين القديم والجديد على النحو التالي:

القديم: «يا معل كل».

الجديد: «لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم. طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله».

---

[1] جاءت هذه الأية في طبعة بيروت هكذا: "أنا الذي أكلمك هو"

القديم: الأنبياء الذين زرعوا بالدموع.

الجديد: التلاميذ يحصدون ما لم يتعبوا فيه.

٢٧- وَعِنْدَ ذَلِكَ جَاءَ تَلاَمِيذُهُ وَكَانُوا يَتَعَجَّبُونَ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ مَعَ امْرَأَةٍ. وَلَكِنْ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: مَاذَا تَطْلُبُ أَوْ لِمَاذَا تَتَكَلَّمُ مَعَهَا.

+ إحدى بركات الخدمة اليومية في المجامع: (أشكرك أنت الرب الذي لم تخلقني امرأة).

+ إنذار الحكماء اليهود: (الرجل لا يتكلم مع امرأة في مكان عام حتى ولو كانت زوجته).

+ قول للربانيين اليهود: (إنه خير لكلمات التوراة أن تُحرق من أن تُلقى على مسامع امرأة.)

+ سأل جليلي امرأة يهودية في الطريق أين الطريق إلى لدة؟ أجابت أيها الجليلي الأحمق ألم تسمع أنه ليس للرجل أن يتكلم مع امرأة في الطريق وأنت تسأل الطريق إلى لدة؟. (رابي يوسا)

+ أي رجل يعطي ابنته أي معرفة عن التوراة يكون هذا بمثابة أنه يعلمها الدعارة ؟؟؟ (رابي إلعزرا).

+ بولس الرسول: (ليس ذكر وأنثى لأنكم جيعاً واحداً في المسيح) (غل٣:٢٨).

عند هذا الحد من الحوار الذي انتهى باستعلان المسيح لذاته، وصل التلاميذ، ومن بعيد رأوا المعلم والسامرية فتعجبوا متحشمين أن يتكلموا، لأن من عادة حكماء اليهود والرابيين والمعلمين عموماً أن لا يتحادثوا مع امرأة في الطريق مهما كان الأمر.

ولكن هذا التعجب بحد ذاته يكشف أن التلاميذ كانوا لا يزالون بعيدين جداً عن فكر المسيح والمسيحية. وهذا يوضح مدى التغير الهائل الذي حدث للمجتمع اليهودي بالنسبة للمرأة بالذات، لما أمن بالمسيح واعتمد لوصاياه وقبل استعلان الحق الإلهي، الذي أضاء ذهن الإنسان وحياته.

ويقول العالم «ليون موريس» في كتابه لشرح إنجيل يوحنا في هذا الموضع إنه حتى إلى الأن حينها يُلقى السؤال في المجتمع اليهودي عن وضع المرأة يُقال لهم: (إذا كنا الآن نحس أن المرأة قد حازت على أفضل التغيير في وضعها، فهذا في المجتمع المسيحي وليس بحسب الرؤية اليهودية القديمة.

«ولكن لم يقل أحد ماذا تطلب أو لماذا تتكلم معها»: هذان السؤالان اللذان لم يخرجا إلى حيز الوجود، يوضحان العلاقة القائمة بين المعلم والتلاميذ كيف كانت تقوم على أساس الإحترام الشديد والوقار والخشية. وهذا فعلاً أحد الأداب اليهودية التي ورثتها المسيحية وظهرت في الحياة الرهبانية القائمة دائماً على المعلم والتلميذ، ولكن للأسف لم تدم، فعصرنا الذي نعيشه الأن انقلبت فيه المُثل والأوضاع، وضاع الميراث والتراث بل ضاع منهج الحياة والحياء.

٢٨- فَتَرَكَتِ الْمَرْأَةُ جَرَّتَهَا وَمَضَتْ إِلَى الْمَدِينَةِ وَقَالَتْ لِلنَّاسِ:.

استجابة المرأة هذه المرة ليس بالقول بل بالعمل. لم تقل: ماذا ستعمل وإلى أين تذهب، ولكنها تركت جرتها تأكيداً أنها لا بد حاضرة وأنها ستأتي أمراً هاماً!

عادت المرأة إلى أهل مدينتها في غير ثوبها المنجس بالقذر الذي به عرفوها ، ولكن بثوبها الجديد الزركشى بالنور صُنع يد النعمة وتطريز ملائكة، وافتهم وبشرى الخلاص على فمها.

إنه أمر لا يستطيع العقل أن يلاحقه، كيف أن هذه السنين كلها التي عاشتها هذه النفس في وحل الخطية تغتسل في ساعة وأقل؟ لك يا عزيزي القارىء أن تحكم في نور هذه «التوبة العاجلة جداً» مدى تفاهة الخطية بطولها

وعرضها وعمقها وخطوطها التي ترسخت في الشعور واللاشعور وقيدت الغرائز واستعبدت الأعضاء وكل الجسد!! كيف انحلت وبادت هذه كلها في مواجهة النور وفعل النعمة!! انظر إل جبروت الوقوف في حضرة الرب وماذا يصنع الحوار الصريح مع القادر على كل شيء! انظر الآن وتمعن في معنى التجديد، ومعنى الميلاد من فوق، ومعنى التحول من القديم إلى الجديد، ليس غادات وغرائز وحب، بل قيم وتقاليد وقيود من حديد! تفكر الأن كيف يُخلق الإنسان من جديد من فوق، كيف يغتسل بل يتقدس بل يلبس النور كثوب.

وما أخفق معلم الناموس في فهمه، مارسته السامرية في أعلى صوره. ألا ترى معي هنا لماذا بكل صدق وحق أخذ الله الملكوت من اليهود وسلمه للأمم؟ وكيف كانت السامرية باكورة ثماره؟

ذهبت السامرية إلى البئر بالجرة على رأسها والدموع على خديها تبكي حظها ولا من يعزي، فالشماتة خلفها!! وعادت إل المدينة والفرحة تملأ قلبها، إكليل القداسة فوة رأسها وإنجيل البشارة على قدميها: «ومفديو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون (العليا) بترنم وفرح أبدي على رؤوسهم. ابتهاج وفرح يدركانهم، ويهرب الحزن والتنهد.» (إش٣٥:١٠).

٢٩- «هَلُمُّوا انْظُرُوا إِنْسَاناً قَالَ لِي كُلَّ مَا فَعَلْتُ. أَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ؟».

لم تدع زوجها بل دعت الناس، كل الناس! تركت جرتها، نسيت صنعتها، لم تعد تذكر بيتها ولا ماضيها، أهملت الجسد!

المسيح وحده ملأ فكرها، ملأ قلبها. دخلت مياهه أعماقها ففاضت أنهار ماء حي. لا بد أن يصير للناس كل ما صار لي. .

هلموا هلموا: «أيها العطاش جيعاً هلموا إلى المياه والذي ليس له فضة تعالوا... اسمعوا فتحيا أنفسكم.» (إش٥٥:١-٣).

«إنساناً قال لى كل ما فعلت»: إن البالغة التي تتكلم بها هي صادقة: «كل ما فعلت» مع أن المسيح راجعها في أمر الخمسة والموجود معها الأن! ولكن المسيح فتح وعيها فاسترجعت كل ما فعلت وكأنها قالته، كأنها اعترفت به واحدة فواحدة. هكذا يستيقظ وعي الإنسان عندها يتوب. وبعدها تُمحى ذكرياته وتتلاشى سيئاته وتُترك له زلاته ولا يعود يذكر هو ولا يذكر له الناس ولا الله شيئاً واحداً مما فعل...

ولكن واحسرتاه على الذي كتم خطاياه وختم على خزيه وعار صباه، فهذه كلها تعود وتستيقظ معه في حضرة الديان، بعضها يجري أمامه، وبعضها يجري خلفه، وكأنه واقف وسط أعدائه.

«ألعل هذا هو المسيح»: إنها تعلم تمام العلم اليقين أنه مسيا بلا نزاع، هو قال لها: «أنا هو». لقد دخلت الكلمة أعماقها، لقد صار المسيح مصوراً في قلبها وضميرها، لقد غطى كل صورة عداه، ومسح كل وجه سواه. لقد صار المسيح عريس حياتها الذي استعاد بتوليتها وأنعش أمل الحياة والوجود والخلود في أعماق أعماقها... ولكنها لم ترد أن تسبق حكم المدينة عليه لئلا يناقضوها فيما قالت وفيما اعتقدت. تركت لهم الحكم، ولكن دفعتهم للمجيء لينالوا ويحكموا بأنفسهم ما حكمت ويعتقدوا ما اعتقدت، وقد كان!!!

٣٠- فَخَرَجُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَتَوْا إِلَيْهِ.

الكل يجري ويتراكض... إشعياء يراهم ويندهل من رؤياهم: «ها أمة لا تعرفها تدعوها، وأمة لم تعرفك تركض إليك...

لأنه قد مجدك!» (إش٥٥:٥)

لقد سمعوا نداءها واستجابوا لحرارة دعوتها وصدق مشاعرها. لقد وثقوا مم صدق قولها، فأين هذه من صاحبة السيرة الاولى التي كان يحتقرها كل ناظر ولا يأبه بقولها أحد! التي كانت تمشى تتلصص الطرق التي فرغت من عابريها وتختار الأوقات التي لا يسير فيها أحد لتسير وحدها منطوية على خزيها!

٣١- وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ سَأَلَهُ تلاَمِيذُهُ: «يَا مُعَلِّمُ كُلْ».

٣٢- فَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا لِي طَعَامٌ لِآكُلَ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ أَنْتُمْ».

٣٣- فَقَالَ التّلاَمِيذُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «أَلَعَلَّ أَحداً أَتَاهُ بِشَيْءٍ لِيَأْكُلَ؟»

كان المعلم عطشاناً لماء السامرية ولكن ليس جوعاناً لطعام التلاميذ ١.

كان عطشه للماء يخفي وراءه عطشا لخلاص السامرية والسامريين، والجوع إلى طعام المشيئة الآبوية أخفى هنا جوع الجسد، ليس عن تعال فهو ابن الإنسان، ولكن عن أفضلية.

والتلاميذ هنا عادوا فأخذوا دور السامرية، هو قال لها عن الماء الحي الذي من يشربه لا يعطش أبداً، وهي ظنته ماء لراحة الجسد؛ وهو هنا يقول عن طعام يأكله بالحب الإلهي لتكميل مسرة الآب وهم ظنوه طعاماً أكله خلسة من يد عابر سبيل!!

٣٤- قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «طَعَامِي أَنْ أَعْمَلَ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي وَأُتَمِّمَ عَمَلَهُ.

المسيح تجتاحه الرغبة الإلهية لخلاص الناس بعنف يغطي كل أعواز الجسد! هنا يستعلن سر الحركة الإلهية في نفس وجسد المسيح كيف تحل محل كل رغبات وشهوات وحاجة الجسد والنفس معاً!

إن الأصوام العالية القدر والقدرة التي مارسها الرب سواء في الأربعين على الجبل وحده أو غيرها هي لرفع الجسد والنفس البشرية لتتصادق مع الرغبات الإلهية المقدسة التي للاهوته!! هنا حالة مصغرة من هذه الحالات التي كانت تعلن عن وجودها إزاء المهمات الكبرى! هنا مطالب اللاهوت تغطي على مطالب الجسد، وتدعو الجسد للتآلف معها ليشبع من المشيئة المقدسة ويقنع بمجد الرسالة! هنا الجسد يتجيب بكل حرارته وقوته فتلتهمه نار الجذوة الإلهية فلا يبقى فيه إلا إرادة موحدة لتكميل الرسالة حتى كمالها. وكأن المسيح يريد أن يقول لهم جئت لأعطي نفسي طعاماً لحياة الناس فوق أن أكل طعام الناس لأحيا. حياتي ليست من طعام الجسد بل من حياة الآب: «كما أرسلني الآب الحي وأنا حي بالآب، فمن يأكلني فهو يحيا بي.» (يو٦:٥٧)

لا ننسى أبداً أن جسد المسيح تعين أصلاً وأساساً ليكون ذبيحة وليس لمجاراة أعوازه!! والذبيحة بدأت يوم أن خرج إلى العالم ينادي بالخلاص، الخلاص المعقود لواؤه على ذبيحة الجسد!! الذبيحة لم تبدأ وتنتهي عند الصليب، بل تراءى المسيح في إنجيله مذبوحاً بالنية من اليهود كل يوم!! أما هو فلم يشفق على الجسد، بل بسرور كان يقدمه للآب كل يوم في الأتعاب والإضطهادات والجوع والعطش ذبيحة مسرة!! «لذلك عند دخوله إلى العالم يقول ذبيحة وقرباناً لم ترد ولكن هيأت لي جسداً. بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسر. ثم قلت هأنذا أجيء، في درج الكتاب مكتوب عني، لأفعل مشيئتك يا الله .» (عب١٠:٥-٧)

إن العمل الحاسم الحازم الذي أخذه الرب في نفسه وعلى نفسه أنه قدس المشيئة كلية لعمل الفداء!! «لأجلهم أقدس أنا ذاتي» (يو١٧:١٩)! لقد أفرغ المسيح كل عافية الجسد حتى آخر قطرة إلى أن قالها وهومرتاح «قد

أُكمل» (يو١٩: ٣٠). ليس أنه كان يسعى متسرعا أن يشرب الكأس، بل بتمهل فائق الوصف والقدرة، وبتغييرات جذرية في تنوع الخدمة وتغيير الإتجاه في السير وتغيير الأماكن للخدمة وللتوقف عن العمل، ثم الإستئناف. كان يتحاشى الصدام المبكر مع القاتلين، حتى إلى درجة استخدام القدرة الفائقة في إخفاء وجوده، حتى يكمل كل العمل الذي كان يستلمه من الآب يوماً بيوم... لقد قالها أيضاً وهو مرتاح: «أنا مجدتك على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته» (يو١٧: ٤)!!! ولكن أي تكميل؟ تكميل الآلام بالآلام: «لأنه لاق بذاك الذي من أجله الكل وبه الكل، وهو آت بأبناء كثيرين إلى المجد، إلى أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام.» (عب٢: ١٠)

نعم، وقد صار هذا التكميل المتقن لحساب كل البشرية ويزيد: «وإذ كمل صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي.» (عب٥: ٩)

فإذا كان تصميم المسيح الحاسم شديداً لهذا الحد في تكميل مشيئة الآب الذي أرسله وتتميم عمله، لذلك كان همه الطاغي أن ينقذ الخطة المرسومة بكل اعتناء، حتى صارت إرادة المسيح ومشيئته مبتلعة تماماً في مشيئة الآب من نحو العمل الموضوع أمامه. لذلك لا نتعجب أن يسقط في الطريق كل اهتمامات الجسد ومشيئات الناس والأهل: «فأجاب وقال (للقائل له): من هي أمي ومن هم إخوتي. ثم مد يده نحو تلاميذه وقال ها أمي وإخوتي. لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي.» (مت١٢: ٤٨-٥٠)

٣٥- أَمَا تَقُولُونَ إِنَّهُ يَكُونُ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ثُمَّ يَأْتِي الْحَصَادُ؟ هَا أَنَا أَقُولُ لَكُمْ: ارْفَعُوا أَعْيُنَكُمْ وَانْظُرُوا الْحُقُولَ إِنَّهَا قَدِ ابْيَضَّتْ لِلْحَصَادِ.

كان تقاطر أهل السامرة في جموع متلاحة لابسين ثيابهم التقليدية البيضاء كأنهم حقل قمح نضج للحصاد، فللحال اتخذه المسيح «كمثل» لعمل الملكوت المتسع بالنسبة للآزمنة القادمة بعد «العمل وتكميل الخلاص بالألأم»، الذي هو بحسب تشبيه المسيح سقوط حبة الحنطة في الأرض لتموت ثم تخرج من جديد حقلاً من القمح للحصاد.

في هذه القصة، قصة السامرية، تستطيع الأذن الحساسة أن تتبين أنها موقعة على أنغام الصلبوت.

+ درجة درجة تبتدىء النغمة رافعة بمنظر المسيح «متعب من السفر»؛ وكأنه سفر خدمة المجهد الطويل الذي انتهى بالضرب والجلد ودفر إكليل الشوك .

+ وهنا تبتدىء النغمة تعلو قليلاً حينما تقول القمة حرفياً أنها «كانت نحو الساعة السادسة»!! بلغة ساعة الصليب تماماً.أ

+ ثم تزداد النغمة صراخاً حينما يقول المسيح: «أعطيني لأشر»؛ «أنا عطشان» بلغة الصليب تماماً.

+ ثم النغمة تزداد لتصير صراخاً مدوياً حينما يقول المسيح «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله»؛ يقابلها على نفس السلم «قد اكمل».

+ ثم تهبط النغمة حزينة ممزوجة برجاء حي حينما يقول المسيح: «الماء الذي أنا أعطيه»؛ لترد عليها أنغام الصليب «وخرج منه دم وماء».

+ ثم عود على ذي بدء: «لأن تلاميذه كانوا قد مضواء» (وتركوه وحده)... لتتقابل في انسجام مع نغمة «تأتي ساعة وقد أتت الأن تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركونني وحدي» (يو١٦: ٣٢)

+ ثم عودة أكثر إلى خلف لنسمع: «انظروا الحقول (القمح) قد ابيضت للحصاد...»؛ واسمع نغمة «إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت تأتي بثمر كثير.» (يو١٢: ٢٤)

+ ثم اسمع نغمة القوة عندما انتهى الرب مع السامرية إلى ما انتهى إليه، حينما قالت عن الميا فقال لها: «أنا هو الذي أكلمك»؛ وعلى جانب الصليب وبنفس القوة، وحينما تساءل بيلاطس: «أفأنت إذاً ملك»، أجاب يسوع: «أنت تقول إني ملك لهذا قد وُلدت أنا».

+ ثم اسمع كودة الختام العالية جداً والسريعة جداً بصوت أهل السامرة يعلنون بلا تحفظ: «هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم»؛ واسمع النغمة المقابلة بنفس الرتم من قائد حرس المائة: «حقاً كان هذا الإنسان ابن الله».

ليس من اللازم أن هذا التوافق كان في ذهن القديس يوحنا، ولكن الروح لا يخطأ حينما يؤلف بين أقوال وأقوال قارناً الروحيات بالروحيات.

ولكن نستشف من هذه المقابلة أن قصة السامرية هي لقطة من منظر الصلبوت، معها في الحال جانب من بدء الخدمة وافتتاح الإرساليات. فالمسيح يتكلم عن الحصاد. والحصاد في إنجيل المسيح له موعدان محددان لا ثالث لهما: الحصاد الآول حصاد المؤمنين بالكرازة، وهذا بدأ بعد القيامة ولن ينتهي إلا يوم القيامة، حيث الحصاد الثاني للدينونة!!

الأول: «الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون، فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده.» (مت٩:٣٧-٣٨)

أما الثاني: «وخرج ملاك آخر من الهيكل يصرخ بصوت عظيم إلى الجالس على السحابة: أرسل منجلك واحصد، لأنه قد جاءت الساعة للحصاد، إذ قد يبس حصيد الأرض! فألقى الجالى على السحابة منجله على الأرض فحصدت الأرض.» (رؤ١٤:١٥-١٦)

وأصل قصة الأربعة أشهر والحصاد والحقول المبيضة التي حيرت جميع الشراح هي حسب ظننا كالآتي:

كان التلاميذ يتكلمون مع بعضهم وأمامهم حقول القمح مخضرة على سفوح جبل جرزيم، أخصب بقاع إسرائيل، والزرع له في الأرض شهران وكانوا يتناجون أن بعد أربعة أشهر يكون الحصاد. لأن القمح يستمر في الأرض ستة شهور كاملة حتى يحصد: من منتصف أكتوبر إلى منتصف أبريل. علماً بأن منتصف أبريل أي وقت الحصاد المبكر هو هو زمن الصليب بالضبط. لذلك هنا كلمة «أربعة أشهر» من فم المسيح و«ثم يأتي الحصاد» إشارة واضحة جداً لتكميل عملا رسمياً على الصليب: «قد أكمل»!!

وهنا الربط واضح بين قول المسيح: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» وبين الأربعة أشهر والحصاد في حديث المسيح الذي جاء بعده مباشرة!! هنا ليس تداعى الألفاظ ولا هو تداعي الأفكار، بل الحبك في إنجيل يوحنا.

بقية المعنى يتمشى معنا هكذا: أنتم تقولون أن بعد أربعة أشهر يكون الحصاد، وأنا أقول لكم ها هو الحصاد أمامكم والحقول أمامكم ابيضت للحصاد، فالسامريون كانوا يتقاطرون بثيابهم البيضاء مسرعين نحو المسيح بقيادة من أمنت وكانت أول الكارزين: «ارفعي عينيك حواليك وانظري. كلهم قد اجتمعوا أتوا إليك. حي أنا يقول الرب أنك تلبسين كلهم كحلي، وتتمنطقين بهم كعروس.» (إش٤٩:١٨)

هذا في الحقيقة منظر مبكر جداً جداً عن ميعاده، لأننا لسنا في زمان الحصاد لنفوس المؤمنين بالمسيح الذين يتقاطرون إليه بهذه اللهفة!! ولكن هذا ما حدث بسبب شدة التأثير الذي حدث للسامرية بسبب استعلان المسيح لنفسه استعلاناً كاملاً بقوة لاهوته: «أنا هو»، الذي لم يحدث قط وكأنه استعلان ما بعد القيامة. فكانت كرازة

المسيح للسامرية على مستوى استعلان كامل لمسيح القيامة والخلاص والحياة الأبدية. وكان تأثير السامرية على السامريين من نفس النوع، لأن أمامهم امرأة خاطئة تحولت إلى قديسة، فكان هذا كفيلاً بصدق استعلان المسيح فيها!! فكان هذا الحقل البشري القادم لقبول الإيمان نموذجاً مبدعاً وكاملاً للحصاد القادم!!

٣٦- وَالْحَاصِدُ يَأْخُذُ أُجْرَةً وَيَجْمَعُ ثَمَراً لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ لِكَيْ يَفْرَحَ الزَّارِعُ وَالْحَاصِدُ مَعاً.

٣٧- لأَنَّهُ فِي هَذَا يَصْدُقُ الْقَوْلُ: إِنَّ وَاحِداً يَزْرَعُ وَآخَرَ يَحْصُدُ.

لاحظ أن الحاصد هنا لم يتعب، إنه يتلقى نفوساً آمنت جاهزة للحياة الأبدية. ولكن عجيب هو الرب، فقد جعل للحاصد أجرة لأنه يجمع مع المسيح وللميسح حصيداً لن يتبدد. وفي الحقيقة إن الكلام هنا عميق وسري للغاية، يلزمنا أن نستبق الكلام لنقرأ في الأصحاح السادس عن «عمل الله»: «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله» (يو٦:٢٩). وبعد، يظهر من الكلام بغاية الوضوح أن «عمل الله» هو بمثابة الأكل من المن الحقيقي الخبز الذي أرسله الله!!! «أنا هو خبز الحياة» _ «من يأكلني يحيا بي»!

ثم لو رجعنا قليلاً في نفس الموضوع نجد المسيح يقول: «اعملوا لا للطعام البائد (الخبز اليومي) بل للطعام الباقي (الخبز الحي) للحياة الآبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه» (يو٦:٢٧). «ختمه» هنا تعود ليس على الطعام، لأن هذا الفعل جاء واقعاً على شخص مذكر في اللغة، وهو المسيح، وليس على الطعام (المؤنث في اللغة اليونانية). فالطعام الباقي للحياة الآبدية الذي الأب ختمه هو المسيح، والعمل نفسه لحساب المسيح! «اعملوا للطعام». فهنا «الحاصد ثمر الحياة الأبدية» هو «عامل للطعام الباقي للحياة الأبدية»!! بمعنى أن الخادم أو المرسل طعامه هو الآخر أن يعمل للحياة الأبدية، يأكل المسيح ويطعم الناس من أطايبه!! هذه هي أجرة المرسل والكارز والخادم للكلمة أياً كان!!

«لكي يفرح الزارع والحاصد معاً. لأنه في هذا يصدق القول أن واحد يزرع وآخر يحصد»:

واضح أن المسيح يقصد هنا كل الذين تعبوا في كلمة الله منذ أن جاءت كلمة الله وكان لها من يحملها ويتكلم بها ويزرعها في قلوب الناس على كل الأجيال السالفة. لأننا نسمع عن مثل هؤلاء الذين خلصوا نفوساً منذ القديم سمعاً مبهراً: «والفاهون يضيئون كضياء الجلد والذين ردوا كثيرين إلى البر كالكواكب إلى أبد الدهور» (دا١٢:٣). هؤلاء هم الذين زرعوا الكلمة في قلوب سامعيهم ومضوا. ليس أنهم أشخاص الماضي الذي يُنسى، ولا هم تعبوا وانتهى تعبهم إلى نسيان، حاشا لرب الحصاد ديان الأرض كلها أن لا يصنع عدلاً؛ فهؤلاء يعيدون الآن عيد الأبدية في عرس فرح الخروف، هاتفين بالمجد إلى أبد الآبدين مع ربوات هم محفل ملائكة! هناك يتلاقى الزارع والحاصد معاً وعلى «رؤوسهم فرح أبدي».

٣٨- أَنَا أَرْسَلْتُكُمْ لِتَحْصُدُوا مَا لَمْ تَتْعَبُوا فِيهِ. آخَرُونَ تَعِبُوا وَأَنْتُمْ قَدْ دَخَلْتُمْ عَلَى تَعَبِهِمْ».

لكي يستقيم الشرح يلزم أن نفهم ما هو تعب الزارع وما هو تعب الحاصد. كذلك ما هو فرح هذا وما هو فرح ذاك. أما تعب الزارع فليس من الجهد المبذول والتعب المضني وسفك الدم، لأن هذا اشترك فيه الأنبياء تماماً على مستوى الرسل: «وآخرون عُذبوا ولم يقبلوا النجاة لكي ينالوا قيامة أفضل. وأخرون تجربوا فيُ هزء وجلد، ثم في قيود أيضأ وحبس. رُجموا نُشروا جُربوا ماتوا قتلاً بالسيف، طافوا في جلود غنم وجلود معزى، معتازين مكروبين مُذلين، وهم لم يكن العالم مستحقاً لهم. تائهين في براري وجبال ومغاير وشقوة الأرض. فهؤلاء كلهم، مشهودا لهم

بالإيمان، لم ينالوا الموعد إذ سبق الله فنظر لنا شيئاً أفضل لكي لا يُكملوا بدوننا» (عب١١:٣٥-٤٠). أما عينة آلام وتعب وعذاب وقتل واستشهاد الحاصدين فهو بكل تأكيد مماثل بالحرف الواحد!

إذن، ففرق التعب الوحيد أن هؤلاء الآباء والأنبياء القديسين القدامى جاهدوا دون رؤية «من بعيد نظروها»!! (عب١١:١٣). لم يذوقوا الخلاص، ولا عرفوا الحب الفادي، ولا سمعوا صوت العريس، ولا فرحوا بالرب في ملء استعلان مجده، ولا تشددوا هكذا بالروح القدس المعزي؛ فكان تعبهم مريرا ومرارتهم بلا حلاوة. أما الرسل ومن هم بعدهم من المرسليين والكارزين فلا يُحسب تعبهم الجسدي قط بجوار الفرح والعزاء والقوة والمجد الذي كانوا يعيشونه. إن أعظم من تعب وتألم فيهم كان بولس الرسول، وكان أبهج شيء عنده أن يكمل نقائص شدائد المسيح في جسده. اسمعه في آخر قول له: «جاهدت الجهاد الحسن... وأخيراً قد وُضع لي إكليل البر» (٢تي٤:٧-٨).

لذلك كان المسيح نفسه يغبطهم: «والتفت إلى تلاميذه على انفراد وقال: طوبى للعيون التي تنظر ما تنظرونه لأني أقول لكم إن أنبياء كثيرين وملوكاً أرادوا أن ينظروا ما أنتم تنظرون ولم ينظروا وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا» (لو١٠:٢٣-٢٤). واضح، إذن، أن تعب التلاميذ والمرسلين عموماً عادله بهجة الخلاص وفرح الروح وزمالة المجد مع المسيح، فما عاد يُحسب تعباً بل فرحاً: «الآن أفرح في آلامي لأجلكم» (كو١:٢٤)، «ودعوا الرسل وجلدوهم وأوصوهم أن لا يتكلموا باسم يسوع ثم أطلقوهم. وأما هم فذهبوا فرحين من أمام المجمع لأنهم حسبوا مستأهلين أن يهانوا من أجل اسمه» (أع٥:٤٠-٤١). إذن، صح قول المسيح أن آخرين تعبوا وأنتم قد دخلتم على تعبهم.

ج_ إيمان السامريين: (٤:٣٩-٤٢)

الاستعلان: «هذا هو مخلص العالم» .

٣٩- فَآمَنَ بِهِ مِنْ تِلْكَ الْمَدِينَةِ كَثِيرُونَ مِنَ السَّامِرِيِّينَ بِسَبَبِ كلاَمِ الْمَرْأَةِ الَّتِي كَانَتْ تَشْهَدُ أَنَّهُ: «قَالَ لِي كُلَّ مَا فَعَلْتُ».

٤٠- فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهِ السَّامِرِيُّونَ سَأَلُوهُ أَنْ يَمْكُثَ عِنْدَهُمْ فَمَكَثَ هُنَاكَ يَوْمَيْنِ.

٤١- فَآمَنَ بِهِ أَكْثَرُ جِدّاً بِسَبَبِ كلاَمِهِ.

أمامنا نوعان من الإيمان: إيمان عن طريق الشهادة: «فآمن كثيرون بسبب كلام المرأة» وإيمان مباشر عن طريق الاستعلان بالكلمة: «فآمن به أكثر جداً بسبب كلامه». والذي يسترعي انتباهنا هنا هذا الإستعداد المتوفر جداً عند السامريين سواء للايمان عن طريق مجرد الشهادة، أو بالأكثر عن طريق الكلمة المباشرة.

والذي يسترعي الانتباه في إيمان هذا الشعب السامري ، أنهم لم يطلبوا آيات أو عجائت، بل كان إيمانهم مبنياً على القناعة الروحية وصدق الا ستعلان من خلال الكلمة.

إن القديس يوحنا اهتم بأن يضع هذا المثل الإيماني عن السامريين في مقابل المثيل له عند اليهود، ليوضح كيف أن استعلان المسيح يمتد أكثر وبسرعة واستجابة تلقائية عند غير اليهود. وهكذا انفتح باب الأمم للإيمان على مصراعيه، مبتدئاً من السامرة، ونحن .

ولكن يلاحظ أن المسيح مكث هناك يومين. الرقم هنا مثير للدهشة فهو ليس ثلاثة أيام كالعادة. المعنى الدفين هنا أن إيمان السامرة جاء قبل الميعاد، جاء ناقص النضج، ينقصه الإيمان بالقيامة.

٤٢- وَقَالُوا لِلْمَرْأَةِ: «إِنَّنَا لَسْنَا بَعْدُ بِسَبَبِ كلاَمِكِ نُؤْمِنُ لأَنَّنَا نَحْنُ قَدْ سَمِعْنَا وَنَعْلَمُ أَنَّ هَذَا هُوَ بِالْحَقِيقَةِ الْمَسِيحُ مُخَلِّصُ الْعَالَمِ».

لقد أحب الرب السامريين، أعداء اليهود، لكونهم منبوذين وخارج السياجات. لقد أكمل الله فيهم مثله المشهور عن الرجل الغني الذي صنع عشاءً عظيماً وأرسل عبده يدعو المدعوين: «وأرسل "عبده" في ساعة العشاء ليقول للمدعوين (اليهود، أبناء الملكوت): تعالوا... فابتدأ الجميع برأي واحد يستعفون... حينئذ غضب رب البيت وقال لعبده: أخرج عاجلاً إلى شوارع المدينة وأزقتها وأدخل إلى هنا المساكين والجدع والعرج والعمي (مساكين اليهود الذين صنع معهم آياته). فقال العبد: يا سيد قد صار كما أمرت، ويوجد أيضاً مكان. فقال السيد: أخرج الى الطرق والسياجات وألزمهم بالدخول حتى يمتلىء بيتي.»» (لو ١٤:١٦-٢٣)

في الحقيقة كان مسلك المسيح مع السامرية نوعاً من الإلزام المقبول. لقد عرض عليها الخلاص وأقنعها بضرورته فقبلته تحت اقتناع طاغ شبه التزام!! وهذا من حق الأمم، لأن الخلاص غريب عنهم. أما اليهود: «فالخلاص من اليهود»، يعرفونه وهم مدعوون له!! فلما رفضوه، قال الغني: «لأني أقول لكم إنه ليس واحد من أولئك الرجال المدعوين يذوق عشائي.» (لو ١٤:٢٤)

وليلاحظ القارىء مسلك المسيح الذي جعلهم يهتفون به مخلصاً للعالم!! فأولاً لم ينحاز لمكان العبادة عند اليهود في أورشليم ضد عبادة السامريين في جرزيم، إلا أنه تمسك «بالحق والروح في العبادة». إذن، فهو يصح أن يكون حكماً عادلاً لكل دين!! ثم إنه لم يفرق بين جنس وجنس! إذن فهو يصح أن يكون كبيرا على كل الأجناس!! ثم إنه ذهب إلى عقردارهم المنجس عند اليهودى وأكل من أكلهم الممنوع، وشرب من شربهم المحرم. إذن فهو يصح أن يكون حبيبا لكل الناس والمنبوذين بالدرجة الاولى. ثم إنه خلص أخطى خطاة مدينتهم ثم كلمهم بكلمة الخلاص عينها فأمنوا بها وخلصوا! فكيف لا يكون هذا المسيا مخلص العالم؟

اللقب الذي أعطاه السامريون للمسيح هو أعلى استعلان لاهوتي للمسيح في الإنجيل! وقد جاء عن شدة تأثرهم به باقتناع، وشدة عوزهم إليه بلهفة، ثم إحساهم بالعزلة الثقيلة عن اليهود التي يحسها العالم كله والتي رفعها عنهم، فلماذا لا يرفعها عن العالم كله؟ وتم قول هوشع النبي: «سأدعو الذي ليس شعبي شعبي والتي ليست محبوبة محبوبة» ويكون في الموضع الذي قيل لهم فيه لستم شعبي أنه هناك يدعون أبناء الله الحي.» (وردت في رومية ٩:٢٥-٢٦)

أما السامرية فظلت أغنية الكارزين . ويذكر لنا التقليد أن الكنيسة الاول قننتها كقديسة تحت اسم القديسة «فوتينا» والاسم باليوناني (   )، أي المضيئة. وتعيد لها الكنيسة الغربية في ٢٠ مارس.

الجزء الثاني: إنجيل قوه الكلمة

(٤:٤٦ – ٥:٤٧)

«إنجيل قوة الكلمة» يشمل معجزتين أجراهما المسيح بمجرد النطق بالكلمة ثم عقب على المعجزة الثاية بتوضيح قوة الكلمة.

+ المعجزة الاولى: شفاء ابن خادم الملك، وتمت في الجليل (٤:٤٦-٥٤) «فآمن الرجل بالكلمة».

+ والمعجزة الثانية: شفاء مريض بركة بيت حسدا وقد تمت في أورشليم. وبها يبدأ الأصحاح الخامس، وقد تمت

أيضاً بمجرد كلمة من المسيح: «قم احمل سريرك وامشي».
وقد عقب عليها الرب في بقية الأصحاح الخامس بتوضيح قوة الكلمة المحيية: «من يسمع كلامي... قد انتقل من الموت إلى الحياة» ... «يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون». ثم كشف سبب عدم إيمان اليهود، لأن «ليست لكم كلمته ثابتة فيكم».

٤٣- وَبَعْدَ الْيَوْمَيْنِ خَرَجَ مِنْ هُنَاكَ وَمَضَى إِلَى الْجَلِيلِ.

٤٤- لأَنَّ يَسُوعَ نَفْسَهُ شَهِدَ أَنْ: «لَيْسَ لِنَبِيٍّ كَرَامَةٌ فِي وَطَنِهِ»

«فيا رب الجنود القاضي العدل فاحص الكلى والقلب، دعني أرى انتقامك منهم لأني لك كشفت دعواي. لذلك هكذا قال الرب عن أهل عناثوث الذين يطلبون نفسك قائلين لا تتنبأ باسم الرب فلا تموت بيدنا!! لذلك هكذا قال رب الجنود: هأنذا أعاقبهم، يموت الشبان بالسيف ويموت بنوهم وبناتهم بالجوع.» (إر١١: ٢٠-٢٢)

لقد حفر المسيح الزارع السماوي في أرض السامرة وألقى بذار الكلمة، ولما اطمأن إلى حفظ الوديعة بعد يومين غادر أرض السامرة وانطلق إلى الجليل. وكما يقول القديس كيرلس الكبير:[عبر في منتصف الطريق إلى الناصرة فأعطاها ظهره. وانطلق إلى الجليل الأعلى، لأنها لم تقبله في السابق، وقال عليها مثله المشهور: «ليس لنبي كرامة في وطنه»؛ ليس لأنه يسعى إلى كرامة الكرازة ولكن لأن عمل الخدمة لا يثمر في أرض يمتنع عليها شرب الماء، والآية يصعب إتيانها في قلب بلا أمانة].

وهنا يلمح المسيح إلى العلاقة بين تكريم الله ورضاه: «أكرم الذين يكرمونني والذين يحتقرونني يصغرون» (أم٢: ٣٠). ولم يصنع آيات في كفرناحوم لأنهم لم يكونوا يؤمنون به.

٤٥- فَلَمَّا جَاءَ إِلَى الْجَلِيلِ قَبِلَهُ الْجَلِيلِيُّونَ إِذْ كَانُوا قَدْ عَايَنُوا كُلَّ مَا فَعَلَ فِي أُورُشَلِيمَ فِي الْعِيدِ لأَنَّهُمْ هُمْ أَيْضاً جَاءُوا إِلَى الْعِيدِ.

حتى هذا القبول من الجليليين يضعه القديس يوحنا موضع الهزال والتفاهة، إنما بلغته المملوءة سراً، عندما أضاف إلى ترحابهم السبب فيه: ليس من أجل شخص المسيح ولكن لأنهم عاينوا آياته. فرق شاسع بين تقرير القديس يوحنا عن إيمان السامريين الذي ترسخ في قلوبهم دون آية واحدة: «نحن قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلص العالم»، وبين إيمان الجليليين الذي هو بلا إيمان، القائم على رؤية الآيات وحسب. وصح في السامريين قول إشعياء النبي: «أصغيت إلى الذين لم يسألوا. وُجدت من الذين لم يطلبوني. قلت هأنذا هأنذا لأمة لم تُسم باسمي» (إش٦٥: ١). أما عن اليهود فيقول: «بسطت يدي طول النهار إلى شعب متمرد» (إش٦٥: ٢، رو١٠: ٢١). و يلزم أن ينتبه القارىء، فمستقبلاً سوف يرفض الجليليون المسيح أيضاً في الأصحاح السادس والعدد ٦٦.

٤٦- فَجَاءَ يَسُوعُ أَيْضاً إِلَى قَانَا الْجَلِيلِ حَيْثُ صَنَعَ الْمَاءَ خَمْراً. وَكَانَ خَادِمٌ لِلْمَلِكِ ابْنُهُ مَرِيضٌ فِي كَفْرِنَاحُومَ.

كلمة «أيضاً» تعني ثانية، فالمسيح يسعى ثانياً إلى من يقبله أولاً~ لقد تأثر به أهل قانا وأحبوه عندما صنع عندهم معجزته الاولى في تحويل الماء خمراً جيدا، فأحبهم هو أيضأ وها هوذا يعود إليهم وعلى استعداد لعمل المزيد.

«خادم للملك ابنه مريض»: أما الملك فبحسب تحقيق العلماء هو هيرودس أنتيباس رئيس ربع على الجليل،

وكان معروفاً في الشعب باسم «الملك». وكثير من العلماء يقولون إن هذا الخادم هو « خوزي» (المذكور في إنجيل لوقا ٨:٣) أو ربما «مناين» (المذكور في سفر الأعمال ١٣:١). وخوزي هو زوج يونا المرأة التي كانت تتبع المسيح مع النساء اللاتي كن تخدمنه من أموالهن الخاصة.

٤٧- هَذَا إِذْ سَمِعَ أَنَّ يَسُوعَ قَدْ جَاءَ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجَلِيلِ انْطَلَقَ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ أَنْ يَنْزِلَ وَيَشْفِيَ ابْنَهُ لأَنَّهُ كَانَ مُشْرِفاً عَلَى الْمَوْتِ.

«وسأله أن "ينزل"»: يلاحظ أن كفرناحوم واقعة على شاطىء البحيرة (بحر الجليل). أما «قانا» فهى على هضبة أعلى كثيراً عن مستوى البحر. والذي يهمنا هنا هو دقة الوصف الذي يعطيه القديس يوحنا لطبيعة المكان وطبيعة الحركة، مما يوضح بلا مواربة أنه مواطن عاش في هذه المناطق ودرسها وانطبعت في ذاكرته، كما أنه يسجل كلمات هذا الضابط الملكي حرفياً كما فاه بها، وكأنها مسجلة عنده. على أن المسافة بين كفرناحوم وقانا الجليل تبلغ بحسب تحقيق يوسيفوس المؤرخ اليهودي حوالي ١٦ ميلاً، قطعها هذا الضابط الملكي راكباً على الأرجح.

٤٨- فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «لاَ تُؤْمِنُونَ إِنْ لَمْ تَرَوْا آيَاتٍ وَعَجَائِبَ!»

المسيح هنا يستحث الإيمان بدون آية، الإيمان بالكلمة. فالإيمان بالكلمة يستقر في القلب حيث تنمو الكلمة ويثمر، أما إيمان الآية فيستقر في العقل حيث القياس والمقابلة والشك والنسيان.

والعجيب حقاً أن في نفس هذه القصة بل وفي صميم هذه الآية آمن الضابط الملكي «بالكلمة»، فكانت «الحياة» هي الجائزة الممنوحة له في الحال. لذلك نلاحظ أنه في توبيخ المسيح، دائماً دائماً يكمن الباب المستور والعطية المخفية والحل المفرح والعزاء المقيم لو التفت الإنسان وقبل التوبيخ طالباً النور: «أؤمن يا سيد فأعن عدم إيماني.» (مر ٩:٢٤)

«آيات وعجائب»: العجيبة هي الآية على المستوى المذهل للعقل، الذي يثير إما التعجب الشديد أو الإعجاب الأشد. ويلاحظ أن مجيء هذين اللفظين معاً يقتصر على موضعهما هنا في إنجيل يوحنا. أما بالنسبة لأسفار العهد الجديد وأسفار العهد القديم فورودهما معاً موجود وبصورة مكثفة. والمقصود هنا هو الإعتماد على الرؤية العينية أو المظهر الباهر الشكلي للآية والمعجزة. ولكن يوجد إيمان صحيح قائم على الآية ولكن ليس القائم عل الرؤية العينية، بل على المعنى والإحساس الباطني بالوعي والفطنة المسيحية، كآية تحويل الماء خمراً في عرس قانا الجليل التي على أثرها آمن به تلاميذه.

٤٩- قَالَ لَهُ خَادِمُ الْمَلِكِ: «يَا سَيِّدُ انْزِلْ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ ابْنِي».

لقد فرغ صبر الأب، والجزع على ابنه جعله ينسى آداب الحديث مع من جاء يطلب منه الحياة!! فلم يكن قد أدرك بعد، مثل مرثا، أن سلطانه يتجاوز القبر والموت، وأن كلمته من على بعد تحيي وتقيم من الموت.

القديس يوحنا يلقينا مرة واحدة في قلب القصة الملتهب! أب ملهوف على ابنه المريض وقد بلغ حافة الموت. والابن عزيز أعز من النفس لدى الأب الحنون. وها الأمل قد انقطع من جهة كل علاج ممكن، وقد أطل الموت بظله الكئيب والمفزع مصمماً على قطع شريان الحياة لمن تحبه نفس الأب.

لاحظ أن القديس يوحنا لم يهتم بمن هو هذا الخادم، أممي هو أو يهودي، لم يعط جواباً، كما لم يهتم باسم الابن وعمره، يكفي أن ليس في الوجود أثمن الابن. ولكن الذي يثير انتباه القديس يوحنا، ويود أيضاً أن يثير انتباهنا إليه

هو الزمن وسلطانه بأيامه وساعاته ودقائقه على قلب ضعيف الايمان: إنه الفزع .
والقديس يوحنا يترجم لنا أثر تباطؤ المسيح في الاستجابة كما يودها الضابط الملكي الذي لم يتعود قط إلا أن يأمر فيطاع، وكيف أنشأ هذا التباطؤ في نفس هذا الضابط قلقاً مريعا إزاء تصوره الموت وهو يزحف نحو فريسته.
ثم يترجم لنا القلق الذي انتاب هذا الضابط إلى إلحاح، فهو يتجنب الدخول في بحث كيفية الإيمان دون أن تحدث المعجزة، وهو جاء يطلب المعجزة وليس الإيمان!! ولم يكن المسيح في تصوره إلا صانع معجزات، هذه مهنته!! وهذه نظرة أهل زماننا إلى القديسين أيضاً، فهم أصحاب كرامات وحسب، يُطلب منهم عمل المعجزات وإلا فكيف يُدعون قديسين؟ لا «ينظرون إلى سيرتهم» كما قال الكتاب (عب١٣:٧)، ولكن ينتظرون معوناتهم وحسب!
شيء واحد يلح على ذهن الضابط الملكي كيف يقنع صانع المعجزات هذا بالنزول فورا لانقاذ حياة ابنه!

٥٠- قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «اذْهَبْ. اِبْنُكَ حَيٌّ». فَآمَنَ الرَّجُلُ بِالْكَلِمَةِ الَّتِي قَالَهَا لَهُ يَسُوعُ وَذَهَبَ.

أمام الرب كانت ثلاثة عوامل تحثه أن يقول كلمته:
الأول: ثقة الرجل وتعبه في السفر ٢٥ كيلومتراً حتى التقى به، فهو لم يرد أن يخيب ظنه.
الثاني: الابن المريض، وها قضية الفصل بين الموت والحياة ألقيت بين يديه، فكيف لا يفصل لحساب الحياة وهو ربها!!
ثالثاً: الإلحاح الذي يطويه الرب جداً: صلوا صلوا ولا تملوا، الذي ضرب عليه مثل الأرملة المظلومة أمام قاضي الظلم وكيف أن إلحاحها غلب ظلم القاضي. فكيف لا يُغلب وهو قاضي العدل!!
«اذهب ابنك حي[١]»: قولة لا يقولها إلا الله. ولقد عظمها الضابط الملكي ايما تعظيم، وكأنه تلقاها من قائده الأعلى، وكأني به يضرب الكعبين ويرفع يده بالتحية وكأنه أمام ملك. لقد أخذ الكلمة كما هي وكأنها تأشيرة واجبة التنفيذ في الحال. انحنى الضابط أمام الرب كجندي ملتزم بالطاعة وانسحب من أمامه ومعه الكنز الذي استؤمن على استيعابه وما بقي أمامه إلا التحقيق. كانت الخطورة مُحدقة به على طول الطريق، لأنه كان قد «آمن بالكلمة» دون صاحبها. إلى ذلك الحين لم يكن المسيح عنده موجوداً بشخصه، بل اكتفى بالكلمة منه، يحققها دون أن يتحقق بعد من شخصه، شأنه شأن من يكرم الإنجيل وينحني أمامه ويقبله ويضعه على رأسه ويستودعه خزانة من ذهب، ثم ويقبل كل يد تخدمه، أما صاحب الإنجيل والكلمة فغائب عنه، لا يعلم عنه سوى اسمه.

٥١- وَفِيمَا هُوَ نَازِلٌ اسْتَقْبَلَهُ عَبِيدُهُ وَأَخْبَرُوهُ قَائِلِينَ: «إِنَّ ابْنَكَ حَيٌّ».
٥٢- فَاسْتَخْبَرَهُمْ عَنِ السَّاعَةِ الَّتِي فِيهَا أَخَذَ يَتَعَافَى فَقَالُوا لَهُ:
«أَمْسِ فِي السَّاعَةِ السَّابِعَةِ تَرَكَتْهُ الْحُمَّى».

كان هذا السؤال هو الاختبار الفاعل في قلب هذا الضابط الملكي الذي أضمر كيف سيقيم المسيح به، فإذ كان الولد قد شُفي في الساعة التي فيها نطق المسيح كلمته، يكن هو المخلص حقاً، وبه يؤمن حتماً، والا فلا إيمان البتة! ولكن بيني وبينك أيها القارىء العزيز أبهذا يُقيم الخالد الأبدي؟ انعادل القدير بمنافعنا الخاصة؟ أنساوي رب الحياة بشفاء جسد؟ ولكن لا مانع لدى المسيح: «فالذي يقبل إلي لا أخرجه خارجاً» (يو٦:٣٧)، «فتيلة مدخة لا يطفىء» (مت١٢:٢٠)! أليس هو الراعي الصالح الذي يسعى وراء الخروف الضال، والذي له خراف أخر ينبغي أن يأتي بها

[1] أقمت بالكلمة (القداس الإلهى) – مُنقذ حياتنا من الفساد (القداس الإلهى)

من خلق السياجات؟ ألم يأت بالسامرية حالاً، وقد ضم شعباً في يوم واحد؟!

٥٣- فَفَهِمَ الأَبُ أَنَّهُ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ الَّتِي قَالَ لَهُ فِيهَا يَسُوعُ إِنَّ ابْنَكَ حَيٌّ. فَآمَنَ هُوَ وَبَيْتُهُ كُلُّهُ.

«فآمن هو وبيته كله»: لقد أفرخت «الكلمة» الحية التي خبأها في قلبه وهو مسرع نحو بيته. لقد انفتح الكنز وخرجت منه الحياة ومعها الإيمان المؤدي إلى الحياة الأفضل! هنا، ولأول مرة، نسمع مبكراً عن إيمان عائلي برمته. وأهل البيت بالنسبة للضابط الملكي يضم أفراداً وحاشية وخدماً كثيرين، صورة طبق الأصل من السامرية التي قادت مدينة إلى الإيمان بالمسيح. لذلك فإن وضح قصة شفاء ابن الضابط الملكي بعد قصة السامرية يدخل في مخطط إنجيل القديس يوحنا تحت عنوان: «السامرة في مقابل اليهودية»، و«الأمم في مقابل الجليل». والتفسير للاثنين هو القبول إزاء الرفض.

هنا تلح علينا المقارنة المبدعة التي يشير إليها القديس يوحنا دون أن يعلن عنها. فالانطباع مبدع حقاً: وهي قصة إيليا النبي مع أرملة صرفة صيدا الاممية التي ألمح إليها الرب في إنجيل لوقا (٤:٢٥). كيف أقام ابنها من الموت حياً: «فسمع الرب صوت إيليا فرجعت نفس الولد إلى جوفه فعاش. فأخذ إيليا الولد ونزل من العلية إلى البيت ودفعه لأمه وقال إيليا: انظري ابنك حي فقالت المرأة لإيليا: "هذا الوقت علمت أنك رجل الله وأن كلام الرب في فمك حق".» (١مل ١٧:٢٢-٢٤)

وليلاحظ القارىء أن الكلمات التي قالها إيليا والتي قالتها المرأة تتجاوب حرفياً مع ما تم بين المسيح والضابط الملكي . ولكن تمتاز قصة الضابط الملكي بأن المسيح أقام الولد حيا بكلمة وعلى بعد ١٦ ميلاً. وحينما يدقق القارىء في قصة خادم الملك القصيرة هذه، يندهش كيف تزاحمت فيها التعابير اللاهوتية والكلمات ذات الوزن العالى عند إنجيل يوحنا: «الأب» _ «الابن» _ « الموت» _ «الحياة» _ «الكلمة» _ «الإيمان» . وكيف اقترنت «الحياة بالموت» فصرع الموت، و«الإيمان بالكلمة» فانتهى إلى «الإيمان بالمسيح». ثم انظر كيف يبرز القديس يوحنا التكرار في كلام المسيح «ابنك حي، فآمن»، «ابنك حي»، «ابنك حي، فآمن»، لينتهي بنا إلى هذا المعيار المسيحي الأعظم: الإيمان سر الحياة.

كذلك يهمنا أن نوضح كيف يتخذ القديس يوحنا من هذه الآية القائمة على هذا المعيار، وهو أن الإيمان عنصر الحياة الذي يقيم من الموت، يتخذها أساساً لتعليمه. فبعد أن قدم الفعل العملي الصامت بالآية، يبتدىء في الأصحاح القادم مباشرة يبني عليه تعليمه، وذلك في الحوار العنيف الذي دار مع اليهود حول قدرة المسيح وسلطانه على إعطاء الحياة بالمساواة مع الله: كما أن الأب يقيم الأموات ويحيي، كذلك الابن أيضاً يُحي من يشاء» (يو٥:٢١). كذلك يتخذ المسيح من إيمان الضابط الملكي «بالكلمة» الذي أوصله بالفعل إلى الحياة بالنسبة لابنه أساساً لتعليمه: «من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية.» (يو٥:٢٤)

نفهم من هذا أن معجزات الشفاء في إنجيل يوحنا، إنما يعرضها بحساب معين يقوم على أساس التعليم المبني عليها. فهدف المعجزة عند إنجيل يوحنا هو استعلان المسيح وليس فقط عمل رحمة.

٥٤- هَذِهِ أَيْضاً آيَةٌ ثَانِيَةٌ صَنَعَهَا يَسُوعُ لَمَّا جَاءَ مِنَ الْيَهُودِيَّةِ إِلَى الْجَلِيلِ

هي محاولة من القديس يوحنا لتنبيه أذهاننا إلى الترابط الشديد بين الآيتين اللتين صنعهما الرب في قانا الجليل. ففي بداية القصة يشير إل الآية الاولى: «فجاء يسوع أيضاً إلى قانا الجليل حيث صنع الماء خمراً». وهنا يكرر الإشارة: «هذه آية ثانية». والهدف المشترك بين الآيتين هو« إظهار مجده» كما في الاولى أمام تلاميذه؛ هكذا في

الثانية أمام حشد من بيت الضابط الذي يعتقد أنه أممي «فآمن هو وبيته كله». هنا الاستعلان يأخذ صورة متقدمة في الثانية عن الاولى . وهكذا يسير إنجيل يوحنا في هذا النمط من الاستعلان المتدرج.
والملاحظ أيضاً أن الآيتين تشتركان في سمات أساسية بالنسبة لإنجيل يوحنا وهي لحظات الحرج البالغ. في الآية الاولى فروغ الخمر في وسط حفل العرس. في الآية الثانية: ابنه «كان مشرفاً على الموت»، «قبل أن يموت ابني». ثم رد الفعل السخي جداً : ستة أجران ملآنة خمراً (١٣٤جالون = ٦٠٠ لتر تقريبا) في الآية الاولى، وفي الثانية: « اذهب ابنك حي».

تم فى ٢٠١٧/٣/١٥

الإصحاح الخامس

وَبَعْدَ هَذَا كَانَ عِيدٌ لِلْيَهُودِ فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَفِي أُورُشَلِيمَ عِنْدَ بَابِ الضَّأْنِ بِرْكَةٌ يُقَالُ لَهَا بِالْعِبْرَانِيَّةِ «بَيْتُ حِسْدَا» لَهَا خَمْسَةُ أَرْوِقَةٍ. فِي هَذِهِ كَانَ مُضْطَجِعاً جُمْهُورٌ كَثِيرٌ مِنْ مَرْضَى وَعُمْيٍ وَعُرْجٍ وَعُسْمٍ يَتَوَقَّعُونَ تَحْرِيكَ الْمَاءِ. لأَنَّ ملاكاً كَانَ يَنْزِلُ أَحْيَاناً فِي الْبِرْكَةِ وَيُحَرِّكُ الْمَاءَ. فَمَنْ نَزَلَ أَوَّلاً بَعْدَ تَحْرِيكِ الْمَاءِ كَانَ يَبْرَأُ مِنْ أَيِّ مَرَضٍ اعْتَرَاهُ. وَكَانَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ بِهِ مَرَضٌ مُنْذُ ثَمَانٍ وَثَلاَثِينَ سَنَةً. هَذَا رَآهُ يَسُوعُ مُضْطَجِعاً وَعَلِمَ أَنَّ لَهُ زَمَاناً كَثِيراً فَقَالَ لَهُ: «أَتُرِيدُ أَنْ تَبْرَأَ؟». أَجَابَهُ الْمَرِيضُ: «يَا سَيِّدُ لَيْسَ لِي إِنْسَانٌ يُلْقِينِي فِي الْبِرْكَةِ مَتَى تَحَرَّكَ الْمَاءُ. بَلْ بَيْنَمَا أَنَا آتٍ يَنْزِلُ قُدَّامِي آخَرُ». قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «قُمِ. احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ». فَحَالاً بَرِئَ الإِنْسَانُ وَحَمَلَ سَرِيرَهُ وَمَشَى. وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سَبْتٌ. فَقَالَ الْيَهُودُ لِلَّذِي شُفِيَ: «إِنَّهُ سَبْتٌ! لاَ يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَحْمِلَ سَرِيرَكَ». أَجَابَهُمْ: «إِنَّ الَّذِي أَبْرَأَنِي هُوَ قَالَ لِي احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ». فَسَأَلُوهُ: «مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ الَّذِي قَالَ لَكَ احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ؟». أَمَّا الَّذِي شُفِيَ فَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَنْ هُوَ لأَنَّ يَسُوعَ اعْتَزَلَ إِذْ كَانَ فِي الْمَوْضِعِ جَمْعٌ. بَعْدَ ذَلِكَ وَجَدَهُ يَسُوعُ فِي الْهَيْكَلِ وَقَالَ لَهُ: «هَا أَنْتَ قَدْ بَرِئْتَ فلاَ تُخْطِئْ أَيْضاً لِئَلَّا يَكُونَ لَكَ أَشَرُّ». فَمَضَى الإِنْسَانُ وَأَخْبَرَ الْيَهُودَ أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الَّذِي أَبْرَأَهُ. وَلِهَذَا كَانَ الْيَهُودُ يَطْرُدُونَ يَسُوعَ وَيَطْلُبُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ لأَنَّهُ عَمِلَ هَذَا فِي سَبْتٍ. فَأَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ». فَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَ الْيَهُودُ يَطْلُبُونَ أَكْثَرَ أَنْ يَقْتُلُوهُ لأَنَّهُ لَمْ يَنْقُضِ السَّبْتَ فَقَطْ بَلْ قَالَ أَيْضاً إِنَّ اللَّهَ أَبُوهُ مُعَادِلاً نَفْسَهُ بِاللَّهِ. فَقَالَ يَسُوعُ لَهُمُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ يَقْدِرُ الابن أَنْ يَعْمَلَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً إِلاَّ مَا يَنْظُرُ الآب يَعْمَلُ. لأَنْ مَهْمَا عَمِلَ ذَاكَ فَهَذَا يَعْمَلُهُ الابن كَذَلِكَ. لأَنَّ الآب يُحِبُّ الابن وَيُرِيهِ جَمِيعَ مَا هُوَ يَعْمَلُهُ وَسَيُرِيهِ أَعْمَالاً أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ لِتَتَعَجَّبُوا أَنْتُمْ. لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآب يُقِيمُ الأَمْوَاتَ وَيُحْيِي كَذَلِكَ الابن أَيْضاً يُحْيِي مَنْ يَشَاءُ. لأَنَّ الآب لاَ يَدِينُ أَحَداً بَلْ قَدْ أَعْطَى كُلَّ الدَّيْنُونَةِ لِلابْنِ. لِكَيْ يُكْرِمَ الْجَمِيعُ الابن كَمَا يُكْرِمُونَ الآب. مَنْ لاَ يُكْرِمُ الابن لاَ يُكْرِمُ الآب الَّذِي أَرْسَلَهُ. «اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ كلاَمِي وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَلاَ يَأْتِي إِلَى دَيْنُونَةٍ بَلْ قَدِ انْتَقَلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الآنَ حِينَ يَسْمَعُ الأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللَّهِ وَالسَّامِعُونَ يَحْيَوْنَ. لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآب لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ كَذَلِكَ أَعْطَى الابن أَيْضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ. وَأَعْطَاهُ سُلْطَاناً أَنْ يَدِينَ أَيْضاً لأَنَّهُ ابْنُ الإِنْسَانِ. لاَ تَتَعَجَّبُوا مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ. فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الْحَيَاةِ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الدَّيْنُونَةِ. أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئاً. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ وَدَيْنُونَتِي عَادِلَةٌ لأَنِّي لاَ أَطْلُبُ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الآب الَّذِي أَرْسَلَنِي. «إِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي لَيْسَتْ حَقّاً. الَّذِي يَشْهَدُ لِي هُوَ آخَرُ وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ الَّتِي يَشْهَدُهَا لِي هِيَ حَقٌّ. أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمْ إِلَى يُوحَنَّا فَشَهِدَ لِلْحَقِّ. وَأَنَا لاَ أَقْبَلُ شَهَادَةً مِنْ إِنْسَانٍ وَلَكِنِّي أَقُولُ هَذَا لِتَخْلُصُوا أَنْتُمْ. كَانَ هُوَ السِّرَاجَ الْمُوقَدَ الْمُنِيرَ وَأَنْتُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَبْتَهِجُوا بِنُورِهِ سَاعَةً. وَأَمَّا أَنَا فَلِي شَهَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا لأَنَّ الأَعْمَالَ الَّتِي أَعْطَانِي الآب لِأُكَمِّلَهَا هَذِهِ الأَعْمَالُ بِعَيْنِهَا الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا هِيَ تَشْهَدُ لِي أَنَّ الآب قَدْ أَرْسَلَنِي. وَالآب نَفْسُهُ الَّذِي أَرْسَلَنِي يَشْهَدُ لِي. لَمْ تَسْمَعُوا صَوْتَهُ قَطُّ وَلاَ أَبْصَرْتُمْ هَيْئَتَهُ. وَلَيْسَتْ لَكُمْ كَلِمَتُهُ ثَابِتَةً فِيكُمْ لأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ هُوَ لَسْتُمْ أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِهِ. فَتِّشُوا الْكُتُبَ لأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً. وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي. وَلاَ تُرِيدُونَ أَنْ تَأْتُوا إِلَيَّ لِتَكُونَ لَكُمْ حَيَاةٌ. «مَجْداً مِنَ النَّاسِ لَسْتُ أَقْبَلُ. وَلَكِنِّي قَدْ عَرَفْتُكُمْ أَنْ لَيْسَتْ لَكُمْ مَحَبَّةُ اللَّهِ فِي أَنْفُسِكُمْ. أَنَا قَدْ أَتَيْتُ بِاسْمِ أَبِي وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَنِي. إِنْ أَتَى آخَرُ بِاسْمِ نَفْسِهِ فَذَلِكَ تَقْبَلُونَهُ. كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْداً بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ؟ وَالْمَجْدُ الَّذِي مِنَ الإِلَهِ الْوَاحِدِ لَسْتُمْ تَطْلُبُونَهُ؟. «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي أَشْكُوكُمْ إِلَى الآب. يُوجَدُ الَّذِي يَشْكُوكُمْ وَهُوَ

مُوسَى الَّذِي عَلَيْهِ رَجَاؤُكُمْ. لأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ مُوسَى لَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي لأَنَّهُ هُوَ كَتَبَ عَنِّي. فَإِنْ كُنْتُمْ لَسْتُمْ تُصَدِّقُونَ كُتُبَ ذَاكَ فَكَيْفَ تُصَدِّقُونَ كلاَمِي؟»

وقفة قصيرة

المرحلة التي تميزت بالصدام السافر مع الفريسيين من الأصحاح الخامس حتى الثاني عشر.

على مدى الأصحاحات السالفة أكمل المسيح تقديم نفسه لكل فئات اليهود:

في أورشليم: للفريسيين والرؤساء.

في اليهودية: للشعب المتعصب.

في السامرة: للشعب المنبوذ.

وفي الجليل: للشعب الساذج فلاحين وصيادين.

وبذلك يكون قد استوفى عناصر الإيمان المناسب لهذه الفئات المتباينة كل على مستوى ثقافته وإدراكه.

ومن الأن يبدأ الصدام الذي بدأت بذاره مبكرة في اليهودية أو أورشليم، ويستمر إلى أن ينتهي بالآلام. وسوف نواجه في الأحاديث والمناقشات التي سنعبر عليها نماذج من الإيمان، ونماذج من الرفض، على التوازي؛ حيث بالكلمات الموجهة والأعمال ذات الأهداف، استعلن المسيح أفكار اليهود المناهضة والتي جاءت بلا تعقل ولا فهم. أما أشدها عنفاً على المستوى المأساوي غير المعقول، فكان في أورشليم. وكانت المناسبات المختارة هي الأعياد الرسمية للأمة. وقد تبلورت هذه الصدامات على ثلا ثة محاور لثلاث آيات خارقة صنعها المسيح.

الاولى: شفاء المريض المقعد منذ ثماني وثلا ثين سنة في بيت حسدا: الأصحاح الخامس .

الثانية: شفاء الأعمى المولود هكذا من بطن أمه: الأصحاح التاسع.

الثالثة: إقامة لعازر من الموت: الأصحاح الحادي عشر.

ولكن يتخلل هذه المجموعة المترابطة الأصحاح السادس الذي تتم حوادثه في الجليل، وهو يبدو لكثيرين من الشراح وكأنه في غير موضعه، وكان ينبغي، في نظرهم، أن يكون موضع الأصحاح الخامس. ولكن تبويب القديس يوحنا في الحقيقة يعتمد لا على التسلسل الجغرافي ولا التاريخي، ولكن على طبيعة التعاليم والحوادث من جهة استعلان الرب لذاته، واستعلان أفكار قلوب اليهود. لهذا فإن الأصحاح السادس نجده يتبع فعلاً مجموعة الصدامات واستعلان المسيح لشخصه كابن الله. كما يكشف الشعب بل والتلاميذ الذين كانوا على غير المستوى، سواء للتلمذة أو للأمانة، إذ تركوا المسيح ولم يعودوا يسيرون وراءه. لذلك استحسن القديس يوحنا أن يضمه إلى أعمال الرب التي أكملها في أورشليم بالرغم من أن حوادثه جرت في الجليل.

وهذه المجموعة من الصدامات التي تقع من الأصحاح الخامس حتى الأصحاح الثاني عشر تنقسم من جهة عنف الصدام إلى قسمين:

الأول: مجرد بادئة لربح الصدامات، وتستغرق الأصحاحين الخامس والسادس.

الثاني: الصدام في أوج عنفه، ويستغرق من الأصحاح السابع حتى نهاية الثاني عشر.

الإصحاح الخامس

شفاء مريض بيت حسدا والمصادمة الأولى مع اليهود

مكان البشارة فى أورشليم

الأصحاح الخامس يعتبر تكميلاً لإنجيل «قوة الكلمة» الذي ابتدأ في الأصحاح الرابع بمعجزة شفاء ابن خادم الملك (يو ٤:٤٦-٥٤).

والأصحاح الخامس ينقسم إلى أربعة أقسام واضحة:

القسم الأول: سرد لتفاصيل الآية التي صنعها المسيح، أعداد من ١-١٨، وتنتهي بمحاولة قتل المسيح.

القسم الثاني: شرح تفصيلي لمركز الابن من الله الآب وماهية الابن في ذاته، أعداد من ١٩-٣٠

القسم الثالث: الشهادة للابن، أولاً من المعمدان، ثانياً من الآب، ثالثاً من الأعمال، رابعاً من الأسفار. ٣١-٤١.

القسم الرابع. أسباب عدم إيمان اليهود. ٣١-٤١

على أن ما ورد في القسمين الثاني والثالث، أي شرح ماهية الابن وعلاقته بالآب، ثم الشهادة للابن على كل المستويات كما وردت في هذا الأصحاح، فهو يعتبر الأساس الذي يبني عليه إنجيل يوحنا كل تعاليم المسيح.

والمسيح يخاطب في هذا الأصحاح أعلى مستوى لفئات الأمة، والإشارة ستجيء عنهم واضحة هكذا: «ها هو يتكلم جهاراً ولا يقولون له شيئاً. ألعل الرؤساء عرفوا يقيناً أن هذا هو المسيح حقاً». (يو٧:٢٦)

القسم الأول من الأصحاح الخامس

(١-١٨)

معجزة شفاء مريض بركة بيت حسدا وحوار مع الفريسيين ينتهي بمحاولة قتل المسيح

١- وَبَعْدَ هَذَا كَانَ عِيدٌ لِلْيَهُودِ فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى أُورُشَلِيمَ.

«بعد هذا»: وتعني في اليونانية «بعد نفس هذه الأمور كحوادث»، وبها يقصد القديس يوحنا الإنتقال من مجموعة حوادث إلى مجموعة أخرى من الحوادث، وهذا الاصطلاح غير (   ) التي تفيد مجرد التسلسل الزمني، أي «بعد هذا الزمن».

«كان عيد لليهود»: تأتي «عيد» بدون «الـ» أداة التعريف، أي ليس هو عيد الفصح، بل أحد الأعياد الأخرى، ويعتقد كل من القديس كيرلس والقديس ذهبي الفم أنه عيد الخمسين. فإذا أخذنا بهذا التقرير يكون المسيح قد زار السامرة في بكور الصيف (مايو) بعد الفصح الذي أمضاه في أورشليم، كما يفيد أنه مكث في الجليل فترة قصيرة. ويقول العالم شاكبرج أن الأخذ بهذا الرأي صائب، إذ يجعل التسلسل التاريخي في إنجيل يوحنا صحيحاً؛ حيث يأتي عيد المظال بعده في الأصحاح السابع، وعيد التجديد في الأصحاح العاشر، والفصح الأخير في الأصحاحين ١١ و ١٢. وهذا يعكس ما يقوله كثير من الشراح الآخرين أن هذا العيد كان عيد المظال وذلك بسبب أن كلمة «عيد لليهود» جاءت بدون تعريف، وهذا ينطق فقط على عيد المظال بحسب تحقيقات العهد القديم. وصعود المسيح لاورشليم في عيد الخمسين ولو أنه أحد الواجبات اليهودية الملزمة للزيارة، لأن الأعياد الملزمة للحضور إلى أورشليم ثلاثة: الفصح والخمسين والمظال؛ إلا أن المسيح كان يتخذ من الأعياد عموماً فرصاً لمحاجاة الرؤساء والفريسيين، وللاتصال بجماهير الحجاج الآتين من كل أركان البلاد.

وعيد الخمسين من الأعياد الهامة التي يحتفل بها اليهود لتذكار استلام موسى للناموس على جبل سيناء. ومن هنا يجيء في هذا الأصحاح تلميح المسيح بعد ذلك، في نقاش مع الفريسيين، بخصوص كتب موسى أي الناموس: «يوجد الذي يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم، لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقونني، لأنه هو كتب عني، فإذ كتم لستم تصدقون كتب ذاك (أي التوراة وهي محور تذكار هذا العيد) فكيف تصدقون كلامي»

(يو٥:٤٥-٤٧). هنا يجعل المسيح كلامه على مستوى التوراة.

على أن كثيراً من الشراح ومن الأباء أيضاً يصر على أنه كان عيد الفصح الثاني الذي حضره المسيح والذي بالحساب الدقيق يقع سنة ٢٨ ميلادية. ودليلهم على ذلك ما ذكر في الأصحاح السادس أن عيد الفصح كان قريباً (يو٤:٦). على أن عيد الفصح الأول الذي حضره المسيح ذُكر في الأصحاح الثاني عدد ١٣ وقد وقع سنة ٢٧ ميلادية. أما الفصح الأخير الذي صُلب فيه الرب (يو ١١و١٢) فوقع في سنة ٢٩ ميلادية. وبذلك يكون الرب قد حضر ثلاثة أعياد فصحية أثناء خدمته، صُلب في ثالثها، وبذلك تكون مدة خدمته حسب توقيعات إنجيل يوحنا وحسب التقليد القبطي ثلاث سنوات ونيف.

«فصعد يسوع إلى أورشليم»: هنا يلمح القديس يوحنا أن المسيح لم يشأ أن يأخذ تلاميذه بل صعد وحده، وكلمة «صعد»، كما جاءت في الأصل اليوناني، تفيد الذهاب الرسمي للعيد كالمعتاد حسب الناموس. ويبدو أن الرب شاء أن يصعد وحده حتى لا يظهر أيضاً بصورة مثيرة، بل دخل المدينة متخفياً منعاً للاثارة التي بدأت تأخذ وضعها العنيف. ويظهر هذا من التسجيل الواضح للقديس يوحنا: «أما الذي شُفي فلم يكن يعلم من هو، لأن يسوع اعتزل إذ كان في الموضع جمع.» (يو١٣:٥)

٢- وَفِي أُورُشَلِيمَ عِنْدَ بَابِ الضَّأْنِ بِرْكَةٌ يُقَالُ لَهَا بِالْعِبْرَانِيَّةِ «بَيْتُ حِسْدَا» لَهَا خَمْسَةُ أَرْوِقَةٍ.

«باب الضأن»: هذا الباب هو في سور مدينة أورشليم من ناحية الشرق وكان قريباً من الهيكل (أنظر نح ١:٣). وفي سفر نحميا يذكر ان بناء هذا الباب كان من نصيب الكهنة. ويبدو أنه كان ذا صلة خاصة بالذبائح التي تدخل منه للهيكل.

«بركة بيت حسدا»: أبحاث كثيرة أجراها العلماء حول هذا الاسم: من «بيت زاتا» (بيت الزيتون)، إلى «بيت صيدا» محورة، إلى «أيت إزدا» (بيت الفيضان). كما وُجد اسمها منقوشاً في درج من النحاس في حفريات وادي قمران مكتوباً هكذا (Bet Esdatayan)، ويعني «بيت إزد المجوز» (أي ذو العينين). بعنى أذن البركة لها حوضان يفيض فيهما الماء. ولكن أصح القراءات جميعاً ما جاء في النسخة الإسكندرانية اسم «بيت حسدا» وتعني «بيت الرحمة» بسبب الأشفية التى كانت تجرى فيها.

والعجيب أن النقاد سلطوا نقدهم على إنجيل يوحنا بخصوص هذه البركة بهذا الاسم معتقدين أن القديس يوحنا اخترع هذا الاسم لهذه البركة، إذ كانت قد اندثرت معالمها، ولكن في هذا القرن تم اكتشاف هذه البركة بجوار كنيسة القديسة حنة بواسطة رهبان الآباء البيض. ولما أكملوا حفرياتهم ظهرت البركة ولها بالفعل خمسة أروقة. والبركة مساحتها كبيرة، فهي بعرض ١٦٥-٢٢٠ قدماً وطولها ٣١٥ قدماً، مقسومة من نصفها بحاجز جعلها بركتين: واحدة شمالية والأخرى جنوبية، ولها على جوانبها الأربعة صفوف أعمدة، وكذلك على الحاجز الذي يقسمها. وبذلك ظهرت الخمسة الأروقة، ولها منزل مدرج كسلالم.

وقول القديس يوحنا أن هذه البركة يقال لها «بالعبرانية» بيت حسدا، يقصد اللغة الآرامية الدارجة بين الشعب (العائد من السبي). كما يلاحظ أن هذا الاسم يفيد مبنى أكثر منه نبع ماء، لأن الخمسة أروقة جعلت منه مصحة يؤمها المئات. وقد قام ببنائها بعض الخيرين ويقال أن هيرودس الكبير هو الذي أقامها. وقد ظلت هذه المصحة قائمة حتى إلى ما قبل خراب أورشليم سنة ٧٠ م.

٣- فِي هَذِهِ كَانَ مُضْطَجِعاً جُمْهُورٌ كَثِيرٌ مِنْ مَرْضَى وَعُمْيٍ وَعُرْجٍ وَعُسْمٍ يَتَوَقَّعُونَ تَحْرِيكَ الْمَاءِ.

«العثم»: وهم مرضى بأنواع الشلل. وقد ذكر نوع مرضهم في آخر قائمة المرض لأن مريض هذه القصة واحد منهم. وهو المرض الذي أعيا الطب والدواء على حد سواء حتى اليوم.

«تحريك الماء»: عودة مرة أخرى إلى «الماء» الذي يرافقنا منذ عرس قانا الجليل عبر نيقوديموس والسامرية، وهنا أيضاً. و«تحريك الماء» هي جملة فيها محاولة لمحاكاة الماء الجاري أو الماء الحي الذي تمناه المريض ولم يبلغه قط. وفي هذا تعبير مستيكي (سري) يشير إلى المسيح «الماء الحي» الذي وافاه هذا المريض السعيد فشفاه.

٤- لأَنَّ ملاَكاً كَانَ يَنْزِلُ أَحْيَاناً فِي الْبِرْكَةِ وَيُحَرِّكُ الْمَاءَ.
فَمَنْ نَزَلَ أَوَّلاً بَعْدَ تَحْرِيكِ الْمَاءِ كَانَ يَبْرَأُ مِنْ أَيِّ مَرَضٍ اعْتَرَاهُ.

هذه الآية لم توجد في معظم المخطوطات الهامة ولكنها موجودة في بعض منها، وقد ذكرها بعض الآباء ومنهم ذهبي الفم معتبراً أن [البركة والماء هنا هما سبق تصوير للمعمودية، لكي يعطي اليهود صورة مسبقة لما ستأتي به المعمودية في المسيح. وتحريك الماء بواسطة الملاك هو تمهيد تصويري لما سيعمله الروح القدس رب الملائكة.] وشرح ذهبي الفم هنا يتبع إلى حد ما الخط السري المستيكي الذي ينهجه القديس يوحنا.

«بركة»: وهي نفس الكلمة الطقسية المستخدمة للتعبير عن جرن المعمودية. ولو أنها مشتقة من أصل (   ) أي يسبح أو يعوم. وقول القديس يوحنا أن «ملاكاً كان ينزل أحياناً في البركة ويحرك الماء»، يعطي تقريراً إنجيلياً عن تدخل سمائي إعجازي في العهد القديم لشفاء الأمراض الميئوس منها بوازع من الرحمة الإلهية، وذلك بحسب ترجمة اسمها «بيت حسدا». وهذا ليس غريباً لا على القديس يوحنا ولا على العهد القديم برمته. فالقديس يوحنا رأى في رؤياه هذا الملاك عينه واسمه «ملاك الماء»: «وسمعت ملاك المياه يقول عادل أنت أيها الكائن والذي كان والذي يكون لأنك حكمت هكذا.» (رؤ١٦:٥)

أما قوة الحياة والشفاء التي جعلها الله في الماء فهي تراث إلهي يملأ العهد القديم، ونحن لا ننس الصخرة التي تفجرت ماء تحت عصا موسى في سفر الخروج، وكان الماء للحياة والشفاء، لأن «الصخرة كانت المسيح» (اكو١٠:٤)، وإذا لم يذكر سفر الخروج حالات شفاء للماء إلا أن الماء كان له هذه الطبيعة والقوة، فلم نسمع بأن أحداً كان يمرض قط بطول الأربعين سنة: «ثيابك لم تبل عليك، ورجليك لم تتورم هذه الأربعين سنة.» (تث٨:٤).

كذلك لا نجهل الشفاء الذي أجراه أليشع النبي لنعمان السرياني بالإغتسال في مياه الاردن، الأمر الذي طهره من داء البرص الوبيل. والمسيح أيضاً ألمح إلى سر الله في ماء بركة سلوام بالذات، حينما أمر الأعمى الذي صنع له من ريقه مقلة من طين، أن يغتسل في بركة سلوام فأتى بصيراً. والشفاء والصحة في بركة سلوام وغيرها هو إرهاصة من إرهاصات عمل الروح القدس في سر المعمودية الذي استعلنه المسيح في مُقعد بيت حسدا. بل ولا تزال بعض سراديب روما تشير إلى المعمودية برسم هذا المُقعد ذي الثماني والثلاثين سنة الذابل الساق، وهو يسير بقوة حاملاً سريره على ظهره، تعبيراً فنياً مبدعا عن «سر المعمودية»، باعتبار أن المعمودية تعيد مشلول الخطية صحيح الروح معافى حاملاً شهادة حياته المائتة السابقة على ظهره، على أساس أن المسيح هو الماء الحي الذى يعطي الحياة ويقيم من الموت عوض ماء بركة بيت حسدا الذي عز على مريضها، فامتنع عليه أن يُشفى. وهذه إشارة ضمنية رائعة إلى عجز العهد القديم بمائه، وعلى كل صورة، أن يُطهر أو يشفي أو يروي.

ومعروف أن ثلاث قراءات من الإنجيل كانت تُقرأ على المعمدين الجدد في الكنيسة الاولى: الحديث مع نيقوديموس، وقصة المقعد، وتفتيح عيني الأعمى.

٥- وَكَانَ هُنَاكَ إِنْسَانٌ بِهِ مَرَضٌ مُنْذُ ثَمَانٍ وَثلاَثِينَ سَنَةً.

٦- هَذَا رَآهُ يَسُوعُ مُضْطَجِعاً وَعَلِمَ أَنَّ لَهُ زَمَاناً كَثِيراً فَقَالَ لَهُ: «أَتُرِيدُ أَنْ تَبْرَأَ؟».

ثماني وثلاثين سنة في المرض. هنا استحالة أن يكون هو الشلل المعروف، سواء النصفي أو الكلي، لأن المعروف في الطب أن مريضه يكون محدود الحياة بمدة قليلة. فهو ربما كان نوعا من المرض الذي يُقعد المريض عن الحركة. ولكن لا يفوتنا أسلوب القديس يوحنا في اختيار الآيات ذات اللون الصارخ ليقدمها كنموذج لتفوق المسيح الإلهي، فالأعمى «منذ ولادته»، والميت له «أربعة أيام في القبر»، وهذا المريض له «ثماني وثلاثين سنة في مرضه، فالآية هنا مختارة من وسط مئات وربما ألوف كنموذج للقوة الفائقة.

«أتريد أن تبرأ؟»: اختار الرب هذا المُقعد ليجري فيه آية الشفاء المجاني دون أن يطلب، هنا أسلوب القديس يوحنا السري، فهو يرمي إلى أبعد من المقعد ومن الآية في حد ذاتها. لأننا نعلم من أسفار العهد القديم أن شفاء الأعمى والأعرج، وهما آيتا الأصحاحين الخامس والتاسع، سيكون علامة مجيء المسيا وافتتاح عهد النعمة والخلاص. فإشعياء النبي يسبق ويصف المنظر بعينه: «هو يأتي ويخلصكم، حينئذ تتفتح عيون العمي وأذان الصم تتفتح، حينئذ يقفز الأعرج (المشلول) كالأيل (كالغزال) ويترنم لسان الأخرس، لأنه قد انفجرت في البرية مياه وأنهار في القفر.» (إش٣٥: ٤-٦)

«ويسمع في ذلك اليوم الصم أقوال السفر، وتنظر من القتام والظلمة عيون العمي، ويزداد البائسون فرحاً بالرب، ويهتف مساكين الناس بقدوس إسرائيل.» (إش٢٩: ١٨-١٩)

أما إرميا النبي فيصف المنظر باتفاق: «اسمعوا وقولوا: خلص يا رب شعبك بقية إسرائيل... بينهم الأعمى والأعرج... جمع عظيم يرجع إلى هنا.» (إر٣١: ٧-٨)

وداود النبي يشترك في الرؤيا: «الرب يطلق الأسرى، الرب يفتح أعين العُمي، الرب يقوّم المنحنين ..» (مز١٤٦: ٧-٨)

وهكذا يقف الأنبياء من وراء الأزمنة والدهور يتطلعون إلى يوم مريض بركة بيت حسدا، والأعمى المولود هكذا من بطن أمه، مع كل الآيات الأخرى التي صنعها يسوع، فيرد عليهم القديس يوحنا بلغته السرية: «هوذا اليوم قد أتى ومن له أذنان للسمع فليسمع!»

«أتريد أن تبرأ»؟ .... «ها أنت قد برئت فلا تُخطىء أيضاً لئلا يكون لك أشر.» (يو٥: ١٤)

كشف القديس بولس الرسول عن أخطر مشكلة أدبية وأخلاقية بل وروحية تواجه الإنسان في الحياة عندما يتعرض لعمل الإرادة في صراعها مع الخطية قائلاً: «لأني لست أعرف ما أنا أفعله إذ لست أفعل ما أريده، بل ما أبغضه فإياه أفعل... فالأن لست بعد أفعل ذلك أنا بل الخطية الساكنة فيّ... لأن الارادة حاضرة عندي وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد. لأني لست أفعل الصالح الذي أريده، بل الشر الذي لست أريده فإياه أفعل.» (رو٧: ١٤-٢٥)

فهنا يستعرض لنا بولس الرسول الإنسان الطبيعي في عراكه الداخلي مع الخير والشر، بعد أن تعرف على ناموس الله من جهة الحق والباطل. فبولس اكتشف في داخله ناموسين: ناموس الخطية المسيطر على الجسد بأعضائه، وناموس الخير والصلاح المسيطر على ذهنه (عقله الروحي)؛ ووجد في الصراع القائم بينهما الإرادة مغلوبة،

والخطية غالبة، وبالتالي فالذهن الروحي مكسور ومهان، والأعضاء متمردة تستمرى، الإثم رغماً عن الإرادة الرافضة!! ولكن بولس الرسول اكتشف أيضاً في المسيح يسوع ناموساً ثالثا أعلى وأكثر قوة وسيطرة هو «ناموس روح الحياة»، أي قوة وفعل الروح القدس الموهوب للانسان مجاناً بالإيمان الذي يأخذه الإنسان حالما يؤمن بالمسيح ويصدق مواعيده، ويخضع لوصاياه، معترفاً بخطاياه واثقا من غفرانها المجاني بالدم بدون نقاش أو شرح أو تحفظ: «لأن ناموس روح الحياة في المسيح يسوع قد أعتقني من ناموس الخطية والموت». وفي الحال تيقن أن «لا شيء من الدينونة الآن على الذين هم في المسيح يسوع السالكين ليس حسب الجسد بل حسب الروح.» (راجع رو ٧ و٨)

ولكن الخطر الأكبر قائم بالنسبة للانسان الذي فقد «إرادة الخير والصلاح» فهو يفعل الخطية راضياً دون احتجاج من الضمير أو رفض من الإرادة، وبالتالي يكون الذهن الروحي قد انطمست فيه معالم ناموس الله من جهة الخير والشر، فلم يعد عقله منشغلاً بما يرضي الله أو بما يهينه.

هنا يأتي المعنى العميق وراء سؤال الرب لمريض الثماني والثلاثين سنة: «أتريد أن تبرأ»، بمعنى: هل لا زالت لك إرادة الشفاء والحياة الأفضل؟ لقد علم الرب أن هذه الفترة الزمنية الطويلة في ذلة المرض والكساح قد حطمت نفس هذا الإنسان، والخطورة هنا تكمن في فقدان الإرادة نحو استعادة الحياة، حتى وإن كان قد بذل جهداً جسدياً عنيفاً ومستمراً ربما كل يوم مرة أو مرتين للنزول في البركة، والتي باءت كلها بالفشل. والرب هنا لا يسأل عن إرادة الغريزة نحو صحة الحياة التي يستوي فيها الإنسان والحيوان حتى وإلى آخر لحظة من عمره، وإنما يسأل عن إرادة استعادة الحياة التي بلا خطية، لأن برء الجسد متوقف على البرء من الخطية. وهذا القصد الإلهي في كلام الرب واضح من انتهار الرب له لما لاقاه بعد ذلك: «ها أنت قد برئت فلا تخطىء أيضاً (أي ثانية) لئلا يكون لك أشر.» (يو٥: ١٤)

بهذا المعنى يكون الرب قد وضع النقاط على الحروف لتظهر كل قصة هذا الإنسان قبل مرضه وفي مرضه، حتى تبقى إلى الأبد عبرة لكل إنسان!... فقد عاش هذا الإنسان في اقتراف الخطية مما كان سبباً في ضياع صحته حتى آلت إلى ما آلت إليه من الضمور والشلل! لقد انصاع وراء شهوة الخطية فاستعبدته وحطمته. والرب لما راه تحنن عليه من تلقاء ذاته إذ لمح فيه بقايا إرادة، فبادره بسؤاله: «أتريد أن تبرأ؟» ليستنفر فيه الرجاء الذي استبدت به محاولات الثماني والثلاثين سنة البائسة، ولكي يستنهض فيه الإرادة نحو الحياة الأفضل. ويلاحظ القارىء أن الرب لم يسأله عن إيمانه، فالإيمان يُبحث عنه بعد أن نستوثق من وجود الارادة. لأن الإيمان فعل إرادة. فالرب يستنفر الإرادة في الإنسان، إرادة الإيمان بالحياة، ليرسي فوقها قوة الحياة الأفضل.

فانظر أيها القارىء كيف أن الرب لا ييأس من خلاص الخطاة، هو يطلبهم ويستنهض إرادتهم. فكيف ييأس الخاطىء من رحمة رب الحياة؟ والقديس يوحنا يقدم مريض الثماني والثلاثين سنة نموذجاً لإرادة الحياة بالنسبة لخاطىء لم تنطفىء منه جذوة الحياة. ويقدم المسيح في منظر من قيل عنه: «قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة مدخنة لا يطفىء.» (مت١٢: ٢٠)

هذا مما جعل الأباء القدامى وكثيراً من العلماء المحدثين يرون في قصة هذا المريض إشارة إلى شعب إسرائيل الذي أقام في التيه «ثماني وثلاثين سنة»، ثم عاش تحت «الخمسة» أسفار التي للتوراة يترجى حياة وشفاء، فلم يجد: «... الأن قوموا واعبروا وادي زارد، فعبرنا وادي زارد. والأيام التي سرنا فيها من قادش برنيع حتى عبرنا وادي زارد كانت ثماني وثلاثين سنة حتى فني كل الجيل... ويد الرب أيضاً كانت عليهم لإبادتهم من وسط المحلة حتى فنوا.»

(تث٢: ١٣-١٥)

ولكن ليعذرني القارىء إذا قلت إن هذا إسراف في التأويل يُخرج الرواية عن أصالتها التلقائية كما رواها القديس يوحنا ويُضعف من معناها الروحي.

٧- أَجَابَهُ الْمَرِيضُ: «يَا سَيِّدُ لَيْسَ لِي إِنْسَانٌ يُلْقِينِي فِي الْبِرْكَةِ مَتَى تَحَرَّكَ الْمَاءُ. بَلْ بَيْنَمَا أَنَا آتٍ يَنْزِلُ قُدَّامِي آخَرُ».

كان رداً من واقع الحال، وكأنى به يريد أن يقول: «أما الإرادة فهي حاضرة عندي يا سيد ولكن أن أجد قوة على التنفيذ فلست أجد!!» وهو رد صائب غاية الصواب استدرج حنان الرب، ولكن خيبة أمل المريض لم تكن في إرادته التي استخدمها مئات المرات، ولكن في بني الإنسان الذين لم يؤتوا الرحمة، فهلا ترحم أنت؟ «الأخ لن يفدي الإنسان فداء.» (مز٤٩: ٧)

ولكن بالرغم من صحة الرد وصحة التعليل، إلا أن القضية تحولت في نظر المقعد من قضية حياة في الخطيئة ضد نفسه والله، إلى خطأ الناس وخطية الآخرين. وهذه طبيعة الخطية تخفي نفسها عن مصدرها الحقيقي لتظهر وكأن صاحبها منها براء!! وهكذا تبلغ النفس البشرية تزييفها للحق، الأمر الذي يطوح بها بعيداً عن الله وعن رحمته.

لقد وقع «أيوب» البار في هذا التزييف لما أتته بلواه، فنسبها إلى الله، وأخذ يعاتبه «يُكثر جروحي بلا سبب» (أي٩: ١٧)!! و«كغافل من الرحمة» و«قد نسي حسنات أيوب الكثيرة في غابر الأزمان» (أي ٣١)! وماذا كان رد القدير، الذي عيناه تخترقان استار الظلام وأمس مكشوف أمامه كاليوم؛ قال له قولته المشهورة: «تستذنبني لكي تتبرر أنت؟» (أي٤٠: ٨). ولكن وبالنهاية قبل الرب ذنب أيوب على نفسه وبرره وأبرأه!! أليس هو الفادي الذي حمل عارنا؟ وهل تغير الرب أبداً؟

«يا سيد ليس لى إنسان يلقيني في البركة»: لقد استدر عطف السيد. أليس هو القائل على فم إشعياء النبي: «فرأى أنه ليس إنسان، وتحير من أنه ليس شفيع» (إش٥٩: ١٦)، فحنت أحشاؤه، «فخلصت ذراعه لنفسه، وبره هو عضده، فلبس البر كدرع وخوذة الخلاص على رأسه» (إش٥٩: ١٧). ونظر إلى المُقعد وكأنه ينظر إلى الشعب بأكمله أو الإنسان ككل!! وقال قولته وكأن ظهره مسنود على الصليب: «قم احمل سريرك وامشي».

٨- قَالَ لَهُ يَسُوعُ: «قُمِ. احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ».

٩- فَحَالاً بَرِئَ الإِنْسَانُ وَحَمَلَ سَرِيرَهُ وَمَشَى. وَكَانَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ سَبْتٌ.

ألم يقل القديس يوحنا في بدء روايته: «فصعد يسوع إلى أورشليم»؟ إذن، فقد أتى الفادي إلى صهيون. هكذا رآه إشعياء من وراء الدهور: «ويأتي الفادي إلى صهيون وإلى التائبين عن المعصية في يعقوب يقول الرب..، قومي أستنيري لأنه قد جاء نورك، ومجد الرب أشرق عليك» (إش ٥٩: ٢٠ و ٦٠: ١). فليست بركة بيت حسدا (بيت الرحمة) ذات الخمس أروقة لتترجى بعد، ولا المياه التي تحركها الملائكة، بل ينبوع الرحمة الدائمة والفائضة مجاناً بلا وسيط وبلا شروط! هي كلمة صدرت منه فأحيت العاجز، وشددت أوصال جسده المنحل، وحركت عضلاته الضامرة، دبت فيها قوة الله فأحيتها بأقوى مما كانت. وظهره الذي انحنى تحت عبء السنين الطوال قام واستقام، وحمل ثقل سريره كظهر شاب يستعرض قواه! لقد صار ماضيه الحزين كقصة وشهادة. وهذا حال كل من صدق وآمن بكلمة المسيح. لم يقل القديس يوحنا أن المُقعد آمن بالكلمة، ولا حتى عرف من هو الذي يكلمه!! لكنها

«الكلمة» التي خرجت من فم المسيح «الكلمة».

فلينتبه القارىء إلى قوة «الكلمة» في حد ذاتها، إنها تنتهر الخطية فتلاشيها، وتنتهر المرض فتلغي سطوته. لقد قال المسيح: إن «الكلام الذي اكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦:٦٣). فإن كانت كلمة المسيح هكذا بهذه القوة فكيف لا نُسكنها قلوبنا؟ وما الذي يقف دون أن تعمل عملها فينا؟ لقد أصابت المُقعد وهو منطرح على سريره، فلماذا لا تصيبنا ونحن منطرحون تحت صليبه؟ و«كلمة» المسيح تعمل عملها ولا تحتاج إلا لمن «يسمعها» ويكون محتاجاً إليها.

لقد استخدم المسيح هذا الإجراء الفريد من نوعه في شفاء المُقعد، الذي لم يكن يعي من هو الذي يكلمه، في إثبات صحة وصدق استعلانه لنفسه: «تأتي ساعة وهي الأن حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يو ٥:٢٥). فالمُقعد نموذج «لموتى الخطية» الذين يعيشون موتهم وهم يريدون الحياة، الذي حالما سمع صوت المسيح قام وحمل سريره ومشى.

فانظر أيها القارىء كيف يقدم القديس يوحنا عناصر قصة شفاء المُقعد بكل دقة وترتيب وحكمة مذهلة لتكون هي نفسها عناصر الحوار اللاهوتي العميق الذي أجراه المسيح مع اليهود بعد ذلك كونه «يعطي الحياة لمن يشاء» (قارن يو٥:٢١)، وأن كل من يسمع مجرد صوته يحيا ولو كان من سكان القبور(قارن يو٥:٢٨).

وبالنهاية هي ليست مجرد قصة شفاء أو معجزة باهرة من معجزات المسيح، بل هي قصة عمل الفداء مصورة بعمقها.

ولو يلاحظ القارىء، يجد أن القديس يوحنا على غير العادة لا يذكر أنها آية، كذلك نجد الرب فى هذه القصة صاحب مبادرة إذ أعطى الشفاء كأمر: «قم»، «احمل»، «امشي». فخضع له المريض كمن يخضع لفعل دخل كيانه وجدد حاله دون أن يكون له أية استجابة واعية مُسبقة، وأنه شفي في الحال دون إجراءات ثانوية كالغسل في البركة أو خلافه. كذلك فلم يشترط عليه الرب أي شرط، وهذه هي طبيعة الفداء بكل جلاء، مجانية مطلقة، من طرف واحد وهو الله في شخص يسوع المسيح.

نحن كلنا هذا المُقعد، إذا أردنا أن نفهم الفداء ونعيه، وإذا تكرمنا أن نقبله طواعية! فنحن تقبلنا هذا الفداء ونحن بعد خطاة مطروحي الجسد تحت ذُلة جبروت الخطية ولا حراك لنا؛ وفعل الفداء سرى فينا ولم يعد لنا، إن كنا نفهم، إلا أن نحمل سريرنا ونذهب نبشر بالذي صنع معنا هذا الفضل الفائق. ولا نعود نخطى، بل نحدث بفضل الذي دعانا إلى الحياة في نوره العجيب.

١٠ – فَقَالَ الْيَهُودُ لِلَّذِي شُفِيَ: «إِنَّهُ سَبْتٌ! لاَ يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَحْمِلَ سَرِيرَكَ».

١١ – أَجَابَهُمْ: «إِنَّ الَّذِي أَبْرَأَنِي هُوَ قَالَ لِي احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ».

وفي الحقيقة إن المسيح لم يصنع هذه الآية بالرغم من أنه «سبت»، بل لأنه «سبت». لأن هذا الا ختيار هو جزء من استعلان المسيح لنفسه باعتباره «رب السبت»، حسبما قال مرة (مر ٢:٢٨، لو٦:٥)؛ ولكونه جاء ليعطى «سبتاً» جديداً، أي راحة «جديدة» عوض الراحة الجسدية القديمة (عب٤:١٠).

أما إجابة المقعد فتنم عن تقدير لمن قال له قم ... واحمل ... وامشى، أكثر من تقديره لموضوع السبت، لقد ذُهل المُقعد؛ أبعد أن أفنى عمره في الكساح الذي هو فيه وجاء من شفاه يُطالب بذنب شفائه وحمل سريره وسيره على رجليه صحيحة؛ إن هذه المغالطة المناقضة للواقع ظهرت في قلب ذلك المريض صارخة مستغيثة! لمن أسمع، ولمن

أطيع؟ للناموس الذي عجز عن أن يشفي عجزي؟ أو لذلك الإنسان الذي شفاني وقواني ودعاني للسير على قدماي؟ لقد قصد المسيح ذلك قصداً، أن يضع هذه الموازنة بصورتها العملية ليس في نظر المُقعد وحده، وهو صاحب الحق الآول في المقارنة والموازنة بين الناموس وذلك الإنسان، بل وفي نظر البشرية كلها!!

ولينتبه القارىء، فإن المسيح هنا لا يقدم ناموساً يُحفظ، ولا قانوناً يُحكم بمقتضاه، ولا نظاماً يُدرّس؛ بل قدم نفسه للمُقعد في «كلمة» قالها فكانت له الشفاء والحياة.

١٢- فَسَأَلُوهُ: «مَنْ هُوَ الإِنْسَانُ الَّذِي قَالَ لَكَ احْمِلْ سَرِيرَكَ وَامْشِ؟».

لاحظ هنا أنهم لا يستفسرون عن الذي شفاه لأنهم يعرفونه تمام المعرفة؛ ولكنهم يسخرون من قول الرجل إذ يضعون «هذا الإنسان» في مقابل سبت «الله وناموسه».

ثم انظر كيفر يتجاهل هؤلاء الفريسيون عمل الآية المذهلة، التي لو كانت قد حدثت في أيامنا هذه لرجت العالم كله، ولا يرون في كل ما صار للمقعد إلا كونه يحمل سريره في يوم الراحة، وينظرون إلى ذلك بمنظار مرعب، إذ يرون في ذلك استحقاقه للموت!! رجماً!!

[إذا حدث أن حمل أي إنسان أي شيء من مكان عام إل بيته الخاص في السبت ويكون ذلك عمدا فإنه يكون مستحقاً للموت رجماً]

إنهم يبثحون عن الموت في كل ما هو حياة، وصح فيهم قول المسيح أنهم: «يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل.» (مت ٢٣:٢٤)

١٣- أَمَّا الَّذِي شُفِيَ فَلَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَنْ هُوَ لأَنَّ يَسُوعَ اعْتَزَلَ إِذْ كَانَ فِي الْمَوْضِعِ جَمْعٌ.

لم يكن من طبيعة المسيح أن يلفت أنظار الناس إليه، فهو ينتخب الذين يتكلم معهم، وينتخب الوقت المناسب، والمكان اللائق، والظرف الذي ينطق منه تعليمه.

١٤- بَعْدَ ذَلِكَ وَجَدَهُ يَسُوعُ فِي الْهَيْكَلِ وَقَالَ لَهُ:
«هَا أَنْتَ قَدْ بَرِئْتَ فلاَ تُخْطِئْ أَيْضاً لِئَلاَّ يَكُونَ لَكَ أَشَرُّ».

ليعلم القارىء أن قدرة المسيح على الشفاء وإعطاء صحة الحياة قائمة أصلاً ومتأسسة على سر الفداء وقدرته على مغفرة الخطية، الذي دفع ثمنه بسفك دمه على الصليب. والمسيح كان يعمل ويتكلم على أساس أنه مصلوب، لأن الصلب أمر قد تقرر ومنذ الأزل، فلم يعد المسيح خاضعاً لتصريف الفعل «يصلب» كماض وحاضر ومستقبل. فالمسيح مصلوب في الفكر التوراتي أو الطقس الموسوي منذ أن ذُبح خروف الفصح الآول: «وتكون جثتاها على شارع المدينة العظيمة التي تدعى روحياً سدوم ومصر حيث صُلب ربنا أيضاً.» (رؤ ١١:٨)

ويحسب فكر بولس الرسول، فالصليب هو قصد الله الذي قصده في المسيح منذ الدهور: «لي أنا أصغر جميع القديسين أُعطيت هذه النعمة، أن أبشر بين الأمم بغنى المسيح الذي لا يُستقصى، وأنير الجميع في ما هو شركة السر المكتوم منذ الدهور، في الله خالق الجميع بيسوع المسيح؛ لكي يُعرف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة، حسب قصد الدهور الذي صنعه في المسيح يسوع ربنا» (أف٣:٨-١١)

وعند بطرس الرسول، هو معروف قبل تأسيس العالم: «بل بدم كريم كما من حمل بلا عيب ولا دنس، دم المسيح،

معروفاً سابقاً قبل تأسيس العالم، ولكن قد أُظهر في الآزمنة الأخيرة من أجلكم.»(١بط١:١٩-٢٠)
فقدرة المسيح على الشفاء والإقامة من الموت نابعة من قوة ذبيحة نفسه القائمة والدائمة فيه، والتي قدمها على الصليب، في الوقت المعين، عن كل خطاة الأرض، من أول الزمان وإلى آخر كل زمان.
بهذه القوة والقدرة الذبائحية والفدائية التي فيه، أعطي مُقعد بيت حسدا الشفاء والحياة الجديدة، على أساس أن كل خطاياه وعاره السابق حمله المسيح عنه في جسده بانتظار يوم الصليب. لذلك لا نسمع أن المسيح قد دان هذا المقعد، ولكن فقط، ولكي يضمن له هذه الحياة التي أعطاها له كي تبقى له بلا دينونة، أمره بل آزره بنصيحة تكاد تكون دعاء: أن لا يخطىء أيضاً أي ثانية، وذلك حينما وجده في الهيكل، لئلا يسقط عنه العفو الذي أعطاه لخلاصه المجاني. كما أن المسيح لم يشأ أن يظل هذا المريض الذي نال نعمة الشفاء جاهلاً بمن شفاه، فأعلن نفسه له ليعطيه فرصة الإيمان بالمسيح وقتما اكتمل انتباه وعيه المسيحي.
ثم قول المسيح: «لا تخطىء أيضاً» فيه إيماءة إلى أن علة مرضه الذي طال واستطال هي الخطية، فالخطية هي علة الإنسان الاولى التي أوجبت عليه الموت. والمرض مهما كان، فهو جزء من الموت الذي ورثه الإنسان من رأس جنسنا آدم الأول، ولكن يقابله الآن الحياة التي ورثناها من المسيح الذي ولدنا ثانية بالروح لله، والذي صار رأس الجسد أي الكنيسة، والذي حول الموت إلى حياة بالإيمان به، وحول المرض من تأديب وعقاب إلى علة لتمجيد الله!!: «يا معلم من أخطأ، هذا (الأعمى) أم أبواه حتى وُلد أعمى؟ أجاب يسوع: لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن لتظهر أعمال الله فيه» (يو٩:٢-٣)؛ «فلما سمع يسوع قال: هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله، ليتمجد ابن الله به.» (يو١١:٤)
وهكذا كل مرض مهما كان ومهما أصاب، فهو لمجد الله، إذا حولناه إلى شكر حقيقي واحتملناه بصبر، فيتمجد الله فينا بسبب هذا المرض عينه!! لذلك لم تفت على القديس يوحنا أن يُكمل قائلاً:
«بعد ذلك وجده يسوع في الهيكل»: واضح أن المُقعد اتجه مباشرة إلى الهيكل، ربما حاملاً سريره، وهذا هو الذي أثار حوله العاصفة، ولكن القصد واضح أنه أراد أن يقدم الشكر لله مما يلفت نظرنا أنه كان على شيء من التقوى، فالفتيلة المدخنة ما فتئت تدخن حتى اشتعلت!

١٥- فَمَضَى الإِنْسَانُ وَأَخْبَرَ الْيَهُودَ أَنَّ يَسُوعَ هُوَ الَّذِي أَبْرَأَهُ.

واضح أن المُقعد وجد في المسيح من يستطيع أن يتحمل عنه تهمة حمل السرير، فأسرع في تبرئة نفسه، لا خيانة لمن شفاه، بل اعترافاً من واقع الحال. ثم أن المسيح لم يوصيه أن لا يقول لأحد، حتى يُحسب أنه أخل بالوصية، بل ذهب لُيري نفسه للكاهن اعترافاً بفضل الله ومن شفاه.
المصادمة الأولى مع اليهود: المسيح يعلن عن لاهوته وشخصيته الماسيانية في أعمق ما بلغه إنجيل القديس يوحنا، بطرحه أعظم قضية لاهوتية لتحتل الصدارة في الإيمان المسيحي، وذلك في خطوات متلاحقة وبتنظيم متدرج منسجم من الاستعلانات التي تكشف عن طبيعة الآب والابن والوحدة الفعلية القائمة بينهما.
والموقف الذي يقفه المسيح هنا أمام اليهود يتسم بالشجاعة البالغة القوة والاتزان، وهو يكشف عن إلوهيته أمام أعدائه المتربصين به، دون حذر، وهوي علم تمام العلم أنه بذلك يخطب الموت ويستدعيه، ولكنه فى آن واحد يرمي أساس الايمان المسيحي برمته! أما سامعوه فكانوا، ويتحتم أن يكونوا، إما واحد يصدق القول تصديق الإيمان فيقبل المسيح رباً وإلهاً، وإما واحد يصر بأسنانه إذ يراه مجدفاً ويستحق الموت بلا رحمة. ولم يقف المسيح من قبل مثل

هذا الموقف الحرج الذي فيه يتقاسم سامعوه الحب الطاغي والكراهية المرة بلا توسط! وبالفعل كان هذا الدفاع اللاهوتي المنقطع النظير هو هو بعينه أدلة الاتهام التي قدمته إلى الصليب! كما صار هو بعينه دستور الحب والايمان عند ملايين الملايين من بني الإنسان!

خطوات الإستعلان:

١- «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل.» (يو ٥: ١٧)

٢- «كماأن الآب يقيم الأموات ويُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي من يشاء.» (يو٥: ٢١)

٣- «الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن.» (يو ٥: ٢٢)

٤- «لكي يكرم الجميع الابن، كما يكرمون الآب.» (يو ٥: ٢٣)

٥- «من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو٥: ٢٤)

٦- تأتي ساعة، وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون.» (يو٥: ٢٥)

٧- «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته.» (يو٥: ٢٦)

٨- «وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً، لأنه ابن الإنسان.» (يو٥: ٢٧)

٩- «تأتي ساعة فيها يسمح جميع الذين في القبور صوته، فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة، والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة.» (يو ٥: ٢٨-٢٩)

ويلاحظ أن هذه الحقائق الأساسية في لاهوت المسيح، المقدمة هنا كدستور عمل، هي التي انبثقت منها كل تعاليمه التي قدمها قبل أو بعد ذلك، سواء كونه خبز الحياة، أو الماء الحي، أو نور الحياة، أو الراعى الصالح، أو الكرمة الحقيقية، أو القيامة والحياة.

١٦- وَلِهذَا كَانَ الْيَهُودُ يَطْرُدُونَ يَسُوعَ وَيَطْلُبُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ لأَنَّهُ عَمِلَ هَذَا فِي سَبْتٍ.

«الشرير يراقب الصديق محاولاً أن يميته». (مز٣٧: ٣٢)

«ولهذا»: أي «بسبب ما عمله يسوع في السبت»، ولكن تأتي كلمة «عمل» في اليونانية بمعنى «بسبب ما تعود أن يعمله»، بصيغة التكرار والدوام من جهة كسر الناموس علناً وبإصرار وباستمرار، إذ كان يكاد لا يعمل آياته إلا في السبت.

وهذه في الحقيقة أول مرة يعلن فيها اليهود عن عداوتهم بالفعل، بنية القتل. وهذا يعود إلى المغالاة التي فاقت كل الحدود في حفظ السبت، حتى بلغت إلى الحد الذي تساءل فيه كبار الربيين عن مدى خضوع الله نفسه لهذه الوصية! ويخبرنا العالم دودد في شرحه لإنجيل يوحنا أنه قد جرى بالفعل حوار بين أشهر أربعة ربيين يهود وهم غمالائيل الثاني ويشوع بن حنانيا والعازر ابن عزاريا ورابي عقيبا، أثناء وجودهم معاً في روما سنة ٩٥م، أي في زمن كتابة إنجيل يوحنا، وقد انتهى بهم الحوار إلى تقرير ان [الله يحفظ الوصية لأنه لا يعمل خارج حدود مسكنه أي السماء والأرض، ولا يسير مسافة أطول من قامته، لذلك فعمل الله هو في الحدود المسموحة!] أنظر وتعجب!!

من هنا كان رد المسيح عليهم، لأنه إذ كان يعلم مدى جنونهم في إخضاع الله للوصية قال لهم: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل»، فالله ليس تحت حكم الزمان والمكان والحركة فهذه كلها نواميس زائلة.

١٧- فَأَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَبِي يَعْمَلُ حَتَّى الآنَ وَأَنَا أَعْمَلُ».

بمعنى أن انه لم يتوقف عن عمله قط، فهو لا يزال يعمل وإلا تتوقف الحياة. فالله لم يخلق الخليقة بواسطة اللوغس الابن ثم تركها تعمل من تلقاء ذاتها كما يقول الذين لا يؤمنون بالله والخلق! وإلا تختل موازين الانضباط والتناسق والاستمرارية، فالله يحكم ويدين الخليقة بقوانين دائمة لا تخضع لفكر الانسان.

والمسيح يضع نفسه مع الله الآب كمسئول عن الخليقة، وخاصة فيما يخصه من جهة قيامها ودوامها، وبالأكثر من جهة فدائها وخلاصها وتجديدها وتكميلها: «الله... كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثاً لكل شيء الذي به أيضاً عمل العالمين. الذى، وهو بهاء مجده ورسم جوهره، وحامل كل الأشياء بكلمة قدرته، بعدما صنع بنفسه تطهيرا لخطايانا جلس في يمين العظمة في الأعالي.» (عب١:١-٣)

كذلك يقول بولس الرسول في سفر العبرانيين صراحة كيف أسس الابن الأرض والسموات، وكيف أنها تتغير وفي النهاية يتلاشى شكلها المادي المنظور، أما المسيح الابن فلن يتغير ولا يتبدل: «وأما عن الابن (فيقول:) كرسيك يا الله (الابن) إلى دهر الدهور قضيب الاستقاهة هو قضيب ملكك، أحببت البر وأبغضت الإثم، من أجل ذلك مسحك الله إلهك بزيت الآبتهاج أكثر من شركائك. وأنت يا رب في البدء أسست الأرض، والسموات هي عمل يديك، هي تبيد ولكن أنت تبقى، وكلها كثوب تبلى وكرداء تطويها فتتغير، ولكن أنت أنت وسنوك لن تفنى» (عب١:٨-١٢)

ثم يعود القديس بولس في رسالة أفسس ليوضح مركز المسيح من جهة الخليقة كلها في السماء وعلى الأرض، كيف أن تدبير الله منذ الأزل جعلها تتمحور في المسيح، وتنجمع، وتتحد بواسطته في انسجام يفوق تصور الانسان: «إذ عرفنا بسر مشيئته، حسب مسرته التي قصدها في نفسه، لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح ما في السموات وما على الأرض في ذاك (المسيح).» (أف١:٩-١٠)

بهذا يتضح لنا قول المسيح: «أبى يعمل حتى الأن وأنا أعمل». فالخليقة كلها في السماء والأرض لا تزال فى دور الخلق والتجديد والترقي، وفق مشيئة الله وتدبيره مع المسيح الابن، لغاية ستظهر في النهاية حينما يُخضع الله كل شيء لسلطان المسيح الابن: «لأنه يجب أن يملك، حتى يضع جميع الأعداء تحت قدميه. آخر عدو يبطل هو الموت.» (١كو١٥:٢٥-٢٦)

وربوبية المسيح فوق الخليقة وكل نواميسها واضحة من قول المسيح: «ثم قال لهم: السبت إنما جُعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت، إذا ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً.» (مر٢:٢٧-٢٨)

فالمسيح، بعمله الأشفية وصنع الرحمة في يوم السبت، كان يقوم في الحقيقة بعملية تكميلية للخلق مساوية في مضمونها الإلهي للخلق ذاته. فالذي يجعل الأعمى المولود هكذا يصبح له عينان والميت المدفون وله أربعة أيام يقوم، إنما يعمل عملاً من صميم جوهر الخلق والخالق، مما يثبت أن أعمال الخلق لم تنته في نظر الله في اليوم السابع!

أما سبت المسيح الحقيقي فكان بعد أن أكمل أعمال الفداء وخلاص الإنسان على الصليب «قد أُكمل» (يو١٩:٣٠)؛ أما بحسب الجسد فقد استراح في القبر: «لأن يوم ذلك السبت كان عظيماً» (يو١٩:٣١)، وأما بحسب الروح فبعد أن أكمل المسيح آلامه دخل إلى راحته العليا أي مجده: «أما كان ينبغي أن المسيح يتألم بهذا ويدخل إلى مجده؟» (لو٢٤:٢٦)

ودخول المسيح إلى مجده هو بحد ذاته الراحة العظمى التي يحكي عنها سفر العبرانيين هكذا: «لأن الذي دخل راحته استراح هو أيضاً من أعماله، كما الله، من أعماله، فلنجتهد أن ندخل تلك الراحة.» (عب٤:١٠-١١)

وهنا يُلاحظ التوازي بين قول المسيح «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» و بين «استراح هو أيضاً من أعماله كما الله من أعماله». فالعمل على التوازي، والراحة على التوازي بين الآب والابن كل في مجاله، ومجال الاثنين هو تكميل مجال واحد!. لذلك يستطرد سفر العبرانيين ويقول إن راحتنا، أى سبتنا، هو «راحة» المسيح وسبته وقد أكملت مرة واحدة وإلى الايد، «إذاً بقيت راحة لشعب الله» (عب٤:٩)، ويقصد هنا راحة جديدة غير راحة السبت، وهي الشركة في سبت المسيح أي موته لبلوغ القيامة التي هي غاية ونهاية كل الأعمال؛ والراحة التي تمت فيها ذبيحة المسيح وقبولها لدى الآب فتمت المصالحة بين الإنسان والله.

من هذا نفهم الآن لماذا كانت وصية السبت هامة وصارمة وخطيرة بهذا المقدار في الناموس القديم وكان ثمن التعدي هو الموت حتماً!! ليس لأنها كانت ذات مدلول أو نفع خلاصى بأي وجه من الوجوه، بل لأنها كانت تثير بالرمز إلى سبت العهد الجديد، سبت الله الآبدي، الذي كان ثمنه موت ابن الله أيضاً في القبر كنهاية لكل أعمال الناموس، الذي أُبطل بموت المسيح الفدائي. اسمع ما يقوله سفر العبرانيين كيف انتهى هذا الناموس بكل وصاياه من سبت وخلافه: «فلو كان بالكهنوت اللاوي كمال، إذ الشعب أخذ الناموس عليه (على أساس الكهنوت اللاوي)، ماذا كانت الحاجة بعد إلى أن يقوم كاهن أخر(الرب يسوع) على رتبة ملكي صادق ولا يقال على رتبة هارون؟ لأنه إن تغير الكهنوت، فبالضرورة يصير تغيير للناموس أيضاً» (عب٧:١١-١٢)، «فإنه يصير إبطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها، إذ الناموس لم يكمل شيئاً.» (عب٧:١٨-١٩)

ثم يعود سفر العبرانيين ويتكلم بعد ذلك عن راحة الله في سبت الله الآبدي الذى أكمله المسيح بموته. والذى به فتح الباب لدخول الإنسان في هذه الراحة عينها أي الحياة الآبدية.

يبدأ بولس الرسول الحوار في رسالته للعبرانيين بوصف بني إسرائيل وهم في التيه وقد أغضبوا الله بقلة إيمانهم بقوله هكذا: «... حتى أقسمت في غضبي لن يدخلوا راحتي، انظروا أيها الإخوة أن لا يكون في أحدكم قلب شرير بعدم إيمان في الارتداد عن الله الحي... ولمن أقسم لن يدخلوا راحته إلا للذين لم يطيعوا؟ فنرى أنهم لم يقدروا أن يدخلوا لعدم الايمان. فلنخف أنه مع بقاء وعد بالدخول إلى راحته يرى أحد منكم أنه قد خاب منه... لأننا نحن المؤمنين ندخل الراحة... مع كون الأعمال قد أُكملت منذ تأسيس العالم. لأنه قال في موضع عن السابع هكذا: واستراح الله في اليوم السابع من جميع أعماله. وفي هذا (هنا) أيضاً (يقول) لن يدخلوا راحتي؟... إذاً بقيت راحة لشعب الله! لأن الذي (المسيح) دخل راحته (السبت الآبدي) استراح هو أيضاً من أعماله كما الله من أعماله. فلنجتهد أن ندخل تلك الراحة لئلا يسقط أحد في عبرة العصيان هذه عينها.» (عب٣:١١-١٩) ، (٤:١-١١).

واضح إذاً أن سبتنا الآبدي الدي يقوم على إيماننا بالمسيح بموته وقيامته، قد أُلغى وإلى الآبد سبت الناموس الرمزى الذى كان شبهاً للسماويات وظلها.

ولكن يلاحظ أن المسيح في قوله: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل»، لا يجعل عمله منفصلاً عن عمل الله بل متآزراً معه، كما يُفهم تماماً أن المسيح ينفي نفياً باتاً أن يكون خاضعاً تحت «أعمال الله» وبالتال تحت فكرة استراحة الله، بل أعلى منها وقواماً عليها، وهذا هو الذي أثار حفيظة اليهود أيما إثارة.

١٨- فَمِنْ أَجْلِ هَذَا كَانَ الْيَهُودُ يَطْلُبُونَ أَكْثَرَ أَنْ يَقْتُلُوهُ لأَنَّهُ لَمْ يَنْقُضِ السَّبْتَ فَقَطْ بَلْ قَالَ أَيْضاً إِنَّ اللَّهَ أَبُوهُ مُعَادِلاً نَفْسَهُ بِاللَّهِ.

لقد فهم اليهود كل ما ضمنه المسيح في قوله المختصر جداً: «أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل» . فهو أولاً وقبل كل

شيء قد ألغى سلطة الناموس وأبطل الاعتراف بوصية السبت علنا وبإصرار! معتمداً على ادعائه بالصلة المطلقة بالله!

«أن الله أبوه»: الكلمة الخطيرة في هذه الآية هي (   )، التي تفيد الملكية الشخصية أي أن الله أبوه الشخصي الذاتي وهنا يصبح المسيح ابن الله ومعادلاً له، ولقد وقعت على أسماع اليهود كالصاعقة، فهذا عين التجديف إن نظروه كإنسان. وهنا تكون مصيبتهم هم وتجديفهم هم وليس المسيح. وبالتالي اعتبروا أنه يدعي أن عمله (وهو إنسان) يساوي عمل الله، وبذلك يكون قد كسر وصية السبت بمعنى أنه حلها أي فك رباطها وناموسها، وبالتالي أبطل الخضوع لناموسها.

وفي الحقيقة هذه كانت بالفعل نظرة المسيح، ونحن لا ننسى قوله: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه» (يو٢:١٩)، «أما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يو٢١-٢). أي أنه ليس السبت فقط بل والعبادة الهيكلية بكل مشتملاتها وطقوسها وناموسها وكهنوتها وأعيادها وسبوتها بالتالي، وقد جعل «هيكل جسده» بمفهوم ذبيحته أي موته وقيامته، بكل أعضائه الجدد أي الكنيسة، هي الهيكل الجديد.

ولو أحسنا الرؤية من جهة سر العداوة المرة التي تراكمت في قلوب هؤلاء اليهود غير المؤمنين به والمعاندين له نجدها في عدم فهمهم وعدم قبولهم من قريب أو بعيد كونه يقول عن نفسه إنه ابن الله الذاتي، ولقد ضجوا من هذا التعبير، وأخيراً صارحوه عن سبب محاولتهم قتله قائلين: «وأنت إنسان، تجعل نفسك إلهاً» (يو١٠:٣٣). ولكن لو أحسنوا الرؤية لرأوه العكس: «وهو إله، جعل نفسه إنساناً»!!

ولقد صر هؤلاء اليهود عداوتهم في قلوبهم من نحو قوله أنه «ابن الله»، حتى أفصحوا عنها بمرارة كعلة طلبهم لصلبه أمام بيلاطس: «فلما رآه رؤساء الكهنة والخدام صرخوا قائلين اصلبه اصلبه. قال لهم بيلاطس خذوه أنتم واصلبوه لأني لست أجد فيه علة. أجابه اليهود: لنا ناموس، وحسب ناموسنا يجب أن يموت، لأنه جعل نفسه ابن الله.» (يو١٩:٦-٧)

ثم يا لحذق هذا القديس يوحنا الرسول كيف يصور لنا عثرة اليهود بقوة وعنف وجلاء لتكون لنا هي نفسها أساسا للايمان الواثق الوثيق!! «الذي يؤمن به لا يدان والذي لا يؤمن قد دين، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد.» (يو٣:١٨)

والذي دخل في روع اليهود وطمس معالم رؤية الحق وسماعه، تصورهم أن المسيح وهو إنسان يجعل نفسه إلهاً، ثم بادعائه أن الله أبوه يجعل نفسه «إلهاً مقابل إله» وهو الله، وبذلك يكون في نظرهم إلهاً ثانياً. ومن هذه النقطة بالذات بدأ المسيح شرحه وتوضيحه لمعنى الابن بالنسبة للآب في الله الواحد!. وذلك في كل الحوار القادم (من آية ١٩ إلى ٢٣).

القسم الثانى من الأصحاح الخامس

شرح تفصيلى لمركز الابن من الله الآب

(٥:١٩-٣٠)

يتميز الجزء الأول من الإجابة الشاملة التي أجاب بها الرب على اعتراضات اليهود أنها تتخصص في توضيح طبيعة الابن وامتيازته وتنقسم إل قسمين:

قسم يختص بالعلاقات مع الآب ويستمر من الآية ١٩ إلى الآية ٢٣.

والقسم الآخر يختص بالعلاقات مع الناس من الآية ٢٤ إلى الآية ٢٩.

أما في العلاقات مع الآب، فيوضح أنه سواء كان في العمل أو في الكرامة، فالابن مطابق للآب تماماً، وذلك لكي ينظر الناس في عمل الابن عمل الآب، فأعمال الابن تستعلن عمل الآب غير المنظور عن قرب ورؤية[1]. وحتى يكون بتكريمهم الابن المنظور لهم يكرمون الآب غير المنظور. ويوضح المسيح ذلك بأربعة أدلة على أساس أنه يستحيل على الابن أن يعمل من ذاته شيئاً بدون الآب، وكل دليل يقدمه يبدأ بحرف «لأن».

(أ) «لأن» مهما عمل ذاك (الآب) فهذا يعمله الابن كذلك(١٩).

(ب) «لأن» الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعمله وسيريه أعمالاً أعظم من هذه (إقامة المقعد) لتتعجبوا أنتم (٢٠).

(ج) «لأنه» كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي من يشاء (٢١)

(د) «لأن» الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن

وبناء على ذلك:«لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله» (٢٢ و٢٣)

١٩- فَقَالَ يَسُوعُ لَهُمُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لاَ يَقْدِرُ الابن أَنْ يَعْمَلَ مِنْ نَفْسِهِ شَيْئاً إِلاَّ مَا يَنْظُرُ الآب يَعْمَلُ. لأَنْ مَهْمَا عَمِلَ ذَاكَ فَهَذَا يَعْمَلُهُ الابن كَذَلِكَ

يلاحظ هنا أن كلمة «الابن» تأتي بمفردها، وقد وردت ها في الآيات من ١٩-٢٦ ثماني مرات، في حين أنها أتت في كل الإنجيل قبل ذلك وبعد ذلك عشر مرات فقط، هذا يجعلنا نفهم أن الإنجيل يركز جداً في هذه الآيات على القاعدة الإيمانية التي سيسهب بعد ذلك في شرحها.

وفي البداية ينبغي أن نلاحظ أن هذا الحوار جرى مع أشخاص قلائل مدربين في المعرفة، فريسيين محنكين. وهذا يظهر من الإختصار الذي نهجه المسيح في تقريره للحقائق وارتفاعه إلى مستواها المطلق، الأمر الذي يحتاج إلى فهم وعمق.

ثم نلاحظ ثانياً أن المسيح تحاشى أن يتكلم بضمير المتكلم «أنا»، كما لم يذكر الصفات التي اعتاد أن يلقب بها نفسه «كابن الإنسان»، أو حتى «ابن الله». ولكه يقتصر هنا على التوصيف المطلق «للابن» بالنسبة إلى «الآب» على مستوى المفهوم البشري للآب والابن، وذلك لكي لا يصدم تفكيرهم في البداية، بل يأخذهم أولاً على المستوى المطلق للأمور ثم يتدرج بهم للتطبيق، فيُظير شخصه بوضوح في الآية ٢٤: «الذي يسمع كلامي» ثم في الآية ٣٠ «أنا». فابتدأ هكذا: «الابن لا يقدر أن يعمل من نفسه شيئاً»! وهذه حقيقة مسلم بها؛ ثم الابن ينظر إلى ما يعمله الآب ويعمل مثله تماماً إذا كان الابن مطيعاً ومخلصاً ومحباً للآب! هذه حقيقة أيضاً مسلم بها تماماً. إذن فالمسيح يتكلم عن «ابوة» صادقة عاملة «وبنوة» صادقة عاملة. وهذا يتضمن بالضرورة أن إرادة الابن تكون مبثقة من إرادة الآب طالما أن العمل متطابق. ويقول ذهبي الفم أن [«لا يعمل من نفسه شيئاً»، ليس قول من يلغي سلطانه بل إعلاناً عن التساوي المطلق غير المتغير عن الآب في القوة والمشيئة.]

---

[1] وسوف نرى هذا التطابق في الرؤيا: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤:٩). وفي السمع أيضاً؛ فالذي يسمع الابن يسمع الآب (يو١٢:٤٩ و١٤:١٠).

«ما ينظر الآب يعمل»: يلاحظ أن المسيح يستخدم هنا في هذه الآية فعل «ينظر» في صيغة المضارع وهو باليونانية (   ) وهذا يفيد صلة الآب بالابن حال تجسده. كما سيجيء الفعل أيضاً في المضارع في الأية ٣٠ أنه يُدين «كما أسمع أدين». أما حينما يستخدم المسيح الفعل الماضي فهو يشير إلى ما رآه وسمعه عند الآب قبل تجسده كقوله: «أنا أتكلم بما رأيت عند أبي» (يو٨:٣٨)، وكذلك: «وأنا ما سمعته منه فهذا أقوله للعالم» (يو٨:٢٦). وهذا تأكيد ضمني لإثبات سبق وجود المسيح قبل تجسده.

كذلك قول المسيح: «الأعمال التي أعطاني الآب لأكملها ... الآب قد أرسلني» (يو٥:٣٦)، ففعل «أعطاني» وفعل «أرسلني» تفيد وجوده السابق على تجسده. كذلك أيضاً قوله: «لأني خرجت من قبل الله وأتيت. لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني.» (يو٨:٤٢)

والملاحظ أن فعل «أرسلني» الذي يفيد ما قبل التجسد يأتي معه فعل «ما سمعت»، أو «ما رأيت»، أو «ما أتكلم»، كما في الآيات يو٣:١١-١٣، ٣:٣١-٣٢، ٨:٢٦و٣٨، ١٢:٤٩، ١٥:١٥، ٥:٣٦، ٧:١٦، ١٤:٢٤.

ولكن من كل الإفادات التي أفاد بها المسيح من سبق وجوده مع الآب أو «عند الله» لم يستخدمها المسيح ليستعلن شخصه، أو يزيد من هيبته، ولكن استخدمها ليفيد صدق كلامه وصدق رؤيتة واهمية إرساليته للعالم. وهذا يتضح جداً في قوله: «الحق الحق أقول لك: إننا إنما نتكلم بما نعلم؛ ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا. إن كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون فكيف تؤمنون إن قلت لكم السمويات. وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو٣:١١-١٣)

فكلمة المسيح هي من واقع رؤيا وسماع الآب، هي شهادة مهداة للانسان للتصديق الفوري والايمان بلا فحص، هي الآب منظوراً ومُتكلماً ومُشاهداً في روح الابن. الذي يصدق كلمة المسيح تدخله الكلمة كروح للحياة، وهو يدخل الكلمة كمن يدخل الملكوت أو الحياة الآبدية. الذي يسمع صوت المسيح ويستودعه أمانة قلبه ويحيطه بالتجلة والكرامة والمجد يسمع صوت الآب، بل يقبل الآب، كابن عثر على أبيه. كلمة المسيح لا تحتاج إلى شرح ولكن تحتاج إلى إيمان فهي تشرح نفسها لمن تدخل قلبه، يكفي أن يقول عنها المسيح إنها «روح وحياة.» (يو٦:٦٣)

هنا المسيح يقصد بغاية الوضوح أن يقول لليهود أن الأعمال التي يعملها يستحيل اعتبارها منفصلة عن أعمال الآب، فهو لا يكسر السبت على مسئوليته دون الله؛ كذلك الإرادة، فإن وحدة العمل تحتم وحدة الإرادة. وهنا يبرز جوهر القضية وأساس العثرة عندهم، كون المسيح أصبح يُنظر عندهم إلهاً ثانياً. فهو هنا يبرهن أن كلا من العمل والإرادة ليس منفصلاً عن الله ولا يعمل عملاً بدون الله، فالابن يعمل عمل الآب، والآب يعمل بالابن، والعمل واحد!! فالوحدة الإلهية مصونة مائة بالمائة. ولقد تسحب هذا الحق الإلهي بنوع ما على الذين يؤمنون بالمسيح أيضاً، فالمسيحي الحقيقي الذي آمن بالمسيح، والمسيح حل بالإيمان في قلبه، يعمل حسب المسيح ويفكر حسب المسيح ويشاء حسب المسيح. إنها نعمة الابن حلت على الذين يحبون الله: «لأن الله هو العامل فيكم أن تريدوا وأن تعملوا» (في٢:١٣)!! لذلك يستطيع أن يقول كما قال بولس الرسول: «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ.» (غل٢:٢٠)

وقد زاد المسيح هذا التأكيد بقوة لا تُجارى بقوله في الآية ٣٠ القادمة: «أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً، كما أسمع (من الآب) أدين ودينونتي عادلة، لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني»، «لا يقدر الابن أن يعمل... إلا ما ينظره» (يو٥:١٩)

هنا التحديد قاطع مانع من جهة العمل وعدم القدرة على العمل، وهذا بحد ذاته ينبغي أن يسترعي انتباهنا جداً. فعدم قدرة الابن أن يعمل إلا ما ينظر الآب يعمله يظهر هنا أن التطابق كلي، ومن هنا يأتي جوهر الوحدة المطلق. والتأمين هنا ضد الثنائية بالغ الحذر. والقضية واضحة وسهلة، فالابن جاء ليستعلن عمل الآب وإرادة الآب ومحبة الآب، فالعمل الذي يعمله هو عمل الآب: «الآب الحال في هو يعمل الأعمال» (يو١٤: ١٠)، وكذلك الإرادة: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله.» (يو٤: ٣٤)

ومرة أخرى يقول المسيح: «الابن لا يقدر أن يعمل»... هذا ليس تحديداً لسلطان الابن ولا لقدرة الابن ولا لطبيعة الابن ولا انتقاصاً من قدرة الابن عن قدرة الآب، ولكن هو حسم لقضية الثنائية التي شغلت بال الفريسيين والناس. فالمسيح يستطيح كل شيء إلا شيئاً واحداً لا يستطيعه، وهو أن يكون شيئاً غير الله إرادة وعملاً!! لأنه أصلاً جاء ليستعلن لنا الله الآب بطبيعة الله الذي فيه، فيستحيل أن يعمل عملاً خارجاً عن إرادة الله وعمله!! هذا يكون ضد رسالته وضد طبيعته وهذا محال عليه أن يأتيه.

ويلاحظ القارىء هنا كيف يربط المسيح ربطاً، لا ينقذ إليه الباطل قط، بين الابن المنظور والمتجسد على الأرض وبين الآب غير المنظور في السماء، فهذا جوهر الإعلان الإلهي. فعمل المسيح الأساسي كمستعلن لأبيه، مُحكم غاية الإحكام حتى لا ينفذ إليه الفكر ناحية الفصل، وإلا يكون السقوط في الثنائية المحرمة والمحرومة.

«لأن "مهما" عمل ذاك (الآب) فهذا يعمله الابن كذلك» = «مهما عمل الآب يعمله الابن كذلك»: في «مهما» تكمن قوة الابن المطلقة، هنا التطابق لا يكتفي بالحدود المعقولة أو المنظورة بين الآب والابن، ولكن تتسع وتتسع لتبلغ اللانهائية: «مهما» غير المدركة للانسان. أي أن الوحدة القائمة بين الآب والابن مؤمنة ضد تفكير عقل الإنسان وقياساته، فوحدانية الله لله، فهى فائقة، وليس للانسان إلا أن يصدقها ويهتف بعظمة قوتها وجلال مجدها.

والمسيح في هذه الآية يرتفع فوق كبرياء الفريسيين بشموخ يفوق مستوى ما اعتادوا أن يسمعوه، أو يتعلموه، فقد وقف أمامهم يتكلم بصوت الله وهم يتأملون ويتصورون ما يقول؛ وأما شخصه الإلهي على حقيقته، فهم قط ما رأوه ولا صموروه. تباً للعيون التي تنظر ولا تنظر والأذان التي تسمع ولا تسمع!

«الحق الحق أقول لكم»: ولا يفوتنا مطلع كلام المسيح: «الحق الحق أقول لكم»، والتي يقولها ثلاث مرات في هذا الحوار الممتد، وهي بمثابة القسم الإلهي في العهد القديم: «بذاتي أقسمت يقول الرب» (تك٢٢: ١٦)، وهي تفيد دائماً الكشف عن حقيقة جديدة مقدسة مؤكدة تأكيداً، وهامة للغاية كانت مخفية من الإنسان ويعلنها المسيح كجزء من عمله الاستعلاني لله الآب، ويلزم أن تُسجل في قلب الإنسان لتكون موضع تصديق مطلق؛ وبذلك تكون ركناً ركنياً في الإيمان المسيحي. وهذه الآية التي جاءت بعدها هي العنصر الأول فيها.

٢٠ – لأَنَّ الآب يُحِبُّ الابن وَيُرِيهِ جَمِيعَ مَا هُوَ يَعْمَلُهُ وَسَيُرِيهِ أَعْمَالاً أَعْظَمَ مِنْ هَذِهِ لِتَتَعَجَّبُوا أَنْتُمْ.

هنا يأتي الفعل في المضارع المستمر، فالآب يحب الابن حباً دائماً لم ولن ينقطع، أي هو حب الاتحاد أو على الأصح الوحدة الكلية.

كما يلاحظ أن فعل «يريه» يأتي أيضاً على مستوى فعل المحبة أي في المضارع الدائم. والمعروف أن جوهر المحبة عطاء، وهنا عطاء المحبة هو العمل الذي يريه الآب للابن، وعمل الحبة عند الآب والابن هو آية، هو معجزة، هو حياة أبدية، في صورة أقوال وأعمال!

المسيح يكشف أساس التطابق في العمل بين الابن والآب: وكلمة «المحبة» المستخدمة هنا لا تفيد التوقير والمشاعر المنعكسة من التعارف المعبر عنها في مواضع أخرى بالأغابي، فهذه تنبع من حكم الفكر والخبرة الشخصية، بعكس الـ «فيلين» فهي محبة الكيان والطبيعة. وهذه توضح العلاقة الذاتية بين شخص الآب والابن. وهكذا بالابن ومن خلال الابن تُستعلن محبة الله الآب التي للابن، التي صارت لنا في صورة الأعمال التي يعملها الابن، فهي كلها أعمال المحبة الخالصة. والابن حينما يعمل أعمال الآب فهو يرد على حب الآب: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو٤:٣٤). فالأعمال التي يعملها المسيح هي بحد ذاتها استعلان دائم لمحبة الله. لذلك تأتي كل أعمال المسيح وهي تتضوع برائحة حب الآب، سواء مع هذا المقعد أو الأعمى المولود هكذا أو كل الآيات التي أجراها يوسع، فالحب الإلهي هو غايتها وعلتها معاً، لذلك صح قول المسيح في صلاته للآب: «أنا مجدتك على الأرض. العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته.» (يو١٧:٤)

هنا يستعلن المسيح سر المحبة في الله كعنصر قائم في الذات الإلهية بين الآب والابن، وسر حب الآب للابن، فقد أُعطي المسيح الامتياز الأعظم لاستعلان الآب أقصى ما يكون الاستعلان. فالتطابق في العمل والإرادة بين الآب والابن نابع من التحام الحب، وليس التعالي أو الامتياز. فالحب الإلهي القائم في الذات الإلهية هو سر وحدة العمل والفكر والإرادة. ولكن لأن الابن الآن قد تجسد آخذاً صورة الإنسان، أصبح من واقع الحال البشري أن يتكلم المسيح قائلاً إن الآب «يريه» كل ما هو يعمله، وأصبح أيضاً من واقع التقدم البشري الخاضع للزمان أن يتكلم المسيح ويقول «وسيريه» أعمالاً أعظم، لأن التدرج في الاستعلان خاصة من مستوى الماديات إلى الروحيات يناسب الإنسان. أما الأعمال التي هي أعظم من معجزة شفاء المقعد، مثل إعطاء الحياة بالخلاص أي الحياة الآبدية بالقيامة من الأموات، وبالتال الدينونة، فهي الأعظم. لأن الأمور الأقل هي للجسد والأعظم هي للروح: «فقال له سيده: نعماً أيها العبد الصالح والأمين. كنت أميناً في القليل فأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح سيدك. (مت٢٥:٢١)

«لكي تتعجبوا أنتم»: مع أن المسيح لا يميل إلى إتيان العجائب ليتعجب الناس، لأن الإيمان الذي يسعى أن يعطيه المسيح يعطيه كعطية: «لأنكم بالنعمة مخلصون "بالإيمان" وذلك ليس منكم هو عطية الله» (أف٢:٨)، ويعطيه نتيجة الثقة واليقين الذي يستقر في قلب من يسمع الكلمة طائعاً ببساطة قلب وليس بتعجب الذهن؛ ولكنه هنا يتكلم إلى الفريسيين بنوع خاص، كنوع من غير المؤمنين المعاندين، لذلك يؤكد ويشدد على نوعيتهم الخاصة بقوله: «أنتم»، إضافة إلى صيغة المخاطب. ولماذا؟ لأنهم لا يخضعون لمنطق الإيمان الروحي ولا يتقبلون عمل الابن في شفاء المقعد، فأصبح لابد أن يريهم أعمالاً أعظم لكي يخضع أذهانهم العاتية، حتى إذا ما أنكروها أيضاً يكونون كمن عُميت أبصارهم وانسدت أذانهم ودخلوا تحت الدينونة بإرادتهم. لأنهم إذا لم يقبلوا الابن وقد عمل أمامهم أعمال الآب يكونون قد رفضوا الآب: «هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لى أن الآب قد أرسلني.» (يو٥:٣٦).

٢١- لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآب يُقِيمُ الأَمْوَاتَ وَيُحْيِي كَذَلِكَ الابن أَيْضاً يُحْيِي مَنْ يَشَاءُ.

لقد شفى أمامهم المقعد، وكان هذا واضحاً جداً أنه إنما يعطي نموذجاً مبسطاً لسلطانه الفائق على المرض الميئوس منه، الذي يعتبر الشفاء منه نوعاً من تجديد الحياة. فلأنهم لم يؤمنوا، لزم أن يكشف عن مدى قوة هذا السلطان الذي له بالإقامة من الموت وإعطاء الحياة؛ العمل الذي هو من اختصاص الله وحده.

وبقوله: «كذلك الابن»، ينقل إلى أذهانهم صورة الآب الذي فيه، المساوية للآب في كل شيء، ليس على المستوى المحدود في آية أو معجزة ولكن على المستوى الكلي لكل الناس وفي كل الظروف والأحوال: «يُحيي من يشاء». فسلطان الابن على الأموات والأحياء سلطان مطلق، فهو الذي «يُحيي» والأموات عنده تحت سلطانه كالأحياء يأمرهم فيأتمرون ويدعوهم للحياة فيلبون. نعم، فليس أمام غير المؤمنين إلا أن يتعجبوا، وتعجبهم سيدينهم في اليوم الأخير: «لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج ... الذين عملوا السيئات (أبغضوا النور ولم يؤمنوا بالنور) إلى قيامة الدينونة.» (يو٥:٢٨-٢٩)

والمسيح يكلم هنا الفريسيين الحافظين لمواد دستور إيمانهم، وهو ينقل لهم صورة طبق الأصل من إحدى صلواتهم المسماة بالبراكوت وهي البركة الثانية من البركات الثماني عشرة: (شيمون عسر)

[أنت أيها الرب المقتدر إلى الأبد. أنت الذي تُحي الموتى. وأنت القوي للخلاص، أنت الذي تسند الأحياء برحمتك، وأنت الذي بحنانك العظيم تقيم الموتى وتحييهم، أنت الذي تصنع الصلاح من نحو الراقدين في التراب. أنت صادق في وعدك بقيامة الأموات. مبارك أنت أيها الرب يا من تقيم الأموات.]

٢٢- لأَنَّ الآبَ لاَ يَدِينُ أَحَداً بَلْ قَدْ أَعْطَى كُلَّ الدَّيْنُونَةِ لِلاِبْنِ.

الذي يعطي الحياة لا بد أن يحكم فيها وعليها، والذي يقيم الموتى له أن يحاسبهم، هذه حتمية الامتياز الذي أُعطي للابن. والمسيح يكلم الفريسيين العارفين بالناموس: «فالذي يخطىء يموت» (قارن حز١٨:٢٠). إذن، فالذي يقيم من الموت هو الذي يغفر الخطايا، والذي يغفر يدين، لأن الذي يحيي يميت أيضاً!!

والآب إذ أعطى الدينونة للابن، فليس معنى ذلك أنه لا يدين بل أنه يدين بالابن. فكما خلق العالم به، كذلك به أيضاً يدين العالم. فالآب لا يدين أحداً بدون الابن، لأنه أعطاه أن يحيي من يشاء وهذا يستلزم أن يدين.

أما قول المسيح أنه قد أعطى «كل» الدينونة، فمعناه أنه قد تول الحكم هنا وهناك، على الأرض وفي السماء. أما هنا فعلى قياس ما أظهر النور واستعلن الآب: «لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي» (يو١٥:١٥)، «أنا هو نور العالم» (يو٨:١٢) فالذي يتبع ويسمع وينفتح بالروح ويقبل الاستعلان، فقد جاز الدينونة، ويكون قد انتقل من الظلمة إلى النور، ومن الموت إلى الحياة، فيدخل في الحقيقة العظمى وينهمر عليه فرح الله الآب. والذي يحجب النور عن عينيه بيديه يدخل الظمة برجليه، والذي يسد الصوت إلى أذنيه، فقد دين وحرم نفسه من رؤية الله والحياة.

أما دينونة السماء فتكون: إما بأكاليل المجد: «قد جاهدت الجهاد الحسن، أكملت السعي، حفظت الإيمان، وأخيراً قد وُضع لى إكليل البر الذي يهبه لى في ذلك اليوم الرب الديان العادل، وليس لى فقط بل لجميع الذين يحبون ظهوره أيضاً» (تي٤:٧-٨). وإما: «أقول لكم لا أعرفكم من أين أنتم؟ تباعدوا عني يا جميع فاعلي الظلم هناك يكون البكاء وصرير الأسنان.» (لو١٣:٢٧-٢٨)

٢٣- لِكَيْ يُكْرِمَ الْجَمِيعُ الابن كَمَا يُكْرِمُونَ الآبَ. مَنْ لاَ يُكْرِمُ الابن لاَ يُكْرِمُ الآبَ الَّذِي أَرْسَلَهُ.

المسيح هنا يعلن صراحة ولأول مرة عن لاهوته المساوي للآب بلا مواربة، مع أنه شخصياً لا يطلب الكرامة لنفسه: «مجداً من الناس لست أقبل» (يو٥:٤١). ولكنه يطلب مجد الآب: «من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو عادل وليس فيه ظلم» (يو٧:١٨)، ولكن كيف يمجد الناس الآب وهم يرفضون بل ويهينون الابن «لكني أكرم أبي وأنتم تهينونني. أنا لست أطلب مجدي، يوجد من يطلب ويدين (يو٨:٤٩-٥٠).

فالواقع الإلهي هو أن الآب أرسل ابنه لكي يستعلن حقيقة الله الآب والحياة الآبدية التي عنده! التي فيها وبها الخلاص، لذلك أصبح الابن حاملاً بالضرورة كرامة الآب ومجده: «أنا مجدتك على الأرض» (يو١٧:٤). لذلك يتحتم لكي يمجد الناس الآب أن يمجدوا الابن، هذا من جهة شخص الابن في ذاته، وإضافة إلى ذلك فإن الابن يمثل شخص الآب الذي أرسله، فالذي لا يمجد الابن، المسيح، لا يكرم الآب الذي أرسله. والمسألة في عمق معناها ليست مسألة مرسل ومرسل، بل مسألة الوحدة القائمة بينهما!!

هذا يعني أن المسيح يطالب بمجد الآب سواء في شخصه كابن الآب أو بصفته كمرسل من الآب ويمثله بذاته! لذلك فعدم تكريم الابن هو كذلك بالنسبة للآب. والذي يزدري بالمسيح يزدري بالله الآب وعقابه أشر: «من خالف ناموس موسى فعلى شاهدين أو ثلا ثة شهود يموت بدون رأفة. فكم عقاباً أشد تظنون أنه يُحسب مستحقاً من داس ابن الله وحسب دم العهد الذي قُدس به دنساً وازدرى بروح النعمة ... مخيف هو الوقوع في يدي الله الحي.» (عب١٠:٢٨-٣١).

وتحقيقاً لبنوة المسيح للآب قام المسيح بشفاء الناس واعطاهم الحياة على أساس غفران الخطاياى الأمر الذي هو من صميم اختصاص الله الآب: «ولكن لكي تعلموا أن لأبن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا، حينئذ قال للمفلوج قم احمل فراشك واذهب إل بيتك.» (مت٩:٦)

وتحقيقاً لكون المسيح مرسلاً من الآب، فقد باشر أعمال الآب: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو٤:٣٤). ولكن إذ أعطى الله الابن سلطاناً لكي يشفي ويحيي ويقيم من الموت، تحتم أن يعطيه أيضاً سلطاناً لكي يدين، لأن غفران الخطايا هو الجزء الأعظم من سلطان القاضي أو الديان. وحينما تقول الآية التي نحن بصددها وفي مستهلها: «لكي» فهي تعني «وبناء على ذلك»، أي بناء على كل ما سلف، بمعنى بناء على أن الابن يعمل عمل الآب، وبناء على أن الآب يحب الابن ويريه كل ما يعمل، وبناء على أن الابن يقيم الأموات ويعطي حياة، وبناء على أن الآب أعطى كل الدينونة للابن؛ بناء على ذلك كله، تحتم أن يكرم الناس الابن كما يكرمون الآب، وإلا فالمهانة وعدم الإكرام تصبح موجهة للآب الذي أعطاه كل هذا والذي أرسله أيضاً.

ولكن واضح تصميم الآب أنه لكي يكون للابن الكرامة والمجد المساويين للآب في كل شيء، أعطاه كل الدينونة لتخضع له كل خليقة ما في السموات وما على الأرض. هنا حق للمسيح أن يقول: «أنا والآب واحد» (يو١٠:٣٠)، وأن يخاطب الآب: «كل ما هو لي فهو لك وما هو لك فهو لي وأنا ممجداً فيهم» (يو١٧:١٠)؛ وكذلك، وعن حق وعن يقين واستحقاق، أن يدعى المسيح ابن الله، وأن يدعو المسيح الله الآب «أبي».

ولكن يخطىء الناس وإلى يومنا هذا في أنهم يفهمون أن المجد قد صار كله للابن، لذلك لم تعد الغالبية من المؤمنين يقدمون المجد والكرامة إلا للمسيح ولا يُذكر مجد الآب إلا في الجمل الرسمية من الصلوات المحفوظة. لذلك وجب هنا أن ننبه أن المسيح جاء ليستعلن الآب، حتى تكون صلتنا بالآب أكثر وضوحاً وتغلغلاً في الفكر والقلب بالعبادة الشخصية. والحقيقة التي يتحتم أن يفهمها كل مؤمن أنه كلما ازدادت صلتنا بالمسيح ازداد حضور الآب في القلب بصورة عملية: فإذا ضعفت صورة الله الآب في الوعي، فهذا معناه أن الوعي المسيحي ناقص جداً والإيمان يحتاج إلى مراجعة شديدة. «في ذلك اليوم تطلبون باسمي، ولست أقول لكم أني أسأل الآب من أجلكم لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني.» (يو١٦:٢٦-٢٧)

ومن صميم الإيمان الحي الموصل للحياة بالفعل أن يكون إيماننا بالآب هو الموصل لإيماننا بالمسيح، لأن المسيح

هو عطية الله الآب لنا: «لو كت تعلمين عطية الله ومن هو الذي يقول لك أعطيني لأشرب» (يو٤:١٠)، ثم أن المسيح سبق وأعلن أنه: «لا يقدر أحد أن يقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلنى» (يو٦:٤٤)، وأن كافة التلاميذ المخلصين للمسيح هم عطية الله الآب للمسيح: « كانوا لك وأعطيتهم لى» (يو١٧:٦). فحتى الشكر الذي نقدمه يتحتم أن نقدمه دواماً للآب في اسم المسيح (أف٥:٢٠، كو٣:١٧)، علماً بأن جوهر الإيمان والعبادة ينص أن المجد والكرامة متساوية تماماً بين الآب والابن والروح القدس، لذلك تحتم أن تكون العلاقة الشخصية الحية والعملية مع الحب المتبادل للثالوث الأقدس متساوية.

٢٤- «اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ يَسْمَعُ كلاَمِي وَيُؤْمِنُ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَلاَ يَأْتِي إِلَى دَيْنُونَةٍ بَلْ قَدِ انْتَقَلَ مِنَ الْمَوْتِ إِلَى الْحَيَاةِ.

مرة أخرى يستعلن المسيح الوحدة الترابطية بين الآب والابن إنما بصورة غير ملحوظة، إذ يعتبر أن الخلاص لا يتم للانسان إلا بالآب والابن. فالإيمان الذي يربط بينهما يؤدي إلى الحياة الأبدية ويعتق من الموت الحقيقي وليس موت الجسد.

ونعود سريعاً إلى قول المسيح: «الحق الحق أقول لكم» التي هي الإعلان الرسمي الإلهي على مستوى القسم، والذي يتصدر حقيقة جديدة كانت مخفية وقد صار إعلانها علنا لتكون ركناً أساسياً في الإيمان المسيحي.

وهنا يلزم أيها القارىء العزيز أن ننتبه غاية الإنتباه، إنما في خشروع وخضوع كلي لسلطان الكلمة، لأن وراءها أعظم عطية يمكن أن ينالها الإنسان على الأرض. وأقدم لك هذه الخطوات لكي تصل إلى سر هذه الآية:

١- مطلوب بساطة قلب وفكر يشبه فكر الأطفال لقراءة وفهم أقوال المسيح وهذا القول بالذات!

٢- مطلوب تصديق قلبي وفكري بهدوء وتركيز في المعنى الذي تحويه الكلمات في أقوال المسيح.

٣- مطلوب معرفة أن هذه الآية تحمل وصية ضمنية أي ما يشبه الأمر الإلهي، وكل وصية أو أمر إلهي يُقبل فوراً بدون أسئلة جانبية أو طلب زيادة وضوح أو شرح. فالأمر يحمل قوته في قبوله كما هو بدون فحص. وحالما يقبل الإنسان الأمر، يبدأ الأمر يفسر نفسه ويلقن الإنسان كيف يمكن تكميله والحصول على كل ضماناته. هذا ينطبق على كل وصايا المسيح. والأمر، أي الوصية، في هذه الآية: «إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني»، يمكن وضعه كالآتي: «اسمع صوتي وآمن بالذي أرسلني».

٤- كل وصية للمسيح تحمل معها «وعداً»، بمعنى أن كل وصية تحمل معها عطية سخية تفوق العقل، لأن كل وعود المسيح هي فائقة جداً على الطبيعة. لا يمكن أن يعطي المسيح أمراً أي وصية دون أن يصرح ضمناً بالوعد والعطية السخية التي تتبعها حتماً. وكل وعود المسيح مطلوب تصديقها بالقلب بشدة كما هي.

والوعد الذي في هذه الوصية هو: «له حياة أبدية»، وأنه «لا يأتي إلى دينونة»، أي ينعتق من الدينونة بمغفرة خطاياه، سواء في الحاضر في الضمير أو في المستقبل في الدينونة العامة، بل قد انتقل من الموت الحقيقي (غير الجسدي أي موت الخطية) إلى الحياة (الحقيقية). هذا يتم بالتصديق الإيماني.

والأن مطلوب أن تقرأ الأية مرة أخرى بكل هدوء وعلى مهل وتطبق الشروط السالفة. والنتيجة ستكون في حالة النجاح في التطبيق أن يحصل الإنسان على الإحساس بأن سر الآية قد انفتح على النفس، وأن الإنسان دخل في الكلمات والكلمات دخلت في الإنسان وصار الإنسان في مواجهة المسيح والآب والحياة الآبدية!

أما بعد ذلك فيلزم تكميل الإيمان بدراسة الكلمة ومعرفة دقائق الإيمان وممارسة العبادة كما تفرضها الكنيسة بتدقيق.

«**من يسمع كلامي**[1]»: السمع هنا ليس سمع الأذن الموصل إلى العقل للفهم المنطقي فحسب، بل يتضمن دخول الكلام، وهو روح، من الأذن إلى القلب ليحركه، لأن الكلمة فيها حياة. إذا تحرك القلب تحت وطأة سماع الكلمة يكون سماعاً صادقاً حقيقيا قال عنه المسيح في سفر الرؤيا: «من له أذن فليسمع ما يقوله الروح» (رؤ٢:٧). هنا يطلب المسيح أذناً روحية تسمع بالروح! وفي إنجيل القديس متى يقول: «وان أردتم أن تقبلوا فهذا هو إيليا (يوحنا المعمدان) المزمع أن يأتي. من له أذنان للسمع فليسمع» (مت١١:١٤-١٥). هنا يطلب الأذن التي تقبل الحقيقة وما وراءها، لأنه إن كان المعمدان هو إيليا إذن فيسوع هو المسيا الآتي!! والمسيح يطلب الأذن التي تسمع الروح وتفهم القصد وتؤمن بالوعد!!

«**يسمع كلمتي**[2]»: هنا جدير بنا أن نفرق بين «يسمع صوتي» التي ستأتي في الآية القادمة (٢٥)، و«يسمع كلمتي» في الآية (٢٤). والفرق بينهما كبير، فصوت المسيح قوة روحية حينما يتقبله القلب المشتاق، ترن فيه رنة الحياة وتهتز أوتاره بل جدرانه، كمن يستقبل رب الحياة. أما الكلمة فهي إنجيل الخلاص، والصوت كائن في الكلمة وفي كل آية. الكلمة تمنح حقيقة ومعنى روحياً ووعداً وتأكيداً، وهي قادرة أن تغير وتجدد وتلد من جديد، أما الصوت فهو صوت شخص ابن الله الذي يعلن عن وجوده وسر الحب والحياة والعطف والحنان، وكأن الإنسان بلغ الملكوت: «خرافي تسمع صوتي.» (يو١٠:٢٧)

ثم يلزما هنا أن نصحح الترجمة العربية، فهي ليست «يسمع كلامي» بل «يسمع كلمتي» (اللوغس) ومعناها الكلي: «يقبلني باعتباري «الكلمة» المتجسد، الابن الوحيد المحبوب ناطقاً بصوت الآب واسمه».

ومعروف أن المسيح بمجرد أن قال كلمته، فقد انقسم العالم إلى من يسمع والى من لا يسمع، إلى مؤمن وإلى رافض، الذي يسمع يؤمن والذي يؤمن «لا يأتي الى دينونة». وهذا اصطلاح يهودي معناه البسيط أنه لا يُطلب حضوره أمام القاضي أو الديان، بمعنى المعافاة المطلقة أو البراءة بدون محاكمة.

«**ويؤمن بالذي أرسلني**»: المسيح هنا يعتمد على كل ما استعلنه عن الآب. فهو يطالب كل من يعرف الآب كما استعلنه المسيح، أن يؤمن به، بمعنى أن يؤمن بما نقل الابن عنه من قول أو وعد. فمثلاً نقل المسيح عن الآب هكذا: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الآبدية» (يو٣:١٦). المطلوب هنا تصديق كلام الآب تصديقاً ينفذ في العقل ويخترق القلب ويملأه، فيؤمن بصدق الآب وصدق وعده: أنه أحبنا بالفعل وأنه أرسل ابنه بالفعل فدية لكى من يؤمن، فلا يهلك بل ينال الحياة الأبدية.

وكوننا نؤمن أن الآب كان صادقاً وأرسل ابنه ليفدينا، هذا بحد ذاته هو الإيمان بالآب، ويجعل الآب له علاقة مباشرة بنا: «الآب نفسه يحبكم لأنكم أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت» (يو١٦:٢٧)، «وهم قبلوا وعلموا يقيناً أني خرجت من عندك وآمنوا أنك أنت أرسلتني.» (يو١٧:٨)

---

[1] «أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه» (تث١٨:١٨-١٩)

«يوقظ كل صباح، يوقظ لي أذناً لأسمع كالمتعلمين، السيد الرب فتح لي أذناً وأنا لم أعاند، إلى الوراء لم أرتد.» (إش٥٠:٤-٥)

[2] «كلام الحياة الابدية عندك» (يو ٦:٦٨)

«وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن... الكلام الذي تكلمت به هو يدينه فى اليوم الأخير» (يو١٢:٤٧-٤٨)

انظر أيها القارىء كيف أن الإيمان بوعد الآب وصدق كلمته هو النصف المكمل للايمان بالمسيح المؤدي للحياة الأبدية والانعتاق من الدينونة.

«له حياة أبدية»: المسيح لا يسوف، فالمعنى ينصب على الحاضر = له الآن وكل أوان، لأن الحياة الأبدية غير مرتبطة بالزمن. الحياة الأبدية مثل كل عطايا الله الروحية هي فائقة على الطبيعة، هي فوق الزمان، هي لنا إذا أخذناها الآن، فتبقى معنا إلى الأبد.

«انتقل من الموت إلى الحياة»: لينتبه القارىء ولا يرفع الأفعال هنا إلى المستقبل، فهي قد تمت!! «يكون قد انتقل» هنا المسيح يصور حالة مقضياً بها، حكماً نافذ المفعول، وكأنه قد صار بمعنى أن المؤمن الذي انتهى في نفسه من قضية سماع كلمة المسيح واخترقت أذنه الروحية واستقرت في القلب وأصبحت حقيقة إيمانية، وصدق كلام الآب وأمن به، فإنه يشعر في قلبه شعور الإيمان اليقيني أنه قد غُفرت خطاياه، وأنه قد سقطت عنه كل الدينونة، وكف عنه صراخ الضمير المشتكي واللائم الدائم، ويحس أنه انتقل من حالة ظلمة قلبية محيطة إلى نور الله، وفرح يدوم مع شكر لا يهدأ «كل حين على كل شيء.» (أف٥:٢٠)

وانجيل يوحنا قدير في أن يستحضر الفعل الاخروي الذي كنا نتظره وكأنه سيحدث بعد الموت، يحضره في الآنية الزمنية: الآن وفي هذه الساعة: «تأتي ساعة "وهي الآن" حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله والسامعون يحيون» (يو٥:٢٥). ولكن مطلوب الأذن الروحية الآن!

المسيح في إنجيل يوحنا يُلهمنا استعلاناً جديداً عن الموت والحياة!! فالموت الجسدي القديم والرعبة المحيطة به قد انتهيا إلى الأبد وحل محلها الموت الأخطر: وهو موت الخطية الذي كان منسياً أو مخفياً. و«الحياة» القديمة التي كنا ننتظرها خطأ بعد الموت فلا نكاد نذكرها أو نفهمها أو نحسها، استعلنها المسيح في الحاضر إذ أسقط عنها الزمن الكاذب فظهرت بقوة أكثر من قوة الحياة بالجسد: «فإن الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا... ونكتب إليكم هذا لكي يكون فرحكم كاملاً.» (ا يو ١:٢و٤)

بهذا المعنى الاستعلاني الجديد الذي يقدمه المسيح في هذه الآية، نفهم كيف يؤكد المسيح أن من يسمع كلامه ويؤمن بالذي أرسله يكون قد انتقل من الموت إل الحياة، إنه اختبار الحاضر: «تأتي ساعة وهي الأن»!! والانتقال من الموت إلى الحياة، بمعنى سقوط الدينونة وشروق فجر الحياة الأبدية، من شأنه أن يجعل الإنسان يشعر بكيانه في المسيح والآب ولا يعود يعيش لنفسه!! فالذي آمن به الإنسان وصدقه يُحسه ويراه ويحبه ويعيشه!!!

ولكن كون الإنسان قبل الآب والابن في كيانه وعاش الحياة الأبدية بنوع ما الآن، لا يعني أنه لا يوجد موت للجسد أو أن هذه هي كل الحياة الأبدية. فالذي نختبره ونأخذه بالإيمان الآن نأخذه، كما يقول بولس الرسول، كعربون، والعربون دائماً يكون نسبة ضئيلة إذا قارناه بالحصيلة الكلية: «نحن الذين قد سبق رجاؤنا في المسيح، الذي فيه أيضاً أنتم إذ سمعتم كلمة الحق إنجيل خلاصكم، الذي فيه أيضاً إذ آمنتم خُتمتم بروح الموعد القدوس، الذي هو عربون ميراثنا، لفداء المُقتنى لمدح مجده.» (أف١:١٢-١٤)

وعلى العموم فالمسيح في هذه الآيات لا يقدم تعليماً بقدر ما يطرح عملاً؛ فهو يحفز السامع والقارىء ليأخذ قراره، إنه نفس موقفه تجاه اليهود، يطرحه على الإنسان على مدى الدهور. إنه لا يعلمهم بل يتحداهم، يطرح الحياة والموت أمامهم ، فإما يقبلون الحياة فيه، واما يقتلونه فيبقوا في الموت إلى الأبد.

٢٥- اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ وَهِيَ الآنَ

حِينَ يَسْمَعُ الأَمْوَاتُ صَوْتَ ابْنِ اللَّهِ وَالسَّامِعُونَ يَحْيَوْنَ.

«تأتي ساعة، وهي الآن»: على القارىء أن ينتبه إلى الفارق الكبير بين قول الرب في هذه الآية «تأتي ساعة وهي الآن»، وبين قوله في الآية القادمة «تأتي ساعة» بدون «الأن». فالاولى تشير إلى الواقع الحاضر وهو الواقع الروحي، فهي ساعة الخلاص والوقت المقبول الذي تكلم عنه إشعياء النبي: «هَكَذَا قَالَ الرَّبُّ: "فِي وَقْتِ الْقُبُولِ اسْتَجَبْتُكَ وَفِي يَوْمِ الْخَلاَصِ أَعَنْتُكَ. فَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْداً لِلشَّعْبِ لإِقَامَةِ الأَرْضِ لِتَمْلِيكِ أَمْلاَكِ الْبَرَارِيِّ» (إش ٤٩:٨)، «لأُنَادِيَ بِسَنَةٍ مَقْبُولَةٍ لِلرَّبِّ وَبِيَوْمِ انْتِقَامٍ لإِلَهِنَا. لأُعَزِّيَ كُلَّ النَّائِحِينَ.» (إش٦١:٢) أما الثانية التي أتت بدون «الآن» فهي تشير إلى المستقبل في نهاية الزمان وهي ساعة الدينونة.

القيامة بالروح قادمة كما تنتظرها الأجيال والآن هي حاضرة. المسيح يؤكد ما يؤمن به الجميع أن استعلان القيامة القادمة في نهاية الزمان هي أمر حتمي بحسب رجاء اليهود، ولكن الجديد الذى لم يكن يتوقعه أحد هو استعلان المسيح لبدء عمل هذه القوة القادرة على الإقامة من الموت الآن، وهي بعينها قوة الحياة الآبدية! هذه القوة التي تُحيي الموتى قائمة وكائنة في الكلمة التي ينطقها المسيح. والكلمة التي ينطقها المسيح هي استعلان الآب والحياة الأبدية التي كانت عنده، وها هو المسيح يستعلنها بالكلمة المنطوقة والأية المعمولة: «والسامعون يحيون»!

هنا ينقل المسيح كل التراث اليهودي عن المستقبل الذهبي البعيد والمجهول والذي فيه تسود إسرائيل على العالمين والذي عبرت عنه الأنبياء «بذلك اليوم»، وعن الأمال العريضة المدخرة فيه، ينقله فجأة إلى هذه الساعة الأن: «فقال لى وٌتنبأ عن هذه العظام وقل لها أيتها العظام اليابسة اسمعى كلمة الرب»، «هكذا قال السيد الرب لهذه العظام، هأنذا أدخل فيك روحاً فتحيون ... وتعلموا أني أنا الرب»، «ثم قال ل يا ابن آدم (ابن الانسان) هذه العظام هي كل بيت إسرائيل، ها هم يقولول يبست عظامنا، وهلك رجاؤنا، قد انقطعنا (بسبب الخطية وغياب الله)؛ لذلك تنبأ وقل لهم: هكذا قال السيد الرب هأنذا أفتح قبوركم وأصعدكم من قبوركم يا شعبي... وأجعل روحي فيكم فتحيون... ويكون لجميعهم راع واحد.» (حزقيال ٣٧)

واضح هنا أن الأنين ويبس العظام وانقطاع الرجاء على لسان النبي بالروح يعبر أقوى تعبير عن حالة إسرائيل الروحية أيام المسيح.

أما قول الله على لسان حزقيال: «أيتها العظام اليابسة اسمعي كلمة الرب»، فهي هي قول الرب بعينه: «تأتي ساعة حين يسمع الأموات صوت ابن الله».

وكلمة «الأموات» هنا يلزم أن نفهمها على أنها موتى الخطية أو عدم الإيمان بالمسيح، لأن «موتى الجسد سيذكرهم المسيح بالتحقيق مع صفة مضاعفة ليفرقهم عن موتى الخطية بقوله: «تأتي ساعة فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج ...»، والفرق في الذين يسمعون بين الآيتين، هو أن سامعي صوت المسيح في الآية التي نحن بصددها هم موتى الخطية ولا يذكر هنا «جميع»، لأن فيهم من يسمع ويستجيب وفيهم من لا يسمع ولا يستجيب، حيث تأتي كلمة «السمع» في اللغة اليونانية بمعنى السمع والقبول؛ أما موتى الآية القادمة فيذكر فيها «الجميع» لأن جميع الموتى سوف يقومون للدينونة بلا تفريق.

لقد سبق وأعلن المسيح في الأصحاح الرابع عن مجيء هذه الساعة المنتظرة منذ الدهور، ساعة ما بعد الزمن، ساعة الأخرويات، أي أزمنة الحياة الأبدية التي ليست أزمنة الجسديات، حينما قال: «تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق، لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين» (يو ٤:٢٣). هنا يصف

المسيح جوهر العبادة اللائقة بالله، لأن الله روح والساجدون يتحتم أن يسجدوا له بالروح. الآن نفهم سر هذه الآية التي مرت علينا، فمعناها ينحصر في أنه لا عبادة مقبولة أو منظورة أو مسموعة من الله إلاَّ عبادة القائمين من الأموات الذين انتقلوا من الموت إلى الحياة، أي الذين سمعوا صوت ابن الله، بمعنى قبوله ليجلس الابن على عرش القلب ويدبر ويسود، والذين آمنوا بالذي أرسله أي آمنوا بالآب كونه أرسل ابنه مبذولاً على الصليب حتى لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية. فالإيمان بالآب مُستعلن عمله وقوته في إرسالية الابن. والذين أقامهم المسيح من الموت «الآن»» هم الذين غُفرت خطاياهم، فسقطت عنهم الديونة وانتقلوا من الموت إلى الحياة، فدخلوا في بر المسيح ليتبرروا أمام الله كأبناء بلا لوم. والقديس بولس يتكلم عن موتى الخطية بوضوح: «وأنتم إذ كنتم أمواتا بالذنوب والخطايا.... ونحن أموات بالخطايا، أحيانا مع المسيح.» (أف٢:١و٥)

هؤلاء هم الساجدون بالروح الذين يطلبهم الله ودفع ثمن حياتهم الجديدة ببذل ابنه الوحيد. أما كيف يسجدون «بالروح» فهذا عرفته الكنيسة جيدا في يوم الخمين وممارسته بقوة، حتى إن صلاة التلاميذ كانت تزعزع المكان: «ولما صلوا تزعزع المكان الذي كانوا مجتمعين فيه وامتلأ الجميع من الروح القدس.» (أع٤:٣١)

لقد تحقق قول الرب ولا يزال من جهة الساجدين بالروح ومن جهة الذين يسمعون بالروح! «فتأتي ساعة وهي الأن»، ولا زالت إلى «الآن» حاضرة في عمق الزمن وهي ليست من الزمن في شيء!

ثم عودة إلى «الحق الحق أقول لكم» التي استهل بها المسيح هذه الآية. فالحقيقة الإيمانية الجديدة التي يعلنها المسيح والمحسوبة أنها ركن ركين في الإيمان المسيحي، هي أن الإنسان الذي مات بالخطية وانطفأت جذوة روحه تحت سلطانها المهلك، مدعو للحياة من جديد. كلمة المسيح فيها حياته وهذه هي «القيامة الاولى» التي عبر عنها الروح في سفر الرؤيا: «مبارك ومقدس من له نصيب في القيامة الاولى، هؤلاء ليس للموت الثاني (الدينونة) سلطان عليهم.» (رؤ٢٠:٦)

«يسمع صوت ابن الله»: أنظر المقارنة بين «يسمع كلامي» و «يسمع صوتي» في شرح الآية السابقة.

«ابن الله»: هذه واحدة من ثلاث مرات في إنجيل يوحنا يذكر المسيح فيها أنه «ابن الله» بوضوح وعلانية، أما المرتان الأخريان فهما: «فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ لأَنِّي قُلْتُ إِنِّي ابْنُ اللَّهِ؟» (يو١٠:٣٦)، «فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ قَالَ: «هَذَا الْمَرَضُ لَيْسَ لِلْمَوْتِ بَلْ لأَجْلِ مَجْدِ اللَّهِ لِيَتَمَجَّدَ ابْنُ اللَّهِ بِهِ». (يو١١:٤). وهذه الصفة الجوهرية يتمسك بها القديس يوحنا سواء من فم المسيح أو من البراهين العملية والاستعلانية التي تيقن منها، وجعل من هذه الصفة ركيزة الإيمان الاولى لإنجيله: «لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله.» (يو٢١:٣١)

٢٦- لأَنَّهُ كَمَا أَنَّ الآبَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ كَذَلِكَ أَعْطَى الابن أَيْضاً أَنْ تَكُونَ لَهُ حَيَاةٌ فِي ذَاتِهِ.

الكلام هنا هو في صميم الطبيعة الإلهية. والمسيح يحدد موقعه من هذه الطبيعة بالنسبة للآب. ولكن لا يمكن الكلام عن الطبيعة الإلهية دون التعبير عن الذات الإلهية.

الطبيعة الإلهية يشترك فيها الآب والابن على السواء، فالطبيعة الإلهية للآب هي نفسها الطبيعة الإلهية للابن. «والحياة» هي من صميم خواص الطبيعة الإلهية.

ولكن الحياة في الله ليست ممنوحة ولكن هي خاصية الذات الإلهية، فكيان الله حي بذاته. «أنا الكائن بذاتي». والذات الإلهية واحدة، هي أب وابن كل منهما قائم في الذات الإلهية الواحدة. فالآب له بالضرورة الحتمية حياة في

ذاته الإلهية، والابن بنفس الضرورة الحتمية له حياة في ذاته الإلهية.

الآية هنا لا تفيد على الإطلاق أن الآب «أعطى» حياة للابن في ذاته، هذا محال؟ ولكن الآب أعطى الابن «أن يكون» له حياة في ذاته كما الآب له حياة في ذاته، أي أن هذا هو حال كيان الابوة والبنوة!

فإذا كانت طبيعة الحياة الذاتية هي في الابن كما في الآب، فلماذا أضاف المسيح القول أن الآب أعطى الابن أن يكون له هذا؟ واضح أن السبب هو التمييز بين الآب والابن في الذات الإلهية.

وإليك قول ذهبي الفم في هذا الموضوع: [أترى كيف أن المسيح يعلن التعادل الكامل بيهما إلا في نقطة واحدة وهي أنه: واحد هو الآب، وواحد هو الابن، لأن بقوله «قد أعطى» يوضح هذا التمايز، ولكنه يعلن أن كل شيء ما عدا هذا متساو تماما. وعليه فمن الواضح أن الابن يعمل كل شيء بسلطان وقوة مثل الآب تماماً. وأن الابن لا يأخذ قوة من أي مصدر كان لأنه له حياة كما الآب له حياة]

٢٧- وَأَعْطَاهُ سُلْطَاناً أَنْ يَدِينَ أَيْضاً لأَنَّهُ ابْنُ الإِنْسَانِ.

في كل الامتيازات المذكورة في التسع خطوات التي أعلن المسيح فيها لاهوته، يقفز هذا الامتياز وحده ليختص ببشرية المسيح. فهنا امتياز الديونة أخذه المسيح باعتباره «ابن إنسان» حسب القراءة اليوناية الصحيحة بدون التعريف بـ «الـ»، وذلك يعني أن المسيح يتبوأ مركز الدينونة العالى ليس بصفته ممثلاً للبشرية، والا لزم أن يكون «ابن الإنسان»، ولكن المذكور هنا هو «ابن إنسان»، فرفع «الـ» التعريف توضح أن اصطلاح «ابن الإنسان» لا يفيد شخص المسيح بل الجنس أي أنه يدين كإنسان! وهذا المعنى يحمل منتهى العدالة الإلهية إذ جعل الديان الذي يقضي لبنى الإنسان هو «ابن الإنسان» أي من جنس من يقضي لهم: هذا ما يقرره بولس الرسول في سفر العبرانيين بوضوح: «من ثم كان يبغي أن يشبه إخوته في كل شيء لكي يكون رحيماً ورئيس كهنة أميناً فيما لله حتى يُكفر عن خطايا الشعب. لأنه فيما هو قد تألم مُجرباً يقدر أن يعين المجربين... لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا بل مُجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية. فلنتقدم بثقة إلى عرش النعمة لكي ننال رحمة ونجد نعمة عوناً في حينه (نجد نعمة للمعونة في وقت الحاجة)» (عب٢:١٧-١٨، ٤:١٥-١٦). لذلك أصبح من خصائص المسيح العجيبة التي تميزه كقاض للبشرية أنه يشفع في المذنبين! «وأما هذا فمن أجل أنه يبقى إلى الأبد له كهنوت لا يزول (بصفته مقدم أقدس وأعظم ذبيحة حية على عرش الله)، فمن ثم يقدر أن يخلص أيضاً إلى التمام الذين يتقدمون به إلى الله إذ هو حي في كل حين يشفع فيهم» (عب٧:٢٤-٢٥)، أي أن ديان الناس هو بعينه محامي البشرية الأول، وقد جمع بولس الرسول هاتين الصفتين معاً هكذا: «من هو الذي يدين؟ المسيح، الذي مات بل بالحري قام أيضاً الذي هو أيضاً عن يمين الله، الذي أيضاً يشفع فينا» (رو٨:٣٤- ترجمة مصححة من اليونانية).

إذن، خطير حقاً أن نفقد لأنفسنا وظيفة الشفاعة هذه برفضنا المسيح الشفيع فلا يبقى لنا منه إلا الدينونة!!

واستخدام المسيح للفظ «ابن إنسان» هنا ينبهنا مباشرة إلى نبوة دانيال: «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إل القديم الايام (الآب) فقربوه قدامه فأُعطي سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض» (دا ٧:١٣-١٤). وبولس الرسول أدخل في اللاهوت صفة المسيح «الإنسان» بقوله: «فإنه إذ الموت بإنسان بإنسان أيضاً قيامة الأموات» (اكو١٥:٢١)؛ موضحاً بذلك الجنس البشري الذي يتجنس به المسيح ليكمل به عمل الفداء!

وهكذا يتضح لنا أن في قول المسيح: «وأعطاه أن يدين أيضاً لأنه ابن إنسان»، تلميحاً واضحاً لنبوة دانيال التي يحاول المسيح فيها أن ينبه ذهن اليهود إليها لينتبهوا إلى شخصه، ولكن شكراً لله، فالذي عثر فيه اليهود صار لنا دليل حياة ومرساة إيمان.

٢٨- لاَ تَتَعَجَّبُوا مِنْ هَذَا فَإِنَّهُ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَسْمَعُ جَمِيعُ الَّذِينَ فِي الْقُبُورِ صَوْتَهُ.

٢٩- فَيَخْرُجُ الَّذِينَ فَعَلُوا الصَّالِحَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الْحَيَاةِ والَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَى قِيَامَةِ الدَّيْنُونَةِ.

لقد طرح المسيح أمامهم في الأية (٢٥) درجة أولى من درجات السمع والحياة: «تأتي ساعة وهي الأن حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون». هنا سماع صوت المسيح، والإنسان لا يزال يعيش، ولو أنه ميت بالخطية في الحقيقة! وهنا السماع هو في درجته الاختيارية، كذلك الحياة التي ينالها من جراء غفران الخطية هي حياة جديدة في صميم الحياة القديمة، حياة حقيقية بالروح في صميم حياة الجسد الزائلة.

ففي هذه القوة التي للرب في إقامة موتى الخطية لقبول حياة أبدية، يقول الرب: »لا تتعجبوا، لأنه تأتي الساعة الأخيرة، ليست الآن، تأتي في وقتها المحدد، فيسمع جميع الموتى (موتى القبور). هنا قيامتان، لأنه في الحقيقة لو تمشينا مع لاهوت القديس يوحنا وفهمه للموت والحياة والقيامة، يكون موتى القبور هم إما الذين فاتتهم القيامة الاولى، التوبة والغفران والمعمودية، ولم يسمعوا لصوت المسيح ولا اقتنعوا بندائه للتوبة ولا رجعوا عن سيرة الخطية، بل استمروا في غيهم في طريق الموت الروحي وضاع عليهم زمن الخلاص، واحتوت أجسادهم القبور؛ هؤلاء يسمعون صوت المسيح، ليس المخلص بعد، بل الديان، وهو الصوت الذي يدعوهم لتقديم حساب الحياة ويطالبهم بثمن دمه الذي سفكه من أجلهم فازدروا به، ويطالبهم بثمر الإنجيل الذي طرحه أمامهم بين أيديهم، فطرحوه تحت أرجلهم وداسوا على الكلمة وأهانوا الروح. هؤلاء لهم قيامة واحدة أو صحوة يصحونها على الضمير المعذب حيث يواجهون الدينونة بل ويقيمون فيها؛ أما القيامة الأخرى، فهي للذين أحبوا النور وكانت أعمالهم بالله معمولة، فهؤلاء لهم القيامة الثانية في ملكوت ابن الله حيث ميراث المجد. والمسيح يخاطب اليهود أن هنا لهم أن يتعجبوا كما يشاءون، لأن ما سبق وقاله بخصوص القيامة الروحية الاول لموتى الخطية، لهم أن يقبلوا به أولا يقبلوا، أما إقامته الجبرية لكل ذي جسد فهو أمر حتمي موف يخضعون له صاغرين.

ولو يلاحظ القارىء أن الرب سبق وطرح أمام نيقوديموس دعوته نفسها: «لا تتعجب أني قلت لك ينبغي أن تولدوا من فوق» (يو٣:٧). فلهذا قال له: «لا تتعجب أنه ينبغي أن تولد من جديد»، ولهؤلاء قال: لا تتعجبوا أنكم سوف تقومون لدينونة عتيدة. فسماع الأذن اليهودية المنغمسة في الماديات والدنيويات صعب عليها أن تقبل التجديد لتحيا للروح. وأصعب من ذلك أن تصدق أنها ستدان: والكلام لنا أيضاً...

«فعلوا الصالحا وعملوا السيئات»: هو التعبير العملي عن الإيمان وعدم الإيمان، قبول النور ورفض النور، محبة الحق وبغضة الحق، فالذي أمن بالمسيح قد صار له عمل صالح بالدرجة الاولى: «فقالوا له: ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله. أجاب يسوع وقال لهم: هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله» (يو٦:٢٨-٢٩). لأن الذي آمن بالمسيح يعني على المستوى الإيماني الحقيقي أنه قد صار يعيش للمسيح والمسيح يحيا فيه، وصار الروح القدس يعمل معه أعمال الله الصالحة. ويستحيل لأحد أن يؤمن بالمسيح ولا يكون له عمل صالح.

أما الذي لا يؤمن، فلا يملك الصالح، الله، الذي يعمله، أو يعمل لحسابه، ولا يعرف ما هو الصلاح الذي يطلبه. والشجرة تُعرف من ثمارها (مت٧:١٩-٢٠). ولو تلاحظ تجد أن المسيح في الآية ٢٥ والآية ٢٨ أوضح أنه

صاحب دينونتين: الاولى، دينونة خلاص، للضمير ليحييه ويقيمه من موت الخطية، والدينونة الثانية للحكم على من قبل ومن رفض. فالذي قبل دينونة الضمير الاولى ينجو من الدينونة الدائمة اللائمة لأنه يكون قد قبل الحياة الأبدية ويعيشها. والذي رفض دينونة الضمير يكون قد ضاعت عليه فرصة التوبة وفرصة الحياة أيضاً، ولا تبقى له إلا دينونة الندم.

الإيمان والأعمال: كما تقدمه الكنيسة سواء بتعليم القديس يوحنا الرسول، أو بتعاليم الرسل الآخرين.

+ توجد دينونة «للايمان» قاطعة: «الذي يؤمن به لا يدان والذي لا يؤمن به قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد.» (يو٣:١٨)

ويشرحها القديس يوحنا في رسالته هكذا: «إن كنا نقبل شهادة الناس فشهادة الله أعظم، لأن هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه. من يؤمن بابن الله، فعنده الشهادة في نفسه. من لا يصدق الله، فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهادة التي قد شهد بها الله عن ابنه. وهذه هى الشهادة (قوة الشهادة وصدقها) أن الله أعطانا حياة أبدية، وهذه الحياة هي في ابنه، من له الابن، فله الحياة؛ ومن ليس له ابن الله، فليس له الحياة.»(ايو٥:٩-١٢)

وهذا يعني به القديس يوحنا أن الإيمان بالمسيح له شهادة حاضرة، وهي الحياة الأبدية التي تكون قد انسكبت في قلب من آمن بالمسيح، وصار يحيا في ملء نعمة الروح. فمن له هذه الحياة تكون له الشهادة في نفسه ومن الآخرين، أنه مؤمن حقاً بالمسيح، ويكون هذا بحد ذاته برهان رفع الدينونة عنه إلى الأبد. وذلك بعكس من ليس له إيمان ولا شهادة. فإن الدينونة تظل تلاحقه الأن بسبب عدم الإيمان، وفي النهاية بسبب سوء الأعمال!!

٢- وتوجد دينونة «للأعمال» قاطعة: «ونحن نعلم أن دينونة الله هي حسب الحق على الذين يفعلون مثل هذه. أتظن هذا أيها الإنسان الذي تدين الذين يفعلون مثل هذه وأنت تفعلها أنك تنجو من دينونة الله. أم تستهين بغنى لطفه وإمهاله وطول أناته غير عالم أن لطف الله إنما يقتادك إلى التوبة. ولكنك من أجل قساوتك وقلبك غير التائب تدخر لنفسك غضباً في يوم الغضب واستعلان دينونة الله العادلة، الذي سيجازي كل واحد حسب «أعماله». أما الذين بصبر في «العمل الصالح» يطلبون المجد والكرامة والبقاء، «فبالحياة الأبدية». وأما الذين هم من أهل التحزب ولا يطاوعون للحق بل يطاوعون للإثم، فسخط وغضب، شدة وضيق على كل نفس إنسان يفعل الشر... ومجد وكرامة وسلام لكل من يفعل الصلاح.» (رو٢:٢-١٠)

ويعود القديس بولس الرسول يؤكد حتمية وقوفنا أمام الديان: «لأنه لا بد أننا جيعاً نُظهر أمام كرسي المسيح لينال كل واحد ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيراً كان أم شراً.» (٢كو٥:١٠)

بطرس الرسول أيضاً يشترك في هذا التأكيد عينه: «الذين سوف يعطون حساباً للذي هو على استعداد أن يدين الأحياء والأموات.»(١بط٤:٥)

وبولس الرسول يحدد الدينونة بيوم معين يصفه للوثنيين ببساطة هكذا: «فالله الآن يأمر جيع الناس في كل مكان أن يتوبوا متغاضياً عن أزمنة الجهل. لأنه أقام يوماً هو فيه مزمع أن يدين المسكونة بالعدل برجل (إنسان) قد عينه مُقدماً للجميع إيماناً إذ أقامه من الأموات» (أع١٧:٣٠-٣١)

ويحدد بولس الرسول هذا اليوم الذي للدينونة يوم ظهور المسيح هكذا: «أنا أناشدك إذأ أمام الله والرب يسوع المسيح العتيد أن يدين الأحياء والأموات عند ظهوره وملكوته...» (٢تى٤:١)

علماً بأن عقيدة الإيمان بدينونة الأعمال مع القيامة هي راسخة في إيمان الكنيسة منذ أيام الرسل: «قيامة الأموات

والدينونة الأبدية.» (عب٦: ٢)

كما استقر الإيمان الأول في الكنيسة بأن المسيح كـ «رب» هو الذي سيضطلع بالدينونة وذلك من فم المسيح نفسه: «هذا أقامه الله في اليوم الثالث؟ وأعطى أن يصير ظاهراً ليس لجميع الشعب بل لشهود سبق الله فانتخبهم، لنا نحن الذين أكلنا وشربنا معه بعد قيامته من الأموات. وأوصانا أن نكرز للشعب ونشهد بأن هذا هو المعين من الله ديانا للأحياء والأموات.» (أع١٠: ٤٠-٤٢)

والقديس يوحنا يقدم نفس التعاليم موضحاً دينونة الأحياء بأنها فرصة التوبة وإعطاء الحياة الأبدية المعتبرة القيامة الاولى في الآية (٥:٢٥)، وموضحاً دينونة الأموات معبراً عنها «بالذين في القبور». إنها الدينونة التي بلا خلاص ولا توبة حيث الحكم الأخير، فهي قيامة يتميز فيها الذين قبلوا الحياة الأبدية بالإيمان عن الذين ضاعت عليهم فرصة الحياة برفضهم للايمان .

وقد مهد القديس يوحنا لسلطان المسيح على الأحياء والأموات في الآية (٢١) بقوله: «لأنه كما أن الآب يقيم الأموات ويُحيي، كذلك الابن أيضاً يُحيي من يشاء». هنا سلطان المسيح واضح في قوة القيامة من الأموات التي تلازمها الدينونة، وفي قوة إعطاء الحياة لمن يشاء التي تختص بدعوة أموات الخطية للقيامة الاولى لنوال الحياة الأبدية من الآن.

على أن القديس يوحنا يزيد رسالة المسيح الأساسية وضوحا بالنسبة للمختارين سواء في حياتهم الآن أو في قيامتهم من الموت هكذا: «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أُتلف منه شيئاً بل أقيمه في اليوم الأخير. لأن هذه مشيئة الذي أرسلني أن كل من يرى الابن (رؤية إيمان بالروح) ويؤمن به تكون له حياة أبدية (من الآن) وأنا أقيمه في اليوم الأخير. (يو٦: ٣٩-٤٠)

ويزيد المسيح نفسه تأكيدا لقوة الحياة والقيامة التي ينالها من يؤمن به، وذلك بفاعلية سر التناول من جسده ودمه الذي يرسخ فيه قوة الحياة والقيامة من الأموات، وهو المسمى عند الآباء «ترياق عدم الموت»، هكذا: «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير.» (يو٦: ٥٤)

لهذا ربطت الكنيسة بحسم بين سر الإفخارستيا (المؤسس على الموت والقيامة) وسر غفران الخطايا، باعتبار أن غفران الخطايا هو التمهيد الحتمي للانعتاق من الدينونة وبالتالي لنوال الحياة الأبدية في القيامة.

وإذ كان القديس يوحنا لم يحدد «قيامة الأجساد» بالنص إلا أنه لمح لها بقوله: «الذين في القبور» حيث القبور تعني «غرفة حفظ الاجساد» في المنطق اللغوي للكلمة، وقد اختارها القديس يوحنا عن الكلمة الأخرى (   ) التي تعني «مكان سكنى الموتى»، وهو تعبير غير واقعي وغير روحي. ولكن الأجساد سواء في مفهوم القديس بولس أو القديس يوحنا ليست مادية وإن كانت عل صورتها: «هكذا أيضاً قيامة الأموات يزرع في فساد، ويُقام في عدم فساد؛ يُزرع في هوان، ويُقام في مجد؛ يُزرع في ضعف، ويُقام في قوة؛ يُزرع جسماً حيوانياً ويُقام جسما روحانياً. يوجد جسم حيواني، ويوجد جسم روحاني.» (اكو١٥: ٤٢-٤٤)

ولكن واضح وبالنهاية أن القديس يوحنا صب كل اهتمامه في كل هذه الآيات على قدرة المسيح الحالية في إعطاء حياة أبدية لموتى الخطية؛ ولهؤلاء أسس عن قصد واهتمام بالغ سر الجسد والدم ليسند فعل إيمانهم بهذا العمل السري الفائق عن التعبير. لذلك، وفي ختام هذه الآيات، نود لو نلفت النظر لخطورة التأكد من رسوخ فعل الإيمان بالمسيح الذي يكون له شهادة في الإنسان حسب تعبير القديس يوحنا، وهذه الشهادة هي في الإحساس بالحياة

الأبدية وفعلها الفائق لجعل الحياة تسمو فوق الطبيعة البشرية ولها برهانها الصادق: نصرة وفرح دائم مع شهادة.
ولا ينخدع الإنسان المسيحي بأن له إيماناً بالمسيح وهو لا يعيش هذه الحياة، لأنه سينخدع حتماً وبالتالي بأن له أعمالاً صالحة تظهر في عينه أنها صالحة وهي ليست كذلك في عين الله. ويكفي ليقظة الضمير أن نضع هذه الآية أمام كل قارىء ليلتفت إلى نفسه: «أنا عارف أعمالك، أن لك اسماً أنك حي وأنت ميت. كن ساهراً وشددد ما بقي الذي هو عتيد أن يموت لأني لم أجد أعمالك كاملة أمام الله. فاذكر كيف أخذت، وسمعت، واحفظ وتب فإني إن لم تسهر أقدم عليك كلص ولا تعلم أية ساعة أقدم عليك» (رؤ٣: ١-٣). وهذا نموذج من دينونة المسيح للضمير في الحياة الحاضرة. وطوبى لمن يقع تحت هذا الصوت...

٣٠- أَنَا لاَ أَقْدِرُ أَنْ أَفْعَلَ مِنْ نَفْسِي شَيْئاً. كَمَا أَسْمَعُ أَدِينُ وَدَيْنُونَتِي عَادِلَةٌ لأَنِّي لاَ أَطْلُبُ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي.

«أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً»: المسيح ينتقل هنا من التكلم بصيغة «الابن»» في الآيات السالفة إلى التكلم بصفته الأنا(   ). نرجو الرجوع لشرح الآية (١٩) لأن فيها الإفادة كاملة عن عمق هذا المعنى ومغزاه اللاهوتي.

«كما أسمع أدين»: إذا لم نحسن فهم معنى هذا القول سينحرف بنا المعنى إلى مفهوم خاطىء سقط فيه كثيرون ممن تعرضوا لشرح هذه الآية، قدامى ومحدثين، إذ قالوا باعتماد الابن اعتماداً كاملاً على الآب. ولكن واقع التساوي المطلق بين الابن والآب لا يجيز قول الاعتماد، فالحقيقة أن الآب يدين والابن ينفذ الدينونة، والعلاقة بين الفعل غير المنظور لنا عند الآب، يُدين، والفعل المُنفذ المنظور لنا عند الابن كمنفذ للدينونة هما فعل واحد ليس بينها أعلى وأدنى أو واحد منهما أصلي والثاني مقلد، أو الأول أمر والثاني طاعة عمياء. ولكن الفارة الوحيد هو أن الأول غير منظور، عند الآب؛ والثاني أصبح منظوراً بالابن. ويلزمنا أن نزيد الأمر هنا وضوحاً، فكل فعل وفكر ومشيئة وتدبير عند الآب يقوم الابن أولاً باستعلانه للمنظور، ثانياً بتنفيذه عملياً في واقع الإنسان. وبين الفعل وتنفيذه والفكر واستعلانه والمشيئة وتكميلها والتدبير وإخراجه لحيز الوجود المنظور تساو كامل ومطلق في القوة والحكمة والمعرفة. لذلك لا يصح ولا يجوز أن نقول إن الابن يعتمد في عمله أو كلامه أو تعليمه على الآب، وإلا لزم أن نقول بالتال أن الآب يعتمد على الابن بنفس المقدار، لأنه إن كان الابن يعتمد على الآب في معرفته لكيفية العمل والقول، فالآب يعتمد على الابن في كيفية التنفيذ الدقيق الكامل. ولكن الأصح أن لا نقول بالإعتماد أحدها على الآخر، بل نقول بالإتفاق المطلق والتساوي المطلق بين عمل الآب وعمل الابن، فالمشيئة واحدة والعمل واحد والفكر واحد والكلمة واحدة عند الآب والابن، ولكنها غير منظورة لنا عند الآب ومنظورة لنا بالابن. فالابن يرى ما عند الآب وينفذ أمامنا ما يراه. والابن يسمع ما عند الآب ويقول لنا ما يسمعه. والابن يعرف مشيئة الآب ويكمل المشيئة كما هي. وهنا يتحتم أن نفهم أن «القدرة» على تنفيذ كل ما عند الآب تنفيذاً كاملاً تماما يستلزم نفس «القدرة» التي عند الآب، وإلا ما استطاع المسيح أن يُخرج إل حيز الوجود والعمل كل ما يريده الآب ويشاءه!! وهذه هي رسالة الابن، بحسب قدرته المساوية للآب، أن يعرفنا بالآب ويستعلن لنا كل ما عند الآب، لأنه لا توجد خليقة كائنة ما كانت، سواء رؤساء ملائكة أو ملائكة أو أنبياء، يستطيعون أن يعرفوا أو يروا الله كما هو، أو يدركوا مشيئته كما هي، أو يسمعوا صوته، أو يفهموا حكمته، سوى الابن الوحيد. لذلك يقول المسيح نفسه: «الله لم يره أحد قط الابن

الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبر.» (يو ١:١٨)

«دينونتي عادلة»: قالوا إن العدالة هنا يستمدها المسيح من الله. ولكن لو صح هذا لفقدنا وظيفة المسيح في حد ذاتها. لأنه إن كان الله هو الذي سيدين بدون المسيح فمن سيخلص؟ المسيح هنا له دور فقال في الدينونة، ليس معنا بل مع الله أبيه أولاً. فقد تبوأ مركزاً جديداً أمام الله الدان من واقع تجسده وموته الكفاري، وهو دور الشفيع! وشفاعة المسيح ليست كلامية بل كدافع ديون! فقد استطاع المسيح بتقديم ذبيحة نفسه من أجل الخطاة أن يطالب باستحقاق براءة موكليه بمقتضى الدم المسفوك المتكلم والمُطالب بأقصى حدود الرحمة أمام قضاء الله على العصاة. والآب ارتضى بالمسيح مصالحاً، وقد وكله رسمياً أن يصالح له العالم بدم صليبه. فبعد المداولة، يسمع المسيح من الآب الحكم وينطقه. ولكن ما أعدلها دينونة، تلك التي تعتمد في نطقها على شفاعة الدم المسفوك.

«لأني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني»: مشيئة المسيح هي، كلياً وجزئياً، أن يصنع مشيئة الآب: «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو ٤:٣٤). وأما ما هي مشيئة الآب فهي هكذا: «هذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا يُفقد منه شيئاً، بل أقيمه في اليوم الأخير. لأن هذه هي مشيئة الذي أرسلني أن كل من يرى الابن ويؤمن به تكون له حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (يو٦:٣٩-٤٠). فإن كانت مشيئة الآب هكذا تنسجم انسجاماً بديعا مح إرادة الابن الذي أخذ على عاتقه تنفيذها بكل قدرته وقوته، ثم إن كانت مشيئة الآب هكذا حفظ أولاده من الشرير وهذا كان هو هو عمل الابن الوحيد، فقد تطابقت مشيئة الآب على عمل الابن، والنتيجة هي ارتفاع عدالة الدينونة بعمل الابن.

ولكن هذه العدالة المعتمدة أساساً على شفاعة دم المسيح، هي بدورها شديدة الوطأة على الرافضين. صحيح أن اليهود الذين يخاطبهم المسيح هنا كان فكرهم خالياً من موضوع الدم والشفاعة، ولكن لم يكن فكر المسيح يخلو منه ولا فكر كاتب الإنجيل. فدينونة المسيح العتيدة تستمد قوتها بل رحمتها من قضية الصليب وهكذا الموت التعسفي الذي جازه وحيثيات الحكم الذي اتحذه المسيح أساساً لتبرئة الخطاة: «من سيشتكي على مختاري الله؟ الله هو الذي يبرر، من هو الذي يدين؟ المسيح الذي مات بل بالحري قام أيضاً، الذي هو أيضاً عن يمين الله (تعادل القصاة) الذي أيضاً يشفع فينا.» (رو٨:٣٣-٣٤)

القسم الثالث من الأصحاح الخامس

الشهادة للابن: من المعمدان، من الآب، من الأعمال، من الأسفار

(٥:٣١-٤١)

المسيح يدعم مركزه الإلهي كديان بالشهادة أمام اليهود، والقديس يوحنا ينتفع من وراء ذلك بتدعيم الإيمان بالمسيح لدى المؤمنين .

٣١- «إِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي لَيْسَتْ حَقّاً.

يُلاحظ في إنجيل يوحنا أن الشهادة تأتي دائماً مدعمة بالدينونة. لقد كانت الآيات السالفة مرتكزة عل محور الدينونة. والآن ينتقل المسيح من استعلان عمله كديان إلى تدعيم هذا العمل الإلهي بالشهادة. وبادىء ذي بدء، فالمسيح كما سنرى لا يقبل الشهادة من إنسان (٥:٣٤) تماماً كما أنه لا يقبل مجداً من إنسان (٥:٤١).

هذا له معنى لدى المسيح، سواء طرحه أمام اليهود أو طرحناه نحن على مستوى اللاهوت، لأن الذي يعتمد على

شهادة الناس يحتاج إلى الناس ويعتمد عليهم، وهذا لا يستقيم عند المسيح ولا يستقيم لاهوتياً.

ولكن أيضاً إن كان المسيح يشهد لنفسه أمام اليهود، فهو يضع نفسه تحت معايير أحكامهم بالقبول أو الرفض، فيظهر كمن يبحث عن أو يطلب استحسانهم أو موافقتهم، وكأنه يطب مجداً من الناس لنفسه.

لذلك، فلكي يكون المسيح حرا من الناس، وهو بالحق كذلك، رفض أيضاً أن يشهد لنفسه أمامهم، مع أنه له الحق أن يشهد لنفسه (١٤:٨) وقد أعطى المبرر لذلك في حينه.

وهكذا رفض المسيح أن يقبل شهادة من أحد، كما رفض أن يشهد لنفسه، ولم يحسب مجداً من الناس أمراً يهمه!

أما قول المسيح «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً»، فهذا يعني به أنها ليست حقاً لدى اليهود وحسب معاييرهم، ناموسية كانت أو عرفية. لأننا نعلم بحسب الحق أن شهادة المسيح هي الحق بعينه.

ولكن المسيح هنا يقطع خط الرجعة على المتشككين والرافضين، فلا يعطيهم فرصة للمعارضة. ولا يسمح لهم أن يظنوا عنه أنه يطلب أن يتمجد في أعينهم! أي في عين بشر. وهنا يظهر بوضوح حذر المسيح من أن يجعل خط استعلانه الإلهي سواء للآب أو لنفسه أن يتداخل فيما هو بشري. فالحق الإلهي كالمجد الإلهي، ليس في عوز ما إلى ما هو بشري قط.

ولكي نتأكد من هذا الأسلوب الإلهي الذي يسير عليه المسيح، يمكن أن نسمعه وهو يؤكد ذلك من وجهة نظره الحرة هكذا: «فقال له الفريسيون أنت تشهد لنفسك، شهادتك ليست حقاً»، بحسب العرف والناموس اليهودي الإنساني، فكان رد المسيح مُفحماً هكذا: «أجاب يسوع وقال لهم وان كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق، لأني أعلم من أين أتيت والى أين أذهب، وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتي ولا إلى أين أذهب» (٨:١٣-١٤). هنا المسيح يقول ما معناه: وإن كنت أرفض أن أشهد لنفسي بحسب معيار العالم الذي ينظر إلى من يشهد لنفسه على أنه يطلب مجد نفسه، إلا أني اشهد لنفسي ولكن ليس بحسب معيار العالم الذي لا يعرفني ولا يعرف المجد الذي أتيت منه ولا المجد الذي أنا ذاهب إليه، بل اشهد لنفسي بحسب معرفتي لذاتي من أين أنا وإلى أين أنا!!

٣٢- الَّذِي يَشْهَدُ لِي هُوَ آخَرُ وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ الَّتِي يَشْهَدُهَا لِي هِيَ حَقٌّ.

لقد أخطأ من قال إن المسيح يتكلم هنا عن شهادة يوحنا المعمدان. فشهادة المعمدان، كما سيذكرها المسيح بعد ذلك، وصفها المسيح بأنها كانت مؤقتة وجاءت وكأنها مجاملة أو لتسوية الوضع أمام الفريسيين الذين سألوه. في حين أن المسيح يتكلم هنا عن الشهادة التي تقيم حجته أنه الديان!! والتي عليها يبني المسيح أصالة وجوده ورسالته وتعاليمه! وسيجيء ذكرها بالتفصيل بعد ذلك سواء في الأية (٣٧) أو في الأصحاح ٨:١٨.

كذلك يلاحظ أن الفعل «يشهد» يجيء في زمن المضارع الدائم، وهذا لا يستقيم إطلاقا في حالة شهادة إنسان مثل المعمدان، ولكن يطابق الشهادة من الله.

«وأنا أعلم»: هنا يأتي الفعل «أعلم» الذي يفيد المعرفة الكاملة والمطلقة وهي تختلف عن المعرفة التي تأتي بالبحث والاختبار (   ) والتي جاءت بعد ذلك في الآية (٤٢). «ولكني قد عرفتكم أن ليست لكم محبة الله في أنفسكم».

ويلاحظ أن قول المسيح هنا يشير إشارة سرية بليغة إلى علاقة المسيح بالآب كونها شخصية وكاملة ومطلقة، وكونها إحدى الثوابت العميقة التي يحياها المسيح في داخله.

«إن شهادته التى يشهدها لى هى حق»: تأتي بنوع من التعيين والتخصيص، والتي تفيد الإستمرارية ذات

الوضوح والبرهان الداخلي والتأكيد الشخصي لدى المسيح. ثم قوله «إنها حق» يفيد المعرفة الفائقة.«الأليثيا» وهو الحق الثابت الإلهي. و يلزم هنا أن نمتد أكثر لنسمعه يقول عن الآب بالسبة لليهود أنهم «لا يعرفونه» سواء في الآيات ٥:٣٧-٣٨ أو ٨:١٩.

هنا تتضح معرفة المسيح بالآب أنها فوق الناموس والأنبياء والإجتهاد بكل صنوفه، كما يتضح في نفس الوقت علة عدم قبول اليهود للمسيح وهي الحجاب الكثيف الذي يحجز اليهود عن التعرف على الابن بسبب تغريبهم عن الله الآب، أي تمسكهم بالحرف، فعُميت أعينهم عن «الكلمة» بمفهومها وواقعها الحي. وهذا ما أشار إليه المسيح بعد ذلك بقوله: «وليست لكم كلمته ثابتة فيكم.» (٥:٣٨).

٣٣- أَنْتُمْ أَرْسَلْتُمْ إِلَى يُوحَنَّا فَشَهِدَ لِلْحَقِّ.

٣٤- وَأَنَا لاَ أَقْبَلُ شَهَادَةً مِنْ إِنْسَانٍ وَلَكِنِّي أَقُولُ هَذَا لِتَخْلُصُوا أَنْتُمْ.

يلاحظ القنارىء المقارنة بين «أنتم» و «أنا». «أنتم» كان يهمكم أن تسمعوا شهادة من إنسان، أما «أنا»» فلا أقبل شهادة من إنسان! ولكني أقول ذلك لكم، لكى أذكركم بما عملتموه وسمعتموه منه، لأنه قال لكم الحق وشهد له أمامكم، لعلكم تخلصون.

ويظهر حذق القديس يوحنا الباهر هنا في أنه ذكر شهادة المعمدان مباشرة في هذه الآية بعد أن ذكر شهادة الآب «آخر»، (غير نفسه)، في الآية السابقة. وهذا لكي يقطع خط الرجعة عل من يفكر أن المسيح بقوله: «أخر» كان يقصد المعمدان. ولكن للأسف لم ينتبه كثير جداً من الشراح لهذه اللفتة.

والسبب الذي أغوى الشراح في الخلط بين الـ «أخر» وهو الآب وبين شهادة المعمدان، هو أن المسيح ألمح لشهادة الآب بلغة خاصة وسرية إلى حد ما. لأن كلمة «أخر» هي في الحقيقة تكملة لـ «أنا»، أى أنها شهادة اثنين «أنا والأخر». والعجيب أذ يظن الشراح أن الأخر هو المعمدان، فهل المعمدان يمكن جمعه مع «أنا» المسيح لتكون شهادة واحدة حسب الحق؟

«أنتم أرسلتم... فشهد»: يلاحظ هنا في الوضع التاريخي للشهادة التي أعطاها القديس يوحنا، أنها جاءت في الماضي بكل ملابساتها؛ صحيح أنه شهد للحق، وهذا كان يلزم أن يؤول إلى إيمان اليهود بالمسيح ليخلصوا. ولكن شهادته انتهت، ونُسي المعمدان، وبقيت شهادته، وذلك بالنسبة للفريسيين الذين يبحثون عن الحق عبثاً. شهادة المعمدان بصفته المُرسل من الله للشهادة كانت بحسب الحق تماماً، وهذا يوضح أن اليهود عثروا ليس فيمن شهد له المعمدان بالحق، أي المسيح، ولكنهم أيضاً عثروا في الله الذي أرسل المعمدان ليشهد للحق، وبالضرورة عثروا في الحق ذاته، فصارت شهادة المعمدان ضدهم: «جميع الشعب إذ سمعوا والعشارون برروا الله، معتمدين بمعمودية يوحنا. وأما الفريسيون والناموسيين فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه.» (لو٧:٢٩-٣٠)

٣٥- كَانَ هُوَ السِّرَاجَ الْمُوقَدَ الْمُنِيرَ وَأَنْتُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَبْتَهِجُوا بِنُورِهِ سَاعَةً.

«كان» فعل ماض أي «ليس هو الآن»، ربما في السجن أو قد مات، ولكن على كل حال قد توقف عن الإشتعال والإنارة. «لم يكن هو النور» عل كل حال «بل جاء ليشهد للنور»، فالمصباح يوقد لكي ينير، ولكه لا ينير من ذاته. والمصباح يستهلك ذاته، فالنور الذي يعطيه وقتي رإلى زمن محدود.

«وأنتم أردتم أن تبتهجوا بنوره ساعة»: هنا الكلام سري للغاية، فالمسيح يراجع اليهود لأنهم ظنوا المعمدان

أنه المسيا، وهكذا برزت الإرادة البشرية الخاطئة محاولة أن تلزم الإرادة الإلهية أن يكون هو المسيا، وقد هللوا له، مفتعلين البهجة للخلاص الكاذب «ساعة» في حين أن بهجة الخلاص «أبدية». وهكذا تبدو الإشارة هنا سرية حزينة وخطيرة للغاية بخصوص سجن المعمدان وموته السريع جداً، أليس خطأهم الشنيع في التعرف على النور الحقيقي وجعلهم المعمدان نوراً عوض كونه شاهداً للنور هو الذي أسرع بإنهاء رسالة المعمدان؟ أرادوا، بعناد قلبهم وزيف رؤياهم، أن يبتهجوا بنوره ساعة ففقدوه إلى الأبد؟ لقد شهد المعمدان نفسه أن نور مصباحه يلزم أن ينقص ليزداد النور الحقيقي» ولكنهم أرادوا أن يشعلوه بزيادة فانطفأ بين أيديهم!! وعوض أن يؤمنوا بشهادته ليخلصوا، عثروا في نوره فانعمت بصائرهم عن الحق الذي شهد له.

٣٦- وَأَمَّا أَنَا فَلِي شَهَادَةٌ أَعْظَمُ مِنْ يُوحَنَّا لأَنَّ الأَعْمَالَ الَّتِي أَعْطَانِي الآبُ لِأُكَمِّلَهَا هَذِهِ الأَعْمَالُ بِعَيْنِهَا الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا هِيَ تَشْهَدُ لِي أَنَّ الآبَ قَدْ أَرْسَلَنِي.

الأعمال عند المسيح يضعها في أعلى وأقصى اهتماماته، فهي برهان إرساليته والأساس الذي يبني عليه رسالته:

+ «الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لي.» (يو ١٠:٢٥)

+ «أعمالاً كثيرة حسنة أريتكم من عند أبي.» (يو ١٠:٣٢)

+ «إن كنت لست أعمل أعمال أبي، فلا تؤمنوا بي. ولكن إن كنت أعمل، فإن لم تؤمنوا بي، فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب في وأنا فيه.» (يو ١٠:٣٧-٣٨)

+ «الآب الحال في هو يعمل الأعمال. صدقوني إني في الآب والآب في» وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها.» (يو ١٤:١٠-١١)

+ «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية، وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي.» (يو ١٥:٢٤)

+ «طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله.» (يو ٤:٣٤).

+ «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته.» (يو ١٧:٤)

فالأعمال عند المسيح في الواقع تغطي حياته على الأرض كمُستعين لله الآب. وكلها تصب في اتجاهين متقابلين: الدينونة، وإعطاء الحياة؛ وهما محور رسالته بكل ما تشمله من تعليم وصُنع آيات، أى بالقول والفعل، وهذه هي بعينها شهادته التي يشهد بها على الدوام. وهذه هي التي يقول عنها أن له شهادة أعظم من يوحنا.

فالعمل عند المسيح شهادة متواصلة، يشهد بها وتشهد له، فهي الحق والحق شهادة بحد ذاته! لذلك فكل كلمة وكل فعل في المسيح يحمل عنصراً إيمانياً لأنه يحمل الحق. فإذا توافق مع الفكر، اهتز له القلب في الحال وتجلى المسيح بالإيمان. من هنا كان اهتمام المسيح بتكميل الأعمال التي أعطاه الآب بالغ الحد، لأنها كما قلنا تشهد له أبلغ شهادة ليس في أذان الناس بقدر ما في قلوبهم. لذلك صح القول: «من قبل شهادته (أي آمن بالقول والعمل) فقد ختم أن الله صادق» (يو ٣:٣٣)

وهذا عجيب جداً وجدير بنا أن نلتفت إليه، فإيماننا بالمسيح هو بعينه تصديق الله، بمعنى أنه يمجد الله أيضاً: «هذه هي شهادة الله التي قد شهد بها عن ابنه، من يؤمن بابن الله فعنده الشهادة في نفسه. من لا يصدق الله فقد جعله كاذباً لأنه لم يؤمن بالشهإدة التي قد شهد بها الله عن ابنه.» (ايو ٥:٩-١٠)

هنا أيضاً جدير بنا أن نلتفت إلى قوة الكلام، فالذي يؤمن بابن الله يصبح وله شهادة في قلبه مدموغة بصدق الله

ولا يعود في حاجة أن يطلب مزيداً من شهادة أو مزيداً من تأكيد. فالإيمان بالمسيح يحمل تأكيده فيه لأنه هو شهادة صدق الله. وهل ممكن أن يكون فوق شهادة صدق الله شهادة تصديق أيضاً؟

والمسيح يؤكد لنا ذلك بقوة وفي سر، لكل من يفتح قلبه ليفهم: «أجابهم يسوع وقال تعليمي ليس لى بل للذي أرسلني. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته (مشيئة الله) يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي. من يتكلم (ويعمل) من نفسه يطلب مجد نفسه وأما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم.» (يو٧:١٦-١٨)

«الأعمال التي أعطاني الآب لأُكملها»:

+ «الأعمال التي أعطاني الآب.» (يو٥:٣٦) القديس يوحنا يختص بالتشديد عل «العطاء» في علاقة الآب بالابن.

+ «الآب يحب الابن وقد دفع كل شيء في يده. « (يو٣:٣٥)

+ «يسوع وهو عالم أن الآب قه دفع كل شيء إلى يديه وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضى..» (يو١٣:٣)

+ «الآب لا يدين أحداً، بل قد أعطى كل الدينونة للابن» (يو٥:٢٢)

+ «وأعطاه سلطاناً أن يدين أيضاً لأنه ابن الإنسان.» (يو ٥:٢٧)

+ «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضاً أن تكون له حياة في ذاته.» (يو ٥:٢٦)

+ «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني، أن كل ما أعطاني (المختارون) لا أتلف منه شيئاً بل أقيمه في اليوم الأخير.» (يو٦:٣٩)

+ «إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته. (يو١٧:٢)

+ «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته. (يو١٧:٤)

+ «أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم. كانوا لك، وأعطيتهم لى .» (يو١٧:٦)

+ «كنت أحفظهم في اسمك الذين أعطيتني.» (يو١٧:١٢)

+ «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم.» (يو١٧:٢٤)

+ «الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم.» (يو١٢:٤٩)

لكي نفهم مستوى فعل العطاء بين الآب والابن يلزم أن نفهم أن العطاء من الآب إلى الابن هو بالأساس للاستعلان ثم للتكميل.

فعمل الآب يعطيه الآب للابن، ليخرجه إلى حيز الوجود. لذلك فعمل الابن هو استعلان بالفكر والفعل لنفس عمل الآب على مستوى التنفيذ. فكل شيء وكل عمل وكل مشيئة هي عند الآب غير منظورة، والآب يعطيها للابن ليظهرها، أو يعطي الابن أن يظهرها ويعلنها على مستوى الفعل والواقع المنظور.

لذلك، فالأعمال عند الآب والابن هي واحدة، غير منظورة عند الآب ومنظورة بالابن. من هذا نفهم أن «العطاء» في الله من الآب للابن لا يفيد الأخذ بالنسبة للابن بمفهومه السالبي، كما لا يفيد التكليف بنوع الأمر من الأعلى للأقل بل هو للتكميل فالابن يكمل عمل الآب.

واضح هنا الهدف من إعطاء الآب الأعمال للابن، حيث كلمة «يكملها» تفيد التكميل حتى النهاية أو حتى الكمال. إذن، فليس مجرد التكميل ولا مجرد النهاية، بل المعنى يتضمن بلوغ النهاية الحقيقية، فالعمل ليس للتكميل بل للكمال: أي يكملها كمالاً ولس تكميلاً. وهذا الأسلوب العجيب الذي اختص به القديس يوحنا يجعلنا نرى الأعمال

التي يعملها الابن دائماً في مستوى «الكمال المسيحي»: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته (كمالاً) (يو ١٧:٤)

+ «أنا فيهم وأنت في ليكونوا مكملين (كمالاً) إلى واحد.» (يو ١٧:٢٣)

+ «بعد هذا رأى يسوع أن كل شيء قد كمل (كمالاً)، فلكي يتم الكتاب قال أنا عطشان.» (يو١٩:٢٨)

ويشترك القديس بولس في سفر العبرانيين في هذا الأسلوب من جهة الكمال المسيحي: «لأنه لاق بذاك الذي من أجله الكل وبه الكل، وهو آت بأبناء كثيرين إلى المجد، أن يكمل رئيس خلاصهم بالألام: (عب٢:١٠). هنا يرتفع مفهوم الآلام إلى مستوى بلوغ الكمال.

+ «وإذ كمل، صار لجميع الذين يطيعونه سبب خلاص أبدي.» (عب ٥:٩)

٣٧- وَالآبُ نَفْسُهُ الَّذِي أَرْسَلَنِي هو يَشْهَدُ[1] لِي. لَمْ تَسْمَعُوا صَوْتَهُ قَطُّ وَلاَ أَبْصَرْتُمْ هَيْئَتَهُ.

٣٨- وَلَيْسَتْ لَكُمْ كَلِمَتُهُ ثَابِتَةً فِيكُمْ لأَنَّ الَّذِي أَرْسَلَهُ هُوَ لَسْتُمْ أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِهِ.

المسيح ينتقل من شهادة الأعمال التي يعملها، وهي نفسها أعمال الآب، إلى شهادة الآب نفسه بصورة مباشرة: «لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني» (يو٨:١٦). وهو يعود ويكرر ذلك في نفس الأصحاح بقوله: «الذي أرسلني هو معي ولم يتركني الآب وحدي لأني في كل حين أفعل ما يرضيه» (يو٨:٢٩). لذلك فمن المستحيل أن نتصور الابن وحده بدون الآب بأي حال من الأحوال.

لذلك حينما يشهد الابن لنفسه، تكون شهادة الآب مع شهادته حتماً: «أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لى الآب الذي أرسلني» (يو٨:١٨). هكذا تأتي شهادة الآب في الأصحاح الثامن في صيغة الفعل المضارم الدائم.

أما شهادة الآب في الآية التي نحن بصددها فقد جاءت بالفعل الماضي (٥:٣٧)، وهي الشهادة الذي شهد بها الله على فم الأنبياء كما جاءت في الأسفار المقدسة، والتي انتهت بشهادة المعمدان، والتي على أساسها ذكر المسيح «كلمة الله»، في الأسفار، موبخاً اليهود أنهم لم يثبتوا فيها: «وليست لكم كلمته ثابتة فيكم» (يو٥:٣٨)، كذلك عاد فذكر الأسفار بوضوح في الأصحاح العاشر قائلاً إنها تشهد له (١٠:٣٥).

«لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتم هيئته. وليست لكم كلمته ثابتة فيكم، لأن الذي أرسله هو لستم أنتم تؤمنون به»: المسيح يبدأ هنا يستعلن ذاته على أنه هو هو صوت الآب وهيئته، وكلمته أيضاً، ولكن ليس بالعيان بل بالإيمان؛ ليس برؤية العين وسماع الأذن التي انحبست في الماديات، وإما بالعين الروحية التي يمكن أن ترى الله في المسيح، والأذن الروحية المفتوحة على صوت الله في المسيح الذي هو الوعي المسيحي. فاليهود إذ رفضوا المسيح، رفضوا صوت الله، وانحجب عنهم الله واختفى من محيط حياتهم لما عجزوا أن يتحققوا من المسيح. أما كلمته، التي بثها في الأ سفار، فضاعت من متناول إدراكهم .

المسيح يوضح هنا أن قبول «إرسالية المسيح» هو بعينه الانفتاح على صوت الله وكلمة الله وهيأته، وإرسالية المسيح مثبتة وواضحة في الأسفار المقدمة، والمسيح هو نفسه كلمة الله في الأسفار. فلو كانوا أخلصوا للأسفار المقدسة وثبتوا في كلمة الله، لكان من السهل عليهم أن يؤمنوا بالمسيح. والتأكيد هنا على الشهادة، شهادة الله للمسيح التي أكملها لهم في الأسفار المقدسة.

---

[1] الترجمة العربية هنا يلزم أن تُصحح: فهي في اليونانية جاءت في الماضي التام: «قد شهد»

٣٩- فَتِّشُوا الْكُتُبَ لأَنَّكُمْ تَظُنُّونَ أَنَّ لَكُمْ فِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً. وَهِيَ الَّتِي تَشْهَدُ لِي.

هنا بلغ المسيح نهاية التوضيح. فاللوم عليهم شديد، لأنهم وهم متخصصون في البحث في الأسفار المقدسة وشرحها وتأويلها، كيف بعد هذه السنين كلها من البحث والتفتيش لم ينفتح ذهنهم على سر الحياة الأبدية الكائنة في الأسفار ليدركوا منها الأمور المختصة بالمسيح؟ فالشهادة التي تقدمها الأسفار للمسيح غزيرة وواضحة: «ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء يفسر لهما الأمور المختصة به في جميع الكتب» (لو٢٤:٢٧). فالأسفار المقدسة هي بحد ذاتها استعلان كامل للمسيح، وهي لم تترك شيئاً من حياته وأعماله وموته وقيامته والخلاص الذي أكمله بالفداء بذبيحة نفسه إلا وتعرضت له في أكثر من موضع. إن شهادة الأسفار للمسيح تكاد تكون صورة كاملة طبق الأصل من حياته وأعماله:

+ «لأنه أخذ من الله الآب كرامة ومجداً، إذ أقبل عليه صوت كهذا من المجد الأسنى: هذا هو ابني الحبيب الذي أنا سررت به. ونحن سمعنا هذا الصوت مُقبلاً من السماء إذ كنا معه في الجبل المقدس. وعندنا الكلمة النبوية وهي أُثبتت، التي تفعلون حسناً إن انتبهتم إليها كما إلى سراج منير في موضع مظلم، إلى أن ينفجر النهار ويطلع كوكب الصباح في قلوبكم. عالمين هذا أولاً أن كل نبوة الكتاب ليست من تفسير خاص لأنه لم تأت نبوة قط بمشيئة إنسان، بل تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس.» (٢بط١:١٧-٢١) ويعود القديس بطرس لموضوع البحث والتفتيش في الكتب وفي الزمان من المسيح هكذا:

+ «الخلاص الذي فتش وبحث عنه أنبياء الذين تنبأوا عن النعمة التي لأجلكم، باحثين أي وقت أو ما الوقت الذي كان يدل عليه روح المسيح الذي فيهم، إذ سبق (بالنبوة) فشهد بالآلام التى للمسيح والأمجاد التى بعدها.» (ابط١:١٠-١١)

«فتشوا»: في المعنى اليوناني تدل على الفحص الدقيق الشديد المثابر للأسفار، الذي يتجه ناحية التأويل والتفسير الروحي والسري للمدراش. وللتدليل على هذا المعنى نأتي بقول للعلامة الفريسي اليهودي هلليل: [قد اعتاد هلليل القول: مزيد من التوراة، مزيد من النار!! من اقتنى كلمات التوراة، اقتنى لنفسه حياة الدهر الآتي]. ويتمادى العشق القلبي والفكري بكلمات التوراة عندهم حتى قالوا: [إن التعرف على الله في التوراة، حتى ولو لم يكن مصحوباً بتوبة، يجعلها تعطي غفراناً للخطايا]. طبعاً خطأ لأن التعرف على الله يأتي ومعه التوبة.

المسيح لا يقول لهم «فتشوا» لكي يبدأوا ويفتشوا؛ بل هو يراجع عليهم مهنتهم في المعرفة وجهادهم في الدراسة التي كلها باءت بالفشل. لقد ظنوا أن في الحرف، الناموس، حياة فاشتبكوا مع الموت، (كسر السبت)، وما قاموا ولا استقاموا. ولم تأت مراجعة الرب لهم من فراغ، لقد واجههم بالعلة القاتلة التي قتلت فيهم حاسة الكلمة والحياة والروح: «ليست لكم محبة الله في أنفسكم» (٥:٤٢). وليس هذا فقط بل: «وتقبلون مجدا من بعضكم بعض، والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه.»(٥:٤٤)

والمسيح يضمن اتهامه حقيقة مخفية غاية في الأهية وهي: إن كونهم قد أخفقوا أن يسمعوا صوت المسيح يعني أنهم أخفقوا في أن يسمعوا صوت الله في الأسفار!! وهذا عودة مرة أخرى للآية (٢٤): «الحق الحق أقول لكم: إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية». اليهود كانوا يبحثون عن الحياة الآبدية بواسطة تفتيشهم للأسفار. كانوا يجرون وراء صوت الله! وها هوذا صوت الله في فم المسيح؛ ولكنهم لأنهم لم يكونوا على مستوى صوت الله في الأسفار لم يجدوه، فعثروا فى صوت المسيح ولم يتبينوه!

٤٠- ولاَ تُرِيدُونَ أَنْ تَأْتُوا إِلَيَّ لِتَكُونَ لَكُمْ حَيَاةٌ.

المسيح هنا ينبههم، وكأنه يقول لهم إنتبهوا، شهادة الله لى في الأسفار لا تزال قائمة أمامكم، إنتبهوا، أنا هو صوت الله!! لا تفوتوا الفرصة على أنفسكم، تعالوا لأن عندي حياة لكم!! الحياة الأبدية التي تفتشون عليها في الأسفار هي معي، هي فيّ، هي أنا: «فإن الحياة أُظهرت وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا.» (ايو ١:٢)

«ولا تريدون...لتكون لكم حياة»: إنها أخطر جريمة يقترفها الإنسان ضد نفسه! حينها يشعر بالدعوة للعودة إلى الله!! ويكون باب الحياة قد فُتح أمامه، والصوت يدعوه مُلحا في الدعوة، مُشفقاً، مُشجعاً، متوسلاً!! فتقف الإرادة لتسد منفذ الحياة، متهللة بعلل كلها الضلال والموت بعينه!!

٤١- «مَجْداً مِنَ النَّاسِ لَسْتُ أَقْبَلُ.

تتمشى الشهادة مع المجد في إنجيل القديس يوحنا سلباً وإيجاباً. المسيح لا يقبل شهادة من الناس لذلك لا يقبل المجد أيضاً من الناس. لأن كلا الوصفين يتلزم الاعتماد على الإنسان والخضوع لمعايير البشر.
المسيح يطرح هذه الآية أمام اليهود تأميناً لهم حتى يأتوا إليه. فهو لا يطلب المجد لنفسه ولا يقبله من أحد، ولكن يطلبهم هم ليقبلوا إليه. المسيح يكرر بأسلوب آخر ما سبق أن قاله «وأنا لا أقبل شهادة من إنسان. ولكني أقول هذا لتخلصوا أنتم.» (يو ٥:٣٤)

القسم الرابع من الأصحاح الخامس

أسباب عدم إيمان اليهود

(٥:٤٢-٤٧)

٤٢- وَلَكِنِّي قَدْ عَرَفْتُكُمْ أَنْ لَيْسَتْ لَكُمْ مَحَبَّةُ اللَّهِ فِي أَنْفُسِكُمْ.

تسلل الأفكار يأتي هكذا: المسيح لا يقبل المجد من الناس، لأن مجد المسيح الوحيد هو مع الآب وفيه. ولا أحد يستطيع أن يأتي إلى المسيح إن لم يجتذبه الآب أولاً، اليهود «لا يريدون» أن يأتوا إلى المسيح، لأن الآب لا يجتذبهم، والآب لا يجتذبهم لأنهم ليست لهم محبة الله في أنفسهم. لو كانوا أحبوا الله، لجاءوا إلى المسيح بإرادتهم. لذلك، فرفضهم للمسيح علامة على أنهم في عداوة مح الله. لقد أصابهم المسيح هنا في مقتل!!!

«عرفتكم»: عن اختبار ويقين، المسيح هنا يستعلن مخبآت قلوبهم، المخفية ليس عن عين الله بل عن أعينهم هم!! فالفاقد لمحبة الله لا يعلم أين يسير، لأن الظمة قد أعمت عينيه!!

«في أنفسكم»: المحبة موجودة حتماً في أفواههم وفي محفوظاتهم ونصوص إيمانهم، فهي أول الوصايا. ولكن المسيح فحص أنفسهم فلم يجدها!! واذا غابت المحبة عن القلب، سكنت البغضة: «وأما الأن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي. كن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم إنهم أبغضوني بلا سبب.» (يو١٥:٢٤-٢٥)

٤٣- أَنَا قَدْ أَتَيْتُ بِاسْمِ أَبِي وَلَسْتُمْ تَقْبَلُونَنِي. إِنْ أَتَى آخَرُ بِاسْمِ نَفْسِهِ فَذَلِكَ تَقْبَلُونَهُ.

تغرب اليهود عن محبة الله أفقدهم القدرة على التعرف على المسيح لما جاء باسم الآب، مع أن «قوة الاسم» عاملة في المسيح، ولها برهانها القوي في تعاليم المسيح وأعماله. كيف تغاضى اليهود عن ذلك؟ هذا في الحقيقة محير لعقولنا للغاية! هذا بالإضافة إلى التحذير المخيف الذي أنذر به الله الذين لا يطيعون المسيا الآتي والمتكلم باسم

الله: «ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به «باسمى» أنا أطالبه» (تث١٨:١٩). ولكن فقدان حب الله أفقدهم كل ما هو لله، فلم تبق لهم إلا ما هو لأنفسهم. لذلك، إن جاءهم من يتكلم باسم نفسه، رأوا فيه أنفسهم فيقبلونه.

٤٤- كَيْفَ تَقْدِرُونَ أَنْ تُؤْمِنُوا وَأَنْتُمْ تَقْبَلُونَ مَجْداً بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ؟ وَالْمَجْدُ الَّذِي مِنَ الإِلَهِ الْوَاحِدِ لَسْتُمْ تَطْلُبُونَهُ؟.

«كيف تقدرون أن تؤمنوا»: الإيمان في أبسط وأقوى صوره هو «تمجيد الله» بالقول والعمل؛ ثمر الإيمان الفاخر هو التسبيح بمجد الله على الدوام. إذا انشغل المؤمن بتمجيد الآخرين ضعفت قوة تسبيح الله من قلبه. والذي انشغل بتسبيح مجد الناس عجز لسانه عن النطق بمجد الله.

فإذا كان انشغال الإنسان بتمجيد الناس هكذا يحط من قدرته على عمل واجبات الإيمان نحو الله، فكم بالحري إذا انشغل إنسان بطلب المجد لنفسه؟

وإذا كان طلب الإنسان المجد لنفسه هكذا يحطه عن أداء واجبات الإيمان من نحو الله، فكم أيضاً يكون لو استهان ولم يطلب ولم يعط المجد الذي للاله الواحد؟ ثم أليست هذه هي العلة التي أنهت على مجد إسرائيل وبني إسرائيل وأتت بالخراب على الهيكل والمدينة والشعب والأمة؟ وأطاحت بالميراث والتراث؟ وعلى الناس أن يختاروا بين مجد الله ومجد أنفسهم!

٤٥- «لاَ تَظُنُّوا أَنِّي أَشْكُوكُمْ إِلَى الآبِ. يُوجَدُ الَّذِي يَشْكُوكُمْ وَهُوَ مُوسَى الَّذِي عَلَيْهِ رَجَاؤُكُمْ.

المسيح يحيل قصية اليهود على محكمة الإختصاص: أي الناموس بقيادة موسى، لأن وظيفة الابن تبقى كمُصالح وشفيع لدى الآب فقط عن الذين يؤمنون به؛ أما من أخطأ في الناموس وتعدى ولم يعط الكرامة لمن له الكرامة، فبالناموس يُدان. وإن كنتم تلاميذ موسى، حسب ما تقولون، فموسى يطالب. والمسيح هنا يوقعهم في تناقض مشين، لأنهم بتصرفهم المعادي للمسيح وتمسكهم بناموس موسى فى آن واحد، يظهرون ويكشفون تناقضهم. فموسى كتب عن المسيح فكيف يعادونه، إن كانوا يؤمنون بموسى وإله موسى حقاً.

٤٦- لأَنَّكُمْ لَوْ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ مُوسَى لَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي لأَنَّهُ هُوَ كَتَبَ عَنِّي.

٤٧- فَإِنْ كُنْتُمْ لَسْتُمْ تُصَدِّقُونَ كُتُبَ ذَاكَ فَكَيْفَ تُصَدِّقُونَ كلاَمِي؟»

موقف خطير للغاية، فالفريسيون يتصرفون كقضاة لناموس موسى، ويطالبون بالتطبيق الحرفي للناموس، الذي بلغوا به إلى المطالبة بموت المسيح بسبب كسر وصية السبت. والميسح واقف على قمة الناموس بصفته النبي الذي سيقيمه الله بدل مومى رأساً برأس: «نبياً» «مثلي»، وهذا الذي عليه ينعقد لواء المرحلة الأخرى للناموس، وهي مرحلة الإنتقال من الحرف للروح، بوصايا وتعاليم وذبيحة أعظم، وبكلام أخر يضعه الله في فمه، يبدو كلامه حينئذ وكأنه مخالف للناموس الأول؟ لذلك احتاط الله وسبق وحكم ضد من يتمرد على هذا النبي الأخر، فكل من يسمع ولم يطع، يقع في الحال تحت حكم الله وليس الناموس «أنا أطالبه»: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون!... أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أُطالبه.» (تث١٨:١٥-١٩)

والأن يقدم المسيح دعواه ضد حفظة الناموس والقوامين على شرفه. وكأني به يقول لهم وأمام موسى: هوذا أنا

الذي مثل موسى أتيت بحسب وعد الناموس، وهوذا باسم الله أتكلم وبوصية الله أوصي، فإن سمعتم لي كنتم تلاميذ موسى عن حق، وأبناء الله الحي؛ وإن لم تسمعوا فأنتم تحت الحكم، وموسى والناموس يشهدان ضدكم!

تم فى ٢٠١٧/٣/٢١

الأصحاح السادس

بَعْدَ هَذَا مَضَى يَسُوعُ إِلَى عَبْرِ بَحْرِ الْجَلِيلِ وَهُوَ بَحْرُ طَبَرِيَّةَ. وَتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ لأَنَّهُمْ أَبْصَرُوا آيَاتِهِ الَّتِي كَانَ يَصْنَعُهَا فِي الْمَرْضَى. فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى جَبَلٍ وَجَلَسَ هُنَاكَ مَعَ تلاَمِيذِهِ. وَكَانَ الْفِصْحُ عِيدُ الْيَهُودِ قَرِيباً. فَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ أَنَّ جَمْعاً كَثِيراً مُقْبِلٌ إِلَيْهِ فَقَالَ لِفِيلُبُّسَ: «مِنْ أَيْنَ نَبْتَاعُ خُبْزاً لِيَأْكُلَ هَؤُلاَءِ؟». وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِيَمْتَحِنَهُ لأَنَّهُ هُوَ عَلِمَ مَا هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَ. أَجَابَهُ فِيلُبُّسُ: «لاَ يَكْفِيهِمْ خُبْزٌ بِمِئَتَيْ دِينَارٍ لِيَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَيْئاً يَسِيراً». قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تلاَمِيذِهِ وَهُوَ أَنْدَرَاوُسُ أَخُو سِمْعَانَ القديس بطرس: «هُنَا غُلاَمٌ مَعَهُ خَمْسَةُ أَرْغِفَةِ شَعِيرٍ وَسَمَكَتَانِ وَلَكِنْ مَا هَذَا لِمِثْلِ هَؤُلاَءِ؟». فَقَالَ يَسُوعُ: «اجْعَلُوا النَّاسَ يَتَّكِئُونَ». وَكَانَ فِي الْمَكَانِ عُشْبٌ كَثِيرٌ فَاتَّكَأَ الرِّجَالُ وَعَدَدُهُمْ نَحْوُ خَمْسَةِ آلاَفٍ. وَأَخَذَ يَسُوعُ الأَرْغِفَةَ وَشَكَرَ وَوَزَّعَ عَلَى التّلاَمِيذِ وَالتّلاَمِيذُ أَعْطَوْا الْمُتَّكِئِينَ. وَكَذَلِكَ مِنَ السَّمَكَتَيْنِ بِقَدْرِ مَا شَاءُوا. فَلَمَّا شَبِعُوا قَالَ لِتلاَمِيذِهِ: «اجْمَعُوا الْكِسَرَ الْفَاضِلَةَ لِكَيْ لاَ يَضِيعَ شَيْءٌ». فَجَمَعُوا وَمَلأُوا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قُفَّةً مِنَ الْكِسَرِ مِنْ خَمْسَةِ أَرْغِفَةِ الشَّعِيرِ الَّتِي فَضَلَتْ عَنِ الآكِلِينَ. فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ الآيَةَ الَّتِي صَنَعَهَا يَسُوعُ قَالُوا: «إِنَّ هَذَا هُوَ بِالْحَقِيقَةِ النَّبِيُّ الآتِي إِلَى الْعَالَمِ!». وَأَمَّا يَسُوعُ فَإِذْ عَلِمَ أَنَّهُمْ مُزْمِعُونَ أَنْ يَأْتُوا وَيَخْتَطِفُوهُ لِيَجْعَلُوهُ مَلِكاً انْصَرَفَ أَيْضاً إِلَى الْجَبَلِ وَحْدَهُ. وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ نَزَلَ تلاَمِيذُهُ إِلَى الْبَحْرِ. فَدَخَلُوا السَّفِينَةَ وَكَانُوا يَذْهَبُونَ إِلَى عَبْرِ الْبَحْرِ إِلَى كَفْرِنَاحُومَ. وَكَانَ الظّلاَمُ قَدْ أَقْبَلَ وَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ قَدْ أَتَى إِلَيْهِمْ. وَهَاجَ الْبَحْرُ مِنْ رِيحٍ عَظِيمَةٍ للهبُّ. فَلَمَّا كَانُوا قَدْ جَذَّفُوا نَحْوَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ أَوْ ثلاَثِينَ غَلْوَةً نَظَرُوا يَسُوعَ مَاشِياً عَلَى الْبَحْرِ مُقْتَرِباً مِنَ السَّفِينَةِ فَخَافُوا. فَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا هُوَ لاَ تَخَافُوا». فَرَضُوا أَنْ يَقْبَلُوهُ فِي السَّفِينَةِ. وَلِلْوَقْتِ صَارَتِ السَّفِينَةُ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي كَانُوا ذَاهِبِينَ إِلَيْهَا. وَفِي الْغَدِ لَمَّا رَأَى الْجَمْعُ الَّذِينَ كَانُوا وَاقِفِينَ فِي عَبْرِ الْبَحْرِ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ سَفِينَةٌ أُخْرَى سِوَى وَاحِدَةٍ وَهِيَ تِلْكَ الَّتِي دَخَلَهَا تلاَمِيذُهُ وَأَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَدْخُلِ السَّفِينَةَ مَعَ تلاَمِيذِهِ بَلْ مَضَى تلاَمِيذُهُ وَحْدَهُمْ. غَيْرَ أَنَّهُ جَاءَتْ سُفُنٌ مِنْ طَبَرِيَّةَ إِلَى قُرْبِ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَكَلُوا فِيهِ الْخُبْزَ إِذْ شَكَرَ الرَّبُّ. فَلَمَّا رَأَى الْجَمْعُ أَنَّ يَسُوعَ لَيْسَ هُوَ هُنَاكَ وَلاَ تلاَمِيذُهُ دَخَلُوا هُمْ أَيْضاً السُّفُنَ وَجَاءُوا إِلَى كَفْرِنَاحُومَ يَطْلُبُونَ يَسُوعَ. وَلَمَّا وَجَدُوهُ فِي عَبْرِ الْبَحْرِ قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ مَتَى صِرْتَ هُنَا؟». أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: أَنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي لَيْسَ لأَنَّكُمْ رَأَيْتُمْ آيَاتٍ بَلْ لأَنَّكُمْ أَكَلْتُمْ مِنَ الْخُبْزِ فَشَبِعْتُمْ. اِعْمَلُوا لاَ لِلطَّعَامِ الْبَائِدِ بَلْ لِلطَّعَامِ الْبَاقِي لِلْحَيَاةِ الأبدية الَّذِي يُعْطِيكُمُ ابْنُ الإنسان لأَنَّ هَذَا اللَّهُ الآب قَدْ خَتَمَهُ». فَقَالُوا لَهُ: «مَاذَا نَفْعَلُ حَتَّى نَعْمَلَ أَعْمَالَ اللَّهِ؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «هَذَا هُوَ عَمَلُ اللَّهِ: أَنْ تُؤْمِنُوا بِالَّذِي هُوَ أَرْسَلَهُ». فَقَالُوا لَهُ: «فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟ مَاذَا تَعْمَلُ؟ آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزاً مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا». فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ مُوسَى أَعْطَاكُمُ الْخُبْزَ مِنَ السَّمَاءِ بَلْ أَبِي يُعْطِيكُمُ الْخُبْزَ الْحَقِيقِيَّ مِنَ السَّمَاءِ. لأَنَّ خُبْزَ اللَّهِ هُوَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ الْوَاهِبُ حَيَاةً لِلْعَالَمِ». فَقَالُوا لَهُ: «يَا سَيِّدُ أَعْطِنَا فِي كُلِّ حِينٍ هَذَا الْخُبْزَ». فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فلاَ يَجُوعُ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فلاَ يَعْطَشُ أَبَداً. وَلَكِنِّي قُلْتُ لَكُمْ إِنَّكُمْ قَدْ رَأَيْتُمُونِي وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ. كُلُّ مَا يُعْطِينِي الآب فَإِلَيَّ يُقْبِلُ وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجاً. لأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ لأَعْمَلَ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَهَذِهِ مَشِيئَةُ الآب الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَانِي لاَ أُتْلِفُ مِنْهُ شَيْئاً بَلْ أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ. لأَنَّ هَذِهِ هِيَ مَشِيئَةُ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَنْ يَرَى الابن وَيُؤْمِنُ بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ». فَكَانَ الْيَهُودُ يَتَذَمَّرُونَ عَلَيْهِ لأَنَّهُ قَالَ: «أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ». وَقَالُوا: «أَلَيْسَ هَذَا هُوَ يَسُوعَ بْنَ يُوسُفَ الَّذِي نَحْنُ عَارِفُونَ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ. فَكَيْفَ يَقُولُ هَذَا: إِنِّي نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ؟». فَأَجَابَ يَسُوعُ: «لاَ تَتَذَمَّرُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ. لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُقْبِلَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ

يَجْتَذِبْهُ الآب الَّذِي أَرْسَلَنِي وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ. إِنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي الآنبياءِ: وَيَكُونُ الْجَمِيعُ مُتَعَلِّمِينَ مِنَ اللَّهِ. فَكُلُّ مَنْ سَمِعَ مِنَ الآب وَتَعَلَّمَ يُقْبِلُ إِلَيَّ. لَيْسَ أَنَّ أَحَداً رَأَى الآب إِلاَّ الَّذِي مِنَ اللَّهِ. هَذَا قَدْ رَأَى الآب. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. آبَاؤُكُمْ أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ وَمَاتُوا. هَذَا هُوَ الْخُبْزُ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ لِكَيْ يَأْكُلَ مِنْهُ الإنسان وَلاَ يَمُوتَ. أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هَذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأبد. وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جَسَدِي الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ». فَخَاصَمَ الْيَهُودُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً قَائِلِينَ: «كَيْفَ يَقْدِرُ هَذَا أَنْ يُعْطِيَنَا جَسَدَهُ لِنَأْكُلَ؟». فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جَسَدَ ابْنِ الإنسان وَتَشْرَبُوا دَمَهُ فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ. مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ. لأَنَّ جَسَدِي مَأْكَلٌ حَقٌّ وَدَمِي مَشْرَبٌ حَالقديسمَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ. كَمَا أَرْسَلَنِي الآب الْحَيُّ وَأَنَا حَيٌّ بِالآب فَمَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي. هَذَا هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. لَيْسَ كَمَا أَكَلَ آبَاؤُكُمُ الْمَنَّ وَمَاتُوا. مَنْ يَأْكُلْ هَذَا الْخُبْزَ فَإِنَّهُ يَحْيَا إِلَى الأبد». قَالَ هَذَا فِي الْمَجْمَعِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي كَفْرِنَاحُومَ. فَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْ تلاَمِيذِهِ إِذْ سَمِعُوا: «إِنَّ هَذَا الْكَلاَمَ صَعْبٌ! مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْمَعَهُ؟». فَعَلِمَ يَسُوعُ فِي نَفْسِهِ أَنَّ تلاَمِيذَهُ يَتَذَمَّرُونَ عَلَى هَذَا فَقَالَ لَهُمْ: «أَهَذَا يُعْثِرُكُمْ؟. فَإِنْ رَأَيْتُمُ ابْنَ الإنسان صَاعِداً إِلَى حَيْثُ كَانَ أَوَّلاً!. اَلرُّوحُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي. أَمَّا الْجَسَدُ فلاَ يُفِيدُ شَيْئاً. اَلْكلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ. وَلَكِنْ مِنْكُمْ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُونَ». لأَنَّ يَسُوعَ مِنَ الْبَدْءِ عَلِمَ مَنْ هُمُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَمَنْ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُهُ. فَقَالَ: «لِهَذَا قُلْتُ لَكُمْ إِنَّهُ لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يُعْطَ مِنْ أَبِي». مِنْ هَذَا الْوَقْتِ رَجَعَ كَثِيرُونَ مِنْ تلاَمِيذِهِ إِلَى الْوَرَاءِ وَلَمْ يَعُودُوا يَمْشُونَ مَعَهُ. فَقَالَ يَسُوعُ لِلاِثْنَيْ عَشَرَ: «أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً تُرِيدُونَ أَنْ تَمْضُوا؟». فَأَجَابَهُ سِمْعَانُ القديس بطرس: «يَا رَبُّ إِلَى مَنْ نَذْهَبُ؟ كلاَمُ الْحَيَاةِ الأبدية عِنْدَكَ. وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا وَعَرَفْنَا أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الْحَيِّ». أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَلَيْسَ أَنِّي أَنَا اخْتَرْتُكُمُ الاِثْنَيْ عَشَرَ؟ وَوَاحِدٌ مِنْكُمْ شَيْطَانٌ!». قَالَ عَنْ يَهُوذَا سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ لأَنَّ هَذَا كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يُسَلِّمَهُ وَهُوَ وَاحِدٌ مِنَ الاِثْنَيْ عَشَرَ

الجزء الثالث: انجيل الاستعلان

استعلان طبيعة المسيح وشخصه

استعلان الآب والابن

ويشمل الأصحاحات من السادس حتى الثاني عشر

الاصحاح السادس: استعلان طبيعة المسيح المحيية وشخصه السماوي.

«أنا هو خبز الحياة» ٦:٤٨

+ «هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت» (٦:٥٠)

+ «من يأكلني فهو يحيا بي» (٦:٥٧)

+ «الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم.» (٦:٥١)

الأصحاح السابع: استعلان طبيعة المسيح الروحية (الصخرة)

(أنا هو الماء الحى)

+ «إن عطش أحد فاليقبل إلىّ ويشرب» (٧:٣٧)

+ «من آمن بى .... تجرى من بطنة أنهار ماء حى» (٧:٣٨)

+ «قال هذا عن الروح الذى كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه» (٣٩:٧)

الأصحاح الثامن: أستعلان طبيعة المسيح النورانية المحررة الأزلية.

«أنا هو نورالعالم» (١٢:٨)

+ «من يتبعنى، فلا يمشي في الظمة، بل يكون له نور الحياة.» (١٢:٨)

+ «إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (٣٦:٨)

+ «من قبل أن يكون إبراهيم، أنا كائن.» (٥٨:٨)

الأصحاح التاسع: التطبيق العملي لاستعلان طبيعة المسيح النورانية.

«ما دمت في العالم، فأنا نور العالم» (٥:٩)

+ «أتؤمن بابن الله ... قد رأيلله والذي يكلمك هو هو.» (٣٥:٩-٣٧)

+ «لدينونة أتيت انا إلى هذا العالم حتى يبصر الذين لا يرون ويعمى الذين يبصرون» (٣٩:٩)

الأصحاح العاشر: أ- أستعلان عمل المسيح الفدائي من نحونا

«أنا هو الراعي الصالح» (١١:١٠)

+ «والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف.» (١١:١٠)

+ «خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني. وأنا أعطيها حياة أبدية.» (٢٧:١٠-٢٨)

ب- استعلان بنوة المسيح ومساواله للآب

+ «لأني قلت إني ابن الله...» (٣٦:١٠)

+ «أنا والآب واحد.» (٣٠:١٠)

الأصحاح الحادي عشر: استعلان قوة المسيح المُحيية والمُقيمة من الموت.

«أنا هو القيامة والحياة» (٢٥:١١)

+ «من آمن بي ولو مات فسيحيا.» (٢٥:١١)

+ «لعازر هلم خارجاً» (٤٣:١١)

الأصحاح الثانى عشر حتى العدد ٣٦: إستعلان ملوكية المسيح ودينونة رئيس هذا العالم

+ «أوصنا مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل.» (١٣:١٢)

+ «الآن دينونة هذا العالم. الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً.» (٣١:١٢)

ختام لإنجيل الاستعلان: (٣٧:١٢-٤٣).

ملخص لإنجيل الاستعلان: (٤٤:١٢-٥٠).

مكان البشارة: الجليل (١:٦-٧١)

الأصحاح السادس: أستعلان طبيعة المسيح المُحيية وشخصه السماوى

«أنا هو خبز الحياة»[1]

---

[1] تُقرأ أجزاء من هذا الأصحاح في كل من عشية وباكر وقداس الأحد الثاني من الخمسين المقدسة (وهو أول أحد في الخمسين المقدسة بعد أحد توما)، وذلك بسبب ألافخارستيا هي سر الحياة الأبدية وعربون القيامة: «فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير«.

ويشمل هذا الأصحاح:

١- المعجزة التي سيجعلها المسيح آية تعليمه: إشباع الجموع (٦:١-١٥).

٢- الأية الملازمة لإشباع الجموع: السير على الماء (٦:١٦-٢١).

٣- حديث الرب في مجمع كفرناحوم عن جسده كخبز الحياة الأبدية، موسى طلب فأرسل الله المن من السماء لإعالة الشعب في البرية، المسيح هو نفسه الخبز الحي الذي نزل من السماء ليأكله الإنسان فيحيا إلى الأبد (٦:٢١-٧١).

يلزم لنا من بداية هذا الأصحاح حتى نهاية الآنجيل أن ننتبه لما سيعلنه المسيح عن نفسه، فالمعجزات كلها عبارة عن أيات أو إشارات توضح من هو المسيح. فالتركيز ليس على المعجزة ولا حتى على تأثيرها من جهة إيمان الناس، ولكن على ما تشير إليه من جهة من هو المسيح.

لذلك سنواجه في هذا الأصحاح قول المسيح عن نفسه: «أنا هو» والتي تأتي في الأصل كاسم شخصي لله: «أنا الكائن بذاتي»، أي أنها أصلاً تتعلق بطبيعة وكيان الله، وقد استخدمها المسيح بتأكيد وإصرار، وسوف تتكرر في إنجيل يوحنا في مواضع عديدة، وتأتي هنا «أنا هو خبز الحياة».

١- معجزه اشباع الجموع

٦:١-١٥

«هكذا قال الرب في وقت القبول استجبتك وفي يوم الخلاص أعنتك فأحفظك وأجعلك عهداً للشعب... قائلاً للأسرى اخرجوا، للذين في الظلام اظهروا. على الطرق يرعون وفي كل الهضاب مرعاهم. لا يجوعون ولا يعطشون ولا يضربهم حر ولا شمس لأن الذي يرحمهم يهديهم وإلى ينابيع المياه يوردهم.» (إش٤٩:٨-١٠)

ملاحظات هامة: لاحظ أن المسيح انتقل من الخدمة في أورشليم، وذهب إلى الجليل حيث أجرى هذه المعجزة. وتعتبر هذه الحادثة أنها الوحيدة في خدمة المسيح العامة التي تُذكر في الأربع أناجيل بدون استثناءه قبل زيارة المسيح الأخيرة لأورشليم ليصلب هناك. وهذا مما ينبه فكر القارىء إلى الأهية القصوى لهذه القصة وما سيبني الآنجيل عليها من مبادىء لاهوتية.

القديس يوحنا ينفرد هنا ببعض بيانات هامة في سرد هذه القصة؛ فقبل أن يبدأها، ينبه القارىء أن فصح (البصخة) اليهود كان قريباً. هنا أسلوب القديس يوحنا السرائري أو اللاهوتي يظهر بوضوح لأن «الفصح» بالمفهوم المسيحي هو تقديم جسد المسيح ذبيحة، أي أصل وأساس الإفخارستياء الخبز الذي نكسره كل يوم على المذبح. إذن، فهو يسبق القصة بفتح الأذهان أنه بصدد ربط الخبز المكسور، الذي شكر عليه الرب وبارك وبثه قوة روحية من عنده فأشبع به الخمسة الآلاف من الخمس خبزات، ربطه بالإفخارستيا أي جسد المسيح المكسور لإشباع العالم بالروح

ولنفس هذا السبب تُكرر قراءة أجزاء من هذا الأصحاح في مناسبات عديدة من الخمسين المقدسة (عشية الثلاثاء الأول وعشية السبت الأول وقداس السبت الثاني وقداس الجمعة الثانية وقداس السبت الثالث وعشية الأحد الرابع من الخمسين المقدسة). وبالاضافة لذلك تُقرأ أيضاً فصول من هذا الأصحاح في الصوم الكبير(قداس الخميس السادس والأربعاء السابع)، وذلك على اعتبار أن الصوم الكبير هو الموسم الذي نشتاق فيه إلى خبز الحياة بدلاً من الطعام البائد. ولنفس السبب وكاستعداد للدخول في الصوم الكبير تتلى فصول من هذا الأصحاح في الأربع آحاد التي تسبق مباشرة الصوم الكبير (وهي الأحد الرابع من طوبة والأحد الأول والثاني والثالث من أمشير).

للحياة الأبدية.[2]

علماً بأن ربط الخبز الجديد الحي النازل من السماء بالفصح يتوازى مع ربط «الفصح» بنزول «المن» في طقوس الفصح اليهودي، وهذا ما سيركز عليه المسيح في حواره مع اليهود .

كذلك فالرواية في إنجيل يوحنا أكثر توضيحاً من بقية الآناجيل، فهي ذات ملامح حية ودقيقة، تثير بلا أي تحفظ أن الراوي كان واحداً من الموجودين سواء أثناء المعجزة الاولى أي إشباع الجموع، أو الثانية وهي السير على الماء. فهو الوحيد الذي يذكر أنهم جزفوا نحو خمس وعشرين غلوة أو ثلاثين. فتقدير المسافة هنا تقدير شخصي يتوخى الدقة؛ مما يعطي الرواية إحاساً حياً بواقعية واعية وذاكرة حديدية، أو قل هي تذكير من الروح القدس.

كذلك فمن الصعب أن لا نلتفت إلى الغاية التي يهدف إليها القديس يوحنا من ربط معجزة إشباع الجموع من الخبز مع معجزة السير على الماء[3] واختفاء المسيح عن الذين أرادوا أن يجعلوه ملكاً. فهو أولاً بصدد تقديم المسيح في موازنة مع موسى حيث «المن» يترادف مع السير في البحر الأحمر، ليوضح أن عهد الشبع والمسرة المادية المحلية كميراث أرض تفيض لبناً وعسلاً قد انتهى، ونحن بصدد عهد الروح لشبع وسرور الروح للانسان عامة لميراث الحياة الأبدية وفيض الروح القدس. وثانياً، الآنتقال بالفكر اليهودي من انتظار مسيا اليهود المحدود الذي سيعيد المُلك لإسرائيل، ويحرر الأمة ويخلصها من عبودية الرومان، ويعطي المن من السماء، ويحطم الأمم كموسى الجديد؛ إلى حقيقة المسيح الإلهية في العهد الجديد والخلاص العام من الخطية وتحرير الإنسان، كل إنسان، من عبودية الشيطان إلى حرية أولاد الله.

القصة: ظروف المعجزة (١-٤) - التحضير للمعجزة (٥-١٠) - إشباع الجموع (١١-١٣) - تأثير المعجزة (١٤-١٥).

ظروف المعجزة: (١-٤)

١- بَعْدَ هَذَا مَضَى يَسُوعُ إِلَى عَبْرِ بَحْرِ الْجَلِيلِ وَهُوَ بَحْرُ طَبَرِيَّةَ.

٢- وَتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ لأَنَّهُمْ أَبْصَرُوا آيَاتِهِ الَّتِي كَانَ يَصْنَعُهَا فِي الْمَرْضَى.

«بعد هذاء» التي ابتدأ بها القديس يوحنا الأية متصلة بأخر الآية (٢)، أي بعد أن أجرى آيات شفاء لأمراض كثيرة في منطقة الجليل، التي اختصها بأكثر وقت من خدمته. بعد هذا عبر في قارب كبير، أي سفينة صيد ذات الحجم الكبير، تتسع ثلاثة عشر شخصاً، هو وتلاميذه. وقد عبر البحيرة من ناحية الغرب، أي من كفزناحوم (عدد٢٤) التي كان يخدم فيها، وهي مقر إقامته مع التلاميذ، متجهين إلى ناحية الشمال الشرقي عبر بحر الجليل وهو بحر طبرية.

---

[2] توجد في سراديب روم رسومات حائطية توضح مائدة إفخارستية وعلييها خمس خبزات وسمكتين إشارة إلى أن معجزة إشباع الجموع أخذتها الكنيسة الاولى على أنها ذات هدف إفخارستي. كذلك وُجد في مدينة هيرابوليس بأسيا الصغرى شاهد عل قبر أبركيوس مكتوب عليه (   ) وهو اسم السمكة باليونانية حيس أوائل الحروف تُقرأ: «يسوع الميسح ابن الله مخلص» ، مع إشارة إلى خبز وكأس الإفخارستيا.

[3] كان في التقليد اليهودي عند الربيين أن المسيا سيأتي من البحر، أي ماشياً على الماء. فهنا معجزة سير المسيح على الماء آتيا إلى تلاميذه في الظلام تنبيه من قبل المسيح لأذهان اليهود أنه المسيا دون أن يعلن ذلك.

بحر طبرية: لا يُذكر اسم بحر الجليل بهذا الاسم إلا في إنجيل القديس يوحنا، وهو الاسم الحكومي أو الرسمي لبحر الجليل بعد إقامة طبرية العاصمة (الغير مقدسة) التي أقامها هيرودس رئيس ربع الجليل شرق بحر الجليل وذلك سنة ٢٦م.

والقديس لوقا الآنجيلي يذكر اسم المدينة التي ذهب إليها الرب هو وتلاميذه (طلباً للراحة) أنها بيت صيدا شرقاً. وهي ليست بيت صيدا التي في غرب البحيرة بل بيت صيدا أخرى منسوبة ليولياس الذي أقامها باسمه، «فأخذهم وانصرف منفرداً إلى موضع خلاء لمدينة تسمى بيت صيدا.» (لو ٩:١٠)

وهذه المدينة تُسمى الآن «التل». وهي في أقص الشمال الشرقي للبحيرة، وتقع في منطقة الجولان. أما مكان عمل المعجزة فيبعد عنها بحوالى ميل واحد (ويسمى الآن «البطيحة»)، وبه عشب أخضر للرعي يزدهر وقت الفصح فعلاً. أما المسافة، على الأرض، بين هذا المكان الذي سعى إليه الرب للراحة وبين كفرناحوم التي أتت منها الجموع جرياً وراء الرب فهي حوالى تسعة أميال، أي نحو ساعتين مشياً على الأقدام، وكانت الجموع في غاية الحماس والفرح بسبب الآيات الكثيرة التي صنعها الرب، وكان معظمها لشفاء مرضاهم.

٣- فَصَعِدَ يَسُوعُ إِلَى جَبَلٍ وَجَلَسَ هُنَاكَ مَعَ تلاَمِيذِهِ.

٤- وَكَانَ الْفِصْحُ عِيدُ الْيَهُودِ قَرِيباً.

المسيح هنا وحده على التل مع تلاميذه والشعب كله تحت التل يرى ويسمع. القديس يوحنا يود أن يدخلنا معه في هذا المنظر ليتحضر في ذهننا نفس منظر موس النبي على الجبل، بعد أن أكمل الفصح الأول ومسح عار العبودية عن الشعب المذلول، وعبر إلى سيناء يتنسم رائحة الحرية، وكان الشعب كله واقفاً ليسمع ويرى ويرتعب: «وقال لموسى اصعد إلى الرب أنت وهرون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، واسجدوا من بعيد، ويقترب موسى وحده إلى الرب وهم لا يقتربون، وأما الشعب فلا يصعد معه.» (خر ٢٤:١-٢)

وعلى القارىء أن يتذكر دائماً أن حلول عيد الفصح عند اليهود كان يوقظ فيهم مشاعر الحرية التي فقدوها تحت عبودية الرومان، وكانوا يتحرقون شوقاً إلى المخلص الذي تكلم عنه موسى ليعيد إليهم الحرية ويخلصهم من نير الرومان. فكانت حساسيتهم مرهفة للغاية، يصورها هنا القديس يوحنا أروع تصوير بكلمات مختصرة للغاية، نتمنى أن لا تفوت على مشاعر القارىء. إذ أن كل كلمة تحمل كما من المشاعر يصعب سردها. ولكن إذا وضعنا الكلمات الأساسية بجوار بعضها حينئذ ينكشف سر الآنجيل:

«صعد يسوع على الجبل» _ «عيد الفصح» _ «أكلوا وشبعوا» _ «هذا هو بالحقيقة النبي» _ «علم يسوع أنهم مزمعوم أن يختطفوه ليجعلوه ملكاً».

إذن، فالآنجيل يضعنا داخل مشهد من المشاهد الحية التي عاشها الرب وسط شعب أخفق في الرؤيا، إذ انتهى إلى قرار حاسم أن المسيح نبي، وكان عليه حتماً أن يصحح ويكشف عن حقيقة نفسه أنه ليس موسى جديداً بل هو هو الرب الإله، وأنه ليس موسى الذي عليه أن يذبح الفصح للشعب بل هو هو الفصح نفسه، الخروف المذبوح الذي يتحتم أن يؤكل لحمه، ولكن لأنه هو حمل الله الذي دمه بروح أزلي، فكان، بخلاف الفصح الأرضي، يلزم أن يُشرب دمه أيضاً!!

وإن كان فصح مصر الأول عهد خلاص من عبودية مصر، فالمسيح فصح خلاص أبدي لحياة أبدية.

فالرب صعد إلى الجبل وقلبه مملوء بهذه الرؤيا، ألم يسمع المسيح بأذنيه ما قاله يوحنا المعمدان عه: «هوذا حمل

الله الذي يرفع خطية العالم» (يو ١: ٢٩)؟ ثم ألم يضع المسيح في نفسه أنه الراعي الصالح الذي يضع نفسه عن الخراف؟ والآن هوذا الخراف اجتمعت حوله على سطح التل كما يصفها إنجيل القديس مرقس (٦: ٣٤): «فلما خرج يسوع، رأى جمعاً كثيراً، فتحنن عليهم، إذ كانوا كخراف لا راعي لها فابتدأ يعلمهم كثيراً». وبدأ الرب يقسم الخبز ويعطي وكأنه يقتطع من لحمه ودمه ليطعم الخراف الجائعة. أكل الشعب وشبع ولم يدر ماذا أكل، إذ حسب اليهود أنهم أكلوا خبز الأرض، ولكن الرب وحده كان يعلم ماذا أعطى وماذا سيعطي.

التحضير للمعجزة (٥-١٠)

٥- فَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ وَنَظَرَ أَنَّ جَمْعاً كَثِيراً مُقْبِلٌ إِلَيْهِ فَقَالَ لِفِيلُبُّسَ: «مِنْ أَيْنَ نَبْتَاعُ خُبْزاً لِيَأْكُلَ هَؤُلاَءِ؟».

٦- وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا لِيَمْتَحِنَهُ لأَنَّهُ هُوَ عَلِمَ مَا هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَ.

٧- أَجَابَهُ فِيلُبُّسُ: «لاَ يَكْفِيهِمْ خُبْزٌ بِمِئَتَيْ دِينَارٍ لِيَأْخُذَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ شَيْئاً يَسِيراً».

القديس يوحنا يهتم هنا بحوار المسيح مع فيلبس، ومنذ بداية الآنجيل والقديس يوحنا يركز على شخصية فيلبس، فهو التلميذ الذي لم يأتى إلى المسيح، بل المسيح هو الذي ذهب إليه في البداية ليدعوه (يو ١: ٤٣)، وهو الذي في النهاية بعد زمان طويل مع المسيح هذه مدته، ودون جميع التلاميذ، يسأل الرب: «يا سيد أرنا الآب» مما أدهش الرب فرد عليه لائماً: «قال له يسوع أنا معكم زماناً هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس» (يو ١٤: ٨-٩). وهنا وفي هذا الأصحاح، بادره الرب بالسؤال: «من أين نبتاع خبزاً ليأكل هذا الجمع؟»، فلم يكتف فيلبس بصعوبة السؤال من جهة «من أين نبتاع الخبز»، إذ أضاف إلى السؤال صعوبة أخرى هي الأئم عنده إذ «بكم يتكلف هذا الخبز». الرب هنا يريد أن يكشف وضع فيلبس بالنسبة للرسالة.

فيلبتس يتبع الرب، ولكن بحساباته الخاصة وفي أضيق حدود الإيمان الشكلي، الرب اختاره لمميزات خاصة في أخلاقه المستقيمة وطيبة قلبه وقدرته في اتباع الرب، ولكن لم تكن له حرارة الإيمان بالرب، وبطولة المغامرة لتحقيق متطلبات الإيمان الحي؛ وكان على الرب أن يكشف له، بل يكشف لنا، بل يكشفنا معه، أن هذا الإيمان الهزيل، بل الميت، لا يوافق الإيمان المسيحي الحي القائم على قدرة الرب الفائقة. وكأن معجزة إشباع الخمسة الألاف من خمس خبزات، مقصودة قصداً لتحطيم حسابات الأرقام والتحفظات التي يضعها العقل القاصر، والحكمة الإنسانية الكاذبة، في طريق اتباع الرب إلى الصليب، ثم إلى المجد والحياة الأبدية. فإما الحسابات والأرقام مع العقل، ومعها الشح والعوز إن في الأخذ أو العطاء؛ وإما الإيمان بالمستحيل مع الله ومعه الشبع الفائض والسخاء في التوزيع والحياة الأفضل.

وليس جزافاً أن يسترعي انتباه القديس يوحنا إهتمام المسيح الشديد بفيلبس لامتحان قلبه قبل البدء بالمعجزة. فالمقصود هو القارىء والكنيسة كلها، لكي يمتحن الإنسان قبل البدء بالمعجزة فيكون على مستوى الإيمان بالمسيح كرب وإله، وهو يقرأ ويتأمل ليحصل على نصيبه هو أيضاً من شبع الحياة، بل ومن الفائض أيضاً.

ولينتبه القارىء جداً أن المسيح جاء، ليس ليسد الأعواز، بل ليملأ ويفيض، فهو القائل: «... أتيت لتكون لهم حياة ويكون لهم أفضل» (يو ١٠: ١٠)، حيث الترجمة «أفضل» هنا قاصرة جدا، لأن معناها الحرفي بحسب اللغة اليونانية: حياة الكثرة والفيض والسمو اللانهائي، وهذه الأوصاف تليق فقط بالحياة الأبدية. فنحن مدعوون، ليس فقط لأن نؤمن به كرب وإله في ذاته، بل وأن نؤمن أن في يديه شبع سرور: «تعرفني سبل الحياة، أمامك شبع سرور، وفي يمينك نعم إلى الأبد» (مز ١٦: ١١). فمن أهم وأعظم أوصاف الحياة الأبدية التي يعطيها الله لمتقيه،

الفيض في الحب والسرور والسلام والشبع حتى الملء في الأخذ والعطاء. ومن أوصاف الله الملازمة له أنه «غني في المراحم» (أف٢:٤)، بل وغني جداً.

«فرفع يسوع عينيه ونظر أن جمعاً كثيراً مقبل إليه، فقال لفيلبس: من أين نبتاع خبزا ليأكل هؤلاء. وانما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل»: لقد كانت صفة المسيح الاولى مع تلاميذه أنه «المعلم»، ولقد كانت وسيلة الرب للارتقاء بإيمان تلاميذه هي التلقين والتعليم والإمتحان. فبالرغم من أنه كان يعلم ما هو مزمع أن يفعله، ولكنه وضع فيلبس أمام السؤال الحرج للامتحان: «من أين نبتاع خبزا ليأكل هؤلاء»؟ وتركه يقدر دون أن يوعز إليه بالحل. ولقد اكتشف فيلبس بعد أن أكمل الرب المعجزة مقدار القصور المريع الذي وقع فيه، إذ تحطمت كل حساباته. وهذه هي نفسها الإمتحانات التي يضعها المسيح أمام كنيسته وتلاميذه كل يوم، ولا تزال مشكلة الحصول على «المئتي دينار» هي المشكلة الوحيدة أمام حسابات عدم الإيمان، لأنه بحسب أصول حسابات عدم الايمان يكون الوضع الإقتصادي والمادي هو الحل الأساسي لانتعاش المشاريع والذي ينتهي بها دائماً إلى الإفلاس الروحي. فنحن الآن نقرأ على كل مؤسسة الإعلان الحزين بمقتض حسابات عدم الإيمان «مطلوب مئتي دينار لإشباع الجموع» ويجمع مليون جنيه، ولا تزال الجموع جائعة للحق.

هنا السؤال الساخر الذي على فم كل إنسان ناقد: وهل السماء تمطر ذهباً؟ وهو نفس القول الساخر الذي وجهه الشيطان للمسيح، والذي واجهه الرب وهو في أشد محنة الجوع الحقيقي: «قل أن تصير هذه الحجارة خبزاً» (مت٤:٣). هذا في الواقع معناه الروحي هو محاولة تقييد عمل الله بفرض حلولنا العاجزة بحسب أصول حسابات عدم الإيمان. وعليه، يتحتم أن ندرك أن الإيمان وحده هو الذي يخلق الحلول لأصعب المشاكل، بل يخلق المواعيد: «بالإيمان قدم إبراهيم إسحق وهو مُجرب، قدم الذي قبل المواعيد وحيده.» (عب١١:١٧)

٨- قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تلاَمِيذِهِ وَهُوَ أَنْدَرَاوُسُ أَخُو سِمْعَانَ القديس بطرس:.

٩- «هُنَا غُلاَمٌ مَعَهُ خَمْسَةُ أَرْغِفَةِ شَعِيرٍ وَسَمَكَتَانِ وَلَكِنْ مَا هَذَا لِمِثْلِ هَؤُلاَءِ؟».

مرة أخرى يلقي علينا الآنجيل درساً ثميناً في إحترام الإمكانيات الضعيفة والمواهب الصغيرة. من يستطيع أن يصدق أن هذا الغلام الصغير المجهول الهوية يتدخل تدخلاً مباشراً في تكميل معجزة كبيرة بهذا الحد؟ لم تكن تدري أمه حينما دست في مخلاته هذه الأرغفة الشعير الخمسة والسمكتين على عجل، حينما ألح عليها للسماح له باللحاق بالمعلم مع الأهل والصحاب؛ ويا لفرحة الأم حينها أتاها ولدها في المساء يجري ويطفر ويلهث يقص عليها، وهو مقطوع الآنفاس، قصة أرغفتها الخمسة والسمكتين، التي أمسكها الرب بيديه، وباركها فأشبعت آلاف الرجال والنساء والأطفال، والأم تسمع وهي ذاهلة لا تريد أن تصدق، ومن يصدق أن مشاعر الأمومة الحانية نحو حبيبها الصغير تتحول هكذا إلى بركات فائضة في يدي الرب خلال «خمسة أرغفة شعير وسمكتين».

خبز الشعير أرخص من خبز القمح وهو غذاء الفقراء، وهذا تماد في إظهار ضعف عطايانا التي يمكن أن يباركها الله لتصير لملء الشبع والغنى، أما السمكتان فبحسب تحقيقات علماء الكتاب المقدس، كانتا مملحتين، وهي عادة أهل السواحل في الإحتفاظ بفائض أسماكهم. وقد أتت الكلمة اليونانية (   ) لتفيد أنها من نوع الأسماك الصغيرة التي نسميها في اللغة الدارجة «بساريا».

«ولكن ما هذا لمثل هؤلاء»:

هذه مقارنة حسابات تؤدي إلى الطرق المسدودة والآبواب المغلقة. وهي مقارنة أعوازنا واحتياجاتنا بالنسبة لأرصدة إيماننا، وهي دائماً بالناقص، والفشل مصيرها المحتم. ولكن كم مئات وألوف الأشخاص اعتمدوا على حسابات الخمس الخبزات والسمكتين، وهي حسابات الإيمان الذي يصرف من مخازن الله السرية المملوءة دائماً حتى الفيض، فأقاموا مئات وألوف من مشاريع البر للفقراء والأيتام والمعوزين، قامت ونجحت وآوت الملايين على مر العصور وكان دليلها الإقتصادي الوحيد الخمس الخبزات والسمكتين.

إذن، فلتذكر على الدوام هذه المعادلة الإيمانية أن خمسة فقط مضروبة في الإيمان تساوي خمسة آلاف زائد اثنتي عشرة قفة.

١٠ - فَقَالَ يَسُوعُ: «اجْعَلُوا النَّاسَ يَتَّكِئُونَ». وَكَانَ فِي الْمَكَانِ عُشْبٌ كَثِيرٌ فَاتَّكَأَ الرِّجَالُ وَعَدَدُهُمْ نَحْوُ خَمْسَةِ آلاَفٍ.

يلاحظ القارىء هنا أن الرب أمر التلاميذ أن ينظموا الجموع إعداداً للأكل. فمن الناحية العامة قال لهم أن «اجعلوا الناس»، وهنا تُستخدم كلمة (   ) لتفيد الرجال والنساء والأطفال عامة. ثم أمر أن يجلس الرجال بترتيب، وهنا تستخدم كلمة (   ) وهي تعني الرجال فقط ، حيث تذكر الآناجيل الأخرى أن الرب أمر أن يكونوا مجموعات، مئة مئة وخمسين خمسين: « فأمرهم أن يجعلوا الجميع يتكئون رفاقا رفاقا على العشب الأخضر. فاتكأوا صفوفا، مئة مئة وخمسين خمسين.» (مر ٦: ٣٩-٤٠)

يلاحظ أن النساء والأطفال لم يُحسبوا ضمن العدد وذلك حسب عادة اليهود، لأنهم يستثنون النساء والأولاد من التعداد، وكذلك لأن عددهم يبدو أنه كان صغيراً.

كما يلاحظ القارىء وضوح فكرة الاهتمام بالنظام والترتيب «رفاقا رفاقا» والتي تأتي باليونانية (   )، ثم الصفوف تتكون من مجموعات مجموعات (   ) وهذا الوصف لا يأتي إلا في وصف الحدائق بنظام مجموعات الزهور كل مجموعة معاً. فانظر أيها القارىء وتأمل. وسبق أن نبهنا أن ظهور العشب الأخضر يناسب بالفعل زمن قرب الفصح وهو نهاية أشهر الربيع (أبريل) بعد الشهور المطيرة، وكأن الآناجيل اتفقت معا لتقدم لنا صورة مبدعة نمقها روح المسيح الجمالية، مما أبهرت عيون التلاميذ، وجعلت هذه المعجزة مرسومة بدقة في أذهانهم.

كما أن الآناجيل ذكرت العشب الأخضر بتوضيح مما يزيد الرواية واقعية، أن الراوي شاهد عيان، وهو يستحضر لأذهاننا وصف المزمور للمسيح الراعي للخراف: «الرب راعي فلا يعوزني شيء ، في مراع خضر يربضني إلى مياه الراحة يوردني.» (مز ٢٣: ١-٢)

وفي الحقيقة نستطيع أن نستشف من وصف القديس. يوحنا وبقية الآناجيل صورة ما كان يجري في قلب المسيح. فالمشهد يعود بنا إلى سفر الخروج ويستحضر إلى ذهننا منظر شعب إسرائيل بعد أن رأى الله على الجبل، كيف جلسوا على السفح وأكلوا وشربوا في حضرة الله: «ثم صعد موس ... ورأوا إله إسرائيل (بحسب ما تراءى لهم) وتحت رجليه شبه صنعة من العقيق الأزرق الشفاف وكذات السماء في النقاوة ولكنه لم يمد يده إلى أشراف بني إسرائيل فرأوا الله وأكلوا وشربوا» (خر ٢: ٩-١١)

فهذا الذي حدث في سفر الخروج ما هو إلا نبوة إفخارستية من الدرجة الاولى، حققها المسيح على المستوى السري الملموس، حيث اجتمع فيها للانسان رؤية الله والاكل والشرب في حضرته، وهو نفس ما يصرخ به الشماس على

المذبح في بداية القداس الإحتفالي: (أيها الإكليروس وكل الشعب، بطلبة وشكر، بهدوء وسكوت، ارفعوا أعينكم إلى ناحية المشرق لتنظروا المذبح، وجسد ودم عمانوئيل إلهنا موضوعين عليه ...)

ج- إشباع الجموع

١١- وَأَخَذَ يَسُوعُ الأَرْغِفَةَ وَشَكَرَ وَوَزَّعَ عَلَى التَّلاَمِيذِ وَالتَّلاَمِيذُ أَعْطَوْا الْمُتَّكِئِينَ.

وَكَذَلِكَ مِنَ السَّمَكَتَيْنِ بِقَدْرِ مَا شَاءُوا.

وأخيراً أخذ يسوع الخمس أرغفة على يديه وشكر. وهكذا بدأت قصة البركة العظمى في حياة الإنسان. وهنا تمت عملية التحول السري العجيب؛ فالمادة الميتة أخصبت بروح الحياة، فتحول المحدود إلى اللامحدود، والقليل إلى الكثير الفائض بلا حدود، والخبز البائد إلى عينة لخبز حي يحمل سر الله ، يتكاثر دون أن يخضع لأية معادلة أو نسبة يعقلها أو يفهمها الإنسان. لقد تحولت كل لقمة في يد الرب إلى نعمة، يأكلها الجاهل فيحس بالشبع ولا يعرف من أين أتاه الشبع فيطلب المزيد، ويأكلها المؤمن فتنفتح عيناه ويمسك باليد التي ألقت في قلبه بالنور. هي خبزة شعير في فم الجائع المتلهف لملء البطن، وهي جوهرة ثمينة عليها ختم الآب في عين الجائع لروح الله. هي لقمة سائغة لذيذة في فم الأحمق، وهي نفسها للحكيم جمرة نار تحرق الخطية وتزيل العار عن الذي تنجست شفتاه. هي لقمة لسد جوع الجسد اكلها الجليليون فشبعوا، وهي السر الذي تشتهي الملائكة أن تطلع عليه (ابط١:١٢)، بل والآنبياء والملوك اشتهوا مجرد أن يروها فلم يروا (لو١٠:٢٤).

ولينتبه القارىء، فحينما يقول الآنجيل إن المسيح «شكر»، أي شكر الآب، فهو يشرك الآب في البركة ويثبت أنه «خبز» بحسب مشيئة الآب. وهذا هو «ختم الآب». ولهذا أيضا لا يتم فعل السر في الإفخارستيا إلا بالدعاء باسم الآب والابن والروح القدس .

وتأتي كلمة «شكر» بلفظها السرائري (من إفخارستية) في إنجيل القديس يوحنا فقط، وهي الفعل المسيحي المقابل للفظ اليهودي (   ) أى «بارك»، الذي استخدم في الآناجيل الأخرى.

ولكن يلاحظ القراء الذين يشتغلون بمفهومات إجراء سر الإفخارستيا، أن بعد الشكر يلزم فعل «كسر»، وهي اللفظة الملازمة دائماً وحتما لفعل الإفخارستيا. «وبارك وقسم» كما جاءت في الآناجيل الأخرى، «وباركه وقسمه، وأعطاه ... » (القداس الإلهي) .

ولكن القديس يوحنا يلتزم بمفهوم عجيب حقا بالنسبة للفصح الحقيقي الذي ذُبح من أجلنا، أي جسد يسوع على الصليب. إذ اهتم القديس يوحنا جداً أن يذكر أن ذبيحة المسيح العظمى لم يُكسر لها عظم. «وأما يسووع فلما جاءوا إليه لم يكسروا ساقيه لأنهم رأوه قد مات .. لأن هذا كان ليتم الكتاب القائل عظم لا يكسر منه» (يو١٩:٣٣-٣٦). لذلك، وبالرغم من أن الآناجيل الأخرى اهتمت أن تذكر الفعل الإفخارستي الملازم للبركة وهو «كسر» الخبز، توضيحاً أن الرب أجرى فعلاً إفخارستياً للخمس خبزات؛ نجد القديس يوحنا، وبعكس المألوف، لا يذكر الكسر بالمرة إمعاناً منه لمطابقة اكثر حرفية بين الفعل الإفخارستي الذي أجراه على الخمس خبزات وبين الفعل الإفخارستي الذي تم في جسده الذي لم يُكسر على الصليب!

فانظر أيها القارىء وتأمل في قدرة القديس يوحنا للربط المذهل بين الآية التي أجراها المسيح وبين تطبيقها الذي تم على الصليب. وكأنه يود أن يقول إن الخبز الحي النازل من السماء، الذي هو جسده، الذي قدمه على الصليب عن حياة العالم كله، لا يتجزأ ولا يكسر بل يُعطى ككل: «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦:٥٧). وهذا المفهوم يلزمنا

نحن أيضاً، فنحن حينما نتناول من سر الذبيحة المقدمة على المذبح، إنما نتناول، ليس كسرة خبز، بل المسيح كله. كما نلاحظ أن كلمة «شكر» و «وزع» على التلاميذ تأتي بنفس الوضع الإفخارستي كما جاء في سر العشاء الأخير.

١٢ - فَلَمَّا شَبِعُوا قَالَ لِتلاَمِيذِهِ: «اجْمَعُوا الْكِسَرَ الْفَاضِلَةَ لِكَيْ لاَ يَضِيعَ شَيْءٌ».

١٣ - فَجَمَعُوا وَمَلأُوا اثْنَتَيْ عَشْرَةَ قُفَّةً مِنَ الْكِسَرِ مِنْ خَمْسَةِ أَرْغِفَةِ الشَّعِيرِ الَّتِي فَضَلَتْ عَنِ الآكِلِينَ.

يلاحظ في التفسير اللفظي أن كلمة «شبعوا» تُرجمت هكذا إلى العربية خطأ، لأن أصلها اليوناني (   ) معناه «امتلأوا». وهذا الفعل يأتي ليس فقط لكي يفيد الشبع من الجوع بل ليفيد «الملء»، حيث يمتد المعنى عند القديس يوحنا إلى الناحية الكلية أي الملء النفسي والروحي بالراحة والسرور. أما كلمة «الشبع» من الجوع فقط فقد أوردها القديس يوحنا في كلام المسيح للتعبير العكسي عند الذين لم يدركوا السر: الحق الحق أقول كم أنتم تطلبوني ليس لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم» (يو ٦:٢٦)؛ حيث «شبعتم» باللغة اليونانية (   ). والمعنى المقصود واضح، أن الرب أعطاهم أن يذوقوا خبز الإفخارستيا ليمتلئوا حياة «ونعمة» وسروراً وتفتح أعينهم فيدركوا سر الرب، ولكنهم أغفلوا ما ذاقوه من نعمة وسعادة وجروا وراء شهوة بطونهم وجهالة عقولهم وطلبوا منه بعد كل ذلك أن يصنع لهم آية، كنن يُحدر لهم مناً من السماء مثل موسى ليأكلوا ويشبعوا مجاناً. هذا هو أسلوب القديس يوحنا في استخدام الألفاظ للتعبير عن المعاني العميقة التي تحتاج إلى تعمق وفحص دقيق، أما الآناجيل الأخرى فاكتفت بكلمة «الشبع» بمعنى ملء البطن فقط (مت١٤:٢٠ ومر٦:٤٢ ولو٩:١٧).

ومما يزيد هذا التفسير يقيناً، أنه بالرغم من أن إنجيل القديس مرقس ذكر أن التلاميذ جمعوا من الكسر اثني عشرة قفة «ملوءة» حيث جاءت كلمة «مملوءة» باللفظ اليوناني (   )، نجد أن القديس يوحنا لم يشأ أن يذكر كلمة «مملوءة» بالنسبة للقفف، فكلمة «الملء» كانت عند القديس يوحنا ذات عمق كبير ولم يستخدمها قبل ذلك إلا في معنى «ملء المسيح»، «ومن ملئه نحن جميعاً أخذنا ونعمة فوق نعمة.» (يو١:١٦)

وفي وصف الإفخارستيا في «الديداخي» تأتي أيضا كلمة «الملء» بالنسبة للأكل من الإفخارستيا هكذا:(فإذا امتلأتم (أي شبعتم) أعطوا شكراً ...)

وأما كلمة «الكسر» فلم ترد في كتب العهد الجديد إلا في قصة إشباع الجموع في الأربعة الآنا جيل. وفي العهد القديم أتت مرتين ولكن ليس بنفس المعنى إذ أتت في صيغة «فتات» «لأجل حفنة شعير ولأجل فتات من الخبز» (حز١٣:١٩)، وكذلك في سفر القضاة جاءت بالمفرد: «أسند قلبك بكسرة خبز» (قض١٩:٥). وقد دخلت بصيغة الفعل في طقس الإفخارستيا بصورة ملازمة لـ «بارك وكسر»، وعند القديس بولس: «الخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح» (١كو١٠:١٦)

أما كلمة «قفة» فتأتي في اليونانية بنفس اللفظ ويظن أنها كانت تستخدم مع الجموع لملء العليقة لإطعام الدواب التي كان يركبها الناس. أما كلمة «سل» التي جاءت في نفس الوضع بالنسبة لمعجزة إشباع الآربعة الآلاف فجاءت باليونانية (   )، وقد وردت هي نفسها في سفر الأعمال (٩:٢٥)، وتحت كلمة «زنبيل» (٢كو١١:٣٣)، وكانت تتسع رجلا جالسا فيها. ومن هذا يتضح لنا حجم القفة في ذلك الوقت.

ويلاحظ أن إنجيل القديس يوحنا هو الوحيد الذي ذكر أن الرب بنفسه هو الذي أمر التلاميذ أن يجمعوا الكسر الفاضلة، وأضاف إضافة ذات قيمة إفخارستية عالية للغاية حينما ذكر السبب: «لكي لا يضيع شي».

وهنا يلزم أن ننتبه أن المسيح ركز على الخبز وحده دون السمك، لكي تُجمع كل كسرة، ثم أردف أن ذلك لكي «لا يضيع منه شيء». هذه الجملة ذاتها نسمعها من فم الرب بعد ذلك على مستوى النفوس المؤمنة: «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا يتلف منه شيئاً بل أقيمه في اليوم الأخير» (يو٦:٣٩). إذن، فقول الرب بالنسبة للكسر الفاضلة «لكي لا يضيع ممها شيء»» إشارة بليغة أن الخبز الذي باركه «إفخاريستياس» قد تحول إلى خبز إفخارستي مقدس، فلا ينبغي أن يتلف منه شيء، وهو يرمي من بعيد لتصوير المؤمنين الآكلين من جسده. علما بأن كلمة «لا يضيع» وكلمة «لا يتلف» المترادفتين في اللغة العربية، جاءتا في الأصل اليوناني بتركيب واحد بمعنى «ينحل». وفي شرح المسيح لمعنى الخبز الحي ذكر الخبز الذي يتلف أو يضيع بكلمة «البائد» وهي نفس الكلمة اليونانية (   )

كذلك فإن اهتمام الرب بأن يجمع التلاميذ الكسر الفاضلة وإعطاء السبب لذلك لكي «لا يضيع منه شيء» إشارة أخرى ذات هدف بعيد وعميق. فهو يقارن بين الخبز الإفخارستي، أي «خبز الشكر» السري في العهد الجديد، وبين «المن» الذي أكله الشعب في البرية بالضيق، والذي كان لا يفضل منه شيء، إذ كان على قدر حاجتهم اليومية فقط: «ولما كالوا بالعمر (عشر القفة) لم يُفضل المُكثر، والمقلل لم ينقص. كانوا قد التقطوا كل واحد على حسب أكله» (خر١٦:١٨). كذلك، فكان إذا طمع أحد في إبقاء شيء منه، فإنه كان يتلف وينتن: «لكنهم لم يسمعوا لموسى، بل أبقى منه أناس إلى الصباح فتولد فيه دود وأنتن فسخط عليهم موسى.» (خر١٦:٢٠)

وواضح الآن من قول الرب باهتمام أن تُجمع الكسر الغاضلة لكي لا يضيع منها شيء، أن هذا في الحقيقة إشارة إلى أن هذا الخبز الإفخارستي المقدس ليس خبز العوز والحاجة فقط بل خبز الزيادة والفضلة والكثرة: «أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل (زيادة)» (يو١٠:١٠)، كما هو أيضاً إشارة إلى أنه ليس للضياع والتلف، بل هو خبز ينبغي أن يبقى، بمعنى أن الذي يأكله بعين مفتوحة وقلب مؤمن لا تضيع حياته ولا تتلف بل تبقى وتحيا. وهذه المعاني العميقة سيعود الرب و يشرحها بدقة على مستوى «الخبز الحي» النازل من السماء الذي يعطيه هو، أي جسده، في مقارنة واضحة مع المن الذي أكله آباؤهم وماتوا. ولكن ما أشهى المعاني المستترة في هذا الآنجيل العجيب!!!

ويلاحظ القارىء أن من هذه الإشارة التي اهتم بها الرب: أن يجمعوا الكسر الفاضلة لكي لا يضيع منها شيء، أخذت الكنيسة منذ البدء نفس هذا الاهتمام وطبقته على كسر الخبز السري، أي جسد الرب في سر الإفخارستيا، حيث يجتهد الكاهن والشماس معاً أن يجمعوا الفتات المتبقية في الصينية بعد توزيع الجسد ويلتقطها الكاهن باهتمام حتى لا يضيع منها شيء.

كما أن جمع الكسر المتفرقة معاً في اثنتي عشرة قفة لا يزال يحمل معنى روحياً متسعاً. فقد اتحذته الكنيسة في طقس الإفخارستيا ليشير إلى جمع شمل المتفرقين من أبناء الله، بل ورفعت الكنيسة في الطقس الإفخارستي دعاءها الرسمي على هذا المعنى بالذات، وذلك في ترتيب طقس ليتورجية «الديداخي»، التي يُظن أنها من وضع الرسل أنفهسم [أما بخصوص «المكسور» (أي الخبز المكسور) فقولوا هكذا: نشكرك يا أبانا ... كما كان هذا «المكسور» (أي الخبز المكسور) مبعثراً فوق التلال (قمحاً) ثم جُمع معاً وصار واحداً، هكذا اجعل كنيستك تجتمع معاً من أقاصي الأرض إلى ملكوتك]

ومع الفحصر والتدقيق، نجد أن نفس الكلمات بلفظها اليوناني التي جاءت هنا في هذه الإفغارستيا، جاءت في

معجزة كسر الخمس خبزات وجكع الكسر التي فضلت. وهذه الكلمات هي «كسر الخبز»، و«شكر»، «على الجبل»، «اجمعوا» و«تجمعت معاً». فإذا أضفنا إليها ما ذكر في إنجيل القديس يوحنا من محاولة جعل المسيح ملكاً بعد معجزة الخمس خبزات مباشرة، تكون قد تطابقت أيضا كلمة « ملكوتك» الواردة في الديداخي مع «المسيح كملك».

و بالنهاية نستطيع أن نقول إن رواية إشبعام الجموع من الخمس خبزات بكل تفاصيلها جاءت بوضع إفخارستي غاية في العمق الروحي، أخذته الكنيسة حتى بكلماته وحروفه، إلى درجة أن الكنيسة في العصور الاولى كانت تفضل أن يكون الخبز الإفخارستي من الشعير

أما التدقيق في كون الكسر قد جُمعت في اثنتي عشرة قفة، فهذا إشارة واضحة إلى جمع أبناء الله المتفرقين في كنيسة الرسل الاثني عشر المتحدة، في شخص يسوع.

كذلك لا يفوتني أنا كاتب هذه السطور ان أحكي للقارىء أن في أيامي وجدت تدقيقاً زائداً عن الحد في البيوت في جمع كسر أو فتافيت الخبز بوجه خاص بعد الأكل باهتمام بالغ، بإحساس جعلني شديد الآنتباه والسؤال دائماً في ذهني، لماذا هذه المبالغة في جمع الكسر أو فتافيت الخبز خاصة؟ وإني رأيت بعيني أن أمي كانت تجمع الكسر وتقبلها قبل أن تضعها في سلة الخبز بعد الأكل. وأخيرأ أدركت أن التراث القبطي لا يزال مطبوعاً بقصة الخمس خبزات، وأن البيت القبطي كان وربما لا يزال يعايش إنجيل يوحنا، بل المسيح.

تأثير المعجزة

١٤- فَلَمَّا رَأَى النَّاسُ الآيَةَ الَّتِي صَنَعَهَا يَسُوعُ قَالُوا: «إِنَّ هَذَا هُوَ بِالْحَقِيقَةِ النَّبِيُّ الآتِي إِلَى الْعَالَمِ!».

١٥- وَأَمَّا يَسُوعُ فَإِذْ عَلِمَ أَنَّهُمْ مُزْمِعُونَ أَنْ يَأْتُوا وَيَخْتَطِفُوهُ لِيَجْعَلُوهُ مَلِكاً انْصَرَفَ أَيْضاً إِلَى الْجَبَلِ وَحْدَهُ.

وهنا نأتي، أيها القارىء العزيز، إلى أخطر ما في قصة إشباع الجموع من سالبية وجهالة وخروج عن خط الإيمان الصحيح بالنسبة لحقيقة المسيح المخلص والفادي.

واضح من بداية القصة حينما ذكر الآنجيل: «وتبعه جمع كثير لأنهم أبصروا آيالله التي كان يصنعها في المرضى» (يو٦ :٢)، أن هؤلاء الذين تبعوا الرب كانوا مأخوذين بالمعجزات التي تمت لمرضاهم وربما كان فيهم نفس المرضى الذين شفاهم الرب. فلما جاءت معجزة إشباعهم في القفر وصل بهم الحماس إلى أقصاه، ولكنه لم يكن حامساً روحياً في أهدافه بل جسدياً وسياسياً في مرماه، خاصة إذا أضفنا هذا الحماس الجسدي للشبع الإعجازي المبهر إلى الإحساس بالضيق من العبودية المرة التي كانوا يعانونها تحت حكم الرومان عامة وحكم هيرودس ملك الجليل خاصة، بعدما أقدم على قتل يوحنا المعمدان في السجن، علماً بأن يوحنا المعمدان كان نبيا محبوباً لدى الناس.

والآن، لقد رأى المتحمسون من الجليليين صورة تنطبق على النبي الذي ينتظرونه مثل موس يمكن أن يشبعهم خبزاً ويحررهم من العبودية حسب تحقيقات الربيين: «يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون.» (تث١٨ :١٥)

ولكن الرب أجرى معجزة إشباع هؤلاء الخمسة آلاف مع نساء وأولاد لأنه كان لا يمكن أن يصرفهم جائعين، لأن الراعي لا يعذب خرافة. فالرب عندما كان يجري معجزة، أي معجزة، لم يكن يقصد المعجزة بحد ذاتها، ولم تكن المعجزة معجزة بالنبسة له، فهذا عمله. فعمل المسيح هو عمل الله، وأعمال الله كلها معجزات عند الإنسان ولكن

ليس عند الله. كل عمل من أعمال الله التي كان يجريها المسيح كان يحمل إشارة أو شهادة أو برهان الله الذي في المسيح .

فعندما أخذ المسيح خبزات الخمس على يديه وشكر، صار الخبز حاملاً سر الله وقوته، صار خبز الله ولكن في سر، فلم يعد خبز الشقاء والعوز والجوع الذي تُعد خبزاته بالأرقام، بل خبز الراحة والسعة والشبع والزيادة بسبب قوة الله المحيية. فالزيادة التي حدثت في الخمس خبزات هي من فعل الروح، والمسيح كان يدرك ذلك، وكان رد الفعل الذي ينتظره هو أن الناس الذين أكلوا من بركة وقوة الله، أن يمجدوا الله ويدركوا سر الله الفائض في المسيح فيؤمنوا بالمسيح بصفته التي أعلنها عن نفسه ويصدقوه أنه ابن الله.

ولكن خطأ الناس دائماً هو أنهم يستخلصون من بركات الله الخاصة لهم مزيدا من التعالى على الآخرين، مغالاة في التعظم بعقائدهم، وفرصة لطلب النقمة على أعدائهم. على هذا الأساس أراد بعض المتحمسين من الخمسة آلاف أن يتخلصوا من واقع جوعهم وعوزهم وأمراضهم وعبوديتهم تحت أرجل الرومان واستبداد هيرودس بأن يصنعوا من المسيح مخلصاً ومنتقماً لهم حسب فكر قلوبهم، وينصبوه ملكاً لأنفسهم بالشكل الذي يستحسنونه. وقد وضعوا في قلوبهم أنه إذا رفض، فعليهم أن يختطفوه عنوة ويجعلوه ملكاً بالقوة، الشيء الذي لم يُسمع به قط على مدى كل تاريخ شعب يعبد الله بالحق!

طبعاً، رد الفعل عند القارىء هو أن هذه جهالة، ولكن المحزن أن العالم لا يزال يطلب ذلك، بل وكثير من الحكومات والكنائس والعقائد والمتدينين يصلون ويطلبون ويلحون على الله والمسيح أن يكون ملكاً عليهم وحدهم، ليرد عنهم ظلم الآخرين، وينصرهم على الأقوياء والمستبدين! فالحروب الصليبية باسم المسيح كان شعارها الصليب مرسوماً على البيارق والسيوف، لقد نصبوا الميسح بالفعل ملكاً محارباًا بالسيف والرمح ليقتل ويحطم المغيرين والأعداء. كذلك أيضاً كانت محاكم التفتيش والقتل واشعال النار في المؤمنين غير الخاضعين لسلطان البابوات (آنذاك)، كان كل هذا يجري باسم المسيح الذي نصبه خلفاء أباطرة الرومان ملكاً لأنفسهم على روما وحدها ليخضع العالم تحت أرجلهم؛ بل ولا يزال حتى اليوم كل كنيسة وكل عقيدة تطلب وتلح وتؤكد على المسيح أن يلتزم بنصرتها كملك عليها، بالدفاع عنها، والآنتقام من أعدائها. ولو كان ممكناً أن يظهر المسيح لهم لاختطفوه ولأرادوا أن يجعلوه ملكاً عليهم وحدهم وبالقوة.

لهذا كان قلب المسيح ثقيلاً وحزيناً على هؤلاء الجليليين الذين تاهوا عن الله وعن خلاصهم الحقيقي، وفقدوا الرؤية الصحيحة للمسيح كمخلص وفاد. ولم يكن أمام المسيح بعد أن صنع المعجزة إلا أن يختفي فجأة عنهم، «وينصرف وحده»!

ولا يزال المسيح إلى الآن يرفض أن يكون ملكاً عنصرياً أو عقائدياً على شعب ما أو على عقيدة ما، أو يكون واسطة لتسهيل الحياة الطبيعية، أو ضامناً لمسرات الناس الأرضية، فـ «المسيح هو رب لمجد الله الآب» (في٢: ١١). وآيات المسيح كلها هي لمجد الآب الذي لن يتأتى إلا بحب الناس بعضهم للبعض، والعفو عن الخاطىء المذنب. وإن قول المسيح: «أنا مجدتك على الأرض» (يو١٧: ٤)، يعني أنه أعطى نفسه ذبيحة حب لكل الناس، والمسيح هو مسيح العالم كله لحساب الآب السماوي.

٢- الآيه الملازمة لإشباع الجموع

السير على الماء

«أبصرتك المياه يا الله، أبصرتك المياه ففزعت، أرتعدت أيضاً اللجج ... في البحر طريقك وسبلك في المياه الكثيرة وآثارك لم تُعرف.» (مز ٧٧: ١٦و ١٩)

«الباسط السموات وحده والماشي على أعالي البحر.» (أيوب ٩: ٨)

١٦- ٢١ «وَلَمَّا كَانَ الْمَسَاءُ نَزَلَ تلاَمِيذُهُ إِلَى الْبَحْرِ. فَدَخَلُوا السَّفِينَةَ وَكَانُوا يَذْهَبُونَ إِلَى عَبْرِ الْبَحْرِ إِلَى كَفْرِنَاحُومَ. وَكَانَ الظّلاَمُ قَدْ أَقْبَلَ وَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ قَدْ أَتَى إِلَيْهِمْ. وَهَاجَ الْبَحْرُ مِنْ رِيحٍ عَظِيمَةٍ تَهُبُّ. فَلَمَّا كَانُوا قَدْ جَذَّفُوا نَحْوَ خَمْسٍ وَعِشْرِينَ أَوْ ثَلاَثِينَ غَلْوَةً نَظَرُوا يَسُوعَ مَاشِياً عَلَى الْبَحْرِ مُقْتَرِباً مِنَ السَّفِينَةِ فَخَافُوا. فَقَالَ لَهُمْ: «أَنَا هُوَ لاَ تَخَافُوا». فَرَضُوا أَنْ يَقْبَلُوهُ فِي السَّفِينَةِ. وَلِلْوَقْتِ صَارَتِ السَّفِينَةُ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي كَانُوا ذَاهِبِينَ إِلَيْهَا.

«أنت متسلط على كبرياء البحر عند ارتفاع لججه أنت تسكنها» (مز ٨٩: ٩)

لقد اشترك مع إنجيل القديس يوحنا في رواية هذه المعجزة الملازمة لمعجزة إشباع الجموع كل من إنجيل القديس متى (١٤: ٢٢)، وإنجيل القديس مرقس (٦: ٤٥)، ولكن بأوصاف تختلف اختلافات طفيفة.

فبينما يسرد القديس يوحنا هذه المعجزة باختصار شديد، نقرأ في إنجيل القديس مرقس أن المسيح «ألزم تلاميذه أن يدخلوا السفينة ويسبقوا إلى العبر، إلى بيت صيدا (الجليل)، حتى يكون قد صرف الجمع. وبعدما ودعهم مضى إلى الجبل ليصلي» (مر ٦: ٤٥-٤٦). بهذا تكمل الصورة التي أعطاها القديس يوحنا في إنجيله حيث يتضح من كلمة «آلزم» تلاميذه، عند القديس مرقس، أن الرب استخدم سلطانه أمام إلحاح التلاميذ في البقاء معه خوفاً عليه من المتحمسين الذين أرادوا أن يختطفوه، ولكن الرب هو الرب، لا يحتاج إلى آخر. كذلك نفهم من كلمة «ويسبقوا» إلى العبر»، أن الرب وعدهم بالمجيء إليهم. ولكن كيف سيتقابل معهم؟ لم توضح الآناجيل ذلك، وربما كان الإتفاق أن يسروا بالسفينة بحذاء الشاطىء الشمالي للبحيرة، حيث يقابلهم سائراً على الشاطىء. لذلك نقرأ في إنجيل القديس يوحنا: «وكان الظلام قد أقبل، ولم يكن يسوع قد أتى إليهم.» (٦: ١٧)

ويلاحظ أن الرب ألزم تلاميذه على ركوب السفينة في المساء، ف «المساء» هنا لا تفيد المقصوا من كلمة «أبسيا» اليونانية، فكلمة «أبسيا» في اليونانية تفيد «الغروب» أي آخر ساعات النهار ولكن قبل ظلام الليل. فالتلاميذ ركبوا السفينة في الغروب. وعندما حل الظلام، وهذا هو بدء الليل الذي يكون بعد الغروب بحوالي ساعة، يقول إنجيل القديس يوحناأن بدخول الليل لم يكن يسوع قد أتى إليهم بعد، فانقطع أملهم من رؤيته سائراً على الشاطىء.

والقديس يوحنا هنا لا يورد كلمة «الظلام» إلا ووراءها معنى غياب النور اي المسيح، وهكذا ينسج القديس يوحنا هن الألفاظ معاني أعمق من مجرد شكلها ومعناها البسيط. ومعنى مجيء الظلام بأسلوب القديس يوحنا يكون غياب النور أو الإيمان أي عدم مجيء المسيح، وهذا يحمل معه حدوث تجربة خطرة، فيقول مباشرة: «وهاج البحر من ريح عظيمة تهب»، حيث التجربة هنا تصنعها الطبيعة سواء الرياح أو الأمواج بإيعاز من رئيس سلطان الهواء، القوة المعادية، كما يقول القديس بولس (أف ٢: ٢). وهكذا يكون غياب المسيح قد كشف عن حضور المجرب. ومن سياق القصة، كما جاء في إنجيل القديس مرقس: «ولما صار المساء كانت السفينة في وسط البحر، وهو على البر وحده، ورآهم معذبين في الجذف، لأن الريح كانت ضدهم» (مر ٦: ٤٧-٤٨). نفهم من ذلك أن الرياح كانت شمالية غربية، واتجاه السفينة كان نحو الشمال الغربي وهذا اتجاه موقع كفرناحوم. والنتيجة أن الرياح والأمواج قذفت

بالسفينة إلى عمق البحيرة بعيدا جدا عن الشاطىء. فإذا عرفنا أن أقص عرض للبحيرة[4] كان نحو أربعين غلوة، بالقياس الروماني، والغلوة أو الستاديون تساوي حوالي ٢٠٠ متر، أي أن عرض البحيرة حوالى ثمان كيلومترات. والقديس يوحنا يذكر أنهم جذفوا نحو خمس وعشرين أو ثلاثين غلوة أي ما بين خمسة إلى ستة كيلومترات بعيداً عن الشاطىء. ويضيف القديس مرقس أن ذلك استغرق منهم وقتاً طويلاً حيث أصبحوا في الهزيع الرابع: «ونحو الهزيع الرابع من الليل آتاهم ماشياً على البحر» (مر٦:٤٨). والهزيع الرابع يقابل الساعة الثالثة بعد نصف الليل. وهذا معناه أنهم ظلوا يجدفون معذبين من الرياح والأمواج التي ضدهم نحو عشر ساعات متواصلة بلا راحة!!

وهكذا أيضا، وبالمعنى الروحي العميق، يجيء المسيح في الهزيع الرابع من الليل للمعذبين الذين ينتظرونه بفروغ الصبر. وداود النبي، وكأنه كان على الشاطىء الآخر وراء الدهور السالفة يرصد بالنبوة هذا المنظر المأساوي العجيب، وكيف سيجيء الرب حتماً في الميعاد للخلاص المرسوم يقول: « اَلنَّازِلُونَ إِلَى الْبَحْرِ فِي السُّفُنِ الْعَامِلُونَ عَمَلاً فِي الْمِيَاهِ الْكَثِيرَةِ. هُمْ رَأَوْا أَعْمَالَ الرَّبِّ وَعَجَائِبَهُ فِي الْعُمْقِ. أَمَرَ فَأَهَاجَ رِيحاً عَاصِفَةً فَرَفَعَتْ أَمْوَاجَهُ. يَصْعَدُونَ إِلَى السَّمَاوَاتِ يَهْبِطُونَ إِلَى الأَعْمَاقِ. ذَابَتْ أَنْفُسُهُمْ بِالشَّقَاءِ. يَتَمَايَلُونَ وَيَتَرَنَّحُونَ مِثْلَ السَّكْرَانِ وَكُلُّ حِكْمَتِهِمِ ابْتُلِعَتْ. فَيَصْرُخُونَ إِلَى الرَّبِّ فِي ضِيقِهِمْ وَمِنْ شَدَائِدِهِمْ يُخَلِّصُهُمْ. يُهَدِّئُ الْعَاصِفَةَ فَتَسْكُنُ وَتَسْكُتُ أَمْوَاجُهَا. فَيَفْرَحُونَ لأَنَّهُمْ هَدَأُوا فَيَهْدِيهِمْ إِلَى الْمَرْفَإِ الَّذِي يُرِيدُونَهُ. فَلْيَحْمَدُوا الرَّبَّ عَلَى رَحْمَتِهِ وَعَجَائِبِهِ لِبَنِي آدَمَ.» (مز١٠٧:٢٣-٣١)

إن قول القديس يوحنا أنهم «نظروا يسوع ماشيا على البحر مقتربا من السفينة فخافوا فقال لهم «أنا هو» لا تخافوا»، يحمل مقارنة على التوازي بين موسى والمسيح تأتي في موضح الإعجاز والإعجاب، لأن موسى بعد أكل خروف الفصح مباشرة انطلق بالشعب إلى البحر الأحمر ليشقه ويسير وسط أمواجه بإعجاز يُتعجب منه.

وبالعودة إلى قصة الخمس خبزات وما رادفها من ذكر الفصح، يأتي مباشرة ذكر المسيح ماشيا على البحر المضطرب ليعطي تكملة المقارنة مع موسى، الذي لكي يعبر البحر الأحمر مع الشعب أمره الرب أن يفلق المياه ليسير على اليابس في العمق، أما الرب فسار هنا وهو يتهادى على سطح المياه: ابصرته المياه ففزعت!! «أبصرتك المياه يا الله أبصرتك الميا، ففزعت ارتعدت أيضاً اللجج .... في البحر طريقك وسبلك في المياه الكثيرة وأثارك لم تُعرف» (مز٧٧:١٦و١٩). أما كيف فزعت المياه وارتعدت اللجج، فهذا يصفه القديس مرقس في اختصار شديد: «فصعد إليهم إلى السفينة فسكنت الريح، فبهتوا وتعجبوا في أنفسهم جداً إلى الغاية.» (مر٦:٥١)

أما سلطانه على الرياح والأمواج فيصفه القديس مرقس في موضع أخر هكذا: «فحدث نوء ريح عظيم، فكانت الأمواج تضرب إلى السفينة حتى صارت تمتلىء. وكان هو في المؤخر على وسادة نائماً. فأيقظوه وقالوا له: يا معلم أما يهمك أننا نهلك؟ فقام وانتهر الريح وقال للبحر: أسكت، ابكم، فسكنت الريح وصار هدوء عظيم. وقال لهم ما بالكم خائفين هكذا. كيف لا إيمان لكم. فخافوا خوفا عظيما وقالوا بعضهم لبعض: من هو هذا فإن الريح أيضا والبحر يطيعانه.» (مر٤:٣٧-٤١)

«فرضوا أن يقبلوه (يأخذوه) في السفينة»: الآن يلزم أن نصحح الترجمة العربية للآية: »فرضوا أن يقبلوه في السفينة... » والتي جاءت في الترجمة الآنجليزية بصورة أفضل: **and willingly received**. هنا فعل إرادة

[4] الآن طول بحيرة الجليل ٢١ كيلومتر وعرضها ١٢ كيلومتر. ولكن بحسب القياسات في زمن يوسيفوس (القرن الأول للميلاد) كان عرض البحيرة ٤٠ سناديون، أي ٨ كيلومتر، وطولها ١٤٠ ستاديون أي ٢٧ كيلومتر. علماً بأن الستاديون يساوي ٦٠٠ قدم

ومشيئة وليس «رضا» . وقد جاء الفعل في اليونانية في زمن الماضي المتصل كحالة مستديمة، بمعنى أنه كانت لهم إرادة بتلهف أن يدخل السفينة، وقد جاءت في الترجمة اللا تينية (   ) لتفيد الشعور المتلهف بالإرادة لاستقبال الرب. والذي يزيد هذا المعنى تأكيدا ما جاء في إنجيل القديس مرقس: « وأتاهم ماشيا على البحر وأراد أن يتجاوزهم ... » ونحن نفهم من هذا أن الرب كان سائرا على الأمواج بمحاذاتهم، ولم يكن له قصد أن يدخل السفينة، مكتفيا بأن يظهر نفسه لهم ليبدد خوفهم، ولكن على العكس، فقد ازداد خوفهم من أن يكون الذي يرونه خيالا فطمأنهم بصوته وبالجملة المعهودة: «أنا هو، لا تخافوا» . و«أنا هو» التي سجلها هنا القديس يوحنا تأتي برنينها اللاهوتي المعبر عن شخص الله، فالمسيح أراد أن يعلن عن حضوره الإلهي لتلاميذه في هذه المناسبة. فلما اطمأنوا أنه الرب ، أظهروا إرادتهم أن يأخذوه معهم في السفينة. وكلمة «فرضوا أن يقبلوه» بلغة القديس يوحنا السرائرية تفيد قبول الإيمان بعد نفور الخوف الذي يأتي من عدم الإيمان: « كيف لا إيمان لكم» (مر٤:٤٠). كذلك حينما تدخل القديس بطرس ليختبر حقيقة أنه الرب ، (كما ورد في إنجيل متى)، «وفي الهزيع الرابع من الليل مضى إليهم يسوع ماشياً على البحر. فلما أبصره التلاميذ ماشيا على البحر اضطربوا قائلين إنه خيال، ومن الخوف صرخوا. فللوقت كلمهم يسوع قائلا: تشجعوا، أنا هو، لا تخافوا. فأجابه القديس بطرس وقال: يا سيد، إن كنت أنت هو فمرني أن آتي إليك على الماء.» (مت١٤:٢٥-٢٨)

يتضح من هذا أكثر أن الرب كان ماشيا بمحاذاة السفينة، كما يتضح أن القديس بطرس أراد أن يسير نحوه ليسير معه.

كذلك فإن قول إنجيل القديس مرقس:«دفأراد أذ يجاوزهم»، لا يأتي دون معى أو أهمية لاهوتية، فهذا هو وضع الله حينما كان يتراءى للانساذ قديما، ملما ترادى لموسى؛ حينما اجتاز الرب، أي تجاوزه، ليرى موسى خلفه ولا يرى وجهه: «فقال (موسى): آرني مجدك. فقال (الله): أجيز كل جودتي قدامك، وأنادي باسم الرب (أنا هو) قدامك، وأتراءف على من أتراءف وأرحم من أرحم. وقال: لا تقدر أن ترى وجهي، لأن الإنسان لا يراني ويعيش. وقال الرب: هوذا عندي مكان فتقف على الصخرة، ويكون متى اجتاز مجدي، أني آضعك في نقرة من الصخرة، واسترك بيدي حتى اجتاز، ثم أرفع يدي فتنظر ورائي، وأما وجهي فلا يُرى» (خر٣٣:١٨-٢٣)

وهكذا نرى الرب يسير بجوار موسى ويجتاز أمامه، حيث يقول الوحي الإلهي هنا بضرورة أن يجتاز الرب حتى يمكن للانسان التعرف عليه.

كذلك نرى نفس الوضع مع إيليا حينما تراءى له الله بعد أن اجتاز أمامه «فقال (الرب): اخرج وقف على الجبل أمام الرب، وإذا بالرب عابر(مجتاز) وريح عظيمة وشديدة قد شقت الجبال وكسرت الصخور أمام الرب ولم يكن الرب في الريح. وبعد الريح زلزلة ولم يكن الرب في الزلزلة، وبعد الزلزلة نار ولم يكن الرب في النار. وبعد النار صوث منخفض خفيف،~ فلما سمع إيليا، لف وجهه بردائه وخرج ووقف في باب المغارة، واذا بصوت إليه يقول: مالك ههنا يا إيليا.» (امل١٩:١١-١٣)

وهنا أيضاً نرى عبور الرب (اجتيازه) أمام إيليا ضرورة إلهية يشترطها الوحي، حتى يمكن التعرف عليه بعد ذلك من صوته.

وهذا ما حدث تماما في قصة سير الرب على المياه بجوار السفينة واجتيازه: «وأراد أن يتجاوزهم»، ثم إذ صرخوا كان صوته إليهم: «أنا هو لا تخافورا». هكذا استعلن المسيح ذاته لهم كرب وإله، وليس كخيال، فتعرفوا عليه،

فأرادوا في الحال أن يأخذوه في السفينة. هنا يضيف القديس مرقس: «فصعد إليهم في السفينة». وهذا أيضاً رد مباشر عل كثير من العلماء الذين أرادوا أن يقللوا من معجزة السير عل البحر، إذ قالوا أن قول الآنجيل: «ماشياً على البحر»، يفيد أنه كان يسير على شاطئ البحيرة وليس على الماء. فبشيء من البصيرة والدقة العلمية نكتشف زيف تحليلهم للكلمات، إذ يقول القديس مرقس إنه صعد إليهم في السفينة، فلو كان المسيح سائرا على الشاطئ، لكان القول: «ونزل» إليهم في السفينة، لأن الشاطئ، أعلى من مستوى البحر والسفينة. ولكنه يقول «صعد إليهم في السفينة، لأن مستوى الموج الذي كان يسير عليه منخفض عن مستوى السفينة.

كذلك يضيف القديس مرقس «فسكت الريح». نعم، فدخول الرب إلى سفينتنا المضطربة، يتبعه حتم سكون وهدوء. وهنا يتضح القصد الآنجيلي أن الرب هو قاهر قوى الموت وسلطانه .

٢١ – فَرَضُوا أَنْ يَقْبَلُوهُ فِي السَّفِينَةِ. وَلِلْوَقْتِ صَارَتِ السَّفِينَةُ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي كَانُوا ذَاهِبِينَ إِلَيْهَا.

هنا يضيف القديس يوحنا معجزة أخرى على نفس مستوى السير على الماء، تتوافق تماما مع سلطان الرب على إخضاع عنف الريح ولجج البحر. فالذي أضافته الرياح العاصفة من مشقة على الرحلة، وما كسحتله الأمواج من مسافة زائدة، رفعه الرب من حساب الرحلة؛ فللحال وجدوا أنفسهم على الشاطىء. وهنا تطابق لنص القديس يوحنا على النص النبوي في المزمور الذي صور هذه الرحلة من وراء الآزمنة، آمر يتعجب له: «يهدئ العاصفة فتسكن، وتسكت أمواجها. فيفرحون، لأنهم هدأوا، فيهديهم إلى المرفإ الذي يريدونه» (مز١٠٧: ٢٩–٣٠)

وبلغة القديس يوحنا، فإنهم حالما تبلوه بإرادة فرحة، بلغوا شاطىء الأمان. إنها صورة حية لنهاية تجربة بحر الحياة الصاخب، ومعاندة القوى الشريرة التي تقف معاندة إلى أن يدخل الرب سفينة العبور، لتعير للحال في ميناء الراحة الأبدي.

هنا نكتفي بالشرح القليل الذي قدمناه من خلال السطور أثناء تحليلنا للنصوص الواردة في القصة. لأن الشرح الكامل سوف يقدمه المسيح بنفسه وبإسهاب في مجمع كفرنا حوم في اليوم الثاني من وصول السفينة إلى كفرناحوم .

حديث الرب فى مجمع كفرناحوم عن جسده الحى كخبز الحياة الأبدية

هذا الحديث ينقسم إلى ثلاثة أقسام مطولة، وكل قسم يبدأ بمبادرة من اليهود.

أ– الجزء الأول من الحديث (٦: ٢٦–٤٠)، ويبدأ بالسؤال البسيط: «ولما وجدوه في عبر البحر قالوا له: يا معلم متى صرت هنا؟»

ب _ الجزء الثاني من الحديث (٦: ٤١–٥١): و يبدأ بتذمر بسؤال استنكاري: «فكان اليهود يتذمرون عليه لأنه قال أنا هو الخبز الذي نزل من السماء، وقالوا : أليس هذا هو يسوع ابن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه...».

ج _ الجزء الثالث من الحديث (٦: ٥٢–٥٨): ويبدأ إثر منازعة فيما بينهم: «فخاصم اليهود بعضهم بعضاً قائلين: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل؟»

وكانت الحقائق التي جاءت ردا على هذه الأسئلة الثلاثة، كغاية لكل حديث، كالآ تي:

الجزء الأول من الحديث: اختص باستعلان الحياة الأبدية المخفية في جسد المسيح: «أنا هو خبز الحياة».

الجزء الثاني من الحديث: اختص بعلاقة الابن بالآب: «ليس أن أحدا رأى الآب إلا الذي من الله. هذا قد رأى الآب»؛ «لا يقدر أحد أن يقبل إلي إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني...»

الجزء الثالث من الحديث: اختص بالحصول على المسيح الكلمة المتجسد بأكل جسده وشرب دمه: «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية... فمن يأكلني فهو يحيا بي».

التمهيد لحديث الرب: (٦: ٢٢-٢٥)

(٦: ٢٢-٢٥) وَفِي الْغَدِ لَمَّا رَأَى الْجَمْعُ الَّذِينَ كَانُوا وَاقِفِينَ فِي عَبْرِ الْبَحْرِ أَنَّهُ لَمْ تَكُنْ هُنَاكَ سَفِينَةٌ أُخْرَى سِوَى وَاحِدَةٍ وَهِيَ تِلْكَ الَّتِي دَخَلَهَا تلاَمِيذُهُ وَأَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَدْخُلِ السَّفِينَةَ مَعَ تلاَمِيذِهِ بَلْ مَضَى تلاَمِيذُهُ وَحْدَهُمْ. غَيْرَ أَنَّهُ جَاءَتْ سُفُنٌ مِنْ طَبَرِيَّةَ إِلَى قُرْبِ الْمَوْضِعِ الَّذِي أَكَلُوا فِيهِ الْخُبْزَ إِذْ شَكَرَ الرَّبُّ. فَلَمَّا رَأَى الْجَمْعُ أَنَّ يَسُوعَ لَيْسَ هُوَ هُنَاكَ وَلاَ تلاَمِيذُهُ دَخَلُوا هُمْ أَيْضاً السُّفُنَ وَجَاءُوا إِلَى كَفْرِنَاحُومَ يَطْلُبُونَ يَسُوعَ. وَلَمَّا وَجَدُوهُ فِي عَبْرِ الْبَحْرِ قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ مَتَى صِرْتَ هُنَا؟».

من هذه الرواية يتضح لنا أن الجموع كانت تراقب المسيح مراقبة شديدة لعلهم يستطيعون أن ينجحوا في محاصرته وإقناعه أن ينصبوه ملكاً، حسب الرواية السابقة. وقد لاحظ الجمع، وخاصة المتحمسون منهم، أن التلاميذ مضوا وحدهم، وأما الرب فبقي على الجبل وحده وأنهم في الصباح لم يجدوه.

«غير أنه جاءت سفن من طبرية إلى قرب الموضع الذي أكلوا فيه الخبز إذ شكر الرب»: هذا تعبير إفخارستي واضح: «الذي شكر عليه الرب» أي الذي باركه أو قدسه الرب بصلاة الشكر أو الإفخارستيا.

ويلاحظ هنا أن مجيء السفن إلى هذا الموضح ليس طبيعيا، فالمكان ليس به مرفأ. ولكن إذا لاحظنا أن الريح العاصف الشديد كان يهب من الشمال الغربي، لأدركنا في الحال أن الرياح اكتسحت سفنا (بدون الـ التعريف، أي عرضا)، إلى هذه الناحية الشرقية، فانتهزها الرجال المتحمسون وركبوا هذه السفن إلى كفرناحوم بحثا عن المعلم. وبهذا أيضاً ندرك أن هؤلاء الرجال كانوا في غاية الحماس ومتأثرين غاية التأثر من عجيبة الخبز الذي أكلوا وفاض عنهم. ومما زاد من حماسهم اكتشافهم عند عثورهم عليه في كفرناحوم أن المسيح لم يركب أي سفينة، ولا بد أنه شاع خبر عبوره البحيرة سائرا على الماء، فأهاج آمالهم في مملكة الأحلام التي كانوا يحلمون بها. وسؤالهم له: «متى (أو كيف على وجه الأصح) صرت هنا؟» هو محاولة ملحة منهم ليكشف لهم المعلم عن سر قدرته المتعاظمة في نظرهم علانية، ولكن للأسف فإن كل هذا الحماس والسعي والأمل الذي اعتمل في نفوسهم بخصوص المسيح، لم يخرج عن المحيط المادي والسياسي الذي كانوا يحلمون به على مستوى ما كان يعيش فيه أباؤهم مع موسى.

وهنا يبدأ المسيح يصحح مفهوماتهم عن قدرته الفائقة ومصدرها وغايتها، ويصحح المقارنة الخاطئة بينه وبين موسى، ويضع أسس العلاقة الصحيحة التي تربطه بالإنسان على نور العلاقة التي تربطه بالآب السماوي.

أ- الجزء الأول من االحديث (٦: ٢٦-٤٠).

أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: أَنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي لَيْسَ لأَنَّكُمْ رَأَيْتُمْ آيَاتٍ بَلْ لأَنَّكُمْ أَكَلْتُمْ مِنَ الْخُبْزِ فَشَبِعْتُمْ. اِعْمَلُوا لاَ لِلطَّعَامِ الْبَائِدِ بَلْ لِلطَّعَامِ الْبَاقِي لِلْحَيَاةِ الأبدية الَّذِي يُعْطِيكُمُ ابْنُ الإنسان لأَنَّ هَذَا اللَّهُ الآبُ قَدْ خَتَمَهُ». فَقَالُوا لَهُ: «مَاذَا نَفْعَلُ حَتَّى نَعْمَلَ أَعْمَالَ اللَّهِ؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «هَذَا هُوَ عَمَلُ اللَّهِ: أَنْ تُؤْمِنُوا بِالَّذِي هُوَ أَرْسَلَهُ». فَقَالُوا لَهُ: «فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟ مَاذَا تَعْمَلُ؟ آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزاً مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا». فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ مُوسَى أَعْطَاكُمُ الْخُبْزَ مِنَ السَّمَاءِ بَلْ أَبِي يُعْطِيكُمُ الْخُبْزَ الْحَقِيقِيَّ مِنَ السَّمَاءِ. لأَنَّ خُبْزَ اللَّهِ هُوَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ الْوَاهِبُ حَيَاةً لِلْعَالَمِ». فَقَالُوا لَهُ: «يَا سَيِّدُ

أَعْطِنَا فِي كُلِّ حِينٍ هَذَا الْخُبْزَ». فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فلاَ يَجُوعُ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فلاَ يَعْطَشُ أَبَداً. وَلَكِنِّي قُلْتُ لَكُمْ إِنَّكُمْ قَدْ رَأَيْتُمُونِي وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ. كُلُّ مَا يُعْطِينِي الآبُ فَإِلَيَّ يُقْبِلُ وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجاً. لأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ لأَعْمَلَ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَهَذِهِ مَشِيئَةُ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَانِي لاَ أُتْلِفُ مِنْهُ شَيْئاً بَلْ أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ. لأَنَّ هَذِهِ هِيَ مَشِيئَةُ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَنْ يَرَى الابن وَيُؤْمِنُ بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ».

٢٦:٦-٢٧ أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: أَنْتُمْ تَطْلُبُونَنِي لَيْسَ لأَنَّكُمْ رَأَيْتُمْ آيَاتٍ بَلْ لأَنَّكُمْ أَكَلْتُمْ مِنَ الْخُبْزِ فَشَبِعْتُمْ. اِعْمَلُوا لاَ لِلطَّعَامِ الْبَائِدِ بَلْ لِلطَّعَامِ الْبَاقِي لِلْحَيَاةِ الأبدية الَّذِي يُعْطِيكُمُ ابْنُ الإنسان لأَنَّ هَذَا اللَّهُ الآبُ قَدْ خَتَمَهُ».

كان رد المسيح على سؤالهم عنه ردا كاشفا حاسما مبكتا، ومعناه أنكم لستم تطلبونني بل تطلبون عطاياي. لما أكلتم من الخبز لم تروا فيه آية بل طعاماً للشبع، كما لم تروا في كل الأشفية التي صنعتها أمامكم أية إشارة أو آية إلى من صنعها، بل ربحاً وراحة للجسد تطمعون في المزيد منه وتطلبون الأكثر والأعجب؛ حيث يلاحظ هنا أن قول الآنجيل: «ليس لأنكم رأيتم آيات» يفيد «رؤية الايمان» وهي غائبة عنهم.

ويلاحظ القارىء أن المسيح نفسه لم يكن يرى في الآيات التي يصنعها للناس من أشفية وغيرها مجرد أعمال رحمة أو محبة أو عطف، بل فعل إثارة لعقولهم وقلوبهم، حتى يدركوا ويؤمنوا بحقيقة شخصه، لكي بالإيمان به تكون لهم الحياة الأفضل والنعمة الدائمة الأبدية والشبع الحقيقي لأرواحهم وليس لأجسادهم. وهذا نفهمه بوضوح من تبكيته لهم: «اعملوا لا للطعام البائد، الخبز للشبع الجسدى، بل للطعام الباقي للحياة الأبدية (جسد المسيح نفسه) الذي يعطيكم ابن الإنسان، لأن هذا الله الآب قد ختمه».

ليتذكر القارىء قول الرب أثناء جمع الكسر في الاثنتي عشرة قفة: «لكي لا يضيع منه شيء» (آية ١٢). هنا كلمة «يضيع» هي نفسها التي جاءت هنا بمعنى «يبيد» أو «البائد»، إشارة من الرب أن الخبز الذي كسره ووزعه عليهم ينبغي أن لا يضيع فهو ليس من نوع الخبز البائد، بمعنى أن فيه من الديمومة والحياة، إن بلغوا سر القوة التي كانت فيه، بالإيمان بالمسيح، الذي باركه وقدسه وأعطاه.

وهنا نرى أن الرب يشير إلى أن كل أعماله واياته التي صنع قد تؤخذ وتفهم وتؤكل على أنها بائدة، أي مادية أرضية، إذا لم يؤخذ المسيح الذي فيها بالإيمان. كما أنها قد تؤخذ وتفهم على أنها باقية وحية وأبدية إذا أخذ المسيح القائم فيها بالسر.

وهنا يستهدف القديس يوحنا القارىء والسامع، فهو يروي رواية المسيح مع الجليليين واليهود ليس كتاريخ أو قصة، بل كفعل إشارة وآية موجهة لقلب القارىء والسامع. وعطايا المسيح، أي عطايا، يستحيل أن تعمل للحياة الأبدية أو يكون لها نفع روحي إذا لم يكن المسيح هو قصدها الكلي ومنتهى غايتها. فالذي يطلب من المسيح أن يشفى، لن ينتفع من شفائه شيئا إذا لم تكن الصحة المعطاة المتمتاة هي آية بحد ذاتها تعمل لحساب المسيح، والا يكون شفاؤه كملء بطن الجليليين من الخمس خبزات التي لإفخارستيا المسيح، ليس إلا.

يلاحظ هنا كلمة «يعطيكم ابن الإنسان»، فالكلت باليونانية (   ) هي عطية للحياة الأبدية، وهي من نفس أصل الكلمة التي رأيناها في قصة السامرية: «لوكت تعلمين عطية الله» (يو ٤:١٠)، فهي هناك «عطية المياه» الحية للحياة الأبدية، وهنا «عطية الطعام، أي الخبز الحي» للحياة الأبدية.

وهنا يضمر النص الآنجيلي فعل الروح القدس المحيي، إن كان في الماء للمعمودية للميلاد الثاني، وإن كان في الخبز أي الجسد للافخارستيا كطعام الحياة الدائمة.

أما كلمة «ختمه» فهي هنا واقعة عل المسيح، وليس على «الطعام» لأنها تأتي واقعة عل اسم مذكر عاقل وليس عل مؤنث حيث كلمة «طعام» في اليونانية مؤنثة، وهي تأتي في كتابات العهد الجديد لتفيد فعل الروح القدس في الميلاد الثاني أي ختم المعمودية (أف ١:١٣ و٢كو ١:٢٢)؛ أما هنا وهي تخص المسيح فتفيد ختم التقديس: «الذي ختمه الآب وأرسله إلى العالم» (يو ١٠:٣٦). ختم التقديس الذي تم بواسطة الآب سواء في الميلاد: «فلذلك أيضا القدوس المولود منك يدعى ابن الله» (لو ١:٣٥)، «لأن الذي حُبل به فيها هو من الروح القدس» (مت ١:٢٠)، أو في المعمودية: «الذي ترى الروح القدس نازلاً ومستقراً عليه فهذا هو الذي سيعمد بالروح القدس. وأنا قد رأيت وشهدت أن هذا هو ابن الله» (يو ١:٣٣-٣٤)، أو في القيامة: «وتعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات.» (رو ١:٤)

كما تأتي «ختمه» في قول الآنجيل: «لأن هذا الله الآب قد ختمه» بمعنى إضافي أن الله الآب قد «شهد له بنفسه». [كما نقول في أحاديثنا أنا مستعد أن أختم وأبصم على هذا أنه حق، حيث يفيد قولنا هذا شهادة للتصديق). وهذا المعنى تكرر كثيراً في إنجيل القديس يوحنا. ولكن المعنى الثاني أن الآب يشهد له يأتي مترتبا عل المعنى الأول «الآب قدسه».

كما يُلاحظ أنه للمرة الاولى والوحيدة في كل الآناجيل يأتي التعبير عن الله بـ «الله الآب» من فم المسيح بالمعنى العام، لأن المعتاد أن يقول المسيح إما أبي أو الآب، ولكن أن يأتي الله بالصيغة الآبوية العامة من فم المسيح، فهذا ليفيد أنه ليس ختما خاصاً بالمسيح نفسه ولكن ختما خاصا بالإنسان ككل، فهو ختم أبوة الله على جسد الابن الوحيد، الكلمة المتجسد، ليصير الله به أباً لكل من يقبله (ويتناول منه).

٢٨- فَقَالُوا لَهُ: «مَاذَا نَفْعَلُ حَتَّى نَعْمَلَ أَعْمَالَ اللَّهِ؟».

سؤال مستمد من قول الرب السابق: «اعملوا ... للطعام الباقي للحياة الأبدية».

كان هؤلاء الجليليون يريدون أن يأخذوا، يأخذوا شبعا جسديا وراحة وكبريا، وسلطة، ليتحرروا بالجسد، فأرادوا وتحمسوا لأن يستخدموا الرب لتكميل شهواتهم بأن يجعلوه ملكا. والمسيح الآن يردهم إلى الوضع الصحيح الذي يوصلهم إلى أكثر مما كانوا يريدون ويشتهون، ولكن ليس لحساب الجسد الفاني، والطعام البائد، والعبودية السياسية، والعالم الذي وُضع بجملته في يد الشرير؛ ولكن لحساب الروح والحياة الأبدية. والمسيح، كملك سماوي، يعطي عطايا للمجد، وذلك بأن يعملوا ويعطوا ويبذلوا ويخسروا كل شيء لامتلاك المسيح كملك على قلوبهم لمجد الله. وشتان بين شهوة الأخذ وشهوة العطاء. فالاولى دائماً لحساب الجسد البائد، والثانية لحساب الجسد المقام في مجد.

وأما سؤالهم للمسيح: «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟» فهو سؤال يبدو صحيحا في مظهره، ولكنه يضمر إصرارا على استخدام القدرة المظهرية، من عبادة وطقس، والفكر او التدبير المادي كوسيلة للعمل، فالسؤال يكون صحيحا إن هم قالوا: ما هو عمل الله لنعمله مباشرة؟ ولكنهم وضعوا قوة أنفسهم قبل قوة عمل الله: «ماذا نفعل حتى نعمل». هذا هو انطباع الفكر اليهودي العام، وهذا يتضح من رد المسيح المصحح الكاشف أن عمل الله لا يحتاج إلى فعل إنسان بل إلى إيمان: «هذا هو عمل الله، أن تؤمنوا بالذي هو أرسله»، هذا هو عمل الله، وهو العمل الوحيد الذي

يطلبه الله لكي ينالوا الطعام الباقي للحياة الأبدية ولكي يحيوا إلى الأبد.

٢٩- أَجَابَ يَسُوعُ: «هَذَا هُوَ عَمَلُ اللَّهِ: أَنْ تُؤْمِنُوا بِالَّذِي هُوَ أَرْسَلَهُ».

الرب هنا يكشف سر قصورهم في فهم كل الآيات التي عملها أمامهم، وفي فهم جوهر معجزة الخمس خبزات التي فجرت شهوتهم للعودة إلى القوة والملك. فلأنهم أخفقوا في أن يرتفعوا بالآيات من مجرد الآنتفاع بها إلى الإيمان البسيط السهل بالذي صنعها، لذلك ضاع عليهم الآنتفاع بعمل الله لخلاصهم ولنوال الحياة الأبدية.

والمسيح الآن يردهم إلى الوضع الصحيح بالنسبة له وللآيات التي منعها، وبالنسبة لآمالهم في فهم المُلك والحرية والخلاص. فـ «عمل» الله الذي عمله، ويلاحظ القارىء أن كلمة العمل هنا جاءت بالمفرد الفريد، هو أنه أرسل لهم من سيخلصهم ويحررهم ويشبعهم ويفرحهم ويحييهم من الموت، وهو العمل الأعظم من كل الأعمال التي عملها لهم الله في السابق، والعمل الوحيد الذي يحوي كل الأعمال الأخرى ويكملها ويستعلن الله فيها، سواء عمل الخلقة أو بركات الأباء أو التوراة أو الناموس أو الآنبياء، فإذا آمنوا به يكونون قد آمنوا بكل أعمال الله وتمموها، وختموا أن الله صادق: «ومن قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق، لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله.» (يو٣:٣٣-٣٤)

وإذ يتكلم هنا إنجيل يوحنا بصدد الخبز الباقي للحياة الأبدية وكيفية الحصول عليه عمليا بالنسبة لسؤال الجليليين: «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟»، لا يمكن أن يتوه عن ذهننا قول المسيح بنفسه عن نفسه وعن هذا الطعام عينه أنه هو هو عمل مشيئة الآب!! وقد حدث سابقا حينما سأله التلاميذ أن يأكل وهم حول بئر يعقوب: «وفي أثناء ذلك سأله تلاميذه قائلين يا معلم كل، فقال لهم أنا لي طعام لآكل لستم تعرفونه أنتم ... طعامي أن أعمل مشيئة الذي أرسلني وأتمم عمله» (يو٤:٣١-٣٤). هنا يكمن جوهر معنى الطعام في قول المسيح: «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله»، لأنه إن كان المسيح قد عمل مشيئة الله الآب الذي أرسله، واعتبر هذا العمل بمثابة طعامه السري الأسمى الذي يغتذي عليه، فكم وكم يكون الإيمان بالمسيح؟ ألا يكون هو الطعام الذق فيه عمل كل مشيئة الآب والابن معا؟ وماذا كان طعام المسيح السري إلا تكميل كل مسرة ومشيئة الآب من نحو خلاص العالم الذي أحبه بتقديم جسده على الصليب؟ فإذا كان طعام المسيح السري هو تقديم جسده على الصليب، إذن فقد صار جسده طعامنا السري الذي فيه تكميل كل مشيئة ومسرة وحب الآب والابن معا من نحو خلاصنا وحياتنا.

ويلاحظ أن في قول المسيح: «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا» جاءت كلمة تؤمنوا بالقراءة اليونانية المصححة على النسخ الأكثر صحة، فبدل كلمة ( ) تقرأ ( )، وقد جاءت كفعل دائم مستمر الذي يفيد معنى «الشركة والارتباط السري الدائم».

٣٠- فَقَالُوا لَهُ: «فَأَيَّةَ آيَةٍ تَصْنَعُ لِنَرَى وَنُؤْمِنَ بِكَ؟ مَاذَا تَعْمَلُ؟.

٣١- آبَاؤُنَا أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: أَنَّهُ أَعْطَاهُمْ خُبْزاً مِنَ السَّمَاءِ لِيَأْكُلُوا».

يلاحظ هنا أن الجليليين الذين رأوا معجزة الخمس خبزات وأكلوا وشبعوا واعتبروها حافزا لهم مناسبا جدا لكي ينصبوا المسيح ملكا، اعتمادا على أنها معجزة مكافئة لمعجزة موس والمن ذات رنين واضح وشديد أن المسيح حتما هو النبي؛ عادوا يضيفون على طلبهم أية من السماء، أو بالأحرى إنزال المن من السماء. وهنا نرى دخول عنصر جديد على فكر هؤلاء الجليليين شككهم فيما انتهوا إليه سابقا، من أنه بمقتضى معجزة الخمس خبزات والسمكتين يستحق أن يكون ملكا؛؟ وهذا كان من تأثير دخول عناصر متعلمة فريسية أخرى في النقاش، مما يفيد أيضا أن تكملة

الحديث هنا يدور في مجمع اليهود في كفرناحوم.
هنا ينبغي أن نرجع إلى الفكر اليهودي المعتمد، في زمن المسيح، الذي استقى منه اليهود هذا الطلب من المسيح بانزال المن من السماء لإثبات أنه المسيا الذي ينتظرونه. فالمعروف أن هذا الفكر الذي كان ينادي به المتعلمون من اليهود يرجع إلى الكتابات الرؤيوية التي كانت سائدة، بتحقيق العلماء، في ذلك الزمن، مثل رؤية باروخ التي جاء فيها: [إنه سيأتي زمان فيه تنفتح مخازن المن، وينزل المن من السماء، وسيأكلون منه في هذه السنين (زمن ملوكية المسيا على الأرض)، لأن هؤلاء هم الذين سينتهي إليهم كمال الزمان.]
كذلك كان شائعا قول للربيين يقول: [إن الذي فدى في السابق، أنزل لهم المن. كذلك فادينا في الأيام الأخيرة سينزل لنا المن، كما هو مكتوب في المزمور: «تكون حفنة بر (قمح) في الأرض في رؤوس الجبال» (مز٧٢:١٦). في حين أن نزول المن من السماء كان مجرد رمز لنزول الكلمة المتجسد. ومعروف أن الرمز لا يُحيي، والرمز أيضا لا يتكرر، فكان المن رمزا لما سيأتي. وأوضح تعبير لذلك أن نزول المن من السماء توقف عندما دخل بنو إسرائيل أرض كنعان واكلوا من ثمر الحنطة، لأن الوقت آنذاك كان في الربيع . وثمر الحنطة (الخبز) كان واضحا أنه إشارة إلى كلمة الله. فالمن، كرمز، توقف لما أكلوا من الحنطة التي هي الخبز. وها هو المسيح يقدم جسده الإلهي باعتباره أنه هو الخبز الحقيقي. فإن كان العهد القديم كان قائماً بالمن؛ فالعهد الجديد قائم بالخبز الحقيقي، والحقيقي يلغي الرمز. والعهد القديم وإن كان قائما بالناموس كخمسة أسفار موسى؛ فالعهد الجديد قائم بكلمة الله الحية.
وقد أصبح من المسلمات في تعاليم الربيين في ذلك الوقت أن عودة نزول المن من السماء ستكون هي العلامة المميزة والثابتة التي ستلازم مجيء المسيا، والتي أصبح اليهود يترقبونها بفارغ الصبر. وهكذا كان طلب اليهود من المسيح أن يجري آية نزول المن من السماء، لازمة لكي يثبت بها صدق دعوته. علما بأن التعبير عن المن بأنه الخبز السمائي كان أمرا مألوفا لدى اليهود، كما ورد في المزامير: «أمطر عليهم منا للأكل وبر(قمح) السماء أعطاهم . أكل الإنسان خبز الملائكة، أرسل عليهم زاداً للشبع» (مز٧٨:٢٤-٢٥). كما أن واقع قول المسيح لهم: «اعملوا ... للطعام (الخبز) الباقي للحياة الأبدية»، كان حافزا لهم ليطلبوا مزيدا، من واقح النص.
هذا مما حدا بالمسيح أن يصحح لهم مفهوم معنى المن ويصحح لهم من هو الذي أنزل المن من السماى. كما صحح لهم مفهوم استخدام الخبز السمائي.

٣٢- فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ مُوسَى أَعْطَاكُمُ الْخُبْزَ مِنَ السَّمَاءِ بَلْ أَبِي يُعْطِيكُمُ الْخُبْزَ الْحَقِيقِيَّ مِنَ السَّمَاءِ.

٣٣- لأَنَّ خُبْزَ اللَّهِ هُوَ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ الْوَاهِبُ حَيَاةً لِلْعَالَمِ».

المسيح هنا يصحح بأن المن لم يكن إلا رمزا فقط للخبز السمائي، لقد جاء من السماء فعلا والله هو الذي أرسله عليهم، وليس موسى، ولكنه كان رمزا للحقيقي الذي هو «مأكل حق»، فلم يكن المن خبزا جوهريا. أما الخبز الذي يتكلم عنه المسيح فهو خبز جوهري، أي حقيقي يختص بطبيعة الله والعبادة الحقة الذي سبق المسيح وعرفها للسامرية هكذا: «ولكن تأتي ساعة وهي الآن (ساعة المسيح) حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق (يو ٤:٢٣)

هنا الخبز الذي يتكلم عنه المسيح هو خبز حقيقي من الله ومقدم إلى الله، وبقوله «النازل» كفعل دائم النزول، يشير إلى طبيعته الفائقة غير الزمنية. فالمن مهما كان على مستوى المعجزة باعتباره نزل من السماء، إلا أنه كرمز فقط لا يختص بطبيعة الله ولكن بطبيعة الإنسان المادية؛ ولذلك فإنه إذا تُرك، كان ينتن ويضربه الدود شأن جثة الإنسان التي تغتذي منه، فهو «خبز بائد»: «الأطعمة للجوف والجوف للأطعمة، والله سيبيد هذا وتلك.» (١كو١٣:٦)

المسيح هنا يهتم، في الواقع، بتصحيح نظرة اليهود ومفهومهم لحقيقة طبيعة الاخرويات، أو الزمن الماسياني الذي كانوا يترقبونه؛ فقد أخطأت كل التعاليم اليهودية في هذا الأمر وربطته بالخيرات المادية والسلام المادي الجسدي، وقد تسرب إلى بعض الأفاق المسيحية في العصور الاولى هذا التعيم اليهودي الخاطىء والفاسد، والذي اعتبر أنه هرطقة، أي تعليم غريب غير إلهي، وظلت هذه الهرطقة لاصقة في بعض الشيع المسيحية حتى اليوم سواء في مفهوم عصر الألف سنة أو في مفهوم القيامة والحياة الجديدة بأنها حياة جسدية تماما.

والمسيح يشدد جداً في رده على السامرية أن هذا العصر قد حضر وصار بالفعل منذ « الآنا»، ولم يعد مستقبلاً أخر للانسان، إذ بمجيء المسيح قد بدأت الساعة. كما يشدد أيضاً على أن العبادة الحقيقية لهذا العصر ليست في أورشليم ولا في مجامع من حجارة أو طوب أو على تلال مرتفعة أو جبال، ولا هي سجود مظهري بالجسد: «قال لها يسوع يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للآب.» (يو٢١:٤)

والعصر الروحي الجديد الذي وصفه بأنه « تأتي ساعة وهي الآن»، لا ينتمي بعد للمظاهر الجسدية سواء في العبادة أو عطايا الله جميعا، بل الكل يتعلق بالروح لأنه عصر الحضور الإلهي، وكل ما يتعلق به يتناسب مع طبيعة الله، أي يكون بالروح والحق.

فلما تكلم مع السامرية فيما يختص بالماء، رفعه في مفهوم السامرية من ماء الجسد الذي يسد العطش الجسدي، إلى الماء الروحي، الذي يروي الإنسان بصورة دائمة للحياة الأبدية. ويلاحظ أن عطية الماء من الصخرة والمن من السماء تجيء دائماً مجتمعة في تذكار عطايا الله الإعجازية في القديم. كما جاء في سفر نحميا: «وأعطيتهم خبزا من السماء لجوعهم، وأخرجت لهم ماء من الصخرة لعطشهم.» (نح٣٥:٦)

وهنا يلزمنا أن ننتبه كيف ربط أيضا القديس يوحنا في إنجيله على التوالى وعلى نفس المستوى بين الماء الحي في قصة السامرية والخبز الحي في قصة إشباع الجموع ، لكن ليس كأنهما عطايا للشبع والإرتواء الجسدي لامتداد الحياة الجسدية المحدودة، بل كعطية واحدة سرية مستعلنة في شخص المسيح لنوال الحياة الأبدية مع الله بلا حدود: «أنا هو خبز الحياة. من يقبل إلي فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً.» (يو٣٥:٦)

المسيح يتكلم هنا عن الخبز بالنسبة للعصر الماسياني على أنه: خبز ليس لإشباع الجسد، بل خبز حقيقي، أي جوهري، لإشباع الروح للحياة الأبدية. فهو خبز لا يختص بالجسد المادي، لأن الجسد بالمفهوم المادي لا يفيد شيئاً: «الروح هو الذي يُحيي، أما الجسد فلا يفيد شيئاً.» (يو٦٣:٦)

هذا المعنى ينقلنا إلى مفهوم أن هذا الخبز يستحيل أن يأتي أو يكون بواسطة إنسان، لأنه خبز روحي جوهري يختص بطبيعة الله، فهو خبز الله الحقيقي الذي يتحتم أن يكون خبزاً سمائياً، لا أرضياً، بالمعنى الحقيقي. وأن يكون موهوباً من الله ليس على المستوى الزماني كأنه يختص بزمن ما يأتي في المستقبل. بل خبز حقيقي يختص بالأبدية القائمة في الله باستعلانه في الحاضر الدائم إلى أبد الأبدين: «تأتي ساعة وهي الآن». وأن يكون خبزاً غير

محدود بالزمن كالمن الذي دام فقط أربعين سنة وانقطع لعدم الحاجة إليه، بل هو خبز دائم الفعل والعمل، غير محدود لشعب كما كان المن في القديم، بل خبز خاص بالعالم كله: «لأن خبز الله، أي الخبز الذي هو من طبيعة الله، هو النازل من السماء، أي ليس من طبيعة الأرض، الواهب حياة للعالم، حياة سمائية من نفس طبيعة مصدره السمائي» (يو٦:٣٣)، حيث الإشارة هنا بدأت تتركز في شخص سمائي وليس في شيء أرضي.

فالمسيح يشير خفيا هنا إلى نفسه، وإن كان لا يتعجل الاستعلان عن نفسه أنه هو الخبز الحي الحقيقي النازل من السماء، مما جعلهم يظنون أن هذا الخبز هو شيء يمكن أن يُعطى لهم فيريحهم من زراعة وحصاد وطحين وعجين وخبيز وتخزين.

ولكن يمكن أن نتعمق مع القارىء، إذا أطال أناته علينا، لنشرح له معنى أعمق لمفهوم التوراة كخبز وطعام عند الروحيين المتأملين من متصوفي اليهود وكبار الربيين على مستوى «فيلو» اليهودي وغيره الذين أخذوا عن سفر الحكمة قوله: «الحكمة تشيد بيتها، نحتت أعمدتها السبعة، ذبحت ذبحها، مزجت خمرها، أيضا رتبت مائدتها، أرسلت جواريها تنادي على ظهور أعالي المدينة: من هو جاهل فلقبل إلى هنا، والناقص الفهم قالت له: هلموا كلوا من طعامي واشربوا من الخمر التي مزجتها. اتركوا الجهالات فتحيوا، وسيروا في طريق الفهم.» (أم٩:١-٦).

فقد اعتبروا التوراة، أي الناموس، أنه الغذاء الروحي والخبز المتحصل من القراءة والهذيذ المتواصل فيهما. علما بأن القديس يوحنا كان متيقظا منذ مطلع إنجيله إلى هذا الاتجاه، وقد أطاح بهذه النظرية في أية واحدة: «لأن الناموس بموسى أُعطي، أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا (يو١:١٧). وهنا وضع الآنجيل الحد الفاصل بين طبيعة الناموس وهدفه، وبين طبيعة النعمة والحق. فالأول (أي الناموس) كان لتهذيب الحياة بالسلوك البشري في خوف الله، والثاني كان لقبول حياة الغبطة بالروح والشركة في الحق، أي قبول طبيعة الله.

وقد امتد «فيلو» العالم المتصوف اليهودي بمفهوم الخبز الروحي إلى المن أيضا، معتبرا أن المن هو رمز للتوراة وتعبير عن «الحكمة»، كما جاء في سفر الأمثال.

وهنا يشير المسيح إلى أن المن لم يكن إلا رمزا والرمز لا يُحيي؛ ولم يكن هو الخبز الحقيقي الذي يؤدي إلى الحياة الأبدية، وبالتالي فإن المن باعتباره خبز التوراة عند حكماء اليهود لم يؤدى ولن يؤدي إلى الحكمة الحقة ولا إلى معرفة الله الحقيقية.

ولكن بينما كان المسيح يضع أسس الحكمة الحقيقية ويشرح معنى الخبز الحقيقي، توطئة للدخول في مفهوم ذبيحة الحكمة العظمى، بتقديم جسده وليمة على مائدة الحياة الأبدية؛ هبط فكر اليهود إلى مستوى السامرية عندما سمعت بالماء الحي فطلبته لكي يغنيها عن عطش وجهد وعن جذب هذا العالم الشديد، فسألوه:

٣٤- فَقَالُوا لَهُ: «يَا سَيِّدُ أَعْطِنَا فِي كُلِّ حِينٍ هَذَا الْخُبْزَ».

وتشديد سؤال اليهود على أن يكون عطاء هذا الخبز كل حين لا يجيء من فكرهم، بل لأن المسيح أكد وشدد على أن خبز الله هو«النازل من السماء»، حيث جاءت كلمة «النازل» كفعل دائم السريان في الصيغة الدائمة المستمرة. فظنوه أنه ينزل كل يوم. وفي الواقع لا نرى في سؤالهم هنا: «يا سيد أعطنا في كل حين هذا الخبز» أي انحراف في محيط فهمهم أنه خبز ينزل إليهم من السماء فيعطيهم حياة دائمة. غير أن اعتراضهم الشديد على هذا الخبز ظهر بوضوح حينها كشف المسيح عن سر هذا الخبز انه هو جسده الذي سيبذله عن حياة العالم. بعكس السامرية التي سألت نفس السؤال ببساطة: «يا سيد أعطني هذا الماء لكي لا أعطش ولا آتي إلى هنا لأستقي» (يو٤:١٥)، ثم

علمت أن هذا الماء ليس ماء للشرب بل هو دعوة لسيرة مقدسة وطاهرة فيها ترتوي من حب الله والمسيح، أو بمعنى آخر، هو توبة؛ فلم تعترض، بل اعترفت وتابت وتطهرت، وقبلت المسيح مُخلصاً، بل وبشرت، وكأنما يريدنا الآنجيل أن نعرف أن الخاطىء (السامرة) لما لم يتمسك ببره واعترف بخطيته خلص، والبار (اليهود) في عين نفسه هلك.

٣٥- فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. مَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ فلاَ يَجُوعُ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِي فلاَ يَعْطَشُ أَبَداً.

لما سألت السامرية المسيح أن يعطيها من مائه الحي لكي لا تعطشى، أعطاها نفسه فقبلته.

وعلى نفس المستوى لما طلب منه اليهود أن يعطيهم من خبز الله الحقيقي، أشار إلى نفسه: «... يا سيد أعطينا في كل حين هذا الخبز، قال لهم: أنا هوخبز الحياة من يقبل إلي فلا يجوع، فلو كانوا قد قبلوا منه عطية نفسه، لما جاعوا. العطية جاهزة أمامهم والخبز حاضر: «أنا هو خبز الحياة»، «أنا هو نور العالم»، «أنا هو الباب»، «أنا هو الطريق»، «أنا هو الحق»، «أنا هو الراعي الصالح»، «أنا هو الكرمة الحقيقية»، «أنا هو القيامة»، «أنا هو الحياة» ... فهل يمكن أن يكون التعريف بنفه أكثر من هذا؟! لو فتشوا الكتب لوجدوه، إنه هو الحياة الأبدية: خبزاً وماءً؛ فهو يخاطب اليهود أصحاب التوراة وميراث الآنبياه بطوله وعرضه، فهوذا الذي يغطي هذه النبوات كلها بالنسبة للحياة الأبدية يقول لهم علانية: «أنا هو»، «أنا هو خبز الحياة وماؤها. اسمع ما تقوله التوراة وهي ترمز إلى المسيح:

+ «هوذا الإنسان قد صار كواحد منا، عارفا الخير والشر. والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد.» (تك٣:٢٢)

+ « وشجرة الحياة في وسط الجنة.» (تك٢:٩)

+ «من يغلب فسأعطيه أن يأكل مز شجرة الحياة التي في وسط فردوس الله.» (رؤ٢:٧)

+ «طوبى للانسان الذي يجد الحكمة ... هي شجرة حياة لممسكيها والمتمسك بها مغبوط.» (أم٣:١٣و١٨)

+ «ثمر الصديق شجرة حياة.» (أم١١:٣٠)

+ «وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس (الآناجيل الأربعة).» (تك٢:١٠)

+ «وأراني نهراً صافياً من ماء حياة لامعاً كبلور، خارجاً من عرش الله والخروف ... وعل النهر من هنا ومن هناك شجرة حياة.» (رؤ٢٢:١-٢)

+ «يروون من دسم بيتك، ومن نهر نعمك تسقيهم لأن عندك ينبوع الحياة وبنورك نرى نوراً.» (مز٣٦:٨-٩)

+ «أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، أنا أعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجاناً.» (رؤ٢١:٦)

والرب في قوله لليهود: «أنا هو خبز الحياة، من يقبل إلي فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً» يجمع الأكل والشرب معا، فهو الطعام السمائي الكلي والكافي، الذي عاد ووصفه كسر الإفخارستيا الأبدية، الذي هنا نأكله ونشربه بالسر وهناك نشبع ونرتوي منه بالحق إلى الأبد.

أنظر أيها القارىء في قوله «أبداً». «لا يعطش أبداً»، «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية» ... «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم.» (يو٦:٥٣-٥٤)

فهو شجرة الحياة الوحيد المستعلن هناك بالحق، وهنا بالسر المكتوم. ولكن المسيح سواء هنا أو هناك هو مأكل

حق ومشرب حق، منه نستمد قوة الحياة ونورها وفرحها ومسرتها، و«الآن» عند المسيح مربوط «بالأبد» لأنه في المسيح المسقبل حاضر كله وممتد بلا تغير فيه ولا ظل دوران. فما نراه هنا فى مرآة نراه هناك هو هو وجهاً لوجه.

إسمعه وهو يقول للسامرية التائبة: «من يشرب من الماء الذي أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد بل الماء الذي أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع إلى حياة أبدية» (يو ٤:١٤). ثم اذكر كيف ارتوت هذه التائبة المباركة من ماء الحياة وأروت آخرين. وتأمل أيها القارىء في قوله: «من يقبل إلي فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش ...»، فهو لا يخيب رجاء من يقبل إليه لأن في يمينه شبع سرور: «أمامك شبع سرور. في يمينك نعم إلى الأبد» (مز١٦:١١). وإشعياء النبي يقول: «يقودك الرب على الدوام ويشبع في الجدوب نفسك، وينشط عظامك، فتصير كجنة ريا وكنبع مياه لا تنقطع مياهه.» (إش٥٨:١١)

فالمسيح يقدم نفسه لليهود ولنا كطعام حقيقي «مأكل حق» يدوم هنا وفي السموات، ولا ينقطع قط. فالشبع َمن المسيح هو شبع إلهي سمائي لا يؤول إلى جوع دنيوي قط. والارتواء من المسيح هو ارتواء الروح بالروح. فينبوع المسيح ينبوع سمائي إلهي ينسكب بجملته في أحشاء الإنسان لينبع فيه ومنه، هذا وعد المسيح وعمل الروح الذي يجري الآن أمام عيونن، وطوبى لمن يرى و يسمع.

هذا الكلام حلو كشهد العسل، ولكن هناك فرق بين من يشتهي عطايا المسيح ومن يشتهي المسيح نفسه. فالجليليون كانوا كالسامرية، لما سمعوا هذا الكلام الحلو الذي يقطر عسلاً قالوا له: هات منه يا سيد، ولقبو بالسيد تملقاً لعلهم يفوزون بعطاياه، ولكن كاشف الكلى والقلوب أدرك أنهم يقبلون عطاياه ولا يقبلونه هو، ويؤمنون بمنفعة مواهبه ولا يؤمنون به هو. فلما قال: «أنا هو» ازدروا به وبعطاياه. فوضع لهم الشرط كالمشرط: عطاياي لمن يقبل إلي، وغناي لمن يؤمن بي.

٣٦- وَلَكِنِّي قُلْتُ لَكُمْ إِنَّكُمْ قَدْ رَأَيْتُمُونِي وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ.

الكلام هنا تكملة للقول: «أنا هو خبز الحياة»، ورداً على قولهم: «أعطنا في كل حين هذا الخبز»، لقد أخطأوا الرؤية وتزيفت لهم الحقيقة، بل الحق الناصع، بسبب تركيزهم الكلي على شهواتهم ومنافعهم وأمالهم الدنيوية الكاذبة. فخبز الحياة الذي قدمه المسيح لهم هو شخصه، ولكنهم تجاوزوه وأرادوا آية المن النازل من السماء، لأن ذلك كان يرضي شهواتهم.

فهنا يواجه المسيح رؤيتهم المزيفة ويحاول أن يردهم للحقيقة مرة أخرى: «ولكني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون». الإشارة هنا إلى أية سابقة هي: «الحق الحق أقول لكم أنتم تطلبونني ليس لأنكم رأيتم آيات، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم» (يو٦:٢٦)، لقد رأوا الآية واضحة أمامهم عندما بارك الخبز وأطعمهم: خسة آلاف من خمس خبزات، فكان شخصه هو محور الآية لأنهم راوه كمُعطي خبز الشبع، كصاحب بركة السماء، هذه البركة التي رأوها بل أكلوها، ولكنهم آمنوا بالخبز الذي ملأ بطونهم ولم يؤمنوا لا بالبركة ولا بمصدرها. لماذا؟

هنا يشرح لهم المسيح سبب عدم إيمانهم وهو أنهم مرفوضون من الله الآب، فلو كانوا مقبولين لدى الله الآب لكان الآب قد سلمهم للابن، ولكانوا أقبلوا على الابن بمسرة إرادتهم، ولكان الابن قد أدخلهم في النور وصاروا أبناء الله. أما لماذا رفضهم الله؟ فالمسيح يشير بكل وضوح إلى أية سابقة وهي: «هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله» (يو٦:٢٩)، عندما يعمل عمل الله. فالمسيح عمل أمامهم وتحت بصرهم عمل الله، مبرهناً أنه هو الذي أرسله الله لهم، ولكن: «قد رأيتموني ولستم تؤمنون»

بالإضافة إلى رؤية المسيح صانعاً معجزات، وهذا بحد ذاته هو عمل الله الذي ينبغي أن يؤدي إلى التعرف على المسيح شخصيا كمرسل من الله وابن له، يركز المسيح هنا وفي مرات أخرى أيضاً على التعرف عليه شخصيا بل وفى مرات أخرى أيضاً على التعرف عليه شخصيا بدون آيان. هذا نعرفه بوضوح من قوله لفيلبس: «أنا معكم زمانا هذه مدته ولم تعرفني يا فيلبس، الذي رآني فقد رأى الآب، فكيف تقول أنت آرنا الآب» (يو١٤:٩). وهذا يشير إلى أن شخص الرب كان يحمل سمات إلهية لا تُخفى عن العيون المفتوحة التي طوبها الرب: «فإني الحق أقول لكم إن أنبياء وأبرارا كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا، وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا» (مت١٣:١٧). الرؤيا هنا والسمع حاستان مفتوحتان على الإيمان، فالحواس البشرية جُعلت لا لتخدم الجسد فقط، بل هي متصلة بالروح إذا تهذبت بالكلمة الإلهية وخضعت لهاتف الخير وايحاء الروح.

ولكن شهوة الجسد وشهوة العيون وتعظم المعيشة تتلف حواس الإنسان وتخضعها لتخدم ملذات الإنسان، فيصاب بالعمى والصمم الروحيين.

فالرب يتعجب جدا من فيلبس كيف فات عليه الإحساس بالحقيقة الإلهية الكائنة في المسيح، كما يتعجب جدا من اليهود هنا الذين لم يؤمنوا به، حتى بعد أن رأوه متكلما بكلام الله وعاملا أعمال الله.

ولكن المسيح يشدد أولا على سهولة وإمكانية الإيمان به بدون رؤية آيات وأعمال ولكنهم أخطأوا رؤيته لأنهم أخطاوا إلى الله: «فقالوا له أين هو أبوك؟ أجاب يسوع لستم تعرفونني أنا ولا أبي، لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً.» (يو٨:١٩)

ثم يتنازل المسيح إلى واجب الإيمان به إذا تكلم كلام الله: «فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟ الذي من الله يسع كلام الله لذلك أنتم لستم تسعون لأنكم لستم من الله» (يو٨:٤٦-٤٧)؛ «لو لم أكن قد جئت وكلمتهم لم تكن لهم خطية، وأما الآن فليس لهم عذر في خطيتهم.» (يو١٥:٢٢)

ثم يتنازل المسيح أكثر ويرى أنه من الواجب بل ومن الضرورة أن يؤمنوا به لأنه يعمل أعمال الله: «إن كنت لست أعمل أعمال أبي فلا تؤمنوا بي، ولكن إن كنت أعمل فإن لم تؤمنوا بي (شخصيا) فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب في وأنا فيه.» (يو١٠:٣٧-٣٨)

أي أن الإيمان بالمسيح مفتوح في الدرجة الأولى برؤيا بدون قول أو عمل، وإلا فالدرجة الثانية بالقول وبالعمل، فإن انغلق الإيمان وانحجب المسيح حتى بعد الرؤيا والقول والعمل، فهذه علامة غضب الله.

٣٧- كُلُّ مَا يُعْطِينِي الآبُ فَإِلَيَّ يُقْبِلُ وَمَنْ يُقْبِلْ إِلَيَّ لاَ أُخْرِجْهُ خَارِجاً.

يلاحظ القارىء هنا أن الآية تبتدىء بـ «كل»، أي أن عطية الله الآب للمسيح تأتي بالجمع، ولكن الذين يقبلون إلى المسيح من هذا الجمع يأتون واحدا واحدا بالمفرد، حسب جذب الآب لكل واحد في وقته وترتيبه؛ فطريق المسيح ضيق لا يسع في السير إلا واحدا فواحدا، فالأخ لا يستطيع أن يفدي أخاه (مز٤٩:٧). فعلاقتنا بالمسيح فردية كعريس وعروس، ولكن العجب أن المفديين حينها يتكامل كل واحد منهم في المسيح، يجمعهم المسيح معاً بسقى الروح الواحد ليصيروا مرة أخرى واحدا في المسيح، كعذراء مخطوبة لرجل واحد، كعريس وعروس، مع أنه لا حصر لها من الكثرة، كنيسة لا عيب فيها، عروسا متسربلة بصلوات القديسين وعطرهم، نازلة من السماء مزينة بكل فضائل المسيح.

وإذا أراد القارىء أن يتعمق هذا المعنى ويتذوق هذه المقارنة، فليسمع ما يقوله وما يسبح به بولس الرسول، إذ

يرى أن كل المفديين والمختارين كانوا مجموعين معا ككل، كجسد واحد في المسيح الذي يجمعهم في كيانه الإلهي قبل أن يتجسد، قبل أن يكون زمان بعد ولا عالم: «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح. كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة.» (أف١:٣-٤)

فعطية الآب للمسيح: «كل ما يعطيني الآب» هي كل ومجموع، ومن الكل يقبل إلى المسيح كل فرد لينال التبني الموضوع لنا على أساس قبول موت الرب وقيامته، حسب الخطة المرسومة منذ الأزل: «إذ سبق فعيننا، بلا حدود، للتبني، (لنأخذه) بيسوع المسيح، لنفسه حب مسرة مشيئته.» (أف١:٥)

وهنا تتقابل مشيئة الله مع مشيئة المسيح في سيفونية الطاعة والبذل، بصورة رفعت البشرية إلى مستوى الحياة الأبدية مع الله.

+ «مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضا، إذ أعطيته سلطانا على كل جسد (الدعوة عامة) ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته» (يو١٧:١-٢)

+ « أبي الذي أعطاني إياها، وأنا أعطيها حياة أبدية.» (يو١٠:٢٨-٢٩)

وهذا هو منتهى سر الاتفاق في العمل الإلهي بين الآب والابن.

والمسيح يقرر حقيقة غاية في السخاء المدفوع ثمنه دماً: «ومن يقبل إلي لا أخرجه خارجاً». ها اللغة العربية عاجزة عن أن توفي للمسيح حق التشديد الشديد على وعده هذا، فحرف النفي البسيط «لا» يجيء في اليونانية بصورة مشددة للغاية (   ) الذي جاءت ترجمته في الآنجليزية: I will no wise الذي ترجمته: «يستحيل بأي حال».

فتصور، أيها القارىء، هذا الوعد الذي يجيء كأنه عهد بأن الرب يستحيل بأي حال أن يُخرج من يُقبل إليه، مما يجعل كلامه لليهود هنا مؤكدا أنهم لم يأتوا إليه، بل وبصراحة مضمرة، أنهم مرفوضون من الله ومطرودون من لدنه، لأنهم لم يقبلوا إلى المسيح ولا حتى قبلوه.

أما كلمة «خارجاً» في قوله «أخرجه خارجاً»، فهي كلمة قاسية جدا ومرة للغاية، وتظهر مرارتها في قوله: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً.» (يو١٢:٣١)

والآن، أيها القارىء العزيز، ينبغي أن نسأل هل أقبلت إلى المسيح بالحق قولا وعملا؟ إذا كان ذلك فأنت ضمن عطية الآب، غير المحدودة بعدد أو زمن أو قانون ما. فالعالم كله، لو يشاء، مدعو إلى حضن الآب، فأنت للمسيح مُعين ومختار للحياة الأبدية. وإن لم يكن ذلك بعد، فأمامك الدعوة مفتوحة، ألق بنفسك على مشيئة الله لتشعر بجذب الآب لك وتكتشف فيه محبة المسيح وسره.

٣٨- لأَنِّي قَدْ نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ لَيْسَ لأَعْمَلَ مَشِيئَتِي بَلْ مَشِيئَةَ الَّذِي أَرْسَلَنِي.

٣٩- وَهَذِهِ مَشِيئَةُ الآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَا أَعْطَانِي لاَ أُتْلِفُ مِنْهُ شَيْئاً بَلْ أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ

الكلام هنا مكمل لقول المسيح أن: «من يقبل إلي، لا أخرجه خارجا، لأني قد نزلت من السماء ليس لأعمل مشيئتي بل مشيئة الذي أرسلني». الكلام هنا يزيد التأكيد عل شدة اهمام المسيح في تأدية رسالته بالنسبة للذين أعطاهم الآب له ليهبهم الحياة الأبدية.

وهكذا بقدر ما أعطي المسيح سلطانا على كل جسد ليعطيه الحياة الأبدية (يو١٧: ٢)، بقدر ما أخذ على نفسه الحفاظ على كل نفس تأتي إليه أن لا تتلف أو تضيع. وهذا الضمان يظل قائما حتى اليوم الأخير الذي فيه تنال النفس نصيبها في القيامة العظمى، هذا التأكيد يكرره المسيح كثيرا بسبب ضعف إيمان الإنسان بالمستقبل: «لأنكم لستم من خرافي كما قلت لكم، خرافي تسمع صوتي وأنا أعرفها فتتبعني، وأنا أعطيها حياة أبدية ولن تهلك إلى الأبد، ولا يخطفها أحد من يدي. أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل (إبراهيم وموسى والآنبياء)، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي. أنا والآب واحد.» (يو١٠: ٢٦-٣٠)

هذا وصف تصويري مُبدع لحقيقة العناية الالهية في قوتها الهائلة والشاملة لحفظ الكون كله بكل أجزائه، ثم العناية الخاصة جدا بالنفوس البشرية التي التجأت إلى المسيح في ضعفها المتناهي مستندة إلى معونته أمام قوى الشر الهائلة، التي تبدو في طغيانها وكأنها قادرة أن تبتلع البشرية كلها: «ولا يخطفها أحد من يدي» التي لها قوة يد الآب، فالمسيح هو الابن الوحيد المرسل من الآب، والذي نزل من السماء لتأدية هذه الرسالة بكل دقة وقوة وسلطان حتى اليوم الأخير، الذي فيه تُستعلن خطة الخلاص العظمى بكل أمجادها، وتلتحم قوى الحياة الأبدية التي ننالها الآن، بالسر الحاضر، بقوى الحياة الأبدية المستعلنة في الله، والتي سنشترك فيها إلى كل ملء الله!

وقد لاحظ بعض علماء الكتاب المقدس أن الأيات المتتابعة ٣٧ - ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ لا تختص بحديث الخبز السمائي موضوع الجدل الذي انشغل به الجليليون، ولكن الحقيقة أن الجليليين في سؤالهم المسيح: «ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله؟»، هذا السؤال هو الذي رد عليه المسيح أن: «عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو ارسله»، ثم ابتدأ ينتقل من التركيز على موضوع الخبز الحي إلى موضوع رسالته العامة أولا بصفته أنه هو «عمل الله» المطروح للايمان به، ثم ابتدأ يشرح ما هو عمل الله في المسيح من إرساليته وتتميم مشيئة الآب الذي أرسله، ثم ما هي هذه المشيئة التي التزم بها المسيح أشد الالتزام.

٤٠- لأَنَّ هَذِهِ هِيَ مَشِيئَةُ الَّذِي أَرْسَلَنِي: أَنَّ كُلَّ مَنْ يَرَى الابن وَيُؤْمِنُ بِهِ تَكُونُ لَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ».

واضح هنا أن المسيح يشرح الإجابة على نفس سؤال الجليليين له: ما هو عمل الله الذي يمكن أن نفعل؟ كما أنه هو إعادة توضيح لرد المسيح: هذا هو عمل الله. أن تؤمنوا بالذي هو أرسله أي تصدقوه!!

والاضافة التي أضافها المسيح جديدا في هذه الآية هي كيفية الإيمان به: «كل من يرى الابن»، كذلك، الإيمان به: تكون له الحياة الأبدية (منذ الآن)»، ويكمل فعل هذه الحياة، واستعلانها بتجلي الجسد الروحاني في اليوم الأخير: «وأنا أقيمه في اليوم الأخير»، وهذه الآية تأتي لتوضيح وتأكيد آية سابقة بنفس المعنى: «ولكني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون» (يو٦: ٣٦). فالإضافة الجديدة توضح لهم أن عدم الايمان به، أي عدم تصديقه بعد أن رأوه يعمل مشيئة الله وسمعوه يتكلم بكلام الله وأكلوا البركة الإلهية من يديه، معناه أنهم رفضوا مشيئة الله، وحرموا أنفسهم من الحياة الأبدية.

«كل من يرى الابن»: كلمة «يرى» هنا لا تمت إلى النظر الطبيعي بالعين ولكنها رؤية بالقلب والفكر الروحي المدرب بالكلمة. وتأتي باليونانية (   ) واضحة جدا لتفيد هذا المعنى. وهي تمت إلى معنى التأمل الذي نسميه في التدريب التصوفي «التاورية»، وفيها يرتقي الفكر إلى رؤية الحقائق الإلهية حيث يستنير الفكر بالنور الإلهي الداخلي. وهذا المعنى يوضحه المسيح مرة أخرى في آية تالية: «الذي يراني يرى الذي أرسلني. أنا قد جئت نورا إلى

العالم حتى كل من يؤمن بي لا يمكث في الظلمة.» (يو٦:٤٥-٤٦)

التدرج في هذه الأية هام للغاية، فالرؤية توصل إلى النور، أي التأمل القلبي والذهني في المسيح وأقواله وأعماله بعمق وتمعن، والذي يكشف بسهولة الله الذي في المسيح والذي هو أرسله، فيرى الإنسان الحق الإلهي و يصدقه ويؤمن به و يدخل في الاستنارة الإلهية المحيية.

هذه ليست عملية معقدة ولا تعتمد على أي مجهود بشري، بل إن مجرد قبول المسيح والإيمان به يصل بهذه العملية إل أقصاها بدون حساب زمني: «بنورك (يارب) نرى نورا ... لأن عندك ينبوع الحياة.» (مز٣٦:٩)

فمن الرؤيا إلى النور إلى الحياة، هذه هي القاعدة الإلهية في المسيح بالإيمان: «بعد قليل لا يراني العالم أيضا (ستنحجب حقيقة المسيح عن العالم بواسطة عثرة الموت على الصليب) وأما أنتم فترونني إني أنا حي فأنتم ستحيون.» (يو١٤:١٩)

ب- الجزء الثاني من الحديث: (٤١:٥١)

٤١- فَكَانَ الْيَهُودُ يَتَذَمَّرُونَ عَلَيْهِ لأَنَّهُ قَالَ: «أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ».

٤٢- وَقَالُوا: «أَلَيْسَ هَذَا هُوَ يَسُوعَ بْنَ يُوسُفَ الَّذِي نَحْنُ عَارِفُونَ بِأَبِيهِ وَأُمِّهِ. فَكَيْفَ يَقُولُ هَذَا: إِنِّي نَزَلْتُ مِنَ السَّمَاءِ؟».

هنا ابتدأ العنصر اليهودي المتعلم يظهر في الحوار، مما يفيد أن الحديث كان فعلا داخل مجمع كفرناحوم. والتذمر طبيعة لم تفارق بني إسرائيل منذ أن خرجوا من مصر، وكان الله يعاقبهم على تذمرهم، ولكنهم كانوا دائما يعودو إلى هذا الداء الوبيل الذي أودى بحياتهم كأمة. وكان موضوع تذمرهم هنا قول الرب: «أنا هو الخبز الذي نزل من السماء»، وهو مجمل ما قاله المسيح عن نفسه في ثلاث آيات سابقة (٣٣ و٣٥ و٣٨): «خبز الله هو النازل من السماء»، «أنا هو خبز الحياة»، »لأني قد نزلت من السماء».

وواضح أن وضع المسيح البشري المعروف لديهم وقف عثرة في قبول لاهوته، وهذا هو سر التجسد بكامله. ولم يكن معروفا على المستوى العام ميلاد المسيح البتولي من عذراء، ولكن حتى ولو لم يكن معلوما شيء عن سر ميلاد المسيح البتولي، فكلام الرب كان يكفي جدا أن يشير إلى ذلك السر بدون أي صعوبة أو نقاش. لذلك نرى القديس يوحنا في إنجيله يتحاشى الخوض في أنساب المسيح ويتخطى كل روايات الميلاد مكتفيا باستقلان لاهوت المسيح من فم المسيح نفسه، استعلانا لا يترك أي مجال للتحقيق البشري أو لشهادة الشهود.

وعلى هذا الأساس تماما كان رد المسيح عليهم:

فَأَجَابَ يَسُوعُ: «لاَ تَتَذَمَّرُوا فِيمَا بَيْنَكُمْ. لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يُقْبِلَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يَجْتَذِبْهُ الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ. إِنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي الأَنْبِيَاءِ: وَيَكُونُ الْجَمِيعُ مُتَعَلِّمِينَ مِنَ اللَّهِ. فَكُلُّ مَنْ سَمِعَ مِنَ الآبِ وَتَعَلَّمَ يُقْبِلُ إِلَيَّ. لَيْسَ أَنَّ أَحَداً رَأَى الآبَ إِلاَّ الَّذِي مِنَ اللَّهِ. هَذَا قَدْ رَأَى الآبَ. لْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ يُؤْمِنُ بِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ.

يجيب الرب على موضوع تذمرهم، وهو قوله عن نزوله من السماء، بأنه لا يأتي إلي أحد بالفحص ومعرفة الآنساب، أما الذي تعلم من الله فهذا يأتي إلي، لأن الله هو أبي الذي أرسلني وهو يجتذب إلى كل الذين فتحوا عيونهم وقلوبهم لقبول مشيئة الآب، لأن مشيئة الآب هي رسالتي وعملي.

وهنا يستشهد المسيح بكلام إرميا النبي: «بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام، يقول الرب، أجعل شريعتي في داخلهم، وأكتبها على قلوبهم، وأكون لهم إلهاً وهم يكونون لى شعباً، ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين: اعرفوا الرب، لأنهم كلهم سيع فونني من صغيرهم إلى كبيرهم، يقول الرب.» (إر ٣١:٣٣-٣٤)

المسيح هنا نقل العلم واحتكار المعرفة من أئمة اليهود، خاصة الفريسيين، وهم الذين كانوا يتزعمون دائما معارضة المسيح ومصادرة أقواله وإثارة الشعب ضد تعاليمه، كما هو حادث في هذا الموضوع أمامنا، نقله إلى عامة الشعب مباشرة وبلا تعليم، وها إشارة قوية جدا إلى عمل الروح القدس. المسيح يستشهد بهذه النبوة التي تقول إن العهد الجديد الذي سيقطعه الرب مع بني إسرائيل لن يجعل الشريعة محتكرة للتعليم العقلي والتلقين الشفاهي، بل سيجعلها مكتوبة بأصبعه، أي بالروح القدس، في ألواح قلوبهم اللحمية حيث لا يعود أحد يحتكر لنفسه التعليم. ولا يعلم الواحد الآخر معرفة الرب، لأنهم كلهم من صغيرهم إلى كبيرهم سيعرفون الرب، لأنهم سيكونوذ متعلمين من الله. والمسيح هنا يركز على كلمة «كل» فلا صغير في العلم، ولا كبير في العلم، بل الجميع بلا تفريق: «كل من سمع من الآب وتعلم يقبل إلي» بدون وسيط أو معلم أو رابي.

فالمسيح يتكلم عن ظهور هذا العهد الذي قطعه الله على نفسه، وأكده بالآنبياء، وها هو قد أرسل ابنه لتنفيذه على أساس أن كلمة الله سيكتبها الآب في قلوبهم: «لكن ماذا يقول؟ الكلمة قريبة ممك في فمك وفي قلبك، أي كلمة الإيمان التي نكرز بها» (رو١٩:٨). كل من يسمع لها ويصدقها فإنه يصبح متعلما بدون مملم، ويجتذبه الآب إلى المسيح لينال به الوعد بالحياة الأبدية فـ «كل من سمع من الآب وتعلم يقبل إليه». وتلاميذ الرب كانوا أول برهان صادق لقيام ذلك العهد.

والمسيح يضع نفسه كمعلم لـ «معرفة الله» هذه، ولكن ليس كمن يعلم عن كتاب مكتوب أو معلم مشهور، بل كمن رأى الله في جوهره وفي سره الأعظم كأب له سمع منه وتعلم: «ليس أن أحدا رأى الآب إلا الذي من الله. هذا قد رأى الآب.» (يو٦:٤٦)

لذلك كان المسيح، الكلمة، هو الوحيد الذي يتكلم بكلام الله: «لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله» (يو٣:٣٤). فمن يسمع من المسيح فهو يسمع من الله رأسا، فمن سمع وتعلم يقبل إلي المسيح، مذعنا مؤمنا أنه بالحقيقة ابن الله. والعلامة ديديموس الضرير يضع القديس بطرس الرسول في إيمانه واعترافه مثلا لذلك، والقديس أغسطينوس أيضا يقول بهذا المعنى.

وسنرى المسيح في موضع أخر قادم كيف يكشف لليهود أنهم لا يسمعون له أويسمعون منه ولكنهم يسمعون من إبليس: «لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي. أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا...» (يو٨:٤٣-٤٤). هنا يكشف الرب سر من رفض المسيح وقاومه.

«كل من سمع من الآب وتعلم، يُقبل إلي. (لأن) ليس أن أحدا رأى الآب إلا الذي من الله. هذا قد رأى الآب»: هنا يقدم المسيح لليهود نقلة كبيرة وتحولا جذريا من عهد موسى الذي يُقال أنه رأى الله، ومن عهد الآنبياء الذين تكلموا عن رؤيا وسمع من الله، أنهم في الحقيقة لم يروا الله في ذاته، في طبيعته الإلهية وجوهره، بل يقول سفر العبرايين أنه كلمهم «بأنواع وطرق كثيرة» (عب١:١). فهم إنما رأوا شبه الرب كقول الله الصريح: «فنزل الرب في عمود سحاب ووقف في باب الخيمة ودعا هرون ومريم (اللذين كانا قد تكلما ضد موسى بسبب

زواجه من امرأة حبشية) فخرجا كلاها. فقال: اسمعا كلامي. إن كان منكم نبي للرب فبالرؤيا أستعلن له في الحلم أكلمه. وأما عبدي موسى فليس هكذا بل هو أمين في كل بيتي. فما إلى فم وعيانا أتكلم معه لا بالألغاز، وشبة الرب يعاين. فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدي موسى؟» (عد١٢:٥-٨). وكلمة الآنجيل واضحة: «الله لم يره أحد قط.» (يو١:١٨)

أما الرب يسوع فيقول عن نفسه علنا وجهارا إنه رأى الله، ومنه خرج، لأنه من طبيعته وجوهره، لذلك فقد رآه في ذاته، حيث الرؤيا هنا رؤية الذات للذات. فالآب والابن ذات واحدة.

«ليس أن أحدا رأى الآب إلا الذي من الله. هذا قد رأى الآب»: فالرؤيا هنا رؤيا ذاتية، ليس بالعين ولا بالتأمل بل رؤية تطابق المثيل على المثيل، فالابن يرى الآب كما يرى الآب الابن، لأن وحدة الذات والجوهر والطبيعة جعلت المعرفة بينهما واحدة: «ليس أحد يعرف الابن إلا الآب. ولا أحد يعرف الآب إلآ الابن» (مت١١:٢٧). والمشيئة والكلمة واحدة والعمل واحد، لذلك قال لفيلبس: «الذي رآني فقد رأى الآب» في كل شيء (يو١٤:٩). هذا عبر عنه المسيح في قوله للأب: «كل ما هو لي فهو لك وما هو لك فهو لي» (يو١٧:١٠). ثم في موضع آخر قادم يتجمع كل ذلك في قول واحد: «أنا والآب واحد.» (١٠:٣٠)

وبناء على أنه هو الوحيد الذي رأى الله الآب وخبر، أصبح الإيمان بشخصه وبكلمته وعمله ضرورة حتمية، لأن الله الآب يتكلم ويعمل به: «الله بعدما كلم الآباء بالآنبياء قديماً بأنواع وطرق كثيرة، كلمنا في هذه الايام الأخيرة في ابنه الذي جعله وارثا لكل شيء.» (عب١:١-٢)

والمسيح ينتهي من قوله أنه الوحيد الذي رأى الآب، إلى حتمية الإيمان به لنوال حياة أبدية.

«الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي فله حياة أبدية»: لماذا؟ لأن هذه هي رسالته، الحياة الأبدية، التي أرسله الآب إلى العالم ليكملها، وقد أكملها، وأعطاها، بسفك دمه فدية عن العالم كله، كل من يؤمر به. وهذا هو تسلسل الكلام : المسيح هو الوحيد الذي رأى الآب، لأنه هو الوحيد «الذي من الله» (يو٦:٤٦)، لذلك إن سمعوا له وآمنوا به يكونوذ قد سمعوا الآب، وبالتالى ينالون القصد من رسالته، ورسالته هي أن ينالوا الحياة الأبدية.

ثم يبتدىء الآنجيل بعد ذلك في توضيح كيف يؤمنون به لينالوا الحياة الأبدية. وعلى مستوى أن لا حياة بدون أكل وشرب وتنفس، هكذا سيعطيهم أن يأكلوه ويشربوه ويتنفسوا روحه القدوس.

هذا هو موضوع حديث المسيح حتى نهاية الأصحاح.

٦:٤٨-٥١ «أَنَا هُوَ خُبْزُ الْحَيَاةِ. آبَاؤُكُمْ أَكَلُوا الْمَنَّ فِي الْبَرِّيَّةِ وَمَاتُوا. هَذَا هُوَ الْخُبْزُ النَّازِلُ مِنَ السَّمَاءِ لِكَيْ يَأْكُلَ مِنْهُ الإنسان وَلاَ يَمُوتَ. أَنَا هُوَ الْخُبْزُ الْحَيُّ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. إِنْ أَكَلَ أَحَدٌ مِنْ هَذَا الْخُبْزِ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ. وَالْخُبْزُ الَّذِي أَنَا أُعْطِي هُوَ جَسَدِي الَّذِي أَبْذِلُهُ مِنْ أَجْلِ حَيَاةِ الْعَالَمِ».

يبدو لأول وهلة أن الكلام هنا مكرر ومُعاد. ولكن كل كلمة وكل آية تأخذ وضعها وترتيبها بإحكام.

«أنا هوخبز الحياة»: هذه الآية تأتي كشرح توضيحي للآيات السابقة: «الحق الحق أقول لكم من يؤمن بي، فله حياة أبدية». أي أن المسيح اعتبر نفسه خبزاً لنوال الحياة الأبدية، حيث كل من المسيح والخبز الذي يعطيه يهب الحياة الأبدية، لأن الحياة الأبدية فيه. فالمسيح فيه الحياة ويعطي الحياة، لأن المسيح حي ومحيي: «لاني انا حي، فانتم ستحيون» (يو١٤:١٩). وخبز الحياة هو كذلك خبز حي، فهو يعطي الحياة لأنه خبز الله، لأنه جسد

المسيح. فالتطابق الذي يجعله المسيح بين كيانه الحي «أنا هو» المحيي، وبين كيان الخبز الحي «الجسد» المحيي هو تطابق كلي؛ لذلك يعود المسيح بعد ذلك ويوضح هذا التطابق هكذا: «أنا هو الخبز الحي». وهنا يكمن سر التجسد العجيب الرهيب على مستوى إتحاد الكيان الإلهي «أنا هو» بـ «الجسد» البشري المولود من الروح القدس إتحاداً سرياً كاملاً أبدياً.

والحيرة التي يقع فيها العقل الذي لم يقبل سر التجسد تكون حيرة حقيقية، إذ كيف يمكن للمسيح وهو إنسان أن يكون خبزاً، والخبز معروف أنه يؤكل لقوام الحياة الجدية؛ أما للذين قبلوا سر التجسد، أي بالإيمان بالمسيح الكلمة المتجسد، يصير من السهل عليهم أن يدركوا سر الإفخارستيا في قول الرب: «الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي». فهذا هو غاية التجسد، فالمسيح تجسد ليعطي جسده الحي للعالم ليكون بذرة الخليقة الجديدة. هذه الحقيقة سرية للغاية والذي يقبلها إنما يقبلها بالإيمان. والمسيح عرض الإيمان به على اليهود لينكشف لهم السر فرفضوه «إن كل من يرى الابن ويؤمن به، تكون له الحياة الأبدية، ولكني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون». فقبول المسيح، أي المجيء إليه والإيمان به أولا، كفيل بأن يكشف كل أسرار المسيح والحياة الأبدية. ولكن الخطأ الذي ارتكبه اليهود، والذي لا يزال يرتكبه العالم، أن الناس يريدون أن يعرفوا سر المسيح قبل أن يأتوا إليه ويؤمنوا به، وهذا مستحيل.

والآن فالنصيحة العظمى التي نقدمها للناس جيعا هي أن يأتوا إليه بلا فحص وأن يقبلوه ويؤمنوا به لتنفتح عيونهم وقلوبهم ويدركوا سر المسيح والله بكل يقين، وسر الحياة الأبدية.

والمسيح في قوله إنه «يعطي جسده» يصير فاعلا: «أنا هو»، وممفعولا به: «جسدي» بآن واحد!! فالمسيح كائن في الله وفي الجسد معا بآن واحد، لذلك حينما يبذل جسده فهو يعطي نفسه في هذا الجسد ليصير الأكل من الجسد إتحادا به وبالله الآب، وقوة هذا الاتحاد هي الحياة الأبدية.

«الخبز الذي أنا اعطي هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم»: والخبز الحي هو جسد المسيح الذي سيُذبح بإرادته، الذي فيه الحياة الأبدية غير القابلة للموت، ليكون ذبيحة إلهية حية حياة أبدية، لكي كل من يأكل منها يحيا فيه وفي الله الآب، على أنه يستحيل على أحد أن يأكل منه أكلا حقيقيا إلا إذا كان قد آمن حقاً بالمسيح. لأن الأكل الحق من الجسد الحق لا يكون إلا بالإيمان الحق، فهنا ليس مجرد الأكل يحيي، ولكن الأكل بالروح والحق هو الذي يحيي.

«أنا هو خبز الحياة. اباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء (حقا) لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت»: وهنا يأتي الرد على اليهود بالمقارنة مع المن الذي نزل من السماء. فيقول المسيح: «آباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا» والترجمة اليونانية الحرفية: «وقد صاروا مائتين أو أمواتا» وبهذا لا تأتي هنا بمعنى الموت الطبيعي بل صاروا أمواتا أو مائتين روحيا. وهذا يؤكده المقابل في الآية القادمة: «هذا هو الخبز... يأكل منه الإنسان ولا يموت». علماً بأننا نأكل من خبز الحياة (الإفخارستيا) ونموت جسديا. فهنا «لا يموت» تأتي بعنى عدم الموت الروحي؛ وفي المقابل من جهة المن، فإن كل من أكل المن مات، أي مات روحيا. وهذا كان عقابا لعدم الايمان والتذمر وعمل الشرور والزنا. فالعيب كان فيهم، وليس بسبب عيب في المن كطعام من السماء. كما يوضح ذلك بولس الرسول في سفر العبرانيين: «ولمن أقسم لن يدخلوا راحته إلا للذين لم يطيعوا. فنرى أنهم لم يقدروا أن يدخلوا لعدم الإيمان» (عب٣:١٨-١٩). علماً بأن كلمة «راحته» رفعها بولس الرسول من راحة

أرض كنعان إلى راحة الله الخاصة: «فلنجتهد (بالإيمان) أن ندخل (نحن) تلك الراحة لئلا يسقط أحد (منا) في عبرة العصيان هذه عينها» (عب٤:١١). إذن، فالذين أكلوا المن الذي نزل من السماء لم يسعفهم أكلهم مز المن، وذلك بسبب خطيتهم، فحُرموا من دخول السماء.

«أباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا»: لينتبه الدارس للكلمة إلى القصد الذي يهدف إليه المسيح هنا[5]، فهو لا يلغي المضمون الروحي والسمائي للمن، بل على العكس، فالقصد الذي يهدف إليه المسيح هو أنه بالرغم من أنهم أكلوا المن إلا أنهم ماتوا. لأننا نعلم علم اليقين أن الوحي المقدس على فم بولس الرسول أوضح أن المن ان طعاما روحيا كما كان الماء الخارج من الصخرة شرابا روحيا، أي بالمفهوم الكتابي أن الطعام، أي المن والماء، أي الصخرة، كانت رمزا للمسيح. ولكن الطعام الروحي والشراب الروحي لم ينفعا آكليه وشاربيه بسبب عدم الإيمان، والتذمر على الله وشهوة الشرور والزنا.

«وجميعهم أكلوا طعاما واحدا روحيا، وجميعهم شربوا شرابا واحدا روحيا، لأنهم كانوا يشربون نن صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح. لكن بأكثرهم لم يسر الله لأنهم طرحوا في القفر. وهذه الأمور حدثت مثالا لنا، حتى لا نكون نحن مشتهين شرورا كما امشتهى أولئك... جلس الشعب للأكل والشرب (الروحي) ثم قاموا للعب، ولا نزن كما زنى أناس منهم فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفا، ولا نجرب المسيح كما جرب أيضأ أناس منهم فأهلكتهم الحيات، ولا تتذعروا كما تذمر أيضا أناس منهم فأهلكهم المهلك.» (١كو١٠:٣-١٠)

وبالتطبيق، يقول المسيح ويشدد على الإيمان به قبل أن يخوض في مفهوم الأكل والشرب من خبز الحياة الذي يعطيه، الذي هو جسده الذي سيبذله على الصليب من أجل حياة العالم. فهذا الخبز الحي النازل من السماء حقا هو أيضا لن يفيدهم شيئا إذا لم يؤمنوا به. المسيح جمع الإيمان به والأكل منه كفعل روحي واحد. فالذي يؤمن به يأكل حياة أبدية، والذي لا يؤمن به يأكل دينونة .

وواضح أن هؤلاء اليهود المحاججين لم يؤمنوا به بل وتذمروا عليه، على نفس مستوى ما عمل أباؤهم في البرية مع الله. هذا هو الذي جعل المسيح يركز على صفة الأكل من الخبز الحي الجديد، أى جسده والشرب من دمه بعد ذلك. لذلك جعل المسيح الإيمان به وسماع كلمته وطاعته وعدم التذمر شرطا أولا وأساسيا لكي «يأكل منه الإنسان ولا يموت». وهذا نجده واضحأ جدا في الأيات التي سبقت الاعلان عن أن الخبز الحي الجديد هو جسده المبذول لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت. وهنا نعيد قول المسيح الذي جعله شرطا للدخول في مفهوم الأكل من جسده: «وقال لهم لا تتذمروا... كل من سمع من الآب وتعلم يقبل إلي... من يؤمن بي فله حياة أبدية... أنا هو خبز الحياة».

وهذا يعود علينا بالتوضيح أن الإيمان بالمسيح وقبوله مع الشكر الدائم، شرط أساسي لاستعلان الروح في الإفخارستيا ونوال الحياة الأبدية.

يلاحظ القارىء أن جسد الرب الذي يعطيه، أو الذي بذله عن حياة الإنسان، قدمه أصلا وأساسا لكي يرفع الخطية

---

[5] مع مزيد من الأسف والحزن فقد وقع علماء الكتاب المقدس فى خطأ فهم كلام المسيح عن المن: «آباؤكم أكلوا المن فى البرية وماتوا، بأن المن كان طعاما جسديا بلا قيمة روحية، لذلك كل من أكله مات وطُرح جسده في القبر. فى حين أن هذا هو الواقع أيضا في أكل جسد المسيح، أى الإفخارستياء فنحن نأكل الجسد المقدس ونموت أيضا وتُطرح أجسادنا في القبور. فكلمة «ماتوا« فُهمت خطأ وعلى القارىء الانتباه إلى هذا الشرح

ويلغيها ويكفر عنها ويمسح دينونتها ويزيل آثارها المدمرة في جسد الإنسان وعقله وروحه. ثم نظرة واحدة سليمة إلى حال الإنسان قبل المسيح توضح لنا لماذا أعطانا جسده هذا. فالخطية أفرغت الإنسان من مضمونه ككيان مخلوق بيد الله على صورة الله وفيه نفخة روح الله!! الخطية أعمت عين الإنسان، وسدت أذنيه عن رؤية الحق والنور والله وسماع صوت لله المحيي. الخطية استبدت بالإنسان، وسادت عليه، واستعبدته لكل ما هو إثم ونجاسة وعار، وجعلته يتآخى مع الحيوان بل مع الشيطان، وأوردته مهالك الموت، فصار جسده المضيء بنور الله تلفه الظلمة. وعوض نفخة الله المحيية المبهجة، صارت تتردد في جنباته رياح الموت وعواصف الرعب والخوف ممن له سلطان الموت أي إبليس. الكل أخطأ وزغ وأعوزه مجد الله، ليس من يعمل الصلاح، ليس ولا واحد!! (راجع ٣:٢٣ ومز ١٤:٣). والجوع إلى الله والحق جعل الإنسان يتلمس الله في السماء والأرض والحجر والشجر.

الله تحنن على صورته ولم يشأ إطلاقا أن يفسد جماله فيها، أو أن يسحب روحه منها، أو تسود ظلمة الخطية على نور بهاء معرفته، أو تبقى غنى نعمته عاجزة عن أن تشبع جوع الإنسان.

لهذا تجسد ابن الله ليطعمنا من جسده ، ليرد جوعنا إلى شبع حقيقي من الله ، ويسقينا من دمه لتسري روحه فينا مرة أخرى للحياة من بعد موت. وهكذا، ولكي يقيمنا الله من الموت والعدم، أعطانا نفسه لنأكله، لكي يستبدل جسدنا بجسده ودمنا بدمه، وهكذا لا نعود نحيا نحن للموت بل هو يحيا فينا للحياة، فنحن الآن «أعضاء جسده، من لحمه ومن عظامه.» (أف٥: ٣٠)

فلو ارتفعنا هنا بمستوى الخبز والمن والأكل إلى المستوى الروحي الذي أراد بعض الربيين أن يرتفعوا إليه، باعتبار المن أنه هو التوراة أي الناموس؛ نجد المقارنة أصبحت أكثر صحة وأقوى بيانا. فالخبز الحي، أي جسد المسيح المبذول أي المذبوح من أجل حياة العالم، هو المقابل للتوراة أو الناموس، مؤسسا على النعمة المجانية (البذل) للخلاص والحياة. أما التوراة أو الناموس فهو مؤسس على معرفة ناموس الخطية وحكم الموت للمخالف. فالأول جاء للحياة في مقابل الثاني الذي كان للدينونة والموت. فالذي أكل هن خبز المن، مات بسبب المخالفة والخطية التي بلا كفارة، في مقابل أن الذي يأكل من الجسد الحي يحيا ولا يموت بسبب نعمة التبرير المجانية ورفع الخطية المميتة. فإن كان المن الذي نزل من الساء بواسطة موسى، الذي هو رمز للناموس، قد أكله آباؤهم وماتوا روحيا بسبب المخالفة والخطية التي بلا كفارة، فلم يدخلوا راحة الله؛ فالمقارنة أصبحت أيضا بين موسى: «لأن الناموس بموسى أعطي»؛ وبين المسيح: «أما النعمة والحق فبيسوع المسيح صارا». وهذا ليس على مستوى الأفضلية بين المسيح وموسى، بل على مستوى السببية لأن كل من ناموس موسى والمن لم ينتفع به إسرائيل بسبب التعدي، لهذا جاء المسيح ورفع التعدي، بل ووهب عوض التعدي نعمة، ليعطي الحياة مجانا بجسده المبذول عن حياة العالم؛ نأكله فنعيش!!

وعلى القارىء أن ينتبه إلى تسلسل المعاني وترابطها في إنجيل القديس يوحناالتي جاءت هكذا:

(أ) أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء.

(ب) خبز الله، هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم.

(ج) أنا هو خبز الحياة. اباؤكم أكلوا المن في البرية وماتوا. هذا هو الخبز النازل من السماء لكي يأكل منه الإنسان ولا يموت.

(د) أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء

(هـ) الخبز الذي أنا أعطي هو جسدي

(و) الذي أبذله من أجل حياة العالم.

ويلاحظ القارىء أن الآيات (أ) ، (ب) هي وصف المشورة الإلهية كتقرير حقيقة يراد تتميمها. فالخبز الحقيقي هو خبز الله، أي أنه يمت إلى طبيعة الله، فكلمة الحقيقي هي صفة لا تطلق على الماديات، لأنها صفة الله وصفة المسيح: «أنا هو... الحق» (يو١٤:٦). وهذا الخبز الحقيقي، الذي هو خبز الله، موطنه الدائم «من السماء». ولكن مشورة الله تقررت أن هذا الخبز يأخذ حالة نزول من السماء لإعطاء حياة أبدية للعالم. وهنا «نازل» هو تقرير حال لم يدخل في حيز الفعل.

ثم تأتي الأية (ج) حيث يكشف فيها المسيح عن صفة هذا الخبز أنه هو هو نفسه: «خبز الحياة»، أي الخاص «بالحياة الأبدية» الذي وُضع له أن ينزل من السماء (حال)، لكي يأكل منه الإنسان كغذاء روحي دائم فلا يذوق الموت الروحي.

ثم تأتي الأية (د) ويضيف فيها المسيح صفة ذاتية جوهرية لهذا الخبز وهو أنه خبز «حي» أي أن جوهره حياة. ثم يدخل المسيح هذا الخبز الحقيقي، أي خبز الله الذي موطنه السماء والمعين له النزول من السماء، يدخله في حالة الحركة الفعلية في صميم الزمن: «الذي نزل». وهنا يعلن عن سر التجسد الذي تم في صميم حركة الزمان وصار فعلت ماضيا.

ثم تأتي الأية (هـ) وفيها يكشف أكثر عن صلة هذا الخبز بنفسه، أنه جسده، وهنا يجعل الخبز يعبر عن نفسه وعن جسده معا.

ثم تأتي الآية (و) وفيها يكشف عن نية مبيتة عند المسيح ومقررة، أن هذا الخبز، أي جسده، هو مُعد الآن لحالة بذل أو ذبح إرادي.

وإلى هنا يكون المسيح قد أعد الفكر للدخول في سر المسيح الأعظم، وهو الفداء بالموت أي الصليب، بعد أن أمن على الجسد من الموت الروحي، عندما قرر أنه «خبز حي» وأنه «حي بالآب» حياة أبدية لا يرقى إليها الموت المادي. فالموت على الصليب أنشأ غلبة على الموت، وقد استُعلنت الحياة الأبدية التي فيه.

كما يكون قد أعد الفكر لحتمية الأكل من هذا الجسد ليحيا به الإنسان إلى الأبد، أي لنوال الحياة الأبدية التي فيه.

أما الأكل من هذا الجسد فقد أحدث الصدمة الأخيرة لعقول اليهود، والذي بدأ الرب يؤكده دون أن يشرحه» متجاوزا جهلهم هكذا:

ج _ الجزء الثالث من الحديث: (٦:٥٢-٥٨)

٥٢- فَخَاصَمَ الْيَهُودُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً قَائِلِينَ: «كَيْفَ يَقْدِرُ هَذَا أَنْ يُعْطِيَنَا جَسَدَهُ لِنَأْكُلَ؟».

كان تذمر اليهود سابقا ينصت على شخصيته كيف يقول: «أنا هو خبز الحياة الذي نزل من السماء... أليس هذا هو يسووع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه، فكيف يقول هذا إني نزلت من السماء؟» (يو٦:٤١-٤٢).

وهنا كان رد المسيح يتعلق باستعلان شخصه وعلاقته بالآب والسماء: (٦:٤٣-٤٧).

أما هنا فيتحول السؤال إلى: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل؟»

والمخاصمة فيما بينهم تأتي بمفهوم الأنقسام وحدة الاختلاف. فكلمة «خصام» أتت باليونانية (   ) على مستوى المحاربة بالرأي والكلمة. فبعضهم فهمها على مستوى الروح وقبلها، والآخر فهمها على مستوى الجسد

الطبيعي، فرفضها بشدة.

وللأسف فإن هذه الخصومة وهذا الأنقسام قائمان حتى اليوم بين الكنائس، على نفس أساس الأنقسام في الفهم، بين الارتفاع إلى المستوى الروحي السرائري وبين النزول إلى المستوى المادي الطبيعي. ولا نريد أن نخوض هنا في صحة العقائد من عدمها، ولكن سنلتزم في الشرح بالدقة وأمانة وروحانية الكلمة التي يقولها الرب؟ متذكرين دائما أبدا، فيما يختص بأصول العلاقة بالمسيح، أنها تقوم على أساس أن قبول إعلان الرب عن نفسه والإيمان به والخضوع لسلطانه الإلهي، يؤدي إلى استعلان أسراره باستنارة الروح. وهذا ما حاوله المسيح مع اليهود: أن يقبلوه أولا، إن كان بالكلمة أو بالأية أو بالعمل، لكي يستعلن لهم حقيقته، ولكنهم أصروا على: «كيف» و«لماذا» و«من أعطاك هذا السلطان» و«أين هو أبوك؟»» فظلوا محبوسين في ظلمة الشك أبداً تحت سلطان العقل والمعقول: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل؟»

أما ردود المسيح، فقد ظن علماء الكتاب أنها لم تعبأ قط بتشككات اليهود، وأنه لم يتنازل ولا بكلمة واحدة ليرد على أسئلتهم، أو يشرح لهم كيف سيقدر ان يعطيهم جسده، أو ما معنى أن يأكلوه. هذه في الحقيقة نظرة غير صحيحة، فالرب اعتنى جدأ بالرد دائما؛ إنما كعادته، كانت ردوده تحتاج إلى من يكشف عن عمق معناها والأسرار التي تحويها، ليعرف أنها فعلآ ردود كاملة وصحيحة عن كيف سيعطي جسده وكيف سيأكلونه. وإلا فما كان جيدا ولا لائقا من المسيح أن يبدأ رده بجملته الرهيبة التي تزيد الحق حقا بقوله:

٥٣ - فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَأْكُلُوا جَسَدَ ابْنِ الإنسان وَتَشْرَبُوا دَمَهُ فَلَيْسَ لَكُمْ حَيَاةٌ فِيكُمْ.

الرب يقول مخاطبا اليهود، وليس اليهود فقط، بل والتلاميذ، وليس الاثنى عشر فقط بل ويخاطب السبعين الاخرين ايضا حسب التقليد. أما «كيف يقدر»، وهو الجزء الأول من السؤال المحير لعقول اليهود، فيرد المسيح عليه هكذا: بأن تأكلوا جسده وتشربوا دمه. فإذا كان الجسد يؤكل وحده، فهذا يعنى أنه سينفصل عنه الدم؛ فهنا الإشارة صارخة إلى عملية الصلب العنيفة التى سيجوزها على أيديهم. فاليهود هم أنفسهم، بتقديمه للموت على الصليب، سيجعلونه «قادراً» أن يعطيهم جسده للأكل ودمه للشرب. هذا هو الرد على «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده .....»

أما الجزء الثاني من سؤالهم المحير: «كيف يعطينا جسده لنأكل»» فكان رد المسيح عليه أنه ليس الجسد وحده الذي سيؤكل، بل والدم يُشرب أيضا. فالعثرة التي صدمت عقولهم من حيث استحالة أكل الجسد البشري، حولها المسيح إلى استحالة أشد، استحالة، بشرب الدم البشري! وحينئذ يصبح لا مفر من فهم آخر للأكل والشرب بالنسبة للجسد والدم، فهنا مفهوم ذبائحي رفيع المستوى تعايشوا معه مئات السنين، والإشارة واضحة إلى ذبح إسحق بأمر الله الذي طلب من إبراهيم أن يقدمه ذبيحة له جسدا ودما.

فإن كان اليهود قد أضمروا صلبه، فالرب يسوع قبل ذلك برضى الطاعة للآب كإسحق لأبيه، أما شرب الدم فهو محرم بأمر الله بالنسبة للذبائح الحيوانية، والسبب أعلنه الوحي هكذا: لأن الدم فيه الروح وهو أيضأ رباط النفس بالجسد: «لحماً بحياته دمه لا تأكلو» (تك٩:٤)، «لكن احترز أن لا تأكل الدم، لأن الدم هو النفس فلا تأكل النفس مع اللحم.» (تث١٢:٢٣)

فإعلان المسيح هنا عن شرب دمه يرتفع أولا بمفهوم ذبيحته عن الذبائح الأخرى، ويرتفع ثانيا بمفهوم شرب دمه إلى مفهوم شرب غير جسدي وقبول روح الحياة في دم المسيح للتقديس، وهكذا يتم الارتباط بنفسه ارتباطا أبديا:

+ «لأنه إن كان دم ثيران وتيوس ورماد عجلة مرشرش عل المُنجسين يُقدس إلى طهارة الجسد، فكم بالحري يكون دم المسيح الذي بروح أزلى قدم نفسه لله بلا عيب يطهر ضمائركم من أعمال ميتة لتخدموا الله الحي.» (عب٩:١٣-١٤)

أي أن حياة المسيح الأبدية التي في دمه تنتقل إلى من يشرب دمه بالإيمان. وهذا ما شدد عليه المسيح كنتيجة حتمية لمن يشرب دمه: «إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة (أبدية) فيكم».

أما كلمة الاحتقار التي وجهوها للمسيح: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل»، فرد عليها المسيح أن «هذا» الذي احتقروه هو«ابن الإنسان» الذي أشار إليه دانيال في رؤياه أنه هو الذي سيكون عليه رجاء اليهود الذين ترجوه وانتظروه: «كنت أرى في رؤى الليل وإذا مع سحب السماء مثل ابن إنسان أتى وجاء إلى قديم الأيام، فقربوه قدامه (ذبيحة)، فأعطي سلطانا ومجدا وملكوتا لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة، سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض.»» (دا٧:١٣-١٤)

وقول المسيح واضح: «الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه...». وهكذا يرد المسيح على احتقارهم بأن أظهر لهم عماهم، أنهم مزمعون أن يذبحوا من ترجوه منذ ابائهم وانتظروه بفارغ الصبر، وأن الذي احتقرره هو هو الذي ستتعبد له كل الشعوب.

وهنا يلزمنا أن ننبه القارىء أن يحترس من شرح بعض علماء الكتاب المقدس الذين رأوا في كلمة «ابن الإنسان» هنا بالذات، أي من جهة أكل جسد ابن الإنسان وشرب دمه، أن المعنى يشير إلى أن الرب يقدم ويبذل بشريته. وهذا أمر مؤسف ومحزن للغاية، فهذه النظرية هي بعينها نظرية فصل طبيعة المسيح إلى طبيعتين فصلا واضحا صارخا لا تؤمن به الارثوذكية اللاخلقيدونية القبطية. لأن المسيح أشار مرارا وبوضوح أنه سيبذل نفسه وليس جسده وحده أو بشريت. فهو سيبذل نفسه في جسده، ولا يمكن أن « أنا هو» ينفصل عن جسده، ولا يمكن أن تنفصل نفسه عن الله أبيه بحسب إيمان الكنيسة أن «لاهوته لم ينفصل قط لا عن نفسه ولا عن جسده» (القداس الإلهي). فالمسيح متحد بالآب وبالجسد إتحادا ليس فيه انفصال، لذلك يقول الكتاب: «هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه ...»» (يو٣:١٦)، ولم يقل حتى بذل جسد ابنه.[6]

فلينتبه القارى بل وكل عالم وباحث وشارح بل وكل لاهوتي، أن ذبيحة الصليب هي المسيح ككل، والذي قدم هذه الذبيحة هوا لآب والابن معا؛ الآب بسبب حبه للعالم، والابن بسبب حبه للآب. فهي ذبيحة حب فيها كل حب الآب وكل حب الابن وطاعته، مظهرها جسد إنسان مصلوب على الصليب، وجوهرها حب إلهي مذبوح. أما قوة الصليب والذبيحة التي عليه فلا تكمن في الجسد الظاهر للعيان، لأنه حسب قول المسيح: «الجسد لا يفيد شيئا» (يو٦:٦٣)، بل قوة الذبيحة التي أنشأت خلاصا وفداء ومصالحة، فهي تكمن بالدرجة الاول في الروح والنفس، ثم الجسد، بكل كيانها الإلهي البشري معا. فالمسيح، ككل، هو الذي تحمل العار والخزي؛ أي أن الابن في ملء كيانه الإلهي يرضي الآب، لكي يخلص الإنسان من اللعنة، أما الموت الذي ماته المسيح على الصليب، فكان يستحيل أن يقع على الجسد وحده لينشىء قوة خلاص، إلا إذا قبله الابن بكل إرادته ومشيئته الإلهيتين، لأن جسد المسيح وإن كان قد قبل الموت، إلا أنه كان غير مستحق للموت! والموت تم للجسد بسبب قبول ورضى الآب أولا: «لتكن لا إرادتي بل إرادتك» (لو٢٢:٤٢)، وبسبب قبول ورضى الابن: «لأجل هذا أتيت أنا (الابن في ملء اللاهوت) إلى هذه

---

[6] هل معنى هذا ان الصلب كان للناسوت واللاهوت معا؟ ونحن نؤمن أن اللاهوت لا يموت، أما الناسوت فهو قابل للموت (ميشيل)

الساعة.» (يو ١٢:٢٧)
إذن، فالموت على الصليب الذي تم للمسيح، اشترك فيه الآب والابن اشتراكا فعليا.
لذلك، فنحن حينما نأكل جسد المسيح ونشرب دمه فنحن نأكل «الكلمة المتجسد»، نأكل المسيح ككل: «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو ٦:٥٧)، نأكل كل حب الآب من نحونا، ممثلا في مشيئته التي تمت في ذبح الابن، ونأكل كل حب المسيح ممثلا في منتهى طاعة الابن للآب حتى الموت، لتكميل خلاص الإنسان. وهذا بعينه هو انفتاح سر الإتحاد الدائم بين الآب والابن علينا الذي نناله في هذا السر، وبهذا ندخل في صميم الحياة الخاصة التي بين الآب والابن التي هي هي الحياة الأبدية.
وعلى القارىء والباحث أن ينتبه دائما أبدا، أن المسيح حينما يتكلم، فكلامه لا يؤخذ على المستوى العادي الطبيعي: «الكلام الذي اتكلم به هو روح وحياة.» (يو ٦:٦٣)
ثم عاد المسيح ونقل الإشارة من النبوة عن ابن الإنسان إلى الواقع الحي أمامهم، أي إلى نفسه. المسيح هنا يستحضر الآخرويات اليهودية المترجاة إلى الحاضر الزمني في شخصه. فاستعلن نفسه أنه هو هو «ابن الإنسان» رجاء الدهور الذي قبل عن رضى أن يكون ذبيحتهم بسبب المسرة الموضوعة أمامه في طاعة الآب وفي حبه للخطاة:

٥٤ - مَنْ يَأْكُلُ جَسَدِي وَيَشْرَبُ دَمِي فَلَهُ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ وَأَنَا أُقِيمُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ.

أي أن يكون لـه حياة لا تزول من الآن وتستعلن في اليوم الأخير، وتتمجد بالقيامة إلى الأبد. وهكذا يصبح أكل الجسد وشرب الدم هو هو تحقيق مجد اللأخرويات التي ترقبها اليهود على أساس أن الجسد والدم هما طعام الحياة الأبدية النازل من السماء لحياة عتيدة لا تزول إلى أن يجيء الرب: «كل مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس تبشرون بموتي وتعترفون بقيامتي وتذكرونني إلى أن أجيء» (القداس الإلهي).
وهنا يُلاحظ أن كلمة «يأكل» لم تأت في وضعها العادي ( )، بل جاءت في اليونانية ( ) بمعنى الأكل الدائم السرور والذي لا ينتهي بزمن معين، وكذلك الشرب بمعنى الشركة الدائمة بالفعل والكلمة والروح على أساس الإفخارستيا في مفهومها الفائق.
ويلاحظ هنا أن الرب لا يدخل في المحاجاة ولا النقاش بعقلية اليهود السلبية، ولكنه احتفظ دائما بخط الإيجابية الواقعية في استعلان نفسه بالنسبة للآب وللإنسان على محور واحد وهو ذبيحة نفسه.

٥٥ - لأَنَّ جَسَدِي مَأْكَلٌ حَقٌّ وَدَمِي مَشْرَبٌ حَقٌّ.

هذه هي الإضافة الجديدة التي يشرح بها المسيح حقيقة أكل جسده وشرب دمه. فهنا لا يزال المسيح يخاطب اليهود الذين اعتقدوا أن المن هو خبز سماوي كعلامة مطلوبة في الأيام الأخيرة للتحقق أن مسيرة المسيح مع شعبه في البرية ستسأنف ثانية لافتتاح عصر المجد لإسرائيل.
فهو يقول هنا أن جسده هو الطعام «الحقيقي»، ودمه هو الشراب «الحقيقي»، وليس المن أو ما يشبه المن ولا ماء الصخرة أو ما يشبهها. وهذا هو المعنى الأبسط والأضعف الذي يخاطب به عقول اليهود. ولكن المعنى الأعمق والأهم هو بالنسبة لمستوى حديث المسيح الذي يهدف به إلى استعلان الحق فيما يخص شخصه بالنسبة لعلاقته بالآب وبالإنسان.
فكلمة «الحق» التي أتت مرتين في مأكل الجسد وشرب الدم هي استعلان لجوهر الجسد ولجوهر الدم. وكلمة

«الحق» جاءت في اليونانية في بعض المخطوطات (   ) «الحق»، والمخطوطات الأخرى (   ) «حقاً».
فالاولى أي «الحق» تأتي بمعنى الواقع الحقيقي «ضد الظاهر» أو بالمفهوم اللاهوتي **facts**، والثانية أي «حقاً» تأتي بالمفهوم اللاهوتي «ضد المزيف» أي أصلي **genuine** وتهدف إلى معنى أنه مأكل يختص بحاجة الإنسان «الحقيقية» وليس للحاجة العارضة كالجوع. والحاجة الحقيقية للإنسان هي لروحه.

وهكذا يتحقق فعلا أن قول المسيح يهدف إلى إقناع اليهود أن جسده ودمه «حقاً» أي للحاجة الحقيقية بالنسبة لإسرائيل، أي الحياة الأبدية، وليس لحاجة ملء البطن أو المسرة بعمل إعجازي، لحياة المجد الدنيوي، كما تجيء كلمة «حقاً» للمعنى الأعمق كما فهمها وسجلها الإنجيل، أن الأكل من الجسد ليس كما تصوروا أنه أكل قطعة لحم جسد إنسان عادي وأن الشرب من الدم ليس هو شرب ملء الفم من الدم المادي حسب ظاهر المعنى، وظاهر اللحم والدم، بل هو أكل روحي بالحق وبالجوهر أي أكل الجسد كله بملء الكلمة فيه. «والكلمة صار جسداً» (يو ١: ١٤)، أي «أكل سر التجسد بأكمله»، هذا هو جوهر الجسد، وشرب الدم هو شرب أو احتواء كل دم ذبيحة المسيح على الصليب أي «شرب سر الفداء»، «بشرب كل حياة المسيح التي في دمه». هذا هو المأكل الحق للجسد والشرب الحق للدم، لأن الحق لا يتجزأ قط وهو يختص بالإلهيات.

ولا ننسى أن كلام المسيح دائما أبدا هو روح وحياة. ولكن لا ننسى أيضا أن كلام المسيح كان مسموعا بالأذن اللحمية ونحن الآن نقرأه بالحروف المكتوبة، وقول المسيح أن الله روح والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا، وأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له، فهنا الروح والحق في السجود لا يلغيان السجود الجسدي بل يرفعانه إلى مستوى الروح والحق. هكذا أيضا في أكل الجسد وشرب الدم فإنه يجري على المستوى الجسدي المحسوس المنظور في سر الإفخارستيا بالخبز والخمر، لأن المسيح المأكول محسوس ومنظور، ولكن المأخوذ منه للحياة الأبدية هو الروح والحق على مستوى «أنا هو الحق».

ولكن حتى هذه الآية لم يفصح المسيح عن إجراء سر الإفخارستيا بالخبز والخمر لأن ميعاده لم يحضر بعد. فالمسيح هنا يضع الأساس الذي سيبني عليه يوم الخميس سره الخالد، ثم يتمم هذا السر بالفعل يوم الجمعة. على أن القديس يوحنا لم يطرق جميع الأسرار على مستواها الطقسي المادي، بل استعلنها جميعا على المستوى الإلهي الروحي. فقد ذكر الميلاد الثاني من الماء والروح، ولكنه لم يذكر كلمة واحدة عن إجراء سر العماد؟ وذكر الجسد والدم والأكل والشرب منهما، ولم يذكر كلمة واحدة عن كيفية إجراء سر الافخارستيا بالخبز والخمر؛ وذكر التجسد الإلهي بعمق لا يُجارى وعن حياة الكلمة قبل التجسد، ولم يكتب كلمة واحدة عن ولادة المسيح العجيبة أو سر بتولية العذراء مريم ولا حتى اسمها مع أنها عاشت معه زمنا طويلا في بيته.

هذا هو القديس يوحنا وهذا هو إنجيله، فهو دائما أبدا يتكلم عما لم يتكلم عنه بقية الإنجيليين، وشغله الشاغل هو استعلان الحق الإلهي في حياة المسيح وكل أعماله وأقواله.

٥٦- مَنْ يَأْكُلْ جَسَدِي وَيَشْرَبْ دَمِي يَثْبُتْ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ.

هنا ينتقل المسيح بعقول اليهود نقلة كبيرة وهامة للغاية، فالأكل من المن السماوي لم يغير شيئا من طبيعة ابائهم، فقد ماتوا «روحياً» بمفهوم أنهم حرموا من الدخول إلى راحة الله بسبب عدم الإيمان، وبالأكثر بسبب العصيان والتذمر على الله والتمرد، بل واستخدام الأكل للذة الجسد وشهوة النفس: «كما هو مكتوب جلس الشعب للأكل (من المن) والشرب (من ماء الصخرة)، ثم قاموا للعب، ولا نزن كما زنى أناس منهم...» (اكو ١٠: ٧-٨). واضح أن

الأكل من المن والشرب من ماء الصخرة مع أنه كان «طعاما روحيا وشرابا روحيا» (اكو ١٠:٣-٤)، إلا أنه لم يغير من طبيعتهم شيئا، بل تحول لهم الأكل والشرب إلى لعب وزنا.

هنا يعطي المسيح المقارنة بين أكل وشرب يثمر موتا لأنه لم يتغلغل جوهر الروح والنفس، وبين خبز الحياة الذي يعطيه المسيح بجسده ودمه لينشىء حياة أبدية؛ فجسده مأكل حق أي جوهري، أي إلهي، وفي نفس الوقت هو جسد ذاتي أي يختص بشخص المسيح ابن الله. فالذي يأكل منه، أو على الأصح يأكله، فالجسد يصير فيه ويبقى فيه كما هو، جسد ابن الله الوحيد بصفاته الحية.

ويلاحظ القارىء أن كلمة «يثبت» كما جاءت بالعربية هي في اللغة اليونانية يبقى وهو نفس الفعل المشتق منه كلمة «الباقي»: «الخبز الباقي للحياة الأبدية» في الآية: اِعْمَلُوا لاَ لِلطَّعَامِ الْبَائِدِ بَلْ لِلطَّعَامِ الْبَاقِي لِلْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ الَّذِي يُعْطِيكُمُ ابْنُ الإِنْسَانِ لأَنَّ هَذَا اللَّهُ الآبُ قَدْ خَتَمَهُ. (يو٦:٢٧)

وكذلك الدم، فالذي يشرب منه أو عل الأصح يشربه، يصير الدم فيه ويبقى فيه دم ابن الله الوحيد المذبوح بصفاته، بالروح الأزلى الذي فيه ونفس المسيح الحية الخالدة.

وبمعى كلي، يكون كل «من يأكل جسدي ويشرب دمي»، أصير أنا كلى فيه وأبقى فيه بجسدي، أي بسر تجسدي، وبدمي، أي بسر فدائي بحياتي وموتي وقيامتي، فيصير موتي فيه لموته، أي فدائه، وحياتي لحياته الأبدية، وتصير قيامتي لقيامته في ملء المجد.

وهكذا يتم القول بالحرف الواحد: «يثبت فيّ وأنا فيه». هذا الثبوت هنا عجيب حقا وسري للغاية. فهو ثبوت الجسد الإلي بالجسد (الروحي) للإنسان وثبوت الروح الأزلى بروح الإنسان، وهذا هو الذي ينشىء فينا القيامة. إنه التحام حي، شخص بشخص، ينشىء إتحادا ووحدة. وهذا هو ما حدا ببولس الرسول أن يقول: «لأننا أعضاء جسمه من لحمه وعظامه» (أف٥:٣٠)

والعجيب أيضا في سر الثبوت هذا أنه متبادل لتأمين الإتحاد، خوفا من ضعف الإنسان وانفلاته. فنحن لا نثبت فيه بإمكانياتنا الضعيفة وإيماننا الأضعف فقط، وإلا فالإنفكاك وشيك الحدوث لا محالة، لذلك أمنه المسيح بنفسه أيما تأمين: «يثبت في وأنا فيه». ولاحظ هنا، أيها القارىء العزيزه أن الثبوت جاء هنا فرديا لكل من يأكل ويشرب بإيمان، واحدا واحدا. إنها علاقة فردية أنشأها المسيح بموته عن كل نفس، لأنها علاقة حب، بل عشق متبادل، ملأت قلب المسيح نحو النفس البشرية كعريس وعروس. ولكن لا يخطىء الفاهم والشارح، فالحب سبب، والبذل ثم الثبوت والإتحاد نتيجة: «هكذا أحب... حتى بذل» «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يو١٥:١٣)؛ «الذي عنده وصاياي ويحفظها فهو الذي يحبني، والذي يحبني يحبه أبي، وأنا احبه واظهر له ذاتي. في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في أبي وأنتم في وأنا فيكم.» (يو١٤:٢٠-٢١)

إذن لا يخطءى أحد ويفهم أن الأكل من الجسد والشرب من الدم أنه فريضة، أو هو طقس فرضه المسيح كما فرض موسى الناموس كقانون، بل هو فعل محبة وثمرة عشق متبادل بين النفس والمسيح المذبوح كعريس من أجلها.

لذلك يصرح المسيح لليهود بمواجهة صعبة ومرة: إنهم محرومون من خبزه الحي، من جسده ودمه، لأنهم رفضوه كابن الله الحبيب: «لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني.» (يو٨:٤٢)

أما بالنسبة للربط بين الآيات، فبعكس ما يرى كثير من علماء الكتاب المقدس بأن الآيات مكررة وغير مترابطة، نجدها نحن مترابطة أشد الارتباط لو أخذنا بالعمق الروحي الذي هو من خصائص هذا الآنجيل، فقوله: «لأن

جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق»، فهو هنا ينقل الأكل والشرب من الجسد والدم إلى مستوى «الحق»، أي مستوى «أنا هو» أي بالمفهوم اللاهوتي، إلى مستوى الجوهر الذاتي، أي بتوضيح أكثر إلى مستوى «أنا» = الذات الإلهية للابن + «هو» كيان الابن أي جوهره أو طبيعته.

لذلك فالتسلسل يأتي هنا بمنتهى القوة والعمق حينما يقول بعد ذلك: «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه. «فالحق» في الآية السابقة يفسر في الآية التي بعدها بـ «أنا».

وإلى هنا لم ينحرف المسيح بنظره أو توجيه كلماته بعيدا عن اليهود الذين يحاجونه، كما يرى علماء الكتاب المقدس، ولكن المسيح كان، بآن واحد، ينظر إلى تلاميذه وإلينا وإلى الأجيال كلها إلى منتهى الدهور، لذلك تجيء كلمات المسيح دائماً ذات أبعاد متسعة لا تغيب عن القلوب المتسعة.

٥٧- كَمَا أَرْسَلَنِي الآبُ الْحَيُّ وَأَنَا حَيٌّ بِالآبِ فَمَنْ يَأْكُلْنِي فَهُوَ يَحْيَا بِي.

وهنا ختام التنقل بالفكر اليهودي إلى نهايته وغايته العظمى. فلقد تدرج المسيح تدرجا غاية في الدقة والاستعلان:

+ من الخبز الباقي للحياة الأبدية الذي يعطيكم ابن الإنسان

+ إلى «خبز اللة النازل من السماء»

+ إلى «أنا هو خبز الحياة»

+ إلى «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء»

+ إلى «الخبز الذي أنا أعطى هو جسدي الذي أبذله من أجل حياة العالم»

+ إلى «إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه، فليس لكم حياة فيكم»

+ إلى «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير»،

+ إلى «جسدي مأكل حق ودمي مشرب حق»

+ إلى «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت في وأنا فيه»

+ إلى هذه الآية الأخيرة التي نحن بصددها: «من يأكلني فهو يحيا بي»

هنا فى هذه الآية الأخيره، يعلن المسيح وجوده الكلي ككل as a whale « يحيا بي» في إفخارستيا الجسد والدم، كحياة نحياها في حياته.

«كما أرسلني الآب الحي وأنا حي بالآب، فمن يأكلني فهو يحيا بي».

«أرسلني الآب».

الإرسالية هنا تستهدف الإعلان عن «التجسد»، ولكنها تتضمن معنى ضمنيا ذا أهمية، وهو وحدة التناسق بين الآب والابن على أساس وحدة الكرامة، وليس كسيد وعبد: « لكي يكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب. من لا يكرم الابن لا يكرم الآب الذي أرسله.» (يو٥:٢٣)

وهنا يضع المسيح إرساليته في الموازنة المتوازنة «كما .... كذلك» التي يلجأ إليها المسيح ليجعل علاقته بالآب مثلا يُحتذى ويُمتلك لنا : مثل «كما أرسلتني إلى العالم ، (كذلك) أرسلتهم أنا إلى العالم» (يو١٧:١٨) ، «كما أحبني الآب ، كذلك أحببتكم أنا» (يو١٥:٩)؛ «... كما أنك أنت أيها الآب في وأنا فيك (كذلك) ليكونوا هم أيضا واحدا فينا.» (يو١٧:٢١)

والقديس يوحنا يستخدم نفس أسلوب المسيح في رسالته: «من قال إنه ثابت فيه ينبغي أنه كما سلك ذاك (تجاه

الآب) هكذا يسلك هو أيضا.» (١يو٦:٢)
فإذا كانت الإرسالية تستهدف معنى التجسد والشهادة والاستعلان للآب، فالمسيح يضعها ضمن الأشياء الموهوبة لنا عندما «نأكله» في سر الإفخارستيا. فعندما نأكله، نحيا بحياته بكل مخصصاته مثل: «كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب، (كذلك) أعرف خاصتي وخاصتي تعرفني.» (يو١٠:١٤-١٥)
والمسيح نقل لنا في شخصه بجسده ودمه علاقته بالآب وعلاقة الآب به.
«الآب الحي»: صفة من الصفات الجوهرية الطبيعية لله التي طالما وصف بها الله في العهد القديم: «لأنه من هو جميع البشر الذي سمع صوت الله الحي يتكلم من وسط النار مثلنا وعاش» (تث٥:٢٦)
أما كلمة «الحي» فهي ليست صفة شخصية فقط وإنما صفة جوهرية، كما قلنا، يعبر عنها المزمور: «عندك ينبوع الحياة.» (مز٣٦:٩)
«وأنا حي بالآب»: هنا اللغة العربية قاصرة عن أداء المعنى الوارد في الأصل اليوناني(   ) والتي تجيء بمعنى «بسبب» والتي لا يمكن فهمها في اللغة اليونانية على أن الآب علة أو آلة لحياة المسيح، إذ كان يتحتم أن تجيء (   )
والتعبير «أنا حي بالآب» تعبير لاهوتي مبسط معناه أن الابن لا يحيا وحده، ولكن حياة الآب هي حياة الابن.
فإذا أكلنا الجسد والدم، فنحن لا نعود نحيا وحدنا، بل نحيا حياة المسيح النابعة من نفس ينبوع الآب. وهكذا يتم الرباط الإلهي بين الإنسان والله الآب بحياة المسيح التي ننالها ونحيا بها من الإفخارستيا، أي الجسد والدم.
ونلاحظ أن المسيح سبق وأعلن أن له حياة أبدية في ذاته، وكلمة «في ذات» تعني في صميم طبيعته وجوهره: «لأنه كما أن الآب له حياة في ذاته، كذلك أعطى الابن أيضا أن تكون له حياة في ذاته» (يو٥:٢٦). فهنا الحياة الذاتية للأب والابن واحدة، لأن الحياة الأبدية هي من جوهر الطبيعة الإلهية. ولكي تكون العلاقة بين الآب والابن واضحة في ذهن القارىء، فليفهم أن الابن يستمد من الآب بنوته فقط، وهذه العلاقة ليست مستحدثة قط، أي لم يكن هناك زمن ما لم يكن في الذات الإلهية بنوة، بل البنوة والأبوة قائمتان أزليا في ذات الله الأزلية. فالأبوة صفة جوهرية في الله، والبنوة مثلها تماما صفة جوهرية في الله. أما الطبيعة، أي الجوهر، فواحد، فطبيعة الآب هي طبيعة الابن، وحياة الآب هي حياة الابن، لأن الحياة ليست صفة ذاتية بل جوهرية. فالمسيح هو الحياة الأبدية من جهة طبيعته، وهذا يعلنه القديس يوحنا في بداية رسالته الاولى هكذا: «فإن الحياة أُظهرت، وقد رأينا ونشهد ونخبركم بالحياة الأبدية التي كانت عند الآب وأُظهرت لنا.» (ايو١:٢)
أما المسيح فقد كرر مرارا وتكرارا أنه هو الحياة: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو١٤:٦)، «أنا هو القيامة والحياة.» (يو١١:٢٥)
فهنا قول المسيح «أنا حي بالآب» يفيد إتحاد الابوة بالبنوة في حياة واحدة غير منفصلة، يكشفها المسيح ويعلنها بالقول والعمل. أما هنا في هذه الأية فهو يسلمها لمن يأكل جسده ويشرب دمه لأنه يحيا به: «من يأكلني فهو يحيا بي» وبالتال يحيا بالآب، لأن المسيح حي بالآب.
وبمعنى أخر أيضاً : فلأن «الآب حي» فيتحتم بالضرورة أن يكون الابن حياً، لأن الابن بالآب قائم ويكون ويحيا، وكما أن الابن (المسيح بالتجسد) حي فيتحتم بالضرورة أن من يأكل المسيح يصير حيا، لأن الإنسان بتناوله الجسد والدم يصير ويقوم ويدوم في المسيح وبالمسيح.

وقد أعلنها المسيح في موضع قادم: «إني أنا حي فأنتم ستحيون» (يو١٤: ١٩)، ويصفها القديس يوحنا في نهاية رسالته الاولى بمنتهى الوضوح والقوة: «وهذه هي الشهادة أن الله أعطانا حياة أبدية. وهذه الحياة هي في ابنه. من له الابن فله الحياة ومن ليس له ابن الله فليست له الحياة... ونعلم أن ابن الله قد جاء وأعطانا بصيرة لنعرف الحق، ونحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. هذا هو الإله الحق والحياة الأبدية.» (ايو٥: ١١و١٢و٢٠)

أما إذا أردنا أن نفهم القصد والغاية العظمى من أكل جسد المسيح وشرب دمه كمأكل حق ومشرب حق، هذا الذي عبر عنه المسيح أخيرا: «من يأكلني فهو يحيا بي» فعلينا أن نعود إلى فكر بولس الرسول الذي يعبر عنه تعبيرا واقعياً غاية في العمق والتصوير اللاهوتي لمفهوم كيف يتحول جسد المسيح فينا إلى جسد كلي وشامل، جسد سري، نصير فيه أعضاء بل نصير من نفس مادته الروحية الفائقة: «لأننا أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه.» (أف٥: ٣٠)

فانظر أيها القارىء وافهم أن الإفخارستيا، أي الأكل والشرب من جسد المسيح ودمه بالروح والحق والشكر، هي المدخل الحي والروحي واللاهوتي بآن واحد للدخول في جسد المسيح السري، بل للاتحاد به أيضاً، بل للثبوت الأبدي، بل للحياة الأبدية والتمجيد الدائم.

وهنا بعد أن أستعلن المسيح وجوده الذاتي الكلي كحياة في الجسد والدم، وبعد أن استعلن الثبوت المتبادل بين المسيح والإنسان من خلال الجسد والدم؛ كشف الرب الاستعلان الأخير بأن الإنسان أصبح له نصيب مع الله الآب، أي ثبوت حياة الإنسان، بالتالي، بالله الآب أيضاً من خلال المسيح الحي في الإنسان، بالجسد والدم، أي من خلال الإفخارستيا في مضمون ذبيحة المسيح.

وهكذا يصل المسيح بالفكر اليهودي إلى أساس العهد الجديد بدم المسيح، كعهد دم بروح أزلي يربط الإنسان بالله الحى، هذا العهد الجديد استعلنه المسيح وسجله بالقول والكلمة يوم الخميس: «هذا هو جسدي ... هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يُسفك من أجل كثيرين» (مر١٤: ٢٢و٢٤). ثم حققه على مستوى ذبح الجسد وسفك الدم الفعلي يوم الجمعة.

وهكذا يضع المسيح الفكر اليهودي أمام عهد جديد بفصح جديد، ليس بالمن ولا بلحم خروف مذبوح، ولكن بذبيحة نفسه التي هم مزمعون ومضمرون تقديمها، ليصير جسده ودمه هما عمل الله الجديد مع شعبه.

والميح يوضح بذلك لليهود أن المن الجديد الذي يطلبونه يستلزم عهدا جديدا سبق الرب وأعلن عنه بفم أنبيائه:

+ «لأنه يقول لهم لائماً هوذا أيام تأتي، يقول الرب، حين أكمل مع بيت إسرائيل ومع بيت يهوذا عهدا جديدا، لا كالعهد الذي عملته مع آبائهم يوم أمسكت بيدهم لأخرجهم من أرض مصر، لأنهم لم يثبتوا في عهدي وأنا أهملتهم، يقول الرب. لأن هذا هو العهد الذي أعهده مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام، يقول الرب، أجعل نواميسي في أذهانهم وأكتبها على قلوبهم، وأنا أكون لهم إلها وهم يكونون لي شعبا.» (عب٨: ٨-١٠)

وهكذا يقدم المسيح جسده ودمه لليهود المزعين أذ يذبحوه، كمن جديد وفصح جديد معا، للحياة وليس للموت بعد، حيث يصير دمه وثيقة عهد الله الجديد مع شعبه؛ وهذا يعبر عنه القديس بطرس الرسول في رسالته الثانية هكذا:

+ «كما أن قدرته الإلهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة (الأبدية) والتقوى، بمعرفة الذي دعانا بالمجد والفضيلة، اللذين بهما قد وهب المواعيد (العهد) العظى والحية، لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية.» (٢بط١: ٣-٤)

فحياة الآب والابن المتحدة، وهي صميم الطبيعة الإلهية، سلمها لنا المسيح في الجسد والدم، لنشترك فيها فنحيا

بالله وبالتقوى.

٥٨- هَذَا هُوَ الْخُبْزُ الَّذِي نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ. لَيْسَ كَمَا أَكَلَ آبَاؤُكُمُ الْمَنَّ وَمَاتُوا. مَنْ يَأْكُلْ هَذَا الْخُبْزَ فَإِنَّهُ يَحْيَا إِلَى الأَبَدِ.

وعودة المسيح على ذي بدء لنفس الآية التي انطلق منها ليشرح لليهود معنى الخبز الحقيقي النازل من السماء، هذا الذي يطلبونه بخداع البصر كأنه المن القديم، هذا الرجوع والذي يختم به المسيح شرحه المطول، يثبت أن نظر المسيح المثبت على اليهود المحاججين كما هو لم ينحرف، فهم كانوا من البداية إلى النهاية الهدف الذي سلط عليه كل إعلاناته. ولكن للأسف لم تكن لهم أذن تسمع، ولا عيون تبصر، فأباؤهم أكلوا المن وماتوا، وهم اشتهوا أن يأ كلوه، فما أكلوه، وما عاشوا.

فكان كلام المسيح عل آذانهم كلغز بقي بلا حل، أو بحسب قول المسيح نفسه: «لكم قد أعطي أن تعرفوا أسرار ملكوت الله، وأما للباقين فبأمثال حتى إنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يفهمون» (لو٨:١٠). وليمعن القارىء ملياً في كلمة «أسرار ملكوت الله»، لأنها هي هي موضوع حديثه في الجسد والدم، كما يلاحظ أن أسرار ملكوت الله تعبر عن العيون فلا تراها وعلى الآذن فلا تسمعها لأن سر الرب لمتقيه (أو لخائفيه) (مز٢٥:١٤). والذي يصدق أقوال الله وهي كلها تحمل سر الله، فالله يعلن له أسراره فيفهمها ويسر بها: «تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضا بأمثال، بل أخبركم عن الآب علانية» (يو١٦:٢٥)، وهذا تم بالحرف الواحد في عشاء الخميس، وفي يوم الخمسين.

«هذا هو الخبز»: في هذه الكلمة الصغيرة «هذا هو» يعبر الرب بشريط أقواله كلها من «الخبز النازل من السماء» إلى «من يأكلني يحيا بي»، والتي انتهى بها إلى، والتي تحوي في داخلها، سر موت الرب وقيامته. فالأكل يحمل، بقوة، معنى الذبيحة المذبوحة. «ويحيا بي» يحمل معنى القيامة والحياة. والاثنان معاً يحملان الشركة الكاملة السرية في فعل وقوة الفداء والخلاص. كما يطرحان، مسبقاً، سر الإفخارستيا الذي سيأتيه الرب في وقته.

كما يلاحظ القارىء أن كلمة «هذا هو» تجيء لتشير إشارة مباشرة ومنطبقة انطباقاً سرياً على قول المسيح «أنا هو». لأن الخبز النازل من السماء أصبح واقعاً حياً ملموساً مشخصاً في المتكلم، أي ابن الله الكلمة المتجسد الذي ذُبح فعلاً وقام وهو حي.

التعقيب على حديث الرب في مجمع كفرناحوم (٦:٥٩-٧١)

٥٩- قَالَ هَذَا فِي الْمَجْمَعِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي كَفْرِنَاحُومَ.

القديس يوحنا هو المتكلم الآن، وهو يعين المكان الذي تم فيه حديث المسيح الذي سبق أن سجله، أي في المجمع، ولم يكن ذلك أثناء العبادة ولكن في وقت التعليم. ومن الأمور التي تبهج القارىء أن بقايا آثار مجمع كفرناحوم هذا لا تزال قائمة بصورة حية جيلة في فلسطين، في الموضع المعروف «تل حوم» حيث وجد العالم ولسن أثناء حفرياته حجرا كبيرا محفورا عليه صورة وعاء المن.

والمعروف أن درس نزول المن كان ضمن خدمة الصباح في مجامع اليهود. والدروس في المجمع كانت تقام في أيام السبت والاثنين والخميس.

٦٠-٦٣: فَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْ تلاَمِيذِهِ إِذْ سَمِعُوا: «إِنَّ هَذَا الْكلاَمَ صَعْبٌ! مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَسْمَعَهُ؟». فَعَلِمَ يَسُوعُ فِي نَفْسِهِ أَنَّ تلاَمِيذَهُ يَتَذَمَّرُونَ عَلَى هَذَا فَقَالَ لَهُمْ: «أَهَذَا يُعْثِرُكُمْ؟ فَإِنْ رَأَيْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ صَاعِداً إِلَى حَيْثُ كَانَ أَوَّلاً. اَلرُّوحُ هُوَ الَّذِي يُحْيِي. أَمَّا الْجَسَدُ فلاَ يُفِيدُ شَيْئاً. اَلْكلاَمُ الَّذِي أُكَلِّمُكُمْ بِهِ هُوَ رُوحٌ وَحَيَاةٌ.

«الروح هو الذي يُحيي أما الجسد فلا يفيد شيئاً. الكلام الذي اكلمكم به هو روح وحياة«: المسيح يلح على العقل البشري أن لا يهبط بالإلهيات إلى مستوى التراب، ولقد كرر ذلك في كل حديث، ولكن ليس بنفس الهدف.

فأولاً مع نيقوديموس، كان الهدف هو الميلاد الجديد للانسان من فوق وبالروح، ولما عجز عن إدراك «الميلاد الثانيه» الروحي للانسان، اضطر المسيح أن يقول له: «المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح» (يو٣:٦). أما كيف يتم ذلك؟ فمن المستحيل على العقل البشري متابعته، كما لو أردت أن تتتبع ريحاً يهب، فأنت لا تعرف لا من أين تأتي ولا إلى أين تذهب، هكذا كل من وُلد من الروح، فأنت ترى فيه الواقع المتغير، أي الإنسان الروحي الجديد بالعقل الروحي الجديد، فتندهش، ولكن يعذر عليك الفحص.

وثانياً مع المرأة السامرية، كان الهدف أن يسقيها الماء الحي، أي الروح القدس، ولما تفكرت أنه ماء جسدي وعجزت عن إدراك شرب الماء الحي، طلب منها أن تتوب عن خطاياها التي كانت سر العجز، فلما تابت شربت من الماء الحي. ولكن كيف شربت؟ لا نعلم، الذي نعلمه أنها صارت مُبشرة بالخلاص، وقادرة أن تسقي الأخرين، لأن نبع المياه الحية اندفق في أحشائها.

وثالثاً مع الجليليين، أراد أن يطعمهم من خبز الحياة النازل من فوف ، فحسبوه مناَ، وعجزوا عن فهم خبز الحياة. طلب منهم أن يؤمنوا به أولا حتى يدركوا سر جسده المذبوح وسر دمه المسفوك اللذين هما خبز الحياة الأبدية، فلما عثروا، حتى تلاميذه عثروا، في كيفية أكل الجسد وشرب الدم، عاد مرة أخرى يقول إن كلامه على مستوى الروح وليس على مستوى الجسد. فهو أكل حق وشرب حق، أي أكل جسد روحي سماوي، وشرب دم روحي سماوي، وليس أكل جسد إنسان وشرب دم إنسان، بل هو أكل الكلمة في الجسد وشرب الروح في الدم، أما كيف يكون ذلك؟ فهذا ما لا يمكن أن يلاحقه العقل، تماماً كما لا يمكن أن يلاحق كيف صار الكلمة جسداً. هكذا وبنفس السرية يصير الإنسان بالأكل من الجسد والشرب من الدم إنساناً روحيا يتغذى بالروح وسر الكلمة، الكلمة الذي كان منذ البدء عند الله، الفعال في الخليقة، فلكي يكمل فعله في الخليقة البشرية، أخذ جسداً؛ وبدون هذا الجسد لم يكن ممكناً أن تبلغنا كلمة الله كفعل خلاص. فكلمة الله في ذاتها مخلصة، ولكنها لم تخلّص بالفعل إلا بالجسد والدم على مستوى الذبح وسفك الدم.

فاللاهوتيون وأصحاب الفكر القائل أن الأكل والشرب هما على مستوى الإيمان بالكلمة المقروءة والمبشر بها فقط، وليس بالخبز والخمر المتحولين، يتجاوزون سر التجسد كفعل حدث، و يتخطون عملية الذبح وسفك الدم كفعل حدث، هذه التي بها أدركنا سر الكلمة ابن الله!! أي أن الأكل من جسد المسيح والشرب من دم المسيح يستحيل أن يكون نظرياً تأملياً تصوفياً بالفكر أو حتى بالإيمان فقط. إن الأكل من الجسد والشرب من الدم ها شركة في فعل مأسوي عنيف، شركة في ألم وغصة موت وقيامة، وليس شركة في مبدأ إيماني يؤخذ بالفهم. فالله لم يخلص العالم

بالكلمة المنطوقة، بل بالكلمة المتجسدة المذبوحة.

إن قول الرب: «الكلام الذي اكلمكم بـه هو روح وحياة»، لا معنى لـه ولا قوة إلا بفعل الموت والقيامـة. «فالروح والحياة» لم يستعلنا لنا، ولن يستعلنا فينا إلا بشركة فعلية في الموت هذا عينـه، وفي القيامـة هذه عينها، وهذا لن يتم فينا إلا بأكل الجسد الذي فيه سر الموت وشرب الدم الذي فيه سر الحياة.

لذلك، وبالنهاية، يكون استعلان الحياة الأبدية هو بالكلمة الحية، وفي الفعل المحيي معاً، بلا تعارض أو تمييز.

أما سر الإفخارستيا الذي أسسه الرب في عشاء الخميس بالخبز والخمر، اللذين بث فيهما سر جسده ودمه، أي سر تجسده وذبحه، فقد جاء بعد أن أكمل المسيح استعلان الموت والقيامة في نفسه، مقدما جسده ودمه عطية حب مسبقة لأحبائه كخبز الحياة الأبدية، كحقيقة مطلقة لا بد أن تؤخذ أولا بحد ذاتها قبل أن تطبق على مادة سر الإفخارستيا. فالمسيح قدم الحقيقة المطلقة أولاً، ثم بعد ذلك أخضعها للممارسة العملية. فالإفخارستيا حقيقة مطلقة بقوة سر المسيح للممارسة عملياً.

وفي سر الإفخارستيا تتحد الكلمة المطلقة بالفعل المنظور: [... كل مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس، تبشرون بموتي وتعترفون بقيامتي] (القداس الإلهي).

الأكل ينشىء بشارة، والشرب ينشىء اعترافاً، وهكذا نشترك في حياة المسيح وموته بالسر والكلمة معاً، بالحقيقة المطلقة والفعل المنظور.

وليلاحظ القارىء أن المسيح لم يرد على نيقوديموس حينها سأله: «كيف يمكن أن يكون هذا» (يو٣:٩)، عن الميلاد من الروح، كما أنه لم يرد على اليهود عندما سألوا: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل»، لأن المسيح قصر استقلان الفعل السرائري، سواء في المعمودية أو الإفخارستيا فقط على الذين آمنوا بالكلمة. وكل ما استطاع المسيح أن يزيده شرحا هو قوله إن الكلام الذي يقوله «روح وحياة»، لأن الجسد، أي المادة، لا يفيد شيئاً بحد ذاته، ولكن الروح والحياة اللذين في الجد والدم يفيدان في كل شيء.

والقديس يوحنا تحاشى ذكر الطقس ليوفي الحقيقة الروحية المطلقة فهمها وعملها أولاً، وهو بذلك يحرس الطقس من أن يُبتر فيكون بشكله المادي نهاية بحد ذاته، فتسقط الكنيسة في أحد خطأين: الخطأ الأول أن تحسب المادة فعالة بحد ذتلها، والخطأ الثاني أن ينحصر سرالإفخارستيا في أن يكون مجرد رمز.

وللقديس أُغسطينوس شرح يفيد هذا المعنى إذ يقول: [وهكذا يريد المسيح أن يُفهم هذا الأكل وهذا الشرب على أنهما واسطة للشركة في جسده وأعضائه التي هي الكنيسة... فالسر في الإفخارستيا هو الوحدة في المسيح القائمة بين الجسد والدم اللذين يقدمان على مائدة الرب يوميا في بعض الكنائس وعلى فترات معينة في كنائس أخرى، واللذين يتناولهما البعض للحياة والبعض الآخر للهلاك. أما السر نفسه فهو مرضوع لحياة كل الناس وليس لهلاك أحد بالمرة لكل من يتناوله]

[هكذا فإن معنى أن يأكل الإنسان من الجسد وأن يشرب من الدم، هو أن يثبث في المسيح والمسيح يثبت فيه؛ وبالتال فإن كل من لا يثبت في المسيح والمسيح لا يثبت فيه، فهو بلا شك لم يأكل جسده ولا شرب دمه، بل إنه في الحقيقة أكل وشرب من سر عظيم بهذا المقدار لدينونة نفسه].

وهكذا جمع القديى أغسطينوس بين الحقائق المطلقة التي شرحها الرب وبين عمل السر في الإفخارستيا، وجعل الحقائق المطلقة حارسا لصحة السر وعمله.

وهنا نسمع أن كثيرين من تلاميذه قالوا: «هذا الكلام صعب من يقدر أن يسمعه»، لنتذكر دائما قول النبوة عند ميلاد المسيح على فم سمعان الشيخ: «ها إن هذا قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل، ولعلامة تقاوم.» (لو٢:٣٤)

لقد سقط هؤلاء الكثيرون من تلاميذه عن مستوى الروح والحياة. وكلمة «كثيرين» توضح الشبة بينهم وبين الاثني عشر، أي بين الذين يسقطون والذين يقومون في المسيح يسوع عل مستوى الإيماذ وتصديق الرب، وهي دائما نسبة محزنة. وهي ليست محزنة لأنها على المستوى العام فقط بل وعلى المستوى الخاص جدا، إذ هي قائمة بين المدعوين أيضا: «هكذا يكون الآخرون أولين والأولون أخرين. لأنأ كثيرين يدعون وقليلين يُنتخبون.» (١٦:٢٠)

لماذا؟؟ لأن الكثيرين يحكمون العقل والمنطق، والقليلون هم الذين يطيعون الإيماذ والكلمة ببساطة قلب، والعقل بطيعته يحكم حسب مقايس العالم، ويبدأ بفرح كاذب وينتهي بالحزن والتشاؤم (مت١٤:١٣-١٤)، أما القلب فيعيش بمقياس الروح، ويبدأ بالتسليم الهادئ وينتهي إلى الفرح والأبتهاج: «وإذ هم يكسرون الخبز في البيوت كانوا يتاولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب مسبحين الله وهم نعمة لدى جميع الشعب.» (أع٢:٤٦-٤٧)

«هذا الكلام صعب»: «صعب» تأتي في اليونانية بمعنى «التصلب» أى «يجف»، أو «ينشف»، وهذه الكلمة يفهمها الأطباء، إذ هي تستخدم لوصف الأوعية الدموية حينما تُصاب بالتصلب وعدم الليونة فتمنع مسيرة الدم فيها. فلو أضفنا إليها الكلمة التي جاءت بعدها: «من يقدر أن يسمعه»، فهذا يكمل المعنى بأن كلام المسيح لم يدخل مجاري أسماعهم، لأن آذانهم الروحية مسدودة ولم تنفتح بكل الكلام الروحي الذي قاله المسيح، والكلمة صارت ثقيلة على أذانهم وغير مقبولة، والنتيجة أنهم بدأوا يتذمرون، لأن: «من ليس معي فهو علي» (مت١٢:٣٠)، لن الاذن الطبيعية احتكرت العقل وامتلأت بمتطلبات الدنيا. أما صعوبة الكلمة التي انسدت آذانهم عن قبولها، فهي على مستويين مرتفعين:

الأول الذين سقطوا من دونه وهو: كيف أن «يسوع بن يوسف الذي نحن عارفون بأبيه وأمه» يكون نزل من السماء؟

والثاني: «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل» ودمه لنشرب؟

لهذا كان رد المسيح على الصعوبة الاولى هكذا: ماذا سيكون موقفكم حينما ترون ابن الإنسان صاعدا إلى السماء حيث كان أولا ومن حيث نزل؟

والمستوى الثاني الذي سقطوا منه وعثروا فيه كان رده عليه أن الجسد المأكول ليس لحما بشريا، بل جسداً إلهياً حقيقياً يؤكل بالحق أي بالروح (في الصورة التي سيعطيها، أي الخبز)، والدم ليس دماً بشرياً بل هو دم بروح أزلي يُشرب بالروح (في الصورة التي يعطيها، أي الكأس)، لأن أكل الجسد بالجسد لا يفيد شيئا، ولكن الأكل الروحي للجسد بالروح يُحيي.

وقد عقب المسيح على ما قاله فيما يخص الأكل والشرب، بأنه على مستوى الروح والحياة ويوصل إليهما، وهما كأساس للروح يُبنى عليه القلب ويرتفع، أما العقل أو الجسد فلا يستطيع أن يبلغ إليهما.

ويلاحظ القارىء أن المستوى الأول الذي أنشأ صعوبة عند التلاميذ المزيفين يختص بنزول المسيح من السماء، وهذا يفيد التجسد الإلهي وهو حجر الأساس في بناء الإيمان، أما المستوى الثاني الذي أعثرهم والذي يختص بالأكل من الجسد والشرب من الدم، فيفيد الفداء والخلاص، وهو جوهر الايمان وتاجه.

«فإذ رأيتم ابن الإنسان صاعدا إلى حيث كان أولاً»: هذه هي المرة الاولى التي يذكر فيها إنجيل القديس يوحنا «صعود» الرب باللفظ الواضح، إذ لم يذكر إنجيل القديس يوحنا صعود الرب إلا بعد قيامته، حينما قال للمجدلية: «...اذهبي إلى إخوتي وقولى لهم إني أصعد إلى أبي وأبيكم والهي وإلهكم.» (يو٢٠:١٧)

أما إغفأل ذكره حادثة الصعود ذاتها في الرواية، بعد القيامة فلأن الأناجيل الأخرى استوفت شرحها كرواية. بينما اهتم القديس يوحنا بالآيات والإعلانات التي لم تذكرها الأناجيل الأخرى، واستوفى الشرح اللاهوتي للصعود مرارا وتكرارا في قول المسيح إنه نزل من السماء، والذي نزل سيصعد حتماً:

+ «وليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو٣:١٣)

+ «أنا معكم زمانا يسيرا بعد ثم أمضى إلى الذي أرسلني.» (يو٧:٣٣)

+ «أما يسوع قبل عيد الفصح وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب...» (يو١٣:١)

+ «أنا أمضى لاعد لكم مكاناً.» (يو١٤:٢)

+ «وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق.» (يو١٤:٤)

+ «لأني ماضى إلى أبي.» (يو١٤:١٢)

+ «سمعتم أني قلت لكم أنا أذهب ثم آتي إليكم.» (يو١٤:٢٨)

+«وأما الآن فأنا ماضى إلى الذي أرسلني ... إنه خير لكم أن أنطلق، لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي.» (يو١٧:٥-٧)

+ «... فلأني ذاهب إلى أبي ولا تروني أيضاً.» (يو١٦:١٠)

+ «خرجت من عند الآب وقد أتيت إلى العالم، وأيضا أترك العالم وأذهب إلى الآب.» (يو١٦:٢٨)

+ «ولست أنا بعد في العالم، وأما هؤلاء فهم في العالم، وأنا آتي إليك.» (يو١٧:١١)

+ «وأما الآن فإني آتي إليك.» (يو١٧:١٣)

هنا يعطينا إنجيل القديس يوحنا رؤية لاهوتية عميقة ومبدعة عن «معنى» الصعود «وقوته».

فمعنى الصعود لاهوتياً: هو أن النزول، أي التجسد، رسالة مؤقتة (زماناً قليلاً) انتهت تماماً بالصليب، وهي خاصة بابن الله المتجسد وحده: «ليس أحد صعد ... إلا الذي نزل» (يو٣:١٣). والصعود تكميل للنزول. أما الإقامة الدائمة فهي في السماء: «ابن الإنسان الذي هو في السماء.» (يو٣:١٣)

والنزول تحقيق فعلي وعملي مُبدع من جهة الله في مشاركه الإنسان: «حل بيننا» (يو١:١٤)؛ »اسمه عمانوئيل. الذي تفسيره الله معنا.» (مت١:٢٣)

أما قوة الصعود: فهي في ارتباطه بإرسال الروح القدس الذي حل محل المسيح وكمل عمله، وكان الشرط الوحيد والأساسي لإرسال الروح القدس هو صعود المسيح، إذ أن صعود المسيح كان جزءاً أساسياً لتكميل الخلاص. علماً بأن الصعود كان قوة روحية هائلة فكت آسر المقيدين بالروح: «سبى سبياً وأعطى الناس عطايا» (أف٤:٨)، كما أنه بالصعود تم إعداد مكان لنا في أقداس الله العليا: «دخل مرة واحدة إلى الأقداس فوجد فداء أبدياً» (عب٦:٢٠ و٩:١٢)، بل وفتح طريقا ملوكياً صاعداً إلى السماء: «وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق» (يو١٤:٤)، «طريقاً كرسه لنا حديأً حيا بالحجاب، أي جسده.» (عب١٠:٢٠)

لذلك، فقوة الصعود أصبحت هبة لنا، حتى أننا نحسب بالإيمان أنه أصعدنا معه وأجلسنا معه في السماويات

(أف٢:٦)، والذي يقرأ الأصحاحين الأول والثاني من سفر الأعمال يشعر بقوة الصعود وكيف ألهبت قلوب التلاميذ لينطلقوا في الصلاة استعدادا لقبول الروح القدس لبدء كرازة العالم!!

وأخيرا، فإن صعود الرب أثبت لاهوت المسيح، أولاً لأن الرب كان يعلم بالصعود وتحدث عنه، كالنزول تماماً، أي أنه كان عنده جزءاً أساسياً في خطة الخلاص، وثانياً صعوده بالجسد بعد الموت والقيامة استعلن به مجده الإلهي وأثبت به أن نزوله وتجسده كان حقيقة خلاصية. وصعوده بقوة لاهوته وسلطانه تميز عن صعود إيليا بأن قيل عن إيليا أنه «صعد بواسطة الرب»، وبأن ذلك تم في مركبة أُرسلت إليه لتحمل ثقله البشري أو ثقل خطاياه، وأن هذه المركبة كانت نارية للتطهير ليؤهل للدخول في عالم الأرواح المبررة (٢مل٢:١-١١).

كذلك، فإن صعود المسيح إلى فوق كان إشارة إلى البركة العظمى التي وهبها للعالم، كما كان إشارة مبدعة إلى أنه جعل أعداءه تحت قدميه. كما كان صعوده، بحسب تعليمات الملائكة للتلاميذ، إشارة وآية عظمى أنه كما صعد هكذا سوف يأتي أيضاً في مجده ومجد أبيه (لو٩:٢٦)؛ ونحن بهذا ننتظر مجيئه بفارغ الصبر في رجاء حار صادق، «نعم ... آمين تعال أيها الرب يسوع.» (رؤ٢٢:٢٠)

٦٤:٦٦ وَلَكِنْ مِنْكُمْ قَوْمٌ لاَ يُؤْمِنُون، لأَنَّ يَسُوعَ مِنَ الْبَدْءِ عَلِمَ مَنْ هُمُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ وَمَنْ هُوَ الَّذِي يُسَلِّمُهُ، فَقَالَ: «لِهذَا قُلْتُ لَكُمْ إِنَّهُ لاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يُعْطَ مِنْ أَبِي». مِنْ هَذَا الْوَقْتِ رَجَعَ كَثِيرُونَ مِنْ تلاَمِيذِهِ إِلَى الْوَرَاءِ وَلَمْ يَعُودُوا يَمْشُونَ مَعَهُ.

المسيح يوجه الكلام هنا إلى مجموعة كبيرة من تلاميذه، ربما السبعين الذين كان منهم القديسان مرقس ولوقا[٧]، ويفرزهم بعينه الفاحصة كاشفاً الذين لا يؤمنون به أمام ضمائرهم. لأن تذمرهم السابق وعدم إيمانهم كانا في داخل قلوبهم وغير معلنين. ولكن من العسير أن يخادع الإنسان الله. فالمسيح هنا يعلن لاهوته من خلال درايته بالقلوب وما تخفيه. فلما واجههم المسيح بحقيقة ضمائرهم، لم يستطيعوا أن يستمروا في مسيرتهم الكاذبة مع الرب، فكشفوا نيتتهم بأن تركوه علنا، ولم يعودوا يسيرون معه، بل رجعوا إلى الوراء وساروا في طريقهم. وما ألعنها مسيرة! «وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم أسلمهم الله إلى ذهن مرفوض.» (رو١:٢٨)

والمسيح هنا يعود فيكرر أمام تلاميذه عامة أنه لا يجمع تلاميذه جزافاً؛ ولا أحد يأتي إليه من ذاته، بل إن كان المسيح يختار أحداً فإنه يختار الذي دعاه الآب، وإن كان أحد يأتي إليه فهو الذي يجذبه الآب. لذلك فالمسيح غير آسف على المفقود وغير خائف على الموجود. فالمفقود ليس من نصيبه أصلاً، والموجود لا يستطيع أحد أن يخطفه من يده لأنه أخذه من يد الآب!

وبسبب علم المسيح بالذي له وبالذي ليس له، لم يكن يمالىء ولم يكن يهادن، ولا يترجى ولا يسترضي، فكانت كلمته دائماً أمضى من كل سيف ذي حدين، تدخل إلى مفارق النفس والروح، وتميز أفكار القلب ونياته (عب٤:١٢).

«من هذا الوقت رجع كثيرون من تلاميذه إلى الوراء، ولم يعودوا يسيرون معه»: يا حسرة البشرية كلها على هؤلاء التلاميذ. كيف صاروا عارا على سيرة الحب والوفاء.

اسمع ما قيل عن حب المسيح لتلاميذه: «... إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم، أحبهم إلى المنتهى.»

---

[7] يقول هيبوليتس الإسكندري أن القديس مرقس والقديس لوقا كانا من السبعين رسولا

(يو١٣: ١)

الآن نحن نعلم أن الرب كان يتكلم معهم من مصدر الحق الإلهي، كان يدعوهم إلى شركته في الآب أن يكونوا واحداً معه في مسيرة الحياة الأبدية، كان يعرض عليهم سر أكله وشربه بالروح لإتحاد أبدي، كان يكشف لهم عمق أعماق أسرار الله ليكونوا، لا علماء ولا خبراء فيها فحسب، بل وشركاء، شركاء لا في معرفته بل شركاء في الطبيعة الإلهية بكل مذخراتها ومواهبها لبني الإنسان. لم يكن يفرض نفسه للأكل والشرب من مستوى الأسياد والعظماء حينما يدعون العبيد لحرية مقيدة، بأن يأكلوا معهم على مائدتهم تكريماً لهم، بل كان يدعوهم من المستوى الأقل، من مركز الخدم والعبيد. «... آخذاً صورة عبد» (في٢: ٧)، ويدعوهم ليكونوا شركاء معه في مجد الالوهية: «وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني» (يو١٧: ٢٢). أعطى مجده في اتضاع العبيد، في وداعة الخدام، في دموع التوسل: «قام عن العشاء وخلع ثيابه (ثياب الكرامة) وأخذ منشفة واتزر بها (على وسطه كعبد) ثم صب (بيده) ماء في مغسل (طشت)، وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها (أيضاً) بالمنشفة التي كان مئتزراً بها ... فلما كان قد غسل أرجلهم ... قال لهم: أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأني أنا كذلك، فإن كنت وأنا السيد والمعلم قد غسلت أرجلكم، فأنتم يجب عليكم أن يغسل بعضكم أرجل بعض.» (يو١٣: ٤-١٤)

ولكن التلاميذ لم يستحسنوا كلام المسيح وقرروا أن يقطعوا علاقتهم به، وعادوا إلى الوراء إلى سيرتهم الاولى وفضلوها على سيرته، لأنها أصبحت ثقيلة على قلوبهم، وصارت تكلفهم خسارة أرباحهم المعنوية والمادية:

بعضهم كانت علة دوافعهم كرامة وعادات وتقاليد، واخرون كانت دوافعهم مالية وأرباحاً من الحرام والممنوعات، وآخرون كانت غير ذلك، وآخرون وآخرون، هذه الدوافع كانت مخفية في قاع القلب تنتهز العلل والمسوغات التي تبرر الترك. فمالهم والتواضع والمحبة، ومالهم والتوبة المكلفة، ومالهم للدخول في أسرار الله ومواهب الروح، ومالهم وتكاليف القداسة وربح الحلال الضيق! لقد ظنوه في البداية غنيمة يغتنمون من ورائها المزيد من الأرباح والكرامات والجلوس عن اليمين واليسار في ملكه الذي توهموه وجاهدوا من أجله. وهوذا الآن يعرض عليهم موته وذبيحته وتقديم جسده وشرب دمه، فهل هذا هو ما يخرجون به من الغنيمة؟

وبعد عشرة قصيرة كان هذا الفراق الحزين والمؤلم على قلب المعلم، لم يتركهم بل هم الذين تركوه، حتى يهوذا لم يطرده الرب بل احتمله بصبر فائق حتى آخر الطريق وإلى أن طرد نفسه، فقد قال الرب مرة: «ومن يقبل إلي لا أخرجه خارجاً» (يو٦: ٣٧). ولكن إن كان ترك المسيح هكذا يبدو سهلا هيناً، فالخسارة فادحة عليهم وعلى أولادهم وإلى الأبد.

«ومن تلك الساعة»: وما أشقاها ساعة! إنها ساعة بؤس في يوم رفض، لا تزال تتكرر وتُذكر حتى هذه الساعة. إنها ساعة لعنة في تاريخ المؤمنين الذين يبيعون الرب والايمان بلا ثمن أوبثمن بخس، وبخس للغاية.

٦٧- فَقَالَ يَسُوعُ لِلاِثْنَيْ عَشَرَ: «أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً تُرِيدُونَ أَنْ تَمْضُوا؟».

٦٨- فَأَجَابَهُ سِمْعَانُ القديس بطرس: «يَا رَبُّ إِلَى مَنْ نَذْهَبُ؟ كلاَمُ الْحَيَاةِ الأَبَدِيَّةِ عِنْدَكَ.

السؤال هنا الذي يسأله المسيح للاثني عشر هو سؤال استنكاري، يستفز به حرية الرأي والإرادة فيهم. ومعلوم أن الرد عليه سيكون بالنفي، مما يفيد أن الرب يسأله لطرح الحرية أمام الاختيار حتى يستوثق كل واحد فيهم من موقفه وأمام نفسه، لأنه، في الواقع وعين الأمر، كان يوجد بينهم من هو مهيأ للسقوط، ومن هو ساقط بالفعل، فالقديس بطرس لولا مساندة الرب له في اللحظة الحرجة لهوى وصار كنجم سقط، أما يهوذا حامل الصندوق، أو

بلغة الزمن الحاضر، مدير الادارة المالية أو أمين الخزانة لزمرة التلاميذ، فكان يسرق أولا بأول ما يقع في الصندوق، والذي يسرق يبيع دائما بأرخص الثمن، فقد باع معلمه بحصيلة يوم أو يومين.

«يا رب إلى من نذهب، كلام الحياة الأبدية عندك»: في الحقيقة، كان رد القديس بطرس ليس تماما ردا على سؤال المسيح، بل كان هو الرد الحاسم القاسم على جحود التلاميذ الذين رجعوا إلى الوراء ولم يعودوا يسيرون معهم ولا مع معلمهم. وكأنما رأهم داود النبي من وراء الزمن وتكلم بلسانهم: «هذا كله جاء علينا وما نسيناك ولا خنا في عهدك، لم يرتد قلبنا إلى وراء ولا مالت خطوتنا عن طريقك.» (مز ٤٠:١٧-١٨)

لقد كانت شهادة القديس بطرس أقوى شهادة نطق بها التلاميذ، وقد جاءت متوافقة مع فكر المسيح، ولو أنها لا تدخل إلى عمقه. فقد جاءت بما يتناسب مع حاجتهم، فقد رأوا في المسيح كنز الحياة الأبدية الذي لا يفرغ؛ وليس مجرد الكلمات أو الحديث في ذاته؛ ولكنه الكلام المؤدي إلى الحياة الأبدية الذي شعرت به قلوبهم ووثقوا منه بعقولهم، فنطقت به أفواههم.

ويلاحظ أن رد القديس بطرس بهذه الأية: «كلام الحياة الأبدية عندك»، هو مستمد من قول المسيح «الكلام الذى أكلمكم به هو روح وحياة»، «من يسمع كلامي... فله الحياة الأبدية» (يو٦:٦٣، ٥:٢٤) كما هو رد مفحم على التلاميذ الذين خانهم إيمانهم واعتبروا أن كلام المسيح صعب. كما هو أيضا رد يؤمن به القديس بطرس تأمينا مباشرا على ما أعلنه الرب أنه «خبز الحياة» المعطي الحياة الأبدية، كما هو«ماء الحياة» ونورها.

وعلى هذا الأساس: «إلى من نذهب» إن كان هو الوحيد الذي يقود إلى الحياة الأبدية، فهنا إشارة مويخة ومستهينة برجوع بعض التلاميذ إلى الوراء، كما هي إشارة إلى فكر الجليليين الذين يطلبون نبيا يكون على مستوى موسى ويعطيهم المن من السماء.

وهكذا يضع القديس بطرس المقارنة المستحيلة بين المسيح وبين أي آخر. فكلام المسيح في نظر القديس القديس بطرس يشهد للمسيح أنه هو هو وليس آخر الذي ينبغي أن يُذهب إليه، او بلغة المسيح: «يأتي إلي»، الذي في موضع أخر يترجمه القديس القديس بطرس الرسول هكذا: «ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك» (لو١٨:٢٨)، وبهذه الآية كان القديس بطرس الرسول يمهد لبقية اعترافه:

٦٩- وَنَحْنُ قَدْ آمَنَّا وَعَرَفْنَا أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الْحَيِّ».

لا يزال القديس القديس بطرس يتكلم بلسان التلاميذ، لأنه كان أكثرهم اندفاعاً وحرارة، ولو أنه ليس أكثرهم إيمانا أو محبة للمسيح. و يلاحظ أن القديس القديس بطرس يضع الإيمان والمعرفة في موضعهما الصحيح، فالإيمان باعتباره تصديق الله ببساطة قلب بدون محاورة العقل يأتي أولا، ومنه يستمد السلوك طبيعته المتواضعة والأمينة. كما يستضيء العقل الروحي بنور المعرفة فيبلغ به الإيمان حد العمل كشهادة، وحد الرؤيا العقلية فيتواجه مع الحق الإلهي، وهنا يبلغ الإيمان اليقين.

ولم يكن هذا المبدأ الإيماني عند القديس بطرس مجرد فكر عارض بل نسمعه بعد ذلك بسنين كثيرة يشرح هذا المبدأ عينه في رسالته الثانية: «ولهذا عينه، وأنتم باذلون كل اجتهاد، قدموا في إيمانكم فضيلة (عمل) وفي الفضيلة معرفة (رؤية مستنيرة).» (٢بط١:٥)

والرب يسوع يؤمن على هذا بقوله: «وهم قبلوا (آمنوا) وعلموا يقيناً (بالسلوك والفكر) أني خرجت من عندك» (يو١٧:٨). وبولس الرسول يؤكد ذلك جاعلا القلب مخزنا للايمان والفم مخرجا للمعرفة والشهادة: «لأن القلب يؤمن

به للبر، والفم يعترف به للخلاص.» (رو ١٠:١٠)
هذا المبدأ يتنكر له كثير من علماء الكتاب المقدس، مع أنه هو المفتاح السري الذي إذا استهان به الإنسان شق عليه الإيمان البسيط الفعال وسقط عن المعرفة الصحيحة المستنيرة بالروح. علماً بأنه قد تجيء كلمة «االمعرفة» قبل كلمة «الإيمان» في بعض مواضع الآنجيل، وهذا لا يقلل من أهمية اشتراكهما معا في بلوغ الحق الإلهي، فلا معرفة بدون إيمان ولا إيمان بدون معرفة.
وقول القديس بطرس: «أنت المسيح، ابن الله الحي»، هي شهادة ذات وزن عال، لأنها تجيء بعد خيانة الجزء الأكبر من التلاميذ، كما تجيء بعد أن أعلن المسيح عن هدف مجيئه، وهو الموت الذي يعتبر في نظر القديس بطرس إخفاقا شديدا للرجاء الذي وضعه القديس بطرس والتلاميذ أن يكون المسيح ملكا يحكم ويسود ويعطيهم نصيبهم في الحكم. فهذه الشهادة لا تأتي مجاملة ولا من أجل رجاء كاذب، بل عن يقين. ومضمون هذه الشهادة هو أن التلاميذ قبلوا المسيح وآمنوا به وتبعوه بإخلاص، فعلموا بالخبرة والواقع أنه هو المسيح ابن الله، أو قدوس الله، كما جاءت في بعض المخطوطات، و«قدوس الله» تأتي في فم المسيح كأساس للتعرف عليه: «فالذي قدسه الآب وأرسله إلى العالم أتقولون له إنك تجدف لأني قلت إني ابن الله.» (يو ١٠:٣٦)
وتأتي الصفتان معا في فم الملاك المبشر: «فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظلك، فلذلك أيضا القدوس المولود منك يدعى ابن الله» (لو ١:٣٥)
فـ «قدوس الله» هي صفة المسيح الاولى التي يمكن أن تبنى عليها كل الصفات الإلهية الأخرى، من جهة إرساله إلى العالم أو كشف سر تجسده أو كشف سر بنوته لله.
ويلاحظ أن المسيح خاطب الله بـ «الآب القدوس» (يو١٧:١١). فهنا، إذ يلقب القديس بطرس المسيح بـ «قدوس الله» يضعه في موضع المساواة في الكرامة والقداسة مع الآب من حيث الطبيعة الواحدة للآب وللمسيح (القداسة).
وفي سفر الرؤيا يلقبه الوحي: «هذا يقوله القدوس الحق الذي له مفتاح بيت داود...» (رؤ٣:٧)، وكلمة «قدوس» هي مدخل إلى طبيعة الله واستعلان الصلة بصميم هذه الطبيعة. فتسمية «قدوس الله» للمسيح هي تأكيد لطبيعة المسيح المعلنة لطبيعة الله، واستعلان لصلة المسيح بالله كواحد معه، وصفة هذه القدوسية في المسيح هي فريدة لشخصه التي جاء ليعطيها لتلاميذه والمؤمنين به بذبيحة نفسه، ليشتركوا بجسده ودمه في هذه القداسة.
ومرة أخرى يرد القديس بطرس على المستوى الإلهي العميق الذي يتكلم منه المسيح، فالقديس بطرس حينها قال: «أنت هو» فهو يجيب إجابة مباشرة على قول المسيح: «أنا هو»، وهي اسم ذات الله، فالمسيح يقولها ليستعلن بها نفسه والآب، بهذا المعنى يكون كلام القديس بطرس صحيحاً وواقعيا؛ حينما قال: «نحن قد آمنا وعرفنا»، فهنا كلمة «عرفنا» التي تجيء باليونانية (   ) تتضمن معرفة الاستعلان وكشف الحقيقة التي أظهرها القديس بطرس.
وعلى كل حال، فإن شهادة القديس بطرس الرسول توضح الثقة المطلقة والأمانة والتبعية للمسيح، هذا ما أراد أن يعلنه القديس بطرس للمسيح، مؤكدا أن كل كلامه عن الحياة الأبدية قد صار هو أكلهم وشربهم بالفعل. وهكذا ألقيت النار على الأرض لكي تحرق وتنير، تحرق الأفكار والنيات التي تغتذي على الظلمة فترتد، وتنير وتبهج القلوب التي تسعى نحو النور فتمتد.
٧٠- أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَلَيْسَ أَنِّي أَنَا اخْتَرْتُكُمْ الاِثْنَيْ عَشَرَ؟ وَوَاحِدٌ مِنْكُمْ شَيْطَانٌ!».
٧١- قَالَ عَنْ يَهُوذَا سِمْعَانَ الإِسْخَرْيُوطِيِّ لأَنَّ هَذَا كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يُسَلِّمَهُ وَهُوَ وَاحِدٌ مِنَ الاِثْنَيْ عَشَرَ

وحتى بعد رجوع كثيرين من التلاميذ إلى الوراء فلا يزال في حظيرة الاثني عشر ذئب، ليس مرتدا إلى الوراء فحسب بل وجاحد وخائن أيضا، إذ وهو يمارس التلمذة مع التلاميذ كان يمارس وظيفة الجاسوس للذي يدبر عملية التسليم. أمر مؤلم وفظيع. فلولا طبيعة قلب الرب وعطفه على التلاميذ بلا استثناء لأفرز هذا الخائن منذ اللحظة الاولى، فالتلاميذ كانوا متيقظين له واكتشفوا ممارسته لرقة الصندوق أولا بأول، فكانوا يعضون على نواجذهم، ولكن لم يجرؤ أحد أن يفاتح المسيح بحقيقة هذا التلميذ الخائن، ولا المسيح نفسه شاء أن يفضح سره وسريرته، بالرغم من أنه كان يعلم منذ البدء من سيسلمه!!

فبعد ما أعلن القديس بطرس بحماس وشجاعة عن إيمان الجماعة وثقة الاثني عشر، لم ينساق الرب وراء هذه الشهادة، لأنها لم تكن تخص إلا أحد عشر فقط! فأراد أن يصحح الشهادة، لا من حيث مضمونها، ولكن من حيث من يحملها ويمثلها منهم!

وحينما قال الرب ردا على اعتراف القديس بطرس: «أليس إني أنا اخترتكم الاثني عشر»، لم يقصد العدد في مفرداته ولكن كان يصور إسرائيل الجديد في بطن الكنيسة، فالتصوير كامل من حيث مضمون العهد، والعهد لا يقوم على الأفراد، لذلك لما سقط الخائن ومات بيد نفسه لم يفرق شيئا، إذ انتخب التلاميذ من يلحم العدد على أصله، فـ «الاثني عشر» عدد لا يحوي عدداً، بل يحوي كنيسة ذات رأس واحد لجسد واحد، ولكن الألم الذي كان يعتصر قلب المسيح، وهو يشير إل خائن من وسط تلاميذه الأخصاء، كان واضحا في كلماته: «أليس إني اخترتكم»، فهو يشير بحزن شديد إلى براءة قلبه وضميره، وإلى حبه الشامل الكامل الذي لا يتوقف في عمله وقصده ذلك كله أمام خائن وهو يستمع. لقد اختار يهوذا ليُظهر فيه منتهى حبه المجاني الذي يقوم على عدم انحيازه للصالح دون الطالح: «أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بما لي أم عينك شريرة لأني أنا صالح» (مت٢٠:١٥)

المسيح حينما أطاع الله الآب حتى إلى الموت، موت الصليب، كان يُظهر في طاعته صفة البنوة الفريدة، ولكن حينما احتمل المسيح خيانة يهوذا كل يوم حتى الذبح، كان يُظهر في احتماله صبر الله على الخطاة.

أعمال كثيرة عملها المسيح في الظاهر والخفاء استعلن فيها صفات الألوهية والنبل البشري معا، التي كانت تلتحم في انسجام بديع، ولكن احتماله ليهوذا سنين طويلة حتى إلى يوم العشاء، وهو يعلم أنه سيسلمه كان من روائع صفات الكلمة المتجسد!!

ولكن طول أناة المسيح عل التلميذ الخائن كانت تذخر له غضبأ يوم الغضب واستعلان دينونة عادلة، دون أن يغضب المسيح أو يندم أو يدين.

+ «والذي سلمني إليك له خطية أعظم.» (يو١٩:١١)

+ «أما أنا فلست أدين أحداً» (يو٨:١٥)

+ «وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه، لأني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم. من رذلني ولم يقبل كلامي فله من يدينه، الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير» (يو١٢:٤٧-٤٨)

«وواحد منكم شيطان» = واحد من الأخصاء التابعين.

لو كان يهوذا قد ارتد إلى الوراء مع المرتدين ومعه الصندوق، لكان هذا له أكثر شرفا وأقل نقمة!!

ولكنه استمرأ بساطة روح التلاميذ وطيبة قلب المعلم!! وصار في موكب القديسين حاملاً عاره داخل صندوق!!

«وكان الصندوق معه وكان يحمل ما يُلقى فيه» (يو١٢:٦)

كان عمل الشيطان منذ بدء خدمة المسيح أن يرد المسيح إلى الوراء: «أعطيك هذه جيعها إن خررت وسجدت لـى» (مت ٤: ٩)، «فقال له يسوع اذهب يا شيطان» (مت ٤: ١٠)، فذهب الشيطان مدحوراً.

ولكن يهوذا بإغراء الفضة خر وستد، فدخله الشيطان وصال به وجال، وتبع المعلم مع التابعين، وحبك الخطة مع رؤساء الكهنة وقضاة روما ... «فبعد اللقمة دخله الشيطان. فقال له يسوع: ما أنت تعمله فاعمله بأكثر سرعة.» (يو ١٣: ٢٧)

كان يسوع يرى يهوذا في اتفاق وترد مع الشيطان، ملتصقا به على الدوام، فلم يشأ أن يفرق بين عمل هذا وعمل ذاك، لأنهما صارا واحداً، فكان من حق المسيح أن يسمي يهوذا بالشيطان.

وحتى القديس بطرس نفسه لما أراد أن يُثني المسيح عن مشيئة الآب في قبول الصليب، الذي من أجله كان قد جاء، نظر الرب فرأى القديس بطرس ملتحفاً بالشيطان وقد تبخرت منه ادعاءات الإيمان، فلم يتردد الرب أن يخاطب الشيطان فيه: «فالتفت وقال لبطرس: اذهب عني يا شيطان أنت معثرة لي لأنك لا تهتم بما لله لكن بما للناس» (مت ١٦: ٢٢-٢٣). ولكن القديس بطرس، بالكاد، فلت من قبضة الشيطان بسبب «بقية» إيمان: «ولكني طلبت من أجلك لكي لا يفنى إيمانك» (لو ٢٢: ٣٢). ولكن يهوذا لم يكن له إيمان البقية.

ولكن تبقى إشارة المسيح الحزينة «واحد مكم»، ذات مفزى، لم يعين الرب من هو هذا الواحد الذي سيخون، فكان على كل واحد يتبع الرب في كل زمان ومكان أن يفحص نفسه! وخاصة حاملي الصناديق!!

وهكذا ينتهي أصحاح خبز الحياة الذي سيُبذل عن حياة العالم، بالإشارة إلى الموت المزمع أن يكون، والإشارة أيضا إلى أن هذا الموت هو بسبب عدم الإيمان الذي حتماً ينتهي إلى خيانة!!

تم فى ٢٠١٧/٥/٣١

الأصحاح السابع

وَكَانَ يَسُوعُ يَتَرَدَّدُ بَعْدَ هَذَا فِي الْجَلِيلِ لأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَتَرَدَّدَ فِي الْيَهُودِيَّةِ لأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ. وَكَانَ عِيدُ الْيَهُودِ عِيدُ الْمَظَالِّ قَرِيباً. فَقَالَ لَهُ إِخْوَتُهُ: «انْتَقِلْ مِنْ هُنَا وَاذْهَبْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ لِكَيْ يَرَى تلاَمِيذُكَ أَيْضاً أَعْمَالَكَ الَّتِي تَعْمَلُ. لأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَعْمَلُ شَيْئاً فِي الْخَفَاءِ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ علاَنِيَةً. إِنْ كُنْتَ تَعْمَلُ هَذِهِ الأَشْيَاءَ فَأَظْهِرْ نَفْسَكَ لِلْعَالَمِ». لأَنَّ إِخْوَتَهُ أَيْضاً لَمْ يَكُونُوا يُؤْمِنُونَ بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «إِنَّ وَقْتِي لَمْ يَحْضُرْ بَعْدُ وَأَمَّا وَقْتُكُمْ فَفِي كُلِّ حِينٍ حَاضِرٌ. لاَ يَقْدِرُ الْعَالَمُ أَنْ يُبْغِضَكُمْ وَلَكِنَّهُ يُبْغِضُنِي أَنَا لأَنِّي أَشْهَدُ عَلَيْهِ أَنَّ أَعْمَالَهُ شِرِّيرَةٌ. اِصْعَدُوا أَنْتُمْ إِلَى هَذَا الْعِيدِ. أَنَا لَسْتُ أَصْعَدُ بَعْدُ إِلَى هَذَا الْعِيدِ لأَنَّ وَقْتِي لَمْ يُكْمَلْ بَعْدُ». قَالَ لَهُمْ هَذَا وَمَكَثَ فِي الْجَلِيلِ. وَلَمَّا كَانَ إِخْوَتُهُ قَدْ صَعِدُوا حِينَئِذٍ صَعِدَ هُوَ أَيْضاً إِلَى الْعِيدِ لاَ ظَاهِراً بَلْ كَأَنَّهُ فِي الْخَفَاءِ. فَكَانَ الْيَهُودُ يَطْلُبُونَهُ فِي الْعِيدِ وَيَقُولُونَ: «أَيْنَ ذَاكَ؟». وَكَانَ فِي الْجُمُوعِ مُنَاجَاةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ نَحْوِهِ. بَعْضُهُمْ يَقُولُونَ: «إِنَّهُ صَالِحٌ». وَآخَرُونَ يَقُولُونَ: «لاَ بَلْ يُضِلُّ الشَّعْبَ». وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَتَكَلَّمُ عَنْهُ جِهَاراً لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ. وَلَمَّا كَانَ الْعِيدُ قَدِ انْتَصَفَ صَعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْهَيْكَلِ وَكَانَ يُعَلِّمُ. فَتَعَجَّبَ الْيَهُودُ قَائِلِينَ: «كَيْفَ هَذَا يَعْرِفُ الْكُتُبَ وَهُوَ لَمْ يَتَعَلَّمْ؟». أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «تَعْلِيمِي لَيْسَ لِي بَلْ لِلَّذِي أَرْسَلَنِي. إِنْ شَاءَ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ مَشِيئَتَهُ يَعْرِفُ التَّعْلِيمَ هَلْ هُوَ مِنَ اللَّهِ أَمْ أَتَكَلَّمُ أَنَا مِنْ نَفْسِي. مَنْ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ يَطْلُبُ مَجْدَ نَفْسِهِ وَأَمَّا مَنْ يَطْلُبُ مَجْدَ الَّذِي أَرْسَلَهُ فَهُوَ صَادِقٌ وَلَيْسَ فِيهِ ظُلْمٌ. أَلَيْسَ مُوسَى قَدْ أَعْطَاكُمُ النَّامُوسَ؟ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَعْمَلُ النَّامُوسَ! لِمَاذَا تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي؟». أَجَابَ الْجَمْعُ: «بِكَ شَيْطَانٌ. مَنْ يَطْلُبُ أَنْ يَقْتُلَكَ؟». فَقَالَ يَسُوعُ لَهُمْ: «عَمَلاً وَاحِداً عَمِلْتُ فَتَتَعَجَّبُونَ جَمِيعاً. لِهَذَا أَعْطَاكُمْ مُوسَى الْخِتَانَ لَيْسَ أَنَّهُ مِنْ مُوسَى بَلْ مِنَ الآبَاءِ. فَفِي السَّبْتِ تَخْتِنُونَ الإِنْسَانَ. فَإِنْ كَانَ الإِنْسَانُ يَقْبَلُ الْخِتَانَ فِي السَّبْتِ لِئَلَّا يُنْقَضَ نَامُوسُ مُوسَى أَفَتَسْخَطُونَ عَلَيَّ لأَنِّي شَفَيْتُ إِنْسَاناً كُلَّهُ فِي السَّبْتِ؟ لاَ تَحْكُمُوا حَسَبَ الظَّاهِرِ بَلِ احْكُمُوا حُكْماً عَادِلاً». فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ أُورُشَلِيمَ: «أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي يَطْلُبُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ؟. وَهَا هُوَ يَتَكَلَّمُ جِهَاراً وَلاَ يَقُولُونَ لَهُ شَيْئاً! أَلَعَلَّ الرُّؤَسَاءَ عَرَفُوا يَقِيناً أَنَّ هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ حَقّاً؟. وَلَكِنَّ هَذَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُوَ وَأَمَّا الْمَسِيحُ فَمَتَى جَاءَ لاَ يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنْ أَيْنَ هُوَ». فَنَادَى يَسُوعُ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ: «تَعْرِفُونَنِي وَتَعْرِفُونَ مِنْ أَيْنَ أَنَا وَمِنْ نَفْسِي لَمْ آتِ بَلِ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَقٌّ الَّذِي أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. أَنَا أَعْرِفُهُ لأَنِّي مِنْهُ وَهُوَ أَرْسَلَنِي». فَطَلَبُوا أَنْ يُمْسِكُوهُ وَلَمْ يُلْقِ أَحَدٌ يَداً عَلَيْهِ لأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ بَعْدُ. فَآمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ مِنَ الْجَمْعِ وَقَالُوا: «أَلَعَلَّ الْمَسِيحَ مَتَى جَاءَ يَعْمَلُ آيَاتٍ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الَّتِي عَمِلَهَا هَذَا؟». سَمِعَ الْفَرِّيسِيُّونَ الْجَمْعَ يَتَنَاجَوْنَ بِهَذَا مِنْ نَحْوِهِ فَأَرْسَلَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَرُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ خُدَّاماً لِيُمْسِكُوهُ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً يَسِيراً بَعْدُ ثُمَّ أَمْضِي إِلَى الَّذِي أَرْسَلَنِي. سَتَطْلُبُونَنِي وَلاَ تَجِدُونَنِي وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا». فَقَالَ الْيَهُودُ فِيمَا بَيْنَهُمْ: «إِلَى أَيْنَ هَذَا مُزْمِعٌ أَنْ يَذْهَبَ حَتَّى لاَ نَجِدَهُ نَحْنُ؟ أَلَعَلَّهُ مُزْمِعٌ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى شَتَاتِ الْيُونَانِيِّينَ وَيُعَلِّمَ الْيُونَانِيِّينَ؟. مَا هَذَا الْقَوْلُ الَّذِي قَالَ: سَتَطْلُبُونَنِي وَلاَ تَجِدُونَنِي وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا؟». وَفِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ الْعَظِيمِ مِنَ الْعِيدِ وَقَفَ يَسُوعُ وَنَادَى: «إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ. مَنْ آمَنَ بِي كَمَا قَالَ الْكِتَابُ تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ». قَالَ هَذَا عَنِ الرُّوحِ الَّذِي كَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مُزْمِعِينَ أَنْ يَقْبَلُوهُ لأَنَّ الرُّوحَ الْقُدُسَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ بَعْدُ لأَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَكُنْ قَدْ مُجِّدَ بَعْدُ. فَكَثِيرُونَ مِنَ الْجَمْعِ لَمَّا سَمِعُوا هَذَا الْكَلاَمَ قَالُوا: «هَذَا بِالْحَقِيقَةِ هُوَ النَّبِيُّ». آخَرُونَ قَالُوا: «هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ». وَآخَرُونَ قَالُوا: «أَلَعَلَّ الْمَسِيحَ مِنَ الْجَلِيلِ يَأْتِي؟. أَلَمْ يَقُلِ الْكِتَابُ إِنَّهُ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ وَمِنْ بَيْتِ لَحْمِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَ دَاوُدُ فِيهَا يَأْتِي الْمَسِيحُ؟». فَحَدَثَ انْشِقَاقٌ فِي الْجَمْعِ لِسَبَبِهِ. وَكَانَ قَوْمٌ مِنْهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُمْسِكُوهُ وَلَكِنْ لَمْ يُلْقِ أَحَدٌ عَلَيْهِ الأَيَادِيَ.

فَجَاءَ الْخُدَّامُ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ. فَقَالَ هَؤُلاَءِ لَهُمْ: «لِمَاذَا لَمْ تَأْتُوا بِهِ؟». أَجَابَ الْخُدَّامُ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ قَطُّ إِنْسَانٌ هَكَذَا مِثْلَ هَذَا الإِنْسَانِ». فَأَجَابَهُمُ الْفَرِّيسِيُّونَ: «أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً قَدْ ضَلَلْتُمْ؟. أَلَعَلَّ أَحَداً مِنَ الرُّؤَسَاءِ أَوْ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ آمَنَ بِهِ؟. وَلَكِنَّ هَذَا الشَّعْبَ الَّذِي لاَ يَفْهَمُ النَّامُوسَ هُوَ مَلْعُونٌ». قَالَ لَهُمْ نِيقُودِيمُوسُ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ لَيْلاً وَهُوَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: «أَلَعَلَّ نَامُوسَنَا يَدِينُ إِنْسَاناً لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ أَوَّلاً وَيَعْرِفْ مَاذَا فَعَلَ؟». أَجَابُوا: «أَلَعَلَّكَ أَنْتَ أَيْضاً مِنَ الْجَلِيلِ؟ فَتِّشْ وَانْظُرْ! إِنَّهُ لَمْ يَقُمْ نَبِيٌّ مِنَ الْجَلِيلِ». فَمَضَى كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى بَيْتِهِ

مكان البشارة في أورشليم في عيد المظال

٧:١-٨:٥٩

استعلان طبيعة المسيح الروحية

١- ظروف زيارة المسيح لأورشليم في عيد المظال (٧:١-١٣)

٢- محادثات في منتصف العيد (٧:١٤-٣٦)

٣- محادثات اليوم الأخير من العيد (٧:٣٧-٥٢).

١- ظروف زيارة المسيح لأورشليم في عيد المظال (٧:١-١٣)

١- وَكَانَ يَسُوعُ يَتَرَدَّدُ بَعْدَ هَذَا فِي الْجَلِيلِ لأَنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَتَرَدَّدَ فِي الْيَهُودِيَّةِ لأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ.

لقد لخص القديس يوحنا في مقدمة إنجيله نصيب الخدمة التي قام بها الرب نحو شعبه: «جاء إلى خاصته وخاصته لم تقبله» (يو١:١١)، ونراها في اليهودية: «لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه». وفي الجليل: سنقرأ حالاً «ولما كان إخوته قد صعدوا حينئذ صعد هو أيضا إلى العيد، لا ظاهرا، بل كأنه في الخفاء.» (يو٧:١٠). وهكذا ترك الرب الجليل لأخر مرة وفي الخفاء. فبعد أن أشبع الخمسة الآلاف وأجرى الأيات الكثيرة هناك، رفضوه وصادروا أقواله، وتركه كثيرون من تلاميذه ولم يعودوا يسيرون معه.

أما في أورشليم: فسنرى كيف أن أعنف رفض له كان ينتظره هناك، مع التهديد بالقتل بصورة متلاحقة وشديدة حتى انتهى بالصليب.

ونقرأ على التوالى في هذا الأصحاح السابع وما يليه (الثامن) هكذا:

٧:١٣ «وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَتَكَلَّمُ عَنْهُ جِهَاراً لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ».

٧:١٩ «أَلَيْسَ مُوسَى قَدْ أَعْطَاكُمُ النَّامُوسَ؟ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَعْمَلُ النَّامُوسَ! لِمَاذَا تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي؟».»

٧:٢٥ «فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ أُورُشَلِيمَ: «أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي يَطْلُبُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ؟»

٧:٣٠ «فَطَلَبُوا أَنْ يُمْسِكُوهُ ......»

٧:٣٢ «...... فَأَرْسَلَ الْفَرِّيسِيُّونَ وَرُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ خُدَّاماً لِيُمْسِكُوهُ.»

٧:٤٤ «وَكَانَ قَوْمٌ مِنْهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُمْسِكُوهُ ....»

٨:٣٧ «أَنَا عَالِمٌ أَنَّكُمْ ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ. لَكِنَّكُمْ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي ....»

٨:٤٠ «وَلَكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ.....»

٨:٥٩ «فَرَفَعُوا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. ....»

وصدق فيه قول إشعياء النبي: «هكذا قال الرب فادي إسرائيل قدوسه للمهان النفس، لمكروه الامة، لعبد المتسلطين... في وقت القبول استجبتك. وفي يوم الخلاص أعنتك... وأجعلك عهداً للشعب...» (إش٤٩:٧-٨)
ويهمنا أن نوضح من قول القديس يوحنا في هذه الآية أن المسيح كان يتردد في اليهودية قبل مجيئه إلى الجليل، وهذا يمثل الجزء الأول من خدمته التي أغفلها الإنجيليون الثلاثة.

٢- وَكَانَ عِيدُ الْيَهُودِ عِيدُ الْمَظَالِّ قَرِيباً.

في اليوم الخامس عشر من هذا الشهر السابع عيد المظال سبعة أيام للرب. في اليوم الأول محفل مقدس... سبعة أيام تقربوت وقوداً للرب. في اليوم الثامن يكون لكم محفل مقدس تقربون وقوداً للرب إنه اعتكاف (راحة) (لا٢٣:٣٤-٣٦)

يقول المؤرخ اليهودي يوسيفوس [عيد المظال هو أكبر وأقدس أعياد اليهود وأكثرهم مسرة للشعب. وكان يقع في شهر تشري اليهودي، سابع شهور التقويم العبري، وكان العيد يستغرق سبعة أيام مع يوم أخير للراحة ويسمى اليوم العظيم من العيد، وهذا الشهر يوافق شهر سبتمبر_أكتوبر بالتقويم الغربي، وهو آخر الأعياد للسنة المقدسة. ويخرج اليهود في هذا العيد إلى العراء ويعيشون في مظال يصنعونها من أغصان الأشجار تذكارا لمعيشة اليهود ٤٠ سنة في البرية بعد خروجهم من مصر.]

وهذا العيد بالذات كان يُنظر إليه أنه مرتبط برجاء آخر الآيام وأعاد وخيرات منتظرة. ولكن في أيام المسيح كانت قد أضيفت طقوس أخرى تذكارية تعليمية. ففي كل يوم كان رئيس الكهنة يخرج بملابسه الرسمية مع جوقة اللاويين، ومعهم قدر من الذهب يملأونها ماء من بركة سلوام، ويدخل بها رئيس الكهنة ويصبها على المذبح، وتصرف في في وادي قدرون، في مجرى من الفضة، وذلك تذكارا للصخرة التي أخرجت الماء وسقت شعب إسرائيل في البرية. ويرد اللاويون عليه بالآلات الموسيقية نشيد هالليل الكبير وتسابيح صهيون، ويرددون مقطعا من إشعياء النبي (١٢:٢و٣و٦): «هوذا الله خلاصى فأطمئن ولا أرتعب، لأن ياه يهوه قوتي وترنيمتي وقد صار لى خلاصاً. فتستقون مياها بفرح من ينابيع الخلاص... صوتي واهتفي يا ساكنة صهيون لأن قدوس إسرائيل عظيم في وسطك». (وهو نفس النشيد الذي تستخدمه الكنيسة القبطية في أيام أسبوع الآلام باعتبار أن المسيح أُخرج خارج أورشليم حاملاً صليبه، فالكنيسة تعيد لهذا الخروج: «لذلك يسوع أيضاً لكي يقدس الشعب بدم نفسه تألم خارج الباب. فلنخرج إذن إليه خارج المحلة حاملين عاره» (عب١٣:١٢-١٣). وهو نفس الخروج الذي تكلم عنه موسى وإيليا حينما ظهرا مع الرب في التجلي: «وإذا رجلان يتكلمان معه وهما موسى وإيليا. اللذان ظهرا بمجد وتكلما عن خروجه الذي كان عتيدا أن يكمله في اورشليم... وفيما هما يفارقانه قال بطرس ليسوع: يا معلم جيد أن نكون ههنا. فلنصنع ثلاث مظال. لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة» (لو٩:٣٠-٣٣). وهكذا واضح أن خروج المسيح خارج الباب الذي يعني آلامه ثم صلبه، مرتبط في ذهن العهد القديم بالمظال وهو عيد الخروج خارج أبواب البيوت في أورشليم والإقامة في المظال، الذي هو تذكار الخروج في البرية والحياة في العراء، تمهيدا لدخول أرض الميعاد.]

وقد اتحذ الرب ذلك المشهد أساسا لتعليمه: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلا: إن عطش أحد فليقبل إلي ويشرب. من أمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي» (ي٨:٣٧-٣٨)، وهذا ردا على هتاف اللاويين بالنسبة لنشيد الصخرة التي أخرجت الماء.

كذلك، كان من طقوس ذلك العيد أنه في أول يوم فيه كان يبدأ بإنارة المنارة الذهبية الكبرى ذات الثماني الشعب

والأربع المنارات الأخرى التي كانت ترفع في رواق النساء. وكانت أنوارها تنعكس على كل البيوت في أورشليم ويتلألأ ضوؤها في سماء اورشليم كلها حتى جبل الزيتون. وكانت تضاء شعبة في كل يوم، حتى اليوم الأخير الثامن حيث تضاء الشعبة الأخيرة وذلك تذكاراً لعمود النور الذي كان يقود شعب إسرائيل بالليل في البرية. وقد استخدم الرب هذا المنظر أيضا لتقديم تعليمه بالمقابل: «ثم كلمهم يسوع أيضا قائلا أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظمة بل يكون له نور الحياة» (يو٨:١٢)

وكان منظر المسيح وهو يعلم بصفته «الصخرة الحقيقية» و«النور الحقيقي» في وسط الشعب وهو مبعثر في عراء أورشليم في مظاله، وكأنه في التيه متبد، يصوره إنجيل القديس يوحنا وكأن: «الكلمة صار جسدا وحل بيننا» يلاقي الشعب التائه المهموم الذي لم يصل بعد إلى راحته ولا ظفر بوعد ميراثه... وقد جاءهم الرب بملء تحقيق وعد الدهور، ومعه راحة الله إلى الآبد ، ومفتاح بيت داود ذي المنازل الكثيرة (يو١٤:٢) يفتح ولا أحد يغلق: «وكرسيه كالشمس أمامي. مثل القمر يثبت إلى الدهر. والشاهد في السماء أمين. سلاه.» (مز٨٩:٣٦-٣٧)

وأمام الذبائح الكثيرة التي يمتاز بها هذا العيد دون جميح الأعياد، وقف المسيح يقول لليهود: «أليس موسى قد أعطاكم الناموس وليس أحد منكم يعمل الناموس. لماذا تطلبون أن تقتلونى؟» (يو٧:١٩)؛ وكأنه يسلم بالأمر الواقع باعتباره الذبيحة العتيدة ولكن يطلب التفسير من جهة سلوكهم.

وقد التقط الكتبة والفريسيون امرأة في العيد أمسكوها وهي تخطىء . وبإباء وشمم قالوا للمسيح إن موسى في الناموس أمر أن مثل هذه ترجم. ونسي هؤلاء الأئمة والعظماء أن أباءهم الذين يفتخرون بشرف النسب إليهم، فعلوا فعلتها وهم في البرية متبددين على شكل حالهم في هذا العيد بالذات. ولعل القديس يوحنا ذكر هذه القصة في هذا العيد لهذه المناسبة: «جلس الشعب للأكل والشرب ثم قاموا للعب... كما زنى أناس منهم فسقط في يوم واحد ثلاثة وعشرون ألفا» (اكو١٠:٧-٨). وأخيرا وبعد تحقيق للضمير أجراه المسيح بهدوء ثبت أن كل المشتكين عليها كانوا خطاة. أما المسيح فرأى فيها صورة لحال شعبه، فتحنن وعفا عنها وعنه، ودفع ثمن خطيئتها دمه!!! هذا كله كان في عيد المظال.

٧:٣-٥ «فَقَالَ لَهُ إِخْوَتُهُ: «انْتَقِلْ مِنْ هُنَا وَاذْهَبْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ لِكَيْ يَرَى تلاَمِيذُكَ أَيْضاً أَعْمَالَكَ الَّتِي تَعْمَلُ. لأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَعْمَلُ شَيْئاً فِي الْخَفَاءِ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ علاَنِيَةً. إِنْ كُنْتَ تَعْمَلُ هَذِهِ الأَشْيَاءَ فَأَظْهِرْ نَفْسَكَ لِلْعَالَمِ». لأَنَّ إِخْوَتَهُ أَيْضاً لَمْ يَكُونُوا يُؤْمِنُونَ بِهِ.»

«فقال له إخوته»: هؤلاء الإخوة هم بحسب تسجيل القديس متى (١٣:٥٥): يعقوب ويوسي وسمعان ويهوذا. وهم بحسب تحقيقات العالم ليت فوت بالمقارنة مع إنجيل مرقس (٣:٢١و٣١) أن هؤلاء الإخوة هم أولاد يوسف خطيب مريم من زواج سابق، وباعتبارهم أكبر سنا قاموا هذه النصيحة كأنهم يرشدون الرب. ويلاحظ أن إنجيل يوحنا يفصلهم عن التلاميذ وعن الرسل. مع ملاحظة أن عدم انسجامهم شعوريا مع المسيح والإفصاح عن عدم إيمانهم به يضعهم في وضع حرج واستفهام على ضوء الاعتراف الجريء الواضح الذي قدمه بطرس الرسول منذ قليل (يو٦:٦٨-٦٩). وهم بنصيحتهم هذه، أي الذهاب لليهودية (أورشليم) يقدمون في الواقع انتقادا ضمنيا للمسيح أنه تخلف عن عيد الفصح السالف، وعن غيابه عن أورشليم الذي طال لمدة ستة شهور. والأن هي فرصة في هذا العيد لكي يرى الجموع المزدحة كلها في أورشليم في هذه المناسبة أعماله ومعجزاته، حيث يجتمع كل

تلاميذه الكثيرين الذين تبعوه في اليهودية: «فلما علم الرب أن الفريسيين سمعوا أن يسوع يصير ويعمد تلاميذ أكثر من يوحنا...» (يو ٤:١)، بل وكان أيضا له من بين أعضاء السنهدريم من يتوددون إليه سرا مثل نيقوديموس (يو ٣:١)، وهؤلاء في نظر إخوته يمكن أن يكونوا عزوة له إذا رأوا أعماله الجديدة.

٧:٤-٧ «لأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَعْمَلُ شَيْئاً فِي الْخَفَاءِ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَكُونَ علاَنِيَةً. إِنْ كُنْتَ تَعْمَلُ هَذِهِ الأَشْيَاءَ فَأَظْهِرْ نَفْسَكَ لِلْعَالَمِ». لأَنَّ إِخْوَتَهُ أَيْضاً لَمْ يَكُونُوا يُؤْمِنُونَ بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «إِنَّ وَقْتِي لَمْ يَحْضُرْ بَعْدُ وَأَمَّا وَقْتُكُمْ فَفِي كُلِّ حِينٍ حَاضِرٌ. لاَ يَقْدِرُ الْعَالَمُ أَنْ يُبْغِضَكُمْ وَلَكِنَّهُ يُبْغِضُنِي أَنَا لأَنِّي أَشْهَدُ عَلَيْهِ أَنَّ أَعْمَالَهُ شِرِّيرَةٌ.».

يبدو هنا الكلام الذي قاله إخوة الرب وكأنه غير واضح ، لكن رد المسيح عليه يظهر كل خفاياه. فالذي يوضح المعنى ثلاث جمل:

الاولى: قالها القديس يوحنا وهي: «لأن إخوته أيضا لم يكونوا يؤمنون به».

والثانية: قالها الرب: « وقتي لم يحضر بعد» .

والثالثة: «لا يقدر العالم أن يبغضكم».

بهذا نفهم أن إخوة الرب أرادوا أن يدفعوه للظهور في أورشليم في العيد. ولكنهم يضعون نصيحتهم في قالب من النقد الشديد غير اللائق؛ إذ لاحظوا أنه بقي في الجليل وحولها مختفياً لمدة ستة أشهر، لم يذهب لأورشليم ولم يحضر أعيادها طول هذه المدة، فاعتبروا ذلك أنه جبن أو خوف من الظهور العلني بسبب أن اليهود هددوه بالقتل في أورشليم أخر مرة. ووجه النقد والتعيير عندهم هو أنه يدعي أن أعماله يعملها على المستوى العلني العام، فكيف يختفي ويعمل أعماله في القرى فقط، «إن كنت تعمل ... فأظهر نفسك للعالم». وهكذا تظهر هذه النصيحة التي فيها حث ودفع للظهور أن فيها تعييراً وشماتة، ولا تأتي من مصدر صادق، بل لأنهم لم يكونوا يؤمنون به. أي لم يدركوا هذه السنين كلها رسالته الإلهية أو يشعروا بشخصه الفائق. وهذا يكشف عمى قلوبهم بل ويكشفون ضمناً استحالة أن يكونوا إخوته من الأم، لأن موقفهم يكشف انعدام الروح الأخوية والأسرية تماماً. ورد المسيح عليهم بالرفض يوضح موقفه ويفضح موقفهم .

أما دفاعه عن أسلوب اختفائه هذه المدة في الجليل فهو لأنه يتحاشى استباق الحوادث والزمن، لأنه يعلم أن ساعة الصليب، وهي نفسها ساعة الظهور العلني للعالم، يتلقى ميعادها من الآب رأساً: «لم تأت بعد». فأي إثارة زائدة للرؤساء في أورشليم، إذا ظهر علناً بتحد، قد تخلق مشاكل تعطل خطة التسليم الهادىء التي دبرها الآب السماوي والتي يعلمها مسبقاً ويريدها في حينها. «قتي لم يحضر بعدء». ولكن شهادتي ضد العالم وأعماله الشريرة باقية كما هي، وبالتالي لا يزال أمامه عمل وشهادة وتعليم. أما وقتهم فحاضر كل حين، يستطيعون أن يذهبوا إلى أورشليم حينما يشاءون كزائرين، أما المسيح فلا يذهب هذه المرة إلا ليُصلب !!

أما موقف إخوته المفضوح فيرد عليه بطريق غير مباش: «لا يقدر العالم أن يبغضكم»[1] ... لأنه سبق وأن شهد على العالم «أن أعماله شريرة». وهذا يفيد أن العالم لا يبغضهم لأن أعمالهم متوافقة مع العالم. ولهذا فقط لم يكونوا يؤمنون به، لأنهم كانوا يطلبون ما للعالم، ولا هو كان يؤمن بهم، وهذا واضح غاية الوضوح على الصليب،

---

[1] العالم هنا عند إنجيل يوحنا هو العالم بدون الله، عالم بدون نعمة وبلا نور وبلا حياة أبدية.

إذ سلم أمه القديسة العذراء مريم ليوحنا تلميذه، ولم يسلمها لهؤلاء الإخوة المزعومين الحقودين. ولا يفوت علينا أن يوحنا هنا بالذات كان يعلم بسلوكهم ونياتهم. وفي الوقت الذي يفضح فيه المسيح نيتهم وأعمالهم، يعلن أنه لم ولن يهادن العالم ولا الشر الذي في أعمالهم: «ولكنه يبغضني أنا لأني أشهد عليه أن أعماله شريرة». وهنا يتضح أن أهل العالم لا يحتملون التبكيت، ويواجهون كشف الخطايا بالهجوم والبغضة وان لزم فبالقتل.

ويلاحظ القارىء أن انتقاد أعمال الرب سهل، ويسقط فيه كل من لم يحتفظ في قلبه بصورة صادقة للايمان بالرب، بالضبط كما يسهل انتقاد الله في أعماله في الخليقة، بسبب قصر النظر وعدم شمول الإدراك البشري لقدرة وقوة الله غير المحدودة واللانهائية.

وقد سقط يهوذا ليس الإسخريوطي أحد التلاميذ الاثني عشر في نفس النقطة التي هوى فيها إخوة الرب[1]، حتى في الليلة الأخيرة قبل التسليم، وذلك بانتقاد أقوال الرب وأعماله، ولكن ليس بسبب عدم الإيمان وانما بسبب ما أضمره يهوذا من انتظار محبة العالم، وهذا بسبب عدم الثبوت في كلام الرب ومحبته: «قال له يهوذا ليس الإسخريوطي يا سيد ماذا حدث حتى إنك مزمع أن تظهر ذاتك لنا وليس للعالم» (يو ١٤:٢٢). والعجيب أن الرب لم يرد مباشرة على يهوذا موضحاً هذا الأمر، لأن الرب علم أن علة سؤاله لا ترجع إلى طلب المعرفة بل محبة العالم، وهذا بالتالى يرجع لعدم ثبوته في الرب، لا في كلامه ولا في محبته: «أجابه الرب إن أحبني أحد يحفظ كلامي، ويحبه أبي، وإليه نأتي وعنده نصنع منزلا.» (يو ١٤:٢٣)

وهكذا يشترك الجليليون مع التلاميذ الذين رجعوا إلى الوراء، مع إخوة الرب، وحتى مع يهوذا ليس الإسخريوطي في خداع البصر الذي وقعوا فيه جميعا، بسبب انتظارهم اليهودي التقليدي الكاذب لمجد دنيوي في شخص ملوكية المسيا، فلما أدركوا أن نهاية رسالة المسيح هي موت وذبح وجسد ودم، انقلبوا ناقدين وناقمين وعلى الأقل جداً غير فاهمين...

ولكن هذا الموقف من إخوة الرب لم يمنع أن يصبح يعقوب أخو الرب واحدا من الرسل فيما بعد، ولا أن يكون يهوذا ليس الإسخريوطي أحد التلاميذ الإثني عشر المؤتمنين. وهذان الاثنان بالذات يبدو أن خبرتهما المؤلمة أنشأت إيماناً ساخناً حاراً بعد استعلان مجد الرب بالقيامة، فكتب كل منهما رسالته. ولكن يبدو من الرسالتين مدى تأثر الشخصية بالتقليد والقوالب اليهودية القديمة إلى حد ما، مما يكشف عن سر عثرتهم الاولى.

٧:٨-١٠ «اِصْعَدُوا أَنْتُمْ إِلَى هَذَا الْعِيدِ. أَنَا لَسْتُ أَصْعَدُ بَعْدُ إِلَى هَذَا الْعِيدِ لأَنَّ وَقْتِي لَمْ يُكْمَلْ بَعْدُ». قَالَ لَهُمْ هَذَا وَمَكَثَ فِي الْجَلِيلِ. وَلَمَّا كَانَ إِخْوَتُهُ قَدْ صَعِدُوا حِينَئِذٍ صَعِدَ هُوَ أَيْضاً (إِلَى الْعِيدِ)[2] لاَ ظَاهِراً بَلْ كَأَنَّهُ فِي الْخَفَاءِ.

بالرغم من تضارب أفكار علماء الكتاب المقدس في هذه الآيات إلا أن المعنى واضح أمامنا كل الوضوح. فإخوة الرب لم يكن قصدهم من ذهاب المسيح للعيد إلا للظهور العلني أمام العالم وعمل الآيات جهارا ليجمع حوله التلاميذ وذلك لعلة في النفس. ورد المسيح واضح: «اصعدوا أنتم إلى هذا العيد» بالقصد الذي ترونه من مشاركة المعيدين في الاحتفالات وأفراح هذا العيد، حيث كانوا يذهبون في جماعات كبيرة، وهذا يشير إلى أن رفض المسيح يكاد يكون

---

[1] يهوذا غير الاسخريوطى هو نفسه احد أخوة الرب حسب التقليد الكاثوليكى (ميشيل)

[2] توجد مخطوطات كثيرة لم ترد فيها هذه الأضافة بل وردت هكذا: "ولما كان أخوته قد صعدوا إلى العيد حينئذ ...."

لهم هم ولصحبتهم ولأفكارهم وليس للذهاب إلى العيد.

أولاً: ورود كلمة «بعد»: «أنا لا أصعد بعد إلى هذا العيد»، معناها واضح وهو: «أنا لا أصعد الآن». وهذا توضحه بقية الرواية هكذا: «فلما صعدوا صعد هو أيضاً». إذن، فعدم صعوده لم يقصد منه النفي الكامل للصعود بل النفي للظرف الزماني الآن وبصحبتهم، لأنه صعد بعد ذلك بمفرده. وبالرغم من ورود الكلمتين مترادفتين «صعدوا ... وصعد أيضاً» إلا أن الزمن بينهما كبير وسيظهر ذلك من الشرح.

ثانيا: أما المسيح فهو لا يصعد أصلا إلى العيد ليعيد أو يشارك في التعييد، إلا أنه صعد إلى اورشليم في هذا العيد ليكمل عملا آخر غير العيد.

ثالثاً: إن صعودهم كان في جماعة، أي صعود علني ترافقه التسابيح والزمر والطبل وأغصان النخيل، وهذا غير الصعود الذي كان يضمره الرب أن لا يكون علنياً بل في الخفاء، ودون أن يأخذ تلاميذه معه، لأنه كان لا يريد إثارة الأوساط الرئاسية في أورشليم، كما أنه لم يكن مثل بقية المعيدين، بل صعد إلى أورشليم ليكمل رسالته ويسلم حياته. فهو لم يصعد للعيد ليقدم ذبائح بل صعد ليقدم ذبيحة نفسه. هذا هو المعنى بل المعاني المستترة وراء الكلمات التي تبدو متضاربة شكلاً فقط: «اصعدوا (إلى العيد) أنتم، أنا لا أصعد بعد إلى هذا العيد ولما صعدوا صعد هو أيضاً».

رابعاً: نفهم من الأناجيل الأخرى أن الرب لم يصعد مباشرة إلى أورشليم كما جاء في إنجيل القديس متى (١:١٩): «ولما أكمل يسوع هذا الكلام انتقل من الجليل وجاء إلى تخوم اليهودية من عبر الارن»، أي عبر في إقليم بيريه. وكذلك كما جاء في إنجيل القديس مرقس (١:١٠): «وقام من هناك وجاء إلى تخوم اليهودية من عبر الاردن فاجتمع إليه جوع أيضاً، وكعادته كان أيضاً يعلمهم». وهذا يؤكد كلام الرب أنه فعلا لم يكن مقصده أورشليم مباشرة لحضور العيد، إذ أمضى مدة طويلة في عبوره الاردن في إقليم بيريه، ثم منها عبر ثانية إلى تخوم اليهودية ثم إلى أورشليم. وهذا يتوافق جداً مع إنجيل القديس يوحنا في موضع متقدم: «فطلبوا أيضاً أن يمسكوه فخرج من أيديهم ومضى أيضاً إلى عبر الاردن إلى المكان الذي كان يوحنا يعمد فيه أولاً ومكث هناك (يو١٠: ٣٩-٤٠). وفي نهاية رحلته حط الرحال في قرية بيت عنيا بجوار أورشليم لزيارة خاطفة لمرثا ومريم وأخيهم لعازر (قبل معجزة إقامته من الموت): «وفيما هم سائرون دخل قرية، فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها وكانت لهذه أخت تدعى مريم التي جلست عند قدمي يسوع وكانت تسمع كلامه» (لو١٠: ٣٨-٣٩). ومن قرية بيت عنيا دخل إلى أورشليم في منتصف العيد.

٧: ١١-١٤ «فَكَانَ الْيَهُودُ يَطْلُبُونَهُ فِي الْعِيدِ وَيَقُولُونَ: «أَيْنَ ذَاكَ؟». وَكَانَ فِي الْجُمُوعِ مُنَاجَاةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ نَحْوِهِ. بَعْضُهُمْ يَقُولُونَ: «إِنَّهُ صَالِحٌ». وَآخَرُونَ يَقُولُونَ: «لاَ بَلْ يُضِلُّ الشَّعْبَ». وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَتَكَلَّمُ عَنْهُ جِهَاراً لِسَبَبِ الْخَوْفِ مِنَ الْيَهُودِ. وَلَمَّا كَانَ الْعِيدُ قَدِ انْتَصَفَ صَعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْهَيْكَلِ وَكَانَ يُعَلِّمُ»

واضح من هذا الكلام أن المسيح كان غائباً في الأيام الاولى من العيد: «أين ذاك»، وواضح جداً أنه لم يظهر إلا في منتصف العيد: «ولما كان العيد قد انتصف صعد يسوع».

«فكان اليهود يطلبونه في العيد ويقولون أين ذاك»: كلمة «اليهود» هنا تشمل المعادين له والأصدقاء،

والمعادون هم الرؤساء والفريسيون الذين قاوموه بشدة، كما جاء في الأصحاح الخامس، وكان رده عليهم موبخاً عنيفاً فبلغت الخصومة أقصاها: «كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه. لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب. يوجد الذي يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم.» (يو٥:٤٤-٤٥)

وهؤلاء كانوا يبحثون عنه في كل الجماعات القادمة من الجليل، عل مستوى مباحث أمن الدولة، ولم يجدوه. وهكذا صح فكر المسيح وقوله لإخوته: «اصعدوا أنتم إلى هذا العيد أنا لست أصعد بعد إلى هذا العيد» (يو٧:٨)، لأنه تخلف عن الركب حتى لا يعطي أعداءه فرصة لتدبير المكائد.

«أين ذاك»: تأتي كلمة «ذاك» في قالب الإحتقاروالحقد والتنمر، كما جاءت كلمة «كيف يقدر هذا أن يعطينا جسده لنأكل» (يو٦:٥٢)، بمعنى الازدراء والتجاهل. وهذا يكشف مقدار ما بلغه الصدام من التربص به وانتظاره مدة ستة أشهر منذ ترك أورشليم، لأن ضغينتهم لم تهدأ.

«وكان في الجموع مناجاة كثيرة من نحوه. بعضهم يقولون إنه صالح. وأخرون يقولون لا بل يضل الشعب»: كلمة «مناجاة» ترجمة ركيكة للأصل اليوناني (   ) والتي تأتي بمعنى «لغط» وهي باللاتينية murmur (ويعرفها الأطباء كوصف لدقات القلب الغير منتظمة). واللغط هو بالنسبة للشعب أصوات غير منسجمة أو متضاربة بين من يقول أنه صالح، أي طيب ومستقيم ولا عيب فيه، وهي صفة من صفات الله: «ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله» (مت١٩:١٧)، أوردها إنجيل يوحنا عن عمد ليعلن بها الإتجاه الإيماني الصحيح؛ والآخر ينفي الصلاح عنه على أساس سياسي وناموسي: لأنه «يضل الشعب»، سواء من جهة السبت أو من جهة إدعاء أنه المسيا. وهي نفس العلة التي قدمها رؤساء الكهنة ضده ليُصلب (لو٢٣:٢و١٤). ولكن بالرغم من ذلك لم يستطع الرؤساء هؤلاء أن يحركوا الشعب ضده، لأنه كان قد اكتسب ثقتهم: «وقالوا ليس في العيد لئلا يكون شغب في الشعب.» (مت٢٦:٥)

«لسبب الخوف من اليهود»: اليهود هنا تتضح صفتهم، فهم ولاة الشعب سواء فريسيين أو كتبة أو كهنة. فبالرغم من أنهم لم يصدروا حكمهم عليه بعد، ولكن نياتهم كانت معروفة للشعب، لذلك كان الذين يساندونه بالرأي والفعل لا يجرؤون أن يظهروا ذلك جهارا.

٢- محادثات في منتصف عيد المظال: (٧:١٤-٣٦)

تنقسم هذه التعاليم إلى ثلاثة أقسام بحسب الأشخاص الذين يسألون والرد عليهم.

أ _ تعاليم موجهة لليهود: (٧:١٤-٢٤).

ب _ تعاليم موجهة إلى سكان أورشليم: (٧:٢٥-٣١).

ج _ تعاليم موجهة إلى الخدام المرسلين من الفريسيين ورؤساء الكهنة: (٧:٣٢-٣٦).

٧:١٤-١٨ «وَلَمَّا كَانَ الْعِيدُ قَدِ انْتَصَفَ صَعِدَ يَسُوعُ إِلَى الْهَيْكَلِ وَكَانَ يُعَلِّمُ. فَتَعَجَّبَ الْيَهُودُ قَائِلِينَ: «كَيْفَ هَذَا يَعْرِفُ الْكُتُبَ وَهُوَ لَمْ يَتَعَلَّمْ؟». أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «تَعْلِيمِي لَيْسَ لِي بَلْ لِلَّذِي أَرْسَلَنِي. إِنْ شَاءَ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ مَشِيئَتَهُ يَعْرِفُ التَّعْلِيمَ هَلْ هُوَ مِنَ اللَّهِ أَمْ أَتَكَلَّمُ أَنَا مِنْ نَفْسِي. مَنْ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ يَطْلُبُ مَجْدَ نَفْسِهِ وَأَمَّا مَنْ يَطْلُبُ مَجْدَ الَّذِي أَرْسَلَهُ فَهُوَ صَادِقٌ وَلَيْسَ فِيهِ ظُلْمٌ.».

انتصاف العيد، أي في اليوم الرابع من بدايته، وواضح هنا بالتأكيد أن المسيح لم يحضر العيد من أوله بالفعل. كما أن ظهوره في منتصف العيد بعد أن أجهد الرؤساء أنفسهم في البحث عنه، يوضح ظهوره المفاجىء لهم. وهذا يقصده المسيح ويدركه القديس يوحنا جيدا ويحاول أن يبرزه بصورة نبوية، فهذا تحقيق فعلي لقول ملاخي النبي: «هأنذا أرسل ملاكي فيهيىء الطريق أمامي. ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه... ومن يحتتمل يوم مجيئه ومن يثبت عند ظهوره لأنه مثل نار.» (مل٣:١-٢)

والعجيب حقا أن زكريا النبي يصف ذلك اليوم الذي فيه يتغير كل شيء بمجيء الرب أنه يكون عيد المظال بعينه!! «ويكون أن كل الباقي من جميع الأمم الذين جاءوا على أورشليم يصعدون من سنة إلى سنة ليسجدوا للملك رب الجنود وليعيدوا عيد المظال» (زك١٤:١٦). وحينما قدم إخوة الرب النصيحة، دون أن يقصدوا الحق، كانت نبوة دهرية دون أن يدركوها أو يحترموها: «أظهر ذاتك للعالم» ، وتأتي مُحكمة على نبوة زكريا السابقة أن ذلك يكون في عيد المظال. وهي رنين مبدع مسموع للنبوة التي قدمها سمعان الشيخ: «الآن تطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام لأن عيني قد أبصرتا خلاصك الذي أعددته قدام وجه جميع الشعوب (يهود الشتات من كافة أقطار وشعوب الأرض) نور إعلان للأمم ومجدا لشعبك إسرائيل» (لو٢:٢٩-٣٠)

ولاحظ أن الرب في هذا العيد وقف وقال: «أنا هو نور العالم» كما سيأتي (١٢:٨). كما سيتكلم في هذا الأصحاح أيضا عن الحياة والنور، فيأتي الكلام موقعا توقيعا صادقا على ما جاء في مقدمة الإنجيل: «فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس.» (يو١:٤)

أ- تعاليم موجهة لليهود : (١٤:٧-٢٤).

وتنحصر في: مصدر رسالته (١٦-١٨)؛ في دحض الشرح الخاطئ للناموس (١٧-١٩)؛ وضد روح وتاريخ الناموس (٢٠-٢٤).

مصدر رسالته:

١٥:٧ «فَتَعَجَّبَ الْيَهُودُ قَائِلِينَ: «كَيْفَ هَذَا يَعْرِفُ الْكُتُبَ وَهُوَ لَمْ يَتَعَلَّمْ؟»»

واضح هنا أن الكتب تعني الأسفار المقدسة، وكلمة «يتعلم» تفيد التلمذة للربيين ودراسة اللغة، ولكن المقصود طريقة التعليم بسلطان والشرح والحوار وضرب الأمثال والإقناع! فهي التي أذهلت كل من سمعه حتى أعداءه. فنقرأ في كل من إنجيل مرقس وإنجيل متى وانجيل لوقا: «وللوقت دخل المجمع في السبت وصار يعلم. فبهتوا من تعليمه، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة» (مر١:٢١-٢٢ ومت٧:٨)

«ولما كان السبت ابتدأ يعلم في المجمع. وكثيرون إذ سمعوا، بهتوا قائلين من أين لهذا هذه، وما هذه الحكمة التي أعطيت له...» (مر٦:٢ ومت١٣:٥٤)

«وكان الجميع يشهدون له ويتعجبون من كلمات النعمة الخارجة من فمه.» (لو٤:٢٢)

ولكن أصعب من كل ما يمكن تصوره في التعليم اليهودي هو الدخول في دقائق الناموس وشرحه. وهذا هو ما أراد القدس يوحنا تقديمه من جهة قدرة المسيح الفائقة على ذلك، ويقصد بذلك قصدا أن يكشف المصدر الإلهي في المسيح.

ومعروف أن أي ناموسي لا تقبل شهادته أو شرحه للناموس إلا إذا أعلن عن الشخص الذي تلقى منه المعلومة المطروحة للكلام، والذي يتحتم أن يكون «ربي» أي معلم سنهدريمي رسمي ومعترف به. و يلاحظ القارىء أن الرب

يسوع استخدم نفس الأسلوب الناموسى رداً على اندهاشى الذين سمعوا تعليمه، والذي لابد أنه كان تعليماً عن الناموس:

١٦:٧ «أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «تَعْلِيمِي لَيْسَ لِي بَلْ لِلَّذِي أَرْسَلَنِي.»:

أي مستمد من الله رأساً. فالكلام والتعاليم التي أقولها منسوبة، ليس لمعلم ولا لربي أو ناموسي، بل منسوبة إلى صاحبها وهو الآب الذي أرسلنى وهذا رد قاطع ومفحم.

١٧:٧ « إِنْ شَاءَ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ مَشِيئَتَهُ يَعْرِفُ التَّعْلِيمَ هَلْ هُوَ مِنَ اللَّهِ أَمْ أَتَكَلَّمُ أَنَا مِنْ نَفْسِي»

هنا يطرح المسيح أمام سامعيه الوسيلة للتحقق من المصدر الإلهي لتعليمه، ليتأكد أنه تعليم الله وليس تعليم «ربى» أو حتى تعليم المسيح. فهو يقول أن الطريقة الوحيدة هي طريقة عملية أخلاقية توافقية. فإذا استطاع إنسان أن يتوافق مع مشيئة الله، أي أن يكون فكره وسلوكه بحسب مشيئة الله، فإنه يدرك في الحال أن ما أقوله أنا هو كلام الله، وإن كان يوضح مشيئة الله، أم أتكلم أنا من نفسي. وبمعنى آخر أيضاً، فإن الإنسان الذي يؤمن حقاً أن المسيح قد أتى من الآب يكون هو الإنسان الذي شاء ويشاء أن يعمل ويعرف مشيئة الآب. وهذا هو الأسلوب المحبب للمسيح وهو الأسلوب العملي جداً والبسيط للغاية المطروح أمام كل إنسان دائماً أبداً: ونبسطه أمام القارىء في أربع كلمات:

آمن بالرب، **تستعلن** أسراره؛ **تعال** ليسوع، **تكتشف** الله؛ **اخضع** لمشيئته، **تُدرك** مشيئته.

والعكس مستحيل المستحيل. فالفحص والدراسة والتحليل لا توصل إلى الحقيقة الإلهية الكائنة في أقوال المسيح وتعاليمه. فلو كان المسيح يتكلم من نفسه ويعلم من نفسه وبسلطانه الشخصي، لكان من الممكن إخضاع كل أقواله وتعاليمه للفحص العقلي والنقد لكشف محتواها حسب الثوابت الأدبية. ولكن الحقيقة المذهلة أن كل كلام المسيح، وكل تعاليمه، ليست له ولا منه ولكنها من الله الآب ولله الآب؛ وأصبح التسليم لها حتمية روحية كلية.

١٨:٧ مَنْ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ يَطْلُبُ مَجْدَ نَفْسِهِ وَأَمَّا مَنْ يَطْلُبُ مَجْدَ الَّذِي أَرْسَلَهُ فَهُوَ صَادِقٌ وَلَيْسَ فِيهِ ظُلْمٌ.

المسيح يثبت هنا أنه مرتبط بالمصدر الذي يقول ويعلم لحسابه. فلو كان تعليمه هو حصيلة فكره ودراسته الخاصة، لكان يطلب ثمنه شهرة أو مجداً لنفسه. ولكنه لا يطلب الآن لنفسه شيئاً، لا شهرة ولا مجداً ولا أتعاباً خاصة، ولكنه يطلب فقط مجد الله أبيه الذي أرسله. إذن، فلأنه أخرج نفسه من التأثير الشخصي في عملية التعليم وأصبح التعليم كله خاصاً بالله، يكون التعليم إلهياً مائة بالمائة، وحقاً وصدقاً وليس فيه أي ابتزاز، ويكون المسيح صادقاً وعادلاً في كل ما يقول، وليس ظالماً كما يفترون.

نفهم من هذا بالنسبة لأنفسنا، أن طلب المجد الشخصي والسعي إليه يثبتان تزييف التعليم وابتزاز مجد الآخر وهو الله. كذلك فإن صدق التعليم الإلهي وصدق المعلم الذي من الله يتوقفان على لمن يطلب المعلم المجد: لنفسه أم لله؟ والرب سبق ووبخ الفريسيين، وهم معلمو الشعب: «كيفت تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض؟» (يو٥:٤٤). الرب هنا أخرج الفريسيين ليس من دائرة التعليم الصحيح فحسب، بل ومن دائرة الإيمان بالله، لأن الإيمان بالله يتوقف بالدرجة الاول على تمجيد الله.

والرب هنا في الآية: «من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه» يطبق نفس المبدأ على نفسه على نمط ما وجهه إلى

الفريسيين. ثم يعود يوجه التعليم الصحيح إلى غايته الصحيحة: «أما من يطلب مجد الذي أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم (أي عادل)».

ويلاحظ الدارس المدقق أن هذا المبدأ ينطبق تماما على قول القديس بولس: «لكنه أخلى نفسه» (في٢:٧). فالمسيح أخلى نفسه من المجد وطلب المجد: «مجداً من الناس لست أقبل» (يو٥:٤١)، بل ومن الكرامة أيضاً كما رأيناه في غسل أرجل تلاميذه كعبد: «أجاب يسوع: أنا ليس بي شيطان لكني اكرم أبي وأنتم تهينونني. أنا لست أطلب مجدي، يوجد من يطلب ويدين» (يو٨:٤٩-٥٠). وذلك كله لحساب مجد وكرامة الآب الذي أرسله!! والنتيجة أن الآب رد له المجد مجدين، إذ رد عليه الآب بصوت مسموع من السماء علنا : «مجدتُ وأُمجد أيضاً» (يو١٢:٢٨). فالذي أخلى نفسه من المجد عاد إليه المجد مضاعفاً: مجد في الأرض ومجد في السماء! ولكن الذي يطلب ويأخذ مجداً من الناس وهو أصلاً لحساب مجد الله، فإنه بتعبير الإنجيل ظالم ومبتز. اسمع ما يقول الرب بشأنه: «لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب، يوجد الذي يشكوكم.» (يو٥:٤٥)

١٩:٧ «أَلَيْسَ مُوسَى قَدْ أَعْطَاكُمُ النَّامُوسَ؟ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَعْمَلُ النَّامُوسَ! لِمَاذَا تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي؟».

المسيح ينقل هنا التعليم نقلة خطيرة، فهو يهاجم الفريسيين على أرضهم المزعومة وفي بيتهم الذي جعلوه مغارة لصوص: يهاجهم في أمانتهم للناموس بل وفي معرفتهم له بل وفي عملهم به. ويهاجمهم داخل الهيكل وليس في الخفاء أو في زاوية!! ولكن على أي أساس يهاجمهم؟

الكلام هنا متصل اتصالاً وثيقاً بما قبله، وليس كما يظن خطأ علماء الكتاب أنه متصل بالأصحاح الخامس، حيث يدعون أنه نقل وتغييرفي ترتيب الأصحاحات. لقد قال الرب في الآيات السابقة: «تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني. إن شاء أحد أن يعمل مشيئته، يعرف التعليم هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسي» (يو٧:١٦-١٧). فهو يبني على هذا الكلام أنهم لا يعملون مشيئة الآب لأنهم لم يعرفوا تعليم المسيح أنه من الله. هذا أولا، أما ثانياً، فلأنهم على خلاف ناموس موسى وقواعده وأصوله يريدون أن يقتلوه، مع أنه جاء ليكمل الناموس. وهكذا بينما هم يتهمونه بكسر السبت بدون حق، ها هو الآن يقيم عليهم الدعوى أنهم لا يكسرون الناموس فحسب، بل ويعملون ضده بمحاولة قتله مع أنه يعمل مشيئة الله.

ويلاحظ القارىء أن في الأصحاح الخامس ينتهي المسيح إلى إقامة الدعوى ضدهم أيضاً على أساس الناموس، ويجعل الناموس نفسه قاضياً وديناناً وشاكياً ضدهم، على أساس أنهم لا يقرأون الناموس قراءة صحيحة واعية، وإلا كانوا قد عرفوا منها أنها تشهد له، إذ قال لهم: «فتشوا الكتب» (يو٥:٣٩)، وأيضاً على أساس أنه ليس لهم محبة الله فيهم، لأنه وهو ابن محبة الله رفضوه ولم يقبلوه مع أنه جاء باسم أبيه ولم يجىء إليهم باسم نفسه!! ثم أضاف على الدعوى ضدهم في الأصحاح الخامس شكوى ثقيلة للغاية، إذ اتهمهم بأن ليس لهم إيمان بالله، لأن مجد الله أنكروه وطلبوا مجد أنفسهم وبدأوا يطلبون مجد الناس بعضهم من بعض.

أما هنا، في الأصحاح السابع، فالدعوى قائمة عليهم على أساس التعليم نفسه وذلك بشهادتهم هم: «كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم؟»، فبالرغم من اعترافهم بمعرفته المدهشة بالكتب، وقدرته ذات السلطان في التعليم وليس كالكتبة والفريسيين، وطبعا هذا يعود على أن تعليم الكتبة والفريسيين قائم على ناموس موسى، أما تعليم المسيح فهو من المصدر الأعلى من الناموس أي الله نفسه، كما أن تعليم المسيح جاء ليكمل كل تعاليم سابقة ويصححها،

فبالرغم من اعترافهم هذا إلا أنهم بسبب أن المسيح لا يمت إلى مدارسهم ومعلميهم، اعتبروه أنه يضل الشعب، مع أن تعليمه من الله. ولو كانوا «يعملون الناموس»، أو بمعنى آخر لو كانوا يقيسون التعليم الذي يعلم به المسيح على الناموس، لأدركوا مصدر التعليم أنه من الله. ولكنهم لأنهم «لا يعملون الناموس» خرجوا عن مقياس الناموس، فانعمت بصيرتهم وطلبوا أن يقتلوا الذي جاء ليكمل لهم الناموس!

٧: ٢٠-٢٤ «أَجَابَ الْجَمْعُ: «بِكَ شَيْطَانٌ. مَنْ يَطْلُبُ أَنْ يَقْتُلَكَ؟». فَقَالَ يَسُوعُ لَهُمْ: «عَمَلاً وَاحِداً عَمِلْتُ فَتَتَعَجَّبُونَ جَمِيعاً. لِهَذَا أَعْطَاكُمْ مُوسَى الْخِتَانَ لَيْسَ أَنَّهُ مِنْ مُوسَى بَلْ مِنَ الآبَاءِ. فَفِي السَّبْتِ تَخْتِنُونَ الإِنْسَانَ. فَإِنْ كَانَ الإِنْسَانُ يَقْبَلُ الْخِتَانَ فِي السَّبْتِ لِئَلَّا يُنْقَضَ نَامُوسُ مُوسَى أَفَتَسْخَطُونَ عَلَيَّ لأَنِّي شَفَيْتُ إِنْسَاناً كُلَّهُ فِي السَّبْتِ؟ لاَ تَحْكُمُوا حَسَبَ الظَّاهِرِ بَلِ احْكُمُوا حُكْماً عَادِلاً»

حينما تنعمي بصيرة الإنسان، يرى الأبيض أسود. فعكس الرؤيا الصحيحة للمسيح أنه ابن الله، رأوه وكأن به شيطان. والدليل على أن البصيرة قد انعمت عند هؤلاء، أنهم كانوا قد رأوا بأعينهم كيف شفى مريض بيت حسدا المشلول وتعجبوا جميعهم من هذه الأية. إذا، فكان ينبغي أن تُقيم هذه الآية تقيماً صحيحاً، فهي عُملت في السبت، فكان ينبغي أن تنسب لبركات الله في السبت كما تنسب لبركات الناموس، هذا هو الحكم الصحيح. والرب أعطاهم جواز عمل الختان في يوم السبت (الختان يُعمل إلزاما في اليوم الثامن من الولادة، فاحتمال وقوعه في سبت أمر وارد دائما، فالختان يُعمل أصلا من أجل الصحة، أي الطهارة، وكلمة الشفاء الواردة باليونانية تفيد الصحة الجسدية التي تُنطق (   ) والتي جاءت منها الكلمة الإنجليزية Hygie أي الصحة العامة، فإذا تطهر الإنسان في اليوم الثامن أصبح صحيحا ومقبولا في جماعة بني إسرائيل).

فإن كان الختان يُعمل أصلا من أجل صحة الإنسان، فكم وكم بالحري أن يشفي المسيح إنسانا كسيحا مشلولا ليصير صحيحا، ليس في عضو واحد بل في كل أعضاء جسمه؟ وهنا يظهر المسيح أنه يعمل فعلا مكملا للناموس، إذ جعل الإنسان كله طاهرا. وهذا في الحقيقة جزء لا يتجزأ من عملية الفداء، فلا ننسى إطلاقا قول إشعياء النبي أننا بجلداته شفينا وأنه حمل أمراضنا وأسقامنا عليه (إش٥٣: ٤-٥). فعملية الشفاء الروحي التي أجراها المسيح لنا أجراها من رصيد آلامه ودمه.

كما يظهر المسيح أنه يكرم السبت ويكمل بركاته، بأن عمل فيه أعمالت لمجد الله وتكريم الإنسان. ويكفي كرامة لهذه السبوت أن جعل السبت يوما من أيام ابن الإنسان، بسبب أعمال الشفاء التي أكملها فيه.

ثم يعود المسيح لائماً هؤلاء، سواء كانوا فريسيين أو من العامة قائلاً: «لا تحكموا حسب الظاهر بل احكموا حكماً عادلاً». هنا لفتة من لفتات المسيح الخطيرة، إذ اعتبر أن الأعمال الطقسية والمراسيم والقوانين تحمل صورتين للحق الإلهي، صورة ظاهرية ترى بالعين وصورة جوهرية حقيقية تقاس على بر الله أو حق الله. فالصورة الظاهرية نسبها المسيح للعين والصورة الجوهرية نسبها للحق أو البر. والخلط بينهما أو الاكتفاء بالظاهر، كفيل بأن يضيع حق الله و يطمس معالم البر الإلهي. والنتيجة أنهم من أجل حفظ رسوم يوم السبت، رفضوا رب السبت وقرروا قتله.

ب _ تعاليم موجهة إلى سكان أورشليم: (٧: ٢٥-٣١)

٧:٢٥-٢٧: «فَقَالَ قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ أُورُشَلِيمَ: «أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي يَطْلُبُونَ أَنْ يَقْتُلُوهُ؟ وَهَا هُوَ يَتَكَلَّمُ جِهَاراً وَلاَ يَقُولُونَ لَهُ شَيْئاً! أَلَعَلَّ الرُّؤَسَاءَ عَرَفُوا يَقِيناً أَنَّ هَذَا هُوَ الْمَسِيحُ حَقّاً؟ وَلَكِنَّ هَذَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُوَ وَأَمَّا الْمَسِيحُ فَمَتَى جَاءَ لاَ يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنْ أَيْنَ هُوَ».

يلزمنا هنا أن نفرق بين الاوساط التي يتكلم معها المسيح: اليهود ويمثلهم دائما الفريسيون، والجموع وهم أهل الجليل وعامة الشعب، وأهل أورشليم وهم سكان العاصمة ولهم دائماً دراية بأحوال الرؤساء وسيساساتهم ولكن لم يكونوا موافقين دائماً على أعمالهم.

وهنا يبرز هذا العنصر الذي كان واقفا يراقب الحوار الذي استظهر فيه المسيح على خصومه من اليهود والجموع، الذين، في الحال، انحازوا لجانب المسيح نوعا ما، وبدأوا يستنتجون من صمت اليهود أن خططهم لقتله غير لائقة. وتقدموا في استنتاجهم خطوة أخرى: ألعل الرؤساء يتيقنون من صدق رسالته أنه المسيح؟!

ولكن العقبة التي وقفت إزاء تفكيرهم وتقريرهم عن صحة رسالة المسيح والتيقن من شخصه، هي أن المتداول بين عامة الشعب، متعلمين وغير متعلمين، وخاصة في الأوساط التي تمارس حضور التعليم في الهيكل والمجامع، كان أن المسيح حينما يأتي لا يعرف أحد من أين يأتي؛ وذلك من واقع الكتابات الرؤيوية[1]. ولكن كان معروفا عن المسيح أنه من الجليل، ومن الناصرة، وأنه مولود في بيت لحم، وأن أباه (؟) وأمه معروفان لديهم وحتى إخوته وأخواته (؟).

وأيضا يرد المسيح على ما كان يدور في قلوب هؤلاء الاورشليميين وقد عرفه بإحساسه الإلهي:

٧:٢٨-٣١: «فَنَادَى يَسُوعُ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ: «تَعْرِفُونَنِي وَتَعْرِفُونَ مِنْ أَيْنَ أَنَا وَمِنْ نَفْسِي لَمْ آتِ بَلِ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَقٌّ الَّذِي أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. أَنَا أَعْرِفُهُ لأَنِّي مِنْهُ وَهُوَ أَرْسَلَنِي». فَطَلَبُوا أَنْ يُمْسِكُوهُ وَلَمْ يُلْقِ أَحَدٌ يَداً عَلَيْهِ لأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ بَعْدُ. فَآمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ مِنَ الْجَمْعِ وَقَالُوا: «أَلَعَلَّ الْمَسِيحَ مَتَى جَاءَ يَعْمَلُ آيَاتٍ أَكْثَرَ مِنْ هَذِهِ الَّتِي عَمِلَهَا هَذَا؟»

لقد أدرك المسيح بإحساسه الإلهي ما كان يدور في قلوبهم، ووافق على أنهم يعرفومه ويعرفون من أين أتى، ولكن معرفتهم للأسف كانت أيضا حسب الظاهر. والظاهر لا يحل محل الحق والجوهر، وإنما يشير إليه إشارة بليغة؛ فكونه «من الناصرة» إشارة ليست بسيطة، بل هي نبوية، وتفيد حقيقته، لو أنهم فتشوا الكتب. وكونه مولودا في بيت لحم، هه أيضا إشارة نبوية تفيد حقيقته، لو أنهم فتشوا الكتب. وهكذا نرى أنه حتى الظاهر عجزوا عن أن يسيروا على هواه ليدخلوا إلى الحقيقة المخفية تحته. لذلك جاهر المسيح بصوت عال، لأن كلمة «نادى» تأتي باليونانية ( ) وتفيد «الصراخ» أو «المناداة بصوت عال»؛ وقال: «من نفسي لم آت، بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفزنه». وهكذا بدأ المسيح يستعلن لهم ما هو تحت الظاهر، أي من أين أتى ومن هو: أمور تمت إلى الحق الذي يفوق معرفتهم الناموسية، ويلزم أن يتقبلوها لتكمل معرفتهم. فـ«الحق» الذي أرسل المسيح لا يعرفه إلا المسيح، والمسيح يعرفه لأنه منه، أي أنه هو نفسه من الحق. والكلام كان واضحا بالنسبة للسامعين إذ أدركوا أنه يتكلم عن الله، وأنه هو من الله، وأن الله هو الذي أرسله؛ لأنه قد سبق وأوضح ذلك مرارا. ولكن الجديد في الموضوع هو أن المسيح بذلك قد أخرس الذين يتماحكون بقولهم إن المسيح لما يأتي لا يعرف أحد من أين يأتي

---

[1] هذه الكتب المسماة أبوكريفا العهد القديم التي تعرض لهذا الموضوع هي سفر أخنوخ٤٨:٦ وسفر عزرا الرابع ١٣:٥١.

ولا من هو. فهو الآن يقول لهم جهارا وفي الهيكل إني أتيت من عند الله، من حيث لا يعرفون، وليس من الأرض أو البحر، وأنه هو ابن الله، وليس كما يظنون أنه ابن يوسف

ولما فهموا أنهم في نظره لا يعرفون الله ولا يعرفون حتى الكتب، اغتاظوا وتحركوا و«طلبوا أن يمسكوه»، لأن انفعالهم كان على مستوى الهوس الناموسي. ويكمل الإنجيل أنهم لم يستطيعوا أن يلقوا عليه اليد لأن ذلك كان فوق طاقتهم الهزيلة، ولأنه ينبغي أنه هو الذي يسلم ذاته حب التدبير الإلهي عندما تأتي الساعة!...

ولكن في الجانب الأخر كان قوم يسمعون ويميزون بين الحق والكذب وبين النور والظلمة. قوم رأوا في كل آية عملها المسيح برهانا صادقا على دعوته، ثم رأوا في العدد المهول من الآيات المعمولة تأكيدا على صدق دعوته. ويمكن أن ندعوهم مؤمني الآيات: «ألعل المسيح متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا؟». ونفهم من قولهم هذا أنهم كانوا يطبقون، في أفكارهم، بين المسيا الذي سمعوا عنه وعن أوصافه من المعلمين وبين يسوع الواقف أمامهم ووراءه هذه الآيات كلها!...

ج _ تعاليم موجهة إلى الخدام المرسلين من الفريسيين ورؤساء الكهنة (٧:٣٢-٣٦)

« فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا مَعَكُمْ زَمَاناً يَسِيراً بَعْدُ ثُمَّ أَمْضِي إِلَى الَّذِي أَرْسَلَنِي. سَتَطْلُبُونَنِي وَلاَ تَجِدُونَنِي وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا». فَقَالَ الْيَهُودُ فِيمَا بَيْنَهُمْ: «إِلَى أَيْنَ هَذَا مُزْمِعٌ أَنْ يَذْهَبَ حَتَّى لاَ نَجِدَهُ نَحْنُ؟ أَلَعَلَّهُ مُزْمِعٌ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى شَتَاتِ الْيُونَانِيِّينَ وَيُعَلِّمَ الْيُونَانِيِّينَ؟ مَا هَذَا الْقَوْلُ الَّذِي قَالَ: سَتَطْلُبُونَنِي وَلاَ تَجِدُونَنِي وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا؟».

الآن نعن ندخل المرحلة الثالثة من المحادثة؛ كان حديث الشعب عن المسيح يلتقط أولا بأول ويُبلغ به مجمع السنهدريم الذي يضم كل الطبقات الدينية المسئولة، من فريسيين ورؤساء كهنة عاملين وغير عاملين. فبمجرد أن بلغ السنهدريم خبر إنحياز قطاع من الشعب لتعاليم المسيح، تشكلت لجنة في الحال، وأرسلت مجموعة من الخدم، وهم ضباط يأتمرون بأمر السنهدريم، لهم صفة رسمية تخول لهم القبض على الأشخاص.

رؤساء الكهنة: وهذه الفئة تتشكل من الرؤساء السابقين: حنان، والرئيس الحالي قيافا، ومن يساعده من أبنائهم: أليعازار بن حنان، وسمعان بن قمحيت، وإساعيل بن قابي، وكذلك أعضاء أُخر من العائلات الرئاسية، علماً بأن لقب رؤساء الكهنة لا يمت للوظيفة الدينية بقدر ما يعني العمل السياسي، كما نسمع ذلك في سفر الأعمال: «وحدث في الغد أن رؤساءهم وشيوخهم وكتبتهم اجتمعوا إلى أورشليم مع حنان رئيس الكهنة وقيافا ويوحنا والإسكندر وجميع الذين كانوا من عشيرة رؤساء الكهنة» (أع٤:٥-٦). وهذه التشكيلة هي صورة للسنهدريم، وهو الهيئة العليا لمحكمة القضاء العالي، ومركزها أورشليم، والتي تشكلت لأداء عملها أثناء حكم الرومان وكان عليها تصريف الأمور، ولكن لم يكن في سلطتها إصدار حكم الموت على أحد. وكان من سياسة الرومان أن يساندوا سلطة السنهدريم.

والسنهدريم كان يتكون من ثلاث طبقات:

الاولى: رؤساء الكهنة العاملين وكل رؤساء الكهنة السابقين وبعض أبنائهم، وهي الهيئة الأرستقراطية في أورشليم، وكان مركز عملهم ورزقهم من الهيكل، ولم يكن لهم صلة كبيرة بالمجامع المحلية. وكانوا يلعبون بمصير الأمة اليهودية تحت ستار السلطة الدينية.

الثانية: الصدوقيون وكانوا يتسمون بالكهنة أو الشيوخ. ولم يكونوا كهنة بالمعنى الديني ولكنهم كانوا دائما ملتصقين برؤساء الكهنة، ولهم صفة قضائية. والكهنة ورؤساء الكهنة كانوا في عداء وصدام خفي مستمر مع الطبقة الثالثة.

الثالثة: وهم «الفريسيون» أو «الكتبة» وهم ما يمكن أن نسميهم طبقة المحامين ويسمون باليونانية «الكتبة» أو «الناموسيون» (ولم يذكرهم بهذا الاسم القديس يوحنا في إنجيله)، وكانوا يذكرون تحت اسم «الفريسيين». وهؤلاء كانت لهم دراية دقيقة وواسعة بالناموس اليهودي والتقاليد المتعلقة به. وكانت وظيفتهم متابعة تطبيق الشريعة بترقت يفوق حد الوصف. وكانت تدخلاتهم وسلطانهم متزايدين على المجامع المحلية وليس الهيكل؛ أي لم يكن لهم تدخل في مراسيم العبادة، وإنما الحفاظ عل التقاليد وتعاليمها. لذلك كان صدامهم مع المسيح متواصلا، وكانوا يندسون وسط الشعب ليديروا الحوار والأمثلة والإعتراضات، وكانوا يبلغون السنهدريم في الحال بأي انحراف عن أفكارهم المقفولة. وقد ورد ذكرهم تحت اسم الفريسيين: «فقال الفريسيون بعضهم لبعض: انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً (لم يحسنوا إحكام التضييق عليه وعلى تعاليمه) هوذا العالم قد ذهب وراءه.» (يو١٢: ١٩)

وقد انضم هؤلاء مع الصدوقيين (الكهنة) في عملية القبض على المسيح ومحاكمته، تحت اسم الفريسيين: «فأخذ يهوذا الجند وخداماً (ضباط) من عند رؤساء الكهنة والفريسيين وجاءوا إلى هناك بمشاعل ...» (يو١٨: ٣)

«فأرسل الفريسيون ورؤساء الكهنة»: فالمحركون الأساسيون في هذه العملية هم الفريسيون. ولكن بدون أمر رسمي من رؤساء الكهنة لا يمكن تنفيذ أي حكم في السنهدريم. لذلك نجد أن أية حركة نحو تطبيق أية عملية يلزم أن يشترك فيها رؤساء الكهنة مع الفريسيين، كما يجيء في (٧: ٤٥ و ١١: ٥٧)، حيث يكونان معاً السلطة المنفذة للسنهدريم.

«فقال لهم يسوع أنا معكم زماناً يسيراً بعد، ثم أمضي إلى الذي أرسلني»: المسيح هنا أمام ضباط السنهدريم الذين معهم أمر للقبض عليه، يخاطبهم الرب بصفتهم أنهم هم الذين سيقبضون عليه فعلا بعد قليل (يوم الخميس). فما معنى التسرع «وهو» ليس معه أمر (من الآب) بالتسليم؟

الخدام الضباط وجدوا أنفسهم أمام سلطة ذات مستوى أرقى وأعلى لم يواجهوها من قبل، شلت أيديهم وجمدت أرجلهم. لم يكن سهلا على أنفسهم ولا على وظائفهم أن يعودوا بدونه، ولكن كان سهلا عليهم أن يفقدوا «هذه» و«تلك» ولا يمدوا أيديهم عليه!!! لم يكن الخوف وحده الذي أرعبهم من الاقتراب إليه، ولكن كلامه كان فيه روح وحياة أنعشت نفوسهم المجدبة، ورفعت من أرواحهم فوق السنهدريم والقوانين والوظائف والحياة والموت. فعادوا فرحين لأنهم لم يقبضوا عليه، وليكن ما يكون ...

أما الزمان اليسير الذي حسبه الرب وقاسه: فكان ستة شهور ليأتي الفصح الأخير وليكمل الزمان ويُذبح المسيح فصحنا ...

«ثم أمضي إلى الذي أرسلني»: كلمة «أمضى» هنا، وهي بمعنى مجرد الذهاب، تأتي مترادفة مع كلمتين بنفس المعنى ولكن بشرح آخر: «وإن مضيت وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم إلى ...» (يو١٤: ٣). والكلمة الثالثة: «إن ذهبت أرسله إليكم» (يو١٦: ٧). ويهمنا هنا أن نشرح الفرق بين هذه الثلاثة الأفعال المترادفة.

فالاولى: «أمضي إلى الذي أرسلني» (٧: ٣٣). المعنى هنا يفيد عملا شخصيا بمعنى «الإنسحاب». وقد أتت أيضا في يو٨: ١٤: «وأعلم من أين أتيت وإلى أين أذهب». وفي الآية ١٣: ٣ «وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضى».

وفي الآية ٤:١٤ «وتعلمون حيث أنا أذهب وتعلمون الطريق». وفي الآية ٥:١٦ «وأما الآن فأنا ماض إلى الذي أرسلني». ويلاحظ هنا أن معنى المضي في اللغة اليونانية هو مجرد إنسحاب شخصي يفيد معناه فقط .

والثانية: وقد أتت في الآية ٣:١٤ «وإذ مضيت وأعددت لكم مكانا ... ». وفي الآية ٣:١٣ « ألعله مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين ويعلم هناك». وفي الآية ٧:١٦ «ولكن إن ذهبت أرسله إليكم». وهنا ينصب معنى «الذهاب» باللغة اليونانية على القصد منه، فهو ذهاب ومضي له عمل وهدف. فيظهر الذهاب أنه مكمل لإرسالية لها غاية.

والثالثة: وقد أتت في ٧:١٦ «إنه خير لكم أن أنطلق». وفي الآية ٦٨:٦ «يا رب إلى من نذهب وكلام الحياة الأبدية عندك». وهنا الذهاب يأتي باللغة اليونانية بمعنى الفراق فقط. ومجرد الفراق هو الذي تشدد عليه الآية بالرغم من أن الفراق نفسع قد يُنشىء شيئاً آخر

وقد اعتنينا بتوضيح هذه الفروقات لسبب واحد، وهو أن اللغة العربية تقف عاجزة في مواقف كثيرة عن أن تعبر عن المعنى بكلمة واحدة، فتأتي الكلمة غير كافية إطلاقاً لشرح المعنى كما رأينا. فالذهاب قد يكون لعمل ما، وقد يكون إنسحاباً، وقد يكون مجرد ذهاب فرقة.

«أمضى إلى الذي أرسلني» : لا يزال المسيح هنا يخاطب الين أرسلهم السنهدريم، وهو يتكلم بنفس المشاعر التي تجول في قلوبهم فهو مُرسل كما هم مُرسلون، هم مرسلون من السنهدريم وهو مرسل من الله. والكلام واضح لهم ومؤثر للغاية. رسالتهم قبض ودينونة وعنف، هم كرهوها أشد الكره، ولولا أكل العيش لتركوها. ورسالته وضحت أمامهم أنها للحب والسلام والفرح والشفاء والشكر. لقد خجلوا جداً من أنفسهم وعادوا يتحدثون بفضل الذي سمعوه»

«ستطلبونني ولا تجدونني وحيث أكون أنا لا تستطيعون أنتم أن تأتوا»: بمجرد سماع هذه الآية يتوارد إلى الذهن قول الرب: «اطلبوا تجدوا» (مت٧:٧). ولكن هنا للأسف سيطلبون ولا يجدون، ليس لفوات الوقت، ولكن لفوات الفهم والإدراك والتعرف على المرسل والراسل. فهي فرصة حرجة للغاية لا تتكرر ولن تتكرر بالنسبة للذين رأوه وأنكروه، للذين سمعوه ورفضوه، للذين تحدث إليهم وابتسم في وجههم وأفاض من حبه عليهم، وفي النهاية رجعوا إلى الوراء ولم يعودوا يسيرون لا معه ولا خلفه. هؤلاء سيطلبونه فيما بعد، ولكن لن يجدوه لأنه يكون قد أنهى رسالة النظر والسمع واللمس، ودخل في مجال مجد التجلي الأبدي حيث لا يرى بعد بالعين بل بالإيمان ... سيذهب المسيح كعريس إلى خدره الأبدي السري، ويغلق الباب حينما تغرب شمس يوم الإفتقاد: «كم مرة أردت أن أجمع أولادك ... ولم تريدوا» (لو٣٤:١٣). فإلى الذين قبلوه يقول: «تعالوا إلي»؛ وإلى الذين رفضوه يقول: «اذهبوا عني». إنها لحظات في عمر الإنسان تقرر مصيره الأبدي والذين تفوتهم ساعة الخلاص المعروضة دائماً «الآن»، يطلبونها بعد فلا يجدونها.

« ... ألعله مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين. ويعلم اليونانيين»: لقد بح صوت المسيح إزاء آذان مسدودة. لقد سبق ورد في الآيات السابقة على «من أين أتى»، «ومن هو» التي كانت علة التعرف عليه، وهم علموا أنه يقول عن الله مصدر كيانه ومصدر مجيئه. وهوذا الآن يكمل القول أنه ذاهب إلى الذي أرسله، ولكن إلى هناك لا يستطيع أحد أن يتبعه، وهو إن كان معهم الآن فهو إلى زمان قليل للغاية ... ولكن طاشت عقولهم في جغرافية الأرض والى أماكن التمشي فيها واستقرت في مواضع اليونانيين. أليس أنه مولود في الناصرة أو بيت لحم وأبو وأمه عندنا ... فعساه قد قرر أن يغير المواضع والأوطان، إن كان قد عز عليه العودة إلى الجليل. إلى هذا الحد الضيق الغريب انتهت أفكارهم وتأملاتهم وانتهى ذكاؤهم الأحمق. ولكن شيئاً واحداً صادقاً ظل لاصقاً بعقولهم

هو أنه ذاهب، لا خوفاً منهم، ولكن رغبة في التعليم، فهولا يزال في مخيلتهم أنه هو هو«المعلم» حيث يعلم هناك شتات اليهود. ولهذا الأمر ارتاحت جداً عقول ضباط السنهدريم، فهو وان كان سيكون نورا للأمم هناك فهو لا يزال يطلب مجد إسرائيل. على قدر هذا تنبأوا وهم لا يدرون ... ولكن بقي السؤال محيرا لعقولهم: ما هذا القول الذي قال، ستطلبونني ولا تجدونني وحيث أكون أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا؟ وكان على المسيح أن يضع هذا في قلبه ليوضحه لنا شيئاً فشيئاً.

٣- محادثات اليوم الأخير من العيد (٧:٣٧-٥٣)

« وَفِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ الْعَظِيمِ مِنَ الْعِيدِ وَقَفَ يَسُوعُ وَنَادَى: «إِنْ عَطِشَ أَحَدٌ فَلْيُقْبِلْ إِلَيَّ وَيَشْرَبْ. مَنْ آمَنَ بِي كَمَا قَالَ الْكِتَابُ تَجْرِي مِنْ بَطْنِهِ أَنْهَارُ مَاءٍ حَيٍّ». قَالَ هَذَا عَنِ الرُّوحِ الَّذِي كَانَ الْمُؤْمِنُونَ بِهِ مُزْمِعِينَ أَنْ يَقْبَلُوهُ لأَنَّ الرُّوحَ الْقُدُسَ لَمْ يَكُنْ قَدْ أُعْطِيَ بَعْدُ لأَنَّ يَسُوعَ لَمْ يَكُنْ قَدْ مُجِّدَ بَعْدُ.»

«وفي اليوم الأخير العظيم من العيد»: كان العيد سبعة أيام يعيشونها في مظال من فروع الشجر التي تمثل التيه أربعين سنة في المظال في البرية، أما اليوم الثامن فكان يُعامل كأيام السبوت، فكانت له كرامة السبت، لذلك سُمي باليوم الكبير أو العظيم، ويمثل عندهم في الذكرى يوم الوصول إلى أرض كنعان. والآن في زماننا هذا يعيد اليهود له عيداً خاصاً يسمونه «الهنوكة» أوعيد الأنوار، وهو يلي عيد الشكر عند الأمريكان، ويعيدون له بإنارة المنارة ذات الشعب الثماني، حيث تبقى الشعبة الثامنة لتنار في هذا اليوم.

وفي كل يوم من الأيام السبعة، حسب ما سبق ووضحنا، كان رئيس الكهنة يذهب باحتفال خاص إلى بركة سلوام ويملأ جرة من الذهب ماء يصبها على مذبح النحاس وقت ذبيحة الصباح، حيث تجري المياه في مجرى خاص من الفضة لتصب في وادي قدرون. وأثناء ذلك يسبحون تسبحة إشعياء النبي مع المزامير.

أما في اليوم الثامن فتتوقف هذه العملية حيث يُمنع العمل فيه. وقد وجد الرب أن هذه هي المناسبة الوحيدة حيث وقف، ويبدو أنه وقف على ملكان عال، ونادى قائلا:

«إن عطش أحد فليقبل إلي»: إن طقس حمل الماء وصبه على المذبح كان يمثل خروج الماء من الصخرة في البرية التي شرب منها الشعب. وبولس الرسول رأى أن هذه الصخرة التي كانت تتبعهم هي المسيح. ولم يكن استدلاله على ذلك من عنده، ولكنه أدرك ذلك بالروح، من موقف الرب في هذا اليوم الثامن بالذات من العيد ليقول، عوض ماء الصخرة: «إن عطش أحد فليقبل إلي ويشرب». وطبعاً، سبقت السامرية أهل أورشليم في شربها من هذا الماء الحي عوض ماء بئر سوخار.

كما سبق أن علم المسيح بذلك في يو ٦:٣٥ في المناسبة التي أوضح فيها أنه هو المن الحقيقي، خبز الحياة، جسده الذي سيبذله من أجل حياة العالم، ليأكل المؤمنون ولا يموتون بل يحيون إلى الأبد: «فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة. من يقبل إلي فلا يجوع، ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً»، أي أنه هو المن، وهو الصخرة في برية العالم، للأكل الحقيقي والشرب الحقيقي. لقد أخذ على عاتقه أن يعولنا في برية هذا العالم حتى نصل إلى الوطن السمائي الدائم بخبزه السري للغاية ومائه السري لأقصى غاية. فالإرتواء منه للقلب العطشان لا يبقى إرتواء وحسب ولكنه يحول الصخر إل نهر، فيصير ينبوع إرتواء للآخرين. شيء يفوق عقل العطشان!! أما السر في ذلك فلأن الإيمان بالمسيح، الذي هو مصدر الإرتواء، يأتي بالإتحاد بالرب. فالرب، حينما نشرب من ملئه، يصير فينا كما هو

ينبوع إرتواء للآخرين. نفتح فمنا والروح يتكلم، ونتكلم والروح يعلم، ونعلم والروح يعمد، ونعمد والمسيح يخلق إنساناً جديداً على صورة خالقه في القداسة والمجد. لقد ذهب زمان الحبل بالأنين والولادة بالوجع. فبطن الإنسان، عوض أن كانت مقر الخطيئة والموت، صارت عرشاً لله والروح. وعوض أن كانت تحبل بالخطية وتلد بالألم والدموع، صارت تحبل بالروح لتجري منها أنهار ماء وينابيع الفرح للحياة ... والإنسان الذي كان يأكل من تراب الأرض بعرق جبينه ويمزج لقمته بدموعه، صار يأكل خبز الله النازل من السماء ويغمس لقمته في دم ابن الله.

«من آمن بي كما قال الكتاب تجري من بطنه أنهار ماء حي»: الكتاب هنا يعود بالسامع والقارىء إلى قصة الصخرة في البرية التي عليها سيبني المسيح كنيسته ويخلق منها الإنسان الجديد على صورته، وهي نفس قراءات مراسيم الهيكل في عيد المظال.

إذ يقرأون فصلا من سفر الخروج: «ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة في حوريب فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب» (خر١٧:٦). وهكذا لم تعد الصخرة صخرة، بل ينبوع سقي!

كما يقرأون فصلاً من سفر العدد: «ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين، فخرج ماء غزير، فشربت الجماعة ومواشيها» (عد٢٠:١١)، وهنا الصخرة لم تعد صخرة، بل نهرا يفيض.

ثم يقرأون فصلا من سفر التثنية: «الذي أخرج لك الماء من الصخرة الصوان» (تث٨:١٥)؛ ومن سفر المزامير: «المحول الصخرة إلى جداول مياه، الصوان إلى ينابيع مياه» (مز١١٤:٨)، وهنا الصخرة تتحول إلى جداول وينابيع.

وهكذا فليس مثل الخاطىء الذي نشفت روحه وجفت مشاعره نحو الله إلا الصخرة الصوان .

وليس الذي آمن بالمسيح إلا هذه الصخرة عينها، حينما يمسها روح الله لتخرج منها أنهار وينابيع وجداول. وسر الماء والإرتواء يظل هو المسيح وحده! ...

وهكذا يستعلن المسيح نفسه في الصخرة، ثم يستعلن عمله في النفس البشرية، مؤكدا أنه هو وحده الذي فيه ومنه الروح والحياة قديماً وجديداً.

«قالت هذا عن الروح الذي كان المؤمنون به مزمعين أن يقبلوه. لأن الروح القدس لم يكن قد أعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مجد بعد»: هنا يتدخل القديس يوحنا لكي، من خبرته الخاصة ومن مجرى الأيام والحوادث، يشرح ما التبس في قول المسيح في حينه، إذ كيف تخرج من بطن الإنسان، إذا آمن بالمسيح، أنهار ماء حي والكتاب لم يذكر شيئاً مثل هذا بالنسبة للماء؛ فهذا ظل في الحقيقة أحجية ولغزاً ، إلى أن حل الروح القدس بعد الصليب والقيامة وانسكب على التلاميذ، فشعروا كيف ينسكب الروح عليهم كالماء ويفيض الروح من قلوبهم وأفواههم كأنهار.

وهنا يتضح قول إشعياء : «لأني أسكب ماء على العطشان، وسيولاً على اليابسة، أسكب روحي على نسلك وبركتي على ذريتك.» (إش٤٤:٣)

ونبوة يوئيل: «و يكون بعد ذلك أني أسكب روحي على كل بشر، فيتنبأ بنوكم وبناتكم، ويحلم شيوخكم أحلاماً، ويرى شبانكم رؤى، وعلى العبيد أيضاً وعلى الإماء أسكب روحي في تلك الأيام» (يوئيل٢:٢٨-٢٩)؛ حيث «السكب» صفة تختص بالماء. وهو هنا يصف بها عطية الروح القدس.

وإشعياء النبي يصف الماء الذي نبع من الصخرة على هذا المستوى من عمل الروح: «قولوا قد فدى الرب عبده

يعقوب ولم يعطشوا في القفار التي سيرهم فيها. أجرى لهم من الصخرة ماء وشق الصخرة ففاضت المياه» (إش٤٨: ٢٠-٢١). وهكذا، كما فاضت المياه من بطن الصخرة، هكذا فاض الروح القدس من بطن الذين شربوا من نعمة المسيح، ولم يتوقف فيضانهم، فصار كنهر جار، جرى هذه السنين كلها ولم يتوقف حتى جرفنا تياره نحن أيضاً في أواخر الدهور.

«لأن الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد، لأن يسوع لم يكن قد مُجد بعد»: نعلم أن انسكاب الروح القدس هو عطية الآب حسب وعد الآب (أع١: ٤)، حتى إن الروح القدس سُمي «روح الموعد» (أف١: ١٣). وقد ارتبط موعد انسكاب الروح بصعود المسيح وانطلاقه إلى الآب: «إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي» (يو١٦: ٧)، فطالما بقي المسيح على الأرض على المستوى الزمني تعطل انسكاب الروح.

أما تمجيد المسيح فهو اصطلاح وضعه القديس يوحنا ليشمل النصرة عل الصليب والموت والنصرة عل العالم وتكميل العمل الخلاصي الذي آل إلى المجد.

أما مجد الصليب والموت فواضح من قول الرب: «الآن تمجد ابن الإنسان» (يو١٣: ٣١)، عند أول خطوه فى تقرير الموت على الصليب، لحظة خيانة يهوذا.

وأما النصرة على العالم فواضح من قول المسيح: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً» (يو١٢: ٣١)، وذلك في لحظة سماع صوت الآب: «مجدت وأمجد أيضاً.» (يو١٢: ٢٨)

وأما عن تكميل العمل الخلاصي فواضح من قول الرب في صلاته للآب: «العمل الذي أعطيتني لأعمل قد أكملته، والأن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم.» (يو١٧: ٤-٥)

أما مجد الصعود والعودة إلى الآب، فواضح من قول الرب: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني.» (يو١٧: ٢٤)

فكل خطوات ودرجات المجد جمعها القديس يوحنا في قول واحد: «لم يكن قد مجد بعد». وهذا يقيم لاهوتياً على أعلى مستوى، إذ نرى أعمال المسيح متحدة في وحدة المجد الواحد. فالقديس يوحنا، بهذا القول الواحد الذي تبرهنه جميع أقوال الرب، يجعل أعمال المسيح الاستعلانية في الموت والقيامة والصعود وحدة مطلقة في المجد ليس فيها ما هو أقل من المجد، الذي تصوره آلامه وتذللاته: «ظلم أما هو فتذلل» (إش٥٣: ٧)، وقبوله الموت كخاطىء، وما هو ممجد الذي تصوره القيامة، وما هو على مستوى المجد الأسنى في أعلى السموات. بل إن القديس يوحنا يقرر، في واقعية مذهلة، أن جميع صور الآلام والصليب تقف في قوة مجدها وكرامتها على مستوى مجد الجلوس عن يمين الآب سواء بسواء.

ولتوضيح القديس يوحنا لكلام المسيح وزن عال جدا، فكلام المسيح: «من آمن بي تجري من بطنه أنهار ماء حي»، هو في ذاته وعد معطل، لأن المسيح لم يكن قد صُلب وقام وانطلق إلى الآب، ولم يكن قد انسكب الروح القدس بعد؛ مما جعل وعد المسيح غير المحقق موضع سؤال محير، لولا تدخل القديس يوحنا بالشرح. فهو تدخل إلهامي أنقذ حيرتنا، لأن التلاميذ على سبيل المثال ظلوا عطاشى وبلا أنهار تفيض منهم حتى وإلى ما بعد القيامة. ولكن هناك، في يوم الخمسين، بدأ قول المسيح يتحقق ويُفهم.

والقديس يوحنا يتدخل، لا ليشرح ما غمض من كلام المسيح، بل ليثبت صدق قول الرب بالدرجة الاولى

«الروح القدس لم يكن قد أُعطي بعد»: وهذا القول في ذاته أيضا محير، لأن في الأصل اليوناني في معظم

المخطوطات لا توجد كلمة «أُعطي» فهي مُضافة. فكيف أن الروح لم يكن بعد، مع أن الروح عامل في الخليقة وفي التجسد وفي كلام الرب وأقواله وجميع أعماله؟ الحقيقة هنا تختص بنا نحن، بالبشرية التي لم تكن مهيأة بعد أن تتقبل الروح القدس وعطاياه إلا بعد أن دخل المسيح إلى الأقداس العليا فوجد لنا فداء أبدياً. فالبشرية انتقلت نقلات متلاحقة في شخص المسيح وبشريته من تجسد، لموت، لقيامة، لصعود، وهي تترقى معه وفيه، ولكنها لم تبلغ كمال استحقاقها لتكون في شركة حقيقية مقدسة مع الله والمسيح إلا بعد أن تراءى المسيح أمام الآب، وهو لابس بشريتنا، وجروحه فيه كحمل أُكملت ذبيحته، فكمل بذلك فداء الإنسان وتصالحه مع الآب. لذلك ظل الروح القدس معطلا عن انسكابه على الإنسان، حتى أكمل المسيح في نفسه المصالحة النهائية مع الآب، واستعاد الابن كل مجد الله كابن، فانفتح الطريق المغلق والمحروس بلهيب نار الشاروبيم إلى قلب الآب ونعمته، فصار دخولنا إلى الآب بلا مانع. عندئذ انسكب الروح القدس ليعطينا كل ما اكتسبه المسيح لحسابنا: «يأخذ مما لى ويخبركم.» (يو ١٦:١٤)

وبذلك يلزمنا أن نفهم أن علاقة تمجيد المسيح بمجيء الروح لا تتعلق بشخص المسيح في حد ذاته، وهي لا تنصب على طبيعة المسيح بالتالى وكأنه كان ينقصها المجد، بقدر ما تنصب على طبيعتنا نحن. فتعذر مجيء الروح القدس قبل أن يكمل المسيح مجده أمر يختص بطبيعتنا نحن بالدرجة الاولى؛ إذ قبل أن يكمل المسيح أعمال الخلاص من نحونا، التى هى أعمال تمجيده، لم نكن نحن مؤهلين لمجيء الروح القدس.

٧: ٤٠-٤٤: «فَكَثِيرُونَ مِنَ الْجَمْعِ لَمَّا سَمِعُوا هذَا الْكَلاَمَ قَالُوا: «هذَا بِالْحَقِيقَةِ هُوَ النَّبِيُّ». آخَرُونَ قَالُوا: «هذَا هُوَ الْمَسِيحُ». وَآخَرُونَ قَالُوا: «أَلَعَلَّ الْمَسِيحَ مِنَ الْجَلِيلِ يَأْتِي؟ أَلَمْ يَقُلِ الْكِتَابُ إِنَّهُ مِنْ نَسْلِ دَاوُدَ وَمِنْ بَيْتِ لَحْمٍ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَ دَاوُدُ فِيهَا يَأْتِي الْمَسِيحُ؟» فَحَدَثَ انْشِقَاقٌ فِي الْجَمْعِ لِسَبَبِهِ. وَكَانَ قَوْمٌ مِنْهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُمْسِكُوهُ وَلكِنْ لَمْ يُلْقِ أَحَدٌ عَلَيْهِ الأَيَادِيَ.».

انقسم السامعون إلى ثلاثة أقسام:

فالبعض رأوا في المسيح تحقيق نبوة موسى كما جاءت في سفر التثنية (١٨:١٥)، وبذلك تحقق لهم الرجاء على مستوى الأمة للخلاص السياسي. وللأسف، فإن المسيح لا يمثل هذا الرجاء الدنيوي، فهو حقا جاء على مستوى النبوة، كما شرح ذلك بإسهاب بطرس الرسول في خطابه في سفر الأعمال في الأصحاح الثالث (٢٠-٢٦)[1]، ولكن ليس لرد الأمة من عبوديتها للرومان أو لإنزال المن من السماء، ولكن «لرد كل واحد منكم عن شروره»؛ فهو خلاص فردي وروحي وليس خلاص أمة وسياسة.

أما البعض الأخر فوجد فيه المسيا، ودليله الآيات التي صنعها أمامهم. فهو مسيا المعجزات في نظرهم الذي يمثل القوة الخارقة لمزيد من البركات الدنيوية والجسدية. وللأسف أيضا فإن المسيح لم يجىء ليصنع آيات، بل لتكون

[1] وَيُرْسِلَ يَسُوعَ الْمَسِيحَ الْمُبَشَّرَ بِهِ لَكُمْ قَبْلُ. الَّذِي يَنْبَغِي أَنَّ السَّمَاءَ تَقْبَلُهُ إِلَى أَزْمِنَةِ رَدِّ كُلِّ شَيْءٍ الَّتِي تَكَلَّمَ عَنْهَا اللهُ بِفَمِ جَمِيعِ أَنْبِيَائِهِ الْقِدِّيسِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ. فَإِنَّ مُوسَى قَالَ لِلآبَاءِ: إِنَّ نَبِيّاً مِثْلِي سَيُقِيمُ لَكُمُ الرَّبُّ إِلَهُكُمْ مِنْ إِخْوَتِكُمْ. لَهُ تَسْمَعُونَ فِي كُلِّ مَا يُكَلِّمُكُمْ بِهِ. وَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ لاَ تَسْمَعُ لِذَلِكَ النَّبِيِّ تُبَادُ مِنَ الشَّعْبِ. وَجَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ أَيْضاً مِنْ صَمُوئِيلَ فَمَا بَعْدَهُ جَمِيعُ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا سَبَقُوا وَأَنْبَأُوا بِهَذِهِ الأَيَّامِ. أَنْتُمْ أَبْنَاءُ الأَنْبِيَاءِ وَالْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدَ بِهِ اللهُ آبَاءَنَا قَائِلاً لإِبْرَاهِيمَ: وَبِنَسْلِكَ تَتَبَارَكُ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ. إِلَيْكُمْ أَوَّلاً إِذْ أَقَامَ اللهُ فَتَاهُ يَسُوعَ أَرْسَلَهُ يُبَارِكُكُمْ بِرَدِّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ عَنْ شُرُورِهِ»

آياته وأعماله كلها آية تشير إلى شخصه كابن الله وإلى طبيعته الإلهية التي منحها للانسان عامة: ليرفعه إلى خليقة جديدة جديرة بالموطن السماوي.

أما البعض الثالث فقد وقفت أمامه العثرات والعقبات التي فرضتها تعاليم الربيين أمامهم، فجعلتهم يتركون كل ما قاله وعمله المسيح جانبا ليبحثوا عن مولده وموطنه. والقديس يوحنا يسجل لهم نتائج فحوصاتهم، إذ رأوا أنه لا ينبغي أن يأتي المسيح من الجليل بل يتحتم أن يأتي من يت لحم كأقوال الأنبياء. وهنا يهدف القديس يوحنا من تسجيله الحرفي لأقوالهم هذه إلى هدفين:

الأول: وهو الأبسط في نظره، أنهم يجهلون تاريخ المسيح، لأنه وُلد فعلا في يت لحم، وجاهلون في تأكيداتهم، لأنهم يبحثون عن الظاهر.

أما الهدف الثاني: وهو الأعظم والأخطر، فإن القديس يوحنا يرى أنه حتى ولو صحت أبحاثهم أنه ولد في بيت لحم فإن ميلاده في بيت لحم لا يشير ولا يؤكد من أين جاء المسيح على مستوى الإرسالية وعلى مستوى الوطن الحقيقي وعل مستوى الطبيعة التي جاء بها: «تعرفونني وتعرفون من أين أنا، ولكن من نفسي لم آت بل الذي أرسلني هو حق الذي أنتم لستم تعرفونه» (يو٧:٢٨). وهذه هي المبادىء الأساسية التي نهج عليها القديس يوحنا في إنجيله فلم يذكر قصة ميلاده أصلاً، لأنه اهتم بموطنه السمائي.

٧:٤٥-٥٣«فَجَاءَ الْخُدَّامُ إِلَى رُؤَسَاءِ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيِّينَ. فَقَالَ هَؤُلاَءِ لَهُمْ: «لِمَاذَا لَمْ تَأْتُوا بِهِ؟». أَجَابَ الْخُدَّامُ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ قَطُّ إِنْسَانٌ هَكَذَا مِثْلَ هَذَا الإِنْسَانِ». فَأَجَابَهُمُ الْفَرِّيسِيُّونَ: «أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ أَيْضاً قَدْ ضَلَلْتُمْ؟ أَلَعَلَّ أَحَداً مِنَ الرُّؤَسَاءِ أَوْ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ آمَنَ بِهِ؟ وَلَكِنَّ هَذَا الشَّعْبَ الَّذِي لاَ يَفْهَمُ النَّامُوسَ هُوَ مَلْعُونٌ». قَالَ لَهُمْ نِيقُودِيمُوسُ الَّذِي جَاءَ إِلَيْهِ لَيْلاً وَهُوَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: «أَلَعَلَّ نَامُوسَنَا يَدِينُ إِنْسَاناً لَمْ يَسْمَعْ مِنْهُ أَوَّلاً وَيَعْرِفْ مَاذَا فَعَلَ؟». أَجَابُوا: «أَلَعَلَّكَ أَنْتَ أَيْضاً مِنَ الْجَلِيلِ؟ فَتِّشْ وَانْظُرْ! إِنَّهُ لَمْ يَقُمْ نَبِيٌّ مِنَ الْجَلِيلِ». فَمَضَى كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى بَيْتِهِ».

٨:١ «أَمَّا يَسُوعُ فَمَضَى إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ.»

عادت حملة الضباط (البوليس) إلى السنهدريم المنعقد بحضوو بعض الفريسيين المختارين ورؤساء الكهنة دون أن ينفذوا أمر المجمع بالقبض عليه. وكان السبب المباشر أنهم فعلا لم يستطيعوا ذلك.

أولاً ، لأنهم شعروا بقوة الرب الطاغية التي حلت أوصالهم، فلم يستطيعوا الإقدام على القبض عليه.

ثانياً، لأن الرأي الشعبي أمامهم كان معظمه منحازاً للمسيح، وكان من الخطورة أن يقدموا على هذا العمل.

أما العذر الذي قدموه فكان في حقيقته تحديا لأوامر السنهدريم، لأن معناه أن هذا ليس إنساناً عادياً يليق به القبض عليه!! ويلاحظ القارىء التأكيد على نفي الوضع العادي للانسان بالنسبة للمسيح في الكلام: «لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان». فقوة الكلام هنا منصبة على هذا الإنسان أنه لير إنسان مثله، وثانياً على الكلام الذي سمعوه أن ليس كلام قط سُمع من إنسان مثل هذا الكلام!! وهذا في الواقع يسجله القديس يوحنا ليكشف الرأي الرسمي لبوليسى السنهدريم الذي يعتمد في تقريره على صدق الحالة أمامه والذي يحمل معنى حقيقة المسيح في شخصه: «ليس إنساناً» وفي كلامه «ليس كلاماً قط لإنسان».

أما رد الفريسيين الذين أخذوا المبادرة في الكلام وليس رؤساء الكهنة، وذلك طبعاً بسبب توترهم الأعمى الذي

يوقعهم دائماً في الخطأ حتى ضد القانون والناموس الذي يدعون حمايته، فكان قولهم:

«ألعلكم أنتم أيضاً ضللتم»: هنا الإتهام الموجه للضباط يصيب هدفين: الأول، أنهم خالفوا أوامر السنهدريم الصريحة بالقبض عليه دون فحص. والثاني، أنهم انحازوا إلى صفه وايدوا صحة كلامه، وبالتال عدم صحة الأمر بالقبض عليه. ولم يكن أمام الفريسيين المتسرعين في الإ تهام وفي إصدار الأوامر إلا أن يقدموا برهانا واهيا جداً للدفاع عن أنفسهم أمام إصرار الضباط على عدم صحة قرار القبض عليه ألا وهو أن يلوذوا بتقديم أعذار واهية أن أحدا من الرؤساء أو الفريسيين لم يؤمن به. وواضح أن هذا العذر يخرج عن مستوى مسئولية الضباط ولا يدخل في اختصاصات هيئة البوليس .

ولكن شعور الفريسيين بالكراهية والحقد ضد المسيح جعلهم ينقلبون على الشعب الذي انحاز إلى المسيح والذي سبب فشل مهمة الضباط في القبض على المسيح، فخرج السخط من أفواههم باللعنات على الشعب السالم.

«ولكن هذا الشعب الذي لا يفهم الناموس هو ملعون»: ومعروف أن طبقة المتعلمين من الكتبة والفريسيين والناموسيين، وهم المتشددون بحرفية الناموس والمترفعون بعلمهم، ومعهم الصدقيون (كهنة ورؤساء كهنة) وهم الطبقة الأرستقراطية المترفعة بوظائفهم (الإلهية)، كانوا جميعاً ينظرون إلى الشعب المسالم غير المتعلم بنظرة الإحتقار الشديد باعتبارهم «مساكين الأرض»، كغنم تساق بالعصي، يُشرب لبنها ويُنتف صوفها وتُسام كما تُسام البهيمة لهوى صاحبها. كما كان الشعب الذي لا يدرس الناموس ويمارسه بحرفيته، في نظرهم، ملعوناً، وذلك حسب حرفية أحكام الناموس والعمل به. وطبعاً العيب عيبهم، لأن نقص التعليم والجهالة ليست هي خطية الجاهل بل خطية المتعلم. ويكفي للتدليل على ذلك تعليم الربيين ن عدم استحقاق المرأة نهائياً لنوال أي تعليم عن الناموس[١] .

أما هذا العذر الذي قدمه هؤلاء الفريسيون بأن أحد الرؤساء أو الفريسيين لم يؤمن به، وهذه اللعنات التي صبها هؤلاء الفريسيون على الشعب، لم ترق لأحد الأعضاء الحاضرين لأنه كان يؤمن بالمسيح، ولكن خفية، وهو نيقوديموس «معلم إسرائيل» (يو٣: ١٠)، الذي زار المسيح ليلا. ويبدو أنه كان يتودد إلى الى المسيح. وكان صديقا للقديس يوحنا، وقد اعترف للمسيح وكثيرون معه بأنه «من الله». «يا معلم نعلم أنك أتيت من الله» (يو٣: ٢). لذلك انتهز نيقوديموس هذه الفرصة للرد على هؤلاء الفريسيين ردا أردعهم في الحقيقة، إذ أوضح لهم بطريق غير مباشر أنهم هم الذين لا يعملون بالناموس، أو بالحري، وبحسب أسلوب القديس يوحن، هم المستحقون اللعنة وليس الشعب الذي انحاز للمسيح.

«ألعل ناموسنا يدين إنساناً لم يُسمع منه أولا ويعرف ماذا فعل»: وبهذا القول يكون نيقوديموس قد انحاز للضباط الرافضين لصحة قرار القبض، وبطريق غير مباشر ساند المسيح إنما بالطريق القانوني.

«أجابوا وقالوا له: ألعلك أنت أيضا من الجليل. فتش وانظر. إنه لم يقم نبي من الجليل. فمضى كل واحد إلى بيته. أما يسوع فمضى إلى جبل الزيتون»: لم يستمعوا للنصيحة القانونية حسب الناموس، بل حثهم غضبهم أن ينقلبوا على نيقوديموس أيضا فأسندوا إليه جهالة الجليليين (الفلاحين)، وعن طريق خفي ألحقوا به عارا أن يكون من أتباع المسيح لأنه يحاول الدفاع عن واحد منهم. وهذا يوضح مدى الشطط الذي اندفعوا فيه.

---

[1] يذكر المعلم المشهور رابي إلعازر هذا القانون المستقر عند معلمي الناموس: أي رجل يعطي ابنته أي معرفة عن التوراة يكون بمثابة أنه يعلمها الدعارة .

ثم زوروا الحقيقة حينما قالوا: «لم يقم نبي من الجليل». وكأنهم أقاموا أنفسهم حكاما على العناية الإلهية يربطونها حينما أو حيثما شاءوا؛ علماً بأن نبياً مرموقاً، وهو يونان، كان من «جت حافر» بالجليل، فهو من سبط زبولون وهم سكنذ الجليل الأصليون (٢مل١٢:٢٥). ولكن، بلغة القديس يوحنا وأسلوبه. حتى ولو لم يكن قد قام نبي من الجليل، فهذا لا يمت إلى قضية ابن الله في شيء، وهو الذي نزل من السماء وبقي هناك «ابن الإنسان الذي هو في السماء». وما كان الجليل ولا كانت اليهودية إلا «موطئاً لقدميه».

تمت فى ٢٠١٧/٦/٨

الأصحاح الثامن

أَمَّا يَسُوعُ فَمَضَى إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ. ثُمَّ حَضَرَ أَيْضاً إِلَى الْهَيْكَلِ فِي الصُّبْحِ وَجَاءَ إِلَيْهِ جَمِيعُ الشَّعْبِ فَجَلَسَ يُعَلِّمُهُمْ. وَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ امْرَأَةً أُمْسِكَتْ فِي زِناً. وَلَمَّا أَقَامُوهَا فِي الْوَسَطِ. قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ أُمْسِكَتْ وَهِيَ تَزْنِي فِي ذَاتِ الْفِعْلِ. وَمُوسَى فِي النَّامُوسِ أَوْصَانَا أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ تُرْجَمُ. فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ؟». قَالُوا هَذَا لِيُجَرِّبُوهُ لِكَيْ يَكُونَ لَهُمْ مَا يَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَانْحَنَى إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ بِإِصْبِعِهِ عَلَى الأرض. وَلَمَّا اسْتَمَرُّوا يَسْأَلُونَهُ انْتَصَبَ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ!». ثُمَّ انْحَنَى أَيْضاً إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ عَلَى الأرض. وَأَمَّا هُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا وَكَانَتْ ضَمَائِرُهُمْ تُبَكِّتُهُمْ خَرَجُوا وَاحِداً فَوَاحِداً مُبْتَدِئِينَ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَى الآخِرِينَ. وَبَقِيَ يَسُوعُ وَحْدَهُ وَالْمَرْأَةُ وَاقِفَةٌ فِي الْوَسَطِ. فَلَمَّا انْتَصَبَ يَسُوعُ وَلَمْ يَنْظُرْ أَحَداً سِوَى الْمَرْأَةِ قَالَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ أَيْنَ هُمْ أُولَئِكَ الْمُشْتَكُونَ عَلَيْكِ؟ أَمَا دَانَكِ أَحَدٌ؟». فَقَالَتْ: «لاَ أَحَدَ يَا سَيِّدُ». فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ. اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضاً». ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً قَائِلاً: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فَلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ». فَقَالَ لَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ: «أَنْتَ تَشْهَدُ لِنَفْسِكَ. شَهَادَتُكَ لَيْسَتْ حَقّاً». أَجَابَ يَسُوعُ: «وَإِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَقٌّ لأَنِّي أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ وَإِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ آتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ. أَنْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ تَدِينُونَ أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ أَدِينُ أَحَداً. وَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَدِينُ فَدَيْنُونَتِي حَقٌّ لأَنِّي لَسْتُ وَحْدِي بَلْ أَنَا وَالآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي. وَأَيْضاً فِي نَامُوسِكُمْ مَكْتُوبٌ: أَنَّ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ حَقٌّ. أَنَا هُوَ الشَّاهِدُ لِنَفْسِي وَيَشْهَدُ لِي الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي». فَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ هُوَ أَبُوكَ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «لَسْتُمْ تَعْرِفُونَنِي أَنَا وَلاَ أَبِي. لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً». هَذَا الْكَلاَمُ قَالَهُ يَسُوعُ فِي الْخِزَانَةِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ. وَلَمْ يُمْسِكْهُ أَحَدٌ لأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ بَعْدُ. قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً: «أَنَا أَمْضِي وَسَتَطْلُبُونَنِي وَتَمُوتُونَ فِي خَطِيَّتِكُمْ. حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا». فَقَالَ الْيَهُودُ: «أَلَعَلَّهُ يَقْتُلُ نَفْسَهُ حَتَّى يَقُولُ: حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا؟». فَقَالَ لَهُمْ: « أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ. أَنْتُمْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ. فَقُلْتُ لَكُمْ إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ لأَنَّكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَنِّي أَنَا هُوَ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ». فَقَالُوا لَهُ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا مِنَ الْبَدْءِ مَا أُكَلِّمُكُمْ أَيْضاً بِهِ. إِنَّ لِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةً أَتَكَلَّمُ وَأَحْكُمُ بِهَا مِنْ نَحْوِكُمْ لَكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَقٌّ. وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ فَهَذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ». وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ عَنِ الآبِ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئاً مِنْ نَفْسِي بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهَذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ». وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ بِهَذَا آمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ. فَقَالَ يَسُوعُ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ: «إِنَّكُمْ إِنْ ثَبَتُّمْ فِي كَلاَمِي فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ تَلاَمِيذِي. وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ». أَجَابُوهُ: «إِنَّنَا ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ نُسْتَعْبَدْ لأَحَدٍ قَطُّ. كَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: إِنَّكُمْ تَصِيرُونَ أَحْرَاراً؟». أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ الْخَطِيَّةَ هُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيَّةِ. وَالْعَبْدُ لاَ يَبْقَى فِي الْبَيْتِ إِلَى الأبد أَمَّا الابن فَيَبْقَى إِلَى الأبد. فَإِنْ حَرَّرَكُمُ الابن فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ أَحْرَاراً. أَنَا عَالِمٌ أَنَّكُمْ ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ. لَكِنَّكُمْ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي لأَنَّ كَلاَمِي لاَ مَوْضِعَ لَهُ فِيكُمْ. أَنَا أَتَكَلَّمُ بِمَا رَأَيْتُ عِنْدَ أَبِي وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مَا رَأَيْتُمْ عِنْدَ أَبِيكُمْ». أَجَابُوا: «أَبُونَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتُمْ أَوْلاَدَ إِبْرَاهِيمَ لَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ إِبْرَاهِيمَ!. وَلَكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ. هَذَا لَمْ يَعْمَلْهُ إِبْرَاهِيمُ. أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ أَبِيكُمْ». فَقَالُوا لَهُ: «إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِناً. لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ». فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كَانَ اللَّهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ وَأَتَيْتُ. لأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي. لِمَاذَا لاَ تَفْهَمُونَ

كلامِي؟ لأَنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي. أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ. مَتَى تَكَلَّمَ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ لأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ. وَأَمَّا أنا فَلأَنِّي أَقُولُ الْحَقَّ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي. مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيَّةٍ؟ فَإِنْ كُنْتُ أَقُولُ الْحَقَّ فَلِمَاذَا لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي؟. اَلَّذِي مِنَ اللَّهِ يَسْمَعُ كلاَمَ اللَّهِ. لِذَلِكَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَسْمَعُونَ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ اللَّهِ». فَقَالَ الْيَهُودُ: «أَلَسْنَا نَقُولُ حَسَناً إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «أنا لَيْسَ بِي شَيْطَانٌ لَكِنِّي أُكْرِمُ أَبِي وَأَنْتُمْ تُهِينُونَنِي. أنا لَسْتُ أَطْلُبُ مَجْدِي. يُوجَدُ مَنْ يَطْلُبُ وَيَدِينُ. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كلاَمِي فَلَنْ يَرَى الْمَوْتَ إِلَى الأبد». فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «الآنَ عَلِمْنَا أَنَّ بِكَ شَيْطَاناً. قَدْ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ وَالأَنْبِيَاءُ وَأَنْتَ تَقُولُ: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كلاَمِي فَلَنْ يَذُوقَ الْمَوْتَ إِلَى الأبد». أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي مَاتَ. وَالأَنْبِيَاءُ مَاتُوا. مَنْ تَجْعَلُ نَفْسَكَ؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ أُمَجِّدُ نَفْسِي فَلَيْسَ مَجْدِي شَيْئاً. أَبِي هُوَ الَّذِي يُمَجِّدُنِي الَّذِي تَقُولُونَ أَنْتُمْ إِنَّهُ إِلَهُكُمْ. وَلَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. وَأَمَّا أنا فَأَعْرِفُهُ. وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُهُ أَكُونُ مِثْلَكُمْ كَاذِباً لَكِنِّي أَعْرِفُهُ وَأَحْفَظُ قَوْلَهُ. أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ». فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ؟». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أنا كَائِنٌ». فَرَفَعُوا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. أَمَّا يَسُوعُ فَاخْتَفَى وَخَرَجَ مِنَ الْهَيْكَلِ مُجْتَازاً فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى هَكَذَا

استعلان طبيعة المسيح «النورانية»

«أنا هو نور العالم»

مكان البشارة: فى أورشليم في عيد المظال

ويشمل هذا الأصحاح:

١ _ المرأة الخاطئة: (٨:٢-١١).

٢- حوار المسيح مع اليهود:

أ _ «أنا هو نور العالم»: (٨:١٢-٢٠).

ب _ «أنا هو» : (٨:٢١-٢٢).

ج _ «إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً»: (٨:٣٠-٥١).

د _ المسيح وإبراهيم: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن» (٨:٥٢-٥٩)

أ _ المرأه الخاطئة: يفتتح القديس يوحنا الأصحاح الثامن بحادثة المرأة التي أُمسكت وهي تُخطىء، ويبدو أن القصة في ظاهرها لا تتمشى مع سياق أحاديث المسيح في الهيكل، ويعترض العلماء على وضع هذه القصة هنا في هذا الموضع من إنجيل يوحنا، كما يعترض البعض الآخر على خروج هذه القصة، من حيث صياغة الكلمات اليونانية والظروف المحيطة بالحديث، عن أسلوب القديس يوحنا، وخاصة لورود اسم «الكتبة» مع الفريسيين، وهو لقب لم يستخدمه القديس يوحن افي إنجيله قط، وكذلك ورود «جبل الزيتون» وذكر الرب أنه كان يعلم وهو «جالس» ... إلخ .

ولقد انقسم الآباء الأوائل ما بين مؤكد لصحة الرواية ولورودها في مكانها الصحيح أمثال القديس «جيروم» و«أغسطين» و«امبروسيوس» وكثير من آباء الكنيسة الغربية، على أساس ورود القصة بوضعها في نسخة الفولجاتا، وهي النسخة اللاتينية التي تقول إنها وُجدت في كثير من المخطوطات اليونانية وأنها تُقرأ في عيد

القديسة بيلاجية في ٨ أكتوبر من كل عام.

ويكشف هؤلاء الآباء عن سبب غياب هذه القصة في المخطوطات الأخرى، وهو خوف الآباء الأوائل من استخدام هذه القصة كمشجع للانحلال الخلقي مما حدا بهم إلى حذفها من نسخ بعض المخطوطات (أغسطين، «ضد بلاجيوس» ٢:١٧).

وقد وُجدت هذه القصة في المخطوطات الأكثر قدماً وهي النسخة الممفيسية، والنسخة الحبشية والنسخ الأرمنية. ويقرر العالم جرايز باخ أنه وجدها بحالها في مائة مخطوطة، ويعود العالم ألفورد ويقول إنه وجدها في ثلثمائة مخطوطة وخاصة النسخ اللا تينية، وهي التي لجأ إليها في الشرح كل من أمبروسيوس وأغسطين وجيروم.

ويلاحظ الباحث أن الآباه الشرقيين كانوا هم الأكثر تحفظاً وامتناعاً، بل وحضاً للامتناع عن الخوض في شرح هذه القصة أو الرجوع إليها أو حتى ذكرها بالمرة، بل وقد لجأ البعض إلى جحد صحة هذه القصة برمتها سواء بسبب اعتراضات خارجية في القصة أو اعتراضات جوهرية أخلاقية. والذين جحدوا هذه القصة أو صمتوا إزاءها هم: اوريجانوس ويوحنا ذهبي الفم وكبريانوس. ومعروف أن أوريجانوس كان مُحارباً جنسياً إلى الدرجة التي فيها خصي نفسه بنفسه، لذلك فإن حذفها من شرحه لإنجيل يوحنا له ما يبروه من ظروفه الخاصة. ويوحنا ذهبي الفم كان مُضطهداً على مستوى اضطهاد المعمدان بسبب التعليق على خطية الزنا، لذلك فإن حذف هذه القصة من تفسيراته يتمشى مع ظروف حياته وخدمته أيضاً.

ولكن الذي يقطع بصحة هذه القصة وورودها بحالها في الإنجيل هو ورودها في كتاب تعاليم الرسل(٢:٢٤)، وذلك في سياق صحة وضرورة قبول عودة الخطاة التائبين إلى الكنيسة، الأمر الذي كان بعض المتعصبين وضيقي العقل يعلمون ضد ذلك، مما كان يمكن أن يؤدي إلى تفكك الكنيسة كلها. وقد أورد كتاب «تعاليم الرسل» القصة بكلماتها.

٨:١-٦ «أَمَّا يَسُوعُ فَمَضَى إِلَى جَبَلِ الزَّيْتُونِ. ثُمَّ حَضَرَ أَيْضاً إِلَى الْهَيْكَلِ فِي الصُّبْحِ وَجَاءَ إِلَيْهِ جَمِيعُ الشَّعْبِ فَجَلَسَ يُعَلِّمُهُمْ. وَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْكَتَبَةُ وَالْفَرِّيسِيُّونَ امْرَأَةً أُمْسِكَتْ فِي زِناً. وَلَمَّا أَقَامُوهَا فِي الْوَسَطِ. قَالُوا لَهُ: «يَا مُعَلِّمُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ أُمْسِكَتْ وَهِيَ تَزْنِي فِي ذَاتِ الْفِعْلِ. وَمُوسَى فِي النَّامُوسِ أَوْصَانَا أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ تُرْجَمُ. فَمَاذَا تَقُولُ أَنْتَ؟». قَالُوا هَذَا لِيُجَرِّبُوهُ لِكَيْ يَكُونَ لَهُمْ مَا يَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَانْحَنَى إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ بِإِصْبِعِهِ عَلَى الأَرْضِ.

«جبل الزيتون»: ذهاب المسيح إلى جبل الزيتون كان أمراً معتاداً وذلك للصلاة هناك. وقد كان هذا محور قصة التسليم. وقد تعرف يهوذا على المكان بسبب اعتياد الرب قضاء الليالى مصلياً هناك: «وكان في النهار يعلم في الهيكل، وفي الليل يخرج ويبيت في الجبل الذي يدعى جبل الزيتون، وكان كل الشعب يبكرون إليه في الهيكل ليسمعوه» (لو ٢١:٣٧-٣٨). علماً بأن بيت عنيا التي كان يلجأ إليها الرب للراحة في بيت مريم ومرثا كانت خلف تلك التلال من جهة الشرق. وكان بستان جثسيماني عل منحدرات الجبل المواجهة لأورشليم.

وأما مجيئه إلى الهيكل في «الصباح الباكر» أى «مبكراً»، فهي كلمة سقط معناها في الترجمة العربية، فهذا كان اعتياد الرب في الخدمة.

وجلوس الرب أثناء التعليم هو من اعتياد كبار المعلمين، إذا كانت التعاليم تمتد إلى أوقات طويلة.

وذكر كلمة «الكتبة» مع «الفريسيين» ليس أصلاً من استخدام القديس يوحنا وهي تخصيص للجماعة المدققة ،

ويكنى عن الاثنين في إنجيل يوحنا عادة بـ « اليهود». وقد اعتنى هؤلاء المكدرون أن يزعجوا الجمع الملتف حول المعلم بهذه القضية الخاصة بهذه المرأة كحيلة مدبرة، والتي غالباً كانت جاهزة ومحجوزة لرفعها للجهات القضائية المختصة، ولكنهم أحضروها في الصباح للشوشرة ولاستخدامها كوسيلة ليستخلصوا من المسيح حكماً منافياً للناموس يكون نواة للشكوى عليه. والقضية بالصورة التي قدموها للمسيح ناقصة ومبتورة. فالفاعل الأصلي مع المرأة غير موجود، والشهود غير موجودين، وهم الذين يلزم أن يكونوا اثنين على الأقل، مح زوج المرأة إذا كانت متزوجة.

وأحكام الناموس بمقتضى هذه الحالات هي كالآتي:

«إذا زنا رجل مع امرأة: فإذا زنا مع امرأة قريبه فإنه يقتل، الزاني والزانية» (لا٢٠:١٠)، وهما حالتان متساويتان غير أن الحالة الثانية تعتبر«فعل فاضح».

«إذا وُجد رجل مضطجعاً مع امرأة زوجة بعل يُقتل الاثنان، الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة.» (تث٢٢:٢٢)

«إذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة واضطجع معها فأخرجوهما كليهما إلى باب تلك المدينة وارجموها بالحجارة حتى يموتا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة والرجل من أجل أنه أذل امرأة صاحبه.» (٢٢:٢٣-٢٤)

«ولكن إن وجد الرجل الفتاة المخطوبة في الحقل وأمسكها الرجل واضطجح معها، يموت الرجل الذي اضطجع معها وحده، وأما الفتاة فلا تفعل بها شيئاً. ليس على الفتاة خطية للموت.» (تث٢٢:٢٥-٢٦)

«إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فأمسكها واضطجع معها فوجدا، يعطي الرجل الذي اضطجع معها لأبي الفتاة خمسين من الفضة وتكون هي له زوجة من أجل أنه قد أذلها. لا يقدر أن يطلقها كل أيامه» (تث٢٢:٢٨-٢٩)

وقد أورد هؤلاء المنكدون سنداً قانونياً لا يمكن أن يفلت منه القاضى بأي حال من الأحوال، وهو حدوث القبض على الزانية «في ذات الفعل» والذي يُسمى في القضاء: «حالة تلبس».

وهكذا قدم هؤلاء المنكدون هذه القصية على حالها وتركوا للمسيح أن يختار الحكم القضائي في مقابل اختيارهم هم الرجم بحسب الناموس.

وفي الحقيقة حاول كثير من العلماء إقصاء هذه القصة برمتها من إنجيل يوحنا لعدم توافقها مع أسلوب الإنجيل، علماً بأن القديس يوحنا أوردها كعادته كآية مخفية غاية في الأهمية والخطورة، إذ يبرز هنا القديس يوحنا الصورة الحقيقية التي كانت في ذهن الكتبة والفريبين عن مستوى المسيح التشريعي والقضائي؛ ومن ناحية أخرى يبرز المسيح باعتباره المشرّع الجديد الذي بحكمه وقضائه سيلغي حالاً وفي جلسة واحدة غير مباشرة كل شريعة موسى القضائية القائمة على البينة والملابسات، والتي أهملت تماماً حكم الضمير، والباعث الأخلاقى وتقوى الشهود ونزاهة القاضي!! وإني في الحقيقة لأتعجب كل العجب كيف يحدث هذا الهجوم المكثف من بعض الآباء والعلماء على هذه القصة التي قضت بعجز التشريع والقضاء الموسوي واستحدثت للقضاء المسيحي مستوى عال من الاستنارة الروحية والأخلاقية وتقديس حق الحياة للخاطىء؟

وعلى القارىء أن يتبصر معي في مطلب هؤلاء المتعطشين لسفك الدم، المطالبين بحياة امرأة هي إنسان له حق الحياة كما لهم . واعتمادهم الوحيد في هذا السلوك الدموي اللا إنساني هو ناموس موسى! ولم يكفيهم هذا المطلب

القاتل الذي بيتوا له لهذه المرأة التي وقعت في أيديهم، بل استخدموه أسوأ استخدام لتلفيق تهمة قتل أخرى أضمروها وأحكموا التمهيد لها لاصطياد المسيح ذاته ...

وليلاحظ القارىء، إذا تبصر في نية هؤلاء القتلة، مقدار إحكام الفخ الذي وضعوه للمعلم لأنه إن حكم المسيح بحسب الناموس القائم على الحرف والدينونة، فقُتلت المرأة أمام عينيه وبحكم منه، يكون قد انحرف انحرافاً هائلاً عن مستوى الحب والرحمة والفداء الذي جاء ليرفعه عالياً كمعيار للحياة الجديدة بكل مقوماتها، سواء من جهة الأخلاق العامة أو السلوك أو الخدمة أو التشريع أو القضاء. فالمسيح رفع الرحمة فوق العدل، وجعل المحبة الينبوع والمصب، وأسس عمل التوبة ليحتوي كل بأس الإنسان.

وإن هو حكم بمقتضى الحب والرحمة، يكون قد تجاهل الناموس بنفس الجهالة التي في قلوب هؤلاء الأدعياء التي يرونها أنها هي هي الناموس الأقدس القائم، في أذهانهم، على الحرف القاتل، ويكون المسيح بذلك مستحقاً للقتل!! علماً أنهم يضعونه هنا في مأزق، لأنه سبق وقال إنه ما جاء لينقض الناموس بل ليكمله!! (مت١٧:٥)

والذي يلزم أن ننتبه إليه في هذا المضمار التشريعي والقضائي الذي أقحم فيه المسيح، أن المسيح سبق أن قال، وسيعيد القول: «إني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم» (يو١٧:٣، ٤٧:١٢)؛ وبالمعنى الآبسط أنه جاء ليبرئ الخاطىء لا ليقتله، وهو سيبرئه على حساب نفسه، إذ سيدفع هو ثمن خطيته من دمه. فإن كنا سنسمع منه حالاً حكم براءة مذهل لهذه المرأة الخاطئة المختارة: «أنا لا أدينك، اذهبي ولا تخطئي أيضاً!!»، فهذا حكم قائم على دفع غرامة فادحة: حياة بحياة ونفس بنفس. لقد فداها المسيح قبل أن يعطيها البراءة، لقد حكم على نفسه بالقتل ليبرئها!!، إنه قاض، نعم قاض، ولكنه محام بآن واحد، وليى محامياً فقط بل وأب، بل وحبيب يكره الخطية ولكنه يحب الخطاة.

٨:٦-٩: « قَالُوا هَذَا لِيُجَرِّبُوهُ لِكَيْ يَكُونَ لَهُمْ مَا يَشْتَكُونَ بِهِ عَلَيْهِ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَانْحَنَى إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ بِإِصْبِعِهِ عَلَى الأرض. وَلَمَّا اسْتَمَرُّوا يَسْأَلُونَهُ انْتَصَبَ وَقَالَ لَهُمْ: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بِلاَ خَطِيَّةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلاً بِحَجَرٍ!». ثُمَّ انْحَنَى أَيْضاً إِلَى أَسْفَلُ وَكَانَ يَكْتُبُ عَلَى الأرض. وَأَمَّا هُمْ فَلَمَّا سَمِعُوا وَكَانَتْ ضَمَائِرُهُمْ تُبَكِّتُهُمْ خَرَجُوا وَاحِداً فَوَاحِداً مُبْتَدِئِينَ مِنَ الشُّيُوخِ إِلَى الآخِرِينَ. وَبَقِيَ يَسُوعُ وَحْدَهُ وَالْمَرْأَةُ وَاقِفَةٌ فِي الْوَسَطِ.»

أمام حماس هؤلاء النكديين المتربصين للقتل والإيقاع بالمسيح، انحنى الرب في هدوء وبدا كمن يكتب على الأرض بأصبعه وكأنه غير مبال بتحمسهم. وقد اصطنع الرب هذا الموقف ليقلل من غلوائهم، ويمهد للدخول داخل ضمائرهم. ولكنهم استمروا يطالبونه بالجواب وبإلحاح، فما كان منه إلا أن انتصب فجأة ليستحضر انتباههم ويبادرهم بالحكم: فهو موافق على ناموس موسى تماماً، لأنه لم يأت لينقضه، ولكنه جاء ليكمل ما نقص فيه وفيهم، ليصير«ناموس الكمال» وليس ناموس موسى بعد. فلكي يُرجم الخاطىء بحسب نص ناموس موسى يلزم أن يكون من ينطق بالحكم، ومن ينفذ الحكم، لم يأت الخطيئة، وإلا يكون هو الأوجب بالرجم والموت: «من كان منكم بلا خطية فليرمها أولاً بحجر».

فلما واجههم بالحق الذي في روح الناموس واشترط على من ينفذ الناموس أن يكون على مستوى الناموس، وهذا حق وعدل لا يختلف عليه اثنان، خرجوا من ساحة المحكمة التي أقاموها بأنفسهم، الواحد بعد الآخر، لأن ضمائرهم

كانت تبكتهم. لأنه من ذا الذي يستطيع أن يتصور أن خاطئاً يتحمل دم خاطئ أمام الله؟ لقد أصابتهم الرعبة أمام عيني المسيح التي اخترقت ضمائرهم، بل عظامهم، وكان تأثير كلام المسيح على الشيوخ شديد الوطأة لأنهم لم يكونوا أفضل من قضاة سوسنة في سفر دانيال. لقد تخلوا عن فريستهم بين يديه، بل وتركوه هو أيضاً بعد أن بيتوا أن يكون هو فريستهم الأخرى.

٨: ١٠-١١: «فَلَمَّا انْتَصَبَ يَسُوعُ وَلَمْ يَنْظُرْ أَحَداً سِوَى الْمَرْأَةِ قَالَ لَهَا: «يَا امْرَأَةُ أَيْنَ هُمْ أُولَئِكَ الْمُشْتَكُونَ عَلَيْكِ؟ أَمَا دَانَكِ أَحَدٌ؟». فَقَالَتْ: «لاَ أَحَدَ يَا سَيِّدُ». فَقَالَ لَهَا يَسُوعُ: «وَلاَ أَنَا أَدِينُكِ. اذْهَبِي وَلاَ تُخْطِئِي أَيْضاً».

«أين هم أولئك المشتكون عليك. أما أدانك أحد. فقالت. لا أحد يا سيد»: لقد خسر هؤلاء المشتكون قضيقهم واستقالوا كقضاة وتركوا منصتهم. فالمشتكون صاروا تحت الشكوى عينها والقضاة فقدوا صلاحيتهم، لأنهم صاروا تحت الدينونة. فإذا وضح أن الناموس هكذا أصبح بلا قضاة في إسرائيل فقد بطل الناموس!!

وهكذا عرى المسيح كل من الناموس والناموسيين، فالناموس صارم وأساسه «رفع الشر» أي إبطال الخطية، ولكن وضح أنه لا يوجد من يستطيع أن يحكم به لأنه لا يوجد من هو بلا خطية حتى يستطيع أن يرفع الشر من إسرائيل أو يبطل الخطية!

إذن، الناموس، بحد كلماته، يحكم على الخاطئ ويدين الخطية، ولكن لا يستطيع أن يبطل الخطية. وهذا أول عمل استعلاني عمله المسيح إزاء الناموس، لقد استعلن عجزه باستعلان عجز كل من يحكم ويدين به» لأنه إذا حكم أي قاض على الخاطئ أو أدانه، وهو نفسه خاطئ، يحكم ويدين نفسه بآن واحد. هذا القانون المسيحي يذكره القديس بولس، شيخ الفريسيين، الذي يعلم ما هو الصحيح في الناموس حقاً: «لذلك أنت بلا عذر أيها الإنسان، كل من يدين، لأنك فيما تدين غيرك تحكم على نفسك، لأنك أنت الذي تدين تفعل تلك الأمور بعينها ... أفتظن هذا، أيها الإنسان الذي تدين الذين يفعلون مثل هذه وأنت تفعلها، أنك تنجو من دينونة الله.» (رو٢: ١-٣)

كما كشف المسيح نقص الناموس الخطير في كونه يحكم بحسب الظاهر والمنظور، ويتجاهل عن عمد ما في الباطن والضمير، وذلك إزاء حكم المسيح الذي اعتمد اعتماداً قوياً على حكم الضمير، والذي ثبت أنه قادر أن يلغي حكماً بالإعدام ثابتاً على يد شهود عيان.

وهكذا حينما وقف المشتكون، والحجارة في أيديهم في لهفة لتنفيذ حكم الموت في هذه النفس الخاطئة، أيقظ المسيح ضمائرهم، فرأوا فجأة أنهم واقعون في نفس الفعل الذي يدينونه، فألقوا الحجارة من أيديهم، وخرجوا من ساحة قضاء الناموس، وتركوا الخاطئة للمسيح!! بل وتركوا المسيح أيضاً، إذ ذابت نفوسهم فيهم.

ويقول في هذا القديس أغسطين: [وبقي اثنان: المرأة التعسة (بل السعيدة) في مواجهة الرحمة المتجسدة]

وبذلك أصبح المسيح، وبموافقة القوامين على الناموس، أنه هو وحده القادر أن يحكم على الخاطئ ويدين بمقتضى الناموس لأنه هو وحده والوحيد الذي بلا خطية! ولكن لكي تظهر رسالة المسيح واضحة كل الوضوح قال: «ولا أنا أدينك». ولماذا لا يدين؟ وأين الناموس؟

لقد أدان المسيح نفسه وأكمل حكم الناموس في نفسه عنا وعن هذه الخاطئة، وتقبل عن كل خطاة الأرض حكم الموت؛ فأصبح الوحيد الذي له حق التبرئة، فهو يبرئ الخاطئ والفاجر، لأنه دفع دمه ثمناً لخطية الخاطئ

وفجر الفاجر، كان من كان. لهذا يقول بولس الرسول: «واما الذي لا يعمل ولكن يؤمن بالذي يبرر الفاجر فإيمانه يُحسب له برا.» (رو ٤:٥)

وهنا يقول القديس أغسطين أيضاً: [لأنك في، أصبحت بلا خطية.]

[ويقول المسيح «اذهبي ولا تخطئي أيضاً» فقد أدان الخطية ولكن برأ الخاطىء.]

وحينما مات المسيح على الصليب عن الخطاة، أكمل كل مطالب الناموس وأحكامه ضد كل الخطاة. فحفظ للناموس كرامته، وأرسل كل محافظ قضاياه للحفظ في دار مخازن رحمة الله. وبذلك يكون المسيح قد أنشأ بموته ناموساً آخر فوق ناموس موسى. فناموس موسى يحكم ويدين على أساس ثبوت الخطية، فالخطية هي قوة الناموس حيث تتنوع قوانين الناموس على أساس تنوع الخطية. فجاء المسيح ورفع الخطية بكل أنواعها بموته، وأبطلها بكل أشكالها نهائيا بذبيحة نفسه، فصار ناموس موسى بلا قوة، وتعطلت كل بنوده وقوانينه ونحى قضاته. ألم يحدث هذا فعلاً أمام المسيح حينما خرج القضاة المشتكون بمقتضى الناموس؟ أما تنحى القضاة؟ فانخفضت هامة الناموس وارتفعت هامة المسيح! فتجلت محبة الله ورحمته في قوة ذبيحة المسيح. فإن كانت قوة ناموس موسى هي الخطية لحكم الموت، فقد صارت قوة ناموس المسيح هي النعمة للبراءة. وهكذا حكمت النعمة في المسيح عوض النقمة في الناموس. وعلى هذا الأساس قال المسيح للمرأة المرتجفة تحت نقمة الناموس «ولا أنا أدينك، اذهبي ولا تخطئي أيضاً».

وللقارىء أن يتعجب كيف خرج المسيح من هذه القضية الشائكة المميتة وقد برأ المرأة، وأدان المشتكين، وزكى ناموس موسى واحتفظ له بكرامته، وأخيراً أرسى قواعد ناموس النعمة والحياة.

«اذهبي ولا تخطئي أيضاً.»: كلمة «اذهبي» بالمفرد هي نفسها تأتي بالجمع «اذهبوا بسلام»، والتي تقال في نهاية الليتورجيا، أي الصلاة العامة أو الإفخارستيا؛ وتسمى Missa وهي الإذن للمصلين بالخروج من حضرة الله محملين بالبركة. وهذه الكلمة تحمل بالفعل قوة إلهية للحفظ والرعاية من لدن الله القدير وكأن المسيح يدعو لها بالحفظ. ويكفي توضيحاً لذلك أن نتذكرأن هذه المرأة الخاطئة قد انتقلت من حكم الموت إلى حكم الحياة، ومن لعنة الناموس إلى رحمة المسيح.

كما يلاحظ أنه قبل أن يقول لها المسيح «لا تخطئي أيضاً» قال لها «اذهبي» محملة بقوة براءة أو تبرير من عنده، هي لا تستحقها بسبب أعمالها، ولكن استحقتها بسبب حضورها إليه، أو بالحري مثولها في حضرته، والمثول في حضرة الله نعمة عظمى؛ حتى وإن كان على غير دعوة أو ميعاد كالسامرية أو هذه الخاطئة أو كبولس الرسول نفسه!! يكفي أنها انتظرت منه رحمة، فوجدتها مضافاً إليها نعمة.

إن معظم الشراح والعلماء والآباء الأوائل لم ينصفوا هذه المرأة الخاطئة، ولكن كيف؟ ولماذا؟

نحن جيعاً سنمثل أمام كرسي المسيح على هذا الحال نفسه، وليس من يستحق أن يتزكى قط بسبب أعماله، ولكن إن كنا نتنظر رحمة فسنجدها، وإن كنا نرجو منه حياة فسنحيا.

«لا تخطئي أيضاً»: أي لا تعودي إلى سيرتك الأولى، هي دعوة للتوبة. ولكن الذي يدعو إلى التوبة هنا هو المسيح ويوجهها شخصيا منه إليها، فهي دعوة مدعمة بالقوة، وكأنه يعرض نفسه كسند خفي لجهادها ويعدها سرا بالمؤازرة. إنه يستحث فيها إرادتها الحرة، ولكنه هو نفسه يشاء ذلك منها، أي أنه يضم مشيئته إلى مشيئتها، فأي رجاء ملأ قلب هذه الخاطئة في هذه الساعة. إنه في الحقيقة رجاء يمتد إلينا وإلى كل خاطىء يلقي نفسه بلا شفقة

بين يدي المسيح، كما ألقى هؤلاء الكتبة الأفظاظ هذه المرأة الخاطئة، بل السعيدة، في يدي المسيح.

وفي نهاية قصة المرأة الخاطئة التي اعترضت حديث المسيح في عيد المظال، وفرقت بين حديثه عن «الماء الحي» و«نور العالم»، نود أن نوجه نظر الباحث أن كلام المسيح بخصوص المرأة الخاطئة كان بحد ذاته تعليماً هاما للغاية عن ناموس موسى ومقارنته العملية بناموس المسيح. أي أن قصة المرأة الخاطئة قدمها القديس يوحنا في مكانها الصحيح.

٢- حوار المسيح مع اليهود (٨:١٢-٥٩)

أ- الجزء الأول من الحوار: «أنا هو نور العالم» (٨:١٢-٢٠)

«الشعب السالك في الظلمة أبصر نورا عظيماً. الجالسون في أرض ظلال الموت أشرق عليهم نور.» (إش٩:٢)

«الجلوس في الظلمة وظلال الموت موثقين بالذل والحديد ... أخرجهم من الظلمة وظلال الموت وقطع قيودهم.» (مز١٠٧:١٠و١٤)

١٢- ثُمَّ كَلَّمَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً قَائِلاً: «أَنَا هُوَ نُورُ الْعَالَمِ. مَنْ يَتْبَعْنِي فلاَ يَمْشِي فِي الظُّلْمَةِ بَلْ يَكُونُ لَهُ نُورُ الْحَيَاةِ».

نحن لا نزال في عيد المظال، وعودة على ذي بدء: لقد توقف حديث المسيح الذي قدمه في الهيكل للشعب وهو في «الخزانة» عند قوله: «وفي اليوم الأخير العظيم من العيد وقف يسوع ونادى قائلاً: إن عطش أحد فليقبل إلي ويشرب. من آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي» (يو٧:٣٧-٣٨). توقف الحديث لشرح القديس يوحنا عن معنى هذه الآية بالنسبة لانسكاب الروح القدس، ثم تلا ذلك وصف انقسام الشعب بين مؤيد ومعارض، ثم أتت حملة الضباط التي أرسلها رؤساء الكهنة والفريسيون للقبض عليه، ثم التحقيق مع أعضاء الحملة بسبب عدم القبض عليه. وينتهي الأصحاح السابع بانقسام أعضاء السنهدريم على أنفسهم، ثم انفضاض السنهدريم، وذهاب كل واحد إلى بيته.

ثم يبتدىء الأصحاح الثامن بحضور المسيح مبكراً من جبل الزيتون، واستئناف التعليم في الهيكل بحضور الشعب، ثم محاولة الكتبة والفريسيين الشوشرة على التعليم بإحضار المرأة الخاطئة، وتنتهي قصتها أيضاً بخروج الكتبة والفريسيين منهزمين واحدا فوحدا، وتخرج الخاطئة منتصرة.

ثم يستأنف المسيح تعليمه من بعد «الماء الحي» إلى «نور العالم».

«ثم كلمهم يسوع أيضاً...»: هنا يرتبط الحديث بالآية: «من آمن بي، كما قال الكتاب، تجري من بطنه أنهار ماء حي.» (٧:٣٨)

ونحن هنا، من جهة مجرى الحوادث المترادفة، أمام حقيقة طقس آخر هو طقس «النور» في عيد المظال الذي كان يجري بإيقاد أربع منارات مرتفعة جداً داخل الهيكل، كل منها لها أربعة صحون على الظهر، يصلون إليها لإشعالها بواسطة سلم، وفي كل صحن فتيلة مشتعلة مصنوعة من القماش الذي يستخدمه الكهنة كأحزمة لربط الوسط. وكانت توضع في بيت النساء في رواق النساء، حيث كان المسيح يعلم. كذلك نحن الآن أيضاً في آخر أيام العيد وهو اليوم الثامن.

والإحتفال الطقسي بإيقاد النور في رواق النساء، في الخزانة التي في الهيكل، وفي كل المظال التي كانوا يعيشون فيها في هذه الأيام، كان تذكاراً لعمود النور الذي أرسله الله لهم، يقودهم في برية التيه أثناء الليل (خر١٣:٢١). وهنا أيضاً يرى المسيح المناسبة لكي يستعلن لهم نفسه أنه هو النور الحقيقي الذي جاء لينير العالم.

«أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة»: أما عمود النور الذي قادهم في البرية في ليل تيههم وقتياً فكان قد انقطع لعدم الحاجة إليه، وأما المسيح فهو النور الذي جاء لينير العالم دائماً والى الأبد.

وحينما يعلن المسيح أنه «نور العالم»، فهذا تعبير عن روح رسالته وفعلها: إنه «الكاشف والمعلن عن الله في العالم المظلم»؛ إنه إعلان عن تحقيق كل مواعيد الله السابقة متركزة فيه شخصياً. كما أنه دعوة عامة لليهود والعالم كله أن ينتبه إلى هذا الشروق الإلهي. إنها دعوة موازية لدعوته السابقة في الأصحاح السابع: «إن عطش أحد فليقبل إلي ويشرب: (يو٧:٣٧). أما هنا فهي: «إن أعوز العالم معرفة الله في ما سبق، فها الآن المعرفة تغطى كل الأرض؛ المعرفة التي تشرح كل وجود كان ما كان، في حضرة وجود الله!!

فحينما يقول المسيح: «أنا هو نور العالم»، فهو يعني، بحسب اللغة اليونانية: «أنا هو النور للعالم»، الذي شرحه المسيح بعدها مباشرة في آية موازية: «بل يكون له نور الحياة»، فهو النور للعالم، النور المعطي للحياة!! والتي لخصها القديس يوحنا شارحاً بقوله في مقدمة إنجيله: «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس» (يو١:٤)، حيث الحياة في المسيح تكون بعينها هي نور الناس، أو نور العالم!! «فالنور» بالمعنى الإلهي هو «الحياة في عالم الله». ودخول النور إلى عالم الإنسان حوله إلى عالم الله، ليحيا فيه الإنسان.

ثم لينتبه القارىء جدا، فقول المسيح: «أنا هو نور العالم» لا يعني به النور المختص بمشاكل الإنسان تجاه العالم، بل النور المختص بالإنسان نفسه تجاه الله!! لأن مشكلة الإنسان العظمى في العالم هي نفسه، هي معرفته لذاته على ضوء معرفته لله. وحينما يقول المسيح: «أنا هو نور العالم»، فهو يكشف بصورة مفاجئة وقوية مدى اقتحام الذات الإلهية للعالم، هذه القوة التي لا يشرحها إلا بالتجسد. فهو وحده الذي يرفع الغموض منها، لأن قائلها هو الإنسان يسوع المسيح بحسب الفكر البشري.

لذلك لكي يرفع المسيح مفهوم «أنا هو نور العالم» من المستوى الرمزي أو التصوري، الذي قد يقع فيه السامع أوالقارىء، دعمه في الحال بالفعل العملي والإختباري الذي يعلن مدى الحق الإلهي فيه، فيقول: «من يتبعني فلا يمشي في الظمة، بل يكون له نور الحياة»، حيث يتحول «النور» إلى «حياة»، أي إلى عمل وسلوك يشهد بمدى الحق في هذا النور!! هنا النور يصير «كخبز الحياة» الذي كل من يأكله يحيا به إلى الأبد، أي يحيا بالمسيح، والماء الحي الذي كل من يشربه تخرج من بطنه أنهار ماء الحياة، أي يكرز بالمسيح الذي يحيا فيه؛ هكذا النور كل من يقبله، أي يؤمن به، يصير له «نور الحياة، أي المسيح نفسه يحيا فيه.

هكذا ، فالخبز الحي والماء الحي ونور الحياة هو هو شخص المسيح، عدما يؤمن به الإنسان يصير خبزه الجديد وماءه الجديد ونوره الجديد في حياته الجديدة.

والمسيح هو الخبز الحي ومعطي هذا الخبز، والماء الحي ومعطي هذا الماء، ونور الحياة ومعطي هذا النور. هنا لينتبه القارىء، لأن معنى هذا أن كل استعلانات المسيح يستحيل فهمها أو قبولها أو الإيمان بها أو الحياة فيها بدون المسيح نفسه. فهي ليست مدركات يمكن أن تُفهم وتُنسى، بل هي واقع حياة في حياة. فبقدر ما نؤمن بالمسيح، نأخذ، وبقدر ما نأخذ، نقترب، وبقدر ما نقترب، نفهم وندرك ونستعلن ونكرز!!

لقد دخل النور «الحقيقي» إلى العالم ملتحفاً جسد إنسان، وهو أصلاً «اللابس (الملتحف) النور كثوب» (مز١٠٤:٢)، جاء لينير البشرية من داخل كيانها، فصارت حياة الإنسان نوراً بعد أن كان يتخبط في ظلمة العالم.

لقد استنارت حياة الانسان بالنور الإلهي، فأنارت ، وصارت أنواراً في العالم: «أنتم نور العالم» (مت٥:١٤). ولا يزال المسيح هو هو عمود النور الذي يسير بالبشرية المستنيرة به وبالله، في طريقها الضيق الحرج، داخل ليل برية العالم المظلم، يقودنا خطوة بعد خطوة. والذي يتبع النور لا يشعر بليل العالم، ولن تدركه الظلمة، هذه حقيقة يدركها كل من استنار بالمسيح والتصق به: «الرب نوري وخلاصي ممن أخاف» (مز٢٧:١)، هذا نشيد داود الذي سار وراء الرب وتسبحته في فمه، وتهليل الخلاص في قلبه.

وحينما نطرق هذا الفكر من الوجهة اللاهوتية يتضح لنا عمقه، فالطبيعة البشرية بالنسبة للنور الإلهي مظلمة، خاطئة، ضيقة، يدب فيها الموت، وشعاع الله لم يكن ينفذ إليها، ولكن حينما استعلن لنا الرب الطبيعة الإلهية التي فيه، وصيرنا شركاء فيها، نفذ النور الإلهي إلى أعماقنا، فأدركنا طبيعة الله وأسراره، واستنارت عقولنا وقلوبنا بفكره ومشيئته وكلماته. لأن طبيعتنا العمياء الخرساء، بالنسبة لشخص ذات الله، أُستهدفت لعمل روح الله القدوس، فدخلها النوره ودخلتها الحياة الإلهية، فتغيرت وتجددت، وصار لها أُذن تسمع ما لم يكن يُسمع، وعين ترى ما لم يكن يُرى، وقلب يستطلع بالروح حتى أعماق الله: «ورأينا مجده» (يو١:١٤)، وروح تحيا مع الله: «من التصق بالرب فهو روح واحد.» (اكو٦:١٧)

«أنا هو نور العالم»: هذا القول يستحيل أن ينطقه إلا الله وحده: «وقال لى أكتب، فإن هذه الأقوال صادقة وأمينة. ثم قال لى قد تم. أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية. أنا أعطي العطشان من ينبوع ماء الحياة مجانا ... والمدينة لا تحتاج إلى الشمس ولا إلى القمر ليضيئا فيها، لأن مجد الله قد أنارها، والخروف سراجها. وتمشي شعوب المخلصين بنورها ... لأن ليلاً لا يكون هناك» (رؤ٢١:٥و٢٣و٢٤و٢٥)

ويلزم أن نرجع إلى مقدمة إنجيل يرحنا، لنرى كيف قدم الإنجيل المسيح باعتباره «الكلمة» و«النور الحقيقي» و«الحياة الأبدية»، ثم كيف شهد القديس يوحنا ضمن شهادة التلاميذ: و(نحن) رأينا مجده».

فالكلمة، وهو بهاء ونور مجد الآب والحامل للحياة اللأبدية، تجسد، فاستُعلن فيه نور الآب، واستعلنت الحياة الأبدية التي كانت عند الآب مخفية عن حياة هذا العالم. والنور لما أضاء في قلوب التلاميذ، كان هو التجلي بعينه حيث رأوا مجده، فالنور والمجد معاً لا يفترقان. والمجد هو التعبير البشري لرؤية الحضور الإلهي أو الكيان الإلهي في المسيح: «أنا هو». لذلك، فالنور الإلهي في المسيح: «أنا هو نورالعالم» الذي صار بتجسده، هوتعبير عن طبيعة الله التي استعلنت للإنسان في تجسد الكلمة، خصيصاً لإعلان عهد الخلاص للإنسان. وبمعنى آخر يكون النور الإلهي المُعلن في المسيح والذي يشهد له المسيح «أنا هو نور العالم»، هو تعبير عن حقيقة فعل الخلاص الذي يُفهم أنه انعتاق من ظلمة هذا الدهر وتفاهة مجده. وإشعياء النبي يصف هذا الاشراق العجيب في ملء الزمن بالنسبة لكنيسة الله هكذا: «قومي استنيري لأنه قد جاء نورك ومجد الرب أشرق عليك، لأنه ها هي الظلمة تغطي الأرض (الوثنية)، والظلام الدامث الأمم (الخطية). أما عليك فيشرق الرب (أنا هو نور العالم) ومجده عليك يُرى. فتسير الأمم في نورك، والملوك في ضياء إشراقك.» (إش٦٠:١-٣)

ثم انظر كيف يرى إشعياء النور الإلهي المتجلي بالمجد في كنيسته يلتحم بالخلاص التحاماً، وباعتباره الغاية العظمى في خطته الإلهية، يقول إشعياء: «تسمين أسوارك خلاصاً وأبوابك تسبيحاً. لا تكون لك بعد الشمس نوراً في النهار ولا القمر ينير لك مضيئاً، بل الرب يكون لك نوراً أبدياً وإلهك زينتك (أنا هو نور العالم). لا تغيب بعد شمسك وقمرك لا ينقص، لأن الرب يكون لك نوراً أبدياً، وتكمل أيام نوحك، وشعبك كلهم أبرار.» (إش٦٠:١٨-٢١)

ويطيب لهذا النبي القديس أن يمزج النوم بالخلاص بالتسبيح بزينة النفس، أي التجلي الروحي.

لقد أشار إليه إشعياء النبي: «أنا الرب، قد دعوتك بالبر، فامسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب، ونوراً للأمم، لتفتح عيون العمي، لتخرج من الحبس المأسورين، من بيت السجن، الجالسين في الظمة.» (إش٤٢: ٦-٧)

وليلاحظ القارىء أن المسيح بعد أن قال: «أنا هو نور العالم»، فتح عيني الأعمى بالفعل!... كذلك يقول إشعياء، وكأنه يحكي ما يرى من وراء الزمان، كيف أُهين النور وحاولت الظلمة عبثاً إطفاءه، ولكنه انتصر، وصار خلاصاً لأقصى الأرض، واستنارت به الشعوب، وتحررت من سلطان الظلمة، وصارت الكلمة غذاء للروح وماء للحياة كينبوع أبدي: «قد جعلتك نورا للأمم لتكون خلاص إلى أقصى الأرض. هكذا قال الرب فادي إسرائيل، قدوسه للمهان النفس، لمكروه الأمة، لعبد المتسلطين ... قائلاً للأسرى: اخرجوا، للذين في الظلام. اظهروا ... لا يجوعون ولا يعطشون، ولا يضربهم حر ولا شمس، لأن الذي يرحمهم يهديهم، والى ينابيع المياه يوردهم ..» (إش ٤٩: ٦-١٠)

وهنا يجمع إشعياء النبي النور، وتفتيح العيون، وخبز الحياة، والماء الحى، والينابيع.

«نور الحياة» : وكذلك ملاخي النبي: «ولكم أيها المتقون اسمي تشرق شمس البر والشفاء في أجنحتها.» (مل٤: ٢)

وما يهمنا هنا في هذه النبوة الأخيرة: أن الله سيعطي اسمه مقروناً بإشراق النور، وبالحياة التي فيه، التي بلا أسقام، كناية عن الخليقة الجديدة التي تتنفس بالروح، وسوف يرى القارىء أن الرب سيكشف عن اسم الله الذي يتكلم به، بعد أن قال: «أنا هو نور العالم»، وكيف أعطى الشفاء بالفعل للمولود أعمى، فأصبح له «نور الحياة» على المستوى المحسوس. ونبوة ملاخي تعطي المقارنة صحيحة وعملية؛ كما أن الشمس هي للعالم لحياة الجسد وتجديده وشفائه، كذلك الرب هو شمس الروح وبرها ونورها وطهارتها.

وقد حاول الربيون تفسير النور كما جاء في العهد القديم، كما في المزامير: «الرب نوري... ممن أخاف» (مز٢٧: ١)، بأنه هو الناموس، لأن الناموس يوضح السلوك في الحياة كالنور في الظلمة. وهذا لم يغب عن سماع الرب وفكره، فهو يصحح ويعلن نفسه أنه «نورالحياة»، و«الطريق» أيضاً، و«الباب» وأن من يتبعه، لا تدركه الظمة ولا يدركه ليل.

وحينما يوضع الناموس في مواجهة المسيح، يكون المسيح هو كمال الناموس. وكما قال الربيون إن «الهيكل» هو «النور» قال المسيح انقضوه وأنا أُقيمه في ثلاثة أيام، هيكلاً يملأ لا الأرض فقط، بل والماء، نوراً ومجداً، كناية عن الخليقة الجديدة بجسده.

والقديس يوحنا في رؤياه رأى منظر هذا الهيكل الجديد بالفعل، والرب سراجه، وشعوب المخلصين تمشي في نوره (رؤ٢١: ٢٣-٢٤).

إن استعلان الطبيعة الإلهية في المسيح كان بقصد أساسي، وهو أن تمتد قوى هذه الطبيعة وتتخلل الإنسان ككيان مخلوق أصلاً على صورة الله. وتعاليم المسيح وكلماته كانت انبعاثاً وامتداداً لهذه القوى الإلهية التي في طبيعة المسيح: «الكلام الذي أكلمكم به هو روح وحياة» (يو٦: ٦٣)، ونور أيضاً بالضرورة، وخاصة حينما كان يتكلم المسيح عن نفسه وعن طبيعته «أنا هو نور العالم». هذه هي انبعاثات الطبيعة الإلهية في كلمات، وكأن الكلمات شعاع هذا النور، إذا أصاب قلبا مفتوحاً تخلله وأضاءه. هذا هو قول المسيح: «من يتبعني فلا يمشي في الظمة بل يكون له نو والحياة». وهكذا فإن نور العالم يتضح أنه «نور الحياة».

وما معنى «يكون له نور الحياة»؟ أليس أن نور الحياة يكون قد استقر فيه، «المسيح يحيا فيّ» (غل٢:٢٠)، وصار ملكا له؟ ثم ما معنى أن نمتلك نور الحياة الذي في المسيح؟ أليست هذه هي الشركة في أعلى وأعمق معناها، حيث يجمعنا فيه وإليه شعاع نوره وقوة حياته المنبعثة من تعاليمه وكلماته وروحه؟ وأليس هذا هو بعينه الذي يقوله المسيح في صلاته للآب: «أنا فيهم وأنت فيّ» (يو١٧:٢٣)؟ هذا هو منبع النور ومصبه. أما قوته فقد أوضحها المسيح على المستوى العملي: «أنتم الآن أنقياء (مضيئون) لسبب الكلام الذي أكلمكم به. اثبتوا في وأنا فيكم» (يو١٥:٣-٤). «إن حفظتم وصاياي (نور). تثبتون في محبتي، كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته» (يو١٥:١٠). أما رفع هذا المستوى العملي إلى المستوى الرؤيوي فقد هتف به داود: «بنورك نرى نوراً» (مز٣٦:٩). فنور المسيح واسطة لمعاينة نور الآب، أي واسطة لرؤيا واتحاد. لذلك فنور المسيح أو المسيح كنور، هو شاهد للمسيح، سواء كان بالكلمة أو العمل.

فالنور أصلاً كطبيعة بحد ذاتها لا يحتاج إلى شاهد، أي إلى من يشهد له، بل يحتاج إلى مُشاهد، أي إلى من يرى ويفرح، لأن النور يكون دائماً شاهداً لنفسه.

٨:١٣-١٤: فَقَالَ لَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ: «أَنْتَ تَشْهَدُ لِنَفْسِكَ. شَهَادَتُكَ لَيْسَتْ حَقّاً». أَجَابَ يَسُوعُ: «وَإِنْ كُنْتُ أَشْهَدُ لِنَفْسِي فَشَهَادَتِي حَقٌّ لأَنِّي أَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ أَتَيْتُ وَإِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ. وَأَمَّا أَنْتُمْ فلاَ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ آتِي وَلاَ إِلَى أَيْنَ أَذْهَبُ».

موضوع الشهادة والدينونة بالنسبة للمسيح أمر خطير للغاية، فهو يلتحم التحاما محكماً مع طبيعة المسيح الكلمة المتجسد، الابن المُرسل.

فالمسيح يطرق هذا الموضوع من ناحيتين: من ناحية مصدرها أي «الكلمة» أي «الابن»؛ ومن ناحية التجسد، أي «ابن الإنسان». وهنا يلزم بل يتحتم التعارض فتظهر المضادة: فهو من جهة ليس له أن يدين لأنه جاء «كمرسل» ليخلص فقط، كما أنه ليس له أن يشهد لنفسه، لأنه لم يأت ليعمل مشيئته أو يتكلم من نفسه. هذا من وجهة نظر ابن الإنسان.

وفي نفس الوقت أيضاً، له أن يدين لأن الآب أعطى له كل الدينونة، لأنه وإن كان هو ابن الإنسان بالتجسد فهو لم يتغير كونه الابن الوحيد وهو والآب واحد، فهو يُعرف كمرسل من أين أتى وإلى أين يذهب ليجلس عن يمين الآب.

كذلك له أن يشهد لنفسه، وشهادته تكون هي الحق، لأنه لا يطلب من شهادته القول الذي يقوله أو العمل الذي يعمله مجداً لنفسه، إنما هو يستعلن الآب كغاية ونهاية لكل قوله وعمله، لذلك تأتي شهادته حقاً ملء الحق، لأنه يطلب مجد الآب.

والمسيح يدرك جداً هذه الحقيقة ويضغط عليها ضغطا بقوله: «وإن كنت أشهد لنفسي» وهي تجيء باليونانية: (   ) وتعني «حتى ولو» موضحاً بها أنه بنوع من التنازل قال سابقاً: «إن كنت أشهد لنفي فشهادتي ليست حقاً» (يو٥:٣١)، فهو يستدرك هنا هذا القول السابق بقوله: «وإن كنت أشهد لنفي فشهادتي حق» للتأكيد على أن شهادتي لنفسي تبقى هي الأصح وهي الحق، بحسب الاستعلان الصحيح لشخصي الذي وان كمنتم لا تدركونه أنتم[1]

---

[1] معلوم أن العالم يعرف خاصته، والمسيح ليس من هذا العالم. وهكذا يظل المسيح غريبا عن هذا العالم؛ وكل من ينتمي إلى هذا العالم لن يعرف حقيقة المسيح من أين أتى وإلى أين يذهب.

ولكي أنا أدركه، فأنا أعرف من أين أتيت وإلى أين أذهب باعتباري الابن و«الكلمة»، حيث أن الابن يشهد له أبوه حتماً، فشهادة الابن لنفسه هي شهادة مزدوجة: شهادته لنفسه وشهادة أبيه له. كذلك فهو باعتباره «الكلمة» الذي يستعلن الآب لا يقبل شهادة إنسان، وإلا ما كان هو «كلمة الله»، فـ «الكلمة» لأنه كلمة الله وقد جاء ليشهد لله تكون شهادته هي بعينها شهادة الله، فهي الحق عين الحق.

و يلاحظ القارىء، إثباتاً لقولنا هذا، أنه في حالة قول المسيح: «إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً» (يو ٥:٣١) تجيء «أنا» في اليونانية مخففة (   ) في وضعها الشخصي كإنسان. ولكن في قوله: « أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لى الآب الذي أرسلني» (يو ٨:١٨)، تأتي «أنا هو» في اليونانية بثقلها الإلهي (   ).

وهكذا، وبالنهاية، فإن «شهادة» المسيح ود«دينونة» المسيح عل السواء إذا نُظرت من وجهة نظر بشرية كالتي نظر بها الفريسيون للمسيح، فهي فعلاً ليست حب الحق ولا هي تُحسب شهادة أو دينونة. ولكن يوم أن نعرف من أين جاء المسيح والى أين يذهب، أي نعرف حقيقة المسيح الإلهية، حينئذ سنعرف أن شهادته حق ودينونته حق.

وهكذا نرى في هذا الاعتراض على شهادة المسيح لنفسه عجز الفريسيين عن اللحاق بفكر المسيح وطبيعته الإلهية الناطقة فيه. فالمسيح يقول: «أنا هو نور العالم» على أساس عملي قد قام بإثباته بالبرهان والدليل القاطع، بالكلمة القوية الحية الفعالة، وبالفعل الإعجازي. وهذه بحد ذاتها هي القوى المنبعثة من طبيعته الإلهية المنيرة، أو هذا هو النور الذي يشير بكل هدوء وبساطة إلى مصدره وهو الله الآب. والنور يشهد لنفسه لا محالة بمجرد ظهوره، حيث يكشف عن مصدره ويستعلن هدفه بآن واحد. لذلك يستحيل إخفاء النور الإلهي، فبمجرد أن ظهر النور الإلهي متجسداً، بدأ فعله يسري في القلوب والعقول ليستعلن ماهيته وليستعلن مصدره: «و(نحن) رأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب.» (يو ١:١٤)

وشهادة المسيح باعتباره النور الإلهي حق منتهى الحق، لأنه وإن كان يشهد لنفسه فهو يشهد بآن واحد إلى مصدره أي الله الآب، الذي منه أتى، فهو في الحقيقة «حق من الحق»، أو كما كان يقول المسيح دائماً: «الحق الحق أقول لكم...». لأنه حق مرتين: حق له وفيه، وحق الآب الذي هو منه!!

فقول الفريسيين: «أنت تشهد لنفسك. شهادتك ليست حقاً»، هو تماماً مثل قول الأعمى للنور: «أنت الظلمة»، أو مثل محاولة عابثة لإطفاء الشمس. هنا العيب ليس في النور على الإطلاق، ولكن العيب في غياب العين الروحية والعقل المميز للحق حتى يمكن أن يرى النور فيقول للنور: «أنت نور بالحقيقة».

هنا اعتراض لا بد من توضيحه، إذ ما ذنب هؤلاء الفريسيين والرؤساء الذين ليست لهم عيون تبصر ولا آذان تسمع؟ هذا أجاب عنه المسيح مراراً وتكراراً: إن آمنتم بي ترون الروح، وتسمعون للحق وتدركون الحياة، وتعلمون من أين أتيت وإلى أين أذهب، واذا لم تؤمنوا بي فعبثاً تحاولون إذ تظل عيونكم تبصر النور ولا تراه إلا ظلمة، وآذانكم تسمع الحق ولا تميزه إلا باطلاً، وتجهلون من أين أتيت وإلى أين أذهب، لأنكم تبحثون عن أنساب الجسد. أما مسوغات الإيمان بي فهي الأعمال التي عملتها بينكم ولم يعملها أحد غيري قط. فإن عسر عليكم الإيمان بي متكلماً وموضحاً، فآمنوا بالأعمال التي تنطق بأنها بالله معمولة!

أما قولكم أن شهادتي لنفسي ليست حقاً، فهذا دليل قاطع أن عيونكم لا ترى النور وآذانكم لا تتبين الحق؛ ولهذا لا تعرفون من أين أتيت وإلى أين أذهب، وهذا لا ينفي الحقيقة، فعدم رؤية النور ليست كفيلة بأن تلغي وجوده. ويكفي للنور ان يعرف أن مصدره هو الله، ورسالته هي أن ينير العالم، وأنه هو هو قائم في الله وممتد إليه، وحينئذ حق

له أن يقول: «أنا هو نور العالم»!

٨:١٥-١٦: أَنْتُمْ حَسَبَ الْجَسَدِ تَدِينُونَ أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ أَدِينُ أَحَداً. وَإِنْ كُنْتُ أَنَا أَدِينُ فَدَيْنُونَتِي حَقٌّ لأَنِّي لَسْتُ وَحْدِي بَلْ أَنَا وَالآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي.

«أنتم حسب الجسد تدينون»: هنا يستطرد المسيح من مجرد الشهادة لنفسه التي ينفون حقيقتها إلى هدف هؤلاء الفريسيين من هذا النفي. فقولهم: «شهادتك ليست حقاً» هو في الحقيقة اتهام مباشر له بالإدعاء والتزييف والكذب. فهم بذلك أقاموا أنفسهم «ديانين» للحق، بالرغم من أنه ليست لهم معرفة صحيحة به. فالرب هنا يكشف من أين انخدعوا، وكيف أن دينونتهم هي الباطلة، وليس الحق الذي يشهد به هو. فيقول لهم: «أنتم حسب الجسد تدينون» ذلك لأن ليست لهم معرفة روحية. أي أن اعتمادهم هو فقط على المقاييس البشرية من رؤية جسدية ودراسة أنساب ووطن وفهم جسدي وتعاليم حرفية على مستوى الجسد؛ وكأنه يقول لهم: أنتم تحاولون أن تقيسوا الروحيات بالجسديات وتحكموا على الإلهيات بالمعرفة القائمة على الحرف، فعثرتم في الله الآب الذي أرسلني، وعثرتم في أنا الذي جئت لأخرجكم من الظلمة إلى النور.

«أما أنا فلست أدين أحداً»: أنا لا أدينكم على هذا، ولا أحكم عليكم في ذلك، ولا أدين أحداً غيركم بالمرة. لأني لم آت لأدين العالم بل لأخلص (الذين في) العالم.

أما الدليل على صحة قوله هذا فهو أنه لم يدن المرأة الخاطئة التي أمسكرها في ذات الفعل، والتي يقضي الناموس برجمها، بل دعاها للتوبة وآزرها بقوة من عنده دون أن يلغي الناموس.

«وان كنت أنا ادين، فدينونتي حق، لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني»: المسيح هنا يعلن لهم أن هناك دينونة أخرى خطيرة ليست حسب الظاهر، وليست حسب الجسد، بل حسب فكر الآب وموازين الله، وهي التي «أعطيت كلها للابن». هذه الدينونة هي حسب الحق، وهي التي ستُدان بها الخطية والعالم والشيطان[1]، أي دينونة كل الذين ليس فيهم الحق.

هذه يقول عنها المسيح: «وإن كنت أنا أدين فدينونتي حق، لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني». أما من جهة الدينونة عامة، فالمسيح وعد أنه لن يدينهم على ما قالوه وتفكروا به من جهته، إن كان على مستوى الجهل والجهالة والحكم حسب الظاهر والجسد. «يا أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (لو٢٣:٣٤)، ولكن إن كانت مقاومتهم لشهادته وعدم الإيمان به ليس عن جهل أو جهالة وليس مجرد حكم حسب الظاهر والجسد، بل كان

---

[1] أ- أما دينونة الخطية فهي عمل الآب والابن وقد أوضحها بولس الرسول: "فالله إذ أرسل ابنه في شبه جسد الخطية ولأجل الخطية، دان الخطية في الجسد. لكي يتم حكم الناموس فينا. (رو٨:٣-٤)

ب- أما دينونة العالم فهي أيضاً عمل الآب والابن: "الآن نفسي قد اضطربت وماذا أقول. أيها الآب نجني من هذه الساعة، ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة. أيها الآب مجد اسمك. فجاء صوت من السماء مُجدت وأمجد أيضاً .. أجاب يسوع ... الأن دينونة هذا العالم، الأن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً" (يو١٢:٢٧-٣١)

ج- وأما دينونة الشيطان رئيس هذا العالم فهي أيضاً من عمل الآب والابن: "ولكن إن ذهبت أرسله (الروح القدس) إليكم، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة. أما على خطية، فلأنهم لا يؤمنون بي؟ وأما على بر، فلأني ذاهب إلى أبي ولا تروني أيضاً؛ وأما على دينونة، فلأن رئيس هذا العالم قد دين." (يو١٦:٧-١١)

مقاومة عن معرفة وانصياعاً وراء «الحسد» لأنهم: «كانوا قد أسلموه حسدا» (مر١٥:١٠)، حفاظاً على مراكزهم ومجدهم الكاذب، فهم يكونون قد انحازوا إلى هذا العالم ورئيس هذا العالم والى الباطل، ويكونون قد وقعوا تحت «دينونة الحق»: «لذلك الذي أسلمني إليك له خطية أعظم» (يو١٩:١١)!! لأن جوهر«دينونة الحق» هو الفصل بين الحق والباطل، وبالتالى وبالضرورة، إسكات صوت الباطل.

«لأني لست وحدى، بل أنا والآب الذي أرسلني»: ثم انتقل المسيح من الدينونة إلى الشهادة مرة أخرى لينفي عن نفسه، عندما قال: «أنا هو نور العالم»، أنه يطلب ما لنفسه أو يسعى لمجد نفسه. فأوضح لهم أن شهادته هذه ليست من ذاته أو لمجد نفسه، بل مستمدة من شهادة الله الآب له، وعلى ذلك فهذه الشهادة التي يشهد لها هي شهادة اثنين. هو والآب. وبذلك تكون صحيحة حسب مقاييس حرفية الناموس الذي يفهمونه.

١٧:٨-١٨: وَأَيْضاً فِي نَامُوسِكُمْ مَكْتُوبٌ: أَنَّ شَهَادَةَ رَجُلَيْنِ حَقٌّ. أَنَا هُوَ الشَّاهِدُ لِنَفْسِي وَيَشْهَدُ لِي الآبُ الَّذِي أَرْسَلَنِي».

يلاحظ هنا تأكيد المسيح لشخميته الإلهية «أنا هو» وهي تمهيد لشهادة واحدة: الآب والابن.

«وأيضاً في ناموسكم مكتوب أن شهادة رجلين حق»: هنا يعلن المسيح مقدار الهوة التي تفصله، كصاحب العهد الجديد، عن «ناموس اليهود»، أي عن روح الأحكام التي صار يحكم بها الفريسيون بحسب الجسد فلوثوا روحانية العهد القديم.

لذلك فالمسيح عندما يقول هنا «ناموسكم»، فذلك لا يحتسب تقليلاً من قيمة الناموس أو إلغاء له، ولكنه يتكلم عن الناموس بحسب تفسيرهم الجسدي الذي رأيناه أنه أنشأ في فكرهم دينونة الحق والله نفسه. أما ناموس موسى الصحيح، فيعلن ويصرخ من جهة المسيح الذي سيأتى، بدينونة من يرفضه: «ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا اطالبه» (تث١٨:١٩). فلو عاملهم المسيح حسب ناموس موسى الصحيح لقطعهم، ولكننا رأيناه لا يدينهم بالرغم من أنهم انحرفوا عن متطلبات الناموس وفهمه الصحيح: «لا تظنوا أني أشكوكم إلى الآب يوجد الذى يشكوكم وهو موسى الذي عليه رجاؤكم. لأنكم لو كنتم تصدقون موسى (الناموس) لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني. فإن كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامي.» (يو٥:٤٥-٤٧)

«أنا هو الشاهد لنفسي ويشهد لى الآب الذي أرسلني»: ويلاحظ القارىء أن قول المسيح في الآية السالفة: «لأني لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني»، ثم يكرر «أنا والآب الذي أرسلني»، تم إذ يضيف عليها: «إن شهادة رجلين حق»، يوضح بأبرز تعبير عن «الوحدة» الذاتية القائمة بينه وبين الآب. بل ومن تطابق الشهادتين، شهادته عن نفسه وشهادة الآب عنه، تبرز وحدة المشيئة والفكر.

والذي نخرج به من شرح المسيح أن استعلان المسيح لذاته والآب هو حقيقة، بل حق مطلق، لا يحتاج أن يكون له شهادة من بشر تؤيده. والتجاء المسيح للناموس: «إن شهادة رجلين حق» هو احتقار لتفكير اليهود، وإخضاع لمنطق الناموس ليخدم الحق وليس ليؤيده. أما دليل جهلهم للحق وجهالتهم بالناموس فتظهر في سؤالهم الأتي:

١٩:٨- فَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ هُوَ أَبُوكَ؟» أَجَابَ يَسُوعُ: «لَسْتُمْ تَعْرِفُونَنِي أَنَا وَلاَ أَبِي. لَوْ عَرَفْتُمُونِي لَعَرَفْتُمْ أَبِي أَيْضاً».

يلاحظ أن الفريسيين لا يسألون عن من هو أبوك؟ لأنهم أدركوا باليقين أنه يتكلم عن الله، ولكنهم في استهانة بهذه

العلاقة يحاولون أن ينفوا عن المسيح قدرة هذا «الآب» على الشهادة لحساب المسيح، مدركين أنه يتعذر على المسيح أن يستحضر شهادة شفوية أو كتابية من هذا الآب.

أما إجابة المسيح ففيها ألمعية وحكمة عميقة، إذ واجههم بالغباء الذي وقعوا فيه حينما قالوا: «أين هو أبوك؟» لأنه كان يلزم التعرف بهذا الآب قبل أن يسأل عن مكان وجوده: فكأنه يقول لهم: كان يلزم أولا أن تتعرفوا على أبي قبل أن تسألونني أين هو. فبقوله: «لستم تعرفونني أنا ولا أبي. لو عرفتموي لعرفتم أبي أيضاً»، يجيب عليهم إجابة مستترة هي نفس الإجابة التي أجاب بها فيلبس حينما سأله: «أرنا الآب وكفانا» (يو ١٤:٨)؛ لأنهم لو كانوا قد عرفوا المسيح، لعرفوا الآب، لأن المسيح هو الصورة المنظورة للآب غير المنظور، وكلمته هي الكلمة المنطوقة من الآب، والعمل الذي يعمله معمول بتدبير الآب، وكذلك المشيئة هي مشيئة الآب. ولكن لأنهم عثروا في المسيح ولم يروا منه إلا بشريته، انحجب عنهم لاهوته، لذلك غابت عنهم صلته بالآب، وبالتالي لم يدركوا من هو أبوه ولا أين هو أبوه.

كذلك لو كان اليهود على علم صحيح بالله «يهوه»، ولهم صلة حقيقية به، لأدركوا المسيح، لأنه ابنه والحامل لصفاته. وفي هذا تعيير مر لليهودية على وجه العموم التي استؤمنت أصلا على معرفة الله دون بقية الشعوب، ولكنها برفضها للمسيح، أثبتت أنها متغربة تماماً عن الله.

ومن حيث منهج الحوار، واضح أن اليهود برفضهم شهادة المسيح عن نفسه التي هي شهادة الآب حتماً وبالضرورة، فإن عيونهم وأذانهم انسدت عن إدراك الله. هم سدوها بأعمالهم وأخلاقهم، والله سدها لهم، لأنهم لم يستحسنوا أن يبقوا الله في معرفتهم. وبهذا تلفت أدوات المعرفة الحقيقية عندهم «لو عرفتموني لعرفتم أبي أيضاً»، وبالتال تعذرت الطاعة لصوت الله لغياب الصوت ذاته!! وهكذا بلغ الاستعداد عندهم لادراك الاستعلان الذي جاء به المسيح إلى الصفر. فانهى بهم الأمر إلى رفض المسيح لأنهم لم يعرفوه، أو بالحري لأنهم لم يتعرفوا عليه. وهكذا ذهبت دقات الإنذار المتوالية التي أطلقها الله شديدة ومتكررة في آذانهم: « تأتي ساعة وهي الآن»، «الآن»، «الآن» حى انتهى الأوان! وصدر الحكم ووقعوا تحت الدينونة: «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالا لم يعملها أحد غيري، لم تكن لهم خطية، وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي، لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم إنهم أبغضوني بلا سبب.» (يو ١٥:٢٤-٢٥)

٨:٢٠ - هَذَا الْكَلاَمُ قَالَهُ يَسُوعُ فِي الْخِزَانَةِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي الْهَيْكَلِ. وَلَمْ يُمْسِكْهُ أَحَدٌ لأَنَّ سَاعَتَهُ لَمْ تَكُنْ قَدْ جَاءَتْ بَعْدُ.

وضح الآن المكان الذي التجأ إليه المسيح لإجراء هذه التعاليم، وهو المكان المخصص لوضع خزائن جمع الأموال. وهو داخل رواق النساء المكان المحبب جدا للشعب حيث كانت توقد المنارات الأربع في عيد المظال. وقد اختار الرب هذا المكان بالذات داخل الهيكل لأنه قريب، بل في مواجهة المكان المخصص لانعقاد السنهدريم والذي يجتمع فيه اليهود عادة، وهذا المكان هو المسمى «جازت»، ويقع بين رواق النساء والرواق الداخلي. وهذا يوضح أن المسيح كان يلقي تعليمه على مسمع من أعضاء السنهدريم. وقد أشار إليه المسيح أثناء محاكمته: «فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه. أجابه يسوع: أنا كلمت العالم علانية. أنا علمت كل حين في المجمع وفي الهيكل حيث يجتمع اليهود (الفريسيون) دائمأ وفي الخفاء لم أتكلم بشيء.» (يو ١٨:١٩-٢٠)

وعلى المفهوم الميستيكي الذي يرمي إليه القديس يوحنا، يكون قد صدر الحكم النهائي على اليهود من داخل

هيكلهم، وعلى خلفية ناموسهم، وفي حضرة سنهدريمهم: أن ليست لهم معرفة بالله.
وليس عبثا ولا هو لماماً أن يذكر القديس يوحنا أن هذا الحكم صدر في هذا الموضع ومن هذا المنبر الرسمي، فهو إنما قصد قصدا أن يوثق الحكم ويسجله للتاريخ وللعالم وللإنسان ككل، فليس اليهود فقط، من حصرهم هذا النطق، بل وكل من يدعي بادعاء اليهود وينتهي إلى ما انتهوا إليه.

«ولم يمسكه أحد لأن ساعته لم تكن قد جاءت بعد»: مراراً وتكراراً انتهى اليهود إلى الأمر بإلقاء القبض عليه، ورُتبت كل الأمور، ولكن في آخر لحظة يلغيها المسيح بحق الفيتو الإلهي، لأن حكم الإنسان على الله هو محض افتراء لا يرقى أبداً إلى التنفيذ، فصلب المسيح لم يكن بأي حال من الأحوال بحسب مشيئة إنسان بل بحسب ضرورة رآها الله وحدد ساعتها، ولأن ساعة التسليم الإرادي لم تكن قد جاءت بعد، فهكذا تتفرق الأجهزة والأيدي المتربصة في مرارة وسخط يندهش لها رؤساء الكهنة الذين لم يستطيعوا أن يخفوا سخطهم من هذا الأمر أثناء المحاكمة.

ب- الجزء الثاني من الحوار

«أنا هو» (٨:٢١-٢٩)

٨:٢١-٢٤ قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً: «أَنَا أَمْضِي وَسَتَطْلُبُونَنِي وَتَمُوتُونَ فِي خَطِيَّتِكُمْ. حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا». فَقَالَ الْيَهُودُ: «أَلَعَلَّهُ يَقْتُلُ نَفْسَهُ حَتَّى يَقُولُ: حَيْثُ أَمْضِي أَنَا لاَ تَقْدِرُونَ أَنْتُمْ أَنْ تَأْتُوا؟». فَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ مِنْ أَسْفَلُ أَمَّا أَنَا فَمِنْ فَوْقُ. أَنْتُمْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ أَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ. فَقُلْتُ لَكُمْ إِنَّكُمْ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ لأَنَّكُمْ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا أَنِّي أَنَا هُوَ تَمُوتُونَ فِي خَطَايَاكُمْ».

«أفعالهم لا تدعهم يرجعون إلى إلههم، لأن روح الزنا في باطنهم، وهم لا يعرفون الرب. وقد أذلت عظمة إسرائيل في وجهه، فيتعثر إسرائيل وأفرايم في إثمهما، ويتعثر يهوذا أيضاً معهما. يذهبون بغنمهم وبقرهم (ذبائح) ليطلبوا الرب ولا يجدونه، قد تنحى عنهم. قد غدروا بالرب.» (هو ٥:٤-٧)

مفتاح فهم هذه الآيات كلمة «أيضاً» والتي تأتي باليونانية «ومن أجل ذلك»، أي أن هناك سبباً متكرراً يتكلم من أجله المسيح. ويلاحظ القارىء أن في الأصحاح السابع عدد ٣٣و٣٤ قال المسيح هذا الكلام نفسه تقريباً، وفي نفس الموقف لما جاءت حملة ضباط الهيكل للقبض عليه، وهنا أحس المسيح أن نيتهم متجهة أيضاً للقبض عليه مرة ثانية، لذلك وبسبب وضوح نيتهم للقتل، بدأ المسيح هنا يحذر بتأكيد وجدية أنهم هم الخاسرون في هذه القضية، خسارة لن تعوض لأنها ستكون لهم للموت الأبدي، لأن خطيتهم ستبقى في عنقهم ولن تغفر لهم.

«تموتون في خطاياكم»: يلاحظ أن الخطية هنا هي خطية رفض المسيح: «والذي لا يؤمن بالابن ... يمكث عليه غضب الله» (يو٣:٣٦)

«ستطلبونني»: ولكن للأسف ستبحثون عني على الأرض وأنا سأكون في السموات، لذلك عبثاً تبحثون، ولن تجودنني لأنكم محبوسون في النظرة الجسدية الأرضية، ويا ليتكم كنتم تبحثون عني بصلاح نية، ولكنكم في حقدكم اليائس وعناد مقاومتكم لمشيئة الله، لن تكون خيبة أملكم هينة أو يمكن تعويضها، بل ستكون حكماً مؤبداً بالموت في خطيتكم. أما هذه الخطية فسوف يكفر عنها المسيح بعد ذلك بوضوح.

«حيث أمضى أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا»: يلاحظ أن المسيح هنا يركز على الفارق الشاسع بين «أنا»

و«أنتم». هذا هو أساس وجوهر الإنفصال الذي لا يمكن تلاحمه مرة أخرى كما هوحادث وسهل الآن بالجسد، الأمر الذي سيوضحه المسيح في آية قادمة.

«فقال اليهود: العله يقتل نفسه حتى يقول حيث أمضي أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا»: اليهود هنا هم الفريسيون المتربصون، الذين سبق أن قالوا، ردا على تحذيره أنه سيمضي ولا يقدرون أن يأتوا إليه، إنه ربما يكون قد فكر أن يمضي إلى شتات اليونانيين ليعلم هناك (٣٥:٧). ولكن هنا نجد أن ردهم يشتد فيه التهجم والخساسة مع مرارة الحقد، ربما لشعورهم أن المسيح يتعالى عليهم ويترفع عن مستواهم. كما يكشف ردهم: إنه ربما «يقتل نفسه»، مقدار ضيق العقل والتفكير المسدود، إذ بحثوا في أنفسهم كيف لا يستطيعون أن يذهبوا إليه؛ باعتبار أن إمكانياتهم في نظرهم تفوق إمكانياته؛ فرأوا أن هناك مكانا واحدا لا يستطيعون الذهاب إليه، وهو جهنم، حيث تستقر أرواح الذين يقتلون أنفسهم (حسب مذهب اليهود). كل ذلك تفكروا فيه في ضمائرهم، ولكن المسيح علم بما يضمرون وبما يفكرون.

«فقال لهم. أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق. أنتم من هذا العالم أما أنا فلست من هذا العالم. فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم لأنكم إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم»: المسيح هنا يشرح السبب الذي سيحتم بعدم قدرتهم على تتبع المسيح. ويوضحه على أساس اختلاف الطبيعة واختلاف الوجود بين ما هو أرضي وما هو سماوي، هذا الإختلاف الذي هو أيضا السبب فى قصور فهمهم.

هذا الاختلاف في الطبيعة سبق أن شرحه لهم الرب بصورة أخرى: «لأني أعلم من أين أتيت والى أين أذهب، وأما أنتم فلا تعلمون من أين آتي ولا إلى أين أذهب... أنتم حسب الجسد...» (٨:١٤-١٥). هنا يكون عدم معرفتهم لطبيعة المسيح ومن أين جاء، هو الذي سبب عدم معرفة المسيح؛ وأما عدم معرفتهم إلى أين يذهب فقد أضاع عليهم معرفة رسالته ومعرفة الذي أرسله.

هنا المسيح يوضح أكثر جداً من أي شرح أخر من أين هو وما هي طبيعته:

«أنتم من أسفل»، أي من الطبيعة الترابية، من الأرض، من المحدود الزمني المنتهي إلى الموت، من تحت الباطل والزيف والأقنعة الزائلة.

«أما أنا فمن فوق»، أي من الطبيعة الخالقة، من السماء، من اللامحدود الأزلي، من الخالد الأبدي، من الحق القائم بذاته والدائم بكيانه.

«أنتم من هذا العالم»، المتغير والزائل المحكوم بالقوى الطبيعية، والذي أُخضع للباطل، ويسوده الشر، ويغطيه الظل ويعبث به الدوران!

«أما أنا فلست من هذا العالم»، أتيت إليه مرسلا، وأتركه وأذهب من حيث أتيت؛ دخلته لاخلصه، وأفديه، وأحييه، وأنيره، ثم أنطلق مفتتحاً الطريق المؤدي إلى السماء لمن استطاعوا أن يغلبوه، كما غلبته «بدم الخروف وبكلمة شهادتهم» (رؤ١٢:١١). هنا رد يخرس ظنهم الآثم أنه يذهب إلى الجحيم بقتله لنفسه.

وها يبغي أن نلاحظ أن طبيعة المسيح هي «من فوق» ولم تنزل أبداً «إلى أسفل». فنزوله إلينا كان فقط من أجلنا، وأما هو من حيث طبيعته فهو لم يزل «من فوق»، وهو لم يزل موجوداً فوق في السماء حتى أثناء وجوده معنا على الأرض: «ليس أحد صعد إلى السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء»

(يو٣:١٣). فنزوله كان فقط من أجل أن يجذبنا معه إلى فوق ويرفعنا معه حتى إلى الآب[1]، كما قال هو نفسه في مناسبة أخرى: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلي الجميع» (يو١٢:٣٢)، حيث هذا الجذب السري يعتمد أساساً على كون طبيعته طبيعة إلهية «من فوق» والى فوق، فإن تم الإتحاد بينه وبيننا نحن الذين «من أسفل» فلابد أن يجذبنا معه إلى فوق.

هنا تظهر للغاية أهمية الإتحاد بالمسيح. لأن الخطايا التي عُملت هي في الواقع شهوات ورغبات أرضية ارتبطت بها النفس وصارت تشكل ثقلا أرضيا شديداً جداً، يستحيل معه أن نرتفع إلى السماء، إن لم تتغلب عليها جاذبية المسيح. فالإرتفاع إلى فوق مع المسيح مدخر للذين أحبوا المسيح وعاشوا معه وصادقوه واتحدوا به. فإن لم نكن عائشين معه في شركة حقيقية، وليس بمجرد شركة فكرية أو عقائدية، يستحيل أن نرتفع معه إلى فوق، لأن طبيعتنا توقعنا من جديد إلى الأرض.

وأما هو فطبيعته سماوية «من فوق» ولها القدرة على الرفع إلى فوق، بل إن هذه القدرة على الرفع هي قدرة مطلقة. وأما ثقلنا فهو غير مطلق ولكنه محدود، حتى إذا اعتبرنا ثقل البشرية كلها مجتمعة، فهي في مجموعها لا تخرج عن كونها خليقة محدودة، وخطايانا مهما كثرت هي أيضاً محدودة، وأما هو فله طبيعة إلهية مطلقة، ولذلك فقدرته على الجذب «إلى فوق» تفوق بلا قياس ثقل البشرية الذى يجتذبنا إلى أسفل.

من أجل ذلك، فالإتحاد بالمسيح في غاية الأهمية لأنه الوسيلة الوحيدة التي بها نرتفع معه إلى فوق، بكل هدوء وبكل سلام، لأنه هو الذي يجذبنا ويرفعنا ولسنا نحن من ذواتنا.

وبهذا المعنى أيضاً قال: «أنا أمضي لأعد لكم مكاناً. وإن مضيت وأعددت لكم مكانا، آتي أيضاً وآخذكم إليّ حتى حيث أكون أنا تكونون أنتم أيضاً» (يو١٤:٢-٤). «آخذكم إليّ» لأنكم بدوني لا تستطيعون أنتم أن تأتوا إلى فوق لأنكم أنتم بسبب طبيعتكم «من أسفل». ولذلك: «كما قلت لليهود حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا أقول لكم أنتم الآن» (يو١٣:٣٣). ولما اعترض بطرس قائلاً: «لماذا لا أقدر أن أتبعك الآن؟»، أوضح الرب أنه طالما الخطية كائنة فيه، وهي التي ستقوده إلى الإنكار، فهو لا يستطيع أن يتبع الرب ولا أن ينجذب إليه «إلى فوق». «ولكنك ستتبعني أخيراً» (يو١٣:٣٦)، أي متى طهرتك من خطيتك التي تثقلك الآن وتجذبك إلى أسفل ..

فالأماكن النورانية الفوقانية التي لها الإرتفاع المهول تحتاج إلى خفة كبيرة للوصول إليها، فلن نبلغها إلا بعد أن يرفع الرب عنا أثقالنا، ويعلمنا كيف نصعد معه إلى فوق ثم إلى فوق وإلى أبد الأبدين.

هذه هي في الحقيقة شهوة المسيح الأزلية التي من أجلها احتمل كل شيء، والتي طلبها من أجلنا بإلحاح من الآب: «أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني، يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني، لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم.» (يو١٧:٢٤)

هذا هو نصيبنا المفتخر فوق. ولكنه يُصنع هنا في الزمان الحاضر. فإن متنا قبل أن نحصل على هذا الإتحاد وقبل أن نحقق هذه الصلات الحية بالمسيح، فكما يقول لليهود: «ستطلبوني وتموتون في خطيتكم» (يو٨:٢١)، حيث الخطية هنا بالمفرد وهي خطية رفض المسيح وعدم التجاوب معه.

لذلك يجب أن ننتبه جداً أن في قول المسيح: «أنتم من أسفل أما أنا فمن فوق» دعوة سرية وتنبيهاً لأذهاننا لضرورة تكوين علاقة حية به حتى نتغير ونتجدد، فنعرفه على حقيقته ونأخذه، وإذا ما أخذناه يحملنا معه إلى فوق!

[1] "رفع قديسيه معه إلى العلاء وأعطاهم قربانا لأبيه" (صلاة القسمة لعيد القيامة والخمسين المقدسة)

أما إن تغاضينا عن الدعوة وأهملناها، فإننا نصير كاليهود الذين رفضوه ونبقى بعيدين عنه.
ولذلك، يوضح المسيح مدى الهوة التي بينه، والتي تختبىء وراء كيانه الإلهي غير المنظور والمتغرب زمانا يسيراً بعد، وبينهم كبشر يهود عندما رفضوه ليبقوا على الأرض التي استوطنوها. ويعقب المسيح مستزيداً قوله توضيحاً: «فقلت لكم إنكم تموتون في خطاياكم». لأن مجيئي لم تدركوه، وخلاصي لم تقبلوه، وفدائي أهنتموه، لهذا بقيت لكم خطاياكم مربوطة في أعناقكم.

«لأنكم إن لم تؤمنوا أني أنا هو، تموتون في خطاياكم»: والمسيح هنا يبلغ في استعلان شخصه الإلهي أقص المدى، حينما يقول: «إن لم تؤمنوا أني **أنا هو**». و«أنا هو» كما قك مرارا، هو«اسم الله» الشخصي، أي الذاتي الذي عُرف به، ويُنطق بالعبرية «Ani ho» (تث٣٢:٣٩، إش٤٣:١٠). وقد لقب المسيح نفسه بهذا الاسم، ليس اختطافاً، بل إن الآب أعطاه اسمه ليعلنه ويتكلم به: «أنا أظهرت اسمك للناس» (يو١٧:٦)، «عرفتهم اسمك وسأُعرفهم، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم» (يو١٧:٢٦). ومعنى كلام المسيح: أنه إذا لم يؤمنوا باسمه «أنا هو»، أي يؤمنوا به باعتباره حامل اسم الله والمتكلم عنه لكي يحمل خطاياهم ويفديهم، فسيموتون في خطاياهم.
ويلاحظ القارىء في هذه الآيات أننا الآن في اليوم الأخير من العيد، والكل يتهيأ لأن يمضى إلى بلده ووطنه وأهله. فمن هذا المنطلق والإحساس قال لهم المسيح: «أنا أمضى وستطلبونني»، (أي لن يكون معهم في عيد المظال القادم)، ولن يستطيعوا أن يذهبوا وراءه بعد ذلك، وسيموتون في خطاياهم بسبب عدم إيمانهم ورفضهم له، كذلك كما لاحظنا في تسجيل القديس يوحنا لكلام الفريسيين السابق عندما قالوا عنه: «ألعله مزمع أن يذهب إلى شتات اليونانيين ويعلم اليونانيين» (يو٧:٣٥)، فإن القديس يوحنا يُنبىء من بعيد إلى مستقبل الكنيسة وكرازتها في العالم اليوناني، كذلك هنا يُنبىء بقول الفريسيين: «ألعله يقتل نفسه»، بما سيتم فعلا على مستوى تسليم ذاته ليُذبح بإرادته، وذلك في أسلوب سري مبدع.
كذلك نلاحظ في قول المسيح: «أأنا من فوق»، «أنا لست من هذا العالم»، أنه لتوجيه الذهن إلى الآب الذي جاء من عنده، ثم في قوله: «أنتم من أسفل»، «أنتم من هذا العالم»، أنه ليوجه ذهنهم إلى أب الآباء الذي منه انحدروا، أي إبراهيم، وهو سيستخدم هذا المعنى بعد قليل حينما يقول: «قبل أن يكون إبراهيم، أنا كائن»، مشيراً إلى أزليته. ويمتد بنفس المعنى ليعلن أن الذين أضمروا قتله، فقدوا أبوة إبراهيم، فصاروا من أب هو إبليس.
ولكن اليهود أصابهم الدوار حينما سمعوا المسيح يقول بوضوح عن نفسه: «أنا هو»، فاستدرجوه: «من أنت»؟

٨:٢٥ فَقَالُوا لَهُ: «مَنْ أَنْتَ؟» فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «أَنَا مِنَ الْبَدْءِ مَا أُكَلِّمُكُمْ أَيْضاً بِهِ».

«فقالوا له: من أنت؟»: واضح أن الفريسيين يسألون، ولكن ليس على أساس من صحة الضمير والنية، فهم يطالبونه أن يوضح شخصيته لا لكي يؤمنوا به ولكن ليجدوا علة أخطر يمسكونها عليه، خاصة وهو يستخدم اسم الله «أنا هو»: «آني هو_ بالعبرية Ani ho» والتي تُرجمت في السبعينية بـ «أنا هو الكائن بذاتي». وحتى ولو كانت لهم أقل نية لمزيد من معرفة شخصه، بعد كل الذي قاله لهم، لكان سؤالهم يتحدد في طلب المزيد، ولكنهم هنا يطالبونه بإعلان محدد: «من أنت؟». وهو نفس السؤال الذي سألوه ليوحنا المعمدان، فالمعمدان رد عليهم رداً واضحاً يتناسب مع نيتهم فقال: أنا لست المسيح. ولست إيليا، ولست النبي (الذي تنبأ عنه موسى). أي كان الرد

بالسلب الكامل من جهة الأسماء الكبيرة، ثم حدد شخصه بعمله قائلاً «أنا صوت صارخ». ثم أشار إلى المسيح الذي ينتظرونه: «ولكن في وسطكم قائم الذي لستم تعرفونه». أما رد المسيح هنا فهو إيجابي، من نحو الإعلان عن شخصه والإعلان عن عمله.

«أنا من البدء ما اكلمكم أيضاً به»: المسيح هنا يشير إلى شخصه «أنا»، وشخصه لا بد وأن يكون قد ظهر من الإعلأنات العديدة التي تكلم بها عن نفسه: إنه هو «نورالعالم»، و«الخبز النازل من السماء»، و «ينبوع الماء الحي»، وأن كلامه على وجه العموم « روح وحياة». أما كلمة «من البدء» فهي في أسلوب القديس يوحنا إشارة إلى أن شخصه المتحدث لم يُستحدث في العالم، بل هو ممتد في الأزل: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله»، ولكن استعلانه ابتدأ منذ بدأ المسيح يتكلم عن نفسه ورسالته: فكلمة في البداية « من البدء» تعود على الكلام مباشرة « أنا ... ما أكلمكم به»، ثم تعود على شخص المسيح بطريق غير مباشر بالتالى. فكلام المسيح لا يُقصد به أن يعلن لهؤلاء المقاومين أنه «البدء» أو أنه «في البدء» أو «من البدء»، لأن هذه الاصطلاحات اللاهوتية تحتم وجود ظرف يوناني معين مثل: (   ) أو (   )، ولكن المستخدم في هذه الآية هو (   )، ومعها لم يجيىء الكلام، أكلمكم، من أصل «الكلمة اللوغس» حتى كان يتبادر إلى الذهن «في البدء كان الكلمة»؛ بل جاء الكلام بمعنى «الحديث» (   ) وليس (   )، وفي الفعل المضارع أيضاً. لذلك فكلمة «بالبداية» لا تعود على شخص المسيح، ولكن تعود على الحديث نفسه. أي أن المسيح منذ البداية أعلن من شخصه في أحاديثه، وكان يبغي أن يُعرف من كلامه، ولكن حديثه منذ البداية عن نفسه يحمل معنى يمتد بالضرورة الحتمية ليغطي وجوده أيضاً، الذي هو منذ البداية. أليس هو القائل بعد ذلك مباشرة: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»، و« إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح» (يو٨:٥٧ و٥٦)؟

لذلك فرد المسيح: «أنا من البدء ما أكلمكم به»، يفيد أن شخصه من البدء قد استعلن بواسطة حديثه. والملاحظ دائما في كل ردود المسيح على المقاومين أنه لا يرد ردا مباشرا على السؤال، ولكنه كان يجيب إجابة تغطي أسئلتهم المخادعة، وتجيب على عدم فهمهم له، وتعطي معلومات جديدة وصحيحة عن حقيقة شخصه. لذلك يكمل المسيح رده عليهم بما يفيد نقص فهمهم مع مكرهم وخداعهم، أي جهلهم ولؤمهم معاً.

٨:٢٦-٢٧ «إِنَّ لِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةً أَتَكَلَّمُ وَأَحْكُمُ بِهَا مِنْ نَحْوِكُمْ لَكِنَّ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ حَقٌّ. وَأَنَا مَا سَمِعْتُهُ مِنْهُ فَهَذَا أَقُولُهُ لِلْعَالَمِ». وَلَمْ يَفْهَمُوا أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ لَهُمْ عَنِ الآبِ.

واضح هنا من استطراد المسيح، أن رده: «أنا من البدء ما أكلمكم أيضاً به» لا يغطي اتساع جهلهم وعمق لؤمهم، وأن عنده «كلام» و«حكم». كلام يغطي جهلهم وحكم يحكم به على خداعهم ولؤمهم. ثم يستطرد المسيح، إنه مهما أشاعوا من الكذب والتضليل بين الشعب، فهو يكفيه أنه يعلن الحق الذي سمعه من الآب، ليس لهم بل للعالم كله. ويقول القديس يوحنا معلقاً، إنهم لم يفهموا أنه كان يتكلم عن الآب عندما قال: «الذى أرسلنى هو حق».

٨:٢٨-٢٩ فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «مَتَى رَفَعْتُمُ ابْنَ الإِنْسَانِ فَحِينَئِذٍ تَفْهَمُونَ أَنِّي أَنَا هُوَ وَلَسْتُ أَفْعَلُ شَيْئاً مِنْ نَفْسِي بَلْ أَتَكَلَّمُ بِهَذَا كَمَا عَلَّمَنِي أَبِي. وَالَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ مَعِي وَلَمْ يَتْرُكْنِي الآبُ وَحْدِي لأَنِّي فِي كُلِّ حِينٍ أَفْعَلُ مَا يُرْضِيهِ».[1]

---

[1] يقرأ هذا الفصل (٨:٢٨-٤٢) في عشية عيد الصليب (١٧ توت و١٠برمهات) لما جاء فيه من إشارة إلى رفع المسيح على الصليب

وكأنما المسيح قطع كل الأمل في أن يتعرف عليه خاصته، أي اليهود، أو يقبلوا إليه: «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله» (يو ١:١١). فلم يبق أمامهم إلا أن يعودوا ويدركوا، إنما بعد فوات الآوان، بعد أن يفعلوا به فعلتهم، حينما تأتي ساعتهم متوافقة مع ساعة سلطان الظلمة، ويتم رفعه على الصليب، وحينئذ تتجلى حقيقته أنه: «أنا هو» الذي هو الاسم الجليل والكريم والمرعب الذي ليهوه، الذي حمله المسيح وأعلنه باعتداد نائبا عن الآب الذي أعطاه كل ما يقول ويعمل. أما من نفسه فلم يعمل شيئاً، بل في كل شيء لمرضاة ومشيئة الآب الحال فيه، والذي لم يتركه لأيديهم قط. وهنا ليس من الضرورة أن تكون إشارة المسيح إلى كونهم سيعرفونه، في الصلب أو بعد الصليب، بل هي إشارة غير مربوطة بالزمن بل بالعمل، فالعمل الذي عملوه سينقش على عقولهم وقلوبهم، ولن يُنسى الآن قط، لأن السماء والأرض ما تزال تردد ما فعلوه إلى أن يُستعلن في مجده مجروح الجانب، وحينئذ «ستنظره كل عين والذين طعنوه وينوحون عليه» (راجع رؤ ١:٧) نوح الندم بلا ندم، حينما يُستعلن، لا مسيا إسرائيل بعد، بل ديان العدل!

«متى رفعتم ابن الإنسان»: هنا المسيح يستخدم الاصطلاح المحبب إليه، والمعروف في التقليد العبراني، والذي يشير إلى الصليب والقيامة معا، فهو ارتفاع ورفعة، هوان ومجد، فعلان مترافقان ومتضامنان. وقد استخدم هذا التعبير في العهد القديم بنفس هذا المعنى. فنقرأ عن ارتفاع المجد: «في ثلاثة أيام أيضا يرفع فرعون رأسك ويردك إلى مقامك.» (تك ١٣:٤٠)

أما عن الرفع للهوان والموت فنقرأ: «في ثلاثة أيام أيضا يرفع فرعون رأسك عنك ويعلقك على خشبة» (تك ١٩:٤٠). وهكذا حينما تتعارض مشيئة الخطاة مع مشيئة الله، فلا بد من الصليب ولابد من المجد. وحينما يصلبون ابن الإنسان، حينهذ سيدركون أنه ابن الله.

«بل أتكلم بهذا كما علمني أبي»: المسيح هنا يشير إلى كل تعاليمه، وإلى شرح مركزه بالنسبة لله الآب، وإلى قوله «أنا هو». هذه كلها هي نطق الآب فيه، وهي حق كل الحق، وليس فقط أن كل قول وعلم وعمل هو من الآب وإلى الآب، بل والآب نفسه المتكلم والعامل فيه وبه، هو«كائن معه». فالكلمة قبل التجسد كان عند الله كائناً معه، ابناً في حضن أبيه، وبعد التجسد صار الآب عند الابن كائناً معه. لأن الابن المتجسد لم يفارق الآب قط، ولم يفارق الآب الابن، فجوهر الألوهية يجمعهما، ويجمعهما جوهر الحب المتبادل أيضاً وبالتساوي» والحب بعد التجسد صار من جهة الآب مُعلناً بالارسالية، الآب أحب الابن وأرسله. أما من جهة الابن فاستعلن الحب فيه بالطاعة المطلقة للآب. طاعة مذعنة حتى إلى أداء الموت، ولكن لم تكن قط طاعة مذلة أو إذلال، بل طاعة رضى وإرضاء، طاعة حب واسترضاء، طاعة تحيطها المسرة من كل جانب، طاعة قوتها العمل الجاد واحتمال المخاطر، وليست بمشاعر بشرية تتوقف عند الخطر: «ولم يتركني الآب وحدي، لأني في كل حين أفعل ما يرضيه».

ج- الجزء الثالث من الحوار

«إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (٨:٣٠-٥١)

٨:٣٠-٣٢ « وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ بِهذَا آمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ. فَقَالَ يَسُوعُ لِلْيَهُودِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ: «إِنَّكُمْ إِنْ ثَبَتُّمْ فِي كَلاَمِي فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ تَلاَمِيذِي. وَتَعْرِفُونَ الْحَقَّ وَالْحَقُّ يُحَرِّرُكُمْ».

واستعلان لاهوته "متى رفعتم ابن الإنسان فحينئذ تفهمون أني أنا هو".

في هاتين الآيتين يلزم التفريق بين مضمونهما، وهوالإيمان. فالترجمة العربية قاصرة جداً، حيث جاء الإيمان في الآية الاولى بشكله اليقيني مثل الإيمان في الآية الثانية تماماً دون تفريق، مما يفوت على القارىء المعنى الحقيقي. أما في الأصل اليوناني فيأتي «الإيمان» فى الآية الاول بشكله اليقيي وتأتي ترجمتها الصحيحة «يؤمن به» وفي اللغة الإنجليزية believe in him. أما «الإيمان»د في الآية الثانية فيأتي باللغة اليونانية بدون تأكيد، بمعنى «يصدق» فقط، وبالإنجليزية believe him، وبهذا يستقيم المعنى والشرح. فعندما سمع اليهود كلام المسيح المقنع اقتنعوا، إذ رأوا فيه ملامح المسيا، فأظهروا أو تظاهروا أنهم يؤمنون؛ ولكن المسيح عرف ما في ضمائرهم ونياتهم، إذ كان ذلك مجرد تصديق للأقوال فقط التي جاءت على هواهم لبلوغ غاية أمانيهم الوطنية، وليس إيمان التعرف على حقيقة المسيح المخلص والإلتصاق به. فكان في نيتهم أن يجاروه حتى يتأكدوا أنه «المسيا» الذي سيعيد المدد لإسرائيل ويحررهم من الرومان، أي مسيا السياسة ودنيا اليهود. وكان في قلبهم أنه إذا ظهر أنه ليس هو المسيا الذي ينتظرونه، يكون مدعياً ويستحق الموت. لذلك بادرهم المسيح بأقوال كشفت في الحال أن إيمانهم هو مجرد تصديق أقوال جائت على هواهم، بانتظار ما يستجد من الأمر، ولس اتباعه أو الإلتصاق به على أساس الإيمان به ومعرفة الحق.

«فقال يسوع لليهود الذين آمنوا به (أي صدقوه) إنكم إن ثبتم في كلامي فبالحقيقة تكونون تلاميذي»:

فالمسألة ليست تصديق كلام «ولكن ثبوت فيه»، بمعنى اتباعه، واتخاذه منهجاً وطريقاً، وحينئذ يكونون من التابعين، أي تلاميذ مبادىء وطريق وحق وحياة، وهكذا يتحررون من المعرفة الخاطئة لمعلمين دخلاء: «وتعرفون الحق، والحق يحرركم».

هنا يضع المسيح موضوع تحررهم من عبودية الرومان الذي كان يشغل بالهم، والذى هو منتهى امالهم وإيمانهم في المسيا المنتظر، الذي سيحورهم بالسيف، موضعا حرجا للغاية؛ إذ يكشف لهم أن عبوديتهم للرومان هينة وبسيطة بجوار عبوديتهم للجهل والخرافات التي طمست معالم الحق الاعلي في قلوبهم، وأن المسيح جاء ليحررهم من الجهالة، وليس ليحررهم على مستوى السياسة. وفي الأصل اليوناني يجعل المسيح «الثبوت» ليس ثبوت فكر مع فكر بل ثتبوت أشخاص: «انتم»، «إن (أنتم) ثبتم في كلامي»، والنتيجة أنهم هم يصيرون تلاميذ. فالمسيح يرد تفكيرهم وآمالهم وظنونهم من أحوال دنياهم وهمومهم وأفكارهم السياسية، إلى أحوالهم القلبية الداخلية وحياتهم مع الله. فإذا صاروا تلاميذ للمسيح فإنهم يتتلمذون للحق، يعرفونه ويسيرون بمقتضاه، فيتحررون من سيرتهم الداخلية التي أبعدتهم عن الله وزيفت لهم خصائص المسيا. وقد سبق المسيح وقال: «إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم» (يو٨:٢٤). وهنا يكمل التلمذة الصحيحة: «إن (أنتم) ثبتم فى كلامي، فبالحقيقة تكونون تلاميذي»، ثم يعطي النتيجة للايمان الصحيح والتلمذة الصحيحة وهي: «تعرفوذ الحق، والحق يحرركم». هنا يلمح المسيح إلى الصلة الجوهرية بين «التلمذة له»، أي التسليم المطلق للمسيح، و«المعرفة» و«الحق»، و «الحرية»، فهذه الأصول الثلاثة «المعرفة، والحق، والحرية» تنبع منه هو، وبالتالى تنصب فيهم بالطاعة وتسليم الحياة. فهو الذي جاء أساساً:

اولا: ليعرف الناس بالله الآب، وبالحياة الأبدية، فالآب مصدر المعرفة الحقيقية: «عرفتهم اسمك وساعرفهم» (يو١٧:٢٦). واختصارها أن الابن استعلن الآب، وهذا هو جوهر المعرفة: «هذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الاله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو١٧:٣). واختصارها أن معرفة الايمان بالآب والابن هي هي

الحياة الأبدية.

وثانيا: ليعرف الناس الحق: «أنا هو الطريق والحق والحياة» (يو ١٤:٦)، واختصارها أن المسيح هو الطريق، أي الوسيلة العملية الوحيدة لمعرفة الحق، لأنه هو الوحيد الذي حمل اللاهوت وأعلنه جسديا، أي الوحيد الذي أعلن الحق الالهي المطلق منظورا ومسموعا ومعمولا، والحق هو جوهر الحريات.

وثالثا: الحرية: بموته فك أسر الانسان من عبودية الخطية، فأصبحت مشيئة الإنسان حسب مشيئة الله، لأن المحدود الزمني، وهو الانسان، أصبح متوافقا مع المطلق الأبدي وهو الله. وهي أقصى غاية الحرية التي يمكن أن يبلغها المخلوق.

ويلاحظ أن التلمذة الصحيحة تقوم على المعرفة الصحيحة للحق، ولكن لا يمكن أن تُحسب التلمذة صحيحة إلا إذا أُختبر ثبوتها ورسوخها وعدم تزعزعها. وهذا كان محور تأكيد المسيح التعليمي من جهة التلمذة له: «أثبتوا فيّ»، «أثبتوا في محبتي. إن حفظتم وصاياي، تثبتون في محبتي. كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته.» (يو ١٥:٤ و ٩ و ١٠)

من هذا يتضح أن «ثبوت الإنسان في كلام المسيح» الذي يطالب به المسيح هنا اليهود، هو الطريق الوحيد المؤدي إلى بقية الآية: «وتعرفون الحق والحق يحرركم». فالثبوت في كلام المسيح يفتح البصيرة والذهن ويستعلن «الحق».

كذلك يكون «الحق» هنا ليس هو الحق الفلسفي الفكري، الذي ينتهي عند العقل لمعرفة حقيقة الأشياء وجوهرها وتميزها من مظاهر الأشياء؛ بل «الحق» الروحي الذي يؤدي إلى الحياة في الله ومعه، الحق الدي يحرر المشيئة من التعلق بالباطل والأوهام والخطية، وهو «حق» السلوك والعمل والحب والبذل.

هنا يلزم أن نضع «المسيح» موضع «الحق» لكي ينكشف لنا بساطة التعبير: «تعرفون الحق والحق يحرركم»، وهو ما فعله المسيح بعد ذلك في آية قاددمة (٨:٣٦). وهذا أيضا ما علم به القديس يوحنا في رسالته الاولى بوضوح: «لم أكتب إليكم لأنكم لستم تعلمون الحق، بل لأنكم تعلمونه، وأن كل كذب ليس من الحق. من هو الكذاب، إلا الذي ينكر أن يسوع هو المسيح، هذا هو ضد المسيح الذي ينكر الآب والابن» (ايو ١:٢١-٢٢)

هنا المسيح «كحق» تكون معرفته ليست من على بعد كمعرفة التأمل في الأمور الخارجية من الإنسان، بل معرفة المسيح هي قبوله شخصيا والخضوع له بالفكر والمشيئة والقلب، لاستقبال روحه وحياته ومشيئته وحبه وعلاقته السرية بالآب!! و بالتالى نوال الفداء والخلاص والتبرير والشفاعة والمجد والتبني، وهذا هو قمة بلوغ الحق والحرية. لذلك يستحيل بلوغ الحرية، للحياة بها، إلا بمعرفة الحق، ويستحيل معرفة الحق، للحياة به، إلا بالمسيح. هذا هو جوهر الإيمان المسيحي، فالإيماذ بالمسيح ليس نطقا ولا فكرا ولا فهما، بل قبول المسيح ذاته. فالإيمان المسيحي، فعل حار، خبرة ساخنة تشعل القلب، ترفع الهم، تريح النفس، تبرىء الضمير، وهذه هي الحرة: «حرية مجد أولاد الله.» (رو٨:٢١)

٨:٣٣ أَجَابُوهُ: «إِنَّنَا ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ وَلَمْ نُسْتَعْبَدْ لأَحَدٍ قَطُّ. كَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ: إِنَّكُمْ تَصِيرُونَ أَحْرَاراً؟».

لقد استثار المسيح في هؤلاء اليهود، الذين أظهروا في البداية قبولا لكلام المسيح، أفكارهم الدفينة المترسبة عبر الأجيال والدهور، القائمة على الغلو في الوطنية السياسية المصبوغة من الخارج بالعبادة، والموضوع عليها شعار يهوه، لتصبح السياسة المقدسة التي لا يستطيع أن يمسها أحد. فكيف لهذا المعلم أن ينفي عنهم الحرية وهم قد

أخذوا السيادة على العالم بكل شعوبه وأممه، بوعد وتعهد من الله لأبيهم إبراهيم! ون كانت بلادهم وأرضهم اجتاحتها جيوش أعداء على مر السنين، مصريين وبابليين وأشوريين ورومان، فكما جاءوا هكذا رحلوا دون أن يمسوا ميراثهم أو تراثهم أو عوائدهم أو عبادتهم. لقد خرج اليهود من نير الأسر مراراً وهم أحرار كما كانوا، بوعد أبيهم إبراهيم. فكيفر يعدهم هذا بالحرية وهم في حريتهم قائمون؟

نظرة عامة في الحوار في الأصحاح الثامن: (٨:٣١-٥٨).

في هذا الحوار بين المسيح واليهود الذين أظهروا في البداية قبولا لكلام المسيح، واضح هنا المقارنة المفتوحة بين: التمسك بافتقاد الله في القديم، وافتقاد الله الجديد الذي أُكمل في المسيح؛ وبين النظرة الخلفية للتاريخ، والنظرة الأمامية التي للروح.

بين مظاهر الأمور الإلهية؛ وبين جوهر الفعل الأخلاقي.

بين المعالجة الزمنية للحياة الأرضية؛ وبين الخلق الجديد بالروح للحياة الأبدية.

والمقارنة التي في هذا الحوار تعتبر أكمل في مشتملاتها من الحوار السابق كله، لأن هنا يبدأ الحوار من إبراهيم أب الآباء كممثل لليهود، بينما كان موسى الممثل لليهود في الحوار السابق.

ومن معارضة اليهود لكلام المسيح يتبين الخط الذهبي للمفهوم اليهودي الذي كان المسيح يخاطبه:

(أ) ٨:٣٣ «إننا ذرية إبراهيم، ولم نُستعبد لأحد قط، كيف تقول أنت إنكم تصيرون أحراراً»

٨:٣٩ «أبونا هو إبراهيم»

٨:٤١ «إننا لم نولد من زنا، لنا أب واحد وهو الله».

(ب) ٨:٤٨ «إنك سامري وبك شيطان».

٨:٥٣ «ألعلك أعظم من أبيما إبراهيم الذي مات ... من تجعل نفسك»

٨:٥٧ «أفرأيت إبراهيم».

أ _ وهنا نجد أن الثلاث الإجابات الاول تختص:

أولاً: بفكر اليهود عن المواعيد الروحية لميراث حسب الجسد.

وثانياً: بفكر اليهود عن القرابة الجسدية كمحل للافتخار بأعمال الآخرين.

وثالثا: باتخاذ العناية الإلهية للتمجيد الذاتي، كدرع يخفي فساد السيرة.

ب _ أما الثلاث الإجابات الأخيرة فهي ردود على:

إدانتهم للمسيح، والحكم القاطع ضده من جهة مظهر سلوكه ضدهم.

ثم من جهة مصدر سلطانه كما تراءى لهم،

ثم من جهة ادعائه بالوجود السابق لوجوده (الألوهية المستترة).

وبهذا التحليل نستطيع أن ندخل إلى فهم وهدف هذا الحوار. فالمسيح بدأ الحوار بالوعد بإعطاء الحرية للذين أرادوا أن يؤمنوا به، إن هم ثبتوا في تعليمه، ولكنهم رفضوا الكلام من أساسه باعتبارهم أحراراً. وكان رد المسيح أن حريتهم التي يزعمونها ليست حرية، لأن الذي يخطىء يصير عبداً للخطية، فالخطية تسلب الإرادة وتسلب الاختيار. فحريتهم يلوثها عصيان أخلاقي، فهي حرية ليست روحية أو بحسب الحق والبر (٣٣-٣٦).

وأضاف المسيح أن الاحتفاظ بميراث الآباء الديني بينما هو لا يحمل معه السلوك والأخلاق بمقتضى الآباء، ينتفي

أن يدعى ميراثاً دينياً!! (٣٧-٤٢).
كذلك قال لهم إن إخفاقهم في الاستماع إليه، إنما يرجع لعدم قبولهم للحق وهذا ينبع من طغيان عنصر الشر فيهم (٤٣-٤٧).
وان كان المسيح يحكم عليهم، فحكمه عن حق (٤٨-٥٠).
والكلمة التي يتكلم بها، هي بحد ذاتها مُحيية (٥١-٥٣).
وان الحرية التي يدعو إليها، أعلى من الحرية التي ورثوها من إبراهيم، لأنه كائن قبل أن يكون إبراهيم (٥٤-٥٨).

٨:٣٤-٣٦ أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ كُلَّ مَنْ يَعْمَلُ الْخَطِيَّةَ هُوَ عَبْدٌ لِلْخَطِيَّةِ. وَالْعَبْدُ لاَ يَبْقَى فِي الْبَيْتِ إِلَى الأبد أَمَّا الاِبْنُ (ابن الله) فَيَبْقَى إِلَى الأبد. فَإِنْ حَرَّرَكُمُ الاِبْنُ فَبِالْحَقِيقَةِ تَكُونُونَ أَحْرَاراً».

لينتبه القارىء إلى أن تكرار النطق «بالحق» بالنسبة للمسيح، يشير إلى حقيقة ثابتة تمت إلى طبيعة المسيح وعمله، فهو هنا يقرر ماهية «الحرية الحقيقية» حيث ينسبها إلى القداسة الفردية كعلاقة وثيقة مع الله، إزاء زعمهم أن الحرية هي معيار وضع الأمة سياسياً، الأمر الذي دمر مستقبلهم الخلاصي. لأن الذي يفعل الخطية فهو يحيا حياة الإثم والتعدي، إذ يرتبط بالعالم ويفقد حريته ثم نفسه، ويكون قد فقد حرية البنين وصار عبداً للخطية، لأن إبليس يكون قد تسيطر على إرادته وتولى قيادته: «كل من يفعل الخطية يفعل التعدي أيضاً، والخطية هي التعدي. وتعلمون أن ذاك أُظهر لكي يرفع خطايانا وليس فيه خطية. كل من تثبت فيه لا يٌخطىء» (ايو١:٣-٥)، «من يفعل الخطية فهو من إبليس، لأن إبليس من البدء يخطىء. لأجل هذا أُظهر ابن الله، لكي ينقض أعمال إبليس.» (ايو٣:٨)
والمسيح هنا يتعقب الحرية ليوصلها إلى القداسة ثم إلى الله. ويتعقب الخطية ويوصلها إلى العبودية ثم إلى إبليس. وهكذا فكل من يحيا حياة الإثم والتعدي، يكون قد فقد حرية الينين بالنسبة لله. ولا سبيل إلى إعادة حرية البنين له إلا بواسطة ابن الله، وذلك لأنه الوحيد الذي يرفع الخطية ويقدس، فيرفع يد إبليس عن المأسور، ويحرره ويعيده إلى حق البنين، وبالتالي يعيده إلى ميراث بيت الله، بمعنى الشركة في ميراث الابن.
وهكذا فإنه عوض أن كان الإنسان يفعل الخطة، أصبح يفعل الحق: «واما من يفعل الحق، فيقبل إلى النور لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة» (يو٣:٢١). والمسيح يقدم نفسه لهم كابن الله، الذي جاء ليحررهم، بمعنى ينقلهم من عمل الخطية إلى عمل البر: «إن علمتم أنه بار هو، فاعلموا أن كل من يصنع البر مولود منه» (١يو٢:٢٩)
وهكذا يوضع المسيح لليهود أمراً هاماً للغاية بالنسبة إلى هدف حياتهم الكلي: «يبقى في البيت إلى الأبد»، وسلوكهم المربوط بهذا الهدف. فالخطية تتسبب في فقدان هدف الحياة، أما هدف الحياة فهو العلاقة مع الله. وبولس الرسول يضع هذه المقارنة وجهاً لوجه: «أنتم عبيداً للذي تطيعونه، إما للخطة للموت أو للطاعة (للمسيح) للبر. فشكرا لله أنكم كنتم عبيدا للخطية، ولكنكم أطعتم من القلب ثورة التعليم التي تسلمتموها، وإذ أعتقتم من الخطية صرتم عبيدا للبر (أحراراً). (رو٦:١٦-١٨)؛ «لأنكم لما كنتم عبيد الخطية، كنتم أحراراً من البر. فأي ثمر كان لكم حينئذ من الأمور التي تستحون بها الآن؟ لأن نهاية تلك الأمور هي الموت. وأما الآن، إن أعتقتم من الخطية وصرتم عبيداً لله، أبناء، فلكم ثمركم للقداسة، والنهاية حياة أبدية.» (رو٦:٢٠-٢٢)
فانظر أيها القارىء العزيز، كم كانت تحمل كلمة المسيح من العمق الروحي واللاهوتي والخلاصى بآن واحد، حينما

قال لهم: «إن حرركم الابن، فبالحقيقة تكونون أحراراً»، وليست الحرية الكاذبة التي كانوا يفتخرون بها، وهم في الحقيقة كانوا عبيداً يعيشون في بيت الله اختلاساً، وكان طردهم وشيكاً، أما الابن (المسيح) فيبقى إلى الأبد كما يقول عنه بولس الرسول في سفر العبرانيين:.«وموسى كان أميناً في كل بيته كخادم شهادة للعتيد أن يتكلم به (أي المسيح)، وأما المسيح فكابن على بيته. وبيته نحن، إن تمسكنا بثقة الرجاء وافتخاره ثابتة إلى النهاية.» (عب٣:٥-٦)

ثم انظر أيضاً هذى الضلالة التي يقع فيها الإنسان الشارد عن الحق والله، حينما يقول (أنا حر أفعل ما أشاء!)؛ أو حينما يقولون (إن الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً!)؛ أو حينما يفتخر أصحاب الأوطان بحرية أوطانهم، وهم يكونون وللأسف عبيداً للعالم الحاضر، وأسرى الخطية ومشورات الشيطان.

فالحرية الحقيقية إنما هي علاقة مع الله تنشىء حرية من ربط الخطية، وحرية النفس من الإنحرافات المريضة حتى ولو كانت الأرجل في المقطرة أو الأوطان تحت الإحتلال والسخرة. وهذا ما تكفل به المسيح على أعلى مستوى وأكمل وجه.

٨:٣٧-٤٠ «أَنَا عَالِمٌ أَنَّكُمْ ذُرِّيَّةُ إِبْرَاهِيمَ. لَكِنَّكُمْ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي لأَنَّ كلاَمِي لاَ مَوْضِعَ لَهُ فِيكُمْ. أَنَا أَتَكَلَّمُ بِمَا رَأَيْتُ عِنْدَ أَبِي وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ مَا رَأَيْتُمْ عِنْدَ أَبِيكُمْ». أَجَابُوا: «أَبُونَا هُوَ إِبْرَاهِيمُ». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتُمْ أَوْلاَدَ إِبْرَاهِيمَ لَكُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ إِبْرَاهِيمَ! وَلَكِنَّكُمُ الآنَ تَطْلُبُونَ أَنْ تَقْتُلُونِي وَأَنَا إِنْسَانٌ قَدْ كَلَّمَكُمْ بِالْحَقِّ الَّذِي سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ. هَذَا لَمْ يَعْمَلْهُ إِبْرَاهِيمُ».

الرب هنا ينفي عن هؤلاء اليهود المعاندين أن يكونوا أولاد إبراهيم، إذ اكتفى أنهم ذرية له وحسب، لأنهم إن كانوا أبناء إبراهيم فكيف يسلكون هكذا تجاه المسيح الذي اشتهى إبراهيم نفسه أن يرى يومه (يوم المسيح) فرأى وفرح (يو٨:٥٦)؟ أليس أن هؤلاء الذين يدعرن أنهم أبناء إبراهيم، وأنهم على مستوى الوعد، قد آنعمت بصيرتهم الروحية، وانسدت آذانهم عن سماع كلماته، وأثبتوا بذلك أنهم ليسوا أبناى الوعد بل غرباء بل أعداء؟

وواضح مقدار ضعف حجة اليهود، بل مقدار ضياعهم وجهلهم أن يقولوا إننا أولاد إبراهيم، كمصدرهم الوحيد للافتخار، ولا يذكرون مدى انتمائهم للناموس أو ميراثهم الأخلاقي والتقوي من الآباء أو معرفتهم الممتازة بالتوراة. وهذا واضح لأنهم بددوا ميراث تقوى ابائهم، ولم يتبق لهم منه إلا تاريخ ميت يتمسحون فيه وهم غرباء عنه. وواضح من كلام المسيح أن اليهود كانوا غير أمناء لتاريخهم، غير أمناء على مواعيد الله لإبراهيم وكل أنبيائهم، وقد تضخمت عدم أمانتهم إلى أحط صورة في محاولة قتل المسيح للتخلص من تبكيته لهم، وهو يحاول إصلاحهم. إنهم يخافون الحق ويحاولون إسكاته.

لقد جاء المسيح «الابن» الحقيقي لله ليحقق وعد الله لإبراهيم ويكمل كل الموعود به، وها هم يريدون أن يقتلوه! هو يتودد ويتكلم وهم يتربصون ليقتلوه، هو يتكلم بما سمعه من الآب من نحوهم للحياة، وهم يتحركون لينفذوا خطة القتل كما رسمها أبوهم وسلمها إليهم للتنفيذ. الرب يجهد نفسه ليبلغهم سر الحياة، وهم يجهدون أنفسهم ليرتبوا خطة الصلب. فالقاتل، الذي نوى القتل، لا يسمع، وإن سمع لا يصغي، وإن أصغى لا يعي، وإن وعى نسي ما وعى. فكلام المسيح الذي للحياة لم يكن له موضع قط في قلوبهم، لأن قلوبهم كانت مملوءة حسداً وحقداً. ويكفي للتدليل على ذلك من قول الرب: «لكنكم تطلبون أن تقتلونى»، فهذا هو هدفهم وهذا هو فكرهم وسعيهم وقد صموا آذانهم

عما عداه. وفي هذا يتم التشبيه بين العبد الخائن لعهد صاحب البيت، الوشيك الطرد، وبين الابن صاحب البيت، الوشيك أن يقدم نفسه فدية عن أهل البيت الأمناء.

فالمسيح جاء ومعه خطة الآب للخلاص التى سيتممها بموته.

وهم استلموا خطة القتل كما رسمها لهم أبوهم الذي هو أبو كل كذاب وقاتل. المسيح يحاول أن يكتسب ثقتهم ليسلمهم وديعة الحياة التي جاء بها من عند أبيه.

وهم بالإختفاء وراء إبراهيم يحاولون بالكذب أن يخفوا عنه ضربة الموت التي رسمها الشيطان القتال منذ البدء.

الرب يلفت نظرهم أنه يعلم كل شيء، ويؤكد لهم أن عمل الشيطان لا يتطابق مع صلاح إبراهيم.

وهم بانصياعهم وراء الشيطان جحدوا ميراثهم، وهو وشيك أن ينزع منهم بالعدل.

وأخيراً يتنازل المسيح معهم ويحدد قضيته معهم أمام قضاة الناس، ويطرح القضية عل مستوى عدل قضاة الأرض: فإن كان إنسان، وليس ابن الله نفسه، تكلم مجرد كلام هو «الحق» فكيف تكون أجرته الموت؟ هذه تحتسب شناعة في حق قضاء العدل على مستوى الناس، فكيف وكم إن كان هذا الإنسان هو هو ابن الله؟

وإبراهيم أبوهم لم يكن على هذا المستوى من فهم القضاء. لقد وقف إبراهيم أمام الله يوما يحاججه في أمر حرق سدوم وعمورة ويراجعه في قضائه: «أديان كل الأرض لا يصنع عدلاً» (تك١٨:٢٥)» وذلك خوفا على الابرار الذين فيها. وذلك حينما أعلمه الله أن هذين البلدين المنكوبين سيحرقهما الرب وسيزيلهما من الوجود. فإبراهيم حاجج الله نفسه، وه وديان كل الأرض، حاججه في بنود حكمه خوفا أن يؤخذ البار مع الأثيم، فكيف بلغ القضاء في قلوب هذا النسل الضال المضل المدعي البنوة لإبراهيم، أن يقتل البار ويترك الأثيم!! اصلب المسيح وأطلق لنا باراباس: «خذ هذا (المسيح) وأطلق لنا باراباس... اصلبه اصلبه.» (لو٢٣:١٨و٢١)

٨ : ٤١ «أَنْتُمْ تَعْمَلُونَ أَعْمَالَ أَبِيكُمْ». فَقَالُوا لَهُ: «إِنَّنَا لَمْ نُولَدْ مِنْ زِناً. لَنَا أَبٌ وَاحِدٌ وَهُوَ اللهُ».

ولكن كلام المسيح كان بالفعل ليس له موضع فيهم، فلم يفهم هؤلاء القتلة قول المسيح حينها قال لهم: «إنكم تعملون ما رأيتموه عند أبيكم». وهوذا الآن يوضحها لهم أكثر، أنهم يعملون «أعمال أبيهم». وواضح أن حقدهم وحسدهم وبغضتهم الشديدة له هي في الواقع أعمال إبليس، وبالأكثر نية القتل المبيتة ضده، ومحاولة اغتصاب البنوة لله: «لنا أب واحد وهو الله». هذا على غير صحة وبغير ذي حق، لأنهم لا يقبلون كلام الله بفم المسيح ولا أعمال الله بيده، ولا حتى كانوا أمناء لوصايا الله بحسب الناموس والآباء. فالآن، لأن عبادتهم لله مزيفة، فحتما يصبح ادعاؤهم لابوة الله مزيفاً، هنا يتحتم بحسب قول النبيين إشعياء وإرميا، أن تقيم بنوتهم أنها من زنا، لأن إبليس يكون هو الذي حبل بهم وتبناهم.

وهكذا عندما أخذوا يدافعون عن بنوتهم الشرعية لإبراهيم، في حين أن المسيح كان يقصد أنهم أبناء إبليس، وأنهم صاروا بالفعل أولاد زنا وليسوا أولاد إبراهيم أو أولاد الله كما يدعون. وهاك قول النبي: «وقال الرب لي في أيام يوشيا الملك هل رأيت مافعلت العاصية إسرائيل؟ انطلقت إلى كل جبل عال وإلى كل شجرة خضراء، وزنت هناك (عبادة الأصنام) فطلقتها وأعطيتها كتات طلاقها. لم تخف الخائنة يهوذا، أختها، بل مضت وزنت هي أيضا ....نجست الأرض وزنت مع الحجر(أصنام الحجر) ومع الشجر(أصنام الخشب) ... لم ترجع ... يهوذا بكل قلبها بل بالكذب يقول الرب.» (إر٣:٦–١٠)

ويوضح إشعياء النبي أن الرب، بعد أن اعتبر حبه لإسرائيل ويهوذا كحب عريس لعروس، عاد وطلقها بسبب الأثام

والذنوب التي اقترفوها، بمعنى أنه باع الشعب للأمم: «هكذا قال الرب: أين كتاب طلاق أمكم التي طلقتها ... من أجل آثامكم قد بُعتم ومن أجل ذنوبكم طلقت أمكم» (إش٥٠:١-٢). إذن، فلم يعد إبراهيم أباً لهم، ولا عاد الله يعاملهم كبنين!

هذه اللغة كان يعرفها جيدا هؤلاء اليهود المعاندون للمسيح حينها قالوا له: «إننا لم نولد من زنا. لنا أب واحد وهو الله» (يو٨:٤١). ولكن، للأسف، كان كلامهم بالكذب لأن الله قالها مرة على لسان كل من إرميا النبي وإشيعاء النبي: «إني طلقت أمكم». فأصبحوا أولاد زنا بالفعل، أي أولاد عبادة الشيطان، وإبراهيم يتبرأ منهم، وليس إبراهيم فقط بل والله والمسيح أيضاً.

ويلزم هنا أن نفهم من كلام المسيح أن «العبد لا يبقى في البيت إلى الأبد» (يو٨:٣٥)، أن المسيح يطرح قضية الحرة كفعل حياة مسقبلي يحدده سلوك الحاضر. والمسيح يقصد الحياة الأبدية التي جاء ليفتتح عهدها الجديد بموته وقيامته. فابن الخطية الذي يمثله هؤلاء اليهود هو على مستوى العبد الذي ليس له حق في ميراث البيت؛ أما الذي يؤمن «بالابن» فينعتق من عبودية الخطية، ويكون قد سجل لنفسه التبرير في الحاضر، وحق الحياة الأبدية عبر المستقبل وإلى الأبد في ميراث الابن لله!

٨:٤٢-٤٤ فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كَانَ اللَّهُ أَبَاكُمْ لَكُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لأَنِّي خَرَجْتُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ وَأَتَيْتُ. لأَنِّي لَمْ آتِ مِنْ نَفْسِي بَلْ ذَاكَ أَرْسَلَنِي. لِمَاذَا لاَ تَفْهَمُونَ كلاَمِي؟ لأَنَّكُمْ لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَسْمَعُوا قَوْلِي. أَنْتُمْ مِنْ أَبٍ هُوَ إِبْلِيسُ وَشَهَوَاتِ أَبِيكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَعْمَلُوا. ذَاكَ كَانَ قَتَّالاً لِلنَّاسِ مِنَ الْبَدْءِ وَلَمْ يَثْبُتْ فِي الْحَقِّ لأَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ حَقٌّ. مَتَى تَكَلَّمَ بِالْكَذِبِ فَإِنَّمَا يَتَكَلَّمُ مِمَّا لَهُ لأَنَّهُ كَذَّابٌ وَأَبُو الْكَذَّابِ.

المسيح هنا ينقض قولهم من جهة أن الله هو أبوهم الروحي، فبحسب إشعياء النبي وإرميا النبي تكون كل إسرائيل يهوذا مطلقتين، وها قد باعهما الله بالفعل ليكونا تحت الإحتلال والتشتت بسبب شرورهما، فمن أين يكون الله أباً لهؤلاء اليهود المعاندين الذين يرفضون ابنه؟ والقديس يوحنا يرفع هذه القضية إلى حكم الأمور المسلم بها: «كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح، فقد ولد من الله.» (ايو٥:١)

«لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني»: واضح أن المسيح يتكلم هنا كابن الله الوحيد المحبوب. فكيف لا يتعرفون على أخيهم البكر، ثم كيف لا يحبونه؟ إلا لأنهم ليسوا أبناء الله كما يدعون؛ ولأنهم زادوا على عدم تعرفهم على المسيح وعدم محبتهم له كابن الله أنهم طلبوا أن يقتلوه كبينة وبرهان أكيد أنهم ليسوا أبناء، بل أعداء لله وللابن الوحيد، بل وقتلة، وليس قتلة وحسب بل وفيهم شهوة القتل كهواة ومحترفين يتلقنون فن العداوة والقتل من أستاذ عتيق. ولا يوجد أصل أو مبدأ أو أب للقتل والقاتل إلا القتال المحترف منذ البدء، هو الذي بخداعه أوقع حواء ثم آدم في خطة العصيان، بذلك دخل الموت إلى العالم، وهو إبليس. فهم بالضرورة أبناء لهذا الأب.

«لأني خرجت من قبل الله وأتيت»: المعنى هنا يفيد التجسد، وقد استخدم الأساقفة المجتمعون في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م هذا الاصطلاح لإثبات البنوة الإلهية للمسيح. واللغة العربية هنا ركيكة ولا تفيد المعنى الصحيح. وفي الأصل اليوناني لا يوجد «من قبل الله» بل «من الله» مباشرة. جوهر من جوهر، طبيعة من طبيعة وبالتالى يلزم حذف «قبل» من النسخة العربية لتصير «من الله» لتوضيح المعنى اللاهوتي الصحيح.

واللغة اليونانية دقيقة دقة خطيرة بالنسبة للبحث اللاهوتي في حروفها، حينما تُضاف إلى الأفعال، فـ«الخروج من»

تأتي عل ثلاثة أوضاع بالسبة للحرف المضاف، فهو إما:
(١) خروج الابتعاد أو تغرب الشخص
(٢) خروج بجانب، أى زمالة الشحصية
(٣) خروج من داخل مع بقاء في الداخل لتفيد بقاء جوهر الله في جوهر الابن المتجسد
وهذه كلها للتعبير عن التجسد جوهريا وذاتياً:
(١) أما الخروج والأبتعاد فهو التعبير الضعيف عن مجيء المسيح من الله، وهذا الاصطلاح استخدمه التلاميذ للتعبير عن فهمهم (الخاطىء نوعا ما) لقول المسيح «خرجت من عند» وقد جاءت هكذا: «الآن نعلم أنك عالم بكل شىء ولست تحتاج أن يسألك أحد لذا نؤمن أنك من الله خرجت» (يو١٦:٣٠). وهذا على قدر فهم التلاميذ أن خروجه يفيد مجيئه إلى الأرض، وهذا يستلزم تركه للسماء وابتعاده المكاني عن الله: (   ) وهذا أيضاً هو فهم القديس يوحنا عن خروج يسوع من عند الله كمتغرب ثم عودة (   ): «... يسوع وهو عالم أن الآب قد دفع كل شيء إلى يديه وأنه من عند الله خرج وإلى الله يمضى...» (يو١٣:٣)
(٢) وتفيد خروج وبقاء بجانب، كزمالة، وهو تعبير المسيح ولكن من وجهة نظر التلاميذ للمسيح وليس من وجهة نظره لنفسه! «لأن الآب نفسه يحبكم لأنكم قد أحببتموني وآمنتم أني من عند الله خرجت» (يو١٦:٢٧). فهو على قدر فهمهم يعبرو يردد عما آمنوا به من نحوه، الذي لم يكن قد بلغ بعد الفهم اللاهوتي الكامل.
(٣) وهي الأخيرة، أي الخروج من الداخل جاءت واضحة جداً في الآية: «خرجت من عند الآب وقد أتيت إلى العالم» (يو١٦:٢٨)، حسب القراءة الصحيحة باليونانية في النسخ الدقيقة، وهذا هو تعبير المسيح عن نفسه.
كما يلاحظ أن الفعلين: من الله «خرجت» و«أتيت» هنا في اليونانية مضافان إل «من» بمعنى من الله خرجت ومن الله أتيت. وهما يفيدان في المعنى اللاهوتي أغواراً عميقة للغاية، إذ يكوذ المعنى أن الابن هو من الله فى وجوده وكيانه ومجده قبل الميلاد بالجسد، والباقي مع الله وفي الله بالرغم من خروجه وظهوره واستعلانه كابن الله المتجسد. وأيضا هو من الله في مجيئه إلى العالم وتجسده، وبقائه مع الله وفي الله بالرغم من ظهوره في الجسد كيسوع المسيح.
وبهذا يكون المسيح، وكذلك القديس يوحنا في تسجيله لقول المسيح قد جمع كل اللاهوت في هذه الجملة المضغوطة ضغطاً: «من الله خرجت ومن الله أتيت». وقد شرحها المسيح شرحاً إضافياً ليكون على مستوى هؤلاء اليهود بقوله:
«لأني لم آت من نفسي بل ذاك أرسلني»: بمعنى أني أمثل الآب تمثيلاً ذاتياً وكلياً في كل ما أقول وأعمل، بل وأمثله بشخصي كنائب عنه دون أن يكون العمل لشخصي، أي لمجد نفسي.
«تعليمي ليس لي بل للذي أرسلني.» (يو٧:١٦)
«أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً.» (يو٥:٣٠)
«من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه. وأما من يطلب مجد الذق أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم.» (يو٧:١٨)
كما سيوضحه في الآية: «الآب الحال فىّ هو يعمل الأعمال.» (يو١٤:١٠)
هذا يوضحه المسيح لليهود ليبرهن لهم عن حقيقة طبيعته الإلهية، ووجوده بينهم كمرسل من الله وكممثل شخصى له، موضحاً بذلك مقدار ما سقطوا فيه، ليس من نحوه بقدر ما هو من نحو الله الذي أرسله والذي يدعون أنه

أبوهم!

«لماذا لا تفهمون كلامي لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي»: وتصحيحها: «لماذا لا تفهمون حديثي (لغتي) لأنكم لا تسمعون كلمتي». المقارنة هنا بين «الفهم والسماع» تجاه «الكلام والقول».

فالفهم أو الإدراك يختص بالحديث.

والسماع بالروح، أي الكشف، يختص بالكلمة.

هنا يقدم الرب طبقتين من كلامه: الطبقة الاولى هي متابعة حديث الرب بالفهم السريع والادراك؛ والطبقة الثانية الأعلى هي التعمق لكشف طبيعة الكلمة.

أما الطبقة الثانية، فهي في المقدمة وهي الهامة جدا والخطيرة، فإذا لم يكن للإنسان أذن روحية تسمع كلمة الله فتكشف طبيعتها الإلهية، يستحيل عليه أن يفهم ما يتحدث به المسيح ويقوله، لأنه كلام روحي يحتاج إلى أذن خاصة روحية: «من له أذن فليسمع ما يقوله الروح للكنائس» (رؤ٢:٧)، أما من ليس له الوعي فسيرى المسيح مجرد إنسان يتكلم. والمسيح لا يتكلم كإنسان، بل كإله، فهو يقول: «أنا هو نور العالم»، و«أنا هو الطريق والحق والحياة»، و:أنا والآب واحد» (يو٨:١٢، ١٤:٦، ١٠:٣٠). فكيف يفهم الناس قول المسيح هذا إذا اعتبروه مجرد إنسان؟ إنه سيكون كمجدف، ولكن إن كان للسامع أذن روحية كاشفة، تكشف طبيعة «الكلمة» القائلة والمقولة، فحتماً سيتعرف عليها أنها إلهية وأن صاحبها إلهي هو: «لأني لم أتكلم من نفسي» (يو١٢:٤٩). وهنا ذات المسيح هي الذات المنظورة للناس، والمتكلم فيه هو الله. فحينئذ، وعلى أقل تقدير، سيفهمون ما يتحدث به المسيح على أنه رسالة الله لهم، وأن حديثه يحمل الصدق والحق والقوة والروح والحياة، وهو كما هو أمام أعينهم، فعال، يشفي ويقيم من الموت، لأن كلمة الله خالقة ومُحيية.

لذلك، فليفهم القارىء أنه يستحيل على أي إنسان مهما بلغ من قوة الذكاء والفهم والتمحيص، أن يفهم الإنجيل أو يدرك ما يقوله المسيح، إذا لم تكن له أذن روحية يسمع بها طبقة رنين كلمة الله، وتحس بحركة الحياة التي فيها وتميزها عن كل ما عداها من كلمات الإنسان. فالاذن التي تستطيع أن تلتقط الموجة الروحية، وتحس بالحياة والحق لكلمة الله، هي وحدها التي تستطيع أن تفهم ما يقوله المسيح والروح.

أما كيفية قبول الأذن الروحية لكلمة الله وتفهمهاه فلا يأتي بالتمرين أو التلقين أو الدراسة، بل بقبول الرب يسوع نفسه «الكلمة» أولاً، والدخول معه في شركة الحياة الجديدة. فهو الذي يرفع مستوى قلب الإنسان وروحه لمستوى الكلمة، أي لمستواه في المعرفة. ومستواه في المعرفة بعد التجد لم يعد في السماء، بل في قلبنا وفمنا: «تعلموا مني لأني وديع ومتواضع القلب» (مت١١:٢٩)، «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به.» (يو١٥:٣)

ولكن، ليفهم القارىء أن لكل إنسان أذناً روحية؛ وهي إما تنفتح بالإرادة والشوق والإيمان والحب لكلمة الله فتكشف طبيعتها، وإما تنقفل بالإرادة المدفوعة بالبغضة والتعالي والتجديف، فلا تعود تسمع، ولا يعود الإنسان قادراً أن يفهم أو ينفعل للكلمة.

وإرميا النبي يخاطبهم من جهة الجهل وعدم الفهم: «اسمع هذا أيها الشعب الجاهل والعديم الفهم الذين لهم أعين ولا يبصرون، لهم آذان ولا يسمعون» (إر٥:٢١). فالجهل هو انحطاط مستوى الكشف لطبيعة كلمة الله والجهل يؤدي حتماً إلى عدم الفهم. وقد نسب إرميا النبي الجهل إلى العمى الروحي، ونسب عدم الفهم إلى الصمم الروحي. ولذلك أيضا كان يطيب للمسيح أن يفتح أعين العمي، ويفتح آذان الصم، ليس كمعجزات شفاء لهذا الشعب، ولكن

كآيات لعمل كلمة الله في طبيعة الإنسان الخاطىء.

ثم يوضح إشعياء النبي العوامل التي أدت إلى عمى عيونهم وانسداد آذانهم: «قد أعمى عيونهم، وأغلظ قلوبهم، لئلا يبصروا بعيونهم ويشعروا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم» (يو١٢:٤٠). لذلك يصرخ أيضا إشعياء النبي: «يا رب من صدق خبرنا، ولمن استعلنت ذراع الرب. لهذا لم يقدروا أن يؤمنوا» (يو١٢:٣٨-٣٩). ولكن من الذي سد آذانهم وأغلظ قلوبهم وأعمى عيونهم؟ هنا الضمير الفاعل هو العدو الشيطان، الذي سلموا أنفسهم له، حقداً وبغضة وعداوة بلا سبب، والذي وجه إليه المسيح سهمه الخاطف، ففضحه، وفضح إرادتهم: «أنتم من أب هو إبليس».

«أنتم من أب هو إبليس ...»: لم يكن المسيح في هذا القرار المرعب مهاجما أو متعديا على مشاعر اليهود، بقدر ما كان مدافعا عن الله الذي يريدون أن ينسبوا إليه أنفسهم وتعدياتهم بقولهم إن الله هو أبوهم. فقرار قتل الابن الوحيد الذي للآب قد كتبوه في ضمائرهم، وهم يبحثون الآن فقط عن علة مناسبة لتنفيذه. الرب هنا، وبقوله هذا، يفصل بين قداسة الله أبوه، وبين هؤلاء القتلة. وفي نفس الوقت كشف عن شخصية الأب المحرك لهؤلاء اليهود المدعين. لأن المسيح بقوله: «أنتم من أب هو إبليس ... »، يكون قد رفع الستار عن حربهم الخفية التي يشنونها ضد الله والمسيح تحت اسم الناموس وأبوة الله للشعب المختار، وقد جعل المواجهة صريحة ومكشوفة بينه وبينهم، أو بين الله الذي يتكلم باسمه، وبين الشيطان الذي ينطق فيهم.

وإن كان المسيح هنا في إنجيل يوحنا قد كشف عن شخصيات هذه الحرب المريرة بينه وبين الشيطان مواجهة وبصراحة، نجد المسيح يصيغ هذه الحرب في تشكيلات رمزية غاية في الأبداع في الأناجيل الأخرى: «فأجاب وقال لهم: الزارع الزرع الجيد هو ابن الإنسان، والحقل هو العالم، والزرع الجيد هو بنو الملكوت، والزوان هو بنو الشرير، والعدو الذي زرعه هو إبليس.» (مت١٣:٣٧-٣٩)

«وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب»: من أعجب الأمور وأكثرها ألماً وحزنا للنفس، أن يكون للشيطان القدرة الغريبة لتسليم شهواته الشخصية للذين يخضعون له كأب، ويسيرون في طريقه كمعلم، لأن شهوة الشيطان تنبع من عداوة شخصية لله، ولابنه يسوع المسيح، ولكل من يتبعه ويطيعه. والإنسان ضعيف جدا وأصغر من أن يتقمص شهوة الشيطان هذه ويقف لكي يعادي الرب يسوع، سواء بفكره أو قلمه أو عمله. ولكن الذين تبناهم الشيطان ألبسهم تاجه وأعطاهم صولجانه، وكانوا عظماء في عين العالم وعلى مدى التاريخ، وكانوا ذوي صيت وبطولات؛ ولكن التاريخ للعالم شيء، والتاريخ لملكوت الله شيء آخر.

«... شهوات أبيكم تريدون»: «تريدون» تأتي باليونانية في صيغة الإصرار المنتهى منه، وهذه في الحقيقة صفة غريبة يتقمصها الشخص الشارد في شره، حتى ليتعجب الناس من قوة الاصرار وشدة الاستمرار في تتميم ما صمم عليه، في حين أن الشخص يكون في طبيعته الأصلية بسيطا ووديعا ومسالما حلو الأخلاق ومطيعا، ولكن إذا استماله الشيطان وتبناه صار شرسا متنمرا، لا يلين ولا يحيد عن مقصده، ولا يهدأ حتى يتمم كل ما أفرزه الشيطان في فكره، حتى وبدون وعي؛ فالشيطان يتقمصه. لذلك فإن قول المسيح: «شهوات أبيكم تريدون أن تعملوا»، جاءت في صورة واقعية تصور حقيقة ما كان يجري في قلوبهم تصويرا يزهل العقل، من حقد مجاني وغضب وسرعة الانفعال للقتل ومهاجة كلامية شرهة وعناد لا يهدأ.

وإن هذا هو في الواقع منهج كل الذين تركوا المسيح وأبغضوا الكلمة، إذ أصبحت فيهم عداوة لا تهدأ من جهة الحق ومهاجته والإزدراء بالإيمان.

«ذاك كان قتالاً للناس منذ البدء»: منذ أن أطلق المسيح هذه الصفة على الشيطان وأصبحت اسما له في العهد الجديد، وهي موجودة في تعاليم الرسل (   ) وترجمتها: «الحية القتالة للناس» ويختصرها سفر الرؤيا بتسمية «الحية القديمة» (رؤ١٢:٩، ٢٠:٢)، سواء بسبب إدخال الموت على الإنسان، آدم، المخلوق أصلاً على غير فساد، أو إشعال الحقد والكراهية في قلب قايين، وإقحام إرادة القتل فيه ليقتل أخاه هابيل. ولماذا قتله؟ يقول الكتاب: «لأن أعماله كانت شريرة وأعمال أخيه بارة.» (١يو٣:١٢)

ولذلك، وعلى هذا الأساس، نبه الكتاب أن «كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس» (ايو٣:١٥)، لأن الرب يعلم أن صاحب مشورة وقوة البغضة هو نفسه صاحب مشورة القتل. والخطية الاولى تحوي في بطنها الخطية الثانية، التي لابد أن تلدها إن آجلا أو عاجلا، إن بالنية أو بالفعل. ويصف القديس يوحناهذه الخطية هكذا: «لأن هذا هو الخبر الذي سمعتموه من البدء أن يحب بعضنا بعضا. ليس كما كان قايين من الشرير وذبح أخاه، ولماذا ذبحه؟ لأن أعماله كانت شريرة وأعمال أخيه بارة.» (ايو٣:١١-١٢)

وتسلسل الخطية حتى إلى القتل تجيء في تقليد القداس: «والموت الذي دخل إلى العالم بحسد إبليس»، وهذا مأخوذ من سفر الحكمة (حك٢:٢٣-٢٤). وهكذا تبنى الشيطان خطية القتل والقاتل معاً، والذق يهمنا جدا في هذا المجال هو كلمة «حسد الشيطان»، فالحسد هو الذي دفع الشيطان لإسقاط آدم. وإسقاط آدم تم عل مرحلتين: الاولى «غواية» ثم «فعل» تعدي، والنتيجه موت. وكان في ظن الشيطان أن الموت سينهي على مستقبل آدم، ويظل ساقطا إلى الأبد كما هو حال الشيطان: «والملائكة الذين لم يحفظوا رياستهم بل تركوا مسكنهم (بسبب الحسد وطلب ما هو أعظم)، حفظهم إلى دينونة اليوم العظيم بقيود أبدية تحت الظلام» (يهوذا ٦). ولكن آدم مخلوق على الرقي والسمو وبلوغ صورة الله في القداسة والحق. فدبر الله له الخلاص بالتوبة ودم المسيح. أما الشيطان وملائكته فخلقوا على مراكز ورئاسات محددة ومساكن لا يتعدونها. وكل تعد لهم هو سقوط ليس له توبة أو قيامة: «لأنه إن كان الله لم يشفق عل ملائكة قد أخطأوا، بل في سلاسل الظلام طرحهم في جهنم وسلمهم محروسين للقضاء...» (٢بط٢:٤)

«ولم يثبت في الحق»: الأصل اليوناني يفيد أنه «لم يقف» بمعنى لم «يدم» بحسب القراءات الصحيحة. أي لم يضع قدماً، أو يرسخ. هذا الأمر يهمنا للغاية، لأن فيه يوضح المسيح مسألة حساسة بالنسبة لطبيعة الله في الخلقة على مستوى اللاهوت. فالشيطان لم يدم في الحق، أو لم يثبت في الحق، يعني أنه كان في موضع رئاسي (رياسة)، أو موضع أو مسكن «مسئولية» (بحسب رسالة القديس يهوذا) على مستوى الحق، ولكه تخلى عنه طمعاً أوحسداً فيما هو أعظم فحسب ذلك خطية؛ الأمر الذي يشرحه القديس بطرس الرسول: «الله لم يشفق على ملائكة قد أخطأوا...»، وهذا يفيد أن الله لم يخلق الشيطان على الشر أو الفساد أو الخطية، بل خلقه على مستوى الرئاسة. ولكنه تعدى وأخطأ وسقط، والله لم يشفق عليه.

«لأنه ليس فيه حق»: هذه الجملة مربوطة بالسابقة فهو لم يثبت في الحق، بسبب أنه ليس فيه حق. ولكن المعنى هنا لا يتضح لنا إلا إذا فهمنا كلمة «يثبت» حرفياً، حيث تعني «لم يضع قدما» في الحق، أي «لم يرسخ» في الحق. بمعنى أن الله أعطاه رئاسة على مستوى الحق، وكان عليه أن يثبت، أو يرسخ، أو يضع قدمه، أو

يخطو خطوة في الحق، ليكون ويدوم على مستوى الرئاسة التي أعطاه الله، لكنه أخفق. واخفاق الشيطان في أن يثبت في الحق أو الرئاسة الموضوعة له، سببه أنه ليس فيه حق، بمعنى أنه ليس فيه أي شيء من «الأليثيا» التي في الله والمسيح، وكان عليه أن يكتسبها بحفظه وثباته في الرئاسة والموضع الذي وُضع فيه، فلما لم يحفظ رئاسته ولم يثبت في الحق، كان سقوطه بلا شفاء ولا رجاء. ولما فقد الحق، صار كذاباً وأبا الكذب كله وكل الكذابين. وما هو الكذب إلا فقدان الحق؟ ومن هو الكذاب إلا الذي ينكر الحق؟

هنا علينا، أيها القارىء العزيز، أن نتذكر كيف غرس الشيطان الكذت في شعور آدم وحواء، وفي اللا شعور أيضاً، حينها قال لحواء في حواره الخادع الماكر المميت، رداً على قول حواء: «أما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا؛ فقالت الحية للمرأة لن تموتا» (تك٣:٣-٤). وهذا هو منطق الشيطان في نفي الحق واخفائه تحت ستار المعقول والمرجح، والواقع والأكثر فائدة، والأسهل والألذ، والأسرع أيضاً. فالشيطان أبرز العصيان، ونفى الموت وأخفاه عن حواء تحت ستار المعرفة : «بل انه عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر.» (تك٣:٥)

ولينتبه القارىء أن في نفي الموت عن الذي يعصي أوامر الله يكون بالتالي قد نفى الدينونة، بل ونفى الخطية، بل ونفى قيمة الخلاص، بل ونفى المخلص، وأخيراً نفى الحياة، حيث لا يبقى لمن يتبع الشيطان إلا أن يخنق نفسه!!

«متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب»: في هذا الوصف يهمنا كلمتان: الاولى «الكذب» والثانية «يتكلم مما له». فالكذب يجيء في اليونانية (   ) وتعني الزيف، أي ما هو ليس حقاً أو صحيحاً، وهنا يتضح لنا أن الكذب أو الزيف أو ما هو ليس حقاً أو صحيحاً ليس جوهراً في حد ذاته، أي ليس شيئاً معروفاً أو محدد الوجود، بل هو نفي الشيء أو نفي الوجود، فعندما يقول إنسان قولاً حقاً ويأتي آخر ويصدقه على هذا القول، فهو يقول «الحق»؛ ولكن إذا جاء إنسان أخر ونفى هذا القول، فهو كاذب لأنه نفى الحقيقة. وإذا كان هناك شيء معروف كظهور الشمس مثلاً ويقول إنسان أن الشمس غير ظاهرة، فهو يكذب لأنه ينفي وجود الموجود. وهكذا فإن الحق يعتمد على طبيعته الموجودة، أما الكذب فليس له طبيعة بالمرة بل يعتمد على نفي الحق أو نفى ما هو صحيح.

وهذا هو التحليل الصحيح لطبيعة الشيطان وملوكه وكلامه في تعريف الرب له أنه «يتكلم بالكذب، لأنه يتكلم مما له، لأنه كذاب وأبو الكذاب». لأن الشيطان بحسب خلقته لم تكن له طبيعة الحق ولا طبيعة الكذب، بل خلق ووضع في رئاسة محددة له، كان المفروض أنه إذا أطاع بحسب حريته المحددة له، أن يثبت في رئاسته، وبالتالي يثبت في أمر الله، أي يثبت في الحق. ولكنه رفض الأمر بحسب حريته المحددة له، وتعال، فسقط من رئاسته، وسقطت طبيعته من موضع الحق نهائياً، فأصبح اعتماده قائماً على ذاته وليس على الله، أي الحق.

وهكذا أصبح الشيطان بمقتضى سلوكه وبمحض حريته وإرادته ضد الحق، لأنه فاقده. وصارت طبيعته تتغذى من مقاومة الحق، فتشكلت أفكاره وإيحاءاته وكلماته بحسب طبيعته، أي ضد الحق: وهذا ما يعرفه الرب بأنه متى تكلم فإنه يتكلم مما له، أي ليس من الله ولا من مصدر حق، بل من ذاته، أي يتكلم بحسب طبيعته التي اكتسبها لنفسه والتي لم تعط له، وهي طبيعة طفيلية تقوم على نفي الحق ومقاومته، وهي بذلك طبيعة كاذبة مزيفة، ينحصر نشاطها كله في مقاومة الحق ونفيه. وصحيح أن نفي الحق هو لا شيء في ذاته، وهو السالبية وهو اللاوجود واللاصحيح واللاقيمة له على الإطلاق؛ ولكنه في مقاومته للحق والوجود وكل القيم الصحيحة، اكتسب له وجوداً

سلبياً قائماً على نفي وجود الحق. فهو يقوم على مدى احتمال صاحب مشيئة «الحق» أي الله، له ولعمله السلبي، فهو وجود مهدد بالفناء. لأنه في اللحظة التي يعلن فيها الحق المطلق أي الله عن إدانته للشيطان بمقتضى الحق، فإنه ينتهي من الوجود لأنه ليس له حق الوجود الذاتي.

هذا على مستوى الله، أما على مستوى الإنسان، فهو بنفس القياس ولكن بدرجة محدودة. فالشيطان يقدم مشورته السالبية التي تقوم على الكذب والتزييف، فإذا رفضها الإنسان بمقتضى وصايا الحق التي يعيش بها، تلاشى الشيطان من الوجود في محيط العمل الفردي لمدة تتحدد بصلابة الإنسان في الحق.

ولكن إذا قبل الإنسان مشورة الشيطان وأفكاره المزيفة والمعروف أنها ضد الحق مائة بالمائة، فإنه يكون قد أوجد للشيطان محلاً ومسكناً ووجوداً، وهذا منتهى أمل الشيطان وغاية سعيه أن يكون له وجود مزيف في ذات الإنسان، فهذا يوسع من دائرة تخريبه ومقاومته للحق، مما يشبع وجوده وجحوده. أما إذا أتقن الإنسان حيل الشيطان وتزييفه بشغف وحذق، وبرع في مقاومته للحق، فإن الإنسان يكون قد أخذ دور الشيطان بالكامل، ويكون الشيطان قد تبنى الإنسان وأحبه ووهبه طبيعته بكل فنون التزييف ومقاومة الحق. وهذا هو الدور الذى اتخذه اليهود لأنفسهم تجاه المسيح، وهذا ما أعلنه المسيح عنهم أنه قد صارت لهم طبيعة الشيطان في الكذب ومقاومة الحق: «أنتم من أب هو إبليس، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا»! ويكون الشيطان بذلك قد صار بالفعل أباً للكذب والتزييف في العالم وأباً لكل كذاب ...

أيها القارىء العزيز، احذر الكذب بكل أنواعه فهو صناعة الشيطان، وهي صناعة لا تبني بل تهدم، ولا تدوم بل تفنى. واحذر تزييف الحق أو الحقيقة في الأشياء والأقوال والأعمال، مهما كانت صغيرة، ومهما كان لها صورة المنفعة الوقتية، لأنها من طبيعة الشيطان التي مآلها الدينونة والفناء. الزم الحق بكل قوة وبكل إصرار، لأنه انتصار للحق والوجود والحياة ضد الفناء، وانتصار لله ضد الشيطان، فانظر كيف أعطانا الله الفرص في الحياة لكي ننصر الحق، فننتصر ضد قوى الشر والظلام، ونبقى ونحيا وندوم.

٨: ٤٥-٤٦ وَأَمَّا أَنَا فَلأَنِّي أَقُولُ الْحَقَّ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي. مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيَّةٍ؟ فَإِنْ كُنْتُ أَقُولُ الْحَقَّ فَلِمَاذَا لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِي؟

المسيح يبدأ قوله بـ «أما» وكأنه يعطى المقابل لإبليس الذي تبناهم وأصبح ينطق فيهم كأولاد طاعة للشر وأساتذة لمقاومة الحق. المسيح ها هو النقيض «لأبيهم»، والمنافق لهم ولأفكارهم. لو كان المسيح يتكلم بالكذب (وحاشاه)، لصدقوه، لأنه يتكلم مما لهم ولأبيهم، وللعالم الذي أحبوه وعبدوه؛ و«لكن أما أنا فلأني أقول الحق لستم تؤمنون بي». التقابل هنا صارخ بين «هم» و«الكذب» من جهة، و«أنا» و «الحق» من جهة أخرى.

والآن يتضح لنا لماذا لا يؤمنون بالمسيح، مع أن المسيح يقول الحق؟! ذلك لأن طبيعتهم التي تساوت في سلوكها مع حيل الشيطان وتزييفه للحق، أصبحت ضد الحق، أينما كان، فأصبح إيمانها بالحق أو بالمسيح أمر مستحيل عليهم.

ثم أخيراء وفي كلمة واحدة استعلنها لنا المسيح، فإن كل من هو ليس ابن الحق، هو ابن إبليس بالضرورة.

«من منكم يبكتني على خطية؟»: المسيح هنا يجمع كل أنواع الكذب ومقاومة الحق في كلمة واحدة هي «الخطية»، والتي ينصب معناها على من يتعدى الحق، بحسب قياس نص قانون الله، أي الوصية. والخطية لا

تشمل العمل فقط بل والنية أيضاً. كما أن الخطية مربوطة بالمشاعر والعواطف والسلوك، لذلك يستحيل أن تعيش الخطية في الإنسان دون أن تعلن عن نفسها، ومن هنا يمكن معرفة الخاطىء بأدلة كثيرة.

ويلاحظ هنا أن المسيح يبلور الجزء الأول من الآية: «لأني أقول الحق» في مفهوم عملي واضح بقوله: «من منكم يبكتني على خطية؟»، بمعنى أن المسيح يقول الحق ويعمله؛ وبهذه الكلمة: «فن منكم يبكتني على خطية»، يضح قياس الحكم على أن ما يقوله هو حق، فإذا لم يعثروا له على خطية، أصبح الحكم عليهم لازماً بأنهم يقاومون الحق. كما أصبح الحكم على السيح بأنه من الله حتماً لأنه بلا خطية، في مقابل اضطراري أنهم من إبليس لأن ليس فيهم حق، ولكن ليس معنى هذا أن المسيح يعطي حقاً لليهود أو لأي إنسان أن يقيس عليه سلوكه أو يحكم على شخصه بأي حال من الأحوال، ولكن الذي طرحه المسيح دائماً ليكون قياساً هو«كلمته». فالكلمة طرحها المسيح للفحص لندرك منها أنه هو من الله وابن الله؛ وهنا يقول المسيح لليهود: «وأما أنا فلأني أقول الحق»، وهكذا يطرح المسيح قوله للفحص قياساً على سلوكه الذي يتحدى به فكر الإنسان الفاحص. وكأنه يقولها صراحة: «أنا بلا خطية»، «ما أقوله هو الحق»، وهكذا وبالضرورة فإن كل من لا يؤمن يدان، بل وكل من لا يؤمن، فهو ليس من الله.

«يبكتني»: وتأتي في اليونانية (   )، وهذه الكلمة بحد ذاتها هي اصطلاح قانوني يفيد الفحص المضاد من محامي الخصم، وهو نوع من «إقامة الدليل الضد»، وهي تقوم على إثبات الخطأ بالدليل المدعم، إما بشهادة الشهود، أو بالوثائق الدامغة، أو بمهارة المحقق في جعل المتهم يعترف ضد نفسه. وقد أورد إنجيل يوحنا هذا الاصطلاح في ١٦:٨ عن الروح القدس أنه «يبكت العالم على خطية ... ».

والمسيح بقوله: «من منكم يبكتنى على خطية» يكون قد كشف كشفاً واضحاً عن المستوى الذى تعيش به بشريته، فهو مستوى يفوق قامة البشر حيث يستحيل أن يوجد إنسان بلا خطية.

وبهذا يكون هذا النص هو استعلان للمستوى الإلهي الذي كان يعيشه المسيح في بشريته، وهو المعروف في اللاهوت: أن المسيح «بلا خطية»: «لأن ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضففاتنا بل مجرب في كل شيء مثلنا بلا خطية» (عب٤:١٥)

«فإن كنت أقول الحق فلماذا لستم تؤمنون بي؟»: والمسيح يقصد، بقوله هذا، أنه إذا لم يبكتني أحد عل خطية الكذب والتزييف، إذن، فأنا لا أكذب ولا أزيف الحق، أي إني أقول الحق، فإن كنت أقول الحق، فلماذا لم تستجيبوا للحق فـ «تؤمنوا بي» : حيث تجيء «تؤمنون» هنا خالية من الحرف «بي» أي بمعنى «تصدقونني» في الأصل اليوناني.

٤٧:٨ «الَّذِي مِنَ اللَّهِ يَسْمَعُ كلاَمَ اللهِ. لِذَلِكَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَسْمَعُونَ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنَ اللهِ».

هنا المسيح يذهب إلى جذور القضية، مرة أخرى، أي إلى المصدرين اللذين ينحدر منهما الحق والكذب، وهما الله والشيطان. فهو يسأل ثم يجيب: «لماذا لستم تؤمنون بي؟» الجواب: لأنني أقول الحق، كلمة الله، لأني من الله. وأنتم تقولون الكذب وتضمررن القتل، لأنكم من إبليس، والذى من الله (ابن الله) هو وحده الذي يسمع كلام الله، ويقوله ويعمله، ويستطيع أن يقوله باسم الله ليسمعه الناس، الذين من الله، فيؤمنون أنه من الله. هذا يوضحه القديس يوحنا في رسالته الاولى هكذا: «نحن من الله فمن يعرف الله يسمع لنا ومن ليس من الله لا يسمع لنا. من

هذا نعرف روح الحق وروح الضلال» (ايو٤:٦). أما الذي من إبليس فهو يسمع من إبليس ويقول الكذب الذي يسمعه مز إبليس ويضمر القتل، حتى لا يؤمن الناس بالحق ويصدقوا الكذب. والذي يسمع الكذب لا يسمع الحق لأنه ليس من الله.

ومرة أخرى نقول أن كلمة «يسمع» هنا تأتي في معناها الروحي، فهو سماع القلب، الذي يلازمه التنفيذ، أي السماع والطاعة معاً: «فقال له بيلاطس: أفأنت إذاً ملك؟ أجاب يسوع: أنت تقول إني ملك، لهذا قد وُلدت أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم لأشهد للحق، كل من هو من الحق يسمع صوتي» (يو١٨:٣٧)

وأيضاً نود أن نؤكد أن السماع الروحي للحق يتبعه الطاعة حتماً، كعمل أو فعل تنفيذي، مؤازر من الله بقوة خاصة، على مستوى الروح أيضاً، ولكي ندرك هذا الأمر الخطير، فلنتأمل مماً في قول الرب: «الحق الحق أقول كم إنه تأتي ساعة وهي الآن حين يسمع الأموات صوت ابن الله، والسامعون يحيون» (يو٥:٢٥). هنا الطاعة تأتي كفعل تنفيذي حتمي، كنعمة، يسري في الميت روحيا فيقيمه الصوت المحيي من موت الخطية. وهنا أيضاً يلزمنا أن ننتبه أن فعل الطاعة التنفيذي الذي يسري في الميت روحياً، أي الميت بسبب الخطية، لا يحتاج منه الى جهد لأنه فعل إحياء من موت، هو من صنع الله، حيث الموت هو اللاإرادة والسكون القاتل، تماما كما سمع لعازر صوت ابن الله وهو ميت منتن في القبر، فقام. المطلوب فقط هو «السمع» أي السماح للصوت المحيي أن يسري في الروح وذلك بعدم إقامة العوائق أمامه، سواء من الشكوك، أو الادعاء بعدم الاستحقاق، أو التملص لعدم المناسبة الزمنية، أو من الهروب وتسويف العمر باطلاً، أو الانشغال الأحمق بالتلذذ بالخطية، بل بتصميم ويقظة وارادة مذعنة للصوت الإلهي المحيي، يعمل عمله بالاستعداد، والامتثال لتأثيره، في صمت الخضوع المريح: «قلبي مستعد يا الله قلبي مستعد» (مز٥٧:٧ حسب السبعينية). ولكن إن أبقينا على الخطية في القلب، فلن نسمع الله، ولن يسمع لنا الله: «إن راعيت إثما في قلبي، لا يستمع لي الرب.» (مز٦٦:١٨)

أما هؤلاء اليهود المعاندون، فكانت لهم آذان حكيمة تستطيع أن تميز بين الحق والباطل، لكنهم فقدوا إرادة الصلاح، فسدوا آذانهم لكي لا تسمع صوت الله عن دراية وإرادة: «مثل الصل الأصم (بإرادته) يسد أذنه (لكي) لا يستمع إلى صوت الحواة الراقين رقى حكيم» (مز٥٨:٤-٥). هذا كان حال هؤلاء اليهود في عيني الرب تماماً، وهم أدركوا بالفعل أن المسيح قد كشف عوارهم، وسد عليهم منافذ الهروب من مواجهة الحقيقة المرة في حلقهم، فأثبتوا بسلوكهم أنهم ليسوا من الله كما سبق وواجههم، إنهم لا يؤمنون بالله، لأنهم استحوزوا على مجد الله لأنفسهم كمعلمين. كما أنهم لا يحبون الله، لأنهم أبغضوا من أحبه الله وأرسله إلى العالم. لهذا كله، قال لهم: «أنتم من أب هو إبليس»، مما هيج سخطهم:

٨:٤٨-٥٠ فَقَالَ الْيَهُودُ: «أَلَسْنَا نَقُولُ حَسَناً إِنَّكَ سَامِرِيٌّ وَبِكَ شَيْطَانٌ؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «أَنَا لَيْسَ بِي شَيْطَانٌ لَكِنِّي أُكْرِمُ أَبِي وَأَنْتُمْ تُهِينُونَنِي. أَنَا لَسْتُ أَطْلُبُ مَجْدِي. يُوجَدُ مَنْ يَطْلُبُ وَيَدِينُ».

لم يتزحزح هؤلاء اليهود عن موقفهم المعاند، فهم فقدوا، ليس فقط القدرة على السماع من الله، بل وقطعوا خط الرجعة على أنفسهم إذ بدأوا يهينون الله في شخص من يتكلم باسمه.

«سامري»: هذا الوصف قالوه ليشفي حقدهم على المسيح لأنه قال لهم: «أنتم لستم أولاد إبراهيم»، وهو ما اعتبروه تجريدا من وطنيتهم. فهذا هو الاتهام الأول والأساسي الذي يقول به السامريون ضد اليهود. ومعنى الكلام الموجه للمسيح، أنك بهذا الكلام تكون قد تبنيت فكر السامريين ضدنا وضد مملكتنا وميراثنا. ومعلوم مدى العداوة

التي يكنها اليهود نحو السامريين، فهم ضمنا ينفسون عن عداوتهم للمسيح بهذا الوصف.

أما قولهم: «وبك شيطان»، فهو إفلاس من وجود اتهام حاضر في ذهنهم. فلا هم استطاعوا أن يبكتوه على كذب، ولا استطاعوا أن يقللوا من سلطانه في الكلام باسم الله، أو الرد على الآيات التي يعملها. فكما تسجل في بقية الأناجيل، فإن متنفسهم الوحيد ضد هذه النماذج الفائقة التي يقدمها بالقول والعمل للتدليل على سلطان بنوته لله، كان أن يتهموه بأن أعماله وأقواله إنما هي بعمل الشيطان: «ببعلزبول رئيس الشياطين يخرج الشياطين» (لو١١:١٥). وهذا خداع منهم ومراوغة لكي يضللوا أنفسهم والشعب معهم حتى لا يؤمنوا به. وهنا هم يكررون نفس الاتهام ليفلتوا من الحكم عليهم بأنهم يعملون أعمال إبليس. وذلك بتدبير خطة قتله، ليتخلصوا من سلطان الحق المسلط على رقابهم.

«أجاب يسوع: أنا ليس بي شيطان»: المسيح ترك اتهامهم له بأنه سامري لأنه لا يريد أن يدخل في نقاش الأنساب والأجناس، ولأن نفي الاتهام في حد ذاته لا يغير من حقيقة الأمر انهم بالفعل لم يعودوا أولادا لإبراهيم ولا شعب الله المختار، وأنه لن ينفعهم هيكل سليمان العظيم الذي لن يبقى فيه حجر على حجر لا ينقض! إنما احتفظ المسيح لنفسه بالرد على الاتهام الثاني لأهميته، بل ولخطورته في نظره لأنه يمس كرامة أبيه، ولهذا استحال عليه أن يصمت تجاهه.

«لكني اكرم أبي وأنتم تهينونني»: المسيح هنا يوقع اليهود في خطية لا تغتفر. فكما سبق وجاء في الأناجيل الأخرى، فإن رد المسيح على نفس الاتهام أنه: «برئيس الشياطين يخرج الشياطين» (مت٩:٣٤)، و «أن معه روحا نجسا» (مر٣:٣٠)، اعتبر ذلك خطية مباشرة ضد الروح القدس، لأنه إنما كان بروح الله يخرج الشياطين؛ فإن هم نسبوا إلى رئيس الشياطين عمل الروح القدس، يكونون قد جدفوا على الروح القدس: «الحق أقول لكم: إن جميع الخطايا تغفر لبني البشر، والتجاديف التي يجدفونها، ولكن من جدف على الروح القدس، فليس له مغفرة إلى الأبد بل هو مستوجب دينونة أبدية. لأنهم قالوا إن معه روحا نجسا.» (مر٣:٢٨-٣٠)

وهنا في إنجيل يوحنا اعتبر المسيح قولهم: «بك شيطان» هو إهانة؛ وأنها وإن كانت موجهة منهم له شخصيا، إلا أنها قيلت له بسبب أنه يكرم الآب، فهنا الإهانة موجهة بالأصل وبالأساس إلى الآب الذي جاء ليكرمه، وهم يهينونه بسبب ذلك. ولكي ينفي المسيح عن نفسه أنه يدينهم بسبب إهانتهم له، يكرر أنه لا يطلب مجد نفسه، ولكن الذي يطالب بالمجد هو الله الذي أهانوه، والذي سيدين من أهانه. وبهذا ينتهي المسيح من تكييف إهانتهم له بقولهم «بك شيطان»، بأن هذه الإهانة هي موجهة ضد الله، وثمنها دينونة حتمية.

٨:٥١ «اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كلاَمِي فَلَنْ يَرَى الْمَوْتَ إِلَى الأبد».

حينما يكرر المسيح قول «الحق» فهو إنما يبدأ استعلانا جديدا عن نفسه.

فإزاء الدينونه الرهيبة التي يقع فيها من يهين الابن الذي جاء ليكرم الآب، يوجد في المقابل وعد أبدى بأن من يحفظ كلمة المسيح، أي تعاليمه في مجموعها الكلي، فإنه لن يرى الموت إلى الأبد. هنا كلمة «يحفظ» لا تجيء بمعنى الحراسة، بل بمعنى الاستيعاب والملاحظة والطاعة. كما تجيء كلمة «يرى الموت» ليس بمعنى النظر، بل بمعنى التأمل المستديم (ثيئوريا) في مواجهة الموت، وهي تجيء هنا للمرة الاول والوحيدة في جميع كتب العهد الجديد، وتفيد المعنى العكسي للموت، أي أن من يحفظ ويطيع تعاليم المسيح في مجموعها، علما بأن كلام المسيح هو روح وحياة، فلن يكون للموت سلطان مرعب على النفس أو تأثير مخيف ودائم إلى الأبد: «لكي يبيد بالموت

ذاك الذي له سلطان الموت، أى إبليس، ويعتق أولئك الذين، خوفا من الموت، كانوا جميعا كل حياتهم تحت العبودية» (عب٢:١٤-١٥)، بل استمتاع برؤية وممارسة الحياة الدائمة إلى الأبد. والمعنى الكلي أن الحياة تسود بفرحها على الموت بصورته المخيفة والمستمرة إلى الأبد حتى ولو مات الإنسان بالجسد. وباختصار شديد يقول المسيح إن من يهين الابن يسود عليه الموت بالدينونة والخوف من الموت إلى الأبد، ومن يحفظ ويستوعب تعاليمه تسود عليه الحياة الأبدية.

د- الجزء الرابع من الحوار

المسيح وابراهيم

«قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»

٨:٥٢-٥٩

٨:٥٢-٥٣ فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «الآنَ عَلِمْنَا أَنَّ بِكَ شَيْطَاناً. قَدْ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ وَالأَنْبِيَاءُ وَأَنْتَ تَقُولُ: إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَحْفَظُ كلاَمِي فَلَنْ يَذُوقَ الْمَوْتَ إِلَى الأَبَدِ. أَلَعَلَّكَ أَعْظَمُ مِنْ أَبِينَا إِبْرَاهِيمَ الَّذِي مَاتَ. وَالأَنْبِيَاءُ مَاتُوا. مَنْ تَجْعَلُ نَفْسَكَ؟»

اليهود المعاندون يقولون: «الآن علمنا». هذا هو العلم الكاذب بأصوله وفروعه. وماذا علموا، وماذا تأكدوا من علمهم؟ أن المسيح أيضا وللمرة الثانية به شيطان؟ هذا يكشف عن مدى صدق المسيح ودقته في وصف هؤلاء: إنهم من أب هو إبليس، وشهوات أبيهم يعملون. وفي نفس الوقت لم يرد المسيح الإهانة، فصدق قول بطرس الرسول: «الذي إذ شتم لم يكن يشتم عوضاً، إذ تألم لم يكن يهدد، بل كان يسلم لمن يقضي بعدل.» (ابط٢:٢٣)

«قد مات إبراهيم والأنبياء»: المعنى هنا مختفي بسبب شدة الاختصار، والمراد من هذا القول أن الله كلم إبراهيم وهو أبو الآباء، وكلم الأنبياء وكانوا أمناء على كلمة الله وحفظوها، وبالرغم من ذلك ماتوا كلهم، ولم تقو كلمة الله على منع الموت عنهم.

«وأنت تقول إن كان أحد يحفظ كلامي فلن يذوق الموت إلى الأبد»: لم يكفك أن تكون كإبراهيم أو أحد الأنبياء بأن لا تذوق أنت الموت إن كنت حفظت كلام الله، بل تزيد وتقول إن كان أحد آخر يحفظ كلامك أنت فإنه لا يذوق الموت إلى اللأبد؟

ها الخطأ المتعمد الذي وقع فيه اليهود في تحويل كلمة «يرى الموت» في كلام المسيح إلى «يذوق الموت». نجد أن هذا الاصطلاح عام، فالمسيح نفسه ذاق الموت: «ولكن الذي وُضع قليلاً عن الملائكة يسوع نراه مكللا بالمجد والكرامة من أجل ألم الموت لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد» (عب٢:٩)، كذلك هذا الاصطلاح معروف لدى التقليد اليهودي في التلمود، أي أنه كان على ألسنة اليهود. وقد اختار هؤلاء اليهود هذا الاصطلاح «يذوق الموت» بدل الاصطلاح الذي وضعه المسيح لأول مرة في العهد الجديد وهو «يرى الموت» بمعنى «يتأمل ويتصور الموت»، بمعنى يعيش الخوف الدائم منه، فهذا الاصطلاح «يذوق الموت» يجيء في الواقع ليخدم اللاهوت في أعماقه، فالمسيح ذاق الموت مرة، ولكنه لم يتأمله أو يراه أو يعيش الخوف منه ولا إلى لحظة. كذلك كل من يؤمن بالمسيح، فإنه ينتقل من الموت إلى الحياة، أي يحيا إلى الأب، ولا يعود «يتأمل الموت» بفزعه والخوف منه «لكى يبيد الموت (الذي ماته على الصليب) ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس، ويعتق أولئك الذين، خوفاً من

الموت، كانوا جميعا كل حياتهم تحت العبودية» (عب٢:١٤-١٥). هذا الخوف من الموت الذي كان يجعلنا كعبيد للخوف كل أيام حياتنا هو هو الذي يقصده المسيح بخصوص الذين يحفظون كلامه: «لن يرى الموت إلى الأبد».

«ألعلك أعظم من أبينا إبراهيم الذي مات والأنبياء ماتوا. من تجعل نفسك؟»: لا تزال الهوة التي تفصل قول المسيح عن قول اليهود سحيقة، كما كانت أيضا في نظر السامرية: «ألعلك أعظم من أبينا يعقوب؟» (يو٤:١٢). فالسيح يتكلم عن موت الخطية الأبدي والحياة الأبدية. وهم يتكلمون عن الموت الزمني المحتم بحسب حياة الجسد. هو يتكلم عن الوجود الإلهى الفائق على الزمن، وهم يتكلمون عن الوجود التاريخي، المنظور تحت العدم. هو يتكلم عن نفسه كابن الله الأزلى، وهم يرونه ابن الناصرة، مواطن جليلى، غير مثقف.

«من تجعل نفسك ؟»: سؤال على مستوى فكر اليهود المحدود، فهو يستنكر مقدما أي احتمال أنه أعظم من إبراهيم. من تجعل نفسك بالنسبة لإبراهيم والأنبياء، تعبيرا عن حتمية الموت للانسان مهما كان؟ سؤال لا يجيب عليه المسيح إجابة مباشرة، لأن ذلك سيكون على مستوى لاهوتي يفوق فكرهم الضيق. لذلك يبدأ المسيح يفحص الإعتراضات الجانبية، فسؤالهم: «من تجعل نفسك»، يستشعر منه أن المسيح يمجد ذاته أكثر من الآباه والأنبياء. وهنا يتحتم الرد على ذلك لئلا يمس مجد الآب وتُجرح طاعته لمن أرسله

٨:٥٤-٥٥ أَجَابَ يَسُوعُ: «إِنْ كُنْتُ أُمَجِّدُ نَفْسِي فَلَيْسَ مَجْدِي شَيْئاً. أَبِي هُوَ الَّذِي يُمَجِّدُنِي الَّذِي تَقُولُونَ أَنْتُمْ إِنَّهُ إِلَهُكُمْ. وَلَسْتُمْ تَعْرِفُونَهُ. وَأَمَّا أَنَا فَأَعْرِفُهُ. وَإِنْ قُلْتُ إِنِّي لَسْتُ أَعْرِفُهُ أَكُونُ مِثْلَكُمْ كَاذِباً لَكِنِّي أَعْرِفُهُ وَأَحْفَظُ قَوْلَهُ.

المسيح هنا يستعلن حقيقة لاهوتية، ولكن على مستوى فكر اليهود، وهي ما يسمى بالاخلاء، وهو ما يقول عنه بولس الرسول: «لكنه أخلى نفسه آخذاً صورة عبد» (في٢:٧). فبعد التجسد يظهر ابن الله في هيئة بشرية ليس لها مظهر الألوهية، أي «المجد» ولكنه احتفظ بطبيعة الألوهية في القوة والعمل. فمن جهة بشريته يقول المسيح لليهود إنه ليس له مجد شخصي (كإنسان)، فإذا اعتبروا كلامه «إن كان أحد يحفظ كلمتي (لوغس) فلن يرى الموت إلى الأبد» أنه تمجيد لنفسه، يكونون قد أخطأوا، إذ ليس له مجد شخصي، أو أن مجده ليس شيئاً موجوداً في الاعتبار قط؛ ولكن الذي يمجده حقاً هو أبوه، ليس كأنه سيضيف إليه شيئاً للتكريم، وإنما يسترد منه المجد الذي سبق أن تخلى عنه حتى يستطيع أن يتجسد ويصير في هيئة عبد: «والآن مجدني انت أيها الآب عند ذاتك، بالمجد الذي كان لى عندك قبل كون العالم» (يو١٧:٥)، و «عند ذاتك» في هذه الآية تعنى أن مجد الابن هو مجد ذات الله. هذا الذى نصرخ به فى الذكصا الكبرى «المجد للآب والابن والروح القدس».

« ... الذي تقولون أنتم إنه إلهكم»: هنا يوضح المسيح الفرق الجوهري بين ابوة الله للمسيح، وبين علاقة الله باليهود. فابوة الله للمسيح قائمة على أساس بنوة المسيح لله، فالأبوة هي أبوة في ذات الله، والبنوة هي بنوة في ذات الله، أي أن الله أب وابن ذات واحدة غير مفترقة. ومن ذلك يتضح سر قول المسيح إن الله أبوه الشخصي «الذاتى». وفي نفس الوقت يدعي اليهود أن الله هو إلههم، ولكن هذه النسبة بين الله وبينهم مقطوعة، بسبب عدم معرفتهم الله معرفة شخصية، والتي من أوضح مظاهرها رفضهم للمسيح الذي يحمل أقوى استعلان لذات الله. فهو فوق أنه ابن ذات الله، فهو يعمل أعمال الله! «إن كنت لست أعمل أعمال أبي، فلا تؤمنوا بى؛ ولكن إن كنت أعمل، فإن لم تؤمنوا بي، فآمنوا بالأعمال، لكى تعرفوا وتؤمنوا أن الآب فيّ وأنا فيه» (يو١٠:٣٧-٣٨)

«الذي تقولون أنتم إنه إلهكم ولستم تعرفونه، وأما أنا فأعرفه»: هنا معرفة المسيح للآب التي يسلط عليها الضوء هي معرفة الجوهر للجوهر، معرفة الطبيعة للطبيعة، معرفة الذات للذات، معرفة المثيل للمثيل. هنا معرفة الابن للآب تساوي معرفة الآب للابن، أي معرفة تمام الانطباق!! فإذا دخلنا على هذه المعرفة اللاهوتية بالعقل أو الفكر أو التحليل، نتوه ونضل؛ ولكن قد اعطي لنا أن ندخلها من باب الحب والطاعة والارادة، أي بالصفات التي نشابه فيها الله. فنحن نحس بمعرفة المسيح لله من خلال حب الله الآب، المطلق، للمسيح الابن، ومن خلال طاعة الابن المطلقة للآب.

ثم نحن نقيس هذه المعرفة الإلهية أيضا بمقياس الإرادة والمشيئة، فنشعر من خلال بذل الله الآب لابنه بمقدار إرادة الآب الفائقة جداً على الوصف، التي تنازلت حتى إلى بذل الابن إلى أقصى حد من المذلة والهوان بالموت على الصليب. وهذه الإرادة الأبوية التي فرطت في مجد الابن وكرامته جاءت على نفس الإرادة التي أحب بها الله عالم الخطاة، بمعنى أن الله أحب العالم ففرط في ابنه وبذله ليخلصهم، أي أنا وأنت، وسعى لخلاصهم وحياتهم، وأعطاهم نصيبا خاصاً في مجده وكرامته الشخصية!!!

والآن نستطيع أن نفهم، ولو قليلا من معرفة المسيح، سواء للآب أو لنا التي يصفها بولس الرسول هكذا: «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون في المحبة، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمق والعلو، وتعرفوا محبة المسيح الفائقة المعرفة، لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله.» (أف٣:١٧-١٩)

والمسيح يقول لليهود إنهم يقولون عن الله أنه إلهم، وهم لا يعرفونه، لأنهم لو عرفوه حقاً لما صلبوا ابن محبته. ثم يقول: «أما أنا فأعرفه»، ومن أعظم مظاهر هذه «المعرفة» وأقوى الأدلة على صدقها وعمقها اللانهائي، طاعة المسيح حتى الموت، موت الصليب. هنا جعل المسيح قياس المعرفة على المستوى العملي المطلق. فاليهود لم يعرفوا الآب، فصلبوا ابنه بجهالة وإصرار. والمسيح أظهر معرفته الخاصة بالله الآب، بأن حفظ كلمته، وأطاع مشيئة الآب طاعة مطلقة تحدى بها جهالة اليهود والعالم، ورضي بأن يصلبوه ليكمل بموته مصالحة العالم بالآب.

وهكذا يكون ادعاء اليهود أنهم يعرفون الله هو ادعاء كاذب، يفضحه ما عملوه بابنه على الصليب. والمسيح يقول إنه يستحيل عليه أن يجاريهم في هذه المعرفة التي هي منتهى عدم المعرفة... فلو كان قد تمشى معهم، في مستوى توقيرهم الحرفي للناموس وتكريمهم لموسى، والمن، وتعظيمهم لميراث وعد الآباه عن إبراهيم، لما صُلب، ولكان احتفظ بمجد نفه ومجد إسرائيل الكاذب، ولأصبح كاذباً مثلهم في ادعاء المعرفة والعمل ضدها في نفس الوقت. لأن معرفة الله هي التي تختص بخلاص العالم، والتي تبدأ من الصليب وتكمل بالقيامة من الأموات، وإفتتاح الطريق إلى الحياة الأبدية!! «أيها الآب البار، إن العالم لم يعرفك (فأكمل صلب الابن). أما أنا فعرفتك (ببرهان صليبي)، وهؤلاء عرفوا أنك أنت أرسلتني (وكانوا شهود صليبي)، وعرفتهم اسمك، وسأعرفهم (بقيامتي)، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به، وأكون أنا فيهم.» (يو١٧:٢٥-٢٦)

٨:٥٦ أَبُوكُمْ إِبْرَاهِيمُ تَهَلَّلَ بِأَنْ يَرَى يَوْمِي فَرَأَى وَفَرِحَ

يفتتح المسيح هذا الاعلان بكلمة «أبوكم» باعتبار أن المسيح «ابن الله»؛ وهكذا يرتفع المسيح بمستوى رؤيته لنفسه بالنسبة لإبراهيم. فإبراهيم أبوهم بحسب مستواهم الجسدى، أما إبراهيم نفسه فهو لا يزيد عن كونه شاهداً للمسيح من وراء الزمن؛ وهذه دائماً هي نظرة إنجيل يوحنا لكل الآباء والأنبياء والناموس والمزامير بالنسبة للمسيح.

«تهلل»: تأتي باليونانية (   ) وتعني الإبتهاج الروحي أو السرور المفرط. وقد تحير جميع علماء الكتاب المقدس قديما وحديثا بالنسبة لشرح هذه الكلمة، وانتحوا نواحي شتى خرجت بهم عن المعنى المقصود. وصعوبة هذه الكلمة لا تأتي في معناها بل في عملها، فالسرور المفرط في الاختبار التصوفي هو نفسه حالة رؤيا واختبار.
وقد جاءت هذه الكلمة التي تفيد هذا الاختبار على لسان القديسة العذراء مريم في نبوتها وهي عند أليصابات، حينما تكلمت عن مستقبل المسيح، وهي حامل به لأيام قليلة في بطنها: «فقالت مريم: تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصي» (لو١:٤٦-٤٧)، وهنا مريم تتكلم وهي في حالة ابتهاج، أي رؤيا واختبار يختص بوعد الله لإبراهيم!! فالعجيب حقاً أن يأتي الاصطلاح (الأبتهاج _ السرور المفرط) على فم المسيح. «أبوكم إبراهيم تهلل» كما جاء على لسان القديسة العذراء مريم وفي نفس الموضوع، إذ أكملت قولها: «عضد إسرائيل فتاه، ليذكر رحمة، كما كلم أباءنا، لإبراهيم ونسله إلى الأبد.» (لو١:٥٤-٥٥)
كذلك نأتي إل كلمة «بأن يرى» على نفس الصعوبة وأشد. وقد خرج كل الشارحين والمترجمين لانجيل يوحنا عن المعنى الصحيح لهذا التركيب اللغوي، لأنهم حرفوا هذا الاصطلاح لكي يناسب الكلمة السابقة «تهلل». إذ وجدوا أن الترجمة الصحيحة الحرفية لها «تهلل لكي» غير موافقة فجعلوها «تهلل بأن»، فطوحوا بالمعنى كله بعيداً عن المفهوم الصحيح لهذا الاختبار الروحي التصوفي. فالترجة الصحيحة الحرفية، والتي توافق المعنى تماما بحسب الاختبار الروحي هي: «تهلل لكي» وهذا يعني بحسب الاختبار الروحي لكلمة «تهلل»، أن إبراهيم دخل في هذا الاختبار الروحي: «لكي يرى، فرأى وفرح».
والصعوبة الأكثر التي واجهت الدارسين لإنجيل يوحنا هي: متى وكيف رأى إبراهيم يوم الرب فرأى وفرح؟ فريق قال: إن ذلك حدث في ميلاد إسحق، وإن ضحك إبراهيم وسارة مو هذا «التهليل». وفريق آخر قال: عندما أقدم إبراهيم على ذبح إسحق فمنعه الملاك ثم أبصر خروفا قدمه عوض إسحق. وفريق آخر قال: وقت عتمة الليل أثناء تقديم قطع الذبيحة. وفريق قال: إن ذلك حدث على مرحلتين: مرحلة السؤال والطلبة أثناء حياة إبراهيم، ومرحلة الرؤيا والفرح تمت بعد الصلب أثناء نزول المسيح إلى الجحيم لفك أرواح المأسورين.
ولكن بالرجوع إلى الكتاب المقدس نجد أن العذراء القديسة مريم قد حددت وعد الله لإبراهيم هكذا: «فقالت مريم: تعظم نفسي الرب وتبتهج روحي بالله مخلصى لأنه نظر إلى اتضاع آمته... عضد إسرائيل فتاه ليذكر رحمته، كما كلم أباءنا، لإبراهيم ونسله إلى الأبد» (لو١:٤٦-٥٥) وهنا الرد على السؤال هل رأى إبراهيم يوم الرب؟ حيث جاء الرد على لسان العذراء أن الذي في بطنها هو وعد الله لإبراهيم.
ولكي نتحقق كيف تمت الرؤيا أثناء كلام الله مع إبراهيم نقرأ الأتي:
أ _ في الرسالة إلى غلاطية: «وأما المواعيد فقيلت في إبراهيم وفي نسله، لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين، بل كأنه عن واحده وفي نسلك (مفرد)، الذي هو المسيح.» (غل٣:١٦)
ب _ كذلك نقرأ في سفر الأعمال: «أنتم أبناء الأنبياء والعهد الذي عاهد به الله آباءنا قائلاً لإبراهيم: وبنسلك (مفرد) تتبارك جميع قبائل الأرض. إليكم أولاً إذ أقام الله فتاه يسوع، أرسله يباركم برد كل واحد منكم عن شروره.» (أع٣:٢٥-٢٦)
ج _ ثم نقرأ في سفر العبرانيين: «فإنه لما وعد الله إبراهيم إذ لم يكن له أعظم يقسم به، أقسم بنفسه قائلاً: إني لأباركنك بركة وأكثرك تكثيراً. وهكذا إذ تأنى نال الموعد» (عب٦:١٣-١٥)

د- كذلك نقرأ في سفر العبرانيين: «بالإيمان قدم إبراهيم إسحق وهو مجرب. قدم الذي قبل المواعيد وحيده، الذي قيل له: إنه بإسحق يدعى لك نسل (مفرد). إذ حسب أن الله قادر على الإقامة من الأموات أيضاً، الذين منهم أخذه أيضاً في مثال.» (عب١١:١٧-١٩)

وهنا تأكيد الوحي الإلهي على أن فعل إرادة الذبح عند إبراهيم كان مشفوعاً بإيمان قدرة الله بالإقامة من الأموات، وهذا هو جوهر الرواية كلها.

ومن مجموع هذه الآيات أ، ب، ج، د، يتضح لنا أن الإشارة الأساسية التي تخص المسيح في حديث الله مع إبراهيم جاءت بعد أن قدم إبراهيم ابنه وحيده إسحق بنية ذبحه، طاعة لأمر الله، والتي جاءت في سفر التكوين الأصحاح الثاني والعشرون.

ففي الآية أ _ النسل الموعود به بالمفرد: هو المسيح.

وفي الأية ب _ النسل الذي به تتبارك جيع قبائل الأرض: هو يسوع.

وفي الآية ج ~ الله أقسم بذاته ليؤكد ضمان الوعد بالنسل. وقد تم بالفعل إذ نال عربون الموعد في إسحق.

وفي الآية د _ ثم إبراهيم يقدم ابنه إسحق الذي فيه تم عربون الموعد، يقدمه ذبيحة بإيمان أن الله قادر أن يقيمه من الموت. وبذلك تمت كل مفردات رؤية إبراهيم للمسيح، وهذا نقرأه بوضوح في سفر التكوين:

+ وقال (الله): إبراهيم إبراهيم فقال: هأنذا. فقال لا تمد يدك إلى الغلام، ولا تفعل به شيئاً، لأني الآن علمت أنك خائف الله. فلم تمسك ابنك وحيدك عني. فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه. فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوة يرأه (الرب يرى). حتى إنه يقال اليوم في جبل الرب يرى.» (تك٢٢:١١-١٤)

وهكذا عندما نفذ إبراهيم وصية الله في ابنه بإيمان أن الله قادر على الإقامة من الأموات (تماماً كما نفذ المسيح وصية الله في نفسه مقدما نفسه على الصليب بإيمان القيامة من الأموات) ... عند هذا تقف الرواية في سفر التكوين فجأة، ويتم الإعلان عن حدوث رؤية يصمت الوحي عن بحشف تفاصيلها إلى أن يعلنها المسيح بنفسه: «أبوكم إبراهيم تهلل لكي يرى يومي فرأى وفرح»

ومما سبق يتضح لنا تفاصيل معنى «يرى يومي»، فقد رأى إبراهيم الموت (الصليب) والقيامة معاً. رأى صورة الذبيحة بفعلها الكفاري لمسرة الله، ورأى القيامة في بهجة فعلها الخلاصي. ورأى كيف سيتم أن تتبارك قبائل الأرض في نسله «أي بالمسيح». ثم نكرر القول أن رؤية الرب تتم فقط للذين حفظوا كلمته من خلال السرور المفرط، أي التهليل الخلاصي. لذلك يقول المسيح: «تهلل لكي يرى يومي، فرأى وفرح».

٨:٥٧-٥٩ فَقَالَ لَهُ الْيَهُودُ: «لَيْسَ لَكَ خَمْسُونَ سَنَةً بَعْدُ أَفَرَأَيْتَ إِبْرَاهِيمَ؟». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ». فَرَفَعُوا حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. أَمَّا يَسُوعُ فَاخْتَفَى وَخَرَجَ مِنَ الْهَيْكَلِ مُجْتَازاً فِي وَسْطِهِمْ وَمَضَى هَكَذَا

القديس يوحنا يصمم على تسجيل هذه المفارقة للحقيقة من جهة سنه، فالمسيح لم يكن يتعدى في عمره الثلاث والثلاثين سنة، ولكن يبدو أن هيئة المسيح كانت في عيون هؤلاء اليهود تفوق سنه. ثم يسجل عليهم المفارقة الثانية، التي هي نوع من تزييف الكلام وتحويل الأبدي إلى زمني «أفرأيت إبراهيم». المسيح لم يقل هذا، بل قال ما هو أعظم وأخطر من هذا. فقد قال إن إبراهيم هو الذي رأى يومي، كتعبير عن تكميل المواعيد في شخص المسيح!

ولكنهم لما أرادوا أن يحرفوا الكلام ويهبطوا به إلى مستوى تواريخ الميلاد، واجههم المسيح باستعلان أقوى عن أزلية وجوده: «الحق الحق أقول لكم: قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن».

بهذا يكون المسيح قد أقر بقولهم أن إبراهيم مات، ومات كل الأنبياء» ولكنه، أي المسيح، كان قبل كل هؤلاء حياً ومعطي الحياة. وأقر أن أباهم هو إبراهيم كما كانوا يفتخرون، ولكنه، أي المسيح، هو فخر إبراهيم ورجاؤه الذي تتم به بركة جميع قبائل الأرض. إبراهيم كان أرامياً تائهاً، آواه الرب في أرض غريبة، والمسيح هو ابن الله الذي نزل من السماء ليرد غربة إبراهيم ونسله إلى الوطن السماوي.

كان المسيح هذا وأكثر ألف مرة من هذا، وكان يدرك المفارقة التي لا تحد بينه وبين إبراهيم. لذلك لم يكن أمام المسيح إلا أسلوبه الإلهي العالى ليحطم به كبرياء اليهود المتعالين بالأنساب والألقاب: «الحق الحق أقول لكم...».

أما المفارقة فلم يجعلها المسيح بين إبراهيم وبين شخصه، بل رفعها مرة واحدة وباستعلان متناه ليبلغ بها جوهر كيانه الإلهي فقال: «قبل أن يكون (يصير أو يُخلق) إبراهيم أنا هو» و «أنا هو» هو اسم يهوه نفسه = أنا الكائن الذي يكون.

ويلاحظ القارىء أن المسيح رفض أن يجعل المفارقة زمنية بأن يقول «قبل إبراهيم كنت أنا»، بل رفعها على مستوى المطلق الأزلي اللازمني: «قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن»، لكي يجعل المفارقة صارخة بين المخلوق والخالق، الزمني والأبدي. والتي على مستواها قال المسيح مرة لتلاميذه: «إني أنا حي فأنتم ستحيون» (يو١٤:١٩). فنحن من ملء حياته الأبدية نأخذ حياة بل نأخذ ملئا. فأية مقارنة يمكن أن توضع بين الحياة والموت؟ أو بين المحيي والميت؟

ولم يكن صعباً على هؤلاء اليهود أن يدركوا أنه يتكلم عن لاهوته، أو كما عبروا هم مرة، أنه يجعل نفسه مساوياً لله. إنه تجديف... فليحيا الناموس وليمت المسيح: «فرفعوا حجارة ليرجموه». كانت الحجارة جاهزة في جيوبهم ورفعوها بالفعل بأعلى أذرعهم، ولكن أذرعهم وقفت بلا قوة على الرجم؛ إذ لم يروه؛ سقطت الحجارة من أيديهم واختفى هو عن أعينهم مع أنه جاز في وسطهم .

ولكي يمعن القديس يوحنا في إحكام ربط الأقوال بالأعمال، ثم ربط الأقوال والأعمال بالنبوات، يسجل في الختام جملة ذات مغزى سري للغاية، إذ يقول: «أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم ومضى هكذا». هذا تعبير حزين وموجع، له إحساس نبوي صادق. فاختفاء المسيح عنهم، وهو في وسطهم، يرمز لعمى بصيرتهم (إش٦:١٠)، وخروجه من الهيكل (مت٢٣:٣٨) يرمز إلى التخلي عن الأمة اليهودية بأجمعها، وإن كثروا الصلاة فلن يعود يسمع بعد!! أما أنه اجتاز في وسطهم ومضى، فهي صورة لختام رسالته: «إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله.» (يو١:١١)

إبراهيم والنسل والأولاد بمفهوم كلام المسيح: ولكن لا يفوتنا هنا أن نبين أن كلام المسيح عن إبراهيم لا ينتقص من إبراهيم، ولكنه يحذف حق البنوة لإبراهيم بالقوة. فإبراهيم لم يأخذ مكانته أمام الله إلا بعد أن أكمل الوصية: «سر أمامي، وكن كاملاً، فأجعل عهدي بيني وبينك واكثرك كثيراً جداً» (تك١٧:١-٢). فالعهد الذي أقامه الله مع إبراهيم تأسس على السلوك بالكمال. فإبراهيم لم يخل بالعهد، ولكن أولاد إبراهيم لم يسلكوا بالكمال، فنقضوا العهد من أساسه، فكيف سيصيرون بركة لكل الأمم، وهم صاروا لعنة لأنفسهم؟ حسبوا البركة ميراثاً يُنهب بالقوة، مع أنها رسالة ومسئولية! ولكي يصون الرب هذا الميراث الروحي ويفضح الناهبين ويوقظ الحالمين، ضرب الرب في

إنجيل لوقا مثل إبراهيم ولعازر والبنين الشاردين، والمثل ينتهي بهذا المشهد الحزين: «فمات المسكين وحملته الملائكة إلى حضن إبراهيم. ومات الغني أيضاً ودُفن. فرفع عينيه في الجحيم وهو في العذاب ورأى إبراهيم من بعيد ولعازر في حضنه. فنادى وقال يا أبي إبراهيم ارحمني وأرسل لعازر ليبل طرف إصبعه بماء ويبرد لساني لأني معذب في هذا اللهيب. فقال إبراهيم يا ابني اذكر انك استوفيت خيراتك في حياتك وكذلك لعازر البلايا. والآن هو يتعزى وأنت تتعذب. وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت حتى إن الذين يريدون العبور من هنا إليكم لا يقدرون ولا الذين من هناك يجتازون إلينا. فقال أسألك إذاً يا أبت أن ترسله إلى بيت أبي. لأن لي خمسة إخوة. حتى يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضاً إلى موضع العذاب هذا. قال له إبراهيم عندهم موسى والأنبياء. ليسمعوا منهم. فقال لا يا أبي إبراهيم. بل إذا مضى إليهم واحد من الأموات يتوبون. فقال له إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون.» (لو١٦:٢٢-٣١)

ويوحنا المعمدان بنظرة نبوية ثاقبة، رأى من بعيد خطورة العثرة التي وقفت أمام شعبه لتكون حجر عثرة في الإيمان بالمسيح، فبصوته الصارخ نبه الطالبين التوبة أن الإتكال على نسب إبراهيم لن يشفع فيهم أمام الله: «فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم: يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي. فاصنعوا أثماراً تليق بالتوبة. ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أباً. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم. والآن قد وُضعت الفأس على أصل الشجر. فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تُقطع وتلقى في النار. أنا أعمدكم بماء للتوبة. ولكن الذي يأتي بعدي هو أقوى مني، الذي لست أهلا أن أحل حذاءه. هو سيعمدكم بالروح القدس ونار. الذي رفشه في يده وسينقي بيدره ويجمع قمحه إلى المخزن. وأما التبن فيحرق بنار لا تطفأ.» (مت٣:٧-١٢)

المسيح في إنجيل متى وضع التبني فوق البنوة الجسدية، بل وجعل الغرباء أهلا لصحبة إبراهيم في وليمة الأبدية، والابناء المنتفخون يُطردون: «وأقول كم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السموات. وأما بنو الملكوت فيطردون إلى الظمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان.» (مت٨:١١-١٢)

وإلى اليهود المتمسكين بأبوة إبراهيم فوق وصايا الله أعطى هذا المعيار الجديد بالذات في السلوك بالروح أمام الله:
«لا تدعوا لكم أباً على الأرض (المقصود هنا إبراهيم أبو اليهود) لأن أباكم واحد الذي في السمرات.» (مت٢٣:٩)

وعلى أساس التحديد الإلهي لقيمة النسب لإبراهيم الذي وضعه المسيح بتعاليمه، انطلق بولس الرسول ليؤكد، بالروح أيضاً، أن وعد الله وعهده لم يكونا مع أولاد إبراهيم بل مع، واحد، نسل إبراهيم. وكلمة «نسل» بالعربية خاطئة ومضللة فهي في اليونانية (   ) أى «النطفة» أو البذرة الحية من صلبه (الصلب هو المركز الجنسي في أسفل الظهر)، وتأتي بالقبطية (   ) أي البذرة بكل وضوح. وشرح بولس الرسول أن هذا لا يفيد النسل، ككثرة، على وجه العموم أو الإطلاق، بل بذرة واحدة، تنتهي عندها ذرية إبراهيم موضحا أنها تعني المسيح، ففي المسيح وحده تتبارك الأمم: «وأما المواعيد فقيلت في إبراهيم وفي نسله، لا يقول وفي الأنسال كأنه عن كثيرين (من الأولاد) بل كأنه عن واحد: وفي نسلك الذي هو المسيح» (غل٣:١٦)، وينتهي بولس الرسول في شرحه لهذا الموضوع الخطير بقول يطابق تعاليم المسيح: «إن كنتم للمسيح، فأنتم إذاً نسل إبراهيم، وحسب الموعد ورثة» (غل٣:٢٩).

والمسيح سبق وأوضح مفهوم الحرية والأحرار على المستوى الروحي، ليقابل المفهوم الخاطىء للحرية على

المستوى السياسي الذي يدعيه اليهود، أنه، أي مفهوم الحرية، ضمن ميراث أولاد إبراهيم. إذ أدخل المسيح عنصر الخطيئة كأساس للعبودية. أما الحرية فهى الأساس للخلاص من الخطية.

وهذا يعني أن ميراث البنين لإبراهيم لا يكفي أن يجعل أولاد إبراهيم أحرارا، بل هم عبيد إن فعلوا الخطية، وأحرار ان خلصهم المسيح من الخطية.

وينوه المسيح من بعيد على ابني إبراهيم (اسماعيل ابن الجارية واسحق ابن الحرة) قائلا إن «العبد لا يبقى في البيت إلى الأبد أما الابن فيبقى إلى الأبد» (يو٨:٣٥). وبولس الرسول يلتقط هذا المعنى ويزيده وضوحاً وتطبيقاً، مشيرا إلى أن هاجر الجارية هي الرمز لجبل سيناء (غل٤:٢٥) الذي وُلد فيه الناموس الوالد للعبودية. «لأن بدون الناموس الخطية ميتة. أما أنا فكنت بدون الناموس عائشاً قبلاً، ولكن لما جاءت الوصية، عاشت الخطية (بالوصية)، فمت أنا (بحكم الوصية)» (رو٧:٨-٩). وبهذا الحكم يكون الناموس، هاجر، آيلاً للزوال، أي الطرد من البيت (الله)، لأنه ابن الجارية، لأنه والد العبودية.

أما سارة الحرة فهي باقية رمز«الموعد» نظير إسحق المستعلن في المسيح. والناموس الوالد للعبودية يقابله أورشليم الأرضية الواقعة تحت العبودية هي وبنيها.

وأما الموعد بسارة الحرة وبإسحق (المكمل بالمسيح)، فيقابله أورشليم العليا، وهي (الكنيسة) حرة التي هي أمنا جميعاً (ام المفديين من الخطية): «لكن ماذا يقول الكتاب اطرد الجارية وابنها لأنه لا يرث ابن الجارية (الناموس) مع ابن الحرة «المفديين)» (غل٤:٣٠)؛ «إذا أيها الإخوة لسنا أولاد جارية (عبودية الناموس)، بل أولاد الحرة (حرية المسيح بالفداء من الخطية)» (غل٤:٣١)؛ «فاثبتوا إذا في الحرية التي قد حررنا المسيح بها، ولا ترتبكوا أيضاً بنير عبودية (الناموس).» (غل٥:١)

وهكذا، بحذق روحي مدهش ومهارة فائقة بمنطق فريس متنصر، يرد بولس كل اليهود الرافضين للمسيح إلى هاجر كأولاد للجارية، كعبيد الخطية المحكوم عليهم من الناموس، وهم المتمسكون به، بالطرد من البيت والحرمان من الميراث.

أما الذين قبلوا المسيح وتحرروا من نير الخطية الذي بالناموس فردهم إلى سارة واسمحق كأولاد شرعيين لميراث إبراهيم في الله: «إن كنتم للمسيح، فأنتم إذا نسل إبراهيم، وحسب الموعد ورثة.» (غل٣:٢٩)

تم فى ٢٠١٧/٦/٢٤

الأصحاح التاسع

وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى إِنْسَاناً أَعْمَى مُنْذُ وِلاَدَتِهِ. فَسَأَلَهُ تلاَمِيذُهُ: «يَا مُعَلِّمُ مَنْ أَخْطَأَ: هَذَا أَمْ أَبَوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «لاَ هَذَا أَخْطَأَ وَلاَ أَبَوَاهُ لَكِنْ لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ اللَّهِ فِيهِ. يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ أَعْمَالَ الَّذِي أَرْسَلَنِي مَا دَامَ نَهَارٌ. يَأْتِي لَيْلٌ حِينَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ. مَا دُمْتُ فِي الْعَالَمِ فَأَنَا نُورُ الْعَالَمِ». قَالَ هَذَا وَتَفَلَ عَلَى الأرض وَصَنَعَ مِنَ التُّفْلِ طِيناً وَطَلَى بِالطِّينِ عَيْنَيِ الأَعْمَى. وَقَالَ لَهُ: «اذْهَبِ اغْتَسِلْ فِي بِرْكَةِ سِلْوَامَ». الَّذِي تَفْسِيرُهُ مُرْسَلٌ. فَمَضَى وَاغْتَسَلَ وَأَتَى بَصِيراً. فَالْجِيرَانُ وَالَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَهُ قَبْلاً أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى قَالُوا: «أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ وَيَسْتَعْطِي؟». آخَرُونَ قَالُوا: «هَذَا هُوَ». وَآخَرُونَ: «إِنَّهُ يُشْبِهُهُ». وَأَمَّا هُوَ فَقَالَ: «إِنِّي أَنَا هُوَ». فَقَالُوا لَهُ: «كَيْفَ انْفَتَحَتْ عَيْنَاكَ؟». أَجَابَ: «إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ يَسُوعُ صَنَعَ طِيناً وَطَلَى عَيْنَيَّ وَقَالَ لِي: اذْهَبْ إِلَى بِرْكَةِ سِلْوَامَ وَاغْتَسِلْ. فَمَضَيْتُ وَاغْتَسَلْتُ فَأَبْصَرْتُ». فَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ ذَاكَ؟» قَالَ: «لاَ أَعْلَمُ». فَأَتَوْا إِلَى الْفَرِّيسِيِّينَ بِالَّذِي كَانَ قَبْلاً أَعْمَى. وَكَانَ سَبْتٌ حِينَ صَنَعَ يَسُوعُ الطِّينَ وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ. فَسَأَلَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ أَيْضاً كَيْفَ أَبْصَرَ فَقَالَ لَهُمْ: «وَضَعَ طِيناً عَلَى عَيْنَيَّ وَاغْتَسَلْتُ فَأَنَا أُبْصِرُ». فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ: «هَذَا الإِنْسَانُ لَيْسَ مِنَ اللَّهِ لأَنَّهُ لاَ يَحْفَظُ السَّبْتَ». آخَرُونَ قَالُوا: «كَيْفَ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ خَاطِئٌ أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَ هَذِهِ الآيَاتِ؟» وَكَانَ بَيْنَهُمُ انْشِقَاقٌ. قَالُوا أَيْضاً لِلأَعْمَى: «مَاذَا تَقُولُ أَنْتَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟» فَقَالَ: «إِنَّهُ نَبِيٌّ». فَلَمْ يُصَدِّقِ الْيَهُودُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى فَأَبْصَرَ حَتَّى دَعَوْا أَبَوَيِ الَّذِي أَبْصَرَ. فَسَأَلُوهُمَا: «أَهَذَا ابْنُكُمَا الَّذِي تَقُولاَنِ إِنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى؟ فَكَيْفَ يُبْصِرُ الآنَ؟». أَجَابَهُمْ أَبَوَاهُ: «نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا ابْنُنَا وَأَنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى. وَأَمَّا كَيْفَ يُبْصِرُ الآنَ فلاَ نَعْلَمُ. أَوْ مَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ فلاَ نَعْلَمُ. هُوَ كَامِلُ السِّنِّ. اسْأَلُوهُ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ». قَالَ أَبَوَاهُ هَذَا لأَنَّهُمَا كَانَا يَخَافَانِ مِنَ الْيَهُودِ لأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا قَدْ تَعَاهَدُوا أَنَّهُ إِنِ اعْتَرَفَ أَحَدٌ بِأَنَّهُ الْمَسِيحُ يُخْرَجُ مِنَ الْمَجْمَعِ. لِذَلِكَ قَالَ أَبَوَاهُ: «إِنَّهُ كَامِلُ السِّنِّ اسْأَلُوهُ». فَدَعَوْا ثَانِيَةً الإِنْسَانَ الَّذِي كَانَ أَعْمَى وَقَالُوا لَهُ: «أَعْطِ مَجْداً لِلَّهِ. نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الإِنْسَانَ خَاطِئٌ». فَأَجَابَ: «أَخَاطِئٌ هُوَ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ. إِنَّمَا أَعْلَمُ شَيْئاً وَاحِداً: أَنِّي كُنْتُ أَعْمَى وَالآنَ أُبْصِرُ». فَقَالُوا لَهُ أَيْضاً: «مَاذَا صَنَعَ بِكَ؟ كَيْفَ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟». أَجَابَهُمْ: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ وَلَمْ تَسْمَعُوا. لِمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تَسْمَعُوا أَيْضاً؟ أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَصِيرُوا لَهُ تلاَمِيذَ؟». فَشَتَمُوهُ وَقَالُوا: «أَنْتَ تِلْمِيذُ ذَاكَ وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّنَا تلاَمِيذُ مُوسَى. نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مُوسَى كَلَّمَهُ اللَّهُ وَأَمَّا هَذَا فَمَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُوَ». أَجَابَ الرَّجُلُ: «إِنَّ فِي هَذَا عَجَباً! إِنَّكُمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ هُوَ وَقَدْ فَتَحَ عَيْنَيَّ. وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَسْمَعُ لِلْخُطَاةِ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ فَلِهَذَا يَسْمَعُ. مُنْذُ الدَّهْرِ لَمْ يُسْمَعْ أَنَّ أَحَداً فَتَحَ عَيْنَيْ مَوْلُودٍ أَعْمَى. لَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مِنَ اللَّهِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً». قَالُوا لَهُ: «فِي الْخَطَايَا وُلِدْتَ أَنْتَ بِجُمْلَتِكَ وَأَنْتَ تُعَلِّمُنَا!» فَأَخْرَجُوهُ خَارِجاً. فَسَمِعَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ خَارِجاً فَوَجَدَهُ وَقَالَ لَهُ: «أَتُؤْمِنُ بِابْنِ اللَّهِ؟». أَجَابَ: «مَنْ هُوَ يَا سَيِّدُ لِأُومِنَ بِهِ؟». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «قَدْ رَأَيْتَهُ وَالَّذِي يَتَكَلَّمُ مَعَكَ هُوَ هُوَ». فَقَالَ: «أُومِنُ يَا سَيِّدُ». وَسَجَدَ لَهُ. فَقَالَ يَسُوعُ: « لِدَيْنُونَةٍ أَتَيْتُ أَنَا إِلَى هَذَا الْعَالَمِ حَتَّى يُبْصِرَ الَّذِينَ لاَ يُبْصِرُونَ وَيَعْمَى الَّذِينَ يُبْصِرُونَ». فَسَمِعَ هَذَا الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَقَالُوا لَهُ: «أَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَيْضاً عُمْيَانٌ؟». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتُمْ عُمْيَاناً لَمَا كَانَتْ لَكُمْ خَطِيَّةٌ. وَلَكِنِ الآنَ تَقُولُونَ إِنَّنَا نُبْصِرُ فَخَطِيَّتُكُمْ بَاقِيَةٌ»

مكان البشارة في اورشليم في عيد التجديد

مقدمة للأصحاحين التاسع والعاشر

نحن الأن في الشتاء، وقد انقض ثلاثة أشهر على موسم عيد المظال الذي احتفل به اليهود من ١٥-٢٢ من شهر

تشري الموافق سبتمبر/ أكتوبر. وقد اختص الأصحاح السابع ومعظم الأصحاح الثامن بتعاليم المسيح ومحاوراته مع اليهود، والمناسبة لطقوس وقراءاللههذا الموسم. ولم يذكر الإنجيل أن المسيح غادر أورشليم، بل ظل يعلم فيها وفيما حواليها. حتى جاء موسم عيد التجديد ٢٥ كثلو الموافق ديسمبر والذي يستمر لمدة سبعة أيام، وابتدأ المسيح يعطي تعاليمه المناسبة لاحتفالات هذا العيد.

عيد التجديد: يبدأ ذكر عيد التجديد في الأصحاح العاشر عدد ٢٢. ويلاحظ أن القديس يوحنا بعد أن يسرد القصة وتعاليمها، يعلق عليها إما من الوجهة الروحية أو التاريخية أو المكانية، وهنا يأتي التعليق تاريخيا ومكانياً، أي أن التعاليم والحوادث التي حدثت على مدى الأصحاحين التاسع والعاشر وحتى العدد٢٢ كانت في زمن عيد التجديد وفي الهيكل.

«وكان عيد التجديد في أورشليم وكان شتاء، وكان يسوع يتمشى في الهيكل في رواق سليمان.» (يو١٠:٢٢-٢٣)

وقد احتار علماء الكتاب المقدس في تفسير «وكان عيد الجديد»، والتي جاءت في مخطوطاللهأخرى منها الطيبية القبطية والأرمنية (   ) وقد أخذ العالم وستكوت بالنسخة الطيبية وترجمتها: «وفي ذلك الحين كان عيد التجديد»، مما يفيد أن هذا التوقيت يختص بكل ما سبق سرده، بعكس ما أخذه العلماء الآخرون على أنها «وكان قد صار» أي أن التوقيت يختص بماسيجيء من الكلام.

ونحن نأخذ برأي وستكوت، لأنه واضح فيه الصحة والدقة، فإن تعاليم المسيح التي قدمها القديس يوحنا في الأصحاحين التاسع والعاشر تختصى بالفعل بطقوس عيد التجديد ومعناه.

وعيد التجديد يأتي ذكره في سفر المكابيين الثاني ١:٩ وهو خاص بذكرى انتصاراللهالمكابيين لمدة ثلاث سوالله(١٦٧-١٦٤ ق م)، وفيه يذكر طرد يهوذا المكابي للسوريين الذين نجسوا مذبح المحرقة بإقامة صنم بعل «شاميم»، الذي اعتبر أنه «رجسة الخراب» التي تكلم مها دانيال النبي (٩:٢٧)، والتي ذكرها المسيح في إنجيل القديس متى ٢٤:١٥ على أنها ستتكرر لتكون علامة خراب الهيكل وأورشليم، وقد تمت هذه بالفعل في أيام الرومان سنة ٧٠م، وقد بنى يهوذا المكابي المذبح من جديد ودشن الهيكل كله في يوم ٢٥ من شهر كسلو(١مك٤:٤١-٦١) وصار يعيد كل سنة لتذكار تجديد المذبح والهيكل.

والاسم اليهودي لعيد التجديد هو «حنوكا» والتي تعني التدشين (أي المسح بالزيت - حنك بالتعبير العربي العامي)، وباليونانية (   ) أي التجديد.

وكان اليهود يسمون هذا العيد بعيد الأنوار، وعيد مظال (مظلة) شهر كسلو، معتبرين أن تجديد الهيكل هو إعادة عودتهم تحت مظلة = خيمة الله، أو عودة حلول الله في وسطهم ، كما في أول خيمة في البرية وفي تدشين هيكل سليمان حينما حل الله ببهائه وملأ الخيمة أو الهيكل . وهذا في الحقيقة كان رمز قرب مجيء الرب بالفعل وحلوله في وسط إسرائيل = «عمانوئيل الذي تفسيره الله معنا» (مت١:٢٣)، ولكن ليس لكي يبني ويدشن خيمة من جلد أو هيكلاً من حجر وتحف، ولكن ليدشن جسده هيكلاً سماويا يجمع فيه وإليه كل مفديي الله ومختاريه منذ أول الدهور وإلى آخر الزمان. وقد أقام هيكله هذا لا في أورشليم ولا في جرزيم، ولكن على جبل صهيون الحقيقي، في مدنية الله، أورشليم العليا المزينة بقديسيها من أرواح مكملة بالمجد، وربوات هم محفل ملائكة (عب١٢:٢٢-٢٣) وكنيسة حية على الأرض تصل أخبار كرازتها إلى السماء أولاً بأول: «لكي يُعرف الآن عند الرؤساء والسلاطين في السماويات بواسطة الكنيسة بحكمة الله المتنوعة... » (أف٣:١٠)

أما العلاقة بين تعاليم الرب التي جاءت في هذين الأصحاحين وبين طقوس هذا العيد ومعناه، فكانت تتركز في الربط بين آمال اليهود الملتهبة التي تثيرها ذكرى انتصار المكابيين وتخليص الأمة اليهودية من أعدائها، وبين موضوع الخلاص الذي ينادي به المسيح كقائد النور والخلاص الأبدي الذي خلص خرافة ودشن هيكله بدمه، وحيث كان يملأ الهيكل أصداء ترانيم العيد التي تذكر جميع مواقف نجاة وخلاص الشعب في السابق، ودعاء وصلاة من أجل خلاص في الحاضر.

وبيما كانت تُضاء جميع الأنوار في الهيكل، لأن هذا العيد كان يسمى عيد الأنوار، وقف المسيح كالعادة يقول: «ما دمت في العالم فأنا نور العالم» (يو٩:٥). وحينما كان يُفتح باب الخراف في الهيكل لتدخل خراف العيد للذبائح اليومية، وقف المسيح يقول: «أنا هو باب الخراف» للهيكل الجديد، «كما هو مكتوب إننا من أجلك نمات كل النهار، قد حُسبنا مثل غنم للذبح.« (رو٨:٣٦)

التطابق العملى لاستعلان طبيعة المسيح النورانية

الأعمى المستنير

[وهبت النظر للعميان] (القداس الغريغوري).

[يا من فتح أعين العميان افتح عيون قلوبنا] (القداس الكيرلسي).

أ- آية تفتيح عينى المولود أعمى (٩:١-٧)

٩:١-٣ وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى إِنْسَاناً أَعْمَى مُنْذُ وِلاَدَتِهِ. فَسَأَلَهُ تلاَمِيذُهُ: «يَا مُعَلِّمُ مَنْ أَخْطَأَ: هَذَا أَمْ أَبَوَاهُ حَتَّى وُلِدَ أَعْمَى؟». أَجَابَ يَسُوعُ: «لاَ هَذَا أَخْطَأَ وَلاَ أَبَوَاهُ لَكِنْ لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ اللَّهِ فِيهِ».

«من أخطأ هذا أم أبواه حتى ولد أعمى»: سؤال يحير العالم كله قديما وحديثا. ولكن إذا أخذنا بالعناصر الأساسية في موضوع الخطية والألم والعقاب، ربما نصل إل أن حل السؤال ليس هيناً. فهو سؤال مبتور، له أصول وفروع، وبداية واحدة ونهايات لا حصر لها.

البداية هي الخطية التي دخلت عالم الإنسان ودخل معها العقاب والألم والموت. أما الأصول التي ترتبت على دخول الخطية فمنها الطبيعي مثل:

١- أن الإنسان فقد وضعه الروحي وعشرته مع الله، التي كانت تحجب عنه عوامل الطبيعة المؤذية التي وقع فريسة لها: من مؤذيات حيوانية وحشرية وطفيليات وبكتريا وفيروسات لا حصر لها، بالإضافة إلى المؤذيات النفسية من جور الإنسان والظروف المحيطة.

٢- عوامل الزمن الذي يتعاهد مع المؤذيات الأخرى في سرعة شيخوخة خلايا الإنسان، لترجيح كفة الهدم على كفة البناء في فثيولوجيا أعضاء الإنسان، حتى يقع صريعا للمرض والشيخوخة ثم الموت.

٣- عوامل المعيشة، إما في بذل الجهد الزائد للحصول على لقمة العيش، حيث يبلغ الجهد فوق طاقة احتمال أجهزته العصبية والنفسية، فيمرض الإنسان ويتألم ويموت. واما بعدم بذل الجهد اللازم، فيجوع الإنسان ويتألم ويمرض ويموت. وإما لا جهد بالمرة، فتتلف أجهزة الإنسان ويمرض ويتألم ويموت.

٤- عوامل كونية يتأثر بها الإنسان أشد التأثر، مثل البراكين والزلازل والحرائق الطبيعية والأوبئة والحروب والجفاف والحرارة والبرودة والمجاعات بأسبابها الكثيرة، ويستحيل على العالم أن يوجد بدونها، فهى لوازم

كونية تجدده بأكثر مما تضره. فإن كان الإنسان قد وقع تحتها لأنه خرج بحريته من حضرة الله الحافظة له. فالله لا يلام في ذلك؛ إلا أن هذه الآلام الطبيعية جزء لا يتجزأ من تاريخ تطور حياة الإنسان إلى أفضل.

ولكن هناك أنواع من الآلام يجرها الإنسان على نفسه وعلى غيره ويتحمل عواقبها وأضرارها الشديدة: كأن يأكل ما يضره سواء في الكم أو النوع، أو يشرب ما يؤذيه كالخمروغيرها، أو يتعاطى المخدرا بأنواعها، أو يعاشر المرضى بأمراض جنسية، فتجر عليه أنواعا من الأمراض والألام، لا قبل له بها، بل وتتسبب في توريث نسله أنواعا من العاهات لا حصر لها. فالسيدات الحوامل إن هن تعاطين هذه المؤذيا ولدن أطفالا مشوهين بكل أنرع التشورهات الجسدية، ومنها العنى والخرس والصمم والشلل، الذي أصيب به ملايين البشر.

ولكن هناك أنرع ممائلة تماما لمثل هذه التشوهات يولد بها الأطفال، ولم يكن الإنسان سببا فيها سواء من جهة الأب أو الأم، حيث تكون التوليفات الجينية في خلايا الجنين فاقدة لعناصرها السليمة المطلوبة، وهذه تُحسب كإخفاقات في قوانين البيولوجيا الوراثية. وهذه تُحذف من مسئولية الإنسان لتضاف لحساب مسئولية الله، مثل حالة هذا الإنسان المولود أعمى الذي لم يسأل المسيح ولا سأل التلاميذ أن يُشفى، بل إن المسيح تقدم من نفسه لشفائه إذ حمل مسئولية عمى هذا الأعمى. لهذا قال لتلاميذه: «لا هذا أخطأ ولا أبواه، لكن لتظهر أعمال الله فيه»، أو بوضوح أكثر: ليظهر نموذج عمل الله فيه!!

ولكن لا يزال السؤال المحير: ما ذنب هذا الأعمى وغيره من الذين وُلدوا مشوهين لأي سبب كان: لماذا يتألمون ويعانون من الحزن والأسى والحرمان، مما يجرح نفوسهم ويعصر مشاعرهم، ويلازمهم الأنين واجترار المرارة كل أيام حياتهم؟؟

لقد قلنا إن السبب المباشر لهذه التشوهات هو إخفاق في قانون التحام الجينات والمواريث، وقلنا إن الله يتحمل مسئولية هذه الإخفاقات؛ وبالفعل فإننا نجد أن الطبيعة تتبرع من جهتها بعملية تعويض تساوي النقص الذي هي متسببة فيه، كما يتبرع الله من جهته بعملية تعويض تفوق النقص وكل ما ينتج عنه من الألام مئات المرات!!

تعويض الطبيعة: قبل كل شيء يلزم أن نعرف أنه لا يوجد في الخليقة أو المخلوقات جميعاً قانون لا يقبل الخطأ، فالخطأ في قانون الطبيعة هو قانون. لأنه لا يوجد الكمال المطلق إلا في الله. وكل قاعدة لها استثناء، والاستثناء يثبت القاعدة. ولكن لكي تحمي الطبيعة نفسها من امتداد الخطأ، فإنها تقوم بتعويضه لكي تتلافى طغيانه، ولكي تثبت القاعدة. فإذا وُلد مخلوق ناقصا في تكويناته العضوية لسبب طبيعي، فإن القوة الشاملة المخصصة لأعضائه تتوزع على باقي أعضائه، فتزداد باقي أعضائه كفاءة عن معدلها الطبيعي. فلو أخذنا مولودا فاقد البصر، فإن حواسه الأربعة الباقية تزداد كفاءتها لتصبح كفاءة الأربع الحواس تساوي كفاءة خمس حواس عادية. ولكن قد تحتاج هذه الزيادة إلى تمرين أو تشجيع أو صبر لكي يظهر إمتيازها. وهكذا إذا فقد حاستين أوثلاثا، أو حتى أربعا!! كما سمعنا عن الأنسة هيلين كيلر الواعظة والمبشرة العالمية التي كانت لا تملك من الحواس جميعا سوى حاسة اللمس.

ولكن ليس هذا هو باب التعويض الوحيد في الطبيعة. فالطبيعة سبق وأن احتاطت لمثل هذه النقصانات في كيان الأفراد، بأن أضافت إلى باقي المجتمع الحيواني والإنساني، بوجه خاص وفائق، امتيازات إضافية للأصحاء تفوق حاجتهم. فالأم الصحيحة بوجه عام استودعتها الطبيعة من الحنو والعطف والصبر والاحتمال، وكل مواهب الأمومة

بوجه عام، ما يفوق حاجة تربية أولادها مهما بلغوا من الكثرة. فتوجد أمهات ممتازات في أمومتهن تستطعن، إذا شئن، تربية مائة طفل أو مائتين أو ربما ألفا من الأطفال. كل هذا منحته الطبيعة لأولئك، احتياطا لتلافي عجز أمهات أخريات، أو تيتم أولادهن، أوتشوه أولاد آخرين. ومثل الأم كذلك الأب، إذ يوجد آباء لهم مواهب فائقة للغاية. فإذا جمعنا المواهب الممتازة والفائقة عن الحاجة في الطبيعة، لوجدناها في جملتها على أقل تقدير تساوي العجز المتولد من إخفاقات قوانينها!!

وبهذا يمكن تبرئة الطبيعة من أخطاء قوانينها، على أساس قانون التعويض الاحتياطي. وأصبح على الإنسان المعوق بأي تشويه أن يطالب الطبيعة بحقه بالكامل، على أساس التعويض فيما بقي له من أعضاء وإمكانيات، وذلك بالجهد والمجاهدة، والتمرين والمراس، والصبر، وروح الإنتصار. كما أصبح على الجتمع الإنساني أن يفرز مواهبه الممتازة والزائدة لخدمة وتعويض أعضائه المحرومين، سواء بالعلم الحديث، أو فنون التأهيل التي بلغت آفاقاً مذهلة بواسطة التكنولوجيا الحديثة. والأمثلة الناجحة في تطبيق هذا المبدأ تملأ الأقطار وتبرهن على صحة هذا الكلام.

تعويض الله: في البدء يلزم أن نفهم أن الحياة هبة من الله مُعطيها، والهبة لا تصبح حقا لمن أُعطيت له. فهي هبة، وتظل هبة، إلى أن تعود إل الله واهبها. وبالتالى فإن كل أجهزة هذه الحياة من صحة جسدية ونفسية بكل أعضاء وحواس الإنسان، هي كذلك هبة؛ أي أنها ليست حقا من حقوق الإنسان، إذا أخذها بالكامل؛ أما إذا نقص شي ء منها، فهذا ليس سلباً لحق من حقوقه. لذلك أصبح على الكامل أن يشكر فيما وُهب له وإلا يؤخذ منه، كما أصبح على الذي افتقد شيئا من أعضائه أن يشكر على ما أُخذ وإلا يفقد ما بقي.[1]

هذا بالنسبة للانسان تجاه الله. أما بالنسبة لله تجاه الإنسان، فالله هو بمثابة الوالد للانسان ولا يزال يحمل همه، يرضعه الحياة قطرة قطرة، كما ترضع الأم طفلها ليعيش. والله يحس بأحاسيس الإنسان، وليس ذلك فقط بل ويشارك الإنسان في أحاسيسه: «في كل ضيقهم تضايق وملاك حضرته خلصهم.« (إش٦٣:٩)

فإذا كان الأب أو الأم يعتني بولده أو تعتني بولدها المعوق والضعيف أكثر من السليم المعافى، فهذا هو امتداد لصفة الله، وصدى عمل طبيعته في الإنسان. هنا يصعب علينا سرد مراحم الله وحنانه ولطفه وإحسانه على الضعفاء والمعوقين، كما يصعب علينا تحديد أنواع مراحمه، وأنوع وألوان حنانه لكل إنسان حسب حالته واحتياجه، يكفي أن نؤكد من واقع آية إشعياء السالفة وغيرها أن ملاكاً خاصا مرسلاً من الله يعين هؤلاء الضعفاء والمتضايقين في كل ضيقهم: «في الضيق دعوت فنجيتك» (مز٨١:٧)، «معه أنا في الضيق، أنقذه وأمجده.» (مز٩١:١٥)

والسؤال هو: هل الأفضل للانسان أن يكون الله بنفسه هو العامل عوض العضو الناقص في الإنسان، أم تكون الأعضاء كلها بدون الله؟ ثم بعد هذا، هل يمكن أم نوازن بين حزن الأعمى على فقدان بصره، وبين فرحه بحضور الله في حياته ينيرها ويهبها بصيرة تفوق كل أعوازه؟ وأيضاً بعد هذا كله، يتحتم علينا وعلى كل معوق أو مشلول أو ضعيف أو من فقد قليلا أو كثيرا من مقومات الحياة الحاضرة بسنينها القليلة والشحيحة، أن يعلم أن حياة أخرى

---

[1] أختلف مع قدس ابونا متى فى هذا السرد، فالله كامل وكل اعماله كاملة، وما يحدث من خلل فى اى عمل من اعماله فهو ناتج مما يفعله الإنسان من أخطاء وخطايا، فما يزرعه الإنسان إياه يحصد

مفتوحة أمامنا بكل مباهج الروح، في ملء كمال حضور الله، وغنى نعمته المتفاضلة، ليس فيها حزن ولا كآبة ولا تنهد فيما بعد.

لذلك، فحينما تقدم الرب من تلقاء نفسه ليشفي المولود أعمى، ثم بعد ذلك يُعد له مقابلة في الهيكل حيث يدعوه للايمان بابن الله، فيؤمن، ويسجد له، فما هذا إلا آية ونموذج رائع لموقف الله، في النهاية، من المعوق أيا كان.

٩: ٣-٥ أَجَابَ يَسُوعُ: «لاَ هذَا أَخْطَأَ وَلاَ أَبَوَاهُ لكِنْ لِتَظْهَرَ أَعْمَالُ اللَّهِ فِيهِ. يَنْبَغِي أَنْ أَعْمَلَ أَعْمَالَ الَّذِي أَرْسَلَنِي مَا دَامَ نَهَارٌ. يَأْتِي لَيْلٌ حِينَ لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَعْمَلَ. مَا دُمْتُ فِي الْعَالَمِ فَأَنَا نُورُ الْعَالَمِ».

الرب هنا جعل حالة هذا الإنسان المعوق وأمثاله فرصة لكي تظهر أعمال الله فيه، وما عمله المسيح له هو نموذج لأعمال الله من نحو هؤلاء؛ عطفث ومحبة فعالة، وتبني هذا النقص وتحمل تعويضه بصورة عملية مذهلة. وان كانت الوسيلة هي بحد ذاتها معجزة، ولكنها في جوهرها إعادة تصحيح ما أخفقت فيه قوانين الطبيعة والتوريث الجيني والتحام الأصول من الأب والأم. هنا الخالق يصحح ويعيد نواقص الخلقة، ولكن المسيح يقدم هذه المعجزة، في الجسد، كآية لمعجزة أعلى، في الروح، فالرب لم ينزل من السماء لتصحيح نواقص خلقة الإنسان الجسدية، وانما قدم تفتيح عيني الأعمى لرؤية العالم كآية لتفتيح قلب الإنسان لرؤية الله. فما دام المسيح في العالم فهو حتماً يعطي من ذاته ما يختص بحياة الإنسان في العالم. فالمسيح هو «النور» بكل مفهومه وعمله على كل مستوياته. فإن كان « النور الحقيقي» الذي يضيء الأبدية قد نزل إلى العالم، فهو حتما يكون نور العالم أيضاً، أي لا بد أن يحقق ذاته في حياة الإنسان في العالم، ويعطي البرهان أنه «النور» على مستوى الرؤية في العالم. وهذا تم بالحرف الواحد في الأعمى الذي أصبح يرى نور العالم، إذ أثبت المسيح نفسه وكيانه الإلهي الخفي بإعطاء هبة النور المنظور، وتحقق أن المسيح هو حقاً «نور العالم» حينما نزل إلى العالم. فإن كان بتفنيحه عيني الأعمى قد برهن على أنه واهب النور للعالم، فحتماً وبالضرورة يكون هو «النور الحقيقي».

فإذا دققنا النظر، وجدنا أن معجزة تفتيح عيني الأعمى هي أصلاً وبالأساس لا تخص الأعمى، ولكن الرب استخدمها ليعمل عملية توضيحية أثبت فيها بالنهاية أنه «الكلمة» الخالق الواهب النور للعالم. وقد جاء للعالم ليكمل عمل الآب في الخليقة، بإعطاء أو خلق عيون روحية جديدة للانسان، يرى بها الله ونور الحياة الأبدية، وذلك بالفداء الذي أكمله للانسان بذبيحة نفسه، رافعاً حجاب الظلمة الذي كان يحجز رؤية الإنسان لله.

وهكذا ينتقل المسيح بواسطة عملية تفتيح عيني الأعمى من الرحمة المنظورة المقدمة من الله نحو المتعوقين المتألمين الجالسين في ظلمة العالم، إلى عمل رحمة الآب، بواسطة المسيح الذي أرسله خصيصاً، من نحو الخطاة الجالسين في الظلمة وظلال الموت.

«ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار»: قصة تفتيح عيني الأعمى المولود هكذا كانت نموذجاً دُفع به أمام المسيح لكي يظهر فيه أعمال الله الآب، أي يُظهر مجد الله الآب، الذي وُضع للمسيح أن يستعلنه ويتمجد به، تماما كموت لعازر. فآلام المولود أعمى كانت عل مستوى مرض لعازر الذي أدى إلى الموت، وهذا وذاك: «هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله، ليتمجد ابن الله به» (يو ١١: ٤). فتمجيد الله واستعلان مجد المسيح هو أساس المعجزتين! وعل مستوى ما تم في عرس قانا الجليل: «وأظهر مجده فآمن به تلاميذه.»

(يو ٢: ١١)

كانت حياة المسيح في العالم هي نهار الإنسان الذي أشرق في الظلمة. ومنذ أن خرج أدم مطروداً من الفردوس، والليل يغطي العالم، والظلمة تلف البشرية من كل جانب، وطال ليل الإنسان جدا... إلى أن نادى مناد من السماء: «إنه وُلد لكم اليوم في مدينة داود مخلص هو المسيح الرب» (لو ٢: ١١). لقد ظل المسيح يعمل طول هذا النهار أعمالاً كثيرة حتى أكملها قبل أن تغرب شمس يوم الصليب. كانت هي فرصة الإنسان منذ خمسة آلاف سنة ويزيد، وفرصة الله، بآن واحد منذ ملايين السنين. كان هذا هو اليوم الذي صنعه الرب، وكان يوم خلاص، وساعة قبول. أما الإنسان فقد ضيع ساعات هذا النهار التاريخي الجميل في مناقشات وحماقات، أكملها بذبح النور على مذبح الظلمة؛ هكذا تهيأ لمجانين الأرض. أما الله فقد غطى كل ساعات هذا النهار بأعمال وأقوال مضيئة ومحيية، لا يزال العالم يرددها و يتمعنها، ولن يسع عمر الإنسان، مهما طال، أن يبلغ أعماقها أو نهايتها التي لم يسمع بمثلها قط، واختتمها بذبيحة المحبة. لقد أتى الليل فجأة، واختتم المسيح أعماله على الصليب، ورُفع في مجد، وظل الإنسان يشتهي يوماً من أيام ابن الإنسان!!

«يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل»: نحن لا نزال نستمتع بنهار المسيح، فالأعمال التي عمل حية فينا، تعمل وتتكلم. والكلمات التي قال تُحيى قلوبنا كل يوم وتُشدد. ومراحمه تتجدد علينا كل صباح بإشراق نعمته في قلوبنا، فتتجدد فينا نهار المسيح بكل نوره وبهجته، فنعمل ونعمل. ولكن، حتماً، سيأتي ليلنا نحن، حين لا يد تتحرك، ولا رجل تمشي، ولا عين تنظر، ولا أذن تسمع، ولا لسان يتكلم، ولا عمل يُعمل.

فنهار المسيح حياتنا، فيه نعمل عمله ونكمله، وحينئذ يأتي ليلنا نحن حيث لا عمل، بل مجازاة في نور المسيح الأبدي. وإن كان نهار المسيح بدا قصيراً جداً، فنهار حياتنا اقصر، يستغرقه ملعب الصبوة، فيضيع إشراق صباحه في لهو بلا معنى. وما أن يفيق الإنسان ليدرك هدف مساره، حين تنضج خبرات الرجولة فيه، حتى تداهمه الشيخوخة بخيالها، فيضيع ما جمع، ويقف في الغسق يودع حياة ما أن بدأت حتى انتهت، لا يُحمل منها إلا زاد الصلاة وزق الدموع ، لسفر طويل في سرداب الظلمة المعتم، إلى أن يشرق عليه نهار اليوم الجديد .

يا إخوة، إن نهارنا قصير، والعمل أمامنا جسيم، فافتدوا الوقت لأن الأيام شريرة، وما أشقانا بأنفسنا إن لم تغتني بالرب .

«ما دمت في العالم، فأنا نور العالم»: هذه الآية يصعب شرحها إلا إذا رجعنا إلى النص اليوناني، لأنه فريد في نوعه، فهو يحذف ضمير المتكلم «أنا» كما يحذف « الـ» أداة التعريف في «النور». وترجمتها الحرفية: «طالما كنت في العالم فنوره أكون». وحذف «أنا» له أهمية كبيرة في المعنى، إذ أصبح التركيز في الآية ليس على شخص المسيح بمعنى استعلانه «أنا»، ولكن على عمل المسيح «أكون» نوره. كذلك في حذف أداة التعريف في «النور»، يصبح تركيز المعنى ليس على «النور» المطلق في كيانه وعمله، ولكن على نور جزئي معّرف بالعالم، أي أن التركيز على عمل المسيح كنور في العالم.

وهكذا يصبح المعنى الكلي للآية ملتزما بالتركيب اللغوي لها. وتصير الآية تختص بعمل المسيح كنور العالم، في فترة وجوده الزمني في العالم، وهذا المعنى يزداد وضوحاً ودقة، إذا علمنا أن بعد قول المسيح ذلك أجرى معجزة تفتيح عيني الأعمى مباشرة! وهكذا ينصت المعنى بقتضى الآية في كيف يمكن أن نفهم أن المسيح، عل المستوى العملي، هو للإنسأن «نور الحياة»، وأنه للأعمى «أضاء في الظلمة»، وأنه لليهود « والظلمة لم تدركه». وهذا كله

هو عمل المسيح في العالم . صحيح أن الشمس تضيء العالم، ولكن لا قدرة لها أن ترسل أشعتها داخل مقلة الأعمى أو قلب الجاهل!! وهكذا يظل الإنسان «يحيا الظمة» في الداخل والخارج، وهو تحت الشمس يسير. أما المسيح فهو النور الذي ينفذ إلى أعماق الظلمة، فيبددها «فيحيا الإنسان النور»، وتصير حياته أكثر ضياء من نور الشمس، لأنه يستمد النور من المصدر الذي تستمد منه الشمس نورها: « أنتم نور العالم... فليضيء نوركم هكذا قدام الناس...» (مت٥:١٤-١٦)، «والفاهمون يضيئون كضياء الجلد (السماء)، والذين ردوا كثيرين إلى البر كواكب إلى أبد الدهور.» (دا١٢:٣)

٩:٦-٧ قَالَ هَذَا وَتَفَلَ عَلَى الأرض وَصَنَعَ مِنَ التُّفْلِ طِيناً وَطَلَى بِالطِّينِ عَيْنَيِ الأَعْمَى. وَقَالَ لَهُ: «اذْهَبِ اغْتَسِلْ فِي بِرْكَةِ سِلْوَامَ». الَّذِي تَفْسِيرُهُ مُرْسَلٌ. فَمَضَى وَاغْتَسَلَ وَأَتَى بَصِيراً.

الآية في مضمونها الإلهي تشير إلى عملية خلق أو على وجه الأصح عملية «خلقة تصحيحية». فكل عمليات الشفاء التي أجراها المسيح تدخل تحت بند «الشفاء من المرض» أما تفتيح عيني الأعمى المولو بدون مقلتي العين فهي ليست شفاء. فنحن هنا لسنا أمام طبيب البشرية الأعظم يسوع، بل نحن بصدد عملية خلق، وأمام خالق.

والتركيز الأساسي في لغة الآية واقع عل كلمة «الطين»، لأن المقصود هو نقل عقولنا إلى سفر التكوين وكيف خلق الله الإنسان من «تراب الأرض». وفي مواضع كثيرة يذكر الوحي الإلهي «التراب» الذي صيره الله طيناً قبل أن يشكل الإنسان:

+ «يداك كونتاني وصنعتاني، كلي جميعاً ، أفتبتلعني (بغضبك)، اذكر أنك جبلتني كالطين، أفتعيدني إلى التراب.» (أي١٠:٨-٩)

+ «روح الله صنعني ونسمة القدير أحيتني... أنا أيضاً من الطين تقرصت.» (أي٣٣:٤-٦)

+ «والآن يا رب أنت أبونا، نحن الطين، وأنت جابلنا وكلنا عمل يديك.» (إش٦٤:٨)

لقد ولد الأعمى بدون عينين، وكأن الطين الذي جُبل منه تنقصه الصياغة. إذ لما شُكل الأعمى في بطن أمه سهي على الطبيعة أن تمده بمقلتين. لقد أخفق قانون التوريث والتوليد في أن يعطى صورة الكمال حسب الرسم. والمرجع لواضعه، فهو يصحح ما نقص من صورته. وكأن عجنة الطين عادت إلى يد خالقها الأول يشكل لها من ذات الطين عينين.

والملاحظ أن جميع الآيات التي فيها فتح المسيح أعين اعمشى، لم يكن فيها أعمى واحد وُلد من بطن أمه ناقص المقلتين، فاكتفى المسيح بأن يمسح العينين المكفوفتين بريقه فانفتحتا ورأتا النور: «فأخذ بيد الأعمى وأخرجه إلى خارج القرية وتفل في عينيه، ووضع يديه عليه، وسأله هل أبصرت شئيئاً، فتطلع وقال: ابصر الناس كأشجار يمشون. ثم وضع يديه أيضا على عينيه وجعله يتطلع، فعاد صحيحاً، وأبصر كل إنسان جليا.» (مر٨:٢٣-٢٥)

أما هذا الأعمى المولود ناقص الخلقة، فالمسيح وقف منه موقف الخالق وجبل له من الطين ما نقص لجبلته. وانصاع الطين ليد النور الإلهي الخالق، فاستنار.

والآن نأتي إلى استخدام الريق أو اللتعاب «تفل على الأرض»، فإذا علمنا أن لعاب الإنسان يحوي من الميكروبات ما يكفي لإمراض أي عين سليمة، وأمامنا الأن أن لعاب المسيح استرجع عيناً سليمة بكامل صحتها، أدركنا سر الحياة والصحة الكائنة في جسم الرب ولعابه بنوع خاص. فالرب نقل إلى الأعمى الفاقد مقلتيه «سر الحياة الجسدية

السليمة والكاملة، لتصحيح الصورة الجسدية المشوهة، لينطبق المثيل على المثيل، وليعرد الإنسان بمثل الصورة الجسدية الكاملة للمسيح. فلو رجعنا إلى تقليد الآباء القديسين في فهم كيف خلق الله الإنسان في البدء من التراب، الذي حوله الرب الإله إلى طين، لأدركنا مدى انطباق ذلك على عمل المسيح بالنسبة للأعمى: «اذكر أنك جبلتني كالطين، أفتعيدني إلى التراب؟ ألم تصبني كاللبن وخثرتني كالجبن، كسوتني جلدا ولحماً فنسجتني بعظام وعصب، منحتني حياة ورحمة وحفظت عنايتك روحي. لكنك كتمت هذه في قلبك. علمت أن هذا عندك.» (أي١٠:٩-١٣)

فأيوب هنا يكشف كيفية ما تم في عملية الخلقة من درجات، التي أخفاها الله في قلبه، ولكنه أعلمها لأيوب. ومنها نفهم أن عملية الخلق تمت على نمط نمو الجنين في رحم الأم، حسب الصورة والمثال الذي كان في فكر الله. والآن كان أمام المسيح، الأعمى الفاقد مقلتيه، وكان هو المثال الكامل والصحيح. فالمسيح أخذ من المثال سر لاكمال، ووضعه في الصورة لكي يقبل الأعمى سر النور العامل في جسمم الإنسان الترابي، الذي كان ينقص خلقته.

«وقال له: اذهب اغتسل في بركة سلوام، الذي تفسيره مرسل، فمضى واغتسل، وأتى بصيراً»: قصة بركة سلوام قصة تحولت إلى قضية ضد القديس يوحنا وانجيله على مدى مائة عام من النقد المرير. فهذه البركة رُدمت منذ زمان بعيد جداً، وضاعت معالمها كلية، فاتحذها النفاد تكأة لنقد صحة الإنجيل بجملته، معتبرين أن القديس يوحنا لا يعرف جغرافية الأرض التي يكتب عنها، وإنما يؤلف أسماء ومسميات من عنده. علماً بأن القديس جيروم (إيرونيموس) رآها رؤيا العين وكتب عنها في شرحه لسفر إشعياء (٦:٨). وفي حفرياته أواخر القرن الثامن عشر أُكتشفت البركة وأُكتشفت القناة: « وبقية أمور حزقيا وكل جبروته وكيف عمل البركة والقناة وأدخل الماء إلى المدينة أما هي مكتوبة في سفر أخبار الأيام لملوك يهوذا» (٢مل٢٠:٢٠)، هذه القناة التي تحت الأرض التي تسحب المياه من النبع العالى المسمى الآن نبع مريم. وقد حُفرت هذه البركة بقصد توصيل المياه داخل أسوار أورشليم منذ زمن بعيد ربما منذ أيام سليمان. وقد ذكرها إشعياء النبي تحت اسم «مياه شيلوه، أو شيلون» (إش٦:٨) ومعنى الكلمة بالآرامي «مرسل»، لأنها ليست مياه نابعة من مكانها، بل منحدرة ومُرسلة إليها من نبع آخر أعلى. لذلك سماها إشعياء النبي مياه شيلوه، أي مياه مُرسلة، أي مياه جارية، لأنها كانت ترتفع وتنخفض مرتين في اليوم. وهي مياه عذبة جيدة للشرب وكانت تسقي حدائق الملك في وادي قدرون، قبل أن يلتحم في وادي يهوشافاط. ويُلاحظ أن الاسم العربي لبركة «سلوام» هو «سلوان». وجدران هذه البركة ملتحمة في الجدار الجنوبي للمدينة. والمكان الآن قد تحقق منه علماء الآثار أنه الحافة الجنوبية لجبل صهيون ومدينة داود.

وكانت بركة سلوام ذات اتصال وثيق بخدمات الهيكل، لأن مياهها اعتبرت مياهاً مقدسة، وكانت تُحتسب أنها مثيلة بالمياه التي نبعت من الصخرة في سيناء، لذلك كانت تستخدم في طقوس عيد المظال على أساس هذا المعنى.

وعندما أمر الرب المولود أعمى أن يذهب ويغتسل في بركة سلوام، كان وراء هذه الإرسالية معان، فالإغتسال بالمياه المقدسة في المفهوم الإنجيلي هو بحد ذاته معمودية. ومعروف في العهد الجديد أن اسم المعمودية السري أو الروحي هو «الاستنارة»، فالمعمودية هي سر الاستنارة.

وواضح أن هذا الضرير المحظوظ «أُرسل» أعمى، وعاد بصيراً، أُرسل يتخبط في اظلام، وعاد في ضياء وملء «نورالعالم». وكان ذلك يوم سبت!!

ب- الظلمة تطارد النور ولا تدركه، والنور يدين الظلمة:

٩:٨-١٢ فَالْجِيرَانُ والَّذِينَ كَانُوا يَرَوْنَهُ قَبْلاً أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى قَالُوا: «أَلَيْسَ هَذَا هُوَ الَّذِي كَانَ يَجْلِسُ وَيَسْتَعْطِي؟». آخَرُونَ قَالُوا: «هَذَا هُوَ». وَآخَرُونَ: «إِنَّهُ يُشْبِهُهُ». وَأَمَّا هُوَ فَقَالَ: «إِنِّي أَنَا هُوَ». فَقَالُوا لَهُ: «كَيْفَ انْفَتَحَتْ عَيْنَاكَ؟». أَجَابَ: «إِنْسَانٌ يُقَالُ لَهُ يَسُوعُ صَنَعَ طِيناً وَطَلَى عَيْنَيَّ وَقَالَ لِي: اذْهَبْ إِلَى بِرْكَةِ سِلْوَامَ وَاغْتَسِلْ. فَمَضَيْتُ وَاغْتَسَلْتُ فَأَبْصَرْتُ». فَقَالُوا لَهُ: «أَيْنَ ذَاكَ؟» قَالَ: «لاَ أَعْلَمُ».

لقد صار الأعمى آية بحد ذاته. لقد كان معروفا لدى كافة جيرانه، لأنه كان يجلس في مكان عام مكشوف ويستعطي تحت أيدي الناس. والآن أصبح وجوده فوق العادة وفوق رؤية جميع الناس. وحينئذ بدأ البعض يشكك في حقيقة الآية التي تمت فيه، ولكن كيف يمكن إخفاء الشمس، أو تُخفى الخليقة الجديدة التي وهبها المسيح كيانا من كيانه ووجودا فعالا من وجوده؟

حينما صدق الناس في رؤيتهم، قالوا: «إنه هو»، وحينما عُميت بصيرتهم قالوا: لا «ليس هو». وينبري إنجيل يوحنا في إبراز معالم المسيح في الأعمى الذي يبصر، فيجعله ينطق «أنا هو».

والقديس يوحنا يرمي بالمعاني إلى بعيد!!... أليس هو الأعمى الذي يحمل ريق المسيح ولمسات يديه؟ والأن، آن الأوان ينطق بلسانه، ويكشف عن أثر لمساته؟؟؟ أليس هو الخالق لعينيه، والنور الواهب له نور الحياة؟ ألم يدخل الأعمى بذلك في زمرة الأغصان التي استمدت عصارتها من حياة الكرمة، ويصح فيه القول: أنتم نور العالم؟

صحيح أن الإمتحان، الذي دخل فيه صاحب العينين المخلوقتين جديدا، صعب للغاية، لكنه لم يخطىء الرؤيا على كل حال: «إنسان يقال له يسوع». هنا الترجة العربية معيبة، ينقصها التشديد والتعريف، وصحتها باليونانية: «الإنسان الذي يُقال له يسوع». فالأعمى يرى هنا المسيح في وضع يفوق كل الناس الذين رأوه وعطفوا عليه... لقد قدم شهادة للمسيح تتساوى فقط مع لهفة السائلين، واحتفظ لنفسه في قلبه بشهادة أعلى بالنسبة لهذا الإنسان الفائق يسوع «إنه نبي». ولكنه قالها، عندما لزم التحدي!! وإنه «من الله»» عندما لزم الانحياز. ولما سألوه: «أين هو» ردد ما يقولونه في ضمائرهم: لا أعلم من أين هو، ولا أين هو!!

كل الذي يعلمه الأعمى المبصر عن يسوع، أنه هو صاحب الآية التي يحملها الآن في جسده!!

٩:١٣-١٥ فَأَتَوْا إِلَى الْفَرِّيسِيِّينَ بِالَّذِي كَانَ قَبْلاً أَعْمَى. وَكَانَ سَبْتٌ حِينَ صَنَعَ يَسُوعُ الطِّينَ وَفَتَحَ عَيْنَيْهِ. فَسَأَلَهُ الْفَرِّيسِيُّونَ أَيْضاً كَيْفَ أَبْصَرَ فَقَالَ لَهُمْ: «وَضَعَ طِيناً عَلَى عَيْنَيَّ وَاغْتَسَلْتُ فَأَنَا أُبْصِرُ».

كلمة «الفريسيين»» هنا نفهمها على أنها هيئة صغرى متفرعة من هيئة السنهدريم، لأن السنهدريم يكنى عنه في إنجيل يوحنا «الفريسيين ورؤساء الكهنة». وكان يوجد في أورشليم هيئتان متفرعتان من السنهدريم، كل هيئة منهما عددها ٣٤ عضوا، وكان لها حق المحاكمة والقطع من الجماعة (شعب إسرائيل) في القضايا الصغرى، وقد كني عنها أحيانا «اليهود» في مواضع من الإنجيل. وكان يوجد في كل المدن الكبرى هيئة مماثلة.

أما نوع التعدي على قانون حفظ السبت، فيراه الفريسيون حسب تخريجاتهم المنصوص عنها في كتاب الجمارا «إنه تُحسب خطية لكل من يضع دواء داخل العين». هذا بالإضافة إلى أن عجن الطين بالماء يوم السبت محسوب أيضا أنه خطية، وكذلك استخدام الريق أو اللعاب لعلاج العين هو أيضاً تعد. وبذلك يكون المسيح قد كسر السبت من عدة نواح.

ولكن الرب، بحسب رؤيته الإلهية أن السبت لا يمنع الآب من أن يعمل، وهو يعمل عمل الآب بصفته رب السبت،

أي الذي يقدم له الاحترام والعبادة، لذلك، أقدم على شفاء الأعمى، العمل الذي أثبت به قطعاً صدق قوله وفكره أنه « رب لمجد الله الآب.» (في٢:١١)

لقد تجاهل الرب قوانين الفريسيين، بل ونص الناموس أحيانا كثيرة، باعتبار أن حياة الإنسان وروحه أعلى قيمة واكثر أهمية من السبت وناموسه.

أما سؤال الفريسيين للأعمى البصير «كيف أبصر» فكان ينصب على العملية التي أجراها له المسيح من حيث خطواتها فقط، التي يرونها أنها مخالفة لقوانين حفظ السبت؛ أي لم يكن لهم أية رغبة في فحص نتيجة الآية. لا يهمهم أنه يرى الآن وقد كان مولودا أعمى، ولكن الذي يهمهم جداً هو كيف انكسر السبت في عملية شفائه، وهذا هو معنى الانحراف بالناموس نحو الحرف، والحرف يقتل أو قتال، كما عزموا على قتل المسيح؛ أما الروح فيحيي. فالناموس حرف، وكلام المسيح روح ونور وحياة.

عجيب حقا أن يقف علماء وقضاة الناموس موقف القتلة، دفاعاً عن الناموس؟ ويقف الأعمى موقف النور والحق والحياة، دفاعاً عن المسيح.

وفي إجابة الأعمى البصير للفريسيين: «وضح طينا على عيني، واغتسلت، فأنا أبصر»، نوع من الحذق الماهر الماكر. لقد أسقط الأعمى عملية عجن الطين بالريق، وهي العملية الاولى الممنوعة في ناموس السبت، ثم أسقط عملية الذهاب إلى بركة سلوام التي فيها مسيرة ربما تكون مناقضة لأحكام السبت. وعلى العموم، فإن رد الأعمى البصير فيه شعور واضح بالضيق، فقد اختصر القصة إلى مستوى التحدي. وسنرى في الآية ٢٧ كيف انفجر فيهم هذا البصير الذي كان أعمى ساخرا : «قد قلت لكم ولم تسمعوا . لماذا تريدون أن تسمعوا أيضاً، ألعلكم تريدون أن تصيروا له تلاميذ.» (يو ٩:٢٧)

لقد أحس هذا الموهوب أنه صار تلميذا للذي يدافع عنه ولو لم يره بعد، وهذا عجب. أما الذين رأوه وسمعوه وشاهدوا آياته ومعجزاته فأنكروا واستعلوا أن يكونوا له تلاميذ، ذاك الذي هو رب المجد!...

أنظر، أيها القارىء، إلى أي مدى أعمى التعصب للقانون والحرف عيون القضاة، فرأوا اليوطا (أصغر حروف الهجاء)، أي حرفية الناموس، أكبر من الألفا والاوميجا معاً «أنا هو الألف والياء» (رؤ ١:٨)

١٦:٩ فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ: «هَذَا الإِنْسَانُ لَيْسَ مِنَ اللَّهِ لأَنَّهُ لاَ يَحْفَظُ السَّبْتَ». آخَرُونَ قَالُوا: «كَيْفَ يَقْدِرُ إِنْسَانٌ خَاطِئٌ أَنْ يَعْمَلَ مِثْلَ هَذِهِ الآيَاتِ؟» وَكَانَ بَيْنَهُمُ انْشِقَاقٌ.

الانقسام الذي طالما سمعناه في ختام كل تعليم إلى الآن، ولكن كان في السابق انقساما بين الجموع ثم انقساما بين اليهود. ولكن الانقسام هنا هذه المرة بين القضاة في المحكمة الجزئية. وهو انقسام بين قضاة متمسكين بالقانون وحرفيته، وقضاة منطقيين متمسكين بالواقع وتفسيره المتسع . فالقانونيون رفعوا السبت فوق كل منطق وواقع، واعتبروا المسيح مدمنا على كسر السبت حتى إلى سبع مرات: «لا يحفظ السبت». والمنطقيون حكموا الواقع وتفسيره في شرح معنى ومدى اعتبار أن كسر السبت خطية، بالنسبة لرجل أظهرت أعماله وآياته مدى إمكانية تبرير كسره للسبت. وهذا يعتتر تقدما كبيرا في عقلية الفريسيين ، فكان الانشقاق. فتأجل الحكم في القضية لإعادة الفحص.

٩: ١٧-٢٣ قَالُوا أَيْضاً (ثانية) لِلأَعْمَى: «مَاذَا تَقُولُ أَنْتَ عَنْهُ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟» فَقَالَ: «إِنَّهُ نَبِيٌّ». فَلَمْ يُصَدِّقِ الْيَهُودُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ أَعْمَى فَأَبْصَرَ حَتَّى دَعَوْا أَبَوَيِ الَّذِي أَبْصَرَ. فَسَأَلُوهُمَا: «أَهَذَا ابْنُكُمَا الَّذِي تَقُولاَنِ إِنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى؟ فَكَيْفَ يُبْصِرُ الآنَ؟». أَجَابَهُمْ أَبَوَاهُ: «نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا ابْنُنَا وَأَنَّهُ وُلِدَ أَعْمَى. وَأَمَّا كَيْفَ يُبْصِرُ الآنَ فلاَ نَعْلَمُ. أَوْ مَنْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ فلاَ نَعْلَمُ. هُوَ كَامِلُ السِّنِّ. اسْأَلُوهُ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ». قَالَ أَبَوَاهُ هَذَا لأَنَّهُمَا كَانَا يَخَافَانِ مِنَ الْيَهُودِ لأَنَّ الْيَهُودَ كَانُوا قَدْ تَعَاهَدُوا أَنَّهُ إِنِ اعْتَرَفَ أَحَدٌ بِأَنَّهُ الْمَسِيحُ يُخْرَجُ مِنَ الْمَجْمَعِ. لِذَلِكَ قَالَ أَبَوَاهُ: «إِنَّهُ كَامِلُ السِّنِّ اسْأَلُوهُ».

شهادة الأعمى الذي صار بصيرا تأكيد للنور الذي دخل أعماقه قبل أن يدخل مقلة عينيه. لقد أحسه ذلك الموهوب وأحس من أين أتى، لم يقل إن الذي أبرأني رجل صالح أو طبيب، ولكنه تعرف عليه أنه من الله ونبي هو على أقل تقدير، بسبب القوة الإلهية التي هزت كيان خلقته بأجمعها. فالعين ليست عضوا مفردا قائما بذاته، بل نسيج متصل بنسيج الجسم كله، ومركزها في أهم مواقع المخ، وأعصابها منتشرة في أنحاء شتى. هذه الأنسجة وهذه الأعصاب جميعا، بل هذا المخ، والجسد كله، اهتز كيانه اهتزازا بدخول هذا الضيف الإلهي الغائب ليملأ الكيان المخلوق ويكمله كمالاً!! إن أول ما رآه هذا الأعمى، رأى قوة الله التي أنارت قلبه قبل أن تنير عينيه، وظل متشوقاً أن يطبق هذه الرؤيا على الوجه النبوي الذي أبرأه، حتى رأه وتعرف عليه أنه ابن الله ورب الأنبياء، وسجد له متعبداً. لم يلق الأعمى المبصر اي اعتبار لمقصد هؤلاء الفريسيين لما سألوه، بل وتجاوز انقسامهم وشكوكهم، بل وتجاوز علمهم وتعليمهم، بل تجاوز وعدهم ووعيدهم، وقال قولته بشموخ الإيمان الذي لا يهاب العقاب: «إنه نبي».

ولم يكن أمام الفريسيين إلا أن يلجأوا إلى أولياء أمره، عسى يخضعونهم لإرهابهم. فلما فلت الأبوان ين أيديهم، إذ أحالهم هذان إلى حامل المعجزة مرة أخرى، إذ هو كامل السن، بعد أن أقروا أنه هو هو الذي ولدوه أعمى، فعادوا إلى الأعمى مرة أخرى وقد بيتوا له النية بالقطع من الجماعة، والحرمان من حقوق إسرائيل.

٩: ٢٤-٢٥ فَدَعَوْا ثَانِيَةً الإِنْسَانَ الَّذِي كَانَ أَعْمَى وَقَالُوا لَهُ: «أَعْطِ مَجْداً لِلَّهِ. نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الإِنْسَانَ خَاطِئٌ». فَأَجَابَ: «أَخَاطِئٌ هُوَ؟ لَسْتُ أَعْلَمُ. إِنَّمَا أَعْلَمُ شَيْئاً وَاحِداً: أَنِّي كُنْتُ أَعْمَى وَالآنَ أُبْصِرُ».

لقد ظن بعض علماء الكتاب المقدس أن كلمة «أعط مجدا لله»، هي مجرد إجراء قانوي يلزم المتهم بالاعتراف بالحق خوفا من الله. ولكن في الحقيقة هو أيضاً إجراء ديني بجوار أنه إجراء قانوني، ومؤداه أنه مزمع إصدار حكم ضده بأن يقطع من الجماعة أو يُحكم عليه بالموت، كما حدث في قصة عاحان بن كرمي (يش٧: ١٩). فطلبهم هذا منه أن يعطى مجد لله هو كشهادة يشهدها لله قبل أن يموت أو يُقطع، وذلك حتى يحتفظ لنفسه بحق الرحمة في الدهر الآتي[1]، بعد أن يكون قد حُرم من كل حقوق الحياة كواحد من شعب الله في الحاضر. وكان هذا الإجراء يكشف ضمنا للمتهم عن مدى خطورة شهادته التي سيشهدها، فكان هذا الإجراء يستخدمونه بالدرجة الثانية، بنوع من الدهاء، للتهديد ليرعب قلب المتهم، حتى يبتلع شهادته السابقة د «أنه نبي» ويغير من أسلوب عناده. كما كان

---

[1] تقول المشناة: إنهم وهم رافعون الحجر، وهم على بعد عشرة أذرع يأمرونه بأن يعترف، وذلك بقولهم: «أعط مجدا لله، وذلك بقصد أنه إذا مات يكون قد اعترف وأعطى المجد لله، فيكون له نصيب في الدهر الآتي.

تفكير هؤلاء الفريسيين المتعاهدين ضد هذا الشاهد الخطير، هو محاولة زحزحة اعترافه بالمسيح كنبي أو المسيا، وذلك بإعطاء «المجد لله» دون سواه. لذلك أردفوا أمرهم هذا بتقرير رسمي من حكمهم كهيئة رسمية بالنسبة للمسيح: «أنه إنسان خاطىء» حتى يلتزم بتغيير شهادته السابقة «إنه نبي» عن إجبار واضطرار دون اختيار...

أليس هذا هو الإرهاب الديني بنصه ويقينه؟!... تبا للقانون إذا سّلم لقضاة جلادين، ويا لضيعة الحق، إذا وقع تحت رحمة الجهلة المنافقين!

ألم يأت المسيح من أجل ذلك، من أجل أن يبطل صراع الحق مع الحرية؟ «تعرفون الحق والحق يحرركم»؟ ومن أجل أن يرفع الإنسان يده الثقيلة من القضاء في شئون الله ليصير القضاء بقتضى كلمة الله وحدها: «أما أنا فلست أدين أحدا ... الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير.» (يو٨:١٥ و١٢:٤٨)

«أخاطىء هو لست أعلم، إنما أعلم شيئاً واحداً، أني كنت أعمى والآن ابصر»: عسير جداً على الإنسان أن يطفىء الشمس بنفخة فمه، أو يرفس السيف (أو مناخس) برجليه. أهكذا عميت بصائر هؤلاء الفريسيين حتى إنهم يحاولون أن يستنطقوا أعمى وُلد أعمى، وعاش أعمى حتى بلغ سن البلوغ، أن يجحد من خلق له عينين يرى بهما النور والناس والدنيا والجمال؟ أمور كان قد كُتب عليه أن يُحرم منها حتى إلى القبر؟ أهكذا حقا تعلم الفريسيون علم اللاهوت وغوامض الناموس أن يقولوا للنور أنت ظلام؟

وهل الحق والحياة والمعرفة والنور والله جُعلت هكذا مقيدة بقيود معرفتهم وحدهم، فإذا وُجدت هذه بعينها ونصها وصميمها خارج علمهم ومعرفتهم، كانت هي الباطل والخطية؟؟

ها أبأس الإنسان إذا ظن أنه صار بعلمه قيماً على أموو الله، وبسلطانه وصياً على وصاياه، ومتولياً من دون الله شئون الله.

أليس من أجل هذا نادى الرب بصوته العالي: أنا لا أعمل من نفسي، أنا لا أتكلم من نفسي، أنا لست أصنع مشيئتي، أنا لا أطلب مجد نفسي، أنا لا أدين أحدا ... ثم رأى الرب تعالي الفريسيين بعلمهم ومعرفتهم، وأن تعاليهم هذا أسقط الله من قلوب الناس: «تهلل يسوع بالروح وقال: أحمدك أيها الآب رب السماء والأرض، لأنك أخفيت هذه عن الحكماء (الحاخامات) والفهماء، وأعلنتها للأطفال، نعم أيها الأب لأن هكذا صارت المسرة أمامك.» (لو١٠:٢١) وهكذا، ولهذا، أخفى الله علم معرفته الحقيقية عن الحكماء عند أنفسهم والناس. وهذه هي بعينها رؤية القديسة مريم العذراء الصبية القديسة والنبية المختارة: «صنع قوة بذراعه، شتتت المستكبرين بفكر قلوبهم، أنزل الأعزاء عن الكراسي ورفع المتضعين، أشبح الجياع (إلى الله) خيرات وصرف الأغنياء فارغين.» (لو١:٥١-٥٣)

وهكذا وقف الشحاذ الأعمى الذي كان بالأمس يستعطي حسنة، وقف بين الحاخامات يجحد معرفتهم، وينفي صحة منطقهم، ويتجاهل بأس سلطان علمهم: علمكم الذي يقول أنه خاطىء، هذا لست أعلم اعلم، أما الذي أعلمه علم اليقين، علم الحق والواقع الملموس والمنظور، علم النور الذي هو أصدق لي من الشمس، أني كنت أعمى والآن أبصر. خلقني الله بلا عينين، وهذا الذي تقولون عنه أنه خاطىء هو الذي خلق لي عينين صحيحتين، فاحكموا أنتم من يكوذ هذا!... أما أنه خلق لى العينين يوم سبت، فمبارك هذا السبت، ومبارك العمل الذي عُمل لي فيه.

٩: ٢٦–٢٨ فَقَالُوا لَهُ أَيْضاً: «مَاذَا صَنَعَ بِكَ؟ كَيْفَ فَتَحَ عَيْنَيْكَ؟». أَجَابَهُمْ: «قَدْ قُلْتُ لَكُمْ وَلَمْ تَسْمَعُوا. لِمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تَسْمَعُوا أَيْضاً؟ أَلَعَلَّكُمْ أَنْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَصِيرُوا لَهُ تلاَمِيذَ؟». فَشَتَمُوهُ وَقَالُوا (له): «أَنْتَ تِلْمِيذُ ذَاكَ وَأَمَّا نَحْنُ فَإِنَّنَا تلاَمِيذُ مُوسَى.

وعودة مرة أخرى إلى استجواب مُضاد، لعلهم يظفرون بمعلومة تهدم شهادته وتوقعه مرغما في إدانة المسيح ... ماذا صنع بك؟ لعله يكون قد استخدم طريقة شيطانية أو استعان بقوى غير منظورة، ولكن الشاب كان قد طفح به الكيل، وتضايقت نفسه من محاولة الضغط عليه لكي يفرط في حق من أحسن إليه، فما كان منه إلا أن استخدم أسلوب المراجعة والهجوم والتضييق عليهم: لقد قلت لكد ولم تسمعوا، فلماذا المحاورة؟ على ما تلوون؟ لماذا تريدون أن تسمعوا أيضاً؟

وهنا بلغت السخرية منهم أقصى حدودها: ألعلكم تريدون أن تصيروا له تلاميذ؟ وهنا نجح هذا البصير الأعمي في تغيير دفة الحديث والحوار كله، بل وأسقطهم في حيرة من أنفسهم جعلتهم يقفون منه موقف الدفاع، إنما في إحساس بالمهانة جعلتهم يشتمونه!! ولا نعلم بماذا شتموه، وانما أضافوا إلى الشتيمة إلصاق تهمة الخروج عن الناموس. «أنت تلميذ ذاك»، باعتبار أن هناك فاصلا عقائديا يفصل بين المسيح وموسى: «أما نحن فإننا تلاميذ موسى». وهذا الاتهام هو الذي على أسامه أخرجوه خارج الجماعة. ولكنه في الحقيقة خرج بشهادة محفوظة له في السموات أنه «تلميذ ذاك»!!

٩: ٢٩–٣٤ نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ مُوسَى كَلَّمَهُ اللَّهُ وَأَمَّا هَذَا فَمَا نَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ هُوَ». أَجَابَ الرَّجُلُ: «إِنَّ فِي هَذَا عَجَباً! إِنَّكُمْ لَسْتُمْ تَعْلَمُونَ مِنْ أَيْنَ هُوَ وَقَدْ فَتَحَ عَيْنَيَّ، وَنَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَسْمَعُ لِلْخُطَاةِ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَتَّقِي اللَّهَ وَيَفْعَلُ مَشِيئَتَهُ فَلِهَذَا يَسْمَعُ. مُنْذُ الدَّهْرِ لَمْ يُسْمَعْ أَنَّ أَحَداً فَتَحَ عَيْنَيْ مَوْلُودٍ أَعْمَى. لَوْ لَمْ يَكُنْ هَذَا مِنَ اللَّهِ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئاً». قَالُوا لَهُ: «فِي الْخَطَايَا وُلِدْتَ أَنْتَ بِجُمْلَتِكَ وَأَنْتَ تُعَلِّمُنَا!» فَأَخْرَجُوهُ خَارِجاً.

لا تزال عقول الفريسيين مشتبكة في المقارنة بين «أنت» و «نحن»، وبين التلمذة لذاك ولموسى، ثم بين موسى وذاك، مما يكشف عن تشكك في عقولهم وتشكيك لعقول الآخرين. والذى زاد الهوة والحقد أن مصدر السلطان الذي يستمد منه المسيح رسالته، لا يمر بسلطانهم ولا بعلمهم ولا بمدارسهم، وهذا هو أصل المرارة التي كانت تطفح بها أقوالهم. لقد وطدوا كيانهم وسلطانهم على أساس أنهم تلاميذ موسى، وموسى استمد سلطانه من الله، إذن، فسلطانهم هو سلطان موسى، إنهم بفم موسى يتكلمون كأنهم من الله. والمسيح يهدد نظريتهم بكل أصولها وفروعها، وذلك ببراهين وآيات. هنا جاء الشك في قلوبهم، وكثير منهم آمن وانحاز للمسيح، إن سرا أو جهرا. أما الباقون، فأصبح عليهم التشكيك والهدم أو القتل لئلا يضيع سلطانهم. وهذا الأعمى الذي أبصر، صار يمثل أخطر تهديد لهم ولنظرياتهم، لأنه شاهد علن، بل شاهد علم، أن «ذاك»، أي المسيح، هو في نظر الأعمى البصير في موقف الخالق. بل والأعمى البصير أدرك ضعف موقفهم منه ومن المسيح، فاستغل ذلك منهم أقوى استغلال، وبدأ يشدد النكير عليهم؛ وبنفس منطقهم، أخذ يسخر منهم في أسلوب استهجاني لاذع: «إن في هذا عجبا إنكم..». لقد وضعهم في موضع ذوي التفكير الداعي للتعجب والاستهجان: «إنكم لستم تعلمون من أين هو وقد فتح عيني». فالذي يفتح عيون العمي هو، عند جميع الأنبياء الذين تعلمتم عليهم، مسيا، ومسيا وحده، لأنه «منذ الدهر لم

يسمع أن أحدا فتح عيني مولود أعمى». حتى موسى الذي به يفتخرون لم يفتح عين أعمى واحد!

فإذا أنكرتم «أنه نبي» وإذا تجاهلتم أنه مسيا، فلا ينبغي أن تنكروا تقواه، وأنه يصنع مشيئة الله، وأنه من الله . فلا يستقيم قط قولكم أنه إنسان خاطىء، لأن الله، إذ فتح عيني على يديه، يكون قد سمع له، والله لا يسمع للخطاة!!

لقد أوقعهم الأعمى الذي أبصر، في نفس الفخ الذي نصبوه له؛ وبنفس منطقهم ببساطة وهدوء قاتل لكبريائهم. فإزاء قولهم: «نحن نعلم أن هذا الإنسان خاطىء»، حيث قصروا علمهم على أنفسهم فقط «نحن» (الفريسيين)، أجابهم بنفس منطقهم، إنما على أساس علم أعم وأشمل يعرفه الجميع وبلا استثناء، ولا يمكن أن يجهله أحد أو يماحك فيه إنسان، وذلك بقوله: «معلوم لدى الجميع» أو «كلنا نعلم». أما علمهم المحصور في عقولهم فينتهي عند «أن هذا الإنسان خاطىء»، وذلك بحسب قياس جزئي على قانون أو ناموس كسر السبت. وأما علم الجميع، فهو يقوم على أساس صفة مطلقة من صفات الله، وهي بديهية، لا يماحك فيها إنسان قط: «إن الله لا يسمع للخطاة (إن راعيت إثما في قلبي لا يستمع لي الرب – مز ٦٦:١٨) وهذا الإنسان قد فتح عيني».

وكالعادة حينما استبدت بهم الحيرة وعجزوا عن التمشي مح منطقه، بدأوا يهينونه: «في الخطايا وُلدت أنت بجملتك، وأنث تعلمنا».

ولقد وقع الفريسيون في المحظور، فقد نسبوا عماه إلى خطيته وخطية أبيه وأمه، فلو لم يكن الله قد وهبه النظر وفتح عينيه بالفعل لكانت إهانة من أشنع الإهانات التي يمكن أن تسمعها أذن بشر. ولكن الآن وقد وهبه الرب النظر الصحيح جسد وروحا، فقد ثبت أنه لا هو أخطأ ولا أبواه. وهكذا ارتدت الإهانة عليهم مضاعفة دون أن تصيب هذا الموهوب ولا أبويه ولا قيد شعرة! ومن هذه الإهانة المقصودة، والتي لم تصب هدفها، يتضح مدى المرارة والحقد والاحتقار الذي ملأ قلوبهم نحو هذا الأعمى المنعم عليه بالنظر، لأنه وقف موقف الشاهد للمسيح. كما نستشف من ردود هذا الإنسان المبارك، مقدارالافتخار بالله والتمسك بكرامة المسيح فى تمجيده، وعدم الانصياع إلى تهديد الفريسيين حتى إلى الطرد، مع أنه لم يكن قد رآه بعد!... ولكن كان هم المسيح أن يهبه النور الأعظم، فسعى وراءه حتى وجده.

٩: ٣٥–٣٨ فَسَمِعَ يَسُوعُ أَنَّهُمْ أَخْرَجُوهُ خَارِجاً فَوَجَدَهُ وَقَالَ لَهُ: «أَتُؤْمِنُ بِابْنِ اللَّهِ؟». أَجَابَ: «مَنْ هُوَ يَا سَيِّدُ لِأُومِنَ بِهِ؟». فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: «قَدْ رَأَيْتَهُ وَالَّذِي يَتَكَلَّمُ مَعَكَ هُوَ هُوَ». فَقَالَ: «أُومِنُ يَا سَيِّدُ». وَسَجَدَ لَهُ.

من روح هذه الآية ندرك أذ الرب هو الذي سعى مرة أخرى ليتقابل معه. لأن كلمة «فوجده» يسبقها حتما أنه كان يطلبه. لأن الفريسيين أخوجوه خارجا، أي خارج حظيرتهم التي وضعوا أنفسهم عليها حراسا لا رعاة. وحتى أبواه خشيا من إيوائه، خوفا من أن يلحقهم الطرد. أما الراعي الصالح فكان يسعى خلف الغنيمة التي غنمها لحساب الآب، حتى يكمل عمل الآب فيها. فلما «وجده» وجده وعلى فمه فرح الشهادة، أما نفسه فكان عليها سمات الرب: الاهانة والطرد. وحالا فتح له باب الحياة الأبدية على سعته، وطلب منه إبراز تذكرة الدخول: «أتؤمن بابن الله؟» فأبرزها الأعمى البصير بكل شجاعة وفرح، لأنه كان قد دفع ثمنها بالكامل على باب المسلخة عند جباة المكوس.

كان يظنه أولا نبي ولكن لما علم أن الواقف أمامه والذي يرى وجهه ويتكلم معه هو هو ابن الله صاحب الملكوت، والحامل لمفاتيح باب الحياة، خر أمامه ساجدا؛ فللحال انفتحت بصيرته ورأى صاحب النور، لأن «بنورك (يا رب) نرى نورا.» (مز ٩:٣٦)

٩:٣٩-٤١ فَقَالَ يَسُوعُ: «لِدَيْنُونَةٍ أَتَيْتُ أَنَا إِلَى هَذَا الْعَالَمِ حَتَّى يُبْصِرَ الَّذِينَ لاَ يُبْصِرُونَ وَيَعْمَى الَّذِينَ يُبْصِرُونَ». فَسَمِعَ هَذَا الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ مِنَ الْفَرِّيسِيِّينَ وَقَالُوا لَهُ: «أَلَعَلَّنَا نَحْنُ أَيْضاً عُمْيَانٌ؟». قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «لَوْ كُنْتُمْ عُمْيَاناً لَمَا كَانَتْ لَكُمْ خَطِيَّةٌ. وَلَكِنِ الآنَ تَقُولُونَ إِنَّنَا نُبْصِرُ فَخَطِيَّتُكُمْ بَاقِيَةٌ»

كان المنظر مهيبا أخاذا عندما خر الأعمى البصير عند قدمي الرب ساجدا في انفعال التعبد الصادق، وحول الرب تلاميذه والفريسيون المناكفون ينظرون ويتعجبون؛ ومن واقع هذا المشهد الشاهد لحقيقة النور الذي جاء إلى العالم، فانفتحت له أعين العمى بهتاف الشهادة والإيمان، والفاضح لموقف مدعي الإبصار الذين يحاولون بكل جهد إطفاء النور أو إخفاءه لئلا يظهر خزي عماهم، نادى حامل النور: «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم» !!

ولكن المسيح لا يشدد النكير على الفريسيين، لأنه ما ذنب النور أنه يفضح الظلام؟ إن هذا حتما هو عمله حتى ولو لم يشأ، وإذا شاء فهذا حق له لأنه طبيعته، وهذا هو الحق الذي يشاؤه الله أيضا.

«حتى يبصر الذين لا يبصرون ويعمى الذين يبصرون»: هذه الآية هي من واقع سجود الأعمى البصير، والشهادة للمسيح، والإعلان عن إيمانه بسجود وعبادة؛ كذلك هي من واقع مقاومة الفريسيين للمسيح، ورفضهم أية تفتيح عيني الأعمى، ورفضهم الإيمان بالمسيح معا.

وهكذا نرى أن الأعمى قبل النورين: نور الجسد ونور الله ، فأبصر واستنار معا!!

كما نرى هؤلاء الفريسيين المبصرين ومدعي البصيرة يرفضون آية النور في الجسد، وشهادة نور الله معا! فانحجب عنهم النور بإرادتهم، فلأنهم استحسنوا أن لا يبقوا النور في معرفتهم عمتهم الظلمة وأعمتهم. هؤلاء الذين قال عنهم المسيح: «أحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة» (يو٣:١٩)» ووصفهم الرب بأنهم «عميان قادة عميان» (مت١٥:١٤) وفي الحفرة حتما ساقطون.

لما ذاق الأعمى النور وأحبه، سعى النور وراءه فأدرك مصدره، ومن هوة الظلام الدامس انتقل إلى إشراق نور الله الكامل، هذا هو وعد الله بالمسيح يسوع لكل الجالسين في الظلمة وظلال الموت يشرق عليهم النور، طالما سعوا إليه وقبلوه وأحبوه ومدحوه. ومن الفقر المدقع والجلوس على عتبات البيوت جائعا يستعطي خبزا، انتقل الأعمى إلى عتبة بيت الله كتلميذ، يوزع شبعا من غنى نعمته على الداخلين، وهذا هو وعد الله بالمسيح يسوع الذي نطقت به العذراء القديسة مريم النبية، والمسيح لا يزال في بطنها: «شتت المستكبرين بفكر قلوبهم، أنزل الأعزاء عن الكراسي، ورفع المتضعين، أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين» (لو١:٥١-٥٣)

هذه النبوة التي تحققت ولا تزال تتحقق، وسيتم كمال تحقيقها، تقوم على أساس رفض الله المطلق للمتكبرين بأفكار قلوبهم، والمعتزين بوظائفهم ومناصبهم، والمعتمدين على قوتهم وغناهم، في مقابل المتضعين والمساكين والمعتازين؛ لأن: «المستعلي عند الناس، هو رجس قدام الله.» (لو١٦:١٥)

ولكن المصيبة الكبرى والطامة العظمى ليست في مجرد الكبرياء بالأفكار الذاتية، ولا في التعظم بالوظائف والمناصب، ولا في الاعتماد على القوة والمال والعزوة، ولكن أم المصائب كلها هى في عدم الانتباه وفقدان الشعور بأن هذه أمور باطلة ومكروهة، وأنها ضد الله، وسبب خراب الإنسان، التي شرحها الرب للفريسيين المتمسكين بها دون أن يدروا: «لو كنتم عميانا لما كانت لكم خطية، ولكن الآن تقولون أننا نبصر فخطيتكم باقية»، والذي سيأتي تفسيره.

ولكن لا انتصح الفريسيون في زمانهم ولا انتصح الفريسيون في كل زمان. فالفريسية المتعجرفة، بغناها الكاذب، لا تزال تملأ أرجاء العالم، والتي أرهقت روح الرب أكثر مما أرهقته الفريسية الاولى؛ أي الذين تحصنوا واستغنوا بالمال والعلم والتقوى الكاذبة، وجلسوا على كرسي المسيح و«يقولون ولا يفعلون» (مت٢٣:٣). هؤلاء رآهم القديس يوحنا الإنجيلي في رؤياه والمسيح يكاد يتقيأهم ويخاطبهم: «أنا مزمع أن أتقياك من فمي، لأنك تقول إني أنا غني، وقد استغنيت، ولا حاجة لي إلى شيء، ولست تعلم أنك أنت الشقي والبائس وفقير وأعمى وعريان.» (رؤ٣:١٦-١٧)
وبهذا تتزكى عدم المعرفة في مقابل المعرفة التي بلا عمل. والكلام في ذلك كثير، والنصيحة لم تنقطع من فم الرب لمثل هؤلاء لو استطاعوا أن يستغنوا عن غناهم وهيهات: «أشير عليك أن تشتري مني ذهبا مصفى بالنار(الإيمان الممحص بالتجربة) لكي تستغني (بالحق)، وثيابا بيضاء (مبيضة بآلام ودم الشهادة) لكي تلبس، فلا يظهر خزي عريتك (نجاستك)، وكحل عينيك بكحل (القداسة التي بدونها لا يعاين أحد الله) لكي تبصر (النور).» (رؤ٣:١٨)
«فسمع هذا الذين كانوا معه من الفريسيين وقالوا له. ألعلنا نحن أيضا عميان. قال لهم يسوع: لو كنتم عميانا لما كانت لكم خطية. ولكن الآن تقولون إننا نبصر فخطيتكم باقية»: سؤال الفريسيين خارج من نفوس متكبرة بفكر قلوبها باعتبارهم: «قادة للعميان ونور للزين في الظلمة» (راجع رو٢:١٩). ورد المسيح مرعب، فهو نطق الدينونة التي ينطق بها النور الحقيقي.
ولكي ندرك عمق المعنى المدفون في هذه الآية، علينا أن نتصور أن الظلمة وقفت تتكلم أمام الشمس. فقالت الظلمة: أنا هو النور، فماذا تقول الشمس؟ تقول: مبارك عليك نورك أيتها الظلمة، وتصمم الشمس أن لا تشرق عليها. ولكن إن قالت الظلمة: أنا ظلمة أغيثيني أيتها الشمس، فإن الشمس تقول: مرحبا هذا نوري وهذا إشراقي.
هذا الحوار يصوره إشعياء النبي بهذه الآية: «قومي استنيري، لأنه قد جاء نورك، ومجد الرب أشرق عليك. لأنه ها هي الظلمة تغطي الارض والظلام الدامس الأمم» (إش٦٠:١-٢). ومعنى الكلام أن الرب يسوع لم يتجسد لتنفيذ إرسالية الخلاص إلا بعد أن صارت الظلمة على كل الأرض، ظلمة المعرفة والسلوك والأخلاق، أي ظلمة الخطية.
وها تأتي آية الرب بكل إحكام: «وهذه هي الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة.« (يو٣:١٩)
فالذي يعمي الناس عن النور هي الأعمال الشريرة، أي الخطية. فإذا تبجح الناس وقالوا نحن نبصر، ونحن نور للذين في الظلمة، مع أن أعمالهم شريرة؛ فهذا معناه أنهم بالحقيقة عميان، وخطيتهم هي التي زيفت عليهم النور كأنه ظلمة، والظلمة كأنها نور! وطالما أصروا على أنهم يبصرون، وهم لا يبصرون، فهذا معناه أن خطيتهم أعمت أعينهم، وهي باقية لهم.

تم في ٢٠١٧/٦/٢٧

الأصحاح العاشر

«اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الَّذِي لاَ يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ إِلَى حَظِيرَةِ الْخِرَافِ بَلْ يَطْلَعُ مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ فَذَاكَ سَارِقٌ وَلِصٌّ. وَأَمَّا الَّذِي يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ فَهُوَ رَاعِي الْخِرَافِ. لِهَذَا يَفْتَحُ الْبَوَّابُ وَالْخِرَافُ تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَيَدْعُو خِرَافَهُ الْخَاصَّةَ بِأَسْمَاءٍ وَيُخْرِجُهَا. وَمَتَى أَخْرَجَ خِرَافَهُ الْخَاصَّةَ يَذْهَبُ أَمَامَهَا وَالْخِرَافُ تَتْبَعُهُ لأَنَّهَا تَعْرِفُ صَوْتَهُ. وَأَمَّا الْغَرِيبُ فَلاَ تَتْبَعُهُ بَلْ تَهْرُبُ مِنْهُ لأَنَّهَا لاَ تَعْرِفُ صَوْتَ الْغُرَبَاءِ». هَذَا الْمَثَلُ قَالَهُ لَهُمْ يَسُوعُ وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا مَا هُوَ الَّذِي كَانَ يُكَلِّمُهُمْ بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا بَابُ الْخِرَافِ. جَمِيعُ الَّذِينَ أَتَوْا قَبْلِي هُمْ سُرَّاقٌ وَلُصُوصٌ وَلَكِنَّ الْخِرَافَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ. أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى. اَلسَّارِقُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ لِيَسْرِقَ وَيَذْبَحَ وَيُهْلِكَ وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لِتَكُونَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ. أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ. وَأَمَّا الَّذِي هُوَ أَجِيرٌ وَلَيْسَ رَاعِياً الَّذِي لَيْسَتِ الْخِرَافُ لَهُ فَيَرَى الذِّئْبَ مُقْبِلاً وَيَتْرُكُ الْخِرَافَ وَيَهْرُبُ فَيَخْطَفُ الذِّئْبُ الْخِرَافَ وَيُبَدِّدُهَا. وَالأَجِيرُ يَهْرُبُ لأَنَّهُ أَجِيرٌ وَلاَ يُبَالِي بِالْخِرَافِ. أَمَّا أَنَا فَإِنِّي الرَّاعِي الصَّالِحُ وَأَعْرِفُ خَاصَّتِي وَخَاصَّتِي تَعْرِفُنِي. كَمَا أَنَّ الآب يَعْرِفُنِي وَأَنَا أَعْرِفُ الآب. وَأَنَا أَضَعُ نَفْسِي عَنِ الْخِرَافِ. وَلِي خِرَافٌ أُخَرُ لَيْسَتْ مِنْ هَذِهِ الْحَظِيرَةِ يَنْبَغِي أَنْ آتِيَ بِتِلْكَ أَيْضاً فَتَسْمَعُ صَوْتِي وَتَكُونُ رَعِيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَرَاعٍ وَاحِدٌ. لِهَذَا يُحِبُّنِي الآب لأَنِّي أَضَعُ نَفْسِي لِآخُذَهَا أَيْضاً. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي. لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ آخُذَهَا أَيْضاً. هَذِهِ الْوَصِيَّةُ قَبِلْتُهَا مِنْ أَبِي». فَحَدَثَ أَيْضاً انْشِقَاقٌ بَيْنَ الْيَهُودِ بِسَبَبِ هَذَا الْكَلاَمِ. فَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ: «بِهِ شَيْطَانٌ وَهُوَ يَهْذِي. لِمَاذَا تَسْتَمِعُونَ لَهُ؟». آخَرُونَ قَالُوا: «لَيْسَ هَذَا كَلاَمَ مَنْ بِهِ شَيْطَانٌ. أَلَعَلَّ شَيْطَاناً يَقْدِرُ أَنْ يَفْتَحَ أَعْيُنَ الْعُمْيَانِ؟». وَكَانَ عِيدُ التَّجْدِيدِ فِي أُورُشَلِيمَ وَكَانَ شِتَاءٌ. وَكَانَ يَسُوعُ يَتَمَشَّى فِي الْهَيْكَلِ فِي رِوَاقِ سُلَيْمَانَ. فَاحْتَاطَ بِهِ الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: «إِلَى مَتَى تُعَلِّقُ أَنْفُسَنَا؟ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ فَقُلْ لَنَا جَهْراً». أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ. اَلأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا بِاسْمِ أَبِي هِيَ تَشْهَدُ لِي. وَلَكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي كَمَا قُلْتُ لَكُمْ. خِرَافِي تَسْمَعُ صَوْتِي وَأَنَا أَعْرِفُهَا فَتَتْبَعُنِي. وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الأَبَدِ وَلاَ يَخْطَفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي. أَبِي الَّذِي أَعْطَانِي إِيَّاهَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْكُلِّ وَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِي. أَنَا وَالآب وَاحِدٌ». فَتَنَاوَلَ الْيَهُودُ أَيْضاً حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. فَقَالَ يَسُوعُ: «أَعْمَالاً كَثِيرَةً حَسَنَةً أَرَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَبِي - بِسَبَبِ أَيِّ عَمَلٍ مِنْهَا تَرْجُمُونَنِي؟». أَجَابَهُ الْيَهُودُ: «لَسْنَا نَرْجُمُكَ لأَجْلِ عَمَلٍ حَسَنٍ بَلْ لأَجْلِ تَجْدِيفٍ فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلَهاً». أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَلَيْسَ مَكْتُوباً فِي نَامُوسِكُمْ: أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؟. إِنْ قَالَ آلِهَةٌ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ صَارَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يُنْقَضَ الْمَكْتُوبُ. فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآب وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ لأَنِّي قُلْتُ إِنِّي ابْنُ اللَّهِ؟ إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَعْمَلُ أَعْمَالَ أَبِي فَلاَ تُؤْمِنُوا بِي. وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُ أَعْمَلُ فَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِي فَآمِنُوا بِالأَعْمَالِ لِكَيْ تَعْرِفُوا وَتُؤْمِنُوا أَنَّ الآب فِيَّ وَأَنَا فِيهِ». فَطَلَبُوا أَيْضاً أَنْ يُمْسِكُوهُ فَخَرَجَ مِنْ أَيْدِيهِمْ. وَمَضَى أَيْضاً إِلَى عَبْرِ الأُرْدُنِّ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يُوحَنَّا يُعَمِّدُ فِيهِ أَوَّلاً وَمَكَثَ هُنَاكَ. فَأَتَى إِلَيْهِ كَثِيرُونَ وَقَالُوا: «إِنَّ يُوحَنَّا لَمْ يَفْعَلْ آيَةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ كُلُّ مَا قَالَهُ يُوحَنَّا عَنْ هَذَا كَانَ حَقّاً». فَآمَنَ كَثِيرُونَ بِهِ هُنَاكَ.

أولا: استعلان عمل المسيح الفدائى من نحونا

«الراعى الصالح»

(١٠: ١-١٦)

نحن لا زلنا في موسم عيد التجديد. والحديث هنا هو امتداد للأصحاح التاسع، وهو يختص بالعلاقة التي تربط

المسيح بخاصته الذين يؤمنون به. وهذا على أساس أن الأعمى الذى أبصر وشهد للمسيح، وصار من المؤمنين، أخرجوه خارج الجماعة، أي خارج حظيرة إسرائيل، وذلك باعتبار أنهم هم حراس الحظيرة ورعاة الخراف.

أ ــ «أنا هو باب الخراف»: (١٠:١-١٠).

١٠:١-٦ «اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ الَّذِي لاَ يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ إِلَى حَظِيرَةِ الْخِرَافِ بَلْ يَطْلَعُ مِنْ مَوْضِعٍ آخَرَ فَذَاكَ سَارِقٌ وَلِصٌّ. وَأَمَّا الَّذِي يَدْخُلُ مِنَ الْبَابِ فَهُوَ رَاعِي الْخِرَافِ. لِهَذَا يَفْتَحُ الْبَوَّابُ وَالْخِرَافُ تَسْمَعُ صَوْتَهُ فَيَدْعُو خِرَافَهُ الْخَاصَّةَ بِأَسْمَاءٍ وَيُخْرِجُهَا. وَمَتَى أَخْرَجَ خِرَافَهُ الْخَاصَّةَ يَذْهَبُ أَمَامَهَا وَالْخِرَافُ تَتْبَعُهُ لأَنَّهَا تَعْرِفُ صَوْتَهُ. وَأَمَّا الْغَرِيبُ فَلاَ تَتْبَعُهُ بَلْ تَهْرُبُ مِنْهُ لأَنَّهَا لاَ تَعْرِفُ صَوْتَ الْغُرَبَاءِ». هَذَا الْمَثَلُ قَالَهُ لَهُمْ يَسُوعُ وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا مَا هُوَ الَّذِي كَانَ يُكَلِّمُهُمْ بِهِ.

كان طرد الأعمى، الذي أعطاه المسيح موهبة النظر، بإجراء حكم الطرد ضده وحرمانه من حقوق شعب إسرائيل، وإخراجه خارج حظيرة إسرائيل دون أي سبب قانوني، من أخطر الأعمال المضادة لله التي عملها الفريسيون بصفتهم رعاة الشعب وحراس إسرائيل. وللحال رفع المسيح هذا الإجراء الشاذ الذي ينافي الحق والعدل والرحمة إلى التطبيق العملي، الذي سبق أن تنبأ به الأنبياء إرميا وحزقيال وزكريا، والذي يلزم أن نوضحه للقارىء ليدرك أبعاد المعاني التي يرمي اليها المسيح:

إرميا النبي (٢٣:١-٤): «ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيتي، يقول الرب. لذلك هكذا قال الرب إله إسرائيل عن الرعاة الذين يرعون شعبي: أنتم بددتم غنمي وطردتموها ولم تتعهدوها، هأنذا اعاقبكم على شر أعمالكم يقول الرب ... واقيم عليها رعاة يرعونها، فلا تخاف بعد، ولا ترتعد ولا تُفقد، يقول الرب».

إرميا النبي (٢٣:١-٤): «ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيتي، يقول الرب. لذلك هكذا قال الرب إله إسرائيل عن الرعاة الذين يرعون شعبي: أنتم بددتم غنمي وطردتموها ولم تتعهدوها، هأنذا اعاقبكم على شر أعمالكم يقول الرب ... واقيم عليها رعاة يرعونها، فلا تخاف بعد، ولا ترتعد ولا تُفقد، يقول الرب».

حزقيال النبي (أصحاح ٣٤): وَكَانَ إِلَيَّ كَلاَمُ الرَّبِّ: يَا ابْنَ آدَمَ (ابن الإنسان) تَنَبَّأْ عَلَى رُعَاةِ إِسْرَائِيلَ، وَقُلْ لَهُمْ هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لِلرُّعَاةِ: وَيْلٌ لِرُعَاةِ إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كَانُوا يَرْعُونَ أَنْفُسَهُمْ. أَلاَ يَرْعَى الرُّعَاةُ الْغَنَمَ؟ تَأْكُلُونَ الشَّحْمَ وَتَلْبِسُونَ الصُّوفَ وَتَذْبَحُونَ السَّمِينَ وَلاَ تَرْعُونَ الْغَنَمَ. الْمَرِيضُ لَمْ تُقَوُّوهُ، وَالْمَجْرُوحُ لَمْ تَعْصِبُوهُ، وَالْمَكْسُورُ لَمْ تَجْبُرُوهُ، وَالْمَطْرُودُ لَمْ تَسْتَرِدُّوهُ، وَالضَّالُّ لَمْ تَطْلُبُوهُ، بَلْ بِشِدَّةٍ وَبِعُنْفٍ تَسَلَّطْتُمْ عَلَيْهِمْ. فَتَشَتَّتَتْ بِلاَ رَاعٍ وَصَارَتْ مَأْكَلاً لِجَمِيعِ وُحُوشِ الْحَقْلِ، وَتَشَتَّتَتْ. ضَلَّتْ غَنَمِي فِي كُلِّ الْجِبَالِ وَعَلَى كُلِّ تَلٍّ عَالٍ وَعَلَى كُلِّ وَجْهِ الأرض. تَشَتَّتَتْ غَنَمِي وَلَمْ يَكُنْ مَنْ يَسْأَلُ أَوْ يُفَتِّشُ. فَلِذَلِكَ أَيُّهَا الرُّعَاةُ اسْمَعُوا كَلاَمَ الرَّبِّ: حَيٌّ أَنَا يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ غَنَمِي صَارَتْ غَنِيمَةً وَمَأْكَلاً لِكُلِّ وَحْشِ الْحَقْلِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ رَاعٍ وَلاَ سَأَلَ رُعَاتِي عَنْ غَنَمِي، وَرَعَى الرُّعَاةُ أَنْفُسَهُمْ وَلَمْ يَرْعُوا غَنَمِي، فَلِذَلِكَ أَيُّهَا الرُّعَاةُ اسْمَعُوا كَلاَمَ الرَّبِّ. هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَئَنَذَا عَلَى الرُّعَاةِ وَأَطْلُبُ غَنَمِي مِنْ يَدِهِمْ، وَأَكُفُّهُمْ عَنْ رَعْيِ الْغَنَمِ، وَلاَ يَرْعَى الرُّعَاةُ أَنْفُسَهُمْ بَعْدُ، فَأُخَلِّصُ غَنَمِي مِنْ أَفْوَاهِهِمْ فَلاَ تَكُونُ لَهُمْ مَأْكَلاً. لأَنَّهُ هَكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هَئَنَذَا أَسْأَلُ عَنْ غَنَمِي وَأَفْتَقِدُهَا. كَمَا يَفْتَقِدُ الرَّاعِي قَطِيعَهُ يَوْمَ يَكُونُ فِي وَسَطِ غَنَمِهِ الْمُشَتَّتَةِ، هَكَذَا أَفْتَقِدُ غَنَمِي وَأُخَلِّصُهَا مِنْ جَمِيعِ الأَمَاكِنِ الَّتِي تَشَتَّتَتْ إِلَيْهَا فِي يَوْمِ الْغَيْمِ وَالضَّبَابِ. وَأُخْرِجُهَا مِنَ الشُّعُوبِ وَأَجْمَعُهَا مِنَ الأَرَاضِي، وَآتِي بِهَا إِلَى أَرْضِهَا وَأَرْعَاهَا عَلَى جِبَالِ إِسْرَائِيلَ وَفِي الأَوْدِيَةِ وَفِي جَمِيعِ مَسَاكِنِ الأرض. أَرْعَاهَا فِي

مَرْعًى جَيِّدٍ، وَيَكُونُ مَرَاحُهَا عَلَى جِبَالِ إِسْرَائِيلَ الْعَالِيَةِ. هُنَالِكَ تَرْبِضُ فِي مَرَاحٍ حَسَنٍ، وَفِي مَرْعًى دَسِمٍ يَرْعَوْنَ عَلَى جِبَالِ إِسْرَائِيلَ. أَنَا أَرْعَى غَنَمِي وَأُرْبِضُهَا يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. وَأَطْلُبُ الضَّالَّ، وَأَسْتَرِدُّ الْمَطْرُودَ، وَأَجْبِرُ الْكَسِيرَ، وَأَعْصِبُ الْجَرِيحَ، وَأُبِيدُ السَّمِينَ وَالْقَوِيَّ، وَأَرْعَاهَا بِعَدْلٍ. وَأَنْتُمْ يَا غَنَمِي فَهكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ: هأَنَذَا أَحْكُمُ بَيْنَ شَاةٍ وَشَاةٍ. بَيْنَ كِبَاشٍ وَتُيُوسٍ. أَهُوَ صَغِيرٌ عِنْدَكُمْ أَنْ تَرْعَوْا الْمَرْعَى الْجَيِّدَ وَبَقِيَّةُ مَرَاعِيكُمْ تَدُوسُونَهَا بِأَرْجُلِكُمْ، وَأَنْ تَشْرَبُوا مِنَ الْمِيَاهِ الْعَمِيقَةِ، وَالْبَقِيَّةُ تُكَدِّرُونَهَا بِأَقْدَامِكُمْ؟ وَغَنَمِي تَرْعَى مِنْ دَوْسِ أَقْدَامِكُمْ، وَتَشْرَبُ مِنْ كَدَرِ أَرْجُلِكُمْ!. لِذلِكَ هكَذَا قَالَ السَّيِّدُ الرَّبُّ لَهُمْ: هأَنَذَا أَحْكُمُ بَيْنَ الشَّاةِ السَّمِينَةِ وَالشَّاةِ الْمَهْزُولَةِ. لأَنَّكُمْ بَهَزْتُمْ بِالْجَنْبِ وَالْكَتِفِ، وَنَطَحْتُمُ الْمَرِيضَةَ بِقُرُونِكُمْ حَتَّى شَتَّتْتُمُوهَا إِلَى خَارِجٍ. فَأُخَلِّصُ غَنَمِي فَلاَ تَكُونُ مِنْ بَعْدُ غَنِيمَةً، وَأَحْكُمُ بَيْنَ شَاةٍ وَشَاةٍ. وَأُقِيمُ عَلَيْهَا رَاعِياً وَاحِداً فَيَرْعَاهَا عَبْدِي دَاوُدُ (المسيا). هُوَ يَرْعَاهَا وَهُوَ يَكُونُ لَهَا رَاعِياً. وَأَنَا الرَّبُّ أَكُونُ لَهُمْ إِلهاً، وَعَبْدِي دَاوُدُ رَئِيساً فِي وَسَطِهِمْ. أَنَا الرَّبُّ تَكَلَّمْتُ. وَأَقْطَعُ مَعَهُمْ عَهْدَ سَلاَمٍ، وَأَنْزِعُ الْوُحُوشَ الرَّدِيئَةَ مِنَ الأرض، فَيَسْكُنُونَ فِي الْبَرِّيَّةِ مُطْمَئِنِّينَ وَيَنَامُونَ فِي الْوُعُورِ. وَأَجْعَلُهُمْ وَمَا حَوْلَ أَكَمَتِي بَرَكَةً، وَأُنْزِلُ عَلَيْهِمِ الْمَطَرَ فِي وَقْتِهِ فَتَكُونُ أَمْطَارَ بَرَكَةٍ. وَتُعْطِي شَجَرَةُ الْحَقْلِ ثَمَرَتَهَا، وَتُعْطِي الأرض غَلَّتَهَا، وَيَكُونُونَ آمِنِينَ فِي أَرْضِهِمْ، وَيَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ عِنْدَ تَكْسِيرِي رُبُطَ نِيرِهِمْ، وَإِذَا أَنْقَذْتُهُمْ مِنْ يَدِ الَّذِينَ اسْتَعْبَدُوهُمْ. فَلاَ يَكُونُونَ بَعْدُ غَنِيمَةً لِلأُمَمِ، وَلاَ يَأْكُلُهُمْ وَحْشُ الأرض. بَلْ يَسْكُنُونَ آمِنِينَ وَلاَ مُخِيفٌ. وَأُقِيمُ لَهُمْ غَرْساً لِصِيتٍ فَلاَ يَكُونُونَ بَعْدُ مَفْنِيِّي الْجُوعِ فِي الأرض، وَلاَ يَحْمِلُونَ بَعْدُ تَعْيِيرَ الأُمَمِ. فَيَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا الرَّبُّ إِلهُهُمْ مَعَهُمْ، وَهُمْ شَعْبِي بَيْتُ إِسْرَائِيلَ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. وَأَنْتُمْ يَا غَنَمِي، غَنَمُ مَرْعَايَ، أُنَاسٌ أَنْتُمْ. أَنَا إِلهُكُمْ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ

زكريا النبى (أصحاح ١١): هكَذَا قَالَ الرَّبُّ إِلهِي: ارْعَ غَنَمَ الذَّبْحِ. الَّذِينَ يَذْبَحُهُمْ مَالِكُوهُمْ وَلاَ يَأْثَمُونَ وَبَائِعُوهُمْ يَقُولُونَ: مُبَارَكٌ الرَّبُّ! قَدِ اسْتَغْنَيْتُ. وَرُعَاتُهُمْ لاَ يُشْفِقُونَ عَلَيْهِمْ......

فَرَعَيْتُ غَنَمَ الذَّبْحِ. (وَهُمْ) أَذَلُّ الْغَنَمِ....... وَأَبَدْتُ الرُّعَاةَ الثَّلاَثَةَ (الكتبة والفريسيين ورؤساء الكهنة) فِي شَهْرٍ وَاحِدٍ (الزمن من بعد صلب المسيح حتى حرب السبعين التى أُحرق فيها الهيكل وخربت أورشليم وبطُلت العبادة). وَضَاقَتْ نَفْسِي بِهِمْ وَكَرِهَتْنِي أَيْضاً نَفْسُهُمْ....... فَقُلْتُ لَهُمْ: إِنْ حَسُنَ فِي أَعْيُنِكُمْ فَأَعْطُونِي أُجْرَتِي وَإِلاَّ فَامْتَنِعُوا. فَوَزَنُوا أُجْرَتِي ثَلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ. فَقَالَ لِي الرَّبُّ: أَلْقِهَا إِلَى الْفَخَّارِيِّ الثَّمَنَ الْكَرِيمَ الَّذِي ثَمَّنُونِي بِهِ. فَأَخَذْتُ الثَّلاَثِينَ مِنَ الْفِضَّةِ وَأَلْقَيْتُهَا إِلَى الْفَخَّارِيِّ فِي بَيْتِ الرَّبِّ.»

ولكى أسهل على القارىء التقاط الآيات الهامة بالنسبة للمسيح اخترت للقارىء هذه الآيات:

يا ابن الإنسان تنبأ على رعاة إسرائيل

الضال لم تطلبوه، والمطرود لم تستردوه، بل بشدة وعنف تسلتطم عليهم.... تذبحون السمين ولا ترعون الغنم!

هأنذا على الرعاة، أكفهم عن رعى الغنم

أنا أرعى غنمى واربضها، يقول السيد الرب، أسأل عن غنمى وافتقدها وأخلصها .... كراع وسط غنمه أرعاها فى مرعى جيد، فى مراح حسن، وفى مرعى دسم.

أقيم عليها راعيا واحداً، عبدى داود، هو يرعاها، وهو يكون لها راعياً

فرعيت غنم الذبح، وهم أذل الغنم، وأبدت الرعاة.

وضاقت نفسى بهم، وكرهتنى أيضاً نفسهم.

فوزنى أجرتى ثلاثين من الفضة، الثمن الكريم الذى ثمنونى به.

وبالعودة إلى ما قاله الرب يسوع، نجد أنه القى «المثل» على المستوى العام (من عدد ١-٥)، ولم يطبقه على نفسه بشيء بل ألقى الكلام كمثل، وذلك ليمهد أمام أذهان الفريسيين حقيقة استعلان جديد عن نفسه، وذلك بالنسبة لهم على أساس رعاية الشعب بمستوى رعاية الخراف، وباعتبار إسرائيل حظيرة واحدة، مستندا ذلك من النبوات السابقة لعلهم يتذكرون، وذلك على أساس المعاني الأتية بالترتيب:

١- الحظيرة ...

٢- باب الحظيرة، بالنسبة للراعي نفسه وليس الخراف.

٣- راعي الخراف، كصاحب يدخل من الباب، وليس كسارق ولص يطلع من موضع آخر.

٤- البواب، يفتح ويغلق.

٥- الخراف، تسمع صوت الراعي وتتبعه.

٦- الغريب، تهرب منه الخراف ولا تتبعه.

ولأن المعاني تأتي في المثل مكثفة وذات أهداف بعيدة، فلم يفهمه الفريسيون. وعلينا هنا أن نشرحه على مستواه العام.

١- **فالحظيرة**، هي إسرائيل القديمة كأمة بيت إسرائيل، يقابلها الكنيسة وأهل بيت الله ورعية القديسين.

٢- **والباب**، أي باب الحظيرة، هو في الحقيقة باب بيت الله. وباب بيت الله هو تعبير يعقوب إسرائيل نفسه: «ورأى حلماً، وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء، وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها، وهوذا الرب واقف عليها، فقال: أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق ... فاستيقظ يعقوب من نومه وقال: حقاً إن الرب في هذا المكان وأنا لم أعلم. وخاف وقال: ما أرهب هذا المكان، ما هذا إلا بيت الله، وهذا باب السماء» (تك٢٨:١٢-١٧)؛ حيث المعنى الإلهي لكلمة «الباب» هي الحضرة المنظورة والمسموعة لله. وقد عاد المسيح يؤكد هذا التعبير بقوله لنثنائيل: «الحق الحق أقول لكم من الأن ترون السماء مفتوحة، وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو١:٥١). فالمسيح هنا هو الحضرة المنظورة لله على هيئة السلم، أو (الطريق) الموصل إلى السماء، والباب المفتوح في السماء الموصل للآب. وهذا الباب المفتوح في السماء رآه القديس يوحنا في رؤياه: «بعد هذا نظرت، واذا باب مفتوح في السماء.» (رؤ٤:١)

٣- **راعي الخراف**، الذي ليس هو سارقاً ولا لصاً، يُعرف من كونه يدخل إلى الحظيرة من الباب، أي من التعليم الصحيح عن الآب الذي لا يعلمه أحد إلا المسيح، فهو الباب السماوي والوحيد الذي يوصل إلى الله، وأي تعليم آخر عن الآب هو مسروق ولا يوصل إلى الله مهما كان.

ونلاحظ أن جميع الأنبياء أشاروا إلى المسيح (الباب)، وبهذا كانت تعاليمهم صحيحة عن الله فكانوا رعاة صادقين، وأكثرهم صحة وقوة في نبوته هو يوحنا المعمدان، لأنه رآه وأشار اليه، وشهد له، واعترف بأنه لم يأت إلا ليعلن المسيح لإسرائيل كشاهد عيان سماوي. وهو الوحيد الذي رآه كما هو «ابن الله»، لذلك قال المسيح عنه إنه «أفضل من نبي.» (لو٧:٢٦)

٤- البواب، هو مسيا، الذي سيسلمه الله مفتاح بيت داود: «وأجعل مفتاح بيت داود على كتفه، فيفتح وليس من يغلق، ويغلق وليس من يفتح» (إش٢٢:٢٢). فالمسيح الباب، هو الإيمان بابن الله، المدخل الوحيد إلى الآب. والمسيح البواب، هو المسيح الديان، الذي يمنح ويمنع، يفتح ويغلق، وذلك بمقتضى الإيمان والتعليم الصحيح.

٥- الخراف، بحسب نبوة حزقيال هم أناس الله: «وأنتم يا غنمي، غنم مرعاي، أناس أنتم»، أي أخصاء الله. والراعي الذي يدخل إلى الحظيرة من الباب، يدعو خرافه الخاصة بأسماء، وهي تسمع صوته، ويخرجها، ويسير أمامها، وهي تتبعه.

هذا التعبير الرقيق العاطفي، هو لتوضيح الفرق بين العلاقة بين رعاة إسرائيل الذين تحدث حزقيال بشدة وعنف عن تسلطهم عليهم، وبين العلاقة الفردية الخاصة المطلوبة بين الراعي الحقيقي والرعية المحبوبة والتي عبر عنها المسيح هكذا: «ها أنا أعطيكم سلطانا لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو ولا يضركم شيء. ولكن لا تفرحوا بهذا أن الأرواح تخضع لكم، بل افرحوا بالحري أن أسماءكم كُتبت في السموات.» (لو١٠:١٩-٢٠)

أما كونه يدعوها ويخرجها، فهذه هي الدعوة العظمى للانطلاق إلى ملكوته. وأما كونه يسير أمامها وهي تتبعه، فهذا عكس الرعاية الطبيعية تماما، لأن الراعي في البرية يسير خلف الغنم. ولكن هنا المسيح، كراعي الرعاة الأعظم، سار أمامنا وافتتح الطريق إلى السماء، ودخل «كسابق» من أجلنا، فوجد لنا فداء أبدياً. (راجع عب٦:٢٠؛ ٩:١٢)

٦- الراعي الغريب، وهو الراعي الذي لم يدخل من الباب، وهو غير السارق واللص، ولكنه هو الذي لم يرسله الله:

«ليس عليه حلة العرس» (راجع مت٢٢:١١)، أي ليس له التعليم الصحيح، الذي يوصل الخراف إلى صاحبها.

التطبيق: لم لم يفهم الفريسيون المثل الذي قاله، فبدأ يطبق المثل على نفسه هكذا:

١٠:٧-١٠ فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ أَيْضاً: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي أَنَا بَابُ الْخِرَافِ. جَمِيعُ الَّذِينَ أَتَوْا قَبْلِي هُمْ سُرَّاقٌ وَلُصُوصٌ وَلَكِنَّ الْخِرَافَ لَمْ تَسْمَعْ لَهُمْ. أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى. اَلسَّارِقُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ لِيَسْرِقَ وَيَذْبَحَ وَيُهْلِكَ وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لِتَكُونَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ.

بعد أن رسم الرب الشرط الأساسي للراعي الحقيقي ومؤهلاته، ثم نوعية عمله، وذلك بناء على رسم الوحي على فم الأنبياء، بدأ يطبق ذلك على نفسه، حتى يستعلن لهم وللعالم أنه جاء، كما هو مكتوب عنه، ليكمل عمل الله ويتمم مقاصده.

«أنا باب الخراف»: لا يقول هنا «باب الحظيرة»، بل «باب الخراف» بصورتها المفردة. لقد انتقل الرب من كنيسة أمة إلى كنيسة أفراد؛ من عهده مع شعب إلى عهده مع النفس، لأن ليس المطلوب بعد قائدا كموسى، أو قائدا كيشوع، ليفدي أمة من عبودية الأمم، أو ليملك أسباطا ميراث الأرا ضي، بل قائدا يفدي النفس من عبودية الخطية ويقربها إلى الآب ليملكها ميراث السماء.

«الباب» هنا ليس لحفظ أنظمة وحدود وتدابير ووصايا تختص بهيئة الشعب العامة أو بشكل الحكومة أو بقوانين ترابط الأفراد، بل الباب هو الإيمان بابن الله. هذا هو باب الحياة لتدخل به ومنه النفس البشرية، لتجد حياة «سماوية» مع الآب، وهذا هو المرعى الدسم الحقيقي.

فالمسيح أعلن نفسه أنه ابن الله، هذا هو الباب الحقيقي المرسل إلى السماء: «الحق الحق أقول لكم، من الآن ترون السماء مفتوحة وملائكة الله يصعدون وينزلون على ابن الإنسان» (يو١:٥١)، السماء المفتوحة يعني «الباب».

وبهذه المعاني، يتبين أنه يستحيل أن يكون للآب أو للسماء إلا هذا الباب الوحيد، كما رآه الحارس القديم الذي يمنع من الدخول إل السماء: «الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة» (تك٣:٢٤)، حتى لا «يمد (الإنسان) يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً، ويأكل، ويحيا إلى الآباء» (تك٣:٢٢)؛ وحل محله باب مفتوح في السماء مسنود عليه رأس سلم موصل بين الأرض والسماء، سلم أمان عليه ألوف وربوات الملائكة يحرسون ويخدمون الداخلين في باب السماء ليجدوا المرعى الدسم والحياة الأفضل. وواضح أن المسيح هو هو الباب السماوي المفتوح، وهو هو السلم المرتكز على الأرض ورأسه في السماء: «لأنه هكذا يقدم لكم بسعة دخول إلى ملكوت ربنا ومخلصنا يسوع المسيح الأبدي.» (٢بط١:١١)

«جميع الذين أتوا قبلي هم سراق ولصوص ولكن الخراف لم تسمع لهم»: الحق كل الحق للمسيح أن يقول هذا، والكلام هنا منصب أولاً على كل الذين جاء وادعواة أنهم قادرون بتعلمهم على تخليص إسرائيل ومُصالحته مع الله، معتمدين على حساب نبوات الأنبياء فيما يختص برجاء إسرائيل كأمة. لهذا، فقد اتخذوا اسم ومؤهلات المسيا اختطافاً وزيفوا عمله. فبدل أن يكونوا طريقاً وباباً للحياة، بتعليمهم الصحيح عن الله والحياة الأبدية، صاروا طريقاً لسفك الدماء بالثورات والحروب، وبابا للهلاك والموت. وبذلك حُسبوا في نظر المسيح: أنهم سرقوا الاسم وتلصصوا على النبوات والتعليم.

وثانياً، كذلك فإن أولئك الفريسيين الذي تجاهلوا هذا الباب السماوي الوحيد المفتوح، والموصل إلى الله والسماء، والمستعلن بالآيات والمعجزات والأعمال والتعليم الصحيح، وادعوا أنهم هم وتعاليمهم وتقاليدهم ومدارسهم الطريق الوحيد والباب الوحيد لمعرفة الله والخلاص، اعتبرهم المسيح سراق اسم وطريق، ولصوص نبوات وعهود ومواعيد: «والخراف لم تسمع لهم».

كان الشعب قد تزيفت عليه التعاليم الصحيحة، وتزيف عليه الطريق والحق والحياة: «كان شعبي خرافا ضالة قد أضلتهم رعاتهم. على الجبال أتاهوهم، ساروا من جبل إل أكمة، نسوا مربضهم» (إر٥٠:٦). وبالرغم من ذلك، وحينما بدأ الرب يسوع يعلم ويتكلم، انتبه الشعب في الحال، وأدركوا أن كلام الكتبة والفريسيين كلام ميت ومزيف: «فبهتوا من تعليمه لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة» (مر١:٢٢). بل شهد له من أعدائه أمام السنهدريم، بأنه لم يتكلم إنسان قط مثله: «أجاب الخدام لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان.» (يو٧:٤٦)

والخراف قسمها الإنجيل إلى «خراف خاصة» و «خراف ضالة».
فالخراف الخاصة هي التي لها أذن للسمع، فتسمع لراعيها، لأنه يتكلم بكلام الله. ولا تسمع لصوت الغرباء عن الله أو السراق واللصوص، الذين سرقوا وظيفة الراعي والمعلم، وهم ليسوا رعاة ولا معلمين، وتلصتصوا على أقوال الأنبياء والقديسين، وهم غرباء عنهم وعن روحهم ومنهجهم: «ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون، لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ولعلة تطيلون صلواتكم ، لذلك تأخذون دينونة أعظم.» (مت٢٣:١٤)
وقد شهد المعمدان للفرق بين صوت المسيح وكلامه، وبين صوت الآخرين وكلامهم: «الذي يأتي من فوق، هو فوق الجميع؛ والذي من الأرض، هو أرضي، ومن الأرض يتكلم. الذي يأتي من السماء هو فوق الجميع؛ وما رآه وسمعه، به يشهد وشهادته ليس أحد يقبلها. ومىٔ قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق. لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله.» (يو٣:٣١-٣٤)
وهذا يؤكده القديس يوحنا في رسالته الأولى: «هم من العالم، من أجل ذلك يتكلمون من العالم والعالم يسمع لهم: نحن من الله، فمن يعرف الله يسمع لنا؛ ومن ليس من الله لا يسمع لنا. من هذا نعرف روح الحق وروح الضلال.» (ايو٤:٥-٦)

١٠:٩-١٠ أَنَا هُوَ الْبَابُ. إِنْ دَخَلَ بِي أَحَدٌ فَيَخْلُصُ وَيَدْخُلُ وَيَخْرُجُ وَيَجِدُ مَرْعًى. اَلسَّارِقُ لاَ يَأْتِي إِلاَّ لِيَسْرِقَ وَيَذْبَحَ وَيُهْلِكَ وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لِتَكُونَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ.

هنا يقول الرب: «أنا هو الباب» بمضمونه العام، أي بالنسبة للرعاة والخراف، بدل «أنا هو باب الخراف» بمضمونه المنسوب للخراف فقط. لأنه سبق وقال إن: «الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف». فالباب هنا يجمع بين الإيمان بابن الله، حيث يكون هو المدخل الوحيد للخراف، وبين التعليم الصحيح الذي يدخل منه الرعاة. لذلك يقول: «إن دخل بي أحد»، و«أحد» تعني كل واحد، حيث الكل يعوزه الخلاص، والدخول لازم للجميع ليكون مع رعية القديسين وأهل بيت الله: «هذا الباب للرب والصديقون يدخلون فيه» (مز١١٨:٢٠). وفي مثل العذارى العشر: «يشبه ملكوت السموات عشر عذارى» (مت٢٥:١)، واضح أن الباب الذي أُغلق بعد أن دخل منه الخمس العذارى الحكيمات المستضيئات بزيتهن خلف العريس، هو باب الخلاص الذي لا يعني إلا المخلص نفسه. فغلق الباب في ملكوت السموات يعني انتهاء عمل الخلاص؛ أما الخروج فهو الدعوة العظمى، سواء للرعاة أو الخراف، للانطلاق إلى المراعي الحقة السماوية التي يربض فيها راعي الرعاة الأعظم خرافة ورعاته من كل الحظائر.
وواضح أنه ليس لنا دخول مع رعية القديين إلى الآب السماوي، إلا بالمسيح: «لأن به لنا كلينا (الأمم واليهود) قدوما في روح واحد إلى الآب. فلستم، إذا، بعد غرباء ونزلا، بل رعية مع القديسين وأهل بيت الله.» (أف٢:١٨-١٩)
كذلك، فبواسطة هذا الباب، أي الإيمان بابن الله، يصير لنا الدخول في غنى الله والإقامة فيها والتنعم بها. كما يربض الراعي غنمه في المرعى الدسم وهو في وسطها: «الذي به أيضا قد صار لنا الدخول بالإيمان إلى هذه النعمة التي نحن فيها مقيمون، ونفتخر على رجاء مجد الله.» (رو٥:٢)
والآن، فالراعي أو المعلم الذي ليس في قدرته أن يربض غنماته في مرعى الإيمان الدسم لتشبع من نعمة الله وتقيم فيها على الدوام، ثم لا يقوى بعد ذلك على أن يحضرها بالروح إلى الآب لتنضم مع القديسين وأهل بيت الله، ماذا يكون؟ وماذا يكون غرضه؟ إلن أن يكون هو السارق لوظيفة ليست له ويمتلك نفوساً لم يُستأمن عليها، ولصا

يخطف ليذبح كل ما يقدر أن يخطفه أو يذبحه، «تأكلون الشحم (مال الثمعب) وتلبسون الصوف (التنعم) وتذبحون السمين (الغنى) ولا ترعون الغنم» (حز٣٤:٣). هنا استغلال الوظيفة، واستغلال النفوس الضعيفة، هو اختطاف وسرقة الله. والويل لمن يقف ضد السارق لوظيفة ليست له، فهو إن لم يقتل الجسد، فيضطهد حتى إلى هلاك النفس. وهو حتى وإن لم يضطهد أحداً، فهو لأنه لا يرعى أحداً بل يرعى نفسه، فتهلك الغنم من عدم المعرفة ومن الجوع إلى كلمة الله.

«السارق لا يأتي إلا ليسرق ويذبح ويُهلك»:

العجيب هنا أن المسيح يصور نفس الصورة التي رآها زكريا النبي منذ مئات السنين: «غنم الذبح الذين يذبحهم مالكوهم ولا يأثمون (لا يشعرون أن هذا إثم)، وبائعوهم يقولون مبارك الرب، قد استغنيت. ورعاتهم لا يشفقون عليهم.» (زك١١:٤-٥)

بل وحتى إذا علم السارق المغتصب، الذي لم يدخل من باب المسيح ، فإنه يعلم تعليماً لا يُشبع ولا يُغني عن جوع، بل ويتلف حاسة القداسة عند سامعيه، ويطمس معالم الروح، ويقود النفس إلى هلاكها. «فدعاهم يسوع وقال لهم: أنتم تعلمون أن الذين يُحسبون رؤساء الأمم يسودونهم، وأن عظماءهم يتسلطون عليهم. فلا يكون هكذا فيكم. بل من أراد أن يصير فيكم عظيماً، يكون لكم خادماً. ومن أراد أن يصير فيكم أولاً، يكون للجميع عبداً. لأن ابن الإنسان أيضاً لم يأت ليُخدم ، بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين.» (مر١٠:٤٢-٤٥)

وأخيراً، نستطيع أذ نلمح بسهولة صورة الشيطان من خلال سرد مثل المسيح عن السارق الذي يرعى وهو ليس راعياً، بل دخل خلسة كلص يتلصص على الخدمة، يهدم ما بناه الامناء ويلوث جماعة المسيح، ويشكك في كل ما تعلمته الرعية، وأخيراً يبذر بذور الفرقة والانقسام، فتقوم جماعة على جماعة، ويشغل الكل في الخصام والاتهام، فتتوقف حركة النمو والبناء؟ وأخيراً تتبدد الجهود وتسود العداوة وتهرب النعمة وتحل النقمة. عن هؤلاء وعن الشيطان الذي يعمل بهم، يقول بولس الرسول: «لأن مثل هؤلاء هم رسل كذبة، فعلة ماكرون، مغيرون شكلهم إلى شبه رسل المسيح. ولا عجب، لأن الشيطان نفسه يغير شكله إلى شبه ملاك نور، فليس عظيماً، إن كان خدامه أيضاً يغيرون شكلهم كخدام للبر.» (٢كو١١:١٣-١٥)

«أما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل»: هنا المسيح يقدم لخرافه حياتين: «لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل»، في مقابل ما يعمله السارقون «ذبح وهلاك». فيعوض «الذبح» يقدم المسيح «حياة»: «النعمة التي نحن فيها مقيمون» (رو٥:٢) = «لتكون لهم حياة». وعوض «الهلاك» يقدم المسيح «الأفضل من الحياة»: «يكون لهم أفضل»، والمقصود هو ملكوت الله.

فهو ينجي من الذبح بأن يعطي الحياة، وينجي من الهلاك بأن يعطي وعد الحياة الأبدية: «لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل»، كما جاءت في اليونانية (   ) بمعنى «يأخذون الحياة ويأخذونها بفيض أو بغزارة» وهي صفة الملكوت. وهذا يفيد أن الحياة التي يعطيها المسيح هي بنفسها تنبع إلى حياة أبدية، فالمسيح لا يعطي حياة جسدية تموت بموت الجسد. والمعنى بالنهاة ، أنه يعطي لها حياة لها شبع السرور، بالروح والنعمة، وهي نفسها تبلغ إلى الملء هناك في الحياة الأبدية.

وهكذا وضع المسيح المقارنة بين الرعاية في صورتها المزيفة وصورتها الأصيلة في أحد وأحرج صورة لها، إذ جعلها مقارنة بين حياة وموت، وبين خلاص وهلاك! وبالنهاية بين راع صالح ولص سارق.

ب_ «أنا هو الراعي الصالح» . (١٠: ١١-١٦).

١٠: ١١-١٣ أَنَا هُوَ الرَّاعِي الصَّالِحُ وَالرَّاعِي الصَّالِحُ يَبْذِلُ نَفْسَهُ عَنِ الْخِرَافِ. وَأَمَّا الَّذِي هُوَ أَجِيرٌ وَلَيْسَ رَاعِياً الَّذِي لَيْسَتِ الْخِرَافُ لَهُ فَيَرَى الذِّئْبَ مُقْبِلاً وَيَتْرُكُ الْخِرَافَ وَيَهْرُبُ فَيَخْطَفُ الذِّئْبُ الْخِرَافَ وَيُبَدِّدُهَا. وَالأَجِيرُ يَهْرُبُ لأَنَّهُ أَجِيرٌ وَلاَ يُبَالِي بِالْخِرَافِ.

نلاحظ في تحليل الآيات السابقة أن الرب يقدم نفسه في الآيات (١-١٠) باعتباره الباب، حيث الباب إما أن يكون هو التعليم الصحيح عن الآب الذي يدخل منه الرعاة المستأمنون على الخراف من قبل راعي الرعاة الأعظم، وإما أن يكون هو الإيمان الذي تدخل به ومنه الخراف وتخرج. وبذلك يكون المثل قد انتهى عند العدد ٦: «هذا المثل قاله لهم يسوع، وأما هم فلم يفهموا ما هو الذي كان يكلمهم به». ثم أكمل المسيح شرح المثل لهم من عدد ٧-١٠.

ثم ابتداء من عدد ١١ يكمل المسيح شرح وتوضيح استعلانه لنفسه، من داخل المثل حيث لا يزال المثل مستمراً، فبالإضافة إلى: «أنا هو الباب» يقول: «أنا هو الراعي الصالح»، حيث يوضح الرب معنى الراعي الصالح ومؤهلاته:

١- الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف (١١-١٣).

٢- الراعي الصالح يعرف خرافة الخاصة وخرافه تعرفه (١٤).

٣- الراعي الصالح يضع نفسه عن الخراف (١٥).

٤- الراعي الصالح لا يلتزم بحظيرة معينة، بل يجمع خرافاً أخرى لتكون له رعية واحدة وليست لحظيرة واحدة (١٦).

١- بذل نفس بنفس لإعطاء حياة: يبدأ الرب استعلانه عن نفسه بأنه الراعي الصالح بقوله: «أنا هو». وهنا تقع (   ) في موضع التعريف أو الا ستعلان، وكأن الرد على سؤال: «ومن أنت بالنسبة للآخرين». فهنا الرب يعرف نفسه على أساس النسبة التي بين الراعي الصالح والأجير، حيث يقصد بالأجير كل طبقة الكهنوت والكتبة والفريسيين.

وكما هو معلوم أن (   ) هو التعريف الخاص جداً باسم الله. وكأن المسيح يقول لهم: «أنا، الحامل لاسم الله، هو الراعي». ويلزمنا هنا أن نوضح أنه قد سئل الرب فعلاً عن من هو بالنسبة لكل من جاءوا ويجيئون باسم المسيا. ولكن تأجل السؤال في هذا الأصحاح حتى عدد ١٤: «فاحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تعلق أنفسنا، إن كنت أنت المسيح فقل لنا جهراً».

فقول المسيح «أنا هو» فيه، بحد ذاته، كشف لا يُستهان به عن من هو بالنسبة لله نفسه. ولكن بسبب ضعف الأذن وعمى البصيرة، اضطر الرب أن يُعرف نفسه بالنسبة للآخرين أيضاً الذين أخذوا وظيفته خلسة، أو بالإيجار(أي بالأجرة)، والمتكلمون معه هم عينة من هؤلاء الأجراء الذين يعتبرون أنفسهم رعاة الشعب: ف «أنا هو الراعي الصالح» تجيء في مقابل: أنتم رعاة مستأجرون.

وكلمة «الصالح» لا تفيد معنى الصلاح، وهي تجيء في اليونانية (   ). فهي لا تفيد صلاح الله كطبيعة. وبحسب أسلوب إنجيل القديس يوحنا كان يلزم أن تجيء «الحقيقى» لتتمشى مع الاستعلانات السابقة كـ «النور» و«الخبز» واللاحقة كـ «الكرمة». ولكن وظيفة الراعي هي وظيفة مؤقتة مستمدة من التشبيه بالبشر، وتجيء داخل مثل، فهي ليس لها وجود دائم في المطلق الإلهي كالخبز الحقيقي والنور الحقيقي، ولكنها صفة لله منسوبة للبشر،

وهي تنتهي (أى الرعاية) بانتهاء الدينونة، لذلك فـ «الحقيقي» لا تتمشى مع الراعي.
كذلك كان من المنتظر أيضا أن تجيء الصفة بالكلمة المعروفة بـ «الصالح»» فيما يخص الله، وهي (   ).
ولكن صلاح الله هو طبيعته المطلقة فيه. أما الرعاية فلأنها صفة منسوبة للبشر، بسبب جهلهم وعوزهم، فهي وظيفة تطلبتها الحاجة، لذلك جاءت كلمة (   ) التي تفيد «الحسن» وهي صفة عمل وليست صفة شخص، كما هي في الآية: «فليضيء نوركم هكذا قدام الناس، لكي يروا أعمالكم الحسنة» (مت٥:١٦). لذلك، فبسبب قصور كلمة «حسن» (صالح) عن أن تفيد صلاح المسيح الشخمي (الداخلي)، وضع لها الرب تكملة لتغطي معنى صلاح العمل، قال : «والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف».
وهنا يلزم أن نعود إلى مستوى «صلاح الرعاة» في تاريخ إسرائيل، لنرى موقع المسيح منهم. فالله سبق أن أقام موسى راعياً: «أصعدهم من البحر مع راعي غنمه» (إش٦٣:١١)، «هديت شعبك كالغنم بيد موسى وهارون» (مز٧٧:٢٠). كما أقام داود أيضاً: «اختار داود عبده، وأخذه من حظائر الغنم، من المرضعات أتى به ليرعى يعقوب، شعبه، واسرائيل، ميراثه.» (مز٧٨:٧٠-٧١)
ولكن هؤلاء الرعاة جميعاً لم يزيدوا عن أنهم كانوا بدورهم خرافاً، كان الله يرعاهم، ويهدي لهم رعيتهم. فداود يعترف بذلك: «الرب راعى فلا يعوزني شيء. في مراع خضر يربضني، إلى مياه الراحة يوردني، يرد نفسي، يهديني إلى سبل البر من أجل اسمه» (مز٢٣:١-٣). ولا يمكن أن ننسى أن داود، كراع، رعى رعية الله حسناً، ولكنه افترس نعجة من قطيعه.
وموسى، الذي ضُربت به الأمثال في القيادة والأمانة، نجده يقف مرة واحدة عن القيادة والمسئولية ويطلب، مستصرخاً، أن يعفيه الرب: «فقال موسى للرب: لماذا أسأت إلى عبدك؟ ولماذا لم أجد نعمة في عينيك حتى أنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب علي. ألعلي حبلت بجميع هذا الشعب؟ أو لعلي ولدته حتى تقول لي احمله في حضنك، كما يحمل المربي الرضيع إلى الأرض التي حلفت لآبائه... لا أقدر أنا وحدي أن أحمل جيع هذا الشعب، لأنه ثقيل علي. فإن كنت تفعل بي هكذا فاقتلني قتلاً إن وجدت نعمة في عينيك، فلا أرى بليتي» (عد١١:١١-١٥). وبسبب هذه العثرة التي عثرها موسى عين الله، مضطراً، سبعين شيخاً يشاركون في القيادة والمسئولية، الأمر الذي لم يكن في أصل تدبير الله، وهذا هو منشأ السنهدريم الذي اجتمع ضد المسيح وقتله! ...
فبالنسبة لهؤلاء الرعاة، قادة وحكاماً، وهم أفضل الرعاة في تاريخ البشرية، يقول المسيح ويعلن نفسه: «أنا هو الراعي الصالح». و يكمل معنى الرعاية والصلاح بقوله: «والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف».
ويلاحظ أن المسيح لم يقدم نفسه للموت عرضاً، بل نزل من السماء خصيصا من أجل ذلك، بل إنه تجسد وُلد ليموت: «أيها الآب نجني من هذه الساعة. ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة» (يو١٢:٢٧)، ليس عن خراف حظيرة إسرائيل وحسب، بل وعن الخراف الأخرى من جميع أنحاء العالم وفي كل الأجيال.
على أن كل راع، سواء كان قائدا أو حاكما أو كاهنا أو أيا من كان، إذا مات دفاعا عن خرافة فهو لن يمنحها من حياته شيئا، بل وعلى أقص تقدير يحفظها حية، أما الراعي الصالح فهو يبذل نفسه ليعطي حياته لكل من يؤمن به، فهو بذل نفساً بنفس، أو بكل النفوس على وجه الأصح. وهذا هو الخلاص في أعلى مفهوم له وقمة معناه. فالخلاص ليس خلاصاً من ذنب أو موت وحسب، بل للفداء واعطاء حياة: «أما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة، وليكون لهم أفضل».

فبذل يسوع «لحياته» ليعطيها لأخصائه، يرفع من مفهوم «الراعي» بكل أبعاده البشرية، حتى يكاد يلغي معنى الراعي بالمفهوم البشري ويجعله الإله الفادي. لأنه هكذا انتهت وظيفة المسيح المنظور، كراع، على الأرض بالموت، ليظهر بحقيقة الإله. وزكريا النبي يرى هذه الصورة ويصفها بدقة عجيبة: «استيقظ يا سيف على راعي، وعلى رجل رفقتي، يقول رب الجنود. اضرب الراعي فتتشتت الغنم ...» (زك١٣:٧). ويعود المسيح ويٌحيي هذه النبوة ويطبقها على نفسه: «حينئذ قال لهم يسوع: كلكم تشكون فّي في هذه الليلة لأنه مكتوب أني أضرب الراعي فتتبدد خراف الرعية. ولكن بعد قيامي أسبقكم إلى الجليل» (مت٢٦:٣١-٣٢) وهكذا ينتهي موت الراعي إلى قيامته واستعلان لاهوته.

والملاحظ أن كلمة «تتشتت» أو «تتبدد» الرعية أو الغم، التي هي مقصد الشيطان الأول في موت المسيح، أي الراعي، والتي تأتي باليونانية (   ) في نبوة زكريا كما استشهد بها المسيح في إنجيل متى، هي نفس الكلمة التي يستخدمها إنجيل يوحنا في نبوة رئيس الكهنة التي تتضمن أن موت الراعي سينشىء بالتالى تجمع المتفرقين أو المتبددين مرة أخرى: «تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة، وليس عن الأمة فقط، بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد» (يو١١:٥١-٥٢) حيث جاءت كلمة «المتفرقين» على نفس أصل الكلمة (   ).

بهذا ينتهي خط هذه النبوة العجيبة بأن «موت الراعي» الذي يقصد منه تبدد الرعية، أنشأ بذاتو تجمع المتبددين من الرعية إلى واحد!! بهذا الإحساس النبوي الفريد، كان يسوع يتكلم حينها قال: «والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف»، لأنه عالم أن بموته، تتجمع الخراف إليه لتصير رعية واحدة لراع واحد. لهذا قلنا ونقول إن وظيفة الراعي التي أخذها المسيح لنفسه، إنما استعارها استعارة ليقارن بها نفسه بالآخرين الذين أرادوا أن يتشبهوا به، ليظهر مدى الفارق المستحيل تصويره. فرعاية المسيح لخرافه فى المثل الذى قاله، لمجرد المثل، ان هى إلا عملية موت وخلاص بالدرجة الاولى وبالأساس، فهي ليست مثلاً! فإن كانت هذه هي الرعاية الصالحة فمرحباً بالراعي الصالح، بل برئيس الرعاة الأعظم، الإله الذي تجسد واتحذ صورة الراعي، بل والحمل المذبوح ليُذبح عوض خرافة، إن صح الكلام والتعبي:

«وأما الذي هو أجير وليس راعيا، الذي ليست الخراف له، فيرى الذئب مقبلاً، ويترك الخراف ويهرب، فيخطف الذئب الخراف ويبددها. والأجير يهرب لأنه أجير ولا يبالى بالخراف[1]»: المقارنة هنا تتركز في العلاقة بين الخراف والراعي، والراعي والخراف، علاقة مشتركة تكشف الصاحب من الأجير، فصاحب الخراف يرعى خرافة، لأنه يمتلكها ويحبها، ويطلب صلاحها، فهو صالح لأنه يطلب لها الصلاح. أما الأجير فهو قد توظف، ليرعى الخراف من أجل نفسه. فأولا هو يطلب الأجرة ثمنا للرعاية. وثانيا وبصورة شاملة، هو يطلب تأمين حياته. فهو يرعى الخراف لكي يرتزق، ويرتزق لكي يؤمن معيشته هو. فالمنطق على هذا الوضع يجعله غير مستعد أن يموت من أجل الخراف. والذي يفضح هذا الموقف هو حدوث خطر مفاجى، الذي يمثله ظهور الذئب. والذئب هنا لا يرصده المسيح أنه الشيطان، بل أي ضيقة أو اضطهاد يفرضه العالم. فهو في الحال يهرب، لأنه يبالى أولاً واخراً بحياته، ولا يبالى بالخراف. وهكذا يجد الذئب الفرصة ليفتك بالخراف ويبددها. وهنا تصوير أليم لتفكك الجماعة، وفقدان الأفراد، عند انهزام الراعي، واكتشاف عدم كفاءته.

والرب هنا لا يهدف إلى فضح فئة معينة، لأنه يشرح حقيقة لا يمكن تعديلها أو تصحيحها، فالأجير لا يمكن

---

[1] وهذا ما فعله بنيامين المدعو بطريركا عندما احتل العرب مصر فهرب هو ومعظم الاساقفة تاركين الرعية لتفترسها الذئاب ..... ميشيل

تحويله إلى صاحب، ولكن الرب هنا يستعلن نفسه أنه الراعي الوحيد والفريد في نوعه، لأنه الابن إلوحيد، ولن يكون له مثيل، لأنه «صاحب الخراف»، بمعنى الامتلاك الكلي. وبالتطبيق لا يوجد إنسان، ولن يوجد قط، من يمكن أن يمتلك أرواح ونفوس البشر، إلا خالقها ومخلصها الرب يسوع. فالرب هنا يضع هذه المقارنة بين الصاحب والأجير، لكي يستعلن نوعية رعايته للنفوس التي تفوق قامات الملوك والآباء والأنبياء والكهنة والخدام، في كل زمان ومكان. لذلك جاءت النبوة واضحة : «وأقيم عليها راعياً واحداً فيرعاها، عبدي داود، هو يرعاها وهو يكون لها راعياً.ء» (حز ٣٤:٢٣)

والراعي الواحد هو الذي يكلف آخرين للرعاية من تحته، وهؤلاء لا يكنون بعد غرباء ولا أجراء، بل مستأمنين ومختارين حسب قلب الله: «واقيم عليها رعاة يرعونها، فلا تخاف بعد ولا ترتعد ولا تُفقد، يقول الرب» (إر٢٣:٤)، لأنها تحت رعاية الراعي الأعظم بالدرجة الأولى: «وأعطيكم رعاة حسب قلبى، فيرعونكم بالمعرفة والفهم»(إر٣:١٥).

هؤلاء الرعاة لسيوا أجراء بعد، لأنهم يرعون بالمعرفة والفهم وليس للمال والمنفعة، ولا هم غرباء أيضاً ولا نزلاء، بل هم رعية مع القديسين وأهل بيت الله، فهم أبناء للراعي الصالح وليسوا عبيداً، لا يعملون لحسابهم بل حباً في الذي فداهم، وهم أيضاً شركاء للراعي، وشهود، سواء في موته أو في مجده، مستعدين أن يفدوا الرعية بأرواحهم، لأن مستوى حبهم هو حب قلب الله. هذا واضح في قول الرب لبطرس: « يا سمعان بن يونا أتحبني ... ارع غنمي» (٢١:١٦). وهذه هي إستجابة بطرس ومنهج رعايته: «أطلب إن الشيوخ الذين بينكم، أنا الشيخ رفيقهم، والشاهد لآلام المسيح، وشريك المجد العتيد أن يُعلن، ارعوا رعية الله، التي بينكم، نظارا لا عن اضطرار بل بالاختيار، ولا لربح قبيح بل بنشاط، ولا كمن يسود على الأنصبة، بل صائرين أمثلة للرعية. ومتى ظهر رئيس الرعاة تنالون إكليل المجد الذي لا يبلى.» (ابط٥:١-٤)

ولينتبه كل قارىء وكل راع، فالرعية هي رعية الله من الألف للياء، أما الراعي هنا فيتحتم أن يكون مثلاً أعلى للرعية بشبه المسيح، وإلا فليمتنع. والربح القبيح ممنوع، والتجبر والسيادة علامة فساد، والاجرة ليست مالاً، بل إكليلاً لا يفنى، من فوق، وليس هنا بالذهب الفاني، وحساب الوكالة سينشر علنا عند ظهور رئيس الرعاة.

«والأجير يهرب لأنه أجير ولا يبالى بالخراف»: هو لا يبال كما تأتي باليونانية، بمعنى «لا يعتني»، لأن االخراف ليست له. ولكن شكرا لله رئيس الرعاة الأعظم، لأنه، وإن كان الرعاة الاجراء لا يعتنون بالرعية، فالله يعتني وسيظل يعتني بكل من يصرخ إليه، كما يقول بطرس الرسول الذي تعين راعياً من فم الرب: «ملقين كل همكم عليه لأنه هو يعتني بكم.» (١بط٥:٧)

٢ _ الراعي الصالح يعرف خاصته وخاصته تعرفه

١٠:١٤-١٥ أَمَّا أَنَا فَإِنِّي الرَّاعِي الصَّالِحُ وَأَعْرِفُ خَاصَّتِي وَخَاصَّتِي تَعْرِفُنِي. كَمَا أَنَّ الآبَ يَعْرِفُنِي وَأَنَا أَعْرِفُ الآبَ. وَأَنَا أَضَعُ نَفْسِي عَنِ الْخِرَافِ.

لأول وهلة قد يظن القارىء أن الرب يضح مقارنة متساوية بين معرفته لخاصته ومعرفة خامصته له، بالمقارنة مع معرفة الآب له ومعرفته للآب. ولكن بحسب الفكر السائد في إنجيل يوحنا نعرف أن الرب دائماً يجعل العلاقة بين الآب وبينه مصدرا يستمد منه كل عمله وفكره في العالم، وعلى وجه الخصوص بالنسبة لعلاقته بخاصته: «أنا حي بالآب، فمن يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦:٥٧)؛ كذلك: «في ذلك اليوم تعلمون أني أنا في أبي، وأنتم في وأنا فيكم» (يو١٤:٢٠)؛ كذلك: «إن حفظتم وصاياي، تثبتون في محبتي، كما أني أنا قد حفظت وصايا أبي وأثبت في محبته»

(يو١٥:١٠)؛ كذلك: «ليكون الجميع واحدا كما أنك أنت أيها الآب في، وأنا فيك ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا.» (يو١٧:٢١)

معنى هذا أن المسيح كابن الله نزل من السماء ومعه ذخيرة من العلاقة الفعالة التي تجمعه وتربطه بأبيه، يريد أن يجعلها هي نفسها فعالة في علاقته بالذين أحبوه وامنوا به، حتى نصير نحن أيضاً مربوطين ومجموين فيه وفي الآب بآن واحد. فالقياس في العلاقات بينه وبين الآب ينطبق على علاقته بنا، مح حفظ الفارق الوحيد وهو أن العلاقة بين الآب والآبن، وبين الآبن والآب هي علاقة صفات جوهرية وشخصية (أقنومية) مطلقة، بمعنى أنها بلا حدود ولا فواصل ولا فوارق على وجه الإطلاق؛ أما العلاقة معنا فهي مطلقة من طرف واحد فقط، أي من جهة المسيح والآب، فهو يحبنا خباً بلا حدود ولا قيود، ولكن نحن نحبه حباً له حدود وقيود. وكذلك في المعرفة، فهو يعرفنا بمعرفة مطلقة، أي أنه لا يُخفى عليه شيء قط من أمورنا، أما نحن فنعرفه معرفة محدودة بحدود قدرتنا الهزيلة، ومقيدة بسبب ضعف إدراكنا للحق الإلهي. لذلك يقول: «أعرف خاصتي وخاصتي تعرفني»، فذلك يتضمن الحقيقة السابقة أن معرفته لنا مطلقة ومعرفتنا له مقيدة. ولكن شكرا لله، فهذه المعرفة على وجه العموم قابلة للنمو والتكامل كل حين وإلى أبد الآبدين: «انموا في النعمة وفي معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح.» (٢بط٣:١٨)

كما أن هذه المعرفة تشمل في طياتها الحب والمشاعر الرقيقة للغاية، من جهته هي غنية بالعطاء، ومن جهتنا هي مفتوحة للأخذ كيفما شئنا وكيفما شاء الله، ألا يكفي أنه أخذ الذي لنا وأعطانا الذي له؟؟

وهل توجد معرفة أغنى وأعمق من معرفة تعطي كل الذي لها حتى أعماق الله، وتمتص كل ما لنا من جهالات؟؟؟

وان الصورة المبدعة التي يصورها الروح للمسيح كراع يحمل على منكبيه (لو١٥:٥) حملا صغيرا أجهده السير في الطريق الوعر، يحتضنه في احتمال وصبر واشفاق يفوق الوصف، لهي صورة عاطفية نبيلة تصور مقدار معرفة المسيح لكل شئون ضعفنا. ثم ألست أنت وأنا هو هذا الحمل الضعيف الذي لم يعد يقدر على السير فوق الصخور؟

ولأن المسيح يمدنا بالمعونة المستمدة من معرفته لله ومعرنة الله له على أساس الحب المطلق بينهما، استطاع بولس الرسول أن يقول بجراءة وتأكيد: «وأما الآن إذ عرفتم الله، بل بالحري عُرفتم من الله ...» (غل٤:٩)

أما كون هذه المعرفة قائمة على أساس المحبة، فهذا يؤكده بولس الرسول أيضاً: «ولكن إن كان أحد يحب الله فهذا معروف عنده» (١كو٨:٣). ويزيد هذا التأكيد القديس يوحنا من قول المسيح نفسه: «وعرفتهم اسمك وسأعرفهم (أيضاً)، ليكون فيهم الحب الذي أحببتني به وأكون أنا فيهم.» (يو١٧:٢٦)

والآن، يا قارئي العزيز، إن كانت تنقصك معرفة المسيح بعد، فهذا لأنك لم تحبه كما ينبغي، ولم تسعد بحبه كما يرتضي. فلا كتاب ولا مدرسة ولا وعظ ولا أي شيء من أمور العلم والمعرفة، يمكن أن يزيدك معرفة بالمسيح ويزيد معرفة المسيح لك، بقدر أن تحبه وأن تكون محبوباً عنده.[1]

٣- الراعي الصالح يضع نفسه عن الخراف.

«وأنا أضع نفسي عن الخراف»: هنا وضع النفس للموت، هو غاية ونهاية للتجسد. وهذا أيضاً بالنسبة للمحب الحقيقي ممكن جداً، ولائق للغاية بالنسبة لحب المسيح الإلهي.

عاملان أساسيان كانا يعملان في «وضع» المسيح لنفسه، أي في موته من أجل خاصته الذين في العالم كله: الأول الحب، والثاني الطاعة. فالحب كان يملأ كل كيان المسيح «الإلهي البشري». كما أن الحب من نحو الآب

[1] كيف أنمى حبى له ....؟؟؟؟

أنتج طاعة مذعنة لمشيئة الآب من أجل خلاص العالم، جعل الموت الفدائي موضع سرور: «من أجل السرور الموضوع أمامه احتمل الصليب.» (عب١٢:٢)

أما الحب من نحونا فكان مملوءاً مشاعر عميقة وقوية، لا يمكن لأي عقل بشري أو قلم كاتب أذ يصفها، عبر عنها بولس الرسول هكذا: «ليحل المسيح بالإيماذ في قلوبكم، وأنتم متأصلون ومتأسسون فى المحبة، حتى تستطيعوا أن تدركوا مع جميع القديسين ما هو العرض والطول والعمئق والعلو، وتعرفوا محبة الله الفائقة المعرفة لكي تمتلئوا إلى كل ملء الله.» (أف٣:١٧-١٩)

أنظر أيها القارق وتمعن الكلام جيداً: إن المسيح إذ حل في القلب بالحب، انطلقت المعرفة بلا قيود، لتدرك محبة المسيح لنا إدراكاً يفوق كل قوى العقل الطبيعي، إلى أن يبلغ الإنسان إلى ملء الله أو الامتلاء بالله. فالمحبة والمعرفة هما مفتاحا سر الملء من الإلهيات، والمحبة هي الأساس. ويكفي أن نلمح للقارىء أن حالة الحب الإلهي الناضج، أي المسنود بالمعرفة، يُسمى عند المتصوفين بـ «الشهادة»، أي أنها حالة رؤيا واستشهاد، فالشهادة مشاهدة تنتج بذلاً، أي موتاً إرادياً عذباً. أما عند المسيح، فالحب يساوي الفداء تماماً. فالفداء الذي صنعه، استوفى الحب الذي كان يملأ قلبه. وعلى القارىء أن يستجلي السر المدفون في هذه الآية: « أما يسوع قبل عيد الفصح، وهو عالم أن ساعته قد جاءت لينتقل من هذا العالم إلى الآب، إذ كان قد أحب خاصته الذبن في العالم، أحبهم إلى المنتهى...» (يو١٣:١)

هذا التصور الفريد من نوعه، أي تصور الحب الذي يؤدي إلى الموت طواعية، سبق أن رآه زكريا النبي بكل دقائقه، إذ رأى من وراء الزمن هذه المعركة الأخيرة والمريرة بين المسيح الراعي الصالح وهو يحاجج رعاة إسرائيل الغشاشين، كهنة وكتبة وفريسيين، إلى أن أعيت نفسه فيه، حتى تقيأهم، وأبادهم من خطة الخلاص التي أزمع أن يكملها لحساب الخراف المذلولة والمعوقة. ونظر من بعيد، فرأى رؤساء الكهنة وهم يزنون الثلاثين من الفضة ويسلمونها ليهوذا، كمندوب فوق العادة عن قتل المعلم: «فرعيت غنم الذبح، لكنهم أذل الغنم... وأبدت الرعاة الثلاثة في شهر واحد، وضاقت نفسي بهم وكرهتني أيضاً نفسهم... فقلت لهم إن حسن في أعينكم فأعطوني أجرتي وإلا فامتنعوا. فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضة. فقال لى الرب: ألقها إلى الفخاري، الثمن الكريم الذي ثمنوني به» (زك١١:٧-١٣). وقد تم: « حينئذ ذهب واحد من الاثني عشر الذي يُدعى يهوذا الإسخريوطي إلى رؤساء الكهنة وقال ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلمه إليكم. فجعلوا له ثلاثين من الفضة. ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليسلمه... حينئذ لما رأى يهوذا الذي أسلمه أنه قد دين ندم ورد الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ قائلاً قد أخطأت إذ سلمت دماً بريئاً. فقالوا ماذا علينا، أنت أبصر. فطرح الفضة في الهيكل وانصرف، ثم مضى وخنق نفسه. فأخذ رؤساء الكهنة الفضة وقالوا لا يحل أن نلقيها في الخزانة لأنها ثمن دم . فتشاوروا واشتروا بها حقل الفخاري.» (مت١٦:١٤-١٦؛ مت٢٧:٣-٧)

وهكذا مات الراعي الصالح على يد الرعاة الخونة واللصوص؛ ولكن كان موته لحياة الخراف .

٤- الراعي الصالح لا يلتزم بحظيرة معينة.

١٦:١٠ وَلِي خِرَافٌ أُخَرُ لَيْسَتْ مِنْ هَذِهِ الْحَظِيرَةِ يَنْبَغِي أَنْ آتِيَ بِتِلْكَ أَيْضاً فَتَسْمَعُ صَوْتِي وَتَكُونُ رَعِيَّةٌ وَاحِدَةٌ وَرَاعٍ وَاحِدٌ.

يلاحظ القارىء الصلة الجوهرية بين «أنا أضع نفسي عن الخراف» وبين «لي خراف أُخر ليست من هذه الحظيرة ينبغي (مستقبلاً) أن آتي بتلك أيضاً». فموت المسيح هو الذي سيوسع من دائرة الرعية: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض أجذب إليّ الجميع» (يو١٢:٣٢). فالمسيح لا تقصر رعايته الصالحة على حظيرة إسرائيل، سواء في فلسطين أو خارجها. وهذا هو نص نبوة رئيس الكهنة، التي قالها دون أن يدري مضمونها: «ولم يقل هذا من نفسه، بل إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة، تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت من الأمة؛ وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد.» (يو١١:٥١-٥٢)

ولقد مهد القديس يوحنا لهذه الحقيقة في مطلع إنجيله: «كان النور الحقيقي، الذي ينير كل إنسان، آتياً إلى العالم» (يو١:٩). وقد ألمح المسيح إلى ذلك في قصة قائد المائة في إنجيل متى: «وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السموات. وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية.» (مت٨:١١-١٢)

ويلاحظ أنه بالسنبة للخراف الأُخر، لا يذكر الرب كلمة «حظيرة» أو «حظائر»، فهي خراف متفرقة في جميع أنحاء ممالك الأرض، لا توحدهم عبادة سابقة، ولا يجمعهم ناموس ولا أرض.

«ينبغي أن آتي بتلك أيضًاً»: هنا يبدأ العمل بالنسبة للخراف الأُخر بأن «يأتي» بها وليس «يجمعها»، فالرب يأتي بها إلى الآب أولاً بعمل دمه المسفوك عنها، وحينما يجمعها ويوحدها بالروح مع الآب، يجمعها ويوحدها معاً. فالوحدة المسيحية أو الوحدة الإيمانية أو الكنسية، يستحيل أن تتم في دائرة المجهود الإنساني، بل يتحتم وبالضرورة أن يتحد كل واحد وكل جماعة أو كنيسة بالله أولاً، بعمل الروح، وبعد ذلك يمكن وينبغي أن يتحد الكل معا، حتى تصبح رعية واحدة لراع واحد. والراعي الواحد يبقى دائماً والى الأبد هو الرب يسوع دون سواه، لأنه هو المصالح وليس آخر، وهو الوحيد الذي يجمع لأنه يجمع في شخصه، وليس في المبادىء أو القوانين، ثم هو الوحيد الذي يوحد بعمل روحه القدوس الذي يرفع الفوارق من كل نوع، سواء كانت فوارق لون أو جنس أو فكر أو ثقافة أو تقليد. ويكون معيار الواحد هو معيار الكل: «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا فيّ» (غل٢:٢٠)

«فتسمع صوتي وتكون رعية واحدة وراع واحد»: المسيح هنا لا يزال يتعلق بالمثل، أي الخراف وصوت الراعي. فهي لا تتبع إلا إذا ميزت صوت الراعي وتعرفت عليه. أما بالنسبة للرب وأخصائه، فسماع صوته خبرة روحية ذات قيمة ومدلولات غنية يصعب على الفكر والقلم أن يجمعها في سطور.

فالإنسان خُلق وله حاسة تمييز صوت الله، وهذا نسميه «السماع»، فالله كان يتكلم مع آدم وحواء، وكانا يسمعان صوت الله. وقبل الخطية كان السمع يلازمه الطاعة، ولما أخطأ لم يفقدا تمييز صوت الله: «فنادى الرب الإله آدم وقال له: أين أنت. فقال: سمعت صوتك في الجنة فخشيت لأني عريان، فاختبأت» (تك٣:٩-١٠). وهكذا تحول السمح من «سمع وطاعة» إلى «سمع وخوف»، وهكذا ظل الإنسان الخاطىء يلازمه الخوف عند سماع صوت الله، إلى أن تعلم كيف يتوب ويعود إلى الله. فصار صوت الله للتائب للبهجة والخلاص عوض الخشية والخوف وتعتبر خبرة التائب إلى الله من جهة سماع صوت الله وتمييزه، الركيزة الاولى والعظمى في كل خبرات الإنسان على مدى

حياته كلها، والتي على أساسها يبدأ يتعلم الفهم والحكمة، ويتدرب على قبول صوت المشورة الإلهية، وينمو في تمييز صوت الله من درجة إلى درجة. فدرجة سماع صوت الله تتغير في شدتها ورقتها ولطفها وحنانها وحبها وقربها من مستوى العبد الخاضع، إلى الابن، إلى الخادم الأمين، إلى النبي، إلى الملك، إلى الكاهن، إلى العروس، وكل درجة لها مسئوليتها. وهي تتعدد بتعدد الأشخاص، ولكن قد يحوزها إنسان واحد على مدى خبرات حياته.

ولكن أعجب درجات صوت الله، عموماً هي درجة صوت المسيح التي تخترق كل الحواجز والمستخيلات. فالميت يسمعها ويستجيب لها ويقوم، سواء من موت الجسد كأليعازر، أو موت الخطية مثلي ومثلك، أو في اليوم الأخير حيث يكون موت المسيح هو للقيامة العتيدة التي يتحرك لها كل مخلوق، الأموات والأحياء جميعاً بلا استثناء لقيامة الدينونة. ويعوزني الوقت والأذن التي تسمع لنتكلم عن صوت المسيح مع النفس التي دخلت معه بالتوبة في عهد حب أبدي، كيف يملأها فرحاً ونعيماً وسروراً، يفيض عليها من دسم السماء ويشرق عليها بالمراحم كل صباح، يزينها بكل زينة الروح ويقودها في مراع خضر، كما في المزمور (مز٧٠).

لقد جمع المسيح له رعية من كل لسان وشعب وأمة، لأنه ذُبح واشتراها جميعاً، ألوف ألوف وربوات ربوات مغتسلين بالدم، يقدمون له الخدمة ويستقون من نبع الحكمة. صوتهم بالفرح لا ينقطع عن التسبيح، يدوم على وجه كل الأرض بدوام مجرى الشمس! ... وهكذا صارت بالحق رعية واحدة لراع واحد، تسمع صوته، وتُسمعه صوتها، شهادة أبدية لصالح راعيها... أما إسرائيل فثقلت أذنه عن السمع، وتم فيهم القول: « إنه حسناً كلم الروح القدس أباءنا بإشعياء النبي قائلاً: اذهب إلى هذا الشعب وقل ستسمعون سمعاً ولا تفهمون، وستنظرون نظراً ولا تبصرون. لأن قلب هذا الشعب قد غلظ، وبآذانهم سمعوا ثقيلاً، وأعينهم أغمضوها، لئلا يبصروا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم، و يرجعوا فأشفيهم. فليكن معلوما عندكم ان خلاص الله لا أُرسل إلى الأمم وهم سيسمعون» (أع٢٨:٢٥-٢٨)

«رعية واحدة وراع واحد»: قول الرب هنا مطابق حرفياً لنبوة حزقيال النبي: «وأقيم عليها راعياً واحداً فيرعاها، عبدي داود هو يرعاها، وهو يكون لها راعياً» (حز٣٤:٢٣). وهكذا، فإن ما كان منذ الأزل وما صوره حزقيال بالرؤيا من وراء الزمن، تحقق في عمق التاريخ في شخص يسوع المسيح، الراعي الواحد.

ويلاحظ أن الرب لم يذكر أنها تصير حظيرة واحدة، وكأنها أمة أو شعب محدد بحدود وقيود، وهذا يحتسب في المفهوم الكنسي غاية في الأهمية. فلا عودة إلى حظيرة إسرائيل، ولا شركة في نظام تلك الحظيرة كأنه، إنضمام أو تهود، ولكن هو اكتساب للأصل فقط، وليس الفروع، بمعنى اكتساب لكل مواعيد الله للآباء والأنبياء التي تحققت في شخص المسيح. فمن خلال المسيح وحده نستقي من نبع العهد القديم، فهو الأصل الذي تصور عليه العهد القديم كله بكل أمجاده: « أنا يسوع أرسلت ملاكي لأشهد لكم بهذه الأمور عن الكنائس، أنا أصل وذرية داود، كوكب الصبح المنير.» (رؤ٢٢:١٦)

وعلى هذا الأصل بُنيت الكنائس، ولم يقل هنا «كنيسة» بل «كنائس»، كنائس شعوب وكنائس دهور وأحقاب، ولا سيادة لكنيسة على كنيسة!! عن هذا الأصل الواحد الغني بالله والدسم بالنعمة يقول بولس الرسول: «وان كانت الباكورة مقدسة فكذلك العجين. وان كان الأصل مقدساً (المسيح) فكذلك الأغصان. فإن كان قد قُطع بعض الأغصان وأنت زيتونة برية طُعمت فيها فصرت شريكا في أصل الزيتونة ودسمها... من أجل عدم الإيمان قُطعت وأنت بالإيمان ثبت. لا تستكبر بل خف.» (رو١١:١٦-٢٠)

فالمسيح هو الأصل «أصل داود»، أي أصل الوظيفة التي تعين عليها داود كملك ورئيس وراع ونبي للشعب. وكلمة «أصل» تجيء باليونانية جذر(   )، فإن كان جذر داود هو المسيح، فالمعنى أن داود كان يستمد من المسيح كل كيانه.

كذلك فالمسيح هو أمل ذرية داود، حيث «ذرية»» تجيء باليونانية (   ) وتفيد معنى الجنس أو غصن ينبت من الأصل shoot. فالمسيح هو الأصل الذي قام عليه داود هو وذريته، أي امتداده. هذا هو «الشداى» (القدير)، «الأدوناى» (الرب)، «يهوه» (الله)، رب إبراهيم ، وراعي إسرائيل وداود، المسيا، ملك الدهور إلى الأبد.

وهنا لو نظرنا إلى المسيح كراع واحد أي وحيد، فباعتباره أصل داود فهو وحده الذي يملك مراعي العهد القديم؛ وباعتباره هو ذرية داود، فعليه تقوم الرعاية إلى الأبد. والآن إذ طُعمت الكنائس على هذا الأصل، صارت تمتلك في المسيح وحده كل مراعي العهد القديم وامتدادها فيه إلى الأبد.

على هذا الأساس قامت العلاقات بين الأمم واليهوده لا على أساس ناموس وتعاليم ووصايا بعد ذاتها، بل على أساس المسيح نفسه، ككفر وخلاص وفداء وحياة، فكل ناموس في القديم يعترف بالمسيح رباً وإلها فهو عهد جديد، وكل تعاليم أو وصايا في العهد القديم تشهد للمسيح أنه رب وإله، فهي تعاليم ووصايا العهد الجديد.

وباختصار، نلقي شعاعاً من نور يوضح هذا القانون الإلهي: فإن إسرائيل في القديم كانت حياتها، وكان كيانها كله وبقاؤها متعلقاً بعلاقتها بالله، يهوه، والآن قد أُستعلن يهوه فى المسيح. فكل من لم يؤمن ويعترف بالمسيح من شعب إسرائيل، يكون قد فقد علاقته بالتالي مع الله يهوه. وكل من آمن بالمسيح من الأمم بأنه هو«يهوه» المسيا الله الآتي بالجسد والمستعلن للعالم، «الله ظهر في الجسد» (اتى٣:١٦)، يكون قد اكتسب بالتالي كل ميراث العهد القديم في شخص يسوع المسيح.

فالمسيحية ليست امتدادا لليهودية، ولكن المسيحية هي استعلان الله في شخص يسوع المسيح، لتكميل مقاصد الله وخطته الآزلية من أجل خلاص العالم الذي كانت إسرائيل مرحلة بدائية من مراحله الاولى، والتي انتهت برفضها المسيح.

«رعية واحدة»: كان هناك نزاع قديم بدأ منذ القرون الوسطى في الكنيسة الغربية، وقد تعدل فيما بعد، من جهة تغيير قراءة «رعية» إلى حظيرة، بقصد جعل بابا روما هو «الراعي الواحد» وكنيسة روما هي «الحظيرة» الواحدة للراعي الواحد، وللأسف فهذا بعينه هو الرجوع إلى الفكر اليهودي العنصري، حيث إسرائيل هي الحظيرة الأوحد ولا حظائر غيرها قط، فالأمم كلاب لا غنم !!

ولكنها جاءت في اللغة اليونانية وفي النسخ السريانية والمصرية هكذا: «رعية واحدة وراع واحد».

ولكن الفولجاتا اللاتينية حصل فيها تعديل لتتاسب الفكر البابوي الروماني، وذلك في بداية سنة ١٥٨٢وجعلوها قراءة مقدسة غير قابلة للتغيير: «حظيرة واحدة لراع واحد». وللأسف أخذت منها بعض الطبعات الأخرى. وكانت هذه القراءة المغلوط سبباً في التأثير على فكر الكنيسة الرومانية إلى يومنا هذا.

والسؤال الذي بلا جواب هو: إذ كانت الخراف الأخر التي سيجمعها المسيح من كل الشعوب والأمم لم تنشأ من أصل الحظيرة اليهودية في قليل أو كثير: «خراف أخر ليست من هذه الحظيرة»، ولم يرتب لها الرب أن تنضم إلى الحظيرة اليهودية لتأخذ مبدأها من هناك، فقد قال: «ينبغي أن أتي بها»، ولم يقل أنه يجمعها إلى الحظيرة، بل جعلها رعية لا يجمعها إلا شخصه المبارك في حظيرته السمائية، فكيف يمكن أو يتصور أحد أن يقوم في الرعية (من الخراف

الأخر) من يدعى هذا الحق، حق أن تتبعه الخراف الأخرى أو تأخذ مبدأها ومنشأها منه؟ ثم فوق هذا وذاك هل «الراعي الواحد» الذي جمع الخراف استقلال وسلم وظيفته لآخر؟ أم أنه يقيم رعاة كيفما يشاء ولا يميزهم عنده إلا حساب الوكالة؟ ثم كلمة راع «واحد» هل كلمة «الواحد» هنا عددية أم أنها قرينة الابن «الوحيد» بل ونابعة من الله «الواحد»؟! فالراعي الواحد هنا ليس إنساناً هو كأحد الخراف، بل هو بكل المعايير إله! «وأنتم يا غنمي غنم مرعاي اناس أنتم، أنا إلهكم يقول السيد الرب.» (حز ٣٤:٣١)

وكأنه بالمثل الذي قاله المسيح، يريد الوحي الإلهي أن يصور لنا المسيح بصورة شاملة وعجيبة، فهو الباب، وهو البواب، وهو الحظيرة الجديدة، إسرائيل الجديد، التي بلا حدود، وهو الراعي، والخراف هي من لحمه ومن عظامه!!! فالوحدة الشخصية معه القائمة على الخلاص الفردي وهبها المسيح لكل من يؤمن به ويأكله. وهذه الصورة الفردية الوحدوية لعلاقة الراعي الصالح بالرعية، أنهت عل عهد احتكار الرعاة للغنم إلى الأبد.

ثانياً: استعلان بنوة المسيح ومساواته للآب
(١٠:١٧-٣٩)

«أنا والآب واحد.» (١٠:٣٠)

«لأني قلت إني ابن الله.» (١٠:٣٦)

١٠:١٧-١٨ «لِهَذَا يُحِبُّنِي الآبُ لأَنِّي أَضَعُ نَفْسِي لِآخُذَهَا أَيْضاً. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْخُذُهَا مِنِّي بَلْ أَضَعُهَا أَنَا مِنْ ذَاتِي. لِي سُلْطَانٌ أَنْ أَضَعَهَا وَلِي سُلْطَانٌ أَنْ آخُذَهَا أَيْضاً. هَذِهِ الْوَصِيَّةُ قَبِلْتُهَا مِنْ أَبِي».

هنا يلتفت المسيح نحو الآب ليقدم له ذبيحته، التي هي في الواقع ذبيحة حب، لتجد عند الآب ما يساويها. وإن كان هو يقدمها بحرية إرادته، إلا أنها أيضاً مقدمة في الطاعة المطلقة للآب، لأنها في الأصل هي استجابة لوصية الآب.

ولكن لكي يبرز المسيح العنصر الإلهي في تقديم نفسه ذبيحة حسب الطاعة لوصية الآب، عاد وأوضح أنه لا يقدم نفسه جزافاً، كمن يضيعها أو يفقدها برجاء التعويض، ولكنه قدمها قصداً ليعبر بها الموت بكل أهواله وآلامه، وهو عالم أنه سيقيمها من الموت بسلطانه وبتأكيد الآب. فالذبيحة ليست ذبيحة للموت وحسب، بل هي ذبيحة «موت وقيامة» بحسب مضمون وصية الآب، أو بحسب اتفاق الآب والابن معاً، كخطة أزلية. لأن الابن وُضع عليه أن يخوض الموت بالجسد من أجل افتتاح طريق القيامة من الأموات ليقيم من الموت كل ذي جسد.

هنا لا ينبغي أن يغيب عن بالنا صورة المثل الذي وضعه المسيح من جهة الراعي والخراف والمرعى. فهنا يبلغ المسيح بنفسه حد التفوق المطلق على مفهوم الراعي والرعية والمرعى. فالراعي في مفهوم المسيح هو القادر بإرادته وسلطانه وحده أن يموت من أجل الخراف، ويقوم من الأموات، ليقيم الرعية من الموت ويعطيها المرعى الذي بتذوقه لا تذوق الموت أبداً... هذا هو راعي الخلاص الأبدي.

بهذا ينتقل المسيح، من داخل المثل الذي قاله، من عورة الراعي إلى حقيقته الأزلية أنه المخلص القادر أن يذهب وراء خروفه الضال حتى إلى أعماق الموت والهاوية ، ليقيمه حياً، وليحيا أمامه إلى الأبد. ولتأكيد معنى اهتمام هذا الراعي العجيب بكل خروف على حدة يقول بولس الرسول: «ولكن الذي وُضع قليلاً عن الملائكة، يسوع، نراه مكللاً بالمجد والكرامة، من أجل ألم الموت لكي يذوق، بنعمة الله، الموت لأجل «كل واحد» (عب٢:٩)

إن الموت الذي كان يمثله الذئب، والذى كان يرعب قلب الراعي والخراف معا. لا يوجد له مكان في قلب المسيح .

لقد افترس المسيح الموت والذئب معاً، واعطى خرافة صك الخلاص من موت ووهبهم حق الحياة الأبدية: «فإذ قد تشارك الأولاد فى اللحم والدم، اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكي يبيد بالموت ذاك الذي له سلطان الموت، أى إبليس، ويعتق أولئك الذين خوفا من الموت كانوا جميعا كل حياتهم تحت العبودية.» (عب٢:١٤-١٥)

«ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتى، لى سلطان أن أضعها ولى سلطان أن آخذها أيضاً، هذه الوصية قبلتها من أبي»: عجيب حقاً أن يضع المسيح هذه المعادلة الصعبة في صورتها البسيطة المتناهية في البساطة. فهو يستعلن لنا سلطانه المطلق على الموت والحياة معاً، ثم يضع هذا السلطان في توافق مطلق أيضاً مع الآب. هنا جوهر اللاهوت حي ومتلألئ أمام عيوننا وقلوبنا. فالآبن متساو مع الآب في المفاعيل الذاتية للجوهر الإلهي، أي السلطان والقوة والمجد، لأن الآب والابن واحد في هذا الجوهر الإلهي المطلق، فكل ما للآب هو للابن، وما هو للابن هو للآب، ليس على وجه التساوي بالمفهوم الحسابي الذي يفهم الثنائية في الجوهر، بل على وجه الوحدة المطلقة التي تلغي الثنائية في جوهر الله.

على ضوء هذه الحقيقة اللاهوتية، يقول المسيح ويعلن عن سلطانه الفائق بالتالى على كل بشر وكل سلطان بني البشر: «ليس أحد يأخذها مني، بل أضعها أنا من ذاتي... ». المسيح هنا يتحدى كل قوى الظلمة وكل قوى البشر المتعاقده مع الظلام، المسيح يضع «أنا» إزاء أي أحد.

المسيح هنا يجعل موته «أضع حياتي» فعلا إلهياً، يفوق أي تطاول شيطاني أو بشري. وقد عزز المسيح تأكيده هذا في مواقف عدة: «فخرج يسوع وهو عالم بكل ما يأتي عليه، وقال لم: من تطلبون، أجابوه: يسوع الناصري. قال لهم يسوع: أنا هو» (يو١٨:٤-٥). وحينما جازف بيلاطس ليعلن سلطانه أمام المسيح بموته أو بإطلاقه، أنكر عليه المسيح هذا السلطان واستعلن هو سلطانه السامي الذي له أن يلغي أي سلطان آخر: «أما تكلمني؟ ألست تعلم أن لي سلطانا أن أصلبك وسلطانا أن أطلقك؟ أجاب يسوع: لم يكن لك علي سلطان البتة لو لم تكن قد أُعطيت من فوق» (يو١٩:١٠-١١). وبهذا القول استعلن المسيح حريته المطلقة في اختيار الموت حسب مشورة الآب الأزلية. لذلك لم يكن صعبا عليه ولا ثقيلا أن يحمل صليب العار والموت على كتفه: «فخرج وهو حامل صليبه إلى الموضع...» (يو١٩:١٧). وفي اللحظة الحاسمة لاقتراب الموت، استقبله المسيح كمن ينتظره وعلى رأسه إكليل الحياة والمجد: «فلما أخذ يسوع الخل قال قد أكمل، ونكس رأسه، وأسلم الروح» (يو١٩:٣٠). قالها وهو فاتح ذراعيه يسلم الروح في يد الآب إلى حين...

«لى سلطان أن أضعها ولى سلطان أن آخذها أيضاً. هذه الوصية قبلتها من أبي»: لم يكن كافيا لعقول السامعين أن يعلن المسيح عن سلطانه في «أن أضعها من ذاتي»، لذلك أردف هذا السلطان، أي سلطان الموت الإرادي الذي يمكن أن يكون عل مستوى البشر، بسلطان آخر ليس في طاقة البشر قط، وهو سلطان الإقامة من الموت! هنا يعزز المسيح موته كفعل إرادة إلهي غير منظور بفعل إرادة إلهي منظور ومحسوس، وهو القيامة، ليستعلن موته أنه فعل فداء وخلاص، وليبرىء موته من مفهوم الاضطرار أو الانهزام لقوى الظلام.

فقول الرب: «لى سلطان أن آخذها أيضاً»، الأمر الذي حققه بالفعل، يستعلن فيه سلطانه على الموت، بمعنى أنه يأخذ الموت لنفسه عندما يشاء ويلقيه عنه كما يشاء. وهذا بعينه هو «سلطان عدم الموت» القائم والدائم في طبيعة الابن وجوهره الإلهي.

وإذا تعمقنا قليلا في هذه الطبيعة الفائقة التي فيها يتساوى سلطان حرية الموت مع سلطان حرية القيامة من الموت، لأدركنا أن فعل الموت والقيامة هما حاضران معاً، كحدث واحد، في تدبير المسيح بدون اهتزاز ولا افتراق. هذا السلطان على الموت والقيامة من الموت قبله المسيح من الآب كوصية للتنفيذ لينفذه في ذاته لتكميل تدبير خطة الآب لخلاص العالم. ومن هذا «السلطان» عينه على الموت والإقامة من الموت، الذي نقذه المسيح الكلمة المتجسد في ذاته، حسب وصية الآب من أجل الإنسان، صار بالتالي للمسيح نفس «هذا السلطان» على إعطاء عبور الموت والقيامة، أي الميلاد الجديد السماوي، لكل من يؤمن به، «وأما كل الذين قبلوه، فأعطاهم سلطانا أن يصيروا أولادالله أي المؤمنون باسمه، الذين وُلدوا... من الله» (يو١:١٢-١٣). أي أنه نفذ هذا «السلطان» في نفسه ليعطيه للآخرين، إنما من خلال إخضاعه الموت والقيامة لنفسه أولاً!!

«فسلطان» المسيح عل إعطاء الحياة الأبدية للإنسان يستمده من طبيعته ومن وصية الآب، ومن فعل ذبيحته التي جاز بها الموت وظفر بالحياة بالقيامة من الموت: «تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال: أيها الآب قد آتت الساعة، مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضاً، إذ أعطيته سلطاناً على كل جسد ليعطي حياة أبدية لكل من أعطيته.» (يو١٧:١-٢)

أما بعد قيامته من الأموات، بعد أن داس الموت وأبطل سلطانه وأخضع كل سلاطين الظملة تحت قدميه، أعلن لتلاميذه عن سلطانه المطلق هكذا: «فتقدم يسوع وكلمهم قائلاً: دُفع إلى كل سلطان في السماء وعلى الأرض.» (مت٢٨:١٨)

ولكن لم يكن المسيح أبداً بدون هذا السطان حتى قبل موته وقيامته، لأن هذا السلطان في طبيعته، فقد أعلن بالقول والفعل عن سلطانه على مغفرة الخطايا (مت٩:٦) وسلطانه على الدينونة (يو٥:٢٧) وسلطانه على إعطاء الحياة (يو١٧:٢) وسلطانه على القيامة من الموت (يو١٠:١٨). لذلك، فإعلانه عن سلطانه المطلق في السماء وعلى الأرض لتلاميذه بعد القيامة (مت٢٨:١٨)، لم يكن إلا استعلاناً وتحقيقاً فعليا لما كان ولما هو موجود ولكل ما سمعوه ورأوه من أقواله وأعماله، ولإعطائهم هذا «السلطان باسمه» على مغفرة الخطايا وإجراء المعمودية لقبول الميلاد الجديد.

وهنا يلزمنا أن نصالح بين الزمني والأبدي في أفعال المسيح من جهة موته وقيامته. فكل ما صار إليه المسيح تحت الزمن والناموس، كان قائما في العلم والمشيئة والإرادة الإلهية قبل إنشاء العالم. فكل النبوات أعلنت ما سيكون قبل أن يكون، خاصة عن موته الخلاصي وقيامته المحيية. اسمع ما يقوله بولس الرسول حينها رفع عينيه فرأى ما هو قائم في نص الخطة الأزلية من جهة أسمائنا المكتوبة بين المخلصين قبل تأسيس العالم! «مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية في السماويات في المسيح، كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون قديسين وبلا لوم قدامه في المحبة» (أف١:٣-٤)

أما القديس يوحنا فقد اطلع على السفر المكتوب فيه أسماء الخراف الناطقة المعينين للحياة الأبدية: «فسيسجد له (للوحش) جميع الساكنين على الأرض، الذين ليست أسماؤهم مكتوبة منذ تأسيس العالم في سفر حياة الخروف الذي ذُبح» (رؤ١٣:٨)

كذلك، حينما خاطب المسيح الآب، فإنما كان يخاطبه كابن ليُسمعنا نحن عن سر علاقته الأزلية بالآب، التي لم تتغير ولم تنقص ولم تزد إلا بما استلزمته مظاهر التجسد التي قبلها الابن لحسابنا. فالمجد والحب وكل شيء بين

الآب والابن انحجبت قليلا بالتجسد، لتعود كما كانت بالقيامة من الأموات: «والآن مجدني أنت أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم» (يو١٧:٥)، «كل ما هو لي فهو لك، وما هو لك فهو لي...» (يو١٧:١٠)، «... لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم» (يو١٧:٢٤). والمسيح ألمح إلى ذلك في لفتة سريعة، إنما ذات عمق لانهائي بقوله: «فإن رأيتم ابن الإنسان صاعداً إلى حيث كان أولاً...» (يو٦:٦٢) هنا يكشف المسيح عن سر كينونته الدائمة والأزلية مع الآب منذ البدء، عابراً على فعل تجسده وموته وقيامته على أنها إرسالية زمنية عابرة لغربة على الأرض، أكمل واجباتها حسب الوصية دون أن تحتجز أو تنتقص شيئاً من كيانه.

وسفر الرؤيا يعلن ذلك في اختصار شديد ورتابة مبدعة: «نعمة لكم وسلام من الكائن والذي كان والذي يأتي...» (رؤ١:٤)، «أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية، يقول الرب الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء.» (رؤ١:٨)

وهكذا يتبين لنا من كل هذه الأقوال والنبوات، أن أعمال الله تقطع فراسخ الزمن في ومضة البرق وتطوي الأماكن والأجيال والخلائق وكل ما كان وما سيكون، في كلمة: «أنا هو الأف والياء البداية والنهاية». والمسيح جاء ليكمل بالفعل الزمني ما كان كائناً وكاملاً في الحق الأبدي. أو باختصار أشد: إن كل أعمال الكلمة الابن المتجسد كانت جاهزة وحاضرة، بل ومكملة أيضاً، لحظة مجيئه وظهوره، وذلك واضح في قوله: «لى سلطان...». وإن هذا السلطان هو «وصية قبلتها من أبي»، وهي قائمة بالنبوة في انتظاره، «لذلك عند دخوله إلى العالم يقول: ذبيحة وقرباناً لم ترد ولكن هيأت لى جسداً... ثم قلت هأنذا أجيء، في درج الكتاب مكتوب عني، لأفعل مشيتك يا الله.» (عب١٠:٥و٧)

١٠:١٩-٢١ فَحَدَثَ أَيْضاً انْشِقَاقٌ بَيْنَ الْيَهُودِ بِسَبَبِ هَذَا الْكَلاَمِ. فَقَالَ كَثِيرُونَ مِنْهُمْ: «بِهِ شَيْطَانٌ وَهُوَ يَهْذِي. لِمَاذَا تَسْتَمِعُونَ لَهُ؟». آخَرُونَ قَالُوا: «لَيْسَ هَذَا كلاَمَ مَنْ بِهِ شَيْطَانٌ. أَلَعَلَّ شَيْطَاناً يَقْدِرُ أَنْ يَفْتَحَ أَعْيُنَ الْعُمْيَانِ؟».

وكما هي العادة، فبعد كل تعليم يقدمه المسيح، ينقسم السامعون إلى مناقض فاقد الاتزان في النقد، وإلى مدافع خائف متراجع عن إعلان إيمانه. كما أن الانقسام، كما رأينا سابقاً، إما يكون بين الجموع، وهو تعبير عن عامة الشعب غير المتعلم: «فحدث انشقاق في الجمع لسببه. وكان قوم منهم يريدون أن يمسكوه، ولكن لم يلق أحد عليه الايادي» (يو٧:٤٣-٤٤)؛ وإما يكون بين الفريسيين، وهي طبقة المتعلمين وحفظة الناموس: «فقال قوم من الفريسيين: هذا الإنسان ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت، أخرون قالوا: كيف يقدر إنسان خاطىء أن يعمل مثل هذه الآيات؟ وكان بينهم انشقاق» (يو٩:١٦)؛ وإما أن يكون بين اليهود، وهو تعبير عام يشمل المتعلمين وغالباً من سكان أورشليم، كما جاء في الآية التي نحن بصددها.

وهذا الحكم المتهور على تعاليم المسيح: « به شيطان وهو يهذي» يوضح تغرب الأذن والقلب عند هؤلاء السامعين عن مستوى إدراك صوت الله وفهم مقاصده الإلهية. ونحن لا نستنكر عليهم هذه الجهالة والحماقة ، فالتعاليم التي أسسوا عليها فكرهم وإيمانهم بلغت حدا من التفاهة، وذلك بالخوض في صغائر التخريجات الخرافية للوصايا والإنشغال بالأمور السياسية والدنيوية، حتى انطمست معالم الحكمة من قلوبهم فعميت بصائرهم عن رؤية الحق المستعلن لهم في المسيح قولا وعملا

ولا تزال هذه الخطورة محدقة بالإيمان السيحي حتى اليوم عندما يترك الرعاة جوهر الإيمان، والتمسك بمبادىء

الفداء والخلاص، والدعوة إل التوبة وتسليم الحياة في سيرة القداسة والطهارة، وينشغلون بالأمور الأخرى.

١٠:٢٢-٢٤ وَكَانَ عِيدُ التَّجْدِيدِ فِي أُورُشَلِيمَ وَكَانَ شِتَاءٌ. وَكَانَ يَسُوعُ يَتَمَشَّى فِي الْهَيْكَلِ فِي رِوَاقِ سُلَيْمَانَ. فَاحْتَاطَ بِهِ الْيَهُودُ وَقَالُوا لَهُ: «إِلَى مَتَى تُعَلِّقُ أَنْفُسَنَا؟ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ الْمَسِيحَ فَقُلْ لَنَا جَهْراً».

من جهة ما هو عيد التجديد، نرجو الرجوع للشرح في أول الأصحاح التاسع. أما من جهة المناسبة، فقد كان من أسلوب القديس يوحنا أن يذكر مناسبة الحديث، إما في بدء الكلام أوفي نهايته. فحديث الراعي الصالح كان هو حديث عيد التجديد في أورشليم. كما يذكرة القديس يوحنا أيضا أن المسيح كان يتمشى في رواق سليمان لأن الوقت كان شتاء، وموسم أمطار ثقيلة، فكان الهيكل ورواق سليمان ملجأ للمعلم من البرد والمطر. ولو حسبنا التاريخ لوجدنا أن عيد التجديد الواقع في هذه السنة كان في ٢٥ من شهر كسلو اليهودي لسنة ٢٩ م ويقابل الآن ١٩ ديسبر.

أما المناسبة الأساسية التي تربط سؤال اليهود للمسيح بهذا العيد، فهو الرجاء الملتهب الذي تثيره ذكريات هذا العيد في قلوب اليهود من جهة الخلاص السياسي من المستعمر والعبودية للسلطة الرومانية، كما عمل الله على يدي يهوذا المكابي وهزم السوريين وطردهم من البلاد. والآن، قد ظنوا أن على يدي المسيح أيضاً يتم الخلاص من عبودية الرومان، فكان هذا الإلحاح على المسيح لكي يكشف لهم عن شخصه، لأن أحاديث السيح كلها كانت تمس الخلاص ولكن بنوع لم يفهموه، فتعلقت نفوسهم بين القبول والرفض. فأجابهم المسيح وكشف لهم، لا عن شخصه بل عن شخصهم، وكيف أنهم أخطاوا الرؤية والفهم، فهو هو المسيا ولكن ليس لهم، وهم اليهود ولكن ليسوا يهود الموعد.

«فاحتاط به اليهود وقالوا له: إلى متى تعلق أنفسنا؟»: هذا الوصف لا يمت إلى شدة التعلق أو عن رغبة ملحة للسماع، ولكن هي محاولة للضغط والإرهاب، فسؤال اليهود كان على مستوى التحقيق والإلزام النهائي بكشف السر عن شخصيته؛ لأن المعروف عن المسيح أنه كان دائماً أبداً يتكلم بالأمثال مع الذين ليسوا من خاصته، مما أرهق فكرهم الضيق، فوجدوها الآن فرصة سانحة في هذا العيد أن يلزموه بالإفصاح العلني عن شخصه. فهذا هو عيد الأنوار، وهو يقول: إنه هو «نور العالم» (٩:٥). وهذا عيد الحرية، وهو يقول: «إن حرركم الابن فبالحقيقة تكونون أحراراً» (٨:٣٦). وهذا هو عيد تطهير الهيكل، وهو سبق أن تولى تطهيره بنفسه (٢:١٣-١٧). فلماذا إذن لا يحمل راية القائد المحرر؟

والأن على القارىء أن يتصور مدى تعلق أنفسهم فعلا بكل كلام المسيح، ولكن لشدة الأسف كان ذلك على المستوى السياسي والوطني. كانوا على أتم استعداد لإعلان الثورة وحمله على الأعناق، وتقديم أجسادهم للذبح والحريق بلا أي تردد، ولكن وللأسف لم يكونوا مستعدين للتوبة عن خطاياهم أو إعلان تجديد حياتهم! أليس هذا حال الكثيرين من المتحمسين للكنيسة والدين حتى إلى سفك الدم، وهم غرباء عن الإنجيل، وغير مستعدين لقبول كلمة التوبة أو الخلاص؟

١٠: ٢٥-٢٦ أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ. اَلأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا بِاسْمِ أَبِي هِيَ تَشْهَدُ لِي. وَلَكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي كَمَا قُلْتُ لَكُمْ.

«إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ وَلَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ. اَلأَعْمَالُ الَّتِي أَنَا أَعْمَلُهَا بِاسْمِ أَبِي هِيَ تَشْهَدُ لِي»: لم يكن كلام المسيح لهم إلا اختباراً لإيمانهم. المسيح يتكلم بكلام هو بحد ذاته نور وحق وحياة؛ إذن فهو دينونة مريعة للذين يرفضون بلا عذر، ولكن إن قالوا إن الكلام صعب عليهم، فهوذا الأعمال تشهد لصدق القول وتحكم بصدق الدينونة. إذن، الكلام والأعمال هي بحد ذاتها تتكلم أن المسيح هو من عند الآب، وباسمه كل ما يقول ويعمل. إذن، فلا داعي أن «يقول جهراً» إنه المسيح، هذا متروك لهم هم أن يقولوه ويشهدوا له ويؤمنوا به: أليسوا هم معلمي إسرائيل؟ كيف لا يعرفون مسيح الكتب والأنبياء؟ لو كان رجاؤهم صحيحا لعرفوا المسيح، ولكن رجاءهم مزيف هو، ومعرفتهم غاشة صنعتها أهواؤهم ونسجها كبرياؤهم.

١٠: ٢٦-٣٠ «لَكِنَّكُمْ لَسْتُمْ تُؤْمِنُونَ لأَنَّكُمْ لَسْتُمْ مِنْ خِرَافِي كَمَا قُلْتُ لَكُمْ. خِرَافِي تَسْمَعُ صَوْتِي وَأَنَا أَعْرِفُهَا فَتَتْبَعُنِي. وَأَنَا أُعْطِيهَا حَيَاةً أَبَدِيَّةً وَلَنْ تَهْلِكَ إِلَى الأَبَدِ وَلاَ يَخْطَفُهَا أَحَدٌ مِنْ يَدِي. أَبِي الَّذِي أَعْطَانِي إِيَّاهَا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْكُلِّ وَلاَ يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَخْطَفَ مِنْ يَدِ أَبِي. أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ».

المسيح هنا يكشف السبب الأساسي لإخفاقهم في معرفته وبالتالي عدم إيمانهم. وما هو السبب الرئيسي في عدم إيمانهم؟ يقول الرب: إن خرافة تسمع صوته فتجري إليه، وهو أيضاً يعرف خرافة ويسير أمامها وهي تتبعه، وما معنى هذا؟

معناه، أن للإنسان أذناً روحية مُنحت له ووُضعت في تركيب كيانه ليسمع بها صوت الله. هذه الأذن الروحية إما تنشغل بصوت الله، وتتمرن على تمييزه فتتعرف عليه بسهولة، وتطيع مشوراته بدون حذر أو خوف أو شكوك، فتسير أمام الله بالكمال الروحي الذي يرضيه، «سر أمامي وكن كاملاً» (تك١٧: ١)؛ وإما تنشغل بمشاغل الدنيا وتتلهى بها، إلى الدرجة التي تطمس معالم صوت الله، فلا يعود الإنسان ينشغل بصوت الله، بل يجد صعوبة في طاعته، وتتربى عنده حاسة العقل الشكاك على قياس المعارف والمنطق الدنيوي الناقص، فيشك في كل إيحاءات الخير التي تصطدم بها أذناه ء فيلقيها جانباً ريثما يتحقق منها، وهيهات إن يتحقق، فإنها تتلاشى ولا تعود...

هؤلاء اليهود سلموا آذانهم لمجد الدنيا، وإعلاء شأن أرض الوطن، ومحبة المال، أصل كل الشرور (١تى٦: ١٠) والتمسك بالحرف القاتل، وفهم ميراث الآباء الروحي على أنه تركة تؤول من تلقاء ذاتها لأبناء الجسد؛ كل هذا أضعف حاسة سماع صوت الله في الأذن الروحية وازداد طنين العالم المادي فيها حتى أتلفها... فلما ظهر الله بالجسد وتكلم معهم وجهاً لوجه أشد مما كلم الله موسى في القديم، لم يسمعوه على قياس أذن الآباء والأنبياء في القديم. ولما سمعوه لم يفهموه، لأن قياس العطايا والمواهب الإلهية تلوثت عندهم بالتراب تلوثاً شديداً، ولم يعودوا يميزون بين السماويات والأرضيات. ولما سمعوه ولم يفهموه، لم يأتوا باللوم على أنفسهم، بل شتموه وأهانوه ورفعوا أيديهم عليه ليقتلوه مرات كثيرة. فقامت ضدهم القضية وتثبتت الدينونة عليهم؛ لأن منهم من سمع الصوت، وتعرف على الله، وأطاع، وتبع، هؤلاء هم بالحق أبناء الميراث وحفدة الآباء والأنبياء، هؤلاء كانوا معروفين لله والمسيح منذ البدء منذ إنشاء العالم، أسماؤهم مكتوبة كنقش الحجارة على كف الله الآب منذ الدهر، هؤلاء هم بنو الله الحى، أبناء الملكوت، أهل بيت الله، خراف اليمين، أصدقاء العريس، ومدعوو العرس السماوي، ورثة العهد الأبدي،

وأصحاب صهيون الجديدة: «وقالت صهيون: قد تركني الرب، وسيدي نسيني. هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها؟ حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك. هوذا على كفي نقشتك، أسوارك أمامي دائماً.» (إش٤٩: ١٤-١٦)

هؤلاء قد تثبتت لهم الحياة الأبدية كميراث، كما بقسم إلهي، ليس لأنهم عرفوا الرب وكأنهم اكتشفوه، بل لأنهم لما لم يريدوا أن يعرفوا سواه، أدركوا أنهم معروفون عنده، وبقي هو نصيبهم كما هو!! «نصيبي هو الرب قالت نفسي» (مرا٣: ٢٤)، «إلى من نذهب كلام الحياة الأبدية عندك.» (يو٦: ٦٨)

هؤلاء لم يحبوا الرب كأنهم أصحاب فضل، ولكن لأنهم لما «لم يحبوا حياتهم حتى الموت» (رؤ١٢: ١١)، انسكب روح الحياة وحب الله في قلبهم، فصاروا أحياء، أحباء، ومحبوبين.

هؤلاء يقول الرب عنهم إنهم خراف الحياة الأبدية، فهي لن تهلك إلى الأبد، ليس لأنه حصنها ضد الهلاك، ولكن لأنها تحصنت بالرب ضد نفسها، فلا يُهلك النفس إلا نفسها... وهل الخراف الناطقة بالروح التي سمعت صوت الله وظفرت بالمسيرة خلف الراعي الصالح تخشى موارد الهلاك؟ «أيضاً إذا سرت في وادي ظل الموت لا أخاف شرا، لأنك أنت معي» (مز٢٣: ٤). وهل يستطيع الذئب أن يخطف نفساً أمسك بها الرب يسوع؟ فأن يُمسك الرب نفساً هو هو على المستوى اللاهوتي أن يتحد بها؛ وعلى المستوى الإنجيلي هي تصير من «أعضاء جسمه من لحمه ومن عظامه» (أف٥: ٣٠). وبعد هذا هل يمكن أن يخطفها أحد من يده؟

الإعلان الأعظم عن سر الحياة والأمان المطلق لمختاري الله

«أبي الذي أعطاني إياها هو أعظم من الكل، ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي. أنا والآب واحد»:

المعنى سهل لو تتبعنا تداعي المعاني السابقة، فالفريسيون يدعون السيادة على الشعب، بصفتهم رعاة استلموا الرعاية من ابائهم بمقتضى تلمذتهم لموسى والناموس الذي استلمه موسى بيد ملائكة. لكن المسيح يستعلن المصدر الذي استلم منه الرعاية، وبالتالي الخراف، فليس هو الآباء ولا موس ولا الناموس من يد ملائكة، بل من الله مباشرة بصفته أباه «أبي»، والله بصفته أبا ربنا يسوع المسيح هو أعظم من الكل، أعظم من الآباء جيعا ومن موسى ومن الملائكة ومن كل ما في السموات أو الأرض. والخراف المختارة هي في الحقيقة ملك الله وحده. والله، وإن كان قد استأمن الآباء والأنبياء والملوك قديما على خرافة، إلا أنهم كانوا كلهم عبيدا أخطأوا، وزلوا جميعا على مستوى الخراف ذاتها. أما المسيح فقد أعطاه الآب الخراف عن جدارة بصفته الابن المحبوب القدوس والممجد والمساوي للآب. فانتقلت الخراف من يد الآب إل يد الابن كما من المثيل إلى المثيل: «كانوا لك وأعطيتهم لي» (يو١٧: ٦). انتقلت من يد المالك إلى الفادي، ولو تمعن القارىء لوجد أن الفادي والمالك واحد، لأن الفادي فدى خراف الآب الضالة بحياته، وإذ فداها بحياته يكون قد امتلكها، ولكنه بالنهاية امتلكها لحساب المالك: «وبعد ذلك... متى سلم الملك لله الآب... » (اكو١٥: ٢٤) «أنا أظهرت اسمك للناس الذين أعطيتني من العالم، كانوا لك وأعطيتهم لى... وكل ما هو لى فهو لك، وما هو لك فهو لي... » (يو١٧: ٦و١٠)

«ولا يقدر أحد أن يخطف من يد أبي»: الذين فداهم المسيح، قدسهم بالروح القدس، ثم قدسهم للآب بالتالى لينالوا تقديس الآب كما نالوا تقديس الابن والروح القدس: «لأنه به (بالمسيح) لنا كلينا (اليهود والأمم) قدوما في روح واحد إلى الآب» (أف٢: ١٨). ثم يكمل بولس الرسول ليوضح منتهى مشيئة الله من جهة مختاريه هكذا: «فلستم إذا بعد غرباء ونُزلا، بل رعية (خراف) مع القديسين وأهل بيت الله» (أف٢: ١٩). فالذين كانوا ممسوكين بيد المسيح (متحدين)، ولم يستطيع أحد أن يخطفهم من يد المسيح لأنه وضع حياته ثمناً لحياة كل خروف، وصاروا

أعضاء جسده من لحمه ومن عظامه، هؤلاء صاروا بالتالى في يد الآب محفوظين مع القديسين، مختومين رعية الله الآب، محسوبين أهلا في بيت الله. أما الذين هم في يد الآب فلم يعد يقدر أحد أن يخطفهم، ولا حتى الشيطان يستطيع أن يمسهم، لأن روح الله صار هوبذرة الحياة التي يحيونها في الله كأبناء، أي صاروا متحدين بالآب كما هم متحدون بالابن والروح القدس.

فالقديس يوحنا مهد لهذا المعنى، من قبل، بقوله: «أما كل الذين قبلوه (قبلوا المسيح) فأعطاهم سلطاناً (الروح القدس) أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنون باسمه (المسيح)، الذين وُلدوا ليس من دم ولا من مشيئة جسد ولا من مشيئة رجل بل من الله» (يو١:١٢-١٣) ويكمل القديس يوحنا مفهوم «المولود من الله» هكذا: «كل من هو مولود من الله لا يفعل خطية، لأن زرعه (بذرة حياة الله) يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطىء لأنه مولود من الله...» (١يو٣:٩)

ولكن، إذ يظهر من هذا أن هناك وعداً من الله بالحفظ الكامل والنهائي للذين قبلوا المسيح وصاروا أولاد الله، يتحتم علينا أن نفرق بين تأكيدات وعود الله النابعة والمتشية مع قدراته السرمدية اللانهائية من جهة، وبين ضعف الإنسان وتغيرات مشيئاته من جهة أخرى. فإذا سقط الإنسان من حياته الروحية في مرحلة من مراحل نموه وتكامله، فهذا ليس قصوراً في عمل النعمة الإلهية، ولا هو بسبب طغيان الشر فوق ما يحتمل الإنسان، ولكن السبب والعلة إنما هما في عدم استخدام الإنسان لعوامل النعمة المتعددة والموضوعة لخدمته، واستهانته بخديعة الخطية، فالإنسان يستحيل أن يُحفظ ضد نفسه رغم مشيئته!!!

إذن، لماذا أعطى الله لنا هذه التأكيدات، وكأنها أسوار تحمينا كلية وكاملة؟ السبب في ذلك غاية في العجب وغاية في القوة: وهو أن من يتمسك بهذه التأكيدات الإلهية تمسكاً قويا بكل قلبه وفكره وقدرته ومن كل نفسه، يفوز بعملها الكامل بلا نقصان، والقصص في ذلك كثيرة. لهذا يعطي القديس يوحنا تكميلاً لمفهوم الميلاد من الله وعمل بذرة الله في كيان الإنسان إيجابياً من قتل استجابة الإنسان هكذا: «نعلم أن كل من وُلد من الله لا يخطىء، بل المولود من الله يحفظ نفسه والشرير لا يمسه» (ايو٥:١٨). هنا «بذرة الله» أثمرت قوة في الإنسان، يحفظ بها نفسه ضد إغراءات الخطية وسطوة الشر والشرير، إلى الدرجة التي فيها، في هذه القوة، لا يستطيع الشيطان أن يقترب إليه!! وهذا ما نسمعه كثيرا وكثيرا جداً في تاريخ حياة القديسين في كل جيل وفي كل أمة.

وهذا الكلام الذي يقوله الرب يسوع عن الأمان والعناية والرعاية معاً والحفظ في يد الله، هذه التي يطرحها كوثيقة من الآب نفسه ويضمنها المسيح بحياته للذين يتبعونه ويعيشون تحت رعايته، سبق أن عبر عنها الروح في العهد القديم كوعد سيكون وقد كان: «أنتم شهودي يقول الرب، وعبدي، الذي اخترته، لكي تعرفوا وتؤمنوا بي، وتفهموا أني أنا هو، قبلي لم يصور إله وبعدي لا يكون. أنا أنا الرب وليس غيري مُخلّص. أنا أخبرت وخلصت وأعلمت وليس بينكم غريب، وأنتم شهودي، يقول الرب، وأنا الله. أيضاً من اليوم أنا هو ولا منقذ من يدي، أفعل ومن يرد» (إش٤٣:١٠-١٣). وتوضيح ذلك، أن كل الذين هم تحت رعاية المسيح، هم بالتال تحت حماية الله نفسه كوعد... لأن حماية الله الفائقة المتساوية مع قدراته، تضمنها الآن علاقة المسيح بالآب.

١٠: ٣٠-٣٣ أَنَا وَالآبُ وَاحِدٌ. فَتَنَاوَلَ الْيَهُودُ أَيْضاً حِجَارَةً لِيَرْجُمُوهُ. فَقَالَ يَسُوعُ: «أَعْمَالاً كَثِيرَةً حَسَنَةً أَرَيْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أَبِي، بِسَبَبِ أَيِّ عَمَلٍ مِنْهَا تَرْجُمُونَنِي؟». أَجَابَهُ الْيَهُودُ: «لَسْنَا نَرْجُمُكَ لأَجْلِ عَمَلٍ حَسَنٍ بَلْ لأَجْلِ تَجْدِيفٍ فَإِنَّكَ وَأَنْتَ إِنْسَانٌ تَجْعَلُ نَفْسَكَ إِلَهاً».

كثير من المفسرين غير المستقيمي الفكر أرادوا أن يُضعفوا من فهم هذه الآية على أنها لا تختص بلاهوت المسيح ومساواته لله الآب. ولكن رد فعل هذه الآية على أسماع وأفهام اليهود، وهم أقدر العلماء قاطبة في فهم وتحديد مفهوم الله، هو الذي يؤكد المعنى الذي قصده الرب يسوع: «أنت تجدف»، «وأنت إنسان»، «أنت تجعل نفسك إلـها». ولكن المسيح لا يجدف، ولا يجمل نفسه غير نفسه، فهو إله، وليس ذلك فقط، فقول المسيح: «أنا والآب واحد»، يفوق ما تصوره اليهود أيضاً. فهو عندما قال: «أنا والآب واحد»، لا يقصد أن يعرف نفسه أنه إله وحسب، بل أراد أن يعرف ماهية نفسه بالنسبة لماهية الآب، حيث الـ «ماهية» هي الطبيعة، فالمسيح والآب طبيعة واحدة، ولكن لم يذكر المسيح كلمة الطبيعة ولكنه كان يعبر عنها في كل أحاديثه.

فالمسيح احتوى معنى الطبيعة الواحدة، أي الجوهر، أي الكيان اللاهوتي، الذي له كما هو للآب في معنى الفداء الواحد الذي أكمله المسيح بالعمل مع الآب، بالمشيئة، بالنسبة للخراف. فقوة الفداء غير منقسمة ولا متوزعة بالتساوي بين الآب والمسيح، بل هي قوة واحدة لله مشيئة وعملاً. كذلك الحب الواحد كقوة فعالة، لم يتنازل عنها الآب للابن من نحو الخراف، ولم تنقسم أو تتوزع أعمال الحب الواحد بين الآب والمسيح، بل المسيح أكمله تماماً ولا يزال يكمله مع الآب. فمحبة الله واحدة من نحو الأخصاء، الخراف، والآب يعبر عنها تعبيراً كلياً كما يعبر عنها المسيح تعبيراً كلياً. وهذا كان واضحاً تمام الوضوح، دون أي مفارقة أو تمييز بين الحفظ في يد المسيح والحفظ في يد الآب. فلا استطاعة لأحد ما أن يخطفها من يد المسيح، كما لا استطاعة لأحد ما أن يخطفها من يد الآب. وهذا تعبير ضمني عن وحدة القوة الإلهية مع وحدة الحب الإلهي من نحو الخراف للآب كما للمسيح.

فإذا انتقلنا من وحدة قوى الجوهر الإلهي، وهي القدرة اللانهائية والحب الأبدي للآب والابن، إلى الابوة والبنوة وهي صفة الجوهر الإلهي، نجد أن الآب والابن هما ذات واحدة (مع الروح القدس)، وشخصية معنوية واحدة (الله)، وكيان إلهي واحد: «أنا هو»، أزلي لا بداية ولا نهاية له

فقول المسيح: «أنا والآب واحد»، آية مانعة للخلط في الجوهر الإلهي، وهي محملة بكل المعاني الإلهية، لأنها تشمل مفهوم وحدة قوى الجوهر، أي الطبيعة، ووحدة الذات أي الصفة الجوهرية، حيث لا يتبقى للتمييز بين الآب والابن إلا صفة الابوة والبنوة. فالآب ليس ابناً والابن ليس آباً، والأبوة والبنوة هما في الذات الواحدة لله. والذي يجعل هذه الآية معيارا لاهوتياً غنيا نستقي منه أعمق وأخصب، بل وأعز المكاسب الروحية والخلاصية، هو أن الذي يقولها هو«المسيح»، الابن متجسداً، أي الحامل جسد إنسان، فالتجسد هنا داخل في الاعتبار، أي داخل في التكوين المعنوي لقول المسيح: «أنا والآب واحد».

فإذا تنبهنا أن البشرية المفدية، أي الأخصاء الذين يؤمنون ويحبون ويحيون في الرب، هم داخلون ومتحدون «بالجسد السرى» الذي للمسيح، لأدركنا كم تكون هذه الآية ذات اعتبار خطير وضمان وثيق لحياتنا الأبدية ورجائنا العتيد في المجد، كأبناء وورثة مع المسيح في الله، كقول بولس الرسول.

وفي النهاية، يلزم أن ننبه أن كل تماحك لإضعاف مفهوم هذه الآية: « أنا والآب واحد»، كأن ينسبها البعض إلى واحدية أدبية أخلاقية أو روحية، يلزم أن نعترف في وجهه بشرح اليهود لهذه الآية، وهم المتعصبون لمفهوم لاهوت

الله إلى أقص حدود التعصب حتى إلى الرجم: «لسنا نرجمك لأجل عمل حسن بل لأجل تجديف، فإنك وأنت إنسان تجعل نفسك إلهاً»، علما بأن المسيح لم ينفي هذا المعنى الذي فهموه، الذي هو نفس القصد الذي قصده هو، بل زاده تأكيداً!!

ولا يفوتنا أن نعرف هنا، أن المسيح يكشف عن وحدة لاهوته مع الآب ليرفع من مستوى مفهومنا لمقدار الحفظ والأمان اللذين يتمتع بهما المؤمنون المتمسكون بالرب، فهما قائمان بضمان وحدة الابن والآب معاً. وهذا بحد ذاته هو قوة الله وقوة الرجاء في الخلاص الذي أكمله المسيح لنا.

١٠ :٣٤-٣٦ أَجَابَهُمْ يَسُوعُ: «أَلَيْسَ مَكْتُوباً فِي نَامُوسِكُمْ: أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؟ إِنْ قَالَ آلِهَةٌ لِأُولَئِكَ الَّذِينَ صَارَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ وَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يُنْقَضَ الْمَكْتُوبُ. فَالَّذِي قَدَّسَهُ الآبُ وَأَرْسَلَهُ إِلَى الْعَالَمِ أَتَقُولُونَ لَهُ: إِنَّكَ تُجَدِّفُ لأَنِّي قُلْتُ إِنِّي ابْنُ اللَّهِ؟.

المسيح يشهد بالمزمور الثاني والثمانين: «الله قائم في مجمع الله، فى وسط الالهة يقضي ... انا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم». فالوحي الإلهي هنا يعطي صفة الآلهة للمجمع الذي يجتمع على أساس الحكم بكلمة الله. فالذي أُعطي كلمة الله ليعيش وليحكم بها لمدعو من الله، هو فى الناموس اليهودي (ناموسكم) محسوب بصفة إله من نحو الناس من أجل كلمة الله؛ «ولا يأخذ أحد هذه الوظيفة بنفسه بل المدعو من الله كما هرون أيضاً» (عب٥:٤). وصفة إله أطلقت أيضاً على موسى لأن الله وضع كلمته في فمه يكلم بها هرون كأنها من الله «وهو يكلم الشعب عنك. وهو يكون لك فما وأنت تكون له إلهاً.» (خر٤:١٦)

المسيح هنا يشير إشارة بالغة الخطورة إلى القيمة الإلهية للناموس، كعهد الله مع الإنسان، الذي لم يُنقض بالرغم من أن هؤلاء الناس (القضاة) الذين دعوا آلهة نقضوا الناموس وأهانوا الكلمة وأتعبوا قلب الله: «الله قائم ... في وسط الآلهة يقضي. حتى متى تقضون جورا وترفعون وجوه الأشرار... لا يعلمون ولا يفهمون. في الظلمة يتمشون. تتزعزع كل أسس (الحق) الأرض. أنا قلت إنكم آلهة وبنو العلي كلكم. لكن مثل الناس تموتون، وكأحد الرؤساء تسقطون. قم يا الله دن الأرض، لأنك أنت تمتلك كل الأمم.» (مز٨٢:١-٨)

والإشارة هنا بليغة، تهدف إلى رفض هؤلاء القضاة الظلمة وإلى إسقاطهم من رتبتهم العالية، وهو تعبير عن نقض العهد القديم بقوله: «لكن مثل الناس تموتون» بمعنى فقدان الصفة الإلهية التي كانت تؤهلهم للاتحاد بالله وبالتالي ميراث الحياة الأبدية؛ بل ويزيد على ذلك أن سقوطهم سيكون كسقوط الشيطان: «وكأحد الرؤساء تسقطون». وبنهاية سقوط حكمهم وقضائهم بالناموس، ينتهي العهد القديم، فيقوم الله ليدين ويملك على الأمم، والإشارة هنا للمسيح.

كذلك يلزم أن ننتبه إلى بقية الآية التي اختارها المسيح من المزمور: «أنا قلت إنكم آلهة»، لأن باقي الكلام «وبنى العلي كلكم»، وهذا يأتي حبكاً محكماً على تطبيق المسيح الكلام على نفسه: «أتقولون له إنك تجدف، لأني قلت إني ابن الله؟» فالتطبيق هنا يتم على جزئين:

الجزء الأول: «انا قلت إنكم آلهة»، حيث التطبيق يأتي ردا على ادعائهم أن كون المسيح إلهاً يعتبر تجديفاً، في حين أن كل الذين صارت إليهم كلمة الله يدعون في الناموس آلهة.

والتطبيق الثاني يأتي كتغطية إيجابية على قول المسيح أنه «ابن الله» فلا عجب في ذلك إذا كان كل من صارت إليهم كلمة الله دُعوا في الناموس بني العلي، وأبناء الله.

وقصد المسيح من طرح هذا الاقتباس من الناموس، وخاصة عند قوله: «ولا يمكن أن يُنقض المكتوب»، هو أن الناموس سبق ومهد بالحق للأذهان إمكانية دعوة الإنسان في شخص يسوع المسيح لحمل صفة اللاهوت، كما أن هذه الدعوة نفسها أعطت الإنسان في شخص يسوع المسيح الإمكانية أن يكون هو ابن الله. هذا من جهة الفكر الناموسي. ولكن المسيح الآن يرتفع من هذا الفرض إلى الواقع، ويقدم نفسه كإله وابن الله بالفعل، مبرهناً على صدق ذلك بأنه إن كان مجرد الذين صارت إليهم كلمة الله ليحكموا بها أو ليحكم هو (الكلمة) بهم، هكذا دُعُوا آلهة وبني العلي، فكم يكون بالحري الذي هو هو «الكلمة» ذاته، الذي إذ أخذ جسدا قدمه الآب وأرسله إلى العالم، ليستعلن الله الآب، وليعطي الناس كلمة الله؟ فهل يُحسب مجدفاً إن قال: «أنا ابن الله»؟ أو إن قال: «أنا والآب واحد»؟

وفي الحقيقة، إن المقارنة هنا غير معقولة وغير متكافئة، ويقدمها المسيح تهكماً من عقولهم، لأنه إذا أردنا أن نوضح هذه المقارنة على حقيقتها تكون كالآتي: «كلمة الله» وهو المسيح قبل التجسد، عندما أعطى رؤساء الكهنة والكتبة والفريسيين أن يحكموا بقتضى إلهامه بحسب الحق، وهم لم يحكموا أبدأ بالحق، دعوا آلهة وبني العلي، وهم لم يكونوا من القداسة في شيء. ولما جاء «كلمة الله» ذاته متجسداً، وهو المسيح، مقدساً ومرسلاً من الآب، وقال إنه ابن الله، قالوا له أنت تجدف. علماً بأن كلمة «قدسه» تفيد التخصيص لعمل الله في العالم، والذي يتمحور حول خلاص الإنسان.

وعلينا أن ننتبه إلى العلاقة بين قول المسيح: «إني ابن الله»، وقوله السابق: «أنا والآب واحد»، وقول اليهود له: «وأنت إنساناً تجعل نفسك إلهاً»، فبهذه الإعلانات الثلاثة يقوم علم اللاهوت، فيما يختص بالمسيح في العهد الجديد، بكل امتداده من نحو الإنسان من جهة الإتحاد بالله والتبني.

فقول المسيح: «إني ابن الله»، هو تكميل لاهوتي محكم لقوله السابق: «أنا والآب واحد». هنا يكمل الإعلان أن الله آب وابن معاً، في وحدة ذاتية مطلقة لا تقربها الثنائية إطلاقاً، لا في الجوهر ولا في الذاتية. كما أن شرح اليهود لمضمون معنى «أنا والآب واحد» بأن المسيح وهو إنسان (جعل) نفسه إلهاً، وموافقة المسيح على ذلك، يضيف «سر التجسد» داخل وحدة الآب والابن، وبالتالي يُدخل البشرية في سر الله. وهنا كمال السر وكمال العجب.

ولكن العجيب حقا أن تكون هذه الصورة اللاهوتية موجودة كاملة في العهد القديم بالذات: هذا المزمور الذي اختاره المسيح ليستعلن فيه نظرة الناموس كله من نحو لاهوته وبنوته الفريدة، وبالتالي من نحو إتحاد الإنسان به؛ فقوله: «أنا قلت إنكم آلهة» هذه عملية مثيلة لعملية الخلق ومكملة لها: «وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا» (تك١:٢٦). ومن الاثنين يتضح أصالة تدبير الله من حيث قبول الإنسان للاتحاد بالله والحياة معه، ليس خلسة، بل بقدر ما تنطبق الصورة على الأصل، لأنها لهذا خلقت ولهذا عاشت، وان ماتت فلكي تقوم وتزداد أصالة.

هذا هو روح الناموس وخلاصته، فالناموس في العهد القديم ليس كما يراه اليهود: أنه دعوة لإفراز الله بعيدا عن الإنسان بعدا مطلقاً، وتوحيده توحيدا مطلقاً، ضماناً لعدم مساسه بنجاسات فكر الإنسان؛ ولكن الناموس في حقيقته، وكما كشفه المسيح، على العكس تماماً، فالعهد القديم وكل الناموس يقوم على تقريب الإنسان إلى الله تقريباً شديداً جداً: «نعمل الإنسان على صورتنا، كشبهنا». و يظهر ذلك أكثر في محاولة الله من جهته لرفع الفوارق والحواجز التي تحرم الإنسان من الدخول في دائرة اختصاصات الله الخاصة جداً: «أنا قلت: إنكم آلهة».

هنا الله يمنح نفسه للانسان بمقولة نافذة الفعل والمفعول تتخطى كل عجز الإنسان، لتلبسه تاج الألوهة بلا قيد ولا

شرط، وعلى الإنسان أن يأخذ منه قدر ما يحتمل وقدر ما تطمع نفسه في سخاء حب الله، حيث أعطى المسيح لنا الصورة الأعلى والأعظم والمطلقة بلا حدود لكيف يحل الله في الإنسان: «الآب الحال في هو يعمل الأعمال» (يو١٤: ١٠)، «فإن فيه يحل كل ملء اللاهوت جسدياً، وأنتم مملوؤون فيه» (كو٢: ٩-١٠). ثم أليس في المسيح رُئي الإنسان إلها، أو على وجه الأصح رُئي الله في صورة الإنسان «الذي وُضع قليلاً عن الملائكة يسوع نراه مكللاً بالمجد والكرامة» (عب٢: ٩)؟ إذن، لم يكن عبثاً أن يقول الناموس «أنا قلت إنكم آلهة»، فالإشارة هادفة رأساً إلى المسيح، ومنه إلينا، فالوحي الإلهي هنا يخاطب الناس في المسيح!

ثم في قول الناموس: «وبنو العلي كلكم» تُظهر نتيجة عطاء الله لنفسه، كيف يشد الإنسان ليرفعه من العبودية إلى التبني، فالذي يأخذه الإنسان من الله كفيل، بحد ذاته، أن يمنحه حق التبني. ولكن، وبطريق غير مباشر، يظهر الابن كوسيط لهذا التبني والتقرب إلى الآب. فالمسيح الذي أخذ الآب لنفسه أخذا كليا ومطلقا، كابن وحيد لأبيه، أعطي أن يعطي لأحبائه قدر ما يشاء من ميراثه البنوي لأبيه. «الروح نفسه أيضا يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله، فإن كنا أولاداً فإننا ورثة أيضاً، ورثة الله ووارثون مع المسيح.» (رو٨: ١٦-١٧)

ولكن الناموس في العهد القديم قد أخفق في أن يعطي الناس الألوهة والبنوة للعلي التي نطق بها الله، التي كان يلزم أيضا أن يرافقها عدم الموت، كما يقول الزمور: «ولكنكم مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون». هنا يكشف الناموس عن عجزه، لأن الناموس في كلياته وجزئياته لم يكن إلا شبه السماويات وظلها... كذلك لم يكن إلا ليمهد للحق الإلهي النازل من السماويات، النور الحقيقي الذي ليس فيه ظل دوران، الذي له ملء الحياة، القائم والمقيم من الأموات، الواهب التبني لبني العلي، بضمان بنوته الإلهية القائمة في ذات الله منذ الأزل. لذلك، فإنه بالمسيح وحده يكمل الناموس، وفيه يتحقق وعد الله ويظفر الإنسان بكل المواعيد الصادقة والأمينة.

١٠: ٣٧-٣٨ «إِنْ كُنْتُ لَسْتُ أَعْمَلُ أَعْمَالَ أَبِي فلاَ تُؤْمِنُوا بِي. وَلكِنْ إِنْ كُنْتُ أَعْمَلُ فَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا بِي فَآمِنُوا بِالأَعْمَالِ لِكَيْ تَعْرِفُوا وَتُؤْمِنُوا أَنَّ الآبَ فِيَّ وَأَنَا فِيهِ».

الرب هنا ينتقل من الإقناع الفكري إلى الإقناع العملي، فيجعل أعماله التي يعملها بالآب هي القاعدة التي يبني عليها كيفية إدراك لاهوته. فهو يبدأ ببرهان العمل، وينتهي بنتيجة أنه هو والآب واحد؛ وهذا على أساس أن يكون ماثلا على الدوام في الأذهان أنه «مُرسل» من الآب ليعمل أعمال الآب!! الأمر الذي أشار إليه: «فالذي قدسه الآب وأرسله إلى العالم...». الرب هنا يعتمد إمكانية رفض الإيمان بأقواله إذا لم تكن له أعمال الآب. وفي هذه الحالة يمكن رفض أقواله، باعتبار أنها غير صحيحة فرضاً، ولكن يتحتم أن يؤمنوا بأن الأعمال صحيحة، لأنها واضحة أمامهم وتشهد أنها بالله معمولة. وهنا لا يطلب المسيح، مبدئياً، أن يؤمنوا به شخصيا بل أن يقبلوا صحة أعماله، وهي حسب النص اليوناني واضحة، هيث تأتي بمعنى: «إن كنتم لا تصدقونني، فصدقوا الأعمال». وهي تأتي مطابقة لآية سابقة: «لو كنتم تصدقون موسى، لكنتم تصدقونني لأنه هو كتب عني» (يو٥: ٤٦)، وهي تأتي باللغة الإنجليزية واضحة بسبب الفرق بين «صدقني» = believe me وبين «آمن بي» = believe in me. فالمسيح يركز أساساً على الأعمال، ويطلب أن يقبلوها في حد ذاتها، فإذا قبلوها، فهي نفسها تحمل الشهادة له، لأنها عُملت على أساس أنها آية تشير إلى أن الذي قام بتفتيح العين هو أعظم وأهم من العين ذاتها بلا نزاع.

فالمسيح له الحق منتهى الحق أن يجعل الآيات التي عملها علة وسبباً مُلزماً لليهود أن يؤمنوا به، لأنها تفوق عمل أي بشر: «صدقوني أني في الآب والآب في، وإلا فصدقوني لسبب الأعمال نفسها» (يو١٤: ١١)، ولكن إذا

تمادوا في المقاومة ولم يصدقوا الأعمال أيضاً، فهذا يصير لهم سبب دينونة: «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيري لم تكن لهم خطية، وأما الآن فقد رأوا وأبغضوني أنا وأبي.» (يو١٥:٢٤)

«فآمنوا بالأعمال، لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب في وأنا في الآب»: الرب هنا يستخدم الأعمال للاقناع الفكري ثم للايمان القلبي، وذلك بالنسبة للذين رفضوا استعلانه بالكلمة. وهنا يواجهنا في هذه الآية أربعة أفعال، كل فعل منها له أبعاده ويؤدي إلى الآخر حتى تبلغ الحقيقة الإلهية:

الفعل الأول: هو الأ عمال التي عملها الرب، وهو الفعل الذي يحوي في أعماقه حقيقة صانعه. فأبعاد عمل الرب تحوي بالأساس عمل الآب وعمل الابن، ويلزم الاحساس بهما من داخل العمل، أي من قوة المعجزة المصنوعة. فتفتيح عين الأعمى هو بالأساس عمل الله، ما من ذلك شك على الإطلاق. والذي قام بالعمل هو المسيح علانية.

الفعل الثاني: هو تصديق العمل «آمنوا بالأعمال»، وفعل التصديق مستمد من صحة العمل المعمول. فالأعمى وُلد أعمى بشهادة أبويه، وهو الآن يبصر، فالتصديق أصبح حتميا. ولكن التصديق بالآية المعمولة معناه مواجهة لتصديق صانع الآية من داخل الآية، أي مواجهة الله صاحب المشيئة والمسيح صاحب العمل الذي يعمل بحسب مشيئة الآب.

الفعل الثالث: هو«لكي تعرفوا». الفعل «تعرفوا» هنا جاء في اليونانية (   ) وأمامها (   ) «لكي». المعرفة في هذا الفعل ليست معرفة سطحية عابرة، بل معرفة تؤدي إلى ما هو أكثر من معرفة، فالفعل هنا جاء بالمفهوم المدخلي، أي معرفة تنتهي إلى معرفة. فإذا انتبهنا لقول المسيح: «فآمنوا بالأعمال لكي تعرفوا»، ندرك في الحال ماذا يريد المسيح. فتصديق الأعمال يؤدي حتماً «لكي» إلى معرفة مستقرة ومتعمقة أو مستغرقة في الآية، لكشف قوتها وفهم مقاصدها وأهدافها، وتستمر هذه المعرفة تأخذ مجراها من كشف إلى كشف لكي تبلغ:

الفعل الرابع: «تؤمنوا» (   ). وفي الحقيقة جاء هذا النص هكذا في معظم المخطوطات اليونانية، فأضاعت عمق المعنى، ولكن في بعض الترجمات اللاتينية القديمة وبعض المخطوطات اليونانية ذات الحروف الكبيرة جاءت (   ) بمعنى الإدراك النهائي أو الاستقرار في المعرفة، وهذا مما جعل المخطوطات اليوناية تحولها إلى «تؤمنوا» الذي هو الاستقرار الأخير في المعرفة، أو «إيمان المعرفة».

ولكن ما هو موضوع المعرفة المؤدية إلى الإيمان؟ هنا المسيح يستعلن نفسه: «إن الآب في وأنا في الآب»، كغاية ونهاية وكل مقصد الأعمال التي يعملها. والاستعلان، كالعادة، لا يأتي بصورة شخصية مفردة، بل بالنسبة للآب؛ ولا يأتي كمعلومة ليس لها برهان، بل ببرهان وقوة الآيات، فـ «الآب فيّ» لأن العمل الإعجازي هو أصلا عمل الله مائة بالمائة. وهذا بالتأكيد هو مسئولية «المعرفة» الفاحصة المستغرقة في الآية. و«أنا في الآب» لأني أنا الوحيد الذي عملت أعمالاً مثل هذه: «أعمالاً لم يعملها أحد غيري.» (يو١٥:٢٤)

لذلك، أصبحت أعمال المسيح في حقيقتها استعلاناً ناطقاً لسر وحدة العلاقة بين المسيح والله الآب. لهذا جعل المسيح الإيمان بأعماله هو المدخل لمعرفة من هو، بالنسبة لليهود المتشككين الذين قالوا له: «إلى متى تعلق أنفسنا، إن كت أنت المسيح فقل لنا جهراً».

ولكننا نرى أن المسيح أعلن نفه بواسطة الكلمة فقط لتلاميذه الذين تركوا كل شيء وتبعوه، وليس بواسطة الأعمال، لأن «سر الرب لخائفيه» (مز٢٥:١٤): «أنتم الآن أنقياء لسبب الكلام الذي كلمتكم به» (يو١٥:٣)، «الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم، وهم قبلوا وعلموا يقيناً أني خرجت من عندك، وآمنوا أنك أنت أرسلتني.» (يو١٧:٨)

فالرب يسوع المسيح مُستعلن بالكلمة بالنسبة لأحبائه: «الله... كلمنا... في ابنه» (عب١:١). والذين يقبلون الكلمة في قلب صالح، هم الذين هم أذان روحية للسمع، تدخلها الحياة الأبدية مع صوت ابن الله: «الحق الحق أقول لكم: إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥:٢٤). والذي ليست له أذن مفتوحة لسماع «الكلمة»، هيهات أن يؤمن: «لماذا لا تفهمون كلامي؟ لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي» (يو٨:٤٣)، «الذي من الله يسمع كلام الله لذلك أنتم لستم تسمعون، لأنكم لستم من الله» (يو٨:٤٧). أما الذي يطلب آية فهو الجيل الشرير، الذي لا يتبقى له إلا خبر القيامة (راجع لو١١:٢٩).

وأخيراً، فلينتبه القارىء، لأن المسيح هو «الكلمة». هكذا جاء، وهكذا تجسد، وهكذا أُستعلن، وهذا هو إنجيل يوحنا كله. فالذي يمتلك الأذن الروحية، هو الذي له الطوبى، والقادر أن يتعرف على المسيح «الكلمة» ويقبل إليه: «قال له يسوع: لأنك رأيتي يا توما آمنت. طوبى للذين آمنوا ولم يروا.» (يو٢٠:٢٩)

ولكن، فلينتبه القارىء أيضاً، فلا تعارض إطلاقاً بين «الكلمة» و«الآية»، فالآية هي كلمة معمولة، أو هي فعل. والفعل هو الكلمة فعالة. وليس أدل على ذلك من الترجمة الفرنسية لمطلع إنجيل يوحنا: «في البدء كان الكلمة»، حيث تأتي: «في البدء كان الفعل... »

ويلاحظ هنا أن اليهود يطلبون «الكلمة»: «قل لنا إن كنت أنت المسيح»، ولكن حينما «يتكلم» المسيح يعلن نفسه أنه هو المن (الخبز) الحقيقي النازل من السماء، يطلبون منه «آية». «أية آية تصنع لنرى ونؤمن بك؟» (٦:٣٠). وفي هذا يتعجب عليهم ذهبي الفم بقوله: [حينما تصرخ الأعمال عالية يطلبون منه قولاً؛ وحينما يعلم بالكلمة، فحينئذ ينسحبون ويطلبون الأعمال. وهكذا يقفون الموقف المعاكس] (على الآية ٣٠ من الأصحاح العاشر).

وفي رأي المسيح، فإن الأعمال تكفي كشهادة لليهود للايمان به، وأما المؤمنون، فالكلمة تكفي لتكون لهم قاعدة للايمان، ولا ينبغي أن يطلبوا معها آية ليزداد إيمانهم أو يثبت.

١٠:٣٩ فَطَلَبُوا أَيْضاً أَنْ يُمْسِكُوهُ فَخَرَجَ مِنْ أَيْدِيهِمْ.

عجبي على هؤلاء اليهود! كم مرة حاولوا هذه المحاولة الفاشلة، ولكن إلحاحهم على التخلص منه يعكس مدى الضيق الذي آلم بهم بسبب الحق الظاهر في حياته وأعماله، والذي يوبخ ويدين حياتهم وأعمالهم. ولكن العجب الأكثر هو محاولتهم «أن يمسكوه»، مع أنه كان في التو يقول لهم إن لا أحد يقدر أن يخطف خروفاً واحداً من يده، فبرهنوا على أنهم فعلا يسمعون ولا يفهمون!! فهل استطاع الذئب الذي لم يقو على خطف الخروف من يد الراعي أن يضع يده على الراعي ويخطفه؟ لذلك يسخر منهم القديس يوحنا ويصف كيف انشلت أيديهم وخرج الرب ويدهم قابضة على الريح... مقارنة تحكي في صورة ساخرة بين أيديهم التي لم تقدر على الإمساك به، ويده التي تمسك ولا أحد يخطف البتة. وأخيراً، صورة ملكية ذات جلال ووقار لله الآب وهو ممسك أيضاً بالابن، يقوده ويحفظه ولا يخطفه أحد ساعة الخطر: «أنا الرب قد دعوتك بالبر، فأمسك بيدك، وأحفظك وأجعلك عهداً للشعب ونوراً للأمم، لتفتح عيون العمي لتُخرج من الحبس المأسورين من بيت الحبس الجالسين في الظلمة.» (إش٤٢:٦-٧)

ختام الأصحاح العاشر: اعتزال مؤقت في عبر الاردن (١٠:٤٠-٤٢)

١٠:٤٠-٤٢ وَمَضَى أَيْضاً إِلَى عَبْرِ الأُرْدُنِّ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَ يُوحَنَّا يُعَمِّدُ فِيهِ أَوَّلاً وَمَكَثَ هُنَاكَ. فَأَتَى إِلَيْهِ كَثِيرُونَ وَقَالُوا: «إِنَّ يُوحَنَّا لَمْ يَفْعَلْ آيَةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ كُلُّ مَا قَالَهُ يُوحَنَّا عَنْ هَذَا كَانَ حَقّاً». فَآمَنَ كَثِيرُونَ بِهِ هُنَاكَ

هنا اهتم إنجيل يوحنا، في ختام روايته، أن يكمل عامل الأعمال في استعلان الرب والإيمان به، بعامل آخر اهتم به إنجيل يوحما منذ أول مطلعه، وهو شهادة المعمدان التي لا زالت راسخة في أذهان الناس وأفواههم .

«كل ما قاله يوحنا عن هذا (المسيح) كان حقاً»: والتشديد هنا على «كل» وعلى «حقاً» من قبل الراوي وهو القديس يوحنا، ينبع أيضاً من شهادة القديس يوحنا ورؤيته وخبرته الشخصية. وهذه الشهادة تعتبر في جملتها، سواء من شعب عبر الأردن وهو بعيد عن مراكز العداوة للمسيح، أو من القديس يوحنا، تأتي كتاج على قمة رواية إنجيل يوحنا. كما أراد الإنجيل أن يضع في مقابل رفض أورشليم واليهودية الإيمان به، قبول أهل عبر الأردن له والإيمان به. وبسبب ازدياد تهديد رؤساء الكهنة والفريسيين له، ترك اليهودية وانطلق إلى عبر الأردن وهي «بلاد بيرية» التي ذكرها إنجيل متى ١:١٩، وإنجيل مرقس ١:١٠

ويفيد إنجيل القديس مرقس أن الجموع تقاطرت من كل الجهات تستمع إليه (١:١٠)، وذلك بسبب شهادة المعمدان عن المسيح، والتي كانت لا تزال تملأ أسماعهم وقلوبهم. على أن عدم قدرة المعمدان على إتيان الآيات، أضافت أهمية كبيرة للمسيح، لأن الآيات التي صنعها أوضحت لهم شدة المفارقة بين «النبي» و «المسيا». وهذا بحد ذاته يراه إنجيل يوحنا سبباً مباشراً لإيمان «الكثيرين به». وهذا أيضاً هو ما يراه المسيح نفسه داعياً للايمان به: «لو لم أكن قد عملت بينهم أعمالاً لم يعملها أحد غيرى، لم تكن لهم خطية» (يو١٥:٢٤). ومن هنا تتضح الحكمة الإلهية أولا في تقييد عمل الآيات عند المعمدان إذ لم يكن لها داع على الإطلاق؛ وثانياً في كثرة الآيات التي صنعها يسوع لتكون شاهداً له بحد ذاتها: «الأعمال التي أنا أعملها باسم أبي هي تشهد لى.» (يو١٠:٢٥)

وبإشارة غاية في الحكمة والإحكام، وتنم عن نعمة زاخرة والهام، يختم القديس يوحنا خدمة الرب بأن ينتهي في التسجيل لها بالإشارة إلى حيث ابتدأ أولاً: «المكان الذي كان يوحنا يعمد فيه أولا»، وهو عينه المكان الذي فيه أخضع الرب نفسه للمعمودية تحت يد المعمدان ليبدأ خدمته بالصوم والتجربة. والقديس يوحنا يتجاوز هنا، بأسلوبه السري، مجرد الانتهاء من خدمة الرب إلى جوهر قوتها وغايتها، وهو الصليب، لأنه بقوله: «حيث كان يوحنا يعمد أولاً»، فهو يذكر، بغير تذكرة، قول المعمدان عن مضمون وجوهر خدمة الرب هذه: «هو ذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١:٢٩ و٣٦). وهكذا ينتهي القديس يوحنا إلى الصليب من حيث ابتدأ به أولاً.

وليس ذلك فقط كل ما يحويه أسلوب القديس يوحنا السري البديع من ذكره هذا المكان: حيث ابتدأ المعمدان وابتدأ الرب، بل وحيث ابتدأ هو نفسه، أي القديس يوحنا، لأن هذا المكان يحمل الذكرى العطرة لمقابلته للرب هناك والانتقال من تلمذة المعمدان إلى تلمذة المسيح. فهذا المكاذ هو أيضاً الذي وُلدت فيه الشهادة للرب والإيمان به.

«فأتى إليه كثيرون وقالوا إن يوحنا لم يفعل آية واحدة»: هنا يتضح لنا كيف أن الناس البسطاء كانوا يعولون على عمل الآيات في تزكية الرب ، وطالما لم يتدخل رؤساء الكهنة والفريسيون، كان الإيمان بالمسيح سهلاً عليهم للغاية. ولكن تسجيل القديس يوحنا الإنجيلي لهذا القول كان في الحقيقة ذا إتجاهين:

الإتجاه الأول: كان ليرفع مستوى حرارة المقارنة بين المسيح والمعمدان إلى أقصاها، وذلك لكي يضع المعمدان أخيراً في حجمه الصحيح بالنسبة للرب.

أما الإتجاه الثاني: وهو الذي يأتي دائماً بصورة سرية وبديعة، فهو لتمهيد ذهن القارىء لاستقبال أخر وأعظم آية صنعها المسيح، والتي كان يعتبرها القديس يوحنا ذات مضمون لاهوتي وفريد للغاية، وهي آية إقامة لمعازر من الموت، التي مهد بها الرب لاستعلان سلطانه على الموت، والحياة بالقيامة من الأموات، المزمع أن يتمثلها بجسده. كذلك في هذه الآية: «ومضى أيضاً إلى عبر الأردن، إلى المكان الذي كان يوحنا يعمد فيه أولاً، ومكث هناك»، لنا في هذه الآية رأي خاص. فالمسيح هنا ذهب بمفرده، أو ربما مع القديس يوحنا الرسول، ولم يكن تلاميذه الآخرون معه، وهذا واضح غاية الوضوح، ولكن كان له في عبر الأردن تلاميذ قدامى يقال أن عددهم كان خمسة بحسب رواية بعض الرابيين اليهود في التلمود، وكان منهم توما، هؤلاء هم الذين رافقوه من بيت عنيا عبر الاردن إلى بيت عنيا، لعازر ومرثا ومريم، حيث أقام المسيح لعازر من الموت. فلم يكن حاضراً هذه الآية من الإنجيليين إلا القديس يوحنا. لذلك فهو الوحيد الذي سجلها كشاهد عيان، ولهذا سقطت هذه الآية من روايات الأناجيل الثلا ثة الأخرى، كما سقطت معها حوادث خدمة الرب في عبر الاردن لهذه المدة.

تم فى ٢٠١٧/٧/١٠

الأصحاح الحادى عشر

وَكَانَ إِنْسَانٌ مَرِيضاً وَهُوَ لِعَازَرُ مِنْ بَيْتِ عَنْيَا مِنْ قَرْيَةِ مَرْيَمَ وَمَرْثَا أُخْتِهَا. وَكَانَتْ مَرْيَمُ الَّتِي كَانَ لِعَازَرُ أَخُوهَا مَرِيضاً هِيَ الَّتِي دَهَنَتِ الرَّبَّ بِطِيبٍ وَمَسَحَتْ رِجْلَيْهِ بِشَعْرِهَا. فَأَرْسَلَتِ الأُخْتَانِ إِلَيْهِ قَائِلَتَيْنِ: «يَا سَيِّدُ هُوَذَا الَّذِي تُحِبُّهُ مَرِيضٌ». فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ قَالَ: «هَذَا الْمَرَضُ لَيْسَ لِلْمَوْتِ بَلْ لأَجْلِ مَجْدِ اللَّهِ لِيَتَمَجَّدَ ابْنُ اللَّهِ بِهِ». وَكَانَ يَسُوعُ يُحِبُّ مَرْثَا وَأُخْتَهَا وَلِعَازَرَ. فَلَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ مَرِيضٌ مَكَثَ حِينَئِذٍ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ يَوْمَيْنِ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ لِتَلاَمِيذِهِ: «لِنَذْهَبْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ أَيْضاً». قَالَ لَهُ التّلاَمِيذُ: «يَا مُعَلِّمُ الآنَ كَانَ الْيَهُودُ يَطْلُبُونَ أَنْ يَرْجُمُوكَ وَتَذْهَبُ أَيْضاً إِلَى هُنَاكَ». أَجَابَ يَسُوعُ: «أَلَيْسَتْ سَاعَاتُ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ؟ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَمْشِي فِي النَّهَارِ لاَ يَعْثُرُ لأَنَّهُ يَنْظُرُ نُورَ هَذَا الْعَالَمِ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَمْشِي فِي اللَّيْلِ يَعْثُرُ لأَنَّ النُّورَ لَيْسَ فِيهِ». قَالَ هَذَا وَبَعْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ: «لِعَازَرُ حَبِيبُنَا قَدْ نَامَ. لَكِنِّي أَذْهَبُ لِأُوقِظَهُ». فَقَالَ تلاَمِيذُهُ: «يَا سَيِّدُ إِنْ كَانَ قَدْ نَامَ فَهُوَ يُشْفَى». وَكَانَ يَسُوعُ يَقُولُ عَنْ مَوْتِهِ وَهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ يَقُولُ عَنْ رُقَادِ النَّوْمِ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ حِينَئِذٍ علاَنِيَةً: «لِعَازَرُ مَاتَ. وَأَنَا أَفْرَحُ لأَجْلِكُمْ إِنِّي لَمْ أَكُنْ هُنَاكَ لِتُؤْمِنُوا. وَلَكِنْ لِنَذْهَبْ إِلَيْهِ». فَقَالَ تُومَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ لِلتّلاَمِيذِ رُفَقَائِهِ: «لِنَذْهَبْ نَحْنُ أَيْضاً لِكَيْ نَمُوتَ مَعَهُ». فَلَمَّا أَتَى يَسُوعُ وَجَدَ أَنَّهُ قَدْ صَارَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ فِي الْقَبْرِ. وَكَانَتْ بَيْتُ عَنْيَا قَرِيبَةً مِنْ أُورُشَلِيمَ نَحْوَ خَمْسَ عَشْرَةَ غَلْوَةً. وَكَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ جَاءُوا إِلَى مَرْثَا وَمَرْيَمَ لِيُعَزُّوهُمَا عَنْ أَخِيهِمَا. فَلَمَّا سَمِعَتْ مَرْثَا أَنَّ يَسُوعَ آتٍ لاَقَتْهُ وَأَمَّا مَرْيَمُ فَاسْتَمَرَّتْ جَالِسَةً فِي الْبَيْتِ. فَقَالَتْ مَرْثَا لِيَسُوعَ: «يَا سَيِّدُ لَوْ كُنْتَ هَهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي. لَكِنِّي الآنَ أَيْضاً أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ يُعْطِيكَ اللَّهُ إِيَّاهُ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «سَيَقُومُ أَخُوكِ». قَالَتْ لَهُ مَرْثَا: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقُومُ فِي الْقِيَامَةِ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا. وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيّاً وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الأَبَدِ. أَتُؤْمِنِينَ بِهَذَا؟». قَالَتْ لَهُ: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ. أَنَا قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الآتِي إِلَى الْعَالَمِ». وَلَمَّا قَالَتْ هَذَا مَضَتْ وَدَعَتْ مَرْيَمَ أُخْتَهَا سِرّاً قَائِلَةً: «الْمُعَلِّمُ قَدْ حَضَرَ وَهُوَ يَدْعُوكِ». أَمَّا تِلْكَ فَلَمَّا سَمِعَتْ قَامَتْ سَرِيعاً وَجَاءَتْ إِلَيْهِ. وَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ قَدْ جَاءَ إِلَى الْقَرْيَةِ بَلْ كَانَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي لاَقَتْهُ فِيهِ مَرْثَا. ثُمَّ إِنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهَا فِي الْبَيْتِ يُعَزُّونَهَا لَمَّا رَأَوْا مَرْيَمَ قَامَتْ عَاجِلاً وَخَرَجَتْ تَبِعُوهَا قَائِلِينَ: «إِنَّهَا تَذْهَبُ إِلَى الْقَبْرِ لِتَبْكِيَ هُنَاكَ». فَمَرْيَمُ لَمَّا أَتَتْ إِلَى حَيْثُ كَانَ يَسُوعُ وَرَأَتْهُ خَرَّتْ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَائِلَةً لَهُ: «يَا سَيِّدُ لَوْ كُنْتَ هَهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي». فَلَمَّا رَآهَا يَسُوعُ تَبْكِي وَالْيَهُودُ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهَا يَبْكُونَ انْزَعَجَ بِالرُّوحِ وَاضْطَرَبَ. وَقَالَ: «أَيْنَ وَضَعْتُمُوهُ؟» قَالُوا لَهُ: «يَا سَيِّدُ تَعَالَ وَانْظُرْ». بَكَى يَسُوعُ. فَقَالَ الْيَهُودُ: «انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ يُحِبُّهُ». وَقَالَ بَعْضٌ مِنْهُمْ: «أَلَمْ يَقْدِرْ هَذَا الَّذِي فَتَحَ عَيْنَيِ الأَعْمَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا أَيْضاً لاَ يَمُوتُ؟». فَانْزَعَجَ يَسُوعُ أَيْضاً فِي نَفْسِهِ وَجَاءَ إِلَى الْقَبْرِ وَكَانَ مَغَارَةً وَقَدْ وُضِعَ عَلَيْهِ حَجَرٌ. قَالَ يَسُوعُ: «ارْفَعُوا الْحَجَرَ». قَالَتْ لَهُ مَرْثَا أُخْتُ الْمَيْتِ: «يَا سَيِّدُ قَدْ أَنْتَنَ لأَنَّ لَهُ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكِ: إِنْ آمَنْتِ تَرَيْنَ مَجْدَ اللَّهِ؟». فَرَفَعُوا الْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ الْمَيْتُ مَوْضُوعاً وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي. وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلَكِنْ لأَجْلِ هَذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي». وَلَمَّا قَالَ هَذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «لِعَازَرُ هَلُمَّ خَارِجاً». فَخَرَجَ الْمَيْتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلاَهُ مَرْبُوطَاتٌ بِأَقْمِطَةٍ وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيلٍ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ». فَكَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى مَرْيَمَ وَنَظَرُوا مَا فَعَلَ يَسُوعُ آمَنُوا بِهِ. وَأَمَّا قَوْمٌ مِنْهُمْ فَمَضَوْا إِلَى الْفَرِّيسِيِّينَ وَقَالُوا لَهُمْ عَمَّا فَعَلَ يَسُوعُ. فَجَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ مَجْمَعاً وَقَالُوا: «مَاذَا نَصْنَعُ؟ فَإِنَّ هَذَا الإِنْسَانَ يَعْمَلُ آيَاتٍ كَثِيرَةً. إِنْ تَرَكْنَاهُ هَكَذَا يُؤْمِنُ الْجَمِيعُ بِهِ فَيَأْتِي الرُّومَانِيُّونَ وَيَأْخُذُونَ مَوْضِعَنَا وَأُمَّتَنَا». فَقَالَ لَهُمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَهُوَ قَيَافَا كَانَ رَئِيساً لِلْكَهَنَةِ فِي

تِلْكَ السَّنَةَ: «أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَ شَيْئاً. ولاَ تُفَكِّرُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَنَا أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ عَنِ الشَّعْبِ وَلاَ تَهْلِكَ الأُمَّةُ كُلُّهَا». وَلَمْ يَقُلْ هَذَا مِنْ نَفْسِهِ بَلْ إِذْ كَانَ رَئِيساً لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ تَنَبَّأَ أَنَّ يَسُوعَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمُوتَ عَنِ الأُمَّةِ. وَلَيْسَ عَنِ الأُمَّةِ فَقَطْ بَلْ لِيَجْمَعَ أَبْنَاءَ اللَّهِ الْمُتَفَرِّقِينَ إِلَى وَاحِدٍ. فَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ تَشَاوَرُوا لِيَقْتُلُوهُ. فَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ أَيْضاً يَمْشِي بَيْنَ الْيَهُودِ علاَنِيَةً بَلْ مَضَى مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْكُورَةِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْبَرِّيَّةِ إِلَى مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا أَفْرَايِمُ وَمَكَثَ هُنَاكَ مَعَ تلاَمِيذِهِ. وَكَانَ فِصْحُ الْيَهُودِ قَرِيباً. فَصَعِدَ كَثِيرُونَ مِنَ الْكُوَرِ إِلَى أُورُشَلِيمَ قَبْلَ الْفِصْحِ لِيُطَهِّرُوا أَنْفُسَهُمْ. فَكَانُوا يَطْلُبُونَ يَسُوعَ وَيَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَهُمْ وَاقِفُونَ فِي الْهَيْكَلِ: «مَاذَا تَظُنُّونَ؟ هَلْ هُوَ لاَ يَأْتِي إِلَى الْعِيدِ؟». وَكَانَ أَيْضاً رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ قَدْ أَصْدَرُوا أَمْراً أَنَّهُ إِنْ عَرَفَ أَحَدٌ أَيْنَ هُوَ فَلْيَدُلَّ عَلَيْهِ لِكَيْ يُمْسِكُوهُ

مكان البشارة اليهودية بيت عنيا

استعلان قوة المسيح المحيية والمقيمة من الموت

«أنا هو القيامة والحياة»

آية إقامة لعازر مز الموت

[أقمت الموتى من القبور، أقمت الطبيعة بالكلمة] (القداس الغريغوري القبطى).

مقدمة عامة.

إقامة لعازر من الموت آية اختص بها إنجيل القديس يوحنا بمفرده دون بقية الأناجيل الأخرى. ولكن الأناجيل الثلاثة تقدم ما يمكن اعتباره المقومات الأساسية للتركيب الإعجازي والتاريخي لهذه الآية، فإنجيل القديس مرقس في الأصحاح الخامس (٢١:٤٣) يقدم الموازي الإعجازي وهو إقامة ابنة يايرس من الموت. وانجيل القديس لوقا في الأصحاح السابع (١١:١٧) يقدم المثيل الإعجازي أيضاً وهو إقامة ابن أرملة نايين.

وامتناع إنجيل القديس يوحنا عن ذكر هاتين الآيتين إنما ينبع من التقليد الذي يقوم على أساسه تدوين الإنجيل الرابع بجملته، وبعد ما يقرب من نصف قرن من تدوين أسفار العهد الجديد بأناجيله الثلاثة ورسائله، وهو تقديم آيات أخرى جديدة مختارة بنوع خاص، تكون على نفس المستوى الإعجازي العالي، ولكن ذات اعتبار هام من جهة تدعيم الإيمان، وليس لمجرد السرد التاريخى لتغطية سني حياة المسيح في الخدمة. وهذا واضح غآية الوضوح من المنهج العام الذي اختطسه القديس يوحنا في كتابة إنجيله ودونه بنفسه في ختام الإنجيل: «وآيات أخرى كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله، ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه» (يو٢٠:٣٠-٣١)؛ مما يؤكد لنا أن الأناجيل الثلاثة، بل والأربعة لم تستوف السرد الكامل لجميع الآيات التي صنعها الرب الأمر الذي لم يفت على إنجيل القديس يوحنا أن يسجله أيضاً: «وأشياء أخر كثيرة صنعها يسوع، إن كُتبت واحدة فواحدة، فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة آمين.» (يو ٢١:٢٥)

كذلك لو لاحظنا الخط الفكري لإنجيل يوحنا في تدوينه للآيات الأخرى، نجده ينتقي الآيات ذات العناصر الخارقة لحدود الطبيعة والعقل لتخدم الغرض الأساسي من جهة الإيمان، مثل شفاء مريض بيت حسدا المشلول لثماني وثلاثين سنة (يو٥:٥)، وشفاء المولود أعمى من بطن أمه (يو٩)، وفي الآية التي نحن بصددها إقامة لعازر من الموت، وأي موت؟ بعد أربعة أيام في القبر، وهذا هو العنصر الأساسي في الآية. وهكذا نرى أن آية إقامة لعازر من الموت تأتي في إنجيل القديس يوحنا، وفي منهج كاتبه، متوافقة تماماً مع مستوى الآيات الاخرى فيه.

القصد الأساسى من آية إقامة لعازر من الموت: ينبغي أن نستبعد من إنجيل يوحنا ومن منهج كاتبه فكرة أنه يعرض لنا المسيح كصانح معجزات على أعلى مستوى؛ هذا خطأ. ولكنه، ومنذ مطلع إنجيله يود أن يعرض لنا، وخاصة في هذه الآية، أن المسيح عنده الحياة الآبدية، وأن القيامة من الموت في حوزته وتحت سلطانه. ولكي يلفت نظر إيماننا أنه حقاً صاحب سلطان على الموت في أعنف سطوته، ترك لعازر لأربعة أيام في القبر حتى استبد الموت بجسده، ومزق أوصال لحمه، وجمد دهه، وأنتن. وهنا صورة مصغرة ولكنها ذات ملامح متكاملة لقيامة الأجساد في اليوم الأخير. إذن، فبإقامة لعازر من الموت هكذا بعد أربعة أيام في القبر، يحضرنا المسيح ويوقفنا أمام القيامة في اليوم الأخير: وعلى الوجه الأصح، يحضرنا ويوقفنا أمامه باعتبار أنه هو هو القيامة وهو هو الحياة؛ الأمر الذي التبس على مرثا وصححه لها المسيح: «قالت له مرثا: أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير، قال لها يسوع أنا هو القيامة والحياة» (يو١١:٢٤-٢٥). هنا يظهر القصد الرئيسي من آية إقامة لعازر من الموت. فالقيامة والحياة هما في المسيح، وعلينا أن نواجههما الآن وليس في اليوم الأخير، ولا حتى في يوم مماتنا، بل الآن لأن الآن هو في حوزتنا أما اليوم الأخير ويوم مماتنا فليسا في حوزتنا. و«الآن» في إنجيل القديس يوحنا يعي «الآن»، والانتقال من الموت ونتن الموت إلى ملء الحياة هو أيضاً «الآن»: «الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥:٢٤). ولكي يؤكد بل يزيد صحة مفهوم «الآن» يضيف المسيح مباشرة: «الحق الحق أقول لكم إنه تأتي ساعة وهي الأن حين يسمع الأموات (بالخطية) صوت ابن الله والسامعون (التائبون) يحيون.» (٥:٢٥)

والمسيح يطبق قوله من جهة سماع صوته «الآن» في القلب وقبول العفو من الدينونة، بالتوبة والاعتراف والحصول على الانتقال من الموت الآبدي بالخطية إلى الحياة الآبدية، يطبقه على ما سيحدث تماما فى اليوم الاخير، إذ عاد وقال نفس الكلمات، مح حذف كلمة «الآن»: «لا تتعجبوا من هذا فإنه تأتي ساعة (وهي ليست الآن) فيها يسمع جميع الذين في القبور صوته فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يو٥:٢٨-٢٩) هنا ينطبق سماعلا الخطاة صوت ابن الله الآن، على سماع الأموات صوته فى اليوم الاخير من جهة القيامة من الموت تمام الإنطباق، مما يؤكده حتماً وبالضرورة، أن القيامة والحياة الآبدية يعملان فينا منذ الآن كاليوم الأخير تماماً. وهذا أيضاً هو نفس جوهر تعليم المسيح من جهة أكل الجسد وشرب الدم، الذي يأتي بالتساوي في مقابل سماع صوت ابن الله الآن بالتوبة، وقبول الانتقال من الموت إلى الحياة، وفي اليوم الأخير، استجابة لنداء الدينونة الأخيرة للقيامة العامة: «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير.» (يو٦:٥٤)

هذا المفهوم الإيماني هو جوهر القضية في آية إقامة لعازرعن الموت. ولكن المسيح امتد بهذا الإيمان، ليزيده توضيحا من وضع لعازر هكذا: «قال لها يسوع: أنا هو القيامة والحياة. من آمن بي، ولو مات، فسيحيا» (يو١١:٢٥). ثم بعد ذلك قال: «لعازر قم»، فقام. والقصد هنا إعطاء النموذج التطبيقي لقدرة المسيح على الإقامة من الموت الجسدي، ليوضح نفس مستوى قدرته على الإقامة من موت الخطية، لكي يبرهن المسيح على أن قوة القيامة والحياة فيه هي واحدة بالنسبة للخطاة، ببرهان إقامة لعازر من الموت بعد أن أنتن. هذا من جهة قدرة المسيح، أما من جهة المسيح ذاته فواضح أنه وهو أمام قبر لعازر يبكي، ثم وهو يأمر الميت المنتن في القبر لأربعة أيام، ليقوم ويهبه الحياة، يكون قد حقق في شخصه ما هو للانسان وما هو لله بآن واحد، دون أي قصور

أو نشاز! وأنه حقاً «لى سلطان أن أضعها ولى سلطان أن أخذها أيضاً» (يو١٠:١٨) فيما لفسه، وأنه هو ديان الأحياء والأموات.

العناصر التاريخية في الأناجيل الأخرى عن إقامة لعازر من الموت: لقد رأينا أنه، وإن كان إنجيل القديس يوحنا قد انفرد بهذه الآية، إلا أنها ليست غريبة عن مثيلاتها في الأناجيل الأخرى. والآن إذا دققنا وجدنا أن عناصر قصة هذه الآية بعينها قد وردت في الأناجيل الأخرى هكذا:

أ _ مثل الرجل الغني و«لعازر» في إنجيل لوقا (١٦:١٩-٣١)، ليس التشابه هنا مجرد ورود اسم «لعازر» الذي مات وانتقل إلى حضن إبراهيم، بل الكيفية التي انتهى بها المثل عندما طلب الغني الذي مات من إبراهيم أن يرسل لعازر، أي يقيمه من الموت ويرسله إلى بيت أبيه، ليشهد لهم بالقيامة والدينونة، فقال له إبراهيم: «إن كانوا لا يسمعون من موسى والأنبياء، ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون.» (لو١٦:٣١)

واضح هنا أن ما سمعه القديس لوقا وسجله في إنجيله عن «مثل» الغني ولعازر، مو الذي رآه القديس يوحنا وسجله في إنجيله كشاهد عيان. فالمعجزة واحدة، القديس لوقا سجل جانبها التصوري التعليمي، بحسب مثل المسيح، عن الدينونة والقيامة والإيمان والتوبة؛ والقديس يوحنا سجل وقائعها، ليعلق بحسب الرؤية الواقعية على أن المسيح هو صاحب الدينونة والقيامة، وأساس التوبة والإيمان. فتسجيل الآيات في الأناجيل يعتمد على الغرض الذي من أجله اختار كل إنجيلي آياته. وكملاحظة عامة، نجد أن الآيات التي صنعها المسيح في أورشليم وما حولها لم يسجلها الإنجيليون الثلاثة» بينما اهتم القديس يوحنا بتسجيلها أقصى اهتمام.

القصد التصوري النهائي في ختام مثل لعازر والغني في إنجيل لوقا، يقدمه إنجيل القديس يوحنا مُطبقاً تطبيقاً عملياً؛ فلعازر الفقير قام من الأموات فعلا، ولكن لم يصدق قيامته إخوة الفني الجشع، وهم الفريسيون، لأنهم لم يسمعوا لموسى والأنبياء، ولا صدقوا من أقام لعازر من الأموات أمام عيونهم، ولا خافوا من الدينونة.

أما صحة قصة لعازر في إنجيل يوحنا، كونها آية قد حدثت، أو يمكن أن تحدث بالفعل، فهذا يتضح من قول المسيح لتلميذي المعمدان اللذين جاءا ليستفسرا من المسيح عن المسيح هل هو الآتي أم ينتظرون أخر؟ فكان رد المسيح عليهما: «فأجاب يسوع وقال لهما: اذهبا وأخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما، أن العمي يبصرون، والعرج يمشون، والبرص يطهرون، والصم يسمعون، والموتى يقومون؛ والمساكين يبشرون.» (لو٧:٢٢)

ب _ **«مرثا ومريم» في إنجيل القديس لوقا:** من يقرأ إنجيل لوقا (١٠:٣٨-٤٢)، يسمع عن مرثا ومريم التي جلست عند قدمي الرب لأنها اختارت النصيب الصالح، وها نفس الأختان المذكورتان في إنجيل يوحنا (١١). والمسيح هو في الإنجيلين ضيف الشرف.

ج _ **مريم بصفتها المرأة التي دهنت الرب بالطيب:** وتشترك الأناجيل الأربعة، في تقليد واحد، وهو توصيف «مريم» بالمرأة التي دهنت المسيح بطيب ناردين غالى الثمن، كانت قد حفظته عندها، ولم تعلم أنه كان بمثابة تكفين الجسد حسب قول الرب، وذلك في بيت سمعان الآبرص، الفريسي. وهذا التقليد محقق، لأنه وإن كانت الأناجيل الثلاثة لم تذكر مريم بالاسم، بل ذكرتها باعتبارها المرأة التي دهنت المسيح بالطيب، إلا أن إنجيل يوحنا انفرد عنهم جيعا بأن ذكرها بالاسم، مما يوضح أن تقليد القديس يوحنا في إنجيله هو الأكثر مطابقة (أنظر يو١١:٢؛ ١٢:١-٨؛ مر١٤:٣-٩؛ مت١٣:٦-١٣؛ لو٧:٣٦-٣٩)

بهذا نرى أن التقليد الإنجيلي التاريخي العام يقف خلف مفردات قصة قيامة لعازر عن الموت في إنجيل يوحنا،

ليعطيها صحتها التقليدية والتاريكية معاً.

وآية إقامة لعازر من الموت هي بحسب ترتيبها في إنجيل يوحنا تكون هي الآية السابعة والأخيرة:

الآية الأولى: تحويل الماء إلى خمر_ الأصحاح الثاني.

الآية الثانية: شفاء ابن خادم الملك _ الأصحاح الرابع

الآية الثالثة: شفاء مشلول بيت حسدا بعد ٣٨ سنة ~ الأصحاح الخامس.

الآية الرابعة: إشباع الجموع من خمس خبزات وسكتين _ الأصحاح السادس.

الآية الخامسة: السير على الماء واسكات الريح والموج – الأصحاح السادس

الآية السادسة: شفاء الأعمى المولود هكذا من بطن أمه _ الأصحاح التاسع

الآية السابعة: إقامة لعازر من الموت بعد أربعة أيام في القبر _ الأصحاح الحادي عشر.

ويلاحظ الباحث أن كل من الآية الاولى والأخيرة صنعهما الرب في الوسط العائلي، ويقصد اظهار مجده (١١:٢): «هذا المرض ليس للموت بل لأجل مجد الله، ليتمجد ابن الله به»، «ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله» (يو ١١:٤و٤٠) ولتشديد الإيمان: «وأنا أفرح لأجلكم إني لم أكن هانك لتؤمنوا. ولكن لنذهب إليه.» (يو ١١:١٥)

العناصر التاريخية داخل القصة: الملامح الزائدة الحساسية الواردة في قصة إقامة لعازر من الموت، والتي تشير إلى حضور القديس يوحنا كشاهد عيان شديد الملاحظة دقيق التدوين، هي بحد ذاتها تزيد ثقل كفة الصدق التاريخي للرواية وهى:

+ إبراز العلاقات الحميمة بين عائلة لعازر والمسيح (١١:٥).

+ تأخر المسيح عن الذهاب لبيت عنيا يومين عن قصد (١١:٦).

+ موقع قرية بيت عنيا بدقة (١١:١٨).

+ حضور اليهود (١١:١٩).

+ الرسالة السرية (١١:٢٨).

+ لقب المسيح المحبوب «المعلم» (١١:٢٨).

+ صمت يسوع (١١:٣٠).

+ انزعاج الرب لبكاء اليهود مع مريم (١١:٣٣).

+ سجود مريم أمام المسيح (١١:٣٢).

+ إظهار عواطف المسيح البشرية بحرية دون أي حذر(١١:٣٣ و٣٥ و٣٨)

+ وصف هيئة لعازر عند ظهوره (١١:٤٤).

القيمة اللاهوتية لآية إقامة لعازر من الموت: لقد أصاب القديس يوحنا كثيراً في جعل آية لعازر ختاماً للآيات التي صنعها يسوع ولتعاليمه العامة جميعاً. فهو بهذه الآية يجيب على جميع الأسئلة والاستفسارات التي كانت تتتابع وراء الحقائق التي أبرزها الإنجيل دون برهان أو توضيح: فالآن يتضح كيف أن المسيح هو «الكلمة» التي يسمعها الميت فيقوم من الأموات، وهو الله المتكلم الذي يحيي من يشاء، وهو الذي يمكن أن يخلق كل شيء من العدم أو الموت؛ وكيف أن فيه الحياة، وأن الحياة هي نور الناس، وكيف أن النور أضاء في الظلمة، ثم كيف يولد الإنسان من جديد، وكيف أن الاموات يسمعون صوت المسيح ابن الله، وكيف يستطيع المسيح أن يعطي حياة

للعالم، وكيف يمكن أن يقوم الأموات بالجسد، بل كيف سيقوم المسيح من الموت بسلطانه وحده تحقيقاً لقوله: «لي سلطان أن أضعها، ولي سلطان أن آخذها أيضاً» (يو ١٠:١٨)؛ وكيف أن المسيح يبطل الموت ويقهر سلطانه؛ وأخيراً كيف يكون المسيح بالنسبة للعالم هو فعلاً الألف والياء، البدآية والنهآية.

كل هذه الأسئلة يرد عليها كل من يتعمق في هذه المعجزة التي صنعها الرب يسوع المسيح جهاراً أمام تلاميذه واليهود. وما عليك أيها القارىء العزيز إلا أن تسير مع مفردات هذه المعجزة كأحد المشاهدين، وتتأمل الرب وهو واقف أمام قبر لعازر ومريم وأختها تبكيان، ومعهما اليهود والمعزون يبكون، وصوت ابن الله، الكلمة، يدوي فجأة ليخترق ظلام القبر والهاوية وحجب العالم الآخر غير المنظوره كما يخترق النور حجب الظلام ويهتكها جميعاً، ويصرع الموت في داره ليقوم لعازر!! الهاوية انشقت وخرجت منها روح لعازر، والمادة الميتة والمنتنة في القبر تقبلت رعشة الحياة، فوُلد لعازر من رحم الحياة مرة أخرى، ووطىء الموت وقام من جديد!

كان المسيح، كما هو الإنسان المحبوب، واقفاً على باب القبر، وكلمته باعتباره ابن الله تزلزل أركان الهاوية بسلطانها الإلهي، لترتعب لها سلاطين الظلمة والموت، فينفك من أسرها أسير محبة المسيح: «سبى سبيا، وأعطى الناس عطايا» (أف٤:٨)، ويخرج لعازر إلى الحياة بقوة الكلمة المحيية.

ثم، يا قارئي العزيز، من هو لعازر الحقيقي إلا أنا وأنت الملفوف بربط الخطية التي آقعدته عن حركة الروح وآسكنته صمت القبور إزاء تسابيح صهيون والأرواح المكملة في المجد مع كل ملائكة الله؟ آذاننا إليك يا ابن الله بانتظار كلمة الحياة، «الإرادة حاضرة عندي وأما أن أفعل الحسنى فلست أجد» (رو٧:١٨). ألست أنا ميتك؟ ليست لى مريم ولا مرثا ليبكوا علي! وليس لى رسول يحمل رسالتي سرا إليك إلا روحك القدوس، لا تتأخر كثيراً وتعال، نعم تعال سريعاً، قبل أن تعكر نتانتي صفو محبتك، قل لمن دحرج الحجر عن قبرك أن يدحرجه عني، قل كلمتك وأوعز إلى ملائكتك أن «حلوه ودعوه يذهب...»

١١:١ وَكَانَ إِنْسَانٌ مَرِيضاً وَهُوَ لِعَازَرُ مِنْ بَيْتِ عَنْيَا مِنْ قَرْيَةِ مَرْيَمَ وَمَرْثَا أُخْتِهَا.

شخصية لعازر غير واردة إلا في إنجيل يوحنا. ويبدو أن صداقته للمسيح ومحبة المسيح له كانت عائلية، فلم يكن يتبع المسيح في ترحاله، ولكن كان المسيح يحط ترحاله في بيته ليجد راحة هناك. ولهذا يبدو أنه لم يكن معروفاً لدى بقية التلاميذ. لذلك نجد القديس يوحنا يضيف إليه صفة أخرى معروفة أو معلومة ثابتة تجعله معروفاً، وهي أنه من بيت عنيا وأنه أخو مريم ومرثا أختها.[1] واسم لعازر هو مختصر «أليعازر»، ومعناه الحرفي «إيلي عزار»، أي الله قد آزر أو أعان.

وقرية بيت عنيا هي قريبة من أورشليم على مسافة ١٥ غلوة، أي ما يساوي تقريبا ٢ كم على الجهة الشرقية لجبل الزيتون، وهي المسافة المسموح بها للسفر يوم السبت عند اليهود، والقرية الآن مسماة «ألعازاريا» نسبة لآية إقامة المسيح للعاز هناك. ويلاحظ أنه توجد قرية أخرى مسماة بهذا الاسم عبر الاردن والتي يُقال لها في بعض المخطوطات «بيت عبارا» (يو١:٢٨). وبيت عنيا تعني بالعبرية «بيت العناء». وقد ذكرها سفر نحميا تحت اسم «عننية» (نح١١:٣٢)

«مريم ومرثا أختها»: بحب الشهرة الإنجيلية، تأتي مريم قبل مرثا، ولكن مرثا هي الأخت الكبرى. وهذان الاسمان

[1] حسب التقليد الكاثوليكى فإن مريم أخت لعازر هى نفسها مريم المجدلية

كانا معروفين لدى الوسط الإنجيلي بين التلاميذ، وذكرها القديس لوقا (١٠:٣٨) في موضوع المحبة للمسيح باعتبارها هي الحاجة الوحيدة التي نحتاجها حقاً في هذه الدنيا. ولكن إنجيل القديسين مرقس ومتى يعرفان مريم بأنها «امرأة معها قارورة طيب» (مت٢٦:٧)، ولكنهما عادا فسجلا لها ذكراها إلى الآبد في كل أنحاء الدنيا «الحق أقول لكم: حيثما يكرز بهذا الإنجيل في كل العالم، يخبر أيضاً بما فعلته هذه تذكاراً لها.» (مت٢٦:١٣)

ولكن القديس يوحنا يختص الأختين بكثير من التعريف والعناية والملاحظة، مما يؤكد معرفته الشخصية لهما وللعازر أخيهما، وذلك بسبب تأثره الشديد بالمعجزة التي تمت لأخيهما.

١١:٢ وَكَانَتْ مَرْيَمُ الَّتِي كَانَ لِعَازَرُ أَخُوهَا مَرِيضاً هِيَ الَّتِي دَهَنَتِ الرَّبَّ بِطِيبٍ وَمَسَحَتْ رِجْلَيْهِ بِشَعْرِهَا.

هنا تعرف مريم أنها هي التي دهنت الرب بطيب ومسحت رجليه بشعرها. وهذا العمل جاء بنصه في الأصحاح القادم (١٢:٢-٣).

«الطيب» وجاء باليونانية (   ) ويعي العطر المستخرج من النباتات ذات الروائح الذكية، وكان يستخدم إما نقياً وهو المعبر عنه بطيب «خالص»، أو مخلوطا بالزيت، وكان زيت الزيتون هو الزيت الوحيد المستخدم في صناعة الميرون ويسمى (   )، وكان يستخدم أيضا في دهن أعضاء الجسم وخاصة الرجلين بعد السفر الطويل.

والرب في قصة سمعان الفريسي (لو٧:٤٦) يفرق بين الدهن «بالزيت» العادي والدهن بالميرون، وهو الزيت المعطر أو العطر الخالص: «بزيت لم تدهن راسي وأما هي فقد دهنت بالطيب رجلي». والدهن بالزيت العادي يعبر عنه في القديم باليونتية بالفعل (   ).

أما المسح بالزيت المقدس في العهد القديم فيسمى (   )، والعمل نفسه أي «المسحة» (   )، وهما مشتقات من (   ). أما المسحة في أسفار العهد الجديد فهي عمل يتم بالروح القدس سرا ويسمى (   ). والكنيسة القبطية تستخدم الميرون وزيت الغلاليون وزيت الزيتون البسيط مع صلوات لحضور الروح القدس في أنواع الخدم المقدسة المتعددة.

١١:٣ فَأَرْسَلَتِ الأُخْتَانِ إِلَيْهِ قَائِلَتَيْنِ: «يَا سَيِّدُ هُوَذَا الَّذِي تُحِبُّهُ مَرِيضٌ»

رسالة مختصرة تحمل معناها في مبناها، كمعلومة مقدمة إلى طبيب حاذق، تذكر الأعراض دون التدخل في شئون العلاج. وهذه هي من أروع الرسائل التي تقدم إلى الله كصلاة، وهي نفس النموذج الذي قدمته القديسة مريم العذراء إلى الرب من أجل إسعاد ضيوف حفل زفاف عرس قانا الجليل. أما الطبيب فملزم بالعلاج، لأن الثمن مدفوع مقدماً وهو الحب المتبادل. وعن نوع هذه الطلبات المقدمة في الصلاة إلى المسيح والآب، يقول القديس يوحنا أنها معتمدة حال النطق بها، ولا يعوز المتوسل إلا انتظار التحقيق، وأيضا يسجل القديس يوحنا هذه المعلومة الإلهية باختصار غاية في الروعة وغآية في اليقين: «وهذه هي الثقة التي لنا عنده أنه إن طلبنا شيئاً حسب مشيئته يسمع لنا، وإن كنا نعلم أنه مهما طلبنا يسمع لنا، نعلم أن لنا الطلبات التي طلبناها منه.» (ايو٥:١٤-١٥)

والذى يلفت نظرنا فى هذه الآية هو قول الأختين «الذى تحبه» حيث تأتي في اليونانية (   ) وهنا المعنى ينصب على محبة روحية خالصة تعبيرا عن مودة العلاقات الشخصية والصداقة الشديدة، الطبيعية، علماً بأنه لا يوجد فى اليونانية كلمة «صديق»، وهذه الكلمة يحل محلها (   ) أي مُحب. وتأتي هذه الكلمة في إنجيل يوحنا ثلاث عشرة مرة، تعبيرا عن محبة الله الآب للابن، وعن محبة الله للذين يحبون ابنه، ومحبة المسيح لتلاميذه، ومحبة

التلاميذ نحو المسيح. وتغيب هذه الكلمة من جميع رسائل يوحنا. أما محبة الأغابى فتنم عن الثقة والتوقير والإعجاب، وهي محبة المشاعر، وتأتي نتيجة اختبار واختيار أخلاقي وحكم عقلي

٤:١١ فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ قَالَ: «هَذَا الْمَرَضُ لَيْسَ لِلْمَوْتِ بَلْ لأَجْلِ مَجْدِ اللَّهِ لِيَتَمَجَّدَ ابْنُ اللَّهِ بِهِ».

هنا رد فعل المسر مطابق تماما لرد الفعل على سؤال التلاميذ بالنسبة للمولود أعمى «لتظهر أعمال الله فيه» (يو ٩:٣)!! وهذا هو رد الله دائماً، ومنذ القدم، عل كل نقص أو عوز أو ألم أو ضيق أو فقدان أو خسارة أو موت بالنسبة لأولاده . فهو أولاً وقبل كل شيء «فى كل ضيقهم تضايق، وملاك حضرته خلصهم» (إش٦٣:٩)، وثانياً: «اذبح لله حمداً وأوف العلي نذورك. وادعني فى يوم الضيق أنقذك فتمجدني» (مز٥٠:١٤-١٥)، وثالثاً: «تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل» (٢كو١٢:٩)

يلاحظ في الاصطلاح اليوناني (   ) أن المعنى لا يفيد «من أجل مجد الله» ولكن (   ) يفيد معنى (   ) التي تعني «لكي». فهنا قصد الله حاضر، وليس مصادفة، فالله يقصد إعلان مجده بواسطة يسوع المسيح، بقصد أن يتمجد يسوع أيضاً، وبالنهاية لكي نرى ونؤمن. فالمرض لا يتجه نحو الموت فى قصد الله، ولكنه مقصود لإعلان مجد الله بالمسيح. وذلك لا يزال المعنى يمتد ليشمل استعلان مجد الله فى المسيح نفسه، الذى سيمجده الله على نفس النمط بالقيامة من الموت.

كان هذا الرد على الرسالة المرسلة من الأختين بمثابة تأشيرة فى أسفل التذكرة الطبية مؤداها: [لا داعي للقلق، انتظروا مجد لله].

الرد مثير للايمان، ومؤكد للرجاء، ومستجيب للمحبة. وهذا هو رد الله دائماً، أقوى من أقوق رسالة تصل إلينا من خلال يأسنا ودموعنا واضمحلال رجائنا. وها نحن الآن عالمون تماما أن الرب آنئذ كان عالماً تماما بأنه قد مات فعلاً. لأنه حينما وصل الرب بيت عنيا كان لعازر له أربعة أيام في القبر، والرحلة من عبر الأردن إلى بيت عنيا تستغرق يوماً واحداً، فإذا أضيف إليها يومان تأخرهما الرب، يكون لعازر، وقت أن بلغ الرسول رسالته، قد مات وله يوم كامل في القبر.

وهكذا فإن ما يراه الرب غير ما نرى نحن، دوافعنا ليست واقعه، ولو تركنا تقديراتنا لحساباته لجاءت النتائج جد مخالفة لظنونا.

فالموت عندنا هو الموت، مهما أعطيت له من المسميات الملطفة، فهو قاسى أقسى ما تكون القسوة على مشاعر الإنسان وأفكاره وحساباته. فهو يحطم الامال، وينهي على الرجاء، ويخنق المحبة، ويكفي أن يصفه الروح على فم بولس الرسول أنه «آخر عدو» يتواجه معه الإنسان قبل الرحيل. ولكن كل هذه الاوصاف تتصفى كلها في مصفاة رؤية الله وقدراته وإمكانيته، ليأخذ الموت عنده صفة الرقاد لا غير، حيث تكون اليقظة منه حتمية، ومعها بهجة القيامة لحياة ملؤها الحياة. وهذا الذي يراه الله لأحبائه، رآه المسيح وأجراه كنموذج أبقاه لنا على الأرض في قصة لعازر المحبوب، حتى لا يستبد بنا يأس الموت أبداً، فوراء آخر عدو، أعظم حبيب لنا، ذاك يردينا التراب، وهذا يولجنا السماء.

حينما ترصد الموت للعازر وأراد أن يسخر من رباط المحبة التي تربطه بالمسيح، ونوى أن يتعالى بقوته وسطوته فوق سلطان رب الحياة، ويثير الإنزعاج والرعبة في قلوب النسوة، ويطيح بهيبة المسيح أمام التلاميذ والمحبين، ويكفي للتدليل على ذلك قول اليهود: «ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت»

(يو ١١:٣٧)؟ حينئذ أدرك ذلك كله المسيح من على بعد، فأرخى الحبل للعدو ليصنع بفريسته كل ما أراد! وعقد الرب العزم أن يتمجد في لعازر من أجل نفسه والمحبين، فيستعلن للعالم قوة القيامة والحياة التي فيه، ويظفر بالموت في معقله، ويشق الهاوية، ويحطم قيود الموت، ليفك النفس علناً، ويقيم الجسد بالكلمة، ويخرج لعازر وسط هتاف «المجد لله».

١١: ٥-٧ وَكَانَ يَسُوعُ يُحِبُّ مَرْثَا وَأُخْتَهَا وَلِعَازَرَ. فَلَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ مَرِيضٌ مَكَثَ حِينَئِذٍ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ يَوْمَيْنِ. ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ لِتلاَمِيذِهِ: «لِنَذْهَبْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ أَيْضاً».

محبة المسيح لهذه العائلة تأتي بالكلمة أغابي، التي تنم عن الاختيار والأفضلية الأخلاقية. وبهذا نفهم من هذه الكلمة، أن هذه العائلة اختارها المسيح لدخوله وخروجه بعد فحص ومراقبة، فارتاح إلى أفرادها جميعاً، فأحبهم جميعاً. وبالملاحظة نجد أن الفعل الذي استخدمته الأختان للتعبير عن محبة المسيح للعازر، جاء من الأصل ( ) تعبيراً عن المودة الروحية أو الصداقة الخاصة والطبيعية. أما الكلمة التي عبر بها القديس يوحنا عن محبة المسيح للعائلة كلها فجاءت عن الأصل ( )، التي تعني أن المحبة تأتي بعد فحص عقلي ومعرفة وتقدير وحكم شخصي. وهكذا، لك أيها القارىء العزيز، أن تدرك مقدار الدقة التي يسجل بها القديس يوحنا إنجيله، وليس الدقة فحسب، بل ومقدار المطابقة الشديدة الإحكام بين مشاعر كل شخص والكلام المسجل عنه، كل على حدة، جملة جملة.

ولكن هذه الآية يصعب فهمها بحسب ترتيب الكلام الذي كُتبت به، إذ يفهم منها القارىء لأول وهلة أن المسيح تأخر يومين خصيصاً وعن قصد لكي يصنع معجزة لعازر لأنه كان يحبه. ولكن بحسب الحساب الذي سبق أن أجريناه، فإنه حينما بلغ المسيح خبر مرض لعازر، كان لعازر في الحقيقة قد مات ودفن ليوم كامل، فلو كان قد تحرك في الحال لكان قد بلغ بيت عنيا ولعازر في القبر وله يومان، من هذا يتضح لنا أن تأخير الرب لم يكن عن قصد.

لذلك فإن ترتيب الكلام ينبغي أن يكون هكذا: (فلما سمع يسوع أن لعازر مريض قال لتلاميذه بعد أن مكث يومين في الموضع الذي كان فيه، لنذهب إلى اليهودية أيضاً، لأن يسوع كان يحب مرثا وأختها ولعازر).

أما حبه لمرثا فكان بحكم أنها كانت، كما يبدو، كبيرة العائلة، فكانت هي دائماً صاحبة الضيافة، وكانت شديدة العناية بخدمة الرب، وهذا يتضح في إنجيل القديس لوقا «وفيما هم سائرون دخل قرية، فقبلته امرأة اسمها مرثا في بيتها. وكانت لهذه أخت تدعى مريم، التي جلست عند قدمي يسوع، وكانت تسمع كلامه، وأما مرثا فكانت مرتبكة في خدمة كثيرة» (لو ١٠:٣٨-٤٠)

وأما محبة المسيح لمريم، فكانت بسبب كونها شديدة الإنتباه، تسمع كلامه بوعي وباتضاع، كتلميذة تركت كل شيء لتتبعه روحيا. وهذا العطاء النفسي والروحي يتضح أشد الوضوح من احتفاظها بكمية كبيرة من عطر الناردين النقي الكثير الثمن، لتضمخ به جسد المسيح المتعب، والذي حسبه لها المسيح بصفة التكفين.

أما حب المسيح للعازر، فكان بشهادة الأختين حباً شخصياً.

أما الموضع الذي مكث فيه الرب يومين فكان إقليم بيريه، كما جاء في نهاية الأصحاح السابق، على جبال موآب.

أما لماذا مكث اليومين وهو يعلم أن البيت الذي يحبه قد اشتعل حزناً وغما وعويلا كثيرا، وهو بنية أن يرفع عنهم هذا الكرب الشديد، وقد عقد العزم على إقامة لعازرعن الموت منذ أن بلغه الخبر، بدليل قوله: «هذا المرض ليس

للموت... لكني أذهب لاوقظه... وكان يسوع يقول عن موته... فقال لهم يسوع علانية لعازم مات...»، سؤال لا يجيب عليه إلا سؤال آخر أثار حيرة التلاميذ إلى حد الغضب، لماذا مكث المسيح نائماً في مؤخرة السفينة والرياح والأمواج تعصف بها حتى إلى حد الغرق؟ «وكان هو في المؤخر على وسادة نائماً. فأيقظوه وقالوا له: يا معلم أما يهمك أننا نهلك» (مر٤:٣٨). هنا ينبغي علينا أن لا ننسى أن المسيح كان يتصرف بين أحبائه وأعدائه كإنسان وإله معاً. فهو كان نائماً فعلاً ولكن حضرته الإلهية قائمة؛ كذلك كان المسيح بعيدا عن بيت عنيا على سفر يوم كامل، ولكنه كان حافراً في بيت محبيه، وغيابه بالجسد لا يمنع عمله كإله. فهو الذي شفى ابن خادم الملك من الموت وهو بعيد على سفر يوم كامل، بكلمة!

ولكن الرب أعلن لتلاميذه أن غيابه عن بيت عنيا، هو الذي آل إلى كل الحوادث التي صارت من مرض شديد وموت: «وأنا أفرح لأجلكم أني لم أكن هناك، لتؤمنوا...»، وهذا تماماً كما تصورته مرثا: «لو كنت ههنا لم يمت أخي». وهذا بحد ذاته صار فرصة جديدة لتلاميذه ليروا فيها الرب وهو يقيم لعازرعن الموت، فيؤمنوا بالقيامة والحياة في المسيح. وهذا بعينه ما سيحدث بالرغم من الإرتباك والحزن اللذين أصابا الأسرة المحبوبة، إلا أنه سيؤول إلى إيمان تلاميذه ومحبيه.

وهكذا وبنظرة متسعة، نرى أن تأخر الرب يومين عبر الأردن لم يغير في الموقف إلى أسوأ بل ربما إلى أفضل. لهذا لم نر الرب في عجلة للعودة، كمن تؤثر فيه الحوادث لاتخاذ عمل أو تحرك انفعالي تمليه عليه الظروف أو الحوادث. بل كان الرب يتحرك، ولا يزال، بحسب رؤيته الشاملة وسبق معرفته للأمور والحوادث . فعمل الله ينبع من مسرة مشيئته، ليخضع كل شيء لإرادته . لهذا فكل صمت من قبل الله إزاء إلحاحات توسلاتنا، إنما يخفي غرضا أسمى!

١١:٧-٨ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ قَالَ لِتلاَمِيذِهِ: «لِنَذْهَبْ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ أَيْضاً». قَالَ لَهُ التّلاَمِيذُ: «يَا مُعَلِّمُ الآنَ كَانَ الْيَهُودُ يَطْلُبُونَ أَنْ يَرْجُمُوكَ وَتَذْهَبُ أَيْضاً إِلَى هُنَاكَ».

يلاحظ أن الرت لم يقل لنذهب إلى بيت عنيا، بل إلى اليهودية، فعين الرب قد بدأت تتثبت على الصليب وعلى أورشليم، ومشيراً بذلك إلى أن الأرض التي هم ذاهبون إليها أرض عداوة. وكأنه هو الذي نبه ذهن التلاميذ إلى الخطر المخبأ في هذه الرحلة. علماً بأنهم كانوا في بيريه قد لقوا حفاوة وايماناً عند الكثيرين. فلما تنبه التلاميذ، عادوا هم وذكروه بما قد انتهى إليه هؤلاء الأعداء من تقرير رجمه، وكأنهم يلوحون إليه بخطورة هذا القرار على حياته.

١١:٩-١٠ أَجَابَ يَسُوعُ: «أَلَيْسَتْ سَاعَاتُ النَّهَارِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ؟ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَمْشِي فِي النَّهَارِ لاَ يَعْثُرُ لأَنَّهُ يَنْظُرُ نُورَ هَذَا الْعَالَمِ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَمْشِي فِي اللَّيْلِ يَعْثُرُ لأَنَّ النُّورَ لَيْسَ فِيهِ».

وعلى مستوى أسلوب القديس يوحنا في فهمه وتسجيله لأقوال المسيح فالرد هنا يحمل معنيين: معنى ظاهر مؤداه أن على الإنسان أن يعمل طالما أن النهار قائم بنوره وساعاته، فقد وُضع على الإنسان أن يعمل ليغطي ساعات النهار الاثنتي عشرة جميعاً. والعمل هو على نمط المسيرة، فالسائر في النور وفي النهار لا يعثر، أما إذا جازف وسار في عتمة الليل، أي في غياب النور، فالعثرة واردة. وهذا بعينه يراه المسيح أنه مأخوذ في الإعتبار بالنسبة له كما هو للتلاميذ.

ولكن المعنى الخفي متجه رأساً نحو الصليب. فتخويف التلاميذ له غير لائق، ولا هو وارد في حساباته، فنهاره بالنسبة للعالم لا يزال قائماً ولا يزال هو نوره، فساعته لم تتحدد بعد، وساعة أعدائه لا تزال على بعد، وهي التي تمثل ظلمة هذا العالم بكل كثافتها وثقلها: «هذه ساعتكم وسلطان الظلمة» (لو٢٢:٥٣). فهو إذن لا يزال يسير في وقته المحدد، ولم يدخل بعد في منطقة ليل العالم بعثراته وإعثاره. وقد أوضح المسيح ذلك لهم فيما بعد بأكثر وضوح: «فقال لهم يرع: النور معكم زمانا قليلاً بعد، فسيروا ما دام لكم النور لئلا يدرككم الظلام» (يو١٢:٣٥). أما بالنسبة للمسيح، فقد سبق وأن أوضح ذلك أيضاً فيما يخص عمله: «ينبغي أن أعمل أعمال الذي أرسلني ما دام نهار. يأتي ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل. ما دمت في العالم فأنا نور العالم»(يو٩:٤-٥)، مشيراً بذلك إلى ظلمة العالم القادمة، التي تمثل بالنسبة للصيح الآلام والموت.

وبالنهاية نلتقط إشارة خفية من وراء هذه الآية، تفيد أن المسيح يريد أن يطمئن التلاميذ أن يستبعدوا الموت أو العثرات طالما هم معه، لأنه هو نور العالم، وذلك بالنسبة لرحلته القادمة. فإن كانوا قد امتلكوا النور فكيف يخافون؟ لأن الخوف يكون حينها لا يكون «النورفيهم»[٢]، ولم تقل: «النور حولهم». وهنا ينكشف قصد المسيح من النور والظلمة والنهارو الليل. فنهار الإنسان هو المسيح في القلب والفكر، وغياب المسيح من القلب (النور ليس فيهم) هو هو ليل الإنسان، الذي حتماً يكون متوازيا مع الخوف والموت، ومنفتحاً عليه. وإن كان الموت وارداً بالنسبة للمسيح، طالما أن وراء ساعات النهار الاثنتي عشرة ليلاً قادماً، إلا أن الظلمة لن تدرك النور أبداً. ولكن التلميذ الذي تعود أن يضع إصبعه في كل ثغرة، أدرك بحساسيته الحسابية الشكاكة، أن الخطورة لا بد محدقة بهم من جراء هذه الرحلة. وله رأي في ذلك سنقدمه في حينه.

١١:١١-١٣ قَالَ هَذَا وَبَعْدَ ذَلِكَ قَالَ لَهُمْ: «لِعَازَرُ حَبِيبُنَا قَدْ نَامَ. لَكِنِّي أَذْهَبُ لِأُوقِظَهُ». فَقَالَ تلاَمِيذُهُ: «يَا سَيِّدُ إِنْ كَانَ قَدْ نَامَ فَهُوَ يُشْفَى». وَكَانَ يَسُوعُ يَقُولُ عَنْ مَوْتِهِ وَهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ يَقُولُ عَنْ رُقَادِ النَّوْمِ.

الرب هنا يعبر عن العلاقة الروحية التي لا تزال قائمة بينه وبين لعازر، ويضم التلاميذ معه فيها، وهي علاقة الصداقة الروحية، لأن كلمة «حبيبنا» هنا تأتي في معنى الصداقة أكثر منها في الحب» وهي نفس الكلمة الواردة على فم المعمدان: «أما صديق العريس» (يو٣:٢٩). كذلك هو نفس الاصطلاح الوارد في الآيات ١٣و١٤و١٥ من الأصحاح ١٥: «ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه ... أنتم أحبائي إن فعلتم ما أوصيكم به. لا أعود أسميكم عبيداً، لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده. لكني قد سميتكم أحباء ...»». وهكذا نرى كيف أن اللغة اليونانية تجعل الصداقة الروحية على مستوى المحبة بنوع ما. ونرى أيضاً كيف قصرت اللغة العربية في التقاط هذه الفوارق الجوهرية في التعبيرات الروحية.

وينبغي أن نلاحظ أن المسيح أبقى على العلاقة الروحية التي على مستوى صداقة المحبة، كما هي، بعد موت لعازر؛ ما يشير ان نفس لعازر ظلت تتمتع بهذه الصداقة والمحبة الروحية في الموت، ليس مع المسيح فقط بل

---

[2] الترجمة العربية للآية: «إن كان أحد يمشي في الليل يعثر، لأن النور ليس فيه« غير واضحة لأن كلمة «فيه« يمكن أن تعود على «الليل« أو على «الذي يمشي». ولكن في الأصل اليوناني «فيه« جاءت بالضمير المذكر الذي لا يمكن أن يعود على « الليل« (مؤنث) بل يعود بكل وضوح على «الذي يمشي« (مذكر).

ومع التلاميذ. وهذه هي حال النفس في العالم الآخر بالنسبة لألفة الجماعة هنا وهناك. «لعازرحبيبنا قد نام، لكني أذهب لأوقظه.»

هذا الاصطلاح الجديد (تقريباً) الذي وضعه الرب للتعبير عن الموت بأنه مجرد «نوم» هو نموذج لمعيار تفكير الرب وتعبيره عن الروحيات، ويتضح منه كيف يسعى المسيح لرفع مستوى الفكر البشري للتلامس مع الواقع الروحي الفائق على الطبيعة، وقد صار هو التعبير الطقسي الرسمي في الكنيسة في كل صلواتها ولكن بإضافة هامة: «فلان رقد في الرب» تعبيرا عن «موت القيامة». لأنه طالما كان الموت في الإيمان بالمسيح، فإنه يكون مؤديا إلى قيامة وحياة. لذلك، فهو مجرد رقاد، حتى وإن طال زمنه، لأن الزمن غير محسوب بالنسبة للحياة بعد الموت. [ليس موت لعبيدك، بل هو انتقال) (القداس القبطي، أوشية الراقدين).

ولكن تأتي في العهد القديم: «رقد وانضم إلى أبائه» (أع١٣:٣٦ راجع امل٢:١٠) بمعنى الموت المقيم. وإن كان يحتج بعض النقاد أن هذا الاصطلاح كان مستخدما عند الربيين وعند غير اليهود أيضا؛ ولكن أن يقوله المسيح وينطقه بروحه، فقد صار ذا معنى غير كل ما كانت تعنيه الفئات الأخرى من يهودية ووثنية، خاصة وأن الرب أكمل ما يقول بالفعل. فإقامة لعازر من الموت كانت بمثابة اليقظة الجسدية العظمى للانسان، والتي لم يكن لها مثيل ولا مُشابه لرجل أنتن جسده في القبر لأربعة أيام، بعد لعنة الموت الدائم التي حلت عليه، توطئة ليقظة القيامة الروحية العتيدة أن تكون، وقد صارت بقيامة الرب من الموت.

فالمسيح الآن له هذا القدوم العظيم والمبارك، لإيقاظ النفوس التي غرقت في بحر الخطيئة وأخرجت نتن رائحتها لتزكم الأنوف: يأتيها المُبشر ببشرى الخلاص من ليلها الطويل: «يقول، استيقظ أيها النائم، وقم من الأموات، فيضيء لك المسيح» (أف٥:١٤)، حيث يتلقفه صوت صاحب الرؤيا: «مبارك ومقدس من له نصيب في القيامة الأولى، هؤلاء ليس للموت الثاني (موت الدينونة) سلطان عليهم.» (رؤ٢٠:٦)

هذه هي القيامة الاولى الروحية، الشخصية والفردية، من موت الخطية القاتل، التي هي بمثابة جواز الدخول إلى الأمجاد العليا عند استعلان القيامة الأخيرة العامة العتيدة أن تكون على كل العالم. وكما أن نوم الجسد محدد بالساعات؛ هكذا نوم الموت فهو حتماً إلى ميعاد، وكما أن النفس تأخذ خبرة الأحلام، إن بأفراح أو بأحزان هي شبه الحقيقة أثناء نوم الجسد؛ هكذا قد أعطي للنفس أن تأخذ خبرة الأفراح والأحزان الحقيقية، كسبق تذوق للقيامة العامة، أثناء نوم الموت الطويل إلى أن تحين القيامة العامة لتعيش أفراحها أو أحزانها الآبدية.

والصوت الذق أيقظ لعازر من نوم موت الأربعة الأيام، هو هو نفس الصوت الذي يسمعه جميع الذين في القبور، «فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة» (يو٥:٢٩). والصوت هو صوت الله، ينطقه الآبن بالسلطان الذي أعطي له أن يضع النفس ويأخذها أيضاً. وواهب الحياة هو وحده الذي يستطيع أن يعيدها بأقوى وأشمل صورة، إذا تعدى عليها الموت إلى حين. فالموت دائماً إلى زمن، والحياة دائماً إلى الآبد!... «لأني أنا حي فأنتم ستحيون» (يو١٤:١٩). وكلمة الله التي نطقت هذا هي حية وفعالة ...

١١:١٢-١٣ فَقَالَ تلاَمِيذُهُ: «يَا سَيِّدُ إِنْ كَانَ قَدْ نَامَ فَهُوَ يُشْفَى». وَكَانَ يَسُوعُ يَقُولُ عَنْ مَوْتِهِ وَهُمْ ظَنُّوا أَنَّهُ يَقُولُ عَنْ رُقَادِ النَّوْمِ.

يلزمنا هنا الرجوع إلى اللغة اليونانية لندرك سبب هذا الالتباس عند التلاميذ. فكلمة نام (   ) فى اليونانية تأتي بصيغتين:

الصيغة الاولى بمعنى رقاد الراحة (   )، وتفيد بالتالى إمكانية الرقاد الثقيل بالمرض، كالحمى مثلاً، أو الموت، كما جاءت في مواضع كثيرة جداً فى العهد الجديد، بل وتفيد أيضاً بصيغة التورية مكان رقاد راحة الموت، وهي الصيغة التي أخذتها اللغات الأخرى من الأصل اليوناني (   ) ولكن نطقها كالآتي (   ) حيث قلبوا k إلى c وهي مكان القبور وأصلاً نوم الراحة الطويل.

أما الصيغة الثانية فهي «النوم» بمعنى فقدان الوعي أو الشعور الوقتي، والذق يوضحه جداً تركيب هذه الصيغة (   )، حيث مقطع (   ) يعني العقل، و (   ) يعني تحت أو دون. ولكن لم تأت كلمة (   ) قط بمعنى الموت، في حين أن كلمة (   ) تأتي لتفيد معنى الموت في العهد الجديد[3]، وقد تأتي أيضأ بمعنى النوم كراحة.

فالتلاميذ اعتبروا قول الرب أن لعازر (   ) رقد رقاد المرض كالحمى مثلاً. وهكذا، فلا داعي أن يرتحل الرب والتلاميذ معه هذه الرحلة الخطرة التي تحمل في طياتها شبح الموت للمعلم ولهم، فالذي رقد للمرض فهو يُشفى. ولكن «يُشفى» (   ) جاءت في اليونانية بلغة التلاميذ بقصد «يتعافى» أو يعود صحيحا وهذا هو المعنى الذي أخذت به في اللغة الإنجليزية he will get well ولكن بالمعنى الأكثر شمولاً فهي تأتي بمعنى «يخلص» (سوتيس باليونانية). وهنا تنفذ اللغة السرية لإنجيل يوحنا لتبلغ، دون أن يقصد التلاميذ، إلى معنى الخلاص الحقيقي بالقيامة.

ثم يعود إنجيل يوحنا ليفسر أن التلاميذ ظنوا أن المسيح يتكلم عن «رقاد النوم» أو راحة النوم، على وجه الأصح، وهنا ضم الإنجيل الرقاد إلى النوم الخفيف (   )، حيث استبعد التلاميذ رقاد الموت. وتضيف الآيات: لكن «كان يسوع يقول عن موته» وهنا يكشف القديس يوحنا بوضوح عن لغة المسيح الفائقة للطبيعة وللفكر العادي حينما قال عن الموت أنه نوم.

١١: ١٤-١٦ فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ حِينَئِذٍ علاَنِيَةً: «لِعَازَرُ مَاتَ، وَأَنَا أَفْرَحُ لأَجْلِكُمْ إِنِّي لَمْ أَكُنْ هُنَاكَ لِتُؤْمِنُوا. وَلَكِنْ لِنَذْهَبْ إِلَيْهِ». فَقَالَ تُومَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ لِلتّلاَمِيذِ رُفَقَائِهِ: «لِنَذْهَبْ نَحْنُ أَيْضاً لِكَيْ نَمُوتَ مَعَهُ».

قتول القديس يوحنا هنا أن المسيح عاد وابتدأ يتكلم «علانية» أي بدون تورية. والتورية التي تكلم بها الرب سابقاً هي أسلوبه الخفي، الرمزي، والفائق عن الطبيعة والفكر المادي، الذي يصيب المعنى الروحي أكثر مما يفيد المعنى الظاهري العادي. فقول الرب سابقاً: «لعازر... نام لكي أذهب لأوقظه» أربك التلاميذ، لأنه استخدم كلمة النوم التي تفيد إما معنى الموه أومعنى الرقاد للراحة، مع كلمة اليقظة (   ) التي تفيد الاستيقاظ من النوم العادي. ولكن هنا كلمة «علانية» (   ) تفيد الوضوح وبلا خوف، حيث تخلى الرب، مؤقتاً، عن المعنى الروحي من رقاد النوم بما يفيد إمكان اليقظة أو القيامة منه. علماً بأن الفعل المستخدم في «لعازر قد نام (   ) وأنا أذهب لأوقظه» جاء في زمن المضارع التام وهو يفيد حالة دوام النوم التي تحتمل النوم واليقظة، أما الفعل المستخدم هنا «لعازر مات» فقد جاء في زمن الماضي البسيط وهو يفيد الوصول إلى نقطة تغير مفاجىء قاطعة.

وذكر استخدام المسيح لهذه التورية لا يقتصر على إنجيل يوحنا، ففي إنجيل القديس مرقس في الأصحاح الخامس عدد٣٩، نجد المسيح يستخدم نفس الأسلوب في نفس الموقف وبنفس المعنى: «فدخل وقال لهم لماذا تضجون

---

[3] ١تس ٤: ١٣ «من جهة الراقدين لكي لا تحزنوا كالباقين».

وتبكون، لم تمت الصبية ولكنها نائمة. فضحكوا عليه ...»، لأنها كانت ميتة ولزمن ليس بقصير. وهذا الأسلوب السائد في إنجيل يوحنا يتناسب مع مستوى الإنجيل في تقديم الرب بصفته المستعلن لله: **Revealer of God**.

وحينما يسبق المسيح ويتكلم عن أمور قادمة، لا يقدم نفسه كمن يتنبأ عن بعد زمني، ولكن يقدم نفسه ككاشف ومستعلن للحقائق، باعتبارها واقعة وكائنة في معرفته، ويعلنها قبل حدوثها الزمنيه حتى إذا حدثت أدرك منها التلاميذ قدرته الإلهية كمستعلن لله ذاته: «أقول لكم الآن قبل أن يكون، حتى متى كان تؤمنون أني أنا هو» (يو١٣:١٩). وقد كرر نفس القول في ١٤:٢٩، وكذلك بالأكثر عن آلامه التي ظل يكشف عن مجيئها الحتمي وقبولها بسرور: «لكني قد كلمتكم بهذاء حتى إذا جاءت الساعة تذكرون أني أنا قلته لكم» (يو١٦:٤). وقد لاحظ التلاميذ ذلك بالفعل، واقتنعوا بأن سبق إعلانات الرب هي لتثبيت إيمانهم: «الآن نعلم أنك عالم بكل شيء، ولست تحتاج أن يسألك أحد، لهذا نؤمن أنك من الله خرجت» (يو١٦:٣٠). ويلاحظ أن الإيمان الذي كان يهدف إليه المسيح من إعلانه المسبق ليثبت به تلاميذه، ليس مجرد إيمان بقدرته على الشفاء والإقامة من الموت بحد ذاتها، ولكن الإيمان به هو: «حتى تؤمنوا أني أنا هو» ابن الله والمرسل من الله. والقصد الأساسي من آية إقامة لعازر من الموت التي كانت موضوع فرح المسيح لأجل التلاميذ، هو ليثبت إيمانهم من جهة قدرته على إقامة نفسه هو من الموت الحتمي القادم، وبالتالى سلطانه الأعظم في القيامة العامة والدينومة وإعطاء حياة للعالم. وأما الآن، فإعطاء النصرة في الضيقات: «في العالم سيكون لكم ضيق ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم» (يو١٦:٣٣)

«وأنا أفرح لأجلم أني لم أكن هناك، لتؤمنوا. ولكن لنذهب إليه»: معروف قطعا أن الموت لا يجرؤ أن يتسحب على حبيب للمسيح وفي حضرته، فإن كان المسيح قد أبى أن يموت لعازم، حتى في غيبته، وصمم على إقامته من الموت فكم بالحري في وجوده؟

هذه قضية مُسلم بها، قالها الأعداء من اليهود: «ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت؟»، كما قالتها أخت الميت: «فقالت مرثا ليسوع: يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي». وهذا حقاً وبالحقيقة، لأنه في حضرة رئيس الحياة يختشي الموت أن يفرد جناحيه. ولقد سبق للمسيح أن شل حركة الموت في جميع السقماء، الذين أتوا إليه، وهم مشرفون على الموت؟ واستخلص من براثنه كل فرائسه.

أما فرح المسيح من أجل الذهاب إلى بيت الحزن في بيت عنيا، فهو كفرح حضوره إلى بيت الفرح في قانا الجليل، تماماً وبلا تمييز. في هذه أعلن مجده، فآمن به تلاميذه (يو٢:١١)؛ وفي تلك سيعلن أيضاً مجده، ليؤمن به تلاميذه. فرح المسيح هو دائماً إيماننا، وهو يسعى إليه دائماً، ليظهر مجده من وراء أحزاننا وأفراحنا على السواء.

كانت هذه بداية آياته التي صنعها أمام تلاميذه؛ وتلك ختام آياته وإنجيله الذي سلمه إليهم. سلسلة من الآيات ينتقل فيها كل من آمن بالمسيح من مجد إلى مجد، وكما المجد ليس له نهاية كذا الإيمان يكون. وهذا هو بعينه المعيار الروحي البديع الذي يقوم عليه إنجيل يوحنا: فرح المسيح، الذي لا يُحد، في إيماننا الذي ينمو من وراء كل آياته التي صنع.

«ولكن لنذهب إليه»: لا يقول الرب نذهب هناك، بل نذهب إليه. لعازر الميت والمنتن لا يزال حياً أمام المسيح، والرب يبصره حياً في مخيلة التلاميذ. الجسد لا يهم ولا يفيد شيئاً، فلعازر هو هو، قبل أن يموت وبعد أن مات، هذه هي حقيقة الذين يؤمنون بالمسيح: «من آمن بي ولو مات فسيحيا» (يو١١:٢٥). هذا هو أساس «الرجاء» الكائن في الإيمان: «لس هو(الله) إله أموات بل إله أحياء.» (لو٢٠:٣٨)

١١:١٦ فَقَالَ تُومَا الَّذِي يُقَالُ لَهُ التَّوْأَمُ لِلتّلاَمِيذِ رُفَقَائِهِ: «لِنَذْهَبْ نَحْنُ أَيْضاً لِكَيْ نَمُوتَ مَعَهُ».

كان سهلاً على توما أن يموت، استجابة لمحبة المسيح؛ ولكن كان صعباً عليه أن يؤمن بالقيامة من الموت!

كان سهلاً عليه أن يقدم الذي يملكه بالفعل، وهو المحبة. واستحال عليه أن يقدم ما ليس عنده وهو الإيمان. توما كاك يسير وإصبعه يسبق عقله، وعقله يسبق قلبه.

ولكن العجيب حقاً أن تلقائية الإستجابة عند توما لقول المسيح: «لكي تؤمنوا (بقيامة لعازر)»، جاءت لتكون: «لنموت معه» عوض أن نحيا معه!! ولكن كم صار هذا التلميذ الشكاك مؤمناً قويا بعد رؤيته المسيح قائماً من الأموات بلمس إصبعه، فصار مبشراً ورسولا لأكبر بلاد العالم عدداً آنئذ وهي الهند، لأنه صار رسولاً لها.

يبقي أن ننبه ذهن القارىء بخصوص إصرار الإنجيل على تعريف اسم توما «الذي يقال له التوأم». ذلك هو بسبب أن «توما» بالعبرية تعني التوأم، وقد ترجت كلمة «توما» إلى اليونانية بالكلمة «ديديموس». لهذا يحاول الإنجيل دائماً التعريف بأصل الاصطلاح اليوناني» لأنه وان كان عبرانياً وطناً ولغة، إلا أنه يكتب للأمم.

المنظر في يت عنيا

١١:١٧-١٩ فَلَمَّا أَتَى يَسُوعُ وَجَدَ أَنَّهُ قَدْ صَارَ لَهُ أَرْبَعَةُ أَيَّامٍ فِي الْقَبْرِ. وَكَانَتْ بَيْتُ عَنْيَا قَرِيبَةً مِنْ أُورُشَلِيمَ نَحْوَ خَمْسَ عَشْرَةَ غَلْوَةً. وَكَانَ كَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ قَدْ جَاءُوا إِلَى مَرْثَا وَمَرْيَمَ لِيُعَزُّوهُمَا عَنْ أَخِيهِمَا.

حينما وصل المسيح مع تلاميذه إلى بيت عنيا، «وجد» ما كان يترقبه، أو ما كان يعرفه تماماً: ليس أن لعازر قد مات فقط، بل وله أربعة أيام في القبر. وذكر عدد الأيام في القبر هو لتأكيد انحلال الجسد انحلالاً يؤدي إلى تهرؤ هيئة الجسم والوجه وفساده. والإمعان في ذكر الأربعة الأيام في القبر لثاني مرة في الآية: «يا سيد قد أنتن، لأن له أربعة أيام (في القبر)»، هو لوضع الرمز اللاهوتي في المقابلة بين رعبة انحلال الجسد ونتانته، إزاء الفرحة بمجد الله التي ينتقل إليها المؤمن الذي يشاهد القيامة من الموت ويشهد لها. كما أن هذه الآية تتوازى في العمق اللاهوتي مع آية تفتيح عيني الأعمى المولود أعمى، الذي انتقل من الظلام الدامس في عالمه المظلم إلى إشراق النور بكلمة المسيح.

كما أن القصد من ذكر عدد الأيام، هو استبعاد دخول الروح في الجسد استبعاداً مطلقاً. لأنه بحسب إيمان اليهود وتقليدهم الموروث من جهة الميت، فإن الروح تبقى في الأرض ثلاثة أيام تتردد فيها على القبر وتحاول الدخول في الجسد، ولكن بعد تغيره وإنحلاله وفساده، وذلك بعد ثلاثة أيام، تشمئز الروح ولا تعود إلى الجسد مرة أخرى، حيث تذهب وتنضم إلى بقية أرواح الموتى. هذا التقليد اليهودي سجله الرابي اليهودي «بار كبارا» سنة ٢٠٠ تقريباً، وكذلك رابي «ليفي» سنة ٣٠٠ تقريباً. وهذا التقليد القديم هو الذي تأخذ به الكنيسة القبطية منذ القديم، حث تقيم صلاة خاصة لروح الميت في اليوم الثالث في المزل الذي توفي فيه، بقصد مساعدة الروح لانطلاقها إلى مكان راحتها.

أما بقية التقليد القديم الذي يذكره التلمود بالنسبة للميت فهو كالآتي:

[ثلاثة أيام للبكاء على الميت. ثم سبعة أيام نواح (تراتيل حزينة). ثم ثلاثين يوماً حداداً يُمنع فيها قص الشعر ولبس الملابس الثمينة]

إذن، فمجيء اليهود من أورشليم لتعزية مرثا ومريم، لمدة سبعة أيام حسب طقس اليهود كأعلى تعبيرات المحبة التي لا يمكن لليهودي أن يفرط فيها، لا تأتي في القصة مصادفة، بل هي الوصلة الملتهبة التي تفجرت في أورشليم بسرعة بعد قيامة لعازرعن الموت، حيث بلغ الخبر للرؤساء المتربصين، فطار صوابهم. وتشكل الصليب في أفق جنونهم في الحال.

ومجيء هؤلاء اليهود لم يكن بقصد التلصص على أخبار الرب، ولكن بانفعال صادق لما رأوه سابقاً من الآيات في أورشليم، وبالأخص الآية الأخيرة التي تم فيها تفتيح عيني الأعمى بحضورهم. وهذا واضح من قولهم عندما رأوا المسيح يبكي: «ألم يقدر هذا الذي فتح عيني الأعمى أن يجعل هذا أيضاً لا يموت».

المسيح ومرثا (٢٠–٢٧)

١١:٢٠ فَلَمَّا سَمِعَتْ مَرْثَا أَنَّ يَسُوعَ آتٍ لاَقَتْهُ وَأَمَّا مَرْيَمُ فَاسْتَمَرَّتْ جَالِسَةً فِي الْبَيْتِ.

رد فعل خبر مجيء «المعلم» المحبوب يسوع بالنسبة لمرثا ومريم، هو مطابق لما جاء عنهما في إنجيل القديس لوقا ١٠:٣٨ من جهة طبيعة كل واحدة. فمرثا خرجت في الحال لاستقباله، فهي كانت ربة البيت ذات الإحساس بالواجب وصاحبة الضيافة بنشاط والخدمة الكثيرة. ولا ننسى كيف رأت في نفسها الكفاءة أن تلفت نظر المعلم أن يزجر مريم أختها لتساعدها، وكأنها ذات إدارة وإمارة. ولم تر أنه كان من الواجب عليها أن تدعو أختها قبل أن تسرع للخروج. لذلك ظلت مريم جالسة في البيت وسط المعزين، ولم تعلم بخروج أختها[4]، علماً بأن طبيعة مريم كانت هادئة مذعنة، ليست كثيرة الحركة، تتقن الجلوس تحت أقدام من يعلمها، ولكن كانت قد «أحبت الرب كثيراً» في صمت بالغ يشهد عليه الناردين الخالص الكثير الثمن.

١١:٢١–٢٤ فَقَالَتْ مَرْثَا لِيَسُوعَ: «يَا سَيِّدُ لَوْ كُنْتَ هَهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي. لَكِنِّي الآنَ أَيْضاً أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا تَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ يُعْطِيكَ اللَّهُ إِيَّاهُ». قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «سَيَقُومُ أَخُوكِ». قَالَتْ لَهُ مَرْثَا: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ سَيَقُومُ فِي الْقِيَامَةِ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ».

مرثا تطرح انفعالها أمام الرب في صورة إيمانية بسيطة، مع حسرة على حاجة فلتت من يديها ومن يد الزمن. ولكن عادت تتعلق برجاء. والرجاء دائماً أبداً يغطي قصور ما لم يحققه الزمن، رجاء يستند، لا على الإيمان الشخصي فقط، بل وعلى العلم بقدرة المسيح، «أنا أعلم»، مرثا ألقت بكل ما تبقى لها من أمل على وعد المسيح: «من آمن بي ولو مات فسيحيا»، مستندة على يقينها أن طلب المسيح مستجاب لدى الله. وهنا تكرر مرثا حضور الله إزاء طلب المسيح مرتين: «أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إيا،»، وذلك تأكيدا للعلاقة التي تربط المسيح بالله.

ثم، لا بد أن أحد التلاميذ أسر إليها بقول المسيح لهم: «أنا أذهب لاوقظه». لذلك اشتد يقينها بأن شيئاً عظيماً سيحدث على يدي المسيح، فبدأت تستحث الرب على ذلك، مؤكدة له أنها على يقين أن «كل ما تطلب من الله

---

[4] جلوس مريم وسط المعزين يذكره القديس يوحنا بعناية لأن هذا هو طقس العزاء بالنسبة للميت. ويذكر العلامة اليهودي المتنصر إدرزهيم هذا الترتيب كالآتي: [حالما يخرج جسد الميت من البيت للدفن، فإن كل المقاعد في البيت سواء كراسي، أو دكك أو مساند (أي شلت) تُقلب (معكوسة أرجلها إلى فوق). والمعزون يجلسون على الأرض مباشرة أو على مقاعد واطئة بدون ظهر. ويلاحظ أن هذا التقليد اليهودي القديم بقي كما هو بالضبط في أصول الطقس الكنسي في الكنيسة القبطية، وذلك في الإحتفال بأسبوع الآلام، وخاصة يوم الجمعة الحزينة، كما هو جار تماماً في الأديرة.

يعطيك الله إياه». لقد انطلق إيمانها مع هذه الكلمات، يحلق بقوة الرجاء في قوة الحياة التي يمكن أن يهبها المسيح، ولكن كيف؟ لم تجرؤ مرثا أن تطلب علانية ما يعز على أي إنسان طلبه. ولكن الحبة التي كانت تتأجج في قلبها كانت تضيء أمامها المجهول، وأن لا شي ء مستحيل لدى الرب.

«وكل» التي قالتها مرثا من عمق أعماق قلبها كفيلة بأن تغطي كل شي ء حتى القيامة من الموت: «أنا أعلم أن كل ما تطلب...«. و«كل» تترجم بالإنجليزية: whatsoever أى «مهما»

«قال لها يسوع: سيقوم أخوك. قالت له مرثا: أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير»:

المسيح يتكلم عن القيامة كقوة إلهة فيه، سيستعلنها في شخصه كحقيقة حاضرة لا يحصرها زمان ولا تحدها أية قوة في العالم، وسيمارسها تجاه الموت ليلغي وجوده علنا، ويُظهر الحياة كقوة غالبة ومنتصرة من داخل الموت.

والغاية من قول المسيح هذه الحقيقة: «سيقوم أخوك»، هو ليعلن لمرثا أن الموت ليس هو العدو الذي ينتصر فوق الحياة، إذ توجد القيامة التي تبطله، يقولها هنا المسيح كخبر، قبل أن يكمله كفعل، ليصير هذا هو معيارنا الجديد بالمسيح يسوع تجاه الموت: «سيقوم اخوك». وفعلاً فإن مرثا أخذت قول المسيح كتعليم وفلسفة، وليس كعمل سيتم تجاه الميت. فوافقت عليه وشرحته حسب تقديرها الإيماني، كحقيقة عامة معروفة، وليس كفعل شخصي: «أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الأخير».

وبهذا تكون مرثا قد أخذت قول المسيح على مستوى التعزية ليس إلا، وذلك حسب أصول المجاملة في حالة الموت. وعززته باستذكار التعليم اليهودي من جهة قيامة الأجساد، الذي كان الفريسيون يعلمون به ضد الصدوقيين الذين لم يكونوا يؤمنون بالقيامة على وجه الإطلاق (مر١٢: ١٨، أع٢٣: ٨). وهذا التعليم اللاهوتي اليهودي ظهر بوضوح منذ القرن الثاني قبل الميلاد: «وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون، هؤلاء إلى الحياة الآبدية وهؤلاء إلى العار للازدراء الآبدي.» (دا١٢: ٢)

وقد دخلت هذه الحقيقة الإيمانية كجزء في العبادة الرسمية اليومية حيث تقال في البركة الثانية ضمن الثماني عشرة بركة: [أنت الجبار إلى الآبد يا رب، أنت الذي تحيي الموتى].

ولكنها كانت حقيقة مفهومة من جهة الأمور الأخروية، ولا تدخل قط في مفهوم إمكانية القيامة في الحاضر، الأمر الذي حققه المسيح لنفسه وللآخرين.

وهكذا أراد إنجيل يوحنا أن يضع في مقابلة ومواجهة: قانون الإيمان اليهودي، تجاه قانون الإيمان المسيحي، من جهة التعليم بالقيامة. فالأول يرى القيامة مجرد مقولة إيمانية في أمور أخر الزمان، والثاني يراها حقيقة خلاصية حاضرة الآن وكل يوم، في المسيح، وبالمسيح. وهذا هو رد المسيح الاستعلاني.

١١: ٢٥-٢٧ قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَنَا هُوَ الْقِيَامَةُ وَالْحَيَاةُ. مَنْ آمَنَ بِي وَلَوْ مَاتَ فَسَيَحْيَا. وَكُلُّ مَنْ كَانَ حَيّاً وَآمَنَ بِي فَلَنْ يَمُوتَ إِلَى الآبدِ. أَتُؤْمِنِينَ بِهذَا؟». قَالَتْ لَهُ: «نَعَمْ يَا سَيِّدُ. أَنَا قَدْ آمَنْتُ أَنَّكَ أَنْتَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الآتِي إِلَى الْعَالَمِ».

رد المسيح لا يخطىء من قول مرثا واعترافها بالإيمان اليهودي. ولكن التصحيح هو أن القيامة ليست تعليماً ولكن حقيقة، ليست للمستقبل بل هي للحاضر، ليست لجماعة (قيامة جماعية) ولكن لكل فرد من واقع فردية حياته، ليست نعمة يتحصل عليها المسيح من (الله) كطلب مرثا، بل هى كيان المسيح نفسه «أنا هو» حينما يتصل بنا،

سواء الآن وكل أوان أو المستقبل.

وينبغي الآن أن نفرق بين أقوال المسيح السابقة عن: «أنا هو» التي ينسب فيها إلى لاهوته تشبيهات بنور العالم والطريق والكرمة وباب الخراف والراعي الصالح وخبز الحياة، هذه كلها تصويرات لفظية تصور عمل المسيح لقيادة الإنسان وتقويته وبنائه روحياً، وضمان صلته بالحياة الآبدية. أما هنا فقوله: «أنا هو القيامة» ، ليس تشبيهاً ولا تصويراً، ولكن استعلان حقيقة كائنة فيه، وهي من صميم كيانه وطبيعته، تلك التي كان يظن، كما كانت مرثا أيضاً تظن، أن فاعليتها متوقفة على اليوم الأخير، وأن قوة هذه الإقامة من الموت هي من عمل الله. ولكن هنا يستعلن المسيح أنها من عمله هو، وأنها ليست عمله الخاص وحسب، بل هي طبيعته: «أنا هو القيامة». المسيح هنا يستعلن نفسه، أو كما سبق وقال: «أنا الشاهد لنفسي» (يو٨:١٨). هنا «فعل» الإقامة من الموت المستقبلي ينسبه المسيح إلى حاضر طبيعته الإلهية، أو على الوجه الأصح، إلى لاهوته القائم الآن فيه والى الآبد، وليس هو مجرد «فعل إقامة»، بل «مصدر» القيامة: «أنا هو القيامة (ذاتها)»[5]. وهكذا وبهذا يكون قد أضاف المسيح إلى كل أقواله السابقة عن «وأنا أقيمه في اليوم الأخير»: «وهذه مشيئة الآب الذي أرسلني أن كل ما أعطاني لا أتلف منه شيئاً بل أقيمه في اليوم الأخير» (يو٦:٣٩-٤٤) إضافة جديدة في غاية الأهية وهي عمله في الحاضر أيضاً للاقامة من الموت، وبالتال إعطاء الحياة الآبدية الأن في الحاضر: «أنا هو القيامة والحياة».

وبالتوازي مع الإقامة من الموت الآن واعطاء الحياة الان، يؤكد المسيح في إنجيل يوحنا أنه أيضاً يباشر الدينونة والإعفاء من الدينونة الآن أيضاً، أو على وجه أصح منذ الآن: «الحق الحق أقول لكم: إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قد انتقل من الموت إلى الحياة.» (يو٥:٢٤)

والمسيح لا ينفي هنا الدينونة في اليوم الأخيره ولا القيامة في اليوم الأخير، ولا استعلان الحياة الآبدية في اليوم الأخير، ولكن يضيف ويكمل الإيمان اليهودي بالقيامة في اليوم الأخير بالإيمان المسيحي، أن القيامة والدينونة والحياة تبدأ من الآن، وذلك في المسيح وبالإتحاد معه. وكأن المسيح يخاطب الذين يبكون وينوحون على ميتهم الذي يكون قد آمن بالمسيح وأحبه وعاش في حضرته، هكذا: [لا تبكوا ولا تحزنوا بل ثقوا وآمنوا أن أخاكم حي الآن، وهو معي، لقد «انتقل من الموت إلى الحياة»، «لأنه قد أحب الإخوة» (راجع ١يو٣:١٤) وهو يستمتع بالحياة الآبدية بلا حزن ولا كآبة ولا تنهد في النور الآبدي، لقد قام أخوكم بالروح، ولكن الجسد هو الذي اسُتهدف وحده للفساد والفناء، الجسد لا يفيد شيئاً، الروح هو المؤهل للحياة الآبدية. الله روح وهو طالب الساجدين له بالروح والحق. لا تهتموا بعد بما هو على الأرض، «فإن كنتم قد قمتم مع المسيح فاطلبوا ما فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله. اهتموا بما فوق لا بما على الأرض. لأنكم قد متم، وحياتكم مستترة مع المسيح في الله. متى أُظهر المسيح حياتنا، فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه في المجد» (كو٣:١-٤)].

و«أنا هو القيامة قبل الحياة»، لأن المسيح سيبدأ من الموت ليعلن الحياة. ولكن لا بد من الاثنين معاً، لأن القيامة والحياة استعلان واحد وهو شخصه. فهو لم يقل أن القيامة عمل يحضره لنا أو يقودنا إليه أو يعدنا به، ولكنه يقول: «أنا هو القيامة». والقيامة التي يعلنها المسيح أنها كيانه الخاص: «أنا هو»، لا يعلنها لنعرفها فيه مجرد

---

[5] بخصوص أن القيامة هي من صميم كيان المسيح وطبيعته وليست مجرد عمل يقوم به، فإن القديس كيرلس الكبير يدعو المسيح بعبارة تكروت مئات المرات في كتاباته وهي: «الذي هو بطبيعته الحياة».

معرفة، بل إنه يعلنها باعتبارها لنا ومن أجلنا. هي كائنة أصلاً في صمميم لاهوته، لأنه هو الحياة ذاتها[6] التي ليس فيها الموت. ولكن لأنه تجسد وأخذ بشرية الفرد الكاملة التي يمكن أن يموت بها، صارت القيامة كائنة في ناسوته أيضاً، لذلك إن مات فهو حتماً يقوم، وهكذا حقق المسيح للبشرية فردية الإنسان الدائمة والقائمة والحية إلى الآبد. ولكن قبل أن يموت، باشر إقامة لعازر من الموت، لندرك أن القيامة كائنة فيه، بل هي كيانه الذي نوى أن يمنحنا إياه، بالاتصال بنا أو باتحادنا به، فنقوم به وفيه، أو نصير به قائمين. ويصير كل فرد مؤمن ومتحد به، حياً به، أو أن المسيح يصير حياة كل أحد: «أحيا لا أنا بل المسيح يحيا في» (غل٢:٢٠)، «... احسبوا أنفسكم... أحياء لله بالمسيح يسوع ربنا.» (رو٦:١١)

لذلك، كان الإيمان بالمسيح غلبة للموت وقيامة في الحياة، لأن الايمان بالمسيح الذي هو الإتحاد بالمسيح، هو إتحاد بالقيامة والحياة: «من يسمح كلامي ويؤمن بالذي أرسلني، فله حياة أبدية، ولا يأتي إلى دينونة، بل قد انتقل من الموت إلى الحياة» (يو٥:٢٤)، «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو٦:٥٧). المسيح هنا يعطي ذاته بكيانها القائم والحي. لذلك نستطيع أن نفهم قوله: «من آمن بي ولو مات فسيحيا»، و «من كان حياً وآمن بي فلن يموت إلى الآبد».

فلأنه هو القيامة = فمن يؤمن به، فهو حتى ولو مات موت الجسد، فهو سيحيا ثانية، الآن أو في القيامة.

ولأنه هو الحياة = فمن كان حياً بالروح، أي مؤمناً به، فهو لن يذوق الموت الروحي إلى الآبد، لأن الحياة الآبدية التي فيه قائمة وستتجلى حتماً.

وواضح أن هذا القول يشمل فئتين:

فئة الذين آمنوا وماتوا، ويهدف إلى لعازر كمثل؛ وفئة الذين هم أحياء وامنوا فنالوا عطية الحياة الآبدية، ويهدف إلى مرثا على سبيل المثال أيضا. فالأول سيحيا بالرغم من أنه مات، وذلك بسبب إيمان لعازر وحبه للمسيح. والثاني، وهو مرثا، فلن تذوق الموت (الروحي)، لأنها نالت الحياة الآبدية بالإيمان بالمسيح، الإيمان الذي أعلنته واضحاً: «أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم».

كما يلاحظ أن في المثل الأول: «الذي مات وقام»، يكون المسيح له هو«القيامة والحياة»، حيث تأتي القيامة قبل الحياة لأنها سببها وعلتها: «أنا هو القيامة والحياة».

أما في المثل الثاني، مثل الذي وُهب الإيمان وهو الآن يتمتع بمواهب الحياة الآبدية ويأكل الجسد ويشرب الدم بمعنى الشركة القائمة والإتحاد الكائن مع المسيح، يكون المسيح له هو«الحياة والقيامة» حيث تأتي الحياة قبل القيامة، وحيث تكون الحياة الآبدية هي سبب وعلة القيامة: «كل من يرى الآبن ويؤمن به تكون له حياة أبدية، وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (يو٦:٤٠)، «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة ابديه، وانا اقيمه في اليوم الاخير» (يو٦:٥٤). بمعنى أننا الآن نتمتع بالحياة الآبدية التي من فوق، والتي نلناها بالإيمان بالمسيح وبفعل الروح القدس، للاتحاد به بشركة تناول جسده ودمه، وهذه الحياة الآبدية التي من فوق هي هي قوة القيامة التي في كياننا منذ الآن، وهي التي سنعبر بها الموت وكأنه لم يكن!! «لأنه ليس موت لعبيدك بل هو انتقال» (أوشية الراقدين).

وباختصار شديد يكون المسيح [حياتنا كلنا وقيامتنا كلنا]، القداس الإلهي القبطي (أوشية الإنجيل): «متى أظهر

---

[6] القديس أثانسيوس الرسولي يدعو المسيح: «الذي هو بذاته الحياة، أو الحياة بذاتها»

المسيح حياتنا، فحينئذ تظهرون أنتم أيضاً معه في المجد.» (كو٣:٤)
ولكن علينا أن نلمح أن محور قيامتنا وحياتنا الآبدية هو الإيمان،» فالإيمان هو الحياة الآبدية. ليس الإيمان بالقيامة في حد ذاتها، بل الإيمان بالمسيح أنه هو حقاً وبالحقيقة قيامتنا وحياتنا، لذلك يكون الموت قد أصبح طريقاً للحياة لا غير!! «من آمن بي ولو مات فسيحيا، ولأن الحياة الآبدية قوة ذات كفاءة إلهية قادرة أن تصرع الموت، أينما كان، وتلغي وجوده، لذلك: «من كان حيا وآمن بي لن يموت إلى الآبد»، «أنا هو الخبز الحي الذي نزل من الساء، إن أكل~ أحد من هذا الخبز يحيا إلى الآبد» (يو٦:٥١)، «من يأكل جسدي ويشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير» (يو٦:٥٤)، «الحق الحق أقول لكم: إن كان أحد يحفظ كلامي، فلن يرى الموت إلى الآبد» (يو٨:٥١)، «وهذه هي الحياة الآبدية، أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» (يو١٧:٣)
هكذا يستعلن المسيح ذاته بالنسبة لنا، أنه حقاً القيامة والحياة، وأن الموت لا يزيد عن كونه نعاساً مؤقتاً، لا يلغي الحياة الآبدية التي صارت في كياننا الروحي. فهبة الحياة الآبدية التي ننالها بالإيمان بالمسيح وبالميلاد من الروح القدس من فوق، هي بحد ذاتها إلغاء صريح وواضح لعقوبة الموت التي دخلت إلى العالم بالخطية. فإذا فقد الموت عامل العقوبة واللعنة، أصبح الموت لا يزيد عن كونه راحة للجسد الذي أشقاه العالم، أو أصبح كالنوم أو النعاس حسب ما وصفه المسيح، حيث الإنسان (الصالح) لا يفقد بالموت إلا عوامل الفناء فقط التي دخلت عليه!!
المسيح أراد أن يرفع إيمان مرثا، لتفهم وتتذوق طعم الحياة الآبدية الحقيقية الآن بالإيمان بالمسيح، فيصغر سلطان الموت في عينيها، وتدرك أن القيامة صارت الأن بالمسيح حقيقة قائمة حاضرة فينا بالروح، بقوة الإيمان الذي يوحدنا بالمسيح ويملكن ما لطبيعته، وأن القيامة ليست هي رجاء المستقبل. وهذا بدا واضحاً من إجابة مرثا على سؤال المسيح: «أتؤمنين بهذا؟ قالت له: نعم يا سيد أنا قد آمنت أنك أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم».
ويلاحظ هنا، أن سؤال الرب واضح في اللغة اليونانية، أنه لا يعني «هل توافقين على هذا»؛ بل: «هل هذا هو إيمانك، أتؤمنين بهذا؟». وهكذا استنفر المسيح إيمان مرثا الخاص، لمواجهة المعجزة قبل أن يباشرها، واستحضر مرثا في مواجهة القيامة أو الإقامة من الموت العتيد أن يكمله في الحال، كفعل قائم في المسيح الآن في الحاضر، يقبله لعازر بالروح ويتقبله بالإيمان الذي له، والذي لا يفنى ولا يضمحل بالموت، كحق من حقوق من أحب السيح والتصق به، ليقوم من الأموات ويشهد للقيامة وللحياة التي في المسيح والتي صارت أيضاً فيه وله: «الحق الحق أقول لكم: إنه تأتي ساعة وهي الآن، حين يسمع الأموات صوت ابن الله والسامعون يحيون!!!» (يو٥:٢٥)
لقد عبرت مرثا عن إيمانها بالمسيح مباشرة، دون أن تذكر الموت أو القيامة، وهو تعبير ليس ابن وقته، بل يبدو أنه كان محفوظاً في قلبها، وهو نفس إيمان المعمدان أن المسيح هو ابن الله الآتي إل العالم، وهو إيمان نثنائيل، وإيمان الأعمى المفتوح العينين والقلب، وإيمان بطرس نيابة عن التلاميذ وعن نفسه، الإيمان الذي بدأ يشرق على العالم بتؤدة ويقين، والذي كان العالم يتلهف عليه ويتطلع بشوق نحوه، باعتباره رجاء الدهور الذي سينقذنا من الموت، الذي سبق أن رآه الأنبياء بالروح، المسيا الآتي للخلاص، وها هوذا قد أتى: «أنت المسيح ابن الله الآتي إلى العالم» (يو١١:٢٧). المسيا الآتي إلى العالم، رجاء الأنبياء بل وأكثر من رجاء الأنبياء، لأنه ابن الله الذي يقيمنا من الموت، ويهبنا الحياة، ويصالحنا مع أبيه. لأن «الإيمان بالمسيح» ليس معلومة قائمة بذاتها، بل الإيمان بالمسيح ينشىء خلاصاً، ينشىء علاقة، ينشىء شركة معه، ينشىء إتحاداً، ينشىء قبول القيامة التي في المسيح

والحياة الآبدية التي فتحها علينا وعلى الآب، لتسري في كياننا كأعظم عطية يمكن أن ينالها الإنسان، لأن بها يبدأ الإنسان كالأول يعيش مع الله، هنا كما هناك وإلى الآبد.

كلمة «ابن الله» التي أضافتها مرثا إل اسم «المسيح» ترفع المسيح فوق كل رجاء اليهود والآباء والأنبياء وتوضح أي انفتاح قد صار لنا مع الله.

لقد نطقت مرثا أعظم وأصدق قانون إيمان يطلبه الله والمسيح والإنجيل والأنبياء. انظر إلى ختام رواية القديس يوحنا التي يبلور فيها كل الإنجيل وكل حياة المسيح وأعماله وآياته هكذا: «وآيات أخر كثيرة صنع يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب. وأما هذه فقد كُتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح (المسيا) ابن الله، ولكي تكون لكم، إذا آمنتم، حياة باسمه» (يو٢٠:٣٠-٣١). هذه الخلاصة الإيمانية المسيانية للانجيل هي هي بذاتها التي عبرت عنها مرثا، تعبيراً تسنده المحبة القوية، والعشرة الصادقة، والأمانة، والخدمة، في أحلك ساعات تجربتها ومرارة نفسها!!

انظر، أيها القارىء العزيز، واعلم وتعلم، أننا لنا بقوانين ومفردات كثيرة للايمان نعيش، بقدر ما يكون لنا حياة صادقة باسمه لا تزعزعها أعنف التجارب، حينئذ يصير إيماننا بابن الله حقيقة حية فينا!

١١:٢٨-٣٢ وَلَمَّا قَالَتْ هذَا مَضَتْ وَدَعَتْ مَرْيَمَ أُخْتَهَا سِرّاً قَائِلَةً: «الْمُعَلِّمُ قَدْ حَضَرَ وَهُوَ يَدْعُوكِ». أَمَّا تِلْكَ فَلَمَّا سَمِعَتْ قَامَتْ سَرِيعاً وَجَاءَتْ إِلَيْهِ. وَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ قَدْ جَاءَ إِلَى الْقَرْيَةِ بَلْ كَانَ فِي الْمَكَانِ الَّذِي لاَقَتْهُ فِيهِ مَرْثَا. ثُمَّ إِنَّ الْيَهُودَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهَا فِي الْبَيْتِ يُعَزُّونَهَا لَمَّا رَأَوْا مَرْيَمَ قَامَتْ عَاجِلاً وَخَرَجَتْ تَبِعُوهَا قَائِلِينَ: «إِنَّهَا تَذْهَبُ إِلَى الْقَبْرِ لِتَبْكِيَ هُنَاكَ». فَمَرْيَمُ لَمَّا أَتَتْ إِلَى حَيْثُ كَانَ يَسُوعُ وَرَأَتْهُ خَرَّتْ عِنْدَ رِجْلَيْهِ قَائِلَةً لَهُ: «يَا سَيِّدُ لَوْ كُنْتَ هَهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي».

عجيب القديس يوحنا في سرده للرواية، فهو يعلق من عنده تعليقات تجعل القصة حية ناطقة.

«ولما قالت هذا مضت»: يقصد أنها قالت كل ما عندها، كل ما تملك من الإيمان الذي ارتفع فوق الموقف كله، لقد استجابت لاستعلان المسيح، وردت عليه بما ملأ قلبها راحة وسلاماً. وبقدر ما ارتاحت مرثا ودخل قلبها مناطق ألنور والرجاء، فإنها دعت أختها لتغترف من مراحم الرب وتعزياته، وكلمة «سرا» تتجه ناحية اليهوء الذين جاءوا من أورشليم حتى لا يعكروا صفو اللقاء بفكرهم المريض.

ولقب «المعلم» الى احترفه التلاميذ بحكم تلمذتهم، اختطفته الأختان، إذ اعتبرتا نفسيهما من التابعين، حتى وإن كانتا قد قبعتا في عقر دارهما. فقد أتقنتا فن السماع والحب. ودعوة المعلم لمريم ذكية، فهو يعلم مقدار الحزن والأسى الذي يعتصر قلبها. وكما سقى مرثا من ماء الحياة فارتوت، وانطفأت نار قلبها، هكذا أراد أن يسقي هذه الأخرى العزاء بعيدا عن عقول المرائين. لقد صدق الرب حينما ألمح عن نفسه بقدرة التعزية وسلطان العزاء، حينما وعدهم بإرسال البارقليط المعزي قائلاً: «وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم إلى الآبد» (يو١٤:١٦)؛ باعتبار أنه هو المعزي الأول!!

مريم لما سمعت، «قامت سريعاً»، وجاءت إلى المعلم حيث لاقى مرثا، لأنه لم يشأ أن يدخل القرية مباشرة. ولكن خروج مريم السريع نبه اليهود خطأ أنها ذاهبة لتبكي في القبر، فتبعوها، فكانت مقابلة الرب لمريم في وسط جمع اليهود. ولم تستطسع مريم، بانفعالها البادى عليها من جراء هيبة الرب، إلا أن تخر عند رجليه ساجدة، الأمر الذى

فات على مرثا، لكنها احتفظت بتكريم الرب بمشاعر قلبها الخفية. ولكن كان الفكر الطاغي على قلب مريم هو نفس ما فكرت فيه مرثا وقالته للرب: «يا سيد، لو كنت ههنا لم يمت أخي». أمل مفقود، ولكن كان وراءه نوع من التوسل يملأ قلبها، فالمحبة تصدق كل شيء، وترجو كل شيء، ولا تسقط أبداً، حتى وإن وقف العقل حائلاً دون النطق. لم تسعفها الكلمات أكثر من ذلك، فقدمت أعز وأ قوى ما تملك المرأة: دموعها!!

١١:٣٣-٣٥ فَلَمَّا رَآهَا يَسُوعُ تَبْكِي وَالْيَهُودُ الَّذِينَ جَاءُوا مَعَهَا يَبْكُونَ انْزَعَجَ بِالرُّوحِ وَاضْطَرَبَ. وَقَالَ: «أَيْنَ وَضَعْتُمُوهُ؟» قَالُوا لَهُ: «يَا سَيِّدُ تَعَالَ وَانْظُرْ». بَكَى يَسُوعُ.

مريم تبكي، واليهود يبكون، والمسيح يبكي، هنا تنفرد اللغة اليونانية بتعبيرات البكاء، التي تفرق فيها بين بكاء مريم واليهود وبين بكاء المسيح، في هذا الموقف بالذات. فبكاء مريم واليهود عبرت عنه اللغة اليونانية بكلمة ( )، وهي تفيد المعنى العربي «بكاء بصوت مسموع للتعبير الظاهري عن الحزن»، وهو كمهنة عند النسوة له أصول. أما كلمة «بكى يسوع» بتأتى ( ) وهي بمعنى »أدمعت عيناه بدون صوت». وتأتي كتأثر مباشر عفوي للحزن غير المنضبط، في صمت.

انزعج بالروح: وتأتي باليونانية ( ) وتفيد الانفعال الانعكاسي للمنظر الذي أمامه (تأثر)، وهي لا تفيد الانزعاج كما تجيء في الترجمة العربية، ولكن تفيد التأثر بعدم الرضا، وهي نفس الكلمة التي جاءت في المواقف الأتية بمعنى الانتهار:

+ «فانفتحت أعينهما، فانتهرهما يسوع قائلا: انظرا لا يعلم أحد.» (مت٩:٣٠)

+ «فللوقت وهو يتكلم ذهب عنه البرص، وطهر، فانتهره، وأرسله للوقت.» (١:٤٢-٤٣)

+ وتأتي بمعنى التأنيب: «لأنه كان يمكن أن يباع هذا بأكثر من ثلثمئة دينار ويعطى للفقراء. وكانوا يؤنبونها.» (مر١٤:٥)

وهكذا يظهر أن هذا الاصطلاح «انزعج»، كما جاء في الترجمة العربية، يفيد مجرد التأثر ولا يفيد الحزن.

أما كلمة «بالروح»، فهي تفيد أن الرب تحرك أو تأثر بالروح إزاء منظر البكاء في عدم ارتياح، وتحرك روحيا ليصنع أمراً (إقامة لعازر) يوقف به هذا العويل والنواح.

فقد يؤخذ هذا الانزعاج الروحي على أنه استنفار الروح للقيام بالهمة الخطيرة، وهي إقامة الميت إلى الحياة. ونحن نعلم أن هذا العمل يستلزم خروج قوة هائلة من المسيح ، كما حدث في نازفة الدم : «فقال يسوع قد لمسني واحد، لأني علمت أن قوة قد خرجت مني.» (لو٨:٤٦)

ويلاحظ أن الكلمة اليونانية ( ) التي تُرجمت هنا «انزعج» جاءت بالترجمة «انتهر» في إثر المعجزات ذات الثقل العال التي استلزمت انفعالاً روحياً من الرب لا يستهان به، وهي معجزة شفاء الآبرص (مر١:٤٣)، وشفاء الأعمى (مت٩:٣٠)، وإقامة لعازر (يو١١:٣٣و٣٨). لذلك لا ينبغي أن نستخفت بما تستلزمه المعجزة من الضغط الروحي العال الواقع على جسد المسيح الذي جعله يهتز ويئن وتدمع عيناه في مواقع كثيرة.

«واضطرب»: وهذا طبعاً نتيجة ما تحمله جسده من أحزان واضطراب الآخرين، تلك التي أخذها على نفسه في تعاطف ومشاركة وبمحض إرادته، فجاءت كلمة «واضطرب» للتعبير عن ذلك، والتي تفيد حرفياً «جعل نفسه تضطرب»، وتفيد أيضاً الارتجاف والقشعريرة .

وبذلك تكون الأصول النفسية والروحية التي استهدفها المسيح في جسده للانزعاج والاضطراب، هي عملية طوعية إرادية، اعتبرها الله أبوه، واعتبرها هو، واعتبرها علم اللاهوت بناء على ذلك وبناء على سبق النبوة عنها، أنها جزء لا يتجزأ من عملية الخلاص الكبرى التي جاء المسيح وتجسد من أجلها، فهو لم يحمل خطايانا على نفسه فقط، بل وحمل أحزاننا وأوجاعنا واضطرابنا وموتنا، ويصفها إشعياء النبي بقوة بالغة العمق في قوله:

«رجل أرجاح ومختبر الحزن».

«لكن أحزاننا حملها، وأوجاعنا تحملها، ونحن حسبناه مضروباً من الله ومذلولاً».

«وهو مجروح لأجل معاصينا، مسحوق لأجل آثامنا ...»

«والرب وضع عليه إثم جيعنا».

«أما الرب فسر بأن يسحقه بالحزن» (إش ٥٣)

إذن، فانزعاج المسيح بالروح واضطرابه، بل و بكاؤه، هذا كله وهو يمثل ضعف الإنسان عامة، حمّل المسيح نفسه به، وثقل روحه تحت عبئه، وأخذه وتبناه، واشترك فيه كمقدمة ومؤخرة للموت ذاته الذي أخذه لنفسه وهو غريب عن هذا كله، بل وإن الله الآب سر بهذه المشاركة الحزينة والأليمة باعتبارها جزءاً لا يتجزأ من «ذبيحة الإثم» التي قدمها المسيح (عن خطية الإنسان) قدمها بجسده ونفسه وروحه!!!

ويلزم هنا أن نوضح أن القديس يوحنا، في إنجيله، ميز بين النفس والروح للمسيح في شركة الألم والموت:

«لما قال يسوع هذا، اضطرب بالروح، وشهد وقال: الحق الحق أقول لكم إن واحداً ممكم سيسلمني.» (يو٢١:١٣)

«فلما أخذ يسوع الخل قال: قد أكمل. ونكس رأسه وأسلم الروح.» (يو٣٠:١٩)

«أنا هو الراعي الصالح، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف.» (يو١١:١٠)

«الآن نفسي قد اضطربت، وماذا أقول، أيها الآب نجي من هذه الساعة ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة.» (يو٢٧:١٢)

والآن يلزم أن نفهم أن آية إقامة لعازر من الموت، مع كل ما لابسها من مشاعر وعواطف وأحزان واضطراب وانزعاج، لا يمكن اعتبارها أنها حادثة قائمة بذاتها تمثل ظروفها فقط، بل هي نموذج، وصورة واقعية توضح صلة المسيح، وليس صلة المسيح فقط، بل وصلة الله بموتنا وقيامتنا، وما يلابس موتنا من جميع النواحي البشرية كما حدث في قصة لعازر، ويكفي أن نسع عن الله أنه «في كل ضيقهم تضايق ... » (إش٩:٦٣). المسيح يكرر حضوره، ويمارس إظهار مشاعره وعواطفه من جهة كل إنسان في الكنيسة يتألم أو يموت لحسابه: «إن عشنا فللرب نعيش، وان متنا فللرب نموت» (رو٨:١٤). ونحن أيضاً نمارس إيمان قيامتنا في كل ميت يموت لنا، وبهذا الإيمان بالقيامة نرى مجد الله: «إن آمنت ترين مجد الله».

إذن، إقامة لعازر من الموت هي منهج إيماني للكنيسة. لقد رفع إنجيل يوحنا «إقامة لعازر من الموت» من حادثة إلى آية لاستعلان مجد الله، لتدخل في الكنيسة كآية لكل من يموت، ولكل من يموت له أحد.

«وقال: أين وضعتموه. قالوا. يا سيد تعال وانظر. بكى يسوع»: لأول مرة يذكر الإنجيل عن الرب أنه يستفسر، أي يطلب معرفة عن شيء. ولكن يبدو في الحقيقة أنه يعلن بذلك عن نيته في إقامة لعازر من الموت، وليس مجرد معرفة المكان. وهذا أيضاً بدوره هو رد الفعل المباشر في إظهار تأثره ومشاركته لعواطف الباكين، باعتبار أن الرب لا يشارك بالعواطف أو الكلمات وحسب، بل وبالعمل المباشر.

«بكى يسوع[7]»: الكلمة اليونانية (   )، ويقابلها باللغة اللاتينية في الفولجاتا (   )، وهى المرة الوحيدة في كل أسفار العهد الجديد التي ذُكرت فيها هذه الكلمة ولا تفيد أكثر من أن: « أدمع يسوع»، أي سالت دموعه. وهي تعتبر أصغر آية وردت في الإنجيل. ولكن قد ذكر أن المسيح بكى بكاء الحزن بصوت مسموع في إنجيل القديس لوقا: «وفيما هو يقترب، نظر إلى المدينة، وبكى عليها» (لو١٩: ٤١). ولكن كان هذا البكاء على هلاك شعب، وكنيسة، وليس على صديق.

دموع يسوع هنا هي صورة لأحزان الرب عل مصير الإنسان، ككل، الذي جلبه على نفسه بالخطية. والقديس يوحنا أسهب في تصوير بشرية المسيح الكاملة وذلك بالأنواع، التي تعبر عن الإنسانية التي فيه:

التعب: «فإذ كان يسوع قد تعب من السفر جلس هكذا عل البئر.» (يو٤: ٦)

العطش: «فقال لها يسوع أعطيني لأشرب.» (يو٤: ٧)

«قال أنا عطشان» (يو١٩: ٢٨)

المحبة: «.... وجاءت إلى سمعان بطرس والى التلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبه.» (يو٢٠: ٢)

كما جاءت تعبيرات أخرى مكملة في الأناجيل الأخرى:

الجوع: «فبعد ما صام أربعين نهاراً وأربعين ليلة، جاع أخيراً.» (مت٤: ٢)

التهليل: «وفي تلك الساعة، تهلل يسوع بالروح، وقال: أحمدك أيها الآب...» (لو١٠: ٢١)

الغضب: «فنظر حوله إليهم بغضب، حزينا على غلاظة قلوبهم...» (مر٣: ٥)

الحزن: «فقال لهم: نفسي حزينة جداً حتى الموت...» (مت٢٦: ٣٨)

لذلك كان من المستحيل على المسيح الذي تعب وعطش وجاع وأحب وفرح وغضب وحزن حزناً ثقيلاً حتى الموت، أن لا يبكي وتدمع عيناه، ليس مع الإنسان وحسب بل وعلى الإنسان أيضاً. فالذي ارتضى أن يقبل غصة الموت من أجلنا، كيف لا يترك عيناه تنهمر منها الدموع علينا، والذي ارتضى أن يحمل خطايانا في جسده على الصليب، كيف يمتنع عن أن يذرف الدمع علينا حينما يحل البكاء؟ لقد أحل لنفسه البكاء علينا، ولكنه أبى أن يبكي عليه أحد: «يا بنات أورشليم لا تبكين علي، بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن.» (لو٢٣: ٢٨)

يقول اللاهوتيون أن بكاء المسيح أكبر شهادة على كمال ناسوت المسيح، ونحن نقول أيضاً إن بكاء يسوع هو أكبر شهادة على استعلان كمال مشاعر قلب الل !... إن دموع يسوع هي حبات الياقوت التي سقطت علينا من جوهر الله الأزلي، لنصنع منها عقوداً للبهاء والجمال وللتباهي بها لدى الملائكة والرؤساء التي لا تملك أن تبكي.

وكما أبطل المسيح الموت بموته، فلم يعد الموت للعار والعقاب، بل للقيامة والحياة؛ كذلك فالمسيح ببكائه مسح الدمع من العيون، فلم تعد دموعنا لليأس والقنوط، ولكن للحب والعزاء، كدموعه... «يبلع الموت إلى الآبد، ويمسح السيد الرب الدموع عن كل الوجوه، وينزع عار شعبه عن كل الأرض، لأن الرب قد تكلم.» (إش٢٥: ٨)

ويا لفخرنا بدموع الرب هذه، فبعد أن مُسحت دموعنا، وقفت هذه الدموع عينها شهد أن «ليس لنا رئيس كهنة غير قادر أن يرثي لضعفاتنا، بل مُجرب في كل شيء مثلنا، بلا خطية، فإذ لنا رئيس كهنة عظيم قد اجتاز السموات،

---

[7] والرب قد بكى لما رأى الإنسان المخلوق على صورته الخاصة منساقاً للفساد، وذلك حتى ببكائه يضع حدا لدموعنا. فإنه لهذه الغاية أيضاً قد مات حتى يخلصنا من الموت. (القديس كيؤلس الكبير فى تفسير يو١١: ٣٥.

يسوع ابن الله، فلنتمسك بالإقرار.» (عب٤: ١٤-١٥)

١١: ٣٦-٣٧ فَقَالَ الْيَهُودُ: «انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ يُحِبُّهُ». وَقَالَ بَعْضٌ مِنْهُمْ: «أَلَمْ يَقْدِرْ هَذَا الَّذِي فَتَحَ عَيْنَيِ الأَعْمَى أَنْ يَجْعَلَ هَذَا أَيْضاً لاَ يَمُوتُ؟».

هنا أراد القديس يوحنا أن يسجل الوجه الخاطىء لمعنى دموع المسيح، إذ حسبها هؤلاء اليهود أنها دموع جسدية، سقطت عن ضعف، لأنها نابعة من صداقة مفقودة. والعجيب في أسلوب القديس يوحنا السري للغاية أنه يورد بعد قول اليهود هذا، ومباشرة، الرد الذي يصحح هذه النظرة الخاطئة لدموع الرب. إذ يرى اليهود أيضاً، بعض منهم، أن الذي فتح عيني الأعمى، هو قادر بالتالي أن يمنع الموت؛ فالذي يعطي النور يهب الحياة، والذي يعطي النور كيف يبكي على الظلام؟

وعلى العموم كانت تعليقات اليهود هنا، ودائماً، تنم عن فقدان القدرة على مجاراة الرب في استعلاناته ، فلم يستطيعوا ولا مرة واحدة أن يلتقطوا المعنى الروحي في أقوال الرب ولا حتى في آياته. ورد فعلهم هنا لدموع الرب، هو مماثل لرد الفعل الذي أحدثه الصوت الذي جاء من السماء استجابة لنداء المسيح: «أيها الآب مجد اسمك، فجاء صوت من السماء: مجدت وأمجد أيضاً. فالجمع الذي كان واقفاً وسمع، قال: قد حدث رعد، وآخرون قالوا قد كلمه ملاك. أجاب يسوع وقال: ليس من أجلي صار هذا الصوت بل من أجلكم» (يو١٢: ٢٨-٣٠). هكذا، ولهذا، بكى يسوع، ليس من أجل نفسه، ولكن من أجل الذين «لم يعرفوا بعد ما هو لسلامهم.» (راجع لو١٩: ٤١)

١١: ٣٨-٣٩ فَانْزَعَجَ يَسُوعُ أَيْضاً فِي نَفْسِهِ وَجَاءَ إِلَى الْقَبْرِ وَكَانَ مَغَارَةً وَقَدْ وُضِعَ عَلَيْهِ حَجَرٌ. قَالَ يَسُوعُ: «ارْفَعُوا الْحَجَرَ». قَالَتْ لَهُ مَرْثَا أُخْتُ الْمَيْتِ: «يَا سَيِّدُ قَدْ أَنْتَنَ لأَنَّ لَهُ أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ».

لا يزال المسيح في حالة الاستنفار العليا، والجسد واقع تحت استعداد خروج أكبر قوة خرجت من المسيح لاتيان معجزة، فإقامة الميت من القبر، والجسد قد انحل وتهرآ وآنتتن، تحتاج إلى عملية تخليق وخلق ليعود اللحم المنحل والفاسد إلى لعازر الأول الكامل والصحيح المتعافى. المسيح هنا يا إخوة هو «الكلمة» الخالق، وهو نفسه «المخلص» من براثن الموت، وهو هو «الديان» الذي تسمع الموتى صوته في القبور، وهو أخيراً «القيامة والحياة»، أقصى قوة في السماء والأرض يحتاجها الميت المنتن ليقوم ويحيا ويعيش ويتكلم مرة أخرى، أي جسد هذا، الذي للمسيح، الذي تحمل خروج هذه القوى المتعاظمة التي للخالق الديان والمخلص المحيي!!

سار المسيح إلى القبر في تؤدة، وجسده يرتجف من ثقل هذه القوى التي تموج في داخله تنتظر الكلمة الأخيرة لتخرج منه، لتصارع قوات الظلام في ظلمة الهاوية، وتحطم مصاريع الجحيم، وتفك قيود الموت، لتطلق سبي الروح: «أخرجهم من الظلمة وظلال الموت وقطع قيودهم. فليحمدوا الرب على رحمته وعجائبه لبني آدم . لأنه كسّر مصاريع نحاس وقطع عوارض حديد.» (مز١٠٧: ١٤-١٦)

كان القبر عبارة عن مغارة، إما منحوتة في الجبل أو طبيعية، إما على مستوى الواقف أو منخفضة عنه حيث يوضع الحجر على فم القبر وليس أمامه، وتُغلق الفتحة بحجر كبير، يمكن لأكثر من واحد إما أن يرفعه أو يدحرجه ليقفل باب المغارة، لتَحفظ الأجساد من تعدي الوحوش.

«قال يسوع: ارفعوا الحجر، قالت له مرثا أخت الميت: يا سيد قد أنتن لأن له أربعة أيام»: «ارفعوا الحجر»؛ هذا كان أمر المسيح لليهود الواقفين، وذلك ليشتركوا في التمهيد للمعجزة كشهود عيان، كما أمرهم بعد ذلك أن يحلوا الميت من أربطة الكفن، لكي تكون شهادتهم بلمس اليد أيضاً. وهذه يعتني القديس يوحنا في

تسجيلها، لأنها جزء لا يتجزأ من برهان صدق الآية. ومجيىء تعليق مرثا باحتجاجها أن رائحة الميت ستواجه الذين يرفعون الحجر، لتكمل الشهادة العينية والملموسة والمحسوسة بالشم أن لعازر مات وله أربعة أيام في القبر، حتى لا يكون منفذ للمتشككين.

أما على المستوى الروحي السري، فرفع الحجر قبل المعجزة عمل حتمي بالنسبة لنصيب خدام الرب وجهد الكنيسة الذي يمهد بالتعليم والتوضيح، لتتدخل قوة الرب بالروح القدس ليوقظ النفوس من موت الخطية لتقوم وتتقبل الحياة الآبدية.

أما تعليق مرثا من جهة نتن رائحة الميت، فيجيء بصفتها أخت الميت. وهي تمثل صوت النفس المتألمة في صراخها إلى الرب من جهة نتن أعمال الجسد وعفن نجاسته، حينما تتوسل ليقيم الرب سيرة الجسد من وحل الخطية إلى قداسة وبر المسيح: «أنقذ من السيف نفسي، من تد الكلب وحيدتي.» (مز٢٢:٢٠)

«قد أنتن لأن له أربعة أيام»: لعازر المحبوب هنا هو«الإنسان»، «آدم» الذي ينضوي تحت شخصه واسمه كل بني البشر، وقد انقضى عليه بالفعل أربعة آلاف سنة، وذلك بحساب الله، فيوم الله ألف سنة، وألف سنة كيوم أمس الذي عبر، منذ أن قبل في جسده الخطية وحكم الموت معاً، ولوثت رائحته الأرض وآفسدتها. وهوذا الرب مزمع أن يرفع عنه الخطية وحكم الموت معاً، ويزكي رائحته برائحته لدى الله والملائكة، وتتولى مريم الإعلان عنها بالناردين الخالص الكثير الثمن، الذي ملأ رائحته الدنيا كلها حيث بُشر بالإنجيل. ولا يفوتنا هنا أن نلمح أن المسيح جعل رحلته تقودها المحبة، بقوله: «لعازر حبيبنا»، و«حبيبنا» جاءت بلفظ الجمع، «قد نام وأنا أذهب لاوقظه»، وبهذا قد ألمح إلمسيح إلى محبة الآب من نحو الإنسان عامة التي هي سر رحلته العظمى لخلاص العالم: «هكذا أحب الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد، لكي لا يهلك كل نن يؤمن به.» (يو٣:١٦)

١١ :٤٠ قَالَ لَهَا يَسُوعُ: «أَلَمْ أَقُلْ لَكِ: إِنْ آمَنْتِ تَرَيْنَ مَجْدَ اللَّهِ؟».

هوذا الرب يعلن من عمل الله إزاء فساد الإنسان، فعوض نتن الموت ينبسق مجد الله، والإيمان وحده هو الذي يرى ذلك ويحققه. فبدون الإيمان يستشري الموت وتفوح نتانة الجسد وتسود عتمة القبر ويأس الإنسان. وبالإيمان تُستعلن القيامة، ويشرق النور، وتفوح رائحة المسيح الزكية لله، ويقيم الفرح في الذين يخلصون!

أما «رؤية المجد» التي تخصص فيها القديس يوحنا وشهد لها: «ورأينا مجده مجداً كما لوحيد من الآب» (يو١:١٤)، فهي في نصرة القيامة على الموت. وهذا هو الذي سبق وأعلن عنه المسيح، كمعيار عام تقاس به قصة لعازر في جملتها: «هذا المرض ليس للموت، بل لأجل مجد الله، ليتمجد ابن الله به». أما المجد الذي يقصده المسيح، فهو ليس في مجرد قيامة لعازر، بل في استعلان المسيح أنه ابن الله الغالب لسلطان الموت ومنقذنا من الفساد!!

١١ :٤١-٤٢ فَرَفَعُوا الْحَجَرَ حَيْثُ كَانَ الْمَيْتُ مَوْضُوعاً وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى فَوْقُ وَقَالَ: «أَيُّهَا الآبُ أَشْكُرُكَ لأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي. وَأَنَا عَلِمْتُ أَنَّكَ فِي كُلِّ حِينٍ تَسْمَعُ لِي. وَلَكِنْ لأَجْلِ هَذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي».

يبدو أن الحجر الموضوع على فم القبر كان مواجهاً مباشرة للميت، بمعنى أن المغارة كانت ضيقة يحتل الجسد كل مساحتها، فظهر جسد لعازر الملفوف بالأكفان «حيث كان الميت موضوعاً»، ولا بد أن فاحت معه رائحته حسبما

قالت مرثا، مما يفيد أنها تعلم أن الجسد لن يتأثر بالحنوط والعقاقير التي تحفظه، أو تعطيه رائحة مقبولة بسبب انحلاله. وأمام هذا المشهد الذي يمثل الإنسان ومصيره الحزين والكئيب، الذي هو نهاية كل أحد، حيث تتجلى اللعنة بكل مؤثراتها عل الميت وأهل الميت وعلى الأرض التي أحتوته، وقف رب القيامة وفي يده مفتاح الحياة. هذا هو المسيح، في الهيئة كإنسان يبكي بكاء مع الباكين، وأمام الموت صاحب «كلمة الله» التي لا ترتد فارغة (إش٥٥:١١). «بر» من الله، و«قداسة»، و«فداء»، «الذي صار لنا حكمة من الله وبرا وقداسة وفداء» (اكو١:٣٠). وهو«الآبن المحبوب»، الذي يتكلم مع أبيه جهاراً بخصوص المشيئة الواحدة، والعمل الواحد، والمجد الواحد والاسم الواحد. والآب يسمع، وليس فقط يسمع، بل ويمجد أيضاً: «مجدت وأُمجد أيضاً»، وتسمع البشرية والأرض والسماء: «هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت، له اسمعوا.» (مت١٧:٥)

ونحن نعلم أن المسيح حينما خاطب الآب قبل الصليب، وهو على أبواب المحنة العظمى، لم يخاطبه فقط كإنسان يطلب أن تُرفع عنه هذه الكأس، بل وكأبن الله يطلب ما له: «والآن مجدني أنت، أيها الآب عند ذاتك بالمجد الذي كان لى عندك قبل كون العالم.» (يو١٧:٥)

وحينما طلب المسيح من الآب المجد الذي له في ذات الآب، طلبه «بالمثل»، لأن مجد الآب هو مجد الآبن: «كل ما هو لى فهو لك، وما هو لك فهو لى» (يو١٧:١٠). هذه الكلمة لم يجرؤ، ولن يجرؤ، إنساذ أو نبي أو ملاك أن يقولها.

أما عن هذا المجد المتساوي أو الواحد، فهذا ما أعلنه المسيح فيما يختص بإقامة لعازر من الموت، من جهة المجد المتحصل من المعجزة، فإن كان الله سيتمجد حتماً بإقامة لعازر من الموت، فهذا المجد عينه سيستقر لحساب الآبن بالضرورة: «هذا المرض ليس للموت، بل لأجل مجد الله، ليتمجد ابن الله به». ويلاحظ هنا أن مجد الآبن ليس مضافاً لمجد الآب، بل مجد الآب هو نفسه لمجد الآبن.

«ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال: أشكرك أيها الآب، لأنك سمعت لى. وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لى»: كان يتحتم على المسيح، وهو بصدد استعلان مجد الله الآب من جهة قوة القيامة من الموت المزمع أن يظهر في الحال، أن يتكلم مع الآب وذلك:

أولاَ: حتى يعلم الجمع أن العمل المزمع أن يتم بأمر المسيح، هو عمل الله الآب، لكي يؤمن الجمع الواقف، ولكي يدرك الأعداء والمتشككون أنه سيتم بقوة الله، وليس بعمل السحر أو بقوة الشيطان.

وثانياً. لكي لا ينسب المسيح عمل القيامة أو المجد المتحصل منها لنفسه، من دون الله. لهذا ظهر المسيح وكأنه يصلي. ولكن صلاة المسيح هذه خلت خلوا تاما من أي طلب، فهي للشكر فقط، وكأنها صلاة تسبيح واستجابة. فقد ظهر فيها توافق المشيئة بصورة مسبقة وعلنية: «أنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لى»، مما يكشف سر المحبة والمشيئة الواحدة بين الآب والآبن، سر الوحدة: فالآبن على الأرض يسأل بفم الإنسان، والآب في السماء يستجيب دائماً وبلا تحفظ ولا استثناء. فهي استجابة مطلقة بسبب تطابق المشيئة تطابقا مطلقا: «في كل حين تسمع لي». وهذا بحد ذاته كان مسرة للمسيح وموضع شكره، لأنه يكشف للسامعين والناظرين علاقة الآب بالآبن. فالآبن المرسل في صورة الإنسان، يسوع المسيح، يسمع لمشورة الآب ويطيعها طاعة مطلقة. وحينما يطلب من الآب من أجل الإنسان وباسم الإنسان، يستجيب الآب استجابة مطلقة، لأنه يفعل كل حين ما يرضيه. هذا «التوافق» المطلق بين الطلب والاستجابة لحساب الإنسان يستعلن فيها المسيح، بكل يقين، أنه مرسل من الآب،

وهو ابن الله بالضرورة.

ثالثاً: يلزمنا أن ننتبه جداً أن صلاة المسيح هذه هي لحسابنا، وهي بفمنا[8]، والمسيح يقدمها للآب بدالة بنويته، التي سلمنا سر نعمتها وسر قوتها وخصوبيتها؛ لكي في دالة بنوة المسيح للآب هذه عينها، نتقدم نحن أيضاً كبنين لله بالتبني بيسوع المسيح، ونسأل ونطلب بحسب روح الله الذى يهذب مشيئتنا ويقويها، لتكون بحسب مشيئة الآب والآبن لتستجات كل طلباتنا لدى الله، كل ما طلبنا ونطلب.

هذا الأمر خطير في الحقيقة، لأنها عملية فائقة، سلمها لنا المسيح لنكمل بها عمله، وليس لنتمجد بها نحن. هذا السر يدخل دخولاً عملياً في مسئوليتنا لتكميل عملية الخلاص التي وُهبت لنا بموت الرب وقيامته. فالصلاة هي قوة منبعثة من العمل الفدائي، الذي أعطي لنا أن نكمله في أنفسنا وفي الآخرين، وهي سر فعل الخلاص الذي يقتحم القلوب القاسية، لتباشر كلمة المسيح في فاعليتها داخل النفس، لتخلصها من براثن الخطية والشيطان. فالصلاة هي الموهبة العامة التي أعطيت للجميع: «لأجل تكميل القديسين لعمل الخدمة لبنيان جسد المسيح» (أف٤:١٢). فالصلاة المستجابة هي أيضاً من سمات العهد الجديد، المميزة لأولاد الله، ثم أخيراً، هي المنفذ الذى وعد به الرب أخصاءه وأحباءه، تجاه الضيقات والمحن والتجارب، التي تحتم علينا أن نواجهها في االعالم الحاضر: «ولكن الله أمين الذي لا يدعكم تجربون فوق ما تستطيعون، بل سيجعل مع التجربة أيضاً المنفذ، لتستطيعوا أن تحتملوا» (١كو١٠:١٣). وهذا هو الوعد الذي قطعه الرب على نفسه:

+«ومهما سألتم باسمي، فذلك أفعله، ليتمجد الآب بالآبن. إن سألتم شيئاً باسمي، فإني أفعله.» (يو١٤:١٣-١٤)

وواضح هنا أن الرب يكمل نفس صلاته وسؤاله عنا لدى الآب بواسطة صلواتنا!! فصلواتنا داخلة، بالنعمة التي لنا في المسيح، دخولاً لاهوتياً، أي في سر علاقة الآبن بالآب، في صلاة المسيح. ولأن علاقة الآبن بالآب لا تحتمل الرفض ولا الإهمال على وجه الإطلاق، لذلك فالمسيح يؤكد، بسبب هذه العلاقة السرية بينه وبين الآب، أنه «مهما سألتم باسمي، فذلك أفعله»!!

+ «إن ثبتم في وثبت كلامي فيكم، تطلبون ما تريدون فيكون لكم.» (يو١٥:٧)

واضح هنا أيضاً أن الرب يرفع من نوعية صلواتنا من مستوى السؤال الذي ينتظر الجواب، إلى صلاة الشكر بسبب الاستجابة المؤكدة: « تطلبون... فيكون لكم»، وهي نفس نوعية صلاة المسيح لدى الآب، حيث المسيح ألغى «السؤال» من لدن الآب من جهة قيامة لعازر، ووضع مكانه «الشكر» لثقته في الاستجابة الحتمية.

+ «وفي ذلك اليوم لا تسألونني شيئاً. الحق الحق أقول لكم: إن كل ما طلبتم من الآب باسمي، يعطيكم.» (يو١٦:٢٣)

+ «في ذلك اليوم تطلبون باسمي، ولست أقول لكم إني أنا أسأل الآب من أجلكم، لأن الآب نفسه يحبكم، لأنكم قد أحببتموني، وامنتم أني من عند الله خرجت.» (يو١٦:٢٦-٢٧)

وهذه هي آخر درجة في نوعية الصلاة. فهي لا تعود تحتاج أن يتدخل المسيح بدالة بنوته لدى الآب ليرفع صلواتنا

---

[8] يقول في ذلك القديس أثناسيوس: [إن كل صلاة صلاها المخلص، إنما قد صلاها بالنيابة عن طبيعة الإنسان] (تفسير مزمور ٦٨)
ويشترك معه القديس كيرلس الكبير قائلاً: [أنه بفعل ذلك (الصلاة) بالنيابة عنا، وطلبتنا نحن هي التي صارت فيه] (الكنز في الثالوث)
[فإننا نحن الذين كنا فيه نصلي بصراخ شديد ودموع، ونطلب أن يبطل سلطان الموت، وأن تتقوى الحياة الموهوبة قديماً لطبيعتنا] (عن الإيمان القويم)

إلى الآب، بل المسيح يسلمنا دالة بنوته عينها مع محبة الآب له، لنطلب بمقتضاها ومن داخلها وكأننا بفم الآبن نتكلم مع الآب، ونشكر. فكما يستجيب الآب للابن، يستجيب لنا، حيث اسم يسوع المسيح فقط يقدمنا للآب في شخصه: «الذي به، لنا جراءة وقدوم بإيمانه (إلى الآب) عن ثقة.» (أف٣:١٢)

+ «إلى الآن لم تطلبوا شيئاً باسمي. اطلبوا، تأخذا، ليكون فرحكم كاملاً.» (يو١٦:٢٤) هنا، أولاً، يستحثنا المسيح أن نسأل باسمه، وذلك الاحثاث يكشف عن لزومية السؤال والأخذ بالنسبة لنا ولحياتنا وبالنسبة لخلاص الآخرين. وهذا العمل (أي السؤال) هام بالنسبة للمسيح نفسه، فهو استمرار لاستعلان قوة وفاعلية اسم المسيح في العالم، لتكميل عمل الخلاص الذي بدأه، كما هو هام لازدياد ونمو اختبارنا لقوة المسيح وفاعلية اسمه.

وثانياً: يرى المسيح أن وراء السؤال باسمه واستجابة الآب للسؤال، استعلاناً لمحبة الله لنا: «الآب نفسه يحبكم»، وذلك نتيجة لثقتنا وإيماننا وحبنا للمسيح: «لأنكم قد أحببتموني، وآمنتم أني من عند الله خرجت.» (يو١٦:٢٧) واستعلان محبة الآب لنا، هي مصدر «الفرح الكامل». وليس سرا أن نقول، بحسب خبرة النعمة، أن الفرح الروحي الكامل هو الإعلان الحسي عن حضور الله، أو الحياة في حضرته، التي هي منتهى قصد الإنسان.

والقديس يوحنا يشهد من خبرته العملية على صدق هذا الكلام بقوله: «ومهما سألنا ننال منه، لأننا نحفظ وصاياه (يثبت كلامي فيكم)، ونعمل الأعمال المرضية أمامه» (ايو٣:٢٢)، «وهذه هي الثقة التي لنا عنده، أنه إن طلبنا شيئا حسب مشيئته، يسمع لنا. وان كنا نعلم أنه مهما طلبنا، يسمع لنا، نعلم أن لنا الطلبات التي طلبناها منه.» (ايو٥:١٤-١٥)

١١:٤٢-٤٣ «.......... وَلكِنْ لأَجْلِ هَذَا الْجَمْعِ الْوَاقِفِ قُلْتُ لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَرْسَلْتَنِي». وَلَمَّا قَالَ هَذَا صَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ: «لِعَازَرُ هَلُمَّ خَارِجاً».

بعد أن هيأ المسيح عقول الجمع والتلاميذ ومرثا ومريم لقبول المعجزة، ورفع حرارة قلوبهم وإيمانهم إلى أعلى درجة في الإيمان، حتى صار الجميع يثقون أن لعازر سيقوم مائة بالمائة: «لأنك في كل حين تسمع لى»، وبعد أن اطمئن المسيح أن الجميع قد تعلق قلبهم بالله الآب كصانع لمعجزة «القيامة»، ورأى الجميع المسيح وهو رافع يديه نحو السماء وسمعه وهو يتحدث مع الله الآب؛ شعر الجميع بالصلة السرية بين السيح والآب والدالة والتوافق بينهما، فأدرك أن ما سيعمله المسيح هو هوعمل الآب، وأن العمل الوشيك أن يعمله المسيح بسلطان فائق هو لمجد الله الآب ليتمجد به المسيح: «صرخ بصوت عظيم لعازر هلم خارجاً».

واضح أن الرب يتعامل هنا مع قوة أخرى عنيدة، يأمرها بقوة واقتدار وجلال عظم: «صوت الرب بالقوة، صوت الرب بالجلال... صوت الرب يقدح لهيب نار، صوت الرب يزلزل البرية.» (مز٢٩:٤-٨)

نعم، سمعت الهاوية فتزلزلت وأخلت قوات الجعيم أسيرها: «استجب لى سريعاً، اقترب إلى نفسي، فكها، بسبب أعدائي افدني .» (مز٦٩:١٧-١٨)

هنا صورة حية ناطقة لما يصفه بولس الرسول فيما سيكون حتماً: «لأن الرب نفسه بهتاف، بصوت رئيس ملائكة، وبوق الله ، سوف ينزل من السماء، والأموات في المسيح سيقومون أولاً» (اتس٤:١٦)

وصراخ المسيح «بصوت عظيم» يلمح به القديس يوحنا إلى أن «نوم» لعازر كان عميقا للغاية، ويتوافق مع كلمة الرب أنا أذهب «لاوقظه». وهكذا يستصغر الإنجيل من قدر الموت أمام رب الحياة. ولكن، وفي الحقيقة أيضاً، فإن صراخ الرب بصوت عظيم يكاد يرعب السامع والناظر وحتى القارىء، لأننا تعودنا أن نسمع عن الرب أنه «لا يصيح

ولا يسمع أحد في الشوارع صوته» (مت١٢:١٩)، فهنا وفي يقيني أن قوة هائلة خرجت من الرب لم يستطع جسد المسيح إلا أن ينوء تحتها معلناً عنها بهذا الصراخ العظيم. فهذه بعينها قوة الحياة التي تفوق قوة الخلق، لأنها تتعامل مع نفس مقيدة بقيود الجحيم، ومع جثة منتنة عبثت بها كل عوامل الانحلال. والعقل يقف حائراً وقد أخذه الذهول، لأن النفس والجسد استجابا في الحال، وعادا إلى الحياة برجع صدى صوت المسيح.

١١:٤٤ فَخَرَجَ الْمَيْتُ وَيَدَاهُ وَرِجْلاَهُ مَرْبُوطَاتٌ بِأَقْمِطَةٍ وَوَجْهُهُ مَلْفُوفٌ بِمِنْدِيلٍ.

خروج لعازر الميت من القبر بأقمطته، صورة مرعبة حقاً لا يستطيع أن يلاحقها الخيال دون أن يصاب الفكر بالدوار. فالإنسان تآخى مع الموت وصورة الموتى، ولم يتآخى بعد مع القيامة وصورة الخارجين من القبور. فالقيامة وإن كان اسمها حلو للغاية بالمفهوم الروحي، إلا أن تصورها بالجسد مرعب لأقصى حد. وهذا ما عاناه التلاميذ عند قيامة المسيح في أول الأمر: «وقف يوع في وسطهم وقال لهم: سلام لكم. فجزعوا وخافوا، وظنوا أنهم نظروا روحاً. فقال لهم: ما بالكم مضطربين، ولماذا تخطر أفكار في قلوبكم» (لو٢٤:٣٦-٣٨)؛ لأن قيامة الجسد لم تكن تخطر على بال.

أما خروج الميت وهو مربوط. فلا داعي أن يربك الفكر، لأن عادة اليهود في تكفين الميت أخذوها عن المصريين الفراعنة، حيث يلف كل ذراع بمفرده وكل رجل بمفردها، بحيث يمكن تصور لعازر وهو يقوم ويقف ويمشي ويخرج.

وبالنهاية، فإن منظر لعازر خارجاً من القبر يبسط لنا معنى القيامة، ويوضح لنا القوة المذخرة في المسيح التي قام بها من الموت.

١١:٤٤ .... فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «حُلُّوهُ وَدَعُوهُ يَذْهَبْ».

عجيب المسيح في حاسته الحاضرة دائماً لاحتواء الذهول والرعبة التي كانت تعقب معجزاته. فهنا لا يمكن أن نتصور مدى الفزع والرعبة والخوف الذي أصاب الجميع حينما رأوا لعازر خارجاً من القبر، لذلك بادرهم المسيح في الحال بأمر يستعيد به حركتهم ويطبع به شعورهم تجاه الأمر الواقع أمامهم: «حلوه ودعوه يذهب». هذا حدث أيضاً في المواقف الأخرى المماثلة: «فقال: أيها اشاب لك أقول قم، فجلس الميت وابتدأ يتكلم _ فدفعه إلى أمه» (لو٧:١٧)، «ونادى قائلاً: يا صبية قومي. فرجعت روحها وقامت في الحال _ فامر أن تُعطى لتأكل.» (لو٨:٥٥)

هذا، يا إخوة، ما حدث، وما حدث أمر لم يحدث له مثيل قط: ميت يقوم من القبر بعد أربعة أيام، وقد أنتن وتحلل جسده. ولكن الذي نعرفه جيداً أن آيات أخرى كثيرة حدثت لم يُكشف عنها ولم يذكرها هذا الإنجيلي الرائي الفريد في روحه وأسلوبه، ولا نعلم يا إخوة ما الذي منعه من ذكرها غير أن نموذج قيامة لعازر يجعلنا نؤمن أن المسيح هو ابن الله الحي ديان الأحياء والأموات، ونتيقن أن قيامتنا حقيقة واقعة، ونحن بانتظار صوت المسيح «الآن» وكل يوم

التعقيب على آية إقامة لعازر (١١:٤٥-٥٣)

١١:٤٥-٤٦ فَكَثِيرُونَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ جَاءُوا إِلَى مَرْيَمَ وَنَظَرُوا مَا فَعَلَ يَسُوعُ آمَنُوا بِهِ. وَأَمَّا قَوْمٌ مِنْهُمْ فَمَضَوْا إِلَى الْفَرِّيسِيِّينَ وَقَالُوا لَهُمْ عَمَّا فَعَلَ يَسُوعُ.

واضح هنا أن اليهود الذين جاءوا للتعزية كان بعض منهم أصدقاء أوفياء وأوا وآمنوا بالمسيح، وكأنما الصوت الذي سمعه لعازر في القبر سمعوه، وقوة الحياة التي سرت في أوصال الميت فأقامته، سرت فيهم وأقامتهم، وذاقوا الحياة في المسيح، فآمنوا به كرب القيامة والحياة الآتي إلى العالم، وهذا منتهى قصد المسيح والآب الذي أرسله. أما

البعض الأخر من اليهود فلم تكن لهم آذان روحية تسمع ولا عيون روحية تبصر، وهؤلاء هم الذين قال عنهم المسيح على لسان إبراهيم في قصة لعازر والغني: «فقال له إن كانوا لا يسمعون من موس والأنبياء. ولا إن قام واحد من الأموات يصدقون» (لو١٦:٣١)، لأن غيرتهم كانت منحصرة في الأرضيات، فكانت إقامة المسيح للعازر من الموت تمثل عندهم ضياع هيبة السنهدريم والرؤساء والكهنة والكتبة والفريسيين جميعاً، وكل من ارتزق من الهيكل وتمسك بالأرض والميراث والتراث التي ينادي بها المتعصبون للأمة وقضاياها. فذهبوا في الحال ليخبروا رؤساءهم بما حدث ويخبروا عن الذين آمنوا.

١١:٤٧-٤٨ فَجَمَعَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ مَجْمَعاً وَقَالُوا: «مَاذَا نَصْنَعُ؟ فَإِنَّ هَذَا الإِنْسَانَ يَعْمَلُ آيَاتٍ كَثِيرَةً. إِنْ تَرَكْنَاهُ هَكَذَا يُؤْمِنُ الْجَمِيعُ بِهِ فَيَأْتِي الرُّومَانِيُّونَ وَيَأْخُذُونَ مَوْضِعَنَا وَأُمَّتَنَا»

يلاحظ هنا أن رؤساء الكهنة بدأوا يتحركون بسرعة، عن خوف وحقد معا، لأن رؤساء الكهنة هم الصدوقيون الذين لا يؤمنون بالقيامة، فكانت إقامة لعازرعن الأموات تمثل بالنسبة لهم ولمبادئهم هزيمة بالضربة القاضية، لذلك أصبح التخلص من المسيح بمثابة قضيتهم الأولى وخلاصهم الوحيد.

وفي هذه المرة لم يرسل رؤساء الكهنة ولا الفريسيوف من يحقق في صدق هذه الآية، لأنها كانت ثابتة بشهود وفوق الشبهات.

أما الفريسيون المجتمعون معهم، فلم تؤثر فيهم هذه الآية، أي القيامة من الموت، كثيراً لأنهم كانوا يؤمنون بالقيامة. ولكن عداءهم للمسيح كان نابعاً من تعارض تعاليم المسيح مع مصالح ومستقبل مهنتهم، وبالأكثر تعارض مح سلوكهم وأخلاقهم. غير ان بعضا منهم كانوا قد أمنوا بالمسيح، ولكن بسبب الخوف أخفوا أنفسهم. ولذلك لا نعود نسمح كثيراً عن تحرك الفريسيين في كل الأصحاحات القادمة، بل كانت القيادة والحركة دائماً لرؤساء الكهنة ولا يُسمع عن الفريسيين إلا داخل السنهدريم لأنهم أعضاء بالضرورة. وفي النهاية تخلى الفريسيون عن المقاومة، وتمثلت العداوة للمسيح في رؤساء الكهنة وحدهم، وكانت عداوة حتى الموت. وهذا الاتجاه واضح أيضاً فى الأناجيل الأخرى.

وهكذا نرى من تركز حركة قيادة المقاومة في رؤساء الكهنة، وذلك بصفتهم فئة الصدوقيين الذين لا يؤمنون بالقيامة، أن آية إقامة لعازر من الموت كانت السبب الأخير والمباشر الذي بلور في أذهان رؤساء الكهنة حتمية سرعة موت المسيح الذي سبق وقرروه عدة مرات.

ونحن نقرأ ما كان يدور في أذهاذ الفريسيين ورؤساء الكهنة منذ البداية من ضرورة موت الرب هكذا:

+ «فأجابهم يسوع: أبي يعمل حتى الآن، وأنا أعمل. فمن أجل هذا كان اليهود يطلبون أكثر أن يقتلوه، لأنه لم ينقض السبت فقط، بل قال أيضاً إن الله أبوه، معادلاً نفسه بالله.» (يو٥:١٧-١٨)

+ بعد التعليم عن أكل الجسد وشرب الدم: «وكان يسوع يتردد بعد هذا في الجليل. لأنه لم يرد أن يتردد فى اليهودية، لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه.» (يو٧:١)

+ بعد تعليمه في الهيكل وتوبيخه للفريسيين: «أليس موسى قد أعطاكم الناموس وليس أحد منكم يعمل الناموس. لماذا تطلبون أن تقتلوني.» (يو٧:١٩)

+ «فقال قوم من أهل أورشليم : أليس هذا هو الذي يطلبون أن يقتلوه.» (يو٧:٢٥)

+ «ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمتكم بالحق الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله إبراهيم.»

(يو٨: ٤٠)
+ «فرفعوا حجارة ليرجموه . أما يسوع فاختفى وخرج من الهيكل مجتازاً في وسطهم، ومضى هكذا.» (يو٨: ٥٩)
+ «... أنا والآب واحد. فتناول اليهود أيضاً حجارة ليرجموه.» (يو١٠: ٣٠-٣١)
ثم جاءت أخبار آية إقامة لعازرعن الموت التي جعلتهم يعقدون مجمعاً في الحال، لينظروا بجدية في أمر قتله:
«ماذا نصنع، فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة. إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به»: كان فكر رؤساء الكهنة والفريسيين قد انشغل منذ البداية بالآيات التي كان يصنعها المسيح. وكان القلق والخوف يتزايدان بتزايد الآيات. وكانت العوامل التي تثير هذا الخوف والقلق تنبع من ثلاثة أسباب، هي بحسب أهميتها لهم كالآتي:
الأول: الخوف على مراكزهم، بصفتهم رؤساء وقضاة الأمة، وفي نفس الوقت لم يتحنن عليهم الرب بأي مواهب أو مميزات روحية تحفظ لهم حق هذه الرئاسة والكرامة، في مقابل الآيات التي كان يصنعها المسيح والتي بدأت تتزايد ويتزايد معها المؤمنون به.
الثاني: خلاصة تعاليم المسيح كانت تتجه نحو الحياة الروحية واستيطان السماء واضعاف التقاليد وبخاصة حفظ السبت، مما تراءى لهم أن هذا يخلخل تمسك الشعب وخاصة الغيورين منهم بميراثهم الأرني والآبائي والناموسي. وهذا يسهل على المستعمر الروماني الاستيلاء على الأرض والحكم معاً. وبذلك تتلاشى عناصر الأمة اليهودية التي تقوم على الأرض والناموس. وهذا كان يؤرقهم للغاية.
ثالثا: شخصية المسيح كانت قد بدأت تأخذ ملامحها الإلهية، ويتزايد العنصر الإلهي فيها بزيادة الآيات التي كانت تنطق كلها بأنه ليس مجرد نبي، وتصريح المسيح بأنه ابن الله (يو١٠: ٣٦)، وأنه هو والله الآب واحد (يو١٠: ٣٠). وهذه كانت تتعارض تعارضا جذريا مع مفهوم وحدانية الله عندهم. وكانت كلمات المسيح تطيح بعقولهم وتتركهم شبه مجانين. فكان المسيح يمثل عندهم حد التجديف الأعلى الذي يستوجب الموت.
وهكذاه كلما كان المسيح يتزايد قوة بالآيات التي يصنع؛ كانوا هم يتزايدون ضعفا بسبب عدم قدرتهم على عمل أى شيء يجتذب نظر الشعب ويوقف معركة الإيمان به. فكانت حيرتهم فوق العقل: «ماذا نصنع؟».
وهكذا شكل المسيح في قلوبهم حركة ضياع تراءت لهم أنها مصيرية، خاصة حينما رأوا أن أعداد الذين يؤمنون به تتزايد بصورة رهيبة: «إن تركناه هكذا، يؤمن الجميع به».
«فيأتي الرومان ويأخذون موضعنا وأمتنا»: وهكذا كانت سرعة الحسم في أخذ قرار متعجل جاهل مملوء أخطاء شيئاً خارجاً عن نطاق العقل. وقد اتجه قرار مجمع السنهدريم نحو «الخوف السياسي» أكثر منه نحو الخوف على الناموس والأنبياء والتقليد والمبادىء الإلهية، مما يوضح مدى انحراف الرؤساء عن جوهر رسالتهم وعبادتهم.
وهذا الاتجاه السياسي في التفكير بالنسبة لقضية المسيح المطروحة في المجمع، يفيد أن عنصر الصدوقيين كان هو السائد والمحرك للمجمع وليس العنصر الفريسي زي الإتجاه التعليمي.
ويقرر العلامة الألماني شناكنبرج في كتابه. «حكم الله والملكوت» (في الصفحات ٥٧-٦٢)، موقف الفريسيين الشديد التمسك بالتوراة الذي، في اعتقادهم، هو الطريق الوحيد الذي يمهد لمجيء المسيا وبداية حكم الله. كما يصفهم العلامة الألماني فورستر بأنهم، أي الفريسيين، حاولوا باستمرار، أولاً في أيام بومبي الوالي الروماني، أن يعفوا أنفسهم من شئون الحكم على يدي الهاشمونيين والهيروديين بعدهم لكي يتفرغوا ويكرسوا أنفسهم تكريساً كلياً

لخدمة الناموس، راضين بالحكم الروماني الذي تولى شئون التنظيم الخارجي.

ويقرع العلامة الألماني شناكنبرج أيضاً أن موقف الفريسيين هذا ظهر بوضوح عند معارضتهم ومقاومتهم للثورة المسلحة ضد الرومان عند قيام الحرب اليهودية، كما يقرر هذا العلامة يوسيفوس المؤرخ اليهودى.

«يأخذون موضعنا»: الموضع هنا باليونانية لا يعني الأرض ولا المدينة المقدسة كما يظن بعض العلماء، ولكنه الاسم الطقسي للهيكل المقدس، الذي يبغي أن يُسجد فيه وحده، كما جاء في يو٤:٢٠: «تقولون أن في أورشليم الموضع الذي يبغي أن يُسجد فيه». ولا يزال هذا الاصطلاح يستخدم حتى الآن في الكنيسة القبطية في القداس، وفي كل الصلوات عند البداية، في صلاة الشكر: «كل حسد وكل تجربة وكل فعل الشيطان ومؤامرات الناس الأشرار وقيام الأعداء الخفيين والظاهرين انزعها عا وعن سائر شعبك وعن موضعك المقدس هذا»

ومعروف أن الهيكل المقدس في أورشليم كان هو رمز الوجود والحياة بالنسبة لليهود، أكثر من أورشليم ذاتها ومن كل الأرض. والعجيب حقاً أن قتلهم للمسيح بسبب خوفهم من ضياع الهيكل، سبق المسيح وأعلن إزاءه أن موته سيكون سبباً مباشراً لهدم الهيكل ولقيام الهيكل الجديد (جسده) عوضا عنه: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه.» (يو٢:١٩).

«يأخذون... أمتنا»: ويقصد بها الأمة اليهودية، الجنس اليهودي، بمفهوم فقدان «الحرية الدينية» التي كان الرومان قد سمحوا بها لليهود. وهذه هي بعينها، أي الحرية السياسة، التي وقفت حجر مثرة في تقبلهم الحرية التي في المسيح، التي تنقذهم من عبودية الخطية وعبودية المجد الدنيوي. ولكنهم فقدوا هذه وتلك: «أجاب رؤساء الكهنة ليس لنا ملك إلا قيصر» (يو١٩:١٥)، «لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله» (يو١٢:٤٣). ومعروف أن بعد صلب المسيح بأربعين سنة، أي في سنة ٧٠ م دخل الجيش الروماني وهدم وأحرق الهيكل، وأسر الشعب اليهوي.

١١:٤٩-٥٠ فَقَالَ لَهُمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَهُوَ قَيَافَا كَانَ رَئِيساً لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ: «أَنْتُمْ لَسْتُمْ تَعْرِفُونَ شَيْئاً. ولاَ تُفَكِّرُونَ أَنَّهُ خَيْرٌ لَنَا أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ عَنِ الشَّعْبِ وَلاَ تَهْلِكَ الأُمَّةُ كُلُّهَا».

«قيافا»: في الأصحاح الثامن عشر من إنجيل القديس يوحنا نقرأ أن رئيس الكهنة الذي حوكم المسيح أمامه هو حنان ثم قيافا: «ثم إن الجند والقائد وخدام اليهود قبضوا على يسوع وأوثقوه ومضوا به إلى «حنان» أولاً، لأنه كان حما قيافا الذي كان رئيساً للكهنة في تلك السنة.» (يو١٨:١٢-١٣)

وفي إنجيل القديس لوقا نقرأ: «في أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا» (لو٣:٢)، أي أن كلا من حنان وقيافا كانا يباشران وظيفة رئيس كهة في ذات الوقت.

وفي سفر الأعمال نقرأ: «وحدث في الغد أن رؤساءهم وشيوخهم وكتبتهم اجتمعوا إلى أورشليم مع حنان رئيس الكهنة وقيافا ويوحنا والإسكندر وجميع الذين كانوا من عشيرة رؤساء الكهنة.» (أع٤:٥-٦)

هذه الشبكة المتشابكة من رؤساء الكهنة، يحل لنا لغزها العلامة والمؤرخ اليهودي يوسيفوس حيث يقول إن فاليروس جراتوس أسقط حنان رئيس الكهنة من وظيفته سنة ١٤م، بعد أن كان قد شغلها سبع سنوات. ولكن ظل تأثير حنان قويا بسبب شخصيته، حتى إن الشعب ظل يعتبره رئيساً رسميا للكهنة بالرغم من إقالته. وظلت رئاسة الكهنوت الرسمية يتداولها أفراد عائلة حنان بالتتابع» فشغلها إشماعيل، ثم ألعازار ابنه، ثم سمعان ابن ألعازار،

وأخيراً شغلها يوسف قيافاء وهو الذي يذكره يوحنا في إنجيله أن حنان حماه، موضحاً بذلك رئيس الكهنة الرسمي ورئيس الكهنة بالتدخل، وهو حنان، المعروف عنه أنه كان جريئا وغير مستقيم.

وقد شغل قيافة رئاسة الكهنوت من سنة ٢٥ حتى سنة ٣٦م، أي طوال مدة خدمة الرب يسوع، وكان معروفا بالجهل والقسوة وأنه أرستقراطي النزعة كما يصفه يوسيفوس.

اجتمع السنهدريم مع رؤساء الكهنة والفريسيين، ونُظرت قضية المسيح، وكانت أمامهم معقدة أشد التعقيد، فلم يكن الرأي متفقا على شيء، وظل النقاش مستمرا بصورة عابسة ويائسة. وهذا واضح كل الوضوح من الإشارة الواردة في محضر الجلسة: «أنتم لستم تعرفون شيئاً». وهذا يعني أن المجلس كله كان في حالة إرتباك، وهذا معروف ضمناً لأن الصراع التقليدي بين الصدوقيين الذين لا يؤمنون بالقيامة وبين الفريسيين الذين يؤمنون بها وارد قطعاً، لأن المجلس انعقد على أساس المعلومات الواردة بخصوص آية إقامة لعازر من الموت. ولكن مجلس اليهود لا يُعدم الحيل والمناورات. فقد انبرى «واحد منهم» وكأنه أشجعهم، وهو قيافا، ليسعف المجلس برأيه، وكان محسوباً أنه الرأس المسئولة عن سياسة الأمة، لذلك كان يتكلم بلسان رجل دولة للأمة كلها. ولكنه، وللأسف، كان معروفاً أنه أكثرهم جهلاً.

«كان رئيساً للكهنة في تلك السنة»: القديس يوحنا هو المتكلم. وكلام القديس يوحنا لا يؤخذ بسهولة، فكلمة «في تلك السنة» لا تعني أن التعيين بالنسبة لرؤساء الكهنة كان يجرى سنوياً، فهذا ليس صحيحاً. فقيافا استقر في رئاسته (٢٥-٣٦) حتى أسقطه الوالي فيتوس بعد سقوط بيلاطس بقليل. والمعروف أن رئيس الكهنة يُعين لمدى الحياة، ولكن المعنى السري، أي الروحي غير الحرفي، يهدف إلى أن «هذه السنة» لا تعني الضبط التاريخي ولكنها منسوبة إلى «حياة المسيح»، فهي سنة المسيح أي «سنة الرب المقبولة» (إش٦١: ٢) حسب النبوات. وقيافا كان هو رئيس الكهنة لهذه السنة التي في لاهوت القديس يوحنا هي سنة النهاية والبداية، الموت والقيامة، وحيث النهاية بالنسبة للقديم، وحكم الموت بالنسبة إلى حبرية هذا الكاهن حسب كلامه، حيث ماتت (هلكت) أمة وقامت الأمم: «خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها».

هذا القول الذي قاله قيافا اعتبرته الكنيسة الاولى أقوى تعبير نبوي نطقه رئيس كهنة العهد القديم، دون أن يدري، عن مفهوم الفداء الذي تم بموت المسيح. وهذا في الواقع هو صدى تعبير المسيح نفسه، لأن «ابن الإنسان أيضاً لم يأت ليُخدم بل ليخدم، وليبذل نفسه فدية عن كثيرين.» (مر١٠: ٤٥)

وكلام قيافا صار حقيقة واقعة، لأنه بموت المسيح صار الخلاص لشعب الله الحقيقي، وهو إسرائيل الجديد. غير أن قيافا كان يرى ويؤمن ويخطط أن يموت المسيح لتتخلص منه الأمة. ولكن الذي حدث أنه مات لتخلص به، وليس لتتخلص منه. وكان سبب الإقدام على قتل المسيح عند قيافا هو إحكام إغلاق حدود الأمة اليهودية على نفسها، لتمنع تدخل الرومان، الذين كانوا في ذلك الوقت يمثلون جميع الأمم، ولكن في المقابل كان السبب الأساسي عند المسيح في قبوله الموت، هو كسر هذه الحدود بالذات التي كانت تطوق الأمة اليهودية عن الرومان واليونان وباقي الأمم، والتي كانت تمنع عنهم معرفة الله وقبول الخلاص.

لذلك، فإن قرار مجلس السنهدريم الذي كان يمثل في الحقيقة خلاصة «الناموس» على أيدي أئمة العلماء القيمين عليه؛ والذي يتلخص في ضرورة بل وصلاح عملية قتل المسيح الذي ثبت أنه هو هو رجاء وكمال الناموس... كان هذا القرار هو القرار النهائي ضد صلاحية الناموس!

وأبسط الحلول التي كان قيافا يتقنها كرجل دين ودولة في فنون السياسة الكهنوتية، هي القتل للتخلص من أي ما يعكر صفو الجو الكهنوتي. وسفر الأعمال يذكر استمرار هذه السياسة: «فقام رئيس الكهنة وجميع الذين معه الذين هم شيعة الصدوقيين وامتلأوا غيرة. فألقوا أيديهم على الرسل ووضعوهم في حبس العامة.» (أع٥:١٧-١٨)

«أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون»: هكذا ظهر قيافا كصاحب الحكمة وسط أعضاء السنهدريم الذين لا يعرفون شيئاً من دبلوماسية الأمة ولا يفكرون جيدا لمصلحتها، حيث يلزم أن يسفك دم البريء من أجل صالح الأمة هكذا!! هذا ما انتهى إليه ناموس موسى على يد قيافا ومجمع السنهدريم، لذلك كانت بحق «هي السنة الأخيره» بحساب صلاحية الناموس والكهنوت القيم عليه.

أما يسوع، ففي رأي قيافا، كان لا ينبغي أن يذكر اسمه بعد، بل يكفي أن يكون مجرد «إنسان واحد». ووقت المجلس ليس يتسع بعد لرأي الفريسيين، الذين كان على ما يبدو هو إعادة فحص سلطان المسيح وبأي سلطان كان يفعل الآيات، ولماذا أقبل الشعب على الإيمان به، وكيفية تحديد نشاطه. فقد كان قول قيافا: «أنتم لستم تعرفون شيئاً ولا تفكرون»، هو الرد الحاسم الذي أسكت الفريسيين وأنهى على المداولة بأكملها. وجاء مشروع القرار مع مسبباته في جلسة واحدة: «أن يموت إنسان واحد عن الشعب، ولا تهلك الأمة كلها».

ونحن لو أردنا أن نعرف ماذا كان يتداوله الفريسيون قبل هذا القرار وبعده، نجده هكذا: «فقال الفريسيون بعضهم لبعض: انظروا إنكم لا تنفعون شيئاً هوذا العالم قد ذهب وراءه.» (يو١٢:١٩)

واضح من القرار قدرة قيافا على إلباس الحق ثوب الزور، وتعليل القتل بأنه عين الخلاص للحياة.

ثم يلتقط القديس يوحنا هذا القرار ويقلبه رأساً على عقب لتظهر فيه النبوة واضحة. فبحسب نظرية قيافة، كانت النتيجة شؤماً على الأمة ، لأن الرومان أخذوا موضعهم وحرقوه وأهلكوا الأمة وشتتوا الشعب. فحكمة قيافا كانت هي حكمة الشيطان بعينها بالنسبة لمصير اليهود كيهود. وإن أبدع تصوير يحقق هذه العملية، هو المثل الذي قاله المسيح قبل موته مباشرة عن الكترامين الأردياء: « ولكن أولئك الكرامين قالوا فيما بينهم: هذا هو الوارث هلموا نقتله فيكون لنا الميراث، فأخذوه وقتلو وأخرجوه خارج الكرم. فماذا يفعل صاحب الكرم؟ يأتي ويهلك الكرامين ويعطي الكرم إلى أخرين... عرفوا أنه قال المثل عليهم ... » (مر١٢:٨-١٢)

١١:٥١-٥٢ وَلَمْ يَقُلْ هَذَا مِنْ نَفْسِهِ بَلْ إِذْ كَانَ رَئِيساً لِلْكَهَنَةِ فِي تِلْكَ السَّنَةِ تَنَبَّأَ أَنَّ يَسُوعَ مُزْمِعٌ أَنْ يَمُوتَ عَنِ الأُمَّةِ. وَلَيْسَ عَنِ الأُمَّةِ فَقَطْ بَلْ لِيَجْمَعَ أَبْنَاءَ اللَّهِ الْمُتَفَرِّقِينَ إِلَى وَاحِدٍ.

والقديس يوحنا يشير إلى قول المسيح: «وأنا أضع نفسي عن الخراف (خراف بيت إسرائيل). ولي خراف أخر ليست من هذه الحظيرة، ينبغي أن أتي بتلك أيضاً فتسمع صوتي، وتكون رعية واحدة وراع واحد» (يو١٠:١٥-١٦)، على أن «أبناء الله» المتفرقين الذين في عرف قيافا هم يهود الشتات، يعتبرهم القديس يوحنا هم أولاد الله المعينين للحياة الأبدية (يو١:١٢).

«إذ كان رئيساً للكهنة في تلك السنة تنبأ»: كان رئيس الكهنة يمثل الرئاسة الإلهية لليهود، فهو الذي يسأل الله عن الشعب، ومن فمه تطلب الشريعة، وقوله هو القول الملهم من الله في الأمور التي يعسر فهمها أو يحوطها الشك، وهذا نقرأه في (خر٢٨:٣٠)، وفي (لا٨:٨)، وفي سفر العدد عند تكريس يشوع قائداً للشعب: «فقال الرب لموسى: خذ يشوع بن نون، رجلاً فيه روح وضع يدك عليه... وأوقفه قدام اليعازار الكاهن... فيقف أمام ألعازار

الكاهن فيسأل له بقضاء الاوريم أمام الرب...» (عد٢٧: ١٨-٢١). وهذا كان معناه أن رئيس الكهنة يسأل الرب عن كل ما يريد أن يعرفه قائد الشعب.

وفي الإنجيل يوجد ما يفيد مثل هذه النبوات التي خرجت من أفواه أصحابها بعكس ما كانوا يقصدون أو يتمنون، مثل بيلاطس حينما قال لرؤساء الكهنة: «هوذا ملككم» (يو١٩: ١٤)، أو حينما قال رؤساء الكهنة: «دمه علينا وعلى أولادنا» (مت٢٧: ٢٥)، أو حينها خاطبوا المسيح المصلوب: «خلص آخرين أما نفسه فما يقدر أن يخلصها.» (مت٢٧: ٤٢)

وفي أقوال فيلو الفيلسرف اليهودي المعاصر للقديس يوحنا، ما يفيد أن رئيس الكهنة كان يُحسب كنبي.

على هذا الأساس، يرى القديس يوحنا أن ما نطق به قيافا، كان نبوة حقيقية من الله دون أن يقصد أو يعلم، أو على وجه الأصح، بعكس ما كان يفكر فيه، ربما مثل بلعام بن بعور الذي كان كلما أراد أن يلعن إسرائيل كانت تأتيه النبوة ليباركه ويمدحه. ومعروف في العهد القديم أن نبوة الأعداء تكون أحياناً منطوقة بفم الله.

«تنبأ أن يسوع مزمع أن يموت عن الأمة، وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد»: هنا يتدخل القديس يوحا ليوسع دائرة النبوة، أو بالحري ليكملها، لأن موت المسيح لم يقتصر سببه ولا اقتصرت نتيجته عل الأمة اليهودية من جهة الخلاص بل امتد ليشمل الأمم، لأن من آمن بين الأمم مع من أمن آمن شعب إسرائيل أصبحوا يمثلون إسرائيل الحقيقية: «وأبناء الغريب الذين يقترنون بالرب ليخدموه وليحبوا اسم الرب ليكونوا له عبيداً... أتي بهم إلى جبل قدسي وأفرحهم في بيت صلاتي، وتكون محرقاتهم وذبائحهم مقبولة على مذبحي لأن بيتي بيت الصلاة يُدعى لكل الشعوب. يقول السيد الرب جامع منفي إسرائيل..» (إش٥٦: ٦-٨). هذا حينما يصير هيكل الرب الجديد هو جسد المسيح الذي سيجمع كل الشعوب: «ويرفع راية للأمم، ويجمع منفيي إسرائيل، ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض.» (إش١١: ١٢)

ومن أبدع ما صور الآباه الرسل عن جمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد ما تقوله الديداخي (تعاليم الرسل) في الإفخارستيا التي هي جسد المسيح: [وفيما يخص «الكسر»[9]: نحن نقدم الشكر إليك يا أبانا... فكما أن كسر الخبز هذه التي كانت مشتتة على الجبال (حقول القمح) ولكنها جُمعت (تفيد معنى المجمع أي الكنيسة)، وصارت واحداً (خبزة واحدة، وجسد واحد)، هكذا الكنيسة فلتجتمع من أربعة أطراف الأرض إلى ملكوتك.]

وهذا التصوير الإفخارستي اللاهوتي، هو قائم عل أساس قول المسيح في معجزة الخمس خبزات والسمكتين: «اجمعوا الكسر المتبقية لكي لا تضيع (تهلك)» (يو٦: ١٢)، بالإضافة إلى قول القديس يوحنا في إنجيله أعلاه: «ليجمع أبناء الله المتفرقين إلى واحد.» (يو١١: ٥٢)

وهكذا يمكن أن يتأكد القارىء من لاهوت إنجيل يوحنا القائم على أساس نبوي إفخارستي كنسي غاية في الإحكام.

وقد أخذ المجمع بنطق رئيس الكهنة باعتباره القول الفصل، وكأنه من الله. وهكذا صدر حكم الموت بالموافقة

---

[9] الكسر هنا في الحقيقة هي القربانة بعد إجراء عملية التقسيم أو القسمة عليها، فصارت «كسر«، وهي العملية الهامة جداً في الإفخارستيا التي يتم فيها حلول الرب واستعلانه، وهي أيضاً محور عملية الشكر أو البركة، ثم يعود الكاهن ويجمح هذه الكسر في الصينية لتعود على هيئة القربانة الواحدة، الخبزة الواحدة (الجسد الواحد بعد أن تمزق على الصليب) جُعت ثم صارت جسداً حياً صحيحاً واحداً بالقيامة، مُعدا للأكل الروحي.

العامة. وهكذا كان رد الجميل؛ بحكم الموت على من أقام الميت وأعطى الحياة للناس؛ إنها مهزلة الإنسان.

ويلاتظ أن قيافا استخدم كلمة «الشعب» ولكن القديس يوحنا لما ذكرها غيرها إلى ( ). وفي هذا معنى روحي عميق. لأن المسيح مات بالفعل عن الشعب كالنبوة «خراف بيت إسرائيل الضالة»، حيث كلمة «الشعب» في التوراة تفيد شعب الله، فهي تحوي معنى العلاقة بين الناس والله التي كانت قائمة في شعب إسرائيل فقط، والتي مات المسيح ليصححها ويعيدها إلى أوج قوتها في مفهوم الكنيسة، وهي تفيد الآن شعب الله في العالم كله. أما كلمة «الأمة» التي ذكرها القديس يوحنا بدل كلمة الشعب، فقصد بها القديس يوحنا المعنى المدني، لأن إسرائيل، كشعب، لما رفض المسيح وأكمل جريمته بقتل الراعي، فقد صفته كشعب الله، وفقد صلته الفريدة بالله «كالشعب المختار»، وأصبح أمة مثل باقي الأمم، تمهيداً لضم الأمة اليهودية إلى باقي الأمم دون تمييز... «وليس عن الأمة فقط بل ليجمع أبناء الله المتفرقين (خراف أخر ليست من هذه الحظيرة) إلى واحد (لتكون رعية واحدة وراع واحد)».

فانظر، أيها القارىء، إلى أي حد بلغت دقة التعبير اللاهوتي عند القديس يوحنا. وهذا المعنى نفسه عبر عنه القديس يوحنا في رسالته الاولى هكذا: «وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط، بل لخطايا كل العالم.» (ايو٢:٢). كما عبر عنه أيضاً في افتتاح إنجيله: «وكل الذين قبلوه أعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله.» (يو١٢:١)

٥٣:١١ فَمِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ تَشَاوَرُوا لِيَقْتُلُوهُ.

ما كان في كل المرات السابقة رغبة ملحة للقضاء على المسيح، أصبح الآن بعد قرار هذا المجمع خطة داخلة في حكم التنفيذ، ولا يبقى إلا انتهاز الفرصة المناسبة.

ونعلم من رواية القديس لوقا في إنجيله، أن بعضا من أعضاء السنهدريم، وهم قلة مثل يوسف الرامي، كان غير موافق على قرارهم: «وإذا رجل اسه يوسف، وكان مشيراً ورجلاً صالحاً باراً، هذا لم يكن موافقاً لرأيهم وعملهم، وهو من الرامة مدينة اليهود...» (لو٢٣: ٥٠-٥١)

ختام خدمة الرب

٥٤:١١ فَلَمْ يَكُنْ يَسُوعُ أَيْضاً يَمْشِي بَيْنَ الْيَهُودِ علاَنِيَةً بَلْ مَضَى مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْكُورَةِ الْقَرِيبَةِ مِنَ الْبَرِّيَّةِ إِلَى مَدِينَةٍ يُقَالُ لَهَا أَفْرَايِمُ وَمَكَثَ هُنَاكَ مَعَ تلاَمِيذِهِ.

وإليك أيها القارىء العزيز صورة نبوية مؤثرة تستحوذ على كل مشاعر الإنسان وعواطفه، تصف المسيح وهو يعطي ظهره لأورشليم والهيكل والشعب والأمة اليهودية كلها، وينسحب حزيناً منكسراً باكياً على هذه الأمة التي لم تعرف ما هو لسلامها؛ يصفها إرميا النبي: «يا ليت رأسي ماء، وعيني ينبوع دموع، فأبكي نهاراً وليلاً قتلى بنت شعبي[١٠]. يا ليت لى في البرية مبيت مسافرين، فأترك شعبى وانطلق من عندهم، لأنهم جميعاً زناة، جماعة خائنين. يمدون ألسنتهم كقسيهم. للكذب لا للحق، قووا في الأرض، لأنهم خرجوا من شر إلى شر واياي لم يعرفوا، يقول الرب. احترزوا كل واحد من صاحبه[١١] (يهوذا)، وعلى كل أخ لا تتكلو[١٢]، لأن كل أخ يعقب عقباً وكل صاحب يسعى في

[10] «وفيما هو يقترب نظر إلى المدينة وبكى عليها قائلاً: إنك لو علمت أنت أيضاً حتى في يومك هذا ما هو لسلامك ولكن الآن قد أخفي عن عينيك.» (لو١٩: ٤١-٤٢)

[11] «فللوقت تقدم (يهوذا) إلى يسوع وقال له: سلام يا سيدي، وقبله. فقال له يسوع: يا صاحب لماذا جئت؟ حينئذ تقدموا وألقوا الأيادي على يسوع وأمسكوه.» (مت٢٦: ٤٩-٥٠)

[12] «هوذا تأتي ساعة، وقد أتت الآن، تتفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتتركوني وحدي.» (يو١٦: ٣٢)

الوشاية. ويختل الإنسان صاحبه ولا يتكلمون بالحق. علموا ألسنتهم التكلم بالكذب وتعبوا في الإفتراء[13]» (إر٩:١-٥)

مدينة أفرايم: يقول العلامة وستكوت أن هذه المدينة ذُكرت في أخبار الأيام الثاني مع مدينة بيت إيل تحت كلمة «عفرون» (٢أخ١٣:١٩). وذكرها العلامة روبنسن في قاموسه، وكذلك العلامة ستانلي في كتابه (سيناء وفلسطين) أن بين حدود بنيامين وأفرايم يوجد تل هرمي الشكل على أعلاه قرية على ارتفاع ٢٦٠٠ قدم اسمها الطيبة، هي مدينة أفرايم القديمة. وهي نفس المدينة التي كانت تسمى «عفرة» أو «عفرون» بمعنى عفريت. وقد غيرها السلطان صلاح الدين إل اسم الطيبة. والقديس جيروم والمؤرخ يوسابيوس يحددانها على الطريق الموصل من أورشليم إلى شكيم شرقاً على بعد اثني عثر ميلاً، عشرون كيلو مترا من أورشليم.

ما قبل الرحلة الأخيرة للفصح الأخير

١١:٥٥ وَكَانَ فِصْحُ الْيَهُودِ قَرِيباً. فَصَعِدَ كَثِيرُونَ مِنَ الْكُوَرِ إِلَى أُورُشَلِيمَ قَبْلَ الْفِصْحِ لِيُطَهِّرُوا أَنْفُسَهُمْ.

«فصح اليهود»: هذا هو الفصح الثالث الذق يذكره القديس يوحنا في إنجيله. ففي الفصح الأول كان المسيح حاضراً ومشاركاً (يو٢:١٣)، أما في الفصح الثاني (يو٦:٤)، فلم يذكر القديس يوحنا أن المسيح حضر الإحتفال به. بل كان على ما يبدو المسيح وقتها في الجليل.

«وكان فصح اليهود قريباً»: هذه الكلمة «قريباً» لا ينبغي أن تعبر علينا بسهولة، فمعناها أن ساعات المسيح والصليب صارت معدودة، والقلب يستقبل هذه الكلمة بانفعال يهز كيان الجسد قبل الروح، فبالرغم من أن آلام المسيح وموته انتهت ببهجة القيامة، ولكن مهما كانت بهجة القيامة فيستحيل أن تقلل من مسحة الحزن المفرط الذى نعيشه فى آلام المسيح.

«فصعد كثيرون من الكور إلى أورشليم»: بحسب المؤرخين ذوي الخبرة في تاريخ وعوائد اليهود، كان يتراوح عدد الحجاج بين خمسة وثمانين ألفاً ومائة وخمسة وعشرين ألفاً. وذلك بحسب تقدير العالم اليهودي المتنصر يواكيم إرميا. فإذا أضفنا إلى هذا الرقم عدد سكان أورشليم الأصليين، وكان يقرب من الخمسة والعشرين ألفاً، كان مجمور المعيدين لا يقل عن مائة ألف. ولكن يوسيفوس المؤرخ اليهودي المعاصر لخراب أورشليم (٧٠م) يعطي رقم غير عادى، إذ يقول إن الحجاج في الفصح كانت جملتهم لا تقل عن مليونين ونصف حاج. وهذا الرقم مأخوذ من التسجيلات الرومانية المعروفة بدقتها.

«ليطهروا أنفسهم»: بحسب أصول الناموس، كان ممنوعاً على المنجسين أن يحضروا مراسيم عيد الفصح، لأن نظام ذبح خروف الفصح يستلزم من الشخص أن يمر برواق الكهنة، وهذا كان يستلزم شروطاً دقيقة من جهة الطهارة: «وليعمل بنو إسرائيل الفصح في وقته فى اليوم الرابع عشر من الشهر الأول، بين لعشاءين تعملونه في وقته... لكن كان قوم قد تنجسوا لإنسان ميت فلم يحل لهم أن يعملوا الفصح في ذلك اليوم.» (عد٩:٢و٦)

ولكن حدث تساهل بعد ذلك في هذا الأمر«لأن كثيرين من الشعب، كثيرين من أفرايم ومنسى ويساكر وزبولون لم

---

[13] «وكان رؤساء الكهنة والشيوخ والمجمع كله يطلبون شهادة زور على يسوع لكي يقتلوه فلم يجدوا، ومع أنه جاء شهود زور كثيرون لم يجدوا» (مت٢٦:٥٩-٦٠)

يتطهروا بل أكلوا الفصح ليس كما هو مكتوب. إلا أن حزقيا صلى عنهم قائلاً: الرب الصالح يكفر عن كل من هيأ قلبه لطلب الله الرب إله ابائه وليس كطهارة القدس. فسمع الرب لحزقيا وشفى الشعب» (٢أخ٣٠:١٨-٢٠). وكانت عدم طهارة أولئك راجعة لاختلاطهم بالأمم.

ويقول المؤرخ يوسيفوس أن أهل الكور كانوا يسبقون بالذهاب قبل الفصح ليتطهروا في أورشليم. وهذا ما حاول أن يعمله بولس الرسول (بعد أن اعتمد للمسيح)، فدفع ثمن هذه الرجعة إلى اليهودية أهوالاً أوقفته عن الخدمة: «حينئذ أخذ بولس الرجال في الغد وتطهر معهم، ودخل الهيكل مخبراً بكمال أيام التطهير، إل أن يقرب عن كل واحد منهم القربان. ولما قاربت الأيام السبعة أن تتم، رآه اليهود الذين من أسيا في الهيكل، فأهاجوا كل الجمع وألقوا عليه الأيادي» (أع٢١:٢٤-٢٧). وظل بولس يعاني من هذا التصرف إلى أن استشهد!!!

ولكن حسب ما عودنا القديس يوحنا، فهو لا يسرد رواية تاريخية قط، إلا وفي ثناياها معلومة روحية، وشارة ذات قيمة لاهوتية. والقارىء يتذكر كيف بدأ القديس يوحنا إنجيله بأن سرد لنا آية تحويل الماء إلى خمر، حيث استُخدمت الأجران الستة للتطهير، فحولها المسيح إلى أجران خمر، مفتتحاً إنجيله بمعنى الانتقال من التطهير بالماء إلى التطهير بالدم لنوال الحياة الأبدية، باعتبار الخمر في إنجيل يوحنا هو مادة الإفخارستيا ذات الاعتبار التقديسي بالروح القدس، ومنتهياً بالآية إلى أن الرب أظهر فيها مجده لتلاميذه، فأمنوا به. وها نحن قادمون هنا إلى الفصح الأخير، أو على وجه الأصح لاهوتياً وبحسب إنجيل يوحنا، الفصح الأول والأساسى في العهد الجديد، حيث يعطي المسيح دمه للعالم كله «للتطهير» ومغفرة الخطايا، واستعلان مجد المسيح، لحساب الآب.

من هنا كان التلميح بالقول: «ليطهروا أنفسهم». وبعدها مباشرة يذكر القديس يوحنا اسم «يسوع» بلغته التي لا تفوت على القارىء اللبيب: «قبل الفصح ليطهروا أنفسهم، فكانوا يطلبون يسوع».

١١:٥٦-٥٧ فَكَانُوا يَطْلُبُونَ يَسُوعَ وَيَقُولُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَهُمْ وَاقِفُونَ فِي الْهَيْكَلِ: «مَاذَا تَظُنُّونَ؟ هَلْ هُوَ لاَ يَأْتِي إِلَى الْعِيدِ؟». وَكَانَ أَيْضاً رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ وَالْفَرِّيسِيُّونَ قَدْ أَصْدَرُوا أَمْراً أَنَّهُ إِنْ عَرَفَ أَحَدٌ أَيْنَ هُوَ فَلْيَدُلَّ عَلَيْهِ لِكَيْ يُمْسِكُوهُ.

أولاً: هذه اللهفة على رؤية المسيح وسماعه توضح إلى أى مدى تعلق به الشعب سواء من أورشليم أو الأرياف، الأمر الذي سنراه بوضوح في دخوله أورشليم يوم أحد السعف.

وثانياً: هذا التردد والشك بل وربما البلبلة التي أصابت الحجاج الآتين من الكور ومن أورشليم للتطهير، فيما إذا كان المسيح سيظهر في العيد أم لا، مردها إلى الجزء الثاني من الآية، لأن رؤساء الكهنة والفريسيين كانوا قد أعلنوا فى وسط الشعب عن قرارهم بموت المسيح ، بل واستخدام الشعب للقبض عليه أو التخابر عن مكان وجوده. وكان المعقول لديهم أن المسيح لا يظهر ذاته خوفا من أو تلافيا للقبض عليه. ولكن الرب خيب ظنهم وظن كل ما هو معقول لديهم. فالمسيح الذي أقام لعازر من الموت، كيف يخشى الموت أو كل ما يؤدي إلى الموت، ولكن فوق كل هذا، فهو قادم إلى أورشليم، ليصنع آية مجده ليحول الموت إلى حياة، وظلمة العالم إلى نور، ويفك المأسورين بالخطية، ويصالح الإنسان بالله. والحقيقة أن السنهدريم هو الذي كان يخشاه.

تم فى ٢٠١٧/٧/٢٦

الأصحاح الثانى عشر

ثُمَّ قَبْلَ الْفِصْحِ بِسِتَّةِ أَيَّامٍ أَتَى يَسُوعُ إِلَى بَيْتِ عَنْيَا حَيْثُ كَانَ لِعَازَرُ الْمَيْتُ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ. فَصَنَعُوا لَهُ هُنَاكَ عَشَاءً. وَكَانَتْ مَرْثَا تَخْدِمُ وَأَمَّا لِعَازَرُ فَكَانَ أَحَدَ الْمُتَّكِئِينَ مَعَهُ. فَأَخَذَتْ مَرْيَمُ مَناً مِنْ طِيبِ نَارِدِينٍ خَالِصٍ كَثِيرِ الثَّمَنِ وَدَهَنَتْ قَدَمَيْ يَسُوعَ وَمَسَحَتْ قَدَمَيْهِ بِشَعْرِهَا فَامْتَلأَ الْبَيْتُ مِنْ رَائِحَةِ الطِّيبِ. فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْ تلاَمِيذِهِ وَهُوَ يَهُوذَا سِمْعَانُ الإِسْخَرْيُوطِيُّ الْمُزْمِعُ أَنْ يُسَلِّمَهُ: «لِمَاذَا لَمْ يُبَعْ هَذَا الطِّيبُ بِثَلاَثَمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَ لِلْفُقَرَاءِ؟». قَالَ هَذَا لَيْسَ لأَنَّهُ كَانَ يُبَالِي بِالْفُقَرَاءِ بَلْ لأَنَّهُ كَانَ سَارِقاً وَكَانَ الصُّنْدُوقُ عِنْدَهُ وَكَانَ يَحْمِلُ مَا يُلْقَى فِيهِ. فَقَالَ يَسُوعُ: «اتْرُكُوهَا. إِنَّهَا لِيَوْمِ تَكْفِينِي قَدْ حَفِظَتْهُ. لأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ». فَعَلِمَ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ أَنَّهُ هُنَاكَ فَجَاءُوا لَيْسَ لأَجْلِ يَسُوعَ فَقَطْ بَلْ لِيَنْظُرُوا أَيْضاً لِعَازَرَ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ. فَتَشَاوَرَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ لِيَقْتُلُوا لِعَازَرَ أَيْضاً. لأَنَّ كَثِيرِينَ مِنَ الْيَهُودِ كَانُوا بِسَبَبِهِ يَذْهَبُونَ وَيُؤْمِنُونَ بِيَسُوعَ. وَفِي الْغَدِ سَمِعَ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ الَّذِي جَاءَ إِلَى الْعِيدِ أَنَّ يَسُوعَ آتٍ إِلَى أُورُشَلِيمَ. فَأَخَذُوا سُعُوفَ النَّخْلِ وَخَرَجُوا لِلِقَائِهِ وَكَانُوا يَصْرُخُونَ: «أُوصَنَّا! مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ!». وَوَجَدَ يَسُوعُ جَحْشاً فَجَلَسَ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «لاَ تَخَافِي يَا ابْنَةَ صِهْيَوْنَ. هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي جَالِساً عَلَى جَحْشِ أَتَانٍ». وَهَذِهِ الأُمُورُ لَمْ يَفْهَمْهَا تلاَمِيذُهُ أَوَّلاً وَلَكِنْ لَمَّا تَمَجَّدَ يَسُوعُ حِينَئِذٍ تَذَكَّرُوا أَنَّ هَذِهِ كَانَتْ مَكْتُوبَةً عَنْهُ وَأَنَّهُمْ صَنَعُوا هَذِهِ لَهُ. وَكَانَ الْجَمْعُ الَّذِي مَعَهُ يَشْهَدُ أَنَّهُ دَعَا لِعَازَرَ مِنَ الْقَبْرِ وَأَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ. لِهَذَا أَيْضاً لاَقَاهُ الْجَمْعُ لأَنَّهُمْ سَمِعُوا أَنَّهُ كَانَ قَدْ صَنَعَ هَذِهِ الآيَةَ. فَقَالَ الْفَرِّيسِيُّونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «انْظُرُوا! إِنَّكُمْ لاَ تَنْفَعُونَ شَيْئاً! هُوَذَا الْعَالَمُ قَدْ ذَهَبَ وَرَاءَهُ!». وَكَانَ أُنَاسٌ يُونَانِيُّونَ مِنَ الَّذِينَ صَعِدُوا لِيَسْجُدُوا فِي الْعِيدِ. فَتَقَدَّمَ هَؤُلاَءِ إِلَى فِيلُبُّسَ الَّذِي مِنْ بَيْتِ صَيْدَا الْجَلِيلِ وَسَأَلُوهُ: «يَا سَيِّدُ نُرِيدُ أَنْ نَرَى يَسُوعَ». فَأَتَى فِيلُبُّسُ وَقَالَ لأَنْدَرَاوُسَ ثُمَّ قَالَ أَنْدَرَاوُسُ وَفِيلُبُّسُ لِيَسُوعَ. وَأَمَّا يَسُوعُ فَأَجَابَهُمَا: «قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ لِيَتَمَجَّدَ ابْنُ الإِنْسَانِ. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الأَرْضِ وَتَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلَكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ. مَنْ يُحِبُّ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا وَمَنْ يُبْغِضُ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَحْفَظُهَا إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ. إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدِمُنِي فَلْيَتْبَعْنِي وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا هُنَاكَ أَيْضاً يَكُونُ خَادِمِي. وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدِمُنِي يُكْرِمُهُ الآب. اَلآنَ نَفْسِي قَدِ اضْطَرَبَتْ. وَمَاذَا أَقُولُ؟ أَيُّهَا الآب نَجِّنِي مِنْ هَذِهِ السَّاعَةِ. وَلَكِنْ لأَجْلِ هَذَا أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ. أَيُّهَا الآب مَجِّدِ اسْمَكَ». فَجَاءَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ: «مَجَّدْتُ وَأُمَجِّدُ أَيْضاً». فَالْجَمْعُ الَّذِي كَانَ وَاقِفاً وَسَمِعَ قَالَ: «قَدْ حَدَثَ رَعْدٌ». وَآخَرُونَ قَالُوا: «قَدْ كَلَّمَهُ ملاَكٌ». أَجَابَ يَسُوعُ: «لَيْسَ مِنْ أَجْلِي صَارَ هَذَا الصَّوْتُ بَلْ مِنْ أَجْلِكُمْ. اَلآنَ دَيْنُونَةُ هَذَا الْعَالَمِ. اَلآنَ يُطْرَحُ رَئِيسُ هَذَا الْعَالَمِ خَارِجاً. وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ». قَالَ هَذَا مُشِيراً إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يَمُوتَ. فَأَجَابَهُ الْجَمْعُ: «نَحْنُ سَمِعْنَا مِنَ النَّامُوسِ أَنَّ الْمَسِيحَ يَبْقَى إِلَى الآبِدِ فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَفِعَ ابْنُ الإِنْسَانِ؟ مَنْ هُوَ هَذَا ابْنُ الإِنْسَانِ؟». فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «النُّورُ مَعَكُمْ زَمَاناً قَلِيلاً بَعْدُ فَسِيرُوا مَا دَامَ لَكُمُ النُّورُ لِئَلَّا يُدْرِكَكُمُ الظّلاَمُ. وَالَّذِي يَسِيرُ فِي الظّلاَمِ لاَ يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ. مَا دَامَ لَكُمُ النُّورُ آمِنُوا بِالنُّورِ لِتَصِيرُوا أَبْنَاءَ النُّورِ». تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهَذَا ثُمَّ مَضَى وَاخْتَفَى عَنْهُمْ. وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ صَنَعَ أَمَامَهُمْ آيَاتٍ هَذَا عَدَدُهَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ. لِيَتِمَّ قَوْلُ إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ: «يَا رَبُّ مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا وَلِمَنِ اسْتُعْلِنَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ؟». لِهَذَا لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا. لأَنَّ إِشَعْيَاءَ قَالَ أَيْضاً: «قَدْ أَعْمَى عُيُونَهُمْ وَأَغْلَظَ قُلُوبَهُمْ لِئَلَّا يُبْصِرُوا بِعُيُونِهِمْ وَيَشْعُرُوا بِقُلُوبِهِمْ وَيَرْجِعُوا فَأَشْفِيَهُمْ». قَالَ إِشَعْيَاءُ هَذَا حِينَ رَأَى مَجْدَهُ وَتَكَلَّمَ عَنْهُ. وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ آمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ مِنَ الرُّؤَسَاءِ أَيْضاً غَيْرَ أَنَّهُمْ لِسَبَبِ الْفَرِّيسِيِّينَ لَمْ يَعْتَرِفُوا بِهِ لِئَلَّا يَصِيرُوا خَارِجَ الْمَجْمَعِ. لأَنَّهُمْ أَحَبُّوا مَجْدَ النَّاسِ أَكْثَرَ مِنْ مَجْدِ اللَّهِ. فَنَادَى يَسُوعُ: «الَّذِي يُؤْمِنُ بِي لَيْسَ يُؤْمِنُ بِي بَلْ بِالَّذِي

أَرْسَلَنِي. والَّذِي يَرَانِي يَرَى الَّذِي أَرْسَلَنِي. أَنَا قَدْ جِئْتُ نُوراً إِلَى الْعَالَمِ حَتَّى كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِي لاَ يَمْكُثُ فِي الظُّلْمَةِ. وَإِنْ سَمِعَ أَحَدٌ كلاَمِي وَلَمْ يُؤْمِنْ فَأَنَا لاَ أَدِينُهُ لأَنِّي لَمْ آتِ لأَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لِأُخَلِّصَ الْعَالَمَ. مَنْ رَذَلَنِي وَلَمْ يَقْبَلْ كلاَمِي فَلَهُ مَنْ يَدِينُهُ. اَلْكلاَمُ الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ هُوَ يَدِينُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ. لأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي لَكِنَّ الآبَ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ أَعْطَانِي وَصِيَّةً: مَاذَا أَقُولُ وَبِمَاذَا أَتَكَلَّمُ. وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ وَصِيَّتَهُ هِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. فَمَا أَتَكَلَّمُ أَنَا بِهِ فَكَمَا قَالَ لِي الآبُ هَكَذَا أَتَكَلَّمُ»

استعلان ملوكية المسيح ودينونة رئيس العالم

مكان البشارة: من بيت عنيا إلى أورشليم للمرة الأخيرة

ويشمل هذا الأصحاح:

١- بيت عنيا وتكفين الجسد قبل الموت (١٢: ١-١١).

٢- دخول المسيح إلى أورشليم (١٢: ١٢-١٩).

٣- رد المسيح عل طلب اليونانيين: «إن ارتفعت عن الأرض أجذب إلي الجميع.» (١٢: ٢٠-٣٦).

ثم ينتهي إنجيل الاستعلان بالأية ١٢: ٣٦ «ثم مضى واختفى عنهم».

وينتهي الأصحاح الثاني عشر بالجزئين التاليين:

+ ختام لإنجيل الاستعلان (١٢: ٣٧-٤٣).

+ ملخص لإنجيل الاستعلان (١٢: ٤٤-٥٠).

١- بيت عنيا وتكفين الجسد قبل الموت

لم يُسمع قط أن يُكفن الجسد قبل الموت، ولكن هذا هو جسد يسوع الذي لن يرى فساداً «لن تدع قدوسك يرى فساداً» (أع١٣: ٣٥). وهكذا ظل جسد المسيح معطراً بناردين خالص تفوح منه رائحة محبة الإنسان لابن الإنسان، والتي لم يستطع القبر أن يمحوها فبقين إلى أن قام من الموت، وتجلى في ملء لاهوته، وفاحت منه رائحة لاهوته الذكية التي وهبها للانسان بالتالى عوض ناردين مريم، ليعبر بها كل إنسان الموت وترفع عنه رائحة فساد الخطية، فيتقدم بهذه الرائحة عينها إلى الله، فيشتم الله فينا رائحة ذبيحة المسيح: «لأننا رائحة المسيح الذكية لله ... رائحة حياة لحياة.» (١كو٢: ١٥-١٦)

١: ١٢ ثُمَّ قَبْلَ الْفِصْحِ بِسِتَّةِ أَيَّامٍ أَتَى يَسُوعُ إِلَى بَيْتِ عَنْيَا حَيْثُ كَانَ لِعَازَرُ الْمَيْتُ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ.

«قبل الفصح بستة أيام»: القصح يقع في ١٤ نيسان، فالمسيح وصل إلى بيت عنيا قادماً من «أفرايم» حيث كان معتكفاً يوم ٨ نيسان، وهذا يقع يوم الجمعة قبل الغروب مباشرة، فاحتسب السبت واستراح السبت وحضر وليمة العشاء بعد غروب السبت وهذا يوافق أن مرثا كانت تخدم، لأنه لا يحل الخدمة يوم السبت.

أما من حيث «الستة الآيام»، فأسلوب القديس يوحنا يرمي نحو الإشارة إلى ستة أيام الخليقة القديمة، حيث اليوم السابع استراحة ليجعل منها ستة أيام الخليقة الجديدة، وفي السبت استراح المسيح (الله) في القبر، وقام يوم الأحد ليعلن بدء الحياة الأبدية غير الزمنية.

ولودققنا، نجد أن القديس يوحنا يفتتح إنجيله «بالأسبوع» المقدس ويختمه «بالأسبوع» المقدس. إذ نقرأ في بدء

الإنجيل: «هذا كان في بيت عبرة (بيت عنيا شرق الاردن)، في عبر الاردن حيث كان يوحنا يعمد» (يو١:٢٨). هذا أول يوم.

ثم «وفي الغد نظر يوحنا يسوع مقبلاً إليه فقال هوذا حمل الله الذي يرفع خطية العالم» (يو١:٢٩)، هذا اليوم الثاني.

ثم «وفي الغد أيضاً كان يوحنا واقفاً هو واثنان من تلاميذه (يوحنا واحد منهما) فنظر الى يسوع ماشياً فقال هوذا حمل الله» (يو١:٣٥-٣٦)، هذا ثالث يوم.

ثم «في الغد أراد يسوع أن يخرج إلى الجليل فوجد فيلس ...» (يو١:٤٣)، هذا رابع يوم.

ثم «وفي اليوم الثالث كان عرس في قانا الجليل ...» (يو٢:١)، هذا هو اليوم السابع!!!!

ثم ليس جزافاً أن يختار الرب بيت عنيا قبل الفصح ليعتزل هناك، لأنه من المعروف في طقس ذبح خروف الفصح أن يُعزل الخروف قبل الفصح بخمسة أيام بعيداً عن الحظيرة. وهكذا يوقع المسيح حياته على نغمات الفصح بشيء من الآبدع الطقسي، وكما كان يجرى على الخروف عملية تكريس استعداداً لتقديمه بعد خمسة أيام، هكذا سلم المسيح جسده لأيدي محبيه ليمسحوه بالطيب والدموع بعد وصوله بيوم، وذلك مساء السبت بعد الغروب وبعد الوليمة:

+ « ... في العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كل واحد شاة ... شاة صحيحة ذكراً ابن سنة ... ويكون عندهم تحت الحفظ إلى اليوم الرابع عشر من هذا الشهر. ثم يذبحه كل جمهور جماعة إسرائيل في العشية»(خر١٢:٣-٦)

+ «لأنه كان يليق بنا رئيس كهنة مثل هذا قدوس بلا شر ولا دنس قد انفصل عن الخطاة، وصار أعلى من السموات.» (عب٧:٢٦)

٢:١٢ فَصَنَعُوا لَهُ هُنَاكَ عَشَاءً. وَكَانَتْ مَرْثَا تَخْدِمُ وَأَمَّا لِعَازَرُ فَكَانَ أَحَدَ الْمُتَّكِئِينَ مَعَهُ.

أراد كثير من الشراح أن يجمعوا بين ما جاء في إنجيل القديس يوحنا وما جاء في الأناجيل الثلاثة الأخرى، عن قصة العشاء في بيت عنيا، وافترضوا أن بيت سمعان الآبرص الوارد في إنجيل القديس متى (٢٦:٦)، وفي إنجيل القديس مرقس (١٤:٣)، غير بيت مرثا ومريم ولعازر، بدليل أن لعازر كان مدعوا كضيف، على أن مرثا أيضاً حضرت لتخدم في الوليمة في بيت سمعان الآبرص، إيفاء للدين الذي صنعه الرب لأخيها لعازر. كذلك فمريم انتهزت الفرصة وأحضرت ناردينها لتطيب رجلي الرب اللتين كانت هي تجلس بجوارهما تستمع لكلمات الحياة، وأن سمعان الآبرص هو أحد العشرة البرص الذين شفاهم الرب.

ولكن من رأينا أن قصة إنجيل يوحنا ذات طابع سري ولاهوتي خاص يستلزم منا أن نأخذها كما هي بحد ذاتها.

ومرة أخرى يقدم لنا القديس يوحنا مرثا ومريم: الاولى تخدم، والثانية تتأمل وتحب. وليكن في علمك يا قارئي العزيز أن حياة التصوف بجملتها في المسيحية تأخذ منهجها وأسلوبها وفلسفتها من «مريم»، كما تأخذ حياة الخدمة أسلوبها ومنهجها وفلسفتها من «مرثا»، وما أبدع قول كتاب بستان الرهبان حينما حسم الخلاف القديم بين المتصوفين (التأمل) والنساك (التمرن بضبط الجسد والخدمة)، محاولاً أن يجمع بين خدمة مرثا وتأمل مريم بقوله إن «مريم بمرثا مُدحت»، فلولا شكوى مرثا لما مدح المسيح مريم!

ثم إن إصرار القديس يوحنا على ذكر لعازر متكئاً مع المسيح، هو في الحقيقة لفتة لا تخلو من عمق؛ فالمسيح يبدو، بينما لعازر بجواره، كمن هو قابض على زمام الموت والهاوية تحت قدميه. فكان منظره كمنظر القيامة

والحياة التي تتحدى قرار السنهدريم.

١٢:٣ فَأَخَذَتْ مَرْيَمُ مَناً مِنْ طِيبِ نَارِدِينٍ خَالِصٍ كَثِيرِ الثَّمَنِ وَدَهَنَتْ قَدَمَيْ يَسُوعَ وَمَسَحَتْ قَدَمَيْهِ بِشَعْرِهَا فَامْتَلَأَ الْبَيْتُ مِنْ رَائِحَةِ الطِّيبِ.

«المن» هو الرطل الروماني ويساوي ثلثمائة وسبعة وعشرين جراماً وربع الجرام، أي ما يساوي ثلث اللتر.

«ناردين خالص»: في مفهوم العقاقير يعني أنه نقي أي غير مُضاف إليه شموع أو راتنجات التي تعطيه قوام المرهم أو الدهان، فهو خلاصة أو أكسير حر.

والناردين هو الزيت الطيار المستخرج من الجذور وشعيرات الساق لنبات Spikenard وينمو في شمال الهند في الجهات الجبلية العالية. وكان ثمن الرطل الروماني منه حوالي ثلثمائة دينار، علماً بأن الدينار هو أجرة العامل في اليوم في ذلك الزمان. فإذا حولناه إلى لغة زماننا الحاضر يكون ثمن الرطل منه ما يقرب ٣٠٠×٥ = ١٥٠٠ جنيهاً مصريا، بحساب أن أجرة العامل العادي هي خمة جنيهات في اليوم.[1]

«ودهنت قدمي يسوع، ومسحت قدميه بشعرها، فامتلأ البيت من رائحة الطيب»: في إنجيل القديس متى نقرأ أن امرأة تقدمت إليه (دون ذكر اسمها) ومعها قارورة طيب كثير الثمن، حيث سكبته على رأسه وهو متكىء (٢٦:٦). وفي إنجيل القديس مرقس: «جاءت امرأة معها قارورة طيب ناردين خالص كثير الثمن، فكسرت القارورة وسكبته على رأسه.» (١٤:٣) وفي إنجيل القديس يوحنا يقتصر الوصف على «دهن قدمي يسوع».

فلو أخذنا بهذا الوصف المزدوج معاً، يمكننا أن نستخلص القصد الذي يهدف إليه الوحي على فم هؤلاء الإنجيليين القديسين وذلك حينما نرجع إلى العهد القديم: «... والكاهن الأعظم بين إخوته الذي صُب على رأسه دهن المسحة ... لأن إكليل دهن مسحة إلهه عليه. أنا الرب.» (لا٢١:١٠و١٢)

وفي ذلك يتأمل العلممة والمتصوف فيلو اليهودي المعاصر للقديس يوحنا: [إن رأس اللوغس (الكلمة) بصفته الكاهن الأعظم يُمسح بالزيت، بمعنى إظهار جوهره المتألق بالنور البهي].

وكان فيلو اليهودي يرى ما يمكن أن نراه نحن أيضاً، أن دهن المسيح بالناردين، وإن جاء على يدي امرأة امتلأ قلبها حباً وإيماناً بالمسيح، إلا أن الفعل في حد ذاته كان بإيحاء من الله الآب . وهنا سر جزع يوحنا في إحجامه عن ذكر دهن رأس الرب، لأنه فوق متناول الإنسان. وعوض أن يذكر القديس يوحنا دهن رأس الرب بيدي امرأة، عاد وصحح الوضع، أنها هي التي مسحت قدميه بشعر رأسها، وهكذا تكرمت مريم وأكرمت بني جنسها إذ توجت رأس المرأة بإكليل الطيب المنحدر من جسد المسيح.

ويقيناً أن رطلاً من عطر فاخر نقي قد اندفق على ثياب الرب وقميصه أيضاً، وصح قول سليمان في نشيده الإلهي حيث تخاطب النفس البشرية ربها: «ما دام الملك في مجلسه، أفاح نارديني رائحته» (نش١:١٢)

وقد تمهد المعنى الإلهي لهتاف ثاني يوم أي يوم الأحد: «مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل» (١٢:١٣)

هذه المعاني البديعة لا تخرج قط عن قصد الوحي الإلهي، فكل حركة في إنجيل القديس يوحنا محسوبة بالحساب اللاهوتي. ولكي يتأكد القارىء أننا نستخلص الدرر من أعماق نهر الروح، فليسمع ما يقوله القديس يوحنا بعدما استفاق التلاميذ من عتمة الحوادث المتتابعة، إن في دهن الجسد، أو في هتاف يوم الأحد: «وهذه الأمور لم

---

[1] كما كانت فى زمن كتابة أبونا متى لكتابه هذه .... أما الآن فهى فى حدود مائة جنيه

يفهمها تلاميذه أولاً، ولكن لما تمجد يسوع، حينئذ تذكروا أن هذه كانت مكتوبة عنه، وأنهم صنعوا هذه له» (يو١٢: ١٦). ولكن، وللأسف، لم يذكر لنا القديس يوحنا «هذه المكتوبة عنه» ولكنها على كل حال نطوف على كل الزهور نلتقط من رحيق «المكتوبات» ليذوق القارىء والسامع مجرد الذوق!

«وامتلأ البيت من رائحة الطيب»: لقد استرعى انتباه القديس يوحنا، كشاهد عيان، جمال الرائحة وهى تعبق كل البيت، ويقيناً فإن هذا كان هو نفسه شعور الرب، فصمم المسيح أنه كما ملأت مريم عليه البيت برائحة ناردينها الفاخر، أن يملأ الكنيسة كلها والى آخر الدهور برائحة محبة واسم هذه المرأة التي أنابت نفسها عن بشرية الأجيال كلها، لكي تقدم م اليه سخاء فقرها عمل المحبة في يوم المحبة.

وجدير بالذكر أن هذا الإنجيل (يو١٢: ١-٨) هو أول قراءة تقرأ في أسبوع الآلام (عشية أحد الشعانين، وكأن الكنيسة بذلك تريد أن تقدم لنا في بداية هذا الأسبوع مثال المحبة التي سكبتها هذه المرأة على قدمي الرب «للتكفين»، كنموذج أعلى للمحبة التي يجب أن نقدمها للمسيح إزاء آلامه المحيية من أجلنا.

١٢: ٤-٦ فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْ تلاَمِيذِهِ وَهُوَ يَهُوذَا سِمْعَانُ الإِسْخَرْيُوطِيُّ الْمُزْمِعُ أَنْ يُسَلِّمَهُ: «لِمَاذَا لَمْ يُبَعْ هَذَا الطِّيبُ بِثلاَثَمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَ لِلْفُقَرَاءِ؟». قَالَ هَذَا لَيْسَ لأَنَّهُ كَانَ يُبَالِي بِالْفُقَرَاءِ بَلْ لأَنَّهُ كَانَ سَارِقاً وَكَانَ الصُّنْدُوقُ عِنْدَهُ وَكَانَ يَحْمِلُ مَا يُلْقَى فِيهِ.

معذرة أيها القارىء العزيز، فقد كنا نحلق معاً في سماء الحب والسخاء، ورائحة المسيح الذكية، ومسحة الآب على رأس ابن الإنسان؛ واذ بنا فجأة وعلى غير انتظار نقع في نقع الطين ونتوحل في حمأة الغباء. فعوض الوجه المشرق الوديع المتواضع الذي لهذه الأخت الممدوحة، وهي في ملء سعادتها، فرحة مستبشرة أنها صنعت للرب شيئا كانت قد عبأت له طاقات حبها ومالها، يظهر في المشهد وبسرعة وجه قبيح غاضب، غاضب على إسراف «عمل المحبة» وفي حقده رأى أنه «كان يمكن أن يُباع» ... كل شيء كان عنده يمكن أن يُباع إن لم يكن بثلثمائة[1] فبثلاثين!!!

ولكن مهما أعطينا من نظرة ناقدة نحو هذا التلميذ الذي باع سيده، فلن نستطيع أن نبلغ أعماقه لأنه كان كالهاوية. ويكفي أن نحصر، فيما حصره القديس يوحنا عنه من جهة أخلاقه، أنه سارق يلتقط ما يُلقى في الصندوق.

فالذي يخون مال الله، سهل عليه أن يبيع المسيح. ولكن الذي يسترعي انتباهنا، أن المسيح ترك الصندوق معه ولم يمانع من أن يسرق منه كما يشاء، ولا هو مانع حتى أن يبيعه (أي يبيع المسيح): «ما أنت تعمله، فاعمله بأكثر سرعة» (١٣: ٢٧)، وآخر كلمة قالها له الرب عندما تقدم ليسلمه: «يا صاحب لماذا جئت!!» (مت٢٦: ٥٠)

يا إخوة، الرب لا يحصن تلاميذه أو خدامه من السرقة، والاختباء وراء صندوق الفقراء، ولكن يا ويلهم عندما يستيقظ ضميرهم .

والأن قد وضع الإنجيل هذه المفارقة أمام أعيننا، بين امرأة محبة من كل قلبها، باذلة بكل مالها، مؤمنة حقاً، ولها شهادة من المسيح؛ وبين تلميذ من الاثني عشر الأخصاء التابعين، طماع، جشع، سارق لمال الله، خائن، باع المسيح بثمن بخس. وهذه المفارقة ليست مصادفة ولا هي مجرد قصة في الإنجيل، ولكنها تقسيم قائم في كنيسة الله يمارسه من أحبوا المسيح من كل القلب حسب الوصية و«النموذج»، ومن يسلبون المسيح ويبيعونه «كالمثال»

---

[1] يقول إنجيل مرقس ١٤: ٥ «أكثر من ثلثمائة دينار». كذلك فإن إنجيل يوحنا يتفق مع إنجيل مرقس: «ثلثمائة دينار».

حباً في المال.

١٢: ٧-٨ فَقَالَ يَسُوعُ: «اتْرُكُوهَا. إِنَّهَا لِيَوْمِ تَكْفِينِي قَدْ حَفِظَتْهُ.لأَنَّ الْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ».

الإشارة هنا منطلقة سرا نحو الخائن الذي انتهت عشرته وخطته إلى موت المسيح، عمداً، مع لفتة سريعة نحو مريم التي، ودون أن تدري، أكرمت وعظمت موته بأعز ما ملكت حياتها. فالأول طعن الجسد طعنة الموت؛ والثانية تلقفت الجسد بعطرها ومسحته بشعرها.

لقد بدأت مريم ما أكمله يوسف ونيقوديموس، فالأولى كفنت الجسد حيا برطل واحد من الطيب، والأخرون كفنوه ميتاً بمائة رطل، ولكن ذُكر عمل الأولى من فم المسيح بالجميل والعرفان والشكر والذكرى الأبدية، أما عمل الأخرين فلم يذكره إلا التاريخ.

يا إخوة، إن تكريم الأحياء خالد خلود الروح، أما تكريم الأموات فهو سريع الزوال لا يقوى على حفظه وعي الإنسان!

«هى ليوم تكفيني قد حفظته»: وتأتي هذه الجملة باللاتينية (   )، حيث «تكفيني» تعني «يوم القبر». مريم أجهدت نفسها في حصولها على هذا العطر الكثير الثمن، ولا نعلم كم قترت على نفسها حتى اكتمل عندها ثمنه، ثم حفظته عندها دون أن تدري أنه كان ليوم القبر.

وإنجيل القديس مرقس يشرحها بالتفصيل : «أما يسوع فقال: اتركوها لماذا تزعجونها، قد عملت بي عملاً حسناً، لأن الفقراء معكم في كل حين، ومتى أردتم تقدرون أن تعملوا بهم خيراً. وأما أنا فلست معكم في كل حين. عملت ما عندها. قد سبقت ودهنت بالطيب جسدي للتكفين. الحق أقول لكم حيثما يكرز بهذا الإنجيل في كل العالم يُخبر أيضاً بما فعلته هذه تذكاراً لها» (مر ١٤: ٦-٩)

«الفقراء معكم في كل حين»: المسيح ها يستعيد على أذهان التلاميذ كلام الناموس: «لأنه لا تفقد الفقراء من الأرض. لذلك أنا أوصيك قائلاً: افتح يدك لأخيك المسكين والفقير في أرضك» (تث١٥: ١١). ومن الجانب الآخر السري في كلام المسيح، والذي سبق أن استعلنه، أن المسيح نفسه موجود في الفقراء، فالمساكين والفقراء يمثلون شخص المسيح: «الحق أقول لكم بما أنكم فعلتموه بأحد إخوتي هؤلاء الأصاغر فبي فعلتم.» (مت٢٥: ٤٠)

والمعنى واضح أن إمكانية خدمة المسيح ومحبته الشخصية قائمة بصورة دائمة في خدمة ومحبة الفقراء؛ حتى بعد أن يختفي المسيح عن أعينهم عائداً إلى حيث كان.

١٢: ٩-١١ فَعَلِمَ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ الْيَهُودِ أَنَّهُ هُنَاكَ فَجَاءُوا لَيْسَ لأَجْلِ يَسُوعَ فَقَطْ بَلْ لِيَنْظُرُوا أَيْضاً لِعَازَرَ الَّذِي أَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ. فَتَشَاوَرَ رُؤَسَاءُ الْكَهَنَةِ لِيَقْتُلُوا لِعَازَرَ أَيْضاً. لأَنَّ كَثِيرِينَ مِنَ الْيَهُودِ كَانُوا بِسَبَبِهِ يَذْهَبُونَ وَيُؤْمِنُونَ بِيَسُوعَ.

القديس يوحنا يضع أمام القارىء المقارنة المخزية بين حاسة الشعب العامة التي لا تخطىء، وسياسة الرؤساء التي دائماً تضلل البسطاء ... فالحجاج بدأوا يتقاطرون من أورشليم إلى يت عنيا، منذ أن أقام المسيح لعازر من الأموات، وازدادوا الآن عندما علموا أن الرب هناك، وهكذا تشكل أمام الرؤساء خطر وجود لعازر كبينة لا تدحض على قوة المسيح وتفوقه. وهكذا أضيف إل قرار قتل المسيح قتل لعازر أيضاً: «لأنه إن كانوا بالعود الرطب يفعلون

هذا فماذا يكون باليابس.» (لو٢٣:٣١)

٢- دخول المسيح إلى أورشليم

(١٤-١٩)

أحد السعف، بدء أسبوع الآلام حسب الطقس

١٢:١٢-١٣ وَفِي الْغَدِ سَمِعَ الْجَمْعُ الْكَثِيرُ الَّذِي جَاءَ إِلَى الْعِيدِ أَنَّ يَسُوعَ آتٍ إِلَى أُورُشَلِيمَ. فَأَخَذُوا سُعُوفَ النَّخْلِ وَخَرَجُوا لِلِقَائِهِ وَكَانُوا يَصْرُخُونَ: «أُوصَنَّا! مُبَارَكٌ الآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ!».

كان حفل العشاء، بعد غروب شمس السبت، وهكذا حُست الأحد أنه «الغد» بحساب النهار. والذي حدث أن اليهود الذين حضروا حفل العشاء الذي عمل في بيت عنيا عادوا إلى أورشليم وأشاعوا النبأ السار، أن يسوع قادم إلى أورشليم. وحالما سمع «الجمع»، وهنا كلمة «الجمع» كما سبق وعرفنا يقصد بها أهل الجليل، وهم أصدقاء الرب، هؤلاء احتشدوا في صورة موكب عظيم. ولكي نأخذ صورة عن قرب لهذا المشهد الصاخب الرائع نقرأ في الأناجيل الأخرى: «فذهب التلميذان، وفعلا كما أمرهما يسوع. وأتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليهما. والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم في الطريق، واخرون قطعوا أغصاناً من الشجر وفرشرها في الطريق. والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين: أوصنا لابن داود. مبارك الآتي باسم الرب. أوصنا في الأعالي. ولما دخل أورشليم، ارتجت المدينة كلها قائلة: من هذا؟ فقالت الجموع: هذا يسوع النبي الذي من ناصرة الجليل.» (مت٢١:٦-١١)

وهكذا تحققت كل مخاوف رؤساء الكهنة والفريسيين، ووقفوا ينظرون خائفين وحاقدين، وفاقدين كل قدرة عل تحجيم الموقف.

ويضيف القديس لوقا إضافات ذات أهية بالغة في تصوير الموقف، وفي توضيح رعبة الفرسيين وفقدانهم السيطرة على الجماهير: «ولما قرب عند منحدر جبل الزيتون ابتدأ كل جمهور التلاميذ يفرحون ويسبحون الله بصوت عظيم لأجل جميع القوات التي نظروا. قائلين: مبارك الملك الآتي باسم الرب. سلام في السماء، ومجد في الأعالي. وأما بعض الفريسيين من الجمع فقالوا له: يا معلم، انتهر تلاميذك، فأجاب وقال لهم: أقول لكم إنه ان سكت هؤلاء فالحجارة تصرخ. وفيما هو يقترب نظر إلى المدينة وبكى عليها قائلاً: إنك لو علمت أنت أيضاً، حتى في يومك هذا، ما هو لسلامك (أي المسيح المخلص). ولكن الأن قد أُخفي عن عينيك (حتى يتم الصلب). (وبناء على ذلك) فإنه ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة، ويحدقون بك، ويحاصرونك من كل جهة، ويهدمونك وبنيك فيك، ولا يتركون فيك حجراً عل حجر لأنك لم تعرفي زمان افتقادك.» (لو١٩:٣٧-٤٤)

يُفهم من إنجيل القديس متى أن الرب أرسل تلميذين ليستحضرا جحشاً (ابن أتان) ليركب عليه، ومن إنجيل القديس لوقا أن الرب كان راضياً بهتاف التلاميذ، ورفض رجاء الفريسيين أن ينتهر التلاميذ. هذا معناه أن الرب كان راضياً بهذا الموكب وهذا الهتاف الذي يتضمن الهتاف بملك إسرائيل، وهذا الاستقبال الملكي بكل ملابساته. فلو تذكرنا موقفاً سابقاً للرب يوم صنع معجزة الخمس الخبزات والسمكتين، إذ كان رفضه حاسماً لمثل هذا الاتجاه كله، لأنه أولاً لم تكن ساعة استعلان ملكه قد حانت بعد؛ وثانياً لأنهم ظنوه ملكاً سياسياً: «وأما يسوع فإذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكاً، انصرف أيضاً إلى الجبل وحده.» (يو٦:١٥)

لوعلمنا هذا، لأدركنا أن الرب هنا يستعلن حضور ساعة ملوكيته إلهياً على إسرائيل: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض

أجذب إلي الجميع» (يو١٢:٣٢). فالموكب الملكي الذي ارتجت له المدينة، لم يكن في نظر الرب واعتباره إلا موكب الصليب: «أفأنت إذاً ملك. أجاب يسوع: أنت تقول إني ملك. لهذا قد وُلدت أنا، ولهذا قد أتيت إلى العالم.» (يو١٨:٣٧)

ويلاحظ أن القديس يوحنا هو الوحيد الذي أضاف إلى جمل الهتاف جملة »ملك إسرائيل»، إمعاناً في توضيح المعاني الخفية في مفهوم دخوله أورشليم كاستعلان لملوكيته التي ليست من هذا العالم.

«فأخذوا سعوف النخل وخرجوا للقائه»: كان المعروف أن الملوك والقادة حينما يعودون من محواقع الحرب كانوا يُستقبلون بسعف النخل، وهذا نقرأه في ١مك١٣:٥١ و٢مك١٤:٤ «ودخلها في اليوم الثالث والعشرين من الشهر الثاني في السنة المئة والحادية والسبعين بالحمد وبالسعف والكنارات والصنوج والعيدان والتسابيح والأناشيد لانحطام العدو الشديد من إسرائيل» (١مك١٣:٥١)

«فأتى ديمتريوس الملك في السة المئة والحادية والخمسين، وأهدى إليه إكليلاً من ذهب وسعفة وأغصاناً من زيتون مما يختص بالهيكل وبقي في ذلك اليوم ساكتاً.» (٢مك١٤:٤)

وتوجد عملات مسكوكة أيام سمعان المكابي سنة ١٤١–١٣٥ ق م وعليها سعف النخل رمز النصرة.

وفي سفر الرؤيا نجد موكب أحد الخوص يتكرر بكل بهائه في منظر المسيح آت وهو مُتجل بخلاصه لتستقبله كل شعوب الأرض: «بعد هذا نظرت وإذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يعده من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة، واقفون أمام العرش وأمام الخروف، متسربلين بثياب بيض، وفي أيديهم سعف النخل، وهم يصرخون بصوت عظيم قائلين: الخلاص (= أوصنا) لإلهنا الجالس على العرش وللخروف.» (رؤ٧:٩–١٠)

وتصوير دخول الرب بهذا الوصف المتضمن معنى النصرة، كان بمثابة اللطمة الأخيرة على وجه أعداء المسيح من رؤساء الكهنة والفريسيين، والتي عجلت جداً بعملية الصليب، الذي هو في الحقيقة التعبير الإلهي الأخير والأبدي لنصرة المسيح، ليس على الناس بل من أجل الناس.

كما كانت سعوف النخل تُستخدم في أعياد المظال والتجديد. والنخلة شجرة محبوبة كونها ترتفع شامخة نحو السماء، فارشة أغصانها مثل التاج، كأذرع تتوسل، خضراء على الدوام، تزهر وتثمر إلى مئات السنين. لذلك ترنم بها صاحب المزمور كصورة للصديق: «الصديق كالنخلة يزهو ... مغروسين في بيت الرب في ديار إلهنا» (مز٩٢:١٢–١٣)

وقد استخدم سليمان الملك النخلة في نشيد الأ نشاد ليعبر بها عن النفس المحبوبة للمسيح: «ما أجملك وما أحلاك أيتها الحبيبة ... قامتك هذه شبيهة بالنخلة ... قلت إني أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها.» (نش٧:٦–٨)

وللكنيسة القبطية شغف بها يفوق الوصف. ففي يوم أحد السعف، أو أحد الخوص الذي نحن بصدده يتبارى كل بيت وبلا استثناء في اقتناء عدة أغصان منها، ويستمرون السبت مساء (عشية الأحد) في جدل الخوص بأشكال ومناظر غاية في الأبداع، والحاذقون في جدلها يملأونها بالزهور والورود، ويصنعون في الجريدة جيوباً يضعون فيها «قربانة» ويحتفظون بها في البيوت على مدار السنة. ويقوم بعض الكهنة، وهذا خطأ فاحش، بتكريسها بماء طقس «لقان الموتى» الذي يجريه الكهنة تحسباً لمن يموت في أسبوع الألأم، حيث يُمنع إجراء الصلوات على الميت، ويكتفى برشه بماء اللقان الخاص بالموتى. كما يتبارى الباعة بالنداء على الخوص المجدول على شكل قلوب: «قلبك يا سيحي، قلبك». وأصبح الخوص في هذا اليوم يشكل أجل مظاهر الفرح، ليس عند الصغار فقط بل

والكبار أيضاً. وقل من يدخل الكنيسة وليس في يده سعفة يعود بها إلى بيته يحتفظ بها للتذكار والبركة. وقد احتفظت الكنيسة القبطية بهذا التراث منذ العصور الأولى.

«أوصنا، مبارك الآتى بأسم الرب ملك أسرائيل»: هو ترديد لمقاطع المزمور ١١٧ (حسب الترجمة السبعيتية) وخاصة الآية ٢٥: «احمدوا الرب لأنه صالح إلى الأبد رحمته ...»

«قوتي وتسبحتي هو الرب وقد صار لى خلاصاً ...»

«افتحوا لى أبواب البر لأدخل فيها ...»

« هذا هو باب الرب والصديقون يدخلون فيه ...»

«الحجر الذي رذله البناؤون صار رأساً للزاوية ...»

«هذا هو اليوم الذي صنعه الرب نبتهج ونفرح فيه ...»

«آه يا وب خلص (أوصنا). آه يا رب أنقذ. مبارك الآتي باسم الرب»

«باركناكم من بيت الرب ...»

«الرب هو الله ...»

ومن الآية «اوصنا مبارك الله الآتي باسم الرب» يبدأ في نشيد أحد الخوص لحن «إفلوجيمينوس»، مع إضافة «أوصنا لابن داود. أوصاناً في الأعالى. أوصانا لملك إسرائيل».

ويُستخدم من المزمور الآية: «قوتي وتسبحتي هو الرب وقه صار لى خلاصاً» في الكنيسة القبطية مئات المرات طوال ساعات الليل والنهار ليوم الجمعة الكبيرة في أسبوع الآلام، كمقطع ترديدي. كما تغدو الآية: «هذا هو اليوم الذي صنعه الرب فلنبتهج ونفرح فيه» في كل أيام الأحاد عند تقديم الذبيحة.

وهذا المزمور يبدو أنه أُلف ليكون تسبحة لتدشين الهيكل الثاني، وربما عند وفع حجر أساسه: «الحجر الذي رفضه البناؤون قد صار رأس الزاوية.» (مز١١٨:٢٢)

والطقس اليهودي الحالي يستخدم هذا المزمور بعناية فائقة ويحتل في العبادة مركزاً أساسياً، وذلك في عيد ظهور الهلال كل شهر.

وأما الآن، فقد تحولت النبوة وتحول الطقس بجملته إلى حقيقة واقعة تاريخية، استعلن فيها كل المعنى والقصد الإلهي من المزمور والطقس، إذ صار هذا المزمور كله موقعاً على حياة المسيح آية آية، بصورة إعجارية.

وكلمة «أوصنا» أصلها الأرامي «هوشعنا» ومعناها: «من فضلك خلصنا»، وقد أصبحت صلاة لطلب المعونة وخاصة أيام عيد المظال ولطلب المطر. ولكنها أصبحت هتافاً للتحية والتكريم كما جاءت في ٢صم١٤:٤ «وكلمت المرأة التقوعية الملك، وخرت على وجهها إلى الأرض، وسجدت، وقالت: هوشعنا (أعن) أيها الملك».

والسبب في أن الإنجيل لم يترجمها إلى اللغة العربية (أو أي لغة أخرى) بل بقيت بلفظها الأرامي تقريباً، هو أنها تثبتت كاصطلاح للمديح. ولكن الكنيسة تصرفت فيها وجعلتها مقطعاً للصلاة أيضاً.

أما كلمة «مبارك الآتي باسم الرب»» فكان يقولها الكهنة واللاويون ترحيباً بالحجاج الأتين إلى الهيكل من الأماكن البعيدة، وهوذا الرب يأتي إلى هيكله بغتة (ملا٣:١)، ليس حاجاً، بل كصاحب البيت، كابن على بيته، وبيته نحن (عب٣:٦) الحاجون إليه.

ولكن في التعبير المسيحي: «الذي كان والذي يأتي» (رؤ١١:٨) مأخوذ على أنه تعبير عن لقب الرب يسوع «الآتي

إلى العالم» (يو ١١: ٢٧) من عند الآب:

+ «أنت هو المسيح ابن الله الآتي إلى العالم .» (يو ١١: ٢٧)

+ «أنا أتيت باسم أبي، ولستم تقبلوني، إذ أتى أخر باسم نفسه فذلك تقبلونه» (يو ٥: ٤٣). أما اسم أبيه فهو ( )، الذي طالما استخدمه المسيح ليعلن عن نفسه أنه والآب واحد.

+ «وعرفتهم اسمك» (يو ١٧: ٢٦)، «كنت أحفظهم في اسمك» (يو ١٧: ١٢)، «إن لم تؤمنوا إني أنا هو تموتوز في خطاياكم.» (يو ٨: ٢٤)

«ملك إسرائيل»: لسيت واردة في النص النبوي في المزمور، ولكنها واردة في نص نبوي أخر مأخوذ من نبوة صفنيا النبي والذي سيأتي ذكره في شرح الأية ١٥.

١٢: ١٤-١٥ وَوَجَدَ يَسُوعُ جَحْشاً فَجَلَسَ عَلَيْهِ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: «لاَ تَخَافِي يَا ابْنَةَ صَهْيَوْنَ. هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي جَالِساً عَلَى جَحْشِ أَتَانٍ».

«جحشا» أي «حماراً» والكلمة الآرامية حيمور واليونانية هيبوزيحبيون (زك ٩: ٩)، ومعناها «حيوان للحمل»، أي لحمل الأثقال. والحمار (أو الأتان) ( ) وتصغيره ( ) وجحش ابن أتان ( ). ولقد أخذ القديس يوحنا الكلمة من أصلها المكتوب في سفر زكريا «ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم ، هوذا ملكك يأتي إليك. هو عادل ومنصور، وديع، وراكب على حمار، وعلى جحش ابن أتان» (زك ٩: ٩)

ومعروف أن في الأدب النبوي اليهودي، وخاصة ما يأتي منه بالأشعار، يأتي تكرار الكلام لتحسين النغم والوزن ولتوضيح المعنى. وهنا يتضح في هذه الآية عملية التكرار، أولاً في «يا ابنة صهيون» ثم «يا بنت أورشليم»، ثم عاد يكرر «راكباً عل حمار»، ثم أراد أن يوضح أنه حمار صغير «ابن أتان»، فأخطأ النساخ وبعدهم المترجمون وكتبوها «على حمار» وعلى «جحش ابن أتان» بإضافة الواو فجاء المعنى مغلوطا، وكأنه جالس على حمار وعلى جحش معاً. والصحيح أنه حمار صغير أي جحش.

ولكن كلمة «صغير» لا تستخدم للتعبير عن صغار الحمير فقط بل وصغار الخيل أيضاً، فلزم أن تميز كلمة «صغير» فجاءت «صغير» (جحش بالعربية) مضافة إلى أنثى الحمار أي الأتان. فصار المعنى الصحيح هكذا: حمار صغير ابن أتان. ولكن كما فهم النساخ للترجمة السبعينية، هكذا نقل عنها القديس متى في إنجيله كما هي، واضطر أن يعدل المعاني والألفاظ لتصير بالمثنى، أي حمار وجحش ابن أتان معاً، فجاءت هكذا: «فللوقت تجدان أتاناً مربوطة وجحشاً معها، فحلاهما وأتياني بهما. وان قال لكما أحد شيئاً، فقولا: الرب يحتاج إليهما، فللوقت يرسلهما. فكان هذا كله لكي يتم ما قيل بالنبي القائل: قولوا لابنة صهيرن: هوذا ملكك يأتيك وديعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان. فذهب التلميذان وفعلا كما أمرها يسوع، وأتيا بالأتان والجحش، ووضعا عليهما ثأبهما فجلس عليهما.» (مت ٢١: ٢-٧)

هذا الخطأ بالنقل غير المقصود، تلافاه كل من القديسين مرقس ولوقا ويوحنا، حيث ذكروا أنه جحش واحد فقط. ويزيد كل من القديس مرقس والقديس لوقا كلمة: «جحشاً لم يجلس عليه أحد من الناس» (مر ١١: ٢، لو ١٩: ٣٠) كما جاءت في النسخة السبعينية: «جحشاً صغيراً» (زك ٩: ٩)

«جالساً»: لم يشأ القديس يوحنا أن ينقل الكلمة الأصلية التي جاءت في النبوة، أنه «يأتي راكباً» بل جعلها «يأتي

جالساً» («فجلس عليه») كما يليق بالمسيح كملك.

«لا تخافي يا ابنة صهيون»: جاءت في أصل نبوة زكريا: «ابتهجي جداً يا ابنة صهيون، اهتفي يا بنت أورشليم».

وفي إنجيل القديس متى اختزلها وصارت «قولوا لابنة صهيون»، أما القديس يوحنا فيبدو أنه أضاف على نص زكريا النبي نصاً آخر من نبوة صفنيا النبي: «لا تخافي يا صهيون... الرب إلهك في وسطك جبار يُخلص... ملك إسرائيل، الرب في وسطك» (صف٣:١٥-١٧). وواضح جداً أن القديس يوحنا أخذ هذا التعبير«ملك إسرائيل» في تسبحة الهتاف: «أوصنا، مبارك الآتي باسم الرب ملك إسرائيل».

وكلمة «لا تخافي»، المضافة إلى ركوبه على جحش رمز التواضع والوداعة والمسكنة، والتي استرعت انتباه القديس يوحنا فالتقطها من نبوة صفنيا، توضح أنه ليس ملكاً للنقمة من الأعداء، يهوداً ورومانيين، بل للسلام: «لا تخافي». فدخول المسيح إلى أورشليم بهذه الصورة السلامية، هو الذي عبر عنه التلاميذ في إنجيل القديس لوقا: «سلام في السماء، ومجد في الأعالي.» (لو١٩:٣٨)

فهذا الموكب المتواضع، بقدر ما أبهج التلاميذ والأخصاء العارفين بمقاصد المسيح السلامية، بقدر ما ألهب قلوب الطالبين للخلاص من الرومان وسيادة اليهود على الأمم، وظنوا أنه بمثابة إعلان بقيام ثورة، ما أرعب قلوب الفريسيين.

ولكن بقية نبوة زكريا كانت هي وحدها التي استقرت في قلب الرب ومقاصده: «هوذا ملكك يأتي إليك، هو عادل، ومنصور، وديع، وراكب على حمار(بل) على جحش ابن أتان. وأقطع المركبة (مركبة الحرب) من أفرايم، والفرس من أورشليم (جيوش الحرب)، وتُقطع قوس الحرب، ويتكلم بالسلام للأمم ...» (زك٩:٩-١٠)

ولكن حتى التلاميذ لم يفهموا ما هو حادث أمامهم، فاشتركوا في الموكب وهللوا مع المهللين، وظلوا غير مدركين للقيم الحقيقية التي تقوم عليها الحوادث التي كانت تجري أمامهم.

١٢:١٦ وَهَذِهِ الأُمُورُ لَمْ يَفْهَمْهَا تلاَمِيذُهُ أَوَّلاً وَلَكِنْ لَمَّا تَمَجَّدَ يَسُوعُ حِينَئِذٍ تَذَكَّرُوا أَنَّ هَذِهِ كَانَتْ مَكْتُوبَةً عَنْهُ وَأَنَّهُمْ صَنَعُوا هَذِهِ لَهُ.

يقول القديس كيرلس الكبير الإسكندري في تعليقه على هذه الآية: [إن القديس يوحنا الإنجيلي لم يخجل من أن يعترف بجهل التلاميذ، ثم عاد فأظهر معرفتهم؛ لأنه لم يكن يضع في اعتباره احترام الناس، ولكنه كان يدعو لمجد الروح].

والحقيقة أن القديس يوحنا أراد أن يكشف عن مدى الخطأ الذي وقعت فيه كل الفئات، على وجه العموم، بالنسبة لدخول المسيح أورشليم ليكمل عمله الخاص ويختمه.

أولاً: فرؤساء الكهنة والفريسيون، رأوا ذلك أنه بمثابة إعلان ملكيته ببرهان هتاف تلاميذه، فكان ذلك مأخذهم الحاسم لاستخلاص سبب حكم الصلب من فم بيلاطس: «كانوا يصرخون قائلين: إن أطلقت هذا، فلست محباً لقيصر. كل نن يجعل نفسه ملكاً، يقاوم قيصر» (يو١٩:١٢)

ثانياً: اليهود والجموع الذين احتشدوا لتحيته بصفته المسيا الآتي لإعلان بدء مملكة داود، لتخليص إسرائيل من أيدي الرومان.

ثالثاً: التلاميذ، وقد لخص القديس يوحنا موقفهم بأنهم لم يفهموا هذه الأمور. وقد توضح لهم أن كل ما عملوه،

تلقائياً، كان موضوعاً في خطة الله لاستعلان أعماله من جهة الخلاص المعد.

أما تعليق المسيح على هذا الموكب وهذا الاستقبال فجاء في نفس الأصحاح: «وأما يسوع فأجابهما قائلاً: قد أتت الساعة ليتمجد ابن الإنسان. الحق الحق أقول لكم، إن لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت، فهي تبقى وحدها. ولكن إن ماتت، تأتي بثمر كثير.» (يو١٢:٢٣–٢٤)

وهذا هو عين موقف الكنيسة الآن من الاحتفال بأحد الخوص. إذ تشترك فيه وتهتف للمسيح باعتباره قادما للصليب، لكي يعلن من عليه انتصاره الحقيقي على الموت والخطية، من أجل خلاص العالم واستعلان حقيقة شخصه كملك المجد.

١٢:١٧–١٨ وَكَانَ الْجَمْعُ الَّذِي مَعَهُ يَشْهَدُ أَنَّهُ دَعَا لِعَازَرَ مِنَ الْقَبْرِ وَأَقَامَهُ مِنَ الأَمْوَاتِ. لِهَذَا أَيْضاً لاَقَاهُ الْجَمْعُ لأَنَّهُمْ سَمِعُوا أَنَّهُ كَانَ قَدْ صَنَعَ هَذِهِ الآيَةَ.

يلاحظ القارىء أن القديس يوحنا يضع في إنجيله السبب الواضح جداً والمباشر للاحتفال المهيب الذي لاقاه به الشعب يوم أحد السعف كاستقبال الملوك، كل الشعب على كافة طبقاته، ليس الجليليون فقط الذين رافقوه في رحلته بل واليهود عامة حتى من سكان أورشليم ذاتها، وهذا على غير العادة، وذلك بسبب معجزة إقامة لعازر من الموت، وهي الآية التي صنعها الرب قبل مجيئه مباشرة إلى أورشليم:

«فكثيرون من اليهود الذين جاءوا إلى مريم ونظروا ما فعل يسوع، آمنوا به.» (يو١١:٤٥)، «لهذا أيضاً لاقاه الجمع، لأنهم سمعوا أنه كان قد صنع هذه الآية.» (يو١٢:١٨)

في حين أن الأناجيل الثلاثة الأخرى للقديس مرقس والقديس متى والقديس لوقا لم توضح لماذا لاقاه الشعب بالسعف والهتاف في دخوله أورشليم، بل ذكروا حادثة دخوله أورشليم مقطوعة عما قبلها وعما بعدها.

كذلك يوضح هنا القديس يوحنا أن إقامة لعازر من الموت كانت هي السبب المباشر والقوي الذي جعل رؤساء الكهنة والفريسيين يجمعون مجمعهم الأخير والخطير ويتخذون قرارهم بالقتل المسبب: «فكثيرون من اليهود الذين جاءوا إلى مريم ونظروا ما فعل يسوع، أمنوا به. وأما قوم منهم فمضوا إلى الفريسيين وقالوا لهم عما فعل يسوع. فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعاً، وقالوا: ماذا نصنع فإن هذا الإنسان يعمل آيات كثيرة؟ إن تركناه هكذا، يؤمن الجميع به، فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا... إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب... » (يو١١:٤٥–٥٠).

«فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه» (يو١١:٥٣)؛ بل ويؤكد القديس يوحنا أن آية إقامة لعازر من الموت هي التي أنهت على كل أمل الفريسيين في محاولة محاصرته سلمياً، واستسلموا لقرار القتل

١٢:١٩ فَقَالَ الْفَرِّيسِيُّونَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: «انْظُرُوا! إِنَّكُمْ لاَ تَنْفَعُونَ شَيْئاً! هُوَذَا الْعَالَمُ قَدْ ذَهَبَ وَرَاءَهُ!».

هذه آخر مقارنة يعقدها الإنجيل بين المؤمنين والرافضين، بين أبناء النور وأبناء الظلمة والموت؛ بين الجمع الذي شاهد وآمن وشهد بحماس، وبين الفريسيين الذين رفضوا، وأخيراً شهدوا ليأسهم. وفي كلام اليأس الذي عبروا به عن عدم نفعهم، وعن ذهاب العالم وراء يسوع، كانت آخر نبوة من فم الأعداء عما سيكون حتماً: «هوذا العالم قد ذهب وراءه»، وإنهم لن ينفعوا شيئاً وأبداً

٣- رد المسيح على طلب اليونانيين

«إن أرتفعت عن الأرض، أجذب إليّ الجميع»

٢٠:١٢-٢٢ وَكَانَ أُنَاسٌ يُونَانِيُّونَ مِنَ الَّذِينَ صَعِدُوا لِيَسْجُدُوا فِي الْعِيدِ. فَتَقَدَّمَ هَؤُلاَءِ إِلَى فِيلُبُّسَ الَّذِي مِنْ بَيْتِ صَيْدَا الْجَلِيلِ وَسَأَلُوهُ: «يَا سَيِّدُ نُرِيدُ أَنْ نَرَى يَسُوعَ». فَأَتَى فِيلُبُّسُ وَقَالَ لأَنْدَرَاوُسَ ثُمَّ قَالَ أَنْدَرَاوُسُ وَفِيلُبُّسُ لِيَسُوعَ.

وهكذا يصور لنا القديس يوحنا الوجه المقابل من الغرب للمجوس الذين أتوا من المشرق، أولئك أتوا لتحية «المولود ملك اليهود» (مت٢:٢)؛ وهؤلاء لتحية «المصلوب ملك اليهود»، لكي يجمع المسيح في حياته ومماته الشرق بالغرب، وليحمل له الكل الشهادة والعبادة والسجود والتمجيد.

المجوس قالوا: «أتينا لنسجد له»، واليونانيون «صعدوا ليسجدوا في العيد»، والاثنان كانا طلائع الخراف اللأُخر التي ليست من هذه الحظيرة»، جاءوا ليفتتحوا عصر الأمم. ولكن كانت بعثة شرف الشرق مبكرة للغاية إذ سجلت نفسها في نفس محل الميلاد، لتحفظ حقها بأولوية الانضمام لرعية القديسين وأهل بيت الله، وهذه سمة النشاط في أهل الشرق، أما بعثة الغرب فتأخرت للغاية، ولكها لحقت الساعة الحادية عشرة، فأخذوا وعداً، من خلف الباب، بنصيبيهم الكامل من الثمر الكثير: «وأنا إن ارتفعت عن الأرض، أجذب إلي الجميع» (يو٣٢:١٢). ولكن هذا كله يتم بعد أن تقع حبة الحطة وتموت أولاً، لكي تملأ حقول الغرب كلها، مبشرين وقديسين ومعلمين وعلماء!!

كان صوت هؤلاء اليونانيين الأتقياء، بالنسبة لصخب هذا الموكب الزاخر، يبدو في المظهر خافتاً وغير ملفت للنظر إزاء هتاف الآلاف. ولكن في مقدرات الأمم وسجلات أمجاد المؤمنين، كان صوت هؤلاء اليونانيين كالرعد كما في بلاد الغرب، كصوت مياه كثيرة، كصوت الله نفسه الذي تراءى لبولس في الحلم على هيئة الرجل المكدوني (يوناني) يطلب المعونة (أع٩:١٦)؛ أو بلغة أحد الخوص: «هوشعنا خلصنا»!...

٢٣:١٢-٢٤ وَأَمَّا يَسُوعُ فَأَجَابَهُمَا: «قَدْ أَتَتِ السَّاعَةُ لِيَتَمَجَّدَ ابْنُ الإِنْسَانِ. اَلْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنْ لَمْ تَقَعْ حَبَّةُ الْحِنْطَةِ فِي الأَرْضِ وَتَمُتْ فَهِيَ تَبْقَى وَحْدَهَا. وَلَكِنْ إِنْ مَاتَتْ تَأْتِي بِثَمَرٍ كَثِيرٍ».

«قد أتت الساعة»: الرب يعلن انتهاء الخدمة العامة في الرواقات الخارجية، وبدء خدمته الخاصة أمام أبيه في قدس الأقداس، كرئيس كهنة ينضح بدمه سرا على العالم من فوق الصليب. الزمن بعد ليس زمن رؤية وحديث مع الناس، ولكنها الآن ساعة معصرة الدم، وينبغي أن أدوسها وحدي: «قد دست المعصرة وحدي، ومن الشعوب لم يكن معي أحد» (إش٣:٦٣). لذلك حينما سمع باليونانيين (الشعوب)، علم أن المعصرة قد أُعدت.

على طول خدمة الرب، سمعنا منه أن ساعته لم تأت بعد، وحينئذ لم يقو عليه أعداؤه، لا بالتهديد ولا بالوعيد، ولا حتى برفع الحجارة، ولا رفع الأيادي، إذ كان يعبر من وسطهم دون أن يروه وأيديهم قابضة على الهواء. ولكن هذه ساعتهم وسلطان الظلمة (لو٥٣:٢٢)، وقد أحنى رأسه للصليب وعلى الصليب برضاه، لأنه كان يرى السرور الموضوع أمامه (عب٢:١٢)، والمجد الذي كان ينتظره. لأنه بالصليب غلب الموت، وقام مكللاً بالمجد، وظهر «يسوع قائماً عن يمين الله.» (أع٥٥:٧)

إذن، فكانت هي الساعة التي ينتظرها للعودة إلى الآب. ولكن كان عليه أن يضع نفسه أولاً لكي يأخذها ثانياً، يضعها في هوان ويأخذها في مجد، والموت والقيامة متشابكان تشابكاً مستتراً، لا يُفهم الواحد بدون الأخر، ولكن

الموت كان فريضة على الواحد (يسوع)، أما القيامة فصارت عطاءً للجميع.

«حبة الحنطة»: يلاحظ القارىء أن إجابة المسيح على سؤال اليونانيين بخصوص رؤيته والتمتع به وبالتالي التلمذة له، تأتي على ثلاثة مستويات:

المستوى الأول: التشبيه بالطبيعة، وهو سقوط حبة الحنطة، وأن موتها الظاهري هو الذي يحولها إلى ثمر كثير.

المستوى الثاني: التطيق على مستوى النفس، على أساس إماتة الذات عن وفي هذا العالم، فهو الذي يُقيمها ويُحييها إلى حياة أبدية، حيث العالم هنا هو بمثابة الأرض بالنسبة لحبة الحنطة.

المستوى الثالث: الإلتصاق بالنموذج الإلهي، فالمسيح مات بإرادته وقام. فإذا اتبعناه تماما، نصير مثله، ونأخذ تجربته، فنموت معه ونقوم معه، إذ نأخذ قوة موته وقوة حياته: «وهم غلبوه (أي غلبوا المشتكى علينا) بدم الخروف، وكلمة شهادتهم، ولم يحبوا حياتهم حتى الموت.» (رؤ١٢:١١)

والنتيجة التي نخرج بها من طرح هذه المستويات الثلاثة هي:

أولاً: أن المسيح سيموت ليعبر إلى اليونانيين والى العالم كله، بل والى ملء السموات والأرض.

ثانياً: ليس مجرد رؤية المسيح وسماعه يحولنا إلى تلاميذه بل يتحتم من جانبنا أن نكون مثل حبة الحنطة نموت عن ذواتنا التي تحدنا وتربطنا بالأرض والعالم، وذلك حتى نرى المسيح والحياة.

ثالثاً: موت المسيح وقيامته سيكون النموذج الفعال الذي إذا التصقنا به وخدمناه، نأخذ قوته ونشترك في نتائجه، وهذا متوفر لدى كل إنسان في العالم.

وبهذه الثلاثة المستويات، نبلغ إلى تلمذة المسيح وشركة حياته. فبدل أن يأتوا إليه ليروه، يمكنهم أن يعيشوا معه دون أن يأتوا إليه.

أولاً: التشبيه بالطبيعة: حبة الحطة المهيأة للدفن في الأرض هي الواحد (يسوع)، بكل معنى الوحدة في العزلة عن الكل. هذا كان عمق أعماق شعور المسيح الذي كاذ يعتصره ويهز كل كيانه: «نفسي قد اضطربت» (يو١٢:٢٧)، «نفسي حزينة جداً حتى الموت» (مت٢٦:٣٨)، «ايها الآب نجني من هذه الساعة» (يو١٢:٢٧)، «وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض» (لو٢٢:٤٤) ولولا شعوره الدائم بحلول الآب فيه، لسمعنا أكثر وأكثر، ولكنه كان يعود سريعاً لأعماقه فيرى راحته في الآب: «وأنا لست وحدى، لأن الآب معي.» (يو١٦:٣٢)

ولكن كما أن حبة الحنطة تغلب وحدتها بموتها ودفنها في الأرض فتصير كثيراً، هكذا رأى المسيح «يسوع» في موته عبوراً من وحدته أي فرادته التي عانى منها، إذ لم يفهمه أحد ولم يسمعه أحد، وإلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله، وحتى إخوته لم يكونوا يؤمنون به (يو٧:٥)، ورئيس الكهنة مزق ثيابه لأنه لم يفهم كلامه، وتلاميذه خانوه وواحد منهم باعه، والمتقدم فيهم أنكره والباقون تركوه وهربوا؛ تم تمت معجزة حبة القمح التي دُفنت في الأرض، إذ خرجت منها السنبلة تحمل ثمراً كثيراً، كله من جسم حبة الحنطة، «من لحمه ومن عظامه» (أف٥:٣٠)، «وجيش عظيم جداً جداً» (حز٣٧:١٠)، «فقال لى تنبأ للروح، تنبأ يا ابن آدم، وقل للروح هكذا قال السيد الرب: هلم يا روح من الرياح الأربع وهب على هؤلاء القتلى ليحيوا. فتنبأت كما أمرني، فدخل فيهم الروح، فحيوا، وقاموا على أقدامهم، جيش عظيم جداً جداً» (حز٣٧:٩-١٠). «بعد هذا نظرت، وذا جمع كثير لم يستطع أحد أن يعده، من كل الأمم والقبائل والشعوب والألسنة، واقفون أمام العرش وأمام الخروف متسربلين بثياب بيض، وفي أيديهم سعف النخل.» (رؤ٧:٩)

انتقل المسيح من وحدته إلى كليته، من فرادته إلى مطلقه، من انحصاره في فلسطين إلى ملئه للسماء والأرض: «صعد فوق جميع السموات لكي يملأ الكل» (أف٤:١٠). بموته عبر المسيح إلى كل إنسان كان أو سيكون، وعوض أن كان على كل إنسان أن يعبر إليه، صار هو الذي يعبر إلى الكل في كل مكان وزمان. عوض أن نذهب إليه ونقرع، صار هو الذي يقف على كل باب ويقرع: «هأنذا واقف على الباب، وأقرع، إن سع أحد صوتي وفتح الباب، أدخل إليه، وأتعشى معه وهو معي.» (رؤ٣:٢٠)

بموت المسيح ودفنه، استعلنت القيامة والروح والحياة الأبدية التي فيه، والتي طرحها الروح القدس مع الرياح الأربع على قتلى الشعوب يهوداً و يونانيين، فدخل فيهم روح المسيح فحيوا، وقاموا، جيش عظيم جداً جداً.

وهكذا كان رد الرب على سؤال اليونانيين، متضمناً رسالته الإلهية المحيية لهم من داخل آلامه وموته ومجده الذي حانت ساعته. فكأن المسيح يخاطبهم: أتركوني الآن وحدي، لأدوس معصرتي، لأنضح دمي عليكم فتحيون. سأطرح روحي عليكم، وحياتي، وكلمتي، ورسالتي، لتصيروا شعبي.

+ «ولكي يبين غنى مجده على آنية رحمة قد سبق فأعدها للمجد، التي أيضاً دعانا نحن إياها، ليس من اليهود فقط، بل من الامم أيضاً. كما يقول في هوشع أيضاً: سأدعو الذي ليس شعبي شعبي، والتي ليست محبوبة محبوبة. ويكون في الموضع الذي قيل لهم فيه (رواق الأمم) لستم شعبي، أنه هناك يدعون أبناء الله الحي» (رو٩:٢٣-٢٦)

ثانياً: التطبيق على مستوى النفس

١٢:٢٥ مَنْ يُحِبُّ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا وَمَنْ يُبْغِضُ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْعَالَمِ يَحْفَظُهَا إِلَى حَيَاةٍ أَبَدِيَّةٍ.

هنا التطبيق على المستوى الأعلى، إذ نحن لسنا بصدد موت طبيعي ولا أرض طبيعية ولا حياة طبيعية ولا ثمر طبيعي، ولكن التطبيق على الطبيعة فقط نقلنا إلى المستوى الروحي الأعلى.

وهذا هو قانون الحياة المسيحية، فكل ارتقاء إلى مستوى أعلى يحتاج أو يتم على أساس خسارة المستوى الأقل: «إن كنتم قد سمعتموه، وعُلمتم فيه، كما هو حق في يسوع (الموت الطبيعي بالجسد)، أن تخلعوا (الموت أو الإماتة للنفس)، من جهة التصرف السابق، الإنسان العتيق الفاسد (أهواء وشهوات النفس) بحسب شهوات الغرور، وتتجددوا بروح ذهنكم، وتلبسوا الإنسان الجديد المخلوق بحسب الله (الحياة الأعلى) في البر وقداسة الحق» (أف٤:٢١-٢٣). وهذا هو عين مثل حبة الحنطة، وانما على المسترى الأعلى. ويشرحه القديس بولس الرسول عملياً: «لكن ما كان لي ربحاً (فريسي ومعلم إسرائيل)، فهذا قد حسبته من أجل المسيح خسارة. بل إني أحسب كل شيء أيضاً خسارة، من أجل فضل معرفة المسيح يسوع ربي، الذي من أجله خسرت كل الأشياء، وأنا أحسبها نفاية لكي أربح المسيح» (في٣:٧-٨). وواضح هنا أن الربح الروحي هو على أساس الخسارة المادية والمعنوية، والخسارة أصابت الذات والربح هو الحصول على المسيح عوض الذات: «فأحيا، لا أنا، بل المسيح يحيا في.» (غل٢:٢٠)

وهكذا، فإن التضحية بما هو أقل، مهما كان شهيا ومرغوباً ومريحاً لعظمة الذات، يفتح الطريق إلى بلوغ ما هو أعظم بكثير بالنسبة لروح الإنسان وحياته الأبدية.

كذلك، فإن بذل الذات واخضاعها لمطالب الحياة الروحية، يعوض بالربح الذي يفوق البذل، وهو ربح المسيح؛ فالمسيح يحل محل الذات. كذلك أيضاً، فإن قبول الموت الإرادي، أي الإماتة، والإماتة تصيب كل ما هو قابل للفناء،

يفتح باب الحياة الأبدية خطوة بخطوة.

وباختصار، فإن الذي يلتصق بما هو فان، يفنى معه؛ وكل من يلتصق بالحياة يمتلىء بها.

وهكذا كل طماع يأخذ ويخزن ويضيف إلى ذاته من مسرات الدنيا وأمجادها، يُحطم ويُهلك ذاته، بعنى أنه يجعلها بلا قيمة بالنسبة للوجود الروحي ومسراته. وكل جاحد لمشتهيات ومسرات وأمجاد الذات، تصبح ذاته نفسها هي السلم الذي يصعد به إلى السماء.

هنا المسيح على ضوء سؤال اليونانيين الذين يطلبون المجيء إليه لرؤيه، يجيب ويوضح كيفية المجيء إليه؛ فرؤية المسيح ليست بالسهولة التي يراها هؤلاء اليونانيون، أو يراها الحجاج الذين يذهبون إلى أورشليم أو الهيكل أو الجبل المقدس ليروا الله ويجتمعوا إليه: «قال لها يسوع: يا امرأة صدقيني، إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل ولا في أورشليم تسجدون للأب ... ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيوي يسجدون للآب بالروح والحق» (يو ٤: ٢١-٢٣)

ولكي يكون السجود لله بالروح، يتحتم أن يسبقه إخضاع وإماتة عن العالم للجسد. وحبة الحنطة هي هنا النفس، والأرض هي هنا العالم، والثمر هو هنا الحياة الأبدية.

والملاحظ في هذه الآية أن المسيح يضع المحبة الخاطئة في مقابل البغضة الممدوحة بالنسبة للذات. ولو رجعنا إلى المحبة الخاطئة في الإنجيل نجدها محصورة في الخمسة الاتجاهات أو المجالات التي تؤدي إلى الهلاك:

١- محبة الظلمة ٢- محبة العالم ٣- محبة المجد بين الناس ٤- محبة الجسد ٥- محبة المال

وهذه الخمسة هي المداخل المتوازية لمملكة الشر أو الشيطان. والانحياز لأي اتجاه أو مجال من هذه المجالات يظهر عدم رغبة في محبة المسيح والله.

١- والظلمة، هي الضد لـ «نور» الكلمة: «وهذه هى الدينونة إن النور قد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة.» (يو٣: ١٩)

٢- والعالم هو الضد للمسيح ولله: «مملكتي ليست من هذا العالم» (يو١٨: ٢٦)، «محبة العالم عداوة لله.» (يع٤: ٤)

٣- ومجد الناس، هو الضد لمجد الله. «كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض. والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه.» (يو٥: ٤٤)

٤- والجسد هو ضد لله: «لأن اهتمام الجسد هو موت ... هو عداوة لله.» (رو٨: ٦-٧)

٥- والمال، هو ضد الإيمان بالله: «لأن محبة المال أصل لكل الشرور، الذي إذ ابتغاه قوم ضلوا عن الإيمان.» (١تى٦: ١٠)

فإن كان موت المسيح حتمياً، للحصول لنا عل القيامة والحياة الأبدية، فلا مفر من أن يكون الموت الإرادي حتمياً لنا (شركة الموت مع المسيح)، لنحمل ونشترك في القيامة والحياة الأبدية.

١٢: ٢٦ إِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدِمُنِي فَلْيَتْبَعْنِي وَحَيْثُ أَكُونُ أَنَا هُنَاكَ أَيْضاً يَكُونُ خَادِمِي. وَإِنْ كَانَ أَحَدٌ يَخْدِمُنِي يُكْرِمُهُ الآبُ.

لو أننا وضحنا هذا المثل، سهل علينا التفسير، والمثل الأمثل هنا هو التلاميذ الذين ساروا على درب المعلم: «يكفي التلميذ أن يكون كمعلمه» (مت١٠: ٢٥). هؤلاء خدموا المسيح، حيثما سار بهم المسيح في مشارق الأرض

ومغاربها، وهؤلاء كرمهم الآب السماوي أيما تكريم:

+ «فأجاب بطرس حينئذ وقال له: ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك، فماذا يكون لنا؟ فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم: إنكم أنتم الذين تبعتموني في التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً عل اثني عشر كرسياً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر... وكل من ترك ... من أجل اسمي، يأخذ مئة ضعف، ويرث الحياة الأبدية.» (مت١٩:٢٧-٢٩)

وعن الذين أحبوا وصمموا أن يخدموا المسيح، قدم المسيح عنهم صلاة خاصة للآب: «أيها الآب، أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني، يكونون معى حيث أكون أنا، لينظروا مجدي الذي أعطيتني ...» (يو١٧:٢٤)

الملاحظ هنا في طلب المسيح من الآب: «يكونون معي حيث أكون أنا»، أنها ليست هي نفس الطلبة التي طلبها من التلاميذ: «حيث أكون أنا هناك أيضاً يكون خادمي»، لأن طلبة المسيح من الآب هي النتيجة: «الينظروا مجدي» أما طلبة المسيح من التلاميذ فهي المنهج، أي شركة الآلام والموت: «في العالم سيكون لكم ضيق» (يو١٦:٣٣)، «يكفي التلميذ أن يكون كمعلمه» (مت١٠:٢٥). والذي يتبع المسيح، يتحتم أن يحمل صليبه حتى يستطيع أن يتبعه، ولكن الذي يتبع المسيح حاملاً الصليب، فهو حتماً سيبلغ القيامة والحياة والمجد. فخدمة المسيح، هي بحد ذاتها تبدأ بالموت وتنتهي بالمجد، أي بتكريم الآب، كالمسيح وفي المسيح. ولكن لا كرامة من الآب لإنسان ما بدون المسيح، كما أنه لا كرامة مع المسيح بدون الصليب!! من أجل هذا يقول بولس الرسول عن خبرة ويقين: «لأن لى الحياة هي المسيح، والموت هو ربح.» (فى١:٢١)

١٢:٢٧ اَلآنَ نَفْسِي قَدِ اضْطَرَبَتْ. وَمَاذَا أَقُولُ؟ أَيُّهَا الآبُ نَجِّنِي مِنْ هَذِهِ السَّاعَةِ. وَلَكِنْ لأَجْلِ هَذَا أَتَيْتُ إِلَى هَذِهِ السَّاعَةِ.

الحديث عن الموت والحياة حديث، والمذاقة مرعبة. والمبادىء العامة يعبر عليها العقل بخفة، ولكن الإختبار الشخصي محنة.

وما أبهج الحديث عن الخلاص والمجد هللويا!! ولكن لا يأتي الخلاص إلا بمرارة النفس وذوق الحنظل. ويكفي يا قارئي العزيز، أن تسمع من فم المسيح، الذي أقام لعازر بكلمة، وهو يئن هكذا: «نفسي قد اضطربت»، «أيها الآب نجني». فالخلاص لم يكسبه لنا المسيح سهلاً: «لأنه لاق بذاك ... أن يكمل رئيس خلاصهم بالآلام.» (عب٢:١٠)

«نفسي» = (   ) وباللاتينية anima: نفس المسيح هي المركز الذي يجمع فيه ملء الحياة البشرية، وقاعدة المشاعر الإنسانية. أما الروح (   ) وباللاتينية spiritus. فهي، في المسيح ، قاعدة التأثرات الروحية، استقبالا وانعكاسا؛ استقبالاً بالحديث مع الله، وانعكاساً للتعبير والتأثير.

والنفس في المسيح جاءت بهذه الصور:

+ «الراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف.» (يو١٠:١١)

+ «ابن الإنسان لم يأت ليُخدم بل ليخدم وليبذل نفسه فدية عن كثيرين.» (مت٢٠:٢٨)

+ «نفسي حزينة جداً حتى الموت.» (مت٢٦:٣٨)

+ «لأنك لن تترك نفسى في الهاوية.» (مز١٦:١٠ و أع٢:٢٧)

أما الروح فجاءت في:

+ «ونكس راسه وأسلم الروح.» (يو١٩:٣٠)

+ «يا أبتاه، في يديك أستودع روحي.» (لو٢٣: ٤٦)
والموت في المسيح تم هكذا:
١- بانفصال النفس عن الجسد، ولكن اللاهوت بقوة القيامة التي له لم ينفصل قط، لا عن النفس التى باشرت نزولها إلى عالم الأرواح المحبوسة، ولا عن الجسد الذى بقى مسجى فى القبر ميتاً ينتظر عودة النفس.
٢- وبتسليم الروح ليد الآب.
وموقع هذه الآية: «الآن نفسي قد اضطربت» بالنسبة للآيات السابقة مهم للغاية. لأن المسيح، رداً على طلب اليونانيين، طرح ثلاثة افتراضات يتحتم أن تتم أولاً، حتى يستطيع لا اليونانيون فقط بل وكل الناس أن يروه ويتعرفوا عليه ويقبلوه ويتحدوا به!
أولاً: أن يموت هو، هنا أعطى لصورة موته وقيامته المثل من الطبيعة في حبة الحنطة.
ثانيا: أن يموت الإنسان بإرادته (الإماتة) عن الذات ومتعلقاتها المادية والدنيوية.
ثالثاً: أن يكون الإنسان مستعداً لأن يخدم المسيح بأن يتبعه أينما سار، للآلام، ثم الموت، وبالتالي القيامة والمجد.
وأخيراً جاءت هذه الآية لتتنزل بهذه النظرية كلها، بفروضها الثلاثة، إلى مستوى التجربة العملية الواقعة حالاً «الآن»، لكي يكشف المسيح لتلاميذه واليونانيين وكل العالم، أن الموت الذي جازه لم يكن سهلاً، ولا كأنه بدون مجاهدة، فكشف عن رعدة الموت التي بدأت تداهم نفسه البشرية، عندما قرر، وانتهى من قراره، قبول الموت، وجاءت ساعته فعلاً.
وهذا أوضحه القديس يوحنا من عنده، بصورة تكشف عن قدرة هذا القديس في فهم حركات النفس داخل المجال الإلهي بصورة مبدعة: «قال هذا مشيراً إلى اية ميتة كان مزمعاً أن يموت» (يو١٢: ٣٣). القديس يوحنا هنا يرى أن كلام المسيح مهو كشف عن حقيقة وعنف وطريقة الموت الذي سيواجهه. فالنفس البشرية، وهي قاعدة المشاعر ومجتمع ملء الحياة البشرية فيه، بدأت تنوء تحت ثقل قبوله الدخول في تجربة الموت. وهذه هي غصة الموت!! التي هي بعينها المعروضة علينا دائماً حيننا نقرر ونباشر عملية الإماتة عن العالم، بقمع النفس، وبغضة ميولها وشهواتها التي تبدو لها كأنها حيوية بنوع من خداع البصر.
«نفسي قد اضطربت»: «اضطربت» باليونانية (   )، وباللاتينية Turbata، والاضطراب لا يعني الخوف (وقد جاءت أيضاً في يو١١: ٣٣ و١٣: ٢١)، بل هو انفعال عاطفي شديد داخل النفس.
القديس يوحنا هنا يقدم نفس الوصف الذي قدمه الإنجيليون الثلاثة عن المجاهدة التى عاناها الرب في جثسيماني. ولكن لاهوت المسيح عند القديس يوحنا يستحيل أن يتداعى أمام سطوة الموت، حتى وان تداعت النفس البشرية فيه نحو الاضطراب، بل يقدم القديس يوحنا لاهوت المسيح دائماً دائماً منتصراً وساحقاً للعدو. لذلك يسجل القديس يوحنا القول المقابل لهذا الاضطراب النفسي من الموت من جهة الرب، بالرعبة والانحدار اللذين أصابا الشيطان بالمقابل: «الآن دينونة هذا العالم، الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً.» (يو١٢: ٣١)
«وماذا أقول؟»: يعتقد بعض الشراح أنه سؤال استنكاري، الرد عليه جاء بكلمة «لا» في الكلمة «ولكن». ولكن الحقيقة أن المسيح هنا لا يسأل أحداً، ولكنه ينبه السامع ليدرك معنى الانفعال الناتج عن اضطراب النفس إزاء التجربة. فهو ليس موتاً عادياً، بل أعنف موت ماته إنسان في الوجود. فهو ليس حكم موت واقع عليه، بل صراع مع الموت ذاته ومع من له سلطان الموت (عب٢: ١٤)، والذي سينتهي بموت الموت ذاته، واستعلان الغلبة على

الموت بالقيامة التي ستضاف إلى حقوق الإنسان. نعم، سيموت المسيح بكل معنى الموت، ولكن في المقابل سيندحر الشيطان، وتنكسر شوكة أو سيف الخطية في يده. علماً بأن ما جاء بعد سؤال: «وماذا أقول»، لم يكن بالسلب بل بالايجاب، فهو يطلب، والطلب اسُتجيب بالفعل.

«أيها الآب نجني من هذه الساعة»: والجواب جاء من الآب بعد ذلك: «مجدتُ وأُمجد أيضاً». هذه صلاة وتوسل لدى الآب، ليس لإلغاء هذه الساعة من حياة المسيح، لأنه من أجلها جاء، ولكنه يطلب النجاة من التجربة الآتية عليه فيها، بمعنى أن يخرجه منها سالماً ومنتصراً.

والتعبير اليوناني أكثر توضيحاً؛ فهو يطلب الخروج خارج هذه السامة سالماً وهنا ( ) تفيد خارجاً، وباللاتينية تجيء بأكثر وضوح أيضاً، فتعنى الخلاص خارج، أو الخروج من، وليس الخلاص من.

والقديس يوحنا يهتم بأقصة اهتمام أن لا يجرح اللاهوت من أي جانب. فالموضع الذي جاء في الأناجيل الأخرى عن هذه الصلاة بصورة مسترسلة مثل: «أيا أبا الآب، كل شيء مستطاع لك. فأجز عني هذه الكأس» (مر١٤:٣٦)، يدقق فيها القديس يوحنا ليشرحها على مستوى «النجاة منها»، أي الخروج من التجربة بصورة تمجد الآب: «أيها الآب مجد اسمك»، وليس إلغا،ها بأي حال من الأحوال. ثم يؤكد المسيح طاعتة للآب بقبوله التجربة: «لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة». فليست السامة بحد ذاتها التي يطلب المسيح الخلاص منها بل التجربة، وهي تجربة الصراع الرهيب مع الموت «لأجل هذا». فهو جاء «لأجل هذا الصراع» وهو يطلب أن يخرج من هذا الصراع سالماً بصورة تمجد اسم الآب.

هذا واضح في قول سفر العبرانيين: «الذي في أيام جسده، إذ قدم بصراخ شديد ودموع، طلبات وتضرعات (في جثسيماني) للقادر أن يخلصه من الموت، وسمع له من أجل تقواه.» (عب٥:٧)

إذا، فالمسيح كان محقاً في توسله: «نجني من هذه الساعة» أي نجني من تجربة الصراع مع الموت، بأن أخرج منها منتصراً. التي جاءت هنا في سفر العبرانيين «أن يخلصه من الموت» والنتيجة جاءت كما توقع المسيح وكما كلب، «وسُمع له»!!

١٢:٢٨-٣٠ «أَيُّهَا الآبُ مَجِّدِ اسْمَكَ». فَجَاءَ صَوْتٌ مِنَ السَّمَاءِ: «مَجَّدْتُ وَأُمَجِّدُ أَيْضاً». فَالْجَمْعُ الَّذِي كَانَ وَاقِفاً وَسَمِعَ قَالَ: «قَدْ حَدَثَ رَعْدٌ». وَآخَرُونَ قَالُوا: «قَدْ كَلَّمَهُ مَلاَكٌ». أَجَابَ يَسُوعُ: «لَيْسَ مِنْ أَجْلِي صَارَ هَذَا الصَّوْتُ بَلْ مِنْ أَجْلِكُمْ.

«أيها الآب مجد اسمك»: وها ينبغي أن ننتبه لئلا يفوت منا المعنى، فاسم الآب «أنا هو»، قد أُعطي للمسيح أن يعمل به، ويستعلن نفسه فيه، ويبرهن به أنه والآب واحد، كيان واحد؛ و«أنا هو» يعني «أنا الكائن بذاتي»، قد صار كاسم المسيح.

فالمسيح هنا يطلب من الآب أن يمجد اسمه الذي منحه للمسيح، بأن يمجد الآب نفسه في المسيح، وبالمسيح. وذلك بأن يمجد المسيح من خلال تجربة الموت، فيقوم منتصراً على الموت، وبهذا يتمجد اسم الآب في المسيح. وحينئذ يدرك الناس من قيامة المسيح من الموت أن الاسم الإلهي «أنا هو»، قد صار اسم المسيح لمجد الآب حقاً، وأن «المسيح هو رب لمجد الله الآب» (في٢:١١)، وهذا ما سبق أن نبه عليه المسيح لندركه في حينه.

«فقال لهم يسوع: متى رفعتم ابن الإنسان (الصليب وبعده القيامة)، فحينئذ تفهمون أني أنا هو» (يو٨:٢٨).

«لأنكم إن لم تؤمنوا أني أنا هو تموتون في خطاياكم» (يو٨:٢٤)، أي «اني أنا حامل لاسم الآب».

أي أن القيامة من الموت ستكون بمثابة إعلان مجد الله في المسيح، على أساس غلبة المسيح على الموت والخطية، وبالتال تكميل التكفير عن الخطايا وغفرانها لحساب الإنسان، الأمر الذي من أجله جاء إلى العالم وجاء إلى هذه الساعة.

واضح إذاً كل الوضوح، أن المسيح يطلب االخروج من الموت وليس إلغاءه، والخروج بصورة تمجد «اسم الآب» الذي عليه. وهذا هو الرد على السؤال الذي سبق أن سأله: «والآن ماذا أقول (أطلب)» نعم هذا هو الذي يطلبه.

وفي هذا نرى أن المسيح لم يفصل بين آلامه التي عبر عنها بأن نفسه قد اضطربت، وبين هدفه الذي هو الصراع مع الموت: «من أجل هذا أتيت إلى هذه الساعة». أي أن المسيح أوضح أن آلامة جاءت جزءاً من عمله: «من أجل هذا أتيت». كما لم يفصل المسيح في رؤيته وإحساسه وانفعاله بين الموت والمجد، أي القيامة، لذلك كانت «الساعة» تحمل له إحساس الألم والموت والقيامة بصورة مترابطة، حرص المسيح أن تكون هكذا عند الآب: «الكأس التي أعطاني الآب ألا أشربها؟» (يو١٨:١١). ورد الآب على سؤال: «مجد اسمك»، جاء كموافقة كاملة من الآب لقبول الابن الكأس التي أعطاه الآب ليشربها، مع وعد باستمرار تمجيد عمل المسيح حتى النهاية: «مجدت وأمجد أيضاً».

«فجاء صوت من السماء: مجدت وأمجد أيضاً»: يلاحظ قارىء إنجيل يوحنا أن حادثة «التجلي» لم يذكرها هذا الإنجيل كحادثة قائمة بذاتها. ولكنه هنا يكشف بهذا الصوت العلني الآتي من السماء، والذي سمعه كل التلاميذ والجمع واليونانيون، عن تصميم الآب على استمرار رفح اسمه، في المسيح، إلى مستوى المجد؛ سواء في الماضي الذي يشمل كل حياة المسيح منذ أن أعلن عن ميلاده بيد ملاك، ثم بواسطة جمهور من جند الملائكة، ثم بالملائكة التي جاءت لتخدمه في تجربة صومه الأربعين يوماً وغلبته على الشيطان، وبعد ذلك بالآيات المستمرة واخرها إقامة لعازرعن الموت، والتي سجلها المسيح على أنها «لأجل مجد الله، ليتمجد ابن الله به» (يو١١:٤)، على أن المجد متبادل.

ثم يضيف الآب أنه «يمجد أيضاً» في زمن المستقبل بمعنى الاستمرار. والمعنى يشمل «الساعة» بكل مشتملاتها حتى النهاية، وما بعد الساعة من قيامة. ففي حادثة التجلي ناداه الآب من السماء: «هذا هو ابني الحبيب له اسمعوا» (مر٩:٧)، وتكلم معه موسى وإيليا عن الخروج المزمع أن يكمله في أورشليم (لو٩:٣١)؛ وهنا، وقد أصبح بالفعل ميعاد خروجه على الأبواب، فهوذا صوت الآب من السماء يؤكد استمرار تمجيده لاسمه في المسيح على طول المدى، وعلى مستوى العالم أجمع.

لم يكن هذا الصوت لتقوية المسيح، أو استجابة شخصية له، لأن المسيح سبق وأعلن بصوت مسموع وفي خطابه للآب: «وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لى» (يو١١:٤٢). بل إن هذا الصوت العلني، والشديد كالرعد، قد كان ليسمعه جميع الواقفين، وليس المسيح، ومفاده هو إعلان الآب لقبوله طاعة الابن وخضوعه، وموافقته على دخول التجربة مع وعد علني بالمجد! وهذا يدخل حتماً في «الشهادة التي قد شهد بها الله عن ابنه» (ايو٥:١٠). تماما كما جاء صوت الآب من السماء في التجلي ليسمعه التلاميذ، وليس المسيح: «هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا» (لو٩:٣٥). لأن الموت الذي سيكمله المسيح هو لأجلهم، ولأجل العالم كله.

لهذا أسرع المسيح لكي يصحح ما فهمه الجمع خطأ، أن ملاكاً قد كلمه، وقال لهم: «ليس من أجلي صار هذا

الصوت بل من أجلكم»، فهو شهادة علنية مسموعة من الآب للمسيح، وموافقة علنية أمام الجميع بقبول طاعة الابن للدخول في مواجهة العدو من داخل الموت. وبذلك يعتبر موت المسيح تكليفاً من الآب السماوي، ووعداً علنياً أيضاً بالمجد المتبادل، الآب بالابن والابن بالآب، بالقيامة العتيدة أن يكملها المسيح بسلطانه وتدبير الآب.

ولكن المسيح، بسماعه صوت الآب من السماء بالموافقة النهائية وقرار المجد من داخل الموت، تهلل وأدرك في الحال انهزام الشيطان وسقوط مملكته من السماء.

٣١:١٢ «اَلآنَ دَيْنُونَةُ هَذَا الْعَالَمِ. اَلآنَ يُطْرَحُ رَئِيسُ هَذَا الْعَالَمِ خَارِجاً»

يلاحظ أن المسيح لم يقل «الدينونة» بصورتها النهائية، بل «دينونة» بدون تعريف، كدينونة أولى بالنسبة لدينونات قادمة، كل في ميعادها. ولكن هنا دينونة حاسمة أيضاً وذات مفعول خطير، لأن آلام المسيح التي بدأ يدخلها، يقع وزرها على نظام العالم القضائي من جهة العدالة المذبوحة، والتي يمسك زمامها الشيطان، ويحركها ضد الأتقياء والضعفاء، لذلك تعتبر هذه الدينونة الأولى للعالم جزاء جرم القضاة والرؤساء، وتحريماً لروحهم التي يمتلكها الحقد والكراهية لكل ما هو حق وعدل. وهذه هي الدينونة التي ألمح إليها الروح القدس على فم سمعان الشيخ، الرجل البار الذي تكلم بروح النبوة للقديسة مريم، والمسيح كان ما زال رضيعاً في حضنها: «وباركهما سمعان، وقال لمريم أمه: ها إن هذا قد وُضع لسقوط وقيام كثيرين في إسرائيل، ولعلاهة تقاوم» (لو٢:٣٤)، حيث بدأ هنا السقوط الفعلي لرأس الحية المدبرة لهلاك الإنسان منذ البدء.

«هذا العالم»: لم يفرق المسيح بين عالم اليهود أو اليونانيين، فهو عالم الشر المستحوز على الرؤوس والرؤساء بلا تفريق، فشر اليونانيين، وان كان قد بلغ حد السفف والمجون، فهو لا يزيد بأي حال عن شر اليهود الذين قاوموا الله والروح القدس وذبحوا ابن صاحب الكرم، لتؤول الكرامة لهم من دون الله.

«الآن دينونة ... الآن يُطرح»: تكرار كلمة «الآن» يوضح الحد الحاسم بين المد والجزر، مد العالم الكاذب اللاهي عن الله والحق، ومد الشيطان في استغلال النفوس الخاضعة له، وجذر القوة الإلهية الرادعة للاثنين.

وهنا يقف الزمن عند كلمة الآن، وهي التي عرفها المسيح هكذا: «قد أتت الساعة»، وهي الفاصلة بين مرحلة الظلمة القاتمة التي ختمت على العالم بتضامن الشيطان، وبين مرحلة انبساق النور العتيد أن يسطع على العالم وشيكاً، بقيامة المسيح.

«الآن يُطرح رئيس هذا العالم خارجاً»: «رئيس هذا العالم» هو الآن في مواجهة علنية أمام «رئيس الحياة» صاحب الموت رفع قرنه على حامل جوهر الحياة!

«أنتم أنكرتم القدوس البار، وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل، ورئيس الحياة قتلتموه، الذي أقامه الله من الأموات ونحن شهود لذلك.» (أع٣:١٤-١٥)

وهكذا لم يقو سلطان الموت في يد الشيطان على سلطان الحياة في جسد المسيح.

«فإذ قد تشارك الأولاد في اللحم والدم اشترك هو أيضاً كذلك فيهما، لكى يبيد، بالموت، ذاك الذي له سلطان الموت، أي إبليس.» (عب٢:١٤)

«يُطرح خارجاً»: وقد جاءت في اليونانية بصيغة المستقبل «سيطرح». الطرح هو السقوط أو الإسقاط إلى أسفل بعنف نتيجة لطمة قاضية، أخرجت الشيطان من دائرة نفوذه وخارج حلقة مصارعيه، والتي كسب فيها سابقاً كل

الجولات ضد الإنسان، ولكن هنا: «رئيس هذا العالم يأتي وليس له في شيء» (يو١٤:٣٠)، وهكذا خسر كل جولاته مع المسيح.

ومعروف من الكتاب أن «العالم كله قد وُضع في الشرير» (ايو٥:١٩)، فكانت دائرة نفوذ الشيطان تشمل العالم كله، ولكن بصورة مستورة. كلما طرح رئيس هذا العالم في معركة ضد المسيح ، تعرى القائمون بتنفيذ مشوراته، ووقعوا تحت نور المسيح الكاشف، ودينت كل أعمالهم. وها الآن قد عُرف لدى كل المسكونة، بكل شعوبها وأجيالها، فضيحة رؤساء إسرائيل وقضاته، في مدى تزييفهم للحق والعدل والإيمان في معاملة المسيح ، كما تعرى قضاة روما أمام ضمير العالم فيما صنعه بيلاطس بالمسيح ضد المنطق والعدل والقانون. وهكذا لم يعد الشيطان ولا أعوانه مخفيين: «لأننا لا نجهل أفكاره.» (٢كو٢:١١)

وهكذا، ومنذ صلب المسيح وقيامته، قد نُصبت على الأرض محكمة الله العليا من داخل ضمير الإنسان المستنير بنور المسيح، أي كل المؤمنين، لمحاكمة كل أعمال الشيطان وأعوانه، «كتبت إليكم أيها الأحداث لأنكم أقوياء، وكلمة الله ثابتة فيكم، وقد غلبتم الشرير» (ايو٢:١٤)، «لأن كل من وُلد من الله يغلب العالم، وهذه هي الغلبة التي تغلب العالم، إيماننا.» (١يو٤:٥)

«الآن صار خلاص إلهنا وقدرته وملكه وسلطان مسيحه. لأنه قد طرح المشتكي على إخوتنا، الذي كان يشتكي عليهم أمام إلهنا نهاراً وليلاً. وهم غلبوه بدم الخروف، وبكلمة شهادتهم، ولم يحبوا حياتهم حتى الموت.» (رؤ١٢:١٠-١١)

وهكذا فقد العالم وجوده وإغراءه بالنسبة للمؤمنين بالمسيح، وفقد الشيطان سلطانه على أولاد الله، كما فقد الموت فاعليته على حياة الذين وُلدوا جديداً من الله؛ وهذا هو المفهوم الواقعي والجوهري لمعنى دينونة العالم وطرح رئيسه خارجاً، تمهيداً لانحلال هيئة هذا العالم انحلالاً نهائياً من دائرة حياة المؤمنين، بالانتقال إلى ملكوت الله وتلاشي الشيطان تلاشياً كليا من الوجود، بالنسبة لحياة المؤمنين، وذلك بدخولهم تحت سلطان المسيح والله، بل وتلاشي الموت من كيان المفديين، بدخولهم نهائياً في دائرة الحياة الأبدية مع الله.

١٢:٣٢-٣٣ «وَأَنَا إِنِ ارْتَفَعْتُ عَنِ الأَرْضِ أَجْذِبُ إِلَيَّ الْجَمِيعَ». قَالَ هَذَا مُشِيراً إِلَى أَيَّةِ مِيتَةٍ كَانَ مُزْمِعاً أَنْ يَمُوتَ.

هذه هي غاية المسيح التي من أجلها قبل أن يدخل إلى «ساعة» الصراع مع «هذا العالم» ومع رئيس هذا العالم، الذي طرحه أرضاً ليرتفع هو عن الأرض إلى أعلى لأنه ماذا بعد أن يكون قد دان «عالم الشر» وفضح مداخل الظلمة والشر فيه، وحكم عليه، وأعلن الحق عالياً فوق الكذب والخداع، إلا افتتاح عالم النور ونقل مركز الجذب من الأرض إلى السماء؟ ثم ماذا بعد أن يكون قد طرح رئيس هذا العالم من دائرة نفوذه وسلطانه المتعال فوق أفق الإنسان، وبعد أن حطه إلى أسفل تحت موطىء قدميه، إلا أن يرفع الإنسان فوق هامة الشيطان ليتسامى بروحه إلى حيث المسيح؟

لأن السيح، بموته´مرتفعاً على الصليب، رفع الإنسان معه من داخل الموت إلى القيامة والحياة، فتحرر الإنسان من جذب الارض المستمر والمستبد المؤدي إلى الموت الأبدي. ولأن المسيح، بموته، قد ظفر بالشيطان على الصليب وفضحه وأشهره جهاراً، صار الصليب هو مركز الجذب الأقوى والأعلى للانسان. وهذا هو المعنى المباشر الذي يتضمنه موت المسيح «مرتفعاً» على الصليب، مرتفعاً عن الأرض، ومرتفعاً فوق هامة الشيطان.

وقد سبق أن ركز إنجيل يوحنا على معنى ارتفاح المسيح بالموت على الصليب بقوله: «وكما رفع موسى الحية في البرية، هكذا ينبغي أن يُرفع ابن الإنسان، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية» (يو٣:١٤). حيث رفع ابن الإنسان» هنا يتضمن القيامة بالموت أو الحياة من داخل الموت. فالحية النحاسية المرفوعة بواسطة موسى، كان مجرد النظر إليها يحيي من الموت أولئك الذين عضتهم الحية وسكبت سمها في أجسادهم.

والتطبيق هو أن المسيح ألغى على الصليب فعل الحية، أي الشيطان، وأبطل الموت المتحصل منها؛ إذ عوض سم الحية المميتة، أعطانا دمه ترياق الحياة الأبدية. فكل من نظر، نظرة الإيمان، إلى المسيح مرفوعاً على الصليب، تبطل فيه قوة الخطية التي هي سم الموت أو مشوكته القاتلة: «لأنه هكذا أحب الله العالم، حتى بذل ابنه الوحيد (على الصليب)، لكي لا يهلك كل من يؤمن به، بل تكون له الحياة الأبدية.» (يو٣:١٦)

كذلك يعود إنجيل يوحنا في موضع آخر ليركز أيضاً على ارتفاع المسيح، على الصليب، كونه يتضمن أيضاً استعلان حقيقة المسيح: «متى رفعتم ابن الإنسان، فحيئذ تفهمون أني أنا هو» (يو٨:٢٨)، لأنه بصلب المسيح أُستعلنت قيامته «وتعين ابن الله، بقوة، من جهة روح القداسة، بالقيامة من الأموات.» (رو١:٤)

وهكذا يصر إنجيل يوحنا دائماً على أن لا يفصل الموت عن القيامة عن المجد، ويجعل مفهوم «الارتفاع» على الصليب هو«ارتفاع» القيامة أيضاً، بل «ارتفاع» الصعود!

لذلك فقول المسيح هنا: ووأنا إن ارتفعت ... أجذب إلى الجميع»، يشير إلى الموت على الصليب وما يتبعه بالضرورة من قيامة وصعود ومجد، والذي يتضمن جذب المؤمنين واتحادهم بجسده.

«ارتفعت» عن الأرض» (   ) وتفيد ليس الارتفاع فوق الأرض بالمعنى الموضعي فقط، بل وبالمعنى الروحي، فهو ارتفاع عن مستوى الفكر الأرضي والجذب الأرضي، الذي يتضمن، ليس معنى الصلب فقط بل والقيامة بمفهومها الروحي العالي.

«أجذب إلي»: المعنى هنا يتضمن شيئاً من العنف بسبب الجذب المضاد من الأرض ومن العدو، وهذا المعنى يوضحه الروح القدس في إلعهد القديم : «كنت أجذبهم بحبال البشر، بربط المحبة، وكنت لهم كمن يرفع النير عن أعناقهم، ومددت إليه مطعماً إياه.» (هوشع١١:٤)

وعملية الجذب هي عملية روحية بحتة، تدخل في وظيفة الروح القدس مباشرة.

«الجميع»: وتأتي بدون تخصيص، فهو «الكل»، حتى ما في السموات والأرض: «وأن يصالح به الكل لنفسه عاملاً الصلح بدم صليبه بواسطته سواء كان ما على الأرض أم ما في السموات.» (كو١:٢٠)

ولكن ليس الكل كمجموع كلي، ولكن «الكل» بالمعنى الفردي واحداً واحداً: «ولكن الذي وُضع قليلاً عن الملائكة، يسوع، نراه مكللاً بالمجد والكرامة، من أجل ألم الموت، لكي يذوق بنعمة الله الموت لأجل كل واحد.» (عب٢:٩)

وعملية الجذب لا تقتصر على التقريب إلى المسيح، بل وتمتد إلى داخل المسيح، كعملية تجميع في شخص المسيح، في جسده السري الذي يملأ السماء والأرض: «لتدبير ملء الأزمنة ليجمع كل شيء في المسيح، ما في السموات وما على الأرض، في ذاك.» (أف١:١٠)

١٢:٣٤ فَأَجَابَهُ الْجَمْعُ: «نَحْنُ سَمِعْنَا مِنَ النَّامُوسِ أَنَّ الْمَسِيحَ يَبْقَى إِلَى الأَبَدِ فَكَيْفَ تَقُولُ أَنْتَ إِنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَرْتَفِعَ ابْنُ الإِنْسَانِ؟ مَنْ هُوَ هَذَا ابْنُ الإِنْسَانِ؟».

الصعوبة التي واجهت الجمع في فهم معنى «ارتفاع ابن الإنسان»، مزدوجة. فمعروف من نبوة دانيال وبقية النبوات أن ابن الإنسان قربوه إلى عتيق الأيام: «فأُعطى سلطاناً ومجداً وملكوتاً لتتعبد له كل الشعوب والأمم والألسنة. سلطانه سلطان أبدي ما لن يزول وملكوته ما لا ينقرض» (دا٧:١٣-١٤). هذا لو كان ابن الإنسان بصفته العامة التي لا يفهمونها أصلاً، لأن المسيا هو ابن داود، وليس ابن الإنسان. وابن داود سيأخذ مملكة أبيه ليحكم إلى الأبد: «أقسم الرب ولن يندم، أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق» (مز١١٠:٤)، «قطعت عهداً مع مختاري. حلفت لداود عبدي، إلى الدهر أثبت نسلك، وأبني إلى دور فدور كرسيك. سلاه» (مز٨٩:٣-٤)، «لنمو رياسته وللسلام لا نهاية، على كرسي داود وعلى مملكته، ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن إلى الأبد» (إش٩:٧)، «ويسكنون فيها هم وبنوهم وبنو بنيهم إلى الأبد، وعبدي داود رئيس عليهم إلى الأبد.» (حز٣٧:٢٥)

وهذه النبوات الخاصة بالمسيا كابن داود كانت محفوظة في قلوب اليهود، حفظاً يتجدد كل صباح وكل مساء، بانتظار تحقيق الوعد. لذلك كانت كلمات الرب يسوع توزن في أذهانهم عليها كلمة كلمة، بل وحرفاً حرفاً، بطريقة يستحيل معها مصالحة الحرف الناموسي مع الروح الذي يتكلم به المسيح؛ حيث الكهنوت كهنوت سماوي، وحيث المملكة هي الملكوت السماوي، وحيث كرسي داود هو العرش السماوي والرئاسة هي من واقع أنه «رئيس الحياة وملك الدهور»» غير الزمنية.

ولكنهم فهموا، على كل حال، أن الارتفاع يعني الموت والانقطاع عن الوجود في الأرض، ولكن كان معنى الصليب غير مفهوم، وكان على كل حال مثبطاً لعزائمهم، إذ كانوا ينتظرون المسيا بوضعه السياسي، مما أوقف حماسهم في الترحاب بالمسيح والإنحياز له.

١٢:٣٥-٣٦ فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «النُّورُ مَعَكُمْ زَمَاناً قَلِيلاً بَعْدُ فَسِيرُوا مَا دَامَ لَكُمُ النُّورُ لِئَلَّا يُدْرِكَكُمُ الظَّلاَمُ. وَالَّذِي يَسِيرُ فِي الظَّلاَمِ لاَ يَعْلَمُ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ. مَا دَامَ لَكُمُ النُّورُ آمِنُوا بِالنُّورِ لِتَصِيرُوا أَبْنَاءَ النُّورِ». تَكَلَّمَ يَسُوعُ بِهَذَا ثُمَّ مَضَى وَاخْتَفَى عَنْهُمْ.

هذه هي آخر نصيحة يقدمها المسيح لليهود، على وجه الإطلاق، وهي نصيحته أيضاً لكل متشكك أومرتبك من جهة من هو المسيح. وتتلخص في أن انتهز الفرصة القليلة التي أمامك، وبالقدر الضئيل الذي يملأ فكرك وقلبك، عن صحة وصلاحية المسيح في أن يقودك ولو خطوة واحدة إلى الأمام، تقدم، تقدم ولا تقف أو تتقهقر، فالخطوة الواحدة الإيجابية كفيلة أن تدفعك إلى الأمام وباستمرار، لأن المسيح واثق من أنه هو نور العالم، وهو قادر أن يقود ويجذب ويدفع ويكشف أمام الإنسان حقيقة الحياة.

فما دام هاتف الخير مسموعاً، اتبع، ومادام بصيص النور يسيراً، سر، لأنك إن استسلمت للخير تصير ابنا للخير، وان سلمت للنور قلبك ورجليك، صرت ابنا للنور وقائداً لغيرك. وكل صوت يأتيك من الخلف ليشككك في النور، فهو صوت الظالم وأبي الظلمة، وهو حتماً للضلال والتضليل.

وكعادة المسيح دائماً، فهو لم يجب على سؤالهم، بل قطع طريق الشك عليهم بإلقاء شعاع من النور على فكرهم حتى لا يعثروا فيه، لو آمنوا. أما آمالهم في مسيا يبقى معهم إلى الأبد، فاختزلها المسيح إلى «زمان قليل بعد». وحينما قال لهم: «سيروا في النور ما دام لكم النور»، فهو يذكرهم بعمود النور الذي قاد آباءهم في سيناء وأضاء لهم ظلمة القفر، لو يتذكرون!...

«ثم مضى واختفى عنهم»: الكلام هنا، بحسب أسلوب القديس يوحنا الخفي، يعمل معى اختفاء النور، ويوحي بغشيان الظلمة لعقولهم التي لم تع النور، ولا هي سارت عل هداه. هذا هو الحبك القصصي للقديس يوحنا، لأن هنا يختم هذا القديس على كل تعاليم المسيح. فكما كانت آية إقامة لعازر من الموت آخر آياته لاستعلان حقيقة شخصه كونه «القيامة والحياة»، وهي منتهى قصد الإنسان، فهنا كذلك يعطي القديس يوحنا آخر كلمة للمسيح من جهة استعلان شخصه «كنور الحياة» وهو منتهى رجاء الإنسان واخر تعاليم المسيح. وقد تحقق قول المسيح هذا عملياً، فعندما صلبوه اظلقت الدنيا، وصارت ظلمة على الأرض كلها، تعبيرا عن اختفاء النور عندما أنكروه. وهم لم يدروا أنهم قتلوا رجاءهم لما قتلوه، فلا حصلوا على مسيا يبقى لهم إلى الأبد، ولا انتفعوا بالزمان القليل بعد!

ختام لإنجيل الأستعلان (١٢:٣٧-٤٣)

١٢:٣٧-٤١ وَمَعَ أَنَّهُ كَانَ قَدْ صَنَعَ أَمَامَهُمْ آيَاتٍ هذَا عَدَدُهَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ. لِيَتِمَّ قَوْلُ إِشَعْيَاءَ النَّبِيِّ: «يَا رَبُّ مَنْ صَدَّقَ خَبَرَنَا وَلِمَنِ اسْتُعْلِنَتْ ذِرَاعُ الرَّبِّ؟». لِهذَا لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يُؤْمِنُوا. لأَنَّ إِشَعْيَاءَ قَالَ أَيْضاً: «قَدْ أَعْمَى عُيُونَهُمْ وَأَغْلَظَ قُلُوبَهُمْ لِئَلَّا يُبْصِرُوا بِعُيُونِهِمْ وَيَشْعُرُوا بِقُلُوبِهِمْ وَيَرْجِعُوا فَأَشْفِيَهُمْ». قَالَ إِشَعْيَاءُ هذَا حِينَ رَأَى مَجْدَهُ وَتَكَلَّمَ عَنْهُ.

إن عدم إيمان اليهود لا بد أن يسترعي كل من يطلع على الإنجيل، سواء من جهة الآيات أو الأعمال والتعاليم. والقديس يوحنا يضع نفسه الآن، وفي ختام سرده للآيات والتعاليم، كمن ينظر إلى رسالة الخلاص التي أكملها المسيح ككل، فهو يندهش من عدم إيمان اليهود، بل والمسيح نفسه اندهش من عدم إيمانهم، بل وحتى إشعياء النبي لم يصدق ما يقول. والحقيقة كذلك، فإنه لا يوجد شعب في العالم قاوم رسالة الخلاص، كما قاومها اليهود في شخص المسيح نفسه، مع أنهم خاصته!!

ويعود القديس يوحنا إلى العهد القديم، عهد النبوات والأضواء التي أرسلها الله من بعيد سابقاً ليظهر بها ويمهد لما سيكون؛ حتى إذا كان، سهل الإيمان.

ونبوات إشعياء فيها ما يكفي، سواء بالنسبة للمسيح من هو، وما هو عمله، أو بالنسبة لليهود، عن ما هو رد الفعل عندهم.

والنبوة في الواقع تصور ما سيكون، ولكن لا تتحكم في مجريات الأمور، ولا تعفي المجرم من إجرامه، أو الخاطىء من خطيته، فسبق العلم عند الله لا يؤثر في حرية وارادة من سيعمل، ولا تقلل من العقوبة المحتمة عليه. ولكن القصد الإلهي في الإعلان السابق عما سيكون، فوق أنه يمهد به الطريق والأذهان لقلوب المؤمنين، فهو يوضح مدى الإحاطة التي يشملها تدبيراته، ومدى العناية الإلهية التي تسبق وتعد المتكلم والسامع معاً، الآية، وصانعها، ورائيها معاً؟ قلب المؤمن وقلب الرافض معاً. لأن الله يشمل بكيانه كل كيان، فهو يحيط بالبداية والنهاية لكل ما كان وما سيكون، وهو سابق للزمن، وكائن بعد أن ينتهي الزمن. فالكل واقع في بؤرة رؤيته، ومشيئته تهيمن بالنهاية على كل مشيئات خلائقه.

وهنا نأتي إلى لاهوت القديس يوحنا، فهو حينما يلجأ إلى نبوة إشعياء فإنما يود أن يقول أنه بقدر ما كان يعمل المسيح بحسب تدبير الآب قولاً وعملاً، بقدر ما كان اليهود المعاندون يزدادون عدم إيمان. ولكن حتى عنادهم ورفضهم هذا كان واقعاً تحت سبق المعرفة، ولم يخرج عن التدبير. فكل ما قالو وعملو، سبق أن كشفه إشعياء،

ليدرك به القديس يوحنا، وندرك نحن معه، أن العناية الإلهية تحيط بقصة الإنجيل. ولكن عدم إيمان اليهود لم يوقف تدبير الله للخلاص، بل دخل فيه كعنصر مكمل؛ فعدم إيمانهم وعنف رفضهم لم يزد عن أن يكون عثرة لهم وحدهم. فالصليب صار عثرة لليهود، ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يكونوا عثرة للصليب.

«آيات هذا عددها»: من كلام القديس يوحنا يتبين لنا أنه كان ملما بآيات كثيرة جداً عملها الرب يسوع، ولكنه اكتفى بذكر بعض منها، وهي سبعة على وجه التحديد، رآها كافية لنؤمن على ضوئها أن المسيح هو ابن الله:

الأولى: تحويل الماء إلى خمر_ الأصحاح الثاني.

الثانية: شفاء ابن خادم الملك – الأصحاح الرابع.

الثالثة: شفاء مقعد بيت حسدا – الأصحاح الخامس.

الرابعة.:إشباع الجموع من الخمس خبزات _ الأصحاح السادس.

الخامسة: السير على الماء _ الأصحاح السادس.

السادسة: شفاء المولود أعمى _ الأصحاح التاسع.

السابعة: إقامة لعازر من الموت بعد أربعة أيام _ الأصحاح الحادى عشر.

وفي ختام الكل أية قيامته من الأموات، مع علامات وآيات في السماء والأرض والبحر، لم يقصد بها المسيح أن يؤثر على إيمان الناس، ولكن لتُعلن فقط عن رسالته.

«ليتم قول إشعياء»: «ليتم» وتأتي في اليونانية بمعنى «ليكمل للملء». هنا لا يأتي يوحنا بالنبوة ليعلل بها تصرف بيت إسرائيل من نحو المسيح رجائهم، ولكن النبوة أتت لتغطي الفرغ المخيف الذي يتركه تصرف اليهود، في تفكير أي إنسان، من نحو معاملتهم للمسيح باعتباره أنه طابعهم وسلوكهم منذ القديم، وهذا لا غرابة فيه، فهو استمرار لتكميل مكيالهم (مت٢٣: ٣٢).

«من صدق خبرنا؟ ولمن استعلنت ذراع الرب؟»: هذه آية إشعياء النبي (٥٣: ١)، وهنا يجمع القديس يوحنا تعاليم الرب يسوع مع الآيات التي صنعها معاً، و«الخبر» هو التعليم بالكلمة ومقصده هو الإيمان» و«ذراع الرب» كناية عن القوات التي صنعها المسيح، وجاءت على مستوى الآيات أي بصفة إشارات تشير إلى لاهوت صانعها. والاثنان معاً كانا شهادة الله المنطوقة والمعمولة بواسطة ابنه. والاثنان أيضاً رُفضا، فالخبر لم يُصدق، والآية لم تفهم باعتبارها استعلاناً للمجد الإلهي لصاحبها.

«لهذا لم يقدروا أن يؤمنوا»: هنا يتعرض القديس يوحنا إلى استحالة أخلاقية عند اليهود، موروثة عبر تذمرات بلا عدد أعلنوها في وجه الله، منذ أن كانوا في مصر، ثم في خروجهم من مصر، وفي وجه موسى. وكل قاض ونبي أتى بعد ذلك لم ينج من هياجهم م مقاومتهم: «قد تركوا عهدك، ونقضوا مذابحك، وقتلوا أنبياءك بالسيف، فبقية أنا وحدي، وهم يطلبون نفسي ليأخذوها» (امل١٩: ١٠). هذا كان صراخ إيليا، و يرد عليه القديس استفانوس الشهيد الأول: «يا قساة الرقاب وغير المختونين بالقلوب والآذان، أنتم دائماً تقاومون الروح القدس. كما كان اباؤكم، كذلك أنتم. أي الأنبياء لم يضطهده اباؤكم؟ وقد قتلوا الذين سبقوا فأنبأوا بمجيء البار الذي أنتم الآن صرتم مسلميه وقاتليه، الذين أخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه» (أع٧: ٥١-٥٣)

لهذا لم يستطيعوا أن يؤمنوا!! تركة ثقيلة جداً من مقاومة ورفض استعلانات الله على مدى الدهور، عيون أعماها

عدم استعدادها للرؤيا، وآذان أصمها تكرار رفضها لصوت الله، وقلوب منعتها قساوتها عن الندم أو التوبة!!

«لأن إشعياء قال أيضاً: قد أعمى عيونهم، واغلظ قلوبهم، لئلا يبصروا بعيونهم، ويشعروا بقلوبهم، ويرجعوا فأشفيهم»: النص هنا من إشعياء (٦:٩-١٠)، ولكنه بالفحص، استقر العلماء أنه غير منقول لا من النسخة السبعينية ولا من النسخة العبرانية الماسورتيك، والتي لجأ إليها كتاب الأسفار الأخرى.

فأما النسخة السبعينية والتى يتبعها كل من إنجيل متى وكاتب سفر الأعمال فهى ترد كالآتي: «فقد تمت فيهم نبوة إشعياء القائلة تسمعون سمعاً ولا تفهمون. ومبصرين تبصرون ولا تنظرون. لأن قلب هذا الشعب قد غلظ، واذانهم قد ثقل سماعها، وغمضوا عيونهم، لئلا يبصروا بعيونهم، ويسمعوا بآذانهم، ويفهموا بقلوبهم، ويرجعوا فأشفيهم.» (مت١٣:١٤-١٥)

أما إنجيل القديس مرقس فجاءت فيه كالآتي: «لكي يبصروا مبصرين ولا ينظروا، ويسمعوا سامعين ولا يفهموا، لئلا يرجعوا فتُغفر لهم خطاياهم» (مر٤:١٢)

والاختصار والتصرف هنا واضحان، ويرى العلماء أن النص يقترب من النسخة العبرية المأسورتيك.

النسخة العبرية الماسورتيك: «اجعل قلب هذا الشعب غليظاً، وثقل آذانهم، وأغمض عيونهم، لئلا ينظروا بعيونهم، ويسمعوا بآذانهم، ويفهموا بقلوبهم، فيعودوا ويُشفوا».

أما في سفر الأعمال، فإن كاتبه يتبع النسخة السبعينية حرفياً تقريباً: «حسناً كلم الروح القدس آباءنا بإشعياه النبي قائلاً: اذهب إلى هذا الشعب وقل ستسعون سمعاً ولا تفهمون، وستنظرون نظراً ولا تبصرون، لأن قلب هذا الشعب قد غلظ، وبأذانهم سمعوا ثقيلاً، وأعينهم أغمضوها، لئلا يبصروا بأعينهم ويصغوا بأذانهم ويفهموا بقلوبهم، ويرجعوا فأشفيهم». (أع٢٨:٢٥-٢٧).

أما إنجيل القديس يوحنا فيبدو النص حراً لا يتبع السبعينية، وقد حول ما جاء في النسخة العبرية بصيغة الأمر الموجه للنبي، إلى تأكيد مخيف بعمل يضطلع به الله نفسه. فبدل «إغمض عيونهم» كأمر صادر للنبي، في النسخة العبرية، يأتي «غمضوا عيونهم»، كعمل قاموا به في أنفسهم؛ وما جاء في السبعينية جعله القديس يوحنا «قد أعمى عيونهم»، حيث الله هنا هو الذي يصنع بهم هذا كرد فعل لعصيانهم، «وأغلظ قلوبهم ... لئلا يرجعوا فأشفيهم.

ويلاحظ هنا أن القديس يوحنا أنهى النص على أساس أن المسيح هو الذي يشفيهم، وبذلك انتقل بالنبوة إلى الواقع بالنسبة للتاريخ الذي أُكمل على يديه! ومعناها: أني أعطيتكم فرصة لتروا وتشعروا بحقيقتي بكل الطرق فلم تستجيبوا، بل عاندتم، وقاومتم، وأسأتم إلى بلا سبب؛ ها أنا أطمس عيونكم، وأسد قلوبكم، وأقطع الرحمة عليكم فلا تعردون بعدد.

ونحن نخرج من الأوضاع المختلفة التي جاءت بها هذه النبوة بفكر واحدء وهو أن أخلاق الشعب اليهودي وملوكه مع الله اديا إلى انغلاق أعينهم عن رؤية استعلانات الله، وأصابا آذانهم بالثقل، فلم تعد تميز صوت الله أو تسمعه أصلاً. وانتهى الأمر بهم إلى أن قلوبهم فقدت الاحساسات والمشاعر التي يمكن أن تتفاعل مع محبة الله، وانتهى الأمر بأن حجز الله صوته عنهم. ويصدق فيهم القول: هذا ما جناه علي جهلي، وما جنى علي أحد. ولكن ليس من الهين مقاومة الله، لأن إمكانية التغيير والتوبة، مفتاحها في يد القدير، فإذا تمادى الإنسان أو الشعب في معاندة الله «أغلق الله عليهم في العصيان» (راجع رو١١:٣٢). وهنا يبدو الله وكأنه هو الذي أغمض عيونهم وسد آذانهم

وقسى قلوبهم، بينما في الحقيقة أنهم هم الذين بعميانهم المستمر حرضوا أن يغلق عليهم فيما أغلقوا هم على أنفسهم من جهالة وحماقة. فستان أن يُقال أنهم أغمضوا عيونهم، أو أن الله أغمض عيونهم. فالذي لا يريد أن يرى الله او يسمعه لا يستطيع الله أن يظهر لهم ذاته أو يتكلم معه: «لماذا لا تفهمون كلامي. لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي.» (يو٨:٤٣)

وهكنا انقلبت عدم الرغبة المستمرة في السماع لكلمة الله إلى عدم قدرة: «لا تقدرون أن تسمعوا».

١٢:٤١ قَالَ إِشَعْيَاءُ هَذَا حِينَ رَأَى مَجْدَهُ وَتَكَلَّمَ عَنْهُ.

القديس يوحنا هنا ينقل عن نسخة «الترجوم»، أو النسخة الأرامية. وهي التي جاء فيها نص (إش٦:١) بدل «رأيت السيد (أدوناي) جالسا...»، جاء «رأيت مجد السيد (أدوناي)...». لأنه بحسب القديس يوحنا، وبالتال بحسب فكر المسيح، أن: «الله لم يره أحد قط» (يو١:١٨). وهذا هو التقليد القديم (الأرامي). وبهذا يكون القديس يوحنا بقوله: قال إشعياء هذا حين رأى مجده وتكلم عنه»، قد فسر النبوة أيضاً على أساس أن إشعياء رأى «مجد المسيح» وتكلم عنه، باعتبار أن إشعياء كان يتنبأ عن المسيح وعن استعلان مجده، وأنه رأى المسيح على أنه هو «أدوناي». وفي نفس أصحاح إشعياء ٦:٥ يقول: «لأن عيني قد رأتا الملك رب الجنود». وفي الترجة الأرامية أي «الترجوم» تأتي هكذا: «لأن عيني رأتا شاكيناه الرب»، حيث الشاكيناه هي الحضرة المنيرة أو نور الله. وهو التعبير عن المسيح أيضاً باعتباره «نور الرب»، «بهاء، شعاع مجده ورسم جوهره.» (عب١:٣)

١٢:٤٢-٤٣ وَلَكِنْ مَعَ ذَلِكَ آمَنَ بِهِ كَثِيرُونَ مِنَ الرُّؤَسَاءِ أَيْضاً غَيْرَ أَنَّهُمْ لِسَبَبِ الْفَرِّيسِيِّينَ لَمْ يَعْتَرِفُوا بِهِ لِئَلَّا يَصِيرُوا خَارِجَ الْمَجْمَعِ. لأَنَّهُمْ أَحَبُّوا مَجْدَ النَّاسِ أَكْثَرَ مِنْ مَجْدِ اللَّهِ.

هنا يورد القديس يوحنا نوعاً من الإيمان يساوي عدمه، وهو الإيمان الفاقد الاعتراف أو الشهادة. وهذا إيمان مصاب بإصابة مرضية قاتلة، فهو يؤدي إلى الانكار، وهو أشر من عدم الإيمان.

أما السبب الذي جعل الايمان فاقداً الاعتراف والشهادة، فهوالخوف. والخوف بالنسبة للخطايا التي تحرم الإنسان من القيامة والحياة، يأتي في المقدمة كأخطر معوق: «وأما الخائفون، وغير المؤمنين والرجسون والقاتلون والزناة والسحرة وعبدة الأوثان وجميع الكذبة، فنصيبهم في البحيرة المتقدة بنار وكبريت، الذي هو الموت الثاني» (رؤ٢١:٨). ووضع الخوف هنا لا يغتفر، فهو ليس خوفاً على الحياة أو خوفاً من الآلام والتعذيب، بل الخوف لئلا يفقدوا كرامتهم ومجدهم الدنيويين، كأعضاء في مجمع اليهود!! الأمر الذي فضحه القديس يوحنا: «لأنهم أحبوا مجد الناس أكثر من مجد الله»؛ وبهذا يكونون قد وضعوا الله في مركز أحط من مركزهم. وهذا وصفه المسيح هكذا: «كيف تقدرون أن تؤمنوا، وأنتم تقبلون مجداً بعضكم من بعض، والمجد الذي من الاله الواحد لستم تطلبونه.» (يو٥:٤٤)

ولكن هذا لا يمنع أن كثيرين آمنوا واعترفوا، والرسالة إلى العبرانيين هي رسالة مكتوبة إلى رؤساء وكهنة قبلوا الإيمان واعترفوا به:

+ «من ثم، أيها الإخوة القديسون، شركاء الدعوة السماوية، لاحظوا رسول اعترافنا ورئيس كهنته المسيح يسوع.» (عب٣:١)

ومكتوب أيضاً:

+ وكان «جمهور كثير من الكهنة يطيعون الإيمان.» (أع٦:٧)

ملخص لإنجيل الاستعلان (١٢: ٤٤-٥٠)

بعد أن ختم إنجيل يوحنا على أقوال المسيح، وبعد أن سجل في يوميات المسيح أنه «مضى واختفى عنهم» (يو١٢: ٣٦)، عاد وسجل بعضاً من أقوال المسيح أتت بصورة جديدة غير مكررة، وبتلخيص جميل ومركز للمبادىء العامة: النور، والدينونة، والحياة. ويختص جزؤها الأول بالمؤمنين وعلاقتهم مع المسيح، وبالتالي مع الآب، والجزء الآخر يختص بغير المؤمنين، وكيفية وقوع الدينونة عليهم.

١٢: ٤٤-٤٥ فَنَادَى يَسُوعُ: «الَّذِي يُؤْمِنُ بِي لَيْسَ يُؤْمِنُ بِي بَلْ بِالَّذِي أَرْسَلَنِي. والَّذِي يَرَانِي يَرَى الَّذِي أَرْسَلَنِي.»

«فنادى»: وتأتي في اليونانية «صرخ»، والمعنى ليس مجرد مناداة، فالمسيح هنا ليس في موقف تعليم بين الناس.

وكلمة «يصرخ» في العهد الجديد عامة تفيد الانفعال العاطفي في صورة نطق. وقد جاءت في مواضع متغيرة لمواقف وأشخاص متباينة جداً.

فصراخ الجموع المنفعلة بالفرح هو ( ): «والذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين أوصنا» (مر١١: ٩)؛ وصراخ الجموع الغاضبة هو ( ): «فصرخوا أيضاً أصلبه» (مر١٥: ١٣)؛ وكذلك الصراخ لطلب المعونة: «ابتدأ يصرخ ويقول يا يسوع ابن داود ارحمني» (مر١٠: ٤٧)؛ كما جاءت أيضاً بخصوص يوحنا المعمدان: «يوحنا شهد له ونادى (صرخ) (يو١: ١٥). ولكن القديس يوحنا حصر كلمة ( ) في معنى الإعلان دون الانفعال أو مجرد الصراخ.

لم ترد مثل هذه الأقوال سابقاً في تعاليم المسيح، فهي صياغة جديدة لمجمل أقوال المسيح.

والمسيح في هاتين الآيتين يربط ربطاً وثيقاً، مع التأكيد، بين الآب وبين كل من يؤمن به، وكذلك بين الآب وبين كل من يراه رؤية الاستعلان الإيماني، كابن الله، وليس رؤية العين.

وهدف المسيح من ذلك عدم الفصل بين اختبار الإيمان به واختبار الإيماذ بالآب، باعتبار أن ذات الآب وذات الآبن ذات واحدة وجوهر إلهي واحد. فالإيمان بالمسيح هو الإيمان بالله، لأن الابن والآب واحد: «أنا والآب واحد» (يو١٠: ٣٠)، وهذا هو الإيمان المسيحي، فالمسيح والآب ذات واحدة، ولاهوت واحد، آب وابن معاً، وانما شخصان هما أو أقنومان.

علماً بأن اختفاء المسيح باستمرار وراء من أرسله، قولاً وعملاً، هو محاولة جد خطيرة للاحتفاظ بوحدانية الفكر والمشيئة والعمل والقول بين الابن المرسل والآب المُرسِل، لأن هذا هو صميم جوهر اللاهوت، فلا ثنائية في الله قط.

١٢: ٤٦ أَنَا قَدْ جِئْتُ نُوراً إِلَى الْعَالَمِ حَتَّى كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِي لاَ يَمْكُثُ فِي الظُّلْمَةِ.

أن يعرف الإنسان حقيقة الله، فهذا هو النور. فالله نور، بمعنى «الحق المدرك الكامل»، وكل إدراك لله هو إدراك للحق، وإدراك جزئي للكمال، لأن الحق في الله لا يُدرك كماله، فهو فائق على كل الإدراكات. لذلك، من يستنير بمعرفة الله، يظل كلما يمتد في نوره يمتد في معرفته، ومعرفة كل شيء إلى مالانهاية.

والمسيح جاء ليستعلن ذات الله المخفية، ويستعلها في ذاته هو، أي في شخصه، لأنه ابن الله الوحيد الحامل لكل

حقيقة الله في ذاته؛ لذلك، فبتجسده دخل نور الله إلى العالم، فصار نور الله، أو حق الله، مُستعلناً ومُدركاً للإنسان. علماً بأن معرفة حقيقة الله في ذاته، وهي اكتشاف ذات الله كآب وابن، هي النور الحقيقي، أو الحق المنير الذي لا يمكن أخذه أو إدراكه كمعلومة أو كمعرفة قائمة بذاتها منفصلة عن ذات الله، هذا أمر مستحيل. فكل معرفة حقيقية عن الله بدون الاتصال الفعلي بالله، هي معرفة الظل، وليست معرفة النور. ولكن المسيح أعطانا معرفة الآب في ذاته هو: «الذي رآني فقد رأى الآب» و «أنا والآب واحد» (يو٩:١٤ و ٣٠:١٠)؛ وذلك بالإتصال والاتحاد الروحي بشخصه: «بنورك نرى نوراً» (مز٩:٣٦)، «من التصق بالرب فهو روح واحد» (١كو١٧:٦)

وهكذا جعل المسيح الطريق إلى الله عبر نفسه التي وضعها على المستوى الإفخارستي هكذا: «من يأكلني فهو يحيا بي» (يو٥٧:٦). فالمسيح هو نور العالم، وذلك لحساب الله، بمعنى أن حياته وكلماته هي الاستعلان الدائم لله. على أن الوصول النهائي إلى الله نبلغه، إن بلغنا مستوى الاتحاد بالمسيح: «لأن الله الذي قال أن يشرق نور من ظلمة، هو الذي أشرق في قلوبنا لإنارة معرفة مجد الله في وجه (شخص) يسوع المسيح.» (٢كو٦:٤)

ومعروف أن الله ليس فيه ظلمة البتة، بمعنى أن الله حق مطلق، والحق هو الضد للباطل، والباطل هو كل ما يتغير إلى زوال.

لذلك، فكل من يؤمن بالمسيح، أي يتحد به بالروح، يعيش بالحق، ولا يطيق حتى شبه الباطل، إنه يتغير إلى النور، ولا يتغير قط إلى الباطل: «وهذا هو الخبر الذي سمعناه منه، ونخبركم به، أن الله نور وليس فيه ظلمة البتة. إن قلنا إن لنا شركة معه، وسلكنا في الظلمة، نكذب، ولسنا نعمل الحق.» (ايو١ :٥-٦)

١٢ :٤٧ وَإِنْ سَمِعَ أَحَدٌ كلاَمِي وَلَمْ يُؤْمِنْ فَأَنَا لاَ أَدِينُهُ لأَنِّي لَمْ آتِ لأَدِينَ الْعَالَمَ بَلْ لأُخَلِّصَ الْعَالَمَ.

اتفق معظم علماء الكتاب المقدس، بل وعلماء المخطوطات، أن القراءة الصحيحة لهذه الآية هي كالأتي: «إن سمع أحد كلامي، ولم يحفظه (guard)»، لأن السمع لكلام المسيح جاء هنا إيجابياً، بمعنى أنه سماع وفهم. فالمفروض أن يأتي بعده إما حفظ أو اهمال، إما قبول أو رذل.

والأن، وبعد أن أوضح المسيح أنه جاء نوراً للعالم حتى كل من يؤمن به لا يمكث في الظلمة، يعود ويأتي باللوم على من لا يحفظ كلامه ، إذ هو كلام الله وهو روح وحياة؛ وهو، بحسب القديس بولس الرسول، السيف ذو الحدين، الذي يخترق ويميز أفكار القلب ونياته، حتى إلى مفارق النفس والروح، فهو ميزان القلوب والأفكار. فكلام السيح، بحد ذاته، لأنه نور، فهو يحمل قوة الكشف والإدانة؛ فكل من لا يحفظه، سيقع تحت كشف النور، لذلك فهو حتماً سيدين نفسه على ضوء الكلمة اللوغس التي سمعها ورفضها.

ولكن المسيح وعد أنه لن يدين، بمعنى يعاقب، من لا يحفظ كلامه، ولكن الكلام نفسه سيدينه، لأن عمله الأساسي بالنسبة للعالم هو عمل الخلاص والحياة والإنارة وليس الدينونة.

قد يلاحظ القارىء التقليدي الملم بعقيدة الكنيسة أن قانون الإيمان ينص مراحة وبوضوح على أن المسيح سيأتي في ملكه «ليدين الأحياء والأموات» وهنا يبدو أنه توجد مناقضة بينه وبين هذه الآية ومثيلاتها (يو١٥:٨، يو١٧:٣). ولكن لكي نزيل هذا التعارض، يلزمنا أن نعيد فهم كلمة «يدين»، فهي لا تعني الحكم بالعقاب أو إيقاع غير المؤمنين تحت التأديب أو التغريم، بل تعني مجرد التمييز أو التفريق، أي التمييز بين المستحق وغير المستحق للحياة الأبدية، وهذا يتم بفعل النور. فالمسيح بصفته نور العالم ونور الحياة، فقد جاء ليميز بين أبناء النور الذين قبلوا النور، وأبناء الظلمة الذين رفضوا النور. والمسيح نور وحياة معاً، لذلك يكرر المسيح باستمرار

أنه جاء إلى العالم كنور وحياة، لتخليص العالم من الظمة، وليس ليحكم على العالم. ولكن لأن المسيح نور، والعالم ظلمة، فبالضرورة ودون قصد منه، فضح الظلمة لأنه دان أي ميز النور عن الظلمة، والظلمة لم تطقه.

وهذا واضح جداً في فهم بولس الرسول لمعنى الدينونة بالنسبة للظلمة والنور: «لأنكم كنتم قبلاً ظلمة، وأما الآن فنور في الرب. اسلكوا كأولاد نور... ولا تشتركوا في أعمال الظلمة غير المثمرة، بل بالحري وبخوها... ولكن الكل إذا توبخ، يظهر بالنور، لأن كل ما أُظهر، فهو نور. لذلك يقول: استيقظ أيها النائم، وقم من الأموات، فيضيء لك المسيح.» (أف٥:٨-١٤)

المسيح هنا هو المضيء والمنير في مواضع العالم المظلمة، وهو بالتالي الموبخ والمميز بين أعمال الظلمة وأعمال النور، بين النائم الميت وبين اليقظ الحي.

هذا فو عمل المسيح، كديان العالم، وديان الأحياء والأموات. بمعنى أنه عندما يضيء على النائم والميت بالخطيئة، العائش في الظلمة، يدينه في الحال ويوبخه، فيبتدىء النائم في الخطية والميت بسمها يميز بين الظلمة التي يعيشها وبين نور المسيح، فيستيقظ ويضيء له المسيح فيحيا، لأن المسيح هو النورالمحيي: «فيه كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس».

فالمسيح جاء نوراً للعالم، وفي الحال صار نور المسيح (الكلام والتعليم) بمثابة دينونة للعالم، ليس على أساس القضاء السلبي والهدم، بل على أساس التمييز والتفريق الإيجابي بين ما هو للنور وما هو للظلمة:

+ «فقال يسوع لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم، حتى يبصر الذين لا يبصرون (محبو النور) ويعمى الذين يبصرون (مبغضوا النور)» (يو٩:٣٩)

وقد شرح القديس يوحنا معنى الدينونة وفعلها بوضوح في قوله: «وهذه هي الدينونة، أن النور قد جاء إلى العالم، وأحب الناس الظلمة أكثر من النور، لأن أعمالهم كانت شريرة. لأن كل من يعمل السيئات يبغض النور، ولا يأتي إلى النور لئلا توبخ أعماله. وأما من يفعل الحق فيقبل إلى النور، لكي تظهر أعماله أنها بالله معمولة.» (يو٣:١٩-٢١)

إذن، فالدينونة التي صارت بمجيء المسيح، كنور، ليست هدامة أو سلبية، بل إيجابية مطلقة وخالقة ومحيية، ولكنها مميزة تمييزاً حاداً وقاطعاً بين الحق والباطل، بين الخير والشر. وهكذا أصبح نور المسيح، أي «كلامه» دياناً للأحياء والأموات. فبالنسبة للأحياء، فالدينونة (أي النور، أي كلام المسيح) تستعلن استحقاقهم للحياة، وفي نفس الوقت تفرز الأموات الرافضين للمجيء إلى النور، فيدركون من أنفسهم أنهم غير مستحقين للحياة: «فسمع هذا الذين كانوا معه من الفريسيين، وقالوا له: ألعلنا نحن أيضاً عميان» (يو٩:٤١). فإن كانت الدينونة قائمة منذ الآن، فهي ستستعلن بصورة شاملة في اليوم الأخير.

١٢:٤٨-٥٠ مَنْ رَذَلَنِي وَلَمْ يَقْبَلْ كلاَمِي فَلَهُ مَنْ يَدِينُهُ. اَلْكَلاَمُ الَّذِي تَكَلَّمْتُ بِهِ هُوَ يَدِينُهُ فِي الْيَوْمِ الأَخِيرِ، لأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي لَكِنَّ الآبَ الَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ أَعْطَانِي وَصِيَّةً: مَاذَا أَقُولُ وَبِمَاذَا أَتَكَلَّمُ. وَأَنَا أَعْلَمُ أَنَّ وَصِيَّتَهُ هِيَ حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. فَمَا أَتَكَلَّمُ أَنَا بِهِ فَكَمَا قَالَ لِي الآبُ هَكَذَا أَتَكَلَّمُ»

رذل المسيح هو درجة أحط من الدرجة السابقة، فليس هنا عدم سماع لكلمة المسيح وحسب بل رفض وعدم قبول، وهذا ناتج من رذل شخص المسيح، حيث الرذل هنا يحمل معنى الإزدراء، وهي خطية عامدة متعمدة، تدخل تحت السلوك الأخلاقي الردىء الذي هو أشر من عدم الإيمان ومضاف إليه.

هنا كلمة المسيح بالمفرد «اللوغس» يفرزها المسيح لتقوم بحد ذاتها بالشهادة والإدانة ضد من لم يقبلها، وبالأكثر والأخطر ضد من يرذل أو يزدري بشخص المسيح. فكلمة المسيح بقدر ما تقدس، وتطهر، وتحيي، وتلد من جديد وتحرر؛ فهي لها جانبها الخطر، لأن الذي يُحيي بسلطان كلمته، هو بسلطان كلمته أيضاً يُميت؛ والكلمة التي لها قوة الخلاص لها بالضرورة قوة الدينونة.

وكلمة المسيح، التي هي الآن وعلى طول المدى تذكر وتبكت، في النهاية ستحكم حتماً وتدين «في اليوم الأخير». وهذا التحذير الأخير الذي يعلنه الرب لسامعيه، هو ما جاء بالنص في سفر التثنية كنبوة عن المسيح: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسميء أنا أطالبه.» (تث١٨:١٨-١٩)

ويلاحظ هنا، في نبوة موسى عن المسيح، أنه لا يدين، بل الآب هو الذي يدين: «أنا أطالبه». كما يلاحظ التكرار فيما يخص الكلام:

فأولاً: «الآب يضع كلامه في فمه»

وثانياً: «يتكلم بكل ما أوصيه به»

ثالثاً: الذي لا يسمع لكلامي»

رابعاً: «الذي يتكلم به باسمي».

ويكاد هذا التكرار يطابق التكرار الذي أعلنه المسيح:

أولاً: «إن سع أحد كلامي ولم يؤمن...».

ثانياً: «من رذلني ولم يقبل كلامي...».

ثالثاً: «الكلام الذي تكلمت به، هو يدينه في اليوم الأخير».

رابعاً: «لأني لم أتكلم من نفسي».

خامساً: «الآب الذي أرسلني أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم».

سادساً: «وأنا أعلم أن وصيته هي حياة أبدية».

سابعاً: «فما أتكلم أنا به، فكما قال لى الآب، هكذا أتكلم».

فئدح إنجبل الفد بس بوحنا

كلام المسيح	كلام موسى
«إن سمع أحد كلامي» ...	«يقيم لك الرب إلهك نبياً من وسطك من إخوتك مثلي له تسمعون.» (تث١٨:١٥)
«فما أتكلم أنا به، فكما قال لى الآب هكذا أتكلم».	«الإنسان الذي لا يسمع لكلامي (أنا) الذي يتكلم به (هو) باسمي»
«من رذلني ولم يقبل كلامي، فله من يدينه. الكلام الذي تكلمت به هو يدينه».	«أنا أطالبه» (تث١٨:١٩) كلام الله يدينه« (ممرا إلوهيم بحسب الترجوم النسخة الأرامية).
«الآب الذي أرسلني هو أعطاني وصية ماذا أقول وبماذا أتكلم».	«وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به» (تث١٨:١٨)
«وأنا أملم أعلم أن وصيته هى حياة أبدية»	«أنا أشهد عليكم بها اليوم، لكي توصوا بها أولادكم ... لأنها

	هي حياتكم.» (تث٣٢:٤٦-٤٧

كما يلاحظ الباحث أن الوارد في سفر التثنية (النسخة السبعينية) من جهة «أنا أطالب»، أي «أنا أنتقم»، أي الدينونة التي يضطلع بها الآب، جاءت في نسخة الترجوم (الأرامية) أن الذي سينتقم ليس «أنا» بل «كلام الله». «ممرا إلوهيم». وهو المطابق لما قاله المسيح في إنجيل يوحنا: «الكلام الذي تكلمت به (وهو كلام الآب) هو يدينه في اليوم الاخير». وما جاء في التوراة مطابقاً لما قاله المسيح يدعو للدهشة، لأن الله كرر مراراً أن كلام التوراة أي كلامه سيكون شاهداً عليهم (أي سيدينهم):

«خذوا كتاب التوراة هذا، وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم، ليكون هناك شاهدا عليكم، لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة. هوذا، وأنا بعد حي معكم، اليوم، قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحري بعد موتي.»(تث٣١:٢٦-٢٧)

كما يلاحظ الباحث أن الله كلم موسى بهذا الكلام وأوصاه أن يقول لبني اسرائيل قبل موته مباشرة وبعد أن أكمل كتابة التوراة: «وقال الرب لموسى هوذا أيامك قد قربت لكى تموت ... فالأن اكتبوا لأنفسكم هذا النشيد، وعلم بني إسرائيل إياه، ضعه في أفواههم. فعندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب إلى تمامها، أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً: خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم، فيكون هناك شاهداً عليكم.» (تث٣١:١٤-٢٦)

فإذا عدنا إلى كلام المسيح في إنجيل يوحنا بخصوص سماع كلامه وحفظه، وأنه «كلام الآب»، «ووصية الآب»، وأن الكلام الذي قاله هو شاهد عليهم وسيدينهم في اليوم الأخير، نجد التطابق الشديد، ليس في نص الكلام فقط، بل وفي المناسبة، لأن المسيح قال هذا في نهاية خدمته، وقبل أن يموت مباشرة، إذ نقرأ بعد هذا الكلام مباشرة: «أما يسووع قبل عيد الفصح، وهو عالم أن ساعته قد جاءت ...» (يو١٣:١)

من هذا يتضح، بأبلغ بيان، أن اختيار القديس يوحنا هذا الموضع المناسب لكلام المسيح في نهاية الأصحاح الثاني عشر، أي قبل موته مباشرة، جزء أساسي وهام جداً من خطة تنسيق الإنجيل، وليس كما طلع علينا النقاد أن هذا الكلام غير مناسب وليس له موضع في هذا الأصحاح، وعلى حد قولهم أنه إضافة غريبة من وضع كاتب آخر غير القديس يوحنا!! وأنه جاء غير مناسب في نهاية سرد حياة المسيح؛ ولكن ورود هذه الوصية على فم المسيح، في نهاية سرد القديس يوحنا لحياة المسيح، تجيء محكمة غاية في الحكمة والاحكام، ومتوازية تماماً مع ما جاء في نهاية سيرة موسى النبي وقبل موته مباشرة وعن المسيح أيضاً، وهذا بحسب رأيى إعجاز يضع صياغة إنجيل يوحنا على مستوى الإلهام الرفيع الذي يهز القلوب ويبهرها.

والذي يسترعي انتباهنا أيضاً هنا، في ختام خدمة المسيح، تكرار كلمة «الكلام» سبع مرات في ثلاث آيات، مع توضيح أن كلمة «الكلام» باللغة العربية في هذه الآية: «الكلام الذي تكلمت به، هو يدينه في اليوم الأخير»، لم تأت بصيغة الجمع بل بصيغة المفرد، الكلمة». اللوغس فالذي سيدين هو «الكلمة» اللوغس.

نستخلص من هذا أنه، كما بدأ إنجيل القديس يوحنا بـ «الكلمة» في البدء، انتهى بـ «الكلمة» في النهاية كديان. ولكي يضع ذلك أمام ذهن القارىء، نورد أول آية يفتتح بها القديس يوحنا إنجيله، وأخر كلمة ينهي بها سرد روايته «في البدء كان الكلمة» ...... «الكلام (الكلمة اللوغس) الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير.»

هذه هي أيضاً لفتة من اللفتات التي تجعلنا على قناعة أن وراء قلم القديس يوحنا روحاً يشهد ويملي ويبدع!

تم فى ٢٠١٧/٨/٦